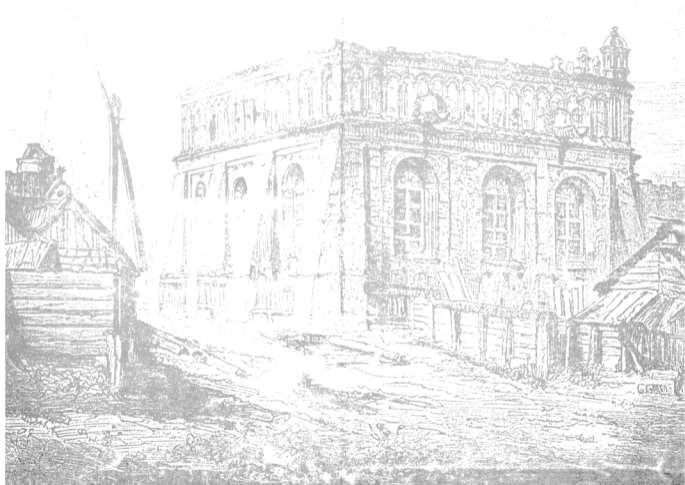


عبد الوهاب المسيري

موسوعة  
اليهود واليهودية والصهيونية

دار الشروق



### الغلاف الداخلي :

المعبد/ القلعة في لنتسك . كان أعضاء الجماعة اليهودية موضع كراهية الجماهير لأنهم كانوا يمثلون النبلاء الإقطاعيين البولنديين في أوكرانيا ، ويستغلون شعبيها لحساب هؤلاء النبلاء . ولهذا السبب كان عليهم أن يعيشوا في حالة تأهب دائم ، خوفاً من هجمات الفلاحين وفرسان القوزاق ، فاكتملت حياتهم طابعاً عسكرياً تبدى بشكل مشير في المعبد/ القلعة .

اليهود  
واليهودية  
والصهيونية

الطبعة الأولى

١٩٩٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٩٨/١٥٥٦٠

الترقيم الدولي: 1 - 0515 - 09 - 977 - ISBN:

© دار الشروق

أسسها محمد العتيم عام ١٩٦٨

٨٠٤.٨١٢٨ شارع سيديويه المصري - رابعة العنوية - مدينة نصر

الجانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

وت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

موسوعة  
اليهود واليهودية والصهيونية

نموذج تفسيري جديد

عبد الوهاب محمد المسييري

٤

دار الشروق



المجلد الرابع

# الجماعات اليهودية تواريخ

بائع يهودي مستجول في  
فرانكفورت في القرن الثامن  
عشر ، يبيع أدوات المطبخ.



يضم المجلد الثامن دليلاً لاستخدام الموسوعة («أليات الموسوعة») ومفتاحاً للمفاهيم والمصطلحات («تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية [مرتبة موضوعياً]»)، وثبتاً تاريخياً بأهم الأحداث الإنسانية وتلك التي تخص الجماعات اليهودية وفلسطين. كما يضم المجلد فهرساً موضوعياً شاملاً بكل المجلدات والأجزاء والأبواب والمداخل، وآخر ألفبائي عربي، وثالث ألفبائي إنجليزي.

## المحتويات

### الجزء الأول: تواريخ الجماعات اليهودية في العالم القديم

- ١٣ ..... إشكالية التاريخ اليهودي ..... ١
- تاريخ يهودي أم تواريخ جماعات يهودية ١٣٤ - التاريخ المقدس أو التوراتي (الإنجيلي) ١٦ - الرؤى اليهودية للتاريخ ١٨ - الرؤية المسيحية للتاريخ ٢٠ - انتفاضة شمبلانكي ٢٢ - الماضي والمستقبل اليهوديان ٢٤ - المصير اليهودي (الوحدة والتشابك) ٢٤ - القدر اليهودي ٢٦ - الاستمرار اليهودي ٢٦ - الاستمرار اليهودي: منظور إسلامي ٢٧ - البقاء اليهودي ٣١ - التمرکز اليهودي ٣٤ - الهيكل الأول والهيكل الثاني ٣٦ - الكومنولث اليهودي ٣٦ - التآريخ من خلال الكوارث ٣٧ - التسامح مع اليهود كمفهوم تحليلي ٣٨ - احتكار دور الضحية (من المستول ومن الضحية؟) ٤٠ - التفسير الحرفي ٤٠ - النصوصية ٤٣ - يوسفوس فلافيوس ٤٤ - نعمان كروكمال ٤٥ - هاينريش جرايتز ٤٦ - أنولد توينبي ٤٨ - سالو بارون ٤٨ - تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية ٤٩ - تاريخ اليهود الاقتصادي ٥٤ - التواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية ٥٥ - تاريخ الفكر اليهودي أو الحضارة (أو الثقافة) اليهودية ٥٥ - التواريخ الفكرية أو الحضارية (أو الثقافية) لأعضاء الجماعات اليهودية ٥٥
- ٥٦ ..... أشكال الإدارة الذاتية ..... ٢
- الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية ٥٦ - قيادات الجماعات اليهودية ٥٧ - رأس الجالوت (النفى) ٦١ - المجمع الكبير ٦٢ - البوليتيوما ٦٢ - الملك الروماني (دوكس) ٦٢ - الحاكم التابع (تتراخ) ٦٣ - رئيس القوم (تتراخ) ٦٣ - مجلس الشيوخ (جيروسيسيا) ٦٣ - الناصريين الأكبر ٦٣ - دار القضاء (بيت دين) ٦٥ - بيت دين ٦٥ - أمير اليهود (ناسي/ بطريك) ٦٥ - البطريك ٦٦ - الناصري ٦٦ - البطريك ٦٦ - النجيد (رئيس اليهود) ٦٦ - مملكة حدياب اليهودية ٦٦ - ذو نواس ومملكة حمير اليهودية ٦٧ - مجالس يهود وسط أوروبا (لاندزويدينشافت) ٦٨ - الماهاماد أو الماماد ٦٨ - القهال ٦٩ - مجلس البلاد الأربعة ٧٢ - سافانا اليهود في سورينام ٧٤ - بيروبيجان ٧٥ - روابط المهاجرين (لاندزمانشفتين) ٧٧ - حلقة العمال ٧٧ - جماعات الأصدقاء (حزواه) ٧٧ - القهال الحديث في أمريكا اللاتينية ٧٨ - النادي اليهودي في أمريكا اللاتينية ٧٨
- ٨٠ ..... مصر والإمبراطورية الحيثية ..... ٣
- العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم والمسألة العبرانية ٨٠ - المسألة العبرانية ٨٢ - مصر ٨٢ - الهكسوس ٨٥ - شيشنق (شاشنق - شيشاق) ٨٦ - الفتاتين (جزيرة القيلة) ٨٦ - الحيثيون ٨٧
- ٨٩ ..... الشعوب السامية: الآشوريون والبابليون ..... ٤
- الساميون (الشعوب السامية) ٨٩ - بلاد الرافدين (العراق) ٩٠ - بلاد ما بين النهرين ٩٠ - الهلال الخصيب ٩٠ - ميزوبوتاميا ٩٠ - الأكاديون ٩١ - آشور ٩١ - الآشوريون ٩١ - تيجلات بلاسر الثالث ٩٣ - سرجون الثاني ٩٣ - سنخرب ٩٣ - بابل ٩٤ - البابليون ٩٤ - الكلدانيون ٩٥ - نبوخذنصر ٩٥
- ٩٦ ..... الشعوب والأقوام السامية الأخرى ..... ٥
- المصريون ٩٦ - الأدميون ٩٧ - العمونيون ٩٧ - الموابيون ٩٧ - الأراميون ٩٨ - سوريا ١٠٠ - آرام دمشق ١٠٠ - آرام نهرام ١٠١ - بن هند ١٠١ - الكنعانيون ١٠١ - الأقوام الكنعانية السبعة ١٠٤ - العناقيون (بنو عناق) ١٠٤ - القنزيون ١٠٤ - الفرزيون ١٠٤ - القينيون (بنو القين) ١٠٥ - الرفاثيون ١٠٥ - الجرجاشيون ١٠٥ - الحويون ١٠٥ - الجبوسيون ١٠٥ - الإيظوريون ١٠٥ - الفينيقيون ١٠٦ - حيرام ١٠٦ - المديتيون ١٠٧ - العماليق ١٠٧ - الأنباط (النبط) ١٠٧ - الإسماعيليون ١٠٧ - الجبعونيون والنيثيم ١٠٨
- ١٠٩ ..... الحوريون والفلسطينيون ..... ٦
- الحوريون ١٠٩ - شعوب البحر ١٠٩ - الفلسطينيون ١١٠ - جليليات ١١١
- ١١٢ ..... العبرانيون ..... ٧
- العبرانيون: تاريخ ١١٢ - الحاييرو ١١٣ - عبيرو ١١٤ - جبل سيناء ١١٤ - شبه جزيرة سيناء ١١٤ - فلسطين ١١٤ - أرض كنعان ١١٥ - يهودا (مقاطعة) ١١٦ - يهود (مقاطعة) ١١٧ - جوديا ١١٧ - شيلوه ١١٧ - بيت إيل ١١٨ - شكيم ١١٨ - جلعاد ١١٨ - السامرة ١١٨ - الجليل ١١٩ - غزة ١٢٠ - طبرية ١٢٠ - الخليل ١٢١ - صفد ١٢١ - أريحا ١٢٢ - القدس:

- أسماءها ١٢٣ - القدس : مكانتها في الوجدان الديني اليهودي ١٢٤ - القدس : تاريخ ١٢٥ - القدس : تهويدها ١٢٧ - بيت المقدس ١٢٩ - أورشليم ١٢٩
- ١٣٠ .....  
عصر الآباء .....  
عصر الآباء (الرحلة البطيركية) ١٣٠ - إبراهيم ١٣١ - إسماعيل ١٣٣ - إسحق ١٣٣ - عيسو ١٣٤ - يعقوب ١٣٤ - يوسف ١٣٦ - هجرة العبرانيين من مصر (الخروج) ١٣٦ - الخروج (مفهوم ديني) ١٣٧ - موسى ١٣٨ - هارون ١٣٩
- ١٤٠ .....  
٩ التسلسل أو الغزو العبراني لكنعان .....  
التسلسل أو الغزو العبراني لكنعان ١٤٠ - يَسُوعُ بن نون ١٤١ - الأسباط ١٤٢ - القبائل العبرانية الإثنتا عشرة ١٤٢ - منسى (مَنَسَ) ١٤٣ - رؤوبين ١٤٣ - شمعون ١٤٣ - يسآكر ١٤٣ - زيولون ١٤٣ - بنيامين ١٤٣ - دان ١٤٣ - نفتالي ١٤٤ - جاد ١٤٤ - آشير ١٤٤ - إفرايم ١٤٤ - اللاويون ١٤٤ - لاوي ١٤٥ - يهوذا (قبيلة) ١٤٥
- ١٤٦ .....  
١٠ عصر القضاة .....  
القضاة ١٤٦ - القاضي (ديان) ١٤٧ - راعوث ١٤٧ - دبوراه (القرن الثاني عشر) ١٤٧ - جدعون ١٤٧ - شمشون ١٤٧
- ١٤٩ .....  
١١ عبادة يسرائيل .....  
عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية ١٤٩ - القربان ١٥١ - الكهنة والكهانة ١٥١ - كوهين ١٥٣ - الكاهن الأعظم ١٥٤ - بعل ١٥٥ - المحل الذهبي ١٥٥ - التراقيم (أصنام) ١٥٦ - الأفود (أصنام) ١٥٦ - خيمة الاجتماع (خيمة الشهادة) ١٥٧ - تابوت العهد (تابوت الشهادة/ سفينة العهد) ١٥٨
- ١٥٩ .....  
١٢ الهيكل .....  
الهيكل والعبادة القربانية المركزية ١٥٩ - الهيكل : مكانته في الوجدان اليهودي ١٥٩ - هيكل سليمان ١٦٠ - هيكل زوربايل ١٦٢ - هيكل هيرود (الهيكل الثاني) ١٦٣ - الهيكل الثاني ١٦٤ - الهيكل الثالث ١٦٤ - مراسم العبادة في الهيكل ١٦٤ - قدس الأقداس ١٦٥ - جبل الهيكل ١٦٦ - الحج ١٦٦ - هدم الهيكل ١٦٦ - خراب الهيكل ١٦٧ - نهب الهيكل ١٦٧ - إعادة بناء الهيكل ١٦٧ - حائط البكى ١٦٩ - الحائط الغربي ١٧٠ - الوزنة (شكيل) ١٧٠ - الصدقة (حالوقاه) ١٧١ - هيكل أرنياس ١٧١
- ١٧٣ .....  
١٣ المملكة العبرانية المتحدة .....  
الملوك والملكية ١٧٣ - شازول ١٧٤ - يوناثان ١٧٥ - المملكة العبرانية المتحدة : ظهورها وانقسامها ١٧٥ - داود ١٧٦ - سليمان ١٧٧
- ١٧٩ .....  
١٤ المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية .....  
المملكة الجنوبية (يهودا) ١٧٩ - للمملكة الشمالية (يسرائيل - إفرايم) ١٨١ - يُرُبَّعام الأول ١٨٤ - رُحْبَعام ١٨٤ - أسا ١٨٤ - عمري ١٨٤ - أخاب ١٨٥ - إيزابيل ١٨٥ - يهوشافاط ١٨٥ - أحزيا ١٨٥ - ياهو ١٨٥ - يوأش ١٨٥ - يوأش ١٨٦ - يُرُبَّعام الثاني ١٨٦ - عَزَبَا ١٨٦ - هوشع ١٨٦ - أحاز ١٨٦ - حزقيا ١٨٦ - مَنَسَى ١٨٦ - يوشيا ١٨٧ - يهوياقيم ١٨٧ - يهوياكين ١٨٧ - صدقيه ١٨٧
- ١٨٨ .....  
١٥ التهجير الآشوري والبابلي .....  
التهجير الآشوري والبابلي للبرانيين ١٨٨ - السبي الآشوري والبابلي (مفهوم ديني) ١٩٠ - النفي الآشوري والبابلي ١٩١ - يهوديت ١٩١ - قبائل يسرائيل العشر المفقودة ١٩١ - جداليا ١٩٢
- ١٩٣ .....  
١٦ الفرس .....  
الفرس (الميديون والأخمينيون والفرثيون والساسانيون) ١٩٣ - الميديون ١٩٣ - الأخمينيون ١٩٣ - الزرادشتية ١٩٥ - قورش الأكبر ١٩٦ - دارا (داريوس) الأول ١٩٧ - أرتخششتا الأول ١٩٧ - أحشويروش ١٩٧ - الفريثيون ١٩٧ - الساسانيون ١٩٨ - إستر ٢٠٠ - زوربايل ٢٠١ - نعميا ٢٠١ - عزرا ٢٠١ - شيشبازار ٢٠٢
- ٢٠٣ .....  
١٧ اليونانيون .....  
اليونانيون (البطالمة والسلوقيون) ٢٠٣ - البطالمة ٢٠٣ - الإسكندرية ٢٠٦ - السلوقيون ٢٠٦ - الهيلينية ٢٠٧ - الإسكندر المقدوني ٢٠٩ - أنطيوخس الرابع (إبيفانس) ٢٠٩ - الحشمونيون ٢٠٩ - الكابيون ٢١٠ - الأسرة الحاكمة نخشمونية ٢١٠ - يوحنا هيركانوس الأول ٢١١ - أرسطوبولوس الأول ٢١٢ - ألكسندر ياتابوس ٢١٢ - سالومي ألكسندرا ٢١٢ - هيركانوس الثاني ٢١٢ - أرسطوبولوس الثاني ٢١٣ - أنتيجونوس الثاني ٢١٣ - أرسطوبولوس الثالث ٢١٣

٢١٤ ..... ١٨ الرومان .....  
الرومان ٢١٤ - بومبي ٢١٧ - فسبسيان ٢١٧ - تيشوس ٢١٧ - تراجان ٢١٨ - هادريان ٢١٨ - الحاكم الروماني  
(بروكوراتور) ٢١٨ - الحاكم الروماني (برينكوس) ٢١٩ - تايبيريوس يوليوس الكسندر ٢١٩ - كبير الموظفين (أبارخ) ٢١٩ -  
القوم (إنوس) ٢١٩ - الضربية اليهودية (فيكوس جودايكوس) ٢١٩ - أنتيباتر ٢٢٠ - هيروود ٢٢٠ - أجرينيا الأول ٢٢١ -  
أجرينيا الثاني ٢٢١ - قسطنطين الأول ٢٢١

٢٢٢ ..... ١٩ التمردات اليهودية .....  
التمردات اليهودية ضد السلوقين والرومان ٢٢٢ - التمرد الحشموني ٢٢٤ - التمرد اليهودي الأول ضد الرومان ٢٢٥ -  
ماسادا ٢٢٧ - ماکايروس ٢٢٩ - هيروديام ٢٢٩ - التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان ٢٢٩ - بركوخيا ٢٣٠ - بيتار (قلعة) ٢٣٠

## الجزء الثاني: تواريخ الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي

٢٣٣ ..... ١ الشرق الأدنى القديم قبل وبعد انتشار الإسلام .....  
الشرق العربي قبل وبعد انتشار الإسلام ٢٣٣ - الذميون أو أهل الذمة في الإسلام ٢٣٧ - العالم الإسلامي منذ انتشار الإسلام  
حتى سقوط بغداد على يد المغول ٢٤٤

٢٤٩ ..... ٢ إسبانيا الإسلامية (الأندلس) .....  
إسبانيا الإسلامية (الأندلس) ٢٤٩ - الأندلس ٢٥٠ - العصر الذهبي لليهود ٢٥٠

٢٥١ ..... ٣ الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام .....  
الدولة العثمانية ٢٥١ - العثمانيون ٢٥٥ - المسألة الشرقية ورجل أوربا المريض ٢٥٦ - الامتيازات الأجنبية ٢٥٧ - حماية اليهود  
(والأقليات الأخرى) ٢٥٨ - فارس بعد انتشار الإسلام ٢٥٩ - فارس (إيران) منذ حكم الأسرة الصفوية حتى الوقت  
الحاضر ٢٦٠

٢٦٢ ..... ٤ العالم العربي منذ القرن التاسع عشر .....  
الجماعات اليهودية في العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر : تعداد ٢٦٢ - الجماعات اليهودية في العالم العربي :  
غط الهجرة ٢٦٤ - الجماعات اليهودية في العالم العربي : الانقسامات الدينية والعرقية ٢٦٥ - الجماعات اليهودية في العالم  
العربي : تحولها إلى عنصر استيطاني ٢٦٧ - عائلة قورقوس ٢٦٩ - عائلة فدوري ٢٧٠ - الجماعات اليهودية في العالم العربي :  
الانقسام الطبقي والتمايز الوظيفي ٢٧٠

## الجزء الثالث: تواريخ الجماعات اليهودية في بلدان العالم الغربي (خصوصاً في العصر الحديث)

٢٧٥ ..... ١ الإقطاع الغربي وجذور المسألة اليهودية .....  
جذور المسألة اليهودية ٢٧٥ - الإقطاع الغربي ٢٧٥ - العصور الوسطى (في الغرب) ٢٧٦ - الشعب الشاهد ٢٨٢ - الموانئ  
والزوايا والحماية ٢٨٣ - حق استبعاد اليهود ٢٨٥ - الجامع اللاترانية الكنسية ٢٨٦ - الموت الأسود ٢٨٦

٢٨٨ ..... ٢ الجيتو .....  
الجيتو : تاريخ ٢٨٨ - بنة الجيتو ٢٩١ - الجيتوية ٢٩٤ - حظر الاستيطان ٢٩٤ - القسّم اليهودي ٢٩٥ - علامة اليهود المميزة ٢٩٥ -  
احتكار السلع وأسرار الهنة ٢٩٦ - الوسيط (شتدلان) ٢٩٧ - الرئيس (برناس) ٢٩٧ - قوانين الترف ٢٩٧ - النظم القضائية  
وللحاكم ٢٩٨ - الطرد من حظيرة الدين والجماعة (حبريم) ٢٩٨ - الشتل ٢٩٨

٣٠١ ..... ٣ الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وإسبانيا المسيحية .....  
الإمبراطورية البيزنطية ٣٠١ - إسبانيا المسيحية ٣٠٢ - إسبانيا ٣٠٥ - البرتغال ٣٠٥ - فرديناند وإيزابيلا ٣٠٥ - محاكم  
الفتيش ٣٠٦

٣٠٧ ..... ٤ فرنسا .....  
فرنسا من العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية ٣٠٧ - فرنسا منذ الثورة ٣٠٨ - فرنسا في الوقت الحاضر ٣١١

٣١٧ ..... ٥ إنجلترا .....  
إنجلترا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة ٣١٧ - إنجلترا منذ عصر النهضة ٣١٨ - إنجلترا في الوقت الحاضر ٣٢١

- ٦ ألمانيا ..... ألمانيا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة ٣٢٥ - ألمانيا منذ عصر النهضة ٣٢٧ - أوتو فون بسمارك ٣٢٨
- ٧ النمسا وهولندا وإيطاليا ..... النمسا ٣٣١ - هولندا ٣٣٢ - إيطاليا ٣٣٤
- ٨ بولندا قبل التقسيم (ظهور يهود الديشية) ..... يهود الديشية أو يهود شرق أوروبا ٣٣٧ - يهود شرق أوروبا ٣٣٩ - بولندا حتى القرن السادس عشر ٣٣٩ - بولندا من القرن السادس عشر حتى انتفاضة القوزاق ٣٤٢ - النبلاء البولنديون (شلاخا) ٣٤٥ - بولندا من انتفاضة القوزاق إلى التقسيم ٣٤٧ - القوزاق ٣٥٠ - الهايدماك ٣٥٠ - المعبد/ القلعة ٣٥١
- ٩ بولندا من التقسيم حتى الوقت الحاضر ..... تقسيم بولندا ٣٥٣ - بوزنان ٣٥٣ - جوزيف بيلسودسكي ٣٥٤ - بولندا بعد التقسيم حتى الحرب العالمية الثانية ٣٥٥ - بولندا من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر ٣٥٩
- ١٠ روسيا القيصرية حتى عام ١٨٥٥ ..... روسيا من القرن التاسع حتى التقسيم الأول لبولندا ٣٦١ - روسيا من تقسيم بولندا حتى عام ١٨٥٥ ٣٦٣ - ألكسندر الأول ٣٦٦ - نيقولا الأول ٣٦٦ - منطفة الاستيطان اليهودية في روسيا ٣٦٦ - أوديسا ٣٦٩ - الترويس ٣٧٠
- ١١ روسيا القيصرية حتى اندلاع الثورة ..... روسيا من عام ١٨٥٥ حتى عام ١٨٨١ ٣٧٢ - تعثر التحديث في روسيا القيصرية ٣٧٣ - ألكسندر الثاني ٣٧٥ - روسيا من عام ١٨٨١ حتى الثورة البلشفية ٣٧٦ - ألكسندر الثالث ٣٧٨ - نيقولا الثاني ٣٧٨ - قوانين مايو ٣٧٩
- ١٢ الاتحاد السوفيتي ..... الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧ حتى الحرب العالمية الثانية ٣٨١ - الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر ٣٨٥
- ١٣ يهود الديشية في أوكرانيا وجاليسيا ورومانيا والمجر ..... أوكرانيا ٣٩١ - سيمون بتليورا ٣٩٣ - ليتوانيا ٣٩٣ - جاليسيا ٣٩٤ - رومانيا ٣٩٦ - المجر ٤٠١
- ١٤ أمريكا اللاتينية ..... تعداد الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ومعالمها السكانية الأساسية ٤٠٦ - هويات أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ٤١٣ - وظائف أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ٤١٦ - توطين أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين ٤١٩ - علاقة أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية بالنخب الحاكمة ٤٢٠ - الجماعات اليهودية في كل من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة: منظور مقارن ٤٢١ - الأرجنتين ٤٢٦ - البرازيل ٤٢٦
- ١٥ جنوب أفريقيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا ..... جنوب أفريقيا ٤٢٧ - كندا ٤٣٢ - أستراليا ونيوزيلندا ٤٣٣
- ١٦ الولايات المتحدة حتى منتصف القرن التاسع عشر ..... الولايات المتحدة: مقدمة عامة ٤٣٥ - المرحلة الكولونيالية ٤٣٧ - المرحلة الألمانية الأولى ٤٣٨ - المرحلة الألمانية الثانية ٤٣٩
- ١٧ الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٧١ ..... بداية المرحلة الديشية ٤٤١ - نهاية المرحلة الديشية وظهور اليهود الأمريكيين ٤٤٤ - اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود ٤٤٦
- ١٨ اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود في الوقت الحاضر ..... تعداد الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ومعالمها السكانية الأساسية ٤٥٠ - وظائف اليهود الجدد ٤٥٣ - الاندماج الديني والثقافي (أمركة اليهود الجدد) ٤٥٣ - اليهود الجدد والصهيونية ٤٥٤ - علاقة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بالأمريكيين السود ٤٥٧ - تنظيمات وجمعيات الجماعة اليهودية ٤٦٠

الجزء الأول

تواريخ الجماعات اليهودية في العالم القديم



## ١

## إشكالية التاريخ اليهودي

تاريخ يهودي أم تواريخ جماعات يهودية ؟ - التاريخ المقدَّس أو التوراتي (الإنجيلي) - الرؤى اليهودية للتاريخ - الرؤى الصهيونية للتاريخ - انتفاضة شميتسكي - للاضي والمستقبل اليهودان - المصير اليهودي (الوحدة والتشابك) - القَدْر اليهودي - الاستمرار اليهودي - الاستمرار اليهودي : منظور إسلامي - البقاء اليهودي - التمرکز اليهودي - الهيكل الأول والهيكل الثاني - الكومنولث اليهودي - التأريخ من خلال الكوارث - التسامح مع اليهود كمفهوم تحليلي - احتكار دور الضحية (من المسئول ومن الضحية؟) - التفسير الحرفي - الخصوصية - يوسفوس - كروكمال - جرايتز - تويني - بارون - تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية - تاريخ اليهود الاقتصادي - التواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية - تاريخ الفكر اليهودي أو الحضارة (أو الثقافة) اليهودية - التواريخ الفكرية أو الحضارية (أو الثقافية) لأعضاء الجماعات اليهودية

## تاريخ يهودي أم تواريخ جماعات يهودية ؟

Jewish History or Histories of the Jewish Communities?

عميقة . ومن هنا ، فإن كتاب اليهود المقدَّس (العهد القديم) هو أيضاً سجل تاريخيهم ، حيث يتم تقديم العبرانيين وهم يخرجون من مصر تهديهم ذراع الإله القوية وتنقذهم من الغرق ، ثم يلحق بهم العذاب في الصحراء ولكنه يسد خطاهم في غزوهم لأرض كنعان . ويعقد الإله معهم المواثيق ، ويقبل منهم أفعالهم كافة الأخلاقية منها وغير الأخلاقية . ولهذا ، أصبح تاريخ اليهودية هو نفسه تاريخ اليهود . وكما ورثت المسيحية العهد القديم وجعلت منه أحد كتبها المقدَّسة ، كذلك ورثت الحضارة الغربية هذه الرؤية . ولذا ، فإن الإنسان الغربي يعتبر اليهود ورثة العبرانيين القدماء ؛ ويراهم في عزلتهم لا يزالون مستمرين في مسيرتهم في الصحراء ، نحو كنعان عبر التاريخ الإنساني بأسره وفي كل أرجاء العالم . وقد تبدى ذلك في المفهوم الكاثوليكي للشعب الشاهد الذي يقف على حافة التاريخ ، شاهداً على عظمة الكنيسة . كما تبدى في المفاهيم الاسترجاعية البروتستانتية التي تجعل من عودة اليهود إلى صهيون في نهاية التاريخ شرطاً لعملية الخلاص وشرطاً لتأسيس الفردوس الأرضي . وقد تمت علمنة هذا المفهوم في العصر الحديث ، فتحول اليهود من شعب يهودي مقدَّس له تاريخ يهودي مقدَّس إلى الشعب اليهودي المستقل صاحب التاريخ اليهودي الفريد . وهذه كلها مفاهيم تقترض عزلة اليهود ، كما تقترض أن لهم وجوداً وتاريخاً مستقلين .

وما دعم إحساس الإنسان الغربي بوجود تاريخ يهودي مستقل ، اضطلاح اليهود بدور الجماعة الوظيفية (المالية أو الاستيطانية) في المجتمعات الغربية . ومثل هذه الجماعات يتم عزلها عن بقية المجتمع حتى تبدو وكأنها خاضعة لأليات وحركات

«التاريخ اليهودي» مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية والغربية ، وفي الكتابات العربية المتأثرة بها . وهو مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تواريخ الشعوب والأمم كافة ، كما يفترض أن هذا التاريخ له مراحل تاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص ، بل وقوانينه الخاصة . وهو تاريخ يضم اليهود وحدهم ، يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم ، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة . ومفهوم التاريخ اليهودي مفهوم محوري تنفرد منه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودي الأخرى ومعظم النماذج التي تُستخدَم لرصد وتفسير سلوك وواقع أعضاء الجماعات اليهودية .

يضرِب المصطلح بجزءه في التشكيل الحضاري الغربي ، سواء في جانبه الديني أو في جانبه الاقتصادي . لقد جاء في العهد القديم أن الخالق «اختار الشعب» . والاختيار يعني درجة من درجات الحلولية الكمونية الواحدة (إذ لماذا يختار الإله شعباً دون الشعوب الأخرى؟) . وقد تزايد الحلول والكمون الإلهي في الأمة إلى أن وصل الحلول إلى مرحلة وحدة الوجود فتوحَّد الإله والشعب وتاريخه وأرضه وأصبح هناك جوهر واحد للامة والإله ، لا يوجد الواحد منهما دون الآخر ، ويتم على هذا النحو زوال ثنائية الخالق والمخلوق والإله والشعب (المطلق والنسبي ، والأزلي والزمني والمقدَّس والتاريخي) . ويصير تاريخ هذا الشعب محط عناية الإله ، بل يصبح تسيماً لفكرة مقدَّسة ومطلقة ، فيتداخل المطلق والنسبي والمقدَّس والمُدَّس ، وتصبح أية حادثة تقع لليهود ذات دلالة دينية



المتحدة مكونات البناء التاريخي الغربي والأمريكي . غير أن نموذج التاريخ اليهودي ، بما يفترضه من وحدة وتجانس ، يجعل المؤرخ يهمل كل عناصر عدم الوحدة وعدم التجانس التي تُشكّل الجانب الأكبر في مكونات واقع أعضاء الجماعات اليهودية ، وهي عناصر تصور أنها أهم من عناصر الوحدة والتجانس ، ولها قيمة تفسيرية ورصدية أعلى .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا من صناع القرار في عصور التاريخ المختلفة ، وخصوصاً في الغرب . فقد كانوا يقتربون أحياناً من أعضاء النخبة الحاكمة ومؤسسات صنع القرار باعتبارهم جماعة وظيفية ، وكانوا يتعدون عنها أحياناً أخرى . ولكن القرار ظل دائماً في يد هذه النخبة . وبما له دلالة أن أول تاريخ لأعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث ، والذي كتبه إسحق ماركوس بوست (١٧٩٣ - ١٨٦٠) ، بدأ بالعبارة التالية : « هل يمكن أن يكتب تاريخ مستقل للعبيد ؟ » . والواقع أن الردّ بالنفي إن أراد المؤرخ أن ينظر إلى تاريخ العبيد خارج الإطار السياسي والاجتماعي والحضاري للمجتمعات التي يوجدون فيها ، ذلك أن تاريخ العبيد ليس تاريخاً مستقلاً بل هو جزء من تاريخ المجتمع ككل . وما يهمننا هنا هو تأكيد أن الأحداث الكبرى التي تقع للجماعات اليهودية تكمن جذورها وأسبابها في مجتمع الأغلبية . ويمكن القول بأن نموذج التاريخ اليهودي المستقل بوجهه رؤية المؤرخ توجيهاً خاطئاً ، إذ يذهب هذا النموذج إلى أن الأحداث التاريخية الكبرى التي قررت مصير الجماعات اليهودية (كظهور الدولة الآشورية أو ظهور الإمبريالية الغربية) تقع خارج نطاق هذا التاريخ اليهودي . وتصبح هذه الأحداث ، رغم مركزيتها وقدرتها التفسيرية ، أحداثاً هامشية ذات أهمية ثانوية .

وإذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودي مستقل ، فما أحداث هذا التاريخ ؟ وهل تأتي الثورة الصناعية ، مثلاً ، ضمن أحداث هذا التاريخ ، أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي ؟ والواقع أننا نجد أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي ترك أعقق الأثر في يهود العالم الغربي وأحدث انقلاباً في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر ، أي بعد وقوعه بفترة وجيزة . لكننا نجد أيضاً أن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم أقلية توجّد داخل التشكيل الحضاري الغربي . ومن هنا ، فإننا نجد أن هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية للعالم قد حدث أيضاً لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية . وفي الوقت نفسه ، لم يتأثر يهود العالم العربي

تاريخية مستقلة ، مع أنها في واقع الأمر جزء لا يتجزأ من المجتمع ، وخاضعة للآليات والحرَكيات التاريخية نفسها التي يخضع لها هذا المجتمع ، تصعد بصعوده وتهبط بهبوطه رغم استقلالها النسبي . وقد ظل دور الجماعة الوظيفية حكراً تقريباً على الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وذلك على عكس الحضارات الشرقية حيث اضطلعت جماعات إثنية ودينية مختلفة ، من بينها اليهود ، بدور الجماعة الوظيفية .

وغني عن الذكر أن مفهوم التاريخ اليهودي مفهوم محوري في الفكر الغربي وفي إدراك الإنسان الغربي لليهود . لكن المقدره التفسيرية لهذا المفهوم ضعيفة إلى أقصى حد ، فهو مفهوم اختزالي بسيط إلى أقصى حد . والإيمان بنموذج التاريخ اليهودي المستقل له نتائج السلبية لا من الناحية المعرفية وحسب ، وإنما من الناحية الإنسانية والأخلاقية كذلك .

أما من الناحية المعرفية ، فإننا نجد أن رصد واقع الجماعات اليهودية ، وتفسيره من خلال نموذج التاريخ اليهودي يُبسّط هذا الواقع ويختزله ويجعله تافهاً ، كما أنه يُضخّم جوانب ثانوية منه ويتجاهل عناصر أساسية فيه . إن استقلالية أي بناء تاريخي تعني استقلالية أبنية الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك استقلالية الأبنية الحضارية والرمزية المرتبطة به ، كما تعني تجانسها النسبي في كل مرحلة من مراحلها . وكذلك فإن استقلالية أي بناء تاريخي تعني أن هذا البناء يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجها ولا يمكن فهم سلوكها إلا في إطار تفاعلها معه . ولكن من الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم كانت تُسمّ بعلم التجانس وعدم الترابط وبأن أعضاءها كانوا يوجدون في مجتمعات مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وأبنية حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان . فيهود اليمن ، في القرن التاسع عشر ، كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي . أما يهود الولايات المتحدة في الفترة نفسها ، فكانوا يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي . فإذا بحث المرء في العنصر المشترك بين يهود اليمن ويهود الولايات المتحدة ، لوجد أنه هو الدين اليهودي وحسب ، وهو عنصر واحد ضمن عناصر عديدة تحمّد سلوك اليهودي . بل إن الأنساق الدينية اليهودية ذاتها ، بسبب تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي وبسبب غياب سلطة مركزية دينية ، تختلف اختلافاً حاداً وجوهرياً من حضارة إلى أخرى ، ومن هنا نشأت قضية الهوية اليهودية . ولكل هذا ، نجد أن سلوك اليهودي اليمني تحمّكه عناصر البناء التاريخي العربي الذي يعيش فيه ، تماماً كما تحمك سلوك يهود الولايات

واقع يهودي عام واحد يمكن فرض أي معنى عليه . ولذا ، فإن وقائع اضطهاد اليهود (كاضطهاد يهود فلسطين على يد الفرنجة أو اضطهاد يهود روسيا في أواخر القرن التاسع عشر بسبب التحديث المتعثر) بدلاً من أن تُدرَس من حيث هي وقائع يمكن تفسير كل منها في سياقها التاريخي المختلف ، تصبح تعبيراً عن غربة شعب نُقي من بلده ، ويصبح الاستيطان في فلسطين وطرده الفلسطينيين من بلادهم ليس جزءاً من التشكيل الاستعماري الغربي وإنما النهاية السعيدة لتجوال شعب بلا أرض - شعب افتراضي تمحوُّ بسبب اضطهاد الجنس البشري له في كل زمان ومكان - وتصبح الدولة الصهيونية الحل الختمي والوحيد لهذه المسألة .

وإذا ما تركنا الجانب المغربي ، سواء من ناحية الرصد أو من ناحية التفسير ، وانتقلنا إلى الجانب الأخلاقي والإنساني ، فإننا سنكتشف أن نموذج التاريخ اليهودي المستقل يفترض وجود جوهر يهودي كامن يشكل ما يشبه النمط الفكري الجاهز لكل الأشكال التاريخية التي عاش في إطارها أعضاء الجماعات . حيث يتجاوز هذا الجوهر كل التحولات ويصبغها بصبغته ويتحدى جميع القوانين التاريخية المعروفة ويتخذ اسم «الماضي اليهودي» أو «الاستمرار اليهودي» أو «روح اليهودية» أو «الشعب اليهودي الأزلي» أو «المستقبل اليهودي» ، وهذه جميعاً مطلقات علمانية تحمل محل الإله الذي يوجه التاريخ اليهودي حسب الرؤية الدينية الحلولية . ومن هنا ، فإننا نذهب إلى القول بأن مفهوم التاريخ اليهودي (في إطاره العلماني العلمي) تعبير عن حلولية بدون إله حيث يصبح مسار هذا التاريخ هو التحقق التدريجي لهذا الجوهر الكامن وللروح اليهودية الدينية القومية . ويتم تفسير كل شيء على هذا الأساس ، وتصبح مهمة المؤرخ هي البحث عن الجوهر اليهودي والروح اليهودية وكل ما يعبر عنهما ، متجاهلاً كل التفاصيل الأخرى . كل هذا يجعل التاريخ اليهودي أمراً لا علاقة له بالواقع الإنساني الدنيوي : تاريخ يشبه البناء المصمت المتعلق على نفسه ويعبر عن نمط أو أنماط محددة متكررة لا تتعدى حدود تجلّي الجوهر اليهودي المطلق . وهذا النمط يأخذ الشكل التالي : منفى ثم عودة ؛ المنفى هو الحدث الذي يقع لليهود ، والعودة هي الفعل الذي يأتون به ، وهذا التاريخ يبدأ عادةً بالعبودية في مصر ثم يتم التغلغل في كنعان والاستيلاء عليها وتأسيس المملكة العبرانية . ثم يتكرر النمط بالتهجير الآشوري والبابلي ، تليه العودة من بابل حسب مرسوم قورش (الذي يؤسس الهيكل) ، ثم تأسيس الدولة الحشمونية . ثم يتكرر النمط مرة ثالثة بهدم الهيكل على يد تيتوس وشتات اليهود وعجزهم بسبب عدم

بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها وفي الوقت نفسه ، ذلك لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عن هذه الثورة الصناعية في بداية الأمر . لكن هذا التشكيل بدأ بعد حوالي قرن من الزمان يتأثر بالثورة الصناعية ، وبالتالي فقد بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقليتها . أما يهود إثيوبيا ، مثلاً ، فلم يتأثروا إلا بشكل سطحي ، ذلك لأن التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية التي كانوا يعيشون في إطارها ظلت بمنأى عن تلك التحولات الكبرى التي ترتبت على أحداث الثورة الصناعية ، بل بقيت هذه التشكيلة ذات طابع قبلي حتى وقتنا الحاضر . وبعبارة أخرى فإن الآثار المترتبة للثورة الصناعية في أعضاء الجماعات اليهودية هي مسألة تتعلق بآثر الثورة الصناعية في كل جماعة يهودية على حدة ، وترتبط أشد الارتباط بآثار هذه الثورة في المجتمعات التي تعيش في كنفها هذه الجماعات اليهودية .

وعلى هذا ، فإن الإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودي . ولو أن الباحث جعل هذا التاريخ اليهودي مرجعيته لعجز حتماً عن تفسير كثير من عناصر التفاوت وعدم التجانس في هذا التاريخ ، ولاضطر إلى ليّ عتق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها وعدم تأثر بعض يهود إثيوبيا بها حتى الآن أو اضطر إلى تفسير أحداث هذا التاريخ اليهودي الوهمي من خلال عناصر ثانوية أو وهمية ، مثل رغبات اليهود وتطلعاتهم وتماسكهم ومدى اضطهاد الآخرين لهم أو عطفهم عليهم . وإذا تأملنا الدراسات التي تفترض استقلالية التاريخ اليهودي فإننا نجد عبارات مثل : « وكان قورش الأخميني متسامحاً مع اليهود فأعادهم إلى بلادهم » أو « وتمت عدة هجمات ومذابح ضد اليهود عام ١٨٨٢ في روسيا القيصرية » أو « وبدأ اليهود يفكرون في تقليد الشعوب الأخرى لتصبح لهم حركتهم القومية ووطنهم القومي في فلسطين » ، وكل هذه العبارات نفترض أن الأحداث التي تقع لليهود تُفسَّر بالعودة إلى تاريخهم المستقل الافتراضي ، وإلى رغباتهم وأحلامهم التي يبررها هذا التاريخ الافتراضي . ويتم تجاهل البناء الإداري للإمبراطورية الفارسية التي اعتمدت على الشعوب الموالية لها ، أو أزمة الرأسمالية أو النظام القيصري في عام ١٨٨٢ ، أو ظهور الإمبريالية الغربية التي كانت تحمل مشاكل أوروبا عن طريق تصدير هذه المشاكل إلى الشرق ، وبالتالي حاولت حل مسألتها اليهودية عن طريق إرسال اليهود إلى الشرق . لكن عزل التجارب التاريخية للجماعات اليهودية عن سياقها التاريخي الإنساني العام يحولها ، في الحقيقة ، إلى أجزاء من

الجماعات اليهودية إلى بنى تاريخية متعددة حيث يتسنى للدارس فهم سلوك أعضاء الجماعات اليهودية فهما مركباً ، أي باعتبارهم أشخاصاً حقيقيين ويشراً يتفاعلون مع العناصر التاريخية المتشابهة المختلفة التي تمخّذ سلوكهم .

ومن الحقائق التي تستوجب الذكر أن عدد المؤرخين من اليهود كان دائماً صغيراً محدوداً . وحينما تفاعل أعضاء الجماعة اليهودية مع الحضارة العربية الإسلامية ، فإنهم تعلموا الكثير منها ولكنهم لم يتعلموا كتابة التاريخ . ولهذا ، ظل إسهام المبدعين منهم مقصوراً على الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية .

ونحن نرى أن نموذج التاريخ اليهودي هو النموذج الأساسي الكامن في موقف الحضارة الغربية تجاه « اليهود » أي الجماعات اليهودية . فالزرعة الصهيونية في الحضارة الغربية ، والتي تمنح اليهود مركزية وقداسة ، نابعة من افتراض وجود تاريخ يهودي مستقل يختلف في الأذهان بالتاريخ المقدّس . كما أن معاداة اليهود ، هي الأخرى ، تعبير عن أن اليهودي شخص له سماته الفريدة والمحددة وطبيعته الخاصة التابعة من انتمائه لتاريخ يهودي مستقل . ونقطة الانطلاق بالنسبة إلى كل من الصهيونية والنازية (في موقفهما من اليهود) هي افتراض وجود شعب يهودي له شخصية مستقلة وتاريخ مستقل . وفي تصوّر كل من بلفورد هتلر ، فإن المسألة اليهودية ناجمة عن وجود هذا الكيان اليهودي العضوي المستقل داخل الحضارة الغربية ، يدمرها وتدمره . ولذا ، لا بد من التخلص منه إما عن طريق إرساله إلى فلسطين أو عن طريق إلقائه في أفران الغاز ، فاليهودي يجب أن يخرج من الحضارة الغربية .

### التاريخ المقدّس (أو التوراتي) (الإنجيلي)

Sacred or Biblical History

«التاريخ المقدّس أو التوراتي (الإنجيلي)» هو القصص التاريخي الذي يرد في العهد القديم . وتاريخ العبرانيين ، كما ورد في العهد القديم ، يختلف عن التاريخ الفعلي ويتناقض معه أحياناً . ويصلح هذا التاريخ أحياناً مصدراً للمعلومات والفرضيات ، ولكنه أحياناً أخرى لا يمكن دراسته إلا باعتباره جزءاً من الرؤية الدينية اليهودية وحسب . وهذا التاريخ المقدّس هو جزء من العقيدة اليهودية تعبير عن الطبقة الحولوية الواحدة داخل التركيب الجيولوجي اليهودي . وفي تصوّرنا ، فإن هذا التاريخ يختلف تماماً عن ممارسات أعضاء الجماعة اليهودية بتجارهم التاريخية . فالنسق الديني اليهودي ، بما يجسده من قيم مطلقة ومثاليات ، يختلف عن

المشاركة في السلطة وغياب السيادة . وتصل حالة النفي إلى قمتهما في الإبادة النازية (الحدث الأكبر) ، ثم تبدأ العودة من خلال تأسيس الحركة الصهيونية ثم تأسيس الدولة الصهيونية (الحدث الأكبر) . ويولي ذلك تجميع المنفيين من كل البلاد ، وهذا النمط يفترض دائماً نهاية (مسيحانية) للتاريخ تتوقف عندها الدورات ويختفي الجدل ويظهر الفردوس الأرضي .

ومثل هذا التصور للتاريخ ، بأغماط الهندسية المتكررة الرتيبة ونهايته القاطعة ، لا يتنافى فقط مع الروح العلمية ، وإنما يتنافى مع الروح الإنسانية كذلك . فهو يُسقط عن اليهودي صفة الإنسانية بإنكار تفاعلهم مع البيئة التي حوله ، يتأثر بها ويؤثر فيها ، شأنه في هذا شأن كل أعضاء الجماعات الإثنية والدينية الأخرى . فالقوات الأشورية والبابلية لم تكسح الدولتين العبرانيتين وحسب ، بل اكتسحت معظم الدويلات الآرامية وغيرها . كما أن أزمة النظام القيصري لم تسبب في مذابح لليهود وحسب ، بل كانت لها آثار سلبية عميقة في قطاعات كثيرة من البورجوازية الروسية وفي جماهير الشعوب الإسلامية وغيرها . فنموذج التاريخ اليهودي يُسقط إنسانية اليهودي ، ويخلق عليه هالة أسطورية لا تاريخية إذ تضعه خارج التاريخ الإنساني الفعلي .

لكل ما تقدّم ، استبعدنا تماماً مصطلحات مثل : «التاريخ اليهودي» و«الماضي اليهودي» و«القدّر اليهودي» و«المصير اليهودي» ، وكذلك سائر المصطلحات التي تفترض وحدة التاريخ اليهودي بشكل مباشر مثل «الاستمرار اليهودي» . كما استبعدنا كل المصطلحات التي تفترض هذه الوحدة بشكل غير مباشر مثل «العبرية اليهودية» و«الجوهر اليهودي» . واستبدلنا بكل هذا مصطلحات تفترض التنوع وعدم التجانس مثل «الجماعات اليهودية» ، وهو مصطلح يفترض أن الجماعات اليهودية خاضعة للإكليات التاريخية التي يخضع لها أعضاء المجتمعات التي يعيش في كنفها اليهود . وقد فصلنا تماماً بين التاريخ المقدّس الذي ورد في العهد القديم والأحداث التاريخية التي وقعت للعبرانيين وللجماعات اليهودية من بعدهم ، وفصلنا بين تاريخ اليهودية وتواريخ الجماعات اليهودية ، ومن ثم فإننا لا نستخدم مصطلحات مثل «مرحلة الهيكل الأول» أو «هدم الهيكل» أو «الكومنولث الأول» أو «العصر التلمودي» إلا في سياق الحديث عن التطورات الدينية ، إذ أن كل هذه العبارات تشير إلى أحداث ذات دلالة دينية بالنسبة إلى الجماعات اليهودية ولكنها لا تصلح لتفسير المسار العام للتاريخ الديني والإنساني في كليته . ونحن ، بهذا ، نؤكد انتماء أعضاء

الممارسات الدينية والدينيوية للعبرانيين واليهود ، وهو ما يسجله العهد القديم . وفي هذا ، لا يختلف أعضاء الجماعات اليهودية عن كل الجماعات والشعوب الإنسانية الأخرى . فتاريخ الهند والأقوام الهندية ليس تاريخ الهندوكسية ، وتاريخ الصين ليس تاريخ الكونفوشيوسية ، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى لا يمكن تفسيره بكماله وبكل تركيبتها بالعودة إلى النسق الديني المسيحي السائد في ذلك الوقت ، رغم فعالية هذا النسق في صياغة وعي الناس ووجدانهم وتوجيه بعض جوانب سلوكهم .

إن تاريخ المسيحية ، ديناً وفلسفة وفكراً ، لا يتطابق وتاريخ المسيحيين بحيث يكونان شيئاً واحداً (وذلك برغم ارتباط أحدهما بالآخر) . وربما يتجلى اختلاف تاريخ المسيحية عن تاريخ المسيحيين في حملات الفرنجة حيث قام الغرب الأوربي بالهجوم على الشرق باسم المسيحية فنهب القسطنطينية عاصمة المسيحية الأرثوذكسية ثم قام بالهجوم على فلسطين دون أن يُفَرَّق (في معظم الأحيان) بين مسلم ومسيحي ويهودي .

وكذلك تاريخ اليهودية ، سواء أكانت اليهودية عقيدة أم كانت فكراً أم شيئاً وانقسامات ، يختلف عن التجارب التاريخية التي خاضتها الجماعات اليهودية ، برغم الارتباط الوثيق بينهما في بعض الأحيان . فتاريخ مملكة الحزور ، وتحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية وسيطة في أوروبا في العصور الوسطى ، وتحالف الصهيونية مع الاستعمار ثم مع النازية ، هذه كلها ليست جزءاً من تاريخ اليهودية وإنما تنتمي إلى تواريخ الجماعات اليهودية . ويظل تاريخ اليهودية هو تاريخ العقيدة الدينية . ونحن حين نقر هذا التمييز بين التاريخين ، فإننا نتبنى بذلك نموذجاً أكثر تفسيرية إذ يظل التاريخ نتاج تفاعل عدة عناصر من بينها الدين .

والتاريخ التوراتي المقدس الذي ورد في العهد القديم هو تاريخ ذو مغزى أخلاقي سُتخلص منه العبر . بل إن العبرة قد تكون ، في كثير من الأحيان ، أهم من الحدث نفسه . وهو تاريخ يتبع نسقاً دينياً محدداً ؛ يختار من الحدث ما يخدم الهدف ، ويلجأ إلى الصور المجازية والرموز والمبالغة ليوصل الحكمة إلى المتلقي . وبالتالي ، كثيراً ما تتناقض وقائع هذا التاريخ ووقائع التاريخ الدنيوي وإن كانت تتفق معها أحياناً . ولكن كثيراً من القصص التي وردت في العهد القديم ، والتي تدعى لنفسها صفة التاريخية ، لا يمكن إثباتها بالعودة إلى التاريخ الدنيوي . كما أن بعض المدونات الأشورية والبابلية والمصرية تعطينا أحياناً صورة مختلفة تماماً . فوقائع هجرة العبرانيين من مصر ، كما وردت في سفر الخروج ، تختلف في كثير من

النواحي عن الشذرات المتناثرة التي وصلتنا عن هذا الخروج ، إن لم تكن متناقضة معها . كما يأتي ذكر سليمان في التاريخ التوراتي المقدس كملك عظيم مهيب ، وأن المملكة المتحدة قد ازدهرت تحت حكمه حقاً . ولكننا نعرف أيضاً أن هذا الازدهار كان مؤقتاً وناجحاً عن الفراغ السياسي المؤقت في الشرق الأدنى القديم ، كما نعرف أن مملكته لم تكن تختلف كثيراً عن الدويلات الأخرى التي ازدهرت في تلك المنطقة بسبب غياب الإمبراطوريات العظمى التي اكتسحتها فيما بعد ، وتقاسمتها فيما بينها بعد ظهورها . وهذه كلها جوانب يُسقطها التاريخ المقدس ولا يُعنى بها . كما نعلم أن سليمان ، حتى في أوج عظمته ، لم يصل إلى تلك الأبعاد الأسطورية التي تتحدث عنها الرواية التوراتية .

وثمة مدارس عديدة تتباين آراؤها في قصص العهد القديم ، إذ يرى البعض أن التاريخ الذي يرد في العهد القديم هو تاريخ رمزي . فإبراهيم ، حسب هذا التصور ، ليس شخصية تاريخية وإنما يمثل مرحلة تاريخية وحسب ، وبالتالي فهو رمز أكثر أهمية ودلالة وعمقاً من الواقعة التاريخية . وهناك من يذهبون إلى التقيض ويحاولون دراسة التاريخ من خلال المعلومات الواردة في العهد القديم . وثمة من يسلكون طريقاً وسطاً بين المدرستين . حيث يسترشد الباحث بالتاريخ المقدس في معرفة التاريخ الفعلي دون أن يكون ذلك ملزماً له . وهنا ، لا بد أن نشير إلى أننا أضفنا أحياناً عبارة «حسب الرواية التوراتية» ، أو عبارات مماثلة ، وذلك حين استندنا إلى الوقائع التي وردت في العهد القديم ، وحين استخدمنا هذه الوقائع كمادة تاريخية .

والفكر الغربي واليهودي والصهيوني يتجه دائماً نحو محاولة اكتشاف الأنماط المتكررة في التاريخ المقدس كما تتبدى في تاريخ الجماعات اليهودية في العالم وعبر التاريخ ، بحيث تصبح حادثة مثل الإبادة النازية تكراراً للعبودية في مصر وتكراراً للتجهير البابلي ، كما أن إعلان دولة إسرائيل يشبه الخروج من مصر ، والاستيطان في فلسطين يشبه التعلغل في كنعان . وهكذا . وهجرة اليهود السوفييت هي خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بعد عبوديتهم في روسيا القيصرية والسوفيتية . بل إنهم يرون هذا التاريخ باعتباره تاريخاً له بداية ونهاية (وكانه مسرحية إلهية لها حبكة واضحة) وبالتالي يشكل إعلان دولة إسرائيل نهاية التاريخ .

## الرواية اليهودية للتاريخ

Jewish Views of History

في معظم الكتابات اليهودية أو الصهيونية التي تعالج القضايا المتصلة بالجماعات اليهودية في العالم ، يُلاحظ الدارس أنه لا توجد أية تفرقة بين تواريخ الجماعات اليهودية من جهة وتاريخ اليهودية من جهة أخرى ، أو بين التاريخ المقدّس والتاريخ الفعلي . فيتداخل التاريخ المقدّس مع تاريخ العبرانيين ، ويتداخل الاثنان مع تواريخ الجماعات اليهودية ، لتصبح المحصلة النهائية ما يُسمّى «التاريخ اليهودي» . وربما يعود هذا التداخل إلى التيار الحلولي الواحد في العقيدة اليهودية . ففي تصورهم الحلولي الواحدي ، يري اليهود أن تاريخهم مقدس ويعبر عن الإرادة الربانية ، فإله إسرائيل يتدخل دائماً في مسار التاريخ لصالح شعب إسرائيل . ولم تأت الأمة اليهودية إلى الوجود إلا من خلال تدخل إلهي مباشر ، أي أن الإله قد حل في الشعب وتاريخه .

لكن فكرة حلول الروح الإلهية في اليهود حولتهم إلى أمة من القديسين والكهنة والأنبياء . ومن الملاحظ أن زوال ثنائية الخالق والمخلوق التي تؤدي إلى التداخل الكامل بين المطلق والنسبي ، أو بين الإله والشعب ، أو بين الثابت والمتغير ، أو بين التاريخ المقدّس والتاريخ الإنساني سمة يبنوية أساسية في اليهودية . فكتاب اليهود المقدّس كتاب تاريخ الشعب ، كما أن أعيادهم تحفل بمناسبات كونية ثابتة مثل عودة الربيع وخلق العالم ، ومناسبات تاريخية متغيرة مثل الخروج من مصر . وتتركز الصلوات الدينية المختلفة حول المناسبات القومية التاريخية ، كما تأخذ العلاقة مع الإله شكل حوار بين طرفين أحدهما مقدّس مطلق ، والآخر دنيوي نسبي ، ومع هذا فالطرفان متساويان . والديانة اليهودية تتسم بوجود شريعتين : واحدة مكتوبة مُرسلة من الإله ، والأخرى شفوية اكتشفها حاخامات الشعب عبر تاريخهم . ومع هذا ، فللشريعة الشفوية من الشرعية والصلاحية ما للشريعة المكتوبة ، بل إنها تفوقها في الاتساع والشمول والدقة . وظاهرة تعدد الأنبياء في اليهودية تعبير عن حلول الإله في التاريخ ، وهو حلول لا يتوقف عند نقطة ما بل يستمر من بداية التاريخ حتى نهايته . وقد كانت هذه الرؤية الحلولية الواحدة كامة في العصر القديم ثم ازدادت عمقاً في التلمود - كتاب اليهودية الحاخامية الأساسي - ثم تبلورت وأخذت شكلاً حاداً ومتطرفاً في القبّالاه التي سيطرت على الفكر الديني اليهودي وعلى المؤسسات الدينية اليهودية ابتداءً من القرن السادس عشر ، وورثها المفكرون العلمانيون اليهود ابتداءً من إسبينوزا .

ويرى بعض فلاسفة التاريخ في الغرب أن اليهود أول من اكتشف فكرة التطور والتقدم التي هي عماد الوعي التاريخي الغربي الحديث ، على عكس الإغريق القدامى ، وغيرهم من الشعوب القديمة ، الذين كانوا يرون أن للتاريخ شكلاً فلسفياً هندسياً . كما رأى هؤلاء الفلاسفة أيضاً أن حلول الإله في التاريخ قد حوكمه إلى خطاً مستقيماً يتحرك نحو هدف أعلى وغاية نهائية بدلاً من أن يكون مجرد شكل هندسي دائري يتحرك حول نفسه دون غاية .

ومما لا شك فيه أن العبرانيين القدامى (حسبما ورد في الكتب المقدّسة عند اليهود) كان لديهم إحساس قوي بما تصوروا أنه مغزى التاريخ الديني ومعناه المقدّس . ولكن هذا الإحساس نفسه هو أحد أسباب ضعف حسهم التاريخي وضموه بل اختفائه . فالاهتمام اليهودي القديم بالتاريخ ، هو اهتمام في سميحه معاد للتاريخ لأنه يُصدّر عن رؤية دينية حلولية واحدة تتجاهل أن الظواهر التاريخية لها منطقتها الخاص والمستقل عن رغبات الإنسان وأحلامه وأنها ليست تجلياً لإرادة إله يحابي شعباً ، وهي رؤية تذهب إلى أن التاريخ بأجمعه إن هو إلا كشف الغطاء عن الغرض الإلهي الذي لا يدور حول البشر كافة وإنما يدور حول الشعب المختار بالدرجة الأولى (باعتباره موضع الحلول الإلهي) . وهذه الرؤية تُسطّح التاريخ وتفرغه من تركيبته وإنسانيته وعالمية ، وهي السمات الأساسية التي تعطي التاريخ معناه الإنساني المتعارف عليه بين الناس . ويظهر هذا التسطيح الذي يختزل كل الوقائع ويردّها جسيماً إلى مستوى واحد في تصور الرؤية اليهودية الحلولية الواحدة (والصهيونية فيما بعد) للظواهر التاريخية باعتبارها ظواهر مقدّسة تقررت حركتها حسب خطة إلهية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ . بل إن التدخل المستمر والعلمي للإله هو تأكيد للقول بأن التاريخ يتم دفعه وتحريكه من الخارج ، وأن الإرادة البشرية لا مجال لها فيه ، وأن التاريخ اليهودي (المقدّس والإنساني) بدأ من مطلق لا يقبل النقاش أو التقييم (العهد مع إبراهيم) يقطعه المطلق من أوتة إلى أخرى (العهد مع إسحق ثم مع يعقوب) ، وينتهي بمطلق أخير (ظهور الماشيخ المنتظر أو وصول العصر المשיحاني الذي يشكل نهاية التاريخ) . والتدخل المستمر للإله في التاريخ ، حسب التصور اليهودي الحلولي ، هو ما يكسبه معنى ويضفي على فوضاه اللامتناهية شكلاً .

وترد الوقائع التاريخية في أسفار موسي الخمسة بمقدار ما تكشف الغرض الإلهي الذي يهدف إلى إعلاء جماعة إسرائيل . وإذا كانت أسفار الأنبياء المختلفة تتحدث عن الإرادة وعن المستقبل القريب حين يتوب أعضاء جماعة إسرائيل ويعودون إلى الإله ، فإن

هذا الحديث قد اختلف تماماً في أسفار الرؤى (أبو كالبسيس) التي تتحدث عن المستقبل البعيد وعن الخلاص العجائبي .

وقد تبلورت كل هذه الأفكار الحلولية الواحدة النظرة التي تجعل الشعب اليهودي الغاية النهائية وربما الوحيدة للتاريخ في عقيدة الماشيخ . فمسار التاريخ ذو هدف واحد واضح محدد : يأتي الماشيخ في آخر الأيام ويعود باليهود إلى أرض الميعاد ليؤسس حكومة العالمية في صهيون . وفكرة الماشيخ قد تنطوي على فكرة التقدم نحو هدف أعلى ، أي أنها تختلف عن الرؤية الهندسية الإغريقية ، ولكنها مع هذا أسطورة لا تاريخية إلى أقصى حد ، لأنها تفتقر ثبات القطة التي يتحرك نحوها التاريخ ، كما تفتقر الحتمية المطلقة لهذه الحركة ، وعدم جدوى الفعل الإنساني لأن نقطة النهاية الفردوسية ستأتي عن طريق التدخل المباشر والفجائي للإله في التاريخ . وهو تدخل يُغلي التاريخ تماماً باعتباره المجال الذي تركه الإله للإنسان ليتفاعل معه فيه وليختبره ، ينتصر أو ينكسر ، يهتدي أو يضل .

ويبدو أن هذه الرؤية الدينية القومية الحلولية للتاريخ هي التي شجعت النزعات المشيخانية التي اتسمت بها تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية منذ القرن الأول الميلادي ، والتي تصاعدت حدتها ابتداءً من القرن السابع عشر في الغرب . وقد أدت انتشار الجماعات اليهودية وتحوّلهم إلى جماعات وظيفية منعزلة عن المجتمع إلى زيادة حدة النزعة المعادية للتاريخ بينهم . ويرجع هذا إلى الأسباب التالية :

١ - ميل الإنسان الذي يعيش في عزلة إلى تجريد نفسه إذ يرى ذاته مستقلة عن حركات التاريخ العام ، وخصوصاً أن أعضاء الجماعات الوظيفية يظنون أنهم يتمتعون بقداسة خاصة .

٢ - أعضاء الجماعات الوظيفية يتمتعون بحركة غير عادية ، الأمر الذي يجعل من العسير عليهم رؤية تراكم الأحداث داخل إطار محدد .

٣ - يتعامل التاجر والمرابي مع مجردات ليست لها أية حدود (السلع - النقود - سعر الفائدة) ، كما أن اليهود الذين اضطلعوا في العصور الوسطى بدور التجارة الدولية في المجتمعات الزراعية كانوا عناصر حركية متعددة الجنسيات عابرة للقارات غير قادرة على استيعاب فكرة الحدود التي هي جوهر الوجود التاريخي .

٤ - بالإضافة إلى كل هذا ، كانت التجارة البدائية والربا مهنتين ليست لهما علاقة فعلية بالعملية الإنتاجية ذاتها ، فقد كانتا تنتميان إلى نوع من الاقتصاد المجرّد داخل بناء من الاقتصاد الطبيعي البني على تبادل الخدمات وعلى الاكتفاء الذاتي .

٥ - يركّز أعضاء الجماعة الوظيفية على الوطن الأصلي ، الحقيقي أو الوهمي ، وهو بالنسبة إلى اليهود فلسطين ، وهو تركيز يفقدهم الإحساس بالزمان والمكان .

لكل هذا ، ضمّر الإحساس بالزمان وحل محله إحساس متطرف بالمكان وحسب ، وتجمّد هذا في فكرة الأرض التي هيمنت على الوجودان اليهودي الحلولي . كل هذا ، جعل أعضاء الجماعات اليهودية طوائف مرشحة لأن تفقد حسها التاريخي ، وأن تنغمس في التأمّلات الفردوسية والدراسات التلمودية والحسابات القبائلية الخاصة بأخر الأيام . وقد كان الجيتو التعبير الحضاري والنفسي عن هذه العقلية التي تتصور أنها تفتّح خارج التاريخ . ولذلك ، كان مثقف الجيتو ، أو طالب المدرسة التلمودية ، ينفق كل أيامه في دراسة الأساطير اليهودية والدين اليهودي وما يتصور أنه تاريخ اليهود المقدّس ، دون أي اهتمام بالدراسات التاريخية الحقة ، سواء كانت التواريخ الحقيقية للجماعات اليهودية في العالم ، أم تاريخ الحضارة التي يعيش بين ظهرانيها . ولقد توقفت دراسة المعهد القديم هي الأخرى كتاريخ مقدّس ، وحلّت محلها الدراسات التلمودية الفقهية التي لا يدخل فيها عنصر الزمن بتاتاً ، ثم حلت محل الدراسات التلمودية التفسيرات القبائلية ذات الطابع الغنوصي المتطرف التي تُسقط التاريخ تماماً وتأخذ شكل بتي هندسية لا علاقة لها بأي واقع تاريخي أو إنساني متعين ، والتي تهدف إلى تعويض اليهود عما يلاقونه من عذاب حقيقي أو وهمي .

لكل هذا ، حينما بدأ علم التاريخ بمعناه الحديث في الغرب ، ابتداءً من القرن السابع عشر ، كان إسهام أعضاء الجماعات اليهودية فيه معدوماً . ولم تبدأ إسهاماتهم في الدراسات التاريخية إلا في مرحلة متأخرة من القرن التاسع عشر بعد أن تأكل الجيتو تماماً ، وبعد أن بدأت تظهر شرائح من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تلقوا ثقافة علمانية غربية مختلفة تماماً عن الثقافة اليهودية التقليدية .

وقد قامت محاولتان داخل اليهودية لمكافحة النزعة المشيخانية المعادية للتاريخ . أولاها محاولة اليهودية الهاخامية النظر إلى الرموز والعقائد اليهودية القديمة المختلفة ، مثل العودة وصهيون والماشيخ ، باعتبارها أموراً مستحقة بأمر الإله . ومن ثم ، فإن فعاليتها تكمن خارج حدود التاريخ ، وهو ما يحول التاريخ ذاته إلى رقعة يمارس فيها الإنسان حريته ويجعل اليهود بشراً ككل البشر الذين يعيشون في العالم التاريخي النسبي (رغم كل تطعاتهم الدينية والروحية) . وقد نجت المؤسسة الهاخامية بالفعل في كبح النزعات المشيخانية المنفجرة ، الناجمة عن الرؤية الحلولية وتوقع المعجزة

واحداً هو أن الرؤية الصهيونية هي الرؤية الحلولية نفسها بعد أن تمت علمتها، أي أنها حلولية بدون إله (أو وحدة وجود مادية). فتاريخ اليهود، حسب تصور مارتن بوبر، هو تاريخ يتبدل (أي يحل) فيه الرب بشكل مستمر، ولذا أصبحت جماعة إسرائيل أمة ومجتمعاً دينياً في آن واحد، ولا تزال جماعة إسرائيل شعباً ومجتمعاً دينياً (قوسياً ومقدساً) حتى وقتنا هذا. ويفرق بوبر بين التاريخ، أي التجربة التي تعيشها الأمم، والوحي، وهي التجارب الخصوصية التي يعيشها الأعضاء الذين يُطلق عليهم مصطلح «أنبياء». وحينما يتحول الوحي إلى أفكار تفهسها الجماهير وتؤمن بها، فإنه يصبح عقائده. هذا هو الوضع بالنسبة لسانز الأمم. أما بالنسبة لجماعة إسرائيل، فالأمر جد مختلف، إذ أن ثمة تطابقاً كاملاً بين الوحي والعقيدة والتاريخ. فجماعة إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة على مستوى الشعب كله، لا على مستوى الأنبياء وحسب (وهو ما يعني في واقع الأمر أن أعضاء جماعة إسرائيل كلهم أنبياء). ومن ثم، فإن مجتمع إسرائيل ككل يعيش التاريخ والوحي باعتبارهما ظاهرة واحدة: التاريخ باعتباره وحيًا، والوحي باعتباره تاريخاً.

وهكذا يتحول اليهود، تماماً كما هو الحال مع الرؤى الدينية الحلولية الكومونية الواحدة القديمة، إلى شعب من الكهنة والأنبياء، ويتحول تاريخهم إلى وحي مستمر. ولذا، فاليهود، حسب التصور الحلولي الواحد عند بوبر، أمة تحمل وحيًا إلهياً عبر تاريخها المقدس الذي لم يكن سوى صراع لا ينتهي من أجل وضع مثل الأنبياء موضع التطبيق كما يقول نحماني سيركين الزعيم الصهيوني العمالي. ومعنى هذا أن كلاً من الفيلسوف المتصوّف والمفكر الاشتراكي يدوران في نطاق الحلولية الكومونية الصهيونية ويتفقان على خصوصية وقديسية واستقلالية ما يُسمى «التاريخ اليهودي». كما يتفقان على تداخل التاريخ المقدس والتاريخ الإنساني. وعلى أية حال، فإن من الواضح أن هناك تداخلاً في البنى التاريخية وعدم إلام بحركة التاريخ انعكاس بجله في الطريقة التي يقرأ بها الصهاينة الواقع التاريخي. فهم حينما نظروا إلى فلسطين، في أواخر القرن الماضي، لم يروها أرضاً فيها شعب، أي واقعاً إنسانياً تاريخياً، وإنما رأوا مفهوماً دينياً يدعى «إرتس إسرائيل». ولذلك، وبدلاً من التعامل مع الواقع الحي، نجددهم يلقون شعارات مثل: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وهي شعارات جامدة تقترب، في اتساقها الهندسي مع نفسها، من الحسابات القبائلية.

الربانية ونهاية التاريخ في كل زمان ومكان. فقد تصدت لشبناي تسفي، ولكل المشحاء الدجالين. أما المحاولة الثانية، فهي المحاولة التي تمت بعد اعتناق اليهود، والتي أخذت شكل فصل الدين عن القومية في اليهودية الإسلامية، فهي محاولة جوهرها اعتراف بالوجود التاريخي النسبي لليهود مستقلاً عن مطلقاته الدينية. وقد أخذت هذه المحاولة أيضاً شكل الدراسات التاريخية اليهودية التي تحاول أن تصل إلى التاريخ الديني الإنساني فيما يُسمى «علم اليهودية».

ولكن اليهودية المحافظة قامت بتوظيف الاتجاه التاريخي لحساب الأهداف الصهيونية، فالتراث التقليدي الديني بكل حلولته تمت علمته بحيث تحوّل إلى ميراث تاريخي إنساني دينوي. ولكنه، مع هذا، لا يفقد شيئاً من قديسيته (فهي حلولية بدون إله). وأصبح الشعب اليهودي مقدساً، لا بسبب إلهه وإنما بسبب تاريخه المقدس. والواقع أن الصهيونية امتداد لهذه الرؤية الحلولية للتاريخ التي تحوّلته من تاريخ مركب يحوي داخله عناصر إيجابية وسلبية، ومن كل متشابك يتجاوز الذات إلى أسطورة بسيطة يمكن توظيفها.

### الرؤية الصهيونية للتاريخ

#### Zionist View of History

تتبع رؤية الصهاينة للتاريخ من عنصرين أساسيين، أحدهما عقائدي والآخر تاريخي، أولهما الحلولية اليهودية بكل ما تحوي من مزج بين العناصر المطلقة والنسبية، وبكل ما تخلعه على الشعب اليهودي من مطلقة. وثانيهما التجربة التاريخية لليهود شرقي أوروبا كجماعة وظيفية. فقد ساهمت هذه التجربة في إعطاء ما يشبه الأساس الواقعي أو التاريخي للرؤية الصهيونية للتاريخ اليهودي، أي باعتباره كياناً مستقلاً. هذا كله أوهم المفكرين الصهاينة بأن لليهود تاريخهم اليهودي المستقل عن التاريخ العام الذي يحيط بهم، وأنسأهم أن استقلالية اليهود نفسها إحدى سمات المجتمع الإقطاعي في كل من روسيا وبولندا، وأن الجيتو اليهودي المستقل هو في نهاية الأمر نتاج لبناء التاريخي الأساسي الروسي أو البولندي، إذ أن الذي يحكم ظهور وسقوط الجيتو أو الأشكال الإدارية اليهودية المستقلة الأخرى ليس الإرادة اليهودية المستقلة وإنما حركة التاريخ الروسي أو البولندي ومجموعة من العناصر المركبة بشكل أعضاء الجماعة اليهودية جزءاً منها وحسب.

ويمكن أن نقول إن الرؤية الصهيونية للتاريخ لا تختلف في بنيتها عن الرؤية الحلولية الواحدة اليهودية له، ولكن هناك فرقاً

كتبوا تواريخ الجماعات اليهودية بطريقة مأساوية فجأة تختزل تلك التواريخ وتقسّمها إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما : فترات مظلمة عديدة وغير حقيقية فقدت فيها الذات اليهودية وعيها بنفسها وخرجت من الدائرة (الحلولية) اليهودية أو أخذت موقفاً سلبياً فلم تدافع عن ذاتها ف وقعت ضحية سهلة للأغيار ؛ وفترات أخرى مضيّبة وحقيقية تركزت فيها الذات اليهودية على نفسها ودافع اليهود فيها عن أنفسهم بضراوة وشراسة . وحسب هذا الفهم ، تكون الأعوام القليلة التي قامت فيها دولة يهودية في فلسطين أكثر الفترات خصوبة فيما يُسمّى «التاريخ اليهودي» ، ويكون التمرد الحشموني ، حين دافع اليهود عن الوجود اليهودي في فلسطين ، هو إحدى القمم القليلة بل النادرة في هذا التاريخ ، وتكون الحركة الصهيونية التعبير الحقيقي والأخير عن هذا التمرکز اليهودي الذي يجسد روح التاريخ اليهودي ويشكل نهايته السعيدة .

ولكن مشكلة التقسيم البسيط هي أن الصهيونية تكتسب شرعيتها من افتراض وجود هذا التاريخ اليهودي ومن تعبيرها عنه . ولكن التاريخ اليهودي هو أساساً نتاج انتشار اليهود في كثير من بلاد العالم ، أي نتاج وجود الجماعات اليهودية في الدياسبورا أو المنفى ، أي وجودهم في أنحاء العالم خارج فلسطين . ومن يتقبل نموذج التاريخ اليهودي يتقبل أيضاً وجود اليهود في المنفى حقيقة أساسية ، لأن حالة المنفى جزء لا يتجزأ من البناء التاريخي اليهودي الذي يفترض الصهانية وجوده . وتعبّر الكتابات الصهيونية عن هذا التناقض العميق ، فهي تارة تجعد هذا التاريخ اليهودي تمجيداً لا حد له ، وتارة أخرى تدمغه باعتباره مجرد انحراف عن مسار التاريخ اليهودي الحقيقي . ولكن الصهانية ، سواء في تمجيدهم الدياسبورا أو هجومهم عليها ، يفترضون ، في كل الأحوال ، وجود تاريخ يهودي منفصل عن تاريخ الشعوب والحضارات الأخرى التي عاش اليهود بين ظهراتها .

والحديث عن التاريخ اليهودي ، مثل الحديث عن «الأدب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» وغير ذلك ، يفترض أن العنصر الأساسي الذي يحرك اليهودي ويشكل شخصيته هو أساساً إيمانه بالدين اليهودي أو اتناؤه إلى التراث اليهودي . وفي هذا تقليل من شأن اليهود ، وتضييق لإنسانيتهم ومساهمتهم في الحضارة البشرية . فاليهودي ، مثل مثل أي إنسان آخر ، ظاهرة مركبة ، تحركه عناصر متشابكة ، بعضها ملموس ومحدد وبعضها غير ملموس وغير محدد ، وليس مجرد عنصر واحد كما يتصور الصهانية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن تبنيّ نموذج التاريخ اليهودي

ويتبدى الرفض الصهيوني للتاريخ ، بشكل واضح ، في المصطلح الصهيوني . فالصهانية حينما يستخدمون كلمة «تاريخ» ، فإنهم لا يشيرون في العادة إلى التاريخ الحي المتعَبّن ، وإنما إلى العهد القديم ، أو إلى تراثهم الديني (المكتوب منه أو الشفوي) ، أو إلى التاريخ المقدس . ولذا ، تصبح الحدود التاريخية في الحدود المقدسة المنصوص عليها في العهد القديم «من نهر مصر إلى الفرات» ، وهي حدود لم يشغلها عبرانيون في أية لحظة من تاريخهم ، ولا حتى أيام داود أو سليمان .

والحقوق التاريخية هي أيضاً الحقوق المقدسة التي وردت في العهد القديم ، والتي تؤكد أنهم شعب مقدس مختار ، له حقوق تستمد شرعيتها من العهد الإلهي الذي قطعه الإله على نفسه لإبراهيم ، وهو عهد يعبر عن الحلول الإلهي فيهم .

ويتبدى الرفض الصهيوني لتعريف التاريخ وتركيبته على هيئة رؤية اختزالية تبسيطية للواقع . فمن المعروف أنه ، قبل حرب السادس من أكتوبر (العاشر من رمضان) ، كان لدى الإسرائيليين من المؤشرات الملموسة ما يؤكد أن المصريين سيغربون القناة إلى سيناء . ولكن الدلالات الملموسة ظلت معلومات جامدة معثرة لم يتنظمها إطار ، ولم تكتسب اتجاهها محمداً لأن نموذج الصهانية التفسيري الاختزالي معاد للتاريخ مُنكر لإمكانات الآخر . والصهانية لا يمكنهم إلا التحرك داخل إطار هذا النموذج لأنهم لو فعلوا غير ذلك لطرحو على أنفسهم إمكانية استيقاظ العرب واحتمال اختفاء الكيان الصهيوني الشاذ المشنول . وقد تكرر هذا الوضع مع الانتفاضة ، إذ كان لدى المخابرات الإسرائيلية من المعلومات ما يؤكد أن ثمة تحركاً فلسطينياً ورفضاً شعبياً للاحتلال . ومع هذا ، فقد أنكرت أجهزة المخابرات وجود الانتفاضة ، حتى بعد اندلاعها بعدة أسابيع ، وإنكارهم هذا هو إنكار لتكريب التاريخ والإنسان ولاحقتهما على إمكانات غير مرتبة تمنح الإنسان مركزته في هذا الكون .

ولكن الصهانية يتصورون أن بإمكانهم اجتياز الهوة ، التي تفصل بين رؤيتهم للتاريخ من جهة وبين الواقع التاريخي من جهة أخرى ، عن طريق العنف . فالعنف هو عادة الوسيلة الوحيدة لفرض الاتساق الهندسي على تعَبّن الواقع وتركيبته ، ولكن العنف الصهيوني حتى الآن لم يحقق إلا جزءاً صغيراً من المخطط الصهيوني اللاتاريخي .

غير أن نموذج الصهانية الاختزالي ليس مقصوداً على تعاملهم مع التاريخ العربي أو تاريخ الأغيار وإنما يمتد إلى رؤيتهم لتواريخ الجماعات اليهودية وإلى ما يسمونه «التراث اليهودي» ككل . فقد



المستقل هو في نهاية الأمر إيمان بأن اليهود موجودون خارج التاريخ ، أي أن تَبَيَّنَ نموذج التاريخ اليهودي هو في جوهره عودة إلى الرؤية اليهودية القديمة الحلولية الواحدة التي فشلت في رؤية الفارق بين المقدس والنسبي ، وبين الإلهي والتاريخي ، فألغت كل الثنائيات وسدت كل المسافات .

وكما يتبين من قبل ، لعب تراث الصهانية الحلولي دوراً كبيراً في تشجيعهم على استخدام مثل هذه المصطلحات الأحادية النظرة ، وعلى الخلط بين المستويات والبنى المختلفة ، وعلى إيمانهم بالوجود التاريخي اليهودي المنفصل . كما أن تجربة الصهانية الضيقة ذاتها ، والمستعدة أساساً من وجود يهود شرق أوروبا كجماعة وظيفية ، قد ساهمت هي الأخرى في إعطاء ما يشبه الأساس الواقعي أو التاريخي للتوهيمات الصهيونية .

#### انتفاضة شميينكي

Chmielnicki Uprising

«انتفاضة شميينكي» انتفاضة شعبية في أوكرانيا ضد الاستعمار الاستيطاني البولندي وقوات الاحتلال التي كانت تحميه وكل المؤسسات التي تتبعه (الكنيسة الكاثوليكية والوكلاء اليهود) . والانتفاضة من أهم الحوادث التاريخية التي أثرت في الجماعات اليهودية في شرق أوروبا ، ولا تقل في أهميتها عن وعد بلفور أو الإبادة النازية لليهود . وانتفاضة شميينكي ، شأنها شأن وعد بلفور أو الإبادة النازية ، لا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى تاريخ العلاقة بين بولندا وأوكرانيا ، وهو أمر لا علاقة له بما يُسمى «التاريخ اليهودي» .

وقائد الانتفاضة هو بوجدان شميينكي (١٥٩٣ - ١٦٥٧)

«أتمان» (أي قائد) القوزاق أو زعيمهم (الذي أصبح فيما بعد ، قائلاً لأوكرانيا بعد حصولها على الاستقلال ، داعية لتوحيدها مع روسيا) . درس في مدارس اليسوعيين ، وتعلم فنون الحرب أثناء غارات القوزاق على الدولة العثمانية ، وعمل في الحرس الملكي الخاص بملك بولندا ، ثم اشترك في الحرب ضد العثمانيين وأسر عام ١٦٢٠ وعاش عدة سنوات في تركيا . وكان شميينكي نفسه ثرياً ، فاستقر في ضيعته (في شيجيرين) تحت حماية أحد النبلاء البولنديين (سلاختا) . وحينما اختلف معه ، هوجمت ضيعته بمساعدة الأرناتور (الوكيل) اليهودي فقتل ابنه وألقى القبض على زوجته .

وتعود أسباب الانتفاضة إلى عدة أسباب من بينها تزايد الاستغلال الإقطاعي الواقع على الفلاحين الذين كانوا في واقع الأمر أقتاناً تقترب حالتهم من العبودية الكاملة ، وخصوصاً أن النبلاء

البولنديين لم تكن تربطهم علاقة إقطاعية حقيقية بهذه الأرض ، فالإقطاع البولندي في أوكرانيا كان إقطاعاً استيطانياً (وقد ضُمَّت أوكرانيا إلى بولندا في منتصف القرن السادس عشر) ، وانصرف جل هم النبلاء البولنديين إلى تعميرها حتى تدر عائداً عليهم ويستولوا على ريعها . وكان اليهودي يقرض النبيل البولندي بضمان ضيعته وريعتها ، ثم يتولى هو عملية إدارتها فيما يعرف باسم «نظام الأرناء» ، الأمر الذي جعل كثيراً من اليهود يتحولون إلى ممثلين للنبلاء الإقطاعيين الغائبين في وارسو ، فيقومون بتحصيل الضرائب الباهظة من الفلاحين ومنها ضريبة يدفعها الفلاحون الأرثوذكس لفتح باب الكنيسة لأداء الصلاة أو غيرها من العبادات . كما كانوا يقومون ببيع السلع التي كان يحتكرها النبلاء ، مثل الملح والخمور ، بأسعار مرتفعة جداً . وقد كان اليهود متشربين بين الفلاحين القوزاق والأوكرانيين في مدن صغيرة (شتنلات) ، لا يحملون السلاح بل تقف إلى جوارهم فرق بولندية مسلحة لحمايتهم .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى توتر الأوضاع وترديها فترة جفاف دامت عشرة أعوام ، ازداد فيها الفلاحون فقراً وسخطاً . كما أن محاولات الكنيسة الكاثوليكية الدابنة ، لفرض نفوذها على شرق أوروبا ، زادت سخط الجماهير الأرثوذكسية . وقد بدأت تظهر عناصر تشد من أزر العناصر الشعبية الراقضة في أوكرانيا من بينها ظهور القوة الروسية الأرثوذكسية في هذه الأوتة ، والحرب المستمرة بين ملك بولندا والنبلاء والتي أضعفت الطرفين ، كما كانت جيوش السويد تهدد بولندا من الشمال . وتذكر الموسوعة اليهودية العالمية أن غرور اليهود واصلفهم كان عنصراً مساعداً على زيادة السخط والتوتر ، وإن كان من الأفضل الحديث عن طبيعة وضع اليهود كجماعة وظيفية وسيطة بين مطرقة النبلاء وسندان الأقتان ، ذلك أن صلف أداة الاستغلال وحده ليس كافياً لإضرام نيران ثورة شعبية مستمرة .

وما زاد من حدة الصراع وأوضح معالمه ، ذلك التعارض الاجتماعي والديني والعرقي الكامل بين وضع الجماهير القوزاقية والأوكرانية من جهة ، ووضع النبلاء البولنديين ووكلائهم من جهة أخرى . فهذه الجماهير كانت أساساً جماهير فلاحية تتحدث الأوكرانية وتنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية . والمستغل الحقيقي كان النبيل الإقطاعي البولندي الذي يتحدث البولندية ويتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولم يكن الوكيل اليهودي سوى أداته في الاستغلال وسوط ذهابه . ولكنه مع هذا كان المستغل المباشر للمزمل تماماً عن الجماهير ، فهو يتحدث البيديشية ويدين باليهودية . وكانت

لث يهود أوكرانيا . ولكن المؤرخين يميلون الآن إلى القول بأن هذه الأرقام مُبالغ فيها ، كما يميلون إلى أن أعداداً كبيرة من اليهود فُرت ثم عادت بعد أن هدأت الأحوال قليلاً . وربما يفسر هذا استمرار تزايد أعداد اليهود بعد الانتفاضة . ولكن أعضاء الجماعة اليهودية (أكبر جماعة يهودية في أوروبا) الذين عادوا كانوا يشكلون جماعة مذمورة لا تحس بالطمأنينة الزائفة التي كانت تشعر بها قبل اندلاع الثورة ، إذ تم تقويض روحها المعنوية ، وفقدت الثقة في نفسها وفي وضعها ، الأمر الذي جعل منها تربة خصبة للحركات الشبانية والمسيحانية (ابتداءً من شبثاي تسفي وانتهاءً بالحسيدي) وجعلها مادة خاماً مهيةً لأن تنقل إلى أي مكان حتى يمكنها الاستمرار في الاضطلاع بدورها كجماعة وسيطة (وهو الحل الذي طرحته الصهيونية ثم نفذته) .

وإذا نظرنا إلى انتفاضة شميليكي من منظور التاريخ الإنساني العام فلا بد أن نُصِّفَ باعتبارها ثورة شعبية ضد شكل من أشكال الظلم لم تشهد له الإنسانية مثيلاً ، فقاتلها بطل شعبي نجح في تحريك شعبه ، ولا شك في أن هذه الانتفاضة ارتكبت الكثير من أفعال القسوة التي لا يمكن إلا أن يدغمها الإنسان من الناحية الأخلاقية ، مع علمنا تمام العلم بأن هذا هو جزء من نمط الثورات الشعبية السائد ، إلا أن عدالة الانتفاضة وأخلاقيتها وبطولة قائدها هي أمور لا يتطرق إليها الشك . وهكذا يحتفل بها شعب أوكرانيا ، ولهذا السبب يقيم التماثيل الضخمة لقائدها ومحرم البلاد .

ولكن الدراسات الصهيونية تنظر إلى هذه الحادثة في إطار التاريخ اليبهي الذي يضع اليهود في مقابل الأغيار ، فنجد أن صورة اليهود في مثل هذه الدراسات ، صورة اختزالية كوميدية ، إذ تُصوِّر اليهود باعتبارهم أقلية صغيرة يعيش أعضاؤها آمين في مدنهم الصغيرة يتحدثون اليديشية ، لا علاقة لهم بعالم الأغيار ، وفجأة يهب هذا العالم ويذهب آلاف اليهود (وتبدو الواقعة بأسرها وكأنها شيء فجائي ليس له سبب واضح لأننا لا ندرِك دور اليهود الوظيفي أو علاقتهم بالأغيار البولنديين) . ومن ثم فإن انتفاضة شميليكي تصبح «مذبحة شميليكي» ويُقَارَنُ شميليكي بهتلر . وحينما تُصوِّرُ إحدى دول شرق أوروبا ضد إسرائيل في هيئة الأمم فهذا جزء من «ميراث شميليكي» . وتناول كتب ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» لانتفاضة شميليكي يبيِّنُ انعدام القيمة التفسيرية لهذا النموذج .

العناصر التي جرفتها الانتفاضة ، هي القوة العسكرية البولندية والقساوسة الكاثوليك والكولاء اليهود من ناحية ، ومن ناحية أخرى الأتقان القوزاق والأوكرانيون والتتر وكل العناصر الأخرى التي انضمت لهم .

وقد نجحت انتفاضة شميليكي بسرعة خائفة فوافقت بولندا عام ١٦٤٩ على أن تتمتع عدة مقاطعات من أوكرانيا بالحكم الذاتي . ومع هذا فقد استمر الصراع العسكري بين بولندا والدولة الجديدة واستعان شميليكي بالروس ، فتقدمت القوات الروسية والقوزاقية ، وتم ضم أوكرانيا وسمولنسك إلى روسيا عام ١٦٦٧ . وقد كانت انتفاضة شميليكي في جوهرها شكلاً من أشكال الثورة الشعبية لا تختلف عن مثيلاتها من ثورات الفلاحين ضد الإقطاعيين ووكلائهم . وهي عادة ثورات تأخذ في البداية شكل غضب شعبي عارم ورغبة شديدة في الانتقام ، هو في جوهره رد فعل لا عقل له لعملية القمع القاسية اللاعقلانية التي كانت تُمارَس ضد الفلاحين . وعادة ما ينضم الفلاحون إلى جيوش الثورة الشعبية التي لا تلتزم بقوانين الحرب المختلفة (الخاصة بالأسرى وغيرها) لجهلهم بها ، بل إن الثورة الشعبية بأسرها في مراحلها الأولية تفتقر إلى البرنامج السياسي والرؤية . ولم تكن انتفاضة شميليكي استثناءً من هذه القاعدة إذ اندلعت الثورة وعبرَ الفلاحون عن غضبهم بذبح كل من وجدوه في طريقهم مثلاً لمؤسسة القمع : نبلاء بولنديين وقساوسة كاثوليك وكولاء يهود . ولعل عملية الانتقام كانت أكثر سهولة ويسراً في حالة انتفاضة شميليكي لأن العنصر المستغل (البولندي الكاثوليكي واليهودي اليديشي) . كان عنصراً أستيطانياً غريباً من السهل التعرف عليه يعيش في الشتلات . وبما يجدر ذكره أن انتفاضة شميليكي لم تكن انتفاضة عنصرية موجهة ضد اليهود باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم ممثلين للإقطاع البولندي الاستيطاني . أي أنهم لم تكن لهم أية أهمية في حد ذاتهم ، فقد كانوا مجرد أداة في يد أحد أطراف الصراع . ولذا فحينما كانت القوات البولندية تنتصر على المتفضين كان هذا يعني عادة عودة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الشتلات وكان يُص على هذا في الاتفاقيات البرمة . وحينما كانت كفة المتفضين ترجح كان أحد مطالبهم أن تُخلى المدن الأوكرانية من القوات البولندية والكولاء اليهود . وحينما كتب شميليكي رسالة إلى كرومويل ، على أمل عقد تحالف بين القوتين الأرثوذكسية والبروتستانتية ، فإنه لم يذكر اليهود بخير أو شر .

وحسبما جاء في المصادر اليهودية المعاصرة ، فقد أُيِّدَ نحو

## الماضي والمستقبل اليهوديان

Jewish Past and Future

«الماضي اليهودي» تعبير يفترض أن لأعضاء الجماعات اليهودية ماضياً واحداً ومستقلاً ، أي تاريخاً واحداً ومستقلاً ، فإن لم يكن لهم حاضر موحدٌ فهذا نتيجة لحادثة هدم الهيكل وشتاتهم . والمشروع الصهيوني محاولة لأن يكون لليهود مستقبل موحد . ولكن الدراسة للتأنيّة تبين أن أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم ماضٍ واحد . فمأصفيهم في بولندا ، أي تجربتهم التاريخية وموروثهم الحضاري والديني في بولندا ، يختلف عن ماضي يهود الفلاشاه ، وتجربة هذين الفرقتين تختلف عن تجربة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . وليس لأعضاء الجماعات اليهودية حاضر واحد ، فلكل جماعة يهودية مشكلاتها ونصيبها المختلف من الأفرح والأتراح . وتدل المؤشرات كافة على أن هذه الجماعات لن يكون لها مستقبل واحد . فيهود الولايات المتحدة (أكبر تجمع يهودي في العالم) يعتبرون أمريكا ووطنهم القومي . ويرغم تحاطف أعداد كبيرة منهم مع إسرائيل والصهيونية ، فإنهم لا يتون الهجرة إليها ، شأنهم في هذا شأن يهود أستراليا ونيوزلندا . أما يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا ، على سبيل المثال ، فهم يواجهون مشاكل في بلادهم قد تضطرهم إلى الهجرة ولكنهم لا يهاجرون إلى إسرائيل . بينما لا يمانع يهود الفلاشاه في الهجرة إلى إسرائيل إذ يراودهم حلم الحراك الاجتماعي . ويدل كل هذا على أن لكل جماعة يهودية مستقبلاً مستقلاً .

ومع هذا ، تصر الكتابات الصهيونية على تأكيد وجود ماضٍ ومستقبل ومصير يهودي واحد منفصل عن ماضي ومستقبل ومصير المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية . ولدعم هذا الرأي ، تؤكد الكتابات الصهيونية أهمية النظر إلى الهجمات التي تحدث ضد اليهود ، كالإبادة النازية لليهود أوروبا ، باعتبارها جزءاً من ماضٍ مشترك ومغف متكرر لا يمكن الخروج منه إلا بالحركة المشتركة في المستقبل .

## المصير اليهودي (الوحدة والتشابك)

Jewish Destiny (Unity and Entanglement)

«المصير (أو القَدَر) اليهودي» عبارة تعني أن أعضاء الشعب اليهودي لهم مصير واحد ، فريد ومشترك ، وأنهم خاضعون لمسار واحد ، ولهم تطلعات مشتركة ، ويلقون نهاية واحدة . وفكرة المصير اليهودي مرتبطة بفكرة الشعب المختار ، فهذا الشعب قد

اختاره الإله وحلّ فيه ليكون محط عنايته واهتمامه (وأحياناً اضطهاده) ، وهو بالتالي شعب ذو مصير خاص ، مقرر مسبقاً ، يبدأ تاريخه بالخروج من مصر ويستهي بعودة الماشيح . وبين البداية والنهاية ، يلاقي اليهود مصيرهم الموعود من اضطهاد وطرد وتهجير وهجرة ، فهم أداة خلاص العالم . وقد عمدت القنّالاة اللورباتية هذا المفهوم ، وربطت بين مصير الإله ومصير الشعب .

وقد تمت علمنة هذا المفهوم الديني ليكون مصير اليهود التاريخي المشترك مفهومًا دنيويًا ، وهو مصير مستقل عن تواريخ الشعوب الأخرى ، ولذا يُفسّر ما يحدث لليهود بمعزل عن الظروف الحضارية والاجتماعية التي أدت إلى هذا الحدث ، والتي لا تقع بالضرورة داخل حدود التاريخ اليهودي . فحادثة مثل الخروج من مصر ، يُنظر إليها خارج حركات التطور في الشرق الأدنى القديم . ولا يُنظر إليها في علاقتها باكتشاف الحديد الذي أدى إلى تدهور الدولة المصرية ، وكذلك طرد الهكسوس من مصر . وبذلك يهيم من العبرانيين وراءهم ، ثم ظهور شعوب البحر . وبصبح تهجير اليهود إلى بابل وكأنه عقاب من الإله لليهود على ما افتروه من أثم وجزء من مصيرهم . وتسقط من الصورة حركات ظهور الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية وصراعهما مع الدولة المصرية ، كما تسقط من الصورة الأقوام الأخرى التي تم سببها بحوث تظهر حادثة السبي وكأنها حدث فريد مقصور على اليهود لا يمكن فيه إلا في إطار المصير اليهودي الفريد .

ومن أهم الوقائع التي تُفسّر بهذه الطريقة ، واقعة الإبادة النازية لليهود أوروبا . إذ تصر الأدبيات اليهودية على عدم ذكر الملايين الأخرى التي أبلدت تحت نفس الظروف . كما أن هذه الأدبيات لا تتحدث أبداً عن سبب العدواة الشرسة من قبل النازيين لليهود وكان ذلك أمر غير مرتبط بأزمة المجتمع الصناعي الغربي في الثلاثينيات والرؤية المعرفية الإمبريالية .

وتحاول هذه الأدبيات ، انطلاقاً من النموذج نفسه ، أن تؤكد بعض السمات الأساسية التي تتسم بها بعض الجماعات اليهودية باعتبارها جزءاً من المصير اليهودي وتعبيراً عنه . فاليهودي مكتوب عليه الانعزال وعدم الاندماج ، شاء أم أبى ، وهو دائماً معزول نفسه عن الآخرين بسبب تركيبيته شخصيته اليهودية ، وهي مقولة وجدت طريقها إلى الأدبيات العربية التي تتناول الشأن اليهودي . ولكن الدارس المدقق يعرف أنها مقولة لا أساس لها من الصحة ، فلو لم يندمج اليهود ولم ينصهروا في مجتمعاتهم بلغ عددهم الآن مئات الملايين ، فقد كان عددهم مع بداية العصر المسيحي (في بعض

إلى جماعات توطينية خارجها ، تدافع عن المصالح الغربية نظراً أن تضمّن هذه الحضارة أمن وبقاء الدولة الصهيونية .

وقد أصبحت مقولة «المصير اليهودي» مقولة أساسية في الخطاب السياسي الإسرائيلي وتبدّدت في عبارة مثل «لين بريرا» ، أي «لا خيار» ، وهي العبارة التي يصف بها المستوطنون الصهاينة حالة الحرب الدائمة التي يعيشونها . وقد تعمق هذا المفهوم في أدبيات جوش إيمونيم ، إذ يصبح المصير اليهودي جوهر حياة المستوطنين ، فهو تعبير عن عبء الميثاق بين الإله والشعب ، وهو عبء لا يحمله كل الشعب اليهودي ، وإنما يحمله المستوطنون وحدهم ، فيذهبون إلى الضفة الغربية ، ويضربون خيامهم بجوار البركان . وهو أمر مكتوب عليهم ، فقد جاء في العهد القديم : « هو ذا شعب وحده وبين الشعوب لا يسكن » . ولذا ، فالحرب الدائمة مع العرب جزء من المصير المحتوم .

ولقد حوّلت المحكمة العليا فكرة المصير اليهودي إلى معيار ارتضته أساساً لتعريف الهوية اليهودية . ومن هنا ، رفض طلب الأخ دانيال أن يُمتَرَفَ به يهودياً ، رغم أنه وُلِدَ لأم يهودية ، وذلك لأنه تبنّى ديناً آخر ولم يربط مصيره بمصير الشعب اليهودي . ومع هذا ، صرح شامير بأن الدولة الصهيونية لا يمكنها أن تدافع عن كل يهود العالم ، إذ أنها مشغولة بالدفاع عن نفسها ، أي أنه رفض اشتباك مصير الشعب اليهودي بالدولة اليهودية .

ويلاحظ أن الجماعات الوظيفية عادةً ما يكون لديها إحساس متضخم بخصوصية مصيرها . فالساموراي ، في شعر الهايكو ، يتحدثون دائماً عن مصيرهم الموعد ، كما تتحدث العاهرات عن نصيبهن للمكتوب على الجبين . وهذه جميعاً محاولات إنسانية لعقلنة وضع غير عقلاني وغير إنساني لا يمكن عقلته إلا بهذه الطريقة . ولعل اضطلاح أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية في الحضارة الغربية ، واضطلاح الدولة الصهيونية بدور الدولة الوظيفية ، السبب الكامن وراء تضخّم الحديث الصهيوني عن المصير اليهودي الفريد والمشترك .

ونحن نفرّق بين وحدة المصير اليهودي وبين تشابك المصائر ، إذ أن أحوال إحدى الجماعات اليهودية تؤثر أحياناً على جماعة يهودية أخرى ، وذلك رغم وجودهما في مسارين تاريخيين مختلفين ، وبرغم انتمائهما إلى حركات تاريخية مختلفة . وعلى سبيل المثال ، فإن حركات التحديث المتعثر في شرق أوروبا قلّدت بملايين اليهود الفاتحين إلى غربها ، فاشتبك مصيرهم بمصير يهود هذه البلاد دون أن يتحد المصيران بالضرورة ، وبذل يهود غرب أوروبا أقصى جهدهم

التقديرات) يزيد على سبعة ملايين . كما أن تنوع اليهود الإثني والعرقي والحضاري لا يمكن فهمه إلا في إطار اندماجهم . فالنلاشاه يختلفون عن يهود الهند الذين يختلفون بدورهم عن يهود الولايات المتحدة . ومع هذا ، تصر الأدبيات الصهيونية على أن مصير اليهودي وقدره هو العزلة وعدم الاندماج ، وبالتالي تصبح الدولة الصهيونية نتيجة حتمية ومنهومة وأمرأً طبيعياً ، فهي الإطار الذي يمكن لهذا المتعزل الأزلي أن يعبر عن شخصيته اليهودية من خلاله .

ويظهر قصور المقاربة التفسيرية لنموذج المصير اليهودي إذا ما درسنا السلوك الفعلي لأعضاء الجماعات اليهودية خارج إطار هذه المقولات الأسطورية . فيهود الولايات المتحدة قد ربطوا مصيرهم كليا بمصير بلدهم ، برغم كل ادعاءاتهم الصهيونية . كما أن اليهود الأمريكيين الذين اشتركوا في الحرب العالمية الثانية بلغ عددهم خمسمائة وخمسين ألفاً ، جرح منهم أربعة وعشرون ألفاً ، وحصل ستة وثلاثون ألفاً على نياشين ، وقتل منهم عشرة الآف وخمسمائة من أجل وطنهم ، وهو عدد يفوق عدد جملة اليهود الذين ماتوا دفاعاً عن الوطن القومي اليهودي . كذلك ، فإن يهود الولايات المتحدة لا يهاجرون إلى هذا الوطن القومي ، علماً بأن عدد من يزور منهم هذا الوطن للسياحة لا يزيد على ١٠٪ . وابتداءً من العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أخذ المصير اليهودي (أو مصير الأغلبية العظمى من يهود العالم) يرتبط بالمصير الأمريكي ، إذ أن ملايين المهاجرين اتجهوا إلى الولايات المتحدة وتجاهلوا أرض الميعاد تماماً عدا أعداداً قليلة للغاية . ولا يزال هذا البلد الذهبي (جولدن مدين) الغريم الأكبر للدولة الصهيونية حيث يهاجر مواطنوها بأعداد متزايدة إلى أرض الميعاد الأمريكية التي تحققت للجميع قسماً أكبر من الأمن . وكذلك يفعل يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا . كما أن المهاجرين من روسيا وأوكرانيا يتجهون أساساً ، هم أيضاً ، إلى الولايات المتحدة متى سحت لهم الفرصة . فإذا أضفنا إلى هذا الاتفاق الاستراتيجي بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة ، والاعتماد شبه الكامل لهذه الدولة على الدعم الأمريكي بحيث أصبح مصيرها في يد راعيها الأكبر ، فإننا نستطيع أن نقول بكثير من الإطمئنان إن المصير اليهودي ، إن كان ثمة مصير مستقل ، هو نفسه المصير الأمريكي . فالمصير اليهودي خاضع تماماً لإرادة الأمريكية . وهو ، على كل ، أمر متوقّع بعد أن قامت المنظمة الصهيونية العالمية بتوقيع عقد صامت مع الحضارة الغربية يتحول بمقتضاه أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية استيطانية في فلسطين ، أو

ذلك ثورة الحشموينيين ، ثم هدم الهيكل على يد تيتوس ، وهو ما أدى إلى نفي اليهود . وهذا ما يعني أنهم في حالة انتظار ، قابعون داخل تاريخهم المقدس الذي حلّ فيه الإله . وتُستأنف الحلقة بعودة اليهود مرة أخرى إلى فلسطين . وبالتالي ، فإن الاستيطان الصهيوني تعبير عن نمط متكرر ومستمر ومتوق . كما أن دخول المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين ، وقيامهم بذيخ الفلسطينيين ، ليس إلا استمراراً وتكراراً لدخول العبرانيين إلى أرض كنعان وإبادتهم لأهلها .

ويُعبّر نموذج الاستمرار هذا عن نفسه فيما يمكن تسميته القياس التاريخي الزائف الذي يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق . فنجد ، مثلاً ، أن حايم وايزمان يطالب العرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٢٧) بالتفاوض مع اليهود مذكراً إياهم بأنه ، في الفترات العظيمة من التاريخ العربي ، تعاون الشعبان معاً في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة العربية . فالعرب في نظره ما زالوا كما كانوا ، واليهود أيضاً لم يتغيروا ، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهي أمر ثانوي يحسن التغاضي عنه كلية . ومن أطرف الأمثلة على هذا الإيمان باستمرار يسرايل ، وعلى القياس التاريخي الزائف ، ما صرح به أستاذ للتاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود إسرائيل رأوا البحر الأحمر لأول مرة في يونيو عام ١٩٦٧ بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين ، أي بعد عبورهم إياه مع موسى حينما كان يطاردهم فرعون مصر ! وقد كان من الشائع في الولايات المتحدة ، بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة ، أن يحاول بعض المخاضات تفسير أسفار العهد القديم ، مبيّنين أن معارك يونه ليست إلا تكراراً لمعارك حدثت من قبل . ويحاول بن جوريون تبرير عسكرة المجتمع الإسرائيلي بالاجتماع إلى أسطورة الاستمرار ، فيقول : « إن جنود موسى ويوشع وداود لم يكتفوا عن القتال . . . وكذلك جنود صهيون [أي دولة إسرائيل] لن يتوقفوا عن القتال » . ويقوم بعض المعلقين العسكريين الإسرائيليين بعقد المقارنات بين فرسان داود وسليمان ودبابات الجيش الإسرائيلي ، كما يقيمون الندوات لبحث أوجه الشبه والخلاف بين أساليب جدعون وتكتيكات ديان . بل إن الصراع العربي الإسرائيلي بأسره ينظر إليه على أنه استمرار لصراع العبرانيين مع الفراعة والأشوريين والبابليين والفينيقيين . ويتبدى نموذج الاستمرار اليهودي في فكرة النقاء العرقي والحضاري لليهود ، لأن فكرة الاندماج والاختلاط بالأخرين تنسف فكرة الاستمرار من جذورها .

وتذهب الرؤية الصهيونية في تفسير هذا الاستمرار اليهودي إلى أن الوجود اليهودي عبر التاريخ اتبع نمطاً واحداً ، وعبر عن

لنخلص من الروافدين الجدد . وظهرت ، في هذا الإطار ، الصهيونية الخارجية التوطينية التي تُطلق عليها مصطلح «صهيونية الدباسورا» ، وهي صهيونية لا تطلب من المؤمن بها الاستيطان ، وإنما تطلب منه المساهمة في توطين الفاضل البشري اليهودي الذي يهدّد مكانته بالخطر . وقد أثار المشروع الاستيطاني الصهيوني ، وهو مشروع إشنكنازي غربي بالدرجة الأولى ، في الجماعات اليهودية في العالم العربي ، إذ أن مصيرهم اشتبك مع مصير المستوطنين الإشنكناز ، الأمر الذي اضطرهم إلى الخروج من بلادهم العربية وإلى استيطان أعداد منهم فلسطين . ومع هذا ، ظل الوضع الاقتصادي المتني والهوية الحضارية المستقلة داخل المستوطن الصهيوني ، وهو ما يعني أن مصيرهم ليس متوحداً بعد مع مصير الإشنكناز وإن كان الوضع قد بدأ في التغير في الآونة الأخيرة (وقد يصحون جزءاً من المستوطن الصهيوني لهم نفس مصيره) . ومع هذا ، فثمة عناصر تتفاعل داخل المستوطن الصهيوني وتوسّع الهوة بين الإشنكناز ويهود العالم الإسلامي ، وتفرض على كلٍّ مصيراً مختلفاً .

#### القدر اليهودي

Jewish Fate

عبارة مرادفة لعبارة «المصير اليهودي» .

#### الاستمرار اليهودي

Jewish Continuity

«الاستمرار اليهودي» نموذج تفسيري يفترض أن الجماعات اليهودية تكوّن في العصر الحديث كلاً متجانساً على مستوى العالم ، وأن ثمة استمرارية تاريخية وثقافية (بل أحياناً عرقية) تسم ما يُسمّى «التاريخ اليهودي» ، ويُعدّ هذا النموذج عنصرًا محوريًا في الفكر الصهيوني . وانطلاقاً منه ، يذهب الصهاينة إلى أن اليهود المحدثين هم ورثة العبرانيين القدماء ، وأن حكومة إسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة ما هي إلا الكومنتلث اليهودي الثالث . ويرى بعض الصهاينة أن الصهيونية هي تعبير عن هذه الاستمرارية (فأصولها تمتد بعيداً إلى أيام الأنبياء الأوائل) ، وأن الدعوة إلى العودة شيء متصل منذ بداية التاريخ اليهودي إلى الآن : من الأنبياء إلى هرتزل .

وفكرة الاستمرار هذه فكرة حلولية ذات أصول إنجيلية ، إذ أن الوجودان الغربي ينظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية من خلال الكتب المقدسة ، فيرى العبرانيين القدماء يدخلون كنعان ، ثم يرى حكم القضاة فالملوك ، فالسبي البابلي ، فعودة عزرا ونحميا ، وبعد

جوهر يهودي واحد ، فهو أقرب إلى التكرار منه إلى الاستمرار ويأخذ شكلاً هندسياً متسقاً يشبه إلى حد كبير الأساطير البدائية التي تصل إلى درجة عالية من الاتساق العضوي مع نفسها . وعلى أية حال ، فإن هذا الاتساق يجعل الصهيونية نظاماً مغلقاً مكتفياً بذاته لا علاقة له بالواقع المتعين الحي ، وهي في هذا تشبه كثيراً من الأساطير الشمولية مثل الأسطورة النازية . ويوجد الصهاينة نفس القدر من الاستمرارية في ظاهرة معاداة اليهود ، إذ يرون أنها دائمة مادام اليهود في المنفى .

وكما هو الحال مع «البقاء اليهودي» وغيره من المفاهيم الصهيونية ، نجد أن مفهوم الاستمرار اليهودي يعطي اليهودي حقوقاً مطلقة مستمرة لا تقطع ، ويسقط الحقوق القائمة للاخرين . فباسم هذا الاستمرار يدعى الصهاينة لأنفسهم شرعية احتلال فلسطين وطردها . فالدولة اليهودية ، حسب رؤيتهم ، هي وريثة الدولات اليهودية التي قامت منذ آلاف السنين .

### الاستمرار اليهودي : منظور إسلامي

Jewish Continuity : An Islamic Perspective

من المفاهيم الصهيونية المحورية مفهوم الاستمرار اليهودي ، ويُقصد به أن ثمة استمرارية في الصفات الأساسية (الثقافية والدينية بل والعرقية أحياناً) التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية وتفصلهم عن غيرهم من الشعوب والجماعات . وانطلاقاً من هذه الاستمرارية يرى المؤمنون بها أن كلمة «يهودي» تشير إلى يهود العالم في الحاضر والماضي والمستقبل ، وأن كلمة «يهودية» تشير إلى نظامهم العقدي ، وكان سمات اليهود الثقافية لم يطرأ عليها أي تغيير جوهري ، وكذلك موروثهم الديني .

ونحن نرى أن مثل هذا التصور يتنافى تماماً مع الواقع التاريخي ومع الرؤية الإسلامية ، ويمكن أن نسجل الملاحظات الآتية :

١ - لا يملك المدارس المتأني إلا أن يلاحظ وجود تنوع هائل بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العرقي ، فهناك يهود بيض ويهود سود ويهود صفر ، وتختلف أحجام الرأس باختلاف انتماء اليهودي ، كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي/ الإنثي (انظر الباب المعنون «إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية»).

٢ - يلاحظ أن اليهودية ليست عقيدة متكاملة محددة المعالم بشكل معقول فهي أساساً تركيب جيولوجي تراكمي يحوي داخله طبقات عقيدية مختلفة ومتناقضة ، بعضها يقترب من الشرك الصريح

وبعضها يصل إلى التوحيد الكامل ، وهذه الطبقات جميعاً جزء من اليهودية . وإن أمن اليهودي بطبقة دون أخرى ، فهو مع هذا يظل يهودياً من منظور الشرع اليهودي . وفي عهد الهيكل الثاني ، كان الصدوقيون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يجلسون في السهدرين جنباً إلى جنب مع الفريسيين الذين يؤمنون بالبعث واليوم الآخر . وإلى جانب هؤلاء توجد بعض كتب الأنبياء في العهد القديم التي تقترب من التوحيد الخالص ، بل تصل إليه أحياناً . وقد جاء في القرآن الكريم « قالت اليهود عزير ابن الله » (التوبة : ٣٠) وبالفعل ، هناك من اليهود من يستخدم مفهوم ابن الله باعتباره مفهوماً محورياً (انظر : «ابن الله» ) ، ولكن هناك من يهتس هذا المفهوم بل يرفضه تماماً ، ويصر على قدر عال من التوحيد . وهناك العشرات من اليهود في العصور الوسطى في الغرب ممن تقدموا إلى النار التي أضمرت لإرغامهم على الرجوع عن التوحيد ولاقوا حتفهم وهم يرددون أن الإله واحد .

وقد جمع حاخامات اليهود تفسيراتهم للعهد القديم في التلمود الذي يسمي أيضاً «الشرعية الشفوية» ، وجعلوا الإيمان بهذه الشرعية الشفوية أساساً للمقيدة اليهودية يفوق في الأهمية الإيمان بالتوراة (الشرعية المكتوبة) . والتلمود يحوي آراء أقل ما توصف به أنها تُناقض أية رؤية توحيدية . وقد ازداد الأمر سوءاً بظهور تراث القبائل التي وصفها بعض الحاخامات بأنها شرك صريح . وكان هناك إلى جوار هذا كله أشكال من اليهودية غير الحاخامية مثل يهودية القلاشاه في إثيوبيا ويهودية بني إسرائيل في الهند . وازدادت المسألة ارتباكاً في العصر الحديث مع ظهور اليهودية الإصلاحية واليهودية التجديدية واليهودية المحافظة ، وهي صيغ مخففة من اليهودية بعضها لا يؤمن أتباعه بأن التوراة موحى بها ، وبعضها لا يؤمن بالبعث ، وهكذا . ثم ظهر لاهوت موت الإله الذي ينطلق من فكرة أن الإله مات مع الإباداة النازية (ليهود الغرب) ، وأن الدولة اليهودية حلت محل الإله ! ثم ظهر أخيراً اليهود المملحن والإثنويون الذين يرون أن يهوديتهم تكمن في خواص عرقية أو إثنية أو حتى نفسية لا علاقة لها بالدين .

٣ - كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم «يهوداً» وهذا أمر يحدث في كثير من العقائد حين يرفض شخص ما معيارية عقيدة ما ويرفض الاحتكام لها (مثل الإيمان بالإله في الإسلام والمسيحية واليهودية) ومع هذا يستمر في ادعاء الانتماء لها . ويلاحظ أن المسيحية والإسلام لا يمكن أن يقبل مثل هذا الشخص في حظيرة الدين . فرغم وجود قدر من الاختلاف والتنوع وعدم التجانس يسمح به

وواضح أن في هذين الموضوعين إحالة إلى موروثات قديمة يمكن أن يتناقها اليهود ، أياً كانت أصولهم العرقية ، عن بني إسرائيل ، أي يهود عصر موسى ، الأمر الذي يفتح الباب لإمكانية توجيه الخطاب العام (اليهودي) بصفة الخاص (بنو إسرائيل) الذي هو مسئول مسئولية مباشرة عن هذه الموروثات .

وهذا التمييز مفهوم تماماً في إطار الواقع التاريخي . فيهود المدينة والجزيرة العربية كانوا يؤمنون بصياغة دينية يُقال إنها شبه توحيدية ، فهم في أغلب الظن لم يكونوا يعرفون التلسود حتى مع احتمال أن يكون قد تم جمعه آنذاك . (ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن الفكر السبئي (نسبة إلى عبد الله بن سبأ) يدل على تصاعد العنصر الحلولي في اليهودية) . وقد كان يهود الجزيرة العربية منغزلين عن يهود العالم ، وعن مراكز الدراسة التلمودية والفقهية في فلسطين وبابل ، بل ويُقال إن يهود العالم آنذاك لم يكونوا يعتبرونهم يهوداً .

ومن هنا تكون التفرقة بين يهود عصر موسى ويهود المدينة ، ومن هنا تكون ضرورة افتراض عدم وجود استمرار يهودي ، فلا بد من التفرقة بين يهود الماضي من جهة ويهود العالم الحديث في أيامنا هذه من جهة أخرى ، فالمدجالان الدلاليان لكلمتي «يهودي» و«بني إسرائيل» كما وردتا في القرآن محدودان ولا يتطابقان بالضرورة على يهود العصر الحديث .

وربما كان من المفروض أن تولد داخل المعجم العربي الإسلامي ، من البداية ، مجموعة ألفاظ للإشارة إلى المدلولات المختلفة : «بنو إسرائيل» ، و«اليهود بالمعنى القرآني» ، و«اليهود عبر التاريخ» ، و«اليهود في العصر الحديث» ، وهكذا . وقد حاولنا من جانبنا أن نولد مبدأ مجموعة من المصطلحات مثل : «العبرانيون» للإشارة إلى اليهود القدامى كجماعة عرقية ، و«جماعة إسرائيل» للإشارة إليهم كجماعة دينية ، و«الجماعات اليهودية» للإشارة إلى الجماعات البشرية عن اتفق عرفاً أنهم يهود ، وهو حل مؤقت للمشكلة إلى حين بحثها فقهياً ولغوياً . ولعل الفقهاء لم يتوجهوا لهذه المشكلة بالحماس المطلوب ، لأن اليهود لم يكونوا يمثلون إشكالية خاصة أو مستقلة داخل التشكيل الحضاري الإسلامي نظراً لعدم أهميتهم وبسبب استقرار وضعهم داخل الحضارة الإسلامية بعد استقرار مفهوم أهل الذمة . أما في القرن العشرين ، بعد تركّز غالبية يهود العالم داخل الحضارة الغربية العلمانية أو في الدولة الصهيونية ، فإن الوضع جدٌ مختلف ويتطلب فتح باب الاجتهاد والنظر في هذه المسألة .

النسق الديني الإسلامي والمسيحي إلا أن ثمة معيارية نهائية لابد من قبولها . هذا على عكس اليهودية التي تفتقر إلى مثل هذه المعيارية ، فلم تبين تعريفاً عقيدياً وحسب (اليهودي هو من يؤمن باليهودية) ، ولكنها تبنت أيضاً تعريفاً بيولوجياً مادياً (اليهودي هو من ولد لأم يهودية) ، وفي الآونة الأخيرة تبنت تعريفاً نفسياً (اليهودي هو من يشعر بذلك في قرارة نفسه ، ومن قبل أن يربط مصيره بمصير الشعب اليهودي) ، وهذه تعريفات تُسقط المعيارية وتفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يُسمي نفسه يهودياً . فالتعريفان الثاني والثالث لا علاقة لهما بأية معيارية عقيدية . ولذا يمكن الحديث عن «يهودي ملحد» ، أي يهودي لا يؤمن بالإله ، ولكن لا يمكن أن نتحدث عن «مسلم ملحد» أو عن «مسيحي ملحد» .

انطلاقاً من كل هذا سنطرح مجموعة من الإشكاليات وسنستشهد في الإجابة عليها لتبيين استحالة افتراض الاستمرار اليهودي (الثقافي أو البيولوجي) من منظور إسلامي :

١ - إشكالية المجال الزمني لمصطلح «يهودي» (هل يشير إلى كل يهود العالم في كل زمان ومكان ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، أو إلى يهود المدينة أيام البعثة المحمدية وحسب ؟) :

لفظ «يهودي» في اللغة من «هاد» أي «تاب ورجع إلى الحق» و«التَّوَهُدُ» هو «التوبة والعمل الصالح» . ويُقال أيضاً «هاد» و«تهود» أي «صار يهودياً» بمعنى أنه يؤمن بالعقيدة اليهودية . ولكن كلمة «يهودي» ليست الكلمة الوحيدة التي تدل على اليهود في القرآن ، فقد وردت عدة مصطلحات أخرى : بني إسرائيل [٤١ مرة] ، واليهود [٨ مرات] ، وهود [٣ مرات] ، والذين هادوا [٩ مرات] ، وأوتو الكتاب [١٢ مرة] ، وأهل الكتاب [٣١ مرة] .

ومن الواضح أن القرآن الكريم لا يفترض وجود استمرارية بين يهود العالم ، ولذا وردت هذه المصطلحات غير المترادفة ليُعبّر كل مصطلح عن وضع زمني ومكاني مختلف . فالقرآن يُفرّق تفرقة واضحة بين اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية وتعامل المسلمون معهم في فترة البعثة المحمدية من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى . فمصطلح «بني إسرائيل» جاء مخصصاً للحديث عن يهود عصر موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل ، ولم يُستخدم هذا اللفظ تخصيصاً ليهود عصر البعثة المحمدية إلا في موضعين (من المواضع الإحدى والأربعين) وهما :

- «سل بني إسرائيل كم أتيناكم من آية بينة» (سورة البقرة - ٢١١) .  
- «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون» (سورة النمل - ٧٦) .

٢ - التناقض بين تعريف العقيدة اليهودية لليهودي والتعريف الإسلامي له :

كلمة «يهود» في الإسلام تعني «أتباع الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام» . ورغم أنهم قاموا بتحريفه أو أضروا على اتباع المحرف منه إلا أن ثمة مبادئ أساسية وردت فيه لم يتم تحريفها من بينها الإيمان بالله واليوم الآخر .

هذا التعريف الإسلامي لو طُبق على يهود العالم الحديث لثم استبعاد ما يزيد عن ٩٠٪ منهم . أو إذا توخينا الدقة لقلنا لا يستبعد ٥٠٪ منهم (الملاحدون واللائدريون) ولتستغذر نقسبُ ٤٠٪ (الإصلاحيون والمحافظون والتجديديون) كيهود ، وربما قبل الـ ١٠٪ الأرثوذكس (فقط) كيهود . وحتى هذا أمر خلافي بسبب تزايد النزعة الحولوية التي هيستت على اليهودية المخاخامية . والمسلم لا يمكنه إلا أن يستبعد أولئك الذين لا ينطبق عليهم التعريف الإسلامي لليهودي ، حتى لو سموا أنفسهم «يهوداً» ، وحتى لو قبلتهم الشريعة اليهودية كيهود .

وقد تنبه الشهرستاني (صاحب الملل والنحل) إلى ظاهرة عائلية إذ أشار إلى أن الجماعة التي تسمى «الصابئة» في العراق ليسوا هم في حقيقة الأمر بالصابئة الذين يشير إليهم القرآن ، فهؤلاء جماعة غنصية تدعى «المنادية» اتخذت الاسم بغية أن يُعاملوا معاملة أهل الكتاب ، أي أن كلمة «صابئة» (كما عرفها القرآن) لا تنطبق في واقع الأمر على هؤلاء الذين يُسمون أنفسهم «صابئة» .

٣ - التناقض بين مفهوم الاستمرار اليهودي ومفهوم الفطرة في الإسلام :

افتراض الاستمرار اليهودي ، البيولوجي والثقافي ، يتناقض مع إحدى القيم الحاكمة الكبرى في الإسلام ، وتقصده به مفهوم الفطرة . فالإنسان - حسب التصور الإسلامي - يُولد على الفطرة ، وإن كان ثمة صفة وراثية فهي الفطرة الإنسانية والاستعداد لعمل الخير ، وهو مفهوم يضع على الفرد عبء المسؤولية الخلقية وي طرح إمكانية التوبة الدائمة (من جانب المخلوق) وإمكانية المغفرة (إن شاء الخالق) . ومن ثم فإن فكرة الاستمرار اليهودي تُشكل سقوطاً في الشئق العنصري العلماني الشامل الذي يرى الإنسان محكوماً بموروثه البيولوجي أو الاقتصادي أو العرقي أو مجموعة من الحتميات المادية الأخرى . ومن الواضح أن النص القرآني حذّر من ذلك ففرّق بين اليهود عموماً من ناحية وبين الصالحين والطالحين منهم من ناحية أخرى ، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه من خير أو شر ، مُلتزماً في ذلك طريقة العدالة والصدق .

والإنسان المسلم مُلزم أولاً وأخيراً بالتعامل مع اليهود والمسيحيين من خلال مفهوم أهل الذمة الذي حدد حقوقهم وواجباتهم وأكد المساواة الكاملة والمطلقة بينهم وبين المسلمين ، ولم يطرح تصوراً لوجود استمرار بيولوجي أو ثقافي بينهم .

٤ - الفوائد العملية لافتراض الاستمرار اليهودي :  
رغم وضوح الموقف الإسلامي من فكرة الاستمرار اليهودي ، هناك من يرى قيمة تعبوية عملية في التأكيد على النزوع اليهودي الأزلي والحتمي والطبيعي ، في كل زمان ومكان ، نحو الشر (وهو أمر مخالف لتعاليم الإسلام - كما أسلفنا) . ومثل هؤلاء يرون أن أية عملية للفرقة بين اليهود والصهانية وبين اليهودية والصهيونية وبين يهود الماضي ويهود الحاضر هي عملية أكاديمية تضيع الوقت ولا جدوى من ورائها ، وأن من الأفضل أن يتم التعامل مع الأمور على إطلاقها .

وابتداءً ، فإن هذا الموقف العملي المادي يتنافى مع القيم الأخلاقية المطلقة (المُرسلّة من الله) . فالإنسان المؤمن يرفض التنازل عن قيمه بسبب نفع مادي . ولكن حتى على المستوى العملي ، نجد أن يتبيّن هذا المنطق خطر لأقصى درجة للأسباب التالية :

أ) افتراض وحدة اليهود سيقبل مقدرتنا على رصد الظواهر اليهودية والصهيونية إذ سنكتفي برصد العموميات دون رصد المنحنى الخاص للظواهر ، وسنبحث عن الدلائل والقرائن التي تدعم وجهة نظرنا دون النظر إلى خصوصيات الظواهر .

ب) عادة ما يذهب دعاة الاستمرار اليهودي إلى أن اليهود مسئولون عن الشرور كافة ، الأمر الذي ينسب لهم قوى شيطانية خارقة تُؤدّد الرعب في قلب المجاهد حتى قبل دخول الحرب .

ج) ينسب دعاة الاستمرار اليهودي أولوية سببية لليهود ويجعلهم المتحكمين في شئون العالم بأسره الأمر الذي يقلب الأولويات تماماً ، وخصوصاً في زمن النظام العالمي الجديد . فالدولة الصهيونية ، في واقع الأمر ، إن هي إلا أداة في يد الاستعمار الأمريكي على وجه الخصوص ، والغربي على وجه العموم ، وهذا هو العدو الحقيقي الذي يحاول أن يفرض منظومته على العالم فيحسّوه إلى سوق ومصنع ، والدولة الصهيونية هي الوسيلة والجزء وليست الغاية والكل .

د) مثل هذا المنطق الذي يرى مجموعة بشرية غير متجانسة كتلة بيولوجية واحدة يُكرّس رؤية علمانية عنصرية تُقوض دعائم القيم الأخلاقية وضرورة الحكم الأخلاقي الفردي على الآخر . وفي منطقة مثل منطقتنا العربية الإسلامية ، حيث تُوجد أقبليات عديدة



(دينية وإثنية ولغوية) عاشت عبر مئات السنين داخل الفسيفساء الإسلامية الثرية ، نجد أن مثل هذا المنطق يؤدي إلى تفجرات عرقية وإثنية ودينية وربما أثنى إلى تآكل العقد الاجتماعي الإسلامي .  
 (ها رؤية اليهود باعتبارهم كلاً لا يتجزأ تصوّر صهيوني يرى أن من الصعب تفكيكهم ، ويرى أن من الصعب على العناصر اليهودية الراضية للصهيونية (وللحلولية الوثنية) أن تنشط وتظهر وتبهر عن نفسها . ومثل هذا الطرح يتجاهل الحقيقة التاريخية ، وهي أن الصهيونية حركة إحدانية معادية لليهودية وتطرح نفسها بديلاً لها . ولذلك ، فإن الطرح المجرد والتصميمي ، وقبول الأمور على إطلاقها ، سيجعل الاستفادة من هذه التناقضات الداخلية أمراً صعباً ، وسيؤدي إلى القضاء على العناصر الراضية .

(و) يلاحظ أن كثيراً من الحركات العلمانية الإحدانية في أوروبا ، في القرن الثامن عشر ، كانت تخشى الهجوم على المسيحية ومؤسساتها نظراً لوجود قطاعات كبيرة في المجتمع الغربي كانت لا تزال تؤمن بالمسيحية . ولذا ، بدلاً من الهجوم المباشر على المسيحية ، كان يتم الهجوم على اليهود اليهودية . وكان بعض دعاة الخطاب الإحداني يلمحون إلى أن اليهودية نموذج لأي دين وأي نظام عقدي يستند إلى الغيب ، وأصبح الهجوم على اليهود واليهودية أكبر دعاية إحدانية . ولم تنبئ الكنيسة لهذه الشفرة إلا في وقت متأخر . والهجوم على اليهود (والنصارى) يحمل حتماً تضييقات إحدانية ، فهو هجوم غير واع على النموذج الإيماني ككل ، طالما تضمن هجوماً على الوحي/ الغيب .

(ز) إذا كان الهدف هو شحذ الهمم للجهاد ، فلا بد أن يتم هذا من منطلقات إسلامية وديباجات إسلامية ، إذ أن تقبّل أطروحات الآخر وديباجاته (كل اليهود صهيانية - كل اليهود سواء - اليهودي هو من وكّد لأم يهودية) هو سقوط في منطقتهم وفقدان للهوية . والإسلام يدعو إلى الجهاد ضد أعدائه ، وضد من يسلبون حقوق المسلمين دون السقوط في أية عنصرية \* وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين \* (البقرة : ١٩٠) . ويقول تعالى \* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير \* (الحج : ٣٩) .

٥ - اليهودية كنموذج عام :

رغم ارتباط دال «يهودي» بأزمة وأمكنة محدّدة ، ورغم أن دال «يهودي» يشير إلى مجموعة من العقائد إلا أن بالإمكان القول بأن إحدى استخدامات كلمة «يهودي» في القرآن لها مجال دلالي عالمي متحرر من الزمان والمكان . واليهودي حسب هذا التعريف هو

الشخص الذي تتوفر فيه مجموعة من السمات (بغض النظر عن انتماهات العقائدية) . ويمكن هنا مقارنة استخدام الدال «يهودي» باستخدام الدال «فرعون» فهو دال يشير إلى شخص بعينه وإلى واقعة تاريخية محددة ومع هذا لم يُقصر أمر استخدامه على هذا الشخص أو هذه الواقعة . كما لم يربط أي من المفسرين الدال «فرعون» بحكام مصر المحدثين (إلا من قبيل المجاز) . ويبدو أن دوال مثل «مصري» أو «فرعون» دوال تشير إلى وقائع تاريخية محددة وإلى سمات وأنماط بشرية متكررة تنفصل عن سياقها التاريخي لتصبح ذات مدلول أخلاقي عام يصلح لكل زمان ومكان .

وإن أخذنا بهذا الرأي فيمكن القول بأن اليهودي كنموذج واليهودية كنموذج يتسمان بالسمات الأساسية للجماعات والعقائد الحلولية الكومونية ويتضح هذا في عدة جوانب :

(أ) يرى القرآن أن اليهود يصغون دينهم بصيغة مادية ، ويتضح هذا في ميلهم الشديد نحو التجسيد . « وإذ قلّم يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة \* (البقرة : ٢٥٥) . ويتضح هذا الاتجاه في اتخاذهم العجل إلهاً . والميل نحو التجسيد الذي يتحوّل إلى عبادة للأوثان هو سمة أساسية في العقائد الحلولية .

(ب) تتضح الحلولية والزور نحو المادية والتجسيد في الفهم اليهودي للنصوص المقدّسة فهو فهم يتسم بالظاهرية والحرفية ، ولذا فقد فهموا دعوة القرآن للإتفاق في سبيل الله باعتباره قرصاً لله ، إذ قالوا « إن الله فقير ونحن أغنياء \* (آل عمران : ١٨١) .

(ج) حينما يصبح الإنسان موضع الحلول في المنظومات الحلولية فإنه يتأله فينسب لنفسه الخلود . وقد وصف القرآن اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة وبأنهم يكرهون الموت ويخافونه ولا يتسنونه أبداً . (وهو ما يتناقض مع قولهم بأنهم أولياء الله وأنهم أبناء الله وأحباؤه) ، وهم لهذا لا يقاتلون غيرهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر . وحكى القرآن عنهم أنهم طالبوا أنبياءهم بالقتال في سبيل الله بعد إخراجهم من مصر فلما كُتب عليهم القتال تولوا ، بل وعندما دعاهم موسى عليه السلام للقتال ودخول الأرض المقدّسة قالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون .

(د) تعبّر المنظمة الحلولية عن نفسها في موقنين متناقضين الأول زيادة الحدود والطقوس والاهتمام الشديد بالتفاصيل ، والثاني إلغاء الحدود والطقوس تماماً . ويظهر هذا في الوصف القرآني لليهود إذ يصغفهم بالشدّد فقد قست قلوبهم حتى أصبحت أشد قسوة من الحجارة وهو ما جعلهم يمتنون مع الأنبياء فرفضوا أن يؤمنوا بنبي ما لم يأتيهم بقربان تأكله النار (آل عمران : ١٨٣) ، وأكثروا من السؤا

عالم الحواس الخمس يرفض تجاؤره . فكان كلمة «يهودي» هنا تصف الإنسان الحلولي الكموني الذي يتصف بهذه الصفات ، يهودياً كان أم مسيحياً أم مسلماً أم ملحداً . ولعل هذا التماثل هو الذي يجعل البعض يتصور أن اليهود مسئولون عن الشرور كافة ، وما فاتهم أن وصف اليهودية في القرآن هو وصف لعقيدة حلولية وأن وصف اليهود هو وصف لأتباع عقيدة حلولية ، وأن هذا الوصف لا ينطبق على اليهود من يدورون في إطار الحلولية وإنما ينطبق كذلك على كل أتباع العقائد الحلولية المختلفة ، سواء كانوا من أتباع عقيدة الشنتو اليابانية ، أو الفلسفة النيتشوية الألمانية ، أو العلمانية الشاملة .

### البقاء اليهودي

Jewish Survival

«البقاء اليهودي» عبارة تتواتر في التواريخ المتأثرة بالرؤية الصهيونية ، بل نجدتها دائماً مقرونة بكلمة «معجزة» . ومصطلح «البقاء اليهودي» مرتبط بمصطلحات صهيونية أخرى مثل «الاستمرار اليهودي» و«الشعب اليهودي» و«التاريخ اليهودي» و«الشخصية اليهودية» ، وهي جميعاً تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يُقال لها «اليهود» احتفظت بهويتها المستقلة ، رغم انتقالها من مكان إلى آخر ، ورغم تواجدها في أزمنة مختلفة . وعادة ما يُقارن هذا البقاء اليهودي باختفاء بعض الشعوب الأخرى مثل اختفاء الآراميين والبابليين ، وحدثت بعض الشعوب الأخرى مثل العرب .

وهذا المفهوم ، مثل غيره من المفاهيم الصهيونية ، يفترض نوعاً من الاستمرار والوحدة والتجانس لا وجود له على مستوى النسق الديني أو على مستوى الجماعات اليهودية . فبقاء اليهود لم يكن مطلقاً ، فمن الوقائع الأساسية في التاريخ العبراني واقعة تهجير القبائل العبرانية العشر من سكان المملكة الشمالية إلى آشور ، ثم لم يُسمع بهم بعد ذلك ، ولا يزال البحث عنهم جارياً . وقد أصدر حاخام السفارد الأكبر فتوى بأن الغلشاه من قبيلة دان (إحدى هذه القبائل) . والقول نفسه ينطبق على يهود الحزر الذين لا نعرف شيئاً عن مصيرهم إلا إذا كانت بقاياهم قد انجذبت إلى المجر ومنها إلى بولندا واستقرت هناك . كما أن نسبة كبيرة من اليهود تخفتي من خلال الاندماج . ولذا ، فرغم أن عدد اليهود في القرن الأول الميلادي كان يصل (حسب بعض الإحصاءات) إلى ما يقرب من سبعة ملايين ، فإن عددهم في القرن السابع الميلادي لم يتجاوز المليون .

عن المحرمات بشكل أدى إلى تضييقهم على أنفسهم . فقد أحل الله لهم كل الطعام إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فتشددوا جدالاً وسؤالاً حتى حرم عليهم كل ذي ظفر ومن الغنم والبقر الشحوم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا (الأنعام : ١٤٦) ، وهو تشريع يؤكد إغراقهم في التفاصيل ويبيّن إلى أي حد أكثر اليهود من السؤال والاختلاف حتى حرم الله عليهم بعض ما أحل لهم عقاباً لهم . وفي خروجهم من مصر تشددوا مع موسى عليه السلام في مطالبهم فطلبوا منه أن يدعو الله أن يخرج لهم نباتاً مختلفاً لأنهم لا يصبرون على طعام واحد (البقرة : ٢٦١) ، وتنعكس قصة البقرة التي رواها القرآن إلى أي حد عذبوا أنفسهم وضيعوا على أنفسهم بالسؤال مرات عديدة عن صفة البقرة وعندما ذبحوها أطاعوا الله بعد مشقة (البقرة : ٦٧ - ٧١) .

هـ) أما الجانب الآخر للحلولية وهو إلغاء الحدود تماماً فينتضح في أن اليهود يحولون أنفسهم إلى مرجعية ذاتهم فهم يبحثون عن دين يجعلهم شعباً مختاراً . وبدلاً من طاعة الإله يطوعونه ، ولذا فهم يستخدمون الدين استخداماً نوعياً . فلم يؤمن بنو إسرائيل لرسول ما لم يأت بما تهوى أنفسهم « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرقياً كذبتم وفرقياً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . وتقصهم ينبع من عملية تؤنّف الذات هذه فقد وصف القرآن اليهود في غير موضع بنقض العهود (« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور . . . ثم توليتهم من بعد ذلك » [البقرة : ٦٣ - ٦٤] . « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . . ثم توليتهم إلا قليلاً » [البقرة : ٨٣] ) « وأوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » [البقرة : ١٠٠] . فقد نبذوا عهود الله وعهود الأنبياء وعهود الناس ، وإن كان الوصف القرآني الدقيق ينسب نبذ العهد إلى فريق وعدم الإيمان إلى الأكثرية لا إلى كل اليهود .

و) وتتضح الحلولية وتطعيم الحدود في أن العقيدة اليهودية ، كما يصفها القرآن ، ليست لها معيارية ثابتة وإنما تتداخل مع العقائد الأخرى . ولذا فاليهود يتأثرون بعقائد وثقافات الأمم التي يعيشون بينها أو يحتكون بها \* قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة \* (الأعراف : ١٣٨) وهذا ما نعبر عنه بعبارة «اليهودية كتركيب جيولوجي تراكمي» .

إن وصف القرآن لليهود وللعقيدة اليهودية هو في واقع الأمر وصف لأتباع أية عقيدة حلولية . وقد لاحظ كثير من المفسرين تشابه وصف اليهود في القرآن مع بعض سمات الإنسان العلماني الشامل الحديث الذي يتوّن ويتأله ويصبح هو ذاته مرجعية ذاته ، ويعيش في

ويمكننا أن ننظر إلى بعض آليات بقاء بعض الجماعات اليهودية ، فبالنظر مثلاً أنه بعد القضاء على المملكة الشمالية قُبِضَ للمملكة الجنوبية البقاء بسبب انصوائها في كنف الإمبراطورية الآشورية ثم البابلية ، وهو أمر متوقَّع إذ كيف تستطيع دولة صغيرة أن تضمن لنفسها البقاء إلا بهذه الطريقة ؟ هذا أمر يذكره ديَّان في كتاباته ، كما يدرسه كل المفكرين والساسة الصهاينة الذين يَصْرُوْنَ على عقد تحالف مع دولة عظمى لحماية الكيان الصهيوني ، والذين لا يقومون بأية عملية عسكرية إلا بعد الحصول على غطاء من دولة عظمى . وقد انتهى الوجود العبراني حينما وقتت المملكة الجنوبية في وجه القوة البابلية العظمى . والبقاء إشكالية أساسية في كتب الأنبياء ، ولذا فإنهم يحاولون دائماً العثور على إستراتيجية ما لتحقيقه مع الاحتفاظ بهوية دينية توحيدية .

ومع اختلاف دولة يهودا الجنوبية ، اختلف الوجود العبراني . فالعائدون من بابل كانوا قد نسوا العبرية - المصدر الأساسي لهويتهم الدينية - كما كانوا قد تأثروا وتأثراً عميقاً بالتراث الديني في بابل . ويعودتهم تبدأ الجماعة اليهودية مرحلة جديدة في تاريخها ، إذ يتحقق بقاؤها لا بسبب استقلالها وإنما نتيجة خضوعها لتقوى عظمى أخرى مثل القوة الفارسية ومن بعدها القوة اليونانية . كما يتحقق هذا البقاء لا بسبب تمسك الجماعة اليهودية بهويتها ، وإنما نتيجة تَعَبُرْ هذه الهوية من هوية ذات طابع ديني قومي تَعَبُرْ عن نفسها من خلال الدولة إلى هوية دينية إثنية تَعَبُرْ عن نفسها من خلال مؤسسات مختلفة خاضعة للقوة الإمبراطورية ، مثل الكاهن الأعظم والساهدين وأمير اليهود (بطريك) . وحينما اصطدمت الجماهير اليهودية تحت قيادة الغيورين بالقوة الرومانية ، تم القضاء على فلسطين باعتبارها مركزاً لليهود اليهودية . ومع هذا ، لم يتم القضاء على اليهود بوصفهم قوماً (إثوس) ، لا بسبب معجزة البقاء ولكن لأن القضاء على اليهود لم يكن أحد أهداف الرومان الذين كانوا يعتبرون اليهود أصدقاء لهم ، بدليل أن تيتوس كان يحارب إلى جانبه جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني . وقد حققت اليهودية البقاء لأن الرومان سمحوا ليوحنا بن زكاي بأن يؤسس مدرسة يفتة التي تم تطوير أسس اليهودية الحاخامية فيها .

وقد ضمن أعضاء الجماعة اليهودية بقاهم داخل التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي لاضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، وهو دور يتطلب عزلة أعضاء هذه الجماعة وبقاهم بشخصيتهم المستقلة ، وذلك حتى يمكنهم القيام بوظيفتهم هذه على أكمل وجه تحت حماية الطبقات الحاكمة التي تستخدمهم كأداة .

وهناك أمثلة كثيرة على أقليات دينية إثنية أخرى تمتعت بما يُسمَّى «معجزة البقاء» هذه عبر عدة قرون ، دون أن تنصهر في محيطها الثقافي ، وذلك لقيامها بنشاط اقتصادي واجتماعي محدد كما تفعل الجماعات الصينية في جنوب شرقي آسيا .

وبما ساعد على بقاء اليهود أن قوى المركزية وكذلك التوحيد الإداري لم تكن قوية لا في العالم المسيحي الغربي ولا في العالم الإسلامي ، كما هو الحال في معظم المجتمعات التقليدية ، الأمر الذي خلق المجال لوجود جيوب إثنية ولبقائها واستمرارها . كما أن العقائد الدينية السائدة في المجتمعات المسيحية سمحت ببقاء اليهود ، بوصفهم الشعب الشاهد الذي يقف شاهداً على عظمة الكنيسة وصدق العقيدة المسيحية . ولذا ، كانت الكنيسة الكاثوليكية تحمي بقاهم وتدافع عنهم . أما في المجتمعات الإسلامية فقد صُنِّفَ اليهود باعتبارهم من أهل الكتاب في الإسلام ، حيث حددت حقوقهم واجباتهم منذ البداية ، وأصبح من واجب الدولة الإسلامية حمايتهم . وقد حقق أعضاء الجماعات في العصر الحديث بقاهم بالطريقة نفسها تقريباً ، إذ أحرزوا البقاء بأن أصبحوا جزءاً من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي . ويحقق يهود جنوب أفريقيا بقاهم بالعيش في سلام في كنف الجيب السكاني الأبيض ، ولن يزولوا أبداً إلا بزواله . كما أن أعداداً كبيرة منهم تُحَقِّقُ البقاء في أمريكا اللاتينية بالابتعاد عن الحركات اليسارية والقومية ، وبالتعاون مع النظم الشمولية . وقد حققوا قدراً كبيراً من البقاء في أمريكا الشمالية بتقبُّل مثل المجتمع والتعامل مع الواقع من خلالها .

ويأخذ البقاء اليهودي شكل التكيف مع المحيط الثقافي بحيث يصبح اليهودي جزءاً من كل ، فيضمن لنفسه بذلك البقاء والاستمرار ، ومن هنا تنوع وعدم تجانس الجماعات اليهودية وسمتها الجيولوجية ، فلا يوجد يهودي خالص ولا يهودي عالمي بل هناك يهود أمريكيون ويهود صينيون ويهود عرب ، وهكذا .

وقد أحرزت اليهودية نفسها البقاء عن طريق تغيير هويتها تغييراً جوهرياً ، فقد بدأت عبادة يسرايلية ، هي عبادة يهوه بعد أن دخلت عليها عناصر كنعانية ، ثم انفتحت على التراث الديني البابلي بنزعه العالمة ، وبمعتقداته الخاصة بيوم الحساب . وانفصلت هذه العبادة عن الدولة والملك لتربط بالهيكل ، ثم انفصلت عن الهيكل على يد الفريسيين . وفي الوقت نفسه ، تعدلت الشريعة حيث لم تُعدَّ شرعية تغطي كل جوانب الحياة وإنما بعض جوانبها وحسب . وقبلت اليهودية قوانين الدولة التي يعيش اليهود في ظلها انطلاقاً من أن شرعية الدولة هي الشريعة . وقد تعدلت اليهودية بشكل جوهري بعد

وكلمة «هور» من كلمة «حوريس» ، فهي إذن مدينة الإله حوريس الذي لا يعرف أهل دمنهور عنه شيئاً !

ولكن حتى لو أخذنا بالمقولة الصهيونية القائلة بمعجزة البقاء هذه ، فإننا نجد أنها ليست حالة مقصورة على الجماعات اليهودية ، فالبقاء الصيني مثلاً مستمر وثابت يهتز بجواره هذا البقاء اليهودي . وإذا نظرنا إلى التشكيل الحضاري السامي ككل أخذ في التشكل ، فإننا سنجد أن المرحلة البابلية الآشورية وما يتبعها من مراحل وتشكيلات (مثل الفينيقيين والآراميين والكنعانيين وغيرهم) إنما هي مراحل وتشكيلات أولية وسديمية في التاريخ العربي أخذت في التبلور إلى أن عبرت عن نفسها من خلال التراث العربي الإسلامي الذي حافظ على سماته الأساسية منذ ذلك الحين . وبالتالي ، فإن الشعوب المعاصرة للعبرانيين لم تخف وإلما استمرت وبقيت ، وأخذ استمرارها وبقاؤها أشكالاً مختلفة متجانسة وغير متجانسة وصلت إلى تحدُّها الأخير في التشكيل الحضاري العربي .

وحتى لو كان البقاء اليهودي معجزة وحقيقة ، فهو لا يعطي صاحبه أية حقوق ولا يفرض عليه أية واجبات . فالبقاء ليس فضيلة أو رذيلة ، وإنما هو حقيقة تاريخية لا يقبلها المرء ولا يرفضها ، بل يرصدها ويدرسها ويركها فحسب . فبقاء اليهود لا يعطي يهود روسيا وأوكرانيا أية حقوق في الاستيطان في فلسطين ، حتى إن أرادوا ذلك وأصروا عليه أو شعروا بحاجة نفسية جامحة إليه .

وتتجلى مقولة البقاء في علاقة الدولة الصهيونية بالجماعات اليهودية ، فالأطروحات الصهيونية الأولى تنادي بنفي الدياسورا ، أي تصفيتها وإنهاء بقائها تماماً لصالح المشروع الصهيوني . ولكن هذا الموقف تعدل ، وأصبح الهدف هو استغلال الجماعات وتوظيفها لصالح المشروع الصهيوني . ويحاول الصهاينة في الوقت الحالي أن يربطوا بين بقاء الدولة الصهيونية والبقاء اليهودي خارج فلسطين ، بحيث يُنظر إلى الدولة الصهيونية باعتبارها الضمان الوحيد لاستمرار بقاء اليهود ، فهي التي ستساعدهم على عدم الاندماج في الأغيار ، وهي التي ستحمي هويتهم ، كما أنها ستمد يد العون إلى أعضاء الجماعات اليهودية الذين قد يشعرون بأن وجودهم الجسدي نفسه مهدد الفناء . ومع هذا ، يمكن القول بأن الدولة الصهيونية لم تقم بدورها الذي حددته لنفسها . فمن ناحية الاندماج ، لم تنجز الدولة الصهيونية شيئاً في هذا المضمار ، فالثقافة السائدة فيها ثقافة غريبة حديثة ذات طابع أمريكي . ومعدلات الاندماج بين يهود العالم لا تزال عالية ، الأمر الذي يهدد بقاءهم من منظور صهيوني . كما أن الدولة الصهيونية لا تساعد حتى على بقاء اليهود جسدياً . فعلى

حركة الإعتاق وتداعي أسوار الجيتو ، فظهرت اليهودية الإصلاحيية والمحافظة والاتجاهات اليهودية المختلفة ، أي أن البقاء اليهودي الديني قد تحققت هو الآخر نتيجة التغيرات الجوهرية التي غيرت هوية اليهودية تغييراً شاملاً .

وقد اختلف كثير من العناصر التي ضمنت بقاء اليهود في التشكيل الحضاري العربي ، وذلك بظهور الدولة الحديثة والطبقات والمؤسسات التي تضطلع بوظائف الجاساعات الوظيفية وتحل محلها . وكان على اليهود أن يعيدوا صياغة هويتهم وشروط بقائهم بالشكل الذي يتفق مع الأوضاع الجديدة . وهنا يطرح السؤال التالي : هل سيتمكن أعضاء الجماعات اليهودية من البقاء بعد أن اختلف دورهم كجماعة وظيفية وسيطة يعملون بالتجارة والأعمال المألوفة مثل الربا وبعد ظهور نظام عالمي مصرفي وشركات متعددة الجنسيات ؟ وإن هم ضمنوا البقاء لأنفسهم ، فهل ستثمر هذه العملية يهوداً يعدون استمراراً لليهود ما قبل عصر الانعتاق ؟ يمكننا القول - في محاولة الإجابة على هذه الأسئلة - بأن حركتي اليهودية الإصلاحيية والمحافظة ، اللتين تشمان معظم يهود الولايات المتحدة المتدينين ، قد نجحتا في ضمان بقاء اليهودية عن طريق إعادة صياغتها بطريقة تتفق مع المواصفات السائدة في المجتمع العلماني المعاصر في الغرب . وهنا يمكن أن نطرح سؤالاً آخر : هل توجد صلة قوية بين هؤلاء واليهودية الحاخامية التي سبقت حركة الإصلاح الديني ؟ وإذا أردنا أن نجيب عن هذا السؤال من داخل النسق الديني اليهودي نفسه ، فإن يوسنان أن نشير فقط إلى حكم اليهود الأرثوذكس ، الورثة الحقيقيين لليهودية الحاخامية ، الذين يذهبون إلى أن هؤلاء ليسوا يهوداً ولا علاقة لهم باليهودية .

إن ما حدث ليس معجزة بقاء وإنما هو استمرار وجود لدال (اليهود واليهودية) مع تغير وتغير في المدلولات . فكلية «يهودية» التي كانت تشير إلى نسق ديني يتسم بحد أدنى من الوحدة أصبحت تشير إلى عدد هائل من الحركات الدينية التي لا يربطها رابط . وكذلك فإن مصطلح «يهودي» أصبح يشير إلى مجموعات غير متجانسة من البشر . إن بقاء اليهود بهذا المعنى لا يختلف مثلاً عن بقاء الدماهرة (أهل دمنهور) ، وهي مدينة مصرية في دلنا النيل استمرت منذ بداية التاريخ البشري تحمل نفس الاسم وتوجد في نفس المكان ، ومع هذا لا توجد علاقة كبيرة بين الدمنهوري العربي المسلم المعاصر والدمنهوري الذي عاش في نفس المدينة منذ آلاف السنين في المدينة التي سُميت باسم الإله حوريس التي يُقال إنه وُلد فيها أو بالقرب منها وسُميت باسمه ، فكلية «دمن» معناها «مدينة» ،

قيمة طبيعية ، فكل الكائنات الحية تبذل جهداً كبيراً للبقاء وبأية شروط ، متجاوزة قيم الخير والشر . وبالتالي ، فلاهوت البقاء لاهوت غير أخلاقي نابع من النموذج الدارويني الذي يؤكد ضرورة الصراع من أجل البقاء » و «البقاء للأصلح » ، أي أنه خطاب علماني يستخدم ديباجات دينية .

وهناك بعض المفكرين الصهاينة والإسرائيليين يرون أن رغبة يهود العالم الملحة في البقاء وتمسكهم به هما السبب في تدني الشخصية اليهودية وظيفتها ، وأن الملايين التي ذهبت إلى أفران الغاز في معسكرات الاعتقال والإبادة دون مقاومة فعلت ذلك من أجل البقاء بأي ثمن وتحت أية شرط وأنهم فقدوا كرامتهم الإنسانية بذلك .

ومقابل ذلك ، يطرح الصهاينة عدة أساطير انتحارية ، أهمها أسطورة ماسادا ، حيث يقرر الإنسان اليهودي التخلي عن البقاء في سبيل الشرف ، وأسطورة شمشون حيث يقرر تدمير ذاته وتدعيم الآخر . وهذه الرؤية تنفق على الطرف النقيض من واقع تكثيف وبقاء يهود العالم .

### التمركز اليهودي

#### Juden-Centricity

«التمركز اليهودي» مصطلح وضع على منوال مصطلحات مماثلة مثل «إثنو سنترستي ethno-centricity» أي «التمركز حول الإثنية» أو «يورو سنترستي fiam-centricity» ، أي «التمركز حول الأوروبية» . وهو يشير إلى المفهوم الكامن وراء كثير من الدراسات والتصورات عن أعضاء الجماعات اليهودية ، ذلك المفهوم الذي يتجه نحو رؤية الأمور والأحداث لا في نعتيها ، ولا في علاقتها بالقرى التي أدت إلى ظهورها أو التي تدخل في تركيبها أو في معناها العام ، وإنما في مدى تأثيرها في اليهود وتأثرها بهم وبمغزاها بالنسبة إليهم . وبالتالي ، فإن السؤال الذي يطرحه الشخص المتمركز تمركزاً يهودياً هو : هل هذا الأمر نافع لليهود أم ضار ؟ وما معناه بالنسبة إليهم ؟ ذلك بدلاً من : هل هو نافع للجنس البشري أم ضار ؟ أو ما معناه بالنسبة للجنس البشري ؟

والتمركز اليهودي يؤدي إلى عزل اليهود عن مجرى الأحداث التاريخية العامة التي تتحكم بشكل أو بآخر في كل الجماعات البشرية الأخرى ، وكأن لهم قوانينهم الخاصة التي تجعلهم سراً من الأسرار تحيطهم هالة من الغموض الميتافيزيقي . وترجع ظاهرة التمرركز إلى عدة عناصر ثقافية واقتصادية ، من بينها الحلولية اليهودية التي تسم

سبيل المثال ، لم تقم الحركة الصهيونية بجهد يذكر للحفاظ على بقاء أعضاء الجماعات في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية ، بل عارضت الجهود الرامية إلى توطينهم خارج فلسطين . وبعد إعلان الدولة ، دخلت الحكومة الصهيونية في علاقات تخدم مصالحها هي ، بغض النظر عن مصالح أعضاء الجماعات ، مثلما حدث مع الأرجنتين ومثلما يحدث الآن بالتحالف القائم بين حكومة إسرائيل والجمعيات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة (وهي جمعيات تمثل مجموعة من القيم لا تخدم صالح هذه الجماعات ، بل تدعو بشكل ضمني إلى تصفيتها عن طريق تصيرها) . وحتى إن أرادت الدولة الصهيونية الحفاظ على بقاء إحدى الجماعات اليهودية ، فهي لا تملك من القوة العسكرية ما يؤهلها لإنجاز ذلك . وحينما اقتربت القوات الألمانية من الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية ، أعد بعض المستوطنين الصهاينة خطة للانتحار إن وصلت هذه القوات إلى فلسطين . بل إن المستوطنين في الدولة الصهيونية ، وأعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، يدينون بأنهم وبقائهم لدولة عظمى تتمتعهم رضاها وراعيها ، وهذه قضية تذبذب الوجدان الصهيوني الذي يزداد إدراكاً لاعتمادها المتزايد على الولايات المتحدة .

والكتابات الصهيونية التي تنتهي دائماً بمجزئة البقاء اليهودي ، تشير دائماً إلى الإبادة النازية لليهود ، وإلى خطر الفناء الذي يهدد اليهود إما من خلال الاندماج أو على يد المنظمات الإرهابية العربية ، ثم تهييب باليهود للدفاع عن بقائهم ، وهذه ديباجة مختلفة تماماً عن سابقتها . ومن الموضوعات الأساسية المطروحة في الأدبيات الخاصة بأعضاء الجماعات اليهودية «موت الشعب اليهودي» ، أي تناقص أعضاء الجماعات اليهودية إلى درجة التلاشي تقريباً .

ويجد بعض الدارسين أن هذا الاهتمام المرضي بموضوعات مثل البقاء والإبادة وغيرها ، قد سبب خللاً نفسياً عميقاً لأعضاء الجماعات اليهودية ، وخصوصاً الأجيال الناشئة التي تغلغ الدعاية الصهيونية وجدانتها بفخار البقاء اليهودي الأزلي الحتمي ، وتشبعها رعباً من خطر الفناء الوشيك الذي ينتظر اليهود في كل زمان ومكان ، فمثل هذه النظرة المتطرفة لا تساعد كثيراً لا على التضج ولا على الطمأنينة . وقد حوكت اليهودية التجديدية البقاء إلى مطلق ، وأصبح معيار الإيمان مدى الالتزام ببقاء الشعب اليهودي . وقد ظهر في الفكر الديني اليهودي ما يُسمى «لاهوت البقاء» الذي يحوّل البقاء إلى قيمة مطلقة وهدف نهائي ، بحيث يصبح البقاء الغاية من الوجود اليهودي الديني ، ويكون الشعب اليهودي ببقائه قد حقق الهدف الأخلاقي من وجوده . لكن البقاء ليس قيمة أخلاقية وإنما هو

أمراً مقصوداً على اليهود وهدم دون عشرات الطوائف والأقليات والشعوب الأخرى ، مثل الأكراد أو الأرمن أو النوبيين ! ويظهر التمرکز اليهودي بشكل حاد في تناول كثير من المؤلفين الغربيين اليهود وغير اليهود لظاهرة الإبادة النازية ، وهي أحد إفرازات الحضارة الغربية الحديثة التي أودت بحياة الملايين من اليهود وغير اليهود داخل وخارج معسكرات الاعتقال . ومع هذا ، لا حديث إلا عن ضحايا النازية من اليهود ، ويتم إهمال الإشارة إلى ملايين الضحايا الآخرين الذين يسوق عددهم عدد الضحايا اليهود .

ومن الناحية السياسية ، قامت الحركة الصهيونية بترجمة هذا التمرکز اليهودي إلى سلوك سياسي ، فعزلت اليهود عن الحركات القومية والثورية في أواخر القرن التاسع عشر ، وأكدت ضرورة أن يعمل اليهود لصالح اليهود وحسب وألا يشاركوا الأغبيار في أنشطتهم . وكان هرتزل ينطلق من هذه المقولة دائماً ، ولذا فقد تعاون مع كبار الرجعيين في الغرب ومن بينهم ألد أعداء اليهود فون بليفيه وزير الداخلية الروسي . ويُنَبِّئ أن الحركة الصهيونية مستفصل الشباب اليهودي عن نشاط الأغبيار الثوري من خلال ترسيب طقاتهم داخل قوات يهودية صهيونية . وقد اتخذت الحركة الصهيونية موقفاً مائلاً من النازية فلم تحاول تجنيد أعضاء الجماعة لينخرطوا في صفوف حركة المقاومة ضد النازية .

ولا تزال هذه هي إستراتيجية الصهيونية في الوقت الحالي ، فنجد أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة تزداد محافظةً ورجعيةً وتتخلى عن ليبراليتها التقليدية وتتبنى سياسة الحرب الباردة وتضع نفسها في خدمة النظام العالمي لأن ذلك يخدم مصلحة اليهود وإسرائيل من وجهة نظرهم . ومن أكبر الأمثلة وضوحاً على التمرکز اليهودي في الأونة الأخيرة عملية نقل الفلاشاه وإنتقامهم . فقد تجاهلت الدولة الصهيونية كل ضحايا المجاعة الآخرين ، ولم تقدم لهم المعونة ، بل قصرت مساعدتها على اليهود وحسب . وقد شجب القس جيسي جاكسون هذا السلوك لأنه يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية .

ويمكن القول بأن ثمة تمرکز صهيونياً مقابل التمرکز اليهودي ، بمعنى أن الصهيونية تحكم على الواقع وعلى تواريخ الجماعات اليهودية لا في سياقها الإنساني أو حتى اليهودي العام ، ولا من ناحية معناها الإنساني أو حتى اليهودي العام ، وإنما في سياق صهيوني عقائدي ضيق . وانطلاقاً من هذا ، طرح الصهاينة مفاهيم مثل نفي (الدياسبورا) ، أي تصفية الجماعات اليهودية خارج

النسق الديني اليهودي الذي يجعل اليهود مركز الكون ومحوره والهدف من وجوده . كما أن وجود الجماعات اليهودية على هيئة جماعات وظيفية في كثير من المجتمعات - والجماعة الوظيفية تكون أساساً جماعة غربية متماسكة إثنياً - خلق لديها استعداداً للتمرکز حول الذات من الناحية الإدراكية .

والصهيونية ، في رؤيتها لتواريخ الجماعات اليهودية وفي برنامجها السياسي ، متمركزة تمرکزأ يهودياً تماماً . فهي في قراءتها هذه التواريخ تراها تاريخاً يهودياً واحداً ذا مركز يهودي واحد وحسب ويعبر عن نفسه من خلال حركات يهودية . وبالتالي ، فإن موسى بن ميمون ليس مفكراً عربياً يؤمن باليهودية ، فتفاعل مع التراث العربي الإسلامي وتأثر به ، بل هو أحد العلماء الدينين اليهود وحسب . ويُنظر إليه لا في علاقته بمحيطه الحضاري وإنما في علاقته بالعلماء اليهود في البلاد الأخرى ، مع أن بعضهم عارض النزعة العقائدية التي كان يمثلها ، بل كثره بعض هؤلاء وطلبوا من محاكم التفتيش حرق أعماله .

ومن أهم الأمثلة على ذلك واقعة ليو فرانك ، وهو يهودي أمريكي عاش في جنوبي الولايات المتحدة وحكم بتهمة اغتصاب فتاة مسيحية وقتلها ، ولكنه بُرِّئ من تهمة فاخطفه بعض المتظاهرين وشقوه وعلقوه من قدميه . وهذه العملية تُسمى في الإنجليزية الأمريكية «اللينشينج lynching» . ويأتي ذكر هذه الواقعة في الدراسات التي تتناول تاريخ الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بطريقة توحي بأنها مغط متكرر وبأن أعضاء الجماعة كانوا ضحايا القمع العنصري في الجنوب .

ولكن الحقائق التاريخية العامة تقول إن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا مندمجين تماماً في محيطهم الحضاري الأمريكي وأن عدد الزوج الذين قُتلوا بطريقة اللينشينج في الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ يبلغ ألفين وخمسمائة ، بينما لا يزيد عدد الضحايا اليهود في الفترة نفسها على فرد واحد فقط هو ليو فرانك نفسه .

ويُنظر إلى الشنتل والجيستو من هذا المنظور ، فهما من وجهة النظر اليهودية مؤسستان يهوديتان تعبران عن رغبة اليهود في الاستقلال القومي ، ولا تُعتبران من المؤسسات الإقطاعية أو طريقتين من طرق الإدارة التي كانت تُطبَّق على أعضاء الجماعات اليهودية وغير اليهودية دون تمييز أو استثناء .

ويُخلص الصهاينة من قراءة التاريخ بهذه الطريقة التمركزة تمرکزأ يهودياً إلى الحديث عن اليهود باعتبارهم جماعة فريدة متميزة ، ثم يتحدثون عن معجزة البقاء اليهودي ، كما لو كان البقاء

سيطرهم على فلسطين ثم هدموا الهيكل في نهاية الأمر . ومرحلة الهيكل الأول تضم عدة فترات سياسية تختلف تماماً عن فترة الهيكل الثاني التي تضم بدورها ثلاث أو أربع فترات مختلفة .

ولهذا ، فلكي نفهم تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية ، يجب وضعهما في سياقهما التاريخي ، بالنظر إليهما من خلال تاريخ الإمبراطوريات العظمى في المنطقة . كما ينبغي الاعتماد عن المصطلحات الدينية العقائدية التي تنتشر استغلال اليهود التام عن الحضارات والشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها . هذا ، وتشير الأدبيات الإسرائيلية إلى الدولة الصهيونية باعتبارها «الهيكل الثالث» .

### الكومنولث اليهودي

Jewish Commonwealth

«الكومنولث اليهودي» مصطلح أوربي يُستخدم للإشارة إلى المرحلة التي ارتبط فيها تاريخ فلسطين بوجود يهودي سياسي مستقل أو شبه مستقل ، وهو متأثر بالتاريخ المقدس الذي يعتمد بناء الهيكل أو هدمه كواقع أساسي وإطار مرجعي . وتنقسم هذه المرحلة إلى مرحلتين :

أولاً : الكومنولث الأول :

يشير مصطلح «الكومنولث الأول» إلى الفترة الممتدة من ١٢٥٠ ق.م حتى ٥٨٦ ق.م ، وهي الفترة التي شهدت اتحاد القبائل وحكم القضاة ، ثم فترة حكم داود التي بدأت بتوحيده القبائل العبرانية في المملكة العبرانية المتحدة التي حكمها ابنه سليمان من بعده ، ثم انقسامها إلى مملكتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) ، وسقوطها في يد الآشوريين والبابليين على التوالي .

ويشير المصطلح على وجه التحديد ، إلى الفترة من ١٠٠٤ ق.م (حكم داود) إلى ٥٨٦ ق.م (سقوط المملكة الجنوبية على يد البابليين) .

ثانياً : الكومنولث الثاني :

يشير مصطلح «الكومنولث الثاني» إلى المرحلة التي تبدأ بشوكة الحشمونيين على حكم السلوقيين في عام ١٦٥ ق.م وإعلانهم استقلال البلاد بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً . وقد زاد الحشمونيون عدد اليهود عن طريق التبشير باليهودية وفرضها على الشعوب الواقعة تحت حكمهم مثل الأرمينيين . وقد سقط هذا الحكم اليهودي المستقل بقيام الرومان بغزو المنطقة عام ٦٣ ق.م ، فاختفى وجود اليهود السياسي المستقل تقريباً .

فلسطين لحساب المستقبل الصهيوني ، كما طرحوا مفهوم مركزية إسرائيل في حياة الجماعات . ومن هذا المنظور وقّع الصهانية معاهدة الهعفراف (التهجير) مع النازيين ، وتعاون رودولف كاستنر مع أيخمان وسلّم يهود المجر إلى النازيين مقابل أن يُسمح لبعض الصهانية بالهجرة إلى فلسطين .

### الهيكل الأول والهيكل الثاني

First and Second Temples

يستخدم بعض المؤرخين مصطلحي «مرحلة الهيكل الأول» و«مرحلة الهيكل الثاني» للإشارة إلى مراحل ما يُسمى «التاريخ اليهودي» .

ومرحلة الهيكل الأول ، فيما يذكر هؤلاء المؤرخون ، تبدأ مع بناء الهيكل في عهد سليمان عام ٩٦٠ ق.م أو قبل ذلك بقليل (مع بداية مؤسسة المملكة العبرانية عام ١٠٢٠ ق.م أو باحتلال داود سدة الحكم عام ١٠٠٤ ق.م) ، ثم تنتهي بسقوط المملكة الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م . أما مرحلة الهيكل الثاني ، فتبدأ عام ٥١٦ ق.م مع عودة اليهود من بابل إعادة تشييد الهيكل ، وتنتهي بتحطيم تيتوس له عام ٧٠ ميلادية .

وإذا كان الحديث عن الكومنولث الأول والكومنولث الثاني ينطلق من فكرة وجود اليهود ككيان سياسي مستقل ، فإن تقسيم ما يُسمى «التاريخ اليهودي» إلى مرحلتين الهيكلين الأول والثاني يفترض أن التاريخ الديني لليهود هو الذي يقرر مسار تاريخهم بل مسار تاريخ كل سكان فلسطين من يهود وغير يهود ، وهو افتراض عقائدي حلولي لا سند له في الواقع ، بل يتناقض مع الصياغات التوحيدية اليهودية .

وعبارة «الهيكل الأول» و«الهيكل الثاني» نفترض وجود نمط متكرر ووجود تشابه بين النمطين ، وهو أمر تنفيه الوقائع . ففي المرحلة السامية فترة الهيكل الأول ، كان العبرانيون يشكلون دولة مستقلة هي دولة سليمان وداود (المملكة العبرانية المتحدة) . ثم انقسمت هذه الدولة إلى دولتين عبرانيتين ، فاستقلت المملكة الجنوبية بالهيكل وبنى ملوك المملكة الشمالية أماكن مستقلة للعبادة . وحينما أعيد بناء الهيكل ، بناء على أمر قورش ، لم تُسترجع معه الحكومة العبرانية إذ صار اليهود مجرد قوم من الأقوام التابعة للدولة الفارسية يترأسهم الكهنة . وظل هذا الوضع حتى التمردد الحشموني ، حين استقلت الأسرة الحشمونية وأصبح كبير الكهنة هو الملك الحشموني ، وهو أمر لم يدم طويلاً إذ ظهر الرومان وبسطوا

سيتحقق في لحظة يتجلى فيها النظام الكامل (نهاية التاريخ المسيحية).

والتركيز على الكوارث ، واعتبارها أساساً للتأريخ وتقسيم التاريخ إلى فترات ومراحل ، ظاهرة مرضية ترك أثرًا سلبيًا في نسبة أعضاء الجماعات اليهودية . ومن الصعب تحديد سبب واحد لتفسيرها . ولكن بما لا شك فيه أن التركيز على الكوارث يساعد على تماسك الهوية ، إذ يميل البشر نحو التضامن في وقت المحن .

ولكن أهم الأسباب هو محاولة بعض المؤرخين اليهود أو غير اليهود، المتأثرين بالإدراك الإنجيلي لليهود ، العثور على عنصر واحد مشترك بين تجارب أعضاء الجماعات اليهودية التاريخية يصلح مسوغاً لاستخدام مصطلح «تاريخ يهودي» . ولو أننا قارنا تاريخ الجماعة اليهودية في إسبانيا والأندلس بتاريخ أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا ، فلن نجد أية عناصر مشتركة ، إذ أن كل جماعة لها تاريخ مستقل عن الأخرى . فتاريخ الجماعة اليهودية في إسبانيا ، يبدأ قبل الميلاد ويعبر بمراحل مختلفة قبل الفتح الإسلامي وإبانه وبعده ، ويستمر إلى أن يطرد اليهود منها مع من تبعي من المسلمين .

وقد تفاعل يهود إسبانيا مع الحضارة الإسلامية فتحدثوا العربية وأبدعوا أدباً عريباً وفكراً عريباً يهودياً ، ثم تفاعلوا مع الحضارة المسيحية في إسبانيا وظهرت بينهم لهجة اللادينو ، كما ظهر بينهم يهود المارانو . وبعد طردهم ، استوطنوا مدن حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كان أكبر تجمع لهم في سالونيك ، كما استقروا في بعض المراكز التجارية في أوروبا من أهمها أمستردام . ولا يوجد أي عنصر مشترك بين هذه التجربة التاريخية وبين تجربة اليهود الذين استوطنوا بولندا في القرن الثاني عشر إبان حروب الفرنجة وتزايد عددهم من خلال هجرة يهود الخزر والذين كانوا يتحدثون لغة ألمانية هي اليديشية . ولكنهم نتيجة ارتباطهم بطبقة النبلاء البولنديين ، تعرضوا للسنخ الشعبي الفلاحي . وحين قُسمت بولندا ، تم تقسيم أعضاء الجماعة اليهودية بين روسيا وألمانيا والنمسا . وحدث بينهم انفجار سكاني في منتصف القرن التاسع عشر ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى الولايات المتحدة حيث تم دمجهم بسرعة ، كما تم دمج بقيةهم في روسيا وأوكرانيا . وإذا بحثنا عن عنصر مشترك ، فلن نعثر إلا على الاضطهاد والكوارث التي تعرض لها كل من يهود إسبانيا وبولندا .

ولكن إذا دققنا النظر ، فإن مصدر هذه الكوارث ليس يهودية اليهود وإنما الوظائف التي اضطلعوا بها باعتبارهم جماعة وظيفية في المجتمعات التي وجدوا فيها . فأساس الوحدة هنا ليس التاريخ

وتقسيم تواريخ الجماعات اليهودية إلى فترات ، مثل الكومنولث الأول والثاني أو الهيكل الأول والثاني ، يفترض استقلال هذا التاريخ عما حوله ، وهو افتراض غير واقعي مطلقاً ، ذلك أن ظهور الكومنولث الأول ، على سبيل المثال ، مرتبط بالفراغ السياسي المؤقت في الشرق الأدنى القديم ، كما أن انهياره مرتبط بحركة الإمبراطوريات الكبرى . ولذا ، فإن استخدام مثل هذه المصطلحات ليس دقيقاً ، ومقدرته التفسيرية محدودة . ومن الأفضل أن نحدد هذا التاريخ بالعودة إلى إطاره المرجعي الصحيح ، أي تاريخ الشرق الأدنى القديم .

وعلى أية حال ، لم تزد مدة الوجود اليهودي السياسي المستقل أو شبه المستقل في البقعة الجغرافية الحضارية التي تُعرف باسم فلسطين على ثلاثمائة عام ، تسبقها آلاف السنين من الحضارات السامية غير العبرانية وغير اليهودية ، ويتبعها ما يزيد على ألفي عام من الحضارات العربية الإسلامية وغير الإسلامية . ومع هذا ، يرى الصهاينة أن أي وجود غير الوجود اليهودي هو عرض زائل وظاهرة مؤقتة ، وأن إسرائيل الحديثة وحدها هي الاستمرار الحقيقي والوحيد لتاريخ هذه الأرض ، ولذا يُشار إليها في الأدبيات الصهيونية بمصطلح «الكومنولث الثالث» .

### التاريخ من خلال الكوارث

#### Disaster-Based Historiography

«التاريخ من خلال الكوارث» عبارة تستخدم للإشارة إلى اتجاه بعض كتّاب ما يُسمّى «التاريخ اليهودي» حيث يركزون على ما يحوّل بالجماعات اليهودية من كوارث . ويبدأ هذا التاريخ - حسب هذه الرؤية - بالخروج من مصر نتيجة قيام الفراعنة باضطهاد جماعة إسرائيل ، ويعقبه سقوط الهيكل الأول والسبي البابلي ثم سقوط الهيكل الثاني وطرد اليهود من فلسطين والقدس ونفيهم في كل بقاع الأرض . ثم تعقب ذلك عمليات الطرد المتكررة من بلاد أوروبا ، والمذابح التي راح اليهود ضحيتها . وتصل الكوارث إلى قمتهما في الهولوكوست (أي المحرقة) . وكما كان المؤرخون في الماضي يتحدثون عن «مرحلة ما قبل أو ما بعد الهيكل الأول أو الثاني» ، فإنهم الآن يتحدثون عن «ما قبل ما بعد أوشفيتس» .

والرؤية التي تركز على الكوارث هي نتاج ما نسميه «الثنائية الصلبة» المرتبطة بالرؤية الحولوية الكمونية والتي تقسم العالم إلى الأنا والآخر ، المقدّس والمدنّس ، وهي ثنائية تعبر عن نفسها هنا في رؤية التاريخ اليهودي باعتباره مجال الفوضى الكاملة (الكوارث) ولكنه



## التسامح مع اليهود ك مفهوم تحليلي

"Tolerance" towards the Jews as an Analytical Concept

«التسامح» من المعايير التي عادةً ما تُستخدم في دراسة تواريخ الجماعات اليهودية إذ يحدد المؤرخ موقفه من شخصية أو مرحلة تاريخية على أساس مدى التسامح الذي تمتع به أعضاء الجماعات اليهودية على يد هذه الشخصية أو تلك أو إبان هذه المرحلة أو تلك . ونحن نذهب إلى أن المقدرة التفسيرية لمقولة التسامح ضعيفة للغاية ، فالتسامح قيمة أخلاقية مطلقة يتعين على الإنسان أن يتمسك بها ويدافع عنها ، وهي حالة عقلية وسمعة إنسانية يتسم بها بعض البشر دون غيرهم . ولكن كل هذا لا يجعل التسامح صفة في الظاهرة موضع الدراسة ، وإنما هو سمة يتسم بها بعض البشر ممن يوجدون داخل الظاهرة ولا يتحكمون فيها في كليتها . إن مقولة التسامح مقولة أخلاقية مطلقة بينما الظواهر التاريخية مركبة . والتسامح أمر متعلق بإرادة الإنسان ويتم بحرية الأفراد ورغبتهم ، أما الظواهر التاريخية فكثير من أبعادها يقع خارج نطاق الرغبة والإرادة والاختيار . ولذا ، فإن محاولة تفسير ظاهرة ما تفسيراً مركباً يتطلب منذ البداية رؤية تتركيبها التاريخية قبل الحكم الأخلاقي عليها .

ولبيان تركيبيتها الظواهر وعجز مقولة التسامح بمفردها عن تفسيرها سنضرب مثلاً بـ «تسامح» ملوك بولندا ونبلائها تجاه اليهود، فقد قاموا بتوطينهم في بولندا وشجعوهم على الاستيطان فيها . ولكن «التسامح» هنا نابع من رؤية أعضاء النخبة الحاكمة في بولندا لليهود كجماعة وظيفية استيطانية يمكن الاستفادة منها . فالهدف عملي إلى حد كبير ، كما أن التسامح هنا يؤدي إلى اضطهاد الآخرين ، فالطبقة الحاكمة أبدت تسامحاً واضحاً مع أعضاء الجماعة اليهودية حتى يتسنى لها استخدامهم كأداة لقمع الفلاحين والأقنان في بولندا وليتوانيا وأوكرانيا .

وفي واقع الأمر ، فإننا نجد أن التسامح الغربي مع اليهود هو في العادة تعبير عن هذا الموقف وهذا الإدراك لنفع اليهود وإمكانية الاستفادة منهم كأداة في استغلال الآخرين ، أي أنه لا يعبر عن تسامح أخلاقي حقيقي فيه تقبُّل للآخر . ولعل موقف بلفور (وكل الصهانية من غير اليهود) هو خير تعبير عن هذا الموقف الذي يتم بلا شك عن تسامح مع اليهود حيث وقف إلى جوارهم حتى أعلن الوعد المعروف باسمه عام ١٩١٧ . ولكن من الواضح أن تسامحه هذا نابع من رغبته في وضع اليهود في خدمة المصالح الإمبريالية البريطانية بحيث يحولهم إلى أداة لقمع العرب واغتصاب أرضهم . ومن ثم ، نجد أن بلفور المتسامح هو نفسه الذي حاول أن يوقف هجرة يهود

اليهودي وإنما الوظيفة التي اضطلع بها كثير من الجماعات اليهودية في أنحاء العالم ، شأنها شأن كثير من أعضاء الأقليات الدينية والإثنية الأخرى .

والتواريخ التي تستخدم الكوارث كنقطة مرجعية أساسية تحاول قدر إمكانها أن تجعل اليهود ضحية وحسب مقابل الأغيار . وهي ، لتحقيق هذا ، تستبعد العناصر الإيجابية من التجارب التاريخية للجماعات اليهودية . فعلى سبيل المثال ، يجري التركيز على تخليط الهيكل ، أما واقعة إعادة بنائه بامر قورش إمبراطور الفرس فتُذكر بشكل عارض . ويُذكر أن أنطيوخوس الرابع (إبيفانيس) اضطهد اليهود دون ذكر حقيقة أن الحضارة الهيلينية فتحت صدرها لهم فاندمجوا فيها تماماً . وتؤكد التواريخ أن نفي اليهود من فلسطين وشتمهم كان نتيجة العنف الروماني الموجه ضدهم والذي تمثّل في هدم الهيكل ولا تُذكر حقيقة أن انتشار اليهود من فلسطين ظاهرة تاريخية سبقت تخليط الهيكل ، أو أن الانتشار كان نتيجة إتاحة الفرص أمامهم ، أو أن عددهم خارج فلسطين قبل هدم الهيكل كان أكبر من عددهم فيها . ويأتي ذكر أن الكنيسة اضطهدت اليهود في العصور الوسطى ، في حين يتم استبعاد قرب اليهود من النخبة الحاكمة وتمتعهم بمستوى معيشي مرتفع يفوق مستوى بقية السكان . كما تلجأ مثل هذه التواريخ إلى إسقاط دور بعض أعضاء الجماعة اليهودية في الكوارث التي تحيق بالجماعة ككل . فلا يأتي ذكر أن النخبة اليهودية الشريفة كانت تؤيد موقف الرومان من المتطرفين اليهود ، أو أنه كان يوجد جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني يحارب إلى جوار تيتوس ، أو أن بيرنيكي أخت أجريبا كانت عشيقته للإمبراطور ، أو أن يوسيفوس فلافيوس كان مترجمه الخاص . ويصل هذا الاتجاه إلى قمته في الهولوكوست (المحرقة) حيث يُسندل ستار كشيء من الصمت على تعاون عدد لا بأس به من اليهود مع النازيين ، بل يصبح الحديث عن تعاون النازيين والصهانية شيئاً محرماً .

وأخيراً ، تلجأ هذه التواريخ إلى تصوير اليهود باعتبارهم الضحية الوحيدة . فحينما يقوم البابليون بسبي وتهجير كثير من الأقوام السامية في فلسطين والشام لا يُذكر سوى العبرانيين ، وحينما يبعد النازيون الملايين لا يُذكر أي من السلاف أو العنجر أو المعوقين أو غيرهم ممن تمت إبادتهم ، وذلك حتى تظل الأضواء مسلطة على اليهود وحدهم . وكما أسلفنا ، فإن عمليات التأكيد والاستبعاد تهدف إلى ترسيخ غوذج اختزالي بسيط هو أن اليهود ضحية وحيدة مقابل الأغيار ، الذنب الدائم .

في علاقة تعاقدية مع بقية أعضاء المجتمع (وهذا ما كان يعنيه ماركس بنهويد المجتمع) وهي علاقة خاضعة لقواعد عامة ، ومن ثم تتوارى الهويات الخاصة ويتم التحرك في رقة الحياة العامة ، وهي الرقة التي يفقد فيها الجميع خصوصياتهم ويصبح الإنسان إنساناً طبيعياً مادياً (إنسان اقتصادي أو إنسان جسماني) . والإنسان ، داخل هذا الإطار ، غير مطلوب منه تقبُّل أية خصوصيات دينية أو إثنية ، فاليهودي لا يقابل المسيحي ويقبله ، كما أن المسيحي لا يقابل اليهودي ويقبله (باعتباره الآخر) وإنما يجب أن يتخلى اليهودي عن يهوديته والمسيحي عن مسيحيته على أن يلتقي الجميع عند مستوى علماني مجرد من رقة الحياة العامة باعتبارهم مواطنين . ويتم تقبُّل اليهودي بمقدار تخليه عن يهوديته أو بمقدار إظهاره الاستعداد للتخلي عن هويته ، فالتسامح هنا ليس تسامحاً مع الآخر وإنما هو ترُصُّب به ، وهي ليست عملية مساواة وإنما عملية تسوية . إن ما يقابله الإنسان العلماني في رقة الحياة العامة هو الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني ، وهي أنماط عامة يمكن التعامل معها بكفاءة ويمكن التسامح معها بسهولة إذ أن التسامح هنا لا يعني ضبط النفس أو كبح الذات . وهذا ما عناه دعاة التنوير حينما قالوا إن على اليهودي أن يصبح إنساناً في الشارع يهودياً في منزله ، فهي تعني أن على اليهودي أن يصبح إنساناً طبيعياً في رقة الحياة العامة ، أي في معظم حياته . وحينما قرر دعاة التنوير إعطاء اليهود كل شيء كمواطنين ولا شيء كمتجم ديني مستقل نسبياً ، فهم كانوا يطالبون اليهودي بأن يصبح إنساناً طبيعياً ، ومادة بشرية نافعة .

ولكن إخفاء الهوية وعزلها ، والاحتفاظ بها في المنزل ، يوديان إلى ضمورها واختفائها في نهاية الأمر . وهنا نجد أن التسامح ليس شكلاً من أشكال عدم الاكتراث ، وإنما هو أيضاً محاولة للقضاء على الهويات المختلفة وعلى الآخر حتى يصبح الجميع مواطنين منتجين ومستهلكين (فقط) يتم تمييزهم حسب المواصفات التي تضعها الدولة . ويُلاحظ أنه ، بعد انتشار التسامح في المجتمع الغربي ، وبعد أن تمت مساواة أعضاء الجماعات اليهودية بغيرهم من الجماعات والأفراد ، وبعد أن أصبح وجودهم يستند لا إلى المواثيق الخاصة وإنما إلى الحقوق الثابتة (أي بعدما أصبح اليهود مواطنين) ، فإنهم أخذون في الاختفاء إذ يترك اليهودي عزله ويندمج هو وغيره من أعضاء الأقليات مع بقية المواطنين ليصبح الجميع في بوتقة الوطن ويصبحوا نمطاً واحداً . ولذا ، يُلاحظ أنه ، مع تزايد التسامح ، تزايدت معدلات موت الشعب اليهودي وتناقص أعداده . ولذا ، فإن بعض الصهاينة يرون أن الاضطهاد هو وحده الكفيل بتحقيق وحدة

اليهودية إلى إنجلترا ، واستصدر من القوانين ما يكفل ذلك حينما كان رئيساً للوزراء . فكان تسامحه مع المشروع الاستيطاني الصهيوني تعبير عن رغبته الصادقة في التخلص منهم وتوظيفهم . ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن نابليون بونابرت وغيره من الزعماء الغربيين ممن أبدوا تسامحاً كبيراً تجاه اليهود .

وأحياناً تكون الرغبة في التسامح حقيقية ولكن القوى التاريخية البنوية (التي تتجاوز التوايا) تكون أقوى منها ، فحينما استولى كاسترو على الحكم في كوبا كان معروفًا بتعاطفه مع أعضاء الجماعة اليهودية ، كما كان يرغب صادقاً في أن يستفيد من خيراتهم . وللتعبير عن نواياها الحسنة تجاه أعضاء الجماعة اليهودية بذلت الحكومة الكوبية قصارى جهدها لتوفير اللحم المذبوح شرعياً لهم ، غير أن التحولات الاقتصادية الجوهريّة ، وتأميم كثير من القطاعات الاقتصادية التي كان اليهود مركزين فيها ، دفع أعضاء الجماعة لأن ينزحوا عن كوبا ، ولم يجد التسامح نصيباً .

وحينما انتُخب النظام الاشتراكي في شيلي بزعامة الليبتي ، نزح كثير من أعضاء الجماعة اليهودية عنها ، رغم أن النظام منح الأقليات حريات واسعة ، ولكن أعداداً كبيرة منهم عادت مع حكم بينوشيه رغم أنه حكم شمولي . ولكل ذلك ، فإن مقولة التسامح لا يمكن أن تفسر شيئاً .

وقد يكون التسامح شكلاً من أشكال عدم الاكتراث بالهوية ، ففي المجتمعات التعاقدية الحديثة لا يدخل الأعضاء في علاقة كاملة جوآنية وإنما يدخلون في علاقة جزئية براتية وحسب ، فالإنسان يتعامل مع الآخر لا باعتباره إنساناً وإنما باعتباره مهندساً أو بائعاً أو سمساراً ، وبالتالي فالهوية الإنسانية لشخص ، أو سماته المختلفة ، تصبح غير ذات موضوع . وقد كان هذا وضع اليهود في الحضارة الغربية إذ كان يتم التسامح معهم كتنجار ، وكان وضعهم يستند إلى مواثيق خاصة تمنحهم الحماية والمزايا ، وكانوا يوضعون في جيوتات خاصة تخلق المسافة اللازمة للأمن الاجتماعي وتحقق لهم العزلة بحيث يمكنهم التعبير عن هويتهم دون أن يشكل ذلك تحدياً للمجتمع ، بل دون أن يشعر المجتمع بوجودهم . وقد كانت بعض الجماعات غير اليهودية تبدل جهداً غير عادي للحصول على حق استبعاد اليهود ، باللاتينية : دي نوي توليرانديس جودايس de non tolerandis Judaeis ، أي «عدم التسامح مع اليهود» .

وما حدث في المجتمع الحديث هو أنه أصبح مجتمعاً أديراً يحتفظ فيه كل فرد بمسافة بينه وبين الآخر ، بحيث تصبح سماته الإنسانية وهويته المتعمنة أمراً شخصياً محضاً لا يعني أحداً ، ويدخل

الشعب اليهودي ، وهذا ما أشار إليه أي . إف . ستون حين قال «الصهيونية تزدهر بالكوارث» .

وقد كان كثير من المستوطنين الصهاينة يطالبون دائماً بحسن معاملة العرب ، وبضرورة التسامح معهم . ولكن الوضع البيئوي للمستوطنين الصهاينة ، كجزء من بنية استيطانية إحلالية ، يجعلهم غير ذوي موضوع . فالمستوطن الصهيوني ، مهما صدقت نيته ، ومهما امتلأ قلبه حباً للعرب ، يأخذ مكان مواطن عربي شاء أم أبى .

### احتكار دور الضحية (من المسئول ومن الضحية؟)

Monopolizing the Role of the Victim (Who is to Blame and Who is the Victim?)

من الأسئلة التي تثار دائماً في دراسة تواريخ الجماعات اليهودية محاولة تحديد المسؤولية عما حدث لليهود عبر التاريخ ، وهل هم المسئولون عن العنف الذي يحيق بهم ، أم أنهم ضحية لهذا العنف ؟ فيقول الصهاينة إن اليهود هم دائماً الضحية وأنهم ثم طردهم من بلد لآخر واضطهادهم دون سبب واضح ودون رحمة أو شفقة . بل يحاول الصهاينة في كثير من الأحيان تضخيم دور اليهود كضحية بحيث يحتكرون هذا الدور ويبدلون قصارى جهدهم في إنكار هذا الدور على الآخرين . ولذا حينما يحاول أحد المؤرخين أن يبين أن عدد البولنديين الذين أسيروا على يد النازيين يفوق عدد من أسيروا من أعضاء الجماعات اليهودية وأن نسبة من أسيروا من العجر أعلى من نسبة من أسيروا من اليهود فإن الصهاينة يثيرون صخباً وضجيجاً بشكل ممجوج ومبتذل . وقد استمر تضخيم دور اليهود كضحية حتى أصبح الشعب اليهودي يعادل المسيح المصلوب في بعض مدارس الفكر الديني اليهودي الحديث . ويحاول الصهاينة توظيف دور اليهود كضحية في خدمة مشروعهم السياسي الاستعماري ، فيطالبون ألمانيا بأن تدفع بلايين الدولارات تعويضاً لليهود عما وقع لهم من مذابح ، بل يصيح احتلال فلسطين وطردهم سكانها منها مجرد تعويض عما حاق باليهود من أذى على يد النازيين !

وقد ركّز المدي العام الإسرائيلي إبان محاكمة أيخمان على هذه القضية ، وعلى دور اليهود كضحية أزرية ، عبر الزمان والمكان . وقد كان رد محامي الدفاع على أطروحة المدي العام ذكياً للغاية ، فقد تساءل عن هذا الشعب الذي يضطهده الجميع في كل زمان ومكان ، ألا يمكن أن يكون هو المسئول عما يحدث له ؟ وقد أصيبت قاعة المحكمة بالذهول حين طرحت القضية على هذا النحو غير

المتوقع . ويجب المعادون لليهود على هذا السؤال بالإيجاب قائلين : «نعم إن اليهود هم ولا شك المسئولون» .

وكل من الطرحين الصهيوني والمعادي لليهود يتسم بعدم إدراك لتركيبة الظواهر الاجتماعية ، فسؤال من المسئول ومن الضحية يفترض أن الظواهر الاجتماعية في جميع جوانبها نتاج وعي الإنسان وإرادته ، مع أن هناك جوانب كثيرة في الواقع تشكل خارج إرادة الإنسان ووعيه ، بل تؤثر في وعيه أحياناً دون إدراره . فاشتغال اليهود بالرأيا داخل سياق الحضارة الغربية حوكمهم إلى مستغلين للجماهير ولكنهم أصبحوا كذلك لا بقرار واع منهم أو من النخب الحاكمة الأوروبية وإنما نتيجة مركب من الأسباب .

ويلاحظ أحياناً أن كثيراً من ظواهر العنف في التاريخ نتيجة مسئولية مشتركة بين من مارس العنف ومن وقع ضحيته . وقد ميز مالك بن نبي بين الاستعمار والقابلية للاستعمار . فالاستعمار ظاهرة عنف واستغلال لا مرء في هذا ، ولكنه يتحول إلى حقيقة لا من خلال عنف الإمبريالية وحسب وإنما من خلال ضحية هذا العنف ، التي تتصف بالقابلية للاستعمار . ويمكن أن نطبق هذا المنطق على أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية .

وأخيراً يمكن القول بأن طرح سؤال : من المسئول ومن الضحية؟ تحول دراسة التاريخ إلى محاكمة تسبق الفهم وتؤدي إلى شكل من أشكال الاختزال والاستقطاب الذي يسقط كثيراً من العناصر التي أشرنا لها من قبل .

### التفسير الحرفي

Literalist Interpretation

«الحرفية» في التفسير هي أن يصير المؤمن بكتاب مقدس على أن نصوص هذا الكتاب معناها واضح وبسيط ويحسد رسالة مباشرة صريحة (مثل القاعدة العلمية أو اللغة الجبرية) يمكن التوصل إليها مباشرة دون اجتهاد كبير أو إعمال عقل ، ولذا لا بد من التمسك بحرفية النص . وعادة ما يؤمن الحرفيون بأن ما جاء في كتابهم المقدس يتحقق حرفياً في الواقع الإنساني والتاريخي والمادي ، وأن الأحداث التاريخية والحقائق العلمية تتفق تماماً مع ما جاء في النص المقدس . كما أنهم يرون أن المجاز في الكتاب المقدس ليس مجازاً دائماً وإنما واقع حقيقي مادي . وبهذا المعنى نجد أن التفسير الحرفي لا يختزل الواقع وحسب ولا النص المقدس وحسب وإنما كليهما ، فهو يلغي المسافة بينهما تماماً ويلغي ثنائية النص والواقع فيختزل الواقع المادي للنص المقدس (المتجاوز للعالم المادي) كما يختزل النص

معناه الكلي فيرى أن هذه الفقرة نبوءة بهذه الحادثة التاريخية وهذه الجملة صياغة لقانون طبيعي تم اكتشافه مؤخراً . وهذا لا يختلف كثيراً عن التفسير الباطني ، فالمفسر الباطني يفرض أيضاً على النص المقدس المعنى الذي يراه . وإذا كان المفسر الحرفي يجتزئ فقرة واحدة ويؤسس رؤيته عليها ، فالمفسر الإشراقي يأخذ كلمة واحدة ويكتشف معناها الرقمي ويستخلص منه المعنى « الحقيقي » .

وقد يقال إن المفسر الحرفي لا يكتفي بحرفية النص وإنما يذهب إلى الواقع التاريخي أو العلمي ومن ثم فهو لا يفرض رؤيته هو . ولكن ما يحدث هنا أن المفسر الحرفي يتأرجح بين التمرکز حول الموضوع والتمرکز حول الذات (على عكس المفسر الباطني التمرکز تماماً حول الذات) . وقد بيننا الاتفاق بين الحرفي والباطني في التمرکز حول الذات . أما التمرکز حول الموضوع فيأخذ شكل أن النص المقدس يكتسب مصداقيته من تطابقه مع الحوادث التاريخية أو الحقائق العلمية ، فكان المرجعية النهائية هنا هي الواقع التاريخي الزمني أو العلمي وليس النص المقدس . والطريف أنه نتيجة لذلك تتم محاكمة النص المقدس من منظور الواقع ، وليس محاكمة الواقع المادي من منظور النص المقدس .

ويمكن القول بأن ثمة متصلاً في أقصى جانبيه التفسير المادي الذي ينكر ثنائية الروح والمادة ويمحوها حساب المادة ويدور في إطار الواحدية المادية ، وفي الجانب الآخر التفسير الإشراقي الذي ينكر هو الآخر ثنائية الروح والمادة ويمحوها حساب الروح ويدور في إطار الواحدية الروحية . أما التفسير الحرفي فيقف بينهما فهو تفسير واحدٍ مثلها ولكنه يتأرجح بين القول بأن النص المقدس (كمبارات وفقرات بسيطة) يحوي حوادث التاريخ والقوانين الطبيعية ، ولذا يمكن فهمها بالعودة للنص ، ولكنه يقول أيضاً إن النص يتطابق مع الواقع (التاريخي والطبيعي) ومن ثم يمكن الوصول إلى معنى الكتاب المقدس بالعودة لحوادث التاريخ والقوانين الطبيعية . وهذا التأرجح هو الذي يسم العقل الغربي منذ عصر النهضة وقد اكتشفه إسبينوزا الذي توصل إلى أنه داخل المنظومة الحلولية الكمونية يمكن أن تكون وحدة الوجود الروحية هي وحدة الوجود المادية ، وأن الإله هو الطبيعة . وما يحدث هو أن التأرجح يستمر بعض الوقت ويتزايد الإيمان بتطابق النص المقدس مع الواقع التاريخي والطبيعي . وبالتدرج ينتقل الاهتمام من النص المقدس إلى الواقع الذي يصبح مكتفياً بذاته . وبدأ تنتقل من التأرجح بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية إلى وحدة الوجود المادية أي العلمانية الشاملة . ولذا يمكن القول بأن انتشار التفسيرات الحرفية يصلح

المقدس للواقع المادي ، وترداد الدائرة ضيقاً واتساعاً حسب أهواء المفسر . هذا على عكس الأصولية ، وهي العودة إلى الأصول الأولى كما تتبدى في النصوص المقدسة وفي ممارسات الأولين والصالحين واجتهادات الفقهاء ، وهذه الأصول بمنزلة الكل الذي ينظم الأجزاء جميعاً ، وهي بمنزلة الجذر الذي تنفرض عنه كل الاجتهادات ، وهي القيمة الحاكمة والركيزة النهائية للنسق الديني . وهذه الأصول ، لأنها « الكل » و« الجذر » و« القيمة الحاكمة » ، تشكل الإطار العام لعملية اجتهاد مستمرة في كل عصر يقوم بها عقل المؤمن المفسر الملتزم بالعودة إلى النص المقدس وفي إطار مرجعيته . وهذا يعني أن الاجتهادات التي يصل إليها الإنسان ليست هي نفسها النص المقدس (رغم أنه يظل المرجعية النهائية) وإنما تتراوح في قربها وبعدها عنه ، ومن هنا ضرورة تجديد الاجتهاد ، الذي ينطلق من النص ويعود إليه .

والتفسير الحرفي يستند إلى نموذج معرفي كامن ، فالنص المقدس ليس كلام الإله الذي تم التعبير عنه من خلال لغة مجازية مركبة تشير إلى المطلقات المتجاوزة الأمر الذي يعني انفصال الدال (المحسوس) عن المدلول (المتجاوز) وإنما هو تجسد مباشر للإله في العالم ، بل هو الإله نفسه ، وهو ما يعني اندماج الدال (المحسوس) بالمدلول (المتجاوز) واختفاء المسافة بينهما . وهذا يعني في واقع الأمر إنكار ثنائية المخلوق والمخالق وثنائية الدال والمدلول وثنائية النص والواقع الأمر الذي يعني محو ثنائية المطلق والنسبي والتاريخي والأزلي . وإنكار مجازية اللغة تعني في واقع الأمر إنكار تنزه الإله عن العالم ومحاولة فرض الواحدية عليه ، ولذا يصبح التاريخ المقدس الذي ورد في الكتاب المقدس تصوراً مادياً مباشراً (صورة طبق الأصل من الواقع) أخذاً في التحقق الآن (ولنا لا يمكن الاجتهاد في التفسير) ، وكل ما ورد في النص المقدس يتحقق حرفياً في الواقع التاريخي والطبيعي ، ولنا فاتاريخ المقدس (المطلق) يصبح التاريخ الإنساني (النسبي) ، والحقائق التي وردت في النص المقدس تصبح حقائق علمية ، وكلام الإله المتجاوز يصبح قوانين الحركة .

ورغم الاختلاف الظاهر للتفسير الإشراقي عن التفسير الحرفي فإن ثمة تلاقياً بينهما على مستوى النموذج الكامن . فالمفسر الحرفي يجتزئ فقرة ما من النص المقدس ويعزلها عن النموذج الكامن فيها والرؤية العامة ، ثم يلوي بعد ذلك عنق النص ويوظفه بالطريقة التي تمن له ، أي أنه يفرض عليه أي معنى ، إذ أن المفسر الحرفي قد تحرر تماماً من القيود الأخرى التي يفرضها عليه النص المقدس من خلال

تتجاوزها ، فالجماعات التي يُقال لها مسيحية أصولية في الولايات المتحدة ، هي في واقع الأمر جماعات حرفية ، تدافع عن القيم المسيحية وعن تماسك الأسرة ومع هذا تساند اقتصاديات السوق الحر ، بل سياسات أمريكا الخارجية والدولة الصهيونية . وهذا يدل على ساذجة الحرفيين ، ويبين مدى ارتباط رؤيتهم بالواقع الذي يرفضونه ومدى اعتمادهم عليه وعجزهم عن تجاوزه . فالاقتصاد الحر أكبر آلية لتقويض كل القيم ، مسيحية كانت أم إنسانية ، والدولة الصهيونية لا تلتزم بأية معايير دينية أو أخلاقية أو إنسانية . والجماعات اليهودية الصهيونية ترفض هي الأخرى التفسيرات المجازية التي طرحتها اليهودية الهاخامية لتحل محلها تفسيرات حرفية . فبدلاً من «صهيون» مدينة الإله ، تظهر « فلسطين » باعتبارها موقفاً جغرافياً يصلح للاستيطان ، ويتحول الشعب المختار إلى شعب المعنى البيولوجي الحرفي ، وتصيح العودة لا عودة خارج التاريخ بعد انتهاء الزمان وإنما عودة فعلية وحرفية للشعب اليهودي إلى فلسطين كجماعة استيطانية في أول فرصة تسنح له (وحينما تسمح له قوته العسكرية بذلك وحسب إجراءات علمية مادية صارمة) .

ويلاحظ ترابط التفسير الحرفي للعهد القديم والبُعد العسكري ، وهذا أمر متوقع فحين تتحول صهيون إلى فلسطين (ثم تصبح إسرائيل) ، فلا مناص من وضع الرؤية الصهيونية الحرفية موضع التنفيذ من خلال العنف العسكري . ولعل حروب الفرنجة أول تطبيق عملي لهذه الحرفية .

ويمكننا أن نقول إن معظم الحركات الشمولية اليمينية واليسارية حركات حرفية ، فهي حركات لها كتبها المقدّسة (أعمال هنتر - كتابات ماركس - كتابات لينين) التي تحتوي على كل ما يلزم للتعامل مع الواقع المادي (قشة تطابق كامل بين النص المقدّس وهذا الواقع) وإن حدث أن اختلف الواقع عما جاء في النص المقدّس فيتم إصلاح الواقع فيتنق مع حرفية النص .

وحينما نستخدم كلمة «أصولية» فنحن عادة ما نردفها بكلمة «حرفية» حتى نفرق بين هذه الحرفية والأصولية الحقبة التي تصدر عن الإيمان بأن الإله متجاوز ، وأن العالم المادي ليس البداية والنهاية ، وأن مركز العالم ليس كامتاً في المادة . ولذا ، فإن ثمة ثنائية لا يمكن تصفيتها تجعل التفسيرات الحرفية أو الباطنية أو المادية الواحدة تعجز عن تفسير عالم مركب ، فهي تعبير عن الرغبة الرحمة الكونية في الهروب من التركيب والثنائيات القضاة .

مؤشراً على تصاعد معدلات العلمنة . وعندنا ما يساند مثل هذه الأطروحة في تاريخ الحضارة الغربية ، فعصر النهضة وظهور الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية هو أيضاً عصر ظهور الحركات الشعبية الخلوية والتفسيرات الحرفية .

والتفسيرات الحرفية تفسيرات ديمقراطية ، لأنها بالغة السهولة . إذ يفتح المفسر النص المقدّس ويأخذ منه سطرأ أو سطرين ويفسرهما بطريقة مباشرة ، ولذا نجد أن الحركات الثورية الشعبية ذات الطابع الميخاني الحلولي الكموني عادة ما تكون تربة خصبة لظهور التفسيرات الحرفية للنصوص المقدّسة والثبوت التي ترى أنه سيحدث تجسد كامل وفجائي للإله في التاريخ الإنساني (فيعود المركز إلى داخل النموذج) وتمتلئ الدنيا عدلاً ما بعد أن امتلات جوراً وتنتهي كل الآلام ، ويتوقف التاريخ البشري باعتباره مجال الحرية والجبر والانتصار والانكسار ويصل إلى نهايته السعيدة (نهاية التاريخ) .

والعقيدة الألفية الاسترجاعية في التراث المسيحي واليهودي مثل جيد على ذلك . فهي عقيدة فسرت بعض الإشارات العابرة التي وردت في العهد القديم تفسيراً حرفياً ومنحتها مركزية مطلقة . وقد حاولت الكاثوليكية واليهودية الهاخامية تهدئة النزعة الميخانية عن طريق وضع بعض الحدود على مسألة حلول المركز في النموذج وحلول الإله في التاريخ وهو ما يؤدي إلى تصفية الثنائيات وظهور التفسيرات الحرفية المادية . ولذا ، طرحت التفسيرات المجازية وأكدت ضرورة البُعد عن التفسيرات الحرفية . فصهيون بالنسبة للكاثوليكية واليهودية الهاخامية فكرة مثالية (مدينة الإله - أرض الماشيح) التي تتعلق بها الأفتدة والضماير وتتطلع للعودة إليها في آخر الزمان خارج التاريخ بأمر الإله ولا علاقة لها بالمنطقة الجغرافية التي تُسمى فلسطين ولا بالزمان الإنساني ، والشعب المختار جماعة من المؤمنين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

والبروتستانتية المتطرفة والصهيونية ذات الديباجة المسيحية والديباجة اليهودية تبعان منهجاً حرفياً لا أصولياً . فالجماعات البروتستانتية المتطرفة جماعات تقدم تفسيرات حرفية للعهد القديم تختلف تماماً عن التفسيرات المجازية والرؤية التي كانت تطرحها الكنيسة الكاثوليكية . ومن هنا الطبيعة الثورية المبدئية للتفسيرات الحرفية ، فبإمكان المفسر الحرفي البسيط أن يتجاوز التفسيرات المؤسسة المركبة السائلة . ولكن ما يحدث أنه بعد المرحلة الثورية المبدئية ، تظهر الطبيعة الرجعية للمحافظة للتفسيرات الحرفية ، فهي تجعل الواقع المباشر ، الزماني والمكاني ، مرجعيتها الوحيدة ولا

## النصوصية

## Textualism

«النصوصية» نسبة إلى «نص» وهي محاولة تفسير سلوك فرد أو جماعة ورويتها ومخططاتها بالعودة إلى النصوص المقدسة التي يؤمن بها الفرد أو أعضاء هذه الجماعة . والنصوصية شكل من أشكال الحرفية التي تفترض التقابل الكامل بين النص المقدس والواقع، ولكن الواقع هنا هو الإنسان . فكان النص المقدس هنا لا يتحقق ولا يتجسد في الواقع وإنما في سلوك الإنسان وفي رؤيته .

وكثير من العرب يحاولون تفسير سلوك أعضاء الجماعات اليهودية بل سلوك الحركة والدولة الصهيونية بالعودة إلى نص ما في العهد القديم أو التوراة أو بروتوكولات حكماء صهيون التي يظن البعض أنها إحدى كتب اليهود المقدسة . كما أنهم يفعلون الشيء نفسه بالنسبة للمخططات الصهيونية ، فكلها حسب التصور النصوي ، قد وردت في كتب اليهود المقدسة ، بل نجد بعض الصهاينة أنفسهم يلجأون لهذا الأسلوب في التفسير فيقولون إن الدولة الصهيونية لا بد أن تضم الضفة الغربية لأن العهد القديم ورد فيه كذا وكذا أو لأن التلمود ينص على ذلك .

ومؤجذ تفسير السلوك من خلال النصوص مؤجذ اختزالي مريح . وعملية التفسير عادة تأخذ الشكل التالي :

١ - يسلك اليهودي أو الصهيوني بطريقة معينة أو يخطط لشيء ما .  
٢ - تتجاهل الدارس الدوافع المركبة والمتعينة لمثل هذا السلوك أو المخطط ، كما يتجاهل الظروف الإيجابية والسلبية التي قد تساعد الصهيوني على (أو تعوقه عن) تحقيق مخططه .

٣ - يتجاهل الدارس تركيبة الكتب اليهودية المقدسة وتداخلها ، بل تناقضها أحياناً .

٤ - يبحث الدارس عن النص المناسب الذي يتشاكل والسلوك أو المخطط (متجاهلاً النصوص غير المناسبة) .

٥ - يعلن الدارس أن اليهودي أو الصهيوني قد سلك مثل هذا السلوك أو وضع مثل هذا المخطط لأن كنه المقدسة تدعوه إلى ذلك . والأطروحة الأساسية الكامنة هنا بسيطة وساذجة إذ تنهب إلى أن ثمة تماثلاً كاملاً بين النص المقدس وسلوك الإنسان . والعملية التفسيرية تتم من خلال عملية تبسيط واختزال لكل من النص المقدس (استبعاد الفقرات غير المناسبة) وسلوك الإنسان (استبعاد الدوافع والظروف المركبة) .

والتفسير النصوي يتجاهل عدة عناصر :  
١ - أن اليهودية باعتبارها تركيباً جيولوجياً تراكمياً ، لها عدة كتب

مقدسة كُتبت في عدة مراحل تاريخية وتحتوي على رؤى للمكون مختلفة ، فتوحيدة كتب الأنبياء متناقضة بشكل جذري مع حلولية القبائل . والتلمود هذا الكتاب الضخم المكون من سبعة عشرة جزءاً والذي كتب على مدار ألف عام وكتبه مئات الحاخامات يحوي الشيء وتقيضه .

٢ - لا تشغل الكتب المقدسة عند اليهود المركزية نفسها التي يشغلها القرآن في الإسلام . فاللوجوس عند اليهود هو الشعب نفسه ، كما أن القداسة في كثير من الأحيان تنتقل من الكتاب المقدس (التوراة) على سبيل المثال) إلى التفسير الحاخامي (المشناه) .

٣ - يتجاهل التفسير النصوي مشكلة التفسير ، فثمة مدارس تفسير كثيرة لكل منها مؤجذ المعرفي . وبعض هذه المدارس ذو اتجاه توحيدتي إنساني متفتح ، والبعض الآخر ذو اتجاه حلولي شوفيني .

٤ - يتجاهل التفسير النصوي (الحرفي) تركيبة الكتاب المقدس وأن فقراته المختلفة لا توجد مستقلة وإنما توجد في سياق النص ككل . ومن ثم لا يمكن اجتزاءه فقرة واحدة والتعميم منها ، وإنما يجب أن يكون التعميم استناداً إلى النص في كليته .

٥ - يتجاهل التفسير النصوي تركيبة الدوافع الإنسانية والظروف التي تؤثر في سلوك الإنسان وأن النص لا يتحكم في سلوك اليهود .

٦ - تتجاهل النصوية أن النص المقدس بالنسبة للمؤمن به يطرح رؤية مثالية ، يحاول بعض المؤمنين تحقيقها ، ومن ثم فهي بطبيعتها غير متحققة في كليتها في الواقع المادي .

٧ - تُسقط النصوية أمراً مهماً للغاية وهو أن كثيراً من اليهود لا يعرفون نصوصهم المقدسة مع تزايد معدلات العلمنة . فهي ابتداءً نصوص ضخمة وهي ثانياً مكتوبة بلغات ميتة . فمارتن بوبر على سبيل المثال (وهو أهم مفكر ديني يهودي في العصر الحديث) رأى التلمود لأول مرة في حياته في عيد ميلاده الستين ، فقد كان يفضل الغوص في التراث القبالي والقصص المسيحية (إلى جانب أيديولوجيات الشعب العضوي والتربة والدم والرومانسية الشمالية) . وقد صرح ما يزيد على ٨٦٪ من الإسرائيليين بأنهم لم يقرأوا التلمود قط ، ولعلمهم لا يعرفون سوى بعض السطور التي ترد في بعض المقالات والدراسات .

٨ - لا تؤمن غالبية يهود العالم الآن باليهودية كعقيدة ومن ثم لا تؤمن بكتبها المقدسة ولا تعيرها التفاتاً إذ انتقل اهتمام غالبية أعضاء الجماعات اليهودية من العقيدة اليهودية إلى الإثنية اليهودية والثقافة اليهودية (عادة ذات الجذور الشرق أوروبية) . ولذا فإن الكتب المقدسة

وغني عن القول أن أريحا قد ضُمَّت إلى غزة كجمال لممارسة السلطة الفلسطينية لأسباب لا علاقة للتوراة بها .

والتفسير النصي يشوه رؤيتنا للواقع ، فنحن نتصور أن اليهود سيتدافعون للاستيطان في الضفة الغربية بالألاف إن أُتيح لهم الفرصة . وهذا يجعلنا ننسى أن معظم أعضاء الجماعات اليهودية قد تمت علمتهم وبالتالي فهم باحثون منون عن المنفعة واللذة والحراك الاجتماعي وأن من الأجدر تفسير دوافعهم وسلوكهم في هذا الإطار وأنهم حينما يهاجرون إلى أرض الميعاد فهم يفعلون ذلك بحثاً عن الثروة . كما أننا نتركزنا على النصوص نهمل العناصر البنوية فلا نرى مثلاً أن ثمة حقيقة أساسية ، ورغم كل ما يقوله النص ، وهي أن عدد اليهود في العالم - ومن ثم فعدد اليهود القادرين على الاستيطان - أخذ في التناقص . ثمة حقيقة بنوية لا بد أن نأخذها في الاعتبار عند محاولة التعامل مع الواقع الصهيوني .

هذا لا يعني أنه لا توجد علاقة على الإطلاق بين النص الديني وبين سلوك الإنسان وخططه ورؤيته ، فثمة علاقة لا شك فيها تتفاوت قوة وضعفاً من إنسان لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى ومن موقف لآخر . وتزيد قوة تأثير النص الديني على المستوى الفردي وتضعف على المستوى المجتمعي ، فمعظم الدول في العصر الحديث ذات توجهٍ علماني واضح تهمد أن صالحها هو المطلق ، وهو ما يجعلها تدرس موازين القوى جيداً قبل دراسة أي نص ديني . لا بد إذن من أخذ النص الديني في الاعتبار دون اختزال تركيبته أو تركيبية الدوافع والظروف ، فسلوك الإنسان نتاج عملية تفاعل بين كل هذه العناصر .

يوسيفوس فلافيوس (٣٨ - ١٠٠)

Josephus Flavius

هو يوسف بن ماتتياهو هاكوهين . سياسي وقائد عسكري ومؤرخ يهودي من مقاطعة يهودا الرومانية في العصر الهيليني . من أسرة كهنوتية أرستقراطية . وكانت لأمه صلة قرابة بالأسرة الحشمونية ، أي أنه كان من الطبقة الحاكمة والنخبة المتأثرة القريبة من روما المرتبطة بها المتعانة معها . درس الشريعة اليهودية ، حسبما قال ، ومن ذلك تعاليم الفريسيين والصدوقيين والأسينيين . وقضى ثلاثة أعوام في الصحراء مع أحد الزهاد (لعله من الأسينيين) ، وانضم في سن التاسعة عشرة إلى فريق الفريسيين . وُصف بأنه كان شخصاً شديد الطموح لا ضمير له . ورغم أن التعليم الذي تلقاه يوسيفوس كان تعليماً دينياً يهودياً فحسب ، فإنه كان على دراية

اليهودية أصبحت بمنزلة الفلكلور لهم ، ومن ثم ليست ملازمة . والتفسير النصوي ليست له قيمة تفسيرية كبيرة ، وهو دائماً تفسير باثر رجعي ، أي أنه يفسر الظاهرة بعد وقوعها ولا يصلح للتنبؤ بسلوك اليهودي ومخططاته .

ويظهر ضعف المقدرة التفسيرية للنصوص في محاولة تفسير التوسعية الصهيونية . فعادة ما يُقال إن التوسعية الصهيونية حتمية ويُشار إلى عبارات مثل « من النيل إلى الفرات » باعتبارها دليلاً على حتمية التوسعية . ولكن من المعروف أن خريطة إرتس يسرايل غير محددة المعالم ، وخريطة إسرائيل الكبرى لم يتم الاتفاق عليها . كما أن التوسعية الصهيونية لم تتبع أي نمط يمكن تفسيره بالعودة إلى النصوص . فمن المعروف أن الضفة الشرقية لنهر الأردن تمتع بقداصة خاصة في الوجودان الديني اليهودي ، فهي جزء لا يتجزأ من إرتس يسرايل التي وُضعت على القبائل العبرانية . وقد كان نشيد الحركة الصهيونية التصحيحية هو إنشاء الوطن القومي اليهودي على ضفتي الأردن . ومع هذا ضمت إسرائيل عام ١٩٦٧ شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان . وقد قام المتحدثون الصهاينة بتبريد نصوص دينية عن قداصة مرتفعات الجولان وعن شبه جزيرة سيناء . ومع هذا فقد أخلوا سيناء ويتحدثون عن إخلاء الجولان . وموقف بن جوريون من التوسع والنصوص الدينية له دلالة في هذا المضمار . فحينما كانت القوات المصرية أثناء حرب الاستنزاف تحقق انتصارات كانت عبارة « من النيل إلى الفرات » تتحول قليلاً ويتذكر ابن جوريون أن كلمة « النيل » لم ترد في النصوص المقدسة وإنما وردت عبارة « نهر مصر the brook of Egypt » وفي هذه الحالة يمكن الإشارة إلى أي مجرى مائي في العريش ، أي أن الأرض المقدسة تنكمش بمدى تزايد القوة العربية والعكس أيضاً إذ أن نهر مصر يصبح النيل في حالة التفوق العسكري الإسرائيلي . وهذا هو الحال ككل مع التوسعية الصهيونية ، فهي لا تخضع للنص وإنما للموازنات الواقعية الداروينية التي يؤمن بها الصهاينة ويحترمونها تمام الاحترام ، ثم تخرج النصوص لعمليات التبرير . والصراع الذي دار حول تفسير مفهوم بكوح نيفيش (انظر : احترام حياة اليهودي [بكوح نيفيش]) هو أيضاً مثل جيد على تبعية النص للواقع . وقد سخر راين من يستخدمون النصوص المقدسة لتفسير السلوك الصهيوني . فبعد توقيع اتفاقية غزة أريحا ثار بعض الحرفيين من الصهاينة فذكرهم راين بأن يسوع قد قال « ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبنى هذه المدينة » (يسوع ٦/ ٢٧) ومن ثم يكون منحها للسلطة الفلسطينية ليس أمراً ممكناً وإنما مرغوباً فيه ، فهي ملعونة .

باعتبارها حرباً من صنع بعض المهوسين من الغيورين ، فهي حرب لم يردّها اليهود قط . والغيورون من وجهة نظره ليسوا يهوداً أصلاً ، فقد دنسوا الهيكل وكانوا يحترقون الشريعة . لقد قرّض التمرد إذن فرضاً على اليهود من قبل جماعة من اللصوص لم تترك إنما دون اقترافه .

أما كتابه الضخم **قدم اليهود** فقد كتبه يوسيفوس (عام ٩٣م) لأغراض إعلامية إن صح التعبير ، فهو كتاب يسرد تاريخ اليهود من بدء الخليقة حتى التمرد اليهودي ، يدافع فيه عن اليهود وشرائعهم وتقاليدهم بالبراهين العقلية ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم بطريقة تحببها إلى النفس وتلائم فيما بينها وبين الثقافة الهيلينية المعاصرة ، كما يحاول أيضاً في كتابه هذا أن يبرئ نفسه من تهمة الخيانة التي لصقت به . ويعد كتابه ، بهذا ، من أهم الاعتذاريات اليهودية .

وكتب يوسيفوس سيرة ذاتية تُسمى **السيرة** يبدو أنها ظهرت ملحقاً لكتاب **قدم اليهود** . ويحاول يوسيفوس في هذا الكتاب أن يرد على أحد المؤرخين الذي اتهمه بأنه تسبب في الحرب اليهودية وأنه كان من دعاة الحرب مع روما . ومن الجدير بالذكر أن ما يذكره يوسيفوس عن دوره في الحرب في هذا الكتاب يختلف من عدة أوجه عما ذكره في كتابه السابق . وكتب كذلك **الرد على أيون** وهو رد على اتهامات السنسفاطي السكندري أيون ضد اليهود . وقد وصفت الموسوعة اليهودية يوسيفوس بأنه لا يُعتد به كمؤرخ ، وأن طموحه كان أساساً طموحاً أدبياً ، كما وصفت كتبه بأنها ذات قيمة أدبية بالدرجة الأولى .

ورغم كل الشكوك التي تحيط بيوسيفوس ، سواء من الناحية الأخلاقية أو من الناحية النفسية أو العلمية ، فإن الحركة الصهيونية قد رُوّجت للقصة التي نشرها عن مساعده وعن الانتحار الجماعي لليهود ، وذلك رغم أنه هو أهم مصدر لهذه القصة (ولعله المصدر الوحيد) ورغم شك كثير من العلماء اليهود وغير اليهود في صحة هذه القصة .

**نحمان كروكسال (١٨١٧ - ١٨٨٨)**

Nahman Krochmal

مؤرخ وفيلسوف روسي يهودي كان يعمل بالتجارة ، ثم قرر أن يكرس حياته ليدرس تواريخ الجماعات اليهودية . وأهم كتبه **حليل الحائرين في هذا الزمان** . وفي هذا الكتاب ، يحاول كروكسال تفسير مسار التاريخ اليهودي مستخدماً الأنماط الفكرية السائدة في الفكر

كبيرة بالعالم ، فقد سافر إلى روما وعرف مدى قوتها وعدم جدوى الوقوف أمامها .

وحينما نسب التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠م) ، حاول في بادئ الأمر ، حسب روايته ، أن يفتن الثوار بالعدول عن خطتهم ، ولكنه اضطر في النهاية إلى الانضمام لهم . وقد عينته الحكومة الجديدة قائداً عسكرياً لمنطقة الجليل عام ٦٦م وهي منطقة كانت معروفة بخصبها وثرائها ، كما أنها كانت تُعد أهم منطقة من الناحية العسكرية إذ من المتوقع أن يأتي الرومان من الشمال ليواجهوا أول ما يواجهون تحصينات هذه المنطقة العسكرية . وحينما وصل الرومان ، سرعان ما تساقطت التحصينات والمدن اليهودية ، الواحدة تلو الأخرى ، فحاول يوسف هاكوهين الهرب ، ولكنه لم يفلح إذ ابتلاه جنوده رغم أنفه ، ثم تمكّن القناصل والجنود من الفرار إلى أحد الكهوف حيث قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية . فقام يوسف هاكوهين بحمل القرعة بنفسه ، وأشرف على عملية الانتحار ذاتها ، وكفل له ذلك أن يكون آخر المنتحرين . وحينما لم يتبق إلا هو وشخص آخر ، أقنعه بالاستسلام للرومان بدلاً من الانتحار . وعندما مثل هاكوهين بين يدي القائد الروماني فلافيوس فسبسيان ادعى أنه مطلع على الغيب وتنبأ للقائد الروماني بأن له مستقبلًا باهرًا وأنه سيتبوأ عرش روما . وبعد هذا ، قام التنبئ هاكوهين بحملة إعلامية للترويج لتبوعته ، وصحب فسبسيان إلى مصر وانضم إلى تيتوس أثناء حصاره القدس ، وأصبح المتحدث باسم الرومان ، وطلب إلى المتمردين اليهود الاستسلام . وبعد هزيمة المتمردين ، سار يوسيفوس معه في موكب النصر الذي عُرض فيه الأسرى اليهود . ثم قطن في منزل تيتوس السابق وحصل على المواطنة الرومانية وعلى معاش وقطعة أرض خصبة في الجليل (فلسطين) كانت ضمن الأراضي التي صادرها الرومان . وقد غيّر يوسف هاكوهين اسمه إلى يوسيفوس فلافيوس ، أي أنه لُتّن اسمه العبراني يوسف واتخذ اسم الإمبراطور الروماني اسماً للأسرة .

كتب يوسيفوس كل مؤلفاته في روما ومن أهمها كتاب **الحرب اليهودية** الذي كتبه بالأرامية وأشرف بنفسه على ترجمته إلى اليونانية عام ٧٧م . وقد فُقدت النسخة الأرامية ولم يبق سوى الترجمة . والهدف من هذا الكتاب إقناع يهود بابل بقوة روما وإظهار براءة الرومان أمام اليهود ، فبين على سبيل المثال أن الهيكل قد أُحرق بدون أمر تيتوس . كما استهدف الكتاب الدفاع عن اليهود أمام الرومان وإظهار براءة اليهود وكذلك تبرير انشقاقه على بني جلدته . وقد صوّر يوسيفوس الحرب اليهودية (من وجهة نظر فريسية)



الدينية الحاخامية ، وتعلمُ الفرنسية واللاتينية بفرده . ونظراً لالتناقض بين تعليمه الديني وتعليمه العلماني ، خاض أزمة عيقة لم ينقذه منها سوى قراءته لكتاب هيرش تسعة عشر خطاباً عن اليهودية . ثم كتب رسالته للدكتوراه عن الغنوصية في اليهودية . وقد فُتت العلاقة بينه وبين هيرش ، وأصبح زكريا فرانكل الشخصية المؤثرة في حياته .

وجرايتز مثل صموئيل لوستاتو ، ومثل موسى مندلسون بدرجة أقل ، يفترض وجود جانبيين في الوجود اليهودي : أحدهما عالمي عام ، والآخر فريد وخاص . وإذا كانت رقة العالمي في فكر مندلسون أكبر منها في فكر لوستاتو ، فهي تكاد تختفي تماماً في فكر جرايتز الذي يفترض وجود جوهر ثابت كامن في اليهودية وبالتالي في اليهود ويتعكس في كل أنشطتهم . فاليهود ، أينما كانوا ، شعب من المشحاء (جمع «ماشئح» ) ، شعب على استعداد للتضحية بكل شيء ومن ذلك الحياة نفسها من أجل مهمته ورسالته . إنه شعب يعبر عن مفاهيم دينية وأخلاقية فريدة وخاصة (الجوهر الثابت الكامن) ، واستمراره ، برغم كل المذابح التي شُكك ضدّه ، هو معجزة البقاء الدائم .

والتاريخ اليهودي هو أيضاً تجلُّ لهذا الجوهر الثابت الكامن . وقد كتب جرايتز أهم أعماله تاريخ اليهود (١٨٣٥ - ١٨٥٧) ليثبت هذه الفكرة . وهو ليس تاريخاً بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما هو حشد من التفاصيل لإثبات وحدة اليهود ولإنكار وجود أية اختلافات بين أعضاء الجماعات والتواريخ المختلفة التي يتفاعلون معها . فتاريخ اليهود واليهودية جوهر متنسق مع نفسه رغم كل التحولات . وتاريخ اليهود الخارجي في المنفى تاريخ معاناة مستمرة لم يمان شعب مثلها من قبل . وقد اهتم جرايتز بعلم اليهودية باعتباره العلم الذي يحاول أن يصل إلى ذلك الجوهر الكامن الثابت ليعرفه ويعرف قوانينه . ولكنه كأي مؤرخ لتواريخ الجماعات اليهودية ، كان عليه أن يتوجه إلى مشكلة تنوع هذه التواريخ وعدم ترابطها وعدم تجانسها ، كما كان عليه أن يتعامل مع بعض الجوانب السلبية في النسق الديني اليهودي . وقد فسر هذا باعتباره انحرافاً عن الجوهر . فاليهودية ، عبر تاريخها المأساوي ، قد راكمت طقوساً مركبة عديدة وعادات «بولندية» نمت كما ينمو الفطر (على حد قوله) . والحل هو التخلص من هذه العادات والطقوس والشعائر حتى يظهر الجوهر الثابت الكامن الحقيقي .

ويحاول جرايتز أن يربط بين الخاص والعام وأن يحل مشكلة الخصوصية اليهودية والانتماء الإنساني العام ، فيذهب إلى استحانة

الألماني المثالي ، خصوصاً عند هرر . كما يظهر أيضاً تأثره بفكر فيكو ، فيؤكد أن لكل شعب عبقرية وروحية كاملة فيه منذ بداية تاريخه ، وهي عبقرية ترك أثرها على كل منتجات هذا الشعب الفكرية والروحية ، وهذه هي اللبنة الأساسية في فكرة الشعب العضوي . فما عبقرية الشعب اليهودي ؟ حاول كروكمال الإجابة عن هذا السؤال مستخدماً الجدل الهيجلي ، فأكد أن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم ، فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم تضج ثم اضمحلال ثم موت نهائي ، أما اليهود فلا يرون مثل هذه الدورة إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى بعد موتهم المؤقت ويبدأون دورة أخرى . وهذه علمنة لفكرة الشعب الأزلي (الدينية) .

ويُفسر كروكمال مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن لليهود روحاً سمدية تعرف سر تجدد الحياة ذاتياً . فبينما سيطر الوجود الجسدي أو الأرض القومي على الأمم الأخرى ، سيطر على اليهود روح الجماعة وحدها . بل إن كروكمال يرى أن روح هيجل المطلقة ليست سوى إله يسرائيل الذي يرتبط به الشعب المقدس برباط وثيق . وتحقيق إرادة هذا الإله أو الروح المطلق هو بمنزلة المثل الأعلى والمصير المحتوم للشعب اليهودي . وبذا ، تصبح الأمة اليهودية لا مجرد ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى ، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها وتحتويها جميعاً في وحدة عضوية منسجمة . والواقع أن كروكمال ، بيهيجليته العضوية الواحدة ، لم يتتعد كثيراً عن أحد التيارات المهمة في الفكر الديني اليهودي ، أي الحلولية الواحدة . ونحن نرى ، في واقع الأمر ، أن الصورة المجازية الحلولية التقليدية حينما تتم علمنتها تتحول إلى صورة مجازية عضوية متطرفة .

ويعدُّ كروكمال من أوائل المفكرين اليهود (في العصر الحديث) الذين حاولوا علمنة المفاهيم الدينية التقليدية مثل الشعب المختار . كما أنه ، في دراساته ، لم يعالج الدين اليهودي وحسب ، بل حاول أن يربط الدين بما سماه «الشعب اليهودي» أي أنه مزج بين فلسفة التاريخ والميتافيزيقا وجعل من التاريخ (وليس النسق الديني) مركزاً للمطلقية والقداسة . وقد مهد بهذا لظهور الفكر الصهيوني بغيبياته العلمانية وبخلطه بين الانتماءين الديني والقومي .

هاينريش جرايتز (١٨١٧ - ١٨٩١)

Heinrich Graetz

مؤرخ ألماني وعالم توراتي وُلد في بوزنان (مقاطعة بولندية ضُمَّت إلى ألمانيا) لوالد كان يعمل جزأراً . درس في أحد المعاهد

فرفض الإيمان بأن اليهودية مسألة طاعة الإله ، كما رفض أن يقبل الشولخان عاروخ باعتباره الشريعة التي لا تتغير . ويقرب جرايتز في أفكاره كثيراً من أفكار اليهودية المحافظة التي رأت أن القداسة في اليهودية لا توجد في الكتب المقدسة وإنما في الشعب اليهودي ذاته وفي تراثه أو موروثه الشعبي ، وهذا جوهر الصهيونية أيضاً .

ولذا ، لا غرو أن أفكار جرايتز صهيونية في معناها ومعناها ، فرويته لما يُسمى «التاريخ اليهودي» هي اللبنة الأساسية في الفكرة الصهيونية . ولكن ما يجدر ذكره أنه ، على الرغم من بنية أفكاره الصهيونية ، لم ينضم للحركة الصهيونية ذاتها ، إذ رفض الانضمام إلى جماعة أحباء صهيون .

وقد اشترك في جهود الأليانس الإنقاذية والتوطنية ، وكان عضوًا لجنيتها المركزية . ولكن يظل التاريخ الذي كتبه والرؤية الصهيونية التي يجسدها هي المحك الأساسي الحقيقي .

وغني عن القول أن رؤية جرايتز عضوية متطرفة ، وأنها تنطلق من الفكرة التي سميناها «الشعب العضوي المنبؤ» . وقد بين المؤرخ الألماني هاينريش فون ترايتشكه ، وهو من أهم دعاة القومية الألمانية العضوية ، أن أفكار جرايتز تعني أن يهود ألمانيا لا يمكنهم الاندماج في وطنهم ، ولهذا السبب تصدى كثير من يهود ألمانيا المنتمجين لأفكار جرايتز .

وقد أثرت رؤية جرايتز في كل الأجيال التي تلتها بحيث دونت تواريخ الجماعات اليهودية وكأنها تاريخ أفكار دينية أو تاريخ يهودي مطلق متكامل لا علاقة له بما يدور حوله ، وكان القوى الدافعة لأعضاء الجماعات اليهودية هي يهوديتهم وحسب وليس ما يحيط بهم من ظروف . وقد وُجّهت انتقادات عديدة لتاريخ جرايتز ، فقد أشار إليه هيرش باعتباره فناناً يتكون من تولىفات سطحية . أما جايجر ، فقد قال عنه «إنه قصص وليس تاريخاً» . ولم يوافق الكثير من المعلقين على عملية تبسيط التاريخ بحيث يعبر عن مبدأ واحد أو فكرة واحدة : تاريخ الروح والمعاناة اليهودية . كما بين نقاده أحاديته وسطحيته وأخطائه وبينوا أن منهجه القومي ذاته هو الذي يؤدي إلى معظم هذه الأخطاء . وإلى جانب هذا ، هناك فراغات كثيرة في تاريخه ، فهو لم يكن مهتماً بتاريخ يهود روسيا وبولندا وتركيا ، أي تاريخ أغلبية يهود العالم الساحقة ، بل إن احتقاره كيهودي ألماني ليهود بولندا كان يقترّب من الكره العميق لهم ، فكان يشير إليهم باعتبارهم «التلموديين البولنديين المتحجرين» ، وكان يشير إلى اليديشية باعتبارها «رطانة كريهة» . وهو لم يهتم بالجوانب السياسية والقانونية لتاريخه ، كما لم يكن

التمييز بين اليهودية واليهود . فاليهودية ليست مسألة إيمان بنسق ديني منفصل عن ذات الإنسان يخضع له الفرد ويحكم على أفعاله وأفعال الآخرين بتطبيق أحكامه ومعاييرها ، إنما هي مسألة هوية وتلاحم عضوي وممارسة تاريخية وروح شعبية ، الأمر الذي ينقل القداسة من النسق الديني إلى أفعال اليهود ذاتها . ولذا ، يعادل جرايتز بين اليهودية والتاريخ اليهودي من جهة واليهود أنفسهم من جهة أخرى ، فيرى أن العقيدة اليهودية نسق سياسي ديني فريد ، وروحه الثوراة وجسده الأرض المقدسة والشعب اليهودي . وهنا يشير جرايتز إلى أن الشعب اليهودي في منزلة المركز للتاريخ العالمي . ولكن الجنس البشري لا يحتاج إلى فكرة اليهودية المجردة ، وإنما يحتاج بالدرجة الأولى إلى هذا الشعب اليهودي المسيحاني الذي لا تُهزم روحه والذي يجسد بشكل متعين ومحسوس روح اليهودية وجوهرها الثابت الكامن . وبالتالي ، تصبح أكبر خدمة يسديها اليهود للعالم هي التمسك بيهودتهم المتينة والحفاظ على نذرهم الذي يترجمون من خلاله الفكرة العامة إلى واقع محسوس . ومن ثم ، تصبح اليهودية ديناً عالمياً ، لا بالرغم من أنها دين قومي وإنما بسبب ذلك . ويلاحظ أن الحل هنا لا يختلف كثيراً عن حل مندلسون ولوتستاتو ، كما يلاحظ أن فكرة الشعب اليهودي كمرکز للكون ، وباعتبار أن أفراد مشحاه مخلصون وأن الخلاص لا يمكن أن يتم بدونهم فكرة أساسية في تراث القبّالاه ، سيطرت على رؤية كثير من المفكرين اليهود في القرن التاسع عشر ، مع العلم بأن جرايتز ما كان يكن كثيراً من الاحترام للقبّالاه أو للحميين .

ونحن نرى أن كل ما فعله جرايتز هو علمنة المفاهيم الدينية التقليدية واستخدام رؤية عضوية حديثة لا تختلف كثيراً عن الرؤية الحلولية الكمونية التقليدية . فالرؤية العضوية ترى كل شيء وهو ينمو من الداخل بدون حاجة إلى قوة خارجية ، والرؤية الحلولية هي الأخرى تجعل المطلق يحل في النسبي وبالتالي يصبح لا حاجة له بقوة خارجية . وقد اتبع جرايتز ، في ذلك ، الخطاب العلماني العضوي في الغرب ، خصوصاً في ألمانيا ، والذي نبث منه فكرة الشعب العضوي (فولك) والفكر الهيجلي بتركيزه على الفكرة المطلقة الكامنة التي تدفع التاريخ البشري إلى الأمام .

وانطلاقاً من مواقفه هذه ، اتخذ جرايتز موقفاً معارضاً لليهودية الإصلاحية والأرثوذكسية . فكان يرى أن الإصلاحيين في واقع الأمر أعداء لليهود واليهودية ، فهم سيمزقون وحدة الشعب العضوي وسيقولون من تميّزه وتفرّده الأمر الذي سيؤدي في نهاية الأمر إلى اندماجه . ولكن جرايتز كان مختلفاً أيضاً عن الأرثوذكس

يستخدم مثل هذه العناصر إلاخلفية لوصف عذاب اليهود أو لإجازات الشخصيات البطولية منهم . وقد وُصف تاريخه بأنه « قصة بطولية » أو « سيرة شعبية » أكثر من كونه تاريخاً حقيقياً . وقد تُرجم هذا التاريخ إلى عدة لغات من بينها الفرنسية والبولندية والروسية والمجرية واليديشية والعبرية .

أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥)

Arnold Toynbee

واحد من أشهر مؤرخي العصر الحديث . قدم في دراساته التاريخية رؤية متوازنة لتطور الإنسان من خلال الحضارات العالمية المختلفة دون أن يعطي الغرب مركزية خاصة كما اعتاد معظم المؤرخين الغربيين . وهو لا يجعل من الدولة القومية وحدته التحليلية ، فهو يرى العالم من خلال التشكيلات الحضارية المختلفة . ومن الموضوعات الأساسية التي يتناولها في كتاباته ، التناقض الأساسي بين التقدم التكنولوجي الذي أحرزه الإنسان من ناحية وعدم كفايته الأخلاقية والمعنوية من ناحية أخرى . وقد أصبحت هذه القضية أكثر محورية عن ذي قبل بعد أن اكتسب الإنسان القدرة على تحطيم البيئة كلها وكل أشكال الحياة التي عليها . ويصف توينبي نفسه بأنه لا أدري مؤمن ، فهو يؤمن بوجود قوة خارقة وراء الطبيعة ليس بإمكاننا إدراك كنهها ولذلك يصعب على الإنسان أن يؤمن بدين محدد . ولهذا ، فإن كل الأديان متساوية من وجهة نظره .

ويرى توينبي أن خطيئة الغرب الكبرى هي عبادة الذات (توئين الذات) . فالكنيسة المسيحية متغلقة على نفسها ، غير متسامحة تستبعد الآخرين ، وهي التي تحولت بمرور الوقت إلى القومية الضيقة كما حدث في إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول . هذا على خلاف الدولة العثمانية ، على سبيل المثال ، حيث ضمت عدداً هائلاً من الجنسيات والأديان ، وتمكنت من أن تخلق لهم إطاراً يتعاضدون داخله في سلام لعدة قرون . كما أن الحضارة الغربية ، بعد أن أدارت ظهرها للإله الواحد المتسامي ، استسلمت تماماً لإله المال (مامون) ، وكسرت كل قواها لتحصين وسائل تراكم الثروة والوصول إلى أعلى درجات الكفاية العقلانية النفعية في الغرب الرأسمالي . أما في الغرب الشيوعي ، فإن توينبي يرى أن الشيوعية والاشتراكية نسخة من الأفكار الأخروية الرؤيوية (الإسكاتولوجية والأبوكاليسية) اليهودية . لكن الرؤية الأخروية الاشتراكية ستتحقق عن طريق تفجرات اجتماعية وثورية لا عن

طريق تدخّل الإله كما هو الحال في الرؤية اليهودية التقليدية . ويرى توينبي أن الغرب قد تطوّر بهذا الشكل بسبب العلاقة الوطيدة بينه وبين اليهودية . بل إنه ، أكثر من ذلك ، يرى أن الغرب ككل قد تم تهويده بالتدريج . ومعنى هذا أنه تبنت الرؤية اليهودية للكون .

ويرى توينبي أن الفكرة اليهودية الخاصة بالشعب المختار من أهم المؤثرات في الحضارة الغربية . فالمجتمع العبراني القديم كان منفلقاً هامشياً داخل الحضارة السريانية الأوسع . وقد أصبح يهوه الغيور إله هذا المجتمع . وبسبب الانغلاق القبلي لهذه الحضارة على نفسها ، أخفقت اليهودية في أن تنتهز الفرصة التي ساحت لها بظهور المسيحية حتى تتحول إلى ديانة عالمية . ولكن ، بدلاً من ذلك ، وقع التمرد اليهودي ضد الرومان . وعندما أُخمد هذا التمرد ، انتهى دور اليهودية تماماً وأصبحت حفرة جامدة ميتة . وقد كانت استجابة اليهود الوحيدة لتحدي التنفي والاضطهاد هو الإبقاء على الانغلاق وعلى الإطار الشعائري المركب الذي يكرسه .

وفي نهاية الأمر ، انعكست هذه العملية التاريخية الطويلة في تمعّج آخر للعجرفة القبلية عبر عن نفسه في الصهيونية . فاليهود بدلاً من أن يركزوا أمثالهم في الخلاص الإلهي ، هاجموا الفلسطينيين العرب وطردهم من ديارهم وأقاموا دولة صغيرة هي قلعة عسكرية وتجمّع لراعاة البقر .

وسواء أكانت اليهودية السبب في انحراف الحضارة الغربية نحو الغزو والقتل والانغلاق والإمبريالية أم لا ، فإن توينبي يبين أن ثمة تماثلاً بنيوياً عميقاً بين البنية الأساسية لليهودية (الشعب المختار ، والإله الغيور ، والانغلاق ، والرؤى الأخروية ، وهو ما نسميه الحلولية اليهودية في مصطلحنا) وبين كثير من الظواهر الدينية والسياسية والاجتماعية في الحضارة الغربية . وقد قامت مناظرات عديدة بين توينبي وبعض ممثلي الصهيونية .

وأهم مؤلفات توينبي كتاب دراسة في التاريخ المكون من أحد عشر جزءاً ، وآخر مؤلفاته هو الجنس البشري وأما الأرض .

سسالو بارون (١٨٩٥ - ١٩٩٠)

Salo Baron

مؤرخ أمريكي يهودي وُلد في جاليشيا ونشأ وتعلّم في فيينا . تم ترسيمه حاخاماً عام ١٩٢٠ ، ولكنه لم يمارس المهنة قط . وقد قام سسالو بتدريس التاريخ في الفترة ١٩١٩ - ١٩٢٦ . ثم انتقل إلى الولايات المتحدة حيث قام بالتدريس في جامعة كولومبيا . ومن أهم

نستبعد الدين باعتباره أحد الأبعاد المهمة للتجارب التاريخية لأعضاء الجماعات .

وقد تم تقسيم هذه التواريخ إلى قسمين أساسيين (تاريخ العبرانيين- وتواريخ الجماعات اليهودية) ، ثم تم تقسيم كل قسم إلى عدة مراحل وقُسمت بعض المراحل إلى عدة فترات :

أولاً : تاريخ العبرانيين (جماعة إسرائيل) :

١- المرحلة السامية السديمية : وهي المرحلة التي شهدت الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية أو صحراء الشام إلى بلاد الرافدين والشام ، ويمكن تقسيمها إلى :

أ) فترة الأبياء (٢١٠٠-١٢٠٠ ق.م) : هجرة إبراهيم (١٩٩٦ أو ١٨٠٠ ق.م) إلى فلسطين ، ثم هجرة يعقوب ثم يوسف إلى مصر عام ١٧٢٠ ق.م .

ولأى يعرف سوى القليل عن التنظيم الاجتماعي والسياسي للعبرانيين في هذه الفترة ، أو عن إنجازاتهم الحضارية إن وجدت . ومع هذا ، يبدو أنهم كانوا من البدو الرحل الذين يعيشون على أطراف المدن ويتنقلون على الطرق الأساسية للتجارة . وأكثر الظن أن قيادتهم السياسية كانت بدوية هي الأخرى ، كما أن عباداتهم لم تكن تختلف كثيراً عن العبادات السامية المنتشرة في منطقة الشرق الأدنى القديم حيث يرتبط الإله بالقوم الذين يعبدونه ويكون مقصوداً عليهم . ونحن نشير إلى اليهودية في هذه المرحلة بعبارة «عبادة إسرائيل» التي تطورت لتصبح «العبادة القرآنية المركزية» مع تأسيس هيكل سليمان ، ولهذا فإننا نشير إلى العبرانيين من حيث كونهم جماعة دينية ، بمصطلح «جماعة إسرائيل» .

ب) فترة القضاة : وتبدأ بخروج موسى من مصر أمام جيش فرعون عام ١٢٧٥ ق.م ووصوله إلى سيناء . ثم يأتي بعد ذلك التسلسل العبراني إلى كنعان (١٢٥٠ - ١٢٠٠ ق.م) تحت قيادة يوشع بن نون ومحاوله الاستيطان فيها ، والحرب ضد الفلسطينيين الذين حققوا نصرهم على العبرانيين عام ١٠٥٠ ق.م ، ثم انسحبوا بالتدريج واقتصر وأعلى ساحل فلسطين الغربي . ولقد كانت القيادة السياسية في هذه الفترة قَبَلية تظهر عند الحاجة إليها وحسب . وكانت أواصر التضامن بين العبرانيين واهية حيث كانوا لا يزالون مجموعة من القبائل . ولا يمكن الحديث عن أية منجزات حضارية عبرانية مستقلة في تلك الفترة . وقد ظهرت عبادة يهوه أثناء فترة سيناء . ولكن العبرانيين تأثروا ، بعد دخولهم إلى كنعان بالعبادات الكنعانية المختلفة ، فعبدوا آلهة كنعان نظراً لأننا معهم بالسكان . ولا توجد مصادر كافية عن هذه المرحلة السديمية ، بل يقترب فيها التاريخ من

كتبه تاريخ اليهود الاجتماعي والديني (١٩٥٢ - ١٩٦٩) ، وقد بين في هذا الكتاب (الذي يتكون من تسعة عشر جزءاً) أثر البيئات المختلفة في الجماعات اليهودية بدلاً من الانشغال برصد عدد المذابح وكمية العذاب الذي يحمق باليهود كمادة بعض مؤرخي الجماعات اليهودية . وقد أكد سالو أهمية القوى الاجتماعية . ومن أهم أعماله الأخرى : الجماعة اليهودية (ثلاثة أجزاء) (١٩٤٢) ، والقومية الحديثة والدين (١٩٤٧) ، ويهود الولايات المتحدة (١٧٩٠ - ١٨٤٠) ، وتاريخ وثائقي (ثلاثة أجزاء) (١٩٦٣) ، ويهود روسيا تحت حكم القيصرية والسوفييت (١٩٦٤) .

### تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية

History of the Hebrews, and Histories of the Jewish Communities

نستخدم عبارة «تاريخ العبرانيين» و«تواريخ الجماعات اليهودية» للإشارة إلى التواريخ الدينية والإنسانية للعبرانيين والجماعات اليهودية ، بدلاً من مصطلح «التاريخ اليهودي» . وهذه التواريخ تختلف عن تاريخ العقيدة اليهودية بكل مدارسها واتجاهاتها وشيعها وفرقها ، كما أنها ليست ذات علاقة كبيرة بالتاريخ المقدس أو التوراتي . وسنحاول تقديم مخطط عام يتسم بشيء من التبسيط والتجريد لتواريخ الجماعات اليهودية في العالم عبر التاريخ . وبإمكان القارئ أن يعود إلى المداخل المختلفة للاستزادة . وقد استبعدنا كثيراً من الجماعات اليهودية مثل الفلاشا في إثيوبيا ، وبني إسرائيل في الهند ، ويهود كايبنج في الصين ، ويهود الحزر ، وغيرهم من الجماعات ، وذلك من أجل التبسيط (كما هو الحال دائماً مع أي مخطط تاريخي موجز) . هذا رغم أن تواريخ هذه الجماعات يدعم وجهة نظرنا الرافضة لفكرة التاريخ اليهودي الموحد . وفي المخطط المقترح ، نؤكد في تواريخ الجماعات تلك العناصر التي تُفسّر ظهور المسألة اليهودية في شرق أوروبا أو ظهور الحركة الصهيونية أو المستوطن الصهيوني . ويعود هذا إلى أسباب عديدة من بينها أن الصهيونية والمستوطن الصهيوني قد نجحا في فرض وجودهما بحيث أصبحا الحقيقة الأساسية والمحورية بالنسبة لكل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم . وينطبق هذا على مؤيدي الصهيونية انطباقه على مناهضيها . ويحاول هذا المخطط أن يتعد عن المصطلحات الدينية أو العقائدية ، مثل «ما قبل سقوط الهيكل» ، إما باستبعادها أو باستبدال مصطلحات أكثر حياداً بها أو بوضعها داخل إطار التساريخ السالمي . ولكننا ، على أية حال ، لم

الأسطورة ، فيلجأ المؤرخون إلى الحدس والتخمين كما هو الحال مع مشكلة الحايبرو .  
وقبل أن ننقل إلى المراحل التالية ، مثل مرحلة الإمبراطوريات وغيرها ، يجب أن ننبه إلى أن هذه المرحلة جزء من كل أكبر سنطلق عليه المرحلة التقليدية وهي التي استمرت حتى الثورة الصناعية والإعتاق والاعتناق .  
والواقع أن المجتمعات التقليدية كانت تتسم بلامر كزيتها الإدارية المتفاوتة ، ويُلاحظ في الوقت نفسه أن النخبة الحاكمة كانت تعتمد في إدارة المناطق التابعة لها على إدارات محلية بحيث تصبح لكل طائفة دينية أو إثنية أو لكل إقليم إدارته شبه المستقلة . كما أن حكومات المجتمعات التقليدية لم تكن تبحث عن الولاء الكامل والانتماء المطلق على طريقة الدولة القومية الحديثة ، إذ كان يكتفي أن تدفع الشعوب والأقليات التابعة لها الضرائب ، التعبير الواضح عن التبعية وثمرته الحقيقية . وقد كانت الإدارات المحلية هي التي تقوم بهذه الوظيفة نيابة عن الإدارة العليا ولصالحها . وقد أدت ذلك إلى احتفاظ كل الطوائف يهوديتها متمثلة في كتبها المقدسة ورموزها ومحامكها ، إذ أن السلطات المركزية كانت عادة تشجع هذه الهوية وتحافظ عليها لأنها تُسر لها تسيير دفة الحكم . وقد استمر هذا الإطار الإداري سائداً في العالم بدرجات متفاوتة حتى القرن التاسع عشر حين انفجرت الثورة الصناعية الرأسمالية وظهرت الحكومات القومية التي كانت تتسم بالمركزية والهيمنة على السوق المحلية والتي طلبت من الجميع الولاء لها وحدها . ومن هذه النقطة بدأت التجارب التاريخية للجماعات اليهودية في الغرب ، ثم في بقية العالم ، تأخذ شكلاً جديداً ، كما بدأ أعضاء الجماعات اليهودية يواجهون مشاكل من نوع جديد لم يواجهوها من قبل ، مثل الاندماج والزواج المختلط ، أو لعلمهم لم يواجهوها بنفس الحدة والكرثة . ولذا ، يمكننا أن نتجاوز التسميات التاريخية المقترحة كافة وتحدث عن إطارين أساسيين هما : ما قبل الثورة الصناعية وما بعد الثورة الصناعية ، مع العلم بأن كثيراً من المؤرخين يتبعون هذا الرأي .

٢- مرحلة الإمبراطوريات القديمة (أشور ، بابل ، الفرس ، اليونان ، الرومان) والاستقلال الذاتي المحدود للشعوب . ويمكن تقسيمها بدورها إلى الفترات التالية :  
أ) الفترة الآشورية والبابلية والمصرية : وتضم عهد الملوك (١٠٢٠ - ٥٨٦ ق.م) ابتداءً من داود وسليمان ، ثم انقسام المملكة العبرانية المتحدة ، وانتهاءً بالتهجير الآشوري والبابلي . وتمثلت القيادة السياسية في تلك الفترة في الملك (الكاهن الأعظم) يسانهه الكهنة وقواد الجيش ، كما كان الحال في الشرق الأدنى القديم والحلوليات الوثنية . ومع هذا ، لم تكن المؤسسة الملكية مستقرة بسبب قوة النزاعات القبليّة . وقد يكون من الأفضل الحديث عن اتحاد القبائل في المملكة المتحدة ، فأكثر دليل على أن النزعة القبليّة كانت في حالة كمون وحسب أثناء حكم داود وسليمان هو ظهورها بعد موت سليمان مباشرة ، الأمر الذي أدت إلى انحلال المملكة المتحدة ثم حدوث التناحر بين الديوثين العبرانيين ، وهو التناحر الذي لم ينته إلا مع التهجير الآشوري ثم البابلي . وكانت منجزات العبرانيين الحضارية في ذلك الوقت ضعيفة ومتأثرة بمن حولهم . وينحصر هذا الإنجاز في المههد القديم المتأثر بالنصوص والتشريعات في الشرق الأدنى القديم . ويظهر الأنبياء ، يبدأ التوراة الذي يسم تاريخ العبرانيين بين التوجه الديني العالمي والتوجه الإثني المحلي للإله ، إذ يقف معظم الأنبياء إلى جانب عبادة يهوه والتوحيد ويتبنون نزعة عالمية أخلاقية تساوي بين العبرانيين والأقوام كافة . ولم تكن هناك هجرة تُذكر بين صفوف العبرانيين رغم أن بعض الملوك العبرانيين كانوا يبادلون ملوك مصر فيعطونهم المحاربين المرتزقة من اليهود نظير الحصول على أخصنة . وكان هؤلاء المرتزقة يولتون جزيرة إلفنتاين على حدود مصر الجنوبية ، وبدا تكون حامية إلفنتاين أول دياسبورا يهودية أو أول انتشار لليهود خارج فلسطين بعد التسلسل الكنعاني ، وكذلك أول جماعة وظيفية يهودية .  
ب) الفترة الفارسية والهيلينية والرومانية (٥٣٨ - ١٣٥ ق.م) : وتبدأ بسماع قورش للعبرانيين بالاستقرار في فلسطين تحت الحكم الفارسي . وقد استمرت الفترة الفارسية حتى عام ٣٣٣ ق.م ، حين فتح الإسكندر الأكبر فلسطين ، وأخضعها لحكم الهيلينيين . ومن الممكن أن نقول إن العبرانيين أصبحوا بالتدريج عبرانيين يهوداً ثم أصبحوا يهوداً فقط مع نهاية هذه الفترة . وتبسيطاً للامور ، سنشير إليهم بلفظ الجماعات اليهودية . وقد شهدت هذه الفترة التمرد الحشموني عام ١٦٨ ق.م ، ثم استيلاء الحشمونيين على القدس وظهور الأسرة الحشمونية ، إلى أن ظهرت القوة الإمبراطورية الرومانية التي سمحت للأسرة الحشمونية بحكم فلسطين تحت رعايتها في عام ٦٧ ق.م . وقد انتهت أشكال الإدارة الذاتية بعد أن أُخمد التمرد اليهودي ضد الرومان الذين هدموا الهيكل عام ٧٠م وحكموا فلسطين بصورة مباشرة . وكانت القيادة المحلية في تلك المرحلة تتركز أساساً في كهنوت الهيكل والأرستقراطية اليهودية في فلسطين مثل الحشمونيين ثم الهيروديين . أما في بابل ، فكان يترأس

ناحية الفنون ، فلا توجد إنجازات معمارية تشكيلية ذات أهمية تُذكر .

ثانياً : تواريخ الجماعات اليهودية :

مع انتهاء المرحلتين السابقتين ، يمكننا أن نُسقط تماماً مصطلح «تاريخ العبرانيين» أو «تاريخ العبرانيين اليهود» ، ليحل محله مصطلح «تواريخ الجماعات اليهودية» ، إذ يصبح الحديث عن اليهود بشكل عام داخل إطار تاريخي موحد أمراً مستحيلًا . فبعد أن اكتسبت الجماعات اليهودية المختلفة استقلالها الثقافي عن مركز عبراني موحد ، أصبح لكل جماعة يهودية ظروفها التاريخية وحركيتها المستقلة عن ظروف وحركات الجماعات الأخرى ، ولا يمكن فهم سلوكها ومصيرها إلا في إطار تاريخ المجتمع الذي تنتمي إليه . وبدأت تظهر أشكال جديدة من القيادة السياسية لتحل محل كهنوت الهيكل والأستقراطية الحشمونية واليهودية ، فقد استمر أمير اليهود (ناسي- بطريك) تحت حكم الرومان ، ورأس الجالوت تحت حكم الفرس ، في إدارة شؤون الجماعة اليهودية ، كل في بلده ، بالنيابة عن السلطة الحاكمة . وقد أضحى بعضهم أنهم من نسل داود ، ليكتسب قدراً من الشرعية ، ولكن هذه الشرعية ظلت شرعية دينية رمزية لا تحمل أي مضمون سياسي . وقد وُكِب هذا ظهور اليهودية الفريسية التي حاولت أن تطرح صيغة جديدة لليهودية تفصل الدين عن الدولة أو عن القومية ، كما تفصله أيضاً عن المكان (الهيكل) ، ولا تفصله عن الإثنية . وقد انعكس هذا الاتجاه في الاهتمام بتدوين الميثاق وفي البدء بكتابة الجماراه (وهما القسمان المكونان للتلمود) . كما يتضح هذا الاتجاه في ظهور المعابد اليهودية المستقلة عن الهيكل والعبادة القربانية .

ويمكن تقسيم تواريخ الجماعات اليهودية في معظم أنحاء العالم إلى مراحل تاريخية تنقسم كل منها بدورها جغرافياً إلى مناطق ، وتاريخياً إلى فترات :

١ - مرحلة المصور الوسطى في الغرب ومرحلة العصر الإسلامي الأول (الأبوي والعباسي) حتى القرن الخامس عشر :  
 يتحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية في القرن الرابع ، وبعد بعث الزرادشتية في الإمبراطورية الفارسية في القرن الثاني والتي حل الإسلام محلها ، وجد اليهود أنفسهم جماعات دينية إثنية في بلاد تحكمها حكومات تستمد شرعيتها من ديانات متعارضة مع اليهودية . وتولت القيادات الدينية قيادة اليهود ، بالاشتراك مع الأثرياء منهم ، فكانت هذه النخبة تضطلع بأعباء دينية ودينية مختلفة ، شأنها في ذلك شأن أعضاء الطوائف والجماعات الأخرى

الجماعة اليهودية رأس الجالوت وتسانده طبقة الفقهاء والأثرياء . واقتصر اليهود على تصريف أمورهم الدينية ، وكذلك بعض الأمور الدنيوية المحلية ذات الطابع الإداري مثل جمع الضرائب وفض المنازعات التي قد تنشأ فيما بينهم . أما السلطة السياسية فكانت في يد القوة الإمبراطورية الحاكمة . ويمكن استثناء فترة حكم الحشمونيين من هذا النمط ، فبعد التمرد الحشموني قام الحشمونيون في الفترة ١٤٢ - ٦٧ ق . م بتأسيس دولة تتسم بالاستقلال السياسي النسبي عن الإمبراطورية الهيلينية وإن كانت هيلينية من الناحية الحضارية . أما حكم الهيروديين فكان حكماً تابعاً للرومان ، وكان لقب «دوكس» ، أي ملك روماني ، الذي كان يحمله الهيروديون لقباً شرفياً وحسب . وبعد هدم الهيكل ، بدأ أمير اليهود (ناسي- بطريك) ، وهو قائد ديني ذو صلاحيات دينية محدودة ، يترأس اليهود . وحتى هذه الفترة ، كان اليهود شعباً ينتمي إلى الشرق الأدنى القديم ، ذا سمات إثنية محددة ، ولم تكن الديانة اليهودية قد انفصلت كلية عن المكان (فلسطين) أو عن العبادة القربانية (الهيكل) أو عن الانتماء الإثني (جماعة قومية تتحدث العبرية ثم الآرامية تعني نفسها في مواجهة الآخرين) . وقد ظهرت في هذه الفترة طائفة السامريين وهي أول حركة يهودية انفصلت عن التيار الأساسي .

كما يُلاحظ أيضاً ، في هذه الفترة ، ظهور التحولات التي أدت في نهاية الأمر إلى تحوّل العبرانيين إلى عبرانيين يهود ثم إلى يهود أو جماعات يهودية منتشرة في العالم تضطلع بدور الجماعة الوظيفية . فعلى سبيل المثال ، ظهرت الجماعة اليهودية القوية في بابل ، التي أصبح لها تراثها الديني المستقل ومعاهدها الدينية ، واضطلع بعض أعضائها بوظائف التجارة والربا وجمع الضرائب . ثم ظهرت ، بعد ذلك ، الجماعات اليهودية المختلفة المنتشرة في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ، مثل الإسكندرية ، وكانت جماعات وظيفية قتالية واستيطانية ومالية . وكان لكل جماعة مراكزها ومؤسساتها الدينية القوية المحلية التي كانت تمثل نقاطاً تجذب بعيداً عن الهيكل . بل إن اليهود فقدوا ، مع نهاية هذه الفترة ، مقاومتهم الإثنية أو ما بقي منها ، فلم يكن يهود الإسكندرية يعرفون سوى اليونانية .

ومع القرن الأول المسيحي (قبل هدم الهيكل) ، كان عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من عددهم داخلها . ولا يمكن بطبيعة الحال الحديث عن إنجاز حضاري يهودي مستقل في تلك المرحلة ، فكتابات فيلون هي نتاج التراث الهيليني ولم يكن لها تأثير يُذكر في التطور اللاحق لليهودية ، وكذلك تواريخ يوسيفوس . أما من

فأصبحت على عتبات الثورة الصناعية بنهاية هذه المرحلة . كما أنهم كانوا ، بسبب خلفيتهم الثقافية المتميزة ، قادرين على أن يلعبوا دوراً تجارياً مصرفياً نشيطاً في مجتمعات متقدمة اقتصادياً استفادت من خبرتهم ومن اتصالاتهم الدولية ولم تفرض عليهم تمييزاً وظيفياً اقتصادياً كبيراً . ولذا ، فقد شارك السفارد في تطوُّر مجتمعاتهم ولم يسقطوا ضحية التحولات الاقتصادية ، كما اشتركوا في الاستيطان في العالم الجديد ، وقد ظهرت فئة يهود البلاط في هذه المرحلة . ويُلاحَظ أن قيادة اليهود في هذه المرحلة ، في غرب أوروبا ووسطها ، بدأت تسيطر عليها العناصر التجارية المالية ، وبدأت العناصر الدينية تحتل مرتبة أقل أهمية . أما الإشكناز الموجودون حينذاك في مسام المجتمع البولندي ، فقد بقوا داخل الأشكال الجيتوية المختلفة مثل الشنتل والقهال ، وارتبطوا بالإقطاع البولندي ، وخصوصاً الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا في نظام الأرناء ، وسيطرت عليهم اليهودية الحاخامية الجامدة . ولذا ، فمع تحوُّل المجتمع البولندي ثم الروسي ، ومع ظهور بورجوازية محلية ، وجد اليهود أنفسهم خارج العملية الانتقالية ، وازداد بينهم انتشار الأفكار الصوفية الغيبية مثل الحركة الفرانكية والحسيدية ، إذ كانت كتب القبَّالَة تشغل المكانة المركزية التي كان يشغلها التلمود من قبل ، وخصوصاً أن قيادات اليهود في شرق أوروبا ظلت متركزة أساساً في يد العناصر الدينية . وقد حدث تحوُّل جذري في هذه المرحلة ، إذ زاد عدد يهود الغرب من الإشكناز بحيث أصبحوا يشكلون الأغلبية العظمى من يهود العالم ، وهذا تطور له أثره العميق في التطور اللاحق لليهود . ومن هنا ، فإن تواريخ الجماعات اليهودية ، بدءاً من هذه النقطة الزمنية ، هي من ناحية الأساس تواريخ الجماعات اليهودية في العالم الغربي (شرق أوروبا أو غربها) إذ أن يهود العالم الإسلامي تضاعت أهميتهم وعدادهم ووزنهم منذ هذا التاريخ ، وفرض ذلك عليهم في نهاية الأمر مصيراً صهيونياً .

شهدت هذه المرحلة ثورة شمليكي ، قائد القوزاق ، وبدايات الثورة التجارية في غرب أوروبا . ولذا ، فقد أخذ انتشار أعضاء الجماعات شكلاً جديداً . فبدأت الهجرة من شرق أوروبا إلى غربها وإلى العالم الجديد والدول الاستيطانية ، وهذا هو النمط السائد حتى الوقت الحاضر . كما شهدت هذه المرحلة ظهور الحركات الشبتانية ، وكذلك ظهور إسبينوزا الذي يُعدُّ أول مفكر يهودي بارز في الحضارة الغربية ، وقد كان معاصراً لشبتاي تسفي . وبظهور إسبينوزا ، بدأ البروز والتميز الفكري والحضاري لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب . ولكن إسبينوزا كان خارجاً على يهوديته ، كما أن إنجازاته

غير اليهودية . وقد تحدَّد وضع اليهود في العصور الوسطى في الغرب كافتان بلاط يعملون أساساً بالتجارة والربا . أما في العصر الإسلامي الأول ، فقد كان اليهود أهل ذمة يعملون بالتجارة وبوظائف أخرى عديدة . ومعنى هذا أن الجماعات اليهودية تحولت إلى جماعات وظيفية . ولكن ، نظراً لوجود طبقة مهمة من التجار المسلمين ، لم يكتسب اليهود القدر نفسه من التمييز الوظيفي الذي اكتسبوه في الغرب . كما أن يهود العالم الإسلامي كانوا يُسمَّون بقسط كبير من التجانس والوحدة استمدوهما من وحدة الحضارة الإسلامية في عصرها الأول . وهذا على خلاف الجماعات اليهودية في الغرب ، حيث كانت تسم بالاختلاف وعدم التجانس بسبب انقسام أوروبا في العصر الوسيط إلى وحدات إقطاعية متناظرة مختلفة . وشهدت هذه المرحلة سيطرة التلمود بصفته كتاباً مقدَّساً لدى اليهود يفوق في أهميته التوراة ذاتها . كما بدأت تظهر الحركات والكتب الصوفية الحلولية الكمونية التي استشرت بين اليهود في مرحلة لاحقة . وشهد العالم الإسلامي ظهور أول حركات الاحتجاج على اليهودية الحاخامية وهي حركة القرائين .

ويتلخص الإسهام الحضاري للجماعات اليهودية في نقل الأفكار بصفة خاصة بين الحضارات المختلفة ، وذلك من خلال أعمال الترجمة . أما كتابات مؤلفين مثل راشي وموسى بن ميمون ، ففي إسهامات يهودية لتطوير الفكر الديني اليهودي ، وليس لها ثقل كبير في التراث الثقافي العالمي في عصرهما . ويُلاحَظ أن نمط انتشار اليهود في هذه المرحلة كان الهجرة من بلاد غرب أوروبا ووسطها إلى شرقها ، أي من البلاد المتقدمة نوعاً إلى البلاد الأقل تقدماً من الناحية الاقتصادية . وقد انتهت هذه المرحلة بطرد يهود إسبانيا (المارانو) الذين انتشروا في مدن البحر الأبيض المتوسط والدولة العثمانية .

٢ - بعد القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ، عصر النهضة والاستارة في الغرب والعثمانيين في الشرق :

ظل وضع الجماعات اليهودية كما كان عليه دون تغيير كبير رغم التطورات الجسهرية التي دخلت في تلك المرحلة على المجتمعات الوسيطة في الغرب والمجتمعات الإسلامية في الشرق . ومع هذا ، يجب أن يُتميَّز بين اليهود الإشكناز واليهود السفارد . ففي هذه المرحلة ، تَمركز الإشكناز في منطقة الحدود (أوكرانيا) بين بولندا وروسيا القيصرية ، وكانت تابعة آنذاك لبولندا . وقد لعبوا دور الجماعة الوظيفية التجارية في مجتمع متخلف اقتصادياً . أما السفارد (المارانو) ، فقد استقروا في بلاد مثل هولندا وإنجلترا وجنوب فرنسا ، وهي بلاد كانت قد خاضت ثورتها التجارية

الحضاري كان نتيجة تفاعله مع التشكيل الحضاري الغربي ورفضه التراث اليهودي المحاخامي . ويُعدُّ ظهور إسيبتوزا والشبتانية علامة على تدهور المؤسسة الحاخامية وينهض شاهداً على تزايد ضيق أعضاء الجماعات اليهودية بها .

٣- مرحلة الانقلاب الرأسمالي الليبرالي في الغرب ، ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر في غرب أوروبا ، وبدايات القرن التاسع عشر في شرقها :

وقد مارس المجتمع الغربي تحولات عميقة أدت إلى تغيُّر بنائه الطبقي ونظمه السياسية ، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في اليهود وخلق لهم موقفاً تاريخياً مختلفاً كل الاختلاف عما ألفوه ولا متماثل له في تجاربهم التاريخية السابقة . وأصبحت قيادات اليهود جزءاً من النخبة الحاكمة تمارس صنع القرار من داخل مؤسسات المجتمع (أحزاباً وبرلمانات) وإن ظلت هناك قيادات تتحدث باسم الجماعات اليهودية . كما اضطلمت الحركة الصهيونية بمهمة القيادة في مرحلة لاحقة ، أو طرحت نفسها على الأقل باعتبارها المتحدث باسم كل اليهود .

ويمكن تقسيم تواريخ الجماعات اليهودية في الغرب ، في تلك المرحلة ، إلى الفترتين التاليتين :

١ - فترة الاعتناق والاندماج والإصلاح الديني اليهودي (١٨٠٠ - ١٨٨٠) . وهي الفترة التي شهدت سقوط أسوار الجيتو والأشكال الإدارية الجيتوية مثل القهال ، ومحاولة تحديث اليهود ودمجهم في المجتمعات الغربية في غرب أوروبا في بداية الأمر ثم في شرقها ووسطها فيما بعد ، وتصفية الدين اليهودي من الطقوس والعبادة ذات الشكل القومي المتغلق . وقد استجاب أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوروبا وغربها لحركة الاعتناق والإصلاح ، والتوير ، وظهرت بينهم حركات دينية وفكرية ، مثل اليهودية الإصلاحية ، التي تطالب اليهودي بالتحول إلى مواطن محدد الولاء والهوية . وظهرت طبقة من كبار المولكين اليهود في غرب أوروبا وفي شرقها بدرجة أقل وقتت وراء حركة التنوير والاندماج . وقد أجهت هجرة أعضاء الجماعات من شرق أوروبا إلى غربها ووسطها ، ووصلت أعداد صغيرة إلى العالم الجديد . ويُلاحظ تزايد معدل علمنة اليهود في هذه الفترة ، وانخراط الشباب اليهودي بأعداد متزايدة ، وخصوصاً في شرق أوروبا ، في الحركات الثورية . وقد بدأت العناصر العلمانية وذات التوجه الديني الإصلاحي ، تساندها بعض القطاعات البرجوازية اليهودية الكبيرة ، تتولى قيادة الجماعة اليهودية في غرب أوروبا ووسطها ، كما بدأت قبضة القيادات الدينية تتخلخل في شرق أوروبا إلى أن تراخت تماماً مع نهاية القرن .

٢ - فترة الإمبريالية : وهي الفترة التي اقتسمت فيها دول الغرب الإمبريالية كلاً من آسيا وأفريقيا فيما بينها ، وبدأت في تصدير مشاكلها وفانهاضها إليهما . ويمكن تقسيم تواريخ الجماعات اليهودية في هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام :

أ) تزايد علمنة أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم واعتناقهم : ويُلاحظ في السنوات الأولى لهذه الفترة ازدياد معدلات التحديث في غرب أوروبا ، وبالتالي زيادة اندماج اليهود . هذا على عكس شرق أوروبا حيث تعثرت عملية التحديث . وقد صاحب ذلك انفجار سكاني هائل بين يهود شرق أوروبا ، فزاد عددهم إلى أكثر من خمسة أضعاف . وقد أدَّى كل ذلك إلى ظهور الصهيونية في شرق أوروبا وتبنيها في غربها ، كما أدَّى إلى ظهور حزب البوند وتزايد انخراط الشباب اليهودي في الحركات الثورية . وقد أجهت الهجرة في هذه السنوات الأولى إلى العالم الجديد ، حيث هاجر ملايين اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت تضم أكبر جماعة يهودية في العالم . كما أجه بضعة آلاف إلى فلسطين بعد صدور وعد بلفور . واستمرت الهجرة ضئيلة للغاية إلى أن استولى هتلر على الحكم في ألمانيا فضاعف عدد المستوطنين . ومع حلول عام ١٩٤٨ ، كانت الحرب العالمية الثانية ، والإبادة النازية ، وتناقص معدلات الإنجاب ، قد قضت على معظم يهود أوروبا .

ب) إعلان الدولة الصهيونية : ويُلاحظ أنه بعد أن آلت قيادة معظم الجماعات اليهودية في العالم إلى العناصر الثورية الاندماجية أو إلى العناصر الدينية التقليدية ، تغيَّر الأمر وتولت القيادة عناصر صهيونية من شرق أوروبا أساساً طرحت صيغة قومية هلامية ذات طابع ديني دون التزام بالقيم الدينية الأخلاقية والعقائدية . وقد قوبلت هذه الصيغة بمعارضة شديدة من أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوروبا وشرقها في بادئ الأمر . ولكن الصهيونية اكتسبت الشرعية من خلال تحالفها مع القوى الإمبريالية ، ومن خلال غزو الأرض الفلسطينية ، ولذا أمكنها أن تطرح نفسها باعتبارها المتحدث الوحيد باسم اليهود واليهودية ، وهذا هو الوضع السائد في الوقت الحالي . ويُلاحظ أن أعضاء الجماعات لعبوا دوراً نشيطاً ومستقلاً عن الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٤٨ ، لكن هذا الدور أخذ في التضائل بعد ذلك نتيجة للهجمة الصهيونية ولجأها . ويُلاحظ هنا أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي قد سلكوا المسار نفسه بسبب قوة الصهيونية التي تلقت منذ البداية دعماً إمبريالياً كبيراً . وانتهى الأمر بتصفية الجماعات اليهودية من العالم العربي وأنحاء أخرى من العالم حتى أصبحت هناك ثلاثة تجمعات يهودية أساسية في العالم :



لا تزال أكثر الدول جاذبية بالنسبة لليهود ومنهم أعضاء التجمع الصهيوني .

ويلاحظ تزايد معدلات العلمنة بشكل غير عادي بين اليهود بحيث أصبح أكثر من نصف يهود العالم ، وفيهم التجمع الصهيوني ، لا يؤمنون باليهودية الإلحادية التقليدية وبالتالي لا يقيمون كثيراً من الشعائر الأساسية مثل السبت وقوانين الطعام . أما النصف الآخر ، فإن غالبيتهم العظمى من اليهود الإصلاحيين والمحافظين . ويشكل الأرثوذكس أقلية صغيرة للغاية لا تتجاوز ١٠٪ من يهود العالم ، وهو ما نجم عنه تضال دور الإلحاديات في المعباد اليهودية . وقد نجحت الحركة الصهيونية في تحويل هؤلاء إلى أدوات تسخرها لمصلحتها .

أما من ناحية الإبداع الحضاري ، فقد حافظ أعضاء الجماعات اليهودية على تميزهم وبروزهم في العالم الغربي . ولكن لا يمكن الحديث عن إبداع حضاري يهودي مستقل ، ذلك أن إسهامات يهود الولايات المتحدة الأمريكية جزء من التراث الحضاري الأمريكي . كما يظل البعد اليهودي لهذه الإسهامات سطحياً وجانبياً .

ج) أزمة الصهيونية في أواخر الستينيات : وهذه أزمة إن كتب لها الاستمرار قد تؤدي إلى تقويض سيطرة الصهيونية على الجماعات اليهودية في العالم ، بحيث تكتسب هذه الجماعات شيئاً من استقلاليتها مرة أخرى ، وبحيث تطرح مرة أخرى إمكانية الفصل بين الدين والقومية . وثمة تنبؤات عديدة بشأن مسار تواريخ الجماعات اليهودية ، منها التنبؤ بموت الشعب اليهودي من خلال التزاوج والاندماج خارج إسرائيل ومن خلال العلمنة المتزايدة داخلها وخارجها . وهناك أيضاً التنبؤ بحدوث ازدواجية يهودية بحيث يصبح يهود الغرب يهوداً بالمعنى الديني ويصبح يهود إسرائيل يهوداً بالمعنى الإثني . وما لا شك فيه أن تواريخ الجماعات اليهودية ، نتيجة لهيمنة الصهيونية ، أصبحت مرتبطة بأحداث الشرق الأوسط وبالنضال الفلسطيني ضد التجمع الصهيوني . ومن هنا تبرز أهمية الانتفاضة التي قوّست قديراً كبيراً من شرعية الدولة الصهيونية ، ومن ثم بدأت قطاعات من يهود العالم في التحرر من قبضتها .

### تاريخ اليهود الاقتصادي

Economic History of the Jews  
(Jewish Economic History)

«تاريخ اليهود الاقتصادي» مصطلح يفترض أن ثمة تاريخاً اقتصادياً وأحد يضم كل الجماعات اليهودية في العالم عبر التاريخ .

الولايات المتحدة وفي روسيا وأوكرانيا ثم في الدولة الصهيونية . وقد أصبح التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين أكبر التجمعات اليهودية قوة وهيمنة ، كما أصبحت كل جماعة يهودية تتبع الدولة التي تعيش فيها . ولكن ، لم تُعد هناك أشكال سياسية أو إدارية مستقلة مقصورة على الجماعات اليهودية كما كان الحال قبل الثورة الصناعية . لقد أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا السوفيتية (سابقاً) ، مثلهم مثل أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، يشاركون في الحياة السياسية والاجتماعية مشاركة كاملة من حيث هم أفراد ومواطنون ، وبدون تمييزٍ وظيفي أو اقتصادي واضح . وتطرح المنظمة الصهيونية نفسها ، وكذلك المنظمات اليهودية التابعة لها ، باعتبارها المتحدت باسم الجماعات اليهودية في العالم . ومع هذا ، فإن المنظمة الصهيونية لا تشكل إطاراً للعمل السياسي ليهود العالم ، فتشاطها كان محرماً وضيلاً للغاية حتى عهد قريب في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) وقد نشطت قليلاً في السنوات الأخيرة قبل سقوطه ، ولا نعرف الكثير عن طبيعة النشاط الصهيوني في روسيا وأوكرانيا والدول الأخرى (مثل جورجيا وكازاخستان) التي تضم جماعات يهودية كبيرة نسبياً . ولكن يلاحظ أن هذه الجماعات أصبحت لها حركيات مستقلة . أما في إسرائيل ، فالمنظمة تابعة للدولة التي لا تسمح لها إلا برقعة صغيرة للحركة المستقلة . وفي الولايات المتحدة ، تقوم المنظمة بحشد اليهود وراء سياسات إسرائيل التي لا تختلف في جوهرها عن السياسة الأمريكية . والشيء الإداري المستقل الوحيد لليهود في الولايات المتحدة هو الجمعيات الخيرية المعفاة من الضرائب التي تقوم بجمع التبرعات لتمويل المؤسسات الاجتماعية التي تسد الاحتياجات الخاصة بالجماعة اليهودية ، ملاجئ العجزة والمدارس الدينية وغيرها . واليهود لا يختلفون في ذلك عن الجماعات الدينية والإثنية الأخرى .

أما الهجرة ، فقد كادت توقف تماماً بعد فترة هجرة محمومة أعقبت عام ١٩٤٨ من جانب بعض الأوروبيين اليهود الذين لم يكن لهم ماوى بعد الحرب ، وبعد هجرة آلاف اليهود من العالم العربي . لكن الهجرة تزايدت في السبعينيات ، من خلال الهجرة السوفيتية التي توقفت بدورها تماماً في أواخر العقد ثم نشطت مرة أخرى عام ١٩٨٩ بعد سياسة البريسترويك وسقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه . وابتهاه هذه الموجة من الهجرة ، يُتوقع أن تتم تصفية الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) . ويلاحظ أن الهجرة مازالت تجري من الدول المتخلفة نوعاً إلى البلاد الأكثر تقدماً ذات الاقتصاد الرأسمالي الحر والماضي الاستيطاني . ولذا ، فإن الولايات المتحدة

## تاريخ الفكر اليهودي (أو الحضارة) أو الثقافة اليهودية

Intellectual or Cultural History of the Jews (Jewish Intellectual or Cultural History)

«تاريخ الفكر اليهودي» أو «التاريخ الفكري لليهود» أو «تاريخ الثقافة اليهودية» أو «تاريخ الحضارة اليهودية» . . . إلخ . كلها مصطلحات نفتقر أن ثمة تاريخاً واحداً لما يُسمى «الفكر اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» أو «الحضارة اليهودية» ، وأن هذا التاريخ يضم كل الجماعات اليهودية في العالم ويفسر وحدتهم وتنوعهم والتحولات الفكرية التي تطرأ عليهم .

ومن الصعب على أي دارس أن يكتشف عناصر الوحدة بين ثقافة أعضاء الجماعات اليهودية في الصين وثقافة أعضاء الجماعة اليهودية في مصر أو في الولايات المتحدة أو في إثيوبيا . ولذا ، فنحن نجد أن مصطلح «التواريخ الفكرية (أو الثقافية أو الحضارية) للجماعات اليهودية» هو مصطلح أكثر تفسيرية .

## التواريخ الفكرية أو الحضارية (أو الثقافية) لأعضاء الجماعات اليهودية

Intellectual or Cultural Histories of the Jewish Communities

للإحاطة بالتواريخ الفكرية أو الثقافية أو الحضارية لأعضاء الجماعات اليهودية ، بإمكان القارئ أن يقرأ المداخل التالية ، وربما بالترتيب التالي :

١ - المجلد الثالث ، حيث تناول جوانب مختلفة من هذه التواريخ في الأبواب الخمسة الأولى من الجزء الأول ، وفي الجزء الثاني بأسره .

٢ - المجلد الخامس ، وبخاصة الباب الخامس من الجزء الأول المعنون «تاريخ الصهيونية» . وتُعدُّ الصهيونية من أهم الحركات الفكرية التي لعبت دوراً حاسماً في تطوُّر التواريخ الفكرية لأعضاء الجماعات اليهودية .

٣ - المجلد السادس ، الجزء الثاني المعنون «الفرق الدينية اليهودية» حيث تناول تطور الفكر الديني اليهودي .

٤ - المجلد الرابع ، حيث سيجد القارئ معالجة للتطور الفكري والثقافي لكل جماعة يهودية على حدة في إطار التطور الثقافي للمجتمع الذي تنتمي إليه .

ويصعب على دارسي الجماعات اليهودية أن يجدوا معالم تاريخ اقتصادي واحد يضم كلاً من يهود إثيوبيا (الذين يعيشون في مجتمع أفريقي قبلي بسيط) ويهود الولايات المتحدة (الذين يعيشون في مجتمع غربي رأسمالي متقدم) ويهود الهند (الذين يعيشون في مجتمع نام من مجتمعات العالم الثالث) . ولذا ، فنحن نطرح مصطلح «التاريخ الاقتصادي للجماعات اليهودية» باعتباره أكثر تفسيرية .

## التواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية

Economic Histories of the Jewish Communities

يإمكان القارئ الذي يود أن يحيط بالتواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية أن يقرأ المداخل التالية ، وربما بالترتيب التالي :

١ - الجزء الثالث من المجلد الثاني والمعنون «يهود أم جماعات يهودية وظيفية؟» ، حيث نطرح نموذج الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات وظيفية .

٢ - الجزء الأول من المجلد الثالث :

أ) الأبواب المعنونة «الرأسمالية والجماعات اليهودية» - «رأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم (ما عدا الولايات المتحدة)» - «رأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة» ، حيث ناقش أطروحة علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بظهور الرأسمالية (الرشيدة) .

ب) المدخل المعنون «الفكر الاشتراكي وموقفه من الجماعات اليهودية» ، حيث تناول رؤية بعض المفكرين الاشتراكيين الغربيين لدور أعضاء الجماعات اليهودية .

ج) قد يكون من المفيد أيضاً قراءة المداخل التالية : «البلاشفة والجماعات اليهودية» - «العمال من أعضاء الجماعات اليهودية» .

٣ - المجلد الرابع حيث سيجد القارئ فيه معالجة مستفيضة للدور الاقتصادي الذي لعبته كل جماعة يهودية في المجتمع الذي تنتمي إليه . فبإمكان معرفة تاريخ يهود إنجلترا الاقتصادي بالعودة إلى الباب المعنون «إنجلترا» ، وتاريخ يهود فرنسا الاقتصادي في الباب المعنون «فرنسا» ، وهكذا .

٤ - الجزء الثاني من المجلد الخامس والمعنون «الدولة الصهيونية الوظيفية» ، لمعرفة الأبعاد الاقتصادية للكيان الصهيوني .

## أشكال الإدارة الذاتية

الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية - قيادات الجماعات اليهودية - رأس الجالوت (المنفى) - المجمع الكبير - البولييتيوسوما - الملك الروماني (دوكس) - الحاكم السابع (تترارخ) - رئيس القوم (إنتراخ) - مجلس الشيوخ (جيروسيا) - السنهدين الأكبر - دار القضاء (بيت دين) - بيت دين - أمير اليهود (ناسي / بطربك) - البطريك - الناسي - البطريكية - النجيد (رئيس اليهود) - مملكة حدياب اليهودية - ذو نواس ومملكة حمير اليهودية - مجالس يهود وسط أوروبا (لانديوندينشافت) - الماهاماد أو الماماد - القهال - مجلس البلاد الأربعة - سافانا اليهود في سورينام - بيروبيجان - روابط المهاجرين (لانديمانشفتين) - حلقة العمال - جماعات الأصدقاء (حفورا) - القهال الحديث في أمريكا اللاتينية - النادي اليهودي في أمريكا اللاتينية

### الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية

Autonomy of Jewish Communities

معظم الحضارات ، وخصوصاً الحضارة الغربية ، قاموا (حتى القرن التاسع عشر) بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، ومن ثم كانت عملية عزلهم تأخذ شكلاً حاداً . ففي بابل ، بعد النهج ، كان لليهود مؤسساتهم المستقلة التي يترأسها رأس الجالوت (المنفى) ويساعده رؤساء الحلقات الدراسية . كما كان يهود الإسكندرية البطلمية ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، يكوّنون بولييتيوما (جماعة من الغرباء يحق لهم السكنى) ويترأسها رئيس القوم (إنتراخ) الذي كانت له صلاحيات إدارية وقضائية واسعة ، وكان يشاركه السلطة ويعلو عليه أحياناً مجلس الشيوخ (جيروسيا) . وقد سمح الرومان لليهود بأن تكون لهم محاكمهم ومؤسسات الإدارة الذاتية ، وكان يترأسها أمير اليهود (ناسي أو بطريك) الذي يعود تاريخه إلى عصر السلوقيين ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة في الأمور الخاصة باليهود . ولم يكن تنظيم الجماعة في إسبانيا المسيحية ، والذي كان موروثاً عن إسبانيا الإسلامية (الأندلس) ، يختلف كثيراً عن مؤسسات الإدارة الذاتية . ويمكن رؤية مجالس القهال التي كانت ممثلة في مجلس البلاد الأربعة في بولندا ، أو اللانديوندينشافت في وسط أوروبا ، أو الماهاماد في هولندا وغيرها من البلاد ، أو نظام الملة في الإمبراطورية العثمانية ، تعبيراً عن الوضع نفسه . ومؤسسة الجيتو بطبيعة الحال تعبير عن هذه الظاهرة .

ولكن هذه الإدارة الذاتية عادةً ما تختفي مع بداية عملية التحديث وظهور الدولة القومية العلمانية الحديثة ذات النظام التعليمي والاقتصادي الشامل والتي تضطلع بمعظم وظائف الجماعات الوظيفية مثل جمع الضرائب . ومن ثم ، فإنها تتطلب ولأد كلاً من أعضائها ، وترفض منافسة أية جيوب دينية أو إثنية فرعية منفصلة على نفسها . وقد بدأت هذه العملية في أوروبا مع بداية

«الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية» مصطلح نستخدمه بدلاً من المصطلح الإنجليزي ذي الأصل اللاتيني «أوتونومي autonomy» والذي يعني «الاستقلال أو الحكم الذاتي» ، وهو مصطلح شائع في الأدبيات الغربية عادةً ما يُستخدم ليصف علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها ، وهو في تصورنا أبعد ما يكون عن وصف حقيقة هذه العلاقة . ولذا نفضل استخدام مصطلح «الإدارة الذاتية» لأن قدرته التفسيرية أعلى . فمن المعروف أن الحضارات التقليدية تتسم بالفصل الحاد بين الطبقات والفئات والأقليات ، فكان لكل فئة مؤسساتها الإدارية التي تمثل الأقلية أمام الدولة والحاكم ، وكانت الدولة بدورها لا تتعامل مع الأفراد مباشرة وإنما مع الفئات والطبقات والأقليات المختلفة باعتبارها تجمعات لها مؤسساتها . فكانت هذه المؤسسات تتولى جمع الضرائب مثلاً ، كما كانت تتولى الشؤون التعليمية والقضائية الخاصة بأعضائها . وكان لكل فئة أو أقلية مدارسها التي تديرها وتشرف عليها ، كما كان لها محاكمها التي تفصل في النزاعات التي تنشأ داخلها . ولم يكن يُستثنى من ذلك فئة أو طبقة أو أقلية . والواقع أن الهدف من هذا التقسيم والاستقلال الإداري النسبي كان ، على المستوى المحلي ، هو تسهيل عملية الإدارة وضبطها .

وكانت الجماعات الوظيفية (القتالية والمالية) تشكل حالة متطرفة من هذا الوضع العام ، فهي جماعات كانت تضطلع بوظائف تتسم بأنها مصدر رهبة أعضاء المجتمع أو اشمئزازهم . ولذا ، كان المجتمع يعزل أعضاء هذه الجماعات حتى يصبح لهم مؤسساتهم وأماكن إقامتهم المقصورة عليهم . وأعضاء الجماعات اليهودية في

التاريخية الاستثنائية مثل مملكة حمير ومملكة حدياب ومملكة الحزير باعتبارها تعبيراً عن رغبة اليهود الأثرية في الاستقلال الذاتي . وغني عن القول أن الدراسة التاريخية تبين أن هذه مجرد استثناءات يمكن تفسيرها لا في إطار التاريخ اليهودي وإنما في إطار التشكيلات الحضارية المختلفة التي ظهرت في إطارها .

### قيادات الجماعات اليهودية

#### Leadership of the Jewish Communities

«قيادات الجماعات اليهودية» هي الشخصيات أو المجموعة التي تتولى قيادة الجماعات اليهودية وتوجيهها والتفاوض باسمها مع النخب الحاكمة . ومن المشاكل التي يواجهها أعضاء الجماعات اليهودية ، عبر تواريخهم دائماً ، مشكلة القيادة ومشكلة من يتحدث باسمهم أمام السلطة الحاكمة . ولم يواجه العبرانيون القدامى هذه المشكلة ، ففي فترة الآباء كانت قيادتهم تشكل من شيوخ القبيلة (القضاة) . وحسبنا وصلنا من معلومات عن هذه الفترة السددمية ، لم يكن هناك ما يميز العبرانيين عن سواهم من الأقوام المتجولة في الشرق الأدنى في العالم القديم من ناحية البناء السياسي والطبيعي . وقد استمر الوضع على ذلك أثناء فترة القضاة حين ظهرت القيادة الكاريزمية القبلية التي لم تكن تختلف في جوهرها عن القيادة القبلية في عصر الآباء . وبعد ذلك ، ظهرت مؤسسة الملكية تساندنا طبقة الكهنة ، فقد حكم العبرانيين ملوك ابتداء من ١٠٢٠ حتى ٥٨٦ ق.م . ولكن ، وبطبيعة الحال ، كانت ثمة صراعات على القيادة لازمت هذه الممالك . فبعد وفاة شاؤول ، انقسمت المملكة إلى قسمين ؛ الجنوبي (يهودا) وقد استولى عليه داود ، والشمال (يسرائيل) الذي استولى عليه إشبعيل ابن شاؤول . وبعد سبع سنين ونصف السنة ، اتحدت المملكتان ثانية تحت قيادة داود ، ثم جاء سليمان وكانت أول خطوة قام بها أن قتل جميع منافسيه في الملك ليستريح من متاعبه . ولكن المملكة الموحدة انقسمت بعد موته مباشرة إلى مملكتين مستقلتين متخاصمتين ومتحاربتين : المملكة الشمالية وبقيت حتى عام ٧٢٢ ق.م ، والمملكة الجنوبية وبقيت حتى عام ٥٨٦ ق.م . كما أن المملكتين كانتا بدورهما ميداناً لنزاعات داخلية مستمرة . كما كان هناك صراع دائم بين الكهنة والملوك (المؤسسة الحاكمة) من جهة والأنبياء من جهة أخرى .

وبعد هذا التاريخ ، أخذت مشكلة القيادة في الظهور بكل أشكالها ، إذ تحولّ كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية . وتتمس الجماعة الوظيفية بأن قياداتها تهيمن على أعضائها

القرن الثامن عشر ، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر . ويمكن رؤية المسألة اليهودية كتعبير عن الفجوة الحضارية الناجمة عن هذا التحول السريع .

والمفهوم الذي طرحته حركة الانتماق والاندماج لهوية اليهودية ، هو أن اليهودي فرد ينتمي إلى مجتمعه ويكتسب هويته منه ، شأنه شأن سائر أعضاء المجتمع ، ولذا فلا توجد أية ضرورة إدارية أو حضارية لقيام مؤسسات الإدارة الذاتية .

وعلى العكس من هذا تحاول التواريخ التي تنطلق من المطلق الصهيونية إظهار أن مؤسسات الإدارة الذاتية مؤسسات حكم ذاتي «دولة داخل دولة» حسب التعبير الصهيوني والمعادي لليهود) مقصورة على اليهود وحدهم ، وبالتالي فإنها تعبير عن هويتهم القومية الجمعية التي ترفض الاندماج ، لتستخلص من ذلك أن اليهود يشكلون كلاً واحداً وأنهم تجمع قومي مستقل عبر التاريخ في كل زمان ومكان . ينطلق الفكر الصهيوني من هذا المفهوم الجمعي لهوية اليهودية الذي يضرب بجذوره في العصور الوسطى والجبتي ، والذي يصل إلى تعبيره الحقيقي عن نفسه في الدولة الصهيونية ؛ التجربة الكبرى في الإدارة الذاتية .

ولكن الدولة الصهيونية سبقها تجارب أخرى في الإدارة الذاتية من أهمها تجربة سورينام في الاستعمار الاستيطاني اليهودي وتجربة جيتو وارسو ومستوطنة تيريس اينشتانت اللتين حاول النازيون من خلالها أن يبنوا أن الشعب اليهودي شعب عضوي له مكوناته الحضارية المستقلة .

وقد اختلفت كل مؤسسات الإدارة الذاتية التقليدية (والنازية والصهيونية) وحلت محلها مؤسسات حديثة تختلف في وظيفتها تماماً عن مؤسسات الإدارة الذاتية التقليدية . فالهدف من مقاطعة بيروييجان حل مشكلة الجماعة اليهودية في روسيا باعتبارها جماعة قومية ليست لها أرض خاصة بها (ولذا انخرط بعض أعضائها في الوظائف الطفيلية الهامشية) . أما مؤسسات القهال وروابط المهاجرين وحلقات العمال والنادي اليهودي في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وغيرها فهي لا تختلف عن مثلتها من المؤسسات التي تجمع أعضاء الجماعات الإثنية والدينية المهاجرة في المجتمعات الحديثة وهي مؤسسات توفر لهم إطاراً يمكنهم من خلاله التواصل على مستوى أقل عمومية وأكثر خصوصية من توصلهم في رقعة الحياة العامة وتفي ببعض حاجاتهم النفسية والمادية الخاصة . ومن ثم فهي ليست مؤسسات إدارة ذاتية رغم أن اسمها قد يوحي بذلك . وتحاول بعض الكتابات الصهيونية أن تقدم بعض الحوادث

قبل الميلاد ، ظهرت داخل اليهودية تيارات متعددة كان من أهمها الصدوقيون والفريسيون والغيورون ، طرح كلٌ منهم نفسه باعتباره قيادة اليهود الحقيقية ، في فلسطين أساساً ، وفي العالم ككل . ثم نشب التمردان اليهوديان الأول والثاني ضد الرومان والذنان انتهيا بتهديم الهيكل بيد الرومان ، الأمر الذي وضع نهاية للمرحلة العبرانية اليهودية .

ويلاحظ أنه ، بعد هدم الهيكل ، لا يوجد شكل واحد محدد للقيادة يسود الجماعات اليهودية إذ كانت كل جماعة خاضعة للتشكيل الحضاري السياسي الذي توجد فيه . وعلى سبيل المثال ، فإن قيادة يهود الفلاشاه التي استمرت حتى العصر الحديث كانت قبليّة ، واصطبغت قيادة يهود بني إسرائيل في الهند بطابع هندي واضح ، وتأثرت قيادة يهود كالفينج بالخصارة الصينية . أما يهود الحزر ، فقد سادت بينهم مؤسسة الملكية المزوجة (التركية) . أما في الشرق الإسلامي ، فقد ترأس الجماعات اليهودية رأس الجالوت (المنفى) ، وكان منصبه المركزي تعبيراً عن مركزية الإقطاع في العالم الإسلامي . وقد ظهر إلى جواره نخبة قيادية دنوية تستند هيتها إلى مجاحاتها التجارية وراثها ، وقد كانت هي التي تتحكم في النخبة الدينية . وهذا وضع يشبه الوضع في الولايات المتحدة في الوقت الحالي ، إذ أن أثرياء اليهود قد أسسوا بزمام قيادة الجماعة اليهودية فعلياً ، وتضام دور المفكرين الدينيين والمخاطمات .

وحيث كانت الدولة المركزية قوية ، كان اليهود يتبعون مركزاً واحداً وقيادة واحدة . وحينما كانت السلطة المركزية تضعف وتنقسم الدولة إلى دويلات ، كانت الجماعات اليهودية ذاتها تنقسم إلى وحدات صغيرة تتبع كل منها الدولة التي تعيش فيها . في العالم الإسلامي على سبيل المثال ، حينما كانت تحكمه سلطة مركزية قوية ، كان منصب رأس الجالوت يتمتع بنفس القوة . ومع تفكك الدولة الإسلامية إلى دويلات أو مقاطعات شبه مستقلة ، ظهر منصب رئيس اليهود (نجيد) في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية .

ومع هذا ، كانت الجماعات اليهودية ، داخل الإطار القومي للدولة العثمانية ، منقسمة فيما بينها متصارعة الواحدة مع الأخرى ، واحتفظت كل جماعة باستقلالها . ولكن حدثت عملية اندماج فيما بينها مع مرور الزمن نظراً لسيادة العنصر السفاردي . ولذا ، فقد عينت الدولة العثمانية المخاخام باشي (في القرن التاسع عشر) ليمثل نوعاً من القيادة المركزية ليهود الدولة العثمانية .

ومن ناحية ظهور المسألة اليهودية وتطور الحركة الصهيونية ، قد يكون من المفيد التركيز على أوروبا وحدها . ويلاحظ أن الإقطاع

لأنها عادة جماعة صغيرة عددياً ، كما أنها لا بد أن تخضع لعملية ضبط اجتماعي هائلة حتى يتسنى لأعضائها القيام بوظائفهم وحتى يمكنهم توارث الخبرات من خلال الجماعة الوظيفية . وعادة ما كانت النخبة الحاكمة تطلق يد قيادة الجماعة الوظيفية في تصريف أمور الجماعة كشكل من أشكال الإدارة الذاتية . ومع أن الوضع في فلسطين كان مختلفاً ، بطبيعة الحال ، إلا أنه يلاحظ أن الجماعة اليهودية على أرض فلسطين فقدت استقلالها السياسي (باستثناء فترة الحشمونيين القصيرة) وأصبحت دولة تابعة لإمبراطورية كبرى . ولكن علاقة النخبة الحاكمة الإمبراطورية بالقيادة اليهودية المحلية كانت لا تختلف كثيراً عن علاقة أية نخبة حاكمة بقيادات الجماعات اليهودية الوظيفية .

ومنذ فترة التهجير إلى بابل ، قام أعضاء الجماعات اليهودية بتصريف أمورهم الدينية وبعض أمورهم الدنيوية المحلية ذات الطابع الإداري ، مثل جمع الضرائب ، بتصريح من السلطة الحاكمة وفي إطار الإدارة الذاتية المعمول بها في معظم الإمبراطوريات القديمة ، شأنهم في هذا شأن كل الطوائف والجماعات الوظيفية في المجتمعات التقليدية وفي هذا الإطار تم تأسيس المجمع الكبير . وقد استمر هذا النمط وساد بين أعضاء الجماعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر ، ثم تقلص بعد ذلك التاريخ إلى تصريف الأمور الدينية وحدها . ولا يُستثنى من هذا النمط إلا أعضاء التجمّع الصهيوني . وقد تولي القيادة في غالب الأمر تحالف من رجال الدين وأثرياء اليهود وكانت التفرقة بينهم صعبة في معظم الأحيان . وبعد مرسوم قورش بالعودة من بابل (538 ق.م) ، آلت القيادة إلى طبقة الكهنوت المركزية حول الهيكل ، وتحالف معهم أثرياء اليهود الذين تأغرقوا ، وفقاومتهم العناصر العبرانية المحلية . ثم ظهر من بينهم ، لفترة زمنية قصيرة ، ملوك الحشمونيين (142 - 75 ق.م) الذين كانوا يحملون لقب الكاهن الأعظم ، وقد تأغرق هؤلاء أيضاً وتعاونوا في نهاية الأمر مع السلطة السلوقية ثم الرومانية . أما حكم الهيروديين (ابتداء من 37 ق.م) ، فكان تابعاً للرومان تماماً . ومن المعروف أن لقب «ملك روماني (دوكس)» الذي كان يحمله ملوكهم وبعض ملوك الحشمونيين من قبلهم ، كان لقباً شرفياً وحسب إذ كانوا يدينون بالبيعة الكاملة لروما . وقد كان الملوك الهيروديون يعينون كاهناً أعظم يعمل موظفاً لديهم ويدين لهم بالولاء . وقد أصبح للجماعة اليهودية في بابل مركز سلطة مستقل يرأسه رأس الجالوت (المنفى) . وحين تعاطف عدد يهود مصر وتزايد نفوذهم ، أصبح لهم ، هم أيضاً ، قيادتهم المستقلة بل هيكلهم المستقل . وفي نهاية القرن الأول

جوباً مستقلة . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تطلب إلى الحاكم أن يحميها من اضطهاد القيادات الحاخامية والمالية . وقد كانت الحركة الحسيدية أكثر الحركات الصوفية (الشتبتانية) انتشاراً وجماهيرية . وكان لكل جماعة حسيدية قائدها (تساديك) وهو زعيمها الديني الصوفي الذي كانت تقوم بينه وبين أتباعه علاقة مباشرة حميمة ، فهو الصلة الوحيدة بينها وبين الإله حسب التصور القبالي . وقد حلَّ التساديك محل الحاخام بالنسبة إلى الحسيديين .

غير أن التحدي الأكبر للمؤسسة الحاخامية جاء من بين صفوف دعاة حركة التنوير (مسكليم) مع نهاية القرن الثامن عشر بتأييد من التجار اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الجديد الذي جعل وجود الجماعات الوظيفية (اليهودية وغير اليهودية) غير ذي موضوع . وقد تلقى هؤلاء تعليمهم خارج المحيط اليهودي التقليدي . وكانوا قادرين على التعامل بكفاءة مع العالمين اليهودي والمسيحي والتقليدي والحديث ، فطرحوا أنفسهم باعتبارهم القيادة المنطقية للجماعات اليهودية ، والقادرين على التحدث باسمها ، والعارفين بمصالحها ، حتى ولو رفض السواد الأعظم من اليهود ذلك الرأي . وكانت الحكومات الغربية الحريصة على تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وعلى علمتهم ، تؤثر التعامل معهم ، وهذا يعني أن دعاة التنوير كانوا ، مثل يهود البلاط ، يكتسبون شرعيتهم من عالم الأغيار .

وحينما ظهرت الحركة الصهيونية ، كانت بعض أشكال القيادة التقليدية لا تزال سائدة برغم تزايد تحديث أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم في مجتمعاتهم . ولا يمكن فهم سلوك الزعامات الصهيونية في شرق أوروبا إلا في ضوء هذه الحقيقة . وقد كانت منظمات أحباء صهيون منظمات حديثة تنطلق من مفاهيم حديثة مثل تطبيع الشخصية اليهودية وحل المسألة اليهودية عن طريق الاستعمار . ولكن ، ورغم أن ليو بنسكر وموشيه لينينولوم تلقيا تعليماً علمانياً ، فإنهما حينما بدأ في التحرك اتبعا النمط التقليدي فطلباً إلى الحاخام موهيليفر أن يتوجه إلى هيرش وروتشيلد (وهما من أثرياء الغرب اليهود) ليطلب منهما تقديم المساعدة لمشروعهما الاستيطاني ، أي أنهما توجهوا للوسيط (شتدلان) التقليدي (الحاخام) الذي يتوجه إلى الشري حتى يتوسط لدى الحكومات المعنية وحتى يزودهما بالدمع المالي الذي يريدانه . وظلت الحركة الصهيونية قابعة داخل هذه الرؤية الضيقة ، إلى أن جاء هرتزل وحدث الحل الصهيوني فخرج به من الإطار اليهودي التقليدي وتخطى الوساطة التقليديين وطرح المسألة في إطار استعماري غربي لا علاقة له بأشكال القيادة التقليدية

الأوربي لم يكن ذا سلطة مركزية واحدة وإنما كان منقسماً إلى وحدات صغيرة . ومن الحقائق الأساسية التي تتعلق بالإقطاع الأوربي أن القيادات اليهودية انقسمت بانقسام الجماعات ، فكان لكل جماعة يهودية وظيفية نخبتها القائدة التي كانت تكون عادةً من كبار رجال الدين والمؤمنين وتستبعد صغار رجال الدين والتجار . ويظهر هذا في مؤسسة القهال التي كانت تتكون من تنظيمات صغيرة متصارعة فيما بينها ، ثم أصبحت في نهاية الأمر مُمثلةً في مجلس البلاد الأربعة الذي تم حُلُّه عام ١٧٦٤ ، فعادت التوترات والصراعات بين منظمات القهال المختلفة مرة أخرى . وفي بداية القرن السابع عشر ، ظهر يهود البلاط (وهم من كبار المؤمنين الذين كان يعتمد عليهم الحاكم) الذين كانوا يكتسبون هبة خاصة وشرعية نتيجة ارتباطهم بالحاكم ويتحولون إلى قيادات للجماعة اليهودية ويتحدثون باسمها أمام الأمير . وكانت أهم وظيفة تُوكَل إلى القيادات وظيفية الوسيط (شتدلان) ، تلك الوظيفة التي كانت مهمتها التوسط بين الحاكم وأعضاء الجماعة . وكان هؤلاء الوسطاء ، بسبب ثرائهم ونفوذهم ، يقدمون الصدقات للفقراء من أعضاء الجماعة ، الأمر الذي كان يعطيهم شرعية هائلة ، فشرعية هذه القيادة كانت تستند إلى ثرائها وإلى نجاحها في عالم الأغيار ، وإلى تقبُّل عالم الأغيار لها ، وهي ليست قيادة دينية أو نابعة من داخل حركيات الجماعة اليهودية .

ومع تدهور الجماعة اليهودية في شرق أوروبا ، في بولندا وروسيا اللتين كانتا تضمّان معظم يهود أوروبا والعالم ، تدهورت هذه القيادات أيضاً وأصبحت فاسدة ، وتحول القهال من شكل للإدارة الذاتية إلى أداة استغلال وقمع . وكان منصب الحاخام يُباع ويُشترى وكذلك منصب القاضي ، وهو ما كان يجعل الرشوة أمراً طبيعياً في المحاكم الشرعية اليهودية ، وهكذا ازداد انفصال القيادات الدينية والدينية عن جماهيرها . وربما كان هذا الوضع المتردي أحد العناصر التي أدت إلى تفجُّر النزعات المشيخانية والحركات الشبتانية التي جاءت بعدها ، والتي كانت تمثل ، فيما كانت تمثل ، ثورة ضد القيادة التقليدية المكوَّنة من الحاخامات والأثرياء ، فضمت عناصر كثيرة من بينها صغار المؤمنين وصغار الحاخامات ، وكل من اهتز وضعه الاقتصادي نتيجة التحولات الاقتصادية ، وكل من استبعدته أشكال التنظيم القديمة . وقد كان لهذه الحركات قياداتها الكاريزمية ، يتبع كل قائد مريدوه وأتباعه وجماهيره . ولما كان لكل جماعة ، مثل الدوميه والفرانكيين ، فطوسها ومعتقداتها المتميزة عن فطوس ومعتقدات اليهودية الحاخامية ، فقد شكلت مثل هذه الجماعات

المألوفة لدى اليهود فتَوَجَّه إلى الدول الغربية الاستعمارية . ولذا ، فقد نجح هرتزل فيما فشل فيه أحياء صهيون ويهود شرق أوروبا ، فأسس المنظمة الصهيونية العالمية التي أصبحت الوسيط المباشر بين أعضاء الجماعات اليهودية والقوى الإمبريالية ، وظل مهيمناً عليها تماماً حتى موته .

وقد ظن صهاينة الغرب أن هيمنتهم على المنظمة ستستمر وأن صهاينة الشرق سيسترونها في تلقّي الأوامر والإذعان لها . لكن ، بعد موت هرتزل بفترة قصيرة ، استولى صهاينة شرق أوروبا على المنظمة على أسس أن الكثافة السكانية اليهودية تتركز في بولندا وروسيا ، وعلى أساس أنهم أولى بالتعبير عنها وعن مصالحها ، وخصوصاً بعد أن تعلموا الدرس من هرتزل وتجاذوزوا الإطار اليهودي المضطرب واتصلوا بالقوات الاستعمارية الغربية .

ويُعدُّ وعد بلفور الشكل الجديد الذي يحدد العلاقة بين الجماعات اليهودية والحضارة الغربية حيث قامت الزعامة الصهيونية بدور الشتلان أو الوسيط الحديث ، فعرضت تهجير فائض أوروبا من اليهود إلى فلسطين تخلصاً منهم ، ولتأسيس قاعدة للاستعمار الغربي ، على أن يقوم الغرب بحمايتهم في المقابل . وقد قبل الغرب هذه الرؤية ، وتم توقيع وعد (عقد) بلفور في هذا الإطار ، حيث يقوم اليهود تحت زعامة الحركة الصهيونية بتصريف أمورهم الدينية باستقلال كامل ، وتصريف أمورهم الإدارية والسياسية المحلية في المُستوطن الصهيوني ، على أن يتحرك الجميع في إطار المصالح الإمبريالية الغربية . وهذا الوضع لا يختلف في أساسياته عن وضع الجماعات اليهودية داخل إطار الإمبراطوريات القديمة . ولذا ، تم القضاء على المعارضة اليهودية للصهيونية أو كبح جماحها واستولت الصهيونية على الجماهير اليهودية من خلال الضغط « من فوق » أي من جهة الدولة الإمبريالية الراعية . ومن الأمور التي تستحق التأمل والدراسة أن معظم كبار المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية لا ينضمون إلى الحركة الصهيونية وهو ما يعني أن قيادة الجماعات اليهودية قد سقطت في يد صغار المفكرين الصهاينة الذين لا يتمتعون بأية أفكار فكرية فسيحة أو رؤى تاريخية عميقة .

ولم يتوقف الصراع على زعامة الجماعات اليهودية ، بعد وعد بلفور ، سواء على الصعيد العالمي أو داخل المُستوطن الصهيوني . أما على الصعيد العالمي وداخل الحركة الصهيونية ، فإن الصراع أصبح يدور بين أعضاء الجماعات اليهودية بما لهم من مصالح وارتباط بأوطان وهويات ثقافية متنوعة من جهة وبين المنظمة الصهيونية من جهة أخرى ، فهي تريد أن توظف كل شيء لصالح

وفي الواقع ، فإن وظيفة رأس الجالوت كانت عملاً إدارياً مُترفاً به من قبل الدولة وخاضعاً لسلطانها . وكانت الإمبراطوريات القديمة عادةً تلجأ إلى أسلوب إداري مبني على اللامركزية بحيث كانت كل جماعة (إثنية أو دينية أو مهنية) تتمتع بشيء من الاستقلال في أمورها الداخلية (الدينية أو الشرعية أو التربوية) وتسييرها بنفسها ، على أن تقوم قيادة الجماعة بجمع الضرائب من الأعضاء وبمراقبة الأمن بينهم . وقد كان مورد رأس الجالوت يأتي من ضرائب خاصة يفرضها . وكان رأس الجالوت يشبه ، في منصبه هذا ، مناصب الكاتولييكوس (رئيس الجماعة السنطورية) ، مع فارق أن رئيس الحلقات التلمودية الذي كان يُقال له «الجاهل» أو «رأس الميثية» كان يشارك رأس الجالوت في السلطة ، بحيث يختص الأول بالأمور الدينية ويختص الثاني بالأمور الدنيوية .

كان رأس الجالوت يقوم بجمع الضرائب من الجماعة ليقدمها إلى الدولة ، كما كان يلعب دور القاضي في القضايا الخاصة بالجماعة اليهودية ، وهو الذي كان يعين القضاة الشرعيين (ديانهم) ، ويشاركه في ذلك رئيس الحلقة التلمودية (عادةً حلقة سورا) ، الذي كان ذا سلطات تنفيذية تشبه سلطة الشرطة ، فكان على سبيل المثال يراقب التجارة والموازين والمقاييس والأسعار . وكان له حق توقيع العقوبات ، بالضرب أو الغرامة أو السجن . وهذه هي أهم الوظائف التي كان يمكن أن يضطلع بها رئيس الجماعة الوظيفية الوسيطة .

ولقد كان نطاق سلطات رأس الجالوت يتفاوت من فترة زمنية إلى أخرى . وقد أدى ذلك إلى نشوب صراع دائم بينه وبين رئيسي الحلقتين التلموديتين في كل من سورا ويومبيدنا وصل إلى درجة أن بعض اليهود كانوا يرسلون الضرائب المقررة عليهم إلى رأس الجالوت بينما البعض الآخر كانوا يرسلونها إلى رؤساء الحلقات . ومن أشهر هذه الصراعات ، ذلك الصراع الذي دار بين داود بن زكاي وسعيد بن يوسف الفيومي . وقد كانت الكفة الراجحة للعلماء الذين كانوا يتحالفون مع التجار ، فكانوا هم الذين يعينون رأس الجالوت ، ثم يعتمد خليفة المسلمين تعيينهم . وقد أصبح اللقب شرفياً في القرن الحادي عشر . ومع القرن الثالث عشر ، اندمج منصباً رأس الجالوت ورئيس الحلقة التلمودية .

وفي فترات معينة ، كان الخليفة يستقبل رأس الجالوت في قصره كل ثلاثاء ويطلب إلى كل الحاضرين (المسلمين وغير المسلمين) أن يقفوا في حضرته . وحينما يسير موكبه ، كان يتقدمه مناد يرفع صوته بين الناس : «اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود» .

وفي حوار دار بين ابن حجرية وابن حزم ، حاول الأول أن

الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة التي ستقوم بحلها وتستعيد السلطة والسيادة لليهود بحيث تصبح لهم سيادتهم القومية وقيادتهم المستقلة . وتثار الآن هذه القضية مرة أخرى في الصحافة الإسرائيلية ، كما يثار مدى نجاح القيادة الصهيونية داخل إسرائيل في تحقيق هذا الهدف على ضوء الاعتماد المالي والعسكري والسياسي المتزايد على الولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى ضوء تدخل الولايات المتحدة في كثير من القضايا التي لها علاقة بالسيادة القومية مثل إنتاج طائرة لافي .

ومع ظهور ما يُسمى «الاهوت البقاء» ، الذي يجعل الهدف الأساسي من التاريخ اليهودي بقاء اليهود ، طرح المحاخام ريتشارد روينشتاين رؤية مفادها أن القيادة المحاخامية لليهود قيادة فرضها الرومان على اليهود بعد إخمادهم التمردات اليهودية ، وأن هذه القيادة هي التي علمت اليهود الخنوع والخضوع وتقبل العجز وأن هذا الوضع قد استمر حتى الحرب العالمية الثانية حين تعاونت المجالس اليهودية مع القوات النازية وسلمتهم أعضاء الجماعات اليهودية ليرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال . ومن ثم ، فإن ظهور القيادة الصهيونية (المسكرية) هو تصحيح لمسار التاريخ اليهودي كتاريخ زمني .

#### رأس الجالوت (المنفى)

Exilareh: Resh Galuta

«رأس الجالوت» ترجمة عربية للعبارة الآرامية «ريشي جالوتاه» ، وهي بالعبرية «روش جولاه» ، وتعني حرفياً «رئيس المنفى» . وهو لقب أمير الجماعة اليهودية في بلاد الرافدين قبل الإسلام وبعده . وتبدأ القائمة عادةً بالملك يهوياقيم ، ولكن أول ذكر تاريخي لرأس الجالوت يقع في القرن الثاني بعد الميلاد (في فترة حكم الفرثيين) . وكانت وظيفة رأس الجالوت وراثية ، الأمر الذي أدى إلى الفساد والتآمر من أجل الاستيلاء عليها ، ولكن كان لا بد لمن يشغلها أن يكون من نسل داود . وقد فقد المنصب مكانته بعض الوقت ، ولكنه استعادها بعد الفتح العربي عام ٦٤٢م ، إلى أن انشق عنان بن داود ، مؤسس فريق القرابين . وقد ساد الظن بأن المنصب استمر حتى عام ١٠٤٠ ، ولكن العلماء يرون الآن أنه استمر (وإن كان ذلك بشكل اسمي) حتى القرن الثالث عشر أو حتى بعد ذلك ، حينما قضى تيمورلنك على المنصب عام ١٤٠١ ، ثم حل محله منصب رئيس اليهود (في الدول الإسلامية) ومنصب المحاخام باشي (في الدولة العثمانية) .



يضحّم من أهمية هذا المنصب ، وحاول أن يبرهن على صدق أية وردت في سفر التكوين (٤٩/٨-١١) تقول إن صولجان الحكم سيظل دائماً في يد يهودا (بالإشارة لهذا المنصب ا). وقد رفض ابن حزم ما ذهب إليه ابن جريرة وبين أن رأس الجالوت لا نفوذ له لا على اليهود ولا على غيرهم ، كما بين أنه يفتقر إلى سلطة ، كما بين أن لقبه شرفي محض ، وخال من أي معنى حقيقي . والمنصب ، في هذا ، يشبه منصب بطريك فلسطين تحت حكم الرومان .

### المجمع الكبير Great Synagogue

«المجمع الكبير» هو المقابل العربي للكلمة العبرية «كنيست هجدولا» وهو المجلس التشريعي الذي يُقال إن عزرا أسسه بعد عودته من بابل بعد صدور مرسوم قورش (٥٣٨ ق.م) . ومعنى هذا أن المجمع الكبير يرجع إلى تلك الفترة الفارسية من تاريخ اليهود في فلسطين والتي لا يُعرف عنها الكثير . لكن هناك نظرية تذهب إلى أنه يعود إلى أيام العبرانيين الأوائل ، وأنه استمر في فترة التهجير البابلي ، وأن كل ما فعله عزرا هو دعوة المجلس للانعقاد . ولم تصلنا معلومات واضحة أو أكيدة عن هذه المؤسسة التشريعية ، ولكن يبدو أن كان مجلساً يضم ممثلين عن كل اليهود ومنهم الكهنة .

ويقال إن عدد أعضاء المجمع الكبير كان مائة وعشرين ، وهو عدد أعضاء البرلمان الإسرائيلي الذي يُقال له الكنيست . ويُقال أيضاً إن العدد كان خمسة وثمانين في بداية الأمر . ويبدو أن المجلس كان يعقد اجتماعات كلما ظهرت قضية خطيرة ، واشترك في المجلس الأول الشيوخ والأنبياء الذين عادوا من بابل ، من بينهم عزرا ونحميا وحجاي وزكريا . كما يبدو أن هذا هو المجلس الذي عيّن شمعون الحشموني كاهناً أعظم وقائلاً أعلى ، واستمر المجلس حتى الفترة الهيلينية . وقد قرّر هذا المجمع الثمانية عشر دعاء (شمونه عشره) ودعاء مقدم السبت (قيدوش) وكثيراً من الصلوات والبركات الأخرى . وهو أيضاً الذي قام بتقسيم الشريعة الشفوية إلى مدراس وهالاخاه وأجاده . وهو أيضاً الذي ضم أسفار حزقيال ودانيال وإستير ، وكذلك أسفار الأنبياء الصغار ، إلى العهد القديم .

### البوليتيوما

Politeuma

«بوليتيوما» كلمة يونانية تشير إلى الإطار الإداري الذي كان يتظم الجماعة اليهودية في مدن مثل الإسكندرية . وقد اعترف

اليونان ، ومن بعدهم الرومان ، باليهود كقوم (إثnos) لهم تقاليدهم وعاداتهم وديانتهم . ولذا ، فقد أعفوا من العبادة الوثنية ومن تقدم القربان إلى الأباطرة أو الاشتراك في الأعياد والمناسبات الوثنية . لكن هذا كان يعني أن اليهود أصبحوا غرباء لا مواطنين كاملي المواطنة ، إذ كانت المواطنة في المدينة تعني الانتماء الكامل : اجتماعياً وسياسياً ودينياً أيضاً .

ومن هنا ، لم يصبح اليهود ، في الإسكندرية أو في غيرها من المدن ، أعضاء في المدينة (بوليس) ، فهذا كان يعني بالضرورة الاشتراك في العبادة والجسمانيوم وتلقّي التعليم اليوناني اللازم . ولذا ، فقد سُحوا مكانة غرباء لهم حق السكنى ، كما كانت تتظلمهم مؤسسة البوليتيوما .

وبمقتضى تنظيم البوليتيوما ، تمتع اليهود بشيء من الاستقلال الإداري الذاتي في الأمور الدينية والقضائية ، ولكن لم يكن لهم حق المشاركة في إدارة المدينة من الناحية السياسية . وكان لمؤسسة البوليتيوما (ومثلها القهال فيما بعد) موظفوها الإداريون المستقلون عن الجهاز الإداري للمدينة . وكان للبوليتيوما محاكمها الخاصة ، كما كان يترأسها رئيس القوم (إثناخ) . ومن أشكال الاستقلال الإداري مجلس الشيوخ (جيروسيا) ، وهو المجلس الذي كان يمثل يهود الإسكندرية ويزاحم رئيس القوم السلطة .

وقد ظل وضع اليهود داخل البوليتيوما مستقراً ماداموا يقومون بدور الجماعة الوظيفية للبطالة . ولكن ، مع الغزو الروماني ، اختل التوازن وتحوّل اليونانيون أنفسهم إلى جماعة وظيفية للرومان تراحم اليهود . وقد أثر هذا في وضع البوليتيوما . فالأئمة الحاكم الروماني فلاكوس وضع اليهود كغرباء لهم حق السكنى ، فأصبحوا غرباء وحسب يمكن طردهم ، فاشتكوا إلى الإمبراطور الروماني الذي أنصفهم وأكد وضعهم باعتبارهم بوليتيوما . وقد زيدت التوترات إلى أن نشب التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠م) والتمرد اليهودي الثاني (١٣٢ - ١٣٥م) وضعفت البوليتيوما بوصفها مؤسسة وإطاراً تنظيمياً (كما حدث للقهال فيما بعد) .

ولم تكن البوليتيوما مقصورة على اليهود وإنما كانت شكلاً من أشكال التنظيم الإداري العام . وكانت هناك بوليتيوما في القيوم تضم الكريتين .

### الملك الروماني (دوكس)

Dux

«دوكس» كلمة لاتينية تعني «ملك» وهو لقب كان يخلعه

أهمها جمع الضرائب . ولكن يبدو أن مجلس الشيوخ (جيروسيا) ، كان يزاخمه في السلطة . وقد حل لقب «الأراباخيس (أبارخ)» أي ملتزم الضرائب محل الإثنارخ . وفي العصر الروماني ، أحل أوغسطس (٣١ - ١٤ ق. م) مجلس الأبارخ محل رئيس القوم .

أما في فلسطين ، فقد كان رؤساء الجماعة اليهودية يحملون لقب «إثنارخ» . وكان من يحمل لقب «ملك روماني (دوكس)» أعلى ممن يحمل لقب «إثنارخ» . وقد عين بومبي يوحنا هيركانوس الثاني في منصب إثنارخ إلى جانب كونه كاهناً أعظم ، ولكنه منعه من ارتداء تاج لأنه لم يكن ملكاً مثل هيرود الذي كان يحمل هذا اللقب . وحينما عين أرخيلوس رئيساً للقوم ، وعده أوغسطس بأنه إذا أثبت جدارة فسيحصل على لقب «ملك روماني (دوكس)» وهو لقب شرفي وحسب ولكنه لا يعادل الملك بكل ما في الكلمة من معنى .

#### مجلس الشيوخ (جيروسيا)

Gerusia

«مجلس الشيوخ» ترجمة عبرية لكلمة «جيروسيا» اليونانية والتي تعني أيضاً «مجلس الكبار» . والجيروسيا مؤسسة إدارية معروفة في العالم الهيليني كان يترأسها الكاهن الأعظم لليهود تقوم بإدارة شئون اليهود الداخلية . وقد وصف أنطيوخوس الثالث استقباله استقبالاً حافلاً من قبل جيروسيا فلسطين وليس من قبل كاهنها الأعظم . ونتيجة هذا الاستقبال ، أعفى أعضاء الجيروسيا وكنهة الهيكل من الضرائب . وقد وجه أنطيوخوس الرابع رسائله إلى الجيروسيا لا إلى الكاهن الأعظم .

ويرى بعض المؤرخين أن الجيروسيا ليست المجمع الكبير . وهناك رأي يذهب إلى أن الجيروسيا هي التي أصبحت السنهدرين فيما بعد ، وخصوصاً بعد أن اتّمت سلطاتها .

وكان يوجد جيروسيا في الإسكندرية ، حيث أصبحت المؤسسة المسيطرة أثناء حكم الرومان ، وكان ينشأ أسبها (الجيروسيارخ) الذي حل هو والجيروسيا محل رئيس القوم (إثنارخ) .

#### السنهدرين الأكبر

Great Sanhedrin

ويُشار إليه بلفظ «سنهدرين» فقط . و«السنهدرين» صيغة عبرية للكلمة اليونانية «سنديرون» وتعني «مجلس» . وقد كان هذا الاسم

الرومان على بعض من كانوا يمثلون مصالحهم من زعماء الأقوام (إثنوس) الذين كانوا يحكمونها . وهو لقب شرفي لا يعني أن حامله ملك بالمعنى الصحيح للكلمة ، وهو لا يُعطي صاحبه سلطات الملك ولكنه كان يعطيه حق ارتداء تاج ! وقد خُلق لقب «ملك» على سبيل المثال على كل من هيرود وأجريا الأول وأجريا الثاني . وكان بعض حكام سوريا من الرومان يحملون لقب «دوكس» .

#### الحاكم التابع (تتراخ)

Tetrarch

«الحاكم التابع» هي الترجمة العربية للكلمة اليونانية «تتراخ» وتعني حرفياً «رأس الأربعة» ولكنها فقدت معناها الأصلي وأصبحت بمعنى «حاكم تابع» ، وهو أقل مرتبة من الملك الروماني (دوكس) . وقد كان لقب «الحاكم التابع» يُمنح في المرحلة الرومانية للحكام الذين يقفون أهمية عن حكام مقاطعات يهودا وسوريا . وكان الحاكم الروماني هو الذي يُميّن الحاكم التابع . وكانت المنطقة التي يحكمها الحاكم التابع تُسمى «التتراخية» . وكان للحاكم التابع ، داخل مقاطعته ، حقوق الملوك في الأمور الداخلية ، كما كان له دخل سنوي ثابت ، ولكنه كان خاضعاً تماماً لروما في الشئون الخارجية . وقد عين هيرود في منصب الحاكم التابع قبل أن يُميّن ملكاً رومانياً (دوكس) . وقد كانت المقاطعة التابعة شكلاً من أشكال الإدارة الذاتية .

#### رئيس القوم (إثنارخ)

Ethnarch

«رئيس القوم» ترجمة عبرية لعبارة «إثنارخ» اليونانية المكونة من كلمتين : كلمة «إثنوس» ، التي يمكن ترجمتها بمعنى «قوم» أو «جماعة» (مقابل «بويولوس» بمعنى «شعب» ، و«آرخ» أي «الرئيس» أو «الحاكم» . وقد صُفَّ اليهود في الدولتين اليونانية والرومانية باعتبارهم إثنوس أي قوم لهم قوانينهم التقليدية وديانتهم التوحيدية التي قرّرت الدولة الاعتراف بها ، وهو ما كان يعني إعطاهم حقوقاً ومزايا معينة ، كما كان يعني حجب بعض الحقوق الأخرى عنهم ، إذ لم يكن بمقدورهم أن يصبحوا مواطنين إلا بالتخلي عن انتمائهم لقومهم (إثنوس) وبعثانهم الديانة الوثنية . وكان يترأس القوم (إثنوس) رئيس القوم وهو باليونانية «إثنارخ» ، وهو اللقب الذي كان يُمنح لرئيس الجماعة اليهودية في الإسكندرية . وكانت للإثنارخ صلاحيات قضائية وإدارية واسعة من

كانوا ملوكاً كهنة (كان الملك الحشموني هو قائد الشعب والكاهن الأعظم) . وبذلك ، يكون السنهدرين التفسير عن الجمع بين السلطين الدينية والدينية لا الفصل بينهما .

٥ - كما أن هناك نظرية تذهب إلى أنه يوجد مجلسان للسنهدرين لا مجلس واحد فقط كما سنين فيما بعد .

وهكذا تختلط النظريات بشأن تاريخ السنهدرين ووظيفته . ولكننا نعرف أنه ظل قائماً حتى عام ٦٦ م ، أي حتى نشوب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان . ولم يكن السنهدرين مثل مجلس الشيوخ (جيروسيا) وإن كان قد حل محله . ولم يكن أيضاً له صلاحيات مجلس المدينة اليونانية (بوليس) ، كما لم يكن مثل المجمع الكبير الذي كان لا يجتمع إلا وقت الأزمات وفي الطوارئ . وكان السنهدرين يتكون من واحد وسبعين عضواً وكان مقره القدس ، وكان يجتمع في القاعة العظمى أو في قاعة الحجارة المنحوتة (بالعبرية : لشكت هجازيت) ، ويُقال لها أيضاً «قاعة القرارات» .

وبعد تحطيم الهيكل ، انتقل السنهدرين إلى يفته ، ولكن لم تُد له السلطة ولا الصلاحية السابقة ، بل يفضل بعض المؤرخين تسمية سنهدرين يفته «البطيركية» التي اعترف الرومان بها كسلطة مركزية لكل اليهود لها الصوت المسموع في الأمور الدينية والقضائية وفي تحديد التقويم وتقرير رؤية القمر .

وباضمحلال أهمية الجماعة اليهودية في فلسطين ، بدأ السنهدرين (أو البطيركية) يفقد أهميته ، وانخسف في نهاية الأمر عندما ألغى الرومان الشرقيون وظيفة أمير اليهود (ناسي - بطريك) عام ٤١٥ م .

وثمة رأي يقول إن السنهدرين كان هيئة سياسية بترأسها الكاهن الأعظم ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه كان يوجد ، منذ البداية ، مجمعان للسنهدرين : واحد للأمور السياسية وآخر للأمور الدينية . ولم يكن السنهدرين السياسي ، بحسب هذا الرأي ، يضم رجال الدين ولكن كبار رجال الشعب والأرستقراطية . كما يذهب هذا الرأي إلى أن الرومان ألغوا المجمع الأول وأبقوا على الثاني وحسب . ولعل الهدف من هذه النظرية أنها تلقي مسئولية محاكمة المسيح والحكم بصلبه على السلطة الدينية اليهودية وحدها ، وتعفي السلطة الدينية من ذلك . ومن الصعب حسم هذه القضية لأن رأي المصادر اليهودية تقصر مهمته على الأمور الدينية في حين ترى المصادر الهيلينية ، ومن بينها يوسيفوس ، أنه كان يختص بالأمور السياسية

يُطلق على الهيئة القضائية العليا المختصة بالنظر في القضايا السياسية والجناحية والدينية المهمة في المناطق التي كان يعيش فيها اليهود في فلسطين . وكان السنهدرين بمنزلة المحكمة (بيت دين) . ولذا ، فإنه يُطلق عليه بالعبرية اسم «بيت دين جادول» أي «المحكمة العليا» ، وهي محكمة تمارس تطبيق العدالة وإصدار الأحكام طبقاً للشرعية اليهودية في ذلك الوقت ، وتشريع القوانين الخاصة بالعبادات ومحاكمة من ينتهك هذه القوانين ، وكذلك الإشراف على الاحتفالات الكهوتية في المعبد . وكان السنهدرين يقوم أيضاً بوظيفة محكمة الاستئناف . والسنهدرين أعلى سلطة قضائية لليهود وله الرأي النهائي في تفسير القوانين وإصدارها . وقد كانت أحكامه تُصدّر بموافقة أغلبية الأعضاء . وكان السنهدرين يشرف على المحاكم الصغرى ، كما كان من صلاحياته تعيين القضاة في المحاكم الدنيا سواء في محاكم السنهدرين الأصغر أو في غيرها . وهو الذي كان يحاكم كبار الموظفين ، مثل الكاهن الأعظم ، ويتحرر مدى صدق أو كذب مدعي المشيخانية . وقد كان السنهدرين هو المجلس الذي جمع الحقائق وقدمها للحاكم الروماني حين اتهم اليهود المسيح (عيسى بن مريم) بأنه ليس الماشيح المنتظر . وقد حكم المجلس بصلبه . وكان يترأس السنهدرين ، في مرحلة من المراحل ، الكاهن الأعظم ، ولكنه في مرحلة أخرى كان يترأسه الزوجوت ، أي رئيسان أحدهما يحمل لقب «ناسي (أمير اليهود)» ويحمل الثاني لقب «آب بيت دين (رئيس المحكمة)» . ومن الرؤساء المشهورين للسنهدرين الكبير ، شمعون بن شطح (حوالي عام ١٠٠ ق.م) وهليل (حوالي ٣٠ ق.م) . وتختلف الآراء فيما يتعلق بتاريخ ظهور السنهدرين ووظائفه :

١ - يذهب بعض الباحثين إلى أن السنهدرين استمراراً للمجمع الكبير . وهو هيئة تشريعية لا تعرف عنها الكثير ولا حتى متى ظهرت ، إذ تختلف الآراء أيضاً بالنسبة إلى هذه المؤسسة ذاتها .

٢ - ويرى البعض أنه ظهر أثناء حكم السلوقيين عام ٣٠٠ ق.م .

٣ - وثمة نظرية تذهب إلى أنه ظهر أثناء حكم الحشمونيين حين تم فصل المجال السياسي عن المجال الديني وفصل الطقوس الكهوتية والتفسير الديني عن الحكم المطلق للدولة . وبالتالي ، فإن تاريخ ظهور السنهدرين ، حسب هذه النظرية ، يعود إلى حكم شمعون الحشموني عام ١٤٢ ق.م ، فيكون هو الذي أسس السنهدرين لتفسير الشريعة .

٤ - وتناقض هذه النظرية تماماً وقائع التاريخ ، فالملوك الحشمونيون

دبية بل لكل جماعة حرفية ، كما هو الحال مع المحاكم الشرعية في البلاد الإسلامية في أيام الخلافة العثمانية . ولذلك ، وبعد حركة عتق اليهود في القرن الثامن عشر ، انحسرت مهمة المحاكم اليهودية وأصبحت مقصورة على المسائل الخاصة بالطبقة الدينية . وفي الوقت الحاضر ، تشير عبارة «بيت دين» إلى المحكمة الحاخامية أو المحكمة الشرعية ، وهي المحكمة المختصة رسمياً والمخولة من قِبَل المؤسسة الدينية بأمور الأحوال الشخصية التي لا يحق لأي محكمة أن تنظرها . كما أن الجماعات الأرثوذكسية في الولايات المتحدة أسست بيت دين أي محاكم شرعية لاستصدار أحكام في مسائل الزواج والطلاق والزواج المختلط .

## بيت دين

Beit Din

«بيت دين» عبارة عبرية تعني «دار الحكم» أو «دار القضاء» ، وتعني «بيت دين» في الوقت الحاضر «المحكمة الشرعية» .

## أمير اليهود (ناسي - بطريك)

Nasi; Patriarch

«أمير اليهود» هي الترجمة العربية لكلمة «ناسي» العبرية ، وهو لقب تلمودي يُستخدم للإشارة إلى رئيس السنهدرين الذي كان يُعدُّ قائداً روحياً لليهود في فلسطين وخارجها ، وكانت له بعض الصلاحيات الدنيوية التي كانت تمنح إياها السلطة الحاكمة ، ولذا فإننا نستخدم اصطلاح «أمير اليهود» . وكان يليه في السلطة رئيس المحكمة (أب بيت دين) وهما معاً يكونان الزوجات اللذين أتى ذكرهما في المشناه . وثمة نظرية تذهب إلى أن أمير اليهود (ناسي) لم يكن رئيساً للسنهدرين ، وأن الكاهن الأعظم هو الذي كان يظلم بهذه الوظيفة . وقد اقترح حللاً لهذا التناقض تفسير يرى أنه كان هناك مجمعان للسنهدرين : أحدهما سياسي والأخر ديني ، وأن أمير اليهود (ناسي) كان رئيساً للمجمع السياسي وحسب . وقد اعترفت السلطات الرومانية ، ابتداءً من القرن الثاني الميلادي ، بأمير اليهود كبطريك لليهود . وقد كان أمير اليهود في العادة من نسل هليل أو من نسل داود ، ثم أصبح موظفاً رومانياً يمثل الجماعة اليهودية في فلسطين أمام السلطات الرومانية ، وذلك بعد سقوط كل أشكال الإدارة الذاتية أو الحكم الذاتي (عام ٧٠ ميلادية) مع سقوط القدس وهدم الهيكل . وكان أمير اليهود أو البطريرك يُعدُّ رجلاً مهمماً متميزاً (باللاتينية : فير إستريريس vir illustis) في مقام القنصل أو كبار رجال

أيضاً . وقد اختفى السنهدرين تماماً في القرن الرابع الميلادي . وحاول بعض الحاخامات (جوزيف كارو وآخرون) بعث السنهدرين ولكنهم لم يوفقوا . ويُعدُّ أحد كتب التلمود «السنهدرين» ويتناول تركيب المجلس ووظيفته . وقد سُمِّي الاجتماع اليهودي الذي عُقد عام ١٨٠٧ بناء على طلب نابليون بوناپرت «السنهدرين الأعظم» . تكوّن هذا الاجتماع من واحد وسبعين عضواً من اليهود ذوي النفوذ ، وذلك ليعضوا الصياغات المناسبة للقرارات الخاصة بالحالة الاجتماعية لليهود . وفي العصر الحديث ، لم تنجح الدولة الصهيونية في إعادة بعث تقاليد السنهدرين بسبب الصعوبات القانونية والدمستورية التي كانت ستقف أمام مثل هذه الخطوة .

## دار القضاء (بيت دين)

Beit Din

«دار القضاء» هي الترجمة العربية لكلمة «بيت دين» العبرية والتي تعني أيضاً «دار الحكم» . وهي محكمة يهودية كانت تعمل بهدي الشريعة ، تجبي الضرائب وتتولى القضاء وتصدر القرارات الخاصة بالطعام وبكل الأمور الدينية والمدنية . وكانت توجد ثلاثة أنواع من المحاكم ، أنداها المحكمة المشكّلة من ثلاثة قضاة وسلطتها الحكم في القضايا المدنية . وكانت هناك سلطة قضائية أعلى تحكم في القضايا الجنائية وهي ما كان يُطلق عليه السنهدرين الصغير وعدد قضاة ثلاثة وعشرون . أما أعلى سلطة قضائية ، فكانت السنهدرين الذي كان يُطلق عليه أيضاً اسم «بيت دين جادول» أي «دار القضاء الأكبر» أو «المحكمة العليا» .

وبعد انتشار اليهود خارج فلسطين ، وبعد إخماد التمرد اليهودي الثاني (١٣٢ - ١٣٥م) ، أصبح لكل جماعة يهودية نظامها القضائي الخاص بها المتأثر بالبيئة المحيطة به . وقد كان النمط السائد عبارة عن نظام قضائي يترأسه الحاخام أو الديان (القاضي الشرعي) وهي وظيفة ظهرت في العالمين الإسلامي والمسيحي . والديان هو قاض متخصص تلقى تدريباً خاصاً يُمكنه من إصدار أحكام في القضايا الدينية ، ولذا كان يُعدُّ عالماً ثوراتياً من الناحية الأساسية ، وأيضاً عالماً في القضايا الأخرى التي تخص الجماعة اليهودية ولا تخص السلطة المركزية غير اليهودية .

ويرى بعض المفكرين الصهاينة أن احتفاظ اليهود ، بعد نفيمهم ، بنظم قضائية مستقلة (مثل : بيت دين والقهال ومجلس البلاد الأربعة) أكبر علامة على الاستمرار والاستقلال اليهوديين . ولكن معظم المجتمعات التقليدية تُسم بوجود محاكم خاصة لكل أقلية

الإسلامية التي استقلت عن الخلافة العباسية ابتداءً من القرن العاشر في إسبانيا والقيروان ومصر واليمن . وكان هناك رؤساء في المغرب والجزائر وتونس ابتداءً من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر .

والواقع أن رئيس اليهود هو نفسه «البطريرك» (ناسي) تحت حكم الرومان ، و«رأس الجالوت» تحت حكم العباسيين ، و«الخانام باشي» تحت حكم العثمانيين . وقد كانت الدولة الإسلامية تُعيّن رؤساء لكل الجماعات غير الإسلامية لإدارة الشؤون الداخلية للجماعة ، أي علاقة الأعضاء بعضهم ببعض وعلاقة الجماعة بالدولة . ولأن أهم الوظائف الخارجية هي جمع الضرائب وحفظ الأمن بين أعضاء الجماعة ، فقد كان بطريرك الأقباط ونجيد اليهود أو رئيسهم يتم تعيينهم . وقد كان المنصب يتم توارثه أحياناً ، وفي أحيان أخرى كان وجهاء الجماعة يرشحون رؤساء لها ثم تُصَدِّق الدولة على ترشيحه وتعيينه . وفي مصر ، صار المنصب ورثياً بين أولاد موسى بن ميمون إذ شغلوا هذا المنصب لمدة قرنين . وقد كان رئيس اليهود في مصر من الخاناميين في العادة ، ولكن كان عليه أن يعين رئيساً للقرائين وآخر للسامريين (ولكن رئيس السامريين كان يتلقى خطاب تعيينه من الحكومة مباشرة) . وعادةً ما كان رئيس اليهود بمنزلة وكيل يمثل مصالح التجار اليهود في الخارج ، وكانت وظيفتها الوكيل التجاري والنجيد يشغلها شخص واحد تقريباً .

وكان رئيس اليهود ، مثل كبار الموظفين ، يرتدي الخلعة . وكانت وظيفته تقتضي المحافظة على ترابط الجماعة ، والحكم بين أعضائها حسب شريعتهم ، والحكم في الأحوال الشخصية وحق الطرد من حظيرة الدين (حيريم) . كما كان من حقه أن يوقع عقوبات مثل الجلد والسجن . وكان يشرف على إقرار تعاليم الدين حسب الشريعة وفتاوى الخانامات ، وعلى تجديد مستويات أعضاء الجماعة وثوراتهم (لتحديد الضرائب) ، كما كان يقوم بالحفاظ على الأمن بشكل عام ، وتعيين قضاة شرعيين (ديانيم) في المحكمة الشرعية (بيت دين) . وكان مندوب رئيس اليهود هو المقدم .

وقد ظل المنصب قائماً حتى الفتح العثماني ، ولكنه ألغى في القرن التاسع عشر وحل محله منصب الخانام الأعظم الذي كان يتبع الخانام باشي في إستانبول .

### مملكة حدياب اليهودية

Adiabene

«حدياب» إقليم في منطقة نهر دجلة العليا نشأت فيه إمارة تابعة

الدولة العسكرية أو الوزراء المقربين إلى العرش ، لا يعلوه في المرتبة إلا أعضاء الأسرة المالكة ، وكان يعلو في مقامه الحاكم الإقليمي . وقد أعدم الإمبراطور نيودوسيوس الأول (الأعظم) أحد حكامه الإقليميين لأنه سب أمير اليهود (بطريرك) .

وقد كان أمير اليهود يقوم بفرض الضرائب ويُعيّن بعض الخانامات ويعفيهم من الضرائب نظير اضطلاعهم بدور جهازه التنفيذي ومساهماتهم في حفظ الأمن ، وهو ما يعني أن النخبة الدينية الحاكمة كانت أداة في يد الحاكم الروماني أو كانت جماعة وظيفية وسيطة (من الملاحظ أن منصب رأس الجالوت [المنفى] ورئيس اليهود [نجيد] ، هما المنصبان المقابلان في الحضارة الإسلامية ، ولكنهما لم يحملها هذا القدر من الأهمية قط) . ومع استقرار دعائم الإمبراطورية الرومانية ، فقدت النخبة الدينية أهميتها ، فألغى الرومان الضرائب التي كان يجمعها أمير اليهود ، ثم ألغى المنصب نفسه عام ٤٢٥ م .

وفيما بعد ، استُخدم اللقب بين أعضاء الجماعات للإشارة إلى الرؤساء الدينيين للجماعة كما هو الحال في إسبانيا . وفي نهاية الأمر ، أصبح هذا اللقب مجرد اسم عائلة . وقد اتخذ بركوخبا لنفسه لقب «ناسي» .

### البطريرك

Patriarch

انظر : «أمير اليهود (ناسي - بطريرك)»

### الناسي

Nasi

انظر : «أمير اليهود (ناسي - بطريرك)»

### البطريركية

Patriarchate

مصطلح «بطريركية» يُستخدم للإشارة إلى المؤسسة التي يرأسها أمير اليهود (ناسي) ، وهي المؤسسة التي حلت محل السهتدين .

### النجيد (رئيس اليهود)

Nagd

«نجيد» كلمة عبرية معناها «الزعيم» أو «الأمير» ، وجمعها «نجيديم» . و«نجيد» هو رئيس الجماعة اليهودية في الدويلات

ورغم أن اليهودية كانت في القرن الثاني قد ازدادت انتشاراً في حدياب ، فإن المسيحية انتشرت بين صفوف اليهود هناك واعتنقتها أعداد متزايدة منهم كما حدث في مصر وغيرها من الأماكن في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى تحوَّلت الأغلبية العظمى إلى المسيحية .

#### ذو نواس (٥١٨-٥٢٥) ومملكة حمير اليهودية

Dhu Nawas and the Jewish Himyarite Kingdom

يوسف ذو نواس ، ويُقال له «المسروق» . وقد أورد المسعودي والطبري وقائع حياته . وذو النواس أحد ملوك حمير (في جنوب الجزيرة العربية - اليمن حالياً) . ويُقال إنه تَهَوَّدَ قبل أن يعتلي العرش (وأضاف اسم يوسف العربي إلى اسمه العربي) ونجح في توحيد أعضاء النخبة الحاكمة ورووس العائلات الأرستقراطية في حمير ، من أهمها عائلة ذي ين . وقد حاول ذو نواس أن يضمن ولاء كل المدن والمناطق التابعة له . ويبدو أنه كان ثمة إحساس عام بأن هناك حرباً وشيكة ستقع بين الفرس والروم (القوتان العظيمتان آنذاك) وأن الحميريين يمكنهم الاستفادة منها . وكانت مملكة حمير تضم أقلية من اليهود ، وكانت تخشى مطامع الدولة البيزنطية والقوة المسيحية في إثيوبيا ، كما كان ثمة إحساس بأن المسيحيين يتجهون بآلهم للقوى المسيحية . وبالفعل ، استولى الثوار المسيحيون على العاصمة الحميرية عام ٥١٧ . فجمع ذو نواس قواته وأنزل بهم هزيمة ساحقة وحطم كنيسهم كما ألحق الهزيمة بالقوات المسيحية الإثيوبية في العام التالي . وقد شك الملك في ولاء السكان المسيحيين في بحرّان حيث اندلعت فيها ثورة بالفعل ، فهاجمها وتكّل بأهلها وذبح منهم المئات أو الألوف (لعل الإشارة في القرآن ؛ ق/ ٤ ؛ ٥ هي لتلك الحادثة) . وبدأت حملة في العالم المسيحي ضد ذي نواس وحكمه . وبالفعل ، جرد الإثيوبيون حملة عبرت البحر الأحمر (عام ٥٢٥) . وفي هذه الأثناء ، كان التحالف الذي كوَّنه ذو نواس قد تفكك ، الأمر الذي أدّى إلى هزيمته . وقيل إنه ركب فرسه واندفع إلى البحر فابتلعته الأمواج ولم يُعد . ولكن بعثة ألمانية اكتشفت قبره عام ١٩٣١ .

لكن وقائع تَهَوُّد ذي نواس ليست واضحة تماماً ، ولعلها تشبه من بعض الوجوه وقائع تَهَوُّد النخبة الحاكمة في مملكة الحزور . ولعل الدافع وراء التَهَوُّد هو تَبَيُّ أيديولوجيا مستقلة عن الوثنية العربية وعن أيديولوجيا المسيحية الغازية ، وهي أيديولوجيا تستند إلى ديانة توحيدية مرسله لها كتاب مقدّس ، وهو ما يضيف شيئاً من الهيبة على النخبة الحاكمة . ويبدو أن محاولة ملكة اليمن السيطرة على التجارة

للفرتين في العصر الهيليني ، وقد ذكرها يوسيفوس كما ذكر دولة الأخوين أسيناي وأنبيلاي . وكانت هذه الإمارة تقع في منطقة حدودية بين تخوم الرومان والفرثيين وكانت عاصمتها أربيل . كان يحكم حدياب في الفترة بين سنتي ٣٦ و ٦٠ الميلاديتين إيزاط وأمه الملكة هيلانة . وقد ازداد نفوذ إيزاط لأنه ساعد الملك الفرثي أرتبان الثالث على استعادة عرشه ولعب دوراً مهماً في الصراعات الدائرة بين أعضاء الأسرة المالكة بعد موت الملك .

ولقد شهدت هذه الفترة جهداً تبشيرية يهودياً قوياً ، وخصوصاً في حوض البحر الأبيض المتوسط ويسدو أنه وصل إلى بلاد الرافدين . فقد تَهَوَّدَ إيزاط أمير حدياب كما تَهَوَّدت أمه ، وتحوَّلت الإمارة إلى إمارة يهودية أو على الأقل إلى إمارة يحكمها أمير مُتَهَوِّد . ولكن هذا لا يعني بالضرورة تحوُّل جماهير المملكة إلى اليهودية ، وإن كان هناك رأي يذهب إلى أنه كان يوجد بالفعل أعداد كبيرة من اليهود في هذه المنطقة هم بقايا التهجير الآشوري . ويبدو أن بعض الأمراء عارضوا تَهَوُّد الأسرة المالكة دون جدوى . وظلت السلالة اليهودية حاكمة نحو ثمانين عاماً حتى غزاها الرومان في عهد الإمبراطور تراجان سنة ١١٥ ميلادية وقضوا عليها .

وقد حاربت قوات من حدياب إلى جانب المتتمردين اليهود أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٨ - ٧٠) . وتجب ملاحظة أن حدياب كانت تابعة للفرثيين وهم القوة العظمى الأخرى في الشرق الأدنى القديم والتي كانت تنافس الرومان وهاجمهم في فلسطين بالذات . وقد حاول الفرثيون تجنيد اليهود إلى جانبهم ضد الرومان متبعين في ذلك سياسة الإمبراطورية الفارسية . ورغم وجود علاقات دينية قوية بين الأسرة الحاكمة في حدياب والهيكل ، إذ كانت الملكة هيلانة ترسل الصدقات إلى الفقراء في القدس ، كما أنها شيدت مظلة في اللد بمناسبة عيد المظال وأرسلت هي وابنها العديد من الهدايا إلى الهيكل ، رغم كل ذلك فإن ظهور مثل هذه الدولة واكتسابها صبغة يهودية ورفض أبنائها الهجرة إلى فلسطين تدلّ على أن الجماعات اليهودية كانت قد بدأت في تكوين مراكز سكانية وثقافية خارج فلسطين لها ثقافتها المستقلة عن الثقافة العبرية الآرامية هناك ، كما تدل هذه الأشياء على قوة المركز البابلي لليهودية واستمراره . وإذا ما وضعنا المركز السكندري (الهيليني) إلى جوار المركز البابلي ، وذلك باعتبارهما مركزين للثقافات اليهودية المختلفة ، فإنه يصعب الحديث عن فلسطين كمركز واحد . كما أن هدم الهيكل على يد تيتوس (٧٠م) لم يكن سوى تنويج لهذا الاتجاه .

باليهود ولم يظهر مجلس إقليمي مركزي على غرار مجلس البلاد الأربعة . وقد كانت هناك مجامع مركزية تُعقد من أوتة إلى أخرى . ولكن بعد عام ١٧٧٠ ، مع ضعف خلفاء إمبراطور ألمانيا تشارلز الخامس ، قُلّت هذه الاجتماعات وعُقد آخرها في فرانكفورت عام ١٦٠٣ . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح لكل جماعة مجلسها ، وأصبحت كل جماعة يهودية مستقلة تماماً عن غيرها حيث كانت شرعية مجلسها لا تتجاوز حدود الإمارة أو الدوقية ، بل إن بعض الأمراء كان يمنع رعاية اليهود من اللجوء إلى محاكم حاخامية خارج إمارته . وحيث إن عدد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعيشون داخل كل إمارة كان صغيراً ، فقد كان اختيار أعضاء المجالس يتم بالتعيين . وقد سيطرت بعض الأسر اليهودية الثرية ، وخصوصاً يهود البلاط ، على الجماعات اليهودية ومجالسها ، كما حدث في كليفس Cleves حين هيمنت أسرة جومبيريز على الجماعة اليهودية فيها زهاء قرن من الزمن . فكان منهم الرئيس (برناس) والوسيط (شتدلان) والحاخام وأمين الصندوق . وفي بعض الأحيان ، كان يضطلع بكل هذه الوظائف فرد واحد . ومع هذا ، كانت توجد جماعات كبيرة ، مثلما كان في فيينا وبرلين وبراغ ، يتم اختيار أعضائها بالانتخاب من بين أعضاء الأسر الثرية . وكشيراً ما كان ينشب صراع بين اللانديزويدنشافت والمهاماد . وقد اختلفت معظم هذه المجالس مع تغيّر وضع اليهود الطبقي والوظيفي وظهور الدولة القومية الحديثة .

#### المهاماد أو المامساد

Mahamad; Maamad

«ماهاماد» كلمة معناها «أئمة المصلين» . من الكلمة العبرية «عماد» أي «وقف» . وهي تشير إلى المجلس الذي كان يتولى قيادة الجماعات اليهودية الإسبانية والبرتغالية السفارية . ويقابل الماهاماد الفهال عند الإنشكاز (وإن كان يختلف عنه في أنه لم يكن يقوم بجمع الضرائب) ، كما يقابل مجلس يهود وسط أوروبا . وكان عدد أعضاء المجلس سبعة ، وأحياناً أربعة فقط ، يقوم أحدهم بوظيفة أمين الصندوق .

وقد قامت مجالس الماهاماد في هولندا (أمستردام وروتردام ولاهاي) ، وفي إنجلترا (لندن) ، بل في المستعمرات الهولندية (في كوراساو وسورينام في البحر الكاريبي) . وكانت سلطات الماهاماد شاملة ومطلقة تشكل حكماً للأقلية الثرية التي كان أعضاء المجلس يُختارون من بينها . ففي أمستردام على سبيل المثال ، كان أعضاء المجلس السبعة يقومون بتعيين خلفائهم من بين أعضاء الجماعة الذين

قد لعبت دوراً في ذلك ، فلعل ذا نواس ، ومن تهود من ملوك حمير من قبله ، كانوا يفكرون في شبكة التجارة اليهودية وكيفية الاستفادة منها . ولعل الحاخامات الذين جاءوا من طبرية للتبشير باليهودية في حمير قد بينوا له بعض مزايا تبني اليهودية من هذا المنظور . ويمكن أخيراً أن نشير إلى أن كلاً من مملكة الحزمر ومملكة حمير تتسمان بالحدودية ، أي أن كلاً منهما تقع في مناطق تتصل بين تشكيلين مختلفين ، وهما في حالة مملكة حمير التشكيل الوثني العربي من جهة والتشكيل الإثيوبي المسيحي الذي كانت تقف وراءه الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى ، وهذه محاولة للتفسير وحسب .

ولكن الثابت تاريخياً أن عدد التهودين في حمير كان صغيراً للغاية حتى بين أعضاء النخبة ، ومن ثم لم يحدث أي انتشار لليهودية في هذه المنطقة . ويكون من الشطط الحديث عن مملكة حمير اليهودية ، كما يفعل بعض المؤرخين ، وخصوصاً أننا لا نعرف الكثير عن مدى عمق يهودية ذي نواس ولا شكل اليهودية التي تبناها ، ولا عدد التهودين من رعاياه ، وهكذا . غير أن بعض المراجع اليهودية تتحدث عن مخطّط طرحه ذو نواس وحاخامات طبرية للاستفادة من الحرب الوشيكة بين الفرس والروم لتأسيس إمبراطورية تمتد من الشام إلى حمير ، وهو مخطّط ليس له ما يسند من وثائق أو مصادر على الإطلاق . وفي الواقع ، فإن الكشافة السكانية في الشام والجزيرة العربية وفي حمير ذاتها لم تكن يهودية ، ومن ثم فالأحلام الإمبراطورية هنا كانت ولاشك جزءاً من الأحلام المشيخانية . وقد وضع كثير من الكُتّاب اليهود الدينيين واقعة ذي نواس في إطار قبائل العبرانيين العشر المفقودة .

#### مجالس يهود وسط أوروبا (الاندزويدنشافت)

Landesjudenschaft

«الاندزويدنشافت» كلمة ألمانية تعني «الجماعة اليهودية في البلد» أو «يهود البلد» ، وهو الاسم الذي كان يُطلق على الجماعات اليهودية ومجالسها الإدارية في وسط أوروبا : مورافيا وبوهيميا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا والنمسا . وهي المجالس التي اضطلعت بكثير من الوظائف التي كان يضطلع بها الفهال في بولندا والمهاماد في هولندا وغيرها من البلاد . وكان يُوجد لهذه المجالس مجلس إقليمي في مورافيا وبوهيميا ثم انشق مجلس براغ عنه . ولأنه لم تكن هناك دولة ألمانية مركزية ، حيث كانت ألمانيا مُقسّمة إلى إمارات ودوقيات ، فإن هذا الوضع انعكس على نظام الإدارة الذاتية الخاصة

ولكن يجب إدراك أن هذه السلطة الشاملة لم تكن شيئاً غير عادي في القرن السابع عشر الميلادي ، فالحكومات المطلقة مارست سلطات ماثلة على مواطنيها المسيحيين . ولكن الماهاماد مارس ، مع هذا ، سلطاته بقدر أكبر من التعطف . وربما يعود ذلك إلى سببين أساسيين :

١ - تعود أصول الماهاماد إلى شبه جزيرة أيبيريا حيث تشرب اليهود السفارد ثقافة إسبانيا والبرتغال رغم أنهم طُردوا منها وتأثروا بنظام محاكم التفتيش .

٢ - تجب ملاحظة أن الأقليات تخضع دائماً لملاحظة الأغلبية في الأحوال العادية ، وفي كثير من أنحاء أوروبا كانت الجماعات اليهودية تغطي بمستوى معيشي أعلى من مستوى الجماهير وهو ما كان يعني أنها كانت مزار حقدها . ولذا ، كان على القيادة أن تحاول قدر طاقاتها مراقبة أي سلوك استفزازي من جانب أي من أعضاء الجماعة اليهودية ، كأن يُظهر ثروته بشكل مُبالغ فيه مثلاً . ومن هنا ظهرت قوانين الترف التي تمنع المبالغة في إظهار الثروة ، ومن هنا نجد أن ماهاماد هامبورج ، على سبيل المثال ، منع أعضاء الجماعة من استخدام الزلاقات على الثلج (ويبدو أن ذلك كان يُعد شكلاً من أشكال الترف) حتى لا يستغزوا بجيرانهم . وفي حالة الطوارئ ، كان على أي من أعضاء الجماعة أن يحصل على تصريح خاص باستخدام الزلاقة ، تماماً مثلما حاول القهال التدخل حتى لا يقع تناقض حاد بين كبار التجار في لبتوانيا وطبقة النبلاء على الامتيازات التجارية والمالية ، وهو تناقض قد يضر بمصلحة الجماعة ككل . كما أن الجماعات اليهودية كانت ، في معظم الأحيان ، جماعات وظيفية لا بد أن تخضع لعملية ضبط اجتماعي هائلة حتى يتسنى عزل الجماعة عن المجتمع وضمان أداء أعضائها .

وكان أهم ماهاماد هو ماهاماد أمستردام الذي كان يضم أهم جماعة سفاردية . وكان يليه في الأهمية ماهاماد هامبورج . وقد اختفى الماهاماد أو انكمشت سلطاته مع ظهور الدولة القومية وحركة الإعتراف ، مثلما حدث للقهال وكثير من المؤسسات الوسيطة . ولا يزال هناك مجالس ماهاماد بين يهود الولايات المتحدة وإنجلترا من (السفارد) ، ولكنها لا تتمتع بسلطاتها القديمة .

### القهمال

Kahal or Kehillah

«قهار» كلمة عبرية بمعنى «جماعة» ، وهي تشير إلى أعضاء الجماعة اليهودية ككل ، كما تشير الكلمة بالمعنى الضيق إلى الهيئة

كانوا يشكلون ٢٠٪ منها وحسب . ولم يكن من حق العضو الذي يقع عليه الاختيار أن يرفض المنصب الذي يُعرض عليه ولا أن عليه دفع غرامة . وهذا ما حدث لإسرائيل دزرائيلي ، والد بنيامين دزرائيلي ، عندما رفض المنصب الذي رُشح له ، فوُقت عليه غرامة مقدارها أربعون جنيهًا ، فقرر ألا يدفعها وترك الجماعة وتناصرت .

وكان لمجلس الماهاماد وزن وثقل وسيطرة كاملة على الحياة الدينية والدينية لأعضاء الجماعة اليهودية . فكان المجلس يدير مؤسسات الصدقة والرفاه الاجتماعي ومؤسسات التربية اليهودية . كما كان يمارس الرقابة على الكتب ، فلم يكن من الممكن نشر كتاب عبري دون تصريح منه . وماهاماد أمستردام هو الذي منع كتب أورويل داكوستا من التداول ، وهو الذي وقع على إسبينوزا العقوبة القاضية بطرده من حظيرة الدين . ومع هذا ، كان الماهاماد أكثر اندماجاً في مجتمع الأغلبية من القهال من بعض النواحي . فكان السفارد يتحدثون البرتغالية والإسبانية ويتعلمونها ، وهما لغتان أوربيتان ، على عكس الإشتكاز الذين كانوا يتحدثون اليديشية ، وهي طائفة ألمانية ، ولا يجيدون القراءة بالألمانية . وقد أتاح هذا الفرصة أمام السفارد لقراءة الفكر الغربي . كما أنه بحلول القرن الثامن عشر الميلادي ، كان معظم اليهود السفارد يعرفون الهولندية . كما سمح الماهاماد لليهود بحضور الحفلات الموسيقية والمسرحيات والأوبرا طيلة العام ، على عكس القهال الذي لم يسمح بذلك إلا في مناسبة أو مناسبتين (مثل عيد النصب) .

وكان الماهاماد يتدخل في كل دقائق الحياة الخاصة بأعضاء الجماعة ، فكان يقرر نظام الجلوس في المعبد (حسب السلم الطبقي) . ولم يكن بمقدور الإشتكاز أن يُصلوا في المعبد اليهودي ، ولا كان بوسع أي يهودي أن يشتري أو يستأجر بيتاً من يهودي آخر أو ينضم إلى الجماعة إلا بتصريح من الماهاماد . وحتى في الأمور الشخصية ، لم يكن أي يهودي يستطيع الزواج أو الطلاق إلا بإذن خاص منه . كما كان المجلس يراقب السلوك الجنسي لأعضاء الجماعة ، وكانت هذه قضية مهمة أخذت في التضام نظرًا لازدحام الجيتو في معظم مدن أوروبا ولتزايد العلمنة والتسامح في كثير من المناطق التي تركز فيها اليهود . وقد أدّى وجود خدمات يهوديات ومسيحيات في منازل أثرياء اليهود وغير اليهود إلى زيادة نسبة الأطفال غير الشرعيين ، فكان المجلس يبذل جهداً غير عادي للبحث عن أبى الطفل . وكان يشكل أحياناً لجنة خاصة لهذا الغرض . وقد كان المجلس يراقب أيضاً أزياء أعضاء الجماعة ويرى ما إذا كانت مترفة أكثر من اللازم أو فاضحة .



يدها . وبذلت هذه الطبقة جهداً منظماً ، وناجحاً في معظم الوقت ، في استبعاد العناصر المشاغفة والعوام والغوغاء من العملية التي كان يُقال لها «انتخابية» . وقد تم استبعاد معظم أرباب البيوت في المدن الكبرى وكل سكان المدن الصغيرة وكل سكان الريف رغم أنهم كانوا من دافعي الضرائب . كما استبعدت كل الطبقات الفقيرة مثل الحرفيين الذين كانوا يمثلون واحداً من أكبر القطاعات المعارضة للقهاال . وفي نهاية الأمر ، لم يكن يزيد عدد اليهود الذين لهم حق التصويت على ٥% ، أو حتى ١% في بعض الأحيان ، من أعضاء كل جماعة أو تُجمَع .

وكانت مجالس القهاال ، في بداية الأمر ، تتبع الملك مباشرة دون أن تكون بينهم سلطة وسيطة . ومع ضعف الملكية والحكومة المركزية في بولندا ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بدأ يسيطر على مجالس القهاال كبار النبلاء كما بدأوا يتدخلون في تعيين أو انتخاب المشائين في المدن التابعة لهم أو حتى في المدن الملكية ، ويفرضون عملاءهم وسيطرون على الجماعة اليهودية .

والقهاال تعبير عن كون اليهود يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف معينة (التجارة وجمع الضرائب والربا) يستخدمها الحاكم في استغلال جماعات الفلاحين وفي تحطيم القوى التجارية الصاعدة التي كانت تحقق أرباحاً لأصالحها . وكانت مجالس القهاال مستقلة الواحدة عن الأخرى في بداية الأمر ، فكان لكل قهاال قوانينه ومصالحه وامتيازاته التي يدافع عنها ضد القهاالات الأخرى . ثم تم ضمها كلها في إطار واحد هو مجلس البلاد الأربعة . وكانت مجالس القهاال تقوم بتنظيم جميع جوانب الحياة اليهودية من الداخل ، أي في علاقة اليهود بعضهم ببعض (كالإشراف على الزواج والطلاق والختان والطعام والتعليم وتعيين الخاضعات والتقصاة وجباة الضرائب والذاهجين الشرعيين) . وكان شيوخ الجماعة ، مع الخاضعات ، يُكوّنون محكمة شرعية (بيت دين) يحكمون فيها بين اليهود بمقتضى القانون التلمودي ، وكان لهذه المحاكم حق طرد اليهود من حظيرة الدين (حيريم) أو من الجماعة . وكانت مؤسسة القهاال تنظم حياة اليهود كجماعة اقتصادية/ دينية بسيطة في علاقتها بالعالم الخارجي . ولكن مهمتها الأساسية ظلت جمع الضرائب من المحكومين لصالح الحاكم .

وكان لكل قهاال قواعده الخاصة (تاقانوت) وامتيازاته وحقوقه التي يدافع عنها ضد يهود المدن المجاورة ، وخصوصاً حق حظر استيطان الأجانب (اليهود وغير اليهود) بينهم . ويمكن القول بأن القهاال ، بانقسامه واستقلاله ، هو المؤسسة الإشكنازية التي تلام

الإدارية أو المجلس الذي كان يدير شئون التجمعات اليهودية المختلفة . وكان يتنظم كل مجالس القهاال مجلس البلاد الأربعة . وكانت بولندا مملكة متعددة الجنسيات والديانات ، فقد كان ثلث سكانها من غير البولنديين وكانوا يدينون بديانات أخرى غير المسيحية الكاثوليكية . وكما هو الحال دائماً مع الممالك والإمبراطوريات التي تضم مجموعة سكانية غير متجانسة ، نشأت أشكال من الإدارة الذاتية يُسَرُّر للسلطة الحاكمة عملية جمع الضرائب من أعضاء الجماعات والأقليات وتضمن ولاهم لها . وقد كان هناك تنظيمات إدارية ذاتية للأمرن والتتار ومختلف أعضاء الجماعات الأخرى . كما كان من حقهم أن يُطَبِّقوا شرائعهم فيما يقوم بينهم من منازعات ، فكان الأمرن مثلاً يحتكمون إلى الشريعة الخاصة بهم وتُدعى «الداتاساتانا جيريك» ، وقد تُرجمت إلى البولندية حتى تمكن الاستفادة منها أمام المحاكم .

ويستند القهاال ، كشكل من أشكال الإدارة الذاتية ، إلى الميثاق الذي أصدره الملك سيجموند الأول عام ١٥٠١ وتم بمقتضاه تشكيل تنظيم القهاال . وكانت كل جماعة يهودية يديرها مجلس قهاال يتكون من سبعة أعضاء يتم اختيارهم إما بالتعيين أو بالانتخاب . وكان لابد أن توافق الحكومة البولندية على الأعضاء المنتخبين قبل أن يصبح انتخابهم نهائياً . ولا شك في أن نظام انتخاب القهاال كان متأثراً بكون بولندا جمهورية/ ملكية . ولكن كلمة «انتخاب» هنا فضفاضة للغاية ، فرغم أن أي يهودي كان من حق أن يشارك في العملية الانتخابية (من الناحية النظرية على الأقل) إلا أن قلة قليلة من الناحية العملية هي التي كانت تشارك في الانتخابات . ففي كراكوف مثلاً ، كان الانتخاب يتم بأن يجتمع مجلس إدارة القهاال بمشواره فيلقي كل واحد منهم بقائمة من تسعة أسماء وتُختار إحدى القوائم بالقرعة ، وكان يُطلق على هؤلاء اسم «الناخبين المرشحين» (حرفياً «ما قبل الناخبين» ) ، ذلك لأنهم كانوا يقومون باختيار خمسة ناخبين هم الذين يقومون باختيار كل أعضاء القهاال . وفي عام ١٦٤٠ ، أصبح من حق كبار دافعي الضرائب أن يتقدموا بقوائمهم لاختيار الناخبين المرشحين ، كما كانت توجد قهاالات من حق الأسر الثرية أن ترسل إليها مرشحها مباشرة ليشغلوا وظائفهم في مجالس القهاال دون انتخاب أو قرعة .

وقد أدّى ذلك في نهاية الأمر إلى سيطرة أقلية من الممولين والخاصات على مجالس القهاال والتحكم فيها ، شأنهم في هذا شأن معظم المؤسسات السياسية في العصور الوسطى في الغرب ، حتى تحولوا في نهاية الأمر إلى طبقة مسيطرة احتفظت بالسلطة في

النظام الإقطاعي الغربي غير المركزي ، واستقلاله يشبه في تركيبه المقاطعة الخاضعة لسلطة حاكم أو قاض في المدن الألمانية في العصور الوسطى في الغرب . ولعل هذا التشابه يعود إلى أن يهود بولندا تعود أصولهم إلى المدن الألمانية ، كما أن المدن البولندية قد تم تطبيق القانون الألماني عليها .

وكانت لجنة القهال تتكون من الموظفين التاليين :

١ - الرؤوس أو رؤساء المجلس . باللاتينية : سنيريس seniores . ومفردهما «سنيور» ، وهي تساوي كلمة «بارناس» في العبرية ، وجمعها «برناسيم» أو «روش» وجمعها «روشيم» . وكان يشكلها في البداية شيوخ الجماعة ، ولكن الوظيفة أصبحت ، فيما بعد ، بالتناوب . وكان الرئيس يتمتع بنفوذ واسع لأنه كان يوسع التأثير في المحاكم وفي حجم الضرائب وفي كل موظفي القهال . وهو الذي كان يقرر ميزانية القهال في فترة خدمته ، وقرر القروض ، ويوقع على كل الوثائق الرسمية باسم الجماعة . وإذا كانت الجماعة توجد في مدينة ، ويتعين تحديد عدد التجار اليهود المسموح لهم بالتجارة ، فإن القهال كان يقدم قائمة باسم التجار الذين يحق لهم السكنى في المدينة والقيام بأعمالهم . وكثيراً ما كانت الصلاحيات تتحول إلى ديكتاتورية غير مقنعة . وكانت هناك حالات يرفض فيها السنيور أن يترك وظيفته حينما تنتهي مدة خدمته ويستمر يشغلها عدة سنوات بتشجيع من كبار الموظفين البولنديين المسؤولين عن اليهود مثل الحاكم الملكي (فوفود) .

٢ - الرجال الخَيْرُونَ . باللاتينية : بوني فيري boni viri . وبالعبرية «طوفيم» (الطيوبون) . وكان عددهم في العادة سبعة يشكلون مجلس إدارة القهال ، كما أنهم كانوا مسؤولين عن دفاتر القهال وتخزائنه .

٣ - المستشارون أو أعضاء القهال . وكانوا يكوّنون لجاناً ، من أهمها : لجنة الإحسان ، ولجنة المراقبين على الديون والحساب ، ولجنة شيوخ السوق الخاصة بفحص الموازين ، ولجنة نظافة شوارع الجيتو والشتل وحراسته ، ولجنة الذبح الشرعي ، ولجنة النزاعات بين أصحاب العمل والموظفين ، ولجنة المدرسة ، ولجنة المعبد ، ولجنة افتداه الأسرى (بعد انتفاضة شميلنكي) ، ولجنة الصدقات لفلسطين لتمويل إقامة اليهود الذين يستطيعون فلسطين للتعبد ، ولجنة رؤساء نقابات الحرفيين اليهود .

٤ - كان القهال يضم أيضاً بعض شاغلي الوظائف الأساسية مثل القضاة والمراقبين الذين كانوا يقررون مقدار الضرائب الواجب على كل فرد دفعه .

وكانت تتبع القهال مجموعة من الموظفين يتقاضون أجراً من

أهمهم الحاخام . ورغم أن القانون البولندي منحه سلطات ضخمة ، فقد كان المستول (نظرياً) عن تنفيذ قرارات القهال وضمان سلامة الانتخابات ، كما كان يترأس القضاة اجتماعاتهم ويمنح الألقاب المختلفة مثل «حابير» و«مورينو» ، وهو أيضاً الذي يقرر متى ينبغي طرد شخص من حظيرة الدين ، فإنه كان من الناحية الفعلية خاضعاً تماماً لرئيس القهال ومجلس إدارته . وكان يُوجد ، إلى جانب الحاخام ، رئيس المدرسة التلمودية العليا (يشيفا) ، وواعظ الجماعة (درشان) والقاضي (ديان) ، وكثيراً ما كان يضطلع شخص واحد بكل هذه الوظائف .

وهناك أيضاً كاتب المدينة الذي كان يدير شئون القهال اليومية ويعمل بالتعاون مع كاتب اليهود وهو مسيحي بولندي كان يقوم بترجمة رسائل القهال للمدينة . وكان الكاتب هو أيضاً الوسيط (شيدلان) بين الجماعة والمدينة ، وقد تطورت وظيفته فيما بعد وأصبحت من أهم الوظائف . وكان صغار موظفي القهال يسمون «سكولاي مينستر scholae minister» باللاتينية و«شكولنك szkolnik» بالبولندية و«شماس» بالعبرية . وهؤلاء كانوا يضمون المرشحات وحرس البوابة وجامعي الضرائب وخدام (شماس) المعبد .

وكانت مصاريف القهال تتكون أساساً من المرتبات التي يدفعها لموظفيه . كما كان عليه أن يقدم الهدايا لكبار موظفي الحكومة البولندية حتى يمكن تسيير أمور الجماعة . فكانت الجماعة اليهودية في كراكوف على سبيل المثال تدفع هدية سنوية للحاكم الملكي ، ولقاضي اليهود المسيحي المعين من قبل المدينة للحكم في المنازعات بين اليهود والمسيحيين ، ولكتاب اليهود ، ولرئيس شرطة المدينة . وكان عليهم أيضاً أن يطعموا الحيوانات في حديقة الملك . كما كان على بعض القهالات أن تدفع مبالغ من المال من قبيل المساعدة للكنيسة والطلبة وأن تزودها أحياناً بالمون . وكان على القهال كذلك دفع ضريبة مقابل عدم قيام اليهود بالخدمة العسكرية أو تزويد الجنود بالمأوى . وكان على القهال أن يؤدي الضريبة المفروضة على الجماعة من قبل الحكومة . ولذا ، كان عليه أن يفرض ضرائب مباشرة على كل شخص (ضريبة الملكية وضريبة الرأس وضريبة القهال) . ومع تدهور الوضع الاقتصادي للقهال ، أخذت هذه الضرائب في التزايد حتى أصبحت تُفرض على ضروريات الحياة (ويطلق عليها «ضرائب السلّة» ) ، وكان يُمنَح امتياز جمعها من خلال مزاد عام الأمر الذي كان يعني تزايد الضرائب دائماً .

وقد بدأ تداعي القهال ، كمؤسسة إدارة ذاتية ، في أوائل القرن الثامن عشر بعد انتفاضة شميلنكي ضد الإقطاع الاستيطاني في

العميقة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوروبا ، وبسبب ظهور حركات اقتصادية جديدة تنحو نحو توحيد السوق القومية والاستغناء عن الجماعات الوظيفية الوسيطة . وكان سقوط القهال مرتبطاً أيضاً بالحركات الخاصة بالمجتمع البولندي وأزمته السياسية والاقتصادية العامة ، والتي تفاقمت ابتداءً من مستهل القرن السابع عشر ، الأمر الذي أدى إلى تصفية كل الجيوب الإثنية والدينية التي كانت تتمتع بحق الإدارة الذاتية التي خلقها النظام الإقطاعي . ولكن المؤرخين الصهانية يشيرون إلى القهال ، والمؤسسات الإقطاعية الأخرى ، باعتبار أن ذلك أكبر دليل على الاستقلال القومي لليهود عبر تاريخهم ، وهو استقلال عبّر عن نفسه في أشكال مختلفة مثل السنهدرين والجيتو . ولكن تنظيم القهال لا يختلف كثيراً عن العديد من التنظيمات الحرفية والطبقية في العصور الوسطى ، ذلك لأن المجتمع الزراعي يتسم بالجمود والهرمية الحادة في تنظيمه الاجتماعي والحضاري .

وقد أسس النازيون ، بعد غزوهم بولندا ، نظاماً يشبه في كثير من الوجوه مؤسسة القهال مثل جيتو وارسو (أو غيره من الجيتوات) التي كانت تتمتع بسلطة وفير من الإدارة الذاتية والاستقلال الاقتصادي والثقافي . ولا شك في أن المفكرين الصهانية ، وقد جاء عدد كبير منهم من بولندا وروسيا ، كانوا متأثرين بتجربتهم في الشتل والقهال وهم يرسمون ملامح المجتمع الصهيوني .

### مجلس البلاد الأربعة

Council of Four Lands

«مجلس البلاد الأربعة» ، ويُسمّى بالعبرية «فاعد أربعا أراتسوت» ، هو الإطار الإداري لليهود بولندا الذي كان يضم كل مجالس القهال المحلية ، وهو في الواقع أعلى أشكال الإدارة الذاتية التي تمتع بها اليهود في أوروبا . وقد تم تأسيسه نحو عام ١٥٨٠ . والبلاد الأربعة هي أقاليم بولندا الأربعة : بولندا الكبرى (بوزنان) ، وبولندا الصغرى (كراكوف) ، وأوكرانيا (فولينيا) ، وروسيا الحمراء (جاليشيا) .

ومن المعروف أن تركيب الجماعات اليهودية في الغرب يشبه المجتمع الغربي الذي لم يعرف السلطة المركزية أو الدولة القومية منذ عصوره الوسطى . ولذا ، كانت كل جماعة يهودية متمركزة حول المعبد داخل الجيتو الخاص بها . ولكن ، مع نهاية القرن السادس عشر ، حدثت بعض التطورات الاقتصادية ، إذ أن النظام المالي الغربي كان قد بدأ يتوسع ويصل بأطرافه إلى العالم بأسره . ولم يكن

أوكرانيا وهي الانتفاضة التي اكتسحت الجماعة اليهودية ومؤسساتها فيما اكتسحت من مؤسسات . وظهرت التورات الاجتماعية داخله بسبب الأزمة الاقتصادية والسياسية الشاملة في بولندا ، إذ أن أعضاء الأقلية المسيطرة على القهال كانوا ، كما هو متوقع ، يؤثرون مصالحهم على مصالح الجماهير ، ويحاولون أن يهربوا من استغلال الحاكم عن طريق تحميل معظم العبء على من هم دونهم في السلم الطبقي والاجتماعي . وقد أصبح القهال ، بعد قليل ، وسيلة قهر فقراء الجماعة اليهودية بدلاً من كونه مؤسسة تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وسادت المصالح الشخصية وسيطرت الشخصيات الطموحة الجشعة ذات النفوذ . وكثيراً ما كانت تباع وظيفة الحاكم ووظيفة القاضي . لذا ، كان من المتوقع أن يتقبل القاضي الرشاوي . وأعملت الإدارة تماماً ، الأمر الذي أثر في موارد القهال المالية . وحتى منتصف القرن السابع عشر ، كان يوسع مجالس القهال المختلفة أن تفي بالتزاماتها المالية ، ولكن وضعها تدهور بتدهور بولندا مالياً ، إذ كان على القهال أن يدفع الرشاوي العديدة ويقدم الهدايا لكبار الموظفين لضمان أمنه . وزادت ديون الجماعات اليهودية زيادة هائلة في القرن الثامن عشر حتى أن بعض الجماعات فشلت في سد أصل الدين واكتفت بدفع الفوائد عليه وحسب . ومن هنا ، ضعفت سلطة القهال وبالتالي سلطة مجلس البلاد الأربعة . وفي عام ١٧٦٤ ، قرر البرلمان البولندي أن ضريبة الرؤوس المفروضة على اليهود لن تُجمَع من خلال مجلس البلاد الأربعة وإنما من خلال مجالس القهال الفردية ، وهو ما كان يعني أن الإطار التنظيمي للقهالات قد انفرط تماماً وأن مجلس البلاد الأربعة ألغى تماماً . ومع صدور مرسوم عام ١٨٢٢ ، تم حل القهال تماماً وحلت محله مجالس التجمعات الدينية (الأبرشيات) لإدارة الأمور الدينية والخيرية . وكان كل مجلس مكوناً من الحاكم ومساعدته أو ممثل عنه وثلاثة مدبرين متخبين . واستمر هذا الإطار حتى عام ١٩١٦ وتولت الدولة كل مهام القهال الأخرى .

وفي عام ١٩١٩ ، أسست مجالس القهال مرة أخرى ، ولكن أعيد تعريفها كجماعة مستقلة يكون الانتماء إليها اختيارياً وترأسها مجلس مركزي . ولم يكن للقهال أية سلطة من السلطات القديمة ، وإنما كان تنظيمياً ينسق بين كل الجماعات اليهودية في بولندا ، شأنه شأن التنظيمات المماثلة في الدولة القومية الحديثة .

وقد سقط القهال ، مثلما سقط الجيتو ومنطقة الاستيطان اليهودي والشتل ، وذلك بسبب التحولات الاجتماعية والسياسية

المستقلة . وكان عدد مندوبيين عشرين مندوباً في القرن السابع عشر وأربعين في القرن الثامن عشر . وكانت مجالس الأقاليم (مفرده بالعبرية : فاعد هاجليل) تشبه مجالس البرلمان (سييم) الإقليمية التي تُسمى «سييميك» ، وهي في علاقتها بمجلس البلاد الأربعة تشبه علاقة هذا الأخير بمجلس السيميم أو البرلمان . وكان مجلس البلاد الأربعة يضم جهازين أو مجلسين : مجلس رؤوس المدن (بالعبرية : راشي هامدينوت) ، وهو مجلس شيوخ المناطق ، ومجلس قضاة البلاد (بالعبرية : دياني هأرتسوت) ويضم حاخامات الجماعات الأساسية . وكان المجلسان يجتمعان أحياناً معاً .

وكان بناء المجلس يتكون من :

- ١ - رئيس المجلس .
- ٢ - أمين الصندوق والسكرتير الأول .
- ٣ - الوسيط (شيدلان) .
- ٤ - كاتب المجلس .
- ٥ - مقدّر الضرائب .

وكان المجلس يجتمع مرتين كل عام في الأسواق السنوية أو في البلد الذي كان يقيم فيه وزير المالية البولندي . وكان اختيار أعضاء المجلس يتم بالانتخاب بالمعنى القضاة للكلمة ، فلم تكن تشترك أغلبية يهود بولندا الساحقة في هذه الانتخابات . ويُقال إنه ، في الفترة الأخيرة من تاريخ المجلس ، لم يكن يزيد عدد المشتركين في الانتخابات على نسبة ضئيلة تصل إلى حوالي ١ ، ١٪ (بل بلغت ٧ ، ٠٪ في ليتوانيا) .

وكانت وظيفة المجلس الأساسية الإشراف على التجارة اليهودية ، وتحديد نسبة الفوائد للرايين اليهود ، وتحديد السياسات المالية والاقتصادية لأعضاء الجماعة . وكان من أهم أنشطته في هذا المضمار محاولة لتقليل حجم التنافس بين يهود الأرندا في محاولة الحصول على امتياز استئجار الضياع . فكان المجلس يؤيد حق أي يهودي استأجر ضيعة لمدة ثلاث سنوات في أن يجدد عقد استئجاره دون منافسة ، بل كان المجلس يؤيد حق الأبناء في أن يرثوا العقد . وكان المجلس يقوم بجمع الضرائب من المناطق كافة باعتبار أن الجماعة اليهودية تشكل وحدة مالية مستقلة داخل الدولة البولندية ، كما كان يسوي النزاعات بين اليهود . أما النزاعات بين اليهود وغير اليهود ، فكانت تنظر فيها السلطات البولندية . وكان المجلس في منزلة محكمة استئناف وهيئة تشريعية وإدارية . كما كان المجلس يشرف على التعليم اليهودي والأمور الدينية ، وكذلك على تعيين الخاضعات والقضاة وجباة الضرائب والمدرسين والذاهجين الشرعيين .

هناك نظام مالي عالمي ، كما أن بولندا كانت من أهم الدول المصدرة للأغذية إلى أوروبا في ذلك الوقت ، فنشأت شبكة مالية عالمية من النخب المالية اليهودية المختلفة كان يهود الأرندا واحدة من أهم حلقاتها . كما أن الفترة نفسها شهدت تراخٍ سلطة الملك في بولندا وقد توقف عن التدخل في عملية تعيين حاخام يهود بولندا عام ١٥٥١ . ثم توقف الملك عام ١٥٦٩ عن تعيين رؤساء الجماعات اليهودية في لفوف ، وأعطى اليهود حق انتخاب المجالس التي تحكمهم . ثم صدر مرسوم يمنع حكام المدن البولندية من إصدار أحكام أو فرض عقوبات على أعضاء الجماعات اليهودية . وتزايدت إلى جانب هذا أعداد أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا . وقد أدت كل هذه العوامل إلى تأسيس المجلس عام ١٥٨١ . وكان المجلس (قاعد) ينمقد بشكل غير رسمي وغير ثابت في بداية الأمر . ولكن اجتماعاته اتخذت صيغة ثابتة مع نهاية القرن السادس عشر . وانضمت إليه فيما بعد قطاعات ليتوانيا التي استقلت بعد ذلك (عام ١٦٢٣) وانظمها مجلس مستقل . ولم تكن العلاقة حميمة بين المجلسين دائماً ، إذ ظهر بينهما الكثير من التوترات . فعلى سبيل المثال ، كان مجلس بولندا يرى أن مجلس ليتوانيا لا يساهم بالقدر الكافي في الأعباء المالية . كما اختلف المجلسان حول المدن الصغيرة الموجودة على الحدود ، وحول أحقية كل منهما في تمثيلها ، وكذلك بشأن الحقوق التجارية لكل منهما . وأخيراً اختلفا حول قضية أساسية هي قضية الأرندا ، فقد قرر مجلس البلاد الأربعة أن يمنع اليهود من شراء حق جمع ضرائب الجمرك واستغلال مناجم الملح ، ذلك لأن النبلاء البولنديين أنفسهم كانوا يطعمون في تحصيل هذا الربح وإن حاول التجار اليهود منافستهم فإنهم قد يلحقون الأذى بالجماعة ككل . ولكن هذه التوصية لم تنفذ على الإطلاق . كما أن منطقة بولندا الكبرى ، المثلة في مجلس البلاد الأربعة ، كان لها رأي مخالف . أما مجلس ليتوانيا ، فقد أصر على ضرورة أن يظل جمع ضرائب الجمارك في أيدي يهودية (ويبدو أن أعضاء المجلس قد تقاضوا مبلغاً من النقود من بعض القائلين الذين كانوا يقومون بالحصول على امتياز جمع ضرائب الجمارك) .

والتنظيم الإداري للمجلس هرمي ، توجد في قاعدته مختلف مجالس القهال في كل تجمع يهودي . وكانت كل مجموعة من انقهاالات تتبع مجالس المدن التي تتبع بدورها مجالس الأقاليم . وقد أصبحت هذه الأقاليم ثمانية ثم أصبحت اثني عشر إقليمياً فيما بعد ، ومع هذا احتفظ المجلس باسمه . ولم يكن المجلس يضم مندوبي الأقاليم وحسب ، وإنما كان يضم كذلك مندوبي بعض المدن

والخلي، من أوروبا إلى الساحل الأفريقي فتمرغها ، ثم تحمل العبيد الذين كانوا يُنقلون إلى مزارع السكر في الولايات المتحدة وجزر الكاريبي وبياعون هناك ، وكانت السفن الفارغة تحمل المتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والصبغ والقهوة إلى أوروبا ، وهكذا . وكان يوجد مثلث آخر لم يكتسب الأهمية إلا في منتصف القرن الثامن عشر . فكان تجار نيو إنجلند يرسلون شراب الروم الكحولي إلى أفريقيا ويبادلونه بالعبيد ويحرون إلى جزر الهند الغربية حيث كانوا يبيعون العبيد ويشترون عمل قصب السكر اللازم لصناعة الروم ثم يتجهون لبلادهم . وقد كانت مزارع السكر ذات أهمية كبرى بالنسبة لاقتصاد المستعمرة واقتصاد إنجلترا . ولذا ، تم تشجيع اليهود على الاستيطان وكُفلت لهم حرية العبادة عام ١٦٦٥ ، ثم مُنح كل المستوطنين اليهود في سورينام الجنسية الإنجليزية . ولكن الهولنديين قاموا بضم سورينام ، عام ١٦٦٧ ، بمتفسي معاهدة بربدا ، مقابل تنازلهم عن حقوقهم في نيو أمستردام (نيويورك) لإنجلترا . ومع هذا ، استمر المستوطنون اليهود في حياتهم ، وفي امتلاك المزارع والعبيد . وحينما حاول بعضهم مغادرة سورينام ، عام ١٦٧٤ ، أرغهم الهولنديون على البقاء بسبب نعمهم وأهميتهم الاقتصادية . وكان من أهم مراكز اليهود في سورينام مستوطنة يودين سافانا ، ومعناها «سافانا اليهود» ، التي تأسست عام ١٦٧٠ والتي كانت تقع على بعد عشرة أميال من باراماريبو أكبر مدن سورينام في بريزدنتس أيلاند (جزيرة بريزدنت أو الرئيس) في وسط الغابات .

وكانت الجماعة الاستيطانية اليهودية في هذه الجزيرة شبه مستقلة . وقد استخدموا العبيد السود في شق الطرق وإزالة الغابات والأعشاب وفي العمل في المزارع ، كما أسسوا مدينة محاطة بالطرق الجديدة . وقد بلغ عدد سكانها أقل من عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩ ، تسعة آلاف من العبيد للمجلوبين من أفريقيا ، و ٥٢٠ يهودياً (نصفهم من أصل ألماني إشكنازي والنصف الآخر من أصل برتغالي المبدول لإحباط ثورات العبيد ابتداءً من ١٦٩٢ ، وانتشار مرض الملاريا ، أديا في نهاية الأمر إلى انتصار السود عليهم عام ١٧٧٤ . ثم شب حريق فيما تبقى ، فلم يبق من آثار اليهود سوى شواهد قبور عليها كتابات بالعبرية .

ومستوطنة يودين سافانا مرحلة انتقالية بين الجماعة الوظيفية الاستيطانية (التي تتمتع بحق الإدارة الذاتية) والدولة الوظيفية الاستيطانية (التي تتمتع بالاستقلال السياسي) . ومع هذا تمتاز نقاط تشابه عديدة بين تجربة سافانا اليهود والمستوطنين الصهاينة ، من بينها أن كلاً من المستوطنين الصهاينة وسافانا اليهود استوطنوا خارج أوروبا

وخلال القرن الثامن عشر بدأ هذا النظام في الضعف بتآكل النظام السياسي والاجتماعي في بولندا ، وانهياره التام في نهاية الأمر . وبظهور طبقات جديدة من يهود بولندا ، لم تُعد هذه الطبقات تأخذ بالإطار القديم . ويزداد الجماهير اليهودية فقراً ، أصبح من الصعب جمع الضرائب منها . كما أن الأمراء البولنديين الإقطاعيين كانوا دائمي التدخل في شئون المجلس للدفاع عن محاسبيهم من اليهود . وقد تموَّك مجلس القهالات إلى مؤسسة لايتزاق اليهود عن طريق اليهود أنفسهم ، فكان أثره اليهود المتحكمون في هذه المؤسسة أداة طبيعة في يد المحاكم البولندي ، كما أن الجماعات اليهودية الكبيرة المهيمنة على المجلس كانت تحاول فرض نصيب أكبر من الضرائب على الجماعات الصغيرة . ولذا ، فقد رفضت مجموعة من الجماعات في ليتوانيا عام ١٧٢١ دفع الضرائب التي فرضها المجلس بل اشتمت إلى الحكومة . وفي عام ١٧٦٤ ، قررت الحكومة البولندية جمع الضرائب مباشرة من كل جماعة يهودية حسب حجمها ، وبالتالي سقط مجلس البلاد الأربعة وما تسميه الكيانات الصهيونية «الحكم الذاتي» ، والذي يمكن أن نسميه إطار الإدارة الذاتية للجماعة اليهودية في بولندا الإقطاعية . وقد استمرت مجالس القهال في نشاطها لبعض الوقت بدون إطار تنظيمي واحد إلى أن حُلَّت هي الأخرى عام ١٨٢٢ .

### سافانا اليهود في سورينام

Joden Savanne in Surinam

«سورينام» جمهورية مستقلة ، كانت تدعى في الماضي «جيانا الهولندية» حيث كانت تابعة لهولندا . وهي تقع ، في أمريكا الجنوبية ، بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية ، ويحدها من الشمال المحيط الأطلنطي .

وقد وصل إليها الأوروبيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما وصل إليها بعض أعضاء الجماعات اليهودية من البرازيل وهولندا عام ١٦٣٩ . ثم وصلت جماعة أخرى من اليهود من إنجلترا عام ١٦٥٢ تحت رعاية أحد اللوردات الإنجليز ، ووصلت مجموعة ثالثة تحت قيادة جوزيف نونيز دي فونسيكا . ويشكل الاستيطان اليهودي في سورينام أول هجرة يهودية إلى العالم الجديد . وكان معظم هؤلاء من اليهود المارانو (السفارد) . وقد أسسوا مزارع السكر التي تعتمد أساساً على العبيد السود المخطوفين من أفريقيا في سياق ما كان يُسمى «الثلاث اللعين» إذ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع ، كالأسلحة والبارود والمشروبات الروحية الرخيصة

كان إحدى الإشكاليات الأساسية التي تواجهها الحكومة المركزية الروسية سواء أثناء حكم القيصرية أو في حكم البلاشفة . كما كانت هناك اعتبارات سياسية تتمثل في إحباط دعايات العناصر اليهودية المعادية للسوفييت ، وكسب تأييد اليهود في العالم ، وخصوصاً في الولايات المتحدة في ظل اتجاه سوفييتي عام لتحسين العلاقات مع الغرب في تلك الفترة .

ونظراً لكل هذه الاعتبارات ، قررت القيادة السوفيتية أن تمنح اليهود إقليماً خاصاً بهم حيث يكون مقدورهم أن يطوروا ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة في إطار قومي ومحتوى اشتراكي ، فيصبح مركزاً للثقافة اليهودية (اليديشية) ومجالاً لتحقيق هوية اليهود باعتبارهم أقلية قومية شرق أوروبية ، أو قومية يديشية ، الأمر الذي يتفق مع صيغة البوند وديتوف أكثر من اتفاق مع أطروحات لينين .

وقدمت تشكيل جهازين للإسراع في تنفيذ المشروع ، وصدر مرسوم مارس ١٩٢٨ متضمناً تخصيص جميع الأراضي في منطقة بيروبيجان للمستوطنات اليهودية مع منح المنطقة صفة «دائرة قومية يهودية» رغم أنها لم تكن تضم أي يهود آنذاك . كما نص المرسوم صراحة على أن المنطقة ستتحول إلى مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي إذا ما سار التوطن اليهودي بنجاح فيها .

وفي القانون السوفيتي ، تُعتبر المقاطعة ذات الحكم الذاتي وحدة إدارية تتمتع بشيء من الكيان الذاتي ، والمفروض أنها تمثل كياناً مستقلاً لمنطقة معينة تحوي سكاناً من قومية واحدة لا يكفي عددهم لتأليف جمهورية مستقلة .

وقد شنت الحركة الصهيونية هجوماً مركزاً على المشروع منذ البداية . فأعلنت أن المكان غير مناسب ، وأنه لا يحمل أية دلالة تاريخية يهودية ، وأنه قد يصلح لمستوطنين ذوي تقاليد زراعية حيث إن اليهود لم يمارسوا الزراعة إلا حديثاً . ومن هنا ، طالبت الحركة الصهيونية بالقرم أو أوكرانيا . ولكنها عادت وأكدت أن فلسطين هي المكان الوحيد المناسب لحل مشاكل اليهود السوفيت ، وأن مشروع بيروبيجان محاولة سوفيتية لنسف أو إضعاف الفكرة الصهيونية والدينية لدى اليهود . هذا مع العلم بأن مساحة بيروبيجان تفوق مساحة فلسطين التي تبلغ ٧٢ ، ٢٦٠ كيلو متراً مربعاً .

وقد وصلت أول دفعة من اليهود السوفيت إلى بيروبيجان عام ١٩٢٨ . وكان عددهم ٩٥٠ شخصاً عاد منهم ٦٠٠ شخص . وقد بلغ عدد اليهود الذين هاجروا إلى المنطقة خلال خمس سنوات نحو عشرين ألف شخص ، عاد منهم نحو اثني عشر ألفاً ، وبقي في المنطقة نحو ثمانية آلاف شخص فقط . ولم تكن هذه الأرقام تشير

تحت رعاية أكثر من دولة أوروبية واحدة : إنجلترا ثم هولندا في حالة سورينام ، وإنجلترا ثم الولايات المتحدة في حالة فلسطين . كما أن كلتا الجماعتين الاستيطانيتين كانت منقسمة ووحدة إلى سفارد وإشكناز يتصارعون فيما بينهم ، وكذلك كانت كلتا الجماعتين مرفوضة من قِبَل أعضاء المجتمع المُستهدف استغلاله : العبيد السود المُستجلبين والسكان المحليين في سورينام ، والفلسطينيين العرب في فلسطين . وقد انتصر السود على سافاته اليهود ، أما في فلسطين فإن المعركة مازالت دائرة بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال الإسرائيلي .

### بيروبيجان

Birobidjan

«بيروبيجان» مقاطعة سوفيتية ذات حكم ذاتي خُصصت لليهود ، وتقع في شرق سيبيريا خلف نهر «ماسو» الذي يفصل بين الاتحاد السوفيتي ومنشوريا ، وتبلغ مساحتها ٣٧ ألف كيلو متر مربع ، وقد اشْتُق اسمها من فرعي النهر «بيرو» (والتي تُنطق أيضاً «بيرا») و«بيجان» . وهي تحوي منطقة سهلية صالحة للزراعة ، ومنطقة جبلية تضم غابات كثيفة غير مستغلة تتوافر فيها أنواع ثمينة من الأخشاب . كما توجد فيها حيوانات ذات فراء . وتضم المنطقة ثروات معدنية أبرزها الفحم والزنق والنحاس والحديد والذهب والمرسر والأحجار شبه الكريمة . وفي المنطقة كميات وافرة من مياه الري ، وفيها نحو مائتي نهر كبير وصغير بالإضافة إلى البحيرات . وأكبر مدن المنطقة هي العاصمة . وقد كانت المنطقة تُسمى «كوخورتكاي» (وربما تعني «المكان الهادئ») وهي تُدعى الآن «بيروبيجان» . وقد كانت عام ١٩٢٨ محطة قطار صغيرة على سكة حديد سيبيريا ، وأصبحت عام ١٩٣١ قرية ، ثم صارت مدينة .

وأقرب المدن الكبيرة (في الشرق الأقصى السوفيتي) إلى بيروبيجان هي خابازروفسك التي تبعد عنها ١٧٣ كيلومتراً ، وهي عاصمة الإقليم الذي تتبعه بيروبيجان ، أما المسافة بين موسكو وبيروبيجان فهي ٨٣٦١ كيلومتراً .

وقد وقع اختيار الحكومة السوفيتية على بيروبيجان عام ١٩٢٨ لتشجيع التوطن اليهودي في الإقليم بهدف زيادة تكيف اليهود مع النظام السوفيتي الجديد . وكذلك كان من بين أهداف السوفيت من المشروع اعتبارات إستراتيجية تتمثل في زيادة الكثافة السكانية في المنطقة المجاورة للحدود مع الصين واليابان ، وتعمير كل أرجاء روسيا وخصوصاً الأطراف . لكن توطين السكان في هذه المنطقة

إلى درجة مشجعة من النجاح ، بل كانت تشير إلى احتمال فشل المشروع .

وفي ٧ مايو (آيار) عام ١٩٣٤ ، أي بعد احتلال اليابان لمنشوريا عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، أعلنت السلطات السوفيتية منح منطقة بيروبيجان صفة «مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي» مع أن شروط منح هذه الصفة ، وأبرزها وجود أغلبية من سكان قومية معينة ، بحسب الدستور السوفيتي ، لم تكن متوافرة . وربما كان اتخاذ هذا القرار إحدى الوسائل التي لجأت إليها الحكومة السوفيتية لتشجيع اليهود على الهجرة إلى تلك المنطقة حيث وُضعت خطة جديدة لتوطين اليهود فيها تقوم على أساس اختيار الكفاءات بدل الهجرة الطوعية المشوالية . وكان مقدراً خلال السنوات ١٩٣٤ - ١٩٣٧ أن يبلغ عدد اليهود في بيروبيجان نحو ٦٠ ألف نسمة . ومع ذلك ، ومع حلول عام ١٩٣٧ ، فإن عدد اليهود لم يتجاوز عشرين ألف نسمة كانوا يشكلون ٢٤٪ من سكانها .

وقد تعرّض تنفيذ مشروع التوطين لحالة من الجمود في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وذلك بسبب حملة التطهير التي قادها ستالين وشملت العديد من القيادات ومن بينها القيادات اليهودية في الحزب والدولة . ثم إن ظروف الحرب (بعد ذلك) فرضت جموداً على تنفيذ المشروع ، فلم يُعدّ للبروز والنشاط إلا في نهاية الحرب العالمية الثانية وبالذات في النصف الثاني من عام ١٩٤٦ . وقد أظهر اليهود في تلك الفترة حماساً أشد للتوطين في بيروبيجان ، وتطوّر للذهاب إليها فنانون وموسيقيون وأطباء . وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد اليهود ، في منتصف سنة ١٩٤٨ ، بلغ نحو خمسة وثلاثين ألفاً جاء بعضهم ضمن الهجرة المنظمة ، وجاء البعض الآخر هرباً من الجيوش النازية الزاحفة نحو موسكو ، وجاء البعض الثالث ليفتتح عن مكان جديد يبدأ فيه حياته .

وقد تمت تنمية الطابع اليهودي اليديشي للمقاطعة في هذه المرحلة . فأنشئت مزارع جماعية يهودية ومجالس فرعية ، واستُخدمت اليديشية كلغة رسمية ، وأسس مسرح يديشي ومكتبة عامة سُمّيت باسم الكاتب اليديشي شالوم عليخيم ، كما أقيمت مؤسسة طباعة عصرية وصُنعت آلات كتابة بالحروف التي كُتبت بها اللغة اليديشية .

ولكن القيادات السوفيتية ، بعد هذه الفترة القصيرة من الهجرة ، عبّرت موقفها ، وبدأ القنور يسيطر على الحديث الرسمي عن بيروبيجان ، وبرزت اتهامات بعلاقات تجسس مع الخارج . وفي

عام ١٩٤٨ ، توقف نشر الأخبار عن بيروبيجان . وإذا كانت حركة التطهير الأولى استهدفت بعض الأفراد ، فإن الحملة الجديدة استهدفت المشروع ذاته (ويبدو أن ستالين اتهم زعماء الجماعة في بيروبيجان بالنامر لفصل الإقليم عن الاتحاد السوفيتي وتسليمه لليابان) . وكانت النتيجة أن الهجرة اليهودية إلى الإقليم أخذت في التقلص تدريجياً إلى أن وصل عدد اليهود فيه سنة ١٩٦٨ إلى نحو خمسة وعشرين ألف نسمة . وقد بلغ عدد السكان اليهود في عام ١٩٨٩ نحو ٨٨٧ ، مقابل ٢١٥ ألف روسي وكوري وصيني وغيرهم ، أي ٤٪ من عدد السكان ، يقطن معظمهم في العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة وثمانين ألفاً . وعدد المتحدثين باليديشية أخذ في التناقص ، ووصلت نسبة الزواج المختلط بين اليهود ٨٠٪ ، وهي بذلك قد تكون أعلى نسبة في العالم . وغالبية اليهود في بيروبيجان ملحدون ، كما أن الحاخام الذي يشرف على إقامة الشعائر يؤمن بالمسح ويستخدم الإنجيل في الصلوات . ومع هذا ، لا تزال هناك محاولة لأن تحتفظ بيروبيجان بطابعها اليهودي اليديشي إذ تُصنّف الطوابع باليديشية والروسية ولا تزال أسماء الشوارع تُكتب باللغتين . وقد تم الاحتفال بعيدها الخمسيني عام ١٩٨٤ . وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي وظهور الكومونولت الروسي ، بدأت الحكومة الروسية في تحويل بيروبيجان إلى منطقة اقتصادية حرة . ويفكر بعض أثرياء إسرائيل في الذهاب إلى بيروبيجان للاستثمار فيها . ويبدو أن زراعة المخدرات قد انتشرت فيها مؤخراً .

وتجربة بيروبيجان ، برغم أية نتائج انتهت إليها ، تثير عدداً من الملاحظات حول الحركة الصهيونية في مجملها ، أولاً أن الرفض الصهيوني لبيروبيجان انطلق من تبسيط محل للحلول الممكنة للمسألة اليهودية يستهدف تبرير حتمية الهجرة إلى فلسطين ، وهو ما يثبت أن الصهيونية لم تستهدف حل المشاكل الملحة عند اليهود بقدر ما استهدفت تحقيق أساطير بعضهم . ومن ناحية أخرى ، فإن مشروع بيروبيجان كان امتداداً لأفكار البوند ، أي التعبير عن الخصائص الذاتية اليهودية في إطار الدولة الاشتراكية . ومع هذا ، فقد رفضته الحركة الصهيونية عامة والصهيونية الاشتراكية بصفة خاصة .

ومن جانب ثالث ، فإن الحركة الصهيونية قد عارضت المشروع رغم أن السوفييت كانوا يهدفون منه إلى تحويل اليهود من طبقة بورجوازية منزلة غير منتجة إلى طبقة عاملة متدمجة في المجتمع ومنتجة ، وهو ما تحدّث عنه الصهاينة الاشتراكيون دائماً . وأخيراً ، فإن مشروع بيروبيجان قد أثار من جديد الخلاف القديم بين يهود

مخاوفهم من فقدان الهوية في مواجهة المجتمع الجديد . ومن هنا ، فإننا نجد أن وظيفتها واللغة المستخدمة فيها تتغير بتزايد معدلات الاندماج إلى أن يحدث الاندماج تماماً ، فتنتحل أو تكتسب مضموناً جديداً . وعلى سبيل المثال ، كانت هناك حلقات للعمال تتبعها مؤسسات تعليمية ، مثل المدارس والمعسكرات الصيفية ، استخدمت اليديشية في الماضي ولكنها تستخدم الإنجليزية في الوقت الحاضر . ولا تزال حلقات العمال تمارس نشاطها .

#### جماعات الأصدقاء (حفوراه)

Havurah Fellowship

«جماعات الأصدقاء» جماعات صغيرة من يهود الولايات المتحدة تعود بداياتها إلى أواخر الستينيات (ويقال إن أول جماعة تأسست في سومرفيل في ولاية ماساتشوستس عام ١٩٦٨) وانتشرت في السبعينيات حتى أصبحت جزءاً من حياة يهود الولايات المتحدة . وهي تعبير عن رغبة بعض قطاعات من يهود الولايات المتحدة (وخصوصاً من أعضاء الطبقة الوسطى) في أن تحتفظ بشيء من الخصوصية والهوية وفي أن تتحرك داخل جماعة صغيرة مألوفة لديها، وكل هذا احتجاج على تزايد معدلات الترشيد والعلمنة في المجتمع الأمريكي حيث تبتل الحياة إلى العمومية والتنميط وتضمُّم حجم المؤسسات وتمركزها (بما في ذلك المؤسسات الدينية اليهودية ذاتها) وهو ما يجعلها غير قادرة على التعامل مع الأفراد وعاجزة عن الوفاء بحاجاتهم الروحية ، وهذه ظاهرة ليست مقصورة على أعضاء الجماعة اليهودية بأية حال وإنما هي ظاهرة عامة في المجتمع الأمريكي وتعود حركياتها إلى هذا المجتمع . ولذا ، تكون محاولة الربط بين جماعات الأصدقاء (الحافوراه) وجماعات الأسينيين في مغارات قرمان في القرن الأول قبل الميلاد (كما تفعل الموسوعة اليهودية) نوعاً من محاولة ربط ظاهرة حديثة بالظاهرة القديمة وإطلاق الاسم القديم على الظاهرة الحديثة ، وهذا لا يساعد على تفسير الظاهرة ولا على تصنيفها .

وتنقسم جماعات الأصدقاء إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - جماعات ذات توجه ديني واضح .
  - ٢ - جماعات تشبه الكومونات حيث يعيش الأعضاء معاً حياة جماعة ويعملون ويحتفلون بالأعياد بعضهم مع بعض .
  - ٣ - جماعات تُوجد داخل المعابد اليهودية .
- ويذهب عالم التلمود الأمريكي جيوكوب نوزنر إلى أن جماعات الأصدقاء تقوم بخمسة أنشطة جماعية : الصلاة ،

العالم حول ما عُرف بقضية الصهيونية الإقليمية . ولهذا ، فقد أيدت المشروع بعض الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة وغرب أوروبا وأمريكا اللاتينية ، وكان من بينها لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة (جوينت) ، والمؤسسة الأمريكية اليهودية المشتركة للزراعة (أجروجوينت) ، والجمعية الأمريكية للتوطين اليهودي في الاتحاد السوفيتي (وقد عُرفت باسم «إيكورا» أي فلاح بالبرية) . في حين عارضته كل اتجاهات الحركة الصهيونية باعتباره تجسيداً لفكرة قومية الدياسبورا (القومية اليديشية) ولكن في ظل نظام اقتصادي مختلف .

#### روابط المهاجرين (الاندز ماناشتيفين)

Landsmannschaften

«روابط المهاجرين» هي جماعات أو روابط تضم مهاجرين من بلدة واحدة أو مقاطعة واحدة في الوطن الأصلي . وقد تأسست مثل هذه الروابط في إنجلترا وجنوب أفريقيا وأساساً في الولايات المتحدة (خصوصاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) بين يهود اليديشية . وكان لكثير من هذه الروابط معيها اليهودي المقصور عليها . وكانت لغة هذه الروابط ، في معظم الأحيان ، اليديشية . وهذه الروابط مؤسسات وسيطة تهدف إلى تزويد المهاجرين بشيء من الطمأنينة وتُسَهِّل عليهم عملية الانخراط في المجتمع الجديد وتضع تحت تصرفهم خبرة من سبقهم من مهاجرين . ولهذا ، ومع اندماج المهاجرين في بلادهم الجديدة ، تختفي هذه الروابط أو تتحول إلى مؤسسات تضطلع بوظائف اجتماعية جديدة برغم احتفاظها بالاسم .

#### حلقة العمال

Workmen's Circle (Arbeiter Ring)

«حلقة العمال» عبارة مترجمة عن العبارة اليديشية «أربيت رينج» . وحلقات العمال منظمات اجتماعية أسسها العمال المهاجرون من شرق أوروبا (من يهود اليديشية) عام ١٩٠٠ . وبلغ عدد فروعها ٦٦٠ فرعاً تضم سبعين ألف عضو . وقد ساهمت هذه الحلقات في تكوين اتحادات العمال في صناعة الإبر والنسيج التي تركز فيها أعضاء الجماعة اليهودية . ومثل هذه المنظمات هي ، في واقع الأمر ، منظمات وسيطة تساهم في دمج أعضاء الجماعات المهاجرة بإنشاء مؤسسات تحافظ على هويتهم شكلاً واسماً ولكنها تقدم لهم في الحقيقة قيم المجتمع الجديد . وبهذه الطريقة ، تتم تهدئة



فهي تأخذ موقفاً متشدداً من أمور مثل الزواج والطعام ، والدفن بطبيعة الحال ، الأمر الذي يعني استبعاد أعداد كبيرة من اليهود الذين تمت علمنتهم . وهي تحاول أيضاً أن تفرض تدريس اليديشية على المدارس اليهودية . ولم ينخرط السفارد في القهال ، ولذا فلمهم جمعية دفن خاصة بهم ، ويسيطر كبار المومنين الذين يدفعون التبرعات على القهال وقراراته . ويتبع القهال عدد من الموظفين والمخاضات الذين لا يتمتعون بأية مكانة اجتماعية .

ولا يشارك القهال في السياسة القومية ، وليس له موقف سياسي محدد . لكن هذا يزيد حدة التوترات داخله ، فالطاقة السياسية التي لا تُفترغ في الخارج من خلال الفترات العامة تسرب إلى داخل القهال وتُصعد حدة الصراعات . وتدار الانتخابات داخله على أساس برامج الأحزاب الإسرائيلية وهذا يجعلها غير ذات موضوع من منظور لاتيني ، ولذا يزداد ابتعاد الشباب اليهودي عنها . فالقهاال لا يتعامل مع الموضوعات الحية التي تهتمهم كمواطنين في بلادهم . ومع هذا ، تولى القهال عملية تطهير الشوارع اليهودي من العناصر اليسارية المختلفة .

ومؤسسة القهال لا يمكنها ممارسة أي ضغط على الحكومات في أمريكا اللاتينية برغم تركيز اليهود في المدن وبالذات في بيونس آيرس وريو دي جانيرو . وهذا يرجع إلى أن الجماعات اليهودية صغيرة للغاية بالنسبة لعدد السكان سواء في الجمهوريات المختلفة أم في العواصم . كما أنها جماعات منقسمة ، وهو ما يزيد ما تفتتاً . ولا يظهر صوت يهودي فعال . وعلى كل ، لا تتمتع الانتخابات في أمريكا اللاتينية بالأهمية نفسها التي تتمتع بها في الولايات المتحدة . كما أن الانقلابات المتكررة تجعل الانتخابات مسألة محدودة الأهمية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن جماعات الضغط الأساسية ، مثل الجيش والكنيسة ، لا يشارك فيها اليهود . ولذا ، يحاول القهال التأثير في الحكومات من خلال المنظمات اليهودية الأمريكية ومن خلال الوكالات الأمريكية الرسمية ، وهو تدخل قد يأتي بنتيجة إيجابية مباشرة ولكنه يأتي بأثر عكسي على المدى الطويل إذ يُقوّي الإدراك المحلي بأن يهود أمريكا اللاتينية يربطهم رباط خاص بالولايات المتحدة ، الأمر الذي يزيد هامشية أعضاء الجماعات اليهودية ومن انصراف الشباب اليهودي عنها .

### النادي اليهودي في أمريكا اللاتينية

Jewish Club in Latin America

مع تزايد معدلات العلمنة في مجتمعات أمريكا اللاتينية ،

والاحتفال بشعائر السبت ، والتعاون في إظهار الرحمة نحو الآخرين (الصدقات وزيارة المرضى) ، والدراسة ، والاحتفاظ بسجل لنشاط الجماعة .

وتوجد لجنة قومية لجماعات الأصدقاء في الولايات المتحدة . كما توجد جماعات في كل من إنجلترا وأستراليا وإسرائيل . وتنتشر اللجنة مجلة ونشرة دورية ، كما أصدرت كتاباً عن كيفية إنشاء جماعة أصدقاء . وجماعات الأصدقاء قد تستخدم ديباجات دينية ، ولكنها لا تعبر عن بحث ديني لأنها جماعات تنطلق من اغتراب الإنسان الأمريكي اليهودي وتحاول أن تساعد في التغلب على هذا الاغتراب لا من خلال الدين وإنما من خلال أصدقائه وجماعته . والواقع أن ما طرحوه من حل لا يختلف كثيراً عن الحل الذي طرحه اليبيز وجماعات الأصدقاء والأخوة الأخرى .

### القهاال الحديث في أمريكا اللاتينية

Modern Kahal in Latin America

تُشير الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية أموراً من خلال مؤسسات يُقال لها القهال ، وهي ليست مؤسسات إدارة ذاتية ، كما هو الحال في المجتمعات التقليدية ، وإنما هي رابطة تجمع أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية . وقد كوّن الاشكناز من روسيا وبولندا قهالاً مشتركاً استبعد السفارد ، وأصبح قهال الاشكناز المؤسسة الأساسية بين يهود المكسيك . ويُلاحظ أن القهال في المجتمعات التقليدية كان في معظم الأحوال أساس تماسك الجماعات اليهودية ، ولكنه هنا أصبح تعبيراً عن الصراع الدائر داخلها وعن الانقسامات التي تفتتها . واللجنة المركزية التي تضم كل هذه الجماعات تتكون من ثلاثين عضواً ؛ منهم ستة عشر عضواً يتحدثون اليديشية (وهم الأغلبية) ، وخمسة أعضاء يتحدثون اللاتينو ، وثلاثة يهود ألماني ، ومجريان ، واثان من سفارد دمشق ، واثان من سفارد حلب .

وقهال الأرجنتين ليس أحسن حالاً ، فقد اختفى بعض الوقت ثم عاد إلى الظهور بعد أن اشترى مجلس إدارته قطعة أرض لدفن اليهود ، وهذا هو النشاط الأساسي للقهاال . كما أنه يُعَدُّ الآن برنامجاً تليفزيونياً ويقوم بأنشطة شبانية . ومصدر التمويل الأساسي اشتراكات الأعضاء ورسوم الدفن التي يجار اليهود بالشكوى منها (والواقع أن سيطرة القهال على المدافن تشبه سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الخلاص ، فلا خلاص خارج الكنيسة ولا دفن خارج القهال) . وتسيطر المخاضة الأرثوذكسية على القهال ، ولذا

مؤسسة يهودية أخرى ، فهي مؤسسة لاتينية أكثر من كونها يهودية ، ويوصف أعضاء الجماعة اليهودية في ساو باولو بأنهم أعضاء في النادي العبري أو اليهودي . ولذا ، فهي أول مؤسسة يهودية تتجاوز الانقسامات القديمة ، وظهرها دليل على الاختفاء التدريجي ليراث المهاجرين ، وكذلك ظهور هوية لاتينية بين من تبنّى من يهود أمريكا اللاتينية . ولغة الحديث في هذه النوادي هي الإسبانية والبرتغالية باعتبار أن اللادينو واليديشية والعربية اختلفت كلغات حديث . ويبلغ عدد المشتركين في النادي اليهودي في ساو باولو حوالي ٣٠ ألفاً ، أي حوالي ثلث أعضاء الجماعة اليهودية . ويُلاحظ كذلك ارتفاع التزاوج المُختلط بين السفارد والإشكناز . ولا تشغل هذه النوادي بالسياسة ولا بالدين ، ولا تحاول أن تغذي الإثنيات اليهودية المختلفة ، فهي في واقع الأمر تعبير عن المراحل الأخيرة من ضعف الهوية اليهودية .

بدأت تظهر مؤسسة جديدة أخذت تحل محل جمعيات الدفن والقهال أو المعبد ، وهي النادي الرياضي (الاجتماعي) . والنادي الرياضي مؤسسة معروفة في معظم أنحاء أمريكا اللاتينية تؤسسها الجماعات المهاجرة ، فهناك النادي الإيطالي والنادي السويسري والنادي اللبناني . ومن هنا ، ظهر النادي اليهودي (وأحياناً العبري) . ومثل هذه النوادي ألحقت بها مكتبة ومطعم ودار حضارة ومكاتب الرعاية اليهودية ، وهي مؤسسات بالغة الضخامة . فالنادي اليهودي في ساو باولو يضم ثماني قاعات رياضية وثلاثة عشر ملعب تنس وستة حمامات سباحة وستة مطاعم (يقدم واحد منها فقط الطعام اليهودي الشرعي) ومحل مصفف شعر سيدات وغرفة للعب الكوتشينة ومعرضاً للفنون وقاعة للديسكو ونادي كومبيوتر ، وينظم النادي بالإضافة إلى كل هذا حلقة دراسات يهودية . وقد نجحت هذه النوادي في جذب أعداد كبيرة أكثر من أي



## ٣

## مصر والإمبراطورية الحيثية

العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم والمسألة العبرانية -  
المسألة العبرانية - مصر - الهكسوس - شيشق - الفتناين - الحيثيون

ينضم إليهما أحياناً تشكيل خارجي غير محلي مثل الحيثيين . وعند تراجع هذه القوى العظمى ، كانت تظهر قوى محلية مثل الآراميين والأنباط . وقد استمر هذا الوضع قائماً إلى أن غزا الفرس المنطقة وأصبحوا القوة العظمى فيها . وجاء بعدهم اليونانيون ثم الرومان . وحينما فتح المسلمون المنطقة ، كان اليهود قد انتشروا في بقاع الأرض ، ولم تكن فلسطين مركزاً لهم إلا من الناحية الدينية والمجازية .

ويمكن أن ننظر إلى تاريخ العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم في هذا الإطار . فحتى بداية الألف الثانية قبل الميلاد ، كان المصريون قانعين إلى حد كبير بحكم الأراضي الواقعة شمالي أول شلالات النيل ، في حين كان حكام دول بلاد الرافدين يحكمون الشعوب الموجودة في منطقة دجلة والفرات . هذا لا يعني أن كلتا القوتين لم تمارس أي سلطان خارج حدودها ، فحكام بلاد الرافدين هيمنوا على العيلاميين (٣٠٠٠ - ١٧٠٠ ق.م) . كما أن مصر في الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة إلى الخامسة (٢٨٩٥ - ٢٥١٠ ق.م) ، وفي أيام الدولة الوسطى ، أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة (٢٠٤٠ - ١٧٨٦ ق.م) ، غزت النوبة وضمتهما ، كما كانت تقوم بالتعددين في شبه جزيرة سيناء ، وكانت ذات نفوذ واضح في فينيقيا وشمالي سوريا وفلسطين .

وبعد عام ١٥٠٠ ق.م ، أخذ نفوذ القوتين العظيمين ينحسر ، الأمر الذي أدى إلى ظهور شعوب وأقوام عديدة لكل دولته ومناطق نفوذه ومراكز السلطة والحضارة الخاصة به ، فأخذت تتنافس مع حضارات الأنهار . وهذه الشعوب والأقوام هي : الحوريون والكاشيون والشعوب السامية المختلفة والحيثيون .

وبعد ذلك التاريخ ، تصبح الإمبراطوريات العظمى الشكل الأساسي للحكم في الشرق الأوسط . وقد ظهرت هذه الإمبراطوريات بسبب التطورات التقنية المهمة في أدوات الحرب والتخطيط العسكري ، وبسبب تزايد السكان وتراكم الخبرات في عمليات الإدارة . وقد ظهر في ذلك الوقت نوع من أنواع العالمية

## العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم والمسألة العبرانية

International Relations in the Ancient Near East and the Hebrew Question

لا يمكن فهم تاريخ العبرانيين (أو العبرانيين اليهود) الذي تمركز بشكل أو بآخر في فلسطين إلا بفهم العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم ، ذلك أن أحداث تاريخ العبرانيين لم تكن سوى صدى أو رد فعل لحركات هذه العلاقات الدولية .

وثمة مشكلة أساسية كانت تواجه العبرانيين ، ومن بعدهم اليهود في فلسطين ، منذ بداية ظهورهم حتى تحوّلهم إلى جماعات منتشرة في أرجاء الأرض غير مرتبطة بفلسطين إلا بالرباط الديني . وتشمل هذه المشكلة في قلة عددهم وصغر حجمهم كتشكيل سياسي ، وضآلة إسهامهم الحضاري بالقياس إلى التشكيلات الحضارية الضخمة . وقد أدّت العناصر السابقة مجتمعة إلى عجز العبرانيين عن أن يكون لهم جيوش ضخمة مسلحة تسليحاً جيداً ويمكنها أن تدافع عن كياناتهم السياسي ، وفي أن تضم أراضي أخرى . ولم يكنهم بطبيعة الحال استرقاق الشعوب الأخرى أو فتح أراضيها ، إذ أن هذا يتطلب قوة عسكرية ضخمة كما يتطلب مستوى إنتاجياً متقدماً نسبياً لاستيعاب الرقيق ولتشغيلهم . بل إننا نجد أن هذا التخلف النسبي جعل الدولة العبرانية غير قادرة على استيعاب كل المصادر البشرية المحلية فتحوّلت إلى مُصدّر لها ، ومن ثم نجد أن كثيراً من العبرانيين القدامى كانوا يعملون عبيداً وجنوداً مرتزقة للشعوب والإمبراطوريات التي قامت في المنطقة .

وما ساعد على تفاقم المشكلة أن الرقعة الجغرافية التي تمركز فيها تاريخ العبرانيين هي فلسطين ، وهي نقطة إستراتيجية ذات أهمية قصوى كانت تُعدّ معبراً بين التشكيلات الحضارية المختلفة في الشرق الأدنى القديم ، الأمر الذي جعلها وجعل سكانها عرضة للهجرات والغزوات .

ولقد كان الشرق الأدنى القديم يتكون من تشكيلين حضاريين أساسيين : التشكيل الحضاري المصري ، وتشكيل الرافدين . وكان

مصير المملكتين من خلال صراع كل هذه القوى العظمى ، وهو الصراع الذي انعكس في صراع بين عدة أحزاب في المملكتين الشمالية والجنوبية ، فكان ثمة حزب مصري وآخر آشوري وثالث يطالب بالتحالف مع الديولت الآرامية . وبعد عدة محاولات ، سقطت المملكة الشمالية (٧٢١ ق.م) وبعدها المملكة الجنوبية (٥٦٧ ق.م) ، وتبع ذلك تهجير إلى آشور وانصهار في سكانها ثم تهجير إلى بابل أعقبته عودة بعد أن أصدر قورش الأخميني إمبراطور الفرس مرسوماً يسمح لهم بها (٥٣٨ ق.م) .

وسيطرت الإمبراطورية الفارسية على الشرق الأدنى القديم ، وعادت جماعات من العبرانيين اليهود إلى فلسطين تحت الحكم الفارسي الذي أعقبه الحكم اليوناني (٣٣٣ ق.م) . وقد تمتع اليهود بشيء من الاستقرار تحت حكم الدولة العظمى التي وفرت عليهم عناية الاختيار وأعفقتهم من مسؤولية القرار السياسي ، بل تحولت طبقة كبار الكهنة والأثرياء إلى جماعة وظيفية .

وانتهت هذه الفترة بانقسام إمبراطورية الإسكندر إلى عدة إمبراطوريات صغيرة أهمها البطلمية في مصر والسلوقية في سوريا اللتان تنازعتا فيما بينهما فلسطين . وكان هناك حزب بطلمي وآخر سلوقي بين اليهود . هذا إلى جانب الانقسام الأعمق بين النخبة اليهودية ذات الطابع الهيليني والجماعات اليهودية ذات الطابع السامي ، وهو الانقسام الذي انعكس في التمرد الحشموني والتمردات اليهودية الأخرى ضد الرومان . وقد استفاد المتمردون الحشمونيون من الصراع بين البطالمة والسلوقيين ، كما استفادوا من ظهور قوة عظمى محلية أخرى هي الأنباط فتحالفوا معهم في بداية الأمر .

ورغم أن التمرد الحشموني قد حقق شيئاً من النجاح ، وخصوصاً عام ١٦٦ ق.م ، ضد الدولة السلوقية التي كانت قد بدأت تشعر بهجوم القوة الرومانية الصاعدة ، فإن الحشمونيين كانوا يعرفون قوانين اللعبة كما كانوا يعرفون أنهم قوة صغيرة لا يمكنها أن تحقق الاستقلال لنفسها ، ولذا أرسل يهودا المكابي مبعوثاً للدولة الرومانية ليعقد هدنة مع القوة الجديدة . وقد قبل الرومان ، إذ كانوا يعدون تحالفات مع أعداء جيرانهم إلى أن يتم لهم التخلص منهم ثم يفرضون بعد ذلك هيمنتهم على الجميع . ولم يكن المجتمع اليهودي في فلسطين استثناءً من هذه القاعدة ، فلقد كانت المعاهدة بين روما والدولة الحشمونية ، شأنها شأن المعاهدات مع الديولت المماثلة ، تشبه معاهدات التحالف وعدم الاعتداء بين الولايات المتحدة وجرينادا أو حتى التحالف بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

الثقافية يتجلى في اختراع حروف الكتابة وانتشار لغات دولية مثل : الآرامية والأكادية . وظهرت العالمية أيضاً في المعتقدات الدينية سواء في عبادة أتون في مصر أو عبادة آشور في بلاد الرافدين أو يهوه عند العبرانيين ، وكذلك عبادة زرادشت التوحيدية في فارس . وقد استمرت أولى مراحل الإمبراطوريات الدولية من ١٥٠٠ إلى ١٢٠٠ ق.م وهي الفترة التي نشب الصراع فيها بين المصريين والحثيين على فلسطين والشام .

أما المرحلة الثانية ، فهي مرحلة ظهور الأمم الصغيرة بسبب تحطيم قوة الحثيين وضعف آشور المؤقت وتوقع مصر ، وهو ما أتاح الفرصة لبعض الشعوب الصغيرة للتحرك وإنشاء ديولت . فظهر الفلستيون على ساحل كنعان ، وتسلل العبرانيون وأسسوا دولتهم في المنطقة الداخلية ، وأسس الفينيقيون دولياتهم في لبنان ، واستقر الآراميون في سوريا .

أما المرحلة الثالثة ، فتبدأ نحو عام ١١٠٠ ق.م ، وتشهد ظهور القوة الآشورية ، وخصوصاً في الفترة الآشورية الجديدة أو الثالثة ، وعودة الدولة المصرية لتضعف بدور إمبراطوري مرة أخرى ، ثم أخيراً ظهور الدولة الفارسية التي استمرت حتى وصول الإسكندر الذي بسط نفوذه على معظم الشرق الأدنى القديم وتبعه السلوقيون فالبطالمة ثم الرومان .

ووجد العبرانيون أنفسهم وسط هذه التشكيلات السياسية والحضارية العظمى والإمبراطوريات الضخمة ، وحاولوا أن يتكيفوا مع هذا الوضع إما عن طريق خلق إمبراطورية صغيرة (كما هو الحال مع داود وسليمان) تملأ الفراغ المؤقت الذي خلقه انكماش الإمبراطوريات العظمى في مرحلة مؤقتة ، أو عن طريق التحالف مع بعض الديولت الصغيرة (مثل الديولت الآرامية في الشام) لمنع تدخل القوى العظمى ، أو عن طريق الاعتماد على إحدى القوى العظمى كما هو الحال مع المملكتين العبرانيتين الجنوبية والشمالية .

وقد ظهرت مملكة داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) في مرحلة ضَعُفت فيها مصر بسبب النزاعات الخارجية ، وكان الحثيون مشغولين بصد شعوب البحر ، ولم تكن بابل قد صارت بعد قوة عظمى ، وكانت آشور على عتبات عظمتها الإمبراطورية ، فاستفاد داود من هذا الفراغ المؤقت . واستمر هذا الوضع حتى نهاية حكم سليمان . ومن القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن السادس قبل الميلاد ، لعبت آشور ثم بابل دوراً حاسماً في الشمال ، ولعبت مصر دوراً مماثلاً في الجنوب . كما لعب الآراميون ، كقوة عظمى محلية صغيرة ، دوراً كبيراً في تحديد السياسات والتحالفات . وقد تمخّدت

المسألة الإسرائيلية ، أي مشكلة المستوطنين الصهاينة الذين أرسلهم الاستعمار الغربي ليحل المسألة اليهودية التي تفاقمته عنده ، وليلجولهم إلى جماعة قتالية تدافع عن مصالحه . ومن ثم ، يمكننا أن نقول إنه قد لا توجد علاقة سببية بين المسألة العبرانية والمسائلين اليهودية والإسرائيلية رغم أن هناك علاقة ترابط ، إذ أن المسألة العبرانية هي التي خلقت قابلية لدى اليهود لأن يتحولوا إلى جماعات وظيفية تجارية ثم إلى جماعة وظيفية استيطانية قتالية كما حدث في فلسطين في نهاية الأمر .

### المسألة العبرانية

#### The Hebrew Question

انظر : العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم والمسألة العبرانية .

### مصر

#### Egypt

«مصر» تقابلها في اللغة العبرية كلمة «مصرام» وهو اسم سامي لا يظهر إلا في اللغات السامية : «مصور» بالآشورية و«ميصير» بالبابلية و«مصر» بالعربية . وصيغة المثني في العبرية قد تكون إشارة إلى الوجهين القبلي والبحري ، أو مصر العليا ومصر السفلى . أما كلمة «إيجبت» في اللغات الأوربية ، فهي مشتقة على الأرجح من اسم «منفيس» في اللغة المصرية القديمة وهي «حي - كو - بتاح» ومعناها «بيت روح بتاح» . وصار هذا في اليونانية «إيجيبتوس» .

والواقع أن تاريخي فلسطين ومصر مرتبطان منذ بداية التاريخ الإنساني ، إذ كثيراً ما قامت مصر بضم فلسطين أو فرض سيطرتها عليها ، كما كان فراعنة مصر يلعبون دوراً كبيراً في تحديد سياسة الدولتين العبرانيتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) من خلال الأحزاب الممثلة لهم فيها . أثناء حكم الأسرتين الأولى والثانية ، كانت توجد علاقات تجارية مع رتنو (Retjnu أو Rinu) التي تعني «البلاد الأجنبية» ، وهي الطريقة التي كان يشير بها الفراعنة إلى منطقة فلسطين وبلاد الشام في المملكتين القديمة والوسيلة . بل قام بعض العلماء بتحليل الأشكال التي وردت على درع ميناء (نارمر) احتفالاً بتوحيد القطرين عام ٣١٠٠ ق.م ، وتوصلوا إلى أن التغلغل المصري قد وصل إلى شرق الأردن عبر صحراء النقب . كما وجد فخار فلسطيني متأثر بالأسلوب المصري بكميات كبيرة في هذه الفترة . وقد أرسلت مصر في عهد المملكة القديمة في الفترة ٢٧٠٠ -

وقد استمر التحالف قائماً بين الرومان والحشمونيين ، وخصوصاً أن مجلس الشيوخ الروماني كان مهتماً بالحد من طموحات السلوقيين التوسعية . وقد قوى الحشمونيون علاقتهم مع الفرثيين (حكام الفرس) ، ومع البطلمة في مصر ، حتى أصبحت يهودا قوة عسكرية لا بأس بها في القرن الأول قبل الميلاد . ولكن القوة الرومانية الصاعدة كانت اتخذت في الاقتراب ، كما أن الخلافات الداخلية كانت تعتمل داخل الدولة الحشمونية . ولذا ، فقد سقطت الدولة بسهولة في يد الرومان (٦٥ ق.م) وتحولت إلى الدولة الهيرودية التابعة .

وقد تعاضمت قوة الحزب الشعبي بين اليهود أثناء حكم الأسرة الهيرودية ، وكان أعضاء هذا الحزب لا يعرفون موازين القوى العظمى . ولذا ، فقد تمردوا ضد الهيمنة الرومانية ، فكانت النتيجة سلسلة الهزائم والانكسارات في ماسادا وغيرها ، وهي الهزائم التي انتهت بهدم الهيكل ثم القدس نفسها وبتحريم اليهودية في فلسطين . ولم يكن لمشكلة العبرانيين في التاريخ القديم حل ، فكان لا بد أن تنتهي بهذه الطريقة ، أي بخروجهم من فلسطين . ففلسطين عمر بري يرتبط آسيا بأفريقيا ومصر ببلاد الرافدين ، الأمر الذي جعلها عبر التاريخ ميدان قتال دائم . وكان لا بد أن تصبح فلسطين جزءاً من تشكيل حضاري كبير يعطيها هوية محددة حتى يصبح العنصر السكاني فيها جزءاً من كل يشعر بالأمن والانتماء ، وحتى تصبح جزءاً من تشكيل أكبر لا مجرد معبر من تشكيل إلى آخر ، وهذا ما حققته في نهاية الأمر الفتح الإسلامي .

والمشروع الصهيوني يرمي إلى تقيض ذلك تماماً إذ يستهدف أن يحتفظ فلسطين بطبيعة المر (المساعدة) ولسكانها بطبيعة العنصر الغريب (الاستيطاني) وهو ما أسميناه «الحدودية» . كما يريد أن تحتفظ الدولة الصهيونية ببقائها واستمرارها ، عن طريق التحالف مع القوة الإمبراطورية العظمى ، نظير أن تضطلع هي بدور الدولة الوظيفية والخفير الذي يسهر على حراسة مصالح القوة الراعية . ورغم انتهاء مشكلة العبرانيين باختفائهم كعنصر بشري مستقل ، فإن وضعهم داخل التشكيلات الحضارية الكبرى أذى إلى انتشارهم في أنحاء العالم فيما يُسمى «الدياسبورا اليهودية» . وقد تحولت معظم هذه الجماعات إلى جماعة وظيفية تجارية ومالية . ولذا ، فإن المسألة أو الإشكالية العبرانية أدت إلى ظهور المسألة اليهودية إذ أن المسألة اليهودية هي مسألة الجماعات اليهودية (في شرق أوروبا على وجه الخصوص) كجماعات وظيفية لم يُد لها دور تلعبه أو وظيفة تضطلع بها . وهذه القضية هي التي أدت بدورها إلى

إلى مصر . وقد أرسل يعقوب أولاده لهذا السبب ، ثم استقرت الأسرة كلها هناك . وقد بدأت الهجرة السلمية لبعض الساميين تحت قيادة أمير بدوي يُقال له أبشاي أو أبشاه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وثمة لوحة مقبرة خنوم - حوتب (أحد أشرف الأسرة الثانية عشرة) في بني حسن تصور الآسيويين يدخلون مصر لكي يحصلوا على الطعام . وهذه هجرات تشبه ، في بعض الوجوه ، هجرات إبراهيم وإسحق ويعقوب . وهي تبين أن قصة يوسف ، فيما يتعلق بهذه الهجرات ، مبنية على خلفية تاريخية عامة ، كما أن كره المصريين للرعاة له هو الآخر أساس تاريخي (تكوين ٤٦ / ٣٤) .

وقد تحوَّلت الهجرة إلى تسلل والتسلل إلى غزو ، حتى استولى خليط آسيوي سامي من الرعاة العموريين والكنعانيين والخوريين على السلطة في مصر خلال فترة الانحلال الثاني بدءاً من الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة السادسة عشرة (١٧٨٦ - ١٥٧٠ ق.م) فيما يُعرف باسم حكم الهكسوس . ورغم أن الهكسوس قد تبنا الحضارة المصرية ، فإن المصريين لم يتقبلوا الهكسوس قط ، وقامت حركة تحرير بقيادة ملوك طيبة كلَّت النجاح .

وقبل التعرُّض لموضوع دخول العبرانيين مصر وخروجهم منها ، يجب التنبيه إلى أن لغتنا ستكون غير يقينية لأن الوثائق التاريخية المتاحة ليست قاطعة ، وتترك مجالاً واسعاً للاختلاف . ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن حكم الهكسوس متزامن مع فترة الآباء ، وأن هذه الفترة هي التي دخل إياها العبرانيون مصر . فوجود الهكسوس ، على ما يبدو ، هو الذي سهل عملية دخول العبرانيين ، وثمة رأي يذهب إلى أنه يوجد قرابة عرقية بين الهكسوس والقبائل العبرانية .

وقد ازدهر العبرانيون بعض الوقت ، وقد بلغ يوسف مكانته المرموقة في زمن ملوك الهكسوس ، ولكن مع ظهور المملكة الحديثة (١٥٧٠ - ١٠٨٥ ق.م) ، بدأ وضع جديد في مصر بالنسبة إلى العبرانيين ، إذ ظهر الملك الذي لا يعرف يوسف (خروج ٨/١) حسب الرواية التوراتية . وطرد المصريون الهكسوس إذ قام أحسن الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م) أمير طيبة ، وأول ملوك الأسرة الثامنة عشرة فيما بعد ، بمطاردتهم حتى جنوب فلسطين . ويبدو أن المصريين ، بعد غزوة الهكسوس ، لم يعودوا يثقون في الحواجز الطبيعية والصحراوية كمانع ضد الغزوات الأجنبية ، فبدأت من هنا التطلعات الإمبراطورية لتأمين الحدود ، وسيط ملوك الأسرة الثامنة عشرة هيمنتهم إلى الشرق والشمال حتى اصطدموا بالإمبراطورية الحورية (المتيتانية) ، وكانت فلسطين أرض المعركة بينهم . وقد وصل

٢٢٠٠ ق.م (من الأسرة الثالثة إلى الخامسة) حملات استكشافية إلى سيناء لاستثمارها وضمها . وهناك ، في نهاية المملكة القديمة ، في فترة حكم بيبسي الأول ٢٣٤٣ - ٢٢٩٤ ق.م (من الأسرة السادسة) نقش عن حملة برية وعسكرية ناجحة ضد أرض « أف الظبي » التي يرى بعض العلماء أنها سهل جبل الكرمل في فلسطين . وقد انحسر النفوذ المصري في الفترة من نهاية الأسرة السادسة حتى الأسرة العاشرة . وبعد انهيار المملكة القديمة في عام ٢٢٠٠ ق.م وحتى ٢١٣٠ ق.م ، دخلت مصر فترة من الفوضى دامت قرنين (فترة الانحلال الأول) حكمت أثناءها الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، واختفت خلالها أيضاً السلطة المركزية واحتل النظام الاجتماعي وتغلقت العناصر الآسيوية في شرق الدلتا .

وقدم توحيد مصر العليا ومصر السفلى مرة أخرى إبان حكم الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٠ - ٢٠٠٠ ق.م) ، وهو ما مهد لقيام المملكة الوسطية (٢٠٤٠ - ١٧٨٦ ق.م) . ومع اعتلاء أمنمحات الأول العرش (الأسرة الثانية عشرة) ، بدأت مرحلة الازدهار في المملكة الوسطية ، وهي متزامنة مع بداية فترة الآباء في فلسطين (٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) . واستمرت العلاقات بين مصر والشام ، ومنها فلسطين ، كما يتضح في قصة سنوحي عن رحلاته في خلال حكم سنوسرت الأول (١٩٧٠ - ١٩٢٦ ق.م) . ويبدو أن مصر أخضعت أجزاء من الشام وفيها فلسطين لهيمنتها أثناء حكم أمنمحات الثاني (١٩٢٦ - ١٨٩٧ ق.م) وسنوسرت الثالث «سيزوستريس» (١٨٧٨ - ١٨٤٩ ق.م) ، إذ وُجدت آثار لحكام وكهنة مصريين في مجدو وأوجاريت . ويؤكد هذه النظرية أن حكام بعلبك كانوا يحملون ألقاباً مصرية يمنحها فرعون مصر ، الأمر الذي يعني شكلاً من أشكال السيادة المصرية . ويظهر شقيق أمير رتنو (فلسطين) ، في اللوحات المصرية لهذه الفترة ، وهو يساعد المصريين في إدارة واستغلال مناجم الفيروز في سيناء . كما أن هناك إشارات مباشرة إلى حملة قام بها الفرعون ضد سيكمان (شكيم) .

وكان كثير من قبائل البدو السامية تستأذن فرعون مصر في الالتجاء إلى مصر ، حيث كان فيها مجتمع زراعي مستقر يعتمد على الري وعلى فيضان النيل فراراً من جفاف أو مجاعة ، ثم تخرج بعد ذلك . ولم يكن العبرانيون استثناءً من ذلك بأي شكل من الأشكال . ففلسطين مجتمع زراعي كان يعتمد على المطر . وثمة وثائق مصرية تتحدث عن بدو من أدوم وجنوب فلسطين تركوا منازلهم في زمن القحط ليقبوا على حياتهم وحياة قطعانهم . ومثل هذه المجتمعات هي التي اضطرت إبراهيم وإسحق إلى التوجه جنوباً

الثاني حرباً مع الحيثيين في معركة قادش الشهيرة عام ١٢٨٨ ق.م. والتي لم يحرز أي من الطرفين فيها نصراً حاسماً ، فتم تقسيم الشام إلى قسمين بحيث يتولى القسم الشمالي للحيثيين والجنوبي (وفيه فلسطين) للمصريين . وتظهر في هذه المرحلة إشارة إلى فلسطين باسم «كتعان» ، ويظن كثيرون أن رمسيس الثاني هو الفرعون الذي سخر العبرانيين لبنينوا له المدينة المسماة باسم «رعمسيس» (خروج ١١/١) ، وقد ورد في السجلات التي تركها أنه استخدم عبيداً من العبيرو في مشاريع البناء التي قام بها . لكن ثمة نظرية أخرى تدّعي إلى أن رمسيس الثاني هو في الواقع فرعون الخروج .

وقام الفرعون مفتاح أو مرنبتاح (١٢٣٦ - ١٢٢٣ ق.م) ، خليفة رمسيس الثاني ، بإخماد ثورة في كتعان في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد . واحتفالاً بهذه المناسبة ، تظهر أول إشارة في التاريخ إلى كلمة «يسرائيل» : «يسرائيل شعب صغير . لقد دمرته وانمحت ذريته فلا وجود له» . ويقال إن كلمة «يسرائيل» هنا تشير إلى إحدى المدن أو القبائل الكنعانية وليست لها أية علاقة بالعبرانيين .

وشهد عهد مرنبتاح أول موجة من موجات شعوب البحر (الفلسطينيين) ، وقد نجح في صدحهم . كما نجح رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧ ق.م) في وقف هجماتهم تماماً ، وكان آخر فراعنة هذه الأسرة الذين حكموا فلسطين .

أما فترة عصر الأسرات المتأخرة (١٠٨٥ - ٣٣٢ ق.م) ، بعد نهاية المملكة الحديثة ، فتشتمل حكم الأسر : من الحادية والعشرين (١٠٨٥ - ٩٤٥ ق.م) وحتى الأسرة الثلاثين (٣٨٠ - ٣٤٣ ق.م) والتي تُسمى في التاريخ المصري القديم بالحكم الأجنبي ، أي حكم الليبيين والنوبيين والآشوريين والفرس وغيرهم . وقد شهدت هذه الفترة انحسار النفوذ المصري ، وهي نفسها الفترة التي تم فيها اتحاد القبائل العبرانية فيما يُسمى بالمملكة العبرانية المتحدة ثم انقسامها وأخيراً سقوطها على يد الآشوريين والبابليين . وتتراوح العلاقات بين مصر وفلسطين في تلك الآونة بين الشد والجذب ، فقد قدم أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين ابنته زوجةً لسليمان . وتزوج ملك مصر الليبي (شيشق الأول) ، من الأسرة الثانية والعشرين الليبية (٩٤٥ - ٧٤٥ ق.م) ، ابنة سليمان ، الأمر الذي أدى إلى إقامة علاقات وطيدة بين مصر والمملكة العبرانية المتحدة . ولكن شيشق قام ، مع هذا ، بحماية يريعام الأول المتمرد الهارب من حكم سليمان . ولكنه ، بعد موت سليمان ، هاجم المملكة الجنوبية ونهب الهيكل أثناء حكم رحبعام ابن سليمان (هناك نقش على الجزء

تحتمس الأول (١٥٢٦ - ١٥١٢ ق.م) حتى نهر الفرات . ولكن واضع أساس الإمبراطورية الحقيقي هو تحتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م) أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذي حطّم تحالفاً من الأمراء الكنعانيين والسوريين تحت قيادة ملك قادش في مجدو عام ١٤٧٩ ق.م . وقد التقى تحتمس بالحيثيين ، ولكنه إما هزمهم ، أو عقد معهم معاهدة دفعوا له بمقتضاها الجزية ، وقد خضعت له سوريا فترة قصيرة . وقد استمر تحتمس الثالث ، مدة عشرين عاماً تقريباً ، في إرسال جيشه إلى غرب آسيا لتعزيز انتصاراته ، واستمر خلفاؤه في ذلك .

وقد واصل ابنه أمنحوتب الثاني (١٤٥٠ - ١٤٢٥ ق.م) ، عمليات غزو فلسطين وسوريا . وهناك نصب تذكاري في منفيس يذكر أن هذا الفرعون «أسر ثلاثة آلاف وستمائة عبيرو» أثناء غزوة قام بها إلى فلسطين . ولذا ، فقد قرنه بعض المؤرخين (من بينهم مانيوتو) بفرعون الخروج مع أن كلمة «عبيرو» أكثر اتساعاً وأكثر شمولاً من كلمة «عبراني» . ثم عقد أمنحوتب الثالث (١٤١٧ - ١٣٧٩ ق.م) معاهدة مع مملكة ميتاني الحورية ، وتزوج من أميرة ميتاني . وكانت المناطق الآسيوية يحكمها أمراء تابعون لمصر ، تربوا في البلاط المصري وكانوا يحكمون لصالح فرعون مصر وباسمه .

وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، بدأت عوامل الضعف تظهر في مصر ، وقامت الثورة التوحيدية على يد إخناتون (أمنحوتب الرابع) (١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق.م) ، ويبدو أنها كانت ذات أبعاد اجتماعية أيضاً فالإمبراطورية بنيت على يد الجنود والموظفين ولكن أرسنقراطية النبلاء والكهنة ظلت مغلقة دونهم ، الأمر الذي تطلّب تغييراً يسمح بالحراك الاجتماعي . وتحوي الألواح تل العمارنة المكتوبة بالأكادية تقريراً رُفِع لفرعون مصر عن أمراء بابل وأشور والحيثيين وسوريا وفلسطين الذين تم إخضاعهم كما تحوي طلباً بالعودة للتصدي للخابيرو ، تلك القبائل البدوية التي بدأت تُغير على حدود فلسطين . وكانت سياسة مصر في تلك الآونة هي أن تُبقي طرق التجارة لبلاد الرافدين مفتوحة وأن تُبقي حكام الشام تحت هيمنتها . وبعد موت توت عنخ آمون (١٣٦١ - ١٣٥٥ ق.م) ، خليفة إخناتون ، هزم الحيثيون المصريين واندلع ما يشبه الحرب الأهلية في مصر ، فاستقلت فلسطين لبعض الوقت وربما نجح الخابيرو في الاستقرار فيها . ولكن الرعامسة من ملوك الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ - ١٢٠٠ ق.م) أعادوا السيطرة المصرية ، عن طريق الاحتلال المباشر هذه المرة ، فكانت توجد حاميات مصرية في غزة ويافا ومجدو وبيت شان وفي مدن أخرى . ودخل رمسيس

كان الفرص يعدون العبرانيين عنصرًا مالياً لهم . وقد تأثر التراث الديني اليهودي القديم بالتراث الديني المصري في عدة نواح مثل عادة الختان ، وفي فكرة التوحيد نفسها .

وحينما وقعت مصر تحت الهيمنة اليونانية عام ٣٣٣ ق.م ، هاجرت أعداد كبيرة من اليهود إلى مصر ، وكانت الإسكندرية أكبر مركز لهم حيث بلغ عددهم فيها مليوناً . وفي تلك الفترة ، ظهرت الترجمة السبعينية في مصر البطلمية . وقد لجأ الكاهن الأعظم أونياس الثالث إلى مصر وأسس ابنه أونياس الرابع هيكلًا في أون (هليوبوليس) بتشجيع من البطالمة الذين كانوا يحاولون دائماً ، شأنهم في هذا شأن فراعة مصر ، ضم فلسطين أو ضمها ولاها لهم . وقد قامت صراعات عميقة بين الجماهير الهلينية والجماهير اليهودية وهو ما تسبب في تدخل الرومان . وقامت تمردات يهودية في مصر بعد هدم الهيكل في عام ٧١ م ، كما قام تمرد آخر فيما بعد (١١٥ - ١١٧ م) . وقد لعب الطابع الهليني الذي اصطبغ به يهود الإسكندرية دوراً كبيراً في تهيشتهم لتقبل المسيحية ، فانخرطت أعداد كبيرة منهم في الدين الجديد ، حتى أصبحت الجماعة اليهودية صغيرة العدد ضئيلة الشأن عند الفتح العربي . وقد اصطبغت هذه الجماعة بطابع عربي وأصبحت لغة اليهود وثقافتهم عربية . ومن كبار المفكرين الدينيين في مصر من أعضاء الجماعات اليهودية سعيد بن يوسف الفيومي . وقد انخرط عدد من يهود مصر في فرقة القرآنيين ، ثم أخذت أحوال الجماعة اليهودية تتغير حتى القرن العشرين بحسب تغير الظروف .

### الهكسوس

Hyksos

«الهكسوس» جماعة من الآسيويين يُرجَّح أنها كانت سامية الأصل (خليط من العموريين والكنعانيين وبينهما عناصر من الحوريين أيضاً) . كان المصريون يطلقون عليهم لفظة «عامو» أي «الآسيويين» . كما كانوا يُعرفون باسم «حكاو خوو Hekau Khowe» أي «حكام الأراضي الأجنبية» . أما كلمة «هكسوس» فهي كلمة مصرية فسرها الكاتب اليوناني مانتو بأنها تعني «الملوك الرعاة» .

حكم الهكسوس مصر بعد سقوط المملكة الوسطى (١٦٧٥ - ١٥٧٠ ق.م) إذ استفادوا من ضعف الحكومة المركزية ومن استخدامهم العربات الخربية التي لم تكن معروفة في مصر آنذاك ، وكذلك استفادوا من استخدام السهم الآسيوي القوي الذي يُعدُّ أكثر تركيبياً من السهم الذي كان يستخدمه المصريون . ولم يتم غزوهم لمصر

الخارجي من الحافظ الجنوبي لهيكل آمون في الكرنك بصور هذه الحملة التي قام بها شيشنق ويذكر المدن التي غزاها) ، ثم هاجم المملكة الشمالية ذاتها . وقد استمر تدخل مصر في شئون الدولتين العبرانيتين ، إذ أرسل فراعة مصر ألف جندي مصري لإيقاف شلمانصر الثالث حينما هاجم التحالف الآرامي العبراني في معركة قرقر ٨٥٣ ق.م ، التي انتصر فيها الآشوريون وإن لم تكن نتيجتها حاسمة تماماً .

وفي نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ، حل الفراعة النوبيون (الكوشيون) محل الفراعة الليبيين ، كما ظهرت القوة الآشورية في شخص تيجلات بلاسر الثالث . وأثناء ثورة المملكة الشمالية الأخيرة ضد آشور (٧٢٤ - ٧٢١ ق.م) ، كتب ملكها هوشع إلى فرعون مصر طالباً النجدة ، ولكنه لم يفده في ذلك كثيراً إذ تم صد الحملة المصرية وسقطت المملكة الشمالية . ومع هذا ، يبدو أن مصر ظلت قوة يُعَدُّ بها ، فلقد طلب حزقيا ، ملك المملكة الجنوبية ، هو الآخر ، العون من مصر .

وقد قام الآشوريون بضم مصر لفترة وجيزة (٦٧١ - ٦٦٣ ق.م) ، وطردوا النوبيين ، ووضعوا مكانهم ملوكاً مصريين تابعين . وقد نجح بسماتيك الأول (٦٦٤ - ٦١٠ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م) في الاستقلال بمصر ، وفي تكوين جيش من المرتزقة اليونانيين والعبرانيين والفينيقيين . وكان ملوك الدولة الجنوبية يبادلون الجنود العبرانيين بالأحصنة المصرية . كما أن فراعة مصر بدأوا في تبني سياسة تشجيع الأجانب (ومن بينهم العبرانيون) على القدوم إلى مصر للاشتغال بالتجارة والقتال .

وبعد سقوط نينوي (عاصمة الآشوريين) عام ٦١٢ ق.م على يد البابليين ، حاول نخاو الثاني ابن بسماتيك الأول أن يساعد الآشوريين ضد التقدم البابلي في عام ٦٠٨ ق.م ، فتصدى له يوشيا ، ملك المملكة الجنوبية ، ولكنه سقط هو نفسه في المعركة . وقام نخاو بضم فلسطين إلى مصر ، كما خلع يهوآحاز خليفة يوشيا وأقام بدلاً منه يهوياقيم على عرش المملكة الجنوبية وفرض عليه الجزية . ولكن نبوختنصر هزمه عام ٦٠٥ ق.م في معركة قرقاش ، ثم سقطت في يده القدس . وحينما قامت حركة تمرد عبراني بتحرير مصر من مصر وأدت إلى مقتل جداليا ، الحاكم الذي عينه البابليون ، فر التمردون إلى مصر ومعهم النبي إرميا . وتم تأسيس مستعمرة إفتائين في عهد بسماتيك الثاني (٥٩٤ - ٥٨٨ ق.م) لحماية حدود مصر الجنوبية . وحين وقعت مصر تحت الهيمنة الفارسية عام ٥٢٥ ق.م ، أظهر أعضاء الحامية ولاههم للغزاة ، إذ



شيشنق (شاشانق - شيشانق) (٩٥٠ - ٩٢٩ ق. م.)

Shishak (Sheshonk)

مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (الليبية) في عام ٩٥٠ ق. م. كان حاكماً قوياً أقديراً جدد حيوية مصر ونفوذها في غرب آسيا (فلسطين ولبنان)، وقد ورد ذكره في التوراة (ملوك أول ١٤/ ٢٥ - ٢٨). كان يهدف إلى إعادة النفوذ المصري على فلسطين، واحتفظ بعلاقات طيبة مع سليمان. ولكن هذه الصلة لم تمنعه من منح الحماية ليربعام، (من قبيلة إفرام) الذي ثار على سليمان لأنه كان يرى نفسه أحق بالملكة منه. وبعد موت سليمان، نجح يربعام، بسبب تأييد مصر له، في أن يتولى قيادة عشر قبائل عبرانية ويستقل بها فيما يُسمى «المملكة الشمالية». وبعد خمسة أعوام من موت سليمان، هاجم شيشنق ملك المملكة الجنوبية رجبعام بن سليمان ونهب كنوز الهيكل. ويبدو أنه هاجم المملكة الشمالية أيضاً. وتبين نقوش معبد الكرنك أن شيشنق هاجم كل فلسطين وتذكر مائة وستاً وخمسين مدينة أخضعها في فلسطين.

الفنتاين (جزيرة الفيلة)

Elephantine

«الفنتاين» كلمة يونانية، وهي ترجمة لاسم جزيرة باللغة المصرية القديمة تعني «جزيرة الفيلة»، وهي بالأرامية «يب»، أي «جزيرة العاج». ويُطلق اسم «الفنتاين» على جزيرة في وسط النيل (بعد الشلال الأول) في أسوان، وكانت الجزيرة مركزاً لعبادة الإله شنوب، ثم استخدمت كحصن على النيل لحماية مداخيل مصر الجنوبية. وزادت أهميتها بعد أن تخلصت مصر من ضغط الآشوريين على يد بسماتيك الأول (٦٦٤ - ٦٠٩ ق. م.). وقد كانت هناك حامية مكونة أساساً من الجنود الآراميين المرتزقة وتضم في صفوفها بعض العبرانيين ممن كانوا يعملون في الجيش المصري، أو لعلمهم من العبرانيين الذين كانوا يتحدثون الآرامية. ولا يُعرف أصل هذه الحامية على وجه الدقة. لكن من المعروف أن العبرانيين كانوا يحضرون إلى مصر كمرتزقة، في الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٥٠ ق. م.). وقد كان ملوك المملكة الجنوبية يبادلون رعاياهم بالأحصنة العسكرية المصرية (تثنية ١٦/ ١٧). كما أن بعض سكان هذه المملكة، التي كان يساندنها المصريون، فرّوا إلى مصر. ولذا، فيمكن القول بأن تاريخ الحامية يعود إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد.

وقد استخدم بسماتيك الثاني (٥٩٤ - ٥٨٨ ق. م.)، في حملته

دفعة واحدة (كما كان يُظن حتى عهد قريب) وإتمام على شكل موجات أخذت شكلاً سلمياً في بادئ الأمر حيث كان الرعاة البدو يدخلون مصر للسقيا والتجارة، ثم أخذت العملية شكل تسَلُّل وأخيراً شكل الغزو، وهي عملية استغرقت في مجموعها عدة قرون.

استقر الهكسوس في مصر، وبنوا عاصمتهم جت وعرت وهي أواريس (أفارس) التي سماها اليونانيون تانيس (صا الحجر فيما بعد، أو تل اليهودية) بالقرب من الزقازيق شرقي الدلتا. ثم استولى الهكسوس على معظم مقاطعات الدلتا، ودخلوا العاصمة ممفيس (منف) عام ١٦٧٤ ق. م. وقد اتحدت مصر وسوريا وفلسطين تحت حكمهم، وتوطدت بينهما العلاقات الحضارية والتجارية، واستمرت تلك العلاقات بينهما بعد خروج الهكسوس وقيام المملكة الحديثة.

أدخل الهكسوس إلى مصر عناصر مادية جديدة مثل إشاعة استخدام الخيول، والبرونز، وطريقة جديدة في التسليح، وبعض الآلات الموسيقية، وبعض الاختراعات والخبرات الحربية التي ساهمت فيما بعد في إنجاز فتوحات المملكة الحديثة. وقد تعاقب على عرش مصر عدد من ملوك الهكسوس، وإن ظل أمراء طيبة يتمتعون بشيء من الحكم الذاتي. وقد تمكّن أحسن (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق. م.)، مؤسس الأسرة الثامنة، من طردهم. وفيما بعد، أخضع الفراعنة فلسطين وسوريا.

ويبدو أن وجود الهكسوس في مصر هو الذي سهل عملية دخول العبرانيين إليها، وربما كانت ثمة صلة عرقية وإثنية بينهم وبين الهكسوس. ومن الجدير بالملاحظة أن أحد رؤساء الهكسوس كان يُسمى «يعقوب إيل» أو «يعقوب بعل». والعنصر «يعقوب» الذي يعني «يحمي» هو نفسه أحد الآباء العبرانيين، كما أن أحد ملوك الهكسوس كان يُسمى «شيشا» وهو يشبه اسم «شيشاي» أحد ملوك قرية أريخ (الخليل أو حبرون). وكان استيطان العبرانيين في الدلتا في جاسان (جوش) وهي نفسها المنطقة التي كانت فيها أواريس عاصمة الهكسوس. وقد ذكر يوسيفوس نقلاً عن المؤرخ المصري الهيليني مانيثو أن عدداً كبيراً من الهكسوس ذهبوا من أواريس إلى كنعان وبنوا القدس، وربط مانيثو بين استيطان الهكسوس مصر ودخول يوسف إليها، وذكر أن طردهم أو هجرتهم منها هو خروج العبرانيين.

اهتمامهم بالجماعة الوظيفية القتالية الاستيطانية وبهويتها العبرانية التي تضمن انزاعها عن البيئة المحيطة بها . ولعل حماية إلفنتاين هي إحدى بدايات الدياسورا أو الشتات أو الانتشار العبراني (اليهودي) التي أعقبت التهجير الآشوري (٧٢٤ ق.م) . وسبقت التهجير البابلي (٥٨٦ ق.م) . وقد كانت إلفنتاين تقع على حدود مصر الجنوبية ، وكانت ميناء للمحاجر الفرعونية ، ومن ثم يكون توطين العبرانيين فيها كجماعة وظيفية (قتالية) هو التعبير عن تلك الظاهرة التي نسميها «الحدودية» ، والتي هي تعبير عن اصطلاح اليهود بدور الجماعة الوظيفية .

### الحيثيون

Hittites

«الحيثيون» شعب هندي أوروبي قديم برز في آسيا الصغرى مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، وتعدُّ هجرتهم أقدم الهجرات الهندية الأوروبية المعروفة . والحيثيون إحدى القوي التي هيمنت على الشرق الأدنى القديم . وأغلب الظن أنهم نشأوا في المنطقة الواقعة وراء البحر الأسود ، واتخذوا من حاتوشاش (بوغاز كوي) على بعد مائة وثمانين كيلو متراً من أنقرة) عاصمة لإمبراطوريتهم في مقاطعة حاتي التي جاءت منها تسميتهم «الحيثيين» ولكن لفظ «حيثيين» بالثاء هي التي شاعت ، ولذا فنحن نستخدمها في هذه الموسوعة .

يُقسَّم تاريخ الحيثيين إلى ثلاث مراحل ، أولها المملكة القديمة حين خرجوا بقيادة حاتوسيليس الأول عام ١٦٥٠ ق.م من الأناضول واستولوا على شمال سوريا وحلب ، وقام خليفته مورشيليس الأول بإكمال المهمة وتغلَّبوا على أسرة حمورابي العمورية في بابل وأسقطوها عام ١٦٠٠ ق.م . وفي سنة ١٤٧٩ ق.م ، هزم تحتمس الثالث (فرعون مصر) الحيثيين في مجدو (وهذه مسألة خلافية إذ يرى البعض أنه تحالف معهم) ثم توغل حتى حلب وعبر الفرات . وكانت جبال طوروس الحد الجنوبي للبلاد الحيثية . وقد تدهورت الإمبراطورية الحيثية بسبب المنازعات الداخلية وتزايد قوة الحوريين . لكن الحيثيين استعادوا شيئاً من طاقاتهم ، فأسسوا المملكة الجديدة أو الإمبراطورية الحيثية الثانية نحو (١٤٥٠ - ١٤٠٠ ق.م) ، وأصبحت إمبراطوريتهم مركز القوة والثقافة في غرب آسيا . ويسط الحيثيون نفوذهم على معظم آسيا الصغرى ودول شمال سوريا ووسطها ولبنان . وأصبحت المنطقة حلبة صراع (على سوريا) بين الحيثيين والمصريين ، ووقعت معركة قادش الشهيرة عام ١٢٨٨

ضد التوئين ، المرتزة الآسيويين الذين ربما يكونون قد رابطوا بعد ذلك في جزيرة إلفنتاين . ولذا ، فعين هاجم الفرس مصر واستولوا عليها عام ٥٢٥ ق.م ، تعاون جنود إلفنتاين من المرتزة مع الفرس الذين كانوا يعتبرون الأراميين العبرانيين صنائع لهم . وقد ظل العبرانيون على ولائهم للفرس أثناء التمرد المصري ضد الحكم الفارسي (خلال حكم أرخمشتا الأول) .

وكانت الحماية مُقسَّمة إلى فرق يرأس كلٌّ منها ضابط فارسي . أما الجنود ، فكانوا عبرانيين ، ويشار إليهم أحياناً بأنهم «أراميون» . وقد كان يعيش مع أعضاء الحماية عبرانيون مدنيون يقومون بأداء الخدمات ، كما كان يُوجد مصريون . وكانت العلاقات بين الحماية والمصريين غير ودية . وقد ثار المصريون على أعضاء الحماية ودمروا مقابرهم في خلال حكم دارا الثاني ، مع أن هناك حالات تزواج بين العبرانيين والمصريين . وقد شيَّد العبرانيون معبداً ضخماً خاصاً بهم ، حطمه كهنة جنوب في ٤١١ - ٤١٠ ق.م مع تحرُّر مصر من حكم الفرس عام ٤٠٥ ق.م ، ويبدو أن أفراد الحماية تم القضاء عليهم واخفى ذكهم .

وجدير بالذكر أنه قد وُجدت وثائق من البردي وغير ذلك من وثائق مكتوبة بالأرامية في جزيرة الغيلة ، وخصوصاً بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وتحوي إشارات إلى أشخاص وصُغوا بأنهم عبرانيون أحياناً وأراميون أحياناً أخرى . ولم تشمل هذه الوثائق على أي ذكر لأسفار التوراة أو العهد القديم ، أو حتى على اقتباسات قانونية أو شرعية منها . ويبدو أن عقيدة هؤلاء العبرانيين كانت جزءاً من عبادة يسرائيل بكل ما يشوبها من عناصر وثنية . فقد جاء في الوثائق البردية التي عُثِر عليها في الجزيرة أن العبرانيين كانوا يعبدون يهوه ، كما أنهم كانوا يعبدون إلى جانبه إيشوم وبيت إيل (وهو إله وثني من السامرة) ، وعنات ياهو (وهي ربة حرب قديمة) ، وعنات بيت إيل ، وحريم بيت إيل . ولذا ، فقد كان المعبد اليهودي في إلفنتاين ذا خمسة مذابح ، كل مدخل تحت رعاية أحد الآلهة . وربما يعود هذا إلى أن هجرة العبرانيين قد تمت قبل الإصلاح التثوي . ولم تكن علاقة المرتزة بالقدس قوية ، ولذا ، فقد ظلت عبادتهم على ما هي عليه ، بل تعمَّق الجانب الوثني فيها ، ولعل هذا يُفسِّر عدم وجود أية آثار لأسفار موسى الخمسة . وقد كان أعضاء الحماية يحتفلون بعيد الفصح ولا يحتفلون بأي عيد آخر ، بل هناك خطاب من دارا الثاني مؤرخ في عام ٤١٩ ق.م يحتوي على تفاصيل الاحتفال بعيد الفصح لأن أعضاء الحماية كانوا قد نسوا كيفية إقامته . والواقع أن اهتمام الفرس بإقامة الشعائر الدينية اليهودية جزء من

ولقد ورد ذكر الحيثيين في التوراة التي قرنتهم بالكنعانيين ، فهم أحد الأقوام الكنعانية السبعة الذين كان على العبرانيين هزيمتهم ليحتلوا أرض كنعان (فلسطين) ، فكنعان هو أبوحت (تكوين ١٥/١٠) . وتشير التوراة إلى أن الحيثيين كانوا موجودين في حبرون (الخليل) في فلسطين في زمن إبراهيم الذي اشترى حقله ومغاره من «بني حث» (تكوين ٢٣/٣) . كما ذكرت أن عيسو اتخذ لنفسه زوجتين من الحيثيين ، وأن العبرانيين تزوجوا معهم . وقد كان لدى داود محاربون حِيثيون . وتزوج داود بتشبع امرأة أوريا الحيثي ، كما كان بين نساؤه حِيثيات .

وفي مجال تفسير وجود الحيثيين في فلسطين في فترات تاريخية مبكرة ، يرى بعض المؤرخين أن هؤلاء الحيثيين كانوا بقايا حملة حيثية جُرِدَتْ في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . كما يرى البعض الآخر أنهم ربما كانوا من سكان الأناضول الأصليين (الحاثيين) قبل وصول القبائل الهندية الأوربية ، ثم انتشروا في فلسطين وغيرها من بلاد الشرق الأدنى القديم قبل عام ٢٠٠٠ ق. م . كما يُقال إن مدوني العهد القديم إنما كانوا يستخدمون المصطلح كما هو مُستخدَم في المذونات الآشورية والبابلية التي كانت تشير إلى أرض حثاي باعتبارها الأرض الممتدة من الفرات حتى لبنان ، ثم اتسع مدلول المصطلح ليشير إلى سكان سوريا وفلسطين . وها هو شلمانصر الثالث يشير إلى أخاب «كملك حِيثي» . أما أسرحدون فيطلق مصطلح «حثي» على ملوك يهودا وأدوم ومؤاب وعمون وعلى بعض الحكام الفلسطينيين . واستمر استخدام المصطلح بهذا المعنى بين البابليين . أما الحيثيون المعاصرون لداود وسليمان ، فهم من المرحلة الحيثية المتأخرة ، مرحلة الديوليات المدن .

ق. م حيث عقد رمسيس الثاني بعدها معاهدة معهم لتثبيت الحدود بين ممتلكاتهم وممتلكات المصريين ، وتزوج أميرة حيثية . ويُعتقد أن تخوُّف الطرفين من القوة الآشورية الجديدة كان وراء المصالحة لمواجهة الخطر الجديد .

وبعد أن دامت الإمبراطورية الحيثية نحو قرنين ونصف قرن ، أخذ الوهن يسري في أُنحائها منذ سنة ١٢٠٠ ق. م نتيجة لغزو أحد شعوب البحر ، فاستقلت الإمارات الخاضعة لها الواحدة تلو الأخرى . وبذلك تأتي المرحلة الثالثة من تاريخ الحيثيين ، وهي مرحلة عصر الممالك الحيثية الجديدة . رغم سقوط الإمبراطورية ، قامت ممالك حيثية ، وأصبح مصطلح «حِيثي» يشير إلى تلك الديوليات التي كانت قرقميش أهمها ، والتي ضمت حلب وحماة وحافظت على شيء من الاستقلال عن الآشوريين قبل أن يحولها سرجون الثاني عام ٧١٧ ق. م إلى مقاطعة آشورية .

ويرجع النجاح العسكري للحيثيين إلى استخدام الحصان والمركبة سلاحاً أساسياً ، كما أنهم استخدموا القوس والنفأس والرمح والسيف أسلحة هجوم . وتنتمي اللغة الحيثية إلى فرع اللغات الأناضولية من مجموعة اللغات الهندية الأوربية . ولقد أخذت اللغة الآرامية تحمل محلها تدريجياً خلال الفترة من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن قبل الميلاد حيث اختفت الحيثية . أما ديانتهم فيُعرف عنها القليل ، وقد كانت ضرباً بارزاً من ضروب عبادة الأرواح . وأشهر آلهتهم هو يتشوب إله العاصفة ، وهو الإله الوطني . وكان يُمَثَل عادة على شكل رجل يقف على ظهر ثور ويمسك بالصاعقة . وقد تأثر الحيثيون بالخوريين تأثراً عميقاً من الناحيتين المادية والروحية .



## ٤

## الشعوب السامية : الآشوريون والبابليون

الساميون (الشعوب السامية) - بلاد الرافدين (العراق) - بلاد ما بين النهرين -  
الهلل الخصب - ميزوبوتاميا - الأكاديون - آشور - الآشوريون - تيجلات بلاسر  
الثالث - سرجون الثاني - سناخریب - بابل - البابليون - الكلدانيون - نبوخذنصر

## الساميون (الشعوب السامية)

Semites (Semitic Peoples)

النسبة في كلمة «ساميون» إلى سام الابن الأكبر لنوح .  
والمصطلح يُطلق على مجموعة من الشعوب عاشت في رقعة كبيرة  
من الأرض (تضم شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين)  
وتحدثت بمجموعة من اللغات المتقاربة هي اللغات السامية . وتشمل  
التسمية شعوباً مثل الآشوريين والبابليين والآراميين والكنعانيين  
والفينيقيين والعموريين والموابيين والأدوميين والعمونيين  
والعبرانيين، كما تشمل جزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا فيما بعد . وفي  
الوقت الحاضر ، يمثلهم العرب (من الناحية الأساسية) .

ويتبعي العبرانيون ، أي اليهود القدامى ، إلى الشعوب السامية  
وليس إلى مجموع اليهود بوجه عام ، ذلك أن أعداداً كبيرة من  
الأفراد والقبائل غير السامية مثل الفلزيين قد تهودت .

ويكاد يُجمع الباحثون على أن شبه جزيرة العرب هو الموطن  
الأصلي للساميين ، فمنها خرجت هجرات متتالية إلى بلاد الرافدين  
حتى جبال إيران وإلى أرمينيا ومنطقة الهلال الخصيب . وكانت  
هجراتهم الجماعية على فترات متباعدة أولاً هجرة الأكاديين الذين  
عُرفوا بالبابليين نحو عام ٣٥٠٠ ق.م ، ثم هجرة الآراميين بين عامي  
١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م ، وآخرها هجرة العرب مع الفسوحات  
الإسلامية في القرن السابع الميلادي .

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن المنطقة الشمالية من  
الصحراء السورية هي الوطن الأصلي للساميين . كما يُحتمل أن  
يكون بعض الشعوب السامية ، كالأكاديين ، سكنوا في بلاد  
الرافدين منذ عصور ما قبل التاريخ ، وكذلك سكان ماري وتل  
خويبر ومملكة إيبلا .

وثمة روابط عديدة بين الساميين ، أهمها الرابطة اللغوية .  
ولكن هذه الرابطة ليست الرابطة الوحيدة ، إذ ثمة تشابه في الملامح  
الإثنية . كما كان يوجد تشابه في الأنظمة الاجتماعية والأنساق

الدينية بين الجماعات السامية البدوية البسيطة . فالأسرة هي الوحدة  
الأساسية ، والسلطة العليا سلطة الأب ، والميراث للذكور ، وتعدد  
الزوجات مسموح به . وتتكون القبيلة من مجموعة أسر تُوحَّد بينها  
صلات القرى والمصالح المشتركة ، كما أن حقوق الملكية بدائية جداً  
وتعمل على أن تتسود فكرة الجماعة . ولا تُوجد حكومة بالمعنى  
الصحيح للكلمة ، ولكن هناك زعيم يختاره مجلس من شيوخ  
القبيلة لصفات شخصية فيه إلى جانب أنه مقدمٌ بين أئداده . والسلطة  
المحدودة التي يسيغها عليه المجلس مؤقتة وقد تُنزع منه . وهو يتولى  
القضاء ، على أن يحتكم إليه المتنازعون طواعيةً واختياراً .

واقتصاد القبيلة بدوي يعتمد على الرعي أو على الزراعة  
الطبيعية أو التجارة البدائية . وتتسم الفنون بالبساطة نفسها . أما عن  
المؤسسات الدينية ، فكان الساميون البدو يؤمنون بالهة محلية كثيرة  
تسكن الأشجار والنباتات والصخور والمياه . كما أن نفوذ الإله كان  
مقصوراً على قبيلة ولا يمتد إلى خارج حدودها ، وقد كان هذا الإله  
يقوم منها مقام الزعيم الأعلى والقاضي الأكبر ، وكانت تربطه قرابة  
الدم بأفراد قبيلته . ولم يكن لهذه الآلهة مقام ثابت وإنما كانت تُعبَد  
في أماكن مختلفة . والإله إيل أهم الآلهة السامية ، ولعله كان في  
الأصل إله السماء ، والإله بعل قد يكون في الأصل إله المطر المخصب ،  
وعشتارت (وهي عشتاروت التي ورد ذكرها في العهد القديم) ربما كانت  
في الأصل نجمة الصباح (كوكب الزهرة) ولكنها اعتُبرت فيما بعد  
الأرض الأم . وقد انتشرت أيضاً عبادة الشمس والقمر .

وتتم أشكال الطقوس المستعملة بين الساميين عن الأصول  
البدوية للخطاب الديني للرموز الدينية . فعيد الفصح العبري (الذي  
صار بقيام المسيح من القبر عيد القيامة أهم عيد مسيحي) يميّزه ذبح  
الحمل كقربان وأكل خبز بلا خميرة ، وهما طقسان يرجعان إلى  
ظروف الحياة في البادية حيث فرض التنقل الدائم أكل الخبز بلا  
خميرة ، كما أن الحمل يرمز إلى ما كان يفعله الرعاة من تقديم باكورة  
ما تلد قطعانهم كقربان للآلهة .

الأخر : القسم الشمالي ، ويتكون من وديان عديدة ومرتفعات جبلية ، وقد استوطنه الآشوريون . أما القسم الجنوبي فهو عبارة عن مستنقعات غير صالحة للعيش ، وقد تراكم فيها مع مرور السنين ما يأتي به النهران من تربة ، فصلحت الأرض وتم استيطان سهل الجنوب (سهل سومر) . وأهم سكان وادي الرافدين هم السومريون ثم الأقوام السامية (العربية) المختلفة مثل الأكاديين والعموريين والآشوريين والبابليين . وبعد الفتح الإسلامي ، أصبح العنصر الغالب هو العرب ، وأصبحت المنطقة تُسمى «العراق» ، ولكن اسم «العراق» ذاته يعود إلى الأزمنة القديمة ، فهو من أصل بابلي .

### بلاد ما بين النهرين

Mesopotamia

عبارة «بلاد ما بين النهرين» ترجمة عربية للكلمة الإغريقية «ميزوبوتاميا» . ونستخدم في هذه الموسوعة مصطلح «بلاد الرافدين» للتعبير عن المعنى نفسه .

### الهلال الخصيب

Fertile Crescent

«الهلال الخصيب» هي المنطقة الممتدة شمالي جزيرة العرب على شكل هلال يؤلف العراق (وادي الرافدين) نصف قوسه الشرقي ، وتؤلف فلسطين والأردن وسوريا ولبنان نصف قوسه الغربي . وتمتد قاعدة قوس الهلال على الحدود الشمالية لجزيرة العرب . ويُعتبر الساميون أقدم من استوطن الهلال الخصيب .

ويعني المصطلح أن البلاد العربية الواقعة في نطاق المنطقة التي يدل عليها تكتسب نوعاً من الوحدة والارتباط فيما بينها ، كما يتضمن المصطلح أن هذه البلاد الواقعة في نطاق المنطقة التي يدل عليها تتميز وتفصل جغرافياً وسياسياً عن مصر وعن السعودية وما يتجاورها . ونستخدم في هذه الموسوعة مصطلح «بلاد الرافدين» .

### ميزوبوتاميا

Mesopotamia

«ميزوبوتاميا» كلمة إغريقية تعني «بلاد الرافدين» ، وتعني حرفياً «بلاد ما بين النهرين» . وكانت الكلمة تشير في بداية الأمر إلى دويلة آرام نهرينيم الأرامية الواقعة في منطقة حران ، ثم أطلق هذا الاسم اليوناني على المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات . وأخيراً ،

وغني عن القول أن هذه صورة مثالية مجردة لبعض المؤسسات الاجتماعية والدينية للساميين وهم لا يزالون في الفترة الأولى من مجوالهم . ومع حفاظهم على السمات الأساسية كالتنضحية بالقرابين ، فإن هذه المؤسسات تطورت في المراحل اللاحقة فظهرت مؤسسة الملكية والتفاوت الاجتماعي والأرستقراطية المركبة . وظهرت نظم اقتصادية تجاوزت الأصول البدائية ، فطور الساميون التجارة وكانوا دائماً حلقة الوصل بين الممالك الكبرى القديمة في المنطقة . كما برعوا في الملاحة ، فكانوا أول من ارتاد البحر وطور العديد من الصناعات . وظهرت بينهم آداب وفنون ذات طابع إنساني شامل . بل تطورت العقائد الدينية وشعائرها ، فظهر الكهنة والنبوّة ووصل مفهوم التوحيد إلى مستويات عالية من الرقي وصلت ذروتها في التسق الإسلامي .

ويتمس الساميون ، حتى وهم بعد في أدنى مراحل البداوة ، بمقدرتهم الفائقة على الامتزاج بالعناصر البشرية المحلية في الأماكن التي غزوها واستوطنوها واستوعبوا حضارتها دون أن يتخلوا عن سمات حضارتهم الأولى . وتاريخ العبرانيين يتراوح بين عدد من الثنائيات المتناقضة من القيم : البساطة والتشريب ، والمساواة والتفاوت ، والجماعية والفردية . وقد تجلّى هذا في الحضارة العبرانية في الموقف المتناقض من مؤسسة الملكية العبرانية وفي الصراع بين الأنبياء والكهنة ، وبين التوحيد والحلولية .

ويعُدّ العرب أكثر الجماعات السامية قرباً مما يحكم تسميته «الخطاب الحضاري السامي الأصلي» . كما أن اللغة العربية أقرب اللغات الحية إلى السامية الأصلية . ومع هذا ، ينصرف مصطلح «معاودة السامية» إلى اليهود دون سواهم .

### بلاد الرافدين (العراق)

Mesopotamia (Iraq)

«بلاد الرافدين» (البابوتاميا «ميزوبوتاميا» بمعنى «بلاد ما بين النهرين» ) . وتُسمى أيضاً «وادي الرافدين» . عبارة تُستخدم للإشارة إلى البلاد التي تقع بين الشام في الغرب وبلاد فارس في الشرق ، ويخترقها نهراً دجلة والفرات اللذان ينبعان من تركيا ويصبان معاً في الخليج العربي (وقد كانا منفصلين منذ ستة آلاف عام) . وكان النهران يفيضان فيمران شواطئهما . ومع بداية الألف الخامس قبل الميلاد ، بدأ الإنسان يستوطن السهول الخصبة ، وبدأ في رعي الأغنام ثم الزراعة . ويتمس وادي الرافدين بعدم وجود حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها . وتتقسم بلاد وادي الرافدين إلى قسمين يتميز أحدهما عن

اتسع مدلوله ليشمل العراق بأسره . ونستخدم في هذه الموسوعة مصطلح «بلاد الرافدين» للتعبير عن هذا المعنى نفسه .

### الأكاديون

Akadians

«الأكاديون» قوم ساميون ظهرت دولتهم في الفترة (٢٣٦٠ - ٢١٨٠ ق.م) في منطقة أكاد ببلاد الرافدين ، في المنطقة الشمالية من الوادي بين دجلة والفرات التي كانت تضم بابل ومدناً أخرى مهمة . من أشهر ملوكهم سرجون الأول (٢٢٧٩ - ٢٢٣٤ ق.م) الذي هزم جميع المدن السومرية في الجنوب وبنى مدينة أكاد . واتسعت الدولة في عهده حتى شملت بلاد سومر وبلاد العيلاميين وسوريا . وكذلك فعل خلفاؤه وأشهرهم نارام سن (٢٢٥٤ - ٢٢١٨ ق.م) .

بدأ احتلال أكاد بعد أكثر من قرن ، عندما قامت قبائل الكوتي الجبلية من الشرق بغزوها . ثم سيطر عليها السومريون الجدد وكوّنوا سلالة عُرفت باسم سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) . وقد سقطت الإمبراطورية الأكادية في أيدي العيلاميين خلال الألف الثالثة قبل الميلاد . ولكنهم لم يبقوا في البلاد مدة طويلة بل طردوا على أيدي السلالات العمورية التي منها سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) .

ولغة الأكاديين هي الأكادية ، وهي أقدم اللغات السامية المعروفة في بلاد الرافدين ، وأقرب اللغات إليها هي البابلية القديمة والآشورية القديمة . وهي تشبه أيضاً الآرامية في كثير من الوجوه . وقد ازدهرت الأكادية في الألف الرابع قبل الميلاد ، وأصبحت لغة الدبلوماسية والمراسلات الدولية والتجارة في الشرق الأدنى ، إلى أن حلت الآرامية محلها ابتداءً من القرن السادس قبل الميلاد .

### آشور

Assyria

«آشور» اسم الإله الأكبر عند الآشوريين ، وهو أيضاً اسم أول وأهم عاصمة لهم تقع أطلالها على الجانب الأيمن من نهر دجلة . وتستخدم الكلمة للإشارة إلى الإمبراطورية الآشورية كلها وهي أيضاً الاسم الأول لعدة ملوك آشوريين .

### الآشوريون

Assyrians

النسبة في كلمة «الآشوريون» إلى آشور . وهم قوم يرجع أصلهم إلى القبائل السامية التي استقرت خلال الألف الثالثة قبل

الميلاد شمالي وادي الرافدين . نجحت في إقامة إمبراطورية حكمت أجزاء من غرب آسيا واتخذت مدينة آشور الواقعة في أعالي نهر دجلة عاصمة لها ، وفيما بعد اتخذت كالح (التي تُعرّف في الوقت الحالي باسم «مرو») عاصمة لها ، ثم جعلت العاصمة فيما بعد في نينوى . ويمكن تقسيم تاريخ الآشوريين إلى المراحل الثلاث التالية :

١ - المرحلة القديمة (٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق.م) : وقد خضع الآشوريون لإبانها لسلطان بابل ثم لسلطان دولة ميتاني التي أسسها الحوريون .

٢ - المرحلة الوسيطة (١٥٠٠ - ٩١١ ق.م) : وقد ازدادت إبانها قوة الآشوريين ، فسيطروا على طرق التجارة في غرب آسيا .

٣ - المرحلة الآشورية الجديدة (٩١١ - ٦٠٩ ق.م) : وقد شهدت آشور في نهايات الفترة الوسيطة هجمات الأخلامو (الآراميين) التي استمرت زهاء ثلاثة قرون . وظهرت في هذه المرحلة أيضاً الدويلات الآرامية والعبرانية المختلفة . والواقع أن المرحلة الثالثة ، أي المرحلة الآشورية الجديدة ، هي وحدها التي تهتمنا ، فهي التي تؤثر في مصير العبرانيين . ويمكن تقسيم هذه المرحلة بدورها إلى ثلاث فترات :

(أ) الفترة الأولى (٩١١ - ٨٢٤ ق.م) : وقد شهدت ظهور القوة الآشورية مرة أخرى . فأوقف شلمانصر الثالث (٨٥٣ - ٨٢٤ ق.م) هجمات الآراميين ، ثم هاجم تحالفاً عبرياً آرامياً بين آخاب العبراني وبين هدد ملك دمشق في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م . ولم تكن المعركة حاسمة ، ولكنها هذا أدت إلى ظهور حزب آشوري قوي داخل المملكة الشمالية . وبعد سقوط آخاب عام ٨٥٢ ق.م ، دعت المملكة الجنوبية الجزية لأشور . وتظهر أول صورة للملك عبراني في التاريخ على مسلة شلمانصر الثالث ، فنراه يقوم بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك الآشوري . ولم يكن الآشوريون يهدفون إبان هذه المرحلة إلى احتلال المناطق التي يفتحونها ، وإنما كانوا يهدفون إلى تحييد التهديد الخارجي وإبطال أثره والاستيلاء على المغنم والأسرى لاستخدامهم في المشاريع الإنشائية الكبرى .

(ب) الفترة الثانية (٨٢٥ - ٧٤٤ ق.م) : شهدت الإمبراطورية الآشورية بعد موت شلمانصر الثالث تراجعاً بسبب ازدياد قوة جيرانها في الشمال وبسبب النزاعات الداخلية . وقد انتهزت المملكتان الجنوبية والشمالية هذه الفرصة وازداتا من مساحة الرقعة التابعة لهما ، وبعثتا الحلف المعادي للآشوريين الذي ضم كلاً من يربعام الثاني وعزيا .

(ج) الفترة الثالثة (٧٤٣ - ٦٠٩ ق.م) : عاد النفوذ الآشوري حينما قام آشور ناصر بال الثاني (٨٨٤ - ٧٥٩ ق.م) بشوكة في التكتيك العسكري للجيش الآشوري ، وبدأت الحقبة الآشورية الجديدة بأبطالها تيجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) وشلمانصر

اليهود الكثرة، حاصر سناخريب القدس ولكنها لم تسقط إذ اضطر إلى فك الحصار بسبب الوباء على أن يدفع اليهود الجزية .

وقد أزهقت مثل هذه الثورات الإمبراطورية الآشورية، وولدت الثورات داخل النخبة الحاكمة، وانتهى الأمر باغتيال سناخريب عام ٦٨١ ق. م. ونشبت بين آشور وبنيناب وأخيه حاكم بابل حرب انتصر فيها الأول. وقام مناشي ملك المملكة الجنوبية بثورة ضد آشور وبنيناب عام ٦٥٢ ق. م. فنفاه هذا إلى آشور.

ثم اندلعت الثورات، بشكل أكثر وضوحاً، في أطراف الإمبراطورية الآشورية، فأكدت المملكة الجنوبية استقلالها تحت حكم هوشع، واستقلت بابل تحت حكم الأسرة الكلدانية البابلية الجديدة. ثم اندلع الصراع بين أعضاء النخبة في آشور على ما تبقى من قوة، فهاجمهم البابليون (تحالف الكلدانيين والحوريين) وسقطت في أيديهم العواصم الآشورية في الفترة (٦١٤ - ٦١٢ ق. م.). أما الجيش الآشوري، وكان دائماً يشكل دولة داخل الدولة، فقد صمد بعض الوقت في حران بمساندة المصريين. ولكن، في الفترة (٦١٠ - ٦٠٩ ق. م.)، نجح الكلدانيون (بمساعدة هوشع الذي حُرَّ صريعاً في المعركة) في تأخير زحف القوات المصرية، وبذلك اختفت الدولة الآشورية وظهرت الدولة البابلية الجديدة.

ولا يمكن وصف الحضارة الآشورية بمعزل عن الحضارة البابلية، فعلى حدِّ قول المؤرخين: إذا كان الآشوريون هم رومان الشرق الأدنى القديم، فالبابليون هم أغريقيوه. وقد نجح الآشوريون في حقل الإدارة بسبب تقديريهم العميق للقانون والنظام. وعلى قمة الدولة، كان يوجد الملك، ولكنه لم يكن مؤلهاً، ثم يأتي بعده الكهنة وطبقة المحاربين. وقد قُسمت الدولة إلى مقاطعات على رأس كل منها حاكم مهمته جمع الضرائب وتنفيذ القانون. وكانت المصادر الأساسية في الزراعة وتربية الحيوانات وصيداها وصيد الأسماك (وقد كان الصيد هواية النبلاء الأولى)، كما طوروا التجارة الداخلية والخارجية.

ولكن الحروب والغنائم والجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة كانت من المصادر التي تعتمد عليها الدولة أيضاً. والآشوريون من أوائل الشعوب التي حولت الحرب إلى فن، فلقد طوروا وأبدعوا في الأسلحة الجديدة، أسلحة الحصار (التكتيك العسكري)، والهجوم بجيوش جرارة كبيرة العدد تكسح ما أمامها بشدة وضراوة رهيبية. ولهذا، فقد كانوا يشنون حروباً شاملة يسبون بعدها الشعوب التي يهزمونها، ويقومون بتهجيرها وتوطئها في أماكن بعيدة عن أوطانهم ثم يوطنون مكانهم أقواماً أخرى. وهذه عمليات عسكرية تشبه من بعض الوجوه عمليات نزع السلاح في

الخامس (٧٢٦ - ٧٢٢ ق. م.) وسرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م.) وسناخريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق. م.) وأسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م.) وآشور وبنيناب (٦٦٨ - ٦٣٠ ق. م.).

تمكن هؤلاء الملوك من تدعيم قوتهم في الداخل، وأسسوا جيوشاً نظامية قوية نجحت في ضم الشرق الأدنى القديم بأكمله بما في ذلك بابل التي احتفظت دائماً بشيء من الاستقلال. ولم يكن الهدف في هذه الفترة جمع المغنم وإنما الهيمنة الدائمة وتأسيس إمبراطورية مكونة من أقاليم ودول تابعة تساندها عمليات تهجير للشعوب المهزومة وتديرها ببر وقراطية مركبة تضم عناصر غير آشورية أغلبها آرامية سادت لغتها والتدريج. وقد شهدت هذه الفترة زيادة ملحوظة في عظمة وأبهة المدن الآشورية. وقد سيطر تيجلات بلاسر الثالث سيطرة كاملة على البابليين وتلقب بملك بابل، وأعاد الهيمنة على فلسطين، فوقع تحت نفوذه عمون وأدوم ومواب ويهوذا. وأخذ منحاهم ملك المملكة الشمالية في دفع الجزية مرة أخرى.

ولكن كان ثمة ضعف أساسي في الإمبراطورية الآشورية إذ كانت تعتمد على الجزية من الشعوب المغلوبة وعلى العناصر البشرية المهجرة من المناطق المهزومة، ولهذا فقد كانت الشعوب المقهورة دائمة الثورة. وقد ظهر في المملكة الشمالية، بإيعاز من مصر، حزب معاد لآشور سيطر على الحكم في نهاية الأمر، وكان فاقح يمثل هذا الحزب، فحاول أن يرغم أحاز ملك المملكة الجنوبية على دخول الحلف. ولكن أحاز فضل أن تظل مملكته دولة تابعة، وطلب العون من آشور ضد هذا التحالف العبراني الآرامي الذي انضم له الفلسطينيون والأدوميون. فهب تيجلات بلاسر لمساعدته. وسقطت أمامه دمشق في عام ٧٣٢ ق. م.، ثم خلع فاقح عن العرش وأحل محله هوشع عام ٧٢٦ ق. م.

ونتيجة لذلك، فقدت المملكة الشمالية ممتلكاتها في شرق الأردن والجليل، وأصبحت فلسطيناً وصور ومواب وأدوم أقاليم آشورية. وحينما حاول هوشع عام ٧٢٦ ق. م. أن يتخلص من هيمنة الآشوريين، حاصر سلمانصر الخامس السامرة، ثم استولى عليها خلفه سرجون الثاني. فاخضت المملكة الشمالية إلى الأبد بالاستيلاء عليها وتم ترحيل زعمائها ورووس قبائلها إلى آشور وميديا (شرقي العراق) وإحلال آراميين (من سوريا) وبابليين محلهم بحسب المدونات الآشورية. وهذا ما يُسمى «السي الآشوري» أو «التهجير الآشوري» الذي اختفت على أثره القبائل العشر «المفقودة».

استمرت يهوذا في دفع الجزية. وفي نهاية الأمر، اندلعت ثورة فيها بتأييد من مصر. وقد كان ردِّ سناخريب حاسماً، فأخذ الثورة، ولكنه سمح ليهوذا أن تستمر كدولة تابعة. وحينما عاود

**تيجلات بلاسر الثالث (٧٥١-٧٢٧ ق.م)**

Tiglath Pileser III

مؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة . هاجم بابل في أول سني حكمه واستولى عليها ، وبعد ذلك سُمي نفسه ملك سومر وأكاد . وقد فرض الجزية على عدة ملوك في الشرق من بينهم رزين ملك دمشق ، ومانح ملك المملكة الشمالية وحيرام ملك صور . وقد حاول كلٌّ من فاتح (ملك المملكة الشمالية) ورزين أن يتخلصا من الهيمنة الآشورية . وحينما رفض أحاز ملك المملكة الجنوبية الانضمام إليهما قاما بالهجوم عليه ، وهو ما جعله يطلب العون من تيجلات بلاسر الثالث الذي شن هجوماً عليها وأسقط فاتح وأحل محله هوشع .

قام تيجلات بلاسر الثالث بالهجوم على بابل في آخر حكمه بسبب ثورتها عليه ، وتوج نفسه ملكاً عليها .

**سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م)**

Sargon II

«سرجون الثاني» هو شاروكين ملك آشور . استولى على العرش بعد موت شلمانصر ، وذلك أثناء حصاره السامرة ، فأمم الحملة بنجاح وهجر سكانها . وقد هزم عام ٧٢٠ ق.م تحالفاً عسكرياً من بقايا المملكة الشمالية . وبعد اغتياله ، خلفه سناخریب على العرش .

**سناخریب (٧٠٥-٦٨٨ ق.م)**

Sennacherib

ملك آشور ، ابن سرجون الثاني . قضى أيام ملكه محاولاً تثبيت دعائم الإمبراطورية ، كما قام بنشاط معماري فأعاد بناء نينوي وابتنى قصرها فيها . قام بست حملات عسكرية ضد الكلدانيين والآراميين والعماليين والمصريين . حاصر بابل لمدة تسعة أشهر ، ثم دمرها بعد أن سقطت في يده عام ٦٨٩ ق.م . ثم أخذ ثورة قامت ضده في فلسطين بتأييد من مصر وأسقط ستاً وأربعين مدينة لم تكن القدس من بينها وسبى عدداً كبيراً من الأسرى . وحينما قام بحملته الأخيرة ، انتشر الطاعون في جيشه ، وهو ما اضطره إلى الانسحاب ، فاكفى بأخذ الجزية .

ويُعدُّ سناخریب من أكثر الأباطرة الآشوريين شهرة بسبب القصص التي وردت عنه في العهد القديم .

الوقت الحالي وفرض السلام العسكري . وقد اضطر الآشوريون إلى اللجوء إلى هذه الإجراءات لعدم وجود قاعدة بشرية ضخمة تسمح بوجود جيش احتلال دائم قوي .

وقد طور الآشوريون فن إنشاء المدن التي كانت تأخذ شكلاً مربعاً وتحتوي على حدائق حيوانات ونباتات وقنوات مياه تجلب المياه من الجبال . وكان الفن الآشوري تطويراً للفنون البابلية والحيشية ، فطوروا استخدام الأحجار في أساس المباني وأعمدتها ، كما طوروا القوس البابلي . وفي نقوشهم البارزة الطويلة ، ظهرت أكثر رسومات أصالة حيث صوروا مناظر الصيد المختلفة ، وخصوصاً منظر لأم الأسد الذبيح . وهم أصحاب أول نوتة موسيقية . وقد طور الآشوريون كذلك معارف البابليين في الكيمياء والطب . وكانت أعمالهم الأدبية تتضمن الملاحم والأساطير كما تضمنت نصوصاً دينية . وكانت الكتابة التاريخية عندهم متطورة للغاية إذ كان عندهم إحساس عميق بالتاريخ كما كانت لديهم الرغبة في الحفاظ على الماضي ، الأمر الذي جعلهم يؤسسون أول مكتبات تضم مدوناتهم التاريخية . ويُقال إن مكتبة آشور بانيبال ضمت اثنين وعشرين ألف لوح طيني وأسطوانات تحتوي على أناشيد وأساطير وأعمال علمية ورياضية .

كانت الإمبراطورية الآشورية تضم عدة شعوب . كما أن تهجير الشعوب المغلوبة أدى إلى تزواج الآشوريين وبنات الشعوب الأخرى ، الأمر الذي أدى إلى انعدام التجانس العرقي والثقافي وظهور رؤية أجمية .

واللغة الآشورية من اللغات السامية . وتُعدُّ لهجتها الشمالية أصلاً للغة الأكادية . أما لهجتها الجنوبية فهي اللغة البابلية . وقد تبنى الآشوريون الخط المسماري ، ثم استخدموا اللغة الآرامية في عهد متأخر .

وللهم القومي هو آشور خالق الآلهة والبشر جميعاً . وهو إله حرب كانوا يمثلونه في شكل رامي سهام داخل دائرة تمثل قرص شمس لها أجنحة . وكانت عشتار (عشتروت) ، الإلهة العظيمة للحرب والنخب ، تُعبد في كلٍّ من نينوي وأشور . وكانت الآلهة الأخرى تمثل قوى الطبيعة ، فيمثل أنو قوة السماء ، ويمثل بل الأرض ، وأيا يمثل المياه ، وسين يمثل القمر ، وشماش يمثل الشمس ، ورمان يمثل العاصفة . وقد كانت هذه كلها آلهة بابلية ماعداً آشور الذي كان نظيراً لمدوخ البابلي . وقد رفع الآشوريون إلههم إلى منزلة عالية متسامية بين الآلهة حتى وصلوا به إلى نوع من التشاوية (التعليبية) ، وهو مفهوم أثر في التصور اليهودي للخالق .



## بابليون

Babylon; Babylonia

كلمة «بابل» من العبارة الأكادية : «باب إيلي» أي «بوابة الإله» . وتُطلَق كلمة «بابل» على عاصمة إمبراطورية بابل القديمة . وتقع أنقاضها على مقربة من مدينة الحلة في وسط العراق ، على بعد خمسة وخمسين كيلو متراً من بغداد ، وعلى نهر الفرات حيث تقترب من نهر دجلة . وقد كان لموقعها أثر كبير في تحكُّمها في التجارة . وقد بلغت بابل ذروة مجدها في عهد حمورابي ، ثم دُمرت في عهد سنخاريب ، لكن أعيد بناؤها في الدولة البابلية الجديدة . واشتهرت بابل بعبادتها وقصورها وحدائقها المعلقة التي تُعدُّ إحدى عجائب العالم القديم .

تُعرف بابل في العهد القديم باسم «أرض شنعار» أو «كيديم» ، وقد كان اسم «بابل» يشير إلى المنطقة المعروفة بهذا الاسم وإلى العاصمة . وتُعدُّ بابل رمزاً للوثنية بالنسبة إلى أنبياء اليهود ، ولكن مضمون الكلمة تغير فيما بعد بحيث أصبحت تعادل لدى اليهود كلمة «مفنى» في معناها . وقد ارتبط اسم بابل كذلك بكلمة «زقورة بابل» ، ومعناها «برج» .

وتستخدَم بعض الكتابات الصهيونية ، وأحياناً اليهودية ، مصطلح «بابل» للإشارة إلى العراق وإلى بلاد الرافدين حتى بعد أن ظهر اسم العراق مصطلحاً يشير إلى هذه المنطقة ، وحتى بعد أن ظهر العراق بوصفه جزءاً من الكيان العربي والإسلامي بعد الفتح العربي . وهذا استخدام يُذكر بالإشارة إلى فلسطين باعتبارها إرتس يسرائيل .

## البابليون

Babylonians

النسبة في كلمة «بابلي» إلى بابل التي ظهرت الحياة المستقرة فيها خلال الألف السادسة قبل الميلاد . وقد أسس السومريون (وهم شعب غير سامي) حضارة لها أبعادها في بابل ، ثم استقرت فيها القبائل السامية وأولها الأكاديون الذين غزوها عام ٣٨٠٠ ق.م تحت قيادة سرجون الأول وتبنوا كتابتها وحضارتها . ثم استولى العموريون (وهم أيضاً قبائل سامية) على الحكم ، وشيدوا لأنفسهم إمبراطورية على ضفاف نهري الفرات ودجلة في الجزء الجنوبي من سومر (العراق) . وقد حكمت أول أسرة عمورية بابل في الفترة (١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق.م) ، وكانت بابل آنذاك عبارة عن ديولت صغيرة في ماري وبابل وغيرها من المدن . ثم ظهر أعظم ملوكهم حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد حيث اشتهر بمجموعة

القوانين المعروفة باسمه (شريعة حمورابي) وهو الذي وحد هذه الديولت وقام بأعمال معمارية مهمة .

وتعرضت البلاد للضعف بعد وفاة حمورابي ، فاستولى عليها الحيثيون عام ١٥٩٥ ق.م لفترة قصيرة ، ثم استولى الكاشيون عليها حوالي عام ١٥٧٠ ق.م وظلوا بها لعدة قرون فيما يعرف باسم الأسرة الكاشية (١٥٣٠ - ١١٥٠ ق.م) أو الأسرة البابلية الثالثة . وقد تبنَّى حكام هذه الأسرة أسماء بابلية . وازدهرت إبان حكمهم الحضارة البابلية . وفي الفترة ١٣٠٠ - ١١٠٠ ق.م ، ظهر الأخلامو والسوتو (وهي قبائل آرامية أضعفت الدولة) فهيمن عليها الآشوريون ثم الكاشيون مرة أخرى . وبعد ذلك بدأت فترة الهيمنة الآشورية المستمرة في الفترة ٩٠٠ - ٦٢٦ ق.م ، إلى أن أسس بنو بولاسار (في عام ٦٢٥ ق.م) دولة مستقلة يشار إليها باسم «الدولة البابلية الجديدة أو الكلدانية» (نسبة إلى كلدنة) نتيجة تحالف الكلدانيين والحواريين (مملكة ميتاني) . وبلغت الإمبراطورية أوج مجدها في عهد نبوخذنصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) الذي أعاد بناء بابل ، وأنشأ أسوارها الشهيرة وحدائقها المعلقة ، ثم هزم المملكة الجوتية وقام بتجهيز قيادتها إلى بابل .

تدهورت بابل مع نمو دولة الفرس . وبعد موت نبوخذنصر ، حاول نابونيدس (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) أن يستولى على عرش الإمبراطورية ، قضى معظم حكمه في واحة في شمالي الجزيرة العربية . لكن الإمبراطورية سقطت دون مقاومة تُذكر في يد قورش الأعظم (٥٥٠ - ٥٣٠ ق.م) مؤسس الإمبراطورية الفارسية .

كان المجتمع في بابل يتسم بشكل من أشكال الديمقراطية البدائية التي اختفت مع عصر حمورابي حين ظهرت طبقات الأحرار والموالي (وهي طبقة ظهرت واختفت بسرعة) وكذلك العبيد . وفي الألف الأولى قبل الميلاد ، كان عبيد المعبد يشكلون طبقة متميزة . وقد اعتمدت ثروة بابل على المزارع التي وضعت لها نظم ري دقيقة . كما ازدهرت الصناعة التي كانت تشمل صناعة النسيج والصبغة والتطريز بجانب صناعة المعادن والفخار . وكانت بابل تنقصها المعادن والأحجار والأخشاب ، ولذا فقد كانت تستوردها . وكانت تجارة بابل واسعة النطاق مع الهند والبحرين وعمان والصومال واليمن عن طريق البحر . وفي البداية ، كانت المعابد تتحكم في الاقتصاد . ولكن ، مع عصر حمورابي ، سيطر أصحاب رؤوس الأموال على التجارة . وقد استخدم البابليون النقود على نطاق واسع ، الأمر الذي سهل التجارة المحلية والدولية . وقد ترك هذا النشاط التجاري أعمق الأثر في العبرانيين بعد تهجيرهم إلى بابل . وكانت الغنائم والخزينة من الموارد الأساسية للدولة . وقد طور

الشعب الذي أخذ في الهيمنة على المنطقة ابتداءً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد إلى أن قام في القرن السابع قبل الميلاد بمساعدة الحوريين (مملكة ميتاني) بإسقاط حكم الآشوريين وتأسيس الإمبراطورية البابلية الحديثة أو الكلدانية التي انتصر فيها البابليون والآراميون والكلدانيون .

ومن أهم ملوك هذه الإمبراطورية نبوخذنصر (٦٢٥ ق. م) ، ونبوختنصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) الذي أسس إمبراطورية ضخمة تمتد من آشور حتى الحدود المصرية وقضى على المملكة الجنوبية وهجر سكانها إلى بابل . وقد سقطت الأسرة الكلدانية على يد قورش الثاني الفارسي في عام ٥٩٩ ق. م .

أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة وأضافوا إليها كثيراً . وظهر بينهم حكماء متبحرون في مختلف جوانب المعارف ؛ كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنتية . وتوصلوا إلى معرفة حساب الحسوف والكسوف ، كما برعوا في فن التنجيم حتى أصبحت كلمة «كلداني» مرادفة لكلمة «منجم» . ومارسوا كذلك فن التنظير وفن المعمار . وقد أصبحت بابل في عهد نبوختنصر أعظم مدينة معمورة على وجه الأرض .

#### نبوختنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م)

Nebuchadnezzar

مؤسس الإمبراطورية الكلدانية (البابلية الجديدة) وأعظم ملوك الكلدانيين . أسقط الإمبراطورية الآشورية بمساعدة الحوريين (مملكة ميتاني) ، وهزم القوات المصرية في معركة قرقميش عام ٦٠٥ ق. م. وقاد نبوختنصر حملتين ضد المملكة الجنوبية : الأولى في عام ٥٩٧ ق. م. لإخماد التمرد فيها ، فأحل صدقيا محل يهوياكين ، ونفى ثمانية آلاف يهودي من الأستقراطيين . وبعد بضع سنين ، عندما أعاد العبرانيون الكرة بإيعاز من مصر ، قاد نبوختنصر حملة أخرى عام ٥٨٦ ق. م. ورغم أن المصريين أرسلوا المساعدات للعبرانيين ، فقد أسقط القدس ودمر الهيكل وأسر عدداً من اليهود ساقهم إلى بابل ، وعين جداليا حاكماً لفلسطين .

وكان نبوختنصر من كبار البناءة ، فهو الذي زُين بابل بالحدائق المعلقة . ولعل تهجير اليهود كان يهدف إلى تعمير العاصمة .

البابليون استخدم العجلات في الحرب ، وهو ما ساعد على أن تصبح إمبراطوريتهم مترامية الأطراف . وحققوا إنجازات ذات شأن في الفلك والرياضيات ، ومنهم اقتبس اليونانيون العلوم وطورها . كما كانت إنجازاتهم المعمارية والفنية ذات أثر عميق في الحضارات المعاصرة لهم والتي أتت بعدهم ، وقد تأثر العبرانيون بهذه المعارف بشكل عميق بعد تهجيرهم إلى بابل .

وتتسم ديانة البابليين وأهل بلاد الرافدين باحتوائها على قدر كبير من الإيمان بالجن والسحر ، كما لم تتضمن في البداية مفهوماً للخطيئة أو الإحساس بالذنب أو الحياة بعد الموت . ولم يكن النظام الكوني في مفهوم البابليين نظاماً أخلاقياً . وكان لدى الإنسان البابلي إحساس بتقلّب العالم ، ومن هنا كان إحساسه بالعجز أمام قوى الطبيعة والألوهة التي حاول دائماً أن يكتشف إرادتها عن طريق التنجيم وفحص أمعاء الحيوانات التي يضحى بها الإنسان . وكان أعظم ألوهتهم هو مردوخ . ولكن الديانة تطورت ، وظهر مفهوم التقوى والحساب والعقاب ، كما ظهر مفهوم للعالم الآخر أو عالم الموتى الذي يستقرون فيه بعد الموت دون حساب أو عقاب . بل ظهرت أشكال من التوحيد ، فكان يُشار إلى سائر الألوهة باعتبارها تجليات لاله مردوخ الأعظم .

ولغة البابليين هي البابلية ، وهي اللهجة الجنوبية من لهجات اللغة الأكادية . كما أن كتابتهم السامرية التي أخذوها عن السومريين قد أثرت في الآشوريين . وقد كان لهم أدب ثري ، وخصوصاً في مجال الملاحم التي تُعدُّ جليماش من أهمها . ويجب عدم فصل حضارة البابليين عن حضارة الآشوريين . فهما ، رغم أنهما تشكيلان سياسيان متصارعان ، ينتميان إلى تشكيل حضاري (سامي) واحد هو التشكيل الذي ساد المنطقة في نهاية الأمر .

#### الكلدانيون

Chaldeans

«الكلدانيون» هم الآراميون الذين كانوا يقيمون في كلدة التي كانت تقع في أقصى جنوب دلتا وادي دجلة والفرات . وكان المصطلح ينعس أحياناً ليشمل بابل بأسرها ، ليضم كل بلاد الرافدين بين صحراء العرب ودلتا الفرات . ويُستخدم الاسم للإشارة إلى

## الشعوب والأقوام السامية الأخرى

العموريون - الأدموميون - العمونيون - المؤابيون - الآراميون - سوريا - آرام دمشق - آرام - نهرام - بن هدد - الكنعانيون - الأقوام الكنعانية السبعة - العناقيون - القززيون - الفرزيون - القينيون - الرفاتيون - الجرجاشيون - الحويون - اليبوسيون - الإيطوريون - الفينيقيون - حيرام - المديتيون - العماليق - الأنباط - الإسماعيليون - الجبعونيون والنيشينيون

## العموريون

Amorites

صراع شديد بينهم وبين العبرانيين . ومع ذلك ، فقد هزمهم العبرانيون واحتلوا أرضهم . وغزا يشوع العمورين الذين كانوا يقطنون الأرض الجبلية قرب فلسطين ، ولكنهم بقوا بعد التسلسل العبراني . وقد وقعت ملكتهم تحت سيطرة داود .

كان العموريون ، في بداية الأمر ، شعباً بدوياً يعتمد على الحمير كوسيلة أساسية للانتقال ، كما كانوا يمارسون الصيد ويتصفون بخشونة الطبع . لكنهم ما لبثوا أن أخذوا بأساليب الحضارة ، وخصوصاً السورية الأكادية ومن ذلك المؤسسات السياسية والفكرية ، وذلك مع أن حضارتهم لم تكن متجانسة بسبب انتشارهم في مناطق متباعدة . وقد ازدهرت حياتهم بسبب اشتغالهم بالزراعة والتجارة .

ولم تختلف اللغة العمورية في فلسطين عن اللغة الكنعانية إلا من حيث إنها لهجة ، فهي لهجة كنعانية قديمة تقابل اللهجة الكنعانية الغربية السائدة . وقد استوعبت هذه اللغة تماماً في اللغتين الكنعانية والأكادية .

ولم تختلف ديانة العموريين ، من حيث شكلها البدائي ، عن عبادة قوى ومظاهر الطبيعة عند الساميين . وأكبر آلهتهم عمور (إله الحرب) وشريكه وهي عاشرة التي تشبه نموذج عشتار . كما عبدوا آلهة أخرى مثل هدد المعروف باسم رمانو (مانع الصواعق) وهو إله مطر وعواصف . وقد صار بعد ذلك البعل الأعظم . وكان هناك دجن إله الغذاء الذي عُبد في غزة على وجه الخصوص .

وحينما يشير العهد القديم إلى العموريين بلقظة «إيموري» فهو يعني سكان فلسطين كافة ، والقبائل التي حاربها العبرانيون على وجه الخصوص . أما في الكتابات التلمودية ، فإن المصطلح يشير إلى كل عبدة الأصنام .

وكتُبت أحياناً «الأموريون» . و«العموريون» كلمة بابلية معناها «الغريبون» ، وتُستخدَم للإشارة إلى أقدم شعب سامي معروف أقام في بلاد الشام وفلسطين في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وكونَ مملكة نحو عام ٢٥٠٠ ق.م ضمت بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين . وقد اتسع استخدام الكلمة بحيث كانت تشير أحياناً إلى سكان أرض كنعان قبل تسَلُّل القبائل العبرانية وليس العموريين فحسب . ويحمل الاسم أحياناً (في النقوشات القديمة) دلالة إثنية إذ يشير إلى القبائل السامية الغربية ، لكنه كان يحمل في أحيان أخرى دلالة جغرافية تتعلق بكل من سوريا وفلسطين في آن واحد . وفي عام ١٨٠٠ ق.م تقريباً ، كان يسيطر على المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ومرتفعات عيلام أمراء عموريون تسببت هجرتهم في أن اكتسبت المنطقة كلها صبغتها السامية (العربية) التي احتفظت بها حتى الآن (باستثناء جيوب الحوريين) .

وكانت تُوجد سلالات عمورية عديدة تقطن مناطق مختلفة من أهمها السلالة التي حكمت بابل ، كما كانت ماري عاصمة للعموريين في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد ، وكانت حلب إحدى عواصمهم الأخرى . وكانت المملكة العمورية نقطة اتصال مهمة بين مصر من ناحية وبلاد الرافدين وبلاد الحثييين من ناحية أخرى . ومع ظهور تحتمس الثالث عام ١٤٤٧ ق.م (الأسرة الثامنة عشرة) ، فرضت مصر سلطانها على العموريين .

وحين دخلت القبائل العبرانية فلسطين ، وجدت العموريين وبقية القبائل السامية مستوطنة إياها إذ كانوا يقيمون على شاطئ نهر الأردن في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويسيطرون على المواقع الاستراتيجية ورؤوس التلال الواقعة في سوريا الجنوبية والممتدة إلى فلسطين . ولقد قاوم العموريون التسلسل العبراني إلى المنطقة ، وقام

## الأدوميون

Edomites

## العَمُونيون

Ammonites

كلمة «أدوميون» تشير إلى إحدى الجماعات السامية التي كانت تقم في أرض كنعان بمنطقة جبل سعيبر التي كان يُطلق عليها أيضاً «أدوم»، وكانت عاصمة ملكهم سيلع (البتراء فيما بعد). وهم حسب الرواية التوراتية من نسل عيسو الذي كان يُدعى أيضاً «أدوم»، أي «الأحمر». وقد قاموا بطرد الجوريين من المنطقة التي استوطنوها، وعاشوا على الصيد. وكانوا ينقسمون في البداية إلى قبائل يحكمها شيخ القبيلة ثم انحذوا وكونوا مملكة. وقد احتكروا تجارة شمالي البحر الأحمر في فترات قوتهم.

وُعدَّ الأدوميون الأعداء التقليديين للقبائل العبرانية، فقد عارضوا (هم والمؤابيون) مرور العبرانيين عبر بلادهم عند قدومهم من مصر. وقد جرت بينهم وبين القبائل العبرانية حروب تبادل كل جانب فيها السيطرة على الآخر، وكان من نتائجها أن ضم شاول وداود أجزاء من أراضيهم. وقد تحرَّر الأدوميون من السيطرة العبرانية في أواخر حكم سليمان. ثم خضعوا للمملكة الجنوبية، ولكنهم أعلنوا العصيان عام ٨٤٨ ق. م. واستقلوا بعد حروب طويلة، غير أنهم صاروا فيما بعد تابعين لأشور ثم بابل. وقد وردت الأدوميون القسم الشرقي من المملكة الجنوبية بعد أن قضى الكلدانيون عليها، لكن الأنباط زاحموهم فترة من الزمن.

ورغم العداوة بين العبرانيين والأدوميين، فإنهم في شريعة موسى يُعتبرون إخوة لهم (ثنية ٢٣/٧، ٨). واستمر الصراع بينهم وبين اليهود إلى أن هزمهم جون هيركانوس الحشموني وفرض عليهم اليهودية والتخفُّت بحد السيف. وكان هيرود (ملك اليهود) أدومياً، الأمر الذي قلص شريعته إذ لم يكن بمقدوره أن يصبح كاهناً أعظم. وأثناء حصار تيتوس للقدس، انضم الأدوميون إلى العناصر العبرانية المتطرفة وقتلوا كل من تصوروا أنه مؤيد للسلام في روما. وقد اختفى الأدوميون بعد ذلك من تاريخ العبرانيين.

ولم تكن إنجازات الأدوميين الحضارية كبيرة. وكانوا يتحدثون بلهجة شديدة الشبه بالعبرية، ولكننا لا نعرف شيئاً عن ديانتهم إلا أسماء بعض الآلهة، مثل قوس وهدد، كما أن أحد آلهتهم كان يُدعى «إلواه». وتعني كلمة «أدومي» كما جاء في التلمود «الحكومة الطاغية»، وخصوصاً روما. أما في العصور الوسطى، فقد كانت الكلمة تُستخدم للإشارة إلى أوروبا المسيحية.

«العَمُونيون» شعب سامي قديم تجمعه، حسب الرؤية التوراتية، صلة قرابة بالعبرانيين. وبعد فترة غير قصيرة من الحياة شبه البدوية، أنشأ العَمُونيون مملكة شمالي مؤاب التي استمرت من عام ١٥٠٠ ق. م حتى القرن الثاني الميلادي. وقد سماوا عاصمتهم «رَبَاة عَمون» (ربة بني عمون في التوراة). ونشب بينهم وبين العبرانيين صراع استمر طويلاً تبادلًا أثناء الهزائم والانتصارات، كلٌّ على الآخر، حتى سقطت عاصمتهم في يد داود. ويُعزى إلى امرأة عمونية في بلاط سليمان أمر غوايته وعبادته الرب العموني ملكوم (ملك).

حصل العَمُونيون على استقلالهم عند انقسام المملكة العبرانية المتحددة (٢٩٨ ق. م)، وتحالفوا مع الكلدانيين والآراميين، وهاجموا المملكة الجنوبية، كما حاولوا منع العبرانيين من بناء أسوار الهيكل بعد عودتهم من بابل.

وقد ساعد العَمُونيون القوات السلوقية أثناء التمرد الحشموني، وألحق بهم يهودا الحشموني الهزيمة عام ١٦٣ ق. م. ورغم حالة الحرب الدائمة بين العَمُونيين والعبرانيين، فإن نسبة التزاوج بين الفريقين كانت عالية، وهو ما أدَّى بعزرا ونحميا إلى التنديد بذلك. وقد أصبح العَمُونيون، مثلهم مثل معظم شعوب المنطقة في القرن التاسع قبل الميلاد، تابعين لأشور فبابل ثم الفرس فاليونانيين وأخيراً الرومان، إلى أن ذابوا واختفوا.

ولا نعرف إلا القليل عن حضارة العَمُونيين لأنهم لم يتركوا أية آثار أدبية، لكن التنقيب الأثري يبرهن على أن مملكتهم قد وصلت إلى مستوى عالٍ من التطور إذ كانت حدودها محصنة وزراععتها متطورة كما أن ذوقها الفني كان رفيعاً. وكان العَمُونيون يعبدون آلهة خصب من أهمها ملكوم.

## المؤابيون

Moabites

كلمة «مؤابيين» مشتقة بالنسب إلى بلاد مؤاب، وكلمة «مؤاب» لفظ سامي قد يكون معناه «مَن أبوه». والمؤابيون ساميون يرجع تاريخ استقرارهم في فلسطين إلى أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي أنهم أسبق من القبائل العبرانية بزمن طويل في فلسطين. وينسبهم العهد القديم إلى لوط (تكوين ١٩/٣٧) من ابنة الكبرى، أي أنهم أبناء غير شرعيين له. والمعلومات المتوافرة عن المؤابيين

يبعل الذي كانت تُقدّم له القرابين من الكباش . وقد ورد في التوراة أن الملك ميشع قدم ابنه قرباناً لهذا الإله لاسترضائه أثناء الحرب . ويبدو أن المؤابيين قد مارسوا أيضاً عادة الختان .

وقد اتخذ المؤابيون لهجة كنعانية وثيقة الصلة باللهجيات الكنعانية الأخرى لغة لهم ، وهي لغة تشبه العبرية من عدة وجوه كما يدل على ذلك حجر مؤاب .

وُحَرِّم أسفار موسى الخمسة الزواج من المؤابيين ، علماً بأن راعوث جدة داود كانت من مؤاب ، وكذا إحدى زوجات سليمان (وهي التي بنت معبدًا للإله كموش المؤابي بالقرب من القدس) . ولذا ، فقد نسر علماء التلمود هذا الحظر بأنه على الذكور فقط دون الإناث .

### الآراميون

#### Arameans

«الآراميون» شعب سامي استقر في منطقة الهلال الخصيب ، ثم في بلاد الشام حول حوران ، في تاريخ قديم قد يكون القرن السادس عشر قبل الميلاد . وكان الاسم مقروناً باسم «الأخلامو» (أي «الرفاق» أو «الأحلاف» باللغة العمورية القديمة) . وتعدّ هجرة الحايبرو والآراميين جزءاً من حركة الأخلامو التي أعقبت هجرة العموريين والكنعانيين . ولكن يبدو أن الآراميين كانوا يشكلون الجزء الأكبر ، ولذا فقد اختفى ذكر الأخلامو تدريجياً ، وبرز اسم الآراميين عوضاً عنه . وقد ورد أول ذكر لهم في أيام تيجلات بلاسر الأول في عام ١١٠٠ ق. م . وتقرر التوراة أن الآراميين يتسببون إلى آرام بن سام بن نوح ، وأن نمة صلة عميقة بينهم وبين العبرانيين (تكوين ١٠/ ٢٢) . فأسلاف القبائل كانوا أتون من المنطقة الآرامية ، كما أن الآباء العبرانيين ارتبطوا بأصول آرامية واحتفظوا بالعلاقات مع الآراميين من خلال الزواج . وقد تحدث يعقوب عن نفسه وعن أبيه قائلاً «آرامياً تانهاً كان أبي» (تثنية ١٠/ ٥) .

بدأ الآراميون يستقرون في منطقة الهلال الخصيب مع ضعف آشور في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد وانتهيار الإمبراطورية الحيثية ، وأسسا عدة ممالك إلى الشرق من الفرات ، كما بسطوا نفوذهم على الشام وعلى سهل البقاع الواقع بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية .

وقامت إمارة آرامية عند منحني نهر الفرات في المنطقة التي تقع بين إقليم الجزيرة وسوريا الحالية ، وامتدت رقعتها حتى نهر الحايبر الذي يتفرع من الفرات ويتجه إلى الشمال ، لذلك سُميت «آرام نهارم» أي «آرام النهرين» .

مستمدة في أغلبها من العهد القديم ومن مسلة الملك ميشع . وتقع مملكتهم في سهل مرتفع شرقي البحر الميت ، يحدها شمالاً نهر الأردن ، وتمتد جنوباً إلى آدم . وكان يتاخم مملكتهم العموريون شمالاً والأوميون جنوباً .

كان المؤابيون ، في البداية ، مجموعة من القبائل المتقسمة . لكنهم كونوا مملكة متحدة قامت في الربع الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وذلك في فترة فقدت فيها مصر سيطرتها على فلسطين ، وقبل أن تكون القوة الآشورية قد ظهرت بعد . وبلغت مملكتهم منزلة رفيعة مع مطلع القرن التاسع قبل الميلاد ، فدخلوا في حروب كثيرة مع جيرانهم (العموريين وغيرهم) .

وكان بين المؤابيين والعبرانيين حروب كثيرة . وقد بدأ الصراع حينما منح المؤابيون القبائل العبرانية من المرور بأراضيهم إلى فلسطين . وخضع العبرانيون لحكم ملك مؤاب مدة ثماني عشرة سنة في عصر القضاة ، وكان مقرّ الملك هو أريحا . وقد حاربهم شاؤول في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وغزا داود مملكتهم ، بعد أن كان لاجئاً عندهم أثناء معركته مع شاؤول ، وبسط نفوذه عليهم . وبعد موت سليمان ، أصبحت مؤاب جزءاً من المملكة الشمالية . وقد شن عمري (٨٨٢ - ٨٧١ ق. م) حرباً عليهم ، لكنهم تخلصوا من الهيمنة العبرانية بعد موت آخاب وبعد اعتلاء ميشع العرش (وهو الملك المؤابي القوي الذي احتفل بانتصاره بهذه الأحداث على حجر مؤاب) . وبعد موته ، هجم ملك آرام دمشق على مؤاب ، فانتشرت فيها الفوضى وتقلصت حدودها وتحولت مؤاب إلى مملكة صغيرة .

وحينما ظهرت القوة الآشورية ، هادنها المؤابيون وتحالفوا معها ، فحمتهم آشور من غزوات القبائل البدوية . وقد قدموا المساعدة لسناءخرب في حربه ضد المملكة الجنوبية ، كما قدموا العون لآسرحدون في حملته على مصر . وقد فتح البابليون بلاد مؤاب وأنزّلوا بدمنها الدمار ، وسبوا أهلها وهجّروهم إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد ، وبذلك انتهى تاريخ المملكة المؤابية إذ استقرت فيها جموع القبائل البدوية وذاب فيها السكان . وهكذا ، فإنهم ، مع الحكم الفارسي ، كانوا قد انصهروا تماماً في المستوطنين الجدد ثم ذابوا في الأنايط .

ولقد اعتمد اقتصاد مؤاب على الزراعة والرعي ، وكانت ثروتهم الحيوانية كبيرة . واستفادوا من وضعهم الجغرافي في ممارسة التجارة ، فازدهرت حياتهم الاقتصادية . وظلت معالم البداوة واضحة في ثقافتهم حتى بعد استقرارهم . وأشهر ماعبده من الآلهة هو الإله الأعظم كموش (إله الحرب) وهو إله يقربه البعض

ومن الإمارات الأرامية التي لعبت دوراً كبيراً إمارة بدران التي تقع في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام . وقد سُمّيت بهذا الاسم لوقوعها في سهل منبسط ، وكلمة «بدران» بالأرامية تساوي كلمة «فدان» العربية ومعناها «الحقل المنبسط» . وكانت مدينة حوران مقر هذه الإمارة تقع على الطرق التجارية المهمة التي تصل إقليم الشام بإقليم الجزيرة ، وتربط بين شمال الشام وبلاد العرب ، فلعبت دوراً في تجارة العالم القديم ، واشتد ثراء أهلها . وتآلفت مدينة حوران في ذلك العهد ، حتى عدت من أزهى مراكز الثقافة الأرامية .

ولإمارة حوران مكانة متميزة في التراث العبراني ، فقد كُتِر ذكرها في كتاب العهد القديم . وراح كُتّاب التاريخ العبري يذكرون أن أجدادهم كانوا من الآراميين وأنهم عاشوا في مدينة حوران زمناً طويلاً قبل أن يستقروا في فلسطين . ويذكرون أيضاً أن إبراهيم أقام في هذه المدينة الأرامية بعد خروجه من العراق وزوج ولده إسحق فتاة حرانية . والعهد القديم نفسه حافل بالمفردات الأرامية ، وهو ما حمل بعض الباحثين على القول بأن العبرانيين كانوا يتكلمون لهجة أرامية قبل أن يستقروا في فلسطين ويتخذوا لهجة أهلها من الكنعانيين . وخلصاة القول إن الهجرات الأرامية والعبرية هجرات سامية خرجت من وطن واحد . وقد استقر الآراميون في الجزء الشمالي من وادي الرافدين ، وأسسوا هناك سلسلة من الدويلات الصغيرة أو المدن/الدول أهمها دولة بيت أديني (ومركزها تل يرسب) ودولة بيت بخياني . وقد أسس الكلدانيون (وهم قبائل متصلة النسب بالآراميين) دولة بيت يكتيني . وفي الجهة الأخرى للتوسع الآرامي ، أي في الغرب ، نشأت دولة سمال . وفي سوريا أُسست دول من أهمها صوبية ودمشق . وقد دخلت تلك الممالك الأرامية ، في دمشق وصوبية وغيرها ، في صراع مع الآشوريين والعبرانيين . وقد قام هدد عزز (ملك آرام دمشق) بتكوين اتحاد من الإمارات الأرامية في بلاد الرافدين والشام والشعوب الأخرى في المنطقة مثل المؤابيين والعمونيين والأدوميين ، وذلك لمقاومة التوسع العبراني . وقد تغلب عليهم داود في بداية الأمر وهزم مملكة آرام دمشق عام ٩٨٠ ق.م ، لكن رزبن الأول عاد إلى الحرب مع سليمان وفرض سيطرته على معظم الممالك الأرامية . وبعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى دولتين ، نشب صراع بين الآراميين (بزعامة مملكة آرام دمشق) والمملكة الشمالية استمر لمدة تزيد على قرن (٩٠٠ - ٧٩٠ ق.م) . وقد تحالف ملك دمشق بن هدد الأول (٨٥٣-٨٤٥ ق.م) مع ملك المملكة الجنوبية في مهاجمة المملكة الشمالية ، فهُزم

ووقع في الأسر ثم أُخرج عنه . وقد نجح بن هدد أيضاً في تكوين تحالف من المدن الدول والممالك الصغيرة في المنطقة مثل المملكة الشمالية ، وجُهِز جيشاً كبيراً بمساعدة أخاب لمواجهة الآشوريين بقيادة شلمانصر الثالث في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م التي انتهت إلى نتيجة غير حاسمة . وفيما بعد ، ألحق بن هدد الهزيمة بأخاب . ووصلت المملكة الأرامية في آرام دمشق إلى قمة نفوذها في عهد أميرها حزائيل (في الفترة من ٨٤١ إلى ٨٣٨ ق.م) الذي وسع حدود مملكته وضم جلعاد والجلبلى حتى وقعت المملكة الشمالية تحت نفوذه وكان على حكامها أن يدفعوا لأرام دمشق الجزية (إلى أن سقطت في يد الآشوريين) . والواقع أن الحروب بين ملوك آرام دمشق وملوك المملكتين الجنوبية والشمالية تملأ صفحات التاريخ التوراتي .

ولكن القوة الآشورية عادت الهجوم ، ونجح شلمانصر في ضم منطقة وسط الفرات عام ٨٣٨ ق.م . ثم استمرت الهجمات حتى نجح تيجلات بلاسر الثالث في احتلال دمشق عام ٧٣٢ ق.م . واحتل سرجون الثاني حماه عام ٧٢٠ ق.م ، وهجر سكانها . وبذلك ، تحوَّلت الدويلات الأرامية إلى دويلات آشورية تابعة ، وسُمّيت سوريا باسمهم .

وتُعدّ هزيمة الآراميين إلى فشلهم في تكوين وحدة سياسية فعالة . ولكن الدويلات الأرامية في منطقة نهر دجلة استمرت في الهجوم على آشور . ونجحت قبيلة كالدو الأرامية (الكلدانيون في العهد القديم) في الثورة على الآشوريين ووقفت في الوصول إلى الحكم بعد أن عقدت تحالفاً مع الميديين ، وأسست الدولة البابلية الجديدة .

وقد تفاعل الآراميون مع الحضارات القائمة : العموريين والفينيقيين والحيتيين ، فأقبلوا عليها واقتبسوا منها وتخلصوا من طابع البداوة . إلا أن الأمر الفريد في هذه الظاهرة هو أن الآراميين ، رغم اقتباسهم من الحضارات القائمة ، احتفظوا بلغتهم ولم يستبدلوا بها غيرها كما فعل قبايل العبرانيين والفلسطينيين .

وأدّى تأثير الآراميين في الإمبراطورية الآشورية إلى انتشار الأرامية بين الناس الذين عاش الآراميون بين ظهرانيهم مثلما حدث في بلاد الرافدين وفلسطين . كما نشر الآراميون حروف الكتابة التي نقلوها عن الفينيقيين ، وعلموها لعالم الشرق القديم كله (وقد تعلم العبرانيون حروف الكتابة منهم) . وفاق توسُّعهم التجاري والاقتصادي توسُّعهم السياسي والفكري ، كما بلغت حضارتهم ذروتها ، في القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد . ووسع الآراميون

الأخلامو (وكان الآراميون منهم) فغطوا منطقة سوريا بمذنبهم وإماراتهم . وقد بدأ التسلسل العبراني في كنعان (فلسطين) . أسس العبرانيون مملكتهم في هذا الوقت حيث كان الآراميون يبنون أساس مملكتهم في دمشق . وظهر صراع حاد بين الآراميين والعبرانيين . ثم سقطت سوريا بأسرها في يد الآشوريين وسُميت سوريا باسمهم («سوريا» هي صيغة تصغير لكلمة «أسيرياAssyria» ) ، ثم بدأ بزوغ القوة البابلية (الكلدانية) .

وقد حاول نخاو الثاني (فرعون مصر) مناصرة آشور ، وضم المصريين سوريا مؤقتاً (٦١٨ ق. م) . ولكن نبوختنصر هزم المصريين واستولى على القدس وسوريا (٦٠٥ ق. م) ثم وقعت سوريا عام ٥٣٩ ق. م داخل الإمبراطورية الفارسية التي حولت سوريا وفلسطين وقبرص إلى مقاطعة فارسية تحمل اسم «عبر النهر» . وقد دخلت سوريا الفلك اليوناني وخضعت لحكم السلوقيين من عام ٣١٢ ق. م حتى عام ٦٤ ق. م ولكنها لم تسلم من هجمات الفرثيين . ثم برزت القوة الرومانية التي صدت الفرثيين تماماً . وقد أصبحت سوريا جزءاً من الدولة البيزنطية بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الرابع الميلادي حتى الفتح الإسلامي (٦٣٣ م) .

### آرام دمشق

Aram-Damascus

«آرام دمشق» أهم مملكة آرامية في سوريا في الفترة من القرن العاشر قبل الميلاد إلى القرن الثامن قبل الميلاد . تألق مجملها في السياسة الدولية في ذلك التاريخ حيث وقفت من العبرانيين والآشوريين موقف الند للند ، بل بدأت تُعزى على أملاك الآشوريين في الشمال وعلى أملاك العبرانيين في الجنوب . وما أن جاءت سنة ١٠٠٠ ق. م حتى كانت آرام دمشق قد بسطت سيادتها على إقليم سوريا الداخلية الواقع خلف جبال لبنان ، كما بسطت سيادتها على منطقة سوريا الشمالية . وظلت آرام دمشق قرنين من الزمان تناضل العبرانيين ومحاربيهم وتُوقف تقدمهم صوب الشمال (وقد ورد ذكر ذلك كثيراً في العهد القديم) .

بدأ النزاع بين آرام دمشق والعبرانيين في عهد الملك شاؤول بسبب التنافس على خامات النحاس ، ولكن آرام (هدد عزز) وقف لشاؤول وصدته . إلا أن نمو المملكة العبرانية في عهد داود رَجَّح كفة العبرانيين إذ هاجم إمارة دمشق وهزم ملكها واحتلت قواته مدينة دمشق بعض الوقت .

وبعد انقسام المملكة العبرانية ، كان ملوك الدولتين العبرانيتين

نطاق التجارة واحتكروا طرق المواصلات حتى أصبحت الآرامية لغة التجارة .

وديانة الآراميين تقوم على عبادة آلهة سامية قديمة . فكانت آلهتهم كنعانية وبابلية وآشورية . وكانت للإله إيل عند الآراميين المكتاة نفسها التي يتمتع بها عند الكنعانيين ، وكان لهم إله خاص بهم هو هدد أو رامون إله العواصف والزوابع مرسل المطر الذي يخضب الأرض . وقد امتزجت عبادته فيما بعد بعبادة الشمس . وُعبدت معه زوجته آثارخابس وهي إلهة الخصوبة والأمومة .

ولم يتفوق الآراميون كثيراً في الفنون الجميلة بل تأثروا بالشعوب المحيطة بهم ، فكانوا يقلدون الأساليب البابلية والحيشية في العمارة والزخرفة ويستخدمون النحاتين والنقاشين الكنعانيين .

### سوريا

Syria

كلمة «سوريا» مصطلح إقليمي ذو مجال دلالي متباين ، فهو يشمل أحياناً كل الشام ، أي الساحل الشرقي للمتوسط من تركيا حتى مصر ، وأحياناً يشير فقط إلى الجانب الشمالي منه . وفي أحيان أخرى ، كان المصطلح يشير إلى المنطقة التي تحيط بدمشق (آرام دمشق) وحدها .

وقد كان الحكام البابليون يهاجمون سوريا دائماً لأنهم كانوا يبحثون عن مخرج لهم على البحر الأبيض المتوسط . وقد حكم سرجون الأول (الأكادي) سوريا في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد حتى هجرة العموريين ٢١٠٠ ق. م . وقد هيمن الحوريون (مملكة ميتاني) على سوريا ، ووصلت هذه الهيمنة ذروتها في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واستمرت إلى أن ظهر الحيشيون الذين كانوا يشنون الهجمات عليها قبل عام ١٤٠٠ ق. م دون الهيمنة عليها . ولكنهم حين قضوا على هيمنة مملكة ميتاني عام ١٣٦٥ ق. م ، وقعت سوريا بأسرها تحت حكمهم (عام ١٣٣٦ ق. م) . واستمر الصراع بين المصريين والحيشيين حتى معركة قادش (١٢٨٨ ق. م) التي حدث بعدها نوع من التفاهم بين الطرفين المتصارعين . وقد ظهرت أول حضارة محلية وهي الحضارة الفينيقية (الكنعانية) في هذه الفترة حيث تعود حضارة أوجاريت إلى عام ١٥٠٠ ق. م ، ثم ظهرت القوة الآشورية التي اكتسحت البقية الباقية من ميتاني ولكنها عادت وتدهورت بدورها . وحينما ظهرت شعوب البحر ، هزموا الحيشيين واضطروهم إلى التراجع . وفي هذه الأونة ، ظهر

ثلاث مرات على يد يهوآحاز ملك المملكة الشمالية ، ولكنه عاد واسترد المدن التي كان قد فقدتها .

### الكنعانيون

Cannanites

كلمة «كنعاني» هي صيغة النسب إلى «كنعان» ، وهي كلمة حورية تعني «الصنغ القرمزي» وهو الصنغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون فيه . وتبعاً لجدول أنساب سفر التكوين ، فإن الكنعانيين هم نسل كنعان بن حام بن نوح . وقد صدّقوا في العهد القديم باعتبارهم من الحاميين مع أنهم من الساميين ولتهم سامية ، وذلك ربما لتبرير الحروب التي نشبت بينهم وبين العبرانيين .

لكن الكنعانيين ، في الواقع ، قبائل سامية نزحت منذ زمن بعيد من صحراء شبه الجزيرة العربية أو الصحراء السورية ، وربما يكون قد تم ذلك في النصف الأول من الألف الثالث في شكل هجرات مكثفة . وهم ثاني جماعة سامية (بعد العموريين) ، لعبت دوراً مهماً في تاريخ سوريا وأرض كنعان . ويتنسب القرقيان إلى موجة الهجرة نفسها . ولذلك ، فإن الاختلاف بينهما يكاد يكون معدوماً . وقد نشأ الاختلاف نتيجة أن العموريين أقاموا في شمالي سوريا فتعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية ، بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في أرض كنعان والساحل ، ولذلك كان تأثرهم بالمصريين والحيثيين والعرب .

والاختلاف اللغوي بين العموريين والكنعانيين هو اختلاف في اللهجة ، كما أن اللغتين الكنعانية والعمورية من الفرع السامي الشمالي الغربي الذي يضم العبرية وتتميز عن الفرع الجنوبي الغربي الذي يضم العربية . وقد بقيت سيادة الكنعانيين في أرض كنعان كشعب وقوة حضارية منذ زمن سحيق وحتى التهجير البابلي . وقد أصبحت لفظة «كنعان» تُطلق على جميع سكان البلاد دون أي مدلول عرقي ، بل كانت تتسع أحياناً لتصبح مرادفة لكلمة «فينيقي» وهو استخدام يوافق عليه كثير من المؤرخين .

ويرتبط تاريخ الكنعانيين إلى حد كبير بالتاريخ المصري . ففي الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠-١٧٨٦ ق.م) ، ضمت مصر أرض كنعان ، فعها الرخاء عن طريق الاتجار مع وادي النيل . وقد غزا الحوريون أرض كنعان في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وجمعوا أعداداً كبيرة من المرتزقة الكنعانيين إلى جانب العبرانيين . وهذه الجماعة هي التي يُطلق عليها اسم «الهكسوس» الذين احتلوا مصر إلى أن طردهم أحسن عام ١٥٧٠ ق.م ، ثم قام

ينتافسون في التقرب من بلطام دمشق . فقد أهدى ملك المملكة الجنوبية أمير دمشق (بن هدد) كثيراً من كنوز الهيكل . واستغل ملوك آرام دمشق المملكة الجنوبية في صراعها مع المملكة الشمالية . وانتزع بن هدد جلعاد والأردن منها ، وأصبحت المملكة الشمالية إمارة تدين بالنعبة لملك دمشق وظلت تدفع الجزية حتى عام ٨٧٥ ق.م حينما سطع نجم آشور . عندئذ كوّن بن هدد حلفاً عظيماً من اثني عشر أميراً وانضم له ملوك المملكةين العبرانيتين ، كما اشترك ملك حماة ودخلت المدن الفينيقية في التحالف . والتقا جميعهم في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م التي لم تكن نتيجتها حاسمة وتراجع الآشوريون بعدها . وفي عام ٨٠٥ ق.م ، حاصر الآشوريون دمشق وأجبروا ملكها على دفع إتاوة ضخمة لهم . واستغل ملوك المملكة الشمالية الفرصة لاستعادة بعض المناطق التي كانت آرام دمشق قد احتلتها من قبل ، وذلك بالتحالف معها مرة أخرى (عام ٧٣٨ ق.م) ضد آشور . لكن تيجلات بلاسر الثالث جرّد حملة عليها عام ٧٣٣ ق.م . فنهها وهجر سكانها وأنهى وجودها كدولة مستقلة .

### آرام نهاريم

Aram-Naharim

«آرام نهاريم» عبارة معناها «آرام النهرين» . وقد جاء ذكر آرام نهاريم في الوثائق المصرية القديمة باسم «نهرين» ، وهي دويلة من الدويلات التي أسسها الآراميون شمالي سوريا في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولما ترجم اليونانيون التوراة إلى اليونانية أطلقوا عليها اسم «ميزوبوتاميا» ، أي «بلاد ما بين النهرين» . وبحسب الرواية التوراتية ، أتى معظم الأبناء اليهود من هذه المنطقة .

بن هدد (٩٠٠-٨٤٢ ق.م)

Ben-Hadad

«بن هدد» اسم ثلاثة من ملوك آرام دمشق :

- ١- ملك حكم آرام دمشق في زمن أسا ملك المملكة الجنوبية (٩٠٨-٨٨٦ ق.م) وتحالف معه ضد بعضا ملك المملكة الشمالية .
- ٢- ابن أو حفيد بن هدد ملك آرام دمشق سابق الذكر ، وقد أعلن حرباً على المملكة الشمالية عام ٨٥٦ ق.م ولكنه هُزم وأسر . ولكن آخاب أطلق سراحه وتحالف معه في الحرب ضد شلمانصر الثالث الآشوري عام ٨٥٣ ق.م .
- ٣- ملك حكم بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد . وقد هُزم



وقد انتشر استعمال الأختام وتقدمت صناعتها . والشئ نفسه ينطبق على الحلي وغيرها من أدوات الزينة .

يُعدّ الكنعانيون أول من اخترع حروف الكتابة . وقد استعار منهم الفينيقيون ، كما أخذ عنهم العبرانيون فيما بعد ، أبجديتهم . والأدب الكنعاني الذي وصلنا هو أساساً من الشعر ، وأهم الأعمال الأدبية ملحمة الإله بعل والإلهة عنت وتبدأ بالصراع بين بعل وإله البحر ، وتنتهي بانتصار بعل . وتدور الملحمة حول قصة ذبح بعل ونزوله إلى مملكة الموتى التي يحكمها الإله موت حيث يؤدي اختفاه بعل إلى توقُّف الحياة على الأرض ، وهنا تأتي الإلهة عنت بالإله موت وتلدبه . وهكذا يعود بعل إلى الأرض ومعها الخصوبة والوفرة . وتقوم القصة في معظمها على دورة الفصول ، فالإله بعل مثلاً إله المطر والخصب ويحكم الأرض من سبتمبر إلى مايو ، وموت إله الجذب والموت ويحل محل بعل في الصيف .

وديانة الكنعانيين ذيانة تعبدية سامية كان لها أعمق الأثر في التفكير الديني للعبرانيين بعد تغلغلهم في كنعان . ولذا ، فسوف نورد بشيء من التفصيل ما ورد في كتاب موسكاتي عن الحضارات السامية القديمة حول هذا الموضوع . وأول ما يروى المرء في الدين الكنعاني أنه ذو مستوى أدنى كثيراً من دين أرض الرافدين ، ويتبدى هذا بأجلى صورة في قسوة بعض طقوسه واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية .

ومما يسترعي الانتباه أيضاً أن آلهته ذات طابع غير محدد أو ثابت . فالآلهة الكنعانية كثيراً ما تتبادل صفاتها وصلاتها ، بل وجنسها أيضاً ، حتى ليصعب أحياناً أن نعرف حقيقة طبيعتها وصلاتها بعضها ببعض . وهذا يرجع من ناحية إلى انعدام الوحدة بين الكنعانيين ، ومن ناحية أخرى إلى أنه لم يكن ثمة طبقة من الكهان منظمة تنظيمياً كافياً وتستطيع تنظيم الدين كما في أرض الرافدين .

وكان لكل مدينة آلهتها الخاصة . أما هذه الآلهة ، فقد كان لها في الغالب مكان بين الآلهة التي يعبدها الجميع . كما أن هذه الآلهة كانت تمثل وظيفة معينة من الوظائف المشتركة للآلهة أو مظهر معيناً من مظاهرها . ويمثل هذا كاحسن ما يكون في نصوص أوجاريت ، فهي تذكر آلهة وأحدائاً تتعلق بالآلهة ولا تتصل اتصالاً مباشراً بعبادات تلك المدينة إلا أحياناً .

وكان إيل رأس آلهة الكنعانيين . كان هذا الاسم اسماً سامياً عاماً معناه «إله» ، ثم استعملته شعوب كثيرة علماء على الإله الأكبر . وقد ظل الإله الكنعاني شخصية بعيدة غامضة بعض الشيء ، فهو يسكن

تحتس الثالث (١٥٠٠ - ١٤٥٠ ق.م) يضم أرض كنعان . ويدخلو الكنعانيين في فلك الحكم المصري (في الأسرة الثامنة عشرة) ، نعمت كنعان مرة أخرى بالهدوء والاستقرار بسبب تدفق التجارة . ولكن مع ضعف الدولة المركزية في مصر في عصر إخناتون ، وفشلها في تزويد حاكم كنعان بالمعونات التي طلبها ، تمكن الحاييرو من التسلل إليها . ومع قيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ - ١٢٠٠ ق.م) عادت كنعان إلى الهيمنة المصرية مرة أخرى . وفي هذه الفترة بدأ التسلل العبراني في كنعان (١٢٥٠ - ١٢٠٠ ق.م) ، فاختلط العبرانيون بسكانها من الكنعانيين وغيرهم ، واستوعبوا حضارتهم واستوعبوا فيها .

وكان الكنعانيون ينظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك يعيش في مدينة محصنة تُعدّ المدينة الأم ، حولها أرض مزروعة تنتثر فيها القرى التي تُعدّ بنات المدينة الأم . وقد كانت هذه الدولات المدن في حالة نزاع مستمر . ولا تزال معظم المدن في فلسطين تحمل أسماء كنعانية واضحة ، مثل : أريحا وبيسان وجبلون .

والكنعانيون أول من اكتشف النحاس وجمعوا بينه وبين القصدير لإنتاج البرونز . كما استخدموا الذهب والفضة في تطعيم العاج ، واستعملوا الحديد في مراحل متأخرة . وازدهرت عندهم أيضاً صناعة الأصباغ ولاسيما القرمز والأرجوان اللذين اقترنا باسمهم . وهم الذين اخترعوا السفن فاازدهرت التجارة ، واشتغلوا بزراعة الكروم والبن والمحاصيل الأساسية ، مثل : القمح والعنب والزيتون .

وقد برع الكنعانيون في فن البناء وإنشاء القلاع والتحصينات ، ربما بسبب انقسامهم إلى مدن/دول متصارعة ، وقاموا بأعمال هندسية ضخمة لإصلاح المياه إليها . وكانت الأبنية الدينية تتكون ، في الغالب ، من أراض في العراء تحيط بها أسوار وكانت تضم مذبحاً وحجرة أو أكثر مبنية بالحجر . وكان للمدن الكبيرة معابد مستقوف بناؤها ، وهي أبنية أقرب إلى غط أرض الرافدين . وقد تأثر الكنعانيون في فنونهم ، وخصوصاً في النحت ، بالمصريين والبابليين ، كما تأثروا بفنون الشعوب الأخرى التي غزت المنطقة واستوعبتها . كما كان حفر الصور البارزة فناً مزدهراً نسبياً في كنعان مثلها مثل سائر أنحاء الشرق الأدنى القديم . فتمه أنصاب محفور عليها كالنصب المشهور للإله بعل في أوجاريت . ولكن الجزء الأكبر من الرسوم البارزة الكنعانية زخارف على أشياء صغيرة وجُد أهمها في أوجاريت مثل الطبق الذي رُسم عليه بالذهب البارز منظر صيد .

نحو جزئي ناص ، فلدينا قدر معين من المعلومات المباشرة نستمدده من وثائق أوجاريتية قصيرة أمكن قراءة جانب منها فقط . ولكن لا يزال أكبر مصدر لنا في هذا الصدد ما في العهد القديم من معلومات غير مباشرة .

ويبدو أن الكهانة بلغت في تطورها مرتبة عالية بعض الشيء ، ولكنها بالطبع لم تبلغ من التنظيم حداً يمكن مقارنته بما بلغته الكهانة في أرض الرافدين . فهناك ذكر للكهنة الكبار وسدنة المعابد والبغايا المقدسات ، كما كان ثمة عدد غير قليل من المنتبين . وتشير نصوص أوجاريت إلى بعض طقوس التنبؤ . ولدينا ، أخيراً ، طائفة خاصة هي طائفة الأنبياء . وليست لدينا المعلومات الضرورية التي تمكننا من فهم مكانهم ووظيفتهم في الدين الكنعاني فهماً تاماً ، ولكنهم على أية حال يملون مظهراً من مظاهر الدين الكنعاني له نظير مهم بين جماعة يسرائيل .

ولم تكن أماكن العبادة كلها أو معظمها في صورة المعابد المعروفة ، فقد شاعت هياكل العراء (وهو ما يُتَوَقَّع من دين أقرب إلى الطبيعة) التي كانت تُقام بالقرب من الأشجار أو الينابيع أو على التلال بصورة خاصة ، وهذه هي الأماكن المرتفعة التي تتحدث عنها التوراة (بالعبرية : باموت ومغرداه «بامات» ) . وكان هيكل العراء يتكون من أرض محاطة بسياج تضم مذبحاً وفيها قبل أي شيء آخر حجر مقدس يُعتَقَد أنه حجران أو أنه مسكن الإله ، وهذه هي الفكرة التي أثرت في جماعة يسرائيل فيما بعد .

وكانت القرابين الكنعانية تضم ضحايا من البشر إلى جانب القرابين الحيوانية المألوفة . وكانت القرابين الأدمية تُقدَّم مثلاً في الكوارث العامة الشديدة باعتبارها أعظم قربان يمكن أن يقدمه الإنسان إلى الآلهة . وقد تردد القول بأن الكنعانيين كانوا يقدمون قربانين من الأطفال عند تشييد المباني ، لكن هذا أمر غير مقطوع به . وليس ثمة أدلة مقننة على وجود مثل هذه القرابين إذ ليس في الهياكل العظمية التي اكتُشفت أثر يدل على الموت قتلاً .

وكانت هناك عادة أخرى تتم كذلك عن مستوى ديني منخفض هي زنى الطقوس . وكانت هذه العادة جزءاً من عبادة الخصوبة التي ذكرناها عند الحديث عن آلهة كنعان ، وقد بطل استعمالها فيما بعد بفضل تطوُّر الدين الكنعاني .

ويُستدلُّ على عبادة الموتى في المنطقة كلها بالهدايا التي كانت توضع في القبور . وهذا يشير إلى الإيمان بحياة أخرى بعد الموت ، ولكن ليس لدينا من الوسائل ما نحدد به طبيعة هذه العقيدة على نحو دقيق .

بعيداً عن كنعان (عند منبع النهرين) وبِقَلِّ ذكره في الأساطير عن ذكر الآلهة الأخرى ، وزوجته هي الإلهة أشير المذكورة في التوراة .

وكان يعمل أبرز الآلهة الكنعانية ومركز مجموعة أخرى من الآلهة . وكلمة «بعل» هي في الأصل اسم عام (وليس علماً) ومعناه «سيد» ، ولهذا فقد أمكن إطلاقه على آلهة مختلفة . ولكن بعل الأكبر كان إله العاصفة والبرق والمطر والإعصار كالإله هدد لدى البابليين والآراميين .

وثمة أسماء آلهة كنعانية أخرى مشتقة من الاسم «ملك» . فهذا الاسم يظهر بين العمونيين علماً على إلههم القومي وذلك في الصيغة «ملكوم» . وإله صور يشق اسمه من الكلمة نفسها فهو «ملقرت» اختصار عبارة «ملك قرت» أي «ملك المدينة» .

والواقع أن بعل هو العنصر المذكور في مجموعة آلهة الدورة النباتية التي يجدها أيضاً في روايات دينية سامية أخرى . وترتبط به في هذه المجموعة الإلهتان من آلهة الخصب هما عنت وعشتارت . وثانية هاتين الإلهتين ترد في التوراة باسم عشتارت (أو جمعاً بصيغة عشتارتوت) وهي صنو عشتار في أرض الرافدين ولها نفس خصائصها تقريباً . وتجمع هاتان الإلهتان بين صفتي البكارة والأومة رغم تحارض هاتين الصفتين في الظاهر . والصورتان التي تمثلها تبرز الملامح والرموز الجنسية . وعنت وعشتارت هما إلهتا الحرب في الوقت نفسه . وكثيراً ما يصورهما الأدب والفن قاسيتين ، متعشتتين إلى الدماء ، يسرهما تذيب الرجال . ويتزوج بعل بإلهة الخصب عشتارت ، فينتج عن تلك الزيجة الخضرية التي تكسو الأرض في الربيع . وهذا الزواج المقدس ، الذي يتخذ صفة ريفية ، يصبح فيما بعد اتحاداً بين يهوه وشعبه .

وتكتمل مجموعة آلهة الخصوبة بالإله الشاب الذي يموت ثم ينهض من جديد كما يفعل النبات . وكان هذا الإله يُعبَد في جبل باسم «أدونيس» ، وهو اسم مشتق من كلمة سامية معناها «سيد» ، وقد كانت له نفس خصائص الإله البابلي تموز .

وكان للشمس والقمر مكان محدد على نحو ظاهر بين القوى الطبيعية المختلفة التي كانت تؤهلها كنعان . ويرجع هذا إلى نسبة خصائص الشمس والقمر إلى آلهة أخرى . على أن من المقطوع به أن أهمية الشمس والقمر كانت تقل شيئاً فشيئاً بين الشعوب السامية .

ثم إن الكنعانيين عبدوا آلهة عدة أخذوها عن المصريين أو البابليين ، وهنا يتجلى الطابع التوفيقي الذي تتسم به حضارتهم . وقد حدث ارتباط واندماج ، فيما بعد ، بين الآلهة الكنعانية وآلهة اليونان . ولا يمكننا الآن التحقق من الحياة الدينية للكنعانيين إلا على

الغزو وعن طريق الزواج والتفاعل . ويشير العهد القديم إلى هذه الأقوام «كام» أو «شعوب» ، ولكن الواقع أن معظمها جماعات قبائل .

وفي الوجدان الصهيوني ، يُنظر إلى العرب باعتبارهم هذه الأقوام الكنعانية . وترد إشارات عديدة إلى العرب في كتابات جوش إيمونيم باعتبارهم كنعانيين ويوسيين وعماليق نجب إبادتهم . ومن هنا تتزايد أهمية يوشع بن نون الذي يعرفه أطفال المدارس الإسرائيلية خير معرفة باعتباره البطل العبراني الذي قاد عملية إبادة الأقوام الكنعانية .

#### العناقيون (بنو عناق)

Ankim

«العناقيون» جماعة إثنية كانت تعيش بالأراضي الجبلية في كنعان وفي سهول غزة وأشودود وجات . وقد هزمهم العبرانيون وطردهم بقيادة يوشع بن نون إلى الأراضي الجبلية . ولكن يوشع بن نون فشل في طردهم من غزة وأشودود وجات . وكان بنو عناق ضخماء البنية ويوصفون بالجباة لطلول قامتهم وشدة بأسهم في الحرب . ولذا ، قال الجواسيس العبرانيون عند عودتهم : « وجميع الشعب الذي رأينا فيه أناس طوال القامة ، وقد رأينا هناك الجباة بني عناق فكتنا في أعيننا كالجراد ، وهكذا كنا في أعينهم » (عدد ١٣/٣٢ - ٣٣) . وقد يكون بنو عناق بطناً من بطون العموريين . ويُقال إنهم من الرفاتيين وربما كانوا جليليات منهم .

#### القرنزيون

Kenizzites

«القرنزيون» هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي ورد ذكرها في العهد القديم (تكوين ١٥/١٩) ، وقد ورد ذكرهم في المذونات الحثية .

#### الفرززيون

Perizzites

«الفرززيون» هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي ورد ذكرها في العهد القديم والتي كانت في أرض كنعان قبل التسلل العبراني ، ولم يستعبدهم العبرانيون إلا في زمن سليمان . ومعنى الكلمة غير معروف ، ولعلها تعني «بيرزان Perazan» أي «الأرض الخالية أو الفضاء» ، وربما كانت بمعنى الكلمة الحثية «بيرزي» أي «حديد» .

وقد استوعب العبرانيون الحضارة الكنعانية المادية ، كما اتبعوا كثيراً من العبادات والعادات والصفات الدينية التي تميز بها الكنعانيون . وتعلم العبرانيون الزراعة في كنعان ، كما اتخذوا لغتها لغة لهم . والمغنون الأوائل في الهيكل كنعانيون ، والموسيقى التي عزفها كلٌّ من داود وسليمان موسيقى كنعانية ، والشعر العبري متأثر بالشعر الكنعاني . وكانت الأسماء العبرانية تحمل طابعاً كنعانياً ، فابن شاؤول كان يُسمى «إيش بعل (رجل بعل)» وداود سُمي ابنه «بعل يداع (بعل يعرف)» . وقد كان البناء الديني عند العبرانيين ذا أصل كنعاني ، فنصميم الهيكل موضوع وفقاً لتصميم المعبد الكنعاني . وبعض التحريمات مثل طبخ الجدي في لبن أمه هي عادات كنعانية قديمة .

ويُحرم العهد القديم عبادة آلهة الكنعانيين أو الزواج معهم ، مع أن اليهود القدامى (كما يُبَيَّن) قد تزوجوا معهم واقتبسوا كثيراً من طقوسهم وعبادوا إلههم بعل .

ويروج الصهاينة لوجهة النظر القائلة بأن الكنعانيين قد أيبدوا تماماً على يد العبرانيين أو أنهم ذابوا فيهم . كما يرفضون وجهة النظر القائلة بأن العلاقة بين هذين الشعبين الساميين علاقة تبادلية يلعب فيها الكنعانيون دور الشعب الأقوى وصاحب الحضارة الأكثر تطوراً . ولكن حركة الكنعانيين الحديثة في إسرائيل تدافع عن فكرة العلاقة التبادلية بين العبرانيين والكنعانيين ، وتُخلص من ذلك إلى برنامج سياسي يختلف في بعض الوجوه عن البرامج الصهيونية المعروفة .

#### الأقوام الكنعانية السبعة

Seven Canaanite Nations

«الأقوام الكنعانية السبعة» هي الأقوام التي يرد ذكرها في العهد القديم والتي كانت تقطن في أرض كنعان وكان عددها يزيد على سبعة أحياناً . وقد أتى ذكر القيثيين والقرنزيين والقدموميين والحثيين والفرززيين والرفاتيين والعموريين (الأموريين) والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين والحويين والحوريين (تكوين ١٥/١٩ - ٢١ ؛ عدد ١٣/٢٨ - ٢٩ ؛ يشوع ٢٤/١١ ؛ تثنية ٧/١ ؛ ملوك أول ٢٠/٩) .

وبعض هذه الأقوام لا يرد ذكره إلا في العهد القديم ، كما أن بعضها لا يأتي ذكره إلا في مرحلة تدهورها . ويتحدد اهتمام العهد القديم بهذه الأقوام بمقدار علاقتها بالغزو (التسلل) العبراني لكنعان . ويتحدث العهد القديم عن إبادة بعض هذه الأقوام وعن دحر البعض الآخر وهزيمته . والواقع أن ما حدث هو تسلل عبراني عن طريق

## القينيون (بنو القين)

Kenites

«قيني» اسم سامي معناه «حداد» أو «صانع» . ويُنوَّح بطن من بطون قبيلة أو أهل مدينتين كانوا مستقرين على خليج العقبة بصحراء النقب وصحراء سيناء ، وعادة ما يُقَرنون بالمدينيين . وقد كان القينيون مجاورين للقتزيين الساكنين في أدوم .

تحالف القينيون (حسب الرواية التوراتية) مع العبرانيين ، وأرشدوهم عبر الصحراء في فترة التيه . وبعد التسلسل العبراني ، استوطنوا كتعان وانضموا إلى قبيلة يهودا . ولكن يبدو أن أعداداً منهم عادت إلى الصحراء مرة أخرى أو لعلهم ذابوا تماماً في قبيلة يهودا . ويُقال إن منهم يثرون (حما موسى) ، وأن عبادة يهوه كانت عبادتهم ، وأن موسى تلقى أسرارها على أيديهم . ويُعتَبَر المصدر القيني أقدم مصادر العهد القديم ويرى نقاد العهد القديم أنه يُبَيِّن أثر عبادة القينيين الوثنية فيه .

## الحويون

Hivites

«الحويون» هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي كانت تقطن في شمالي أرض كنعان حينما تسلس إليها العبرانيون . والاسم مأخوذ من لفظ عبري معناه «قرية» أو «مخيم» ويُقَرن بعض العلماء اسمهم بكلمة «حواء» . وحسب رواية أخرى ، فإن كلمة «حوي» حينما ترد في التوراة تكون تحريفاً لكلمة «حوري» في معظم الأحيان . وثمة نظرية ثالثة تقول إن الحويون كانت تربطهم صلة قرى بالآخيين وأن الاسمين مترادفان ، وأنهم هاجروا إلى كنعان في الوقت نفسه الذي هاجر فيه الآخيون إلى اليونان . ويبدو أن علاقة الحويين بالعبرانيين كانت طيبة .

## اليبوسيون

Yebusites; Jebusites

«اليبوسيون» هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة . عاشوا في المناطق المرتفعة المتاخمة للقدس ، وهم الذين بنوا هذه المدينة وسَمَّوها «أورو - سالم» أي «مدينة السلام» . و«يبوس» هو أحد الأسماء القديمة للقدس . ولقد ظل اليبوسيون محتفظين بالمدينة مدة طويلة بعد أن استوطنتها القبائل العبرانية النازحة من كنعان ، فلم تُفْتَح إلا في عهد داود .

وقد عُرف اليبوسيون بشدة مقاومتهم للعبرانيين . ومع هذا ، أخضعهم داود لهيمته ، وجنَّدهم سليمان في أعمال السخرة . ولكنهم استعادوا استقلالهم بعد سقوط المملكة الجنوبية ، وحاولوا فيما بعد منع اليهود العائدين من بناء سور الهيكل . وكانت ديانة اليبوسيين مزيجاً من العقائد السامية والحورية ، وهو ما يدل على أن أصولهم قد تكون حورية . وقد ذاب اليبوسيون في الأقوام الأخرى بعد القرن السادس قبل الميلاد .

## الإيطوريون

Itureans

كلمة «إيطوري» كلمة منسوبة إلى «إيطور» أحد أبناء إسماعيل . والإيطوريون من القبائل العربية التي استوطنت فلسطين ، واتصلت بنيرها من القبائل العربية (الإسماعيلية) الموجودة من قبل . وقد حارب الإيطوريون العبرانيين أيام شاؤول ، ثم اجتاحوا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد مدن السواحل الفينيقية وأسسا مملكة في البقاع واستقروا في شمالي الجليل بفلسطين .

## الرفائليون

Rephaim

«الرفائليون» من الأقوام الكنعانية السبعة التي كانت تستوطن أرض كنعان قبل التسلسل العبراني . وقد ورد ذكرهم في عديد من أسفار التوراة وفي بعض المصادر القديمة . وكانوا يتَسَمون بشخامة القامة ، ولذا فإن الكلمة تُستخدَم أحياناً في العهد القديم بمعنى «ضخم» وليس بمعنى عضو في جماعة إثنية أو عرقية محددة .

## الجرجاشيون

Girgashites

«الجرجاشيون» هم أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي كانت تعيش في كنعان قبل التسلسل العبراني . ويبدو أنهم كانوا يسكنون غربي نهر الأردن ، في المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة القدس ، كما يبدو أنهم كانوا على علاقة باليبوسيين . ولكن ، واستناداً إلى صيغة اسمهم ، يذهب بعض الباحثين إلى أنهم يعودون إلى أصل حوري . وبحسب الرواية التوراتية ، حاول الجرجاشيون الوقوف في وجه التسلسل العبراني .

وتوجد رواية في التلمود مفادها أن الجرجاشيين هربوا إلى أفريقيا بعد أن تسلس العبرانيون إلى كنعان ، واتهم الجرجاشيون العبرانيين بأنهم سارقو الأرض .

البلاد ، ولكن هذه المدن وقعت تحت حكم البابليين إلى أن دخلت بأكملها تحت سيادة الإمبراطورية الفارسية . ومع ظهور الإمبراطورية اليونانية ، سرعان ما اكتسبت فينيقيا طابعاً هيلينياً . واستقلت بعض المدن الفينيقية إلى أن أخضعتها روما جميعاً عام ٦٤ ق.م . مع غيرها من المدن الفينيقية . وقد اكتسبت فينيقيا صبغة عربية بعد الفتح العربي .

لم يهتم الفينيقيون بالزراعة وإنما كان اهتمامهم بالتجارة والصناعة . ومن أشهر صناعاتهم ، الصباغة والزجاج والسيج . وقد اشتهر الفينيقيون بصناعة السفن والملاحة ، كما أنهم يعدون أول أمة بحرية . وقد أسسوا المستعمرات المختلفة في حوض البحر الأبيض المتوسط في قرطاجنة وقبرص وإسبانيا والبرتغال ، كما تاجروا مع بلاد العالم المعروفة آنذاك كافة وسيطروا على التجارة الدولية .

وساهم الفينيقيون في تقدّم علم الجغرافيا . وإليه يُعزى الفضل في نشر حروف الكتابة التي تطورت عند شعوب المنطقة . ومن الناحية الفنية ، تأثر الفينيقيون باليونان ومصر . وأهم آثارهم المعمارية هيكل الملك سليمان . أما ديانتهم ، فهي ديانة خصب سامية تشبه الديانة الكنعانية من عدة وجوه ، فكانوا يعبدون عشتروت في جميع المدن الفينيقية ، كما كان لكل مدينة فينيقية إلهها المحلي . وثمة أدلة تشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت .

**حيرام (٩٧٠-٩٣٥ ق.م)**

Hiram

لفظ «حيرام» لفظ عبري وفينيقي اختصاراً لكلمة «أحيرام» ومعناه «الأخ يرفع» . وهو ملك صور الذي شيّد هيكل لمشتاروت . كان حيرام صديقاً لكل من داود وسليمان . ويبدو أنه كان يود تطوير مملكته تجارياً ، ولذا فقد وسع مدينته وبنى رصيفاً على الجانب الشرقي . واشترك مع سليمان في إرسال بعثة بحرية إلى أوفير للبحث عن الذهب . وقدم حيرام أخشاب الأرز والسرور لبناء الهيكل ، والصناعات المهرة ليساعدوا في تجهيز الخشب والحجر . ومقابل ذلك ، قدم له سليمان الحنطة والزيت ومقاطعة صغيرة من فلسطين .

كما أن اسم «حيرام» كان يُطلق على الصانع الذي أرسله حيرام (الملك) ليصنع الأجزاء النحاسية في الهيكل كالأعمدة .

قاد الملك الحشموني جون هيركانوس حملة ضدهم ، وأكملها ابنه أرسطوبولوس الأول (١٠٥ - ١٠٤ ق.م) . وهُدِّمَت عنوة كَمَا فعل أبوه مع الأدوميين من قبل . وتدل أسماء ملوك الإيطوريين على تأثرهم بالحضارة الهلينية ، كما أنهم انصهروا مثل الأنباط وغيرهم من القبائل العربية في سكان فلسطين .

**الفيينيقيون**

Phoenicians

«فينيقي» كلمة يونانية تعني «الصبغ الأرجواني» أو «كنعان» بالبحورية . ولقد صارت كلمة «فينيقي» مرادفة لكلمة «كنعاني» حوالي عام ١٢٠٠ ق.م . وكان الفينيقيون يُسمَّون «الكنعانيين» ، وظلوا على هذه التسمية حتى العهد الروماني ، وهذا يعني أنهم كانوا من الساميين وإن كانوا قد امتزجوا بشعوب البحر التي أتت من إيجة واستقرت في بلادهم .

ولكن الاسم «فينيقي» ينطبق أساساً على المدن/الدول التي تركزت شمالاً على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وعند سفوح جبال لبنان للاهتمام بها . والواقع أن المدن/الدول الفينيقية لم تكون أياً تحالفات فيما بينها إلا في حالات الخطر . وكانت هذه المدن تمارس الصناعة والتجارة الخارجية ، وقد نشأت بينها وبين اليونان علاقات تجارية ناجحة .

ومن أشهر المدن الفينيقية مدينة جبيل العاصمة الدينية التي كانوا يحجون إليها سنوياً لإقامة الاحتفالات لألهتهم ولاسيما الإله أدونيس . ومن المدن المهمة الأخرى مدينة طرابلس ، وقد كانت مدينة سياسية يجتمع فيها سنوياً ممثلو المدن الفينيقية لبحث شئونهم العامة ولتبادل الآراء والخبرات . ومن المدن الأخرى المهمة مدينة صيدون (صيدا) التي اشتهرت بالتجارة البحرية ، ومدينة صور التي وصلت إلى أوج ازدهارها فيما بين القرنين الماشر والسادس قبل الميلاد ، وأصبحت تجارتها مزدهرة ومرحبة في عهد حيرام الأول . ولقد سيطر المصريون على فينيقيا من الفترة التي أعقبت طرد الهكسوس (١٥٠٠ ق.م) حتى عهد رمسيس الثاني ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الحيثيون يسيطرون على المدن الشمالية . ثم حصل الفينيقيون على استقلالهم الكامل .

وكان الفينيقيون على علاقة وثيقة بالعبرانيين . فتحالف حيرام ملك صور مع سليمان . كما أثرت ديانة الفينيقين في حياة العبرانيين الدينية ، أي في العبادة السريالية .

وقد أخضعت آشور معظم المدن الفينيقية في القرن الثامن قبل

## المدينيون

Midianites

لهم فيما بعد ، ثم استولت على مدينة ربة عمون ( فيلادلفيا ) شرقي الأردن .

وفي القرن الثالث ، ترك الأنباط الرعي إلى حياة الاستقرار وعملوا بالزراعة والتجارة . ولقد مارسوا الزراعة من خلال نظام مركب للحفاظ على المياه . كما استفادوا من وجودهم على طريق إيلات - غزة بالاشتراك في تجارة القوافل ، وقد أسسوا لهذا الغرض مجموعة من المستوطنات الزراعية في صحراء النقب . ولقد بدأ عهد ملوك الأنباط في عام ٦٩ ق.م ، ومنهم الحارث الأول (أريتاس) .

وقد أيّد الأنباط الحشمونيين في بادئ الأمر ، ولكن بعد أن ترسّخ ملكهم وقفوا ضدهم ، فساعد الحارث الثاني (١١٠ - ٩٦ ق.م) سكان غزة حينما حاصرها ألكسندر يانايوس الحشموني عام ٩٦ ق.م ، وانتصر خلفه عميلة (أوبوداس الأول) على يانايوس .

وأثناء المعركة بين هيركانوس الثاني وأرسطوبولوس الثاني على العرش الحشموني ، أيّد الحارث الثالث هيركانوس الثاني ، ولكن الرومان أقتعوه بأن يسحب قواته . واستمرت الحرب بين الأنباط

والسلطة اليهودية في فلسطين أثناء حكم الهيروديين ، فحارب مالك (مالكوس) الأول (٥٠ - ٢٨ ق.م) ضد هيرود . وقدم الأنباط مساعدة للرومان في إخماد التمرد اليهودي الأول . وبلغت المملكة

أقصى اتساعها في عهد الحارث الرابع (٩١ - ٤٠ ق.م) ، فكانت تضم جنوبي فلسطين وشرقي الأردن وسوريا الجنوبية الشرقية وشمال الجزيرة العربية . والحارث هو الذي هزم أنتيباس بن هيرود . ولكن بلاد الأنباط فقدت استقلالها مع ظهور القوة الرومانية ، ثم ضمها تراجان إلى الإمبراطورية .

وكانت حضارة الأنباط عربية في لغتها ، وأرامية في كتابتها ، وسامية في ديانتها ، ويونانية ورومانية في فنها وهندستها المعمارية . وقد تميّز الأنباط في عمارة المدافن . وترتكز معظم فن العمارة في البراءة حيث نحتوا مبانيهم في الصخر الرملي . أما ديانتهم ، فهي ديانة خصب سامية . وقد عبدوا ودوشارا إله الشمس ، وهو أهم آلهتهم وكان يُعبد على هيئة مسلة أو حجر أسود غير منحوت ذي أربع زوايا . ومن آلهتهم أيضاً اللات والعزى ومناة وهبل .

## الإسماعيليون

Ishmaelites

الإسماعيليون هم نسل إسماعيل بن إبراهيم من أمته المصرية هاجر . وقد ورد في سفر التكوين (١٧/٢٠ - ١٢/١٦) أنه كان لإسماعيل اثنا عشر ابناً صاروا أمراء ورؤساء قبائل . وكانت

«المدينيون» قوم من البدو ينتسبون بصلة القرى إلى إبراهيم (حسب الرواية التوراتية) . كان المدينيون يقيمون في منطقة صحراء النقب الواقعة بين مصر وفلسطين والحجاز . وكان المدينيون يعملون بالزراعة والرعي والتجارة ، أما قوافلهم فكانت تسير حاملة البخور والسلع الأخرى من أرض جلعاد إلى مصر وغيرها من البلاد .

والمدينيون هم الذين أدخلوا الجمّل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد إلى فلسطين . وحينما هرب موسى من مصر ، حسب الرواية التوراتية ، كان هروبه إلى أرض مدين حيث تزوج من ابنة كاهنها يثرون .

وقد تعاون المدينيون مع المؤابيين ضد العبرانيين ، كما هاجموا العبرانيين في تاريخ لاحق . وكان المدينيون يقطنون بجوار المؤابيين والأدوميين . هذا ، وقد ذاب المدينيون في القبائل العربية الأخرى .

## العماليق

Amalek

«العماليق» شعب سامي قديم وُجد في أرض مدين (النقب) ، وكان يتجول بين جنوب كنعان ووسطها ثم استقر في الجنوب . أتى ذكره في التوراة بوصفه شعباً معادياً للقبائل العبرانية ، إذ هاجمهم بعد الهجرة من مصر فقتل العديد منهم . ولم يأت ذكر لهذا الشعب في الكتابات المصرية أو الآشورية . وقد عدّهم العبرانيون من أعدائهم الأزلبيين : «فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرّموا كل ماله ، ولا تعفّ عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقراً وغنماً ، وجمالاً وحماراً» (صموئيل الأول ١٥/٢ - ٣) . وقد حاول شاؤول إبادتهم ثم هاجمهم داود فألحق بهم الهزائم . وأثناء حكم حزقيا (٧٢٠ - ٦٩٠ ق.م) ، هاجمتهم قبيلة شمعون واستولت على أراضيهم .

## الانباط (النبط)

Nabateans

«الانباط» قبائل من العرب الرعاة ظهرت على حدود فلسطين في الصحراء الواقعة شرقي الأردن أثناء حكم الفرس (من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد) . واستولت هذه القبائل على جبل سعي (أدوم) وعلى قلعة سلع في البراءة التي أصبحت عاصمة

الغالب ، فإن النيثينيم هم الجبعونيون ، وهم سكان عدة مدن بجوار القدس ، وقد كانوا من الكنعانيين . وحسب الرواية التوراتية ، حينما سمع الجبعونيون بمصير المدن الكنعانية الأخرى ويزيادة سكانها ، خرجوا من مدنها وخذعوا يوشع بن نون وأخبروه بأنهم ليسوا كنعانيين ، فقطع يوشع عهداً على نفسه ألا يمسهم بسوء لأن أمر الإبادة ينطبق على سكان كنعان (فلسطين) وحدهم . وحينما أكتشف أمرهم ، قرّر العبرانيون ألا يمسا الجبعونيين بسوء ، ولكنهم «يكونون محتطبي حطب ومستقي ماء» . وقد أقر يوشع ذلك وقال لهم «ملعونون أنتم فلا ينقطع منكم العبيد ومحتطبو الحطب ومستقو الماء لبيت إلهي» (يشوع ٩/٢٢ - ٢٤، ٢٧) .

ويرد ذكر الجبعونيين مرة أخرى في صموئيل الثاني (٢١) حين تنشب مجاعة (علامة على غضب الرب) لأن شاؤول قتل منهم عدداً دون وجه حق بسبب غيرته لقومه رغم عهد يشوع لهم ، ولذا اضطر داود لشنق سبعة من وروثة شاؤول . ويشير سفر عزرا إلى عدة أسر من النيثينيم يدل اسمها على أصل أجنبي (في الغالب عربي) . كما توجد نصوص أخرى (نحميا ١/١٠ - ٤٠) تدل على أنهم كانوا من جماعة يسرائيل . وفي الأدبيات العرقية الإسرائيلية ، يُشار إلى العرب بأنهم «محتطبو حطب ومستقو ماء» وهو ما يعني أنهم يُقرنون بالجبعونيين والنيثينيم .

هذه القبائل تسكن الجزء الشمالي من شبه جزيرة العرب ، على حدود فلسطين وأرض الرافدين . وقد عُرف الإسماعيليون ، حسب الرواية التوراتية ، بأنهم تجار رُحُل ذوو بشرة داكنة ، ينتقلون من مكان إلى آخر ويتاجرون في العطور والسلع الأخرى . وكذلك عُرفوا بفسراوتهم ومهارتهم في قيادة الجمال ويسكنى الخيام وبأنهم حاذقون في استعمال القوس .

وتُستعمل لفظة «إسماعيليون» للدلالة على القبائل البدوية التي كانت تسكن شمالي الجزيرة العربية (وكان منهم قوافل التجار الذين اشتروا يوسف) بين جلعاد ومصر . ويُعتبر المذثينون إسماعيليين أيضاً . وقد استقر هؤلاء البدو وأسسوا ممالك مستقلة كالأنباط والنساسة واللخمين .

أما في الحطاب السياسي الديني الإسرائيلي ، فإن الكلمة تُستخدم للإشارة إلى العرب .

### الجبعونيون والنيثينيم

Gibeonites and Nethinim

ال«نيثينيم» جماعة غير يهودية كانوا يُعدون من عبيد الهيكل ، كما كانوا يقومون على خدمة كهنته اللاويين ، وقد اشتق اسمهم من فعل «ناتان» بمعنى «يكرم» أو «يسلم» ، ويمكن أن يكون معنى الكلمة في صيغة المفرد هو «تخصيص فرد للعبادة القربانية» . وفي



## ٦

## الحوريون والفلسطينيون

الحوريون - شعوب البحر - الفلسطينيون - جليات

## الحوريون

Hurrians

«الحوريون» أقوام جبلية لا يزال أصلها مجهولاً، وإن كان من المرجح أن موطنها الأصلي أورارتو (أرمينيا الحالية) .

ظهر الحوريون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ولعبوا دوراً مهماً في الألف الثاني . وذلك في فترة شهدت انحسار النفوذ الحيثي عن سوريا، وضعف الدولة الآشورية، وسقوط دولة بابل التي حلّت محلها الدولة الكاشية التي لم تلعب دوراً يذكر في الأحداث الدولية في الشرق الأدنى القديم . هاجر الحوريون إلى فلسطين، وسكنوا في منطقة جبل سميعر جنوب شرقي فلسطين، وأسسوا عدداً من الإمارات في أجزاء من سوريا وفلسطين وبعض أجزاء آسيا الصغرى . ويبدو أنهم كانوا في البداية عنصراً خالصاً إلى أن فرضت جماعة من الآريين سيطرتها عليهم وكوّنت نخبة عسكرية قوية (طبقة الماريانو) قادتهم في غزواتهم العسكرية. ويحتمل أنهم هم الذين غزوا آشور وأسقطوا حكامها وهيمنوا على المنطقة (ومنها المنطقة المتاخمة للأناضول) وأسسوا مملكة ميتاني في شمالي بلاد الرافدين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (١٦٠٠ - ١٣٣٠ ق. م).

اصطدم الحوريون بالمصريين بشأن سوريا بعد تأسيس الإمبراطورية المصرية في أعقاب طرد الهكسوس في الفترة ما بين ١٥٢٠ و ١٤٢٠ ق. م . وتراوحت العلاقة بين شد وجذب إلى أن هاجمهم الحيثيون وهزموا آخر ملوكهم العظام توشراتا عام ١٣٥٠ ق. م، وضمّوا أجزاء من ميتاني التي أصبحت تُسمّى «هانجالبات» . كما ضم الآشوريون البقية الباقية من مملكة ميتاني عام ١٢٧٦ ق. م فتحوّلت إلى مقاطعة آشورية .

ولقد جاء في التوراة أن الحوريين اشتبكوا مع العموريين والكنعانيين الذين دفعوهم إلى منطقة جبال سميعر والتي طردهم منها فيما بعد الآدميون . وتأثر الحيثيون بالحوريين وتبنوا الآلهة الحورية، كما تظهر الأساطير الحورية في الملاحم الحيثية .

ولغة الحوريين معقدة، ليست بسامية ولا هندية أوروبية، ولكن بها كلمات مستعارة من لغات أقوام عدة . أما ديانتهم فكانت تتمثل في عبادة آلهة متعددة حورية وهندية أوروبية، من أهمها الإله الأعظم كوماري والإله تيشوب إله العاصفة . كما انتشرت بين الحوريين عبادة الإلهة السامية عشتار .

ولقد أتى ذكر الحوريين في العهد القديم كواحد من الشعوب التي كانت تقيم في أرض كنعان . ولكن ثمة إشارات أخرى تدل على أنهم كانوا يقطنون في وسط فلسطين ومدينة شكيم، وهو ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن الحوريين هم أنفسهم الحويون . وعلى سبيل المثال، كان يُطلق حامور على ملك شكيم اسم «الحوئي» في النص العبري (تكوين ٢/٣٤)، أما الترجمة السبعينية فتسميه «الحوري» . كما يرى بعض العلماء أن الجوسيين من الحوريين وليسوا من الكنعانيين . وقد تأثرت قصص العهد القديم بقصص الحوريين وعاداتهم وقوانينهم . فقصّة سارة وهاجر تبين العادة الحورية الخاصة بالمرأة العاقر التي ينبغي أن تسمح لزوجها بالزواج من أخرى أو باتخاذ خلية له، كما يظهر أثر الحوريين في القواعد المتبعة في تأجير الأراضي الزراعية لدى العبرانيين . وتوجد أيضاً أوجه شبه عميقة بين عدد من المؤسسات الحورية والعبرانية، الأمر الذي حدا ببعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن القبائل الحورية والعبرانية لها أصل مشترك في العراق قبل استيطانها فلسطين . وقد اختفى الحوريون في حوالي القرن السادس قبل الميلاد .

## شعوب البحر

Sea Peoples

«شعوب البحر» تعبير يُطلق على مجموعة الشعوب من البحارة الذين هاجموا الأناضول وسوريا وفلسطين وقبرص ومصر حوالي عام ١٢٠٠ ق. م . وقد صدر مرسوم الثالث شعوب البحر عندما حاولوا غزو الساحل المصري . ويُقال إنهم المسئولون عن تحطيم الإمبراطورية الحيثية . والواقع أننا لا نعرف مدى الدمار الذي



لكنهم لم يسمحوا لأي من الحدادين بالإقامة بينهم ، فكان على العبرانيين اللجوء إلى الفلسطينيين ليشحذوا أذواتهم الزراعية دون أن يتمكنوا من تحويلها إلى أسلحة . كما أن احتكار الحديد ساعد الفلسطينيين على إخضاع العبرانيين . وحينما بدأت وحدة الدول المدن الفلسطينية في التفكك ، عرف العبرانيون صهر الحديد وتعدينه فتمكنوا من الفلسطينيين .

وقد نجح شاؤول وبعض الوقت في صد الفلسطينيين ولكنه هُزم في نهاية الأمر ، في حين نجح غريمه داود فيما فشل هو فيه خصوصاً بعد أن ضم منطقة أدم الغنية بمعادن الحديد . وقد أنهى داود الهيمنة الفلسطينية وصرع البطل الفلسطيني جُليات وأخضع فلسطيناً . إلا أن الفلسطينيين سرعان ما استعادوا استقلالهم بعد تقسيم المملكة العبرانية وصاروا قوة مرة أخرى ، لكنهم لم يكونوا عتصراً أساسياً إذ أصبح تاريخهم بعد ذلك تاريخ مدن متفرقة لا تاريخ شعب متماسك . ولذا ، لا يشير نحميا (منتصف القرن الخامس قبل الميلاد) إلى الفلسطينيين وإنما يذكر الأشدوديين الذين كانوا يتحدثون بلسان أشدودي .

وخضع الفلسطينيون في القرن السابع قبل الميلاد لسلطان آشور ثم لسلطان مصر . وبعد ذلك ، بسطت الإمبراطورية البابلية الجديدة نفوذها عليهم فاختلطوا بالشعوب السامية المحيطة بهم واندمجوا فيها . وقد اندثرت كل الآثار الفلسطينية تماماً . وكل ما لدينا من معلومات عن هذا الشعب مستمد من الحضارات التي تعاقبت عليه ، مثل الحضارة البابلية أو الحضارة الآشورية أو الحضارة الإغريقية . ولذا ، فنحن لا نعرف الكثير عن هذا الشعب أو عن حضارته سوى أن معرفتهم بالبحر كانت واسعة ، تلك المعرفة التي ورثها عنهم الفينيقيون .

ونحن لا نملك أية معلومات أكيدة عن لغتهم حيث لا توجد أية وثائق مكتوبة بها ، إذ يبدو أن الكنعانية قد حلت محلها ، ثم الآرامية ، وأخيراً اليونانية . والشيء نفسه ينطبق على ديانتهم ، لكننا نعرف أن ألهمتهم تحمل أسماء سامية ، فقد عبدا الإله داجون (إله الغلة) الذي عبده الكنعانيون ، الأمر الذي يدعم النظرية القائلة بأنهم اكتسبوا هوية كنعانية في فترة وجيزة للغاية . ومنذ أيام هيرودوت ، أصبحت المنطقة تُسمى باسمهم ثم أصبح هذا هو اسمها رسمياً في أيام هادريان .

ومن الجدير بالذكر أن حدود المملكة العبرانية المتحدة لم تضم ، في أي وقت ، الشريط الساحلي الفلسطيني . ولكن حينما رُسمت حدود الدولة الصهيونية ، قرّر المخططون لها أن تضم هذه الدولة ذلك الشريط الساحلي ، وهذا يدل على أن الاعتبارات الإمبريالية

أحقوه بالمنطقة لأن الوثائق والسجلات التاريخية تتوقف فجأة عند وصولهم ، وعلى أية حال ، هناك مصادر مصرية وحيثية أوردت ذكرهم . ويُشار إليهم بأسماء عدة تدل على أنهم جاءوا من اليونان والأناضول وصقلية وسردينيا وكريت . كما أن الفخار الذي تركوه يدل على أصولهم اليونانية . ويُعدُّ الفلسطينيون الذين استقروا في فلسطين منذ الألف الثاني قبل الميلاد وتعاشوا مع الكنعانيين ، من هذا الأصل .

## الفلسطينيون

Philistines

«الفلسطينيون» مصطلح نُطلقه على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين الجنوبي الغربي في القسم الممتد من غزة إلى يافا شمالاً ، وهم من شعوب البحر . ولقد ورد ذكر الفلسطينيين في عدد من المصادر المصرية ، خصوصاً على اللوحات الجدارية لمدينة هابو من أيام رمسيس الثالث ، وسماهم المصريون «بلست» . كما ورد ذكرهم في السجلات الآشورية في صيغتين متقاربتين «بلستو» و«بالستو» . ومن هنا تسميتنا لهم باسم «الفلسطينيين» نسبة إلى التسميات القديمة . جاء الفلسطينيون من بحر إيجه حوالي عام ١١٩٤ ق.م ، كان رمسيس الثالث قد صدَّهم عند محاولتهم غزو الساحل المصري . وتدل الرسوم التي وُجدت على البناء التذكاري الذي أقامه رمسيس على أصولهم اليونانية الأوربية ، كما يدل الحزف الذي أدخلوه فلسطين على أصولهم الكريتية .

وقد سُمِّيت المنطقة التي احتلوها «فلسطينا» ، وكانت تشمل خمس مدن ساحلية أساسية (بشابلوس) : أشدود (العاصمة) وعسقلان وغزة وعفرون وجات . ورغم أن مكان استيطانهم كان الشريط الساحلي أساساً ، فإنهم استوطنوا أيضاً في مدن داخلية مثل جات كما أسسوا مدينة اللد .

اصطدم الفلسطينيون بالعبرانيين الذين كانوا قد وفدوا حديثاً إلى المنطقة فهزمو القضاء واستولوا على تابوت العهد ، كما استولوا على أجزاء من المنطقة التي صارت فيما بعد المملكة الجنوبية ، ودامت هيمنتهم أربعين عاماً . ويتيح شمشون الذي وقع في حب دليلاً للفلسطينية إلى هذه الفترة . ولم يكن لدى الفلسطينيين القدر الكافي من الموارد البشرية اللازمة للهيمنة على المنطقة واستغلالها ، ولذا فقد اضطروا إلى الإبقاء على العبرانيين وإخضاعهم ليكونوا أيدي عاملة ، فسمحوا لهم بالاحتفاظ بالأدوات الزراعية وحسب حتى يستمروا في الزراعة وحتى يمكنهم دفع الضرائب المفروضة عليهم .

وجلبات اسم أحد أبطال الفلسطينيين . وكان من جبايرتهم إذ بلغ طوله أكثر من تسعة أقدام وكانت أدواته الحربية مناسبة لطول قامته وقوته . وثمة رواية تقول إنه كان من العناقيين وقتله داود بالمقلاع .

وقد نجحت الدعاية الصهيونية في ترسيخ صورة داود رمزاً لإسرائيل الذي يستخدم ذكاه ومهارته في هزيمة عدوه ، مقابل صورة جلبات رمزاً للعربي الذي قد يتسم بضخامة الحجم وكثرة السلاح ولكنه لا يستخدم عقله فيُمتنى بالهزيمة .

لكن الانتفاضة قلبت هذه الصورة الذهنية رأساً على عقب ، إذ أن المتفضين الفلسطينيين يستخدمون الحجارة والمقلاع ضد الآلة الإسرائيلية الضخمة التي تنسم ببطء الحركة نظراً لضخامتها والتي تنسم بقصور النظر نظراً لعدم إدراكها للواقع . وقد أشار شامير إلى إسرائيل باعتبارها «العماق جلفر» الذي يهاجمه الأقرام ، وفي هذا اعتراف ضمني بأن صورة داود الإسرائيلي ضد جلبات العربي الفلسطيني قد سقطت تماماً .

الإستراتيجية تجب الاعتبارات العاطفية الدينية الخاصة بإرتس إسرائيل أو المملكة العبرانية المتحدة أو الحدود التاريخية لإسرائيل .

ولا بد هنا من ملاحظة أن فلسطيني اليوم لا علاقة لهم بشعوب البحر اليونانية هذه ، فهم ينتمون إلى الأمة العربية . ويجتهد الدعاية الصهيونية في طمس هذه الحقيقة ، وتستخدم التضليل بالأسطورة لتربط في أذهان الناس في العالم بين العرب الفلسطينيين والفلسطينين القدامى الذين انتصر عليهم العبرانيون ، حتى يصبح الصراع العربي الإسرائيلي صراعاً دائماً مستمراً يمتد إلى بداية التاريخ وليست له حدود معروفة .

ويُستخدم لفظ «فلسطين» في اللغة الإنجليزية لوصف الإنسان ضيق الأفق محدود الثقافة الذي ينحصر اهتمامه في الأمور المادية التجارية فقط .

### جلبات

Goliath

قد يكون لفظ «جلبات» اسماً كنعانياً معناه «السيبي أو النبي» .



## ٧ العبرانيون

العبرانيون : تاريخ - الحايبرو - عبرو - جبل سيناء - شبه جزيرة سيناء - فلسطين - أرض كنعان - يهوذا (مقاطعة) - يهود (مقاطعة) - جوديا - شيلوه - بيت إيل - شكيم - جلعاد - السامرة - الجليل - غزة - طبرية - الخليل - صفد - أريحا - القدس : أسماؤها - القدس : مكائنها في الوجدان الديني اليهودي - القدس (تاريخ) - القدس : تهويدها - بيت المقدس - أورشليم

### العبرانيون : تاريخ

Hebrews (History)

مصطلح «عبراني» أو «عبري» يدل على معان كثيرة وأحياناً متناقضة ، فهو ذو دلالات عرقية وطبقية وحضارية . والعبرانيون كتلة بشرية سديية ضخمة يعود أصلها إلى الجزيرة العربية ، استقرت في منطقة الهلال الخصيب وفلسطين في أوقات متفرقة . والكلمة في معناها العام تضم كل القبائل السامية التي تناسلت من صفوفها الشعوب المختلفة التي انتشرت في كنعان وسوريا وبلاد الرافدين ، ومن بينها تلك القبيلة التي جاء منها إبراهيم ونسله . وقد سُميت هذه القبيلة الأخيرة باسم «العبرانيين» ، وذلك من قبيل إطلاق العام على الخاص . وقد شاع هذا الاستخدام حتى بين المؤرخين ، وهو الاستخدام الذي استنبه في هذه الموسوعة نظراً لشيوعه . وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا إما قبائل ليست لها هوية محددة واكتسبت هويتها من خلال اتحادها وعبادتها ليهوه ، أو كانوا قوماً من الأقوام الكنعانية انسلخوا عن العقيدة السائدة وعبدوا يهوه .

وقد دخل العبرانيون أرض كنعان نتيجة ثلاث هجرات غير محددة . بدأت موجة الهجرة الأولى من بلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكانت معاصرة لانتشار الهكسوس والحوريين في الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وكانت الثانية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتوافق هجرة الآراميين الثانية . وهاتان الفترتان توافسان فترة الآباء (٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) التي تمتد من هجرة إبراهيم من بلاد الرافدين وتستمر حتى هجرة يوسف إلى مصر أثناء حكم الهكسوس ورحيل العبرانيين عنها . أما الهجرة الثالثة ، فهي التي أتت من مصر بقيادة موسى ويشوع بن نون في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد أو في عهد مرنبتاح بن رمسيس الثاني (١٢٢٤ - ١٢١٠ ق.م) كما يقول بعض المؤرخين .

ومنذ هجرة أو خروج العبرانيين من مصر ، بدأ اسمهم يتوارث

في التاريخ المدون والمقدس . فنعرف ، حسب الرواية التوراتية ، عن مسيرتهم في سيناء ، وعن تلقّي موسى الوصايا العشر وعن تعلّمه عبادة يهوه على يد كاهن مدين . وبعد موت موسى ، تولى يشوع بن نون قيادتهم . ثم حدثت عملية التسلسل العبراني إلى أرض كنعان (نحو ١٢٥٠ ق.م) التي كانت تغصّ بالقبائل السامية الكنعانية وقبائل أخرى غير سامية . فكان العموريون ، وهم ساميون ، يسكنون المرتفعات . أما الأقوام الأخرى ، مثل الحوريين والحيتيين ، فكانوا يعيشون في أماكن متفرقة . كما كان الفلسطينيين يحتلون المدن الخمس التي تشغل الشريط الساحلي الجنوبي . وقد أخذت عملية التسلسل أشكالاً عسكرية وسلمية مختلفة في تلك المرحلة التي يطلق عليها عصر القضاة (١٢٥٠ - ١٠٢٠ ق.م) ، فدخل العبرانيون في صراع مع الفلسطينيين (الذين هزموهم واستعبدهم بعض الوقت) ومع الأقوام الكنعانية السامية وغير السامية الأخرى . وقد استقر المقام بالعبرانيين في نهاية الأمر داخل بضعة جيوب غير متصلة ، إذ استمر وجود الأقوام الأخرى إلى ما بعد التهجير الآشوري والبابلي .

وقد تبع تلك الفترة عصر اتحاد القبائل أو عصر الملوك فظهرت المملكة العبرانية المتحدة في عهد داود وسليمان ، وقد كان اتحاداً مؤقتاً انحط فور موت سليمان (٩٢٨ ق.م) وانقسم العبرانيون إلى المملكة الجنوبية (التي ضمتّ قبائل الجنوب البدوية) والمملكة الشمالية (التي ضمتّ قبائل الشمال الزراعية) . وقد ظلت الملكتان في حالة حرب شبه دائمة إلى أن قضى الآشوريون على المملكة الأولى ، والبابليون على الثانية ، وبذلك ينتهي تاريخ العبرانيين .

ولم يكن العبرانيون جماعة عرقية متجانسة منذ البداية ، ولذا يقرنهم بعض المؤرخين بالحايبرو . ومن المعروف أنهم ، عند هجرتهم من مصر ، لم يكونوا عتصراً عبرانياً خالصاً إذ تقول التوراة (خروج ٣٨/٢٢ - عدد ١٤/١) إنهم كانوا يضمون في صفوفهم

أصبح لهما استقلالهما وحريةهما ولغتهما وتفكيرهما المستقل ، بل تجاوزا في أهميتهما أحيانا لتجمع الموجود في كنعان . ولذلك ، فحينما حطّم تيتوس الهيكل (٧٠م) ، لم تكن هذه الواقعة ذات دلالة كبيرة من الناحية السكانية فهي لم تكن متعارضة مع الوضع السكاني الحضاري القائم بالفعل ، وهو اختفاء الهوية العبرانية وظهور جماعات يهودية متفرقة في أنحاء العالم تستقي كل منها هويتها من الحضارة التي تنتمي إليها .

ورغم هذا ، نجد أن معظم الدراسات لا تُفرّق بين تاريخ العبرانيين والتواريخ اللاحقة للجماعات اليهودية ، متأثرة في ذلك بالرؤية الإنجيلية التي تنظر إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً ، وهي رؤية تخلط التاريخ النديوي بالتاريخ المقدس .

### الخابيرو

Chabiru

«خابيرو» كلمة أكادية ذات دلالات متعددة ، وأحيانا متناقضة ، تُطلق على قبائل رُحّل من البدو ، وقد ورد أول ذكر لكلمة «الخابيرو» في القوش المصرية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد لتعني «العابر» و«التجول» و«البدوي» . كما استخدمت التسمية أيضاً للإشارة إلى القبائل التي كانت تهاجم قديماً بلاد الرافدين وحدود مصر وكانت تُحير على أرض كنعان من أوتة إلى أخرى فتشيع فيها الفوضى والاضطراب مثلما حدث عندما استولوا على شكيم ، كما ورد في ألواح تل العمارنة والمدونات المصرية (١٣٠٠ - ١١٥٠ ق.م) . ومن دلالات الكلمة أيضاً «الجندي المرتزق» ، فهي إذن تُطلق على أية جماعة من الرحل أو الغزباء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش مقابل أجر أو بدافع الحصول على الغنائم . ويُوصف الخابيرو في وثائق نوزي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد بأنهم «عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم» . لكن الكلمة كانت تُستخدم أحيانا للإشارة إلى أية عناصر فوضوية في المجتمع ، ففي فترات الفوضى في مصر الفرعونية كانت تتواتر الإشارات إلى الخابيرو . ومعنى هذا أن الكلمة ذات مدلول عرقي (الغزباء) ، وأن لها في الوقت نفسه مدلولاً اجتماعياً طبقياً ووظيفياً . وإذا كانت الكلمة غامضة في معناها ، فالأمر لا يختلف كثيراً بالنسبة إلى الخابيرو أنفسهم ، إذ لا يُعرف الكثير عن أصلهم من الناحية العرقية . وكل ما يمكن أن يُقال عنهم إنهم ساميون لا يتميزون تميزاً واضحاً ، ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميين وهم بعد في مرحلة التجوال . وقد ظهروا ضمن القبائل الآرامية التي

لغيفاً كثيراً من غير العبرانيين ، وبعد تسللهم إلى كنعان ، اختلطوا بالعناصر الحورية والحيشية والكنعانية حتى استوعبتهم الحضارة الكنعانية هناك ، فتركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا الكنعانية لساناً لهم .

ولم يكن العبرانيون القدماء من الشعوب المهمة أو المهمة في المنطقة ، فقد كانت المملكتان العبرانيتان خاضعتين للإمبراطوريات المجاورة . وقد تأثرت رؤية العبرانيين للكون بما حولهم . ففي داخل التشكيل الحضاري السامي ، نجد أن الإله هو الذي خلق العالم وهو الذي يحفظ الكون ، وقد أخذ العبرانيون عن العموريين فكرة أن الرسول من عند الإله ، وعن الكنعانيين اللغة ، وعن المصريين الحكمة .

ومن الناحية الحضارية ، لم ينجز العبرانيون شيئاً ذا بال إذ لم تكن لديهم أية اهتمامات أو مهارات فنية . وحينما شيدوا الهيكل ، اضطروا إلى الاستعانة بفنانين من البلاد المجاورة . ولا يوجد أسلوب عبراني متميز في العمارة ، فالهيكل نفسه بُني بالأسلوب الفرعوني الأشوري على يد فنانين فينيقيين . وربما كان هذا راجعاً إلى أن الطابع البدوي ظل غالباً عليهم . فرغم توحد القبائل العبرية في مملكة داود وسليمان ، بقي التراث القبلي قوياً متجذراً . كما أن تحقيق الاستقرار في كنعان تطلّب وقتاً طويلاً ، بالإضافة إلى أن المملكة العبرانية المتحدة لم تُعمّر كثيراً ، ولم تُرسخ أية تقاليد حضارية عبرانية مستقلة . ولعل هذا يفسر عدم ذكر العبرانيين في السجلات المصرية القديمة .

ومن أهم المشاكل التي واجهها العبرانيون في تاريخهم القصير ، توجيههم السياسي في عهد الإمبراطوريات الكبرى الآشورية والبابلية والمصرية والفارسية واليونانية والرومانية ، إذ كان عليهم أن يتحالفوا مع جيرانهم الآراميين أو غيرهم ، كما كان عليهم أن يقبلوا حماية إحدى القوى العظمى لضمان البقاء .

ونتيجة لافتقار العبرانيين إلى الهوية الحضارية المحددة ، ولضعفهم السياسي ووجودهم ككيان شبه مستقل في موقع إستراتيجي ، كانت كل القوى العظمى تطمح إلى الاستيلاء عليه وإلى تأمين وجود عنصر موالٍ لها فيه ، كما أنهم تعرضوا لصددمات كثيرة بدأت بالتهجير الآشوري (٧٢١ ق.م) فالبابلي (٥٨٧ ق.م) ثم فُرضت عليهم الهيمنة الفارسية واليونانية والرومانية . وتأثرت هويتهم الحضارية بذلك ، فتركوا العبرية وتحدثوا بالآرامية بعد التهجير البابلي . ثم بدأ انتشار الجماعات اليهودية بعيداً عن كنعان ، فتكوّن تجمّع في بابل ثم في الإسكندرية ، وهما التجمعان اللذان

وجاء في الأجداده أنه لولا أن أعضاء جماعة يسرائيل وقفوا أمام الجبل لسقطت الدنيا وتهدمت . ويُقال إن للجبل ثلاثة أسماء معلّنة : فهو «جبل الله» لأن الإله كشف عن قدسيته عليه . وهو «جبل سيناء» لأن الإله كره (بالعبرية : سانا) أهل السماوات وفضل عليهم أهل الأرض من اليهود وأعطاهم التوراة . وهو «حوريب» لأن التوراة التي تُسمّى «حرب» أي «سيف» ، قد نزلت هناك . وثمة تفسير ديني آخر هو أن كره الأغيار للشعب اليهودي بدأ هناك في سيناء . وهذه تفسيرات شعبية إذ يبدو أن اسم «سيناء» مشتق من اسم إله القمر «سين» .

### شبه جزيرة سيناء

Sinai Peninsula

تقع شبه جزيرة سيناء شمال شرقي مصر ، اسمها مشتق من اسم إله القمر «سين» معبود أهل شبه جزيرة العرب . ويقع جبل سيناء في شبه الجزيرة . وتبلغ مساحة شبه الجزيرة أربعة وعشرين ألف ميل مربع . وقد كانت سيناء دائماً حلقة الوصل بين آسيا وأفريقيا . وكان الفراعنة يعتمدون منذ أقدم الأزمنة عليها للحصول على النحاس والفيروز وبعض الأحجار . زارها عدد كبير من فراعنة مصر ، وفيها عبد المصريون القدامى الإلهة حتحور وجعلوها ربة المناجم . وقد اكتُشفت فيها أقدم كتابة كنعانية بأحرف شبيهة بالكتابة المصرية ، كانت نواة الحروف الهجائية التي طوّرها وهذبها الكتعايون وأخرجوا منها حروف الكتابة التي أذاعها على العالم .

وسيناء هي البرية التي عبرها إبراهيم ويعقوب عندما نزلا إلى مصر ، وعبرها العبرانيون عند خروجهم أو هجرتهم من مصر ودخولهم إلى أرض كنعان . وقد حارب شاول العماليق في الجزء الشمالي من سيناء . وحينما ترد كلمة «سيناء» في العهد القديم ، فهي لا تشير إلى كل شبه الجزيرة وإنما إلى جزء منها وحسب . وترد الإشارة أيضاً إلى «برية سيناء» وهي الجزء للمحيط بجبل سيناء . وكانت سيناء مسرح كثير من المعارك السياسية والحربية . وقد ضمها الإسرايليون عام ١٩٦٧ ثم أجلوا عنها بعد حرب ١٩٧٣ في إطار اتفاقيات كامب ديفيد .

### فلسطين

Palestine

«فلسطين» هو الاسم الذي يُطلق في الوقت الحاضر على المنطقة الواقعة غربي نهر الأردن والممتدة حتى لبنان وسوريا شمالاً والبحر

هاجرت من شبه الجزيرة العربية ، وإن كان بعض الباحثين يرون أنهم لم يكونوا ساميين وإنما جماعات مهاجرة عاشت حياتها متجولة لتتبع خدماتها لأية أمة في المنطقة ، وأنهم (في معظم مراحل تاريخهم غير المدون) تراوجوا واختلطوا بالعديد من الأجناس .

ويقرن بعض الباحثين الحاييرو بالعبرانيين اعتماداً على التشابه الصوتي الموجود بين الكلمتين . وهم يرون على صدق ما ذهبوا إليه بالإشارة إلى عدد من العادات والتقاليد التي ورد ذكرها في أسفار موسى الخمسة والتي لا علاقة لها بالحضارة أو العادات السامية .

### عبيرو

Apiru

«عبيرو» كلمة ترد في المدونات المصرية القديمة في الفترة من منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ومعناها «عبد» . وتشير كلمة «عبيرو» إلى العمال الذين استُخدموا في أعمال السخرة . وفي نصب تذكاري أقامه أمنحوتب الثاني ، يشير أمنحوتب إلى أنه أسر ثلاثة آلاف وستمئة من الـ «عبيرو» أثناء غزوة قام بها في كنعان . وقد ورد في السجلات التي تركها رمسيس الثاني أنه استخدم عبيداً من العبيرو في مشاريع البناء التي قام بها . ويقرن بعض المؤرخين هذه الكلمة بكلمة «خبايرو» التي ترد في المدونات الأكادية والتي تُفَرِّق بدورها بالعبرانيين لأن الأكادية تخلط بين العين والحاء وفي بعض فتراتها لم يكن فيها حرف العين . لكن هذا غير أكيد ، كما أن المجال الدلالي للكلمتي «عبيرو» و«خبايرو» أوسع بكثير من كلمة «عبراني» .

### جبل سيناء

Mount Sinai

«سيناء» جبل يقع في شبه جزيرة سيناء . ويُسمّى جبل سيناء في العهد القديم «حوريب» ، وهو اسم يُطلق أيضاً على شبه الجزيرة كلها . كما يُشار إليه كذلك بأنه «الجبل» أو «جبل الله» أو «جبل الإله في حوريب» . وجاء في سفر الخروج أن اليهود ضربوا خيامهم عند سفحه بعد خروجهم من مصر ، بينما صعد موسى إلى قمته وتسلّم الوصايا العشر . ولا يُعرّف أي الجبال في سيناء هو الجبل المقصود ، فيرى البعض أنه جبل موسى ، ويرى البعض الآخر أنه جبل سريال القريب منه . ويُعدّ جبل سيناء ومعه جبل صهيون الجبلين المقدّسين اللذين يركز عليهما العالم روحياً في الرؤية الدينية اليهودية .

دخول العموريين ونشأة الحضارة الكنعانية (٢١٠٠ ق.م) . وقد غزا الهكسوس فلسطين ومصر في القرنين الثامن عشر والسادس عشر قبل الميلاد . ويبدو أن بداية التغلغل العبراني تعود إلى الفترة ما بين القرنين ١٦ و١٣ (فترة الآباء) حين أخذ العبرانيون يستوطنون فلسطين والأردن ومصر . وقد قام المصريون في الفترة ١٥٠٠ - ١٤٥٠ بطرد الهكسوس ، ثم ضموا فلسطين تحت لواء تحتمس الثاني . ولكن قبضة المصريين تراخت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (أيام حكم إخناتون) . ولكن رمسيس الثاني أعاد الهيمنة في القرن الثالث عشر بعد حروبه مع الحيثيين . بدأت في هذه الفترة هجرة العبرانيين من مصر إلى فلسطين ، وهي الفترة نفسها التي استقر فيها الفلسطينيون على الساحل (والأراميون في سوريا) . وقد امتد حكم الدولة العبرانية في الفترة ١٠٢٠ - ٩٢٨ ق.م ، ثم انقسمت إلى دويلتين . ويُلاحظ أن هاتين الدويلتين لم تشغلا قط كل الأرض المعروفة باسم «فلسطين» في الوقت الحاضر . وقد أسقط الآشوريون المملكة الشمالية عام ٧٢١ ق.م ، وأسقط البابليون المملكة الجنوبية ٥٨٧ ق.م ، ثم حكم الفرس فلسطين في الفترة ٥٣٨ - ٣٣٢ ق.م إلى أن فتحها الإسكندر . وقد ظلت فلسطين تابعة للدولة البطلمية (التي كانت تحكم مصر) حتى عام ١٩٨ ق.م حين فرض السلوقيون هيمنتهم عليها وهي الهيمنة التي استمرت حتى عام ١٤٢ ق.م حينما نجح الخمسمونيون في تأسيس أسرتهم . وقد انتهى هذا الاستقلال النسبي بظهور القوة الرومانية عام ٦٣ ق.م فحوّلت فلسطين إلى مقاطعة رومانية . وعند تقسيم الإمبراطورية الرومانية ، وقعت فلسطين ضمن الدولة البيزنطية من القرن الخامس حتى القرن السابع باستثناء الفترة ٦١٤ - ٦٢٨ م حيث وقعت تحت حكم الفرس . وقدم الفتح العربي لفلسطين عام ٦٣٨ م .

### أرض كنعان

Land of Canaan

«كنعان» تعني «الأرض المنخفضة» ، وهي من «قنَع» أو «نخَع» لاختلافها عن مرتفعات لبنان ، والقنَع في اللغة العربية أرض سهلة بين رمال ثبّت الشجر . لكن هذا الاشتقاق أصبح مشكوكاً فيه . وأصل الاشتقاق الأقرب إلى الصحة حوري الأصل وهو «كتانجي» بمعنى «الصبغ الأرجواني» الذي أصبح بالفينيقية «كتن» وبالعبرية «كنعان» أي بلاد الأرجوان . وبعد عام ١٢٠٠ ق.م ، أصبحت كلمة فينيقي ، وهي كلمة يونانية تعني أيضاً «الأحمر الأرجواني» ، مرادفة لكلمة «كتانجي» .

التوسط وسيناء غرباً . وحتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة وبداية الإمبراطورية الحديثة ، كان الاسم المصري القديم لها (هي وسوريا ولبنان) هو «رتنو» أي «البلاد الأجنبية» . وفي فترة الإمبراطورية الجديدة ، كانت أرض فلسطين تُسمى «حور» نسبة إلى الحورين . وأول ذكر لكلمة «كتانجي» أو «كنهاننا» أي «كنعان» ، يظهر في ألواح تل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وهذا الاسم يشير إلى غرب نهر الأردن وضمن ذلك سوريا . ولكن المصريين القدماء كانوا يشارون أيضاً إلى «بالاستو» أي «فلسطين» التي اشتق اسمها من أحد شعوب البحر وهم الفلسطينيون . وقد ورد ذكر فلسطين لأول مرة في الوثائق المصرية عام ٧٥ ق.م . ويشير الآشوريون إلى «أرض عمري» كما كانوا يستخدمون عبارة «أرض حيتي» أي «أرض الحيثيين» للإشارة إلى كل الشام وفيها فلسطين وقبرص . وتُستخدَم كذلك عبارة «عبر النهر» للإشارة إلى هذه المنطقة . ويستخدم هيرودوت كلمة «باليستاني» . أما فيلون السكندري ، فيقرن كنعان بفلسطين . وقد استخدم الرومان كلمة «بالستيا» للإشارة إلى هذه المنطقة بشكل رسمي ابتداءً من عام ١٣٨ بعد الميلاد ، وقد ظلت المنطقة المشار إليها تُعرف بهذا الاسم حتى الوقت الحالي . ويُشار إلى فلسطين بعبارة «إرتس يسرائيل» و«صهيون» و«أرض المعاد» في الكتابات الدينية اليهودية وفي اللغة العبرية . أما في الكتابات غير الدينية ، فكان يُشار إليها باسم «فلسطين» . ولذا ، فقد كان الاسم الرسمي للوكالة اليهودية هو الوكالة اليهودية لفلسطين . وكانت الجيوسالم بوست هي البساتين بوست ، بل إن المؤرخ هاينريش جرايتز أشار إلى القومية اليهودية باعتبارها «القومية الفلسطينية» . وفي كل الكتابات العلمية والمتاحف ، يُشار إلى المنطقة المذكورة بأنها فلسطين . ومع هذا ، يشير الصهاينة إلى فلسطين باعتبارها «الوطن القومي» أو «الوطن اليهودي» ، كما يُشار إليها باعتبارها «اليشوف» أي «المستوطن» . وفي عام ١٩٤٨ ، مع قيام الدولة الصهيونية ، تغير اسم المنطقة إلى «إسرائيل» (كما يحدث عادة مع الدول الاستيطانية) .

ويعود تاريخ فلسطين إلى ما قبل التاريخ ، فقد عُثر على صناعات يدوية من العصر الحجري القديم (٤٠٠,٠٠٠ - ١٤,٠٠٠) ومن العصر الحجري الوسيط (من ١٤,٠٠٠ إلى ٨,٠٠٠) ومن العصر الحجري الحديث (٨,٠٠٠ - ٤,٢٠٠) . ومن أهم المدن التاريخية بفلسطين مدينة أريحا التي يعود تاريخها إلى ٨,٠٠٠ ق.م ، مع أن تشكيل المدن والدول يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وقد اكتسبت فلسطين طابعها السامي في الألف الثاني مع

والأشورية . وقد جاء في سفر نحemia شكوى من أن العناصر العبرانية التي لم تُهجر إلى بابل قد استوعبت هي الأخرى ضمن العناصر المحلية : في تلك الأيام رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموابيات ، ونصف كلام بينهم باللسان الأشدودي ، ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي (نحميا ١٣/٢٤ - ٢٤) . وتُطلق الأدبيات الدينية اليهودية على كنعان اسم «إرتس يسرائيل» ، أي «أرض إسرائيل» ، وهي أيضاً في هذه الأدبيات «صهيون» .

## يهودا (مقاطعة)

Judah

تُستخدَم كلمة «يهودا» للإشارة إلى ما يلي :

١ - أرض يهودا : وهي إشارة إلى نصيب قبيلة يهودا من الأرض ، والذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الميت وكان حده الشمالي نهر روبين جنوبي يافا . وعلى هذا ، فإن القدس كانت خارج أرض يهودا . ولم تكن أرض يهودا تضم المدن الساحلية ، كأشدود وغزة وعسقلان ، لأنها بقيت في أيدي الفلسطينيين . كان عرض أرض يهودا (من الغرب إلى الشرق) نحو خمسين ميلاً ، وكان طولها (من الجنوب إلى الشمال) نحو خمسة وأربعين ميلاً ، وكانت مساحتها أكثر من ألفي ميل مربع .

٢ - المملكة الجنوبية (يهودا) : وتضم أرض يهودا وأكثر أرض بنيامين إلى الشمال الشرقي ، ودان إلى الشمال الغربي ، وشمعون إلى الجنوب . وكانت مساحتها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع . وقد أُطلقت الكلمتان «يهودا» الفارسية ثم «يوديا» الرومانية على المقاطعة المحيطة بالقدس . ولكن جرى العرف على استخدام كلمة «يهودا» للإشارة إلى «يهودا» العبرانية و«يهودا» الفارسية و«يوديا» الرومانية . ويلاحظ أن الحشمونيين سمّوا دولتهم باسم «يهودا» . وقد اختفى الاسم بصيغته العبرية والرومانية منذ عام ١٣٥ م ، حينما أُطلق على فلسطين بأسمائها كافة (يهودا والسامرة والجليل وغيرها) اسم «بالستينا» . ويُطلق الصهانية مصطلح (يهودا والسامرة) على الضفة الغربية لإنكار كل التطورات التاريخية التي حدثت منذ ذلك الحين ، ولتسوية عملية الضم .

وفي هذه الموسوعة ، نستخدم كلمة «يهودا» ، ولكننا نقرنها أحياناً باسم الإمبراطورية الحاكمة فنقول «يهودا السلوقية» أو «يهودا البطلمية» أو «يهودا الرومانية» ، إلا إذا كان السياق يجعل نسبتها واضحة . وبهذا ، فإننا نشير إلى رقعة جغرافية تختلف حدودها

وقد استُخدم اسم كنعان في أول الأمر للدلالة على غربي فلسطين ، ثم أصبح اللفظ علماً على ما هو متعارف عليه جغرافياً باسم «فلسطين» وعلى قسم كبير من سوريا .

وأرض كنعان هي الأرض التي وعد الرب بها نسل إبراهيم ، حسبما جاء في سفر التكوين . وكان على اليهود أن يخوضوا معارك ضارية ضد الكنعانيين ليستوطنوها ، فقد ورد في أحد أسفار العهد القديم (عدد ٣٣/٥٠ - ٥٦) : «وكلّم الرب موسى . . . قائلاً كلّم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأرض إلى أرض كنعان ، فنظفرون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاورهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم . تملكون الأرض وتساكنون فيها لأنني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها ، وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم . . . وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها ، فيكون أنني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» . وقد تسلل العبرانيون إلى أرض كنعان بعد خروجهم أو هجرتهم من مصر .

ويرتبط تاريخ كنعان بالتاريخ المصري إلى حد كبير ، فقد ضمتها مصر إليها خلال حكم الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١١٧٦ ق.م) فعنها الرخاء . ثم قام الهكسوس باحتلال كنعان ومصر مدة مائة وعشرين عاماً ، ثم طردهم المصريون وضموا أرض كنعان مرة أخرى . ومع قيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ - ١٢٠٠ ق.م) ، عادت كنعان إلى الهيمنة المصرية .

وكانت كنعان من نصيب المصريين بعد معركة قادش (١٢٨٨ ق.م) التي دارت مع الحيشيين ، وهي المعركة التي لم يُكتب فيها النصر لأي من الفريقين . وشهدت أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد غزو شعوب البحر من الفلسطينيين الذين استوطنوا الشريط الساحلي . كما شهدت في الوقت نفسه التسلل العبراني ، وكذلك قيام مملكة داود وسليمان والمملكتين العبرانيتين الشمالية والجنوبية ، والغزوات الأشورية والبابلية .

وقد أخذ الوجود العبراني في كنعان شكل جيوب وحسب إذ أن الوجود الحضاري والإنثي للشعوب الأخرى ظل مستمراً . ويتضح هذا من احتفاظ القدس (مدينة البيوسين) باستقلالها إلى أن احتلها داود . كما أن الشعوب السامية المختلفة ، من موابيين وأنباط وعمونيين وتلك التي جرى استيعابها في الحضارة السامية (مثل الفلسطينيين) ، ظل لها وجود مستمر حتى بعد الهجمات البابلية

ضمَّها الرومان في عام ٦٣ ق.م ، فكان يحكمها حاكم (بروكوراتو) يعينه الإمبراطور الروماني .

وتجب ملاحظة أن المصطلح كان يُستخدم أحياناً ، بالمعنى السياسي لا الجغرافي ، ليشير إلى رقعة أكثر اتساعاً . فكان يُشار أحياناً إلى كل فلسطين (ما عدا المدن الهلينية) باعتبار أنها «جوديا» ، كما كان يُشار إلى كل الأرض التي حكمها هيرود على أنها «جوديا» ، وهي رقعة واسعة تضم معظم فلسطين . وقد شغل أرخيلائوس ، ابن هيرود ، منصب رئيس القوم (لئناخ) في جوديا التي كانت تشير إلى يهودا والسامرة فقط . وترد الكلمة في العهد الجديد بمعنى سياسي واسع ، فقد جرى العرف على استخدام كلمة «يهودا» للإشارة إلى كل من يهودا (القبيلة العبرانية) ، وإلى المنطقة التي كانت من نصيبهم ، وإلى المملكة الجنوبية ، وللإشارة أيضاً إلى يوديا الرومانية . وفي عام ١٣٥م ، أطلق مصطلح «بالستينا» على كل فلسطين ومنها جوديا الرومانية . ولواجهة فوضى المصطلحات ، نستخدم كلمة «يهودا» ونقترنها باسم الإمبراطورية الحاكمة ، فنقول «يهودا السلوقية» أو يهودا البطلمية أو «يهودا الرومانية» ، إلا إذا كانت النسبة واضحة من السياق ذاته . وبهذا ، فإننا نشير إلى رقعة جغرافية تختلف حدودها وكذا وضعها الإداري باختلاف الإمبراطورية الحاكمة ، كما أننا نفرق بهذا بين يهودا وفلسطين ، فيهودا ليست سوى جزء من فلسطين .

### شيلوه

Shiloh

«شيلوه» اسم عبري معناه «موضع الراحة» . و«شيلوه» اسم مدينة من أصل كنعاني تقع على بعد عشرة أميال شمالي بيت إيل على الطريق بين نابلس والقدس ، على بعد سبعة عشر ميلاً منها . وقد تكون شيلوه هي خربة سيلون (من العربية : سلوى) .

كانت هذه المدينة موطن النبي صموئيل . وقد وضع يشوع بن نون فيها تابوت العهد حيث بقي ثلاثمائة عام . كما كانت هذه المدينة المركز الديني والإداري أثناء فترة الاستيطان الأول . وقد قسّم فيها يشوع أرض كنعان ووزعها على القبائل العبرانية . وكان العبرانيون يحجّون إليها ويقضون فيها العيد إبان حكم القضاة .

ومنذ أن اختطف الفلستينيون تابوت العهد ، لم يرجع هذا التابوت إلى شيلوه . فقدت المدينة مكانتها ، وانتقل مركز العبادة إلى القدس .

وكذا وضعها الإداري باختلاف الإمبراطورية الحاكمة ، كما أننا نُفرق بهذا بين يهودا وفلسطين ، فيهودا ليست سوى جزء من فلسطين .

### يهود (مقاطعة)

Yehud (or Yahud)

حين ضمّ الفرس فلسطين ضمن ما ضموا من ممتلكات الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية ، أطلق على كل أرض فلسطين اسم «عبر النهر» ، أي الأرض التي تقع عبر نهر الفرات . وكان المرزبان (الحاكم الفارسي) يحكمها من دمشق . وكانت مقاطعة يهودا (التي كان يطلق عليها الفرس «يهود») مساحة صغيرة تحيط القدس ، طولها خمسة وثلاثون ميلاً وعرضها يتراوح بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين ميلاً ، فكان معظمها أرضاً صحراوية .

ونستخدم في هذه الموسوعة كلمة «يهودا» ونقترنها باسم الإمبراطورية الحاكمة فنقول «يهودا الفارسية» أو «يهودا الرومانية» . وبهذا ، فإننا نشير إلى رقعة جغرافية تختلف حدودها وكذا وضعها الإداري باختلاف الإمبراطورية الحاكمة . كما أننا نفرق في الوقت نفسه بين يهودا وفلسطين ، فيهودا ليست سوى جزء من فلسطين .

### جوديا

Judea

«جوديا» هو الاسم الذي كان يُطلق على القسم الجنوبي من فلسطين إبان حكم الإمبراطورية الرومانية . تمتد حدود يوديا الشمالية من يافا على ساحل البحر المتوسط إلى نقطة الأردن التي تبعد عشرة أميال إلى الشمال من البحر الميت . وتمتد حدودها الجنوبية من وادي غزة على بُعد سبعة أميال إلى الجنوب الغربي من غزة إلى بئر سبع ثم إلى القسم الجنوبي من البحر الميت . وكان طولها من الشمال إلى الجنوب نحو خمسة وخمسين ميلاً ، كما كان طولها من الشرق إلى الغرب نحو خمسة وخمسين ميلاً تقريباً . وتشتمل جوديا على كل من القدس وبيت لحم . وهي تُعتبر أحد أقسام فلسطين الثلاثة : الجليل في الشمال ، والسامرة في الوسط ، ويوديا في الجنوب . وقد استخدم مصطلح «يهودا» الفارسية لأول مرة في سفر عزرا (٨/٥) للإشارة إلى تلك الرقعة الصغيرة التي تحيط بالقدس والتي كانت ولاية تابعة لها ثم للبطالة والسلوقيين . وقد



## بيت إيل

Bethel

«بيت إيل» تعبير عبري معناه «بيت الرب» . وهي مدينة كنعانية قديمة كانت تُعرف باسم «لوز» على بعد ستة عشر كيلو متراً من القدس وناپلس ، واسمها الحديث «بيتين» . ولم تكن بيت إيل مدينة حصينة ، لكنها كانت محاطة بعدة عيون ماء ، وواقعة على الطريق من أريحا إلى البحر الأبيض المتوسط . وقد كانت بيت إيل مكاناً مقدساً لدى الكنعانيين قبل التسلل العبراني ، ثم استولت عليها قبيلة يوسف وصارت من نصيب قبيلة إفرام . ويربط الموروث الديني اليهودي بين إيل وكل من إبراهيم ويعقوب ، إذ بنى فيها الأول مذبحاً حيث تجدد العهد الإلهي . وفيها رأى يعقوب حلمًا وتغيّر اسمه إلى يسرايل ، وأصدرت دوراه أحكامها بالقرب منها . وقد وُضعت فيها خيمة الاجتماع ، كما وُضع فيها تابوت العهد قبل أن يُنقل ويستقر في القدس . وكانت بيت إيل مركزاً لاتحاد القبائل ، ولكنها فقدت أهميتها بعد بناء الهيكل . وشيّد فيها يربعام ملك المملكة الشمالية هيكلاً قومياً لمملكته ، كما شيّد هيكلاً آخر في دان وزوّد به بعبسول ذهبية ، حتى لا يبحج سكان مملكته إلى هيكل القدس . ويبدو أنها كانت عاصمة المملكة الشمالية لبعض الوقت . وقد أُلقي فيها عاموس نبوءاته ، وهاجمها يوشيا ملك المملكة الجنوبية وذبح كهنتها وحرب أصنامها وهياكلها . وهدمها الآشوريون ثم دسّرها بعد ذلك البابليون ومن بعدهم الفرس . وقد أُعيد بناؤها في العصر الهيليني ، ولكنها هُجرت مع الفتح العربي .

## جلعاد

Gilead

«جلعاد» تعبير عبري من «جال» التي تعني «حجر» و«عد» التي تعني «شاهد» ، أي أن «جلعاد» تعني «شاهد حجر» . وقد أتى في العهد القديم : «هذه الرجمة هي شاهدة بيني وبينك اليوم . لذلك دُعي اسمها جلعاد» (تكوين ٣١/٤٧) . وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى كل المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن وجنوبي نهر اليرموك وكان يسكنها بعض القبائل العبرانية ومن أهمها قبيلة جاد . وقد كتب لورنس أوليفانت كتاباً بعنوان أرض جلعاد يحتوي على مشروع صهيوني استيطاني . وتركز الكتابات الإسرائيلية الصهيونية في الوقت الحاضر على أهمية أرض جلعاد باعتبارها جزءاً من أرض إسرائيل الكبرى .

## السامرة

Samaria

«السامرة» هي عاصمة المملكة الشمالية وتُطلق عليها باللغة العبرية «شومرون» نسبة إلى «شمر» الذي كان يمتلك التل الذي بُنيت عليه المدينة . تقع السامرة على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال من القدس ، وستة أميال إلى الشمال الغربي من شكيم (ناپلس) ، وهي المدينة التي يقع فيها جبل جريزيم الذي يبحج إليه السامريون في عيد الفصح . وتُطلق كلمة «السامرة» أحياناً على المملكة ككل . أُسست المدينة عام ٨٨٠-٨٧٩ ق. م . حينما جعلها عمري عاصمة المملكة الشمالية ، وقد أتاح هذا الموقع الحصين للمدينة والمطل على طريقين رئيسيين أحدهما من الجنوب والثاني من الشرق لعمري ومملكته السيطرة على طرق التجارة التي كانت تعبر فلسطين إلى الممر الساحلي . وقد شيّد عمري في المدينة قصراً عُرف باسم «بيت

## شكيم

Shechem

«شكيم» ، وتُكتب أيضاً «شيكيم» ، ويكتبها السامريون «شخيم» ، وهي كلمة عبرية معناها «كثف» أو «منكب» ، وتُطلق هذه الكلمة عكساً على مدينة كنعانية قديمة تقع بين جبل جريزيم وجبل عيبال في الضفة الغربية . وتعود أقدم حوائطها إلى عام ٢٠٠٠ ق. م . وهي فترة تسبق التسلل العبراني . وكانت المدينة تحت حكم الأسرة الثانية عشرة المصرية ، وضرب الآباء العبرانيون نتيامهم على أطرافها (تكوين ١٢/٦) . وقد حدث أول اتصال بين إبراهيم والكنعانيين فيها ، وفيها أيضاً ظهر الإله إبراهيم وبنى له مذبحاً . ووجد يعقوب أن الحوين يقيمون فيها . وأثناء التسلل العبراني ، نهبت قبيلتا سيمون ولاوي ، ووقعت فيها حادثة دينا وشكيم بن حامور الملك . وأصبحت شكيم أول مركز ديني

## الجليل

Galilee

«الجليل» من «الجلجال» وهو لفظ سامي يرجح أن يكون كنعاني الأصل ومعناه «الحجر المسندي الشكل»، ومعنى الكلمة بالعبرية «دائرة» أو «مقاطعة». والجليل هو اسم المنطقة الشمالية من فلسطين، وتقع بين نهر اللطاني ووادي يزرعيل، عرضها تسعة عشر ميلاً وطولها خمسة وعشرون ميلاً. وهي مقاطعة جبلية منتجة للحبوب وتكثر فيها الجبال، مثل الكرمل وجلبوع، التي يبلغ ارتفاع بعضها أربعة آلاف قدم.

وتُعدُّ الجليل من أوليات المناطق التي سكنها الإنسان، ومن أقدم مدينتها مدينة مجدو التي شهدت معارك طاحنة بين الكنعانيين والمصريين (١٤٨٠ ق.م). وقد سكنها الحويون والجرجاشيون وغيرهم من الأقسام. وقد استقرت قبائل نفتالي وأشر ويساكر وزبولون في الجليل. كما انتقلت إليها قبيلة دان. ولم يستطع العبرانيون طرد سكان الجليل، ولذا ظل سكانها خليطاً. وقد أعطى سليمان حيرام (ملك صور) عشرين من مدينتها نظير أدوات بناء ابتاعها منه. وبعد التهجير إلى بابل والعودة منها، أصبحت أغلبية سكانها من غير اليهود. وقد غزاها شيشنق أثناء حكم رحبعام، وضمها الآشوريون ثم حكمها الفرس والسلوقيون. وفي عام ٦٣ ق.م. احتلها الرومان وأصبحت الجليل تابعة لهم. وفي عهد الرومان كانت فلسطين تُقسَّم إلى ثلاث مناطق: الجليل والسامرة ويهوذا (يوديا باللاتينية). وكانت الجليل ذاتها تُقسَّم إلى الجليل الأعلى والجليل الأسفل.

وحينما قام التمرد الخشموني، كان عدد اليهود من القلة بحيث اضطر سيمون الخشموني إلى تهجير الأقلية اليهودية منها خشية أن تهاجمهم الأغلبية. وقد هاجر بعض اليهود إليها أثناء حكم الأسرة الخشمونية بعد أن ضم أرسطوبولوس الأول منطقة يهوذا. وفي تلك المرحلة التاريخية، كان يهود الجليل غير ملتزمين بالشعائر الدينية كتلك الخاصة باختنان والعشور. ولذا، كان يُشار إليهم باسم «عمّ هارتس» أي «عوام الأرض»، وهي عبارة تفيد أنهم أجيال غير مؤمنين. وكان تطهيم للعبرية مختلفاً عن نطق اليهود الموجودين في يهوذا. وتقول المصادر إنهم لم يكن بوسعهم التمييز بين حرفي الألف والعين. وقد انضم بعض يهود الجليل إلى التمرد الأول ضد روما (٦٦ - ٧٣م) وكان قائد القسوات اليهودية في الجليل هو يوسيفوس الذي استسلم للرومان. ولم يتخذ الرومان إجراءات انتقامية ضد سكانها من اليهود لأن أعداداً منهم، وخصوصاً في

العاج»، ويبدو أنه كان من الضخامة والثراء بحيث ظلت الحوليات الآشورية تشير إلى السامرة باسم «بيت عمري» مدة قرن من الزمن. وظلت المدينة قائمة إلى أن استولى عليها سرجون الثاني في (٧٢٢ - ٧٢١ ق.م) بعد حصار دام ثلاثة أعوام، وقد تحوَّلت إلى عاصمة إدارية للمنطقة. وبعد خضوع السامرة لفتوحات الإسكندر، استولت عليها جالية مقدونية وأصبحت السامرة مدينة يونانية في مظاهرها كافة. وقد هاجمها يوحنا هيركانوس الخشموني سنة ١٠٩ ق.م. وخرَّبها وباع أهلها عبداً. وبعد مجيء القائد الروماني بومبي، أعيدت المدينة لأصحابها السابقين، وأعاد هيرود الأكبر بناءها في الفترة ٣٧ - ٤ ق.م، وهو الذي سماها «سباست» (سبسطية) تكريماً للإمبراطور أوغسطس (سباسطوس باليونانية).

وقد اهتم هيرود بإقامة حصن وقلعة بالمدينة وطُنَّ فيها عناصر مخلصة له، ولذلك جاء إلى المدينة بستة آلاف من جنوده المُسَرَّحين كان بينهم ألمان وغاليون (من الغال أي فرنسا) وغيرهما من الأجناس. وقد كانت سبسطية مصدراً لجنود الإمبراطورية الرومانية. لذلك، حينما قامت الثورة اليهودية ضد الرومان عام ٦٦ م، قتل اليهود الكثيرين من سكان سبسطية ودمروا أجزاء منها، لكنها استرجعت نشاطها بعد عام ٧٠ م.

وتُطلق كلمة «السامرة» أيضاً على الجزء الأوسط من فلسطين (بين الجليل ويهوذا) والذي سُمِّي باسم السامرة التي تقع فيه، وتكثر في السامرة التلال ويغلب عليها المظهر الجبلي، كما تتميز بوفرة أمطارها. ويحدها جبل الكرمل والبحر غرباً ووادي يزرعيل شمالاً وجبل جلبوع ونهر الأردن شرقاً ووادي عجلون جنوباً. وقد استقرت في هذه المنطقة قبيلة يوسف (منسى في الجزء الشمالي منها وإفرايم في الجنوب). وتضم السامرة وبيت إيل وترصه ومجدو وبيسان وجبل جريزيم. وبعد التهجير الآشوري، وطُنَّ فيها سرجون الثاني قبائل أخرى اختلطت بالعناصر اليهودية المتبقية، فظهر السامريون نتيجة تزاوج هذه العناصر (حسب الرواية التوراتية). وقد كانت المنطقة تابعة لآشور وبابل وفارس ومقدونيا والمملكة الخشمونية على التوالي. ويشير الأنبياء إلى المنطقة باسم «إفرايم». أما اسم «السامرة»، فيعود، على ما يبدو، إلى الآشوريين الذين كانوا يُطلقون اسم العاصمة على المنطقة التي يضمونها. والآن يُطلق الصهاينة مصطلح «يهوذا والسامرة» على الضفة الغربية لتسوية الضم.

وكانت غزة المدينة الوحيدة في فلسطين التي لم تستسلم للإسكندر ، فنكّل بها وهدم أسوارها . وقد قاومت غزة المكابيين حينما قاموا بثورتهم وأبت الخضوع لهم ، لكنها استسلمت لهم عام ١٤٥ ق.م . ثم تجرّدت عام ٩٥ ق.م ، فحاصرها الإسكندر بانايوس لمدة عام . وبعد أن دخلها ، أحرقتها وقتل أعداداً كبيرة من أهلها .

وقد قاومت غزة الغزو الروماني لمدة طويلة . وبعد أن أخضعها الرومان ، تحوّلت إلى مستعمرة عسكرية . ولما نكّل هادريان باليهود الذين ثاروا ضد الإمبراطورية الرومانية ، بعث بأسراهم إليها حيث قُتلوا في المصارعة التي أقيمت في حلة الألعاب الهلنيدانية .

وظلت غزة تحت حكم الرومان إلى أن فتحها العرب عام ٦٣٤ م . واستولى الفرنجة عليها عام ١١٠٠ ، فظلت بحوزتهم حتى تحررت بعد معركة حطين عام ١١٨٧ . ثم احتلتها الإنجليز عام ١٩١٧ .

وبعد عام ١٩٤٨ ، دخلت غزة تحت الحكم الإداري المصري ، ومنها قام الفدائيون الفلسطينيون بشن هجماتهم على إسرائيل . وفي عام ١٩٦٧ ، ضمّتها إسرائيل ، ولكنها قاومت الاحتلال بضراوة . وقد اعترف ديان وزير الدفاع الإسرائيلي حينذاك بأن غزة « يحكمها الفدائيون في الليل » . وقد اندلعت منها الانتفاضة الفلسطينية في ديسمبر ١٩٨٧ ، واستمرت في التصاعد . وبمقتضى اتفاقية أوسلو أصبحت غزة خاضعة للسلطة الفلسطينية .

### طبرية

Tiberias

«طبرية» مدينة في الجليل . وهي إحدى المدن الأربع التي يقدّسها اليهود في فلسطين والتي يجب ألا تنقطع فيها الصلاة . أما الثلاث الأخرى فهي : القدس والخليل وصفد . تقع طبرية شمال شرقي فلسطين عند البحيرة المسماة باسمها (بحيرة طبرية) على بُعد أربعة أميال من طرفها الجنوبي . شيّدها هيرود أنتيباس (ابن هيرود) عام ٢٢م وسماها على اسم الإمبراطور طيباريوس لتحتل محل صفورية كعاصمة للجليل . وكانت طبرية تقع على طريق تجاري يربط سوريا بمصر ، واشتهرت بالتجارة وصيد الأسماك . وتوجد على مقربة منها عيون ساخنة جعلت منها منتجاً صحياً مشهوراً . وفي النهاية ، استقر فيها أثرياء اليهود . ولذا ، كانت المدينة تضم مكاتب الحكومة والصياقة . كما أن بعض أعضاء الطبقات الفقيرة من اليهود استوطنوها ليحصلوا على الأرض والسكنى .

وطبرية أول مدينة يهودية تنال استقلالها وتصبح مدينة

صفورية وطبرية ، كانت متعاطفة مع الرومان . أما التمرد الثاني (١٣٢-١٣٥م) ضد روما ، فلم يؤيده سكان الجليل من اليهود . وأصبحت الجليل مركزاً للدراسات الدينية إذ تضم طبرية التي صارت مقراً للسنهدين . ومن مدن الجليل أيضاً الكرمل وصفد . ويقع فيها بحر طبرية المعروف باسم «بحر الجليل» . وقد نشأ المسيح في الجليل ، ولذا فقد كان يعرف بـ «الجليلي» . ثم دخلت الجليل بعد ذلك نطاق الحضارة الإسلامية ، ونزلت قبائل عربية كثيرة فيها . وتأسست في العهد العثماني بعض الإمارات الإسلامية . ومن أهم مدن الجليل صفد وطبرية وبيسان وعكا . ولا تزال الكثافة السكانية العربية عالية في منطقة الجليل ، رغم المحاولات الصهيونية الرامية لتغيير طابعها السكاني .

### غزة

Gaza

«غزة» كلمة سامية فيما يبدو ، وتعني «قوى» أو «كنوز» أو «مخازن» . وقد عرفها العبرانيون باسم «عزة» ، والفرس باسم «هازاتو» ، وسماها العرب «غزة هاشم» نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد الرسول الذي مات ودّفن فيها .

وتشير الكلمة في الثقافة العربية إلى كل من قطاع غزة ومدينة غزة . ويَسُد المدينة ثلاثة أميال عن ساحل البحر المتوسط إلى الشرق ، وعشرة أميال إلى الجنوب من عسقلان . ويمر بها الطريق الساحلي الرئيسي الممتد من لبنان إلى مصر ماراً من شمال فلسطين إلى جنوبها . وغزة آخر مدينة كبيرة قبل الوصول إلى سيناء ، وآخر محطة لمن يريد دخول مصر ، وأول محطة لمن يريد دخول فلسطين من ناحية الجنوب . ونظراً لموقعها الجغرافي ، كان الاستيلاء على غزة يعني السيطرة على طرق الحرب والتجارة بين آسيا وأفريقيا في العالم القديم .

كانت غزة من نصيب قبيلة يهودا عند تقسيم أرض كنعان بين القبائل العبرانية ، ولكن الفلسطينيين طردوهم منها واستجمعوها . وقد كانت غزة أيضاً مركز نشاط شمشون ، كما كانت مركزاً لعبادة داجون الفلسطينية . وبقيت هياكل هذا الإله فيها حتى سنة ٤٠٠م حيث حطّمت المعابد الوثنية فيها بمرسوم إمبراطوري حينما تحوّلت روما إلى المسيحية .

وكانت غزة على حدود المملكة العبرانية المتحدة حين احتلتها الآشوريون عام ٧٢٠ ق.م . وعلى هذا ، فقد اشتركت في التمرد ضد الحكم الآشوري ثم ضد نخاو (فرعون مصر) عام ٦٠٨ ق.م .

وأبادوا سكانها من العناقين . وقد لجأ إليها داود هرباً من شاول (ويُقَال إن يوشع بن نون الذي غيّر اسمها من «قرية أربع» إلى «حبرون» ) . وتقع الخليل في منطقة يهودا التي كانت تُخَصُّ قبيلة يهودا ، ولكن المدينة نفسها كانت إحدى مدن الملجأ . وقد احتلها الأدميون بعد التهجير البابلي ، وضماها الخشمونيون إلى مملكتهم ، ثم أصبحت جزءاً من فلسطين الرومانية .

ثم دخلت الخليل مجال الحضارة العربية الإسلامية . والخليل تضم الحرم الإبراهيمي الشريف ومزار سيدنا إبراهيم عليه السلام . ازدهرت المدينة في العصر المملوكي والعثماني (استولى عليها الفرنجة وجعلوها مركز إيراشية وبنوا كنيسة في موقع الحرم عام ١١٦٨) ، وانتشر العمران خارج أسوارها منذ نهاية القرن التاسع عشر .

وفي العصر الحديث بعد دخول القوات البريطانية لفلسطين ووصول المستوطنين الصهيانية كانت الخليل ملجأً للمجاهدين لانتشار المغارات القديمة في جبالها ولأن أية قوة مطاردة يصعب عليها أن تعثر على المجاهدين . وكانت معاركها قبل إعلان الدولة الصهيونية هي الأعنف في الاشتباكات مع العدو حتى أن المستوطنين الصهاينة سبق أن فروا من المدينة كلها عام ١٩٢٩ تاركين بيوتهم ومحالهم يوم ثورة البراق .

وقد شهدت الخليل ثورة ديموجرافية حقيقية بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ لوفود عدد كبير من اللاجئين إليها . فزاد عدد سكانها ٥٤٪ خلال ٢٧ عاماً . وقد اختارت إسرائيل بعد ضم الضفة الغربية عام ١٩٦٧ موقعاً متميزاً على تلة لتقيم مستوطنة صهيونية تُسَمَّى «قرية أربع» وقامت بمحاولات لتهود الحرم الإبراهيمي .

وقد شهدت المدينة واحدة من أكبر المذابح الصهيونية حينما قام المستوطنون الصهيوني باروخ جولدشتاين بإطلاق النار على المصلين وهم ساجدون داخل الحرم الإبراهيمي فاستشهد منهم أكثر من ثلاثين . وقد تبين أن الإرهابي الصهيوني (الذي قُتل أثناء الحادث) من مستوطنة قرية أربع ، وأنه ضابط طبيب في الجيش الإسرائيلي وأنه استخدم رشاشه الرسمي في الجريمة . وقد أقام له المستوطنون مقبرة خاصة أصبحت مزاراً لهم .

#### صفد

Safed

«صفد» من الكلمة الكنعانية «صفت» بمعنى «الغطاء» ، وهي مدينة في الجليل تقع فوق جبل على ارتفاع ألفين وسبعمائة وثمانين قدماً من سطح البحر . وهي إحدى المدن الأربع المقدسة عند اليهود

(بوليس) لها الحق في أن تعلن الحرب وتوثق المعاهدات وتفرض الضرائب ، وكان يحكمها حاكم مُنتخَب تساعده لجنة من عشرة أفراد ومجلس مدينة من ستمائة شخص . وقد استسلمت طبرية للرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان ، ولذا لم يتم تخريبها . وقد أصبحت مركزاً لليهودية بعد تدمير القدس ، فشيدت فيها حلقة تلمودية دُونت فيها المشناه وأجزاء من الجماراه . ومعنى هذا أن التلمود الأورشليمي وُضع في طبرية .

دخلت طبرية دائرة الحضارة الإسلامية وأرسل الخليفة عثمان ابن عفان إليها عام ٣٠ هجرية مصحفاً كي يقرأ المسلمون فيه القرآن الكريم . وسقطت في يد الفرنجة بعض الوقت ثم استعادها صلاح الدين عام ١١٨٧ ولكنها سقطت مرة أخرى في يد الصليبيين عام ١٢٤٠ ، ثم تم تحريرها بشكل نهائي عام ١٢٤٧ .

استولى العثمانيون على طبرية عام ١٥١٧ ، وسمح سليمان القانوني لليهود بالإقامة فيها (١٥٦٢) . واستولى نابليون عليها عام ١٧٩٩ ولدة قصيرة . وازدهرت المدينة أيام الحكم المصري لفلسطين إلا أن الدمار لحق بها بسبب الزلزال الشديد الذي وقع عام ١٨٣٧ . وطبرية من مدن فلسطين الأولى التي استقر فيها المستوطنون الصهاينة بسبب وجود مركز ديني فيها ، كما كانت أول مدينة فلسطينية سلمتها قوات الاحتلال الإنجليزية للصهاينة .

#### الخليل

Hebron

كلمة «الخليل» هي المقابل العربي للكلمة العبرية «حبرون» ، ومعناها «صاحب» أو «عصبة» أو «رباط» أو «الحماة» . والخليل مدينة في فلسطين ، وكان الكنعانيون يسمونها «قرية أربع» (باليونانية تيترابوليس) أي «مدينة رباعية» . وتقع مدينة الخليل على بعد تسعة عشر ميلاً من القدس وثلاثة عشر ميلاً ونصف الميل من بيت لحم ، على ارتفاع ثلاثة آلاف وأربعين قدماً من سطح البحر ، وحولها عيون ماء كثيرة . والخليل إحدى المدن الأربع المقدسة لدى اليهود التي يجب ألا تنقطع فيها الصلاة ، إلى جانب القدس وصفد وطبرية .

ويعود تاريخ الخليل إلى أبعد من عام ٣٥٠٠ ق.م . فقد سكن إبراهيم (الذي تُنسب إليه المدينة) إلى جوارها لبعض الوقت واشترى مغارة المكفلة (حسبما جاء في العهد القديم) حيث دُفن فيها فيما بعد . ثم سكنها بعده (حسب الرواية التوراتية) إسحق ويعقوب ويوسف .

وقد استولى العبرانيون على المدينة أثناء تسللهم إلى كنعان ،

له غور أريحا) على بُعد حوالي ثمانية كيلو مترات غربي نهر الأردن الذي تصب مياهه بعدها بقليل في البحر الميت . وترتبط أريحا مع غور الأردن ومع الضفتين الشرقية والغربية بشبكة طرق ، وهي مفتوحة جنوباً على البحر الميت وصحراء النقب . وكانت أريحا المعبر الغربي لنهر الأردن والبحر الميت ، يمر منها الحجاج المسيحيون القادمون من القدس . ومن جهة أخرى ، كانت أريحا بوابة شرقية لفلسطين عبرها كثير من الجماعات البشرية المهاجرة إلى فلسطين على مدى العصور . ومساحة المدينة إدارياً تبلغ خمسة وعشرين كيلو متراً مربعاً تقريباً ، وهي بذلك تساوي منطقة الخليل التي تقع جنوبها . وأريحا منخفضة تحت سطح البحر بنحو مائتين وستة وسبعين متراً (ولذا فجوها حار) .

وأريحا القديمة تقع في تل السلطان بالقرب من عين السلطان (على مقربة من أريحا الحديثة) وقد اتخذها الهكسوس قاعدة لهم بين عامي ١٧٥٠ - ١٦٠٠ ق. م. وهي أول مدينة هاجمها العبرانيون أثناء تسللهم في أرض كنعان (فلسطين) وغزوها إيها . وقد أرسل يشوع بن نون جاسوسين إلى المدينة (حسب الرواية التوراتية) ، فدخلت بيت امرأة اسمها «راحاب» (يُشار إليها دائماً بالزانية) . و«راحاب» من الكلمة العبرية «رحب» أو «مَتَّسَع» ، إذ يبدو أنها استقبلت الجاسوسين على الرحب والسعة (سفر يشوع ١/٢ - ٢٤) . وحينما علم ملك أريحا بأمرهما ، حاول القبض عليهما ولكن راحب خيأتها ، وضللت الرسل ، وقالت : «لست أعلم أين ذهب الرجلان ، اسعوا سريعاً وراءهما حتى تدركوهما» . وبعد أن رحل حراس الملك ، قالت راحاب للرجلين : «علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض وأن رعبكم قد وقع علينا وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم ، لأننا قد سمعنا كيف جفّف الرب مياه بحر الفلزم قدامكم عند خروجكم من مصر» . ثم ذكرت لهما بعض الأحداث الأخرى التي بثت الرعب في نفوس أهل أريحا " ولم تبق بعد روحٌ في إنسان بسبيكم" ، وطلبت منهما الأمان لنفسها ولأهلها عند سقوط المدينة في يد العبرانيين ، وعاد الجاسوسان وقالوا ليشوع : "إن الرب قد دفع بيدينا الأرض كلها وقد ذاب كل سكان الأرض بسببنا" .

وفقاً لأمر الرب ، حسب الرواية التوراتية ، سار المحاربون من إسرائيل في صحبة سبعة من الكهنة ، حاملين أبواقاً وتابوت العهد ، وقد طاف هؤلاء حول المدينة مرة في اليوم لمدة ستة أيام . وفي اليوم السابع طافوا حولها سبع مرات وضربوا بالأبواق وهتفوا هتافاً عالياً فسقطت أسوار المدينة ، فقام العبرانيون بذبح " كل من في

(إلى جانب القدس والخليل وطبرية) . ومع هذا ، لم يأت ذكرها في الكتاب المقدس إذ يبدو أنها كانت قرية صغيرة ضئيلة الشأن . وقد ظلت كذلك حقباً طويلة من الزمن ، فلم يأت لها ذكر في الفتوحات العربية الأولى . وقد دارت المعارك بين الفرنجة والمسلمين حول صفد إلى أن حررها الظاهر بيبرس عام ١٢٦٧ ثم أصبحت عام ١٥١٧ جزءاً من الدولة العثمانية .

ولا تعرف الكثير عن تاريخ وجود أعضاء الجماعات اليهودية فيها ، وحينما زارها بنيامين التيطلي في القرن الثاني عشر ، لم يجد فيها يهوداً . لكن بعض اليهود المهاجرين من إسبانيا استوطنوها في القرن الخامس عشر . وكان اليهود المقيمون فيها يتاجرون في التوابل والجن والزيت والخضراوات والفاكهة .

وفي القرن السادس عشر ، أصبحت صفد مركزاً دينياً ، إذ عاش فيها يوسف كارو مؤلف الشولحان عاروخ وإسحق لوريا وتلميذه حاييم فيثال ، وهم من أهم القبّالين ، وبذلك أصبحت صفد مركزاً للدراسات القبّالية . ومع هذا ، لم يكن عدد اليهود فيها يزيد على سبعمائة وست عشرة أسرة عام ١٥٤٨ . وفي نهاية القرن السابع عشر ، كان عدد اليهود من دافعي الضرائب لا يزيد على عشرين . وقد استوطنها ، مع نهاية القرن الثامن عشر ، بعض الحسيديين . وقد احتلتها القوات البريطانية ضمن ما احتلت من فلسطين عام ١٩١٨ ، واستوطنها الصهانية . وفي عام ١٩٤٨ تم طرد سكانها العرب وحل محلهم مستوطنون صهانية .

## أريحا

Jericho

"أريحا" من «يرخو» وهي كلمة كنعانية تعني «مدينة القمر» (وقد يدل هذا على أن عبادة القمر السامية كانت منتشرة فيها) ويُقال إن معناها أيضاً «الروائح العطرية» (ويشار إليها في العصر الحديث أحياناً بكلمة «الريحا») .

وأريحا مدينة كنعانية قديمة يرجع تاريخها إلى حوالي سبعة آلاف عام ، واكتُشف فيها أقدم فخار وأقدم نحت في العالم ، وتعدُّ أقدم مدن فلسطين . بل ويُقال إنها أقدم مدينة في العالم قائمة حتى اليوم (وحيث إنها هُجرت بعض الوقت ، فإن دمشق ودمنهور هما المدينتان اللتان تستحقان هذا الشرف ، إذ أن الحياة البشرية مستمرة فيهما دون انقطاع منذ ظهورتا إلى الوجود) .

وتقع أريحا على مسافة سبعة وثلاثين كيلو متراً شرقي الشمال الشرقي لمدينة القدس ، في الطرف الغربي لغور الأردن الغربي (يُقال

وأريحا مشهورة في الوقت الحاضر بأراضيها الزراعية التي تعتمد أساساً على التين والفاكهة والأبار . ويُوجد بجوار أريحا مشروع موسى العلمي للزراعة وتربية المواشي الذي استوعب كثيراً من اللاجئين . وتوجد عدة صناعات في أريحا من بينها صناعة السكر من القصب وتصنيع التمر من البلح وصناعة النسيج . وتتميز أريحا بما فيها من آثار ترجع إلى العصور القديمة والرومانية والمسيحية والإسلامية وهي تُعدُّ مثنى ممتازاً .

ولموقع أريحا بُعدٌ عسكري ، فهي بوابة طبيعية تشرف على الطرق المؤدية إلى الأغوار والمرتفعات الجبلية ، ولذا حرصت إسرائيل على احتلالها في حرب ١٩٦٧ قبل غيرها من مدن الضفة الغربية لنهر الأردن ، وذلك بالاتّصاف حول الضفة الغربية لاحتلال محور طوباس - أريحا وعزل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية . وينطلق مشروع ألون من مفهوم أن حدود إسرائيل الدائمة لا بد أن تسهّل الدفاع عنها وأن تعتمد على عوائق طوبوغرافية دائمة مثل قناة السويس أو نهر الأردن . ولذلك اقترح ألون ضم شريط من الأراضي بعمق ١٠ - ١٥ كيلو متراً على طول وادي الأردن حتى البحر الميت ثم زيد بعد ذلك إلى ٢٠ كيلو متراً ، وقد بلغ عدد المستعمرات في هذا الشريط عام ١٩٧١ عشر مستعمرات ، ثم أخذت تزداد إلى أن بلغت عام ١٩٨٢ أربعين مستعمرة . وبمقتضى اتفاقية أوسلو أصبحت أريحا في يد السلطة الفلسطينية .

### القدس : أسماً

Jerusalem : Names

«القدس» تقابلها في العبرية كلمة «يروشاليم» ، وقد وردت الكلمة بهذه الصيغة في العهد القديم أكثر من ستمائة وثمانين مرة . وهي كلمة مشتقة (منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد) من الكلمة الكنعانية اليوسية «يورشاليم» (من مقطع «يار» بمعنى «يؤسس» أو من «أور» بمعنى «موضع» أو «مدينة» ؛ ومقطع «شولمانو» أو «شالم» أو «شلّم» وهو الإله السامي للسلام) . وفي الكتابات المصرية المعروفة بـ «نصوص اللعنة» التي يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ، وردت الكلمة بشكل «روشاليموم» . وقد ورد في مراسلات تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ست رسائل من عبيدي خبيبا ، ملك «أوروسالم» . ويكرر الاسم بشكل «أوروسليمو» في الكتابات الآشورية التي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد . أما في كتابات القرن الرابع اليونانية ، فقد سُميت «هيروسولياما» ، ومن الواضح أن الاسم اللاتيني «جروسالم» جاء

المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والخمير . . . وقال يسوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض : دخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حملتُمها» (يوحنا ٦/ ٢٤) .

ويذكر العهد القديم أن راحاب عاشت في وسط إسرائيل (يسوع ٦/ ٢٥) بل تذكر التقاليد الدينية أنها تزوجت يسوع وأن عدداً من أنبياء اليهود جاءوا من نسلها من بينهم إرميا . ثم حلف يسوع في ذلك الوقت قائلاً لمعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا (يسوع ٦/ ٢٧) .

وفي عصر القضاة أخرج عجلون ملك المؤابيين اليهود من أريحا واتخذها عاصمة له وأقام لنفسه قصراً فيها (قضاة ٣/ ١٣) . وقد أقام فيها رسل داود الذين حلق ملك عمون لحامه إلى أن تمت مرة أخرى (صموئيل الثاني ١٠/ ٥) . وفي زمن الملك العبراني أحاب ، بناها حيشيل البيثشيلي ولكنه فقد ابنه (وفقاً لنسبة يسوع) . وقد قبض البابليون على الملك العبراني صديقا بالقرب من أريحا ثم حطمو المدينة عام ٥٨٧ ق م .

وفي العصر الهليني ، تحولت أريحا إلى مقبرة ، ثم قام الحشمونيون (الماكايون) بتعميرها . وقد جلد هيرودس المدينة وسورها وأسّس فيها القصور والمباني والقنوات والحصون ، فامتدت فوق ما يُعرف اليوم بتلال أبي العليق . وقد خربت ، ولكن أعيد بناؤها في القرن الرابع الميلادي في عهد قسطنطين الأكبر (٣٠٦ - ٣٣٧م) وانتشرت فيها المسيحية وأقيمت في ضواحيها الأديرة والكنايس وأصبحت مركز الأسقفية .

وفي العصر الإسلامي ، استقرت فيها قبائل بني النضير اليهودية بعد طردها من الجزيرة العربية وازدهرت المدينة وأصبحت أهم مدينة زراعية في غور الأردن وأحيطت بزارع النخيل والموز وقصب السكر والريحان والخنة والبلسم وسكنها قوم من قيس وجماعة من قريش .

وقد استولى الفرنجة على أريحا وأسّس فرسان الهيكل قلعة بالقرب منها ، ولكن صلاح الدين حررها عام ١١٨٧ ثم تحولت أريحا بعد ذلك إلى قرية صغيرة متواضعة لا أهمية لها .

وكانت أريحا مركزاً حياً في أواخر العهد العثماني ثم أصبحت مركز قضاء في عهد الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٤٤ حين ألغيت بقضاء القدس . وبعد عام ١٩٤٨ ، عادت أريحا مركز قضاء يحمل اسمها داخل الضفة الغربية . وقد تدفّق عليها آلاف اللاجئين وأقيمت بجوارها مخيمات عين السلطان وعقبة جبر . وبلغ عدد سكانها في أواخر السبعينيات ما يزيد على ١٥ ألف نسمة .

حيث تقع على تقاطع الطرق التي تربط جميع أرجاء العالم القديم بقاراته الثلاث . وهذا ما جعلها (شأنها شأن فلسطين ككل) ، هدفاً لجميع القوى السياسية الدولية على مرّ العصور . والاهتمام الصهيوني بالقدس والدعم الاستعماري للاستيطان الصهيوني فيها لا علاقة له بتطلعات اليهود الدينية ، التي يمكن الوفاء بها دون حاجة لتهويد القدس وتوطين نصف مليون يهودي فيها وربطها بأنفاق وجسور ، بالمستوطنات ، التي تقع داخل نطاق ما يُسمى «القدس الكبرى» . بل إن كثيراً من اليهود المتدينين يشكون من أن تهويد القدس يتم في إطار الإثنية اليهودية (اللا دينية) وليس في إطار الانتماء الديني ، ولذا يلاحظ أن المدينة التي كانت ذات صبغة دينية واضحة (مقابل تل أبيب الشيطانية) بدأت تفقد طابعها الديني وتتحول إلى مركز سياحي توجد فيه محلات الأشياء الإباحية على مقربة من حائط المبكى !

وقبل أن نتناول مكانة القدس في الوجدان الديني اليهودي قد يكون من المفيد أن نتناول بشكل موجز مكانتها في وجدان المسيحيين والمسلمين . ظلت للقدس ، لبعض الوقت ، مكانتها الخاصة في الوجدان المسيحي ، إذ كانت فلسطين تُعدّ الوطن المقدّس الذي ورثه المسيح لأبنائه المسيحيين . ولم تكن القدس تُوصف بأنها «صهيون اليهودية» بل بأنها «مدينة العهد الجديد المقدّسة» . ولم تضاهل أهمية هذه المدينة كمدينة مقدّسة إلا بعد عام ٥٩٠ حين أصبح عرش البابا جريجوري العظيم مركز السلطة المسيحية ، وأصبحت لروما الخطوة على القدس . وأصبح أسقف القدس يحتل المرتبة الخامسة في السلسلة الهرمية لهيئة الكهنوت الكاثوليكية . ومع ذلك ، بقيت فلسطين (الأرض المقدّسة) تتغلغل في حياة وخيال مسيحيي العصور الوسطى . وكانت الرحلة إلى الأرض المقدّسة مطمح كل مسيحي ، مع ما قد يرافق ذلك من إغراء بالمغامرة والكسب الاقتصادي ومن مشاهد رائعة ، وكان من يزورونها يثيرون لدى الآخرين الرغبة في زيارتها .

ولا تزال للقدس مكانتها الخاصة في الوجدان المسيحي (رغم تراجع أهمية الحج على الأقل بالنسبة للمسيحيين الغربيين) . وللكنييسة القبطية موقف خاص من القضية ، فالحج لا يزال من الشعائر المهمة بالنسبة للأقباط ، ومع هذا أصدر البابا قراراً بتحرير أداء هذه الشعيرة طالما أن القدس تحت هيمنة الدولة الصهيونية . وأهم الأثار المسيحية في القدس كنيسة القيامة التي تضم قبر السيد المسيح والكنائس القائمة على جوانب طريق الآلام .

أما بالنسبة للمسلمين فيرجع اهتمامهم بالقدس إلى أنها غاية مسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأرض المعراج وكونها مباركة (بنص سورة الإسراء) وبها أولى القبلتين وثالث الحرمين .

من الاسم الكنعاني للمدينة . وذكر ياقوت المدينة باسم «أورشلين» و«أورسلم» و«أورسلم» . ويُشار إليها أيضاً بأنها «بيوس» نسبة إلى سكانها من البيوسيين ، وهم من بطون العرب الأوائل الذين نزحوا من الجزيرة العربية نحو عام ٢٥٠٠ ق.م واحتلوا التلال المشرفة على المدينة القديمة . وقد ورد اسم «بيوس» في الكتابات المصرية الهيرغليفية باسم «ياشي» و«ياشي» وهو تحريف للاسم الكنعاني . وقد بنى البيوسيون قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من بيوس سُميت «حصن بيوس» ، ثم أُطلق عليها فيما بعد اسم «حصن صهيون» . ويُعرف الجبل الذي أُقيم عليه الحصن باسم «الأكمة» أو «هضبة أوغل» ، وأحياناً باسم «جبل صهيون» . وقد أنشأ السلوقيون ، في موضع حصن بيوس ، قلعة منيعة عُرفت باسم «قلعة عكر» أو «إكرا» . وتُسمى القدس أحياناً «صهيون» .

وتُطلق التوراة على المدينة ، إلى جانب لفظ «يروشاليم» ، لفظ «شاليم» و«مدينة الإله» و«مدينة العدل» و«مدينة السلام» و«مدينة الحق» ، وكذلك «المدينة المقدّسة» و«مدينة الشعب المقدّس» و«آرتيبيل» (أي «أسد الإله» ) . ويذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، مدينة كبيرة في سوريا (بلاد الشام) سماها «قديس» . (والاسم على الأرجح تحريف للنطق الآرامي «قديشتا» أي «القدس» ) . وعندما استولى داود على المدينة حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م ، لم يجد اسماً خاصاً يُطلق عليها فسماها «مدينة داود» ولكنها عادت بعد ذلك إلى اسمها القديم .

وفي العهد الروماني ، دُمّر الإمبراطور إيلبيوس هادريانوس المدينة (عام ١٣٥) وغير اسمها إلى «إيليا كايبتولينا» ؛ و«إيليا» هو اسم الإمبراطور ، و«كايبتولينا» نسبة إلى «الكايبتول» معبد جوبيتر كبير آلهة الرومان . وأعاد إليها الإمبراطور قسطنطين ، الذي اعتنق المسيحية في القرن الرابع الميلادي ، اسمها القديم «أورشليم» . ويبدو أن اسم «إيليا» ظل متداولاً كبديل وروده في العهد العُمري أو عهد الأمان الذي منحه الخليفة عمر بن الخطاب إلى سكان المدينة عام ٦٣٨ . وفي العصور التالية ، سُميت المدينة «بيت المقدس» و«القدس الشريف» ، وقد سماها أحد علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري بالاسمين : «بيت المقدس» و«إيليا» .

### القدس : مكانتها في الوجدان الديني اليهودي

Jerusalem : Status in the Jewish Religious Imagination

للقدس أهميتها الخاصة عند المسلمين والمسيحيين واليهود نظراً لما تحويه من آثار دينية ، وهذا ما يجعلها من أهم المراكز الروحية ومن أهم مراكز التوحيد . ولكنها في الوقت نفسه ذات أهمية جغرافية

عملية الإصلاح (تيقون) ، إذ استعلو جدرانها وتقترب من العرش الإلهي . وبهذا ، يعود التوازن للعالم ، ولعالم التجليات (سفيروت) . والقدس إحدى مدن فلسطين الأربع المقدسة التي يجب ألا تنقطع فيها الصلاة (إضافة إلى الخليل وصفد وطبرية) .

ومع هذا تحرّم اليهودية الحاخامية العودة إلى فلسطين (إرتس يسرائيل) ومن ثم القدس ، إلا في آخر الأيام . وفي العصر الحديث أحجم أحد كبار الحاخامات عن زيارة القدس وقطع رحلته في طريقه إليها ، خوفاً من أن يُفسّر الصهاينة رحلته هذه بأنها قبول لمبدأ العودة .

وقد حاولت اليهودية الإصلاحية أن تخفّف من الجانب القومي في اليهودية بأن تُحوّل فكرة اللقاه في القدس إلى فكرة معنوية تشبه فكرة العصر الذهبي والحلم بالسعادة والفردوس . ولكن الصهيونية فسّرت الشعار الديني تفسيراً حقيقياً وحوّلته إلى شعار سياسي . وفي إطار هذا الفهم السياسي الضيق ، قام الإسرائيليون بتغيير الصلوات ، واستبدلوا بالصيغة التقليدية في الدعاء صيغة جديدة تقول : في العام القادم نعيد بناء أورشليم . ولا يعترف السامريون بالقدس مركزاً للدين اليهودي ، فنانبلس هي مدينتهم المقدسة .

### القدس : تاريخ

Jerusalem : History

للقدس أهميتها الخاصة عند المسلمين والمسيحيين واليهود نظراً لما تحتويه من آثار دينية ، وهذا ما يجعلها من أهم المراكز الروحية ومن أهم مراكز التوحيد . ولكنها في الوقت نفسه ذات أهمية جغرافية حيث تقع على تقاطع الطرق التي تربط جميع أرجاء العالم القديم بقاراته الثلاث . وهذا ما جعلها (شأنها شأن فلسطين ككل) ، هدفاً لجميع القوى السياسية الدولية على مرّ العصور . والاهتمام الصهيوني بالقدس والدعم الاستعماري للاستيطان الصهيوني فيها لا علاقة له بتطلعات اليهود الدينية ، التي يمكن الوفاء بها دون حاجة لتهويد القدس وتوطين نصف مليون يهودي فيها وربطها بأنفاق وجسور ، بالمستوطنات ، التي تقع داخل نطاق ما يُسمّى «القدس الكبرى» . بل إن كثيراً من اليهود المتدينين يشكون من أن تهويد القدس يتم في إطار الإثنية اليهودية (اللا دينية) وليس في إطار الانتماء الديني ، ولذا يلاحظ أن المدينة التي كانت ذات صبغة دينية واضحة (مقابل تل أبيب الشيطانية) بدأت تفقد طابعها الديني وتتحوّل إلى مركز سياحي توجد فيه محلات الأشياء الإباحية على مقربة من حائط المبكى !

وقبل أن نتناول مكانة القدس في الوجدان الديني اليهودي قد يكون من المفيد أن نتناول بشكل موجز مكانتها في وجدان المسيحيين والمسلمين .

وكان المسلمون يتوجهون بالصلاة إليها حينما كانوا بمكة قبل الهجرة ، واستمروا في التوجه للصلاة إلى بيت المقدس حوالي سبعة عشر شهراً حتى أمرهم الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة . وهناك أحاديث شريفة كثيرة تبين أهمية القدس ومكانتها عند المسلمين . وقد اهتم بها الحكام والخلفاء المسلمون فأُنشئت فيها المساجد والمقابر والزوايا والتكايا فضلاً عن الأسبلة والأرطبة والمدارس . كما أوقف الكثيرون على القدس معظم الأراضي المجاورة لها . ومن أهم الآثار الإسلامية المقدسة في المدينة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى والحرم المقدسي الذي يضم المسجدين .

وتشغل القدس («أورشليم» في المصطلح الديني) مكاناً مركزياً في الوجدان اليهودي . فبعد أن استولى عليها داود ، نُقل إليها تابوت العهد ثم بنى سليمان فيها الهيكل . ويُطلق على المدينة اسم «صهيون» في الموروث الديني ، أما الشعب فهو «بنت صهيون» . وهي تضم أيضاً جبل صهيون وقبر داود وحائط المبكى . وقد أصبحت المدينة مركزاً للدين اليهودي يتّجه إليها اليهود ويذكرونها في صلواتهم ، وخصوصاً في الاحتفال بعيد الفصح حيث يرددون : 'نلتقي في العام القادم في أورشليم' ، وهي المدينة التي كانوا يحجون إليها ثلاث مرات في العام .

وقد أحاط التشريع اليهودي والتراث الأجدادي مدينة القدس بكثير من القوانين والأساطير . وفي الأجداد ، توجد أوصاف مُسرفة في مديح أورشليم وأهلها ، فهي على سبيل المثال سرّة العالم ولا يضاهاها في حُسنها مدينة أخرى . وفي محاولة تفسير سبب سقوطها ، تلوم الأجداد أهلها وتلقّي عليهم المسؤولية ، فأهل أورشليم : 'كانوا يحبون المال ، يكرهون بعضهم بعضاً ، ويكرهون العلماء ، ولم يقيموا شعائر السبت' . وجاء في الأجداد أيضاً أن الإله خلق أورشليم عند خلقه العالم ، وأنه أقام خيمة الاجتماع فيها ، وصلى متمنياً ألا يعصيه أبناؤه وحبيته ، أي أورشليم . وهناك كذلك إشارات إلى أورشليم في العصر المشيخاني (أي بعد عودة الماشيخ المخلص اليهودي وقيادته الشعب إلى فلسطين) : 'ستمتملى حدودها بالأحجار الكريمة ، وسيأتي اليهود ويأخذونها ، وسيضاف إليها آلاف الحدائق' . وقد طوّرت القبّالة هذه الأفكار حيث صوّرت أورشليم كأنها المكان الذي سيفيض فيه الخير من السماء ومنها يوزّع على بقية العالم . وهي ، بهذا ، الشخينة أو الملكوت الذي سيحكم العالم . وتحيط التلال بالقدس حتى لا تصل إليها قوى الظلام (الجانب الآخر في القبّالة) ويقوم على حراستها ملائكة الشخينة . وأورشليم لا يفصلها أي فاصل عن الإله ، وتصدق كل أدعية جماعة يسرائيل من خلالها . كما أن أورشليم ، باعتبارها الملكوت ، تلعب دوراً مهماً في



أصبحت المدينة مركزاً للدين اليهودي يتجه إليها اليهود ويذكرونها في صلواتهم ، وخصوصاً في الاحتفال بعيد الفصح حيث يرددون : " نلتقي في العام القادم في أورشليم " ، وهي المدينة التي كانوا يحجون إليها ثلاث مرات في العام .

وقد أحاط التشريع اليهودي والتراث الأجاوي مدينة القدس بكثير من القوانين والأساطير . وفي الأجداه ، تُوجد أوصاف مُسرقة في مديح أورشليم وأهلها ، فهي على سبيل المثال سرّة العالم ولا يضاهاها في حُسنها مدينة أخرى . وفي محاولة تفسير سبب سقوطها ، تلوم الأجداه أهلها وتلقي عليهم المسئولية ، فأهل أورشليم : " كانوا يحبون المال ، يكرهون بعضهم بعضاً ، ويكرهون العلماء ، ولم يقيموا شعائر السبت " . وجاء في الأجداه أيضاً أن الإله خلق أورشليم عند خلقه العالم ، وأنه أقام خيمة الاجتماع فيها ، وصلى متعمياً ألا يعصيه أبناءه وحبيبه ، أي أورشليم . وهناك كذلك إشارات إلى أورشليم في العصر المسيحاني (أي بعد عودة الماشيخ الملخص اليهودي وقيادته الشعب إلى فلسطين) : " فستمتلئ حدودها بالأحجار الكريمة ، وسيأتي اليهود يأخذونها ، وسيضاف إليها آلاف الحدائق " . وقد طوّرت القبّالة هذه الأفكار حيث صوّرت أورشليم كأنها المكان الذي سيفيض فيه الخير من السماء ومنها يوزّع على بقية العالم . وهي ، بهذا ، الشخيّانة أو الملكوت الذي سيحكم العالم . وتحيط التلال بالقدس حتى لا تصل إليها قوى الظلام (الجانب الآخر في القبّالة) ، ويقوم على حراساتها ملائكة الشخيّانه . وأورشليم لا يفصلها أي فاصل عن الإله ، وتصعد كل أدعية جماعة يسرائيل من خلالها . كما أن أورشليم ، باعتبارها الملكوت ، تلعب دوراً مهماً في عملية الإصلاح (تيقون) ، إذ تستعملو جدرانها وتقترب من العرش الإلهي . وبهذا ، يعود التوازن للعالم ، ولعالم التجليات (سفيروت) . والقدس إحدى مدن فلسطين الأربع المقدّسة التي يجب ألا تنقطع فيها الصلاة (إضافة إلى الخليل وصفد وطبرية) .

ومع هذا تُحرّم اليهودية الحاخامية العودة إلى فلسطين (إرتس يسرائيل) ومن ثم القدس ، إلا في آخر الأيام . وفي العصر الحديث أحجم أحد كبار الحاخامات عن زيارة القدس وقطع رحلته في طريقه إليها ، خوفاً من أن يُفسّر الصهاينة رحلته هذه بأنها قبول لبدا العودة . وقد حاولت اليهودية الإصلاحية أن تخفّف من الجانب القومي في اليهودية بأن تُحوّل فكرة اللقاء في القدس إلى فكرة معنوية تشبه فكرة العصر الذهبي والحلم بالسعادة والفرδος . ولكن الصهيونية فسّرت الشعائر الدينية تفسيراً حرفياً وحولته إلى شعار سياسي . وفي إطار هذا الفهم السياسي الضيق ، قام الإسرائيليون بتغيير الصلوات ، واستبدلوا بالصيغة التقليدية في الدعاء صيغة جديدة

ظلت للقدس ، لبعض الوقت ، مكانتها الخاصة في الوجدان المسيحي ، إذ كانت فلسطين تُعدُّ الوطن المقدّس الذي ورثه المسيح لأبنائه المسيحيين . ولم تكن القدس تُوصّف بأنها «صهيون اليهودية» بل بأنها «مدينة العهد الجديد المقدّسة» . ولم تتضاءل أهمية هذه المدينة كمدينة مقدّسة إلا بعد عام ٥٩٠ حين أصبح عرش البابا جريجوري العظيم مركز السلطة المسيحية ، وأصبحت روما المحطّة على القدس . وأصبح أسقف القدس يحتل المرتبة الخامسة في السلسلة الهرمية لهيئة الكهنوت الكاثوليكية . ومع ذلك ، بقيت فلسطين (الأرض المقدّسة) تتغلغل في حياة وخيال مسيحيّ العصور الوسطى . وكانت الرحلة إلى الأرض المقدّسة مطمح كل مسيحي ، مع ما قد يرافق ذلك من إغراء بالمغامرة والكسب الاقتصادي ومن مشاهد رائعة ، وكان من يزورونها يثيرون لدى الآخرين الرغبة في زيارتها .

ولا تزال للقدس مكانتها الخاصة في الوجدان المسيحي (رغم تراجع أهمية الحج على الأقل بالنسبة للمسيحيين الغربيين) . وللكنيسة القبطية موقف خاص من القضية ، فالحج لا يزال من الشعائر المهمة بالنسبة للأقباط ، ومع هذا أصدر البابا قراراً بتحريم أداء هذه الشعيرة طالما أن القدس تحت هيمنة الدولة الصهيونية . وأهم الآثار المسيحية في القدس كنيسة القيامة التي تضم قبر السيد المسيح والكنائس القائمة على جوانب طريق الآلام .

أما بالنسبة للمسلمين فيرجع اهتمامهم بالقدس إلى أنها غاية مسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأرض المعراج ولكونها مباركة (نص سورة الإسراء) وبها أولى القبليتين وثالث الحرمين . وكان المسلمون يتوجهون بالصلاة إليها حينما كانوا بمكة قبل الهجرة ، واستمروا في التوجه للصلاة إلى بيت المقدس حوالي سبعة عشر شهراً حتى أمرهم الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة . وهناك أحداث شريفة كثيرة تبين أهمية القدس ومكانتها عند المسلمين . وقد اهتم بها الحكام والخلفاء المسلمون فأنشئت فيها المساجد والمقابر والزوايا والتكايا فضلاً عن الأسبلة والأربطة والمدارس . كما أوقف الكثيرون على القدس معظم الأراضي المجاورة لها . ومن أهم الآثار الإسلامية المقدّسة في المدينة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى والحرم المقدسي الذي يضم المسجدين .

وتشغل القدس («أورشليم» في المصطلح الديني) مكاناً مركزياً في الوجدان اليهودي . فبعد أن استولى عليها داود ، نُقل إليها تابوت العهد ثم بنى سليمان فيها الهيكل . ويُطلق على المدينة اسم «صهيون» في الموروث الديني ، أما الشعب فهو «بنت صهيون» . وهي تضم أيضاً جبل صهيون وقبر داود وحائط المبكى . وقد

تقول : في العام القادم نعيد بناء أورشليم . ولا يعترف السامريون بالقدس مركزاً للدين اليهودي ، فنبلس هي مدينتهم المقدسة .

### القدس : تهويدها

Jerusalem: Judnization

«التهويد» هو عملية نزع الطابع الإسلامي والمسيحي عن القدس وفرض الطابع الذي يُسمى «يهودياً» عليها . وتهويد القدس جزء من عملية تهويد فلسطين ككل ، ابتداءً من تغيير اسمها إلى «إرتس يسرائيل» ، مروراً بتزييف تاريخها ، وانتهاءً بهدم القرى العربية وإقامة المستوطنات ودعوة اليهود للاستيطان في فلسطين) .

وقد بدأت عملية التهويد منذ عام ١٩٤٨ ، وزادت حدتها واتسع نطاقها منذ يونيو ١٩٦٧ . وقد ارتكزت السياسة الإسرائيلية على محاولة تغيير طابع المدينة السكاني والمعماري بشكل بنوي فاستولت السلطات الإسرائيلية على معظم الأبنية الكبيرة في المدينة واتبعت أسلوب نفس المنشآت وإزالتها لتحل محلها أخرى يهودية ، كما قامت بالاستيلاء على الأراضي التي يمتلكها عرب وطردهم وتوطين صهاينة بدلاً منهم .

وقد أعلن بن جوريون في مجلس الشعب الموقت (الكنيست فيما بعد) يوم ٢٤ يونيو ١٩٤٨ أن مسألة إلحاق القدس بإسرائيل ليست موضع نقاش ، فما يُناقش هو كيفية تحقيق هذا الهدف . وقد أعلنت القدس عاصمة لإسرائيل في ٢٣ يناير ١٩٥٠ .

وقد قامت السلطات الإسرائيلية بنقل وزاراتها إلى القدس (الغربية) وأنفقت موزانات كبيرة على تطويرها . وبعد أن كان المستوطنون الصهاينة لا يملكون سوى ١٨٪ فقط من الأرض قبل عام ١٩٤٨ ، أصبح الوجود العربي في هذا الجزء لا يُذكر وبخاصة مع طرد ٣٠ ألف فلسطيني من القدس (الغربية) نفسها و٤٠ ألف آخرين من القرى المجاورة التي دخلت غالبيتها فيما بعد في نطاق بلدية القدس .

وحينما نشبت حرب ١٩٦٧ اجتاحت القوات الإسرائيلية المدينة بأكملها . وحينما ظهرت إمكانية صدور قرار عن مجلس الأمن يقضي بوقف إطلاق النار قبل تنفيذ خطة الاستيلاء على المدينة تقرر اقتحام المدينة القديمة ، وتم الاستيلاء عليها في السابع من يونيو ودخل ديان إلى القدس ليُعلن أمام حائظ المبكى : « لقد أعدنا توحيد المدينة المقدسة ، وعدنا إلى أكثر أماننا قداماً ، عدنا ولن نبارحها أبداً » .

وقد صدر في ٢٦ يونيو ١٩٦٧ قانون يسري بموجبه قانون الدولة وقضاؤها وإدارتها على القدس (ثم تَكَرَّست هذه السيطرة القانونية بقرار ضم مدينة القدس في ٣٠ يوليو ١٩٨٠ ، حين أقر الكنيست قانوناً أساسياً يعتبر القدس الكاملة والموحدة عاصمة

لإسرائيل) . ثم شرعت بعد ذلك في استكمال التهويد حيث هُوِّت القضاء النظامي والشعري الإسلامي ، ثم عملت على تهويد التعليم العربي من خلال إخضاعه لبرامج التعليم اليهودي . كما هُوِّت اللوائح والإجراءات والقوانين التي كانت تحكم الأوضاع المهنية والتجارية والاقتصادية . ثم استكمالاً لهذه العملية ، قامت بتغيير أسماء الشوارع والطرق والساحات واستبدالها بأسماء صهيونية .

ورغم أن القانون القاضي بضم القدس قد صدر بعد ١٨ يوم من احتلال المدينة ، إلا أن عملية تغيير معالمها بدأت في اليوم التالي للحرب ، حين قامت الجرافات الإسرائيلية بهدم ١٣٥ بيتاً يسكنها ٦٥٠ شخصاً في حي الغاربية ، وهدمت مسجدين في المنطقة نفسها و٢٠٠ بيتاً ومخزناً كانت تقع في المنطقة الحرام . وفي الأيام المتعددة اللاحقة هدمت ٣٨ بيتاً ضمنها ١٤ بيتاً من البيوت الأثرية التي تُعتبر من معالم المدينة القديمة . وعلقت تجمعة الباب (ميزوزاء) على أبواب القدس باعتبار أنها «بيت اليهود» .

وحتى يمكننا فهم عملية تهويد القدس يجب أن نراها لا باعتبارها عملية التهام عشوائية نهمة ، وإنما باعتبارها مخططاً بارداً له أهدافه الواضحة ويُترجم من خلال إجراءات محددة . هذا المخطط يهدف إلى «تأسيس القدس الكبرى الموسعة ، اليهودية الخالصة : كتلة استيطانية ضخمة تُعزق وإلى الأبد الوحدة الجغرافية للضفة الغربية» (كما ورد في إحدى وثائق حزب الليكود) . ويستهدف هذا المخطط أن تكون القدس الكبرى عام ٢٠٠٠ بمنزلة مترو لیتان ، تمتد غرباً باتجاه تل أبيب ، وجنوباً باتجاه حلحول والحليل ، وشمالاً إلى ما وراء رام الله ، وحتى حدود أريحا شرقاً . وكل هذا يعني ضم حوالي ١٢٥٠ كم (ثلاثة أرباعها من الضفة الغربية) ، وأن تبلغ مساحة القدس الكبرى ٢١٪ من مساحة الضفة ، بحيث يبلغ طول المدينة ٤٥ كم وعرضها ٢٥ كم .

ولتنفيذ هذا المخطط ، قامت القوات الإسرائيلية ابتداءً بشريد حوالي ٦٠ ألف فلسطيني وأصبحت ممتلكاتهم وأراضيهم ، وفقاً لقانون أملاك الغائبين ، عُرضة لعمليات استيلاء متواصل عليها . وحرصت السلطات الإسرائيلية على استغلال القانون السابق وقانون الاستملاك للمصلحة العامة من أجل مصادرة الأراضي العربية التي لم يمكنها الاستيلاء عليها « بصورة قانونية » بدونهما .

واستولت السلطات الإسرائيلية على أراضي تُقَلَّر في مجموعها بحوالي ٤٠٪ من القدس المحتلة في ١٩٦٧ وأقامت عليها مستعمرات ومستوطنات وأحياء ومصانع ليصل عدد اليهود في نهاية السبعينيات فيها إلى ١٩ ألف يهودي . كما صادرت أيضاً ٦٠٠٠ دومت لبناء وتوسيع أحياء عديدة مثل نافي يعقوف وراموت وإيست

آخرها حفريات بطول ٤٠٠ متر ، بزعم البحث عن قواعد الهيكل وإنشاء نفق طولي تحته يصل إلى بيت لحم بمحاذاة السور الجنوبي للمسجد الأقصى . وتستخدم إسرائيل آليات ضخمة وأجهزة تحدث موجات اهتزازية عنيفة (بدلاً من الحفر اليدوي) بهدف تقويض دعائم المسجد . وعلى مستوى مواز تحرس إسرائيل على تهويد الآثار غير الإسلامية ونسبتها إلى ما تسميه «التاريخ اليهودي» .

ومن أهم الآثار التي تعرضت لعملية تدمير ، وكانت مستهدفة من قبل الجرافات الإسرائيلية ، المسجد الأقصى ، حيث يبقى وجوده تعبيراً عن هوية وتاريخ وعقيدة . ويصرف النظر عن محاولات التسلل للمسجد أو المطالبة بفتحه لليهود لأداء صلواتهم دون قيد ، فإن هناك محاولات جادة لتخريبه ومن ثم هدمه . فمحاولات الاقتحام وفتح النيران العديدة في المسجد أصابته بالعديد من التشققات والتصدعات ، وقد تم إحباط العديد من محاولات المتطرفين تفجير المسجد بسبب ارتفاع التكلفة الساسية والأمنية لثل هذه التصرفات ، وكان أخطرهما ما تم إحباطه في ٢٧ يناير ١٩٨٤ حيث حاولت جماعة مسلحة يهودية تسلق جدار الحرم القدسي من الناحية الشرقية لكن الحراس تنبهوا للأمر ، وهو ما أدى إلى هروب المتحتمين مخلفين وراءهم كمية كبيرة من القنابل والمتفجرات . كما أن محاولات حرق المسجد الأقصى معروفة ، وكان أبرزها الحريق الذي تم في ١٥ سبتمبر ١٩٦٩ والذي أذانه قرار مجلس الأمن رقم ٢٧١ . إلا أن أخطر خطط الهدم هي تلك الكشوف الأثرية المزعومة والتي لم تتوقف حتى مع صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٦/١٥ الصادر في ٢٨ أكتوبر ١٩٨١ والذي يطالب إسرائيل بالكف عن هذا العبث . وتتطلع بعض العناصر الدينية الصهيونية إلى إعادة بناء الهيكل (ليحل محل المسجد الأقصى) .

ويعيش بمدينة القدس حالياً ٥٦٤ ألف نسمة منهم ١٣,٧ ٤ يهودي (أي حوالي ١٠٪ من سكان إسرائيل اليهود) بنسبة ٧٣,٣٪ و ١٥٠,٦ ألف غير يهودي بنسبة ٢٦,٧٪ (يُلاحظ أن تعداد القدس عام ١٩٦٧ كان حوالي ٢٦٦,٣٠٠ نسمة ، فزاد عدد اليهود بنسبة ٩٩٪ ولم يزد عدد السكان غير اليهود عن ٢٠٪) . وفي ظل التوسعات الصهيونية في المدينة فإن مساحتها أصبحت تعادل عُشر مساحة الضفة الغربية . وهذه الزيادة المشار إليها لم تأت نتيجة تكثيف تهجير اليهود أو ارتفاع معدلات الخصوبة بشكل كبير بين الجماعات اليهودية في إسرائيل ، بل أتت من خلال محاولة التحكم العددي في السكان الفلسطينيين من خلال مجموعة من الآليات مثل التهجير والإخلاء والإرهاب ، والتضييق عليهم في مستوى معيشتهم ، ومن خلال التضييق في إصدار تراخيص البناء ، كما أسلفنا .

تيلبرت ، وفي عام ١٩٩٠ تمت مصادرة بضعة آلاف دونم لتوسيع أحياء قديمة وبناء مطار دولي . وفي عام ١٩٩٥ استولت السلطات على ٤٤٠٠ دونم بهدف دعم الاستيطان ، وهو ما كان نتائجه يُعنى بتنفيذه . وإذا كان للفلسطينيين حسابياً في نهاية ١٩٩٥ حوالي ٢١٪ من أراضي القدس فإن النسبة الفعلية بعد حذف المناطق الوعرة وخلافه تصل إلى ٤٪ فقط من القدس . وقد بلغ مجموع سكان القدس عام ١٩٩٣ حوالي ٥٥٥ ألف نسمة منهم ١٥٥ ألف فلسطيني مقابل ٤٠٠ ألفاً من الإسرائيليين . ورغم هذا لا يحصل الفلسطينيون إلا على ٥٪ فقط من موازنة بلدية القدس .

وكانت السلطات الإسرائيلية تفرص قيوداً على بناء العرب لمساكنهم حيث لم تكن تسمح لهم إلا ببناء ٥٦٪ فقط من الدوم في حين كان يُسمح في المساحات المملوكة لغير العرب ببناء تزيد نسبتته على ٣٠٠٪ ، حيث كانت تسمح ببناء أبنية شاهقة ، أما المناطق العربية فكان معدل الارتفاع فيها لا يزيد عن طابقين أو ثلاثة . وفي السنوات الخمسة والعشرين التالية لحرب ١٩٦٧ شكلت الوحدات السكنية الفلسطينية ١٢٪ من ٧٢ ألف وحدة سكنية بُنيت في القدس الكبرى .

وقد شهدت عملية التهويد من ناحية الإسكان طفرة بعد مجيئ رئيس الوزراء الليكودي بنيامين نتنياهو للحكم في إسرائيل . وكان أول ما شرعت فيه حكومته بعد توليها الحكم أن استكملت مشروع شارون القديم الذي يقوم على إقامة ٢٦ بوابة حول القدس . وهو المشروع الذي كان قد وضعه إبان حكومة شامير الليكودية مستهدفاً به سد الفجوات الموجودة في الطوق الاستيطاني الإسرائيلي داخل الأحياء الفلسطينية ، بإقامة تجمعات سكنية يتم من خلالها الدمج التام بين شرق المدينة وغربها وتحويل الأحياء العربية إلى جيتوات فقيرة معزولة ، يتم تفتيتها إلى وحدات سكنية صغيرة جداً ، كما كان يهدف المخطط إلى إنجاز تطويق القدس بالحزام الاستيطاني . وتقوم طريقة شارون في العمل الاستيطاني على ثنائية الأحزمة والبؤر لتطويق التجمعات الفلسطينية بالمستوطنات والأحياء اليهودية ، ثم الاندفاع في تركيز هذه البؤر (التي لن تلبث حتى تتوسع) لتفتت ما تبقى من تجمعات عربية .

ولم تسلّم آثار المدينة من عملية التهويد التي سارت في مسارين متوازيين أولهما الاتجاه لتصفية الآثار الإسلامية بسبب طابعها الواضح ، وهو ما تم أغلبه عن طريق الهدم والجرف أو تحت مسمى الكشف عن الجدار الغربي للحرم القدس وكذلك الحائط الجنوبي ، حيث أزيلت بعض الآثار لهذا الغرض وتصدعت أخرى بسبب الجهد نفسها .

ولقد استخدمت إسرائيل أساليب مختلفة لتحقيق هذا الهدف ،

الموجودة في القدس . كذلك أسرع في تنفيذ خطط إسكان مختلفة، مثل خطة الإسكان في جبل السور جنوبي المدينة . ويُلاحظ أن عمليات التهويد والتوسع أخذت في التسارع قبل حلول مناقشات الوضع النهائي التي كان من المفترض إجراؤها في منتصف عام ١٩٩٦ ، بهدف تغيير وضع القدس من الناحية البنيوية . وكما قال أحد المسؤولين الإسرائيليين : « سيستحيل على السيد عرفات أن يزعم أن القدس الشرقية عاصمته . قد ينجح في القيام بعمل رمزي ، غير أن عمليات البناء التي قمنا بها ستجعل تقسيم المدينة من جديد أمراً مستحيلاً » .

وقد جرت محاولة التباحث مع الطرف الفلسطيني بصورة غير رسمية لاختيار نيته ، وهو ما كشفتها الصحف الإسرائيلية أخيراً ، وينص على إشراف فلسطيني على المسجد الأقصى والقبول بجعل ثلاث قرى من منطقة القدس هي أبو ديس والعيزرية والسلوان عاصمة للضفة الغربية وقطاع غزة التي ستقام عليها الدولة الفلسطينية وطبقاً لمخطط العمل فإن هذه القرى الثلاث ستحمل اسم «القدس» أما بقية القدس الشرقية والغربية فستحمل اسم «أورشليم» .

وفقد دخل نتباهو في حلبة المزايدات، وتجلت هذه المزايدات في تزيف تاريخ القدس . وتحرك مجريد من الإثارة في مسألة التفق ومنطقة رأس العامود التي هدف منها منع التواصل بين القرى الثلاث المذكورة والمسجد الأقصى .

#### بيت المقدس

Jerusalem

انظر : «القدس» .

#### أورشليم

Jerusalem

«أورشليم» مصطلح نستخدمه للإشارة إلى القدس باعتبارها فكرة دينية . (انظر : «القدس») .

وقد استطاعت إسرائيل في اتفاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية (إعلان المبادئ الإسرائيلي الفلسطيني الصادر في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣) تأجيل بحث موضوع القدس إلى ما بعد عامين من الحكم الذاتي الفلسطيني أي حتى قبل يوبه ١٩٩٦ (حيث كان المفترض أن تبدأ المفاوضات النهائية في منتصف عام ١٩٩٦) وذلك ضمن موضوعات مهمة أخرى (اللاجئين - السيادة - المستوطنات - المياه) .

ومع هذا وافقت إسرائيل في تشرين الأول ١٩٩٣ على الاعتراف بأن كل المؤسسات الفلسطينية في القدس الشرقية ، وكذلك الأماكن المقدسة لدى المسيحيين والمسلمين ، تقوم بدور حيوي بالنسبة للمواطنين الفلسطينيين ، واستناداً إلى ذلك تعهدت إسرائيل بعدم المساس بأنشطتها . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها إسرائيل مصطلح «القدس الشرقية» في إطار معناه الجغرافي والاجتماعي وفي إطاره السياسي أيضاً . وتقوم ١٣ مؤسسة فلسطينية مرتبطة بالسلطة الفلسطينية بممارسة أنشطتها المختلفة في القدس . ويُعدُّ بيت الشرق أهم هذه المؤسسات ، وقد بدأ العمل فيه منذ انعقاد مؤتمر مدريد في عام ١٩٩١ ، كمرکز لقيادة الوفد الفلسطيني لمبادرات السلام ، وكمفوضية سياسية غير رسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية في مجال العلاقات الخارجية . وتُجرى ، في الأساس ، في هذه الدائرة مراسم يُقصد منها إظهار الهوية العربية للقدس الشرقية . وقد استلم فيصل الحسيني مهمة معالجة شؤون القدس بتكليف من سلطة الحكم الذاتي ، بمرتبة وزير غير رسمية ، لتجاوز القرار الإسرائيلي الذي يحظر على السلطة الفلسطينية العمل من داخل حدود مدينة القدس ، كذلك بدأ جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني ، في ممارسة نشاطاته في المدينة .

ورداً على النشاطات الفلسطينية داخل مدينة القدس أقر الكنيست الإسرائيلي في السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٩٤ ، قانوناً يمنع السلطة الفلسطينية من مزاوله نشاطاتها داخل أراضي إسرائيل ، واستناداً إلى القانون نفسه في القدس أيضاً . وفي مايو ١٩٩٥ ، أمرت إسرائيل بإخلاء جزء من المؤسسات الفلسطينية



## ٨

## عصر الآباء

عصر الآباء (المرحلة البطريكية) - إبراهيم - إسماعيل - إسحق - عيسو - يعقوب - يوسف - هجرة العبرانيين من مصر (الخروج) - الخروج (مفهوم ديني) - موسى - هارون

## عصر الآباء (المرحلة البطريكية) (٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)

Patriarchs

يُشار للآباء أحياناً بأنهم «البطارقة» وهي من الكلمة الإنجليزية «باتريك»، وهي من اليونانية «باتريارك» («باتر» بمعنى «أب»، و«باتريا» بمعنى «عائلة»، و«أركين» بمعنى «يحكم»).

وتشير كلمة «الآباء» في الكتب اليهودية إلى آباء اليهود : إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وهم الذين تلقوا وعوداً إلهية بأن تكون أرض فلسطين من نصيبهم ، كما تشمل الكلمة أحياناً موسى وهارون ، بل آدم ونوحاً . وهؤلاء ، رغم تلقّيهم هذه الوعود ، لا يُعدّون أنبياءً بعكس الحال في التراث الإسلامي . ولقب «آباء» يعني أنهم كانوا بمنزلة رؤساء وشيوخ لقبائلهم وعشائرهم يرتبطون بها برباط الدم والنسب والعرق . وفي العهد الجديد ، تنطبق الكلمة على إبراهيم ، وعلى أبناء يعقوب الاثني عشر ، وعلى داود . ويُعدّ يعقوب أهمهم في التراث اليهودي ، ذلك أن إبراهيم وإسحق قد أُجبا ابنين شريين هما إسماعيل وعيسو ، أما يعقوب (يسرائيل) فلم ينجب سوى الأخيار .

وتبدأ فترة الآباء مع ظهور أول شخص يُوصف بأنه عبراني ، أي إبراهيم . ويذهب بعض الدارسين الغربيين إلى أن من الصعب إطلاق مصطلح «فترة» على هذه المسافة الزمنية ، إذ لا تُوجد وثائق تاريخية أو دلائل قاطعة تساند الرواية التوراتية . كما أن هذه المسافة حسب هذا الرأي ، تبدأ في عالم شبه أسطوري وفي مكان غير محدد ، ذلك أن أور الكلدانية لم تكن كلدانية في أيام إبراهيم ، ولذا يُقال إنه جاء من حران ، وهي منطقتان بين الأناضول وسوريا . بل يذهب بعض المؤرخين الغربيين إلى أن الآباء ليسوا أشخاصاً محددين ، فهم رموز لفتحات مختلفة في تطوّر القبائل العبرانية . ولكن هناك من الدارسين من يؤكد الوجود التاريخي للآباء ويشير إلى وثائق تاريخية تدعم وجهة نظره .

وعلى أية حال ، يمكن تحديد بعض السمات الأساسية لهذه الفترة ، ويبدو أن العبرانيين كانوا أساساً شعباً رعوياً متجولاً من

مكان إلى آخر ، يضرب خيامه على حواف المدن الكنعانية (تكوين ٦/١٢ ، ١٨/٣٣ ، ٢١/٣٥ ، ٢٥/٢٦ ، ١٨/١٤ - ٢٠) ويتمتع برعاية الملوك الكنعانيين . وثمة نظرية أخرى تقول إنهم لم يكونوا رعاة وإنما كانوا يعيشون من الأرباح التي يحققونها من التجارة ، وأنهم كانوا موجودين على طرق القوافل ، وأنهم باعتبارهم شعباً متجولاً لم يكونوا منعزلين إنشياً . وهؤلاء يرون أن أصول الآباء ترجع إلى الآراميين ، بل إن قبيلتين من القبائل العبرانية كانتا تريان أن دمهما مصرية تجري في عروقهما ، فقبيلتا إفرام ومنسى ، تتسبان إلى ابني يوسف من زوجته المصرية حيث لم يكن الزوج من الأجانب أمراً مُحرمًا بعد ، فإبراهيم يتزوَّج هاجر المصرية ويهودا يتزوَّج كنعانية . وكما تقدّم ، فقد تزوّج يوسف مصرية ، وتزوَّج موسى مديّنة .

والخلفية الحضارية لفترة الآباء خلفية سامية سديبية ، فمن أور الكلدانية أو حران انتقل إبراهيم إلى كنعان لشراء مقبرة ، ثم استقر في مصر بعض الوقت ، ثم خرج منها . وكذا خرج يعقوب إلى مصر واستقرّ فيها هو وأبناؤه ، ثم خرجوا مرة أخرى إلى كنعان واستقرّوا مع القبائل العبرانية التي لم تكن قد غادرتها . وثمة روابط كثيرة تربط الآباء بالآراميين والمصريين .

ولم تكن حضارة العبرانيين في تلك الفترة بدائية ، ولكنها لم تكن قط أصيلة أو فريدة . ولأنهم شعب متجوِّج ، لم تكن لهم هوية حضارية محددة بعد ، إذ لم يكونوا يخضعون لأطر سياسية أو كهنوتية ثابتة ، ولا يتبنون تراث حضاري مركب كما كان الحال مع شعوب المنطقة . لكن كان في مقدورهم استيعاب جوانب من حضارات المنطقة بسهولة ويسر ، وخصوصاً أن بنية التجمّع العبراني في ذلك الوقت كانت تشبه في كثير من الجوه البناء القبلي للشعوب السامية الأخرى .

ويعد موسى ، تصل فترة الآباء إلى نهايتها مع توثّف الشخصيات الأسطورية التي تجسد فترة زمنية غير محددة المعالم عن الظهور . ومع وصول التغلغل العبراني في أرض كنعان إلى نهايته ،

تصوراً أن هذه المفاهيم الدينية قد تطوّرت في فترة لاحقة ولكن محرري التوراة نسبوها إلى الآباء لفرض نوع من الوحدة الفكرية على العهد القديم ، وحتى يصبح التاريخ وحدة متكاملة يرمعها إله إسرائيل .

ويُشار في التراث اليهودي إلى «الأسماء» أو «ماتريارك» (سارة وريبيكا ورايحل) بأنهن «عاقرات» إلى أن يشاء الإله أن يحملن ويلدن . وتؤكد حركات التمرکز حول الأنثى في الغرب دور الأسماء .

### إبراهيم

Abraham

«إبراهيم» هو «أبرام» بالعبرية وتعني «الأب الرفيع» أو «الأب المتكرم» . أما كلمة «إبراهيم» ويقابلها «أبورهام» فتعني «أبو الجمهورية» (من الأمم) (تكوين ١٧/٥) . وقد تغيّر اسمه من أبرام إلى إبراهيم بعد أن زوّج ذرية . وإبراهيم أول الآباء : أبو إسماعيل وإسحق . وهو أيضاً ، حسب الرواية التوراتية ، أبو الشعب اليهودي . ويُستدل من قصص التوراة ، ومن بعض الوثائق التاريخية ، على أن إبراهيم ظهر نحو عام ١٨٥٠ ق.م ولكن بعض المؤرخين يرون أنه عاش فيما بعد ذلك التاريخ وأنه دخل مصر في عهد الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة (في القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد ، أي في عصر الهكسوس) . ومن ناحية أخرى ، يُقال إن موطنه الأصلي مدينة حران في مملكة ميتاني الحورانية . وفي بعض الروايات الأخرى أنه نشأ في أور الكلدانية . ويُقال كذلك إنه وُلد في أور ثم انتقلت أسرته إلى حران . وحسب الرواية التوراتية ، تلقى إبراهيم في حران أول وعد إلهي بأن يخرج من صلبه شعب قوي وأن يورث هذا الشعب أرض كنعان ، وهذا ما يُشار إليه بالعهد . ويعود الاختلاف في العهد القديم إلى تمدّد المصادر ، فالمصدر الكهنوتي يجعل أور مكان ولادته في حين يجعلها المصدر اليهودي حران .

وتدل الروايات على أن إبراهيم كان يعيش مع أهله في الخيام حياة البدو الرعاة ، ويتنقل من مكان إلى آخر في أعقاب قبائل العموريين وغيرهم من الأقوام السامية التي هاجرت في تلك العصور من بلاد الرافدين وجزيرة العرب إلى سوريا وفلسطين . وتذكر النقوش الكتابية التي عُثر عليها في بابل أسماء تشبه اسم إبراهيم كانت شائعة في صيغ مثل : إبراهيم وإبرام وإبرما . كما ترد في نصوص مدينة ماري أسماء عمورية معروفة مثل يعقوب وإسحق

استقر العبرانيون على شكل جيوب غير متصلة جغرافياً تحيط بها الشعوب الأصلية . فظل الكنعانيون في الأودية مزارعين كما كانوا ، وشغلت الشعوب الأخرى أماكن مختلفة . وقد ظلت القدس ، على سبيل المثال ، ييوسية حتى عهد داود ، وتزامن استيطان العبرانيين في فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد مع حركات استيطانية أخرى ، إذ استقر العموريون في شرق الأردن ، والآراميون في سوريا ، وشعوب البحر (الفلسطينيون) في ساحل فلسطين الجنوبي .

ولقد كانت عبادة الآباء مختلفة بشكل جوهري عن العبادة الإسرائيلية واليهودية من بعدها . فالتوراة لا تصوّر الآباء كمبدعين من الناحية الدينية ، فهم لا يشئون أية حرب على الوثنية ولا على عبادة الأصنام التي تصبح موضوعاً أساسياً في الفترة الموسوية . وتضم قصص الآباء أحداثاً تتنافى والقيم الأخلاقية التي وردت بعد ذلك في كتب العهد القديم الأخرى . فقد تزوّج يعقوب من أختين في وقت واحد (لاويين ١٨/١٨١) ، وقام إبراهيم ومن بعده إسحق بادعاء أن زوجته الحسنة هي أخته حتى يتكسب من رائها . ويستغل يعقوب حاجة أخيه عيسو إلى الطعام في الحصول على بكرته ، أي أسبقته في الولادة ، ويغتصب التركة من أخيه غشاً وخداعاً . وزرع إبراهيم شجرة مقدّسة (تكوين ٣٣/٢١) ، وتثنية ١٦/٢١) ، وأقام يعقوب أعمدة حجرية مقدّسة (تكوين ١٨/٢٨) و٢٢) ، و١٣/٣١ - ٤٥ - ٥٢ ، و١٤/٣٥ ، وخسروج ٢٣/٢٤) الأمر الذي يدل على وجود عناصر وثنية في عبادتهم . ولا يوجد أي ذكر لأية أعياد . ويُقدّم الآباء التضحية والقرابين دون وجود كهنة أو معبد . ويُلاحظ أن عبادة الآباء لا تدور في الإطار القومي الإقليمي الذي اتّسمت به اليهودية بعد ذلك ، فالآباء ينتقلون بحرية من مكان إلى آخر يعبدون الإله في أي مكان . ولا يُشار إلى الخلق باعتباره يهوه وإنما يشار إليه بأسماء أعلام بعضها لا يرد ذكره إلا بالإشارة إلى فترة الآباء مثل : «إيل عليون» أو «الإله العلي» (تكوين ١٨/١٤) ، و٢٢) و«إيل عولام» أي «الإله السرمدي» (تكوين ٣٣/٢١) ، وأكثر هذه الأسماء شيوعاً هو «شلأي» أي «الإله القدير» (تكوين ١٧/١) ، و٣/٢٨ ، ١١/٣٥) .

ورغم افتتاح العبرانيين النسبي في فترة الآباء ، واستفادتهم من الشعوب الأخرى ، فإنه يلاحظ أن ثمة موضوعين أساسيين يؤكدهما محررو الأسفار بإلحاح ، وهما أن هذا الشعب المنحدر من هؤلاء الآباء سيصبح شعباً عظيماً (الشعب المختار) ، وأن أرض كنعان (فلسطين - إرتس إسرائيل) هي أرضه (الأرض المقدّسة) . ويمكن

يذهب إلى حوران ليجد زوجة لإسحق لأنه لم يكن يرضى أن يتزوج ابنة من امرأة كنعانية ، فتزوج إسحق من رفقة وتزوج إبراهيم نفسه مرة أخرى من قطورة وأنجب منها عدة أبناء . ولكنه أوصى بكل أملاكه لإسحق ، واكتسب بإعطاء أبنائه الآخرين هدايا ، حسب الرواية التوراتية .

وتنسب التوراة إلى إبراهيم أخلاقيات نفعية . فقد ذكرت على لسان إبراهيم بمناسبة اعترافه هو وزوجته سارة إلى مصر ، هرباً من القحط ، أنه قال : « . . . إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك » (تكوين ١٢ / ١١ - ١٣) وأضاف التوراة أن ذلك قد حدث فعلاً : « فأخذت المرأة [أي سارة] إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمر وعبيد وإماء وأثن وجمال » (تكوين ١٢ / ١٥ - ١٦) . ثم أعادت التوراة هذه القصة ذاتها مرة أخرى حين نزل إبراهيم وأمرأته مغتربين في أرض جراد إذ أخذها الحاكم ، ولكنه حينما اكتشف الحقيقة عتف إبراهيم على خداعه له ، ولكنه في الوقت نفسه أعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألقاً من الفضة ورد إليه امرأته (تكوين ٢٠) . وقد حدثت نفس القصة مع ابنة إسحق . وثمة تفسير جديد لهذه الواقعة يذهب إلى أن الرجل في الحضارة الحورانية ، كان إن عزت زوجته وأراد أن يعبر لها عن حبه ، جعلها بمنزلة أخته وصار يشير إليها بذلك . ولكن العبرانيين القدماء نسوا ، كما هو واضح ، المغزى الأصلي للقصة وجعلوا من التسمية اتجاراً بالعرض للحصول على الثروة !

ورغم أن الدارسين يتحدثون عن إبراهيم باعتباره مُحطِّم الأوثان بعد أن توصل إلى عبادة الإله الواحد ، فإن عبادة إبراهيم - كما جاء في العهد القديم - لم تكن هي نفسها عبادة يهوه ، ذلك على الرغم من الميثاق الذي عقد بينه وبين الرب . فالإله يُعرف في ديانة إبراهيم باسم «إيل شدي» أي «الرب القديم» ، أما يهوه فلم يظهر إلا في عهد موسى . ويلاحظ أن الميثاق أو العهد بين الرب وإبراهيم يختلف عن العهد بين الرب وبين موسى ، فالأول يشبه منحة ملكية لا تُلقى أية التزامات أو أعباء على الشعب بينما نجد أن العهد مع موسى يتبعه أعباء معينة .

ويُصور إبراهيم ، في الفلكلور اليهودي ، جالساً على أبواب جهنم ليحمي أي يهودي مُخْتَن من دخولها . وترى الأجناد أن إبراهيم اتبع الوصايا العشر وكل الوصايا والنواهي ومستطلبات الشريعة الشفوية رغم أنها لم تكن قد أُنزلت بعد . وهو الذي فرض

وإسماعيل ويوسف وبنيامين وهم من ذرية إبراهيم . ويُعدُّ ظهور إبراهيم بداية فئسة الآباء في تاريخ اليهودية وكذا في تاريخ العبرانيين .

رحل إبراهيم مع زوجته سارة وأبيه تارح وابن أخيه لوط من أور إلى كنعان (فلسطين) عن طريق تَدْمُر فدمشق حتى وصل إلى شكيم حيث تلقى الوعد الإلهي للمرة الثانية حسب الرواية التوراتية ثم إلى بيت إيل .

وقد انتقل إبراهيم بعد ذلك إلى مصر بسبب المجاعة ، ولكنه عاد إلى كنعان حيث تركه لوط بسبب الخلاف الذي نشب بينهما على أرض المراعي . وقد أعقب هذه الواقعة تأكيد الوعد الإلهي للمرة الثالثة . ثم تحوّل إبراهيم بعد ذلك إلى قائد عسكري فأنقذ لوطاً (ابن أخيه) ، وهزم أربعة ملوك . وعند عودته ، باركه الملك الكاهن ملكي صادق (ملك القدس) .

ولما كانت سارة عاقراً ، فقد استحسنت زوجها على الزواج من هاجر المصرية التي أنجبت له إسماعيل . عندئذ ، أكد الإله وعده مرة أخرى لإبراهيم بأن إبراهيم وسارة سيخرج من صلحهما عدة أم وملوك (تكوين ١٧ / ٨-١٠) وقد تغير اسماهما من أبرام وساراي إلى إبراهيم وسارة ثم فُرِضت شعيرة الأختان علامة دائمة على ميثاق الإله مع إبراهيم . ووعد الإله سارة بابن اسمه إسحق ، وقام إبراهيم بتختين نفسه وبتختين إسماعيل وكل الذكور في أسرته . ثم جاءت البشرية لسارة بأنها ستلد إسحق . وذهب إبراهيم وأسرته إلى مدينة جراد . ثم أنجبت سارة إسحق . وقد دفعتها الغيرة إلى التخلص من هاجر وابنها ، فانصرفت هاجر مع إسماعيل وهو لا يزال بعد صغيراً . وقد أراد الرب امتحان إبراهيم فأمره في الرؤيا بأن يضحي بولده ، فلم يتردد في الامتثال للأمر . ولكن الإله اغتنى الولد في اللحظة الأخيرة بكبش عظيم . وتلقّى إبراهيم الوعد الإلهي للمرة الأخيرة . واختلفت الآراء حول الذبيح : هل هو إسحق أم هو إسماعيل . وقد اتبع الطبري رواية التوراة التي تقول «سُحذ ابنك وحيدك الذي تحبُّه إسحق» (تكوين ٢٢ / ٢) . إلا أن المفسرين للمحدثين يذهبون إلى أن اسم إسحق قد أقدم هنا فيما بعد ، لأن أمر التضحية قد جاء في وقت لم يكن فيه لإبراهيم سوى ولد واحد هو إسماعيل . وبالتالي ، لا تنطبق على إسحق صفة «الوحيد» . وقد ماتت سارة في قريات أربع (حبرون أو الخليل) ، فاشترى إبراهيم من أحد الحثيين الحقل الذي تقع فيه مغارة المكفيلة حيث دفن زوجته سارة (وهو نفسه المكان الذي دُفِن هو أيضاً فيه بعد أن بلغ عمره مائة وخمسين عاماً) . ثم طلب إبراهيم إلى خادمه أن

صلاة الصباح والأهداب (تسيت تسيت) وتمائم الصلاة (تيفلين) . وقد كان يتَّسم بالقرى وطاعة الإله والشجاعة والوفاء ، وكان يشغق للمذنبين . وهو من أعظم الأنبياء حسب الرؤية التوراتية ، إذ كان يتحدث الإله معه لا من خلال الأحلام أو الرؤى وإنما مباشرة . ولذا ، فهو تجسيد للمقدرة الخارقة للحوار مع الرب . وتروي الأجداد قصة إبراهيم ابن صانع الأوثان الذي يهرب إلى كهف في الصحراء حيث يتأمل في فكرة الخالق ، وحينما يرى الشمس تصعد إلى كبد السماء يرى أن الشمس هي ربه . ولكنها تغرب فيظن أن القمر هو إلهه ، ولكن النهار يأتي بالشمس مرة أخرى . ولذا ، يتوصل إبراهيم إلى أنه لا الشمس ولا القمر إلهه . وترد في كتب المدراس والتلمود قصته . وقد ذاعت شهرته في رأي الأجداد بسبب نقود سكَّت باسمه عليها صورته . وكان يُعلَّق على رقبته حجراً كريماً اجتذب إليه الجماهير لأن كل من كان ينظر إليه كان يشفى من الأمراض . وقد كان إبراهيم سخياً يخدم ضيوفه بنفسه ويعلمهم أن يحمدوا الإله بعد كل وجبة . ولذا ، كان يُعدُّ من أوائل المبشرين . ويفرُّ التلمود أن إبراهيم قد عوقب في مصر ، كما استُعيد أبنائه لأنه سمح بتجنيد العلماء في الخدمة العسكرية وتردَّد في تختين نفسه . أما في الكتب الخفية ، فهو مؤسس مدن على طريقة اليونانيين .

ولبعض الفلاسفة اليهود رؤيتهم الخاصة لإبراهيم ، ففي رأي موسى بن سيمون أن إبراهيم قد وصل إلى أعلى درجات النبوة (مع استثناء موسى) ، وهو أول من توصل إلى فكرة الخلق من العدم من خلال التأمل ، وأول من توصل إلى الإيمان بالإله من خلال التفكير العقلي . أما يهودا اللاوي ، فيرى أن إبراهيم علامة على أن أعضاء جماعة يسرايل لهم قوة إلهية خاصة تُمكنهم من الدخول في حوار مع الرب ، وأنها مقدره يتَّسم بها آدم وورثها عنه إبراهيم وانتقلت إلى موسى ثم إلى الأنبياء ومنهم إلى الشعب اليهودي كله . وفي التراث القبائلي ، يُعدُّ إبراهيم التجلي التوراتي الرابع أو الحسيد أو الرحمة .

## إسماعيل

Ishmael

اسم «إسماعيل» من عبارة عبرية تعني «الإله يسمع» . وإسماعيل ، أكبر أبناء إبراهيم من هاجر المصرية جارية سارة ، سُمِّي بهذا الاسم بأمر من الإله ، وتم تختيته وعمره ثلاثة عشر عاماً . وعد الإله إبراهيم بأن يجعل من نسل إسماعيل أمة كبيرة من اثني عشر أميراً (تكوين ١٧/ ٢٠) . ورغم أن إسماعيل كان الابن البكر

لإبراهيم ، فإن سارة اضطهدت هاجر ، حسب الرواية التوراتية ، فهربت الأم وابنها في برية بئر سبع جنوبي فلسطين . وكانا على وشك الهلاك من الظمأ حين أرى الإله هاجر بئر ماء وعدها بأن ابنها إسماعيل سيصير أباً لأمة كبيرة . ثم طرد إبراهيم هاجر بسبب غيرته سارة ، فتزوج إسماعيل امرأة من أرض مصر ، فأنجب اثني عشر ابناً هم الذين أصبحوا آباء القبائل العربية . وتزوجت ابنته محلة أو بسمة من عيسو الذي اشترك مع إسحق في دفن أبيهما .

ويركز العهد القديم على عدم نقاء دم إسماعيل ، فهو أولاً من أم مصرية ، ثم إنه تزوج هو نفسه من مصرية ، واندمج نسله مع المذنبين والمؤابيين ، الأمر الذي جعلهم خصوصاً للمبرانيين على الدوام . وقد تم استبعاده من الميثاق الذي عُقد بين إبراهيم والخالق والذي ورثه بوجبه نسل إبراهيم أرض كنعان . ويشير سفر التكوين (١٢/١٦) إلى أن إسماعيل « يكون إنساناً وحشياً . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه » ، أي أنه سيكون ضد كل الناس وكل الناس ضده . وتُصور الأجداد إسماعيل شخصية شريرة فشل إبراهيم في تربيته ، فهو يفسد النساء ويعبد الأوثان ويحاول قتل إسحق ، ولكنه ماهر في استخدام السهم والقوس . تزوج من امرأة مؤابية ، وحينما زارهما إبراهيم كان إسماعيل غائباً . ولم تكرم الزوجة المؤابية وفادته ، فترك إبراهيم له رسالة بأن عليه ، أي إسماعيل ، أن يُغيَّر وتد تخيمته . ففهم إسماعيل مضمون الرسالة ، وطلق زوجته وتزوج كنعانية تُسمَّى فاطمة (١) . وقد ندم إسماعيل في نهاية حياته على كل المعاصي والأثام ، وتنحَّى جانباً في جنازة إبراهيم احتراماً لأخيه إسحق . ويُعتبر إسماعيل أبا العرب وقد كان يُشار إلى العرب في الكتب الدينية اليهودية في العصور الوسطى باسم «الإسماعيليين» . والآن ، يُطلق سكان الكمبيوترات على العائلات العربية اللاتي يعملن فيها اسم «كومبيته فاطمة»

والواقع أن صورة إسماعيل كرجل وحشي مُستبعد من الميثاق هي الصورة الكامنة وراء كثير من الادعاءات العنصرية الصهيونية تجاه العرب ، والكامنة أيضاً وراء الموقف الصهيوني منهم .

## إسحق

Isaac

«إسحق» هو ابن إبراهيم ، وثاني الآباء . والتسمية من كلمة «صَحَق» العبرية بمعنى «ضحك» . وقد جاء في العهد القديم أن إبراهيم وسارة ضحكا حينما أخبرهما ملك الرب بأنهما سيُزقان طفلاً في شيخوختهما . وحسب الموروث الديني اليهودي ، ورث



**عيسو**

Essau

اسم «عيسو» ليس له اشتقاق في العبرية وهو في الغالب اسم أدمي . وكان عيسو أيضاً يُدعى «أدم» أي «الأحمر» ، وسُمي بذلك لأنه وُلد أحمر كفروة الشعر ، وهو الابن الأكبر لإسحق من رفقة ، وتوأم يعقوب . وكان عيسو صياداً ماهراً . وقد عاد ذات يوم من الصيد جائعاً ووجد أخاه يعقوب يطبخ عدساً ، فباعه يعقوب صحن العدس ببكوره (أي حق الإرث باعتباره البكر) . ولما شاخ إسحق ، أراد أن يبارك عيسو ابنه المفضل . ولكن رفقة ساعدت يعقوب على خداع أبيه ، حيث استغلا عاهرة الرجل المعجوز ، ونال يعقوب البركة ثم فرَّ خوفاً من عيسو . وعند عودته غفر له عيسو وعرض عليه أن يعيش معه . تزوج عيسو من امرأتين حيثيتين ثم تزوج محلة ابنه إسمايل . وقد ركز سفر التكوين على هذه الوقائع التي تدل على أن نسله قَدَّ نفاه العرقي .

ويُعدُّ يعقوب وريثاً للعهد الذي مُنح لإبراهيم وإسحق بدلاً من عيسو . واستوطن عيسو سعيبر التي سُميت «بلاد أدم» ويُسَمَّى جبل سعيبر «جبل أدم» أيضاً . ويُعدُّ عيسو أباً الأدميين ، وهو شعب كان يخافه العبرانيون ويحتقرونه في آن واحد ، وعلاقة العبرانيين بهم تشبه علاقة يعقوب بعيسو .

ويُشار إلى عيسو في الأجداد بأنه شقيق يعقوب وعلى اعتبار أنه أدم وروما التي كانت تُقرَن دائماً بأدم . وترى الأجداد أن عيسو ، من حيث هو توأم يعقوب ، كان شخصاً شريفاً يُعبد الأوثان ويرتكب الزنى والقتل . أما عيسو من حيث هو أدم ، فقد جاءت من صلبه بعض الشخصيات الشريرة مثل هامان . أما عيسو ، من حيث هو روما ، فإنه يرتكب العديد من الجرائم فيخدع إسحق بأن يعطيه لحم كلاب ليأكله ، وهو لا يفكر ليعقوب ، كما جاء في الرواية التوراتية ، ولا يقبله وإنما يعضه . ولكن رقبة يعقوب أصبحت صلبة كالعاج ، فتساقطت أسنان عيسو . وبحسب الأجداد ، قُتل عيسو أثناء جنازة يعقوب وهو يقاتل على الميراث .

**يعقوب**

Jacob

«يعقوب» اسم عبري معناه «يعقب» أو «يمسك العقب» أو «يحل محل» . ويعقوب هو ثالث آباء اليهود ، وهو ابن إسحق وجدَّ اليهود الأعلى وتوأم عيسو الأصغر . أمسك بكعب قدمه (بالعبرية : عقب) ، ومن هنا كان اسمه (تكوين ٢٥/٢٦) . وتوجد قصتان

إسحق (وليس شقيقه البكر إسمايل) العهد الإلهي . وكانت محنته الكبرى حينما أمر الإله إبراهيم بأن يضحى به (وليس إسمايل) . وقد ورد في سفر التكوين العبارة التالية : «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق» (٢٢/٢) . ومن الواضح أن كلمة «إسحق» تم إقحامها ، لأن إسحق لم يكن في وقت من الأوقات ابناً وحيداً لإبراهيم (على عكس إسمايل فقد ظل الابن الوحيد لإبراهيم لمدة ثلاثة عشرة عاماً إلى أن رُزق بإسحق) .

وقد أرسل إبراهيم خادمه إلى حرَّان ليأتي لإسحق بزواج من أهله وعشيرته حتى لا يتزوج من كنعانية ، فتزوج إسحق من رفقة التي ظلت عاقراً لمدة عشرين عاماً ثم ولدت له توأمين هما عيسو ويعقوب . وانتقل إسحق إلى جرار بسبب الجاعة . وقد تشبَّه بأبيه في إظهار زوجته (حسنة المنظر) باعتبارها أخته ، وذلك لكي ينجي نفسه وينال من وراء ذلك رزقاً . وظهر الإله لإسحق في بئر سبع ووعده بأن يباركه . وبنى إسحق مذبحاً للرب هناك .

ويظهر إسحق شخصية سلبية ساذجة بسيطة لا يدرك نوايا الآخرين الشريرة . وقد أحب ابنه عيسو في حين أحب رفقة يعقوب . وقد إسحق بصره في شيخوخته . وحين أراد أن يبارك ابنهما عيسو وطلب إليه أن يُعدَّ له طعاماً من صيده ، استغلت رفقة علةً زوجها وتأمرت مع يعقوب على أن يتحلل شخصية أخيه ويقدم إلى أبيه بطعاماً تمَّدهُ به باعتباره طعام الصيد الذي جاء به أخوه ، معتمدة في ذلك على كلال بصر إسحق لشيخوخته . ونال يعقوب بذلك البركة التي كانت من حق أخيه (تكوين ٢٧/١ - ٢٩) . وقد مات إسحق في حبرون (الخليل) ودفنه ابناه في مغارة المكفيلة بجوار زوجته .

وليس لإسحق أهمية كبيرة في التراث الديني اليهودي على عكس أبيه إبراهيم وابنه يعقوب ، فيما عدا ارتباطه بفكرة التضحية . ويرى بعض دارسي العهد القديم أن أهميته كانت أكثر بروزاً في نسخ العهد القديم التي فقدت .

وجاء في الأجداد أن إسحق وُلد يوم عيد الفصح وأن كثيراً من النساء الماقرات قد حَمَلن في يوم مولده حيث سطعت الشمس بشكل غير عادي . وهو الأب الوحيد الذي لم يتغيَّر اسمه لأن الإله هو الذي اختار له هذا الاسم . وقد جرى تفسير فقدانه البصر بأن الملائكة التي أمسكت بيد إبراهيم قد بكت وسقطت دموعها على عينيه فكُتَّ بصره . ويُقال أيضاً أنه فقد بصره لأنه نظر ذات مرة إلى الشخينة . وقد فسَّر بعض الحاخامات فقدانه البصر بأنه أطال النظر في ابنه عيسو الشرير .

هوميروس يجرح ديوميدس الرب آريس بمساعدة أتيانا ، ولكن يعقوب يهزم ربه دون عون أو مساعدة .

ثم طلب يعقوب العفو من أخيه عيسو الذي انطلق إلى أراضي في جبل سعيم (أدوم) . أما يعقوب ، فإنه بعد أن اتجه إلى أرض كنعان ، اشترى أرضاً عند شكيم . وعند هذه النقطة ، يروي العهد القديم قصة دينة ابنة يعقوب من زوجته ليثة التي أحبها شكيم بن حمور الحوي وأقام معها الصلة الجنسية ، وقد أبدى أبوه رغبة ابنه في الزواج منها أياً كان صداقها معلناً بهذا رغبته في أن يصاهر قومه قوم يعقوب ، فوافق بنو يعقوب على ذلك بشرط اختتان الذكور من أبناء المنطقة قائلين : « . . . إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر ، نعظكم بناتنا ونأخذنا لبناتكم ، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً ، وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونغضي » (تكوين ٣٤ / ١٥ - ١٧) . وقبل الحويون (وهم من الأقوام الكنعانية) الشرط وفذوه بأمانة . وتم الزواج وأفسحوا ليعقوب وأهله المقام بينهم . وفي اليوم الثالث ، وكانوا متوجعين بعد الختان ، يُذكر أن ابني يعقوب (شمعون ولاوي) أخوي دينة أخذوا سيفيهما وأتيا على المدينة لأن أهلها نجسوا أختهم ، وقتلوا كل ذكر ، وقتلوا حمور وابنه شكيم بحد السيف وأخذوا دينة من بيت شكيم وخرجوا . ثم أتى بنو يعقوب ونهبوا المدينة : « غنمهم وبقرةم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه . سبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت » (تكوين ٣٤ / ٢٥ - ٢٩) . وغضب يعقوب مما حدث لأنه يظن على الغدر وإنما لأنه «نفر قليل فيخشى أن يجتمع عليه الكنعانيون والغريزون ويضربوه فيبيد هو وبيته » (تكوين ٣٤ / ٣٠) .

ثم ظهر الإله ثابثة ليعقوب مؤكداً له تغيير اسمه إلى إسرائيل ومجدداً العهد الذي أقامه مع إبراهيم . ولقد وُلد ليعقوب اثنا عشر ولداً منهم أحد عشر في آرام أصبحو القبائل العبرانية الاثني عشرة ، وبذلك يكون يعقوب هو أبأ اليهود الحقيقي الذي يتسمون باسمه .

وعندما حلت المجاعة أرض كنعان ، خرج يعقوب إلى مصر (هو وأولاده حسب إحدى الروايات) حيث كان يوسف قد هاجر من قبل ، فعاشوا حياة تتسم بالمعانة ، ربما تكثيراً عن خداع يعقوب لأبيه وسرقته حق الإرث من أخيه ، ولكنه يظل مُعذّباً قلقاً بشأن مصير أبنائه حتى وفاته . وتحضره الوفاة في مصر فيستأذن يوسف الفرعون في الخروج إلى كنعان ليدفنه في كنعان في مدينة حبرون (الخليل) ويعود مرة أخرى .

وقد عمقت الأجداد الصراع بين عيسو ويعقوب ، وحوكّت

أساسياتنا في حياة يعقوب أولاها أنه حينما عاد عيسو من الصيد جامعاً متعباً وجد أخاه يعقوب قد أعد طعاماً فسأله شيئاً مما أعد فانتبه يعقوب الفرصة وباعه طعاماً نظير بكوته (أي أسقيته في الولادة) ، ويحكم الشريعة كان الأكبر هو الذي يرث الزعامة بعد الأب .

أما القصة الثانية ، فهي قصة البركة التي اغتصبها يعقوب ، إذ لما كبر إسحق وصُفّت بصره ، اتفق يعقوب مع أمه رفقة على مغافلة الأب لكي يدعو له بدلاً من أخيه عيسو ، فتم له ذلك بأن انتحل شخصية أخيه ، ونال بركة ليست من حقه ، إذ أن إسحق دعا له بأن يكون الأبناء من ذريته . ولما أحسن إسحق بالأمر ، طلب إلى يعقوب الخروج فخرج فاراً من غضب أخيه إلى بيت أسلافه الآراميين ، وقيل إن أمه هي التي طلبت إليه أن يلحق بخاله مخافة أن يقتله أخوه عيسو . وقد حصلت أمه على موافقة إسحق على سفره بحجة أنه قد يتزوج بإحدى بنات الحيثيين (ويلاحظ أن يعقوب يظهر دائماً بوصفه راعياً ، أما عيسو فهو صياد بدوي مغير) .

ورغم أخطائه وخداعه ، فقد أراه الإله رؤياً مجيدة إذ رأى ملائكة يصعدون ويهبطون على سلم ، ووعده الرب بأن يعطيه الأرض التي كان متغرباً فيها ، وحين استيقظ يعقوب سمى المكان «بيت إيل» . خرج يعقوب إلى آرام من أرض العراق . وقد جاء على لسانه : « إن كان الإله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه ، وأعطاني خبزاً لأكل وثياباً لألبس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلهاً » (تكوين ٢٨ / ٢٠ - ٢١) ، وهو قول يعني ضمناً أن الإله ، إن لم يقبل الصفقة لن يقبله يعقوب رباً . ووجد يعقوب راحيل عند البئر فأحبها ، وخدم أباهما لابان سبع سنين مهرأها حتى إذا ما حان وقت الزواج احتال عليه لابان ووُوجه ليثة ، فاضطر إلى خدمته سبع سنين أخرى وتزوج من راحيل ، وتزوج أيضاً من خادمتيهما ، ثم خدم ست سنين أخرى نظير أجر ولكنه خدع لابان في هذه الفترة حتى فاق ثراؤه ثراه سيده ثم فر إلى كنعان ، وقد انتهزت راحيل الفرصة وسرقت الأصنام (الترافيم) من أبيها .

ارتحل يعقوب نحو كنعان (فلسطين) . وفي الطريق ، صارعه شخص حتى طلوع الفجر وانخلعت فخذه . وقيل أن يطلقه باركه وقال له : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الإله والناس وقلت » . ودعا يعقوب المكان فينيل أي «وجه الإله» لأنه قال : « إنني نظرت الإله وجهاً لوجه ونجيت نفسي » (تكوين ٣٢ / ٢٢ - ٣٢) . والقصة تشبه من بعض الوجوه قصصاً مماثلة في الحضارات الوثنية مثل الحضارة اليونانية . ففي القيادة

كاهن أون (عين شمس) فوطيفارح (أي : عطية رع إله الشمس) فانجب منها منسى وإفرايم . ثم حضر أبوه وكل إخوته من فلسطين هرباً من المجاعة فأكرم وفادتهم ووطنهم أرض جاسان أثناء حكم الهكسوس . وبذلك تكونت الجماعة العبرانية التي قادها موسى فيما بعد عبر سيناء إلى أرض كنعان . وتُفسر الأجداد قصة يوسف باعتبارها قصة جماعة إسرائيل ، حيث إن رحلته إلى مصر وحظه فيها يشبه خروج العبرانيين من فلسطين وتقلب حظوظهم بين الأمم . أما زوجة رئيس الشرطة فهي مثل أنثى الأغيار (شيكسا) التي تحاول أن تجتذب الذكر اليهودي إليها .

### هجرة العبرانيين من مصر (الخروج)

Emigration of the Hebrews from Egypt (Exodus)

يُشار إلى هجرة العبرانيين في المصطلح الديني بكلمة «الخروج» . ومن هنا ، فإن هجرة العبرانيين من مصر تعني «خروج» العبرانيين من مصر «بعد أن ظهر ملك جديد لا يعرف يوسف» (خروج ١ / ٨) . ومن العسير تحديد تاريخ محدد لعدم وجود وثائق تشير إلى هذا الحدث باستثناء العهد القديم .

ويختلف العلماء حول تاريخ هجرة العبرانيين من مصر ، فهناك رأي يذهب إلى أنه كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وأن العبرانيين طردوا من مصر مع الهكسوس ، وهذا رأي مانيتو المؤرخ المصري اليوناني الذي عاش حوالي عام ٢٥٠ ق.م .

أما الرأي الثاني ، فيذهب إلى أن هجرة العبرانيين حدثت في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد وأنها كانت في زمن تحتمس الثالث أو في زمن أمنوفيس الثاني ، ويتفق هذا مع ما جاء في سفر القضاة ، ومع ما ورد في لوحات تل العمارنة عن الخايبورو . ويعتقد العلماء أن هؤلاء هم العبرانيون الذين جاءوا إلى أرض كنعان في هذا التاريخ تقريباً .

أما الرأي الثالث فيرى أن تاريخ الهجرة يقع في الفترة ١٢٧٥ - ١٢٥٠ ق.م . وأنها تمت أثناء حكم رمسيس الثاني إذ يذكر سفر الخروج أن العبرانيين بنوا «مدينتي مخازن» وهما : فيشوم ورمسيس ، وأن «رمسيس» هو اسم الفرعون الذي حدث الخروج في عصره . وهذا دليل واه ، ذلك لأن اسم «رمسيس» استُخدم في عصر سابق لعصر رمسيس الثاني بزمان طويل .

ويقول علماء آخرون إن الهجرة قد تمت في عصر مرتباتح ، أي نحو عام ١٢٣٠ ق.م ، فقد جاء على نصب تذكاري أنه انتصر على إسرائيل وغيره من الأقوام وأنه قضى على نسله . وقد استدلووا على

عيسو إلى شر محض على عكس الرؤية التوراتية التي تنظر إليه بشيء من التعاطف . ويبدأ الصراع حسبما جاء في الأجداد منذ كانا في الرحم . فكلما كانت رفقة نمر على معبد يهودي كان يعقوب يحاول أن يخرج ، في حين كان عيسو يحاول أن يخرج إن مرت على معبد وثني . وبذا تتحوّل التناقض بين اليهود والأغيار إلى صراع أولي . وقد وُكِّد يعقوب نظيفاً ناعماً أبقاً مختناً ، أما عيسو فقد كان مغطى بالشعر ، أحمر اللذن ، نابت الأسنان ، وهذه صور تين الفرق بين جمال إسرائيل الروحي وقيح عالم الأغيار .

وقد مجدّ الحاخامات يعقوب ووضعه في مكانة تفوق حتى مكانة إبراهيم وإسحق ، فكلاهما أوجب أشراراً (إسماعيل وعيسو) . بل إن الإله قد نجّى إبراهيم من نار مرود من أجل يعقوب . وأكثر من ذلك ، فإن العالم كله قد خلق من أجل يعقوب . وقد فسرت الهاجاده خلع يعقوب بطريقة تجعلها مقبولة ، فقد وُكِّد عيسو قبل يعقوب لأنه هدد بأن يقتل أمه ، ووافق يعقوب على ذلك لينقذ أمه . ثم حاول يعقوب أن يسترد بكورته حتى يمكنه تقديم القرابين وهو أمر مقصود على الابن البكر أي أنه سرق البكورة بسبب ديني . بل جاء في الأجداد أن إسحق قد تردد في إعطاء عيسو برته . وحينما أخبر إسحق عيسو أن أخاه قد جاء «بمكر وأخذ برته» (تكوين ٢٧ / ٣٥) ، فإنه كان يعني في واقع الأمر أن أخاه قد جاء «بحكمة وأخذ برته» ١

### يوسف

Joseph

«يوسف» اسم عبري معناه «يزيد» وربما كان اختصاراً لـ «يوسف إيل» . ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل وأحب أولاده إليه . وردت قصته في سفر التكوين (٣٧ - ٥٠) . ويُطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية . حسده إخوته بسبب رؤيا بشرته بسياذته عليهم ، حيث كان يرى إخوته ساجدين له ، فتأمروا عليه وألقوه في جبّ ، وحمله بعض أهل مَدْيَن إلى مصر وباعوه ببيع الرقيق . فاشتره رئيس شرطة فرعون ووكله على بيته . وقد اتهمته زوجته ظلماً فألقت في السجن سنوات . وهناك اكتسب ثقة السجان ، فولاه على جميع المسجونين . وذاعت شهرة يوسف مفسراً للأحلام . استوزره فرعون مصر بعد أن أوكل له حلماً رآه عن سبع سنين سبع وسبع سنين جوع واقترح عليه تخزين الحبوب في سنين الشبع لتحتاشي المجاعة ، فعينه رئيساً لمخازنه وهو منصب مماثل منصب وزير التموين في العهد الحاضر . تزوج يوسف أسنات ابنة

أسباب ، أولها أن كنعان كانت دوماً عرضة للغزو الخارجي ، ولكنها كانت تقع خارج حدود إمبراطوريتين عظيمين : بلاد الرافدين ، ووادي النيل . وهذا يعني أن الأقوام التي كانت تعيش فيها كانت تتمتع إلى حد ما بنوع من الاستقلال النسبي . كما أنها كانت قد بلغت مرحلة متقدمة في الصناعة والتجارة والرفاهية الاقتصادية . وكان هذا بشكل عامل جذب قوي بالنسبة إلى العبرانيين ، ويحمل في تضاعفه أمل التغلغل في هذا المجال ، وبالتالي السيطرة عليه . وإضافة إلى هذا ، كان العبرانيون قد أقاموا في كنعان في زمن مضى ، الأمر الذي كان يهيئهم نفسياً للتفكير في الهجرة إليها مرة أخرى ، وخصوصاً أنها على مقربة من مصر . وأخيراً كان التشكيل السياسي السائد في كنعان يتكون من دويلات/ مدن ضعيفة لم يكن من الصعب على العبرانيين أن يغزوها ويسيطروا سيطرتهم عليها .

ويختلف العلماء في تحديد الطريق الذي سلكه العبرانيون في خروجه من مصر . فيحاول بعضهم تحديده بدراسة نصوص العهد القديم وتحليل تضاريس شبه جزيرة سيناء . بل يشير بعض العلماء قضية أن المكان الذي خرج منه العبرانيون «متسرايم» لم يكن «مصر» ، فقد أشار هوجو ونكلر إلى أن متسرايم التوراتية ليست مصر وإنما موزري وهي مقاطعة جنوبي البحر الميت تضم مرتفعات سعير ومدينة البتراء وتضم أرض مَدْيَن والأدوميين والنبطيين ، وأنه حدث خلط بين موزري ومصر . ويرى كمال الصليبي أن متسرايم هي أرض عسير في جنوب المملكة العربية السعودية . وقد رفضت أغلبية العلماء كلا الرأيين .

ونحن نستخدم كلمة «الخروج» للإشارة إلى هجرة العبرانيين (جماعة يسرايل) من مصر ، وسيرهم في سيناء ، من الناحية الدينية . ونستخدم كلمة «هجرة» للإشارة إلى الواقعة التاريخية ذاتها ، أما عبارة «التسلل العبراني في أرض كنعان» ، فنستخدمها للإشارة إلى دخول العبرانيين أرض كنعان .

### الخرُوج (مفهوم ديني)

Exodus (Religious Concept)

كلمة «الخروج» هي الترجمة العربية للعبارة العبرية «تسيات متسرايم» ، ويُقال لها باليونانية «اكزوداس» . وتُستخدم الكلمة بمنطوقها اليوناني في معظم اللغات الأوروبية .

والخروج هو خروج جماعة يسرايل من مصر بعد أن ظهر ملك جديد لا يعرف يوسف (خروج ٨/١) . وهي واقعة تحتل مكانة مركزية في الوجدان الديني اليهودي ثم الصهيوني . وتذهب المصادر

أن هذه إشارة إلى هجرة العبرانيين من مصر ، مع أن هذه الإشارة يُستدل منها على أن العبرانيين كانوا قد خرجوا من مصر قبل ذلك التاريخ وأنهم قضوا سنين في سيناء ، وتسللوا إلى كنعان واستقروا فيها ، الأمر الذي يتناقض والروايات الأخرى وبعض الحقائق التاريخية ، ولذا يذهب بعض المؤرخين إلى أن اسم «يسرايل» الذي ظهر على هذا النصب إما هو اسم لمدينة أو قبيلة كنعانية . كما قام أحد العلماء المصريين (د . أحمد يوسف) بترجمة النص كما يلي : «كان إسرائيل بوراً (أو عقيباً) لا بذرة له» . وهي جملة لا تدل بالضرورة على حرب أو قتال .

والخروج عملية هجرة من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين) . وبالتالي يمكن النظر إليه في إطار آليات الهجرة باعتبارها حركة طرد من مصر ، وحركة جذب إلى كنعان ، شأنه شأن أية حركة هجرة أخرى . ومع هذا ، يجب التحفظ بشأن ما سوره من أسباب وتفسيرات ، فهذه مراحل تاريخية كثير من جوانبها ظلت سديمية ، لا نعرف الكثير عنها .

وفي محاولة تفسير حركة الطرد من مصر يمكننا القول بأنه عند تحرير مصر من الهكسوس طُرد معهم حلفاؤهم العبرانيون . أما من بقوا منهم ، فقد اعتُبروا أجناب وتحولوا إلى أرقاء وعبيد سُخِّروا في أعمال البناء والمشاريع الإنشائية التي كان يقوم بها الفرعون ، ومن هنا أصبحت مصر ، بالنسبة إليهم أرض العبودية .

ويضاف إلى هذا العامل الحضاري أنه تم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد اكتشاف الحديد ، وهو ما أدّى إلى بدء تدهور الوضع الاقتصادي في مصر . فقد كانت مصر غنية بتعاقب النحاس ، وتسيطر سيطرة شبه كاملة على تجارته مع بلدان غربي آسيا ، ولذا ، فقد كانت تمارس تأثيراً لا يُستهان به في المنطقة . إلا أن اكتشاف الحديد قلب الأوضاع القائمة حيث حل التعامل بالمعدن الجديد محل التعامل بالنحاس في العالم القديم . ولم تقتصر آثار ذلك على الشعب المصري وحده وإنما شملت الحالة المعيشية لجميع الأجناب القاطنين في مصر ومنهم العبرانيون ، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير في الانتقال إلى موقع آخر أفضل .

وعلاوة على هذا ، شهدت منطقة البحر الأبيض المتوسط في الحقبة التاريخية ١٤٠٠ - ١١٠٠ ق.م حركة هجرة هائلة امتدت من أواسط آسيا متجهة نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوروبا ، إلى جانب حركة سكان جزر المتوسط نحو السهول الساحلية (ومن بينها السواحل الشرقية) مثل شعوب البحر ومنهم الفلستيون . أما حركة الجذب إلى كنعان ، فقد كانت تعود إلى جملة

الصغير الذي لا يحمل سوى المقلاع وتحمرّه من سطوة جوليات المدمجّ بالسلاح .

وُستخدّم كلمة «خروج» للإشارة إلى هجرة اليهود من أي بلد، فيُشار مثلاً إلى خروج يهود البلاد العربية منها إلى الدولة الصهيونية وإلى خروج يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) إلى الولايات المتحدة أو إسرائيل . ولكن ، وبعد هجرة ما يزيد على نصف مليون مُستوطن صهيوني من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول ، أشار أحدهم إلى «خروج صهيون» أو «الخروج من صهيون» . وفي هذا مفارقة عميقة إذ أن الخروج يكون دائماً إلى صهيون وليس منها . ويتناول أحد أسفار موسى الخمسة أحداث واقعة الخروج ، وهو « سفر الخروج » .

### موسى

Moses

«موسى» هو المقابل العربي لكلمة «موشيه» العبرية ، وموسى هو مؤسس الديانة اليهودية . ويخروجه أو هجرته من مصر ، يبدأ تاريخ العبرانيين .

وقد لاحظ فرويد أن شخصية موسى مزيج من مفاهيم البطولة عند الساميين والمصريين ، فشخصية البطل عند الساميين تتميز بأنها من أب غير معروف ، أو بأن يكون البطل يتيماً ، أو تكون ولادته محفوفة بالمخاطر والمشاكل ، أو يكون البطل ممن أحبوا العزلة في الصحاري والجبال . أما عند المصريين ، فهو من بيئة أرسقراطية ، قوي البنية شديد البأس ، يعيش في الحضرة بين قوم مُتمدينين . وتضم شخصية موسى مزيجاً فريداً من المفهومين .

شبّ موسى ، حسب الرواية التوراتية ، في بيت فرعون بعد أن ألقته أمه رضيعاً في النهر ، لأن فرعون كان قد شدّد الأمر بقتل صبيان العبرانيين . ولكنه عرف هويته الحقيقية . وتدخّل في شجار وقع بين مصري وعبراني فصّح الأول . لكن أحد العبرانيين وشى به ، فاضطر إلى الخروج من مصر إلى أرض مدين في شبه جزيرة سيناء والجزء الشمالي من الجزيرة العربية . وعمل خادماً لدى يثرون كاهن الإله المديني «يهوه» الذي علمه الديانة الجديدة وزوجه ابنته صفورة . وأثناء رعيه أغنام يثرون ، حدثت له معجزة الشجرة المشتعلة التي لا تهلكتها النيران ، فلما دنا لينظر نودي من وسطها ، وظهر له رب إبراهيم وإسحق ويعقوب الذي أصبح اسمه منذ ذلك الحين يهوه (موسى) - حسب الرواية التوراتية - هو النبي الوحيد الذي رأى الإله وجهاً لوجهه) . وطلب إليه يهوه أن يعود إلى مصر

الدينية إلى تفسير الخروج بأنه يرجع إلى تزامن اضطهاد فرعون مصر لأعضاء جماعة يسرائيل وإلى أنهم ستموا حياة الترف والدعة في مصر التي يُشار إليها بعبارة « قدير لحم مصر » .

ومهما يكن السبب ، فقد أصبح أعضاء جماعة يسرائيل ، حسب الرواية التوراتية ، شعباً وأمة مقدّسة بعد خروجهم من مصر «أرض العبودية» . وتعتبر هذه الواقعة ، تقليدياً ، النقطة التي يبدأ فيها التاريخ المستقل لليهود ويظهر الشعب اليهودي للوجود . فقبل ذلك التاريخ كانت الإشارات دائماً إلى أفراد أو أسر (مثل يعقوب وأولاده) تنتقل من مكان إلى آخر وليست لهم هوية إثنية محلّدة .

ويرمز الخروج في الوجدان اليهودي إلى التدخل الإلهي في التاريخ لصالح الشعب المختار . ويدل على تحوّل إله العالم أو الكون أو الطبيعة إلى إله التاريخ اليهودي الذي لا يمكن فهم أفعاله بالمنطق الإنساني العادي . وخروج جماعة يسرائيل من مصر علامة على اختيارهم حسب التراث الديني اليهودي ، وهو أيضاً علامة على الاستعداد الدائم عند الإله للتدخل في التاريخ ليأخذ بيدهم ولينصرهم على أعدائهم .

وتركز هذه المناسبة على مصر باعتبارها غودخ أرض العبودية التي يُمتنّ فيها الشعب المقدّس ، تماماً كما أصبحت بابل غودجاً لأرض السبي والنفي . والتراث اليهودي يذكّر اليهود بالخروج في أهم المناسبات ، فالوصايا العشر تعرّف الإله بأنه « الذي أخرج اليهود من دار العبودية » ، ويرد ذكر الخروج في صلاة الشماخ ، وعلى كل يهودي في عيد الفصح أن يستشعر الخروج وكأنه يمارسه بشكل شخصي مباشر . وسيتحقّق بالخروج حتى في العصر المسيحاني ، ذلك لأن العصر المسيحاني ، مثل الخروج ، يقع خارج نطاق التاريخ : في دائرة المطلق . فهما نقطتان متوازيتان ، فالخروج بداية التاريخ وعودة الماشيخ نهايته .

وهذا التاريخ المقدّس ليس له علاقة كبيرة بالتاريخ الحقيقي ، فحادثة الخروج هذه لم تمثل حدثاً يشير الاهتمام الفكري لدى المصريين ، ولذا لم يأت لها ذكر في الآثار الفرعونية . كما أن تجرمة العبرانيين الفعلية لم تكن سيئة دوماً مع الإمبراطورية المصرية القديمة ، وإن لم تكن طيبة طوال الوقت . ومع هذا ، فإن التاريخ المقدّس أو التوراتي هو الذي صاغ رؤية اليهود لمصر بل وربما رؤية العالم (العربي) المسيحي لها . ونفس هذه الرؤية ، في العلاقة بين عبودية شعب وتحمرّه من إمبراطورية كبرى مثل مصر ، تتمثل في رؤية داود وجوليات ، فهي عبودية الشاب

يمكن تحطيمهم - تماماً مثل الشجرة التي لم تقض عليها أسنة الله . وقد مُسّر تردده في قبول الرسالة الإلهية بعدة أسباب ، من بينها أنه أراد أن يكون الإله ذاته هو مخلص جماعة إسرائيل ، كما أنه كان غاضباً من الإله لأنه هجر جماعة إسرائيل لمدة مائتين وعشرة أعوام وسمح بأن يقوم المصريون ببيع كثير من أقتياتهم . وفي القبالة ، يُعدُّ موسى وهارون التجليين النورانيين : نيتسح (التحمل والأزلية) وهود (الجلالة والمجد) .

## هارون

Aaron

«هارون» هو المقابل العربي للاسم العبري «أهرون» ، وهو شقيق موسى ، وهو أيضاً من أحفاد لاوي . اعتُبر منذ شبابه قائداً لجماعته وكاهن بيته وسُمِّي باسم «اللاوي» . ويُعدُّ هارون شخصية أساسية في أحداث الخروج من مصر ، فهو الذي تحدّث باسم موسى حينما ذهب إلى فرعون (وهذا ما يعطيه صفات النبوة) . واشترك مع موسى في قيادة جماعة إسرائيل إلى خارج مصر . ومع هذا ، فحينما تأخر موسى وهو على الجبل مع الرب ، ضح أعضاء جماعة إسرائيل ، وارتدوا عن طاعة إله موسى وطلبوا إلى هارون أن يصنع لهم تماثيل آلهة ليعبدها ، فصنع هارون العجل الذهبي وبنى له مذبحاً . غير أن الإله ، مع هذا ، غفر له خطاه وأصبح هارون أول رئيس للكهنة .

وتُفسّر الأجداد تَورُطه في حادثة العجل الذهبي على أساس حبه لجماعة إسرائيل . فبدلاً من أن يقتل من اشتركوا في هذه العبادة الوثنية ، كما فعل موسى ، اشترك هو معهم بل صنع العجل بنفسه . وفي رواية أخرى أنه صنع العجل الذهبي خوفاً على حياته من جماعة إسرائيل .

وثمة رأي يذهب إلى أن ثمة اختلاف بين الهارونيين (ذرية هارون) واللاويين ، وأن ذرية هارون تشكلت نخبة خاصة داخل قبيلة لاوي ، ولذا فقد كان منهم كبير الكهنة في حين كان يتبع صفار الكهنة قبيلة لاوي . ويُلاحظ أن ثمة صراعاً بين اللاويين والهارونيين يظهر في ثورة أبناء قورح على هارون ، وفي رفض قبيلة اللاويين ممارسة عبادة العجل الذهبي . ويرى بعض العلماء أن قبيلة هارون كانت عشيرة كهنوتية موجودة في مصر قبل عصر موسى واعتنقت عقيدة موسى قبل اللاويين ، وأنها هي التي نشرت الدين الجديد بسبب مكانتها ، وأن العشيرة الهارونية اندمجت في قبيلة اللاويين .

ليكون قائداً لشعبه ويخرجه من هناك ، فأخذ معه أخاه هارون لأنه كان يتعلم في الكلام . وكما هو معروف ، رفض فرعون مصر ، وقد يكون رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٣٧ ق.م) ، ما طلبه موسى ، واستمر في استعباد جماعة إسرائيل ، فحلّت بمصر الأوبئة العشرة حتى اضطر فرعون إلى أن يطلق سراحهم . لكنه غير رأيه ولحق بهم أثناء عبورهم البحر الأحمر ، ففرق هو وجيشه . وعند جبل سيناء ظهر يهوه مرة أخرى لموسى ، وجدّد الميثاق بينه وبين جماعة إسرائيل ، وأعطى موسى الوصايا العشر والتوراة . وبدأ موسى في سنّ التشريعات ، وهو - حسب التراث الديني اليهودي - المصدر الأساسي للشريعة الشفوية . وبنى أيضاً خيمة الاجتماع .

وقد تسبب اليهود في الكثير من العناء لموسى أثناء عبور الصحراء ، إذ عبدوا العجل الذهبي في غيابه ، ثم ظلوا في الصحراء مدة أربعين عاماً حتى نجحوا في اجتياز سيناء . واتخذ موسى لنفسه زوجة ثانية رغم معارضة أخته مريم وأخيه هارون . وحينما حاول عبور نهر الأردن ، رفضت مملكتنا مواب وأدم السماح له بعبور أراضيها ، الأمر الذي اضطره إلى التسلسل شرقاً والاتجاه شمالاً .

وتذكر التوراة أن الرب غضب من موسى وأخيه هارون لحياتهما له إذ لم تقدموا مقدساتي وسط بني إسرائيل (ثنية ٣٢/٥١) . وكان عقاب موسى النظر إلى أرض كنعان من على جبل نبو لكنه لم يدخلها . ثم مات موسى ، وتولى مهمة إدخال جماعة إسرائيل إلى أرض كنعان خادمه يشوع بن نون .

ورغم أن له هذه الأهمية ، فإننا لا نجد ذكره على لسان عاموس أو أشعيا ، ولا يأتي له أيضاً ذكر في الأسفار المقدسة إلا فيما ندر . وربما يعود هذا إلى فقدان اليهود لأسفار موسى الخمسة مئات من السنين . والواقع أن هذه الأسفار تنسب إلى موسى كثيراً من الأوامر الخاصة التي تحرّض على النهب والسلب والحرق (عدد ١٨/١٨) . ونظراً لأهمية موسى في الوجدان اليهودي ، فإن اليهود والصهيانية يخلعون لقب «موسى الثاني» على كل قائد يهودي . وقد اكتسب هذا اللقب كلٌّ من موسى بن ميمون في الأندلس ، وموشيه ديان في فلسطين المحتلة .

وجاء في الأجداد أن السماء والأرض خلقتا من أجل موسى ، وأن ابنة فرعون حينما فتحت السلة التي فيها موسى وجدت الشخينة إلى جواره . وقد رفض موسى أن يرضع من ثدي المصرية لأن الفم الذي سيتحدث مع الشخينة لا ينبغي أن يلوّثه لبن النساء المتناسات . وقد ظهر الإله له داخل الشجرة المشتعلة حتى يبين له أن اليهود لا

## التسلل أو الغزو العبراني لكتعان

التسلل أو الغزو العبراني لكتعان - يُشَوِّعُ بن نون - الأسباط - القبائل العبرانية  
الإثنتا عشرة - مَشَسَى (مَشَسَه) - رُووِين - شَمعون - يَسَاكر - زبولون - بنيامين -  
دان - نفتالي - جاد - أَششير - إفرام - اللاويون - لاوي - يهودا (قبيلة)

## التسلل أو الغزو العبراني لكتعان

Hebrew Infiltration into, or Conquest of, Canaan

يُعدُّ خروج العبرانيين من مصر حركة هجرة تمكن رؤيتها في إطار حركة طرد من مصر وجذب من كتعان . وتشير بعض المراجع ، استناداً إلى الرواية التوراتية ، إلى هذه الهجرة باعتبارها حركة «غزو» عسكرية ، ونحن نفضل استخدام اصطلاح «تسلل» لوصف هذه العملية التاريخية الطويلة التي لم تتم عن طريق معركة أو عدة معارك عسكرية حاسمة ، وإنما عن طريق التسلل والتجسس والتزواج والاندماج وأحياناً الغزو . وقد كان العبرانيون قبائل بدوية بدائية حينما خرجوا من مصر وعبروا سيناء ووصلوا إلى مشارف أرض كتعان . ولذلك لم يكن في مقدورهم غزو هذه الأرض والاستيلاء عليها ، ولم يكن أمامهم سوى التسلل التدريجي فيها ، وقد كانت عملية طويلة استمرت ما بين ١٢٥٠ و ١٢٠٠ ق . م . وما كان لهذا التسلل أن ينتج لولا تضافر عدة عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية ، لعل أهمها كان الغياب المؤقت للإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة . فالإمبراطورية الحيثية في الشمال كانت قد انهارت في الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد ، وكانت عوامل الضعف تزحف على القوة المصرية في الجنوب التي تضاءلت هيمنتها على كتعان ، ولم تكن آشور قد أصبحت بعد قوة عظمى ذات أهمية . أما في كتعان ذاتها ، فقد كانت المدن الدول الكنعانية قد أحرزت تقدماً حضارياً ملحوظاً . ويُرجَّح أن السبب في أن جماعة إسرائيل أو العبرانيين قد أخذت بلغة وحضارة وحتى بديانة كتعان يعود إلى كونها جماعة بدائية تفتقر إلى أدنى المقومات الحضارية ، وذلك كما نستنتج من الروايات التوراتية إذ يخاطب الإله موسى قائلًا : «إني سأسوقك إلى مدن عظيمة لم تبناها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وأبار محفورة لم تحفرها ، وكروم وزيتون لم تفرسها . . . وأكلت وشبعت . . . (تثنية ١٠/٦-١٢) . ومع ذلك ، كانت هذه المدن/الدول تطاحن فيما بينها ، وهو ما أدى إلى تدهور

الوضع الأمني في البلاد . ويدعو أن الوضع الإثني في كتعان كان يتسم بعدم التجانس ، فالعهد القديم يذكر دائماً الأقسام السبعة التي تقطن المكان ويزداد العدد أحياناً ليصل إلى عشرة في سفر التكوين (١٥/١٩-٢١) «القيينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائين والعموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين» . وهذه نقطة أدركها جواسيس موسى ، فقد ذهبوا ورأوا أرضاً «تفيض لبناً وعسلًا وأن مدنها حصينة عظيمة جداً» أي أنها تتمتع بقدر عال من التقدم الحضاري . ولكنهم لاحظوا أيضاً تنوعها الإثني ، إذ قالوا : «المخالقة ساكنون في أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والعموريون ساكنون في الجبل والكتعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن» (عدد ١٣/٢٨-٢٩) .

ومع هذا ، لم يحرز العبرانيون نصراً عسكرياً ، فلم يحتلوا سوى بعض المناطق الجبلية عن طريق استخدام التجسس والتخريب وعصر المفاجأة . أما في السهول ، حيث توجد العربات الخربية ، فقد ظلت الهيمنة للكنعانيين . ويظهر هذا في رد قبيلة يوسف على يوشع بن نون حين يقولون : «لا يكفينا الجبل ، ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات حديد» (يشوع ١٧/١٦-١٨) . والوضع نفسه ينطبق على قبيلة يهودا ، فقد ملكت الجبل لكنها لم تطرد سكان الوادي «لأن لهم مركبات حديد» (يشوع ١٧/١٢-١٨) .

ومن يقرأ سفر القضاة (١/٢١-٣٥) ، ويشوع (١٦/١٠) يعرف أن الغزو العبراني كان مجرد استيطان في عدة جيوب غير مترابطة ، رغم كل التهويل الخاص بقتل عشرات الملوك . ويؤكد السفر أن الكنعانيين كانوا يقطنون وسط العبرانيين . بل يمكن القول بأن العبرانيين ظلوا مُشْرِدين لا جثين على قمم التلال ، ومن تجرأ منهم ونزل إلى السهول أصبح خادماً أو عبداً . وظل هذا الوضع فترة طويلة جداً ، ففي سفر الملوك الأول إشارة إلى إله العبرانيين باعتبارها «إله جبال لذلك قووا علينا . ولكن إذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم» (ملوك أول ٢٠/٢٣) .

## يَسُوْعُ بن نُون

Joshua

«يَسُوْعُ بن نون» هو المقابل العربي للاسم العبري «يهوشوع» ومعناه «يهوه هو الخلاص». ويشوع بن نون، كان اسمه في البداية «شوع» وأضاف موسى الجزء الأول فصار «يهوشوع»، ثم دعاه موسى «يشوع». وهو يُسمَّى أيضاً «يوشع». وهو خليفة موسى وخادمه وابن نون من سبط إفرايم. وكُد في مصر، وأرسله موسى مع كالب ليتجسس. ويُصوره العهد القديم باعتباره نبياً وقائداً عسكرياً قاد القبائل العبرانية إلى أرض كنعان واقتحمها حسب الرواية التوراتية بعد معارك ضارية مع العموريين والموابيين والفرزيين والكتعانيين والحيتيين والجرجاشيين والحوريين واليبوسيين، فأحرقوا بعض مدنهم وقتلوا رجالهم مستخدمين الوسائل كافة - ومن ذلك الخلد والتجسس عن طريق العاهرات (١٢٥٠ - ١٢٠٠ ق.م).

استمر يشوع بن نون في حكم العبرانيين مدة ثمانية وعشرين عاماً، فقسَّم الأرض التي احتلها بالقرعة على القبائل العبرانية، واستثنى اللاويين الذين قاموا بالأعمال الكهنوتية. وترك ست مدن على الشاطئ الأيمن والأيسر لنهر الأردن لتكون ملجأً للمشردين من العبرانيين المتهمين بالقتل الخطأ. وكان يحُدُّ جماعة يسرائيل من ترك الرب وعبادة آلهة غريبة. ويروي سفر يشوع أخباره، ومن بينها أنه أصدر أمره إلى الشمس بأن «تقف» حتى ينتقم من أعدائه «فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل» (يشوع ١٠/١٣).

ويشوع هو الذي أمر العبرانيين بأن يطوفوا بأسوار أريحا سبع مرات وأمامهم سبعة كهنة ينفخون في الأبواق، فسقط السور وسقطت المدينة في أيديهم. ويُفسَّر بعض المحدثين من اليهود هذه الظاهرة بأنه من تأثير شدة ذبذبات أصوات الأبواق. ومهما يكن الأمر، فقد قام يشوع بإحراق أريحا بالنار بأمر يهوه «وكل ما بها» ما عدا راحب العاهرة (يشوع ٦/٢٢-٢٤). ويُلاحظ أن التصور السائد للخالق في سفر يشوع لا يختلف كثيراً عما جاء على نقش ميشع حيث نجد أن الإله القومي يجد غبطة غير عادية في عمليات القتل والإبادة التي يقوم بها شعبه.

وتحاول الأجداد أن تبرر قيامه باغتصاب أرض كنعان من أهلها على أساس أن العهد الإلهي قد وعد بهذه الأرض لنسل يعقوب وأن الكتعانيين كانوا مجرد أوصياء عليها. وقد تزوج يشوع من العاهرة راحاب التي ساعدت جواسيسه وذلك بعد أن تهودت.

وما تجدر الإشارة إليه، أن العالَم هـ. تاملين قد أجرى

ولا يمكن قسِّم هذا التسلسل العبراني باعتباره غزواً بالمعنى العادي، فهو تسلسل يعتمد على القوة العسكرية أحياناً وعلى المكر أحياناً أخرى وعلى التزاوج في بعض الأحيان. كما أن العبرانيين التسلسلين تزوجوا مع أقاربهم الذين لم يهاجروا معهم إلى مصر كما تزوجوا مع الكتعانيين. وقد سيطر العبرانيون في نهاية الأمر على قسم كبير من أراضي فلسطين الشمالية، فاستولت قبائل يهودا وبنيامين الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس، واستولت القبائل الأخرى السهول الشمالية، وقام اتحاد القبائل المعروف بالملكمة العبرانية المتحدة التي انقسمت فيما بعد إلى الدولتين العبرانيتين. ولكن سيطرة العبرانيين لم تُمَّ طويلاً إذ قامت القوى الإمبراطورية العظمى فاكتمحت دولات الشام وفلسطين كلها وتعاقت السيطرة عليها.

ومن القضايا التي تثار، عمليات الإبادة الافتراضية التي صاحبت التسلسل العبراني، فحسب ما جاء في العهد القديم، كان العبرانيون لا يكتفون بفتح المدن وإنما كانوا يقومون باتلاف وتدمير كل ما تقع عليه أيديهم من إنجازات مادية أو حضارية وبإبادة الرجال والنساء والشباب والشيوخ واليران والخراف والحمير بحد السيف. ويذكر العهد القديم بفخر واضح الألفوف التي تمت إبادةها. ومما لا شك فيه أن الحديث عن الإبادة، مثل الحديث عن الانتصارات العسكرية، أمر مبالغ فيه. ومع ذلك، يظل هناك جزء من الحقيقة. ولعل اتجاه العبرانيين نحو الإبادة هو تعبير عن تَخَلُّفهم الحضاري، فالعبرانيون كما أسلفنا كانوا جماعات متحركة هاربة من مصر، دخلت أرضاً فيها مدن مستقرة بلغت مرحلة حضارية وثقافية أعلى وأكثر رقياً. ولم يكن تحقيق الانتصار والاستيلاء على هذه المدن ممكناً إلا عن طريق الإبادة الجسدية والإفناء المادي الشامل بسبب غياب أية مؤسسات إدارية عبرانية تتمتع بقدر من التركيب. كما أنهم، نظراً لتخلُّفهم الاقتصادي والحضاري، لم تنشأ عندهم الحاجة إلى الأيدي العاملة التي كان الأسرى من أهم مصادرها. ومن هنا، نجد أن العبرانيين كانوا يتخلصون من الأسرى بإبادةهم جسدياً. وقد استمر هذا الوضع حتى بعد إنشاء الدولة العبرانية المتحدة التي كانت تُسد حاجتها من الأرقاء والعبيد للمطلوبين أداء خدمات يومية اعتيادية للأرستقراطيين والموسرين عن طريق استعباد المذنبين والأفراد الذين يعجزون عن تسديد ديونهم فيبيعون أنفسهم أو أبناءهم ليكونوا عبيداً لدى الدائن.



الشرقية لنهر الأردن ، واستقرت القبائل الأخرى في سفته الغربية . وكانت أهم القبائل قبيلة يهودا التي استوطنت في الجنوب وسُميت باسمها المملكة الجنوبية بعد تفكك اتحاد القبائل في المملكة العبرانية المتحدة . أما أكبر قبيلة في الشمال ، فهي قبيلة «إفرايم» ، ولذا سُميت المملكة الشمالية «إفرايم» . وحينما قسّم يشوع بن نون الأراضي المُستولى عليها بين القبائل ، أوكلت أعمال الكهانة إلى قبيلة لاوي التي لم تزل نصيباً من الأرض . ولذا ، فإنها لم تُعد تُحسب ضمن القبائل . ومع هذا ، ظل العدد (١٢) كما هو ، لأن قبيلة يوسف قُسمت إلى قبيلتين هما منسى وإفرايم . وكانت شيلوه المركز المقدس لكل القبائل إذ وُضع فيها تابوت العهد . ولكن هناك نظرية تذهب إلى وجود مراكز مقدسة أخرى مثل شكيم وجبلجال ودان بحيث كان لكل قبيلة مركزها المقدس ، وكانت شيلوه المركز المقدس للقبائل جميعاً .

وجدير بالذكر أن العدد (١٢) رقم مفضل في العهد القديم ، فهناك وعد من الرب لإبراهيم بأن يُخرج من نسل ابنه إسماعيل اثني عشرة قبيلة (تكوين ١٧/ ٢٠) كما أن عدد أبناء يعقوب كان اثني عشر أيضاً ، وهو نفسه الرقم الذي يتكون منه اتحاد ملوك الحثيين . وربما كان لذلك علاقة بعدد البروج والشهور في التقويم الشهيرة . ومع هذا ، تختلف الروايات في عدد القبائل على وجه الدقة ، فأغنية دبورته (قضاة ٥) تذكر عشر قبائل وحسب ولا تذكر يهودا أو شمعون . ويذكر موسى (تثنية ٣٣) إحدى عشرة قبيلة إذ لا يذكر سيمون . وهناك قبائل ورد ذكرها ولم يُعرف مصيرها ، كما أن بعض المراجع التي حصرت كل الأسماء تذكر أن عدد القبائل يبلغ عشرين .

ظل التقسيم القبلي هو النظام الاجتماعي القائم في فترة القضاة (١٢٥٠ - ١٠٢٠ ق. م) ، والذي استمر إبان نظام الملكية بعد أن قام داود وسليمان بتوحيد القبائل تحت حكم ملكي شمولي . ولذا ، فبعد أن أُقيمت المملكة العبرانية المتحدة ، ما لبثت هذه المملكة أن انقسمت إلى مملكتين : الشمالية والجنوبية . وكانت المملكة الجنوبية (يهودا) تضم قبيلتي يهودا وبنيامين ، بينما ضمت المملكة الشمالية (يسرائيل) القبائل العشر الباقية . ويبدو أن الوحدة بين هذه القبائل كانت ضعيفة للغاية ، فالمعارك التي يرد ذكرها في سفر القضاة تدل على أن القبائل لم تشترك جميعاً في معركة واحدة . وهذا أمر طبيعي في أي اتحاد قبلي ، وإن كانت المراجع الصهيونية التي تحرص على إبراز مفهوم الوحدة اليهودية تحرص على إخفائه . بل كانت المعارك تنشب أحياناً بين هذه القبائل كما حدث أثناء حكم القضاة حينما

استفتاء ، في عدد من مدارس تل أبيب والمدن والمستعمرات الإسرائيلية ، حول الأساليب المهيجة التي انتهجها يشوع ، فتوصل إلى أن نحو ٦٦ - ٩٥٪ أيدوا ذلك الأسلوب وأن ٣٠٪ من التلاميذ كانوا يؤيدون بصورة قطعية زيادة السكان العرب تماماً في المناطق المحتلة . ومن الأجوبة التي تلقاها : « لقد تصرف يشوع بن نون تصرفاً حسناً بقتله جميع الناس في أريحا ، ذلك لأنه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لإضاعته مع الأسرى » .

وثمة إشارات عديدة في أدبيات جوش إيمونيم وجماعة كاخ إلى يشوع وإلى أن أسلوبه الإيدي هو الأسلوب الأمثل في التعامل . وقد دعا كاهانا المؤسسة الدينية إلى تبيان أن أسلوبه هذا جزء عضوي من الدين اليهودي والرؤية اليهودية لسكان الأرض من غير اليهود .

### الأسباط

Hebrew Tribes

«الأسباط» صيغة جمع مفرد «سبط» ، وهي كلمة عربية تعني «ولد الابن أو الابنة» ، وتستخدم في النصوص الدينية للإشارة إلى القبائل العبرانية . ونحن لا نستخدم هذا المصطلح في هذه الموسوعة إذ نؤثر استخدام المصطلح الأكثر حياداً وهو كلمة «قبيلة» وجمعها «قبائل» ، ونُفَرِّق بين السياق الديني والتاريخي فنقول «قبائل يسرائيل» و«القبائل العبرانية» .

### القبائل العبرانية الإثنا عشرة

Twelve Hebrew Tribes

كلمة «سبط» بالعبرية معناها «عصا» أو «جماعة يقودها رئيس بعصا» . ويُطلق تعبير «أسباط» أو «قبائل» على أولاد يعقوب وكذلك على كل من إفرايم ومنسى ابني يوسف .

وقد انتظمت مجموعة القبائل العبرانية (في العصر التالي لموسى والمسّمى «فترة القضاة» في اثني عشرة قبيلة أو اثني عشر سبطاً على ما جرت عادة النظام الاجتماعي للجماعات الكنعانية في فلسطين في العصور القديمة . وتسمت هذه القبائل بأسماء أبناء يعقوب : رؤوبين وشمعون ويهودا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير وإفرايم ومنسى ، وتضاف إليها قبيلة لاوي . وسُميت هذه القبائل معاً «يسرائيل» ، فهي من صلب يعقوب (يسرائيل) . وكانت كل قبيلة مقسّمة إلى بطون وأسر . وقد استوطنت قبيلتان ونصف (رؤوبين وجاد ونصف منسى) الضفة

**شمعون**

Simeon

«شمعون» اسم عبري معناه «سماع» ، وهو اسم ابن ليعقوب من ليثة ، ويُطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية التي لم يحصل أفرادها على نصيب من الأرض التي قُتحت ، فسكنوا مدنًا في أرض يهودا ثم استولوا على بعض المواقع من جبل سعي .

**يساكر**

Issachar

«يساكر» اسم عبري معناه «يعمل بأجرة» ، أو «يرتزق» هو اسم لأحد أبناء يعقوب من ليثة . وأطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية التي امتدت الأرض التي أعطيت لها من جبل الكرمل إلى نهر الأردن .

**زبولون**

Zebulun

«زبولون» اسم عبري معناه «سكن» أو «إقامة» ، وهو اسم ابن ليعقوب من ليثة . ويُطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية . كانت أرض هذه القبيلة تقع في أقصى الشمال ، واشترك أفرادها مع كل من دبور وباراق في حربهما ضد الكنعانيين . ولم يعلبوا دوراً مهماً في تاريخ العبرانيين .

**بنيامين**

Benjamin

«بنيامين» اسم عبري معناه «ابن يدي اليمين» . وهو اسم ابن ليعقوب من راحيل . وقد أطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية التي استقرت في جنوب فلسطين ، وكان أفرادها مشهورين بشدة بأسهم وقوة بنيتهم . كان منهم أول ملوك العبرانيين . وكانت مدينة القدس وبيت إيل داخل حدودهم . وجاء في سفر القضاة أن القبائل تحالفت ذات مرة ضدّهم وكادت تفتينهم عن آخرهم ، وقد انضمت قبيلة بنيامين إلى يهودا حين انفك اتحاد القبائل داخل المملكة العبرانية المتحدة .

**دان**

Dan

«دان» اسم عبري معناه «القاضي» . وهو اسم أحد أبناء يعقوب

نشأ صراع بين سكان منطقة جلعاد (قبيلة رؤوبين وجلاد ونصف قبيلة منسى) وقبيلة إفرايم . وقد هزمت قبيلة إفرايم في هذه المعركة ودُبح كثير من أفرادها بعد أسرهم . وقد جاء في العهد القديم (قضاة ٨ / ٧ ، ١٢) أنه كلما كان يدعى أحد أفراد قبيلة إفرايم أنه من جلعاد كان يُطلب منه أن ينطق بكلمة «شبولت» أي «سنبل» ، فإن فشل في ذلك ، بسبب اللهجة التي كانوا يتحدثون بها ، كان يُدبَح . وهذا يدل على تلك الرغبة في الاستقلالية والتمييز بين القبائل المختلفة ، كما يدل على قوة تأثير البيئة الكنعانية في مختلف القبائل بحيث كانت كل قبيلة تتبع اللهجة السائدة في المنطقة التي استقرت فيها . وقد هاجمت دبور في أغنييتها (قضاة ٥ / ٢٤) سكان جلعاد وقبائل رؤوبين ودان ، وأشارت إلى أنهم لم يهتروا لتجديتها . ويذهب بعض العلماء إلى أن مرحلة القضاة لم تشهد ظهور قيادات قومية لكل القبائل إذ كانت لكل مجموعة من القبائل قيادتها المستقلة .

ويبدو أن المحرّض الأساسي على الصراعات والحروب كان قبيلة إفرايم التي كانت تخشى على مكان الصدارة الذي كانت تحتله . وهذا ما حدث بالفعل بعد اتحاد القبائل في المملكة العبرانية المتحدة خلال عصر داود وسليمان . فبعد موت سليمان ، استقلت عشر قبائل تحت قيادة إفرايم (٩٢٨ ق.م) وكونت المملكة الشمالية التي كان لها استقلالها السياسي وبالتالي الديني ، وذلك باعتبار أن الدين والسياسة كانا متداخلين في العالم القديم ، كما كان الاستقلال الديني مظهرًا من مظاهر الاستقلال السياسي .

**منسى (منس)**

Menasseh

«منسى» اسم عبري معناه «من ينسى» وهو اسم الابن البكر ليوסף . كما يُطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية التي كان نصيبها في الأرض موقعاً على ضفتي نهر الأردن . وكانت منسى من القبائل الأولى التي هجرها الآشوريون .

**رؤوبين**

Reuben

«رؤوبين» هو اسم عبري معناه «انظروا الابن» وهو الابن البكر ليعقوب وليثة . ويُطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية التي كان نصيبها من الأرض في شرق الأردن على البحر الميت . وكانت رؤوبين من أوائل القبائل التي هجرت .

من ألقاها . وهو اسم إحدى القبائل العبرانية التي استقر أفرادها في وسط فلسطين من جهة الغرب . طردهم الفلسطينيون من هذه الأرض فاستوطنوا بقعة في الشمال بعد أن أبادوا سكانها الأصليين . ومنهم شمشون .

#### اللاويون

Levites

«لاوي» اسم عبري معناه «مقترن» . وفي الإنجليزية ، يرد هذا الاسم في صورة «اليفي» . ولاوي ثالث أبناء يعقوب من ليثة ، ويُطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية الاثنتي عشرة ، نصَّبهم موسى ليخدموا في خيمة الاجتماع مكافأة لهم على رفضهم الاشتراك في عبادة العجل الذهبي واشترآهم في ذُبْح عبثته . وقد أوكلت إلى كل عائلة من قبيلة لاوي مهام وواجبات محددة تتصل بالشريعة . واختصت عائلة هارون ونسله بالخدمة داخل الخباء نفسه ، وهو الهيكل فيما بعد . أما اللاويون ، فقد كانوا متوسطين بين الشعب والكهنة ولم يجز لهم أن يقدموا ذبائح أو يحرقوا بخوراً أو يشاهدوا الأشياء المقدسة إلا مغطاة . ولذلك ، حينما يحل وقت قراءة التوراة في الصلوات اليهودية بالمعبد اليهودي ، ينادى على من يُصور أنه من نسل الكهنة أولاً ، ثم ينادى بعد ذلك على اللاويين .

ويعد تسلل القبائل العبرانية في أرض كنعان واستيطانهم إياها ، قام يشوع بن نون بتوزيع القبائل للانتشار في الأرض . كما قام ، حسب الرواية التوراتية ، بتقسيمها بينهم دون اللاويين الذين لم يتألوا أي نصيب منها إذ أعطاهم ثمانين وأربعين مدينة صغيرة في فلسطين بأسرها ، وهي المدن الحرة أو مدن الملجأ التي يلجأ إليها القتلة إلى حين محاكمتهم ، فإن كان القتل بالصدفة ظل القاتل في المدينة ، أما إذا كان متعمداً فإنه يسلم للقبيلة للقصاص . ويذهب بعض العلماء إلى أن اللاويين لم يرتبطوا بأية أرض على الإطلاق لأن هذا لا يتفق مع مهامهم الكهنوتية . ويذهب فريق آخر إلى أن اللاويين لم يكونوا قبيلة ، وإنما كانوا يضمون ممثلين لكل القبائل . وكان نظام الكهنة اللاويين قائماً على النظام الذي اتبعه الكهنة المصريون في تمثيل كاهن لكل معبد من معابد مختلف الآلهة المصرية في مصر القديمة ، ومتفقاً أيضاً مع طبيعة النظام الديني قديماً في مصر وبلاد الرافدين على السواء حيث كانت هناك أسرة معينة تختص بتأريث مهمة الكهانة وتطويع العلاقة بين الرب والمؤمنين ليتم التعبير عنها من خلال الكهنة وحدهم .

وكانت العلاقة بين اللاويين والكهنة غير مستقرة ، فسفر التنبية يتحدث عن ضرورة أن ينضم اللاويون إلى صفوف الكهنة . ولكن

من بلهة . وهو اسم إحدى القبائل العبرانية التي استقر أفرادها في وسط فلسطين من جهة الغرب . طردهم الفلسطينيون من هذه الأرض فاستوطنوا بقعة في الشمال بعد أن أبادوا سكانها الأصليين . ومنهم شمشون .

#### نفتالي

Naphtali

«نفتالي» اسم عبري معناه «مصارعتي» . وهو اسم أحد أبناء يعقوب من بلهة . ويُطلق هذا الاسم على قبيلة عبرانية ، كان نصيب أفرادها في الأرض وادي الليطاني والأردن وبحيرة طبرية .

#### جاد

Gad

«جاد» اسم عبري معناه «طالع حسن» . وهو اسم أحد أبناء يعقوب من زلفة . ويُطلق هذا الاسم على إحدى القبائل العبرانية . وقد كان نصيب قبيلة جاد في شرق الأردن ، كما اشتمل على الجزء الجنوبي من جلعاد .

#### آشير

Asher

«آشير» اسم عبري معناه «سعيد» أو «مغتبط» . وهو اسم أحد أبناء يعقوب من زلفة . كما أنه اسم إحدى القبائل العبرانية . امتدت المنطقة التي خصَّصت لهم على ساحل البحر الأبيض من جنوب الكرمل إلى حدود صيدون (صيدا) . ولم تتمكن قبيلة آشير من طرد الكنعانيين من المدن الساحلية مثل عكا وصور وصيدون . وكانت معظم المنطقه المعينة لهم في يد الفينيقيين حتى عصر داود وسليمان . ولم تشترك قبيلة آشير في حرب دابور وباراق ضد الكنعانيين .

#### إفرايم

Ephraim

«إفرايم» كلمة عبرية معناها «الثمار المضاعفة» . وهو اسم أحد أبناء يوسف وأسات ، وهو اسم إحدى القبائل العبرانية . أما المنطقة التي عيّنت نصيباً لهم فكانت تقع في القسم الأوسط غربي فلسطين ، وكانت شيلوه من أهم مدن إفرايم . ساعد الإفرايميون دابور وباراق في حربهما ضد الكنعانيين ، ومنهم صموئيل . ويبدو أن هذه القبيلة كانت تتنازع القيادة مع قبيلة يهوذا . ولذا ، فقد تزعمت حركة

ألا وهي عشيرة موسى وهارون التي كانت لها الزعامة الدينية والاجتماعية على سائر القبائل . ويُقال لأفراد هذه القبيلة «اللاويون» ، ومنهم الهارونيون الذين اضطلعوا بدور الكهنة .

### يهودا (قبيلة)

Judah (Tribe)

«يهودا» اسم عبري مأخوذ من اسم يهودا رابع أبناء يعقوب وليثة . والاسم يعني «الشكر لله» . وقد كان يهودا هو الذي اقترح على إخوته ألا يذبحوا يوسف وأن يكتفوا ببيعه ، كما كان قائد رحلة أسرة يعقوب إلى مصر . تزوج يهودا امرأة كنعانية ، وتنتسب إليه أكبر قبائل العبرانيين وأهمها ، وهي قبيلة داود التي سيأتي منها الماشيخ وشعارها الأسد ، ومن هنا يُقال «أسد يهودا» . وقد سُمي كل العبرانيين «اليهود» نسبة إلى هذه القبيلة بعد شيوع اسمها جغرافياً في المنطقة الجنوبية . وقد ارتبط الاسم بمفهوم بيت يهودا بالمعنى الديني السياسي . وكانت قبيلة يهودا في صراع دائم مع قبيلة إفرام من أجل الرئاسة والسيطرة على القبائل . والصيغتان «يهودا» و «يهودا» متداولتان في اللغة العربية ، ولكننا في هذه الموسوعة نقتصر على استخدام كلمة «يهودا» للإشارة إلى كل من الشخصية التوراتية التي تحمل هذا الاسم ، والقبيلة أو المنطقة أو الدولة التي كانت تُدعى كذلك .

يبدو أن السلطة الكهنوتية في القدس رفضت انخراطهم في سلكها ووضعتهم في منزلة متدنية في عبادة يسرائيل القربانية لأنهم اندمجوا مع الكنعانيين ، وهكذا الفصل بين اللاويين والكهنة . ويُلاحظ أن اللاويين في عهد داود كانوا يُقسّمون إلى أربعة أقسام :

١ - مساعدي الكهنة .

٢ - القضاة ومدوبيهم والكتبة .

٣ - البوابين .

٤ - الموسيقين .

وبهذا المعنى ، يمكن الحديث عن اللاويين باعتبار أنهم قبيلة/ طبقة وأنهم في مرحلة من المراحل أصبحوا الطبقة الحاكمة بمعنى الكلمة ، وكذلك أداؤها التنفيذية وجهازها الإداري ، فمنهم الشرطة والقضاة والكتبة . ولذا ، فلإننا نجد أن يُربعم الأول ، لتأكيد استقلاليتهم وأمنه الداخلي ، قام بطرد اللاويين من مملكته . وقد تحسّن وضع اللاويين بعد العودة من بابل إذ أصبح الكهنة واللاويون يعوّدون بأصلهم إلى مصدر واحد وإن ظل الكهنة يشغلون أهم الوظائف الكهنوتية .

### لاوي

Levi

«لاوي» اسم عبري معناه «مقتصر» . وهو اسم أحد أبناء يعقوب من ليثة . وقد أُطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية ،



## ١٠ عصر القضاة

القضاة - القضاة (ديان) - راعوث - دبوره - جدعون - شمشون

القضاة (١٢٥٠-١٠٢٠ ق.م)

Judges

ظهر حكم القضاة مع بداية استقرار العبرانيين بعد تسللهم إلى أرض كنعان واشتغالهم بالزراعة وتحوّلهم عن الرعي .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه المرحلة هي التي تبيّن فيها العبرانيون الأشكال الحضارية الكنعانية المختلفة ، فتحوّلوا من بدو رحّل يتنقلون بالحصير إلى ممارسين للزراعة ، وتعلموا استخدام الأدوات الزراعية وتخزين الحبوب ووضعها في أوعية ، وبناء مأوى للحيوانات ، وأتقنوا بناء المنازل والقرى والمدن والحصون ، وطرق امتلاك وتاجير الأراضي وشراء الممتلكات واقتناء العبيد والجواري ، كما أتقنوا أشكال التقاضي . وقد بدأت تظهر بينهم فكرة الملك المقدّس . ومع هذا ، ظل مستواهم الحضاري بسيطاً غير مركب ، وظل مستواهم الاقتصادي متدنياً . وهذا يظهر بكل وضوح في التباين الشديد بين الأساسات جيدة الإنشاء ، التي بناها الكنعانيون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وبين أكوام الحجارة الفجّة التي حلّت محلها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (بعد التسلسل العبراني) ، وخصوصاً في بيت إيل .

ولم يستطع العبرانيون السيطرة على كل أرض كنعان في تلك الفترة ، وهذا يعني أن الوجود العبراني ظل وجوداً متقطعاً جغرافياً ومحاطاً بأقوام معادية مثل الكنعانيين والفلسطينيين استمرت في مقاومة العبرانيين قروناً عديدة . وقد أوقع الفلسطينيون هزائم شديدة بالقبائل العبرانية واستولوا على تابوت العهد ، وخضع العبرانيون لحكمهم لبعض الوقت .

وكانت دبوره من أولئك القضاة ، وكذلك كان جدعون الذي ردهجوم المديّنين ، وشمشون الذي انتقم من الفلسطينيين ، وصموئيل النبي ، وشاؤول أول الملوك . ويشير العهد القديم إلى اثني عشر قاضياً بعضهم يعاصر البعض الآخر .

وبعد ذلك التاريخ ، لم يُعدّ القضاة هم القادة إذ بدأ حكم الملوك مع بقاء أشخاص يقومون بإصدار الأحكام الدينية والدينية . ويُوجد في العهد القديم سفر يُسمّى «سفر القضاة» يتناول تاريخ العبرانيين من الفترة السابقة على موت يشوع بقليل إلى آخر أيام شمشون .

تستخدم كلمة «قاضي» (بالعبرية : شوفيط) في المؤلفات الدينية اليهودية لتشير إلى معنيين ، عام وخاص : المعنى العام هو القاضي الذي يحكم بين الناس ، وبهذا المعنى يكون موسى أول القضاة ، ثم خلفه في القضاء رؤساء العشائر وشيوخ المدينة . وكان الملك في التاريخ العبراني القديم يُعدّ من القضاة أيضاً ، يحكم معه مجموعة من القضاة يكوّنون مجلساً وعليهم استشارة الأنبياء والكهنة . وقد استمر هذا الوضع حتى التهجير البابلي .

ولكن كلمة «قاضي» لها معنى آخر في تاريخ العبرانيين القدامى ، فهي تشير إلى ما يمكن تسميتهم «شيوخ القبائل» . وهؤلاء أشخاص من الكهنة المحاربين جمعوا بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، وسيطروا على أمور القبائل العبرانية بعد وفاة يشوع بن نون وحتى قيام حكم شاؤول أول ملوك القبائل العبرانية ، وهي فترة تمتد حسب سفر القضاة نحو أربعة قرون . ولكننا إن قبلنا بأن واقعة الخروج أو الهجرة من مصر حدثت عام ١٢٧٥ ق.م ، وأن شاؤول تُوّج ملكاً عام ١٠٢٠ ق.م ، فإن هذا يعني أن عصر القضاة لم يزد على قرنين ونصف من الزمان .

والواقع أن القبائل العبرانية حينما تسللت إلى أرض كنعان حوالي ١٢٥٠ ق.م ، لم تكن هناك وحدة قومية متماسكة وإنما كانت هناك مجموعة من القبائل المتناحرة فيما بينها على نحو ما حدث حينما قام صراع بين سكان منطقة جلعاد وقبيلة إفرايم . ولم تكن هناك سلطة مركزية لهذه القبائل إذ كان الحكم فيها يقوم على أساس الحكم الأبوي والأسري كما هو الحال في مجموعات القبائل المشابهة .

كان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء كلما نشأت الحاجة إلى ذلك . وكان هذا المجلس هو الحكم الفصل في شؤون القبيلة ، وهو الذي كان يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى . فإذا ما فشل القاضي أمام هؤلاء الزعماء ، لجأ المتقاضون إلى القاضي الرئيس . ومع هذا ، لم يكن طابع المجتمع قبلياً رعويّاً محضاً ، فقد

## القاضي (ديان)

Dayyan

«ديان» كلمة عبرية معناها «قاضي» ، و«ديان» هو القاضي في محكمة حاخامية شرعية ( انظر : «القضاء والمحاكم» ) .

## راعوث

Ruth

«راعوث» كلمة مؤابية ربما كان معناها «جميلة» . وراعوث أو «روث» هو اسم امرأة مؤابية تزوجت من عبراني من قبيلة يهوذا . لجأ إلى مؤاب هو وأبواه وأخوه ، ولكن الرجال الثلاثة توفوا ولم يبق سوى راعوث والأم نعمة التي أرادت أن تعود إلى بيت لحم حيث قومها ، فأصرت راعوث أن تصحبها ، ثم تزوجت من عبراني آخر هو بوعز وأنجبت منه عوبيد جد داود . ويُسمى سفر من أسفار العهد القديم باسمها وهو أحد الأسفار الخمسة (اللفائف الخمس) التي تُقرأ في المعبد اليهودي في خمسة أعياد مختلفة ، ويُقرأ سفر روث في عيد الأسابيع . ويبدو أن كاتب هذا السفر كان غير مؤيد لحظر الزواج المختلط من الأجنيات ، فحاول أن يبين أن بطل العبرانيين وملكهم تجر في عروقه دماء أجنبية .

## ديبوره (القرن الثاني عشر)

Deborah

«ديبوره» اسم عبري معناها «نحلة» . وهو اسم امرأة تُعتبر من قضاة العبرانيين وأنبيائهم وقادتهم العسكريين . كانت تقيم تحت نخلة سميت باسمها لتقضي بين العبرانيين . دعت باراق ليحارب يابين (أحد ملوك الكنعانيين) في حاصور ، ويثور ضده بعد أن كسر شوكتهم عشرين عاماً (قضاة ٤ ، ٥) ، فالتقى جيش العبرانيين مع جيش الكنعانيين وانتصر عليه .

وتوصّف ديوره بأنها أم يسرائيل ، ويُشار إليها كنبية رغم عدم وجود أية نبوءات لها أو أقوال تتعلق بالنبوة . ويُعدُّ نشيد ديوره الذي يُنسب لها (القضاة ٥) من أقدم نماذج الشعر العبري القديم ، لاحتوائه على عناصر لغوية ومجازية قديمة . وهي تُوجّه اللوم في أغنياتها هذه لقبائل رؤوبين وجلعاد (أوجد) ودان وأشير لقبيلة أخرى تُسمى ميروز (لم تُذكر في مكان آخر) لأنهم أثروا مصلحةهم على مصلحة القبائل الأخرى . ولا تذكر أغنياتها سوى عشر قبائل أو تسع إن اعتبرنا إفرام ومَسَّى قبيلة واحدة ، فلا يأتي ذكر لقبائلي شمعون أو لاوي لأنهما ربما كانتا قد تشتتا في ذلك الوقت ، أو

لعلهما كانتا تعيشان في عزلة مع قبيلة يهوذا في الجنوب ، أو لعلهما لم تكونا بعد قد استوطنتا أرض كنعان .

## جدعون (١١٥٠ ق.م)

Gideon

«جدعون» اسم عبري معناها «خطاب» أو «قطع بشدة» ، وجدعون هو اسم أحد قضاة العبرانيين من قبيلة مَسَّى ويُقال إنه جاء بعد ديوره (١١٥٠ ق.م) عندما هزمت الكنعانيين ، الأمر الذي فتح الطريق أمام المدينيين وغيرهم . دعاه الرب ، حسبما جاء في العهد القديم ، إلى أن يدافع عن العبرانيين ، فقام بتحطيم تمثال بعل الذي كان يعبده أبوه ، وجمع رجالات قبائل مَسَّى وأشير وزبولون ونفتالي ، فجاءه ثلاثون ألف رجل ، حسب الرواية التوراتية ، اختار منهم نخبة مقاتلة قوامها ثلاثمائة فقط ، وهزم المدينيين عن طريق الهجمات الليلية ونصّب الكمان ، واستخدم حرب الماراك الخاطفة . حاول العبرانيون تصيبه ملكاً عليهم ولكنه رفض ، وهذا يدل على أن العملية الاجتماعية التي أدّت في نهاية الأمر إلى تحوّل المجتمع العبراني من الرعي إلى نظام مستقر مبني على المدن والدويلات (كما هو شأن البيئتين الكنعانية القائمة حينذاك) لم تكن قد اكتملت بعد .

وبعد انتصاره على المدينيين ، أخذ جدعون أقرط الذهب التي غنمها منهم وصنع منها إيفوداً (صنماً) جعله في مدينته عفرة وعبدته أعضاء جماعة يسرائيل كافة (قضاة ٨/ ٢٧) . وهذه حادثة تشبه حادثة العجل الذهبي ، وهذا يدل على أن التوحيد لم يكن قد استقر بعد بين العبرانيين . ويقول أورد وينجت الضابط البريطاني الصهيوني الذي قام بإرهاق العرب في الثلاثينيات من هذا القرن إنه استخلص كثيراً من حيله العسكرية من جدعون .

## شمشون

Samson

«شمشون» اسم عبري وهو تصغير لكلمة «شمس» ، وهو اسم لشخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة ، فقد كان قاضياً من قبيلة دان مدة عشرين سنة ، ولكن الكتب الدينية تشير إلى صموئيل أيضاً باعتباره آخر القضاة . وتحمل قصة شمشون منذ البداية ، عناصر عجابية كثيرة ، فأمه كانت عاقراً مثل سارة ثم جاء ملاك الرب (كما في قصة إبراهيم أيضاً) ، فعرف أبواه قبل ولادته أنه سيصبح من المنذورين أي شخصاً يكرس حياته للعبادة ويندرها للرب ، فيمتنع

الكتب الدينية اليهودية . فالكتابات التقليدية تُفسَّر فعلته الأخيرة لا باعتبارها انتحاراً وإنما باعتبارها عودة للرب والرسالة الأولى وباعتبارها تعبيراً عن الندم . أما الكتابات الصهيونية ، فترى في قصة شمشون دلالات وإيماءات تقترب من دلالات وإيماءات أسطورة ماساده بما فيها من تشجيع للتمركز الانتحاري حول الذات وتغذير من الاندماج مع الأغيار الذين تمثلهم النساء الفلسطينيات في هذه القصة . وفي الوقت المعاصر ، تحمل التصريحات الإسرائيلية ، بشأن حرب ذرية في الشرق الأوسط ، طابعاً شمشونياً شديد الوضوح !

ومع أن شمشون يشار إليه باعتباره آخر القضاة ، إلا أنه لم يكن قائداً للشعب كبقية القضاة إذ كان يتميز بفرديته واتباعه لهواه . ويقول بعض العلماء إن قصة شمشون ما هي إلا أسطورة خاصة بالشمس ، فشمشون هو الإله شمش وشعره هو أشعة الشمس ، أما دليلاً فتعني «ليلة» أي «الليل» ذلك الوقت الذي تتوارى فيه الشمس . كما يشير البعض الآخر إلى التشابه بين قصة شمشون وأسطورة هرقل ، فكلاهما يصرع أسداً ويحطم أعمدة ، وكلاهما تقضي عليه امرأة !

ويمكن اعتبار قصة شمشون جزءاً من الموروث الشعبي الذي يهدف إلى إرضاء النفوس وتعويضها . والواقع أن بطل مثل هذه السير لا بد أن يكون خارقاً للطبيعة في أسبابه وأفعاله مثل قتل ألف شخص بفك حمار . كما أن النهاية المزدوجة للقصة ذاتها (الانتحار والقتل) تعبير عن أحلام المسحوقين في أن الانفجار الأخير قد يقضي على الذات ولكنه يقضي على الآخر . ولا يُوجد في القصة (كما وصلتنا) ما يمكن تسميته بعناصر عبرانية أو يهودية ، فهذه العناصر هي في الواقع من التراث الشعبي العالمي .

عن شرب الخمر أو حلق رأسه أو لمس جلد ميت . وقد اشتهر شمشون بقوته الجسدية الحارقة .

تدور حياته حول مجموعة من المغامرات مع ثلاث نساء فلسطينيات من غزة . فعند اكتمال شبابه تزوج من امرأة فلسطينية . وفي إحدى زيارته لها ، قابل أسداً فصرعه ثم أكل نحللاً وجده في جشته فيما بعد ، وقارع الفلسطينيين ببعض الأحاجي إذ سألهم : هل رأيتم نحللاً في فم أسد؟ فلم يستطيعوا الإجابة ، ولكن زوجته أفشت لهم سره فهجروا ، وقتل ثلاثين فلسطينياً في عسقلون . وعندما عاد إليها ، وجد أنها تزوجت من آخر ، فأمسك ثلاثه من بنات أوى وأضرم النار في أذناها وأطلقها على مزارع الفلسطينيين فاشتعلت فيها النيران . وقد أخذ الفلسطينيون في الانتقام من العبرانيين الذين طلبوا من شمشون أن يستسلم لهم ليسلموه إلى أعدائه ففعل (ولكن شمشون فك وثاقه وأمسك بفك حمار وقتل ألفاً منهم) . أما محور ثاني المغامرات في حياة شمشون ، فهو قصته مع بغي من غزة كان يزورها . وبينما كان هو في منزلها ، عرف الفلسطينيون بوجوده وأرادوا أن يقتكوا به وهو منهنك القوى . ولكنه استيقظ مبكراً ، وخلع بوابات غزة على كتفيه ووضعها على تل في حبرون (الخليل) . ثم وقع شمشون في غرام دليلة الفلسطينية التي يبدو أنها كانت بغيها هي الأخرى . وعرفت دليلة أن سر قوة شمشون في شعره لأنه كان نذير الرب وهو في بطن أمه . فأتى الفلسطينيون عليه وهو نائم وجزوا شعره وأوثقوه بسلاسل من نحاس وسملوا عينيه ثم أخذوه إلى غزة ووضعوه في السجن . وحينما أخرجوه ليسخروا منه في المعبد دفع شمشون العمودين فسقط المعبد عليه وعلى من فيه فماتوا جميعاً .

وتفسير قصة شمشون في الكتابات الصهيونية يختلف عما في



## عبادة يسرائيل

عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية - القربان - الكهنة والكهانة - كوهين - الكاهن الأعظم - يعل - العجل الذهبي - الترافيم (أصنام) - الأفود (أصنام) - خيمة الاجتماع (خيمة الشهادة) - تابوت العهد (تابوت الشهادة/ سفينة العهد)

## عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية

## Israelite Cult and the Central Sacrificial Cult

«عبادة يسرائيل» أو «العبادة القربانية المركزية» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى ديانة العبرانيين (جماعة يسرائيل) منذ ظهورهم على مسرح التاريخ حتى التهجير البابلي. وقد اكتسبت هذه الديانة صفات محددة أثناء فترة التجوال في الصحراء، وتعدلت بعد فترة التسلسل في كنعان، ونضجت تحت تأثير رؤى الأنبياء، وفي فترة بابل. وبعد العودة من بابل، بدأت تفتيتها من العناصر القديمة. وبدأت عملية التحول على يد عزرا ونحميا، وساهم الفريسيون فيها، ثم قضى عليها هدم الهيكل تماماً حتى تحولت عبادة يسرائيل إلى العقيدة اليهودية أو اليهودية الحاخامية.

وتعود عبادة يسرائيل إلى الديانات السامية القديمة، وهي ديانات حيوية حلوية تؤمن بأن العناصر الطبيعية، مثل الأحجار والمياه والأشجار والجبال، لها حياة مستقلة وتؤثر في حياة الأفراد. وتصل بعض هذه الكائنات إلى درجة خاصة من القداسة بحيث تحل فيها آلهة ينبغي على الإنسان أن يعبدها ويتقرب إليها. وتعتبر الطوطمية من المصادر الأخرى لعبادة يسرائيل، وهي الاعتقاد بأن حيواناً ما هو حامي القبيلة وربما سلفها أي جدّها الأكبر. وتكتسب الآلهة في عبادة الساميين القدامى صفات إنسانية، فتنتشر فيما بينها وتنقسم إلى ذكور وإناث. ويبدو أن عبادة الأسلاف كانت، هي الأخرى، أحد المكونات الأساسية لعبادة يسرائيل. كما أن ثمة إشارات عديدة للترافيم (الأصنام)، وهي تماثيل لها علاقة بالخصوبة بين الإناث.

ورغم أن إبراهيم أول من رفض الشرك حسب التصور التوراتي، فإن العهد القديم يقرر أيضاً أن التوحيد الحق جاء بعد خروج العبرانيين (أو جماعة يسرائيل) من مصر. ففي هذه المرحلة يكشف يهوه عن نفسه لموسى أثناء إقامة العبرانيين في أرض مدين، وتدخل يسرائيل في ميثاق مع الرب (العهد). وقد خطى

التوحيد خطى واسعة بين العبرانيين، ولكن العبادة لم تكن توحيدية خالصة، بل كانت مقصورة على إله واحد، ولكن ثمة إشارات إلى أنه أعظم من الآلهة الأخرى. كما أن أعضاء جماعة يسرائيل كانوا دائمي العودة إلى طرق الشرك القديمة، فقد عبدوا العجل الذهبي وهم بعد في سيناء.

وحينما تسلس العبرانيون إلى كنعان (فلسطين) (١٢٥٠ ق.م)، تراجع التوحيد عدة درجات، وبدأت الرؤية الحلولية ترسخ. فالعبرانيون كانوا رعاة ثم تعلموا الزراعة من الكنعانيين وتأثروا أيضاً بأعيادهم الزراعية إذ كان يستحيل فصل التكنولوجيا عن الدين في ذلك الوقت. ومن هنا، ظهرت الأعياد الزراعية المختلفة مثل عيد المظال. كما تعلم العبرانيون بعض رقصاتهم ذات الطابع الجنسي الواضح، وبعض قوانين الطعام مثل عدم طبخ الجدي في لبن أمه، كما عرفوا كثيراً من الشعائر المرتبطة بالزراعة، وعبدو آلهة كنعان الوثنية وسقطوا في الشرك الواضح. ومن هنا، كانت الثورة الدائمة من قبل الأنبياء عليهم ودعوتهم إلى العودة إلى طريق التوحيد. وفي هذه العبادة، ظهرت خيمة الاجتماع، وكان تابوت العهد يُوضَع داخلها. وكانت هناك شعائر أخرى، مثل: الاحتفال بظهور الهلال ومجيء الربيع (عيد الفصح)، والتضحية بكيشين في عيد الغفران، والختان.

ويمكن على مستوى من المستويات أن تقسم عبادة يسرائيل إلى مرحلتين، تنتهي المرحلة الأولى (في ١٠٠٠ ق.م) مع التسلسل إلى كنعان، وبعد أن نُقلت العناصر الشعائرية من المدن المقدسة وتم تأسيس المملكة العبرانية المتحدة وتحويل أورشليم (القدس) إلى عاصمة لهذه العبادة وبناء الهيكل الذي أصبح مركز العبادة القربانية. ثم تبدأ المرحلة الثانية وهي مرحلة العبادة القربانية المركزية. وكان الكهنة هم العمود الفقري في عبادة يسرائيل، والقائمين على العبادة القربانية. وقد تزايد نفوذهم بعد العودة من بابل وبعد أن بُعثت العبادة القربانية المركزية، وخصوصاً بعد اختفاء النظام العبراني



والبعث ، إلا في مراحل متأخرة ، بل إن بعضها لما يستقر حتى الآن . وهذا يفسر عدم تجانس النسق الديني اليهودي (الخاصية الجيولوجية) وصعوبة تعريف الهوية اليهودية .

وقد تركت عبادة إسرائيل (العبادة القربانية) أثراً عميقاً في التطور اللاحق لليهودية يتجلى في تركيزها الشديد والحرفي على الشعائر وعلى شكلها دون الاهتمام بالروح والمعنى . ومن المعروف أن ثلث الأوامر والنواهي ، وهي مستمارة وثلاثة عشر ، تتناول العبادة القربانية وجوانب أخرى من العبادة في الهيكل . كما أن جزءاً من التلمود والصلوات اليومية مرتبط بالعبادة القربانية . ويبدو أثر العبادة القربانية في الاهتمام الشديد بقواعد الطهارة والنجاسة في اليهودية . وقد تركز هجوم السيد المسيح على اليهودية في هذه الناحية . ولعل هذا الجانب في اليهودية هو ما يُفسَّر سبب تأخر صياغة العقائد اليهودية حتى ظهور سعيد بن يوسف الفيومي ثم موسى بن ميمون . وتدور اليهودية الحاخامية حول طريقة العبادة لا حول مضمونها . فعلى سبيل المثال ، يجب على اليهودي أن يغسل يديه قبل الأكل وبعده ، ويتلو المؤمنون بالقبالة أدعية يُهمَّ منها أنها مُوجَّبة إلى كل من الإله والشيطان كقوتين متساويتين . لكن مثل هذا الدعاء ، لأنه ينصرف إلى المعنى وحسب ، ليس مهماً ، فما يهم هو الطريقة نفسها التي يتم على أساسها غسل اليد . ويظهر هذا بشكل أكثر وضوحاً في الشماع ، فاليهودية الأرثوذكسية أعطتها معنى مختلفاً تماماً عن معناها في التراث القبالي ، ثم جاءت اليهودية المحافظة وأعطتها معنى ثالثاً . ولكن ، من منظور شعائري ، لا نهم الاختلافات في المعنى والتفسير ، فما يهم هو طريقة تلاوة الشماع . ولذا ، لا يعترض الأرثوذكس على التفسيرات القبالية التي تعطي مضموناً غير توحيدى لشهادة التوحيد اليهودية ، ولكنهم يعترضون وبشدة حين يتلون الشماع بالإنجليزية ، أي حين يفسرون طريقة التلاوة .

ويمكن القول ، على مستوى من المستويات ، بأن الصهيونية هي علمة للعبادة القربانية الحلولية ، فقد جعلت من الدولة شيئاً يشبه الهيكل القديم (يطلق الصهانية على إسرائيل مصطلح «الهيكل الثالث» ) ، حل فيها الإله وهي محط اهتمامهم أينما وجدوا ، ولا يهم إن كانوا يعبدون الإله أو لا وإنما المهم هو تقديم القرابين إلى هذا الوثن الجديد . وتأخذ القرابين الآن شكل شيك يُدفع للمنظمة الصهيونية العالمية فيما يُسمى «يهودية دفتر الشيكات» . وقد تحولت المعابد اليهودية إلى ما يشبه الفروع للهيكل الجديد في محاولة لتجنيد اليهود للعبادة القربانية الجديدة .

للملكية التي لم يسمح الفرس بعودتها . وتتضح قوة الكهنة في جماعة الصدوقيين المرتبطة بالعبادة القربانية .

ومن أهم سمات عبادة إسرائيل ، تقديم القرابين (وقد كان ذلك يتم في الهيكل ، ومن هنا جاءت التسمية) . وقد كانت تُقام شعائر يومية في الصباح وعند الغروب حيث كان الكهنة يقومون بتقديم حَمَلٍ وقرابين أخرى للإله (كما كان الحال في ديانات الشرق الأدنى القديم) .

وكانت القرابين أنواعاً مختلفة . وكلمة «قران» كلمة سامية ويُقال لها أيضاً «متحة» . وتقديم القرابين (البقر والحراف وبيوكير الثمر) كان ضمن شعائر التقرب من الإله حيث يعلب الدم دوراً مهماً . ولذا ، فقد كان الدم يُثر على المذبح حتى نهاية مرحلة العبادة القربانية أو عبادة إسرائيل ، وتُحرق القرابين أمام الهيكل . وفي بداية الأمر ، كان العبرانيون يقدمون القرابين في أي مكان ثم أصبح ذلك مقتصرًا على الهيكل ، وكانوا يضحون بالحيوانات (حيث كانت عملية التضحية تُسمى «زبح» أي «الذبح» ) ، كما كانوا يتقدمون بالنباتات وبالطعام والبخور والخمور . وكانت هناك قواعد صارمة تتصل بعمر ولون الحيوان الذي سيُضحى به . وقد كان تقدم القران هو الحدث اليومي عميق الصلة بالمعبد ، فكان يُقدَّم واحد في الصباح وآخر في المساء ، وكان يصحب القرابين احتفال طويل وشعائر يقوم بها الكهنة .

وتُقسَّم القرابين إلى عدة أنواع ، منها : قرابين التكفير ، وقرابين السلام ، والقرابين التي تُقدَّم عند ولادة البكر ، وأعشار الحيوانات ، والمحاصيل ، وقربان عيد الفصح . وكان تقديم القرابين إلى يهوه يدل على الارتباط بين الشعب والإله وعلى وجود يهوه بين الشعب . وقد هاجم الأنبياء (وخصوصاً عاموس وإرميا) العبادة القربانية ، وذكروا اليهود بأن أسلافهم لم يُقدِّموا قرابين في الصحراء ، وبالوهوم بأن يعبدوا الإله بقلوبهم وبالصلاة إليه (قران الفم) .

وقد انتهت عبادة إسرائيل ، ومنها العبادة القربانية كما أسلفنا ، بهدم الهيكل (٧٠ م) . ومع هذا ، دون الحاخامات القواعد الخاصة بتقديم القرابين بكل تفاصيلها ، وذلك نظراً لأنهم بان إعادة بناء الهيكل أمر سيئ في المستقبل . وقد حلت ، في نهاية الأمر ، شعائر الصلاة والصوم ، التي كان بالإمكان إقامتها في المنزل والمعبد ، محل العبادة القربانية التي كانت تدور حول الهيكل . ورغم أن النسق الديني اليهودي قد تطوّر بعيداً عن العبادة اليسرائيلية ، فإن هذا التطور قد استغرق مرحلة زمنية طويلة . ولم يستقر كثير من العقائد الدينية الأساسية في اليهودية ، مثل الإيمان بالثواب والعقاب

الأحيان ، كان يتم اختيار كبير الكهنة من بينهم ، وقد كان كبير الكهنة هو الذي يتلفظ باسم الإله في قدس الأقداس . ويبدو أن هذا النظام مقتبس من النظام المصري القديم للكهنة في تخصيص أسرة للقيام بأعمال الكهانة وخدمة الدين والمعابد وبالواجبات السرية الخاصة في العلاقة بين الإله وأتباعه .

وثمة نظرية تذهب إلى أن أسرة هارون كانت أصلاً أسرة كهنوتية مصرية . وقد ظهر توترٌ بينهم وبين بقية أعضاء القبيلة بسبب احتكارهم أهم الشعائر . ولكن الفريقيين اندمجا بمرور الزمن وأصبح الكهنة العمود الفقري لليهودية ، وخصوصاً بعد إنشاء الهيكل وتمركز العبادة القربانية حوله .

وكانت الكهانة ، باعتبارها السلطة الدينية ، متداخلة تماماً مع السلطة الدنيوية كما هو الحال في عصر الفضاة (حوالي ١٢٥٠ - ١٠٢٠ ق. م) . ويظهور حكم الملوك ، أصبح رئيس الدولة هو الكاهن الأعظم . ولكنه ، نظراً لانشغاله كان يُعيّن مندوبين عنه لممارسة هذه المهمة ، فبدأ يظهر شيء من الانفصال بين السلطين . ومع هذا ، ظل الكهنة (تمثلو العبادة القربانية ومصدر أكبر دخل للدولة) قريبين من السلطة الدنيوية ومرتبطين بها أشد الارتباط . ولذا ، كان الصراع ينشب دائماً بينهم وبين الأنبياء ، وهم مفكرون دينيون أحرار جاءوا أساساً من صفوف الشعب .

وقد زاد تداخل السلطة الدنيوية والسلطة الدينية في مرحلة ما بعد العودة من بابل إذ اضطلع كبير الكهنة بوظائف دنيوية باعتباره مثلاً محلياً للقوة الإمبراطورية الحاكمة . كما اضطلع الكهنة بمعظم الوظائف الإدارية والسياسية نظراً لعدم ثقة الفرس في أبناء الأسرة الحاكمة العبرانية . واستمر نفوذ الكهنة في الإمبراطورية اليونانية قوياً ، سواء في الشام أو في مصر ، إذ كانوا يلعبون دوراً أساسياً في الحضارة الهيلينية . وكان الكاهن الأكبر يُعيّن مدى الحياة . ولكن أنطيوخوس الرابع (السلوقي) (١٧٥ - ١٦٤ ق. م) أنهى هذه العادة ، وأصبح من الممكن خلع الكاهن الأكبر وتعيين كاهن آخر . وقد ظهرت طبقة من الكهنة المتأثرين الذين قاموا على خدمة الدولة الهيلينية ، فأضعف هذا الوضع هيبة الكهنة وسلطانهم . ذلك أن الكهنة في الحضارة الهيلينية رغم أهميتهم ، كانوا يُعدّون بمنزلة الخدم لا القادة . وقد انعكس هذا على مكانة الكهنة اليهود .

وحيثما قامت الأسرة الحشمونية (١٦٤ ق. م) ، أصبح رئيس الدولة قائد القوات والكاهن الأعظم في آن واحد . وتعدّ هذه الفترة الزمنية قمة ازدهار المؤسسة الكهنوتية . وظهرت إيان حكم الأسرة الحشمونية فرق يهودية مختلفة من أهمها الصدوقيون الذين كانوا

ولعل نجاح هذه العبادة يعود إلى أنها تستطيع التعايش مع الرؤية العلمانية الشاملة ، فهي لا تتحداها ولا تطلب إلى المؤمن أن يغيّر سلوك حياته . وعلى كل ، فإن كليهما يرى القداسة شيئاً كامناً في المادة غير متجاوز لها . وقد سجّل كثير من الباحثين احتجاجهم على هذا الاتجاه الذي سيودي بالديانة اليهودية كعقيدة ، إذ أن يهود الولايات المتحدة يعبّرون عن يهوديتهم لا عن طريق الإيمان بالقيم الدينية اليهودية أو الالتزام بها وإنما عن طريق تقديم القربان/ الشيك . وقد أطلق أحد الباحثين على الصهاينة لقب «يهود النفقة» ، وهو ما يعني أن اليهود يدفعون نفقة لطلقتهم ، ربما لاقفاء شرّها !

وقد بدأت خطوات جادة نحو إعادة العبادة القربانية والهيكل في إسرائيل . وهناك مدرستان تلموديتان تضمّان ساتي دارس يتعلمون التفاصيل المركبة الخاصة بالعبادة في الهيكل . كما أن هناك جماعات أخرى تُدرّس أنساب الكهنة اليهود حتى يمكن تحديد الشخص المؤهل لتقديم القربان . ولقد عُقد في عام ١٩٩٠ مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل الكهنة . وهناك معهد خاص يُسمّى «معهد الهيكل» قام بأبحاث وأعد ثمانيا وثلاثين من الأدوات اللازمة لإقامة العبادة القربانية ، وهو في طريقه إلى إعداد الأدوات الخمس والسنتين المتبقية . كما تم إعداد الملابس اللازمة للكهنة ، وهي ملابس تُسجّ يدوياً من التلّين .

## القربان

Sacrifice

انظر : «عبادة يسرايل والعبادة القربانية المركزية» .

## الكهنة والكهانة

Priests and Priesthood

الكاهن في العبرية هو «كوهين» وهو سبيل الكهانة : الأداة المقدّسة المختارة للوساطة بين الإنسان والخالق . ويرتبط تاريخ الكهانة بين العبرانيين يظهروهم في التاريخ إذ يبدو أن كل رب أسرة عبرانية ، وأول الذكور فيها ، كانا يقومان بدور الكهان . وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى زمن الخروج من مصر أو الهجرة منها حين انحصرت الكهانة في قبيلة اللاويين ، لأن آباءهم رفضوا عبادة العجل الذهبي . ولكن يبدو أن أسرة هارون كانت تشغل ، في بداية الأمر ، مركزاً متميزاً داخل قبيلة لاري ، فقد كان أعضاؤها المسئولين الفعليين عن الأضاحي والإشراف على الطهارة . وفي معظم

الأمراض . وكان فريق منهم يحمل تابوت العهد أثناء تجوال العبرانيين وحروبهم ، ثم أصبحوا بعد ذلك كهنة الهيكل . ويبدو أن الكهنة مرتبطون بالعناصر الوثنية داخل النسق الديني اليهودي ، فقبيلة لاوي كانت تقدس الحية . وقد أدخل هذا التقديس على اليهودية ، فأقاموا تمثالاً نحاسياً لها زاعمين أنها من عمل موسى ، إلى أن أزالها حزقيا بن أحاز (ملوك ثاني ١٨/ ٤) . كما نقل الكهنة كثيراً من العقائد الوثنية كتقديس بعض المرتفعات والأشجار ، وهي عملية تركت أثراً في اليهودية .

والكهانة اليهودية تُوِّرت . وقد أدَّى هذا إلى أن الكهنة كونوا طبقة مغلقة لا يستطيع أحد من خارجها أن ينتمي إليها ، حتى أصبحت كلمة «لاوي» مرادفة لكلمة «كوهين» . ولعل انغلاقهم هذا هو الذي أدَّى إلى تماسكهم وإلى دفاعهم عن العزلة الدينية اليهودية ، وخصوصاً أنهم كانوا يكوِّنون بالمعنى الحرفي للكلمة طبقة لا يمكنها أن تحتفظ بوجودها إلا في ظروف الانغلاق .

ولم يكن من حق الكهنة أن يرثوا مالا أو يمتلكوا أرضاً . ولكنهم كانوا يُعَوِّنون من الضرائب والإتاوات على اختلاف أنواعها ، ويأخذون العشور على نتاج الضأن وأول ما يُحصَد من الأرض (بالعبرية : بكوريم) ، ويتعففون بما يبقى في الهيكل من القرابين . وبما يذكر ، أن الكاهن كان عليه أن يحتفظ بظهارته فلا يتزوج من امرأة مطلقة ولا من زانية أو أرملة ولا من امرأة أبواها غير يهوديين بالمولد ، أي أن طهارة الكاهن تقتضي أن يتزوج من امرأة طاهرة مثله تماماً . كما أن طهارة الكاهن تمنعه من لمس الموتى (إلا أقرب أقاربه) أو حتى السير فوق أرض دُفِن فيها أحد .

ورغم أن مؤسسة الكهانة قد اختفت في اليهودية تماماً مع هدم الهيكل على يد تيتوس ، ومع اختفاء العبادة القربانية ، ومع أن اليهودية لا تقبل ، على المستوى النظري ، الوساطة بين الحقائق والمخلوق ، فإن مؤسسة الكهانة استمرت بعد أن أخذت شكلاً جديداً هو الحاخامية حيث يحل الحاخام محل الكاهن . ويعود هذا إلى الأسباب التالية :

أ) رغم اختفاء الهيكل والعبادة القربانية المركزية ، إلا أن الرؤية الحلولية التي تشكل الإطار العقائدي لمؤسسة الكهانة ظلت قائمة بل زادت حدة . ولذا ، تعمق الإحساس لدى اليهود بأنهم الشعب المختار ، وأنهم أمة من الكهنة والقديسين والأنبياء اختارهم الإله ليكونوا بمنزلة الكهنة للشعوب الأخرى .

ب) بانتشار اليهود خارج فلسطين وتحولهم إلى جماعات وظيفية منزلة مغلقة ، تشابكت السلطة الدينية والسلطة الدينية مرة أخرى

أساساً من كبار الكهنة وأعضاء السنهدرين ويثقلون مصالحتهم . وظهر في المقابل فريق الفريسيين الذين أكدوا الجانب الروحي في اليهودية على حساب الجانب القرباني مع أنهم كانوا يضمون في صفوفهم بعض الكهنة من متوسطي الحال . وقد ازداد الفريسيون شعبيةً وازداد الكهنة عزلةً ، وخصوصاً أنهم تحولوا إلى الأعوية في يد الحكام ، وظهرت بينهم صراعات عديدة كما حدث في حالة الكاهن الأعظم أونياس الرابع الذي فر إلى مصر وأسس هيكلاً وعبادة قربانية مستقلة فيها (١٤٥ ق. م) . وذلك بتشجيع من البطالة أعداء حكام فلسطين السلوقيين . وعند تولي هيرودس الحكم (٣٧ ق. م) ، لم يكن يوسعها أن يضطلع بدور الكاهن الأعظم لأنه كان من أصل أدومي ، فكان يعيِّن كبير الكهنة على هواه .

وقد شهدت هذه الفترة تزايد انتشار اليهود خارج فلسطين بحيث فاق عددهم خارجها عدد من يقيمون داخلها . ومعنى هذا أن العبادة القربانية (ونخبتها الكهنوتية) فقدت كثيراً من مقومات وجودها . فهي تعتمد بالدرجة الأولى على جماعة بشرية متماسكة تعيش بجوار الهيكل أو حوله فتُموِّله ، ويشكل هو رمز وحدتها القومية تحت حكم الإله القومي .

ويلاحظ أن الاستقطاب الطبقي الذي كان يسم المجتمع العبراني اليهودي في ذلك الوقت ، انعكس في صفوف الكهنة ، وقوِّض نفوذ المؤسسة الكهنوتية في الداخل ، فكانت الأرستقراطية الكهنوتية المتأخرقة (التي كانت تقيم في القدس) تختلف كثيراً في موقفها وموقعها عن فقراء الكهنة الذين كانوا يعيشون في الريف (السامي الأرامي) على عملهم وعلى الصدقات . وأثناء التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠) ، حينما سيطر الغيورون على القدس ، قاموا بطرد الكهنة وذبحوا بعضاً منهم واختاروا كاهناً أكبر من بين فقراء الكهنة . ولذا ، حينما هدم تيتوس الهيكل عام ٧٠ م ، كانت الأوضاع التاريخية مواتية تماماً لاختفائهم وظهور الحاخام باعتباره شخصية أساسية بين اليهود . ولعل أهم الأسباب الأخرى لاختفائهم هو تدوين الشريعة ، إذ أصبح الكتاب المقدس مركز العبادة بدلاً من العبادة القربانية .

وقد لعب الكهنة دوراً مهماً في تطوير اليهود واليهودية إذ وضعوا أنفسهم وسطاء بين الناس والإله ، فلم تكن تُعْبَل توبة ولا قربان إلا إذا باركها الكاهن لأن مفتاح السماء كان في يده ، ولم يكن أحد غيرهم يستطيع تفسير الطقوس أو الشعائر الدينية تفسيراً أمناً من الخطأ . وكانوا يفسلون في الأمور القضائية عن طريق استشارة الرب ويضطلعون بدور الطبيب (الساحر) الذي يشفي

الحياة صعبة لكل من يحمل اسم «كوهين» أو «سيجال» أو «كاتس» ، وخصوصاً أن كثيراً منهم لا يعرف هذه القوانين اليهودية . ولا تعترف اليهودية الإصلاحية أو المحافظة بأي قانون من قوانين الكهنة هذه .

وقد بدأت الدولة الصهيونية في العودة إلى شيء يشبه العبادة القرآنية التي تدور حول الهيكل ، ومن ثم عاد الاهتمام بالكهنة . وتوجد مدرستان لتلموديتان بالقرب من حائط المبكى يدرس فيهما نحو مائتي طالب شعائر العبادة القرآنية للقيام بها عند إعادة تشييد الهيكل . وقد بدأت مجموعة من الإسرائيليين في البحث عن شجرة العائلة الخاصة بالكهنة اليهود حتى يتم تقرير من هو المؤهل للقيام بهذه الشعائر (لعله يكون من نسل هارون أو صادوق) . كما عُقد عام ١٩٩٠ مؤتمر في إسرائيل لليهود الذين يعتقدون أنهم من أصل كهنوتي . وبدأ معهد الهيكل في إعداد الملابس الخاصة التي يتعين على الكهنة ارتداؤها .

### كوهين

Cohen

«كوهين» كلمة عبرية تعني «كاهن» ويُعتبر حامل هذا اللقب سليل الكهنة ومن نسل هارون أخي موسى الكاهن الأعظم . وتنطبق عليه المحظورات المختلفة مثل ضرورة أن يتزوج من عذراء فلا يتزوج مطلقة ، وأن يتمتع بكل المزايا كأن يقوم بثلاوة التوراة في المعبد اليهودي .

ومن الأسماء الأخرى المرادفة لكلمة «كوهين» في المعنى ، كلمة «كاهن» و «كوهان» و «كاجان» و «كان» و «كوجين» و «كون» و «كوهين» و «كوهين» و «كوفين» . وأحياناً يُترجم الاسم فيقال مثلاً «أجرانات» ، وهي ترجمة روسية لكلمة «هاروني» أو من «نسل هارون» .

وكلمة «كاتس» اختصار لكلمة «كوهين تساديك» أي «كاهن الاستقامة والتقوى» ولها نفس دلالة كلمة «كوهين» ، وأحياناً تُرَاد الصيغة لتصبح «كاتزنلسون» أو «كاتسمان» أو «كاتزنشتاين» أو «كوهنهايم» أو «كوهنشتاين» .

وهناك الكثير من اليهود يحملون مثل هذه الأسماء ولا يعرفون شيئاً عنها ثم يفاجأون بأنهم كهنة تنطبق عليهم المحظورات مثل عدم الزواج من مطلقة الأمر الذي يسبب لهم الكثير من المشاكل في إسرائيل .

حتى أن الحاخام (مع أنه لم يكن كاهناً) كان القائد الديني الفعلي للجماعة اليهودية الذي يقوم بشئون الإفتاء الديني والتجارة وإقراض المال والأعمال المالية والقضاء والزواج وفض المنازعات والإشراف على تنفيذ القوانين الخاصة بالطعام وبالعديد من المهام الدينية الاجتماعية الأخرى .

ومن الصعب تحديد من من نسل هارون ومن من قبيلة اللاويين في وقتنا الحاضر ، إذ توجد قطاعات كبيرة من اليهود ، وخصوصاً اليهود الأرثوذكس ، يؤمنون بأن كل يهودي يُسمى «كوهين» لابد أن يكون من نسل اللاويين ، وكذلك كل من يدعى «كاتس» ، باعتبار أن اسمه اختصار لتعبير «كوهين تساديك» ، وكذلك من يدعى «سيجال» فهو اختصار «سيجان ليفي» أي «نائب اللاوي أو مرافقه» . ومن المفروض أن كل اليهود الذين يحملون هذه الأسماء تنطبق عليهم قوانين الكهانة ، فهم يقفون في المعابد اليهودية أثناء صلوات أيام الأعياد وفي أيام السبت فيغطون وجوههم وباركون الناس ، ولهم الأولوية في أن يقرأوا التوراة في المعبد متخطين بقية المصلين ومنهم اللاويون . ولا يزال الكهنة يتلقون ما يُسمى «فدية البكري» . ففي الماضي كان على اليهودي أن يكرس ابنه البكر لخدمة الرب ، ولكن أعفي أبكار الأسر من هذه المهمة بعد قيام سبط اللاويين بأعباء الكهانة نظير فدية يقدمها الآباء للكهنة عند إنجابهم أبكاراً ذكوراً . كما لا تزال قوانين عدم لمس الموتى قائمة ، ولذلك تُحطط للمدافن اليهودية بطريقة تجعل بإمكان الكاهن أن يزور أقاربه دون أن تُدنس طهارته .

وتُسبب كل هذه الشعائر مشاكل للدولة الصهيونية . فعلى سبيل المثال ، ونظراً لأن من المحظور أن يجمع سقف واحد بين الكاهن ورجلة ميت ، فقد اضطرت مستشفيات الهاداساه في إسرائيل إلى استخدام أبواب دائرية للمشرحة للملحقة بالمستشفى حتى تكون بمنزلة حاجز دائم بين الكاهن الذي يزور أقاربه في المستشفى والجثث الموجودة في المشرحة ، فالباب العادي لا يمكنه أن يؤدي هذه الوظيفة الدينية . وقد واجه الإسرائيليون المشكلة نفسها بشكل آخر بعد استيلائهم على طريق القدس - الخليل ، فهذا الطريق قد بناه العرب دون أي اعتبار للتحريمات اليهودية الخاصة بالكهانة . ولهذا ، فإن الطريق يمر ببعض المقابر اليهودية ، الأمر الذي يجعل استخدام هذا الطريق غير الطاهر محظوراً على الكهنة . ولهذا ، فقد بُنيت لافتة تعطي إشارات إلى طريق بديل «طاهر» .

ولا تزال قوانين الزواج الخاصة بالكهنة سارية المفعول ، وهو ما يُسبب زيادة الممازير أي الأطفال غير الشرعيين في إسرائيل ، ويجعل

## الكاهن الأعظم

High Priest

الأدنى القديم ، كانوا يودعون أموالهم فيه . وقد أدى هذا إلى تعميق البُعد الدنيوي لوظيفة الكاهن الأعظم لأن دخله كان يُعدُّ أهم مصدر ليهود فلسطين .

ومع دخول العبرانيين ، ابتداءً من القرن السادس قبل الميلاد ، في إطار الإمبراطوريات الكبرى (البابلية والفارسية واليونانية والرومانية) التي كانت تحتفظ لنفسها بسلطة القرار في الشؤون العسكرية والخارجية وترك للشعوب المحكومة شيئاً من الاستقلال الذاتي لإدارة شؤونها الدينية والداخلية ، بدأت وظيفة الكاهن الأعظم تكتسب أهمية متزايدة ، وخصوصاً أن الفُرس كانوا يفضلون التعاون مع طبقة كهنوتية مأمونة الجانب على التعاون مع أروستقراطية عسكرية موع أعضاء أسرة داود المالكة . وبالفعل ، تم تقسيم السلطة في فلسطين ، فكان المرزبان (مندوب الإمبراطورية) يُمسك بالسلطة الدنيوية ويترك السلطة الروحية والشؤون الداخلية في يد كبير الكهنة . وتحوّل اليهود إلى جماعة يرأسها الكاهن الأعظم حيث ورث شارة الملكية وأصبح يمسح بالزيت بدلاً من الملك . ولا يعني هذا أنه أصبح ملكاً وإنما يعني أنه أصبح يرأس نخبة حاكمة تضم اللاويين والكهنة وأثرياء اليهود الذين كانوا يقودون الشعب ويدرون شؤونه الداخلية من خلال إطار تنظيمي هرمي لحساب الإمبراطورية الحاكمة . وقد اعترف البطالمة بهذا المنصب وبالمجمع الكبير ، واعتبروهما ممثلين للشعب اليهودي وأغفوهما من الضرائب ، واعترفوا بحرية اليهود في ممارسة شعائر أسلافهم .

ولكن ، ورغم قوة مركز الكاهن الأعظم ، ظهرت مراكز قوة أخرى تعاون معها السلوقيون وهي طبقة أثرياء اليهود ملتزمي الضرائب والتجار وغيرهم من أصبح مهمهم السيطرة على منصب الكاهن الأعظم ، ولذا كان يتم التعيين في هذا المنصب عن طريق الرشوة . وقد أصبح الكاهن الأعظم لا يحدّد مدى الحياة ، الأمر الذي زاد ضعفه . كما أن المنصب لم يُعدّ مقصوراً على أسرة صادق .

وكانت الأسرة الحشمونية أسرة من الملوك الكهنة إذ كان الملك هو نفسه كبير الكهنة . فقد انتخب يونانان شقيق يهودا المكابي قائداً وكانها أعظم (١٦٠ - ١٤٢ ق.م) .

شهدت هذه الفترة ظهور فرقة الصدوقيين ، وهم من كبار الكهنة ويمثلون مصالح فئتهم ، حيث التفوا حول النخبة الحاكمة وتحالفوا معها . وفي مقابل ذلك ، ظهر الفريسيين الذين كانوا يضمون في صفوفهم كثيراً من الكتبة شراح الشريعة الذين دافعوا عن الشريعة الشفوية . كما كانوا يضمون في صفوفهم قراء الكهنة

«الكاهن الأعظم» هو المقابل العربي للكلمة العبرية «كوهن» هاجدول» وهو كبير موظفي الهيكل . وقد كانت وظيفة الكاهن الأعظم في الأصل مقصورة على أسرة صادق من ذرية هارون . وهو الذي كان يدخل قدس الأقداس في يوم الغفران ليقفوه بالاسم المقدس ، وكان هو أيضاً رئيس السنهدرين . ومع أن وظيفة كبير الكهنة كانت دينية ، فقد كانت لها أبعادها الدنيوية ، فالكاهن الأعظم كان يُعدّ من رجالات المملكة العبرانية وجزءاً من الأروستقراطية الحاكمة . ولعل هذا هو السبب في أن الصراع كان ينشب دائماً بينه وبين الأنبياء الذين كانوا يمثلون القوى الشعبية في كثير من الأحوال .

وكان الملك يظطلع أحياناً بوظيفة كبير الكهنة كما فعل داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) (صموئيل ثاني ٦/١٢ - ١٩) . وفي الترتيب الهرمي للمجتمع العبراني ، كان الملك يسبق الكاهن الأعظم في المنزلة ، ولذلك خلع سليمان كبير الكهنة ونفاه . وفي حفل تكريس الهيكل ، كان سليمان الموظف الأساسي ، أما بقية الكهنة فكانوا يقومون بالأعمال الوضيعة . وقد جاء وصف الكاهن الأعظم ورداه في سفر اللاويين (١١/١٦ - ١٧) . وكان الرداء يُسمّى «إفود» ، وهو ثوب يشبه الصدرية ، كان يلبسه رئيس الكهنة العبراني أثناء خدمة الكهنوت ، وكان هذا الثوب يُصنع من كتان دقيق ومبروم بلون الذهب واللون الأزرق والأرجواني والقرمزي . وكان يُبيّث على الجسم بواسطة شريطين للكتفتين من فوق ، وحزام من أسفل ، وعلى كل من شريطي الكتف كان يوجد حجر جَزَع منقوشة عليه أسماء قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة . وكان الثوب يتصل بالصدرية بواسطة سلاسل ذهب . وكانت الصدرية تحتوي على اثني عشر حجراً كريمة موضوعة في أربعة صفوف وفيها وسائل الفرعة المقدّسة : الأورم والتّميم والتي كانت تُستخدم في تبيين إرادة الإله . وكان الكاهن يلبس تحت الإفود ثوب الإفود الأزرق الذي كان يمتد إلى قدمي الكاهن . وكانت الأحجار الاثنا عشر تحمل أسماء قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة وتشير إلى أن الكاهن يمثل كل الشعب وأنه يُقدّم العبادة عنهم وباسمهم (خروج ٢٨/٣١ - ٣٥ و ٢٢/٣٩ - ٢٦) .

وحيث إن الهيكل لم تكن تتبعه أية أراض زراعية ، كان اليهود يرسلون إليه التبرعات (نصف شيكل) وهو ما كان يُدّر عليه مالاً وفيراً . كما أن بعض أثرياء اليهود ، على عادة الأثرياء في الشرق

فغور» أو «بعل جرمون» . ولم يكن البعليم (جمع بعل) ، مثل يهوه ، آلهة حرب ، بل كانت آلهة طبيعة مسالمة تمثل قوى الخصب والحياة وتزواج فيما بينها ، فهي تنقسم إلى ذكور وإناث ، وكانت زوجة بعل تسمى «بعلة» أو «عشارته» أو «عشيرة» أو «عناة» . وكان الكنعانيون يختارون الأماكن المرتفعة ، كالجبال والتلال ، فيبنون عليها أبنية تصبغ مذابح يخصصونها للإله .

ومنذ دخولهم إلى فلسطين ، أخذ العبرانيون عن الكنعانيين الكثير بما في ذلك الزراعة وعبادة بعل . وكانوا يعبدون يهوه وبعلاً جنباً إلى جنب . وقد سُمّي شاول أحد أبنائه يونانان (أي : يهوه أعطى) ، وسُمّي الآخر إيشبعل (أي : رجل بعل) . كما أنهم عبدوا يهوه من خلال طقوس الخصوبة المرتبطة بعبادة بعل . وكان عامتهم يرون أن يهوه هو الإله القومى (إله التاريخ) ، وأن بعلاً هو مانح الخصوبة (إله الطبيعة) ، ولذا كانوا يلجأون إلى يهوه في المناسبات القومية وفي لحظات الأزمة ويلجأون إلى بعل في حياتهم اليومية .

وقد حاول الأنبياء في القرن التاسع قبل الميلاد ، ابتداءً من إياهو على وجه الخصوص ، إقناع الشعب بأن يهوه هو الإله القومي واليومي ، وأنه هو إله الطبيعة والتاريخ . وربما كانت ثورة الأنبياء رد فعل لما قامت به إيزابيل ، زوجة الملك آحاب ، التي بنت معبداً للإله بعل بجوار معبد يهوه في السامرة ، وبذا أصبحت عبادة بعل عبادة مستقلة . وبعد سقوط أسرة عمري ، بدأ ياهو في تقيية العبادات . ومع هذا ، استمرت عناصر من عبادة بعل ، الأمر الذي اضطر معه أنبياء القرن الثامن قبل الميلاد إلى العودة للهجوم عليها مرة أخرى .

وقد تركت عبادة بعل أثرها العميق في عبادة يهوه . والواقع أن الإشارة إلى يهوه بأنه «الأب» ، وإلى الإنسان بأنه «ابن الإله» ، هي أثر من آثار عبادة بعل . وقد تطوّر مفهوم الإله في العقيدة الدينية الإسرائيلية بعد أن أصبح يهوه حاملاً لصفات البعولة (البعلية) وقدراتها .

وتقترب عبادة بعل في الوجدان الديني الإثني اليهودي بالخروج من الاعتزالية اليهودية لأن عبدة بعل يعبدون إله الأغيار . ويجب أن نذكر أن اليهود الأوائل كانوا يؤمنون بآله قومي واحد ولم يكونوا موحدين . ولذا ، فإن الاستنكار اليهودي لعبادة بعل ليس دينياً وحسب وإنما هو قومي أيضاً . وفي الأدب الصهيوني ، يُسارن أعضاء الجماعات اليهودية المنتمجون في مجتمعاتهم بعبدة بعل .

### العجل الذهبي

Golden Calf

«العجل الذهبي» تمثال من الذهب عبده أعضاء جماعة يسرائيل

ومتوسطي الحال منهم . وقد عارض الفريسيون قيام ملوك الحشمونيين بحمل لقب كبير الكهنة . وانفصلت الوظائف بالفضل عام ٦٣ ق.م في عهد هيركانوس الثاني .

ومع احتدام الصراع الطبقي داخل المجتمع العبراني اليهودي في فلسطين ، واحتدام الصراع بين القوى الدولية (السلوقيين ضد البطلة والرومان ضد الجميع) ، احتدم الصراع حول منصب كبير الكهنة . ففّر الكاهن الأعظم أونياس الرابع إلى مصر وأسس بإيعاز من البطلة هيكلاً (١٤٥ ق.م) وعبادة قربانية يهودية كان هو كاهنها الأعظم . وحينما تولى هيرود الحكم (٣٧ ق.م - ٤م) ، ولم يكن بوسع أحد أن يشغل هذا المنصب لأنه كان من أصل أدومي ، حرص على السيطرة على كبير الكهنة فكان يعيّن وتُعزل كما يشاء . وحينما أصبحت فلسطين مقاطعة رومانية ، أصبح الكاهن الأعظم مجرد موظف روماني ، بل إن رداه الكهنوتي كان عهداً عند الحاكم الروماني لا يعطيه للكاهن الأعظم إلا قبل الاحتفال بعيد الغفران على أن يسترد ما منه بعد ذلك مباشرة . وأصبح الكاهن الأعظم محط سخرة اليهود ، فكانوا يطلقون عليه النكات . وحينما نشب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ - ٧٠م) ، قام الخيرون بطرد الأرستقراطية الكهنوتية التي كانت تقيم في القدس ، وذبحوا بعض أعضائها ، واختاروا كبير الكهنة من صفوف الفقراء والبارقة . وكان هؤلاء الكهنة آخر من شغل هذا المنصب فبعد دخول تيتوس إلى القدس ، وبعد تحطيمه الهيكل (٧٠م) ، اختفت العبادة القربانية تماماً واختفى الصلوقيون وظهر الحاخامات باعتبارهم قوة ذات طابع ديني قوي وواضح وطابع دينوي خافت .

### بعل

Baal

«بعل» كلمة فينيقية تعني «السيد» أو «المولى» أو «الزوج» أو «الملك» أو «الرب» . ورغم أن مجمع الآلهة الكنعاني كان يترأسه «إيل» ، فإن ابنه بعل إله الخصب (الذي كان يُعرف أيضاً باسم «هدد») كان يلعب الدور الأساسي في المجمع ، وقد أصبحت كلمة «بعل» مرادفة لكلمة «إله» بحيث أصبح هناك «بعل شاميم» (بعل السماء) ، أي «إله السماء» ، و«بعل هارعد» ، أي «إله الرعد» . وقد أصبح «بعل شاميم» الرب السامي الأسمى في الألف الأخير قبل الميلاد ، كما أصبح تجسيداً للشمس والسماء ذاتها ، ولذا فهو مانح المطر والشمس والخصب والمحصولات . كما كان لكل بلد إله يبدأ اسمه بكلمة «بعل» وينتهي باسم تلك البلد أو المدينة ، مثل «بعل

فيستخدمونه للإشارة إلى النزعة الحلولية الوثنية التي بعثتها الصهيونية بين اليهود والتمثلة في عبادة العجل الذهبي الجديد ، أي الدولة الصهيونية . وبعد حرب أكتوبر ، شبه بعض الإسرائيليين نظرية الأمن الإسرائيلية بالعجل الذهبي باعتبار أنها أدخلت الأمن الزائف على قلوب الإسرائيليين .

### الترافيم (أصنام)

Teraphim

«ترافيم» كلمة مجهولة الأصل ، وإن كان العالم و . ف . ألبريت يرى أنها تعني «الخرق القديمة» وأنها من الجذر الكنعاني «ترب» ومعناها «يستهلك» . وقد أشار هوفنر إلى مصدر حوراني حيثي هو كلمة «تاربيس» أي (روح حامية أو شريفة) . وكانت تُعدُّ إلهة الأسرة أو رباً إله خصب .

والترافيم أصنام صغيرة ، فقد نبأها راحيل تحت حداجة الجمل وجلست عليها حين حاولت أن تسرقها من أبيها (تكوين ٣١/٣٥) . وحسب القانون البابلي ، كان لمن عنده آلهة الأسرة الحق في أن يرث نصيب البكر . ولكن يبدو أن بعضها كان كبير الحجم حيث وضعت ميكال الترافيم في مكان داود ، فظن رسل شاول أنه ناظم في فراشه (صموئيل أول ١٩/١٣) . ويبدو أن عبادة يسرائيل كانت تُحرَّم اقتناء أصنام الترافيم ، وإن كانت لا تُمنع في ارتباط شخصيات العهد القديم بها . ومع هذا ، فشمعة إشارات أخرى في العهد القديم تساوي بين الترافيم وخطية العرافة (صموئيل أول ١٥/٢٣) وتبين أن يوشيا في إصلاحه الديني أباد «السحرة والعرافين والترافيم والأصنام وجميع الرجاسات التي رثيت في يهوذا وفي اورشليم» (ملوك ثاني ٢٣/٢٤) . ومع ذلك ، فقد وُجد بين اليهود من يسأل عن الترافيم حتى بعد الرجوع من بابل . ولعل هذا التراجع بين موقفين متناقضين تماماً هو تعبير آخر عن الخاصية الجيولوجية في اليهودية .

### الافود (أصنام)

Ephod

«افود» كلمة عبرانية لا يُعرَّف معناها على وجه الدقة ، وهي تُستخدَم في العهد القديم كمصطلح له معنيان مختلفان :  
١ - فهو يعنى بمعنى صورة أو صنم تشبه الترافيم ، في شكلها وطبيعتها ووظيفتها ، كانت توضع في الهيكل . وقد صنع جدعون إفوراً لأعضاء جماعة يسرائيل وأصلهم (قضاة ٨/٢٤-٢٧) . وقد

عند قاعدة جبل سيناء ، عندما كان موسى يتعدى فوق الجبل . وعبادة العجل الذهبي تعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي . وقد جمع هارون الحلبي الذهبية منهم بعد إلحاح شديد منهم ، وصهرها وصبها على هيئة تمثال كان يُعدُّ تمجداً للإله . وقد غضب الإله على شعبه وقرَّر إبادتهم ، ولكن موسى تضرع أمامه : « لماذا يارب يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . . . أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . . فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعل بشعبه » (خروج ٣٢/١٢-١٤) . ويُلاحظ أن احتجاج موسى على الرب ينبع من تصوُّر حلولي له ، أي أن كلاً من الحادثة والاحتجاج عليها ينبعان من الرؤية الحلولية الكمونية نفسها . وقد حفظ موسى لويحي الشهادة في لحظة غضبه ، ثم أخذ العجل الذي صنموه وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وقرَّاه على وجه الماء وسقى أعضاء جماعة يسرائيل (خروج ٣٢/٢٠) ، ثم قتل نحو ثلاثة آلاف رجل .

وقد سببت هذه الحادثة كثيراً من المخرج للحاخامات والمفسرين اليهود بسبب اشتراك هارون في عبادة العجل (وخصوصاً أن اللاويين رفضوا الاشتراك في تلك السقطة) . ولم تكن عبادة العجول الذهبية أمراً غريباً في الديانة الكنعانية القديمة إذ كان الثور رمزاً محبباً للخصب ، وكانت كلمة «إيل» تشير إلى الثور الأب في عبادتهم . ورغم الوصية الثانية من الوصايا العشر (خروج ٢٠/٤) ، فقد وجدت صور الثور وتمثالها طريقتها إلى عبادات العبرانيين وفنوتهم . ففي أيام سليمان ، وقت بناء الهيكل ، نجد أن الحوض المسمى «البحر للمسبوك» أو «بحر النحاس» ، يصور المعاني الوثنية في الكون ، إذ يرتكز على اثني عشر ثوراً ، كل ثلاثة منها تتجه صوب إحدى الجهات الأربع (ملوك أول ٧/٣ : ٢٦) . وقد بُعثت عبادة العجول الذهبية من جديد على يد الملك يربعام في دان وبيت إيل (ويُقال إن يربعام تعلم عبادة العجل من عبادة عجل أبيس في مصر ، كما يُقال أيضاً إنها هي عبادة هاتور نفسها ، البقرة المقدسة) . وثمة رأي ينهب إلى أن العجول لم تكن تمجيداً ليهوه وإنما كانت قاعدة لتمثال ، لتجلب غير مرئي ليهوه .

وفي الدراسات اليهودية الحديثة ، يكتسب العجل الذهبي دلالات مختلفة ، فالصهيانية يستخدمونه رمزاً لليهود الذين يعيشون خارج الأرض المقدسة ، ويرفضون الهجرة إليها بسبب المستوى المادي المرتفع الذي حققوه في المنفى . أما أعداء الصهيونية

١٥/٩ - ٢٣ ، ٣٣-٣٦ / ١١ - ٢٤ - ٢٥) . وقد أتى وصف خيمة الاجتماع في سفر الخروج (٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨) : قاعدتها مستطيلة ، طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشر أذرع وارتفاعها عشر أذرع أيضاً ، وزواياها قائمة . والخيمة تكون محاطة بسور . وفي الفضاء ، بين الخيمة والباب الخارجي ، كان يُقام مذبح المحرقة ، ويجواره مغسلة من النحاس بين باب الخيمة والمذبح (بحر النحاس) يكون فيها ماء لغسل أيدي وأرجل الكهنة عند دخولهم المقدس . أما الجزء الداخلي ، فيكون في أوله على اليمين مائدة خبز القران (أو خبز الوجه «ليحيم هابانيم») ، وعلى اليسار شمعدان المنيرة فمذبح البخور الذهبي الذي يُحرق فيه البخور ليل نهار ، ثم قلب المقدس الذي يُسمى «قدس الأقداس» ويضم تابوت العهد . وتُسمى خيمة الاجتماع «خيمة الشهادة» أيضاً لأنها تحوي لوحى الشهادة والوصايا العشر .

ويعكس الجزء الكهنوتي من أسفار موسى الخمسة ، في جانب منه ، الفكر الديني لكهنة هيكل القدس ، والذي يعلق أكبر الأهمية على أن يسكن الإله وسط شعبه . ومن هنا ، فقد نقل ذلك الجزء مقر الخيمة من خارج المضارب أو المحلة إلى وسطها . وأصبح التصور أن الخيمة تنصب في الوسط ، تحيط بها خيام الكهنة واللايين ثم خيام بقية القبائل حواليهم في أربعة أقسام . وعندما انتهت رحلات الشعب ، استقرت الخيمة في الجلدال (أول معسكر لجماعة يسرايل بعد عبور الأردن ودخول أرض كنعان) ثم نُقلت إلى شيلوه حيث بقيت مدة ثلاثمائة أو أربعمئة سنة ، ومنها انتقلت إلى جبوعن ثم إلى الهيكل الذي تشبه بنيتة بنية خيمة الاجتماع . ويُلاحظ تأثير هندسة المعبد المصري في خيمة الاجتماع بتقسيمها إلى المقدس وقدس الأقداس . ولا شك في أن تنظيم الكهنة هرمياً كان ذا أصل مصري أيضاً ، فكان لا يُسمح إلا لكبار الكهنة بدخول المقدس ، ولم يكن يدخل قدس الأقداس سوى كبيرهم .

وكان أعضاء جماعة يسرايل ، كما تقدّم ، يحملون خيمة الاجتماع معهم أينما ذهبوا ، لتُقام في وسط مساكنهم . وقد أثارَت إقامة مكان واحد للعبادة وتقديم القرابين جدلاً بين الكهان فيما بعد ، فرأى كهان الهيكل المرتبطون بالحكومة المركزية أن القرابين لا تجوز إلا في الهيكل الكائن في العاصمة ، والذي هو امتداد لخيمة الاجتماع . بينما رأى فريق آخر أن الحكمة من جعل الخيمة متنقلة هي جواز تقديم القرابين في أي معبد من المعابد المحلية .

وكلمة «تابرناكل» (Tabernacle) الإنجليزية تشير إلى كل من خيمة الاجتماع والسوكاه التي تُقام في عيد المظال .

صنع ميخا ، من قبيلة إفرام ، إفوداً وترافيم . ويبدو أن الهيكل في نوب كان يضم ، في زمن شاؤول ، إفوداً خُصَّ وراء سيف جوليات (صموئيل أول ٢١/١٠) . وقد استمر استخدام الإفود حتى عصر الملوك . ولا تعرف بالضبط ما وظيفة الإفود ، ويبدو أنها لم تكن موضع عبادة جماعة يسرايل (على الأقل ليس دائماً) وإنما كانت تُستخدَم في معرفة المستقبل والتنبؤ به . وعلى أية حال ، فإن استخدام صورة الزنى المجازية للإشارة إلى ما فعله أعضاء جماعة يسرايل مع جدهن أمام الإفود يدل على قيامهم بشكل من أشكال العبادة الوثنية .

٢- المعنى الثاني يشير إلى رداء كان يرتديه الكاهن الأعظم . وقد ارتدى صموئيل إفوداً من الكتان وهو في شيلوه (صموئيل أول ١٨/٢) . وكذلك داود ، حينما أحضر تابوت الإله إلى القدس (صموئيل ثاني ٦/١٤) . والإفود هو أيضاً رداء الكاهن الأعظم . والإفود بعبارة الأولى ، واستمرار وجوده ، وارتباط جماعة يسرايل به ، يدل على أن عبادة يسرايل القرابين كانت تتضمن عناصر كثيرة غير توحيدية .

### خيمة الاجتماع (خيمة الشهادة)

Tabernacle; Sanctuary; Tent of Congregation

«خيمة الاجتماع» أو «خيمة الشهادة» يقابلها في العبرية كلمة «مشكن» ، أي «مسكن» ، وكذلك «أوهيل موعيد» ، أي «خيمة الاجتماع» ، وهي خيمة أو خباء كان يحملها العبرانيون القدامى (جماعة يسرايل) في تجوالهم ، وكانت تُقام خارج المضارب ليسكن الإله فيها بين شعبه (حسب التصور العبراني) وليكشف فيها عن وجوده ويُبلغ إرادته ، وليتوجه إليه فيها من يطلبه (خروج ٣٣/٧-١١) . فهو خباء المحضر أو خيمة الاجتماع . كما سميت أيضاً «بيت الإله» . وعبارة «خيمة الاجتماع» تعبير عن الطبقة الحلولية قبل اكتمال الثالوث الحلولي (الإله - الشعب - الأرض) إذ لا يوجد سوى العنصرين الأول والثاني وحسب ، ومن هنا نقلتهما في طريقهما إلى العنصر الثالث لتكتمل دائرة القداسة وتنطلق .

وفي يوم اكتمال بناء الخيمة ، أظهر الإله ذاته على هيئة سحابة غطت الخيمة وملأتها . وبعد ذلك ، تحوكت السحابة إلى عمود يسير أمام أعضاء جماعة يسرايل في رحلاتهم ، فكان إذا وقف العمود فوق الخيمة يتزل الشعب ، وإذا انتقل نُقلت الخيمة وتبع الجمهور السحابة . وفي الليل ، كانت السحابة تستحيل إلى عمود نار فيكون الإله سائراً أمامهم (خروج ١٣/٢٠-٢٢ ، ٤٠/٣٤-٣٧ ؛ عدد



## تابوت العهد (تابوت الشهادة - سفينة العهد)

Ark of the Covenant

«تابوت العهد» أو «تابوت الشهادة» يقابلها في العبرية «أرون هابريت يهوه»، أي «تابوت ميسحاق يهوه»، أو «تابوت يهوه صباهوت»، أي «رب الجنود» أو «التابوت المقدس». وفي اللغة العبرية، توجد كلمتان «تيبسا» و«أرون»، بمعنى «صندوق»، وتترجمان إلى كلمة «آرك» الإنجليزية.

لكن الكلمة الأولى لا تُستخدم إلا للإشارة إلى سفينة نوح، أو الصندوق الذي وُضع فيه موسى. أما الثانية، فُتستخدم في سياق ديني بمعنى تابوت أو صندوق. وتابوت العهد من أكثر الأشياء المقدسة تعبيراً عن التزعة الحلولية في اليهودية، فكان أعضاء جماعة إسرائيل يتصورون أن روح يهوه تحمل فيه، وكان الكهنة يحملونه في المعارك على أعمدة طويلة كرمز واضح على وجود يهوه وسط الجنود. وجاء في سفر العدد أن العبرانيين عندما رحلوا في البرية في أيام التيه، كان التابوت يُحْمَلُ أمام الشعب، ويتقدمه عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً. وكان إذا حُمِلَ التابوت يقول: «قم يارب فلتبتد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك». وإذا حل التابوت يقول أيضاً «ارجع يارب إلى ربوات ألوف إسرائيل» (عدد ١٠/٣٣ - ٣٦). وكان هذا التابوت يُعدُّ أكثر الأشياء الشعائرية قداسة عند العبرانيين القدامى.

وحيثما يَكنُ العبرانيون عن الترحال، كان التابوت يوضع في قدس الأقداس، داخل خيمة الاجتماع، حيث لا يراه إلا الكاهن الأعظم في يوم الغفران. ولكنهم كانوا يخرجونه أثناء معاركهم الحربية، فهو يضمن لحامله النصر، وهو الذي يوجه الجنود أثناء المعارك.

وجاء وصف التابوت في سفر الخروج (٢٥/١٠ - ٢٢)، وهو صندوق مصنوع من خشب السبط طوله ذراعان ونصف، أي ثلاثة أقدام وثلاثة أرباع القدم، وكلٌّ من عرضه وارتفاعه ذراع ونصف، أي قدمان وربع القدم، مَحْمَلٌ بالذهب من الداخل والخارج، يقف عليه ملاكان (كروبان) ناشرين أجنحتهما رمزاً للوجود الإلهي (شخينة) بين الشعب المختار. وأصبح التابوت ذاته رمزاً للعرش الإلهي. ويُقال إن الإله قد أخبر موسى بأنه سيقبله بين الملاكين. ولم يكن يُسمَح لأحد بأن يمَس التابوت باعتباره محرماً (تابوت). وكان التابوت يحتوي على المن، وعصا هارون، ولوحى الشريعة أو العهد، ثم وُضع بجانبه كتاب التوراة، ولكن المن وعصا هارون كانا

قد اختلفا مع حكم سليمان. ومن الواضح أن في هذا الوصف إسقاطاً لقيم وتخييلات مرحلة مركبة لاحقة على مرحلة التيه التي كانت تُسمُّ بالسلطة والبداءة. كما أنه، بتطور الديانة اليهودية، جرى تفسير وجود التابوت تفسيراً أكثر عمقاً من التفسير السابق. فقد أصبح التابوت شيئاً مقدساً بناه موسى تنفيذاً لأمر الإله (ليضع في اللوحين اللذين كتب عليهما الوصايا العشر) ليحمله أعضاء جماعة إسرائيل معهم في ترحالهم، على أن يقوم أعضاء من سبط اللاويين بحمله. ثم وُضعت التوراة بجانب اللوحين، ومن ثم فإنه يُسمَّى أحياناً «تابوت الشهادة». وصار التابوت رمزاً للعهد مع الإله، وأصبح تلامس جناحي الملاكين رمزاً للزواج المقدس بين الشعب والإله.

بقي التابوت مدة بالخيمة في الجليل، ثم نُقل إلى شيلوه حين وقع في أيدي الفلسطينيين الذين أخذوه إلى أشدود ووضعوه بجانب صنم داجون. وحسب الرواية الثوراتية، اضطرت الفلسطينيين إلى إرجاعه بسبب الكوارث التي حاقت بهم، ثم نُقل إلى القدس (بعد ٣٠٠ و ٤٠٠ سنة) أثناء حكم داود. وقد حفظ سليمان التابوت، في قس الأقداس بالهيكل، وسط العالم تماماً، وأمامه حجر الأساس الذي هو مركز الدنيا (حسب التصور اليهودي). ويُقال إن منسى وضع تمثالاً منحوتاً بدلاً من التابوت داخل الهيكل غير أن يوشيا أرجعه، وقال يوسيفوس عن التابوت إنه «لم يكن يحتوي على أي شيء بالمرّة».

ولم يأت ذكر التابوت ضمن الغنائم التي حملها البابليون معهم وأعيدت فيما بعد. وثمة رأي يقول إن التابوت من بين مواد العبادة الشعائرية لقبيلة إفرام، ويوجد داخله حجران يحل فيهما يهوه. كما يرى جوستاف لوبون أن تابوت العهد مقتبس من الفكر المصري القديم الذي كان يعرف نظائر عدة لهذا التابوت المقدس (مراكب الشمس). لكن الطقوس الدينية التي كانت تحيط بتابوت العهد تشير إلى طبيعة العبرانيين البدوية، كما تشير إلى أنهم كانوا شعباً متقللاً كثير الترحال. ولا يُعرف، على وجه الدقة، مصير هذا التابوت. فعند بناء الهيكل الثاني، لم يكن له من أثر ولم يأت ذكره، وإن قيل إنه مخبئاً فوق أحد الجبال أو تحت الهيكل إلى أن يعود الماشح. وهناك رأي يذهب إلى أنه أُعيد بناؤه في هيكل هيرودس. وعلى أية حال، فإن تابوت العهد لم يخفت دون أن يترك أثراً في الديانة، وتابوت لفائف الشريعة هو امتداد لفكرة تابوت العهد. وهناك اعتقاد عند الإثيوبيين بأن تابوت العهد (الأصلي) موجود في إثيوبيا.

١٢  
الهيكل

الهيكل والعبادة القربانية المركزية - الهيكل : مكانته في الوجدان اليهودي - هيكل سليمان - هيكل زوربايل - هيكل هيرود (الهيكل الثاني) - الهيكل الثاني - الهيكل الثالث - مراسم العبادة في الهيكل - قدس الأقداس - جبل الهيكل - الحج - هدم الهيكل - خراب الهيكل - نهب الهيكل - إعادة بناء الهيكل - حافظ المبكى - الحائط الغربي - الوزنة (شيكال) - الصدفة (حالقاه) - هيكل أونياس

## الهيكل والعبادة القربانية المركزية

## The Temple and the Central Sacrificial Cult

«الهيكل» كلمة يقابلها في العبرية «بيت همقداش» ، أي «بيت المقدس» ، أو «هيخال» ، وهي كلمة تعني «البيت الكبير» في كثير من اللغات السامية (الأكدية والكنعانية وغيرها) . والبيت الكبير أو العظيم هو الطريقة التي كان يُشَار بها إلى مسكن الإله ، فكلمة «فرعون» تعني «البيت الكبير» وهي تشبه إلى حد ما عبارة «الباب العالي» . وقد تَبَدَّت الطبقة الحلولية اليهودية التي تراكمت داخل التركيب الجيولوجي اليهودي في شكل تقديس الأرض الذي تَمَثَّل في عبادة إسرائيل والعبادة القربانية المركزية المرتبطة بالدول العبرانية المتشكلة (١٠٢٠ ق.م) التي قام الكهنة بالإشراف على إقامة شعائرها . ومركز هذه العبادة القربانية هو الهيكل .

ومن أهم أسماء الهيكل «بيت يهوه» ، لأنه أساساً مسكن للإله وليس مكاناً للعبادة (على عكس الكعبة مثلاً) . ومن هنا ، ورغم أنه كان مصراعاً للكهنة بل لعبادة الهيكل بالدخول فيه ، فلم يكن يُسَمَّح لهم بالتحرك فيه بحرية كاملة . ولم يكن يُسَمَّح لأحد على الإطلاق بدخول قدس الأقداس إلا الكاهن الأعظم في يوم الغفران .

والهيكل أهم مبنى للعبادة الإسرائيلية ، ومركز العبادة القربانية المركزية . وبعد هدمه عام ٧٠ م ، لم يحل محله مبنى مركزي مائل . وكان يحج إليه اليهود في أعياد الحج الثلاثة : عيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال . وبعد العودة من بابل ، كان السنهدرين يجتمع في إحدى القاعات الملحقة به .

وفي بداية عباداتهم كان العبرانيون ، أعضاء جماعة إسرائيل ، يحملون في تجوالهم تابوت العهد الذي كان يُوضَع في خيمة الشهادة أو الاجتماع . ومع استقرارهم في كنعان كانوا يُقدِّمون الضحايا والقرابين والهبات للآلهة في هيكل محلي أو منبج متواضع مبني على تل عال يُسَمَّى «المنبج» أو «المحرقة» . وكان هذا الوضع تعبيراً

عن استقلالية القبائل وعلاقتها الفيدرالية . ومع هذا كان تابوت العهد يُعدُّ مركز العبادة الإسرائيلية . وبعد تدمير شيلوه (١٠٥٠ ق.م) ، وبعد استيلاء الفلسطينيين عليه أحضره داود إلى جبل صهيون في القدس حيث بنى خيمة له . وقد ظهرت مراكز العبادة الإسرائيلية في أماكن مختلفة ، ولكن أيأ منها لم يفلح في أن يصبح مركزاً دينياً لكل القبائل العبرانية المتناثرة . ولذا فمع تركز السلطة في يد الملوك تركزت العبادة القربانية نفسها في مكان واحد هو الهيكل في القدس . والتي كانت تقع على الحدود بين عديد من القبائل ، كما أنها لم تكن تابعة لأي من القبائل باعتبار أنها من المدن التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً . ولكل هذا ، أصبحت القدس مركزاً دينياً للقبائل العبرانية ، ومن ثم لعبادة إسرائيل القربانية . وتاريخ بناء الهيكل هو أيضاً تاريخ تحوُّل عبادة إسرائيل (البدوية المتجولة أو القبلية الفدرالية) إلى العبادة القربانية المركزية (المستقرة) .

## الهيكل : مكانته في الوجدان اليهودي

## The Temple : Its Status in the Jewish Imagination

يشغل الهيكل مكانة خاصة في الوجدان اليهودي ، كما يعبر عن التيار الحلولي ، فهو يُسَمَّى «البنان» لأنه يُطَهَّر بإسرائيل من خطاياها ويجعلها بيضاء كاللبن (وبذلك تم ربط الكلمة العبرية «البن» بكلمة «البنان» ) . وكان التصور أنه يقع في مركز العالم فقد بُني في وسط القدس التي تقع في وسط الدنيا (فقدس الأقداس الذي يقع في وسط الهيكل هو بمنزلة سرَّة العالم ، ويُوجَد أمامه حجر الأساس : النقطة التي عندها خلق الإله العالم) . والهيكل كثر الإله مثل جماعة إسرائيل ، وهو عنده أثن من السماوات بل من الأرض التي خلقها بيد واحدة بينما خلق الهيكل بيديه كاتنهما . بل إن الإله قوَّربناه الهيكل قبل خلق الكون نفسه ، فكان الهيكل مثل اللوجوس (أو الكلمة المقدَّسة) ، أو ابن الإله في اللاهوت المسيحي .

التي هدم فيها تبتوس الهيكل وفرض على اليهود الشتات . وهم ، بهذا ، يعلمون الصورة الأساسية في الوجدان اليهودي ، ويتبنونها كصورة أساسية في فكرهم السياسي ، فيعمقون تزواج الديني والدنيوي . ويقوم الصهاينة بالتأريخ لوقائع تاريخ العبرانيين ، وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين ، بمصطلحات مثل «الهيكل الأول» و«الهيكل الثاني» . ويشير بن جوريون وكثير من العلماء الإسرائيليين إلى دولة إسرائيل باعتبارها «الهيكل الثالث» .

### هيكل سليمان

Solomon's Temple

اشترى داود أرضاً من أرونا اليوسي ليبني فيها هيكلًا مركزيًا ، ولكنه لم يشرع هو نفسه في عملية البناء (وتبرير التوراة ذلك بأن الرب منعه من ذلك لوقوعه في خطأ قتل أوريا الحيشي) ، فوقمت المهمة على عاتق ابنه سليمان الذي أجزأها في الفترة ٩٦٠ - ٩٥٣ ق. م . ولنا ، فإن هذا الهيكل يُسمَّى «هيكل سليمان» أو «الهيكل الأول» . وحسب التصور اليهودي ، قام سليمان ببناء الهيكل فوق جبل موريا ، وهو جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التي يوجد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة . ويُشار إلى هذا الجبل في الكتابات الإنجليزية باسم «جبل الهيكل» أو «تجمل ماونت Temple Mount» ، وهو بالعبرية «هر هبايت» ، أي «جبل البيت» (بيت الإله) .

ومن الصعب الوصول إلى وصف دقيق لهيكل سليمان ، فالمصدران الأساسيان لمثل هذا الوصف هما كتاب الملوك الأول (٨/٦) ، والأخبار الثاني (٤/٢) في العهد القديم ، وهما مختلفان في عديد من التفاصيل المهمة . كما أن المصادر الأخرى تعطي تفاصيل تناقض أحياناً تلك التي وردت في هذين المصدرين الأساسيين .

وهيكل سليمان جزء من مُركَّب معماري ملكي يضم قصر الملك ومباني أخرى ، مثل : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وهو للعرش ، وهو للمحكمة العليا ، وبناء كبير للحرم ، وبيت لابنة فرعون زوجة سليمان . وكان هذا المركب المعماري ملحقاً به المذبح الصغير الذي يضم تابوت العهد . وكان يحيط بكل هذه المباني فناء واسع . وكان مثل هذه المركبات المعمارية أمراً شائعاً في الشرق الأدنى القديم . وقد أقيم هيكل سليمان مكان المذبح الصغير ، يحيط به فناء مقصور عليه ، أعلى من الفناء الخارجي ، ومن ثم فهو يفصله عن المركب المعماري الأكبر . وكان أفراد الشعب ، أو (العبرانيون أو جماعة إسرائيل) يجتمعون في هذا الفناء في مواسم الحج والمناسبات

ويبدو أن الحاخامات اليهود قد أخضعوا الهيكل ، منذ البداية ، لكثير من التأملات الكونية . ويذهب أحد العلماء إلى أن هذه التأملات هي وحدها التي تفسر معمار الهيكل وتصميمه . وقد أورد يوسيفوس بعض هذه التأملات ، فذكر أن الفناء الذي يحيط بالهيكل بمنزلة البحر ، والمقدس هو الأرض ، وقدمس الأقداس هو السماء ، والرقم (١٢) ، وهو تعدد كثير من الأشياء الشعائرية ، هو شهر السنة . بل إن رداء الكاهن الأعظم كان له أيضاً المغزى الكوني نفسه .

ويبدو أن الصورة للمجازية الأساسية في القبَّالة هي المقابلة بين الإنسان والكون ، فالإنسان كون صغير (ميكروكوزم) يشبه الكون الأكبر (ماكروكوزم) ، وهو تصوُّر يعود إلى التأملات المبكرة للحاخامات حيث كانوا يرون أن الهيكل يشبه جسم الإنسان .

ويشكل هدم الهيكل صورة أساسية في الوجدان الديني اليهودي ، فهو يُذكر عند الميلاد والموت . وعند الزواج ، يُحطَّم أمام العروسين كوب فارغ لتذكيرهم بهدم الهيكل (وقد يُنثر بعض الرماد على جبهة العريس) . وفي الماضي ، حينما كان اليهودي يطلي منزله ، كان الحاخامات يوصونه بأن يترك مربعاً صغيراً دون طلاء حتى يتذكر واقعة هدم الهيكل . وفي كل عام ، يُحتفل بذكرى هدم الهيكل بالصيام في التاسع من آب . وعند كل وجبة ، ومع كل صلاة في الصباح ، يتذكر اليهود الأتقياء الهيكل ، ويصلون من أجل أن تتاح لهم فرصة العودة إلى الأرض المقدَّسة والاشتراك في بناء الهيكل . كما تتلى صلاة خاصة في منتصف الليل حتى يُعجَّل الإله بإعادة بناء الهيكل . ويذهب الشرع اليهودي إلى أن اليهودي يتعيَّن عليه أن يمزق ثيابه حينما يرى الهيكل لأول مرة وبعد مرور ثلاثين يوماً من آخر مرة رآه فيها . وفي القبَّالة ، يشكل قدس الأقداس للمذبح الذي يضاجع فيه الملك ، أي الإله ، عروسه ماترونيت أو الشخنيان (وهي التعبير الأثوسي عن الإله ، وهي أيضاً جماعة إسرائيل) . ومن ثم ، فإن هدم الهيكل يعني نفي الشخنيان ، أي جماعة إسرائيل . ولكن هذا النفي ينمكس على الإله نفسه « فالملك بدونها ليس بملك وليس بعظيم ولا يُسبَّح أحد بحمده » على حد قول الحاخامات ، أي أن هدم الهيكل يؤدي إلى شتات الشخنيان/ الشعب وإلى نفيها . ومن ثم ، فإن هدم الهيكل يؤدي إلى شتات الإله ويعشرته ونفيه . وهذا ممكن داخل إطار حلولي حيث يصبح الإله متوحداً تماماً مع مخلوقاته لا يفصل بينهما فاصل ، وحيث يعني نفي الواحد نفي الآخر .

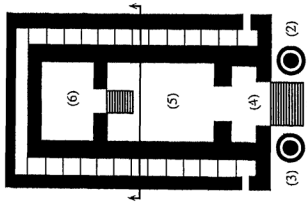
ويرى الصهاينة أن ظهور الصهيونية يعود إلى اللحظة نفسها

هما أول كلمتين في شعاريين ملكيين ، أولهما يقول : 'ليؤسس (ياقين) الرب عرش داود وعملكته لورثته إلى الأبد' ، ويقول الثاني : 'بمقدرة (بوعز) الرب سيفرح الملك' . كما أن هناك رأياً آخر يذهب إلى أن العمودين هما رمز الشمس والقمر ، أو رمز عمود الدخان وعمود النار اللذين كانا يتقدمان العبرانيين في الصحراء . وبعد العمودين ، توجد قاعة المدخل (٤) بعدها ٢٥ ، ١٦ ، ٣٢ قدماً ، ويُطلق عليها لفظ 'أولام' (والكلمة من الأكادية وتعني الواجهة) ، ووظيفتها فصل الهيكل (المقدس) عن العالم الخارجي (المدنس) . ويُوجد في الواجهة باب المعبد الخارجي الذي يفتح على البهو المقدس (٥) ، والذي يُشار إليه باسم 'بيت هامقداش' أي 'البيت المقدس' أو 'بيت أدوناي' ، أي 'بيت الإله' . وهو أيضاً 'الهيكل' و'الحرم' و'المقدس' ، وبعدها ٦٥ و ٣٢ قدم ، وهو الجزء الذي كانت تتم فيه معظم شعائر العبادة القربانية ، فكانها هي الهيكل وما عداها ملحقات .

وكانت حوائط البهو المقدس وأرضه مغطاة بخشب السرو ، وكانت الحوائط مطعمة بالذهب ومنقوشة عليها صور نخيل وأزهار وملائكة . أما سقفه وأبوابه فكانت من خشب الأرز ، يقف على جانبيه عشرة شمعدانات ذهبية (مينوراه) ، خمسة على كل جانب ، ويُقال إنها كانت موضوعة على عشر موائد . كما أن الهيكل كان يضم مذبحاً للبخور مطعماً بالذهب (ويلاحظ أن الأواني القربانية الموجودة خارج الهيكل مصنوعة من البرونز أو النحاس ، أما داخله فمن الذهب ، وهو ما يرمز إلى تزايد درجات القداسة) . وكان الهيكل يضم أيضاً مائدة 'خبز التقدمة' أو 'خبز الوجه' الذي يُقدم لوجه الإله . وهذه عادة وثنية حيث كان الكهان يقومون بإطعام الإله (كما كان الحال عند المصريين القدماء) . وكان هذا الجزء الداخلي من الهيكل مزوداً بتوافذ ، ولا يدخله سوى الكهنة ، وإن كان يُسمح عند الضرورة بدخول عبيد الهيكل للقيام بالأعمال التي لا قداسة لها . وبيلي ذلك بابان من خشب الأرز مطعمان بالذهب ويفتحان على غرفة مربعة (٥ × ٣٢ ، ٥ قدم) لا نوافذ لها ، أرضها أكثر ارتفاعاً من أرض الهيكل ، ولذا فإن ارتفاع الحجرية كان ٣٢ ، ٥ قدم أيضاً وهو ما يجعلها مكعباً تماماً . هذه الغرفة هي قدس الأقداس (٦) التي لا يدخلها سوى كبير الكهنة في يوم الغفران ، فينطق باسم يهوه الذي كان محرماً على اليهود النطق به . وفي داخل محراب قدس الأقداس نفسه ، يوضع تابوت العهد أو تابوت الشهادة ، وعلى يمينه ويساره كان هناك تمثالان ملاكين (كرويين) مذهبان من خشب الزيتون بارتفاع ١٠ أذرع وطول جناح الملاك ٥

الأخرى . وكانت هناك عدة أبوابات يمكن دخول فناء المعبد من خلالها . وثمة إشارة إلى البوابة العليا ، وبوابة الملك ، والبوابة الجديدة ، وبوابة المجلس ، وبوابة السجن ، ولكننا لا نعرف مواقعها الحالية على وجه الدقة . وتبلغ أبعاد هيكل سليمان ٩٠ قدماً طولاً و ٣٠ قدماً عرضاً و ٤٥ قدماً ارتفاعاً . وهو لا يختلف كثيراً في تقسيمه الثلاثي (المدخل) ، والهيكل أو البهو المقدس ، و قدس الأقداس) عن الهياكل الكنعانية . كما تم العثور على هيكل في سوريا ، بجوار قصر ملكي يعود تاريخه إلى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ، يكاد يكون نسخة من هيكل سليمان .

ولوصف محتويات الفناء (كما يراها المتقدم من الخارج إلى الداخل) ، نقول : على يمين الداخل إلى المعبد ، ساحة تسميها بعض المراجع ساحة الكهنة . وعلى مقربة من المعبد نفسه ، هناك حوض مصبوب من البرونز لحرق الذبائح ، وعلى اليسار يوجد حوض يُسمى 'بهر النحاس' أو 'البحر المسبوك' ، وهو إناء ضخيم قاعدته مكونة من اثني عشر ثوراً تمثل القبائل العبرانية ، وتتجه كل ثلاثة منها إلى إحدى الجهات الأصلية . وكان الكهنة يقتلون في هذا الحوض ، ولكن بعض الباحثين يذهبون إلى أنه ذو دلالة رمزية فقط وليست له أية وظيفة عملية . ويبدو أنه كان هناك أيضاً عشرة أحواض من النحاس تُغسل فيها الذبائح .



ثم يصعد الداخل عشر درجات (١) (الأرقام تقابل تلك الموجودة في مخطط هيكل سليمان) في مرقاة تفضي إلى رواق معمد ، وهناك سيجد عمودي ياقين (٢) وبوعز (٣) يقفان بلا سقف يحملانها ، ويُقال إنها قد يكونان رمزين لأكلة دينية بدائية قديمة . ويذهب أحد علماء العهد القديم إلى أنها كانا يُستخدمان كمنبجي نار تُحرق فيهما شحوم الحيوانات ، أو ربما كانا رمزين لشجرة الحياة أو مبخرتين . ويذهب أحد العلماء إلى أن كلمتي 'ياقين' و'بوعز'

دان بالشمال والآخر في بيت إيل ، وجعل فيهما عجباً ذهيباً ، واتخذهما مزاراً ملكياً مقدساً له . وقد أحاط المعبدان بهالة من القدسية حتى يضرب العبادة المركزية ويحول دون ذهاب مواطني مملكته إلى هيكل القدس . ورغم التحالفات التي كانت تُعقد أحياناً بين ملوك الشمال والجنوب ، فإن الهيكل لم يستعد قط مركزيته القديمة . ومن المعروف كذلك أن أونياس الثالث (أو الرابع) ، الكاهن اليهودي الأعظم الذي خُلع من منصبه في فلسطين ، فر إلى مصر وشيّد معبداً آخر (في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد) في ليتوبوليس على موقع أحد المعابد المصرية القديمة ، وذلك بهدف تقديم الخدمات الدينية للجماعة اليهودية في مصر . وقد تم ذلك بإيعاز من البطلة لخلق مركز جذب يهودي في مصر يهيمن عليه البطلة . وكثيراً ما كان ملوك اليهود يضطرون إلى إدخال العبادات غير اليهودية تعبيراً عن تحالفاتهم السياسية . فأنشأ سليمان مذابح لآلهة زوجاته الأجنبية ، الأمر الذي يتنافى مع مبدأ التوحيد . كما أن العبادات المختلفة كانت تعبيراً عن التبعية السياسية ، فقد أدخل مَسَى العبادة الآشورية تعبيراً عن خضوعه للأشوريين . وهجم فرعون مصر شيشنق على مملكة يهودا ونهب نفائس الهيكل ، كما هاجمه يواش ملك المملكة الشمالية ونهبه هو الآخر . وقد هدم نبوختنصر البابلي هيكل سليمان عام ٥٨٦ ق.م ، وحمل كل أوابه المقدسة إلى بابل .

### هيكل زروبابيل

Zerubabel's Temple

مع هدم هيكل سليمان قام زرو بابل (أحد كبار الكهنة الذين سمح لهم الإمبراطور الفارسي قورش بالعودة إلى فلسطين) بإعادة بناء الهيكل في الفترة ٥٢٠-٥١٥ ق.م ، أي في أربعة أعوام (في حين استغرق بناء هيكل سليمان سبعة أعوام) ، ويسمى هذا الهيكل «هيكل زروبابيل» . ويذكر العهد القديم أن الهيكل الثاني بُني بأمر من إله إسرائيل ، وبأمر أباطرة الفرس : قورش ودارا الأول وأرتخشستا (عزرا ١/١٤) . ولذا ، فقد كانت تُقدّم فيه قربابين يومية لصالح حامي صهيون الوثني . وكان مرسومواً على مدخله خريطة لمدينة سوسة عاصمة الإمبراطورية الفارسية . وإي يمكن هذا الهيكل (هيكل زروبابيل) في عظمة هيكل سليمان . ولهُ تُوجد إشارات كثيرة إلى شكله المعماري ولا إلى تقسيمه ، ولكن معظم الباحثين يميلون إلى القول بأنه لم يكن يختلف كثيراً عن الهيكل الأول في بنيتِه ، ويعود هذا إلى أنه حينما هاجم نبوختنصر هذا الهيكل ، فإنه لم يهدمه وإنما

أذرع ، وهما رمز الحماية الإلهية . وتابوت العهد أهم الأشياء الشعائرية لأنه إذا كان الهيكل بيت الإله ، فالتابوت هو المكان الذي يرمز إلى وجوده في الهيكل ، وإلى حلوله بين الشعب . والهيكل يتجه من الغرب إلى الشرق ، وتحيط به مبان من ثلاثة طوابق من جميع الجوانب ما عدا البوابة ، وقد كانت هذه المباني مقسمة إلى حجرات وصوامع لتخزين الأواني والكتوز والهدايا بل أحياناً الأسلحة (٧) . وقد بُني الهيكل على هيئة قلعة الأمر الذي كان يدعم دوره في السياسة المحلية والدولية كمصدر للشرعية .

وكان العبرانيون القدماء يجهلون أصول فنون الهندسة والعمارة واللوان الفنون الأخرى ، نظراً لحياتهم البدوية كراعة ، ونظراً لعدم وجود تقاليد حضارية ثابتة لديهم ، على خلاف الحال في مصر وبعض البلاد المجاورة . ولكل هذا ، فحينما بدأ سليمان في تشييد الهيكل ، استجلب المهندسين والبنائين من صيدا وصور ، إذ ساعده ملكها وحليفه حيرام فصنع له أواني الهيكل التي قام بتشييدها رجل نصف يهودي من صور . أما الأعمال التي لا تحتاج إلى كثير من المهارة ، فقد حُشد لها ١٨٠ ألف عامل (٣٠ ألف عبراني و ١٥٠ ألف كنعاني ، وكان هناك ثلاثة آلاف يعملون رؤساء للعمال) . وكان العمال مسخرين على ما جرت به العادة في تلك الأيام . وقد تم استيراد القسم الأعظم من مواد البناء من فينيقيا . وثمة إشارة في العهد القديم ، وفي الأساطير الدينية اليهودية ، إلى عدم استخدام أية أدوات حديدية في قطع أحجار البناء . وقد كرس سليمان جزءاً كبيراً من ثروة الدولة والأيدي العاملة فيها لبناء الهيكل . ولذا ، فبعد الانتهاء منه ، قامت عدة ثورات انتهت بانقراض الدولة العبرانية المتحدة وتساقط العبادة القربانية المركزية .

وكما أسلفنا ، لا يختلف هيكل سليمان في معماره عن الهياكل الكنعانية التي يبدو أنها تأثرت بالطرز الفرعوني الذي أخذه الفينيقيون من مصر وأضافوا إليه ما أخذوه من الآشوريين والبابليين من ضروب التنزين . ولذلك ، فإن الطراز الذي بُني عليه الهيكل يُسمى «الطرز الفرعوني الآشوري» ، وذلك على عكس هيكل هيرود الذي اتبع أساليب المعمار اليوناني الروماني . وقد كان العبرانيون يعتقدون أن هيكل سليمان إحدى عجائب العالم ، لكن هذا كان راجعاً إلى جهلهم بأن هناك معابد مصرية وآشورية عجيبة في ضخامتها .

وقد فقد الهيكل كثيراً من أهميته عند انقسام مملكة سليمان إلى مملكتين صغيرتين (٩٢٨ ق.م) ، إذ شيّد ملوك المملكة الشمالية مراكز مستقلة للعبادة . فبنى يريعام معبدان أو هيكليين أحدهما في

تيتوس عام ٧٠ م. ولما كانت أهداف الهيكل ذنوبية إلى حد كبير (أي لزيادة هيبة الدولة)، فإننا نجد أن التركيز كان على رموز الدولة، ولذلك فقد بُني الهيكل على الطراز اليوناني الروماني السائد. وقد وسَّع هيرودس نطاق الهيكل ليضم مساحة واسعة، فبنى سلسلة من الحوائط مكوَّنة من صفتين من الأعمدة طولهما ٥٠٥٠ قدماً، تضم منطقة مساحتها ٩١٥ × ١٥٢٠ × ١٥٩٥ × ١٠٢٥ قدماً. ويمكن الوصول إلى الهيكل من خلال عدة بوابات وأربعة جسور. وكان ملاصقاً للسور برج أنطونيا الذي بناه سيمون الحشموني (البيرة).

وقد قام هيرودس بتوسيعه وإصلاحه وأعاد تسميته، فنسب إلى قيصر روما مارك أنطوني، وكانت تحتله حامية رومانية. وكان السور يضم أروقة معمَّدة أكبرها الرواق الملكي الذي كان على شكل بازيليكاً (مبنى روماني مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائري) كان يتجمع فيه التجار الذين يبيعون ذبائح القرابين والصرافون الذين يحوِّلون العملات إلى الشيكل المقدَّس الذي كان على اليهود دفعه للهيكل. وكان هناك داخل هذه الأسوار مباشرة ما يُسمَّى «ساحة الأغيار» لأن غير اليهود كان مسموحاً لهم بالدخول فيها. ثم تتوالى الساحات الأخرى على هيئة مصاطب، وكان هناك حائط شبكي حجري يفصل ساحة الأغيار عن الهيكل نفسه.

وكان يمكن الوصول إلى الهيكل من خلال بوابة تُسمَّى «البوابة الجميلية» (١) (الأرقام تقابل تلك الموجودة في مخطط هيكل هيرودس).

تليها الساحة الأمامية وهي ساحة النساء (٢) التي كان يحيط بها أربع حجرات للأخشاب (٣) والمصابين بالبرص (٤) والمندوبين (٥) والزيت (٦). وكان هناك سلم له اثنتا عشرة درجة (٧) يؤدي إلى بوابة تُسمَّى «بوابة نيكاتور» سماها يوسيفوس «البوابة الكورنثية» (٨). وكان الكهنة (اللاويون) يقفون على هذه الدرجات وينشدون أناشيدهم فتشاهدهم النساء. وبعد ذلك، ساحة اليسرائيليين أو الرجال (٩). وفي أقصى يسار الداخل، كانت هناك غرفة مصنوعة من الحجر المنحوت، وهي التي كان يجتمع فيها السهلدين (١٠). وبعد ذلك، على اليسار أيضاً، كان هناك المذبح لتقديم القرابين (١١). وكان على اليمين مكان الذبح (١٢) ويقابله ساحة الكهنة (١٣) في منتصفها سلم (١٤) يؤدي إلى الهيكل نفسه، وعلى يساره مغسل (١٥) يغتسل فيه الكهنة. وكانت بعض شعائر العبادة القرانية تتم في ساحة الكهنة. وكان الهيكل نفسه مبنياً من الرخام الأبيض يزينه رواق معمد في واجهته (١٦). وحينما كان باب الهيكل مُتَّح، كان يوسع الناس أن يروا الحرم. وكان هيكل هيرودس، مثله مثل

نهبه وحرقه. ولكن لم تحترق سوى الأجزاء الخشبية كالسقف والبوابات الخشبية وكسوة الحوائط الخشبية. أما الهيكل المعماري، فقد بقي كما هو، فاستخدمه العائدون من بابل دون تغيير. أما فيما يتصل بمحتويات الهيكل، فنحن نعرف أن قدس الأقداس كان فارغاً تماماً لأن سفينة العهد قد اختفت، ولم تكن توجد سوى صخرة عالية يضع الكاهن الأعظم عليها المبخره. وكان هيكل زرو بابل يضم أيضاً أواني هيكل سليمان الأخرى كالشمعدانات الذهبية ومائلة قربان الوجه ومذبح البخور.

وقد لعب هذا الهيكل، مثله مثل سابقه، دوراً أساسياً في إسباغ شرعية على فئة الكهنة التي صارت الفئة الإدارية الأساسية في مقاطعة يهود (أو يهودا) الفارسية. ولأن النظام الملكي لم يُسترجع، فقد اكتسبت النخبة الكهنوتية والعبادة القرانية أهمية خاصة، وأصبح استرجاع الملكية جزءاً من عالم آخر الأيام وحسب. وقد نهب أنطيوخوس الرابع هذا الهيكل في القرن الثاني قبل الميلاد، وبنى فيه مذبحاً لزئوس. ويُقال إن خلفاءه قدموا أواني الهيكل للمعبد اليهودي في أنطاكية. وعند اندلاع التمرد الحشموني، أعاد المتوردون تكريس الهيكل ووضعت فيه أوان وأدخلوا عليه بعض التعديلات. وقد اجتاحه بومبي، ونهبه كراسوس بعد ذلك.

### هيكل هيرودس (الهيكل الثاني)

Herod's Temple (Second Temple)

«هيكل هيرودس» هو الهيكل الذي بناه الملك هيرودس (٢٧ ق.م - ٤م) الذي عينه الرومان ملكاً، أي حاكماً رومانياً يحمل لقب «ملك» ويشار إلى هذا الهيكل بأنه «الهيكل الثاني». وفي بعض الأحيان يُستخدم هذا المصطلح الأخير للإشارة إلى الهيكل الذي أسَّسه زرو بابل، وبهذا يكون هيكل هيرودس الهيكل الثالث (وإن كان هذا المصطلح الأخير يشير عادةً إلى الهيكل الذي سُمِّي في آخر الأيام مع بداية العصر المشيخاني). وحينما اعتلى هيرودس العرش، وجد هيكل زرو بابل متواضعاً للغاية، فقرر بناء هيكل آخر لإرضاء اليهود، ولكنه قرر أن يبني في الوقت نفسه معبداً لآلهة مدينة روما حتى ينال رضا الإمبراطور أوغسطس ويثبت ولاءه. ويبدو أن هذا المعبد الروماني اللوثني كان لا يختلف كثيراً في بنته المعمارية عن الهيكل اليهودي. وقد بدأ هيرودس في بناء الهيكل عام ٢٠-١٩ ق.م، فهدم الهيكل القديم واستمر العمل في البناء وقتاً طويلاً، فمات دون إتمامه، واستمر البناء حتى عهد أجربا الثاني (٦٤ ق.م)، بل كانت لا تزال هناك حاجة إلى اللمسات الأخيرة حينما هدمه

## الهيكل الثاني

## Second Temple

يُشار بتعبير «الهيكل الثاني» إلى هيكل هيرود الذي هدمه تيتوس .

## الهيكل الثالث

## Third Temple

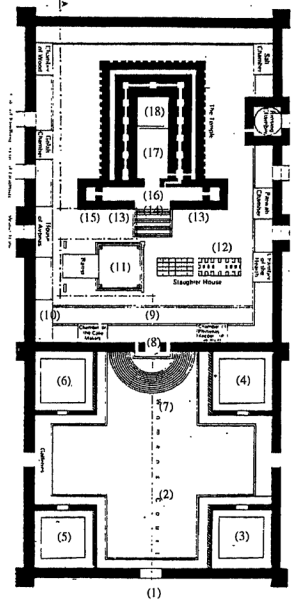
«الهيكل الثالث» مصطلح ديني يهودي ، يشير إلى عودة اليهود بقيادة الماشيخ إلى صهيون لإعادة بناء الهيكل في آخر الأيام . ويُشار إلى ذلك بتعبير «الهيكل الثالث» إذ أن الأول هو هيكل سليمان الذي هدمه نبوختنصر ، والثاني هو هيكل هيرود الذي هدمه تيتوس ، والثالث والأخير هو الذي سيُبنى في العصر المشيخاني ، وبالتالي فهو مرتبط بالرؤى الأخروية لا بالتاريخ الإنساني . ومع هذا ، فقد عكّمت الصهاينة هذه الرؤية وجعلوا الاستيطان الصهيوني هو العودة المشيخانية . وبالتالي ، فإن الدولة الصهيونية هي الهيكل الثالث أو الكومنولث الثالث . ويُستخدَم هذا المصطلح ، في أحيان نادرة ، للإشارة إلى هيكل هيرود باعتبار أن الهيكل الثاني هو هيكل زروابل الذي هدمه هيرود ليبنى هيكله .

## مراسم العبادة في الهيكل

## Temple Rituals

كانت مراسم العبادة في الهيكل تختلف من فترة إلى أخرى ، ولكن ملامحها الأساسية ظلت ثابتة . ففي كل صباح ، كان أحد الكهنة ينظف ضريح القرايين من الرماد ثم يُذكي النيران . وبعد ذلك ، كانت تُقدّم قرابين اليوم (الجديدة) المكونة من حَمَل وخبز ومشروبات . وكان الكاهن الأعظم (أو من يتوب عنه) يدخل البهو المقدّس ، وينظف الشمعدانات ، ويحرق البخور على مذبح البخور ، ويُقدّم قربان خبز الوجه . وعند الغروب ، كانت معظم الشعائر تُعاد من جديد . كان هذا هو النمط السائد للعبادة والقرايين في الأعياد وفي يوم السبت . وكان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس في يوم الغفران ، وكان التفوه باسم يهوه يمثل ذروة هذه العبادة ، حيث كانت هذه اللحظة تشكل نقطة التماس بين الإله والشعب والأرض ، فهي النقطة التي يتجسد فيها الحلول الكامل . والعبادة القربانية المركزية تدور في إطار حلولي ، ولذا يلاحظ أن القداسة تتغلغل تماماً في المؤسسات القومية السياسية ، وكان المعبد المركزي (الملحق بالقصر الملكي) والعبادة القربانية المركزية هما التعبير

الهيكل الأول ، مُقسماً إلى البهو المقدّس (١٧) وقدس الأقداس (١٨) . ويحتوي البهو المقدّس على شمعدانات المينوراه ، ومائدة خبز الوجه ومذبح البخور . وكان سقفه من خشب الأرز المطعم بالذهب . وكان مزوداً بتوافذ على عكس قدس الأقداس الذي كان مظلماً وخاوياً . ولم يكن الحائط الغربي أو حائط المبكى جزءاً من الهيكل نفسه وإنما كان جزءاً من سورته الخارجي الذي أشرنا إليه . والوصف السابق لهيكل هيرود هو الذي ورد عند يوسيفوس . وهو مختلف عن الأوصاف التي وردت في كتب المدراس . وقد هدم تيتوس الهيكل الثاني عام ٧٠م .



## قدس الأقداس

Holy of Holies

مصطلح «قدس الأقداس» تقابله في العبرية كلمة «ديبر»، ويبدو أنها من أصل عبري بمعنى «تكلم»، أي أن الإله تكلم وأعطى المشورة والوحي . وهو أقدس الأماكن في هيكل القدس . وقدس الأقداس عبارة عن مكعب حجري مصمت (بدون نوافذ) أقيم على مستوى أعلى من الجزء المسمى «الهيكل» في هيكل سليمان . وكان قدس الأقداس يضم تابوت العهد (تماماً مثل قدس الأقداس في خيمة الاجتماع) والذي كان يزينة ملاكان يشبهان الملائكة التي تظهر في الرسوم البابلية ، وربما كان لهما وجهان بشرياً مثل تلك الرسوم . وقد قام بتصميم هذين الملاكين (والأوعية المقدسة والأدوات الطقوسية الأخرى) فنان من صور بامر حيرام ملك صور . وربما نُقِّد التمثال في هيكل هيرود بشكل أقرب إلى الفن التجريدي ، دون تفاصيل واقعية ، وذلك احتراماً لنهي التوراة عن اتخاذ التماثيل المنحوتة ، فكان الملك الحارس يتخذ شكل كتلة وسطى يحف بها جناحان مديبان . وربما جاء من هنا الاعتقاد الشعبي لدى الرومان بأن اليهود يعبدون في قدس الأقداس صنماً على شكل رأس حمار إذ بدأ لهم جسم الملاك (كروب) بين الجناحين كرأس حمار بين الأذنين الطويلتين ، وذلك إذا وضعنا في الحسبان الفرق الشاسع بين الفن الروماني الوثني التمثيلي والفن العبري الذي كان قد بدأ يميل نحو التجريد كما هو الحال في الحضارات السامية .

وكان التصور السائد أن الملاكين هما رمز لاسمي الإله يهوه والوهميم ، وأن روح الإله (الشخينة) تحل في هذا التابوت . وكان يفضل قدس الأقداس عن بقية الهيكل ستارة وسلسلة من الذهب أو باب . ولم يكن يدخله سوى كبير الكهنة في يوم الغفران لبتفوه باسم الإله (يهوه) الذي لا يستطيع أحد أن يتفوه به في أي مكان أو زمان (ولعل التأثير المصري واضح في هذه العادة) . وجاء في الأجداد أن فلسطين توجد في مركز الدنيا والقدس في وسط فلسطين ، والهيكل في وسط القدس ، ويقع قدس الأقداس في وسط الهيكل ، أي أن قدس الأقداس يقع في وسط الدنيا تماماً ويُوجَد أمامه حجر الأساس . ويزعم بعض الباحثات أن حجر الأساس هو الصخرة الشريفة الموجودة في مسجد الصخرة . ويُعتبر قدس الأقداس ، في التأملات الكونية التي تخص الهيكل ، السماء السابعة .

ولما كان قدس الأقداس أكثر الأماكن قداسة لدى اليهود ولا

المتعين عن تدأخل المطلق والنسبي والمقدس والزمني . وقد كانت الشرعية السياسية متداخلة تماماً مع الشرعية الدينية ، ولذا يُلاحظ أن تأسيس الأسر المالكة في الشرق الأدنى القديم يصاحبه دائماً تأسيس معبد مركزي حتى يمكنها تركيز السلطة . ولم يشكل العبرانيون القدامى (جماعة إسرائيل) استثناء من القاعدة ، فقد تم تأسيس الهيكل المركزي ليصبح الرمز الواضح والمتجسد للحلول الإلهي وللشرعية الدينية التي كان يحتاج إليها النظام السياسي . فكان حكم الأسرة الداودية (نسبة إلى داود) يستند إلى الهيكل . وعلى مستوى العلاقات الدولية ، كان الهيكل يعطي الدولة الجديدة هيبة أمام الزوار الأجانب ، ويؤكد لهم شرعية النظام الجديد ، كما أن هيمنة الدولة العبرانية على بعض المناطق المجاورة لها كان يتم بموافقة الكهنة ، ويهوه بطبيعة الحال .

وكان تركيز العبادة القرابانية تركيزاً لموارد الدولة أيضاً ، وقد كانت القرابين من أهم هذه الموارد إلى جانب الضرائب وجزية الرؤوس التي فرضها سليمان على جميع رعاياه بحيث كان على كل ذكر يهودي أن يدفع نصف شيكل كل عام (وهو الشيكال المقدس) . لهذا ، لم يسمح بتقديم أية قرابين خارج الهيكل بعد تأسيسه . وكان الهيكل ، شأنه شأن كثير من الهياكل في الشرق الأدنى القديم ، مصرفاً يضع فيه الأثرياء تقودهم ويرسلون إليه الذنور والقرابين ، كما كانت تُحفظ فيه رموز الدولة وطاقسها .

وقد استمر هذا الوضع مع هيكل هيرود الذي أشار إليه ول ديورانت بأنه «المصرف القومي» ، وأشار إليه يهودا مبنوهين بأنه «الهيكل/ السوق» ، حيث كان يُوجَد الباعة وتجار المشايبة والصيارفة ، وكان هذا هو سر غضب السيد المسح عند زيارته للهيكل .

ولما كان الهيكل هو الخزانة القومية أو المصرف القومي للدولة العبرانية المتحدة (ثم المملكة الجنوبية) ، فإننا نجد أن القوات الغازية كانت تحاول نهبه أثناء الحروب كجزء من الحرب الاقتصادية وجزء من محاولة ضرب الشرعية السياسية .

وكان الكهنة اللاويون يقومون على خدمة الهيكل ، يترأسهم الكاهن الأعظم ، وهو ما جعل فئة الكهنة من أكثر الفئات نفوذاً . وكانت فرقة الصدوقيين تعبر عن مصالح هذه الفئة وتدافع عن عبادة الهيكل القرابانية . أما فرقة الفريسيين ، فكانت تمثل المعارضة . ولذا ، فقد كانت هذه الفرقة تؤيد إنشاء المعابد اليهودية المستقلة لأنها تحقق انفصال اليهودية عن الهيكل والكهنة .

وكان يقوم بالأعمال الوضعية مجموعة من عبيد الهيكل في هيكل سليمان يُشار إليهم بالثيتيم أو الجبعونيين .



جماعة يسرائيل . وقد أسس ملوك المملكة الشمالية هيكلًا حتى لا يحج أحد من المملكة إلى القدس في المملكة الجنوبية ، كما أن أونياس بنى هيكلًا في مصر للغرض نفسه بإيعاز من البطالة . وقد توقف الحج تمامًا بعد هدم الهيكل ، ومع هذا استمر بعض اليهود في الحج في الأيام المذكورة ، وخصوصاً في عيد المظال . وقد بُعث فكرة الحج في العصور الوسطى تحت تأثير القرائن . أما الآن ، فلا يؤدي فريضة الحج سوى المغالين في التقوى والورع .

### هدم الهيكل

Destruction of the Temple

تشير عبارة «هدم الهيكل» عادةً إلى عملية هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠م ، وإن كان من المعروف أن نبوختنصر كان قد هدمه من قبل عام ٥٨٦ ق.م . كما أن هيرودس هدمه عام ٢٠-١٩ ق.م ، ليعيد تشييده مرة أخرى . وقد هُدم الهيكل ، حسب الكتابات الفقهية اليهودية ، في التاسع من آب ، ولذا يصوم اليهود في ذلك اليوم . لكن هناك من يذهب إلى أن هدم الهيكل تم في ٧ أو حتى ١٠ آب . ولحسم هذا التناقض ، تقول هذه الكتابات إن هدم الهيكل بدأ في التاسع من آب وانتهى في العاشر منه . وتذهب الكتابات الصهيونية ، والمتأثرة بها ، إلى أن هدم الهيكل على يد الرومان هو الذي تسبب في تشتت اليهود في المنفى على هيئة أقليات ، مع أن انتشار اليهود في بقاع الأرض كافة كان قد بدأ قبل ذلك بزمان طويل وبدون قسر . والواقع أن مجموع اليهود خارج فلسطين كان يفوق بكثير عددهم داخلها قبل هدم الهيكل .

وتجرب ملاحظة الفرق بين عمليتي هدم الهيكل ونهبه ، إذ نُهب عدة مرات قبل هدمه ، فقد نُهب مثلاً على يد شيشنق فرعون مصر ، ومرة أخرى على يد يواش ملك المملكة الشمالية . ويرى بعض حاخامات اليهود أن هدم الهيكل كان عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب . وهذا الرأي يأخذ به المسيحيون ، حيث يرون أن ذنب اليهود الأكبر هو إنكارهم أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيح . ويُشار إلى هدم الهيكل بتعبيرات أخرى مثل «خراب الهيكل» ، ولكننا نفضل تعبير «هدم الهيكل» لحياده النسبي .

وفي الكتابات العبرية ، يُشار إلى تخريب الهيكل بكلمة «حوربان» التي تُستخدم للإشارة إلى أي دمار يلحق باليهود ، ومن ذلك الإبادة النازية لليهود أوروبا .

يحق لهم أن تطأه أقدامهم ، لذا فإنه يحرم عليهم أن يذهبوا إلى جبل موريا (جبل بيت المقدس) أو هضبة الحرم التي يوجد فيها المسجد الأقصى ، وذلك حتى لا يدوسوا على الموضع القديم للقدس الأقداس عن طريق الخطأ . ويزعم شلومو جورين أن أبحاثه قد حددت (على وجه الدقة) مكان قدس الأقداس ، ومن ثم يحق لليهود دخول منطقة المسجد الأقصى .

### جبل الهيكل

Temple Mount

«جبل الهيكل» مصطلح يقابله في العبرية تعبير «هر هبايت» . ويُشار إليه في الدراسات العربية بمصطلح «هضبة الحرم» . كما يُقال له أيضاً «جبل موريا» و«جبل بيت المقدس» ، وهي منطقة في جنوب شرقي القدس . ويذهب اليهود إلى أن الهيكلين الأول والثاني قد شُيدا على هذه الهضبة ، وأن توضيحية إبراهيم بإسحق تمت على هذا الجبل . وتُعتبر هذه البقعة أكثر الأماكن قداسة بالنسبة إلى اليهود . ومن ثم ، فإنهم لا يمكنهم دخولها إلا بعد تطبيق بعض شعائر الطهارة التي تحتاج إقامتها إلى رماد البقرة الحمراء ، وهو أمر مستحيل في الوقت الحاضر ، ومن ثم يذهب معظم فقهاء اليهود إلى أن من الحرم على اليهود دخول هذه المنطقة . ويُوجد في هذه المنطقة ما يزيد على مائة أثر إسلامي ، من أهمها : المسجد الأقصى ومسجد القبة .

### الحج

Pilgrimage

يشحن على كل يهودي أن يحج ثلاث مرات في العام إلى القدس : عيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال . ولذا ، فإن هذه الأعياد تُسمى «أعياد الحج» . وقد جاء في العهد القديم (ثنية ١٦/١٦) «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير [الفصح] وعيد الأسابيع وعيد المظال ، ولا يحضروا أمام الإله فارغين» . ولذلك ، كان اليهود يقدمون في حجهم قرباناً مشوياً للهيكل («الشواء» يقابلها في العبرية كلمة «شواه» وفي اليونانية كلمة «هولو كوست») حيث كان يُسوى إلى أي يحترق تماماً فلا يبقى منه شيء للكهنة .

وكان اليهود في بادئ الأمر يحجون إلى مكان غير القدس يُسمى «شيلوه» . ولكن حينما دخل داود إلى القدس ، أصبحت القدس مكان العبادة اليسرائيلية والمكان الذي يحج إليه أعضاء

**خراب الهيكل**

Destruction of the Temple

« خراب الهيكل » هو « هدم الهيكل » .

**نهب الهيكل**

Pillage of the Temple

كان الهيكل يُعدُّ المصرف القومي للدولة العبرانية ، يرسل إليه العبرانيون القرابين والنقود ، ويودع الأثريات تقودهم فيه ، كما كانت تُحفظ فيه رموز الدولة وطنائسها (مثل شمعدان المينورا) . ولذا ، كانت القوات الغازية تحاول ، أثناء الحروب ، نهب الهيكل كنوع من الحرب الاقتصادية وكنوع من محاولة ضرب الشرعية السياسية . وقد هجم شيشنق الأول فرعون مصر على الهيكل ونهبه (٩١٨ - ٩١٧) ، وكذا بن هدد ، وملوك آخرون من ملوك آرام دمشق . كما نهبه يواش ملك المملكة الشمالية (٨٠٠ - ٧٨٤) . بل إن ملوك المملكة الجنوبية كانوا يُضطرون أحياناً إلى أخذ بعض طنائسها ليدفعوا الجزية المفروضة عليهم من قبل الإمبراطوريات المهمة . وهذا ما فعله حزقيا (٧٢٧ - ٦٩٨) الذي أخذ الذهب من أبواب الهيكل لدفع الجزية لسانخريب الذي قام فيما بعد بنهب الهيكل .

وقد أعطى آحاز (٧٤٣ - ٧٢٧) ثيران الهيكل التي كانت تعمل الوعاء المسمى «بحر النحاس» ، وكذلك بعض الأواني الأخرى المخصصة للهيكل ، جزية لملك آشور . أما بحر النحاس نفسه (أي الوعاء) ، فقد كسره الكلدانيون ، وحملوا قطعه المعدنية إلى بابل ، لكن هذه الحادثة الأخيرة هي من قبيل هدم الهيكل لا نهبه . أما الهيكل الثاني ، فقد نهبه أنطيوخوس الرابع (١٧٥ - ١٦٤) ، وبنى فيه مذبحاً لزيوس ، كما اجتاحتها بومبي ونهبه فقتل سوريا الروماني كراسوس (حوالي ٥٥ ق. م) .

**إعادة بناء الهيكل**

Rebuilding the Temple

عبارة «إعادة بناء الهيكل» تُستخدَم بعينين :

١ - إعادة بناء الهيكل بعد عودة اليهود من بابل بمرسوم قورش الأخميني (٥٣٨ ق. م) ، ومن ثم فإنه يُسمى «الهيكل الثاني» تمييزاً له عن الهيكل الأول الذي هدمه نبوخذنصر . وقد أصدر ملك الفرس دارا الأول أمراً بالاستمرار في بناء الهيكل بعد أن اعترضت بعض الأقوام المقيمة في أرض فلسطين على عملية إعادة البناء هذه .

والواقع أن استخدام العبارة بهذه الصورة أمر نادر ، إذ أن الاستخدام الأكثر شيوعاً يشير إلى :

٢ - إعادة بناء الهيكل بعد عودة الشعب اليهودي إلى صهيون ، في آخر الأيام ، تحت قيادة الماشيخ . وهذا هو الهيكل الثالث باعتبار أن الهيكل الثاني هو الذي بناه هيرود وهدمه تيتوس .

ويذهب الفقه اليهودي إلى أن الهيكل لابد أن يُعاد بناؤه وتُقام شعائر العبادة القربانية مرة أخرى . ولهذا ، فقد تم تدوين هذه الشعائر في التلمود مع وصف دقيق للهيكل . ويتلو اليهود في صلواتهم أدعية من أجل إعادة بناء الهيكل . ولكن الآراء تضارب ، مع هذا ، حول مسألة موعد وكيفية بناء الهيكل في المستقبل . والرأي الفقهي الغالب هو أن اليهود يتعين عليهم أن ينتظروا إلى أن يصل العصر المشيخاني بمشيئة الإله ، وحينئذ يمكنهم أن يشعروا في بنائه ، ومن ثم يجب ألا يتعجل اليهود الأمور ويقوموا بإعادة بنائه ، فمثل هذا الفعل من قبيل الهرطقة ، والتعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس) . ويلهب موسى بن ميمون إلى أن الهيكل لن يُبنى أبداً بشرية ، كما يذهب راشي إلى أن الهيكل الثالث سينزل كاملاً من السماء . ويرى فقهاء اليهود أن جميع اليهود مندسون الآن ، بسبب ملامستهم الموتى أو المقابر ، ولابد أن يتم تطهيرهم برماد البقرة الصغيرة الحمراء . ولما كان اليهود (جميعاً) غير طاهرين ، بل يستحيل تطهيرهم (بسبب عدم وجود الرماد المطلوب لهذه العملية) ، وحيث إن أرض الهيكل (جبل موريا أو هضبة الحرم) لا تزال طاهرة ، فإن دخول أي يهودي إليها يُعدُّ خطيئة . ويضاف إلى هذا أن جميع اليهود ، حتى الطاهر منهم ، يُحرم عليه دخول قدس الأقداس . ولما كان مكانه غير معروف لأحد على وجه الدقة ، فإن من المحتمل أن تطلأ قدما أحدهم هذه البقعة . ولهذا ، فإن دخول اليهود إلى هذه المنطقة محرمٌ تماماً . وفي الفقه اليهودي كذلك أن تقديم القرابين أمر محرم لأن استعادة العبادة القربانية لابد أن يتم بعد عودة الماشيخ التي ستتم بمشيئة الإله .

ولكن هناك رأياً فقهيّاً يذهب إلى تقيض ذلك ، حيث يرى أن اليهود يتعين عليهم إقامة بناء مؤقت قبل العصر المشيخاني ، وأنه يحل لليهود دخول منطقة جبل موريا ، لكن هذا هو رأي الأقلية ولم يصبح جزءاً من أحكام الشرع اليهودي . ولكن هذا الرأي ظل مدوناً مطروحاً بسبب طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي .

وقد استفاد الصهاينة من هذا التناقض داخل التركيبة الجيولوجية ، فوصفوا الرؤية الهاخامية الأرثوذكسية بالسلبية ، وقرروا أخذ زمام الأمور في أيديهم . وقد أعلن الهاخام شلومو

جورين أنه حدد مكان قدس الأقداس ، وبالتالي يستطيع اليهود زيارة جبل موريا .  
ويمكننا الآن أن نعرض لرأي الفرق اليهودية المختلفة في العصر الحديث في مسألة إعادة بناء الهيكل ، يمكننا منذ البداية أن نقسمهم إلى صهانية وغير صهانية . أما غير الصهانية ، فيعارضون العودة الفعلية ومن ثم إعادة بناء الهيكل . وقد حذف الإصلاحيون الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل ، ويستعملون كلمة «تيمبل Temple» الإنجليزية ، أي «المعبد» ، منذ عام ١٨١٨ للإشارة إلى الهياكل اليهودية . وهم في الواقع ، يقصدون أن المعبد ، وإنما يوجد ، حل محل الهيكل ، وأن الهيكل لن يتم استرجاعه أبداً . أما الأرثوذكس ، فيفضلون استخدام الكلمة اليونانية «سيناجوج» للإشارة إلى المعبد اليهودي ، على أن تظل كلمة «هيكل» محددة الدلالة ، لا تشير إلا إلى هيكل القدس . وقد احتفظ الأرثوذكس بالأدعية الخاصة بالعودة ، وتبعهم المحافظون . وتظل العودة ، بالنسبة إلى الأرثوذكس ، مسألة مرتبطة بعودة الماشيخ . أما بالنسبة إلى المحافظين ، فهي تشبه الجواز والتطلع الطوباوي المثالي .

أما الصهانية ، فيقتسمون في موقفهم من قضية إعادة بناء الهيكل إلى قسمين : صهانية لادينيين وصهانية دينيين . وفي الواقع ، فإن الفريق الأول لا يكثر كثيراً بالعبادة قربانية ، ولا بإعادة بناء الهيكل . ولذا ، فهم ينظرون إلى القضية من منظور عملي ، ويرون أن محاولة الصهانية المتدينين إعادة بناء الهيكل هي مسألة هوس ديني يهدد الأستوطن الصهيوني بلخبط دون عائد مادي ملموس . ومن ثم ، نجد أن مسألة إعادة بناء الهيكل لا تتمتع بشعبية كبيرة داخل إسرائيل التي تتمتع بـ«أوتعاني من» واحد من أعلى مستويات العلمنة في العالم . وقد أشار تيدي كوليك (عمدة القدس) إلى المهوسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل ، وبين أنهم يسيرون في خط شبتاي تسفي ؛ ذلك الماشيخ الدجال الذي ألهم حماس معظم اليهود في القرن السابع عشر ، ووعدهم بالعودة إلى فلسطين ، وعين بعض أتباعه حكاماً للأرض ، ثم انتهت الحركة بالفشل ، الأمر الذي رجح اليهودية رجاً من أساسها وألقى بها في أزمة لم تُقَ منها قط . وقد عارض الحاخام جورين ، صاحب فتوى موقع قدس الأقداس ، مسألة وضع أساس الهيكل الثالث .

ويرى الصهانية المتدينون (النتطرفون) المسألة من منظور مختلف ، فمسألة إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزية بالنسبة إليهم ، ولذا فإنهم يركزون جل اهتمامهم على هذه العملية ،  
وقد قامت عدة محاولات من جانب الجماعات الصهيونية تستهدف تفجير الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس ، أو حرقها ، بل ضُبطت مؤامرة لإلقاء القنابل عليها من الجو . وهناك منظمة يهودية تُسمى «أمناء جبل الهيكل» ، التي يؤكفها المليونير الأمريكي (المسيحي الأصولي) تري رايزنهوفر ، جعلت بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسي . وتقود عضو الكنيست جيولا هوهين حملة لتأكيد أن المنطقة التي يُوجد عليها الآن كل من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة هي المنطقة التي كان يُوجد عليها الهيكل ، ومن ثم فليهود حقوق مطلقة فيها . وقد أسست مدرستان تلموديتان عاليتان بالقرب من حائط المبكى لتدريب مائتي طالب على شعائر العبادة قربانية ، ليقوموا بها عند بناء الهيكل الثالث . وإحدى هذه المدارس ، معهد الهيكل (بالعبرية : شيفات هبئات) ، وظيفتها الأساسية محاولة التسجيل بإعادة بناء الهيكل . وقد بدأت هذه المدرسة في إعداد أدوات العبادة قربانية ، وانتهت من ثمان وثلاثين منها تم وضعها في متحف ، وهي في سبيلها إلى إعداد الخمس والستين الباقية . وتُوجد جماعات أخرى تدرس شجرات العائلات الخاصة بالكهنة حتى تتمكن الإجابة عن سؤال نصه : من منهم المؤهل لتسليم القرابين؟ وقد عُقد عام ١٩٩٠ مؤتمر يضم اليهود الذين يعتقدون أنهم من نسل الكهنة . وهناك في فندق الهيكل في القدس مجسم مصغر للهيكل ، وينون أن يبنوا مجسماً آخر أكبر حجماً يتكلف مليون دولار يتم جمعها من يهود العالم دون سواهم .

إلى مخزن الحفارين وأودع فيه . وتتجه التبة إلى زراعة حديقة حوله . ويساند أمعاء جبل الهيكل بعض أعضاء المؤسسة الدينية في إسرائيل .

ورغم هذا الانقسام ، بشأن إعادة بناء الهيكل ، فلننا نجد أن بعض الأطروحات التي صُنِّعت في الماضي باعتبارها دينية مهووسة ومتطرفة ، صارت مقبولة بل أصبحت جزءاً من الخطاب السياسي الصهيوني ، أو ضمن برامج الأحزاب المعتدلة! ولذا فليس من المستبعد أن نجد جميع الصهاينة (الأقلية المتدينة والأغلبية الموحدة) تؤيد كلها بعد قليل إعادة بناء الهيكل باعتباره أمراً أساسياً للعقيدة الصهيونية لا تكتمل بدونه .

ويرى المسيحيون الأصوليون أن بناء الهيكل هو الشرط الأساسي للعودة الثانية للمسيح . وقد عقد مؤتمر عام ١٩٩٠ تحت رعاية وزارة الأديان في إسرائيل لمناقشة هذه القضية ، ولتقرير ما إذا كان على اليهود في العصر الحديث إعادة بناء الهيكل .

### حائط المبكى

Wailing Wall

«حائط المبكى» ترجمة لتعبير «ويلنج وول Wailing Wall» الإنجليزي ويقابله في العبرية «كوتيل مغراني» ، أي «الحائط الغربي» ، والذي يسميه المسلمون العرب «حائط البراق» ، ويقال إنه جزء من السور الخارجي الذي بناه هيرود ليحيط بالهيكل والمباني الملحقة به . ويُعتبر هذا الحائط من أقدس الأماكن الدينية عند اليهود في الوقت الحاضر ، ويبلغ طوله مائة وستين قدماً . أما ارتفاعه فهو ستون قدماً . وقد سُمِّيَ هذا الحائط باسم «حائط المبكى» لأن الصلوات حوله تأخذ شكل عويل ونواح . ولقد جاء في الأساطير اليهودية أن الحائط نفسه يذرف الدموع في التاسع من آب ، وهو التاريخ الذي قام فيه تيتوس بهدم الهيكل .

ومنذ القضاء على تمرد بركوخبا ضد الرومان ، صار موقع الهيكل المهدم ، لا الحائط ، مركزاً للتطلعات الدينية اليهودية . لكن التاريخ الذي بدأت تقام فيه الصلوات بالقرب من الحائط غير معروف ، فالصادر المدراسية تشير إلى «حائط الهيكل الغربي» أو «الحائط الغربي» ، ولكن هذا الحائط المشار إليه لا تتركه الحضرة الإلهية التبة ، ومن ثم فهو حائط أزلي لم يتهدم ولن يهدم . ومن الواضح أن الإشارة لم تكن إلى حائط المبكى ، وإنما إلى الحائط الغربي لقدس الأقداس . ولما كان الهيكل قد هُدم بالفعل ، فلا بد أن الحديث كان يحمل مدلولاً رمزياً وحسب .

والواقع أن كل المصادر التي تتحدث عن يهود القدس (حتى القرن السادس عشر) تُلاحظ ارتباطهم بموقع الهيكل وحسب ، ولا توجد أية إشارة محددة إلى الحائط الغربي . كما أن الكاتب اليهودي نجمانيدس (القرن الثالث عشر) لم يذكر الحائط الغربي في وصفه التفصيلي لموقع الهيكل عام ١٢٦٧ ، ولم يأت به ذكر أيضاً في المصادر اليهودية التي تتضمن وصفاً للقدس حتى القرن الخامس عشر . ويبدو أن حائط المبكى قد أصبح محل قداسة خاصة ابتداءً من ١٥٢٠م ، في أعقاب الفتح العثماني وبعد هجرة يهود المارانو حكمة لواء النزعة الحلولية المنطرفة في اليهودية . ولعل هذا يفسر بداية تقديس الحائط . فالنزعة الحلولية ، كما أسلفنا ، تتبدى دائماً في صورة تقديس الأماكن والأشياء ، من نائم وأحجية وحوائط ، وإنما بأن الإله يتجلى في كل كبيرة وصغيرة . كما أنه قد يكون هناك تشبهُ بالمسلمين فيما يخص الكعبة والحجر الأسود . ولذا ، نجد أن حديث الحاخامات الرمزى عن الشخية في علاقتها بالحائط يكتسب مدلولاً حقيقياً . وقد تعمق هذا الإيمان في القرن التاسع عشر ، وبدأ حائط المبكى يظهر في فلكلور الجماعات اليهودية ، وبدأت عمليات الحفر والتنقيب الأثري في منطقة هضبة الحرم حول حائط المبكى التي كانت تغذي جذونها النزعة الإمبريالية والديساجات المسيحية الاسترجاعية . وقد ترسخت صورة حائط المبكى في الوجدان اليهودي والصهيوني . ومع هذا ، فإن الحاخام هيرش (رئيس جماعة الناطوري كارتا) ، الذي يعيش في القدس على بعد أمستار من الحائط ، يرفض زيارته ويؤكد أن تقديس الحائط إن هو إلا حيلة من الحيل السياسية للصهيونية .

وقد حاول الصهاينة الاستيلاء على الحائط ، عن طريق الشراء في بادئ الأمر ، كما حاولوا مع فلسطين كلها ، ولعلمهم في هذا يرجعون إلى فكرة أن إبراهيم اشترى مغارة المكفيلة وأن داود اشترى جرن أرونا البيوسي . ومن تلك المحاولات محاولة الحاخام عبد الله (حاخام الهند) شراء الحائط عام ١٨٥٠ . وقد حاول السير موسى مونتيفوري أن يستصدر تصريحاً بوضع الكراسي أو المظلات الواقية من المطر أمام الحائط ، ولكن طلبه رُفض . وفي عام ١٨٨٧ ، حاول البارون روتشيلد شراء الحي المجاور للحائط لإخلائه من السكان ، واقترح أن تشتري إدارة الوقف أرضاً أخرى بالأموال التي ستحصل عليها ، وتوطن السكان فيها ، وهو حل يحمل كل ملامح الحلول الصهيونية (الترانسفير) ، وقد رُفض طلبه كذلك . وقبل الحرب العالمية الأولى ، قام البنك الأنجلو فلسطيني بمحاولات جادة لشراؤه . كما قام الصهاينة بمحاولات للاستيلاء على الحائط ، أو التسلل إلى

الحائط بؤرة اهتمام للمنظمات الصهيونية الجديدة . ويسخر اليهود اللادينيون من هذا الحماس الديني ، فيشيرون إلى الحائط الغربي (بالعبرية : كوتيل) باسم «ديسكوتيل» ، أي المرقص الليلي الديني ا وتقوم الدولة الصهيونية بالعديد من عمليات الحفر حول الحائط التي أدت إلى تصدُّع الآثار الإسلامية .

وقد تحوَّل الحائط إلى بؤرة تجتمعت فيها مشاكل التجمع الصهيوني ، خصوصاً الصراع الحاد بين العلمانيين والمتدينين . ومن أهم القضايا التي أثّرت مؤخراً ، قضية الفاصل أو الستارة التي تفصل بين الجنسين أثناء الصلاة أمام حائط المبكى ، إذ يطالب الأرثوذكس بوضعها بينما يرى اللادينيون والإصلاحيون أن لا حاجة إليها . ويشير بعض المؤرخين الإسرائيليين إلى أنه في بداية فترة الهيكل الثاني ، لم يكن هناك أي فصل بين الجنسين ، ولم تبدأ هذه الممارسة إلا قبل هدم الهيكل بسنوات قليلة .

وقد بدأت بعض النسوة اليهوديات من دُعاة حركة التمرکز حول الأثني بالمطالبة بالمساواة الكاملة في الصلاة مع الرجال ، وكوَّن جمعية تُسمَّى «نساء من أجل الحائط» يقمن بارتداء شال الصلاة (الطاليت) وتلاوة التوراة ومحاولة الاشتراك في صلاة الجماعة ، وهو ما تحرمه الشريعة اليهودية .

وقد لوحظ أخيراً تزايد الملاحظات المتخصصة في بيع المجلات والأدوات الإباحية في القدس بالقرب من الحائط . وقام ناشر مجلة بنست هاوس الإباحية بنشر طبعة عبرية من مجلته ، وقام بزيارة لإسرائيل بهذه المناسبة فاستقبل استقبالاً شبه رسمي أمام حائط المبكى وقد احتجَّت الجماعات الدينية اليهودية على هذا .

### الحائط الغربي

Western Wall

«الحائط الغربي» هو «حائط المبكى» .

### الوزنة (شيكل)

Shekel

«شيكل» كلمة عبرية تعني «وزن» أو «الوزنة» وكانت تُنطق «شيقل» . وهو المقياس الوزني الذي كان العبرانيون القدامى يستخدمونه لوزن الذهب والفضة . وقد أصبح الشيكل عملة فيما بعد . ويبدو أن نظام العملات بين العبرانيين كان يتبع النظام البابلي ، فالبابليون كانوا أهم الشعوب التجارية في الشرق الأدنى القديم . وقد شاع الشيكل كعملة أيام الحشمونيين . وكان الشيكل ، كوحدة

منطقة هضبة الحرم عن طريق تقديم رشوى ، أولاً للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين حيث عرضوا عليه نصف مليون جنيه إسترليني ، ثم عُرض على الشيخ سعيد العلمي مبلغ مليون دولار . وغني عن البيان أن هذه المحاولات لم تُكَلِّلْ إلا بكتير ولا بقليل من النجاح .

ولم تكن محاولات الاستيلاء تتم عن طريق العنف المالي وحسب ، إذ كان العنف يأخذ أشكالاً مباشرة حينما كان الصهانية يحاولون تأكيد حقوقهم في الحائط وفي هضبة الحرم . وقد كانت هذه المحاولات يقابلها الرفض من قبل الفلسطينيين ، الأمر الذي كان يؤدي إلى الاشتباكات بين الطرفين . ومن أشهر الاضطرابات التي نجمت عن الاحتكاك بين المستوطنين اليهود والعرب تلك الاضطرابات التي حدثت في ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢ ، أو تلك التي حدثت في اليوم السابق ليوم الغفران ثم في يوم الغفران نفسه (في ٢٤ سبتمبر ١٩٢٨) حين أصرت إدارة الوقف على أن يزِيلَ الإنجليز ستارة أو فاصلاً (محيطة) كان الأرثوذكس قد وضعوها ليفصلوا بين الرجال والنساء . وقد قام ضابط بريطاني بإزالة الستارة . وتزايدت الاضطرابات عام ١٩٢٩ حين قام الصهانية بجلب الكراسي والمصابيح والستائر ووضعوها أمام الحائط . ورغم عدم أهمية الحدث في حد ذاته ، فإن له دلالة خطيرة إذ أن الكرسي وغيرها من الأشياء كانت تهدف إلى تغيير الوضع القائم (وهذه هي السياسة التي تبنتها حكومة الانتداب ، أي ترك كل شيء يتعلق بالأمور الدينية على ما هو عليه) . وقد زادت الاضطرابات إلى أن جاء يوم الغفران في ١٥ أغسطس ١٩٢٩ حين قادت منظمة بيتار مظاهرة نحو الحائط . وبعد هذه الحوادث ، شكلت الحكومة الإنجليزية لجنة تحقيق استمعت إلى شهادات اليهود والمسلمين والموظفين البريطانيين ، وقد قررت اللجنة أن المسلمين هم المالك الوحيد للحائط وللمناطق المجاورة وأن اليهود يمكنهم الوصول إلى الحائط للأغراض الدينية فحسب ، على ألا يتفخخوا في البوق (الشوفار) ولا يجلبوا خيمة أو ستارة أو ما شابه ذلك من أدوات . وقررت اللجنة أن أية أدوات عبادة يحق لليهود وضعها بمقتضى الأمر الواقع بالقرب من الحائط لا يترتب على إنشائها أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له . وقد استمرت المظاهرات حتى عام ١٩٤٧ .

وهذا الحائط يقع ضمن الأراضي الفلسطينية التي احتُلت عام ١٩٦٧ ، فقامت القوات الإسرائيلية بإزالة الحلي المجاور للحائط ، وكذلك كل البيوت الملاصقة له ، وأقامت أمامه ميداناً ، وأصبح

علامات الحفريات والطفيلية التي يتسم بها اليهود ، وأنه استمرار لعقيلة الاستجداء التي تسم الوجود اليهودي التقليدي ، وخصوصاً بعد انتشار التسول بين يهود أوروبا في القرن التاسع عشر ، وطُرحت بدلاً من ذلك فكرة الشعب اليهودي الذي يعتمد على نفسه ، والذي سوف يحقق استقلاله ويحافظ عليه بنفسه دون حاجة إلى استجداء أحد .

ولكن الصهيونية ، منذ أن بدأت كحركة سياسية وأنشأت دولتها في فلسطين ، معتمدة اعتماداً كاملاً على المعونات الخارجية وعلى أجهزة الصهيونية العالمية ، أصبحت متخصصة في فن الاستجداء . ولقد كانت الحالوقاه تُجمع تقليدياً من يهود العالم لأغراض دينية وخيرية ، أما التبرعات التي كانت الحركة الصهيونية تجمعها ، وكذلك المنح والمساعدات والقروض والتعويضات التي تحصل عليها والتي يمكن أن تُطلق عليها اسم «الخالوقاه الصهيونية» ، فمصدرها ليس أعضاء الجماعات وحدهم ، وإنما الدول الغربية ، وهي تُجمع لأسباب سياسية واقتصادية وأحياناً بطرق غير أخلاقية .

وبدلاً من الطفيلية اليهودية التي نُجمت عن ظروف تاريخية خاصة بأوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت في طريقها إلى الزوال كما حدث بالفعل ليهود إنجلترا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الذين أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد أوطانهم ، فإن الصهيونية خلقت نوعاً جديداً من الطفيلية المؤسسية إذ خلقت دولة لا تملك مقومات البقاء ، ولا بد لها من الاعتماد على صدقات الآخرين من اليهود وغير اليهود . وإذا كانت الصهيونية قد علمت الحلولية اليهودية الدينية وحولتها إلى عقيدة فاشية ، فإنها قد قامت أيضاً بعلمنة الخالوقاه والتسول ، وجعلتهما صفات أساسية للممارسة الصهيونية ، وخلقت ما نسميه «اقتصاد التسول» .

### هيكل أونياس

Temple of Onias

«هيكل أونياس» هيكل شَيْدِه الكاهن الأعظم اليهودي أونياس الرابع الذي خُلق من منصبه في فلسطين ففر إلى مصر ومعهم بعض الجنود اليهود ، ولعلمهم تحوّلوا إلى مرتزقة بعد وصولهم إلى مصر (وثمة رأي ينهب إلى أن الذي شيده هو ، في واقع الأمر أبوه أونياس الثالث) . ويبدو أن الهيكل قد شُيّد بإيعاز من البطالة (حكّام مصر) في عصر بطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥ ق. م) ، لخلق مركز ليهود مصر مركزاً لولا أنهم وبعدهم عن هيكل فلسطين التاسع للسوقيين . وقد مُنح أونياس ، وجنوده ، أرضاً ليستوطنها ويعيشوا من ريعها عام ١٤٥ ق. م . وقد شُيّد المعبد في

وزن ، يعادل ستة عشر جراماً تقريباً . وحينما كان موسى يحصر عدد شعب إسرائيل ، أراه الإله أن «كل من اجتاز إلى المعدودين من ابن عشرين سنة فصاعداً يعطى تقدمة للإله» (خروج ٣٠/١٣ - ١٤) لصيانة وخدمة خيمة الاجتماع . وقد فرض سليمان نصف شيكل يدفعه كل يهودي بالغ للهيكل . ويُعث هذا التقليد بعد العودة من بابل ، ففُرِضت ضريبة لبناء الهيكل ، وأصبح هناك شيكل مقدّس (ضعف الشيكل العادي) عبارة عن جزية سنوية يدفعها يهود فلسطين والعالم وتُنقل إلى الهيكل (مركز العبادة قربانية) . ومن الاتهامات التي وجهت ضد الحكام الروماني فلاكوس أنه صادر بعض الشيكالات . وبعد سقوط القدس ، حوّل الرومان ضريبة الشيكل إلى الفيسكوس جواديكوس أو ضريبة اليهود . ويتناول التلمود ، في أحد كتبه ، الأحكام الخاصة بالشيكل . والاشترابات في المنظمة الصهيونية العالمية تُدعى «شيكل» ، وكذلك عملة إسرائيل .

### الصدقة (خالوقاه)

Halukka

«الصدقة» هي المقابل العبري لكلمة «خالوقاه» العبرية ، والتي تعني «نصيب - قسمة» . وهي الصدقة التي كانت تُدفع للعلماء اليهود المتفرغين للدراسة الدينية في المدن المقدّسة الأربع : القدس ، وحيرون (الخليل) ، وصفد ، وطبرية . وأصبحت كلمة «خالوقاه» تُطلق على المساعدات المالية التي كان يرسلها يهود العالم لمساعدة اليهود الذين استوطنوا فلسطين ، وخصوصاً في القدس ، وكروسا حياتهم للتعبّد ودراسة التوراة . وكان معظم اليهود القيمين في فلسطين يعيشون على الصدقات (نحو ٨٥٪ من مجموعهم بحسب ما جاء في بعض التقديرات) . وكان رُسل الخاخامات هم الذين يجمعون هذه الصدقات ويرسلونها إلى فلسطين .

ومع منتصف القرن التاسع عشر ، ظهرت شبكة متكاملة متشعبة لجمع التبرعات ليهود فلسطين من أعضاء الجماعات اليهودية . وكان من أهم مراكز هذه الشبكة لجنة الرسميين والإداريين في أمستردام ، التي تلقت المعونات السنوية من تجمعات اليهود الكبيرة في غرب أوروبا وحولتها إلى قادة يهود فلسطين . وكان هناك اختلاف في طريقة جمع وتوزيع الصدقة بين اليهود الإشتكاز واليهود السفارد . ولا يزال بعض اليهود المتدينين يجمعون الخالوقاه ، ويرسلونها إلى الجماعات الدينية داخل إسرائيل .

ولكن الحركة الصهيونية التي ترفض الشخصية اليهودية التقليدية والقيم اليهودية الدينية ، كانت ترى أن جمع الخالوقاه من

ليونتوبوليس (بالقرب من هليوبوليس) ، ويُسمى موقعه الحالي «تل اليهودية» . مكان معبد مصري للإلهة باشت . وقد استند أونياس إلى نبوءة أشعيا (١٨/١٩ - ١٩) التي جاء فيها أنه سيُشيد مذبح للإله في وسط أرض مصر ليعطي هيكله شرعية دينية وقد أصبح أونياس كاهنه الأعظم .

وكان كثير من اليهود يعملون جنوداً مرتزقة ضمن حماية عسكرية تُرابط حول المعبد . وقد بُني الهيكل على هيئة قلعة يحيطها سور ، ربما بسبب طابعه الاستيطاني القتالي ، وهو ما يجعل معماره يشبه معمار المعابد اليهودية في أوكرانيا إبان فترة الإقطاع الاستيطاني البولندي فيها . ورغم اختلافه ، من الناحية المعمارية عن هيكل القدس ، فإنه كان يحوي الأواني الشعائرية نفسها ، وكان يتدلى من

السقف فانوس حل محل شمعدان الينوراه . وقد منح البطالمة لكهنة هذا الهيكل قطعة من الأرض ليعيشوا من ريعها . ولم يكن هيكل أونياس معبداً (سيناجوج) وإنما كان هيكلًا مركزيًا لإقامة شعائر العبادة القربانية ، وكان الهدف هو إحلاله محل هيكل فلسطين ، كما كان اليهود في مصر يقدمون فيه القرابين ويحجون إليه . ورغم أن أقلية من يهود مصر اتخذت موقف المعارضة ، فإن بعض فقهاء اليهود أبدوا اهتماماً خاصاً به ودرسوا شعائره وهو ما يعني اعترافاً ضمنيًا به ، ولكن الرأي الحاخامي الشائع هو رفضه لأنه كان يشكل منافسة للعبادة القربانية . وقد قام الرومان بإغلاق هذا المعبد عام ٧٣م إثر تمرد قام به يهود مصر ، أي أنه أُغلق بعد مرور عامين على إغلاق هيكل فلسطين .



## المملكة العبرانية المتحدة

الملوك والملكية - شاول - يونانان - المملكة العبرانية المتحدة : ظهورها وانقسامها - داود - سليمان

## المسلوك والملكية

## Kings and Kingship

بعد فترة من تسلل القبائل العبرانية في كنعان (١٢٥٠ ق. م تقريباً)، بدأ طابعها الاقتصادي والاجتماعي في التحول تآزراً بالبيئة الكنعانية المحيطة، فظهرت الحرف المختلفة والملكية الخاصة للأرض وإقامة المدن، وذلك ليحل نمط جديد محل الاقتصاد البدائي والملكية الجماعية، أي أن المجتمع بدأ يتحول عن القبيلة والبداءة اللتين وسمتاه أثناء عصر القضاة (١٢٥٠ - ١٠٢٠ ق. م) ليصبح أكثر تركيباً نتيجة عناصر التحول داخله ونتيجة الاحتكاك بالمجتمعات الأخرى الأكثر تركيباً وتحضراً. كما شهدت هذه الفترة ضغطاً عسكرياً عالياً على العبرانيين ورفضاً شديداً لهم من جانب الفلسطينيين والكنعانيين والمؤابيين والأدوميين، وقد واكب ذلك غياب القوى العظمى في منطقة الشرق الأدنى القديم بسبب ظروفها الداخلية. وقد ساهمت هذه الأوضاع الداخلية والخارجية في أن نظام القضاة أصبح نظاماً بالياً غير قادر على التعبير عن الأوضاع الجديدة، وأصبح نظام الملكية أمراً حتمياً للتعبير عن البنية الجديدة للمجتمع. وتعتبر القصة التوراتية عن ذلك حيث طلب الشعب إلى صموئيل أن يجعل لهم ملكاً مثل الشعوب الأخرى المتحضرة المحيطة بهم. فتوج عليهم شاول، ثم داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق. م) الذي وحد القبائل العبرانية فيما يُسمى «المملكة العبرانية المتحدة». وقد خلفه ابنه سليمان، ثم انقسمت المملكة إلى مملكتين (٩٢٨ ق. م): المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية اللتين حكمتهما سلسلة من الملوك.

ولم تكن مؤسسة الملكية العبرانية تختلف كثيراً عن مؤسسة الملكية المقدسة التي شاعت في الشرق الأدنى القديم، حيث يُعتبر الملك نقطة الحلول الإلهي ومن خلاله يتم التواصل بين مملكة الأرض ومملكة السماء. ولذا، كان الملك هو أيضاً الكاهن الأعظم أو أعلى في المرتبة.

وكان الملوك العبرانيون يُختبرون نواباً عن الرب، كما كانوا

الزعماء الذنوبيين والذين للبرانيين، تعلق سلطتهم الدينية سلطة الكاهن الأعظم، ولذا كان الملك هو الزعيم والرئيس الرسمي للشعائر والاحتفالات الدينية العامة. فكان يقدم القرابين إلى يهوه باسم الشعب ويتلقى البركات منه نيابة عنهم ويعمل على تنفيذ وصاياها وشريعته في وقت السلم، كما كان يقوم بقيادة الشعب في وقت الحروب والمحن. وكان الملك يُسمى «المشايح» لأنه كان يمسح رأسه بالزيت عند تنويجه. ورغم كل هذا، لم يكن الملك تجسيدا للإله، كما أن حقوقه لم تكن مطلقة، ولم يكن من حقه مصادرة الأرض أو الاستيلاء عليها، كما كانت تنطبق عليه القوانين الأخلاقية والمدنية. وكان الأنبياء يوجهون انتقاداتهم للملكية باعتبارها مؤسسة سياسية مرتبطة بالفساد والثراء الفاحش والسخره، ولكن هذا لم يمنع من وجود حكام مُطلقين. وكان من حق الملك أن يعين من يخلفه على العرش، غير أن الابن البكر، عادةً، كان يُختار لهذا المنصب.

وقد ظل الموقف العبراني من الملكية مهماً. فأحد أسفار العهد القديم (ثنية ١٧/١٣ - ٢) يتحدث عن القواعد الواجب اتباعها عند تعيين الملك وهو ما يتضمن اعترافاً بمؤسسة الملكية. ولكننا نجد أن سفر صموئيل يتضمن تحذيراً عميقاً من الملكية لأن الملك لن يلتزم بالقواعد. والرأي السائد بين فقهاء اليهود أن الملكية تخالف روح الدين اليهودي، وأن تعيين ملك أمر يقف ضد إرادة الرب، وأن الشكل الأمثل للحكومة هو حكومة غير ملكية. ولذلك، فحينما استولى الحشمونيون على الحكم (١٦٤ ق. م)، رفضوا في بادئ الأمر أن يتخلدوا لقب «ملك»، كما رفض الغنيريون الملكية ولم يرتضوا إلا بالإله ملكاً. ويرى بعض فقهاء اليهود أنه يمكن تعيين ملك كما فعل صموئيل إن هو اتبع التعاليم الدينية وقيل أن يقوم أحد الأنبياء بتعيينه. وفي التراث الديني اليهودي أن المشايح سيكون ملكاً من نسل داود.

وقد ساهمت الملكية في إضعاف النظام القبلي بإنشاء سلطة



حل محلها فيما بعد جنود الإمبراطورية الحاكمة : الفرس فالباطلة ثم السلوقيون والرومان .

٢ - صغار التجار وصغار المزارعين وصغار الكهنة .

٣ - الفلاحون المعدمون والعمال الموسميون والعبيد والجماعات الهامشية المختلفة .

ويمكن القول بأن ما يُقال له «الحزب الشعبي» كان يضم الطبقتين الثانية (الوسطى) والثالثة (الدنيا) ، وأن الطبقة الثرية هي الطبقة التي تحولت إلى جماعة وظيفية وسيطة تخدم المصالح الإمبراطورية وتسوس المجتمع العبراني لصالحها .

وقد ساد الحكم الملكي بين العبرانيين في المملكة المتحدة ثم في الملكتين الشمالية والجنوبية . ومع هجوم الآشوريين ثم البابليين ، تم أسر آخر ملوك العبرانيين . وبعد أن سمح قورش بعودة زعماء اليهود إلى فلسطين (٥٣٨ ق.م) ، قامت محاولة لتتويج زروبابل ملكاً ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ذلك لأن الفرس لم يقفوا وراءها مؤثرين التعاون مع الكهنة على التعاون مع الأرستقراطية العسكرية ويقايا أسرة داود الملكية . وقد ظهر بعد ذلك الحكم الكهنوتي حيث تقع معظم أدوات السلطة الدينية في يد السلطة الإمبراطورية الحاكمة وحيث يشرف الكاهن الأعظم وأثرياء اليهود على شئون اليهود الداخلية . وقد كان الرومان يطلقون لقب «ملك روماني (دوكس)» على بعض الحكام اليهود التابعين لهم مثل هيرودس ، ولكن هذا اللقب كان لقباً شرفياً محضاً ، وقد حجبه الرومان عن أولاد هيرودس .

#### شالاول (١٠٢٠-١٠٠٤ ق.م)

Saul

«شالاول» اسم عبري معناه «الذي سُئل من الإله» . وشالاول أول ملوك العبرانيين من قبيلة بنيامين . وقد توجه صموئيل ملكاً بعد أن طالبه الشعب بذلك . كان شالاول يسكن في خيمة ويعيش حياة شيخ قبيلة بدوي ، ولم يكن قوي الإرادة ، بل كان يميل في مزاجه إلى الكآبة والتوقع . وهو يمثل انتقال المجتمع العبراني من حكم القضاة إلى حكم الملوك العبرانيين ، ومن حالة البداوة إلى حالة الاستقرار والتتمدن والزراعة ، ولذا فقد كان أقرب إلى القائد العسكري منه إلى الملك .

لم تمتد حدود مملكته الصغيرة إلى أبعد من منطقة قبيلته (بنيامين) . ومع ذلك ، فإن انتخابه كان يعني الثورة ضد الفلسطينيين الذين هزمهم في بادئ الأمر . قام بحملات تاديبية ضد القبائل

مركزية وتنقسم الأرض إلى مناطق إدارية لا تتفق بالضرورة مع التقسيمات القبليّة السابقة ، حتى أصبحت القيادات القبليّة مسألة رمزية أو اسمية أو شكلية ليست لها وظيفة محددة . وقد قوّضت الملكية القيادة القبليّة بخلق طبقة من الموظفين الملكيين الذين يعتمدون على الملك ويديون له بالولاء خارج نطاق شبكة الولاء القبليّة . وكانت هذه الطبقة تضم الوزراء والمقاتلين والمدبرين والعمال في الضياع الملكية وطبقة الكهنة والملاويين . كما أن طبقة التجار ازدهرت بتأثير ظهور الملكية التي شجعت على التجارة كما شجعت على ظهور المهارات الحرفية المتخصصة . وظهرت كذلك طبقة كبار الملاك الذين كان الملك يقطع لهم ضياعاً كبيرة مكافأة لهم على خدمات قدموها له . وقد قُدِّر لهذه الطبقة أن تلعب دوراً كبيراً في تاريخ المملكة الشمالية اللاحق ، وخصوصاً تلك الشريحة التي كانت موجودة في شرق الأردن ولعبت دوراً حاسماً في الحقبة الأخيرة من تاريخ المملكة الشمالية ، على خلاف ما حدث في المملكة الجنوبية ، حيث لم تلعب هذه الطبقة دوراً كبيراً لضعفها ولعل هذا كان يعود إلى عدم وجود أراض زراعية كافية .

وقد أدّت هذه التحولات الإدارية والاجتماعية والطبقية إلى ضعف سلطة شيوخ القبائل في المدن وخارجها . ومع هذا ، فقد ظلت شبكة العلاقات القبليّة قوية . ولعل انقسام المملكة العبرانية المتحدة ، بعد موت سليمان مباشرة ، أكبر دليل على استمرار قوتها . وقد نجم عن ضعف النظام الطبقي القبلي والتقليدي ظهور طبقة العمال العبرانيين الموسمين وتحوّل العناصر المحلية الأصلية التي لم تندمج في المجتمع العبراني إلى ما يشبه العبيد . وكان هناك كذلك طبقة العبيد نفسها ، ولكن لا بد أن نشير إلى أن العبيد لم يكونوا طبقة مهمة لأن المجتمع العبراني لم يكن متقدماً بالقدر الذي يجعله يحتاج إلى أيد عاملة بشكل دائم ، كما أن المجتمع العبراني كان يسد حاجته المحدودة إلى العبيد عن طريق استعباد المذنبين أو العبرانيين الذين لم يسددوا ديونهم . ويمكن القول بأن المعالِم الأساسية لبناء المجتمع العبراني (واليهودي فيما بعد) قد تحدت في هذه الفترة ، كما ظل المجتمع محافظاً ببنيته الأساسية إلى أن اختفى في القرون الميلادية الأولى ، وقد كانت بنية ثلاثية تتكون أساساً مما يلي :

١ - الملك أو الكاهن الأعظم والنخبة الحاكمة التي كانت تتكون من الأثرياء وكبار الكهنة وكبار ملاك الأراضي وكبار التجار (والتجار الدوليين وملتزمي الضرائب فيما بعد) والأرستقراطية العسكرية التي

إلى بيت يعقوب وشريعة موسى وجمعها وقوعها تحت سيطرة الشعوب الأخرى في كنعان وخارجها .

٢ - ظهور آشور وبعدها بابل ، وكذلك استعادة مصر سيطرتها على حدودها الشرقية ومركزها في فلسطين وبدء حملات شيشنق التأديبية في فلسطين . ولذا ، فقد اختفى الفراغ في الشرق الأدنى القديم الذي سمح بظهور المملكة العبرانية المتحدة . أما الدولتان الصغيرتان اللتان حلّتا محلها ، فقد كانتا خاضعتين لتقلبات القوى الداخلية في كنعان والقوى الخارجية في بلاد الرافدين ومصر .

٣ - كانت الاختلافات الاجتماعية والدينية عميقة بين مجموعتي القبائل الشمالية والجنوبية . فالقبائل التي كانت تسكن الشمال كانت متندجة في بيئة زراعية وكانت أكثر تعرضاً للأثر الكنعاني ، وكانت تمارس عبادة الالهيم بطقوس مستمدة من العبادات الكنعانية ، وخصوصاً بمفهوم يعمل وعششروت . وقد اعتاد أعضاء هذه القبائل سكّتي البيوت المتّمتعة وتخلوا عن خشونة حياة البدو الرعي التي بدأوا بها . أما القبيلتان الجنوبيتان (يهودا وبنيامين) ، فكان أعضاءهما يعيشون حياة تقترب من حياة البدو ويعتمدون على الرعي في المرتفعات الصالحة لرعي الأغنام وسائر الأنعام ، كما كانوا يمارسون عبادتهم بأسلوب يسرائيلي قديم يتّسم بالقبليّة والتعصب .

ولكن ، حتى في فترة اتحاد القبائل في عصر داود وسليمان ، حيث كانت تُعتبر أكثر عهود العبرانيين رفاهيةً واستقراراً ، ظل الاقتصاد معتمداً بالدرجة الأولى على المعاملات المالية والضرائب وجزية الرؤوس ، حيث كان النشاط التجاري الداخلي محصوراً داخل نطاق ضيق جداً . أما الصناعة ، فقد كانت في حالة بدائية ومتخلفة عما كانت عليه في الدوليات المجاورة . وحتى قبل عهد سليمان بزمن قصير ، لم يكن معروفاً غير صناعتي الخبز والحديد البدائيتين . وكان هذا الوضع يدفع الأرستقراطية العبرانية ورجال الدين إلى استغلال العامة واتّباع أكبر قدر يمكن اتّباعه من مواردهم الضئيلة عن طريق الربا والإقراض والقرابين والهبات والصدقة ، الأمر الذي كان يؤدي إلى تركز الثروة في أيدي قلة . وقد حال هذا الوضع دون استطاعة العبرانيين بناء كيان مستقر ذي تقاليد سياسية ثابتة . وبعد ظهور الدولتين الشمالية والجنوبية ، لم يرق اقتصاد زراعي/صناعي في أي منهما ، بل ظل الاقتصاد ريوياً صيرفاً .

أما الأسباب المباشرة التي أدّت إلى انقسام المملكة فكانت متعددة ، فثمة أسباب سياسية متمثلة في الرغبة في الانفصال عن سطوة الهيكل في القدس أو في ممارسة حياة بعيدة عن الشيوخراطية ،

المعادية ، وحاول تطهير الدين من عوامل السحر التي استشرت فيه ، ولكنه اصطدم ، في نهاية الأمر ، بكل من صموئيل وداود .

ألحق به الفلسطينيون هزيمة نكراء بجوار جبل جليلوع ، وقتلوا ثلاثة من أولاده وأصابوه هو نفسه بجراح خطيرة فانتحر . ثم تم تتويج أحد أبناء شاؤول ملكاً على جزء من فلسطين لبعض الوقت ، لكن صموئيل توج داود محله . واسم «شاؤول» ليس مقصوراً على العبرانيين إذ أن أحد ملوك الأدوميين كان يُسمى بهذا الاسم .

## يونانسان

Jonathan

يونانسان هو ابن شاؤول البكر ، وكان قائداً لقوات العبرانيين في عهد أبيه . والاسم عبري معناه «يهوه أعطى» . وحينما شعر شاؤول بالغيرة المجنونة من داود قام يونانسان بحمايته ، بل لم يشعر بالخذن نحو داود حينما عرف أنه سيعتلي العرش . وقد قُتل في المعركة الأخيرة مع الفلسطينيين ورثاه داود . وتُصور إحدى المسرحيات الاسرائيلية الحديثة العلاقة بين يونانسان وداود كعلاقة شاذة .

## المملكة العبرانية المتحدة : ظهورها وانقسامها

United Hebrew Kingdom : Emergence and Division

المملكة المتحدة هي ، في واقع الأمر ، اتحاد القبائل العبرانية الذي سعى إليه شاؤول وأخذ شكل مملكة صغيرة أسسها شاؤول سُميت «مملكة إسرائيل» . ولكن الفضل الحقيقي في تأسيس المملكة يعود إلى داود ، وقد خلفه ابنه سليمان في حكمها . وقد تمكّن العبرانيون من تأسيس مملكتهم حوالي ١٠٢٠ ق.م بسبب الفراغ الذي نشأ في الشرق الأدنى القديم . فمصر كانت تتعرض آنذاك لضغط الليبيين من الغرب إلى أن قامت أسرة ملكية تتحد من أصل ليبي ، وكان الحيشيون مشغولين بصد الغزاة من البحر (شعوب البحر) ، ولم تكن بابل (العراق) قوة عظمى بعد ، كما كانت الدوليات الآرامية في صراع بعضها مع بعض . أما آشور ، فلم تكن قد بلغت بعد أوج عظمتها الإمبراطورية .

وبعد موت سليمان ، انقسمت المملكة العبرانية المتحدة إلى دولتين : المملكة الشمالية (يسرائيل -إفرايم) والمملكة الجنوبية (يهودا) ، وذلك لأسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة . ولنبداً بالأسباب غير المباشرة :

١ - لم يكن اتحاد القبائل العبرانية اتحاداً قومياً في صورة أمة وشعب وأرض وحضارة ، بل كان تجمعاً اتحادياً لقبائل متفرقة يجمعها نسبها

ثمانية أعوام من حكمه ، فتح داود يبيوس أو القدس وحوّلها إلى عاصمة لمملكته لأنها تتوسط وتسيطر على أهم الطرق الداخلية ، وبنى معبداً ليهوه أودع فيه تابوت العهد مؤكداً بهذا توحيد المملكة والقبائل العبرانية . وقد أصبح اللاويون الذراع الإدارية والتنفيذية للدولة ، فكان منهم رجال الشرطة والقضاة والكتبة . ثم أسس جيشاً محترفاً بعد تركيز السلطة في القدس ، وحارب الفلسطينيين حلفاءه السابقين والمؤابيين وآرام (سوريا) والعمونيين . وقد استمرت الحروب سجالاً بينه وبين قبائل المنطقة في أرض كنعان .

ومع أن داود ضم قطاعات واسعة من الأرض ووسع حدود مملكته وأبرم معاهدات مع صور وصيدا ، إلا أن مملكته لم تكن مع هذا مملكة بمعنى الكلمة إذا ما قورنت بالوحدات السياسية المماثلة في ذلك العصر .

ولا يمكن فهم الإنجازات العسكرية أو السياسية لداود إلا في إطار العلاقات الدولية القائمة حينذاك في الشرق الأدنى القديم ، إذ لم يكن من الممكن أن تحقق دولة صغيرة مثل هذا التوسع إلا في حالة غياب القوى العظمى في ذلك الوقت . ويتميز حكم داود بتحوّل القبائل العبرانية من الحياة القبلية الرعوية شبه الزراعية إلى حياة مستقرة نوعاً ما تتميز بوجود ملكيات كبيرة للأرض . ومع هذا ، لم يخلُ الأمر من متاعب داخلية ، مثل ثورة ابنه ضده وغضب الأنبياء عليه وهو ما يدل على أن النطم القبلي لم يكن قد فقد تأثيره بعد .

ويُصورُ داود كشاعر ومحارب وعاشق يرتكب الذنوب بسرعة غريبة ثم يندم عليها بالسرعة نفسها . وقصته التي ترويه التوراة أقرب ما تكون إلى قصة حياة زعيم مهجى منها إلى قصة حياة رئيس جماعة يدعو إلى ديانة متطورة أخلاقياً ، فقد نسبت التوراة إليه أنه اغتصب بثشبع زوجة أوريا الحيثي أحد رجاله العسكريين ، فقد رآها عارية وهي تستحم فذبح زوجها إلى الجبهة في الحرب مع العمونيين كي يموت وتبقى المرأة خالصة له . ولكن الإله ، برغم كل معاصي داود ، كان يصطفيه ويفخر له . ويُنسب إلى داود أحد أسفار العهد القديم (الزمير) .

وقد عقد الإله معه عهداً أزلياً مثل العهد الذي عقده مع إسرائيل ، ولذا سيكون الماشيخ المخلص «ملك إسرائيل» من نسله . ومع هذا ، نجد أنه لم يكن يهودياً خالصاً إذ أن جدته راعوث كانت مؤابية .

وتصوره الأجداه في صورة الملك الذي لا يمكن أن يتنازعه أحد في حقه ، كما تؤكد قدراته الجسدية الحارقة ، وأنه حجة في الشريعة يقرأ التوراة دائماً ، ولذا لم يستطع ملاك الموت أن يقبض روحه إلا

وثمة أسباب اقتصادية تمثلت في مشكلة الضرائب الباهظة التي فرضها سليمان . ولكل هذا ، حين اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة في القدس ليصنوا رجمان بن سليمان ملكاً ، أثبتت قضية الضرائب الباهظة التي فرضها أبوه ، ولكنه رفض تخفيضها . ولذلك ، رفضت القبائل العشر الاعتراف به ، وانتخبت يريعام من قبيلة إفرايم ملكاً عليها وكان الناطق بلسانها . وشكلت هذه القبائل مملكة إسرائيل الشمالية التي كانت عاصمتها شكيم أو لاثم ترصه ثم السامرة .

أما قبيلتا يهودا وبنيامين ، فقد ظلتا متمسكتين ببني داود ومصرتين على فرض السيطرة الدينية والسياسية على القبائل العبرانية كافة . واتسمت المملكة الجنوبية (يهودا) باليل إلى الانغلاق مع استمرار العداء قائمة بينها وبين المملكة الشمالية طوال تاريخهما ، وقد كانتا تتدخلان في تحالفات مع الدول المجاورة في صراعهما الواحدة ضد الأخرى .

داود (١٠٠٤-٩٦٥ ق.م)

David

«داود» اسم عبري معناها «محبوب» ، وداود هو ثاني ملوك العبرانيين ، ويرجع نسبه إلى إسحق بن إبراهيم . وُلد في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وتولّى العرش عام ١٠٠٤ ق.م حتى وفاته في عام ٩٦٥ ق.م ، وقد رُويت قصته في سفر صموئيل الثاني . وداود ، حسب العقيدة الإسلامية ، نبي وملك ، ولكنه حسب العقيدة اليهودي ملك وحسب . ويحيطه التراث اليهودي بحكايات تجعله يتصف بصفات غير محمودة .

كان داود راعياً وقاطع طريق ، عمل حامل دروع عند شاؤول ، وكان يعزف له ليُسرى عنه . وأظهر شجاعة غير عادية في قتال الفلسطينيين حينما صرع العلاق جليّات بالقلع ، ثم تزوج من ميكال ابنة الملك . ولكن شعبية داود أثارت غيرة الملك عليه ، فاضطر إلى الفرار والاحتماء بأعدائه . ولكن ، بعد هزيمة شاؤول على يد الفلسطينيين وانتحاره ، عاد داود إلى الخليل (حبرون) ، وتوجه صموئيل ملكاً ليهودا . ولكن أسرة شاؤول تزوّجت أحد أبنائه ملكاً . ونتيجة خسائر بقية القبائل في الحرب (ويقال بسبب مساعدة الفلسطينيين له) ونتيجة مجموعة من الاغتيالات السياسية دبرها قائد قوات داود ، انتهى الأمر باغتيال ابن شاؤول نفسه . ثم وجدت القبائل نفسها بدون ملك أو قواد حربيين ، فقبلته القبائل العبرانية كافة وضمنها قبائل الشمال ، فأسس المملكة العبرانية المتحدة . وبعد

استخدام السفن في البحر الأحمر ونقل البضائع . وبنى سليمان في عيصون جابر (إيلات) أسطولاً تجارياً بمساعدة الملك التاجر حيرام ملك صور الذي منه أيضاً بحارة عارفين بالبحر ، واستخدم هذا الطريق الحديد بدلاً من طريق مصر في تجارته مع بلاد العرب وأفريقيا . وقام سليمان ببناء الهيكل وبنى قصره الملكي في القدس . وقد قامت ملكة سبأ بزيارته للذبيح صيته ، حسب الرواية التوراتية .

وبشكل عام ، نعمت مملكته بالسلام لأسباب كثيرة من بينها الحلف الذي عقده أبوه مع الفينيقين ، والتحالفات التي عقدها هو مع الدويلات المجاورة . وقد تمتعت المملكة بحالة من الاستقرار والاستقلال النسبيين بسبب حالة الفراغ السياسي التي عاشتها المنطقة في تلك الفترة نتيجة انكماش كل القوى الإمبراطورية فيها أو غيابها لسبب أو آخر . ولكن ، لا ينبغي مع ذلك أن نظن أن دولة سليمان كانت دولة عظمى ، فاقصداها كان محدوداً ، ونشاطها التجاري الداخلي كان محصوراً في نطاق ضيق جداً ، وكانت الصناعة بدائية ومتخلفة .

جمع سليمان عدداً كبيراً من الزوجات والسراري يصل إلى الألف (ملوك أول ١١/٣) من الأجناس كافة ، منهن الفينيقيات والموابيات والعمونيات والحيشيات والمصريات . وبنى بتأثيرهن منصات عبادة قرب القدس لعبادة إله صيدا ومواب وعمون (ملوك أول ١١/٥ - ٨) . وازداد اندماج العبرانيين في عهده مع الشعوب والقبائل المحيطة بهم في فلسطين واتخذوا مظاهر العبادات الكنعانية المختلفة الأمر الذي ابتعد بالدين عن جوهر ديانة موسى ، وأدى ذلك فيما بعد إلى ظهور الحركة الاجتماعية للأتبياء . وتذكر التوراة أن سليمان صاهر فرعون ، ملك مصر ، وتزوج ابنته (ملوك أول ٣/١) ، وقد حصل على مدينة جيزر (بالقرب من القدس) ، وكانت تابعة لمصر ، مهر الزواجه ، وهذا هو التوسع الوحيد الذي أنجزه سليمان . ويبدو أن هبة ملوك مصر في تلك الحقبة كانت قد هبطت حتى ارتقت مصر أن يتزوج ملك صغير الشأن كسليمان من إحدى أميراتها .

وفي أواخر حكم سليمان ، حذر الملك الآرامي رزين نفسه ومملكته منه ، كما بدأ الأدموميون في إزعاجه ، بل بدأت تظهر مشاكل داخلية حادة بسبب حالة الاستقطاب الطبقي والضرائب الثقيلة التي فرضها لتمويل أعمال البناء والسخرة اللازمة لتنفيذها . وقد أدى ذلك إلى سحق قبائل الشمال ، فأنحل اتحاد القبائل العبرانية بعد وفاته وانقسمت المملكة إلى مملكتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . واستولى شيشنق ، أول فراعنة الأسرة الثانية

بالجوء إلى الخديعة . وقد حاول الخاضعات أن يبينوا له أنه يرتكب أيماً من الذنوب التي ورد ذكرها في العهد القديم . أما في القبّالاه ، فإنه يُقرن بالتجلي التوراتي العاشر ويتمسم بصفات «الملوكوت» . ويوجد إلى جوار داود الدنيوي داود الأعلى أو داود الآخر ، وهو قرين داود الدنيوي ، والذي يقود سكان العالم العلوي ، ولذا فهو الشغيتاه . كما أن داود هو القدم الرابعة للمركبة الإلهية ، وبشكل الآباء الثلاثة الأقدم الأخرى . وتفسر القبّالاه قتله أوربا الحيشي بأنه رمز لقتل الشعبان ، وداود تجسيد للإنسان الأول (آدم) . أما كونه مولوداً لأوابية ، فقد فُسر بأنه مثل نزول الماشيح إلى عالم الظلمة وفي الهوة وغوصه في الجانب المظلم حتى يمكنه أن يتغلب على قوى الشر .

ويجب كثير من الصهانية والإسرائيليين أن يُشخصوا دولة إسرائيل بأنها داود الصغير الذي سريع الحركة ، والذي يهزم جليات البطل الفلسطيني المدجج بالسلاح (والذي يُقرن بالعرب) عن طريق استخدام القلاع . وهذه هي صورة الصراع العربي الإسرائيلي كما رسخت في الوجدان الغربي . ولعل لأخلاقية داود ، وتحوّله من قاطع طريق إلى راع ثم إلى ملك وشاعر ومحب ، تجعله إنساناً عصرياً ليست لديه هموم أخلاقية وقادراً على التكيف مع كل الظروف . وبعد الانتفاضة ، واستخدام الفلسطينيين العزل الحجارة ضد آلة الحرب الإسرائيلية المتفوقة ، أعيدت صياغة الرموز وأصبح الفلسطينيون هم داود وأصبحت الدولة الصهيونية هي جليات .

سليمان (٩٦٥-٩٢٨ ق.م)

Solomon

«سليمان» اسم عبري معناه «رجل سلام» . ويبدو أن هذا هو الاسم الملكي الذي اتخذته يديديا ابن داود بعد اعتلائه العرش . وكلمة «يديديا» معناها «أثير ليهوه» أو «خليل الرب» . ويُعتبر سليمان عند اليهود ملكاً وليس نبياً ، وهو ثالث ملوك العبرانيين ، ابن داود من بنشبع . حكم اتحاد القبائل العبرانية المسمى «المملكة العبرانية المتحدة» قبل وفاة أبيه بسبب احتمال أمه بمساعدة النبي ناثان . وقد بدأ سليمان حكمه ، فيما روت التوراة ، بحمام دم استهله بقتل أخيه إدونيا بعد أن خضع له ، كما ذبح أفراداً آخرين كانوا يمثلون خطورة عليه مثل يواب رئيس جيش أبيه (ولكن عمله هذا لم يُغضب يهوه كثيراً) ، كما أنه عزل أيتبار الكاهن .

وقد تحوّل القدس في عهده إلى مدينة تجارية بسبب ازدهار التجارة التي قامت على الاتصالات بالشعوب المحيطة وعلى

والعشرين ، على القدس ونهب معظم ما فيها من كنوز (ملوك أول  
٢٥ / ١٤ .

ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان  
التي توردها أسفار الملوك والأيام ، ويقولون إن التحيز القومي لدى

كُتَّاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى الإضافة والمغالاة في القصة .  
وهو يُعدُّ حسب فلكلور الماسونية مؤسس أول محفل ماسوني في  
العالم باعتباره باني الهيكل . وتُنسَب إليه بعض كتب العهد القديم ،  
كالأمثال ونشيد الأنشاد وبعض المزامير . . . إلخ .



## المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية

المملكة الجنوبية (يهودا) - المملكة الشمالية (يسرائيل / إفرايم) - يُرْبَعَام الأول - رُحْبَعَام - آسَا - عمري - آخَاب - إيزابيل - يهوشافاط - آحزيا - ياهو - يوأش - يوأش - يُرْبَعَام الثاني - هوشع - آحاز - حزقيا - مَنَسَّى - يوشيا - يهوياقيم - يهوياكين - صدقياه

## المملكة الجنوبية (يهودا)

Southern Kingdom (Judah)

التاريخية في المجلد الأول). غير أن هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وتُلت بعد زوال المملكة الشمالية. وأول ملوكها رُحْبَعَام بن سليمان من زوجته العمونية الذي حكم من ٩٢٨ إلى ٩١١ ق.م. وقد غزا شيشنق فرعون مصر الليبي مملكته عام ٩١٨ ق.م. (مثلما غزا مملكة الفلسطينيين وأدوم) وحمل معه كنوز الهيكل والقصر غنائم. ويذكر شيشنق في قائمة الكرنك مائة وخمسين مكاناً استولى عليها. ويبدو أن شيشنق قام أثناء حملة تأديب يهودا بغزو المملكة الشمالية كذلك. واعتلى الملك إيبام (٩١١ - ٩٠٨ ق.م) العرش ودخل في حرب طويلة مع يُرْبَعَام ملك المملكة الشمالية وهزمه. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه انتصر، فقد كان على اتصال بأرام دمشق التي زادت قوتها بعد أن استقلت عن سليمان وأبرمت معه معاهدة ضد يُرْبَعَام. ومنذ هذه اللحظة، أصبحت آرام دمشق عنصراً أساسياً في العلاقة بين الملكين والمستفيد الأكبر من الصراع بينهما. واستمر آسَا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م) في هذه الحرب من بعده، ولكنه اضطر هو أيضاً إلى طلب الحون من آرام دمشق لكي يوقف الغزو الشمالي لمملكته، وقام بتحسين المدن على الحدود بين الملكين، وهذا ينهض دليلاً على أن الأمل الذي راود حكام المملكة الجنوبية باستعادة المملكة الشمالية وإعادة المملكة المتحدة كان قد انتهى. وقد وجد آسَا العلاقات التجارية مع صور والمدن الفلستية الأمر الذي أدّى إلى دخول العبادات الوثنية، ولكن يبدو مع هذا أن آسَا قد بذل قصارى جهده للحفاظ على استقلاله السياسي وعلى نقاء عبادة يهوه.

ثم اعتلى يهوشافاط العرش عام ٨٦٧ ق.م.، واستمر حكمه حتى عام ٨٤٦ ق.م. ووقّعت أول معاهدة سلام بين ملوك المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية في عهد آخَاب. وعلى عادة الملوك في العصور القديمة، زوّج يهوشافاط ابنه يورام من عثليا ابنة آخَاب ملك المملكة الشمالية، وكانهما ملكان لأمتين مختلفتين تمام الاختلاف. وقد عقد يهوشافاط تحالفاً عسكرياً مع آخَاب ضد مملكة

بعد موت سليمان عام ٩٢٨ ق.م. وانقسام اتحاد القبائل العبرانية (المملكة العبرانية المتحدة) إلى مملكتين، سُميت المملكة الجنوبية «يهودا» لأنها ضمت قبيلتي يهودا (التي كانت دائماً في علاقة واهية مع بقية العبرانيين) وبنيامين، وهما القبيلتان اللتان بايعتا رُحْبَعَام بن سليمان ملكاً، في حين بايعت القبائل العشر الباقية يُرْبَعَام ملكاً على الجزء الشمالي الذي سُمي باسم «مملكة يسرائيل» أو «المملكة الشمالية». كانت القدس عاصمة مملكة يهودا التي تقع على البحر الميت. ولم يكن لهذه المملكة ساحل على البحر الأبيض، إذ كان الفلسطينيون يشغلون الجزء الجنوبي من الشريط الساحلي (غزة وأشدود والمجدل ويافا والمنطقة التي تقع فيها الآن مدينة تل أبيب). وقد كانت المملكة الجنوبية أكثر استقراراً من الشمالية، وذلك نظراً لصغر حجمها إذ بلغ تُلك المملكة الشمالية، ولقلة أهميتها وبعدها عن طرق الجيوش الغازية، وفقرها وبدائية اقتصادها، وهذا ما جعلها بمنأى عن الاضطرابات الداخلية والغزوات الخارجية التي قضت على المملكة الشمالية. ولكل هذا أيضاً، قُدِّر لها البقاء مدة أطول. ومع هذا، فقد ظهر في المملكة الجنوبية مُعظم الأنبياء ودُوِّن فيها معظم العهد القديم، كما احتفظت فيها ديانة يهوه بدرجة أكبر من النقاء، وإن كانت قد دخلت عليها عناصر وثنية بدأت منذ عهد سليمان حين تزوج وثنيات (حسب الرواية التوراتية).

وكانت المملكة الجنوبية، مثل الشمالية، خاضعة إما للنفوذ المصري أو للنفوذ الآشوري، كما أنها لم تكن قط مملكة قوية بل قضت معظم تاريخها في الدفاع عن نفسها أو في التحالف مع إحدى القوى العظمى أو في الاستفادة من الصراعات الناشئة بين القوى العظمى في المنطقة أو من الضعف المؤقت الذي كان يصيب بعضها أحياناً.

وقد شغل عرش يهودا تسعة عشر ملكاً (راجع الجداول

أرام دمشق ولكنهما أخفقا في تحقيق الهدف من التحالف . وكان الإخفاق من نصيبه مرة أخرى حين عقد تحالفاً مع ابن أخاب ضد ميشع ملك مواب . ويُقال إن المملكة الجنوبية انضمت إلى جانب المملكة الشمالية في معركة قرقار . وقد حاول يهوذاشافاط أن يعيد تجارة يهودا البحرية فسانده الفينيقيون في بناء أسطول بحري غرق في عصبون جابر (إيلات) قبل أن يبحر .

وحينما اعتلى يورام عرش المملكة الجنوبية من بعده (٨٤٦) - ٨٤٣ ق.م) ، بدأ حكمه بقتل جميع إخوته وعدد كبير من الأعيان حتى يأمن التأم على عرشه . وقد أدخل عبادة بعل تحت تأثير زوجته عثليا ابنة أخاب التي حاولت أيضاً أن تُغيّر أسلوب الحياة في البلاط . ويبدو أنها حاولت أن تزيد اعتماد المملكة الجنوبية على الشمالية ، وفي عهده ثار الأديوميون واستقلوا ، كما غزا الفلسطينيون والكوشيون مملكته وحملوا الكثير من الغنائم من القدس وأسروا أعضاء الأسرة المالكة ما عدا أحزيا (٨٤٣ - ٨٤٢ ق.م) حفيد أخاب الذي كان من عبدة بعل مثل أمه وانضم إلى عمه يورام ، ملك المملكة الشمالية (٨٥١ - ٨٤٢ ق.م) ، حيث خاض معركة ضد ملك سوريا الأرامي . وعندما جرح يورام ، قام أحازيا بزيارته فلقى كلاهما مصرعه على يد ياهو .

وقد أصبحت القوة الآشورية عنصراً أساسياً في السياسة الداخلية للمملكة الجنوبية . فبعد أن اعتلى يوثام العرش (٧٥٨ - ٧٤٣ ق.م) (ويبدو أنه اعتلى العرش وحكم بعض الوقت تحت رعاية أبيه) بدأت الضغوط على المملكة الجنوبية للانضمام إلى الحلف المعادي للآشوريين ، ولكنه قاومها . وقد ظهر النبي ميخا في عهده . وقامت كلٌّ من المملكة الشمالية وأرام بمهاجمة المملكة الجنوبية في عهد الملك آحاز (٧٣٣ - ٧٢٧ ق.م) حينما رفض الأخير الانضمام إلى الحلف المعادي لآشور ، فطلب الملك العون من تيجلات بلसर الذي قام بغزو سوريا والمملكة الشمالية عام ٧٣٣ ق.م فأخضعهما وقضى على حكم المملكة الشمالية . أما المملكة الجنوبية ، فقد دفعت الجزية له ، وهو ما ضمن لها الاستمرار . وقد نتج عن ذلك أيضاً تبعية دينية لآشور إذ شيد آحاز مراكز للمعبادة الآشورية . وقد اقتحم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبي مملكته ، كما هاجمه الأديوميون . واستمرت نبوءة أشعيا وميخا في عصر آحاز ، وكان أشعيا ضد التحالف مع آشور .

ومع زوال المملكة الشمالية ، أصبحت المملكة الجنوبية معرضة بشكل مباشر للنفوذ الآشوري ، وتنازع سياستها الداخلية حزبان : أحدهما آشوري والآخر مصري . وقد بدأ حزقيا (٧٢٧ - ٦٩٨ ق.م) عهده بممالة آشور والخضوع لها ، الأمر الذي ضمن له فترة من الهدوء النسبي ، ولكنه نحا بعد ذلك منحىً استقلالياً أو معادياً لآشور بتشجيع من مصر . وقد أخذ هذا الاتجاه شكل تطهير الدين من النفوذ الآشوري ، ومن المعابد والمذابح والوثنيين . وقد أيد النبي أشعيا الذي كان له نفوذ كبير في المملكة هذه الإصلاحات . ثم تحالف حزقيا مع المدن الفلسطينية المجاورة وغير ذلك من الدويلات

أرام دمشق ولكنهما أخفقا في تحقيق الهدف من التحالف . وكان الإخفاق من نصيبه مرة أخرى حين عقد تحالفاً مع ابن أخاب ضد ميشع ملك مواب . ويُقال إن المملكة الجنوبية انضمت إلى جانب المملكة الشمالية في معركة قرقار . وقد حاول يهوذاشافاط أن يعيد تجارة يهودا البحرية فسانده الفينيقيون في بناء أسطول بحري غرق في عصبون جابر (إيلات) قبل أن يبحر .

وحينما اعتلى يورام عرش المملكة الجنوبية من بعده (٨٤٦) - ٨٤٣ ق.م) ، بدأ حكمه بقتل جميع إخوته وعدد كبير من الأعيان حتى يأمن التأم على عرشه . وقد أدخل عبادة بعل تحت تأثير زوجته عثليا ابنة أخاب التي حاولت أيضاً أن تُغيّر أسلوب الحياة في البلاط . ويبدو أنها حاولت أن تزيد اعتماد المملكة الجنوبية على الشمالية ، وفي عهده ثار الأديوميون واستقلوا ، كما غزا الفلسطينيون والكوشيون مملكته وحملوا الكثير من الغنائم من القدس وأسروا أعضاء الأسرة المالكة ما عدا أحزيا (٨٤٣ - ٨٤٢ ق.م) حفيد أخاب الذي كان من عبدة بعل مثل أمه وانضم إلى عمه يورام ، ملك المملكة الشمالية (٨٥١ - ٨٤٢ ق.م) ، حيث خاض معركة ضد ملك سوريا الأرامي . وعندما جرح يورام ، قام أحازيا بزيارته فلقى كلاهما مصرعه على يد ياهو .

وقد حكمت الملكة عثليا المملكة بعد مقتل ابنها (٨٤٢ - ٨٣٦ ق.م) ، فأبادت أعضاء الأسرة المالكة كلهم إلا حفيدها يواش الذي أنقذته عمته زوجة الكاهن الأعظم وخباته في المعبد . وحينما لقيت هي مصرعها في النهاية ، بأمر من الكاهن الأعظم ، اعتلى يواش العرش (٨٣٦ - ٧٩٨ ق.م) وأعاد عبادة الهيكل لبعض الوقت ، ولكن يبدو أنه لم يستمر في ذلك طويلاً . وقد غزا ملك آرام دمشق المملكة الجنوبية في عصره ، فاضطر يواش إلى دفع جزية كبيرة أخذت من أموال الهيكل ، وهو ما ولّد توتراً بينه وبين الكهنة . وبعد اغتياله ، اعتلى ابنه إمصيا (٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م) العرش . وحاول إمصيا أن يُخضع أدمون عن طريق جيش من الجنود المرتزقة الذين أحضرهم من المملكة الشمالية ، ولكنه اضطر إلى تسريحه ، ثم حاول تجنيد جيش من مملكته ولكنه فشل في مسعاه . ثم نشبت الخلافات بينه وبين المملكة الشمالية ، فهزمه يواش ملكها ودخل القدس ونهب الهيكل وكنوز القصر ووَعَّ عقوبات اقتصادية على أهلها وأخذ معه رهائن ، وأصبح إمصيا تابعاً للمملكة الشمالية ، وانتهى حكمه بثورة عليه انتهت بقتله .

ومن أهم ملوك المملكة الجنوبية عزّيا (٧٦٩ - ٧٣٣ ق.م) الذي دام حكمه فترة طويلة إذ توقفت القوة الآشورية عن التدخل في

المدن وقام بتمرد ضد آشور عام ٧٢٢ ق.م. ولذلك ، قام سرجون الثاني بإرسال حملة تأديبية استولت على المدن الفلسطينية ، ولكنها لم تدخل أدم أو يهودا أو مؤاب . وبعد موته عام ٧٠٥ ق.م ، قاد حزقيا ، بنشجيع من مصر وبابل ، حلفاً يضم أدم ومؤاب وصيدا والمدن الفلسطينية . فقام سنحاريب (خلف سرجون) بغزو المملكة الجنوبية في عام ٧٠١ ق.م ، واستولى على كثير من المدن ، وهزم القوة المصرية التي أرسلت لمساعدة المملكة الجنوبية ، ولكن جيشه رفع الحصار (ربما بسبب حدوث خلافات داخلية في آشور) دون أن تسقط القدس . وقد سُحِح حزقيا بالاحتفاظ بعرشه على أن يدفع الجزية ويتنازل عن ثلاث وأربعين مدينة .

وقد دفع ابنه منسى (٦٩٨ - ٦٤٢ ق.م) الجزية أيضاً ، فعاشت مملكته في سلام مدة نصف قرن تحت نفوذ آشور التي كانت تشهد آنذاك آخر أعوام حكامها العظام . ونجم عن ذلك أن جميع الآلهة الأجنبية (مثل بعل) كانت تُعبد في الهيكل . ولذا ، يُعد عهد منسى من أسوأ العهود من وجهة النظر الدينية . وبعد أن قُتل ابنه آمنو (٦٤١ - ٦٤٠ ق.م) ، بسبب خضوعه الكامل للنفوذ وللعبادة الآشورية ، اعتلى يوشيا العرش (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) وهو بعد في الثامنة . وأخذت الدولة الآشورية في الضعف ، الأمر الذي ساعد على ظهور حركة استقلالية جديدة أخذت شكل إصلاح ديني أيده الأنبياء المعاصرون مثل إرميا . وأثناء إصلاح الهيكل ، عثر الكاهن الأعظم على كتاب الشريعة الذي يُقال إنه جزء من سفر التثنية ، فدعا الملك الشعب إلى اجتماع وعقد ميثاقاً مع الرب . وأزال الملك الأماكن المرتفعة التي تُعبد فيها الآلهة الأخرى (الإصلاح التثني) ، وركز العبادة في القدس . وقد حاول يوشيا ، عام ٦٠٨ ق.م ، أن يُوقف مرور الجيش المصري بقيادة الفرعون نخاو الذي كان يتحرك لمساعدة آشور ضد بابل ولكنه هُزم وقُتل في معركة مجدو . واعتلى يوحاز العرش ، ولكن نخاو خلمه بعد ثلاثة أشهر من الحكم وقبض عليه .

أما خلفه يهوياقيم (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م) الذي عيَّنه المصريون على عرشه ، فقد ظل تابِعاً لهم مدة ثلاثة أعوام . ولكن ، مع هزيمة المصريين على يد البابليين في معركة قرقميش (عام ٦٠٥ ق.م) ، أصبح يهوياقيم تابعاً لبابل . ولكنه انضم عام ٦٠١ ق.م إلى الحزب المالئ لمصر في المملكة الجنوبية ضد نصيحة إرميا ، وتحلَّى نبوختنصر ملك الدولة البابلية الذي كانت جيوشه قد ألحقت الهزيمة بنخاو عام ٦٠٥ ق.م ووصلت إلى فلسطين ، وتم تهجير بعض سكان يهودا إلى بابل . بل يبدو أن الجيوش البابلية وصلت إلى القدس عام

٦٠٣ ق.م . وكان يهوياقيم خاضعاً لبابل مع احتفاظه بالعلاقات مع مصر التي شجعت ووعده بتقديم المساعدة . وحينما تمتعت مصر بازدهار مؤقت وهزمت نبوختنصر ، تمردَّ يهوياقيم على بابل . وكان النبي إرميا ضد الحلف الجديد مع مصر ، وبيَّن أن الخلاص الوحيد يكمن في الخضوع لبابل . وحينما قام نبوختنصر بفرض الحصار على القدس ، لم تصل الإمدادات الموعودة من مصر ، ومات يهوياقيم أثناء الحصار عام ٥٩٨ ق.م ، فاعتلى ابنه يهوياكين العرش مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام قبل أن يستسلم لنبوختنصر ، وسقطت القدس ونُفي الملك إلى بابل .

ولكن نبوختنصر عيَّن أحد أبناء يوشيا (صديقاها) ملكاً على يهودا من عام ٥٩٧ إلى عام ٥٨٧ ق.م ، فنتظاهر بالولاء للقوة الجديدة . ولكنه في العام التاسع من حكمه ، تحالف مع المصريين وحاول الاستقلال عن بابل وانضم إلى التمرد الذي ضم فينيقيا وشرق الأردن وكل فلسطين ، وذلك بنشجيع من مصر التي أرسلت قوة لمساعدة يهودا . ولكن القوة المصرية هُزمت ، وباعت محاولة الاستقلال بالفشل ودُمِّرت القدس ومدن المملكة الجنوبية كلها وهُجرت النخبة إلى بابل . ثم أصبحت سوريا كلها مستقرة في قبضة الإمبراطورية البابلية الجديدة (تحالف الكلدانيين والحواريين) . وقد عيَّن جيداليا حاكماً على ما تبقى من فقراء العبرانيين في الغرب ، ولكنه اغتيل بعد عدة شهور . وقُتل بعض الجنود البابليين فخاف العبرانيون من انتقام البابليين ، وهاجرت جماعات كبيرة منهم إلى مصر واستوطنتها . وتحولت المملكة الجنوبية إلى وحدة إدارية تابعة لبابل .

#### المملكة الشمالية (يسرائيل - إفرائيم)

Northern Kingdom (Ysrael; Ephraim)

بعد موت سليمان عام ٩٢٨ ق.م وانقسام اتحاد القبائل العبرانية (المملكة العبرانية المتحدة) ، أُطلق اسم «يسرائيل» أو «إفرام» على المملكة الشمالية ، كما كانت تُسمَّى أحياناً «السامرة» نسبة إلى عاصمتها . وكانت تقع حسب الرواية التوراتية والمدونات التاريخية على بحيرة طبرية ، وتضم نهر الأردن والصفى الغربية ومنها نابلس وأجزاء من الصفى الشرقية والجليل . وكان لهذه الدولة على خلاف المملكة الجنوبية ، شريط ساحلي . كما أن مساحتها كانت تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة المملكة الجنوبية . وكانت قبيلة إفرام من أهم قبائل هذه المملكة وجاء منها معظم ملوك المملكة ، ولهذا سُمِّي اتحاد هذه القبائل باسمها . وبدأ تاريخ المملكة الشمالية حينما بايعت القبائل



الذين كانوا يشكلون جزءاً من المملكة العبرانية المتحدة ومن إدارتها . وخاض يُريعام حرباً دائمة مع المملكة الجنوبية التي رفضت الاعتراف بالتقسيم . ويبدو أن شيشنق قام بغزو المملكة الشمالية (ربما بعد موت يُريعام) رغم أن عداءه كان موجهاً أساساً ضد المملكة الجنوبية .

وتاريخ المملكة الشمالية بعد ذلك تاريخ اضطرابات وعنف وتحالفات مؤقتة . فبعد موت يُريعام الأول الذي تميّز حكمه بالاستقرار ، اعتلى ابنه ناداب العرش (٩٠٧ - ٩٠٦ ق.م) ، ولكنه اغتيل هو وبقيّة أعضاء أسرته أثناء حربه ضد الفلسطينيين على يد منافسه بعشا (٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م) من قبيلة يَسَّار الذي أنهى حكم قبيلة إفرايم وأبّرم تحالفاً مع بن هدد الأول ملك آرام فحارباً معاً ضد المملكة الجنوبية . وحينما غيّر بن هدد موقفه وتخلّى عن تحالفه ، هُزم بعشا وتنازل عن جزء من أراضيه . واعتلى ابنه إيلا العرش (٨٨٣ - ٨٨٢ ق.م) ، لكن زمري ، قائد عرباته العسكرية ، قتله وهو يحاصر إحدى المدن الفلسطينية وحلّ محله (٨٨٢ ق.م) .

ولم يدم حكم زمري طويلاً لأن الجيش انتخب عمري (٨٨٢ - ٨٧١ ق.م) ملكاً وحاصر العاصمة ، وهذا ما اضطر زمري إلى أن يضرع النار في نفسه وفي قصره بعد أن حكم لمدة عام واحد . ولكن عمري لم يُحكم قبضته على المملكة إلا بعد ست سنوات من الحرب الأهلية ضد تبني بن جينه الذي أعلن نفسه ملكاً . وقد جعل عمري من السامرة عاصمة لمملكته ، وابنتى فيها لنفسه قصرأ . وقد كان الخوف من القوة الآرامية وسقوطها العنصر الأساسي في السياسة الخارجية عند عمري في تلك الفترة . ويبدو أن الضغوط الآرامية كانت قوية إلى درجة أن المملكة اضطرت إلى منح الدول/المدن الآرامية الحق في فتح وكالات تجارية في السامرة وكذلك إعطائها امتيازات خاصة . ولعادلة هذا الموقف ، قام عمري بتقوية علاقاته مع الفينيقيين (صور وصيدا) ، فزوّج ابنه من إيزابيل ابنة ملك صيدا ، لتدعيم التحالف على عادة الملوك القدماء . وقد أتاح هذا التحالف الفرص التجارية أمام المملكة الشمالية حتى إنها نجحت في إقامة علاقات تجارية مع قبرص . وقد كان لهذا التحالف أعمق الأثر في الحياة الدينية في المملكة إذ أن العبادات الوثنية في صيدا كانت قد انتشرت بين الطبقات الثرية . وقد حاول عمري إقناع المملكة الجنوبية بالانضمام إلى محور صيدا - السامرة . ونظراً للسلام المؤقت الذي تمتعت به المملكة الشمالية ، نجح عمري في استعادة الهيمنة على المؤابيين ، وقام بحركة عمرانية قوية ، وأحاط العاصمة بعدد كبير من التحصينات ، وقد تمتعت المملكة بدرجة لا بأس بها من الازدهار حتى أن الآشوريين كانوا يُعرفون المملكة الشمالية باسم «مملكة عمري» .

العبرانية العشر يُريعام ملكاً ، رافضة إعطاء البيعة لرُبعام بن سليمان الذي نُصّب ملكاً على قبيلتي الجنوب في اتحادهما المُسمّى «المملكة الجنوبية» .

كانت المملكة الشمالية أكثر أهمية من الناحية السياسية والاقتصادية . ومع هذا ، كانت تنازعاتها الخصومات إذ لم يكن لها مركز ديني قوي مثل القدس ، ولم تكن عبادة يهوه القومية راسخة فيها . وقد كانت الأسرة الحاكمة فيها لا تتمتع بشرعية قومية دينية مثل أسرة داود . كما كانت أكثر تعرضاً للغزو الخارجي من المملكة الجنوبية ، ولم يكن للملكها سياسة خارجية واضحة . وكانت مكونة من عناصر قبلية كثيرة غير متجانسة إذ كانت تضم عشر قبائل في مقابل قبيلتين في المملكة الجنوبية . ولكل هذا ، مجد أنها في فترة لا تزيد على ثلاثة قرون وعشر سنوات ، حكمها تسعة عشر ملكاً يتسمون إلى تسع أسر ، مات منهم عشرة عن طريق العنف وحكم سبعة فترة أقل من سنتين . ولم تتمتع المملكة بأي استقرار إلا لفترة وجيزة (٨٨٧ - ٧٤٣ ق.م) .

وسعى رؤساء القبائل الشمالية إلى التهورين من شأن القدس وهيكلها حتى من الناحية الدينية ، واستعاضوا عن ذلك بتأسيس معابد محلية لممارسة شعائر الدين متأثرين في ذلك بنظام العبادات الكنعانية الذي يتسم بعدم مركزية مقرر الإله . كما أقيم في السامرة معبد لبنافس الهيكل فيحج إليه الشماليون ، وخصوصاً بعد أن منعهم الجنوبيون أنفسهم من الحج إلى القدس ، كما أسسوا أماكن مقدّسة محلية في دان وبيت إيل .

وأول ملوك المملكة الشمالية يُريعام الأول (٩٢٨ - ٩٠٧ ق.م) من قبيلة إفرايم القوية . وكان من المشرفين على أعمال السخرة في عهد سليمان ، لكنه قاد الثورة ضده بسبب ضرائبه ومطالبه التي أثقلت كاهل الناس . وحينما فشل التمرد ، فرأى مصر حيث لجأ إلى شيشنق فرعون مصر الليبي (الأسرة ٢٢) . وبعد موت سليمان ، ترأس الوفد الذي أرسلته قبائل الشمال ليقابل رُبعام مطالباً بتعديل نظام الضرائب والسخرة . وعندما رُفض الطلب ، أعلنت قبائل الشمال استقلالها وتوجّبت يُريعام ملكاً . ويبدو أن رُبعام لم يتمكن من ضرب المملكة الجديدة خوفاً من تهديد شيشنق الذي كان يهجمه القضاء على مملكة سليمان . واتخذت المملكة من شكيم عاصمة لها ، لكنها نقلت بعد ذلك إلى بنوتيل عبر الأردن ، وأخيراً إلى ترصه . وقد أسس يُريعام معبداً في بيت إيل ودان ، وجعل رمز الديانة العجول الذهبية . كما غيّر يُريعام موعد الأعياد حتى يوحد حججاج مملكته عن الذهاب إلى القدس ، وطرده اللاويين

دويلة . وقد انحسر المد الآرامي بعض الشيء بوصول حملة تأديبية آشورية بقيادة أدادنراري الثالث الذي تشير إليه المصادر التوراتية باعتباره المخلص (ملوك ثاني ١٣/ ٥) . ويبدو أن يوحنا دفع الجزية ، مثل يهو ، للملك الآشوري . وانتهز يواش (٨٠٠ - ٧٨٤ ق.م) فرصة ضعف آرام بعد هزيمتها على يد الآشوريين ، واستعاد بعض المدن التي كان قد فقدتها . وحينما حاول ملك المملكة الجنوبية أن يتخلص من الهيمنة الشمالية ، استولى يواش على القدس ، ونهب الهيكل والكنوز الملكية ، وحوّل المملكة الجنوبية مرة أخرى إلى مملكة تابعة . وقد أتى ذكر يواش ، في أحد النقوش الآشورية ، باعتباره أنه كان يدفع الجزية لملك آشور . ووصلت المملكة إلى قمة ازدهارها الاقتصادي والعسكري والسياسي أثناء حكم يُربعام الثاني (٧٨٤ - ٧٤٨ ق.م) إذ تمتعت بشيء من الاستقلال نظراً لضعف الآشوريين النسبي . وانتهز يُربعام الثاني فرصة هزيمة آرام على يد الآشوريين ، فاستعاد كل الأراضي التي استولت عليها آرام من قبل بل ضم بعض المدن الآرامية ، فانتسعت رقعة مملكته . كما أقام يُربعام الثاني مستعمرات في شرق الأردن ، وأقطع ضباطه وأتباعه رقعا كبيرة من الأرض ، وقام بحركة بناء واسعة النطاق . وقد أتى كل ذلك إلى نشوء طبقة ذات نفوذ كبير من الملك الأثرياء . وتغيّر حكمه بالفساد الداخلي والانحلال الخلقي ، وهو ما دفع النبيين عاموس وهوشع إلى الهجوم عليه واستنكار أفعاله . وسادت فترة من الاضطرابات اتّسمت بالصراع الطبقي ولعب فيها ملاك الأراضي في شرق الأردن دوراً كبيراً . وقد أُغتيل ابنه زكريا عام ٧٤٨ ق.م بعد ستة أشهر من اعتلائه العرش ، وانتهى بذلك حكم أسرة ياهو .

وفي عام ٧٤٨ ق.م ، حكم سلوم رئيس الانقلاب (وكان من شرق الأردن) شهراً واحداً دون أن يعتلي العرش إذ قتله مناحم (٧٤٧ - ٧٣٧ ق.م) الذي كان هو الآخر من شرق الأردن . وقد حاول مناحم أن يوسع حدود مملكته ويؤسس حكماً ثابتاً للدعائم ، ولكن يد آشور الحديديّة منعت . وحينما هاجم تجلات بلاسر سوريا ثم المملكة الشمالية ، دفع له مناحم جزية كبيرة . وحكم فقحيا بن مناحم (٧٣٧ - ٧٣٥ ق.م) عاماً واحداً ، ولكن قاتل جيشه فاقح (أحد نبلاء جلعاد) قام بانقلاب ضده وقتله واستولى على العرش (٧٣٥ - ٧٣٣ ق.م) . ويبدو أن سبب المؤامرة هو عدم رضا أثرياء شرق الأردن عن الهيمنة الآشورية ، إذ كانت لهم علاقات قوية بأرام . وكان فاقح زعيم الحزب المعادي للآشوريين ، فتحالف مع رزين ملك آرام دمشق ، حيث هاجمها معاً المملكة الجنوبية ليرغمها يوشام ثم ابنه أحاز على دخول الحلف . وقد لجأ إلى تشجيع

واعلى أخاب بن عمري العرش (٨٧١ - ٨٥٢ ق.م) ، فأدخلت زوجته إيزابيل عبادة بعل في المملكة الشمالية ، وهو ما أدّى إلى قيام صراع شديد بين البيت الملكي والأنبياء بقيادة النبي يياهو . وبعد أن قام أخاب بعدة معارك ضد آرام دمشق ، تحالف مع ملكها بن هدد ضد الآشوريين الذين كانوا قد أسحبوا خطراً حقيقياً يهدد الجميع بعد حملة آشور ناصر بال في عام ٨٧٠ ق.م ، ونجحوا في صلحهم مؤقتاً في معركة قرقار ، وإن كان يُقال إن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة لأي من الطرفين . ثم تحالف أخاب ، بعد ذلك ، مع يهوشافاط ملك المملكة الجنوبية وحاربا ضد مملكة آرام دمشق ، ولكنهما هُزما وقُتل أخاب في المعركة . وأخاب أول ملك عبراني يُذكر اسمه في أحد الأنصاب الآشورية باعتباره أحد الملوك الذين هزمتهم آشور .

وخلف أخاب ابنه أحازيا (٨٥٢ - ٨٥١ ق.م) الذي هاجمه يياهو باعتباره مشركاً وثنياً ، وقد حاول أحازيا أن يكون جزءاً من المشاريع البحرية للمملكة الجنوبية ولكن طلبه رفض ، وهو ما أدّى إلى توتر العلاقة بين المملكتين . ثم اعلى يورام (٨٥١ - ٨٤٢ ق.م) العرش من بعده ، وأحقّ المواييون به الهزيمة وحصلوا على استقلالهم ، كما هاجم الآراميون مملكته ، وجرح وهو أثناء معركة خاضها ضدهم لاسترداد إحدى المدن . وأدت هزيمته العسكرية المتكررة إلى ضعفة سلطته ، ثم اغتيل أحازيا على يد ياهو (٨٤٢ - ٨١٤ ق.م) زعيم الانقلاب العسكري الذي أطاح بأسرة أخاب وقتل أعضائها كما قتل كهنه بعل . وقد قطع ياهو علاقات مملكته مع حلفائها السابقين (الدول/ المدن الفينيقية والمملكة الجنوبية) وهو ما جعلها عرضة للغزو الأجنبي ، فقامت قوات الآراميين بغزوها وألحقت الهزيمة به ، فاضطر إلى دفع الجزية لشلمانصر الثالث لكي يحميه من الآراميين ، وهذا ما خفف من الضغط الآرامي بعض الوقت . ويظهر هذا الملك على المسلة السوداء التي أقامها الملك الآشوري وهو يُقفل الأرض عند قدمي هذا الأخير ويُقدّم الجزية . ولكن ، بعد أن مني شلمانصر بالفشل في إخضاع عاصمة آرام ، هاجمت الجيوش الآرامية المملكة الشمالية مرة أخرى وضمت الأراضي التابعة لها شرقي الأردن . وفي أواخر حكمه ، اخترقت الجيوش الآرامية مملكته ووصلت إلى حدودها مع المملكة الجنوبية ، ثم دخلت مملكته مرحلة التدهور .

وخلال حكم يوحنا (٨١٤ - ٨٠٠ ق.م) ، كانت المملكة الشمالية مجرد مملكة تابعة لأرام التي تحكمت في أجزاء كبيرة من أراضيها وحدت من قوتها العسكرية ، فانكشمت المملكة لتصبح

عاصمته من شكيم إلى بونثيل لتعُدُّ تحصين الأولى . ثم انتقلت العاصمة إلى ترصه إلى أن استقرت في نهاية الأمر في السامرة .

### زُحِبَعَام (٩٢٨-٩١١ ق.م)

Rehoboam

«زُحِبَعَام» اسم عبري معناه «اتسع الشعب» . وِزُحِبَعَام هو ابن سليمان من نعمة العمونية . طلب منه ممثلو القبائل العبرانية الشمالية، تحت قيادة يُرْبَعَام ، أن يخفّف من التير الذي حملهم إياه أبوه ، فرفض طلبهم وهذّبهم بمزيد من الضرائب ، فانشقت القبائل الشمالية عن المملكة العبرانية المتحدة وأُسسّت مملكة مستقلة هي المملكة الشمالية . وقامت الحرب بين زُحِبَعَام وِزُحِبَعَام واستمرت طيلة حكمه ، كما انتشرت العبادة الوثنية في مملكته . وأثناء حكمه أيضاً ، غزا شيشنق مملكته واستولى على بعض المدن لبعض الوقت ، ومنها القدس نفسها ، ونهب الهيكل والقصر الملكي .

### أَسَا (٩٠٨-٧٦٧ ق.م)

Asa

«أَسَا» اسم عبري معناه «الآسي» أي «الطيب» . ولعل الاسم اختصار لعبارة «يهوه آسا» أي «الرب داوى وشفى» . وقد تحالف آسا ، وهو أحد ملوك المملكة الجنوبية ، مع بن هدد ملك آرام دمشق ، لكي يوقف الغزو الذي قامت به المملكة الشمالية ، وقام بتحصين الحدود بين المملكتين ، وهو ما يعني أن الأمل الذي كان يراود حكام المملكة الجنوبية باستعادة المملكة الشمالية قد انتهى .

وقد عُرِفَت العبادات الوثنية في عهده . ولكنه ، مع هذا ، قام بإصلاح ديني يهدف إلى تحطيم التماثيل وهدم المذابح المرتفعات ، وهي أماكن مقدّسة مرتبطة بالعبادة الوثنية . ومع هذا ، لم يسايره الشعب في جميع إصلاحاته ، فبقيت المرتفعات على حالها .

### عَمْرِي (٨٨٢-٨٧١ ق.م)

Omri

«عَمْرِي» اسم عبري ربما كان معناه «مفلح» . وهو اسم أحد ملوك المملكة الشمالية . كان عمري قائداً للجيش . وأثناء محاصرته لإحدى المدن الفلسطينية وصله نبأ استيلاء زمري على العرش وأن الجيش يبايعه ملكاً ، فقاد عمري قواته إلى مدينة ترصه وفتحها فاتحراً زمري . ثم قامت بينه وبين تبني بن جيته حرب أهلية استمرت خمسة أعوام انتصر في نهايتها عمري وأسس أسرة ملكية حاكمة تُعرَف

الاضطرابات في أودوم وفلسطينا وجردا حملة على القدس لإرغام المملكة الجنوبية على الانضمام إليهما . ولكن أحاز استغاث بالآشوريين ، فقامت القوات الآشورية بالهجوم على أعضاء التحالف وقضت على آرام دمشق كدولة . واستولت القوات الآشورية كذلك على أراضي الجليل وجلعاد ، وأخذت منها أسرى إلى آشور . وقد قُتِل فاقح على يد هوشع (٧٣٠-٧٢٤ ق.م) آخر ملوك المملكة الشمالية . وتقول المصادر الآشورية إن هوشع اعتلى العرش بمساعدة آشور ، وأن مملكته قامت حول جبل إفرايم . وبعد موت تيجلات بلامر الثالث ، نشبت الثورات في سوريا وانضمت المملكة الشمالية بنشجيع من مصر للثورة ، فجرد شلمانصر الخامس حملة وحاصر السامرة ثلاث سنوات إلى أن سقطت في يد خلفه سرجون الثاني (٧٢١ ق.م) ، فهجّر عدداً كبيراً من رجالها وأصبحت المملكة الشمالية مقاطعة آشورية .

### يُزْبَعَام الأول (٩٢٨-٩٠٧ ق.م)

Jeroboam I

«يُزْبَعَام» اسم عبري معناه «يكثُر أو يربو الشعب» . وِزْبَعَام الأول أول ملوك المملكة الشمالية بعد انقسام المملكة المتحدة . كان يُزْبَعَام يعمل عند سليمان ناظراً للعمال من قبيلة إفرايم المسخّرين للعمل . وبدأت العناصر الساخطة تنجبه إليه ليكون زعيماً للتمرد على هيمنة سليمان والجنوب . ولما عرف سليمان بالمؤامرة طلب قتله ، فهرب إلى مصر عند الفرعون شيشنق ، وبقي هناك إلى ما بعد موت سليمان . وقاد يُزْبَعَام الوفد الذي طلب من زُحِبَعَام الإصلاح . وحينما رفض الأخير ، ثار الشماليون وأسسوا مملكتهم وخالصوا حرباً مع المملكة الجنوبية استمرت اثنين وعشرين عاماً . وقد اتخذ يُزْبَعَام من شكيم عاصمة لدولته . وخشية أن يذهب العبرانيون إلى القدس للأعياد ويجددوا ولاءهم للقديم لببت داود ، نصب يُزْبَعَام عجلين من ذهب ربما بتأثير العبادة المصرية التي عرفها أثناء فترة نفيه ؛ أحدهما في بيت إيل والأخر في دان-أي في طرفي مملكته- ونادى بوجود عبادتهما . وإلى جانب العجل ، مجدّد يُزْبَعَام آلهة أخرى منها عشتاروت الإلهة الفينيقية وكموش إله المؤابيين . وقد أيد جميع الملوك الذين تعاقبوا على المملكة الشمالية هذه العبادة (ما عدا يوشيا) . وغرّب يُزْبَعَام تاريخ عيد الحصاد بحيث أصبح في الخامس عشر من الشهر الثامن في المملكة الشمالية ، وقد كان يقع في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع . وقد طرد يُزْبَعَام اللاويين الذين كانوا يشكلون الجهاز الإداري للمملكة العبرانية المتحدة ، ونقل

رابع ملوك المملكة الجنوبية وابن الملك آسا . عقد تحالفاً مع أخاب ملك المملكة الشمالية وحارب معه ضد الآراميين ، ولكنه هُزم في الحرب (كما قُتل حليفه أخاب) .

وفيما بعد ، تحالف مع يورام وقام بحملة ضد مؤاب وأحكم سيطرته على أدوم . وأسس يهوشافاط أسطولاً بحرياً تجارياً في البحر الأحمر في عصيون جابر (يلات) ، ولكن عاصفة هبّت عليه أغرقته قبل أن يبحر .

(أحزيا ٨٥٢-٨٥١ ق.م.)

Ahaziah

«أحزيا» اسم عبري معناه «الرب أمسك» . وقد سُمّي بهذا الاسم كل من :

- ١ - ثامن ملوك المملكة الشمالية وهو ابن أخاب وإيزابيل . وقد تخلّى هذا الملك عن عبادة يهوه واتبع العبادة الوثنية .
- ٢ - سادس ملوك المملكة الجنوبية (٨٤٣ - ٨٤٢ ق.م) وأمّه عشليا ابنة أخاب . خاض معركة ضد ملك سوريا الآرامي ، وقتله ياهو أثناء زيارته ليورام ملك المملكة الشمالية .

(ياهو ٨١٢-٨١٤ ق.م.)

Jehu

«ياهو» اسم عبري معناه «هو يهوه» . وقد كان ياهو زعيم الانقلاب العسكري في المملكة الشمالية الذي أطاح بأسرة أخاب وقتل أعضائها ، كما قتل أحزيا ملك المملكة الجنوبية الذي كان في زيارة يورام وإيزابيل . حاول القضاء على عبادة يعل عن طريق اغتيال كهنتها ولكنه لم يوفّق . قام هو نفسه بعبادة العجول الذهبية فيما بعد ، ودفع الجزية لشلمنصر الثالث . ويظهر هذا الملك على المسلة السوداء التي أقامها الملك الآشوري وهو يقبل الأرض ويقدم الجزية .

(يوشافاط ٧٩٨-٨٣٦ ق.م.)

Joash

«يوشافاط» اسم عبري معناه «يهوه قوّاه» أي منحه القوة ، وهو اختصار للاسم «يهوآش» . وقد سُمّي بهذا الاسم ثامن ملوك المملكة الجنوبية (٨٣٦ - ٧٩٨ ق.م) الذي أعاد عبادة الهيكل لبعض الوقت ولكنه عاد وارتناد إلى العبادة الوثنية ودفع الجزية لملك آرام ثم اغتيل بعد حكم دام نحو أربعين عاماً .

باسمه ، وجعل السامرة عاصمة مملكته . وقد سُمّي الآشوريون المملكة الشمالية «بيت خمري» أي «بيت عمري» .

وقد ازدهرت التجارة في عصره نظراً لأنه خضع للضغوط الآرامية وسمح للمدن/الدول الآرامية بأن تفتح وكالات تجارية تابعة تتمتع بامتيازات خاصة . ولعلا هذا الموقف ، قوى عمري علاقته مع الفينيقيين ، فزوّج ابنه أخاب من إيزابيل ابنة ملك صيدا . وقد انعكست علاقته السياسية والتجارية المشابكة على الاتجاهات الدينية في عصره إذ دخلت عناصر من عبادات صيدا الوثنية على العبادات اليهودية في المملكة الشمالية . ولقد نجح عمري في فرض هيمنته على المؤابيين .

(أخاب ٨٧١-٨٥٢ ق.م.)

Ahab

«أخاب» اسم عبري معناه «أخو الأب» ، وهو ابن عمري أحد ملوك المملكة الشمالية . وقد بدأ حكمه نحو عام ٨٧١ ق.م . أثرت فيه زوجته إيزابيل ابنة ملك صيدا (وكانت امرأة وثنية) فانقاد لها وأدخل عبادة يعل ، وهو ما أدّى إلى احتدام الصراع بينه وبين الأنبياء . وتحالف أخاب مع الفينيقيين والمملكة الجنوبية ليقف ضد آشور ، ونجح هذا التحالف في صد الآشوريين بشكل مؤقت (في معركة قرقر) وإن لم تكن نتيجة المعركة حاسمة . ثم تحالف مع يهوشافاط ملك المملكة الجنوبية ، فحاربا معاً ضد آرام دمشق ولكنهما هُزما . وخر أخاب صريعاً في المعركة وسال دمه من مركبته فلحسته الكلاب ، كما تنبأ النبي إيلياهو .

(إيزابيل ٩ - ٨٤٣ ق.م.)

Jezebel

«إيزابيل» اسم عبري يعني «غير مرتفع» . وإيزابيل زوجة أخاب أحد ملوك المملكة الشمالية (٨٧١ - ٨٥٢ ق.م) ، وابنة إبلعل ملك صور وصيدا وكانه عشرتوت ، وقد عقد عمري الزواج بين أخاب وإيزابيل لتقوية العلاقة بين المملكة الشمالية والمدن/الدول الفينيقية . ومن هنا قويت عبادة يعل ، وقد تنبأ لها إيلياهو بأن الكلاب ستأكلها . وقد قُلت إيزابيل أثناء انقلاب ياهو (٨٤٣ ق.م) والذي تم بتشجيع من الإلشع صديق إيلياهو .

(يهوشافاط ٨٦٧-٨١٦ ق.م.)

Jehoshaphat

«يهوشافاط» اسم عبري معناه «يهوه قضى» . ويهوشافاط اسم

السامرة ، أخذ هوشع أسيراً ، وأتم سرجون الفتح وأكمل تهجير  
(سبي) القبائل الشمالية .

يوآش (٨٠٠-٧٨٤ ق.م)

Joash

«يوآش» اسم عبري معناه «يهوه منحه القوة» ، وهو اختصار  
للإسم «يهوآش» . وقد سُمِّي بهذا الاسم الملك الثاني عشر من ملوك  
المملكة الشمالية (٨٠٠ - ٧٨٤ ق.م) وهو الثالث في سلالة ياهو .  
عبد العجل الذهبي واسترجع المدن التي كان الآراميون قد أخذوها  
بعد هزيمتهم على يد الآشوريين ، وهزم أيضاً ملك المملكة الجنوبية  
ونهب الهيكل والكنوز الملكية .

أحاز (٧٤٣-٧٢٧ ق.م)

Ahaz

«أحاز» اسم عبري معناه «هو أمسك» ، أي «الرب أمسك» .  
وأحاز هو الملك الحادي عشر من ملوك المملكة الجنوبية . وقد ورد  
اسمه بصيغة «أحاز» .

هاجمت كلُّ من آرام دمشق والمملكة الشمالية مملكته لترغما  
على الانضمام للحلف المعادي لآشور ، فطلب أحاز العون من  
آشور ، فهبَّ تيجلات بلاسر الآشوري لنجدته وقضى على المملكة  
الشمالية . وقد نتج عن ذلك تبعية دينية للآشوريين إذ شُيّد أحاز  
مذبحة في القدس لألهة آشور كما أدخل كثيراً من العبادات الوثنية  
الأخرى . وقد اقتحم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبي مملكته ،  
كما هاجمه الأدميون .

يرُبعم الثاني (٧٨٤-٧٤٨ ق.م)

Jeroboam II

«يرُبعم» اسم عبري معناه «يكثُر أو يربو الشعب» . ويرُبعم  
الثاني هو الملك الثالث عشر بين ملوك المملكة الشمالية . اتَّسم حكمه  
بالازدهار واستتباب الأمن . وفي عهده ، وصلت المملكة إلى قمة  
ازدهارها الاقتصادي والعسكري والسياسي بسبب ضعف  
الآشوريين النسبي وإنهزامهم . وأقام يرُبعم الثاني مستعمرات  
في شرق الأردن ، ومنح سبطاه وأتباعه رقعاً كبيرة من الأراضي ،  
فنشأت طبقة من كبار الملاك الأثرياء . وقد انتشرت في عهده عبادة  
الأوثان ، وفي عصره ، حدَّر النبيان عاموس وهوشع من مغبَّة  
الاحتلال .

حزقيا (٧٢٧-٦٩٨ ق.م)

Hezekiah

«حزقيا» اسم عبري معناه «الرب قد قوى» أو «الرب قوة» .  
وحزقيا هو ابن أحاز ملك المملكة الجنوبية . كان تابعاً لآشور ولكنه  
حاول أن يستقل عنها ، فقام بإصلاح ديني وتحالف مع مصر ، ولكن  
إرميا حذرته من مغبَّة ذلك . وقد حاصر سناخرب القدس في عهده  
وأخضعه واضطره إلى دفع الجزية .

عزّيا (٧٦٩-٧٢٣ ق.م)

Uzziah

«عزّيا» اسم عبري معناه «مجد الرب» . وعزّيا أحد ملوك  
المملكة الجنوبية الذي يُسمَّى أيضاً «عزريا» ، وهو ابن إمصيا . وفي  
عهده تحرَّرت مملكته من هيمنة المملكة الشمالية ، فنظَّم الجيش  
وحصَّن القدس وغزا المدن الفلسطينية . ترأس حلفاً من ملوك  
الدويلات التي كانت تعارض آشور حتى أصبحت مملكته الجنوبية  
أكثر أهمية من المملكة الشمالية .

منشسى (٦٩٨-٦٤٢ ق.م)

Manasseh

«منشسى» اسم عبري معناه «من ينسى» ويُنطق أيضاً «منشسى» .  
ومنسى أحد ملوك المملكة الجنوبية . تبوأ العرش بعد حزقيا وحكم  
يهوداً مدة أطول من أي ملك آخر (٦٩٨ - ٦٤٢ ق.م) . ويعتبره  
كاتب سفر الملوك أسوأ الملوك طراً (ملوك ثاني ١/٢١ - ١٨) .  
ولكن سفر الأخبار الثاني يقدم صورة أكثر تعاطفاً معه (أخبار ثاني  
١٣٣ - ٢٠) . وقد عاشت المملكة الجنوبية في عصره في سلام إذ أنه  
دفع الجزية لآشور ، وهو ما كان يعني أن الآلهة الأجنبية مثل بعل  
وآشور كانت تُعبَد في الهيكل .

هوشع (٧٥٠-٧٢٢ ق.م)

Hoshea

«هوشع» اسم عبري معناه «الخلاص» . وهوشع آخر ملوك  
المملكة الشمالية . كان صنيع الآشوريين . ولكنه عاد وتحالف مع  
المصريين ، فهاجمه الآشوريون وفرضوا عليه دفع الجزية ، ولكنه  
امتنع عن دفعها بتشجيع من المصريين . وحين أتى سلمانصر واحتل

يوشيا (٦٠٩-٦٠٩ ق.م)

Josiah

عشر بين ملوك المملكة الجنوبية . وضعه المصريون على العرش بعد أن هزموا أباه يوشيا وقتلوه عام ٦٠٨ ق.م . وبعد أن هزم البابليون المصريين عام ٦٠٥ ق.م ، في معركة قرقميش ، نقل يهوياقيم ولاءه إليهم ، ولكنه عاد وانضم إلى الحزب المالئ المصر ضد نصيحة إرميا وتحدى نبوختنصر ، فعادت الجيوش البابلية وحاصرت القدس . ومات يهوياقيم أثناء الحصار .

يهوياكين (٥٩٨-٥٩٨ ق.م)

Jehoiachin

«يهوياكين» اسم عبري معناه «يهوه يُبْت» . ويهوياكين الملك التاسع عشر بين ملوك المملكة الجنوبية وابن يهوياقيم ، حكم ثلاثة أشهر بعد موت أبيه . وقد سقطت القدس في عهده في يد البابليين ، فنُفي هو وأسرته إلى بابل ، وخلفه عمه صدقياهو .

صدقياه (٥٩٧-٥٨٦ ق.م)

Zedekiah

«صدقياه» اسم عبري معناه «يهوه عدل» أو «عدل يهوه» . و«صدقياه» هو آخر ملوك المملكة الجنوبية ، واسمه الأصلي متتيا بن يوشيا . أجلسه البابليون على العرش بدلاً من يهوياقيم ، ولكن صدقياه تمرد بتشجيع من مصر على الرغم من نصيحة إرميا . فهاجم نبوختنصر القدس ، ووقع صدقياه في الأسر وقتل أولاده أمامه ، وسُملت عيناه وسبق إلى بابل وسُجن حتى وافته المنية .

«يوشيا» اسم عبري معناه «يهوه يواسي» . وقد اعتلى يوشيا عرش المملكة الجنوبية وهو بعد في الثامنة . وكان يرشده في حادثته حلقيا (الكاهن الأعظم) الذي أدار شؤون المملكة باسمه . وحين أخذت الدولة الآشورية في الضعف ، وتحركت مصر لمساعدة آشور ضد بابل ، ساعد هذا على توسيع رقعة استقلال المملكة الجنوبية ، الأمر الذي انعكس على الدين والمؤسسة الدينية . وعندما بلغ يوشيا الثامنة عشرة من عمره ، عشر شافان (الكاتب) على كتاب سفر الشريعة (نواة السفر المعروف بسفر التثنية) وعلى مجموعة من المواد التشريعية أثناء دفعه أجور العمال الذين كانوا يقومون بأعمال الترميم في الهيكل . وأخبر شافان بذلك الكاهن الأعظم حلقيا الذي قرأ السفر على يوشيا ، ومن هنا بدأت الحركة الإصلاحية الدينية الجذرية الاستقلالية المعروفة باسم «الإصلاح التنوي» . وقرئ السفر على أفراد الشعب ، فعاهدوا أنفسهم على عبادة يهوه دون سواه ، وهدموا مذابح البعل وأزالوا المرتفعات وحطموا التماثيل . وقد قُتل يوشيا أثناء محاولته وقف الفرعون نخاو في مجده عام ٦٠٩ ق.م .

يهوياقيم (٦٠٨-٥٩٨ ق.م)

Jehoiakim

«يهوياقيم» اسم عبري معناه «يهوه يقيم» . ويهوياقيم هو الثامن



## التهجير الآشوري والبابلي

التهجير الآشوري والبابلي للعبرانيين - السبي الآشوري والبابلي (مفهوم ديني) - النفي الآشوري والبابلي - يهوديت - قبائل إسرائيل العشر المفقودة - جداليا

## التهجير الآشوري والبابلي للعبرانيين

Assyrian and Babylonian Transfer of the Hebrews

يُشار إلى تهجير العبرانيين على يد الآشوريين أو البابليين بأنه «السبي» أو «النفي» الآشوري أو البابلي . وهي ترجمة شائعة للمصطلح التوراتي ووجدت طريقها إلى الكتابات التاريخية التي تتناول تاريخ العبرانيين وتاريخ الشرق الأدنى القديم . لكن هذا المصطلح لا يُستخدم إلا للإشارة إلى العبرانيين وحدهم دون الأقوام والجماعات الأخرى التي تم سببها أو تهجيرها في الحقبة التاريخية نفسها وتحت الظروف نفسها وعلى يد القوى نفسها .

وكمحاولة لتحديد المصطلح، نعتبر عن هذا المفهوم بكلمة «تهجير»، فمن مزايا كلمة «تهجير» أنها تشير إلى حدث التهجير في ذاته بشكل وصفي دون تقييم، كما أنها لا تشير إلى حالة المهجرين العقلية ولا إلى موقفهم من الاستقرار في بابل . بينما كلمة «سبي» أو «نفي» تشير إلى حدث التهجير وإلى حالة المهجرين العقلية ، فكلمة «سبي» أو «نفي» تعني أن المهجرين كانوا راضين للاستقرار في بابل ، وأنهم كانوا فيها لأنهم كانوا لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وهو الأمر الذي لا تسانده الحقائق التاريخية، فكثير منهم رفضوا العودة إلى مقاطعة يهودا الفارسية بعد مرسوم قورش ، وهو ما يُسقط عنهم صفة المتقين المُعذبين!

وكان التهجير القسري للنخبة الحاكمة والحرفيين وبعض العناصر البشرية ذات الأهمية الخاصة أمراً شائعاً في العصور القديمة . لكن كنعان (فلسطين) كانت عرضة لهذا أكثر من أي بلد آخر نظراً لموقعها الجغرافي والسياسي في المنطقة وسط القوى العظمى في العالم القديم - مصر وأشور وبابل (العراق) والحيتيين - وهو ما جعلهم يرغبون في تحويلها إلى منطقة محايدة أو منزوعة السلاح أو تحويلها إلى دويلة يقطنها عنصر سكاني موال للإمبراطورية المهمنة ، حتى تصبح خط دفاع أول لتلغّي غزوات وهجمات الدول الكبرى المجاورة ، مصر من وجهة نظر آشور وأشور من وجهة نظر مصر . ومن هنا ، فقد كان تهجير العبرانيين إلى آشور أو بابل ضمن من هُجّر من شعوب كنعان وقبائلها .

ويبدو أن بعض الإمبراطوريات القديمة في الشرق الأدنى القديم كانت تلجأ إلى التهجير بدلاً من الاحتلال والهزيمة العسكرية المباشرة إذ لم يكن لديها الفائض البشري الذي يسمح بقيام جيش نظامي دائم وقوة احتلال مستمرة وجهاز إداري يدير الأراضي المحتلة ، فكانت الإمبراطورية تُهجر النخبة وتطلب من المهزومين أن يدفعوا الجزية وأن يديروا شئونهم ذاتياً عن طريق نخبة محلية موالية للإمبراطورية الحاكمة تدبّر لها بالولاء وتعمل تحت رقابتها وتقوم بدور الجماعة الوظيفية (وهو أمر لم يكن مضموناً دائماً ، ومن هنا كان استمرار الثورات وتعددها) .

وقد بدأ أول تهجير من المملكة الشمالية بعد أن قاد ملك آرام دمشق عمرداً ضد آشور وانضم إليه فاتح ، فجردّ تيجلات بلاسر الثالث حملة ضد سوريا وفلسطين (٧٣٤ - ٧٣٢ ق.م) . وغزا الآشوريون جلعاد وهجرُوا رؤساء القبائل الفاتنين شرقي الأردن . وتذكر إحدى وثائق تيجلات بلاسر أنه قام بتهجير عدة آلاف من الأسرى الذكور من ثماني مدن مختلفة .

وعندما سقطت المملكة الشمالية تماماً في يد الآشوريين عام ٧٢٤ ق.م وتحولت إلى مقاطعة آشورية ، تم تهجير رؤساء القبائل والعشائر العبرانية وبعض الفلاحين والحرفيين ، ويصل عددهم حسب الرواية الآشورية (المبالغ فيها بوجه عام) إلى ٢٩٠ ، ٢٧ ، وتم توطين عناصر سامية وأرامية من بلاد الرافدين وغيرها من الشعوب المساعدة للآشوريين بدلاً منهم ، وهذا ما نطلق عليه «التهجير الآشوري» ، أو ما يُطلق عليه «السبي الآشوري» في المصطلح الديني اليهودي (٧٢١ ق.م) . وقد تم توطين المهاجرين أساساً بالمناطق الآشورية في أعالي بلاد الرافدين (أرام نهر ايم) على ضفاف نهر الخابور ، كما تم توطين البعض في مدن ميديا .

ورغم أن عدد المهجرين على يد الآشوريين كان كبيراً نسبياً ويفوق عدد من هُجّر على يد البابليين ، فقد كانوا عشر قبائل مقابل قبيلتين اثنتين هجرهما البابليون ، فإنهم اختفوا تماماً . ويُقال إنهم اندمجوا في محيطهم السكاني وتبنوا العبادات الوثنية ثم اعتنقوا

يهويان ملك المملكة الجنوبية السابق وقربه إليه ، وأن قادة العبرانيين احتفظوا بقدر من السلطان . وقد استمر الأنبياء ، مثل إرميا وحزقيال ، في نشاطهم ، كما ظهر بينهم حجاجي وزكريا وأشعيا الثاني . وتم توطين المهجرين في مزارع جديدة بالقرب من بابل ، مثل تل أبيب وتل ملاح (وتشير كلمة «تل» إلى أماكن كانت مزروعة في الماضي ولكنها خربت وتنتظر تعميمها مرة أخرى) . وكانت الأراضي التي خصّصت لهؤلاء المهجرين أكثر خصوبة من أراضي فلسطين ، وسُمح لهم بالاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم . وقد ازدهر حال المهجرين في بابل ، فاتخذوا منها وطناً ثانياً هاجر إليه طوعاً كثير من بني جلدتهم .

وقد انقسمت الجماعة العبرانية المهجرة إلى طبقات : فامتلك الأثرياء المزارع الكبيرة ، وهاجر الفقراء إلى المدينة واشتغلوا بالتجارة . كما ظهرت بيوت تجارية يهودية كبيرة مثل بيت موارشو ، حيث تدل على ذلك نصوص موارشو . وقد أحرزت هذه العائلة شهرة خاصة بصفتها أحد بيوت المال الكبيرة في عهد الملك أرتمحستا الثاني (٤٠٤ - ٣٥٩ ق. م) ، إذ كانت تمتلك الأراضي الزراعية وقطعاً كبيرة من الأغنام ، كما اشتغلت بالربا . ويجب هنا أن نتذكر ازدهار التجارة في الإمبراطورية البابلية .

كما كان هذا البيت التجاري يضطلع بشئون البلاط البابلي المالية ، أي أن بيت موارشو كان يشكل جماعة وظيفية وسيطة تشبه يهود البلاط . واشتغل أعضاء الأسرة أيضاً ملتزمي ضرائب ، فكانت الشركة تقوم بجباية الضرائب عما تنتجه الأرض من محاصيل زراعية ، كما كانت تستوفي بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة وقنوات الري مقابل الانتفاع منها ، أي كانت تقوم بكل أنشطة الجماعة الوظيفية الوسيطة التي اضطلعت بها الجماعات اليهودية عبر التاريخ ، وخصوصاً في الغرب .

وقد رفض كثير من اليهود ، وخصوصاً الأثرياء ، العودة إلى فلسطين بعد مرسوم قورش ، واكتفوا بدفع مساعدات مالية للعالمين . ويُقال إن قسماً كبيراً من اليهود العالمين كانوا من أحفاد الأسر الأرستقراطية والكهوتية ذات المواقع الطبقة والمكانة المتميزة المرتبطة بالهيكل والعبادة القربانية ، وهؤلاء استرجعوا بعودتهم بعضاً مما فقدوه من مواقع ومزايا طبقية واجتماعية ، وكانوا يعرفون أنهم سيكونون نخبة حاكمة جديدة أو جماعة وظيفية موالية للفرس تدير شئون فلسطين وأهلها لصالح الدولة الحاكمة .

ولم يعد من بابل سوى أقلية قليلة ، بسبب معدلات الاندماج العالية التي حقّقها المهجرون . ولعل أكبر دليل على هذا الاندماج

المسيحية . ويبدو أن هذه العملية تمت بسرعة إذ لم يأت لهم ذكر في المدونات الدينية اليهودية أو غيرها من المدونات . ولعل بقايا هؤلاء المهجرين هم سكان إمارة حدياب في الإمبراطورية الفرثية التي اعتنق أهلها المسيحية ثم الإسلام . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن المهجرين لم يتحولوا إلى عبيد وإنما أصبحوا مؤجرين زراعيين تابعين للملك ، في حين عمل الحرفيون منهم في مشروعات الدولة . وقد أحرز بعضهم مكانة متميزة ووصل إلى وظائف حكومية عالية ، وسُمح لهم بممارسة عاداتهم وشعائزهم الدينية ، كما تملّكوا الأرض فاضربوا جلدوراً في الأرض الجديدة واستوسعوا تماماً في بيئتهم الجديدة .

وبعد ذلك ، سقطت المملكة الجنوبية في يد البابليين الذين هجروا بدورهم زعماءها ، وسمحوا لعناصر أخرى (أدومية ونبطية وعمونية) بالاستيطان ، وهذا ما يمكن تسميته «التهجير البابلي» ويُسمى في المصطلح الديني اليهودي «السي البابلي» (٥٨٧ ق. م) . وقد حمل البابليون ، فيما حملوا من غنائم ، أواني الهيكل التي كانت تشبه رموز الدولة أو رمز الشرعية السياسية الدينية . وظلت هذه الجماعة العبرانية في بابل إلى أن هزم قورش الإمبراطورية البابلية وسمح لهم بالعودة عام ٥٣٨ ق. م. للأسباب السياسية نفسها التي بُنوا من أجلها ، أي ضرورة توطين عنصر سكاني موال له في فلسطين (وهي نفس السياسة التي اتبعها الاستعمار الغربي في أواخر القرن التاسع عشر حينما تبنّى الحل الصهيوني) .

وقد استمرت فترة التهجير البابلي حوالي خمسين عاماً ، وإن كان هناك رأي يذهب إلى أنها حوالي سبعين عاماً . ونحن لا نعرف عدد المهجرين على وجه الدقة . ويُقال إن عددهم كان عشرة آلاف أو عشرين ألفاً ، أو أربعين ألفاً في تقدير آخر . وكان مركزهم الأساسي تل أبيب (في العراق) . وكان ضمن المنفيين النبيان إرميا وحزقيال ، ويجدر هنا إبراز عدة أمور :

أولها : أن التهجير قد شمل عناصر بشرية أخرى كثيرة من أرض كنعان وأرام من غير العبرانيين .

ثانيها : أنه لا التهجير الآشوري ولا التهجير البابلي ترك أراضي فلسطين خراباً ، فقد بقي سكان يُعدون بمئات الألوف من السكان الأصليين (العبرانيين أو غيرهم) ، وخصوصاً أن الريف بشكل عام لم يكد يُمس .

ثالثها : هذا التهجير أو السبي لم يكن رهيباً على نحو ما تصوّره بعض الكتابات اليهودية حتى بالقياس إلى ظروف تلك الأيام .

ويذكر إرميا نفسه (٣١/٥٣ - ٣٤) أن نبوختنصر أفرج عن



٣- اقتبست اليهودية الكثير من تراث بابل ونظمها وأساطيرها وعقائدها مثل عقيدة الماشيح المخلص وفكرة الطوفان والاحتفال بالسبت .

٤- ويبدو أن العبادة البابلية قد دخلت في ذلك التاريخ مرحلة من التوحيد الكامن ، أي أن الأرباب المتعددة كانت قد بدأت تمتزج وتتحول إلى إله واحد ، وقد أصبح مردوخ رب الأرباب يربعاها كما يرضى الراعي اغنامه ، أي أن الأرباب الأخرى تحولت إلى مجرد تجليات للرب الواحد . وقد جاء في أحد النصوص البابلية ما يلي :

«نينيب : مردوخ القوة- إيرجال : مردوخ الحرب- بيل : مردوخ الحكم- نابو : مردوخ التجارة- سين : مردوخ الذي يضيء الليل- ساماسي : مردوخ العدالة- آدو : مردوخ المطر» . ومعنى ذلك أنه برغم التعدد الظاهر للالهة ، فإن ثمة إيماناً بوحدة كبرى تتجاوز التعددية . وفي إحدى المذونات البابلية التي يعود تاريخها إلى ما قبل سقوط بابل على يد الفرس ، ثمة إشارة إلى رب القمر باعتباره يلعب دوراً مشابهاً لدور أتون في عبادة إخناتون التوحيدية . ويبدو أن هذه التوحيدية البابلية لعبت دوراً في مساعدة العبرانيين على التخلص من الحلولية الوثنية والتعددية التي سقطوا فيها بعد خروجه من مصر . وقد بذل محررو العهد القديم جهداً غير عادي لتقية النص المقدس عند تدوينه أيام عزرا ونحميا ، ولكن عناصر الشرك ظلت واضحة فيه مع هذا .

٥- تأثر النظام الصوتي في اللغة العبرية بكثير من مفردات وأنظمة اللغة الأكادية وبخاصة الحروف اللينة .

ومن كل هذا ، نخلص إلى أن التهجير (أو السبي) البابلي لم يكن سبباً في تدهور اليهودية وانحلالها وإنما كان مصدراً لعديد من الأفكار اليهودية الدينية والثقافية . ولذا ، فإن كثيراً من المفكرين اليهود يرون أن اليهودية بدأت كدين ، بل على الكامل للكلمة ، في المهجر البابلي .

### السبي الآشوري والبابلي (مفهوم ديني)

Assyrian and Babylonian Captivity (Religious Concept)

«السبي الآشوري والبابلي» مصطلح ديني يهودي مرادف لمصطلح «النفي البابلي» ، وهو مصطلح يصف عملية تهجير النخبة الحاكمة العبرانية من أبناء المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . وكان بعض الأنبياء ، مثل إرميا وحزقيال ، يرون أن النفي أو السبي تعبير عن غضب الإله على الشعب نظراً لعصيانه وانحرافه عن عبادته ، وأن آشور وبابل ليستا سوى أداة غضب وعذاب . وقد أثارت قصة

ورود أسماء عبرانية ، بصورة متكررة ، في الوثائق التجارية لذلك العهد . وكان بعض هذه الأسماء مركباً من أسماء آلهة بابلية فاسم «شيشبصر» مثلاً يعني «يا إله الشمس احفظ السيد أو الابن» ، كما كان «حجاي» يعني «وُلد يوم عيد» أو «وُلد يوم إجازة» ، و«ستاي» معناه «وُلد يوم سبت» ، وكذا اسم «زروبابل» معناه «زرع بابل» أو «المولود في بابل» ، وكلها أسماء بابلية . وكان النبي إرميا من أكبر مشجعي العبرانيين على الاندماج ، إذ قال : «اطلبوا سلام المدينة التي سببتم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأن سلامها يكون لكم بسلام» (إرميا ٢٩/٧) .

وقد انفصل المهجرون إلى بابل بالتدريج عن فلسطين ، فلقد وجدوا في بابل الرعاية من الفرس بصفة عامة (ومن المسلمين فيما بعد) كما كانوا يعبدون عن اضطهاد الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولذا ، فقد كانت بابل وجهة اليهود الذين يلاقون الاضطهاد في أماكن أخرى من العالم ، حتى أن تعدادهم بها زاد نحو المليون عند سقوط القدس في أيدي الرومان وتخريب الهيكل عام ٧٠م . وغدت بابل قلعة لليهودية ، وأنشئت بها الحلقتان التلموديتان سورا ويوماديتا اللتان استمرتا قروناً حيث جرى فيهما تأليف أو وضع التلمود البابلي . وفي القرن السابع الميلادي ، أصبحت العراق مركز الحياة اليهودية والعلم اليهودي ، كما أصبحت ترسل من علمائها رؤساء للحلقات التلمودية في طبرية بفلسطين التي كانت قد غدت (منذ القرن الرابع الميلادي) مدينة مقدسة . ولم تنته زعامة بابل لليهودية إلا في القرن العاشر الميلادي ، وإن استمر اليهود يعيشون فيها قروناً بعد ذلك .

ويرى أساتذة تاريخ اليهودية أن تبلور اليهودية على شكل بنية فكر ديني واضح المعالم قد بدأ في بابل ونضج خلال القرن الأول من إقامتهم فيها . ومن المتعدد تعدد جوانب تأثير بابل في اليهودية ، ولذلك نكتفي بذكر ما يلي :

١- طوّر فقهاء اليهود في بابل البنية الدينية لليهودية ، وحرروها من الارتباط بأرض ومقام معينين ، وكرسوا المعبد اليهودي كبؤرة دينية اجتماعية سياسية يلتقي حولها اليهود أينما كانوا ، الأمر الذي ساعد اليهودية بعد ذلك على التطور بحيث أصبحت نسقاً دينياً متكاملأً مستقلاً عن مكان بعينه .

٢- بلغ الفكر الديني اليهودي في بابل أقصى ازدهاره له ، وتراكم منه الجزء الأكبر والأهم في التراث اليهودي الذي سيطر على الحياة والفكر اليهوديين حتى اليوم . ويكفي أن التلمود البابلي هو مرجع الحياة اليهودية الذي يحتوي التوراة نفسها ويتجاوزها .

المنابع التي تدّهم بلأه وأوشك أن يقضي عليهم ، فاتصلت يهوديت بقاتد نبوختنصر هولو فرنيس وفتنته بجمالها ، فأعجب بها وأخذ يلتقي بها . وفي إحدى الليالي ، قطعت رأسه بعد أن لعبت به الخمر واتقذت العبرانيين . ولا يُوجد أي سند تاريخي لهذه الواقعة .

ويبدو أن سفر يهوديت كُتب أثناء التمرد الحشموني ، كما يبدو أنه كُتب لبث روح الشجاعة في قلوب اليهود . ولكن هناك رأياً مخالفاً يعود بتاريخ الكتاب إلى أيام الفرس . وقد كُتب هذا المؤلف أساساً بالعبرية ، ولكن لم يُعدّ باقياً سوى ترجمته اليونانية . وهو من الكتب الخفية (أبوكريف) عند اليهود وتعتبره الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية من الأسفار القانونية الثانية .

### قبائل إسرائيل العشر المفقودة

Ten Lost Tribes of Israel

هناك بعض الأساطير الخاصة بمصير القبائل العشر من سكان المملكة الشمالية . ومن المعروف تاريخياً أنه بعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين متنازعتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) ، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين : عشر قبائل منها في المملكة الشمالية ، وبقية يهودا وبنيامين في المملكة الجنوبية . وحينما سقطت المملكة الشمالية في أيدي الآشوريين عام ٧٢١ ق. م ، هجر الآشوريون أعداداً من القيادات الشمالية وغيرهم من العناصر البشرية المهمة إلى آشور حيث اندمجوا في المجتمع وانصهروا فيه بالانخراط في سلك الديانات الوثنية العديدة ، وقد تمت هذه العملية بسرعة غير عادية . ولهذا ، فإن يهود بابل الذين هجرهم البابليون عام ٥٨٧ ق. م إلى مناطق قريبة من مناطق التهجير الآشوري لا يشيرون إلى ذلك التهجير الآشوري مع أنه لم يكن قد مر سوى نحو مائة وثلاثين عاماً فقط . ولعل سرعة ذوبان المهجّرين يعود إلى أن المملكة الشمالية كانت ، إلى حدّ ما ، عملة كوزموبوليتانية ، عقدت تحالفات كثيرة قدخلت على العبادة اليهودية فيها عناصر وثنية من الديانات المجاورة . وهناك نظرية ترى أن انصهار الشماليين لم يتم بهذه السرعة ، وتذهب إلى أن عناصر يهودية بقيت وشكلت جماهير إمارة حدياب . لكن الرأي الأرجح أن إمارة حدياب اليهودية قد أصبحت يهودية لا بسبب كثافة بشرية يهودية ، وإنما بسبب تهوّد النخبة الحاكمة . وعلى كل حال ، فقد تم انصهار العناصر اليهودية المشار إليها عن طريق التنصر . ويلاحظ أن أسماء أساقفة إربيل (عاصمة حدياب) كانت أسماء عبرانية مثل شمشون وإسحق وأبراهام . أما الشماليون الذين مكثوا في فلسطين ،

السي مشكلة عدالة الإله وكيف تخلّى عن شعبه . وقد حل حزقيال المشكلة بحديثه عن إسرائيل الجديدة التي سينتم تشبيدها والتي ستكون مفعمة بروح الإله إن عاد الشعب إلى طريقه .

وتواتر في الكتب الدينية الحديث عن العودة وعن الخنين إلى صهيون وعن البكاء من أجلها . ومع هذا ، طالب إرميا المنفيين بأن يبنوا بيوتهم ويزرعوا حدائقهم ويستقروا في وطنهم الجديد ، ففي سلامته سلامتهم (إرميا ٢٩/٧ وما بعده) .

وبعد أن هزم قورش الأخميني بابل ، سمح لليهود بالعودة (٥٣٨ ق. م) ، ولذا تحوّل قورش في الوجدان الديني اليهودي إلى المخلص بل والمُشّخ . وبشّر كل من أشعيا الثاني وحجاي بالعودة ، وقد عاد الاثنان بالفعل واشتركا في عملية إعادة تشييد الهيكل بناءً على أمر قورش .

وقد أصبح السبي أو النفي إلى بابل ثم الخروج منها والعودة إلى فلسطين ، مثله مثل العبودية في مصر ثم الخروج منها والتسلل إلى كنعان والاستيلاء عليها ، مخطأ متكرراً يعيد نفسه في التاريخ المقدس . ويحاول الصهاينة أن يُطبّقوا ذلك على التاريخ غير الديني . ودخل هذا النمط ، يرى الصهاينة أن النفي من القدس ، بعد تحطيم الهيكل في عام ٧٠ م ، شكل من أشكال العبودية يتبعه خروج من الشتات ثم دخول إلى فلسطين ، أي أن الاستيطان الصهيوني الذي يُشار إليه بأنه الهيكل الثالث جزء من مخط متكرر . ولكن كلمة «بابل» أصبحت تحمل إحياءات أخرى ، ذلك أن كثيراً من المنفيين رفضوا العودة واستعدوا الحياة في بابل . ومن ثم ، فإن الأدبيات الصهيونية تشير إلى الولايات المتحدة باعتبارها بابل (أو قدور اللحم الشهية) ، كما يُشار إلى اليهود الذين يؤثرون الحياة خارج فلسطين على الاستيطان فيها بأنهم سكان بابل .

### النفي الآشوري والبابلي

Assyrian and Babylonian Captivity

انظر : «السبي الآشوري والبابلي (مفهوم ديني)» - «التهجير الآشوري والبابلي للعبرانيين» .

### يهوديت

Judith

«يهوديت» اسم عبري يعني «يهودية» ، وتشبه قصة صاحبة قصة إستير في كثير من الوجوه ، كما أن لها علاقة بقصة شمشون . وقد جاء في هذه القصة أن نبوختنصر هاجم العبرانيين واستولى على

والنهايات دون أن يُلاحظ ما حوله . هذا بالإضافة إلى أن أسطورة القبائل العشر المفقودة تستند إلى تصوّر استحالة الاندماج والانصهار بالنسبة إلى اليهود .

جداليا ( ٩ - ٥٨٥ ق.م )

Gedaliah

«جداليا» اسم عبري معناه «يهوه عظيم» . وجداليا اسم قائد يهودي من أسرة أرسقراطية عين حاكماً لمقاطعة يهودا البابلية بعد سقوطها في يد البابليين في عام ٥٨٦ ق.م . وقد حاول أن يعالج الأمور بحكمة . ونقل العاصمة إلى مصب (المصفاة) . ولكن مجموعة من المتمردين قتلته ، كما يُقال ، بتحريض من مصر أو من العمونيين (وقد فرّ المتمردون إلى مصر) . وفي الواقع ، فلا يُعرف الكثير عن دوافعهم ، ولكن من المعروف بشكل عام أنهم كانوا يعارضون مصادرة أملاك اليهود المنفيين وتوزيعها على فقراء القدس الذين يشكّلون معظم السكان المتبقين بعد عملية التهجير . كما أن اغتياله يُعدّ تعبيراً عن رفض الهيمنة البابلية الجديدة .

ويصوم اليهود صيام جداليا بعد عيد رأس السنة اليهودية إحياءً لذكرى اغتياله ، إذ قُضي بمقتله على أي أمل في الإبقاء على الجماعة اليهودية في فلسطين .

فقد امتزجوا بالمستوطنين الجدد وكونوا فرقة يهودية جديدة تُعرّف باسم السامريين .

ولكن كثيراً من اليهود لم يتقبلوا اختفاء القبائل العشر باعتباره حقيقة نهائية ، بل فضلوا اعتبارهم من المفقودين وحسب . ولذا ، فإننا نجد أن التراث الديني اليهودي ، وأدبيات هذا التراث ، يزخران بتصورات عديدة عن محل إقامة لهم للمحتمل ووجودهم ، كما يزخران بنبوءات عن عودتهم إلى وطنهم ليتحدوا مع بقية اليهود . وقد ربطت هذه النبوءات بين العودة وزمن الخلاص ، وأصبح البحث الحرفي والفعلية عن القبائل العشر الضائعة محطّ اهتمام كثير من الرحالة الأوروبيين من اليهود والمسيحيين المتأثرين بمثل هذه الكتابات والذين تأثروا بجو التوسع الاستعماري . وحينما اكتشفت الفارتان الأمريكيتان ، قيل أنثُل إن سكانها هم القبائل العشر . أما في العصر الحديث ، فقد أعلن الرحالة الذين عثروا على قبائل الفلاشاة اليهودية في إثيوبيا أنهم عثروا على القبائل العشر المفقودة ، وقد أفتى حاخام إسرائيل الأكبر (السفاردي) بأن الفلاشاة من نسل قبيلة دان . والمهم في هذه الأسطورة أنها ، في بنيتها ، لا تختلف كثيراً عن أسطورة الماشيخ في تفسيرها الحرفي ، إذ تُلغى الواقع التاريخي وحقائقه وتجعل المؤمن بها في حالة انتظار أزلي لتحقّق تصورات أسطورية ، الأمر الذي يجعل عيون الإنسان معلقة بالباديات



## الفرس

الفرس (الميديون والأخمينيون والفرثيون والساماتيون) - الميديون - الأخمينيون - الزرادشتية - قورش الأكبر - دارا (داريوس) الأول - أرخشنتا الأول - أحشويروش - الفرثيون - الساماتيون - إستير - زروبابل - نحميا - عزرا - شيشبازار (شيشبصر)

## الفرس (الميديون والأخمينيون والفرثيون والساماتيون)

The Persians (Medes, Achmenians, Parthians, and Sassanids)

يُرجَّح أن الفرس قبائل آرية ، ومن هنا تسمية فارس فيما بعد «إيران» أي «أرض الآريين» . وقد كان منهم الميديون والأخمينيون والفرثيون والساماتيون وغيرهم .

الإسكندر عام ٣٣٠ ق.م ، فأصبحت من نصيب السلوقيين . وقد اندمج الميديون في نهاية الأمر في الفرس .

## الأخمينيون

Achmenians

يشكل الأخمينيون أحد بطون قبيلة فارسية استقرت في منطقة عيلام ، ومنهم قورش الأخميني . وقد كان قورش ينتمي إلى أسرة فيشتابا من بطن الأخمينيين من قبيلة بارسا أو فارسا الإيرانية أو الفارسية . وقد هاجرت القبائل التي من بينها القبيلة التي ينتمي إليها الأخمينيون من بحر قزوين من منطقة عُرفت باسم «بارسو» الذي حُرِّف إلى «فارس» خلال الألف الأول قبل الميلاد ، وخضعت هذه القبائل لحكم العيلاميين عدة قرون ، ولحكم الآشوريين بعد ذلك . واستقرت في إقليم جنوب غربي إيران (في القرن السابع قبل الميلاد) الذي سُمِّيَ باسمهم . وقد تحالف الميديون مع البابليين عام ٦١٢ ق.م . وحطَّموا الإمبراطورية الآشورية . وظلت مجموعة القبائل الفارسية تعيش على شكل قبائل متفرقة حتى تمكَّن قورش (الثاني) الأكبر (٥٥٩-٥٢٩ ق.م) من خداع البابليين وإيهامهم بأنه لا ينوي بهم شراً ، وشن حرباً على الميديين . وبعد أن تخلَّص من ملكهم ، ثم ملك ليديا ، هزم بابل نفسها التي كانت تحت حكم الكلدانيين . وتمكَّن قورش من تأسيس مملكة مترامية الأطراف - على أنقاض الإمبراطورية البابلية الجديدة - تمتد من بلاد الرافدين إلى سوريا وفلسطين . وامتدت الإمبراطورية الفارسية بعد ذلك حتى حدود مصر التي فتحها قمييز بن قورش في عام ٥٢٥ ق.م .

وبعد فترة من الثورات والفتوح التي عمَّت الإمبراطورية نجح دارا الأكبر (الأول) في تنظيمها وإدارتها بعد أن قسَّمها إلى عشرين مقاطعة من بينها مقاطعة «عبر الشهر» التي كانت تضم يهودا (بالفارسية : يهود) والتي كانت تمتد من الفرات إلى حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان على كل مقاطعة أن تدفع جزية محددة

## الميديون

Medes

النسبة في كلمة «ميديين» إلى «ميديا» أو «ميدي» وهو إقليم أو موطن الميديين . والميديون من أهم القبائل الفارسية الآرامية الإيرانية التي قدمت إلى إيران في الألف الأول قبل الميلاد . ونزلت كل قبيلة في مكان أصبح يُسمَّى باسمها . فنزل الميديون في الأجزاء الغربية للهضبة الإيرانية ، في كردستان وأذربيجان ، وفي أجزاء من كردمشا ، بينما نزل الفرس في الولايات الجنوبية الغربية التي أصبحت تُعرف باسمهم . ونزل الفرثيون في شرق إيران . وبالإضافة إلى هذه القبائل الثلاث ، نزلت قبائل أخرى في أنحاء مختلفة من إيران .

وقد كان الميديون من أقوى القبائل الفارسية ، ولهذا فقد كان لهم استقلالهم النسبي عن القبائل الأخرى . وتظهر إشارات للميديين في المدونات الآشورية من منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، ويبدو أن اليهود المهجر من المملكة الشمالية نُقلوا إلى المنطقة التي كان يسكن فيها الميديون (عام ٧٢٢ ق.م) . وقد وصلت إمبراطورية الميديين إلى ذروتها في القرن السابع قبل الميلاد ، فلمعوا دوراً أساسياً في إسقاط الإمبراطورية الآشورية بالتحالف مع البابليين وفتحوا نينوى عام ٦١٢ ق.م . ونهب الميديون حاران عام ٦١٠ ق.م ودخلوا في صراع مع الميديين في آسيا الصغرى ، ولكن قورش وضع نهاية لكل هذا حين ضم ميديا إلى الإمبراطورية الفارسية في عام ٥٤٩ ق.م وجعلها أحد المراكز الإدارية للدولة . واحتلتها

الأطراف . ولكنهم وجدوا أن من العسير الاعتماد على الأرستقراطية اليهودية الاقتصادية أو العسكرية متمثلة في بقايا أسرة داود ، فأثروا التعامل مع الكهنة . وما دعم ذلك أن الدولة الفارسية نفسها كانت دولة بشكل الكهنة فيها عنصراً أساسياً في النخبة الحاكمة . وهكذا ، أصبح كهنة الهيكل الثاني النخبة اليهودية الحاكمة التي تحكم باسم الإمبراطور الفارسي وتُسيّر أمور الجماعة اليهودية المتماسكة لصالحه داخل وخارج فلسطين وفي كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية . ومن هنا كانت عودة زروبابل عزرا ونحميا . كما وُجدت جماعات يهودية في أرجاء الإمبراطورية على هيئة مستعمرات مولية للدولة الفارسية وجنود مرتزقة . بل عمل اليهود كجواسيس للفرس إذ يقول هيرودوت إن قمبريز أرسل بعض اليهود ليتجسسوا لصالحه في مصر قبل أن يُجرّد حملته . كما أن أعضاء حامية إلفنتاين انضموا إلى الفرس فور احتلالهم مصر .

ويمكن أن نقول إن اليهود ، أو على الأقل نخبتهم الحاكمة ، قد تحولوا إلى جماعة وظيفية تخدم المصالح الفارسية . ولذا ، فقد كان من مصلحة هذه الدولة تقوية هيمنة النخبة الكهنوتية ، وهي هيمنة استمرت منذ مرسوم قورش وحتى التمرد اليهودي الأول ضد روما والنخبة الكهنوتية عام ٦٦ م . ومن هنا كان دعم الدولة الفارسية لعزرا ونحميا في محاولتهما تسجيل التوراة وفرضها باعتبارها شريعة وقانوناً ملازماً في كثير من الأمور الشخصية تكملها شريعة الدولة . وقد تم ربط الشريعة اليهودية بشريعة الدولة حتى يكتسب القانون الفارسي الديني (الوضعي) شيئاً من الشرعية الدينية . ومن هنا كان إصرار عزرا على نقاء اليهود العنصري بوصفهم جماعة دينية وسيطة وفسخه الزيجات المختلطة - فمن خلال هذا النقاء وحده تستطيع الجماعة أن تقوم بدورها الوظيفي . ومن هنا أيضاً ، كانت حماية الأباطرة الفرس للعقيدة اليهودية وإصرارهم على نقائها ، فقد كتب دارا الثاني رسالة للحامية اليهودية في الفلتاين يشرح لهم فيها طقوس الاحتفال بعيد الفصح ويُذكرهم بضرورة الاحتفال به . لكن هذا لا يعني أن يهودا أصبحت دولة ثيوقراطية ، فقد كانت مقاطعة تابعة وحسب يحكمها الرزبان الفارسي الذي كان يشرف على جمع ضرائب الهيكل بالتعاون مع ملك الأراضي . ولم يكن يتبع الهيكل أي أراض زراعية ، ولهذا فقد كان الكهنة يعيشون على القرابين . ويتجلى ارتباط اليهود بالدولة الفارسية لأخمينية في واقع أن كهنة الهيكل كانوا يقدمون قرباناً في الهيكل كل يوم استجابة للسعادة والرفاهية لسيدّ صهيون وحاكمها الأعلى قورش . ويتضح إحساس اليهود بالعرفان تجاه الأخمينيين حيث جاء في المشناه أن صورة مدينة

للملك نقداً أو عيناً ، وأن تُمد قرواته بالون والقوت . وكان يحكم كل مقاطعة حاكم يمثل الإمبراطور ويجمع الضرائب باسمه . وكان القاضي الأعلى وقائد الجيوش يُسمى «الرزبان» وهو نبيل من أصل فارسي أو ميدي ، وكان هذا الرزبان يُعتبّر حاكماً شبه مستقل يرث أبناؤه منصبه ويساعده مجلس من أعضاء الأسرة المالكة . ومع هذا ، فقد كان الرزبان مسئولاً أمام الملك مباشرة . وقد كانت تُحدّد من سلطات الرزبان مجموعة من الموظفين المدنيين والعسكريين المسؤولين ومجموعة من المفتشين الذين يُطلَق عليهم لقب «عيون الملك» أو «آذان الملك» وكانت هي الأخرى مسئولة بشكل مباشر أمام الملك . وكان الرزبان يرجع في كل الأمور المهمة إلى السلطة المركزية .

وقد أسّس دارا أربع عواصم كان يتنقل بينها ، كما أسّس جيشاً قوياً يضم جنوداً يونانيين ويهوداً مرتزقة بلغ عددهم ثلاثمائة وستين ألفاً . وقد اتسعت الإمبراطورية في عهده حتى وصلت حدودها إلى الهند وآسيا الصغرى . وإلى جانب الجيش ، كانت توجد قوة من الحرس الخاص تُسمى «الخالدون» . وأسّس الأخمينيون شبكة هائلة من الطرق يسيّر حركة الجيوش والتجارة والبريد . وقد سمح الأخمينيون (ومن بعدهم الفريوني والساسانيون) للشعوب التي حكموها بدرجة من الحكم الذاتي . وعم السلام الفارسي ، لبعض الوقت ، الشرق الأدنى القديم .

وحيثما ضمّ قورش فلسطين إلى الإمبراطورية الفارسية ، أصدر مرسومه (٥٣٨ ق. م) الذي سمح للعبرانيين الذين كانوا قد هُجروا إلى بابل بالعودة إلى فلسطين . لكن أثرياء اليهود الذين حقّقوا مكاسب اقتصادية لم يتحمسوا للعودة ، كما لم يتحمس لها الفقراء الذين أحرزوا قدراً من الحراك الاجتماعي والاندماج في مجتمعهم الجديد . ولكن بقايا الكهنة والأسرة الحاكمة العبرانية كانوا من أكبر المتحمسين للعودة ، لأن هذا كان يعني بالنسبة لهم العودة إلى المجد القديم والهيمنة وإلى العبادة القربانية المرتبطة بالهيكل بكل ما كان يتضمنه ذلك من مغامرات اقتصادية ومكانة اجتماعية وهيبة دينية . ويُلاحظ أن العائلين كانوا قد نسوا لغتهم العبرية وأصبحوا يتحدثون الآرامية ، كما يُلاحظ أن العبادة اليسرائيلية اكتسبت أبعاداً جديدة غيرت هويتها وبدأت تتحول إلى العقيدة اليهودية . ولكل هذا ، يجب أن نشير إلى العائلين باصطلاح «يهود عبرانيين» ، ولكننا تبسيطاً للأمر سنشير إليهم باعتبارهم يهوداً وحسب .

وكان الأخمينيون ، كما أسلفنا ، يسمعون بقدر من الإدارة الذاتية للشعوب والجماعات التي تضمها إمبراطوريتهم المترامية

## الزرادشتية

Zoroastrianism

النسبة في كلمة «زرداشتية» إلى «زرداشت» (٦٧٤ - ٥٥١ ق. م.) وهو مفكر ديني ظهر في فارس . و«الزرداشتية» عبادة توحيدية وثنية في أن واحد ، أو يمكن القول بأنها بدأت توحيدية ثم تحولت بالتدريج إلى ثنوية . وكما يذكر الدكتور علي عبد الواحد وافي ، فإن زرداشت نادى بأنه ثمة إلهاً واحداً خلق الأشياء المادية والروحية كافة . وكان يُطلق على الإله اسم «أهورامزدا» .

ولما كانت ذات «أهورا مزدا» ذاتاً روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة ، لا تتركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول ، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون الإيمان بذات من هذا النوع إلا إذا رمز إليها برموز مادية يستطيعون تصوورها ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى الذات العلية برمزين ماديين مرتبئين تقوى عقول الجماهير على إدراكهما ويشتمل كلاهما على بعض مظاهر أهورامزدا على وجه التقريب والتمثيل . هذان الرمزان أحدهما سماوي وهو الشمس ، والآخر أرضي وهو النار . وكلاهما عنصر متلازم مضيء طاهر مُطهرٌ لا يتطرق إليه الخبث ولا الفساد ، وتتوقف عليه حياة الكائنات . وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات الخالق نفسه وترمز إليها .

ومن هنا حرصت الديانة الزرادشتية على أن يُوقد في كل هيكل من هياكلها شعلة من النار ، وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضيئة ، يتعهد بها الموابدة (كبار رجال الدين) والهرابلدة (صغار رجال الدين) ورجال الكهنوت ، فيُقدّمون لها خمس مرات في اليوم وقوداً من خشب الصندل وما إليه من الأعشاب والمواد العطرية فيمتلئ الهيكل بعرفها الطيب وريحها الذكي ، وترثّل حولها الأوعية وتقام الصلوات . وكان من عادة الزرادشتيين ، إن أقاموا هيكلًا جديدًا للنار ، أن يحملوا إليه من كل النواحي شعلات موقدة ، وأن يبالغوا في تطهير هذه الشعلات ، فيقتبسوا من الشعلة الأولى شعلة ثانية ومن الثانية ثالثة وهكذا حتى يصلوا إلى التاسعة ، فيعتقدون أنها قد وصلت إلى أرقى درجات الطهارة ، ويوقدون بها نار الهيكل الجديد .

وقد بالغ الزرادشتيون في تقديس نار الهيكل فأوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل زفيره إليها فيلوثها . وكان عليه أن يتذكر حينما يدنو من هذه القوة الأرضية أن هذا النور الفياض إنما يرمز إلى أهورامزدا .

ويتمثل العنصر الوثني في الزرادشتية في المبالغة في تقديس

سوسة عاصمة ملوك فارس كانت تُبني على البوابة الشمالية من الهيكل لتُتكر اليهود بأن خلاصهم تم على يد الأخمينيين .

وقد تحوَّلت العودة إلى يهود ، أي مقاطعة يهودا الفارسية ، في الوجدان اليهودي إلى خروج ثان ، وقرن عبور عزرا للصحراء بعبور العبرانيين البحر الأحمر وبناء الهيكل وظهور الإله لموسى (فالهيكلي هو حلول للحضرة الإلهية - شخنياه) . كما قرنت قراءة التوراة على يد عزرا بنزولها ، أما فسح الزيجات المختلطة فقد قرنت بغزو كنعان وإعادة الكنعانيين .

ونحن لا نعرف الكثير عن حياة اليهود في فلسطين حتى غزو الإسكندر ، ولكننا نعرف أن الحالة الاقتصادية كانت سيئة على وجه العموم كما كانت الضرائب ثقيلة والأرض غير منتجة . ومن المحتمل أن نحميا ، بعد عودته إلى سوسة ، عيّن أخوه خنانيا حاكماً . وفي القرن الخامس ، نشب صراع بين الكاهن الأكبر وأخيه ، الأمر الذي أدّى إلى توقيع عقوبة شديدة على الجماعة اليهودية . وقد استمر الصراع القديم بين يهودا والسامرة ، وإن كان ذلك أخذ أشكالاً جديدة . فقبل غزو الإسكندر ، تزوجت نيكاسو ابنة سنبلط الثالث حاكم السامرة الفارسي من منسى شقيق الكاهن الأعظم . فرفضت السلطات الدينية في يهودا الفارسية الاعتراف بالزواج ، وطلبت من منسى أن يختار بين الكهانة أو الزواج ، فقبل منسى عرض سنبلط بأن يُصبح كاهناً أعظم في الهيكل الذي سيؤسس في جريزيم ، وتبعه عدد كبير من الكهنة إلى السامرة . وهكذا بدأت طائفة السامريين .

ورغم انتشار اليهود على هيئة جماعات في أطراف الإمبراطورية الفارسية ، فإنها ظلت كلها ، ومنها فلسطين ، داخل إطار واحد هو الدولة الأخمينية الفارسية . ولكن حادثاً تاريخياً مهماً ، هو قيام الإسكندر عام ٣٣١ ق. م بغزو الإمبراطورية الفارسية وضم فلسطين وأجزاء كبيرة من الإمبراطورية نفسها ، أدّى إلى القضاء على وحدة اليهود ، وهي وحدة كانت مُستَمدة من وحدة الإمبراطورية الفارسية . وكان من الممكن أن نتحدث ، حتى هذه اللحظة ، عن تاريخ عبراني أو عبراني يهودي واحد باعتبار أن التاريخ الواحد كان مرتبطاً بمسار التاريخ الفارسي . ولكن ، بعد أن ظهر الإسكندر وضم فلسطين ، لا بد أن نتحدث عن تواريخ الجماعات اليهودية باعتبار أنه لا يمكن فهم تاريخ يهود فلسطين ، بعد أن ضمها الإسكندر ، إلا في إطار التاريخ اليوناني . كما لا يمكن فهم تاريخ يهود بابل غيرها من الأماكن في هذه المرحلة إلا بالعودة إلى التاريخ الفارسي .

## قورش الأكبر (٥٤٦-٥٣٠ ق.م)

Cyrus the Great

«قورش الأكبر» مؤسس الإمبراطورية الفارسية (الأسرة الأخمينية) . كان حاكماً لدولية تابعة للميديين ، ولكنه تخلص من هيمنتها ، ثم ألحق بها الهزيمة وأسس إمبراطورية مترامية الأطراف . فتح بابل حيث وجد جماعة يهودية يعود أصلها إلى سبي نبوختنصر عام ٥٨٦ ق.م ، ويبدو أنها ساعدت على احتلال المدينة . وقد اختط قورش سياسة جديدة تختلف في كثير من الوجوه عن السياسة الإمبراطورية السائدة حتى ذلك الوقت في الشرق الأدنى القديم ، فقد قام بفصل القصر عن المبد ، كما تقبل التعددية الدينية في البلاد المستعمرة مادامت شعوبها خاضعة له ولا تنمرّد عليه كما أنه انجبه نحو استخدام الشعوب المعادية لأعدائه ، فقد وعد المدن اليونانية في أيونيا بأن يمنحها حريتها إن هي ساعدته ضد كروسوس حاكم ليليا . كما أعاد للبابليين إلههم مردوخ .

وقد طبق قورش السياسة نفسها على اليهود ، فأصدر عام ٥٣٨ ق.م مرسوماً بإعادة اليهود الذين وطئوا في بابل إلى فلسطين ، على أساس أن وجود جماعة يهودية في فلسطين تدين بوجودها لإحسانه سيسهل توازناً فعالاً اتجاه الحزب الموالي للمصريين الذي كان يلعب دوراً بارزاً في سياسة فلسطين .

ولقد سمح قورش لليهود بأن يعودوا إلى القدس ليعيدوا بناء الهيكل . أما من لم يرد العودة ، فكان عليه أن يموت هذه العملية «بفضة وبذهب وبأمتعة وببهاثم مع التبرع لبيت الرب الذي في اورشليم» (عزرا ١/٤) . وقد جاء ذلك في عزرا أيضاً « فبنوا وأكملوا الهيكل حسب أمر إله إسرائيل وأمر قورش وداريوس وأرتخششتا ملك فارس» (عزرا ٦/١٤) .

وأعاد قورش كذلك كل الصور المقدسة التي كان نابونيدس آخر ملوك بابل قد حملها إلى عاصمة بلاده ، كما أعاد محتويات الهيكل . ويقال حسبما يروي نحميا إن عدد اليهود الذين عادوا يبلغ ٣٦٠ ، ٤٢ وهو رقم مبالغ فيه إن لم يكن من نسج الخيال . وقد حلنا أرتخششتا الأول (٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م) حذو قورش ، واتبع السياسة نفسها ، وأيد بعثة عزرا ونحميا لإعادة بناء الهيكل . ولكل هذا ، أعتبر قورش خليفة ملوك بيت داود الشرعي على حد قول الموسوعة اليهودية ، وقورش هو غير اليهودي الوحيد الذي أشير إليه في العهد القديم بأنه الماشيخ .

وخطة قورش خطة صهيونية كاملة تعني أن يعود اليهود بمرورهم القومية ليصبحوا قاعدة لدولة إمبراطورية (صهيونية

النار . وبالفعل ، تركت الزرادشتية التوحيد وتحولت إلى ديانة حولية ثنوية وتحولت النار من إشارة إلى الخالق ورمز له ، إلى موضع الكمون والحلول . ولم يكن في أصل العقيدة الزرادشتية إلهان ، وإنما كان فيها قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة : إحداهما مجموعة قوى الخير والنور والحياة والحق والكرم ، والأخرى قوى الشر والظلام والموت والخطإ . وكلتا المجموعتين من القوى أو الدوافع ، مع توابعهما وملحقاتهما ، كانت خاضعة للإله الواحد المسيطر على كل شيء في الوجود وهو أهورامزدا . ولكن النار تحوكت من إشارة إلى الإله إلى تجسد للإله ، تجسدت في أهرمان الذي تحوكت إلى إله للشر مساو لأهورامزدا في القدرة ، شريك له مع أنه لم يأت له ذكر في الأسفار المقدسة للزرادشتيين كقوة مستقلة . وقد ذكر الشهرستاني أن زرادشت قال إن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا نذ . ولكن الزرادشتية تركت ذلك وأصبحت ترى أن العالم إن هو إلا حلبة صراع دائم بين إله الخير والنور (أهورامزدا) وإله الشر والظلام (أهرمان) . وانتصار أهورامزدا النهائي أمر أكيد . ولكن البشر يمكنهم أثناء الصراع أن يساعدوا الخير باتخاذ قرارات أخلاقية حرة وإصدار أحكام في حياتهم اليومية تستند إلى الاختيار الحر . ومن يختار الخير والحق يربح مكافأة أزلية في الحياة الآخرة ، أما من يختار الكذب فإنه يلقى به في الجحيم الأزلي .

وقد كان للزرادشتية كتبها المقدسة التي تُعرف باسم «زندافستا» والتي لم يتم تدوينها حتى بداية العصر المسيحي ، وهي تضم أفكار زرادشت والأفكار التي أضافها أتباعه ومفسرو حكمته ، ولذا فإن الزندافستا تُسمم بأنها خليط متناقض من الأفكار والآراء .

وقد ظهرت عبادات أخرى بين الفرس من أهمها المانوية ، وعبادة النار ، ومذهب مزدك الذي يُعني الملكية الفردية ويقول بإباحة النساء والغناء الزواج (وقد اعتنقه أحد ملوك الساسانيين) . ويبدو أن الزرادشتية ، وكذلك العبادات الفارسية الأخرى ، تركت أثرًا عميقاً في الديانة اليهودية ، وخصوصاً في الأفكار الأخروية وفي فكرة الماشيخ . ويقال إن جماعات الأسينيين ، وهي جماعات من السناك اليهود ، تأثرت بتعاليم الزرادشتيين ، وخصوصاً في المفاهيم الثنوية مثل الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام . ومن أهم الجماعات الوظيفية في العالم الزرادشتيون ، الذين يُسمون أيضاً «عبدة النار» ، أو البارسي في الهند ، وكثيراً ما تتم مقارنتهم بالجماعات اليهودية .

**أحشويروش**

Ahasuerus

«أحشويروش» اسم ملك فارسي تزوج إستر . ويُعرف في اليونانية باسم «زرطكسيس» (٤٨٦ - ٤٥٦ ق.م) .

**الفرثيون**

Parthians

«الفرثيون» هم سكان إقليم فرثيا أو بارتيا (خراسان) الذي كان يقطن فيه أحد الشعوب الإيرانية (الآرية) . وقد حصل هذا الإقليم على استقلاله في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أيام سلوقس الثاني (٢٤١ - ٢٢٦ ق.م) ، وكانت عاصمته أرساق . ثم أخذت الدولة تتسع بما كانت تستولى عليه من أقاليم الدولة السلوقية حتى ضمت في أقصى ازدهارها كل مدن إيران الحديثة ، والعراق ، ومعظم بلاد الأفغان ، وقسماً من تركيا ، وأقاليم متسعة كانت تابعة للاتحاد السوفيتي (سابقاً) . ومع القرن الثاني قبل الميلاد ، سيطر الفرثيون على المناطق التي كان السلوقيون قد استولوا عليها من أملاك الإمبراطورية الفارسية ، ومنها بلاد الرافدين التي ضموها إلى مملكتهم عام ١٤١ ق.م ، وجعلوا سلوقية (على بعد ميلين جنوب شرقي بغداد) عاصمة شتوية لهم ، وهاجموا سوريا وسيطروا على تدمر باعتبارها من أهم المراكز التجارية ، ولكنهم لم يتنجحوا في ضم فلسطين .

ولم تكن الدولة الفرثية تتسم بالركزية ، وإنما كان حكمها فيدرالياً إذ قُسمت المملكة الواسعة إلى ممالك صغيرة وإمارات يحكم كل مملكة أو إمارة ملك أو أمير يكون خاضعاً للملك الفرثي الجالس على عرش طيسفون . وكانت بعض المدن مستقلة استقلالاً إدارياً وسياسياً ، ولم يكن للفرثيين عليها إلا خراج يتقاضونه . وكان ضمن هذه الإمارات خمس في العراق ، هي : ميسان والخضر وحدياب والحيرة وسنجار .

ويبدو أن طبقة الأمراء كانت تتمتع بنفوذ واسع . وبما زاد من أهمية هذه الطبقة أن خليفة الملك لم يكن بالضرورة أحد أقاربه . وكان للأمراء يد في تعيينه ، وهو ما كان يؤيد التورات دائماً . وقد بدأت دولة الفرثيين تتدهور في القرن الأول قبل الميلاد . ومع موت إفرهاط الرابع (٣٧ - ٢ ق.م) ، عم الاضطراب والوهن ونسبت الاضطرابات والتزاعات بين الأمراء على الحكم ، وهذا هو ما شجع بعض المدن والمقاطعات على أن تتحرر من تبعية الدولة الفرثية . وقد تزامن ذلك مع صعود القوة الرومانية ، فوقع الصراع بين الفرثيين

استيطانية) ، وتكون عودتهم جزءاً من سياستها الإستراتيجية العامة . أما بقية اليهود ، فيقومون بتمويل عملية العودة ، ويتحولون إلى عملاء للإمبراطورية الجديدة (صهيونية توطينية) أو يتحولون إلى جنود مرتزقة كما حدث في الفلتاين . وحينما زار شاه إيران (نور الدين) أوروبا عام ١٨٧٣ ، كانت الوفود اليهودية تُذكره بقورش وما فعله لليهود .

وتحدث الأدبيات الصهيونية عن عقدة قورش (قورش كومبلكس) ، وهي عقدة الزعيم الغربي غير اليهودي (مثل بلفور أو ترومان) الذي يبذل قصارى جهده لإعادة اليهود إلى وطنهم ، وبذلك يضمن لنفسه مكاناً بارزاً فيما يُسمى «التاريخ اليهودي» . وفي عام ١٨٣٩ ، كتب هنري أنس سكرتير البحرية البريطانية مذكرة لبارستون موجهة إلى كل دول شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية تطالبهم بأن يقتدوا بقورش وينفذوا إرادة الإله عن طريق السماح لليهود بالعودة إلى فلسطين .

**دارا (داريوس) الأول (٥٢٢-٥١٥ ق.م)**

Darius I

«دارا» أو «داريوس الأول» أحد أباطرة الفرس . اتسعت سنوات حكمه الأولى بالحرب المستمرة لإخماد الثورات ضده في جميع أنحاء الإمبراطورية . وبلغت المعارك التي خاضها ست عشرة . ويبدو أن ضعف الدولة الفارسية بعث الآمال في قلوب اليهود لأن استعداد المملكة اليهودية استقلالها تحت راية زروبابل ، كما يتضح في نبوءات حجابي وزكريا . وقد قضى دارا على كل هذه الآمال . ولكنه ، مع هذا ، سمح بالاستمرار في بناء الهيكل لتهدئة اليهود . ويذكر بعض المؤرخين أن دارا الثاني (٤٢٤ - ٤٠٥ ق.م) هو الذي أعطى الإذن بذلك وموّل عملية البناء من الأموال الحكومية الفارسية .

**(ارتخششا الأول (٤٦٥-٢٤) ق.م)**

Artaxerxes I

«ارتخششا الأول» أحد أباطرة فارس . يُشار إليه في سفري عزرا ونحميا . وحسب سفر نحميا ، سمح ارتخششا لعزرا بالعودة إلى يهودا الفارسية لبناء الهيكل وأعطاه منحة مالية كبيرة لهذا الغرض .



فاشترك أمير اليهود (ناسي) في فلسطين مع رأس الجالوت في فرثيا في تجارة الحرير ، وقد كانت واحدة من أهم السلع في التجارة الدولية .

ومن إمارات الدولة الفرثية ، إمارة حدباب التي تهوّدت أسرته المألقة . ولم تكثرت الجماهير لذلك ، أما النبلاء فقد قاوموا هذا التهود الذي كان يعني تحولا في سياسة الإمارة . وأصبحت الإمارة ساحة للصراع بين الرومان والفرثيين ، كما ألف أخوان يهوديان هما أسبناي وأنيلاي عصابة من المشردين وقطاع الطرق في زمن أربطان الثالث (١١ - ٤٠) وبينها قلعة وأخذها يجمعان الإتاوات من أصحاب الأغنام في المناطق المجاورة مقابل حمايتهم . وأخذ نفوذهما يتسع في المنطقة حتى أسسا ما يشبه دولة العصابات . وقد استمرت هذه الدولة مدة خمسة عشر عاماً (٢٥ - ٤٠) . وفي نهاية الأمر ، تمرد البابليون ضد العصابة اليهودية وقضوا على زعيمها وجماعته ، بل هاجوا ضد الجماعة اليهودية ككل ، ففرّ خمسة آلاف يهودي إلى سلوقية ، وفرّ الباقيون إلى طيسفون ثم إلى نهر دعه وغيرها من المدن التي كانت تضم كثافة سكانية يهودية .

هذا فيما يتصل بالجماعات اليهودية داخل الدولة الفرثية . أما فيما يتصل بعلاقة الدولة الفرثية بيهود فلسطين ، فقد حاول الفرثيون ، شأنهم شأن كثير من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم ، أن يكسبوا يهود فلسطين إلى صفهم في صراعمهم ضد السلوقيين والرومان فأعدوا انتيجونوس مائثاس (الحشموني) لعرشه في يهودا عام ٤٠ ق. م . ولكن الرومان قبضوا عليه وأعدموه عام ٣٧ ق. م .

وعلق اليهود الآمال على الفرثيين . وقد قال أحد الخاخامات إنه إذا رأى إنسان حصاناً فرثياً مربوطاً بجوار شاهد قبر في فلسطين لوجب عليه أن يُصنعي خطوط الماشيخ . ولكن ، نظراً لانعدام مركزية الدولة ، رفض الأمراء الفرثيون تمويل حملة ضد فلسطين . ولذا ، مني الحزب اليهودي الموالي للفرثيين بالهزيمة في فلسطين وأحكم الرومان هيمنتهم . ثم سقطت الأسرة الفرثية حوالي عام ٢٢٤ م على يد أرديشير الأول (٢٢٦ - ٢٤٠) الذي أسس الإمبراطورية الساسانية التي ورثت جميع ممتلكات الإمبراطورية الفرثية .

#### الساسانيون

Sassanids

تمكّن الفرس الساسانيون بقيادة أرديشير الأول (٢٢٦ - ٢٤٠) من إسقاط الدولة الفرثية وتأسيس مملكة فارسية باسم الدولة

والرومان على طرق التجارة والقوافل على الفرات وعبر الصحراء . وقد تدخّل الرومان في شئون المملكة الداخلية حتى صار الأمراء يستغيثون بهم لمعاونتهم ضد منافسيهم للوصول إلى الحكم . وأباد الفرثيون جيشاً رومانياً بقيادة كراسوس عام ٥٣ ق. م ، كما كبدوا تراجان خسائر فادحة حينما قام بحملة لفتح بلادهم (١١٤ - ١١٧ م) . وقد وضع الفرثيون حداً للتوغل الروماني ، واستمرت الحروب مع هذا بين الطرفين سجلاً .

وكان عدد اليهود في بابل ، التابعة للدولة الفرثية ، كبيراً للغاية إذ بلغ مساباً بين ٨٠٠ ، ١٠٠٠ و ١ ، ٢٠٠ ، أي ١٠ - ١٢٪ من مجموع سكان بابل . وقد انعكست لا مركزية الإمبراطورية الفرثية وفيدرليتها على وضع اليهود ، إذ تمتع أعضاء الجماعات اليهودية بقدر كبير من الاستقلال . ففي المدن التي كانت لهم فيها طائفة كبيرة ، تمتعوا بالاستقلال وحق انتخاب القضاة . أما في المدن التي كان كل أو معظم سكانها يهوداً ، فإنهم كانوا يتمتعون بما كان للمدن اليونانية من الاستقلال ، وظهرت طبقة أرستقراطية يهودية مندمجة في محيطها الحضاري .

ولأن الدولة الفرثية لم تكن دولة مركزية قوية ، فلم تكن لها عبادة رسمية (رغم انتشار عبادة الآلهة الإيرانية في معابد النار) . ولذا ، فقد قام تحالف قوي بين النخبة الحاكمة الفرثية والجماعة اليهودية التي قام أعضاؤها بنشاط تبشيري فيها وازدهرت داخلها . وظهرت وظيفة رأس الجالوت (المنفي) في تلك الفترة ، وتم تأسيس حلقة سورا التلمودية التي كانت تُعدّ مركز الحياة الفكرية والدينية لليهود لمئات من السنين ، وذلك حتى بعد التمرّد اليهودي الثاني (١٣٢ - ١٣٥) ضد الرومان (بركوخبا) . كما أسس اليهود السهندرلين ليحل محل سهندرلين فلسطين ، أمليّن أن يتقلد مركز السلطة من فلسطين إلى بابل ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، إذ استعاد سهندرلين فلسطين مكانته .

ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن يهود بابل لم يكثرثوا كثيراً في هذه الفترة للتمرّد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠) ضد الرومان ، فقد كان الهيكل وحده محط اهتمامهم . وبعد هدمه ، استخدم الرومان يوسيفوس كي يبرهنهم أمام جماهير اليهود . وقد توجّه هو إلى «إخوتنا عبر نهر الفرات» أي يهود بابل . وكذلك لم يؤيد يهود بابل التمرّد اليهودي الثاني (١٣٢ - ١٣٥) . ولكن ، أثناء حملة تراجان ، ثار ضده يهود بابل ربما بسبب انتمائهم إلى الإمبراطورية الفرثية .

وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من وجودهم في كل من الإمبراطوريتين الرومانية والفرثية بتكوين شبكة تجارية عالمية ،

تهدها من الداخل الديانة الماثوية الجديدة (وهي ديانة غنوصية كانت تحاول الوصول إلى مزاجية بين الزرادشتية والمسيحية واليهودية) . كما كانت تهدها المسيحية في الخارج والداخل ، إذ كانت حركة التبشير المسيحي نشيطة بحيث دخلت أعداد كبيرة من الفرس في المسيحية .

وفي أواخر القرن الخامس الميلادي ، انتشر منذهب مزدك (الشيعي الإباضي) الذي تبناه قمبرز الأول عام ٤٨٨م بهدف كسر شوكة النبلاء ، ولكنه تراجع عن ذلك فيما بعد بضغظ من النبلاء والكهنة . ولقد ألحقت فترة الاضطرابات هذه بعض الأذى بأعضاء الجماعة اليهودية سواء في ممتلكاتهم أو منشآتهم . وأثناء حكم قمبرز الأول ، أعدم مار إسحق رئيس مدرسة ماحوزي اليهودية . ويبدو أن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى تَصَرُّد رأس الجالوت (النفغي) مار زوطرا الثاني (٥١٣م) ، فأسس كياناً سياسياً استمر سبع سنوات تمتع فيها باستقلال ذاتي محدود وقام بجمع الضرائب . وقد اشتركت معه في الثورة عناصر غير يهودية ، ولكن الثورة حوصرت وأعدم قائدها عام ٥٢٠م . وحينما ضم الفرس الساسانيون فلسطين عام ٦١٤م ، رحب بهم اليهود هناك إذ رأوا في هذا الفتح خلاصاً لهم من الاضطهاد المسيحي . ولذا ، حينما استعادها البيزنطيون مرة أخرى عام ٦٢٩م ، نكّلوا بيهود فلسطين ، ولكن هذه الفترة لم تمتد طويلاً إذ أن الفتح الإسلامي (٦٣٠ - ٦٤٠) أدخل فلسطين التشكيل الحضاري الإسلامي وقضى على دولة الفرس الساسانية .

ويمكن القول بأن الفترة الفارسية قبل الإسلام كانت فترة مهمة في تاريخ اليهود في الشرق الأدنى القديم . وتتمشي شخصيات توراتية مهمة ، من بينها نحميا وعزرا وزروربايل ، إلى هذه الفترة . وخلفية سفر إسستير ، وهو من أهم أسفار العهد القديم ، خلفية فارسية ، وكذا خلفية سفر طوبيت . ولقد تأثرت العقيدة اليهودية نفسها بكثير من الأفكار الإيرانية الأخرى وغيرها من الأفكار الدينية ، وطُرحت في هذه المرحلة أيضاً فكرة أن شريعة الدولة لها فعالية الشريعة الدينية (بالأرامية : دينا ملكوتا دينا) ، وهو ما يعني الاعتراف بأن الشريعة اليهودية لا تغطي كل جوانب الحياة ، فيمكن أن يحل محلها القانون المدني غير اليهودي في كثير من الأحوال ، وهي فكرة محورية في اليهودية الحاخامية ومعادية للاجتهاات المشيحية .

وبدأت اليهودية في هذه الفترة تأخذ الشكل الذي استقرت عليه حتى بداية القرن التاسع عشر ، وازدهرت الحفقات التلمودية (في سورا ونهردهو وبومبديثا) التي وُضعت فيها تفسيرات التوراة المختلفة ثم جُمعت لتشكيل التلمود البابلي الذي أصبح أهم الكتب الدينية عند اليهود .

الساسانية في ٢٢٦ ميلادية والتي ادعت أنها استمرار للأسرة الأخمينية . ووسَّع أردشير الأول إمبراطوريته حتى شمل نفوذها مصر واليمن ، وكانت الإمبراطورية الساسانية أكثر مركزية من الإمبراطورية الأخمينية . ونظراً لأن الأباطرة الساسانيين كانوا أميين ، أصبحت الأرامية (وليس الفارسية) لغة الإدارة . وعاصرت الإمبراطورية الساسانية في الشرق الإمبراطورية البيزنطية في الغرب ، وكانت الحروب بينهما سجلاً . واستمر الأمر كذلك حتى الفتح الإسلامي .

وكان الساسانيون ، في الأصل ، أسرة كهنوتية يتصورون أن الألهة قد اختارتهم لاستعادة أمجاد الفرس (الأخمينيين) السابقة . وقد تبناوا الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة . ولكن تجب ملاحظة أن الزرادشتية التي تبناها تختلف عن الزرادشتية الأصلية التوحيدية ، فقد كانت قد استوعبت كثيراً من عناصر الديانات الإيرانية السابقة وتحولت إلى ديانة ثنوية تكاد تقترب من عبادة النار . كما أن كهنة المجوس (وهم من أصل ميدي) ، أصبحوا سذنة الزرادشتية . وقد تزامن ظهور الساسانية مع احتدام الصراع مع روما التي اتخذت المسيحية ديناً رسمياً لها . وأدَّى ذلك إلى أن الدولة الفارسية أعادت تنظيم نفسها بشكل هرمي ، واتخذت الزرادشتية ديناً رسمياً لها ، وأصبح كهنة المجوس عنصراً أساسياً في الهيكل التنظيمي للدولة . وقد نجم عن ذلك ، بطبيعة الحال ، سياسة أكثر مركزية وأقل تسامحاً من سياسة الفرس في زمن الأخمينيين أو الفرثيين وإن كان المسيحيون هم العنصر المستهدف بسبب تعاطفهم الطبيعي مع روما ، القوة العظمى المنافسة . ولذا ، فإننا نجد أن كثيراً من يهود فلسطين هاجروا إلى فارس هرباً من الاضطهاد المسيحي حتى إن مركز الحياة اليهودية خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين أخذ يتحرك من فلسطين إلى بابل ، كما بدأت هجرة العلماء اليهود من فلسطين إلى بابل . وأصر علماء بابل على أفضليتهم على علماء فلسطين ، بل منعوا تلاميذهم من الذهاب إلى فلسطين . وقد شهد القرن الثالث الميلادي هجوم إمبراطورية تَدْمُر (بزعامه أذينة) على بابل (٢٦٢ - ٢٦٣) ومهاجمة التجمعات اليهودية فيها . ولعل هذا يعود إلى المنافسة بين تجار تَدْمُر والتجار اليهود . ولكن شابور ملك الساسانيين هزم التدمريين . ولذا ، رحب اليهود بهزيمة أذينة وهزيمة زوجته وخليفته زنوبيا (زينب) .

ومع هذا ، شهد القرن الخامس الميلادي ، وخصوصاً في عصر يزدجر الثاني ، حملة شديدة ضد اليهود وغيرهم من الأقليات في محاولة لتثبيت دعائم الدولة وتشجيع الديانة القومية التي كانت

إستير

Esther

يَعْتَبُ الظن أن اسم «إستير» هذا ذو أصل هندي قديم معناه «سيدة صغيرة» ثم انتقل اللفظ إلى الفارسية وأصبح معناه «كوكب»، ويُقال إن لهذا اللفظ علاقة باللفظ الأكادي «أشكار» (عششروت بالبرية). وإستير اسمها بالعبرية هو «هاداساه» أي «شجرة الأسن». نشأت إستير في شوشن (العاصمة الفارسية)، ودخلت البلاط الفارسي دون أن يعرف أحد هويتها، وأصبحت خليلية مقربة من الملك بعد أن طُلِّق زوجها الملكة وشتي التي رفضت أن يُعرض جمالها على الملأ.

وقد سُمِّيَ أحد أسفار العهد القديم باسم إستير. ويتحدث السفر عن مؤامرة حاكها هامان وزير الملك أحشوروش ملك الفرس (زركسيس عند اليونان) ضد اليهود، إذ نجح في الحصول على موافقة الملك على التخلص من هذا الشعب الغريب الذي لا يلتزم بقوانين المملكة ولا يتمسك بشرائعها وعاداتها وشعائرها. وقد اكتشف مردخاي ابن عم إستير المؤامرة، ولم يكن يعرف أحد أنها قريبة فديرا معاً مؤامرة مضادة للإيقاع بهامان. ونجحت إستير بتأثير فتنتها وجمالها في أن تكسب الملك إلى صفها. ولكن الملك لم يكن في وسعه أن يتراجع عن أمر أصدره، فأصدر أمراً آخر بتسليح اليهود الذين قاموا ببيع أعدائهم.

ويقول السفر: «فلما رأى الملك إستير واقفة في الدار، نالت نعمة في عينيه، فمد الملك لإستير قضيب الذهب الذي بيده فدنث إستير ولمست رأس القضيب... فقال الملك لإستير عند شرب الخمر: ما هو سؤالك فيعطى لك وما هي طلبتك، إلى نصف المملكة تنقضي، فأجابت إستير وقالت: إن سؤالي وطلبتي إن وجدت نعمة في عيني الملك وإذا حسن عند الملك أن يعطي سؤالي ويقضي طلبتي إن يأتي الملك وهامان إلى الوليمة التي أعملها لهما، وغداً أقفل حسب أمر الملك» (إستير ٥/٢، ٦-٨). وبعد أن يحضر الملك الوليمة ويشرب الخمر، تخبره بأنها تطلب رأس هامان. ويذهب الملك إلى حديقة القصر ليفكر. وحينما يعود إلى مجلس الشرب يتأجأ بهامان «يتوسل عن نفسه إلى إستير الملكة»، ولكن الملك يراه «متواقماً على السرير الذي كانت إستير عليه، قال الملك هل أيضاً يكسب الملكة معي في البيت» (إستير ٧/٨).

وينتهي الأمر بصلب هامان. وبعد ذلك أعطى الملك إذناً لليهود «أن يجتمعوا ويقفوا لأجل أنفسهم ويهاكروا ويقتلوا ويقوموا بإبادة قلة كل شعب، حتى الأطفال والنساء، وأن يسلبوا غنيمتهم»

(إستير ٨/١١). وفرح اليهود حتى أن كثيرين من شعوب الأرض تهودوا «لأن رعب اليهود وقع عليهم» (إستير ٨/١٧). وأخذ اليهود في الانتقام يساعدهم في ذلك رؤساء البلدان «ف ضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك، وعملوا بمبغضيتهم ما أرادوا. وقتل اليهود... وأهلكوا خمسمائة رجل» (إستير ٩/٥-٦) و«صلبوا بني هامان العشرة ثم قتلوا بعد ذلك ثلاثمائة رجل» (إستير ٩/١٤-١٥) ثم «خمس مئة وسبعين ألفاً» (إستير ٩/١٦) ولكنهم «لم يمدوا أيديهم إلى النهب» (إستير ٩/١٦). ثم استراح اليهود وجعلوا اليوم الخامس عشر من الانتقام يوم فرح.

وثير سفر إستير كثيراً من المشاكل، فهو يتسم بصيغته الذنوية اللادينية إذ لم يأت فيه ذكر الإله بساتاً، بل يُستعاض عنه بضمير الغائب «هو»، ولا إشارة فيه إلى أي مكان مقدس ولا إلى أية شعائر دينية (سوى الصوم وعيد النصيب)، كما أن نبرته القومية قوية. ومع هذا، يحظى هذا السفر بمكانة دينية فريدة، فهو يشكل إحدى الفوائض الخمس التي تُقرأ خلال العام في خمسة أعياد مختلفة، إذ يُقرأ في عيد النصيب (البورج) في المعابد اليهودية، وفي إذاعة إسرائيل، وعيد النصيب هو العيد الذي يحتفل فيه اليهود بنجاتهم من مؤامرة هامان. وقد أُثير نقاش حاد بشأن ضم هذا السفر إلى متن الكتاب المقدس، وقيل مع ذلك في نهاية الأمر. وقد سُمِّيت باسم إستير أكبر منظمة صهيونية في العالم وهي منظمة الهاداساه (منظمة النساء الصهيونيات).

ويمكن القول بأن السفر ربما يعود إلى النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد وأن أحشوروش المشار إليه هو الأول (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م). ومع هذا، لا يوجد أي سند تاريخي لمثل هذه القصة. ويُقال إن الكتاب قد كُتِب لتبرير الاحتفال بعيد النصيب، وأن سفر إستير نفسه بُلّ ضمن الكتب المعتمدة باعتباره جزءاً من عملية التبرير هذه إذ أن عيد النصيب عيد وثني. بل يبدو أن القصة ككل ذات طابع أسطوري يتضح في المبالغات الخاصة بأعداد الذين أبادهم اليهود. ويبدو أن القصة ليست عن أصل عبري وإنما هي أسطورة بابلية قديمة تحكي انتصار الإلهين البابليين مردوخ (مردخاي) وعشار (إستير) على الإلهين العيلاميين هومان (هامان) وماشتي (وشتي) الملكة.

وفي الأجداد، تُعد إستير سليلة الملك شاؤول، ومن أجمل أربع نساء في العالم: لقد كان مظهرها الخارجي يدل على أصلها اليهودي، وكان كل من يراها يظن أنها من قومه هو. وقد تحولت إستير إلى بطلنة يهود المارانو المتخفين.

زروبايل (٥٢٢ ق.م)

Zerubabel

للعنصرية والتفرقة . وقد تبني الزعماء النازيون المنطق نفسه فيما ذكروه أثناء محاكمتهم في نورمبرج . وسفر نحيميا هو السفر السادس عشر في أسفار العهد القديم .

«زروبايل» اسم أكادي معناه «زرع بابل» أو «المولود في بابل» . و«زروبايل» اسم رئيس مجموعة اليهود الذين سمح لهم قورش في مرسومه الشهير (٥٣٨ ق.م) بالعودة ، ويُقال إنه من سلالة ملوك الدولة الجئوبونية . أرجع معه قورش كنوز الهيكل التي نهبها نبوختنصر ، وعينه الفرس حاكماً على مقاطعة يهود الفارسية (٥٢٢ ق.م) . وشرح زروبايل في بناء الهيكل ، إلا أن الأتومام المجاورة كالجوريين والعمونيين والحيشيين والأدوميين احتجوا على ذلك وهددوا بالعصيان . وتوقف البناء ، لكن دارا الأول أباح لهم الاستمرار وتمت العملية عام ٥١٥ ق.م على نفقة الدولة الفارسية (الفرس) .

عزرا (منتصف القرن الخامس الميلادي)

Ezra

«عزرا» اسم عبري معناه «عون» ، وعزرا اسم كاتب الشريعة الموسوية ، وهو كاهن من أسرة صادق ورئيس الجماعة اليهودية العائلة من بابل . وقد جاء في سفر عزرا (١/٧) أنه سمع عن تدهور اليهود واليهودية في فلسطين بعد عودة زروبايل ، فاستأذن من الإمبراطور أرخمشتا الأول (٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م) في العودة إلى القدس ليُصلح الشعب ، ويعيد بناء اليهودية على أساس التوراة والشريعة ، فأذن له الملك بذلك ، ولحق به نحيميا .

وكان الفرس يرون في العنصر اليهودي عنصراً مالياً لهم يمكن استخدامه كجماعة وظيفية . كما كانوا يرون في الطبقة الكهنوتية قيادة قادرة على أن تعرض قدراً من التماسك على هذا العنصر البشري ، وهو ما يزيد كفاءته . ومن هنا كان حماس القيادة الفارسية لعودة عزرا ، وترسيخ دعائم الشريعة اليهودية ، وتدوين كتبها المقدسة ، وربط كل هذا بشرائع الملك . وقد ورد في سفر عزرا أن الملك أرخمشتا قد أعفى الكهنة واللاويين والمغنين وغيرهم ، أي سدة العبادة القربانية ، من الجزية أو الخراج وطلب إلى عزرا أن يعين حاكماً وقضاة ليقضوا بين الشعب ، وأن يُعلم الشعب شريعة إله إسرائيل ، أي أن يؤسس الحكومة الكهنوتية ، ثم يضيف السفر : «وكل من لا يعمل بشريعة إلهك وشريعة الملك [بالربط بين هذه وتلك] فليقتض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس» (عزرا/٧/٢٦) .

ولتنفيذ هذا البرنامج ، بدأ عزرا في ترقية اليهودية من العناصر الدخيلة من أجل الحفاظ على النقاء العرقي للعنصر اليهودي . فقام بعد عودته إلى القدس بقراءة تاموس موسى أمام اليهود وتفسيره لهم بمعرفة اللاويين مستعيناً أيضاً بالترجمة الآرامية للأصل العبري . ولذا ، فهو أول كاتب (بالعبرية : سوفير) بهذا المعنى . وقد قام عزرا بإعادة شعائر السبت ، وفرض على اليهود دفع الضرائب للهيكل ، وعارض الزواج المختلط . وبلغت صرامة برنامجه التطهيري حد أنه كان يحتم طلاق النساء غير اليهوديات وإعلان أبنائهن غير شرعيين ، والأب يُنزل حياة محاولة لتهديتهن ، ومع هذا لم يأت أي ذكر للنساء اليهوديات المتزوجات من ذكور أجانب ، ويقول الدارسون إن

وزروبايل آخر ملك عبراني ، بل يُقال إنه استُدعي إلى فارس ثم خُلع عن عرشه لأن الفرس كانوا يخشون ظهور أسرة ملكية من نسل داود تطالب باستقلال اليهود . وقد ازداد نفوذ الكهنة بعد خلعه ، وخصوصاً أن الأحوال الأخلاقية والدينية كانت قد تدهورت في عهده ، فطلب عزرا من الفرس السماح له (وهو من الكهنة) بالعودة للقيام بعملية إصلاح دينية ، فكان له ما أراد وقام الحكم الكهنوتي الذي كان يترأسه كبير الكهنة .

نحميا (٤٤٤-٤٣٢ ق.م)

Nehemia

«نحميا» اسم عبري معناه «تحنن يهوه» . ونحميا اسم يهودي كان يعمل حاملاً للكووس في البلاط الملكي الفارسي عند أرخمشتا ، ويُظن أنه من النخبين . عينه الفرس حاكماً على مقاطعة يهود الفارسية ، فحكم في ظل السيادة الفارسية بين عامي ٤٤٤ و٤٣٢ ق.م . وكان الكاهن عزرا قد سبقه إلى القدس منذ ثلاثة عشر عاماً . أعاد نحيميا بناء سور الهيكل رغم معارضة جيرانه ، مثل سنبلط حاكم السامرة وجشم الزعيم العربي وطربيا العموني . وأمر نحيميا العمال بحمل الأسلحة لصد أي عدوان قد يتعرضون له أثناء العمل . ولم تكن اللغة العبرية اللغة الدارجة في عهده إذ حلت محلها الآرامية . وقد عاد نحيميا إلى سوسة عاصمة الفرس بعد الانتهاء من بناء السور .

اتخذ نحيميا ، بتشجيع من عزرا ، إجراءات مشددة ضد الزواج المختلط لضمان النقاء العرقي . ويُفسر بعض الصهاينة أفعالهما (نحميا وعزرا) تفسيراً حرفياً ، ويتخذون منها تبريراً دينياً

شيشبازار (شيشبصر)  
Sheshbazzar

«شيشبازار» أو «شيشبصر» اسم بابلي معناه «يا إله الشمس» احتفظ السيد [أو الابن] ، وشيشبازار موظف يهودي عينه قورش في مقاطعة يهودا الفارسية عام ٥٣٨ ق. م ، وأوكل إليه حمل أواني الهيكل وإعادةتها من بابل إلى القدس . وقد وضع شيشبازار أساس الهيكل الثاني . وهويته غير معروفة على وجه الدقة ، لكن بعض العلماء يرون أنه حفيد يهوياكين ، أما بعضهم الآخر فيقرنه بزروبابل على اعتبار أن «شيشبازار» هو الاسم البابلي لزروبابل .

الانعرالية التي فرضها عزرا أصبحت سمة أساسية ليهودية ما بعد المنفى .

وقد تبنّى الصهاينة موقف عزرا لتبرير برنامجهم العنصري ، ودافع عنه النازيون تبريراً لأضطهاد اليهود . وتعدُّ قيادة عزرا لليهود بداية الحكم الكهنوتي الذي استمر حتى ظهور اليهودية الفريسية . وجاء في التلمود أن عزرا هو الذي استرجع كثيراً من القوانين القديمة وجمع أسفار الكتاب المقدس ونظمها وحدد نصَّ أسفار موسى الخمسة وأقام المجمع الكبير (كنيست هاجدولا) . وقد دُفن عزرا في بابل بعد موته حسب المرويات اليهودية .



## ١٧

## اليونانيون

اليونانيون (البطلة والسلوقيون) - البطلة - الإسكندرية - السلوقيون - الهيلينية - الإسكندر المقدوني - أنطيوخوس الرابع (إبيفانيس) - الحشمونيون - المكابيون - الأسرة الحاكمة الحشمونية - يوحنا هيركانوس الأول - أرسطوبولوس الأول - ألكسندر باتابوس - سالومي ألكسندرا - هيركانوس الثاني - أرسطوبولوس الثاني - أنتيجونوس الثاني - أرسطوبولوس الثالث

## اليونانيون (البطلة والسلوقيون)

The Greeks (Ptolemies and Seleucids)

سواء في فلسطين أم خارجها ، باعتبارهم عنصرأ بشرياً مهماً يضطلع بدور الجماعة الوظيفية القتالية والاستيطانية والمالية . ولقد ظل البطلة والسلوقيون دائماً في حالة صراع وتنافس على كسب الجماعات اليهودية لصفهم .

## البطلة

Ptolemies

ويُسمى البطلة أيضاً «الأسرة المقدونية» أو «الأسرة الحادية والثلاثون (المصرية)» ، وهي الأسرة اليونانية التي حكمت مصر في الفترة ٣٢٣ - ٣٠ ق. م ، وعدد ملوكها نحو ١٤ - ١٦ ملكاً وملكة . وقد حكمت الأسرة البطلمية مصر بعد أن قضى الإسكندر على الهيمنة الفارسية على فلسطين عام ٣٣٤ ق. م ، وفرض هيمنته على البحر الأبيض المتوسط .

ويبدو أن البطلة غزوا فلسطين اتباعاً لسياسة الفراعنة التي كانت ترى أن أمن مصر مرتبط بفلسطين ومنطقة الشام . وكان يوجد داخل فلسطين حزبان : أحدهما موال للبطلة والآخر موال للسلوقيين . وكان حكم البطلة لفلسطين أطول الفترات في الحقبة التي تبدأ بسقوط فارس وتستمر حتى ظهور روما . كما أن الأنماط الإدارية والمؤثرات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت إبان حكمهم ، استمرت في فلسطين حتى الفترة الرومانية . ولم تكن فلسطين منطقة إدارية مستقلة بل كانت جزءاً من المنطقة المعروفة باسم سوريا وفينيقيا ، تماماً كما كان الحال مع الفرس الذين ألحقوا يهود فلسطين بمنطقة عبر النهر .

وكانت حدود هذه المنطقة غير محددة إذ كانت تختلف حسب تزايد أو تناقص هيمنة السلوقيين أو البطلة . وقد تغير التركيب الإثني لسكان فلسطين إذ استوطنها يونانيون ، وتم تأسيس مستعمرات يونانية عسكرية لأغراض أمنية ، وكذلك مدن يونانية

كانت ثمة وحدة أساسية في تاريخ العبرانيين اليهود (سنشير لهم بـ «اليهود» أو «الجماعات اليهودية» من قبيل التبسيط) يستمدونها من وجودهم داخل إمبراطورية شرقية واحدة : المصرية أو الآشورية البابلية أو الفارسية . ولكن اليهود فقدوا هذه الوحدة الحضارية والتاريخية مع غزو الإسكندر لفلسطين (٣٣٤ ق. م) إذ أصبح لهم مركزان ثقافيان أساسيان هما بابل فلسطين يضم كل منهما جماعة يهودية تتفاعل مع مؤثرات حضارية مختلفة شرقية وغربية . ولم يقابل الإسكندر أية مقاومة تُذكر في فتحه فلسطين إلا من حامية غزة وسكانها . وأبقى على فلسفة الإدارة السائدة آنذاك التي تقضي بأن يتمتع السكان المحليون بقدر من الإدارة الذاتية وأن تشرّف على أمورهم طبقة الكهنة التي يساندها أترياء اليهود . وعيّن الإسكندر الكاهن الأعظم مستولاً عن اليهود وممثلاً لهم أمام الإمبراطورية ولم يُعيّن حاكماً يونانياً يحكم فلسطين مباشرة .

وبعد موت الإسكندر ، نشب الصراع بين خلفائه وقوّده إلى أن تم تقسيم الإمبراطورية إلى الأسرة الأنتيجونية في مقدونيا ، والبطلمية في مصر ، والسلوقية في سوريا الشمالية وبلاد الرافدين وإيران . ولكن فلسطين وقعت تحت حكم البطلة حوالي عام ٣٠١ ق. م ، حيث استمر حكمهم إلى أن استولى عليها السلوقيون عام ١٩٨ ق. م . ولم يكن للبطلة أو السلوقيين قاعدة بشرية ثابتة إذ أنهم كانوا حكاماً يونانيين أسسوا أسراً مالكة خارج اليونان . ومن هنا كانت محاولتهم الخاصة خلق هذه القاعدة البشرية عن طريق مدن استيطانية ذات طابع يوناني تنضم إليها بعض الشرائح من السكان الأصليين . وكانت الممالك الهيلينية مبنية على أساس الولاء الشخصي للملك لا على الإحساس القومي أو الإقليمي . ولذا ، فلنأ نجد أنهم كانوا يخطبون ود أعضاء الجماعات اليهودية ،

مجس الشيوخ كان ، من الناحية الرسمية على الأقل ، أعلى منزلة من الكاهن الأعظم نفسه . واعتُرف البطالة (ومن بعدهم السلوقيون ، كما فعل الفرس من قبلهم) بالشريعة اليهودية باعتبارها مجموعة قوانين يؤمن بها اليهود ويلتزمون بها ، وتكملها القوانين أو الشرائع اليونانية . ومن هنا أُعطيت النخبة الكهنوتية التي كانت تُحکم باسم الشريعتين الحق في تنفيذ القوانين المنصوص عليها في الشريعة اليهودية .

ويبدو أن البطالة كانوا ينظرون إلى الجماعات اليهودية (خارج فلسطين) كجماعات وظيفية استيطانية ، قتالية وتجارية ، يعتمد أمنهم على أمن الطبقة الحاكمة . ولذا ، فقد كانوا يشجعون اليهود على الاستيطان في مصر للعمل تجاراً ومزارعين وجنوداً مرتزقة وشرطة وموظفين وملتزمي ضرائب . وقد كان منهم قواد للجيوش البطلمية . ويُلاحظ أن التقسيم الطبقي الثلاثي للمجتمع في مصر ، حيث كان يتكون إبان العصر البطلمي من مواطنين يونان في قمة الهرم وجماعات ذات حقوق خاصة (إثنوس) في وسطه والمصريين في قاعدته ، جعل أعضاء الجماعات اليهودية جماعة في الوسط . ولعل وضعهم هذا ، أي كونهم جماعة وسيطة ، قد قرَّبهم من البطالة وخلق أساساً للتوتر الذي نشأ ضدَّهم فيما بعد من قبل المواطنين اليونانيين . وقد حقق اليهود نجاحاً اقتصادياً في مجال الالتزام والتجارة والنقل البحري ، فاحتكروا تصدير البردي والقمح والبلح كما احتكروا نظام الالتزام وامتلكوا عدداً كبيراً من الأساطيل التجارية .

تَرَكَّز أعضاء الجماعات اليهودية أساساً في الإسكندرية حيث كانت مقسمة إلى خمسة أحياء اثنان منها كانا مخصصين لليهود . ولكن وجودهم لم يكن مقصوراً على الإسكندرية إذ كانوا يوجدون في أماكن أخرى . ويُقال إن نحو جزء واحد من ثمانية أجزاء من سكان مصر كان من اليهود ، إذ بلغ عددهم مليوناً بين سبعة ملايين ونصف المليون من المصريين ، كما أن عددهم كان يفوق عدد اليهود في فلسطين ، وهو ما كان يعني أن فلسطين لم تُعدَّ المركز السكاني أو الثقافي لهم . ولكن الهيكل ظل ، مع ذلك ، المركز الديني الأساسي . وأصبح اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق . وقد قام الإسكندر الأكبر بتوطيد بعض جنود سنبلط حاكم السامرة في مصر كما شجع هجرة اليهود إليها .

وقد قام بطليموس الأول (سوتر) (٣٣٣-٢٨٣ ق.م) بفتح فلسطين وضمها ، واستولى على القدس عام ٣٢٠ ق.م ، كما ضم الجزء الجنوبي من سوريا . وقد أسر بعض اليهود وحملهم إلى

جديدة ، وتغيَّر طابع المدن العبرانية أو الآرامية القديمة إذ تأغرق معظمها .

وكان اهتمام البطالة بفلسطين ، بخلاف الجانب الاستراتيجي ، ينصبُّ على جمع الضرائب . فأسس البطالة لهذا الغرض شبكة ضخمة لجمع الضرائب عمداً أعضاء الطبقات الثرية المحلية الذين تمحروا إلى ملتزمين فكانوا يجمعون الضرائب بضمان تمتلكاتهم . وكان بعض هؤلاء الملتزمين يحاولون قدر إمكانهم دفع الضرائب ، لأن الفارق بين ما كان يتعين عليهم تسديده لخزانة الدولة وما يحصل بالفعل كان يصبُّ في جيوبهم ، ومن هنا ظهرت جماعة وظيفية محلية يهودية تدعى بالولاء للحكومة البطلمية وتحيط بها كراهية السكان اليهود .

وكانت هذه الجماعة تضم كبار ملاك الأراضي والملتزمين وكبار الكهنة ، كما كانت تضم أسراً كهنوتية وأخرى غير كهنوتية (أشهرها أسرة طوبيا التي كانت تمتلك أراضي شاسعة في شرق الأردن) . وقد انضمت هذه الطبقات الثرية إلى التركيبة الحضارية الهيلينية الجديدة وتأغرقت . ولكن ، إلى جانب هذا القطع اليهودي المتأغرق ، كانت هناك الجماهير التي لم تتأثر كثيراً بالحضارة الهيلينية ، ومن بينها طبقة من الصناع وصغار التجار . وانضم إليهم عدد كبير من صغار الكهنة كانوا يُشكِّلون الطبقة الوسطى ذات الثقافة المحلية الآرامية . وكانت طبقة أصحاب المزارع الكبيرة من اليهود تشكل أقلية صغيرة إذ ظل عماد الاقتصاد هو المزارع الصغيرة في الريف . وظل هذا الوضع سائداً حتى بعد أن بسطت روما هيمنتها .

وظل الريف في فلسطين محتفظاً بطابعه السامي الآرامي . ومن هنا كان الريف يشكل دائماً القاعدة الجماهيرية للتمردات اليهودية اللاحقة . أما أعضاء الطبقة الوسطى ، فكانوا يشكلون مصدر قيادتها . وكانت هذه التمردات اليهودية موجهة ضد السلطة الإمبراطورية بقدر ما كانت موجهة ضد الجماعة اليهودية المحلية الوسيطة المتأغرقة . وقد تمخض الانقسام بين اليهود عن ظهور حزبين دينيين سياسيين : الصلوقيين (حزب الأثرياء والكهنة) ، والفريسيين (عملي الحزب الشعبي الذي تفرَّع منه الآسيين والنيورون وعصبة الخناجر) .

واعتبر اليونان اليهود (في فلسطين) قوماً (إثنوس) مركزهم القدس وقائدهم الكاهن الأعظم ، ومجلس الشيوخ (جيروسيا) . وكان الكاهن الأعظم هو القائد الديني والديني الذي يترأس اجتماعات مجلس الشيوخ ويشرف على الهيكل وأمن القدس وتعاظَّم نفوذه بسبب الصراع بين السلوقيين والبطالة . ويبدو أن

ق. م. ، بالاشتراك مع ابنها الآخر . وقد قادا هذا الجيش في فلسطين .

واندمج أعضاء الجماعات اليهودية في المحيط الهيليني ، وفقدوا لغتهم الأصلية الآرامية ، وبدأوا يتحدثون اليونانية . فكان العهد القديم يُقرأ في المعابد اليهودية بالعبرية ثم اليونانية . وبدأ اليهود يؤرثون أسماءهم ، فيحل ياسون محل يشوع ، وهكذا . ثم تحوّل الاندماج إلى انصهار كامل حين نسي اليهود العبرية تماماً ، فكانت الصلوات تتم باليونانية . وبدلاً من أغرقة أسمائهم ، أصبحوا يتبنون أسماء يونانية كاملة بما في ذلك أسماء الآلهة . بل إن أعضاء الجماعات اليهودية الذين انخرطوا في السلك العسكري كانوا يعتبرون أنفسهم مقدونين . ويبدو أن اليهود خارج الإسكندرية لم يتم تأخر قهرهم بهذا المستوى ، ولكنهم تأثروا بالمحيط المصري ، ولعلمهم كانوا يتحدثون لغة المصريين .

ولم يحصل اليهود في مصر ، كجماعة ، على حق المواطنة اليونانية (أي أن يكونوا بوليتيا politeia) وإنما منحوا حق أن يصبحوا بوليتيوما politeuma وهو وضع قانوني يحق لهم بمقتضاه أن يتوطنوا المدينة كخبراء لهم حق السكنى ويصبحوا بمنزلة كيان مدني مستقل لهم دستورهم الخاص ولهم الحق في الحفاظ على شرائع (قوانين) أجدادهم . وكان كل بوليتيوما تُدار شؤونها الداخلية كوحدة إثنية مستقلة (إثوس) من خلال موظفين إداريين مستقلين عن المدينة لهم شخصيتهم المعنوية المستقلة . وكانت السلطات تمنحهم ميثاقاً مكتوباً بذلك . وكان يترأس البوليتيوما رئيس القوم (إنتارخ) وكانت له صلاحيات إدارية وقضائية واسعة . ومع هذا ، كان يشاركه السلطة ، بل يعو عليه ، مجلس الشيوخ (جيروسيا) . وكان للبوليتيوما محاكمها الخاصة . ولكن ، نظراً لتزايد معدلات الاندماج والأغرة ، كانت أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية تلجأ إلى المحاكم اليونانية بدلاً من المحاكم اليهودية للتقاضي حتى في حالات الزواج والطلاق . وقد انضم بعض أعضاء الجماعات اليهودية ، وخصوصاً الأثرياء ، إلى المدينة (اليونانية : بوليس polis) وأصبحوا مواطنين يونانيين ، مع أن هذا كان يعني التخلي عن دينهم . ومن الجدير بالذكر أن البوليتيوما كانت شكلاً من أشكال التنظيم الإداري لم يكن مقصوراً على الجماعة اليهودية ، فقد كانت هناك بوليتيوما تضم الكريتيين في الفيوم ؛ كما كان هناك أكثر من بوليتيوما للفرجييين وغيرهم من الفئات . ويبدو أن معظم الجماعات اليهودية خارج فلسطين ، كانت منظمة على هيئة بوليتيوما .

وقد ظل أعضاء الجماعات اليهودية عنصرأ موالياً للبطلة وقريباً

الإسكندرية ، وشجع اليهود على الهجرة لقمع المصريين (على حد قول الموسوعة اليهودية) . أما بطليموس الثاني (فيلادلفوس) (٢٨٣ ق. م. - ٢٤٥ ق. م.) ، فقد أسس عدة مدن في فلسطين وشرق الأردن ، وحقق نجاحاً في حربه ضد الأسرة السلوقية . ويُعدّ عصره أحد العصور الذهبية لليهود في مصر ، حيث تزايد معدل اندماجهم . فقد دعا إلى ترجمة العهد القديم ، فيما يُعرف بالترجمة السبعينية التي يتضح فيها التمييز للبطلة (المصريين) على حساب السلوقيين (السوريين) . وقد اعتنق بطليموس الثاني العبيد العبرانيين الذين أسره أبوه ووظفهم كمرتزقة في معسكرات اليهود باعتبارهم مستوطنين أو كتشكيلات عسكرية (اليونانية : كليروخوا Clerouchoi) (وكان المقدونيون يُعدّون «كليروخوا» أيضاً حيث كان الحكم البطلمي حكماً استيطانياً مبنياً على المرتزقة) .

أما بطليموس الثالث (ابوريجيتيس الأول ، أي فاعل الخير) (٢٤٦ - ٢٢١ ق. م.) ، فقد وطّن في الفيوم عدداً من اليهود (الذين أسرههم بعد انتصاره في الحرب السورية الثالثة) في الأراضي المستصلحة ، كما كرّس معبداً يهودياً باسمه .

وفي عهد بطليموس الرابع (فيلوباتور) (٢٢١ - ٢٠٣ ق. م.) ، زاد اعتماد البطالة على العنصر اليهودي ، وقد هزم هذا الملك البطلمي السلوقيين بجيش كان يضم بعض العناصر المصرية . ولكن بطليموس الخامس (إبيفانيس) (٢٠٣ - ١٨١ ق. م.) ترك فلسطين لأنطيوخوس الثالث عام ٢٠٠ ق. م. بعد معركة بانيوم ثم عقد سلاماً مع السلوقيين وتزوج ابنة انطيوخوس (كليوباترا الأولى) .

ولكن أهم الفترات في تاريخ العلاقة بين الجماعة اليهودية والبطالة هي الفترة التي حكم فيها بطليموس السادس أو السابع (فيلوميتور) (١٨١ - ١٤٥ ق. م.) إذ اعتمد على العنصر اليهودي اعتماداً كاملاً بعد أن فشل في صد هجوم سلوقي عليه . وحينما فتح أبواب مصر للاستيطان اليهودي ، زاد المرتزقة اليهود واشتركوا في إدارة الدولة ، وكان هناك يهوديان (أونياس وروسسيوس) يشغلان مناصب عسكرية قيادية ، كما وضع نفوذهم في الأمور المالية . وقد رحّب بطليموس السادس بالكاهن أونياس الثالث الذي فر من فلسطين ومعه بعض اليهود إلى مصر فمُنح أرضاً في ليتوبوليس بنى فيها هيكلًا ليناظ هيكل القدس (الخاضع لنفوذ السلوقيين) ، وأقام إلى جواره حامية عسكرية يهودية . وقد كان اليهوديان أنانياس وهلكياس (أولاد أونياس الرابع) من قادة الحامية اليهودية في جيش كليوباترا الثالثة في هليوبوليس الذي جردته ضد ابنها بطليموس الثامن (لاتيروس) الذي حكم سنوات متفرقة من ١١٦ إلى ٨٠



وأعضاء مجلس الشيوخ (جيروسيا) من الضرائب كافة . ولم يتغير البناء الطبقي للمجتمع في فلسطين في هذه المرحلة عما كان عليه أيام البطالة ، واستمر الوضع هادئاً أيضاً في عهد سلوقس الرابع (١٨٧ - ١٧٥ ق.م) . ولكن ، باعثلاء أنطيوخوس الرابع (أبيفانسيس ، أي المتجلي) العرش ، تغير الموقف ، إذ مرّت الدولة السلوقية بأزمة مالية وسياسية بسبب ظهور القوة الرومانية التي ألحقت الهزيمة بالسلاطين بحيث تمحوّلوا إلى قوة عظمى صغيرة فقدت معظم أراضيها وكان عليها أن تدفع تعويضاً كبيراً للجمهورية الرومانية ، وهو ما اضطر الملوك السلوقيين إلى محاولة جمع الأموال المطلوبة من كل مصدر ممكن ، على وجه الخصوص من الهياكل المختلفة في إمبراطوريتهم ، ومنها الهيكل اليهودي الذي كانت تحبّب فيه الكنوز (ومن هنا كانت محاولة نهب الهيكل من قبل سلوقس الرابع) .

وفي السنوات السبع الأولى من حكم أنطيوخوس الرابع ، تركّزت أنشطته على الحدود الجنوبية لمملكته مع مصر البطلمية ، وهو ما أدّى إلى تزايد أهمية يهودا السلوقية من الناحية الإستراتيجية كمناطق حدودية ، فحاول دمجها حضارياً في مملكته لاعتبارات أمنية . وقد رأى أن من الممكن أن يحقق ما يريه من خلال التعاون مع أثرياء المجتمع اليهودي ، وخصوصاً كبار الكهنة وملتزمي الضرائب الذين تأغرّفوا تماماً لتم عملية استغلال يهودا وأهلها المتمركزين في الريف . وكان مسخّطاً أنطيوخوس الرابع وأثرياء اليهود هو تحويل القدس إلى مدينة يونانية تماماً (بوليس) تُسمّى «أنطاكيا» لها الحقوق اليونانية كافة ، وهو ما كان يعني زيادة مكانة الطبقة اليهودية الثرية وتشجيع التجارة ، وذلك بضم القدس إلى سلسلة المدن اليونانية المنتشرة في ربوع العالم . ولتحقيق هذا الهدف ، قام أنطيوخوس بخلق الكاهن الأعظم (أونيّاس الثالث) ، وذلك بتحريض من الطبقة اليهودية المتأغرّفة ، وعيّن مكانه أخاه ياسون (١٧٥ - ١٧٢ ق.م) الذي وعد بأن يزيد حجم الضرائب التي يمكن تحصيلها . وقد فرّ أونيّاس الثالث إلى مصر عام ١٦١ ق.م وقام ابنه أونيّاس الرابع بتأسيس هيكل في لينتوبوليس (مصر) بتشجيع من البطلمة ، وهو هيكل أونيّاس الذي دام وجوده ما يزيد على قرنين من الزمان ، أي إلى ما بعد عام ٧٠م ، حين تم تحطيم هيكل القدس . أما ياسون ، فقد أدخل تغييرات عميقة على القدس . فأقام مؤسسات يونانية من أهمها الجمننازيوم ، لتدريب اليهود على أن يصبحوا مواطنين يونانيين . وقد حل الجمننازيوم محل الهيكل كمركز حياة اليهود الاجتماعية وانضم إليه كثير من الكهنة . ولكن ، بعد مرور ثلاثة أعوام من تعيين ياسون ، قامت جماعة يهودية أكثر تطرفاً في تأغرّفها

منهم . وهم بوصفهم جماعة وظيفية ، مالية وقاتلية ، كانوا محط كره الجماهير سواء اليونانية أو المصرية . وقد حارب أونيّاس الرابع مع أرملة بطليموس السادس عام ١٤٥ ق.م ، وحارب ابنه مع كليوباترا الثالثة عامي ١٠٨ و ١٠٧ ق.م ضد بعض المطالبين بالعرش الذين ساندتهم المواطنين اليونانيون ، الأمر الذي زاد التوتر بين اليهود واليونان . وقد حاول أعضاء الجماعات اليهودية أن يحصلوا على مزيد من الحقوق وأن يصبحوا مواطنين في المدينة (بوليس) لا مجرد غرباء في البوليتوما . وقد كان هذا أمراً محالاً إذ أن الانتماء الكامل للمدينة اليونانية كان يعني الاشتراك في عبادة آلهتها . بل كانت بعض وظائف المدينة تتطلب القيام بطقوس دينية وثنية محدّدة ، وهو الأمر الذي كان يرفضه اليهود بطبيعة الحال . ولا شك في أن المساعدة التي قلّمها اليهود للقوات الرومانية الغازية ، في أعوام ٥٥-٤٨ ق.م ثم في عام ٣٠ ق.م ، ساهمت في تعميق حدة كره اليونانيين لهم . وشهدت هذه الفترة بداية ظهور كتب المداة لليهود مثل كتب مانتيتو وأبيون التي تتهم اليهود بكل التهم الممكنة والتي كتب يوسيفوس رداً عليها فيما بعد . وقد خلق كل هذا أرضاً خصبة للثورات اليونانية ضد اليهود بعد ضم الإسكندرية إلى الإمبراطورية الرومانية .

وقد ضم البطلمة جزءاً من ليبيا عام ١٤٥ ق.م . وكعادتهم ، فتحوا أبوابها لهجرة اليهود باعتبارهم عنصرأ بشرياً وظيفياً تجارياً قتالياً «لشددوا قبضة البطلمة» على برقة والمدن الأخرى في ليبيا ، وذلك على حد قول يوسيفوس . وظلت برقة تحت حكم البطلمة حتى استولى عليها الرومان عام ٩٦ ق.م .

### الإسكندرية

Alexandria

انظر : «البطلمة» .

### السلاوقيون

Selucids

يمثل «السلاوقيون» إحدى الأسر اليونانية الحاكمة . وقد تركّزت الأسرة السلوقية (٣١٢ - ٦٤ ق.م) في سوريا ، وحكمت آسيا الصغرى . وقد عادت يهودا البطلمية إلى حكم السلاوقيين عام ١٩٨ ق.م في عهد أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ ق.م) الذي قبل الإطار الإداري الفارسي البطلمي السائد ، وأعطى اليهود مزايا جديدة منها إعفاء اليهود من الضرائب مدة ثلاثة أعوام وإعفاء الكهنة

الإسكندر . وثمة مناطق في بلدان مثل فلسطين وفارس احتفظت بثقافتها الأصلية (وخصوصاً في الريف) ثم تغلغلت فيها الحضارة اليونانية ، على الأقل في بعض المدن وبين بعض الشرائح الاجتماعية .

ويُفَرِّقُ المؤرخون بين عملية استيعاب عناصر الثقافة اليونانية (الهيلينية) وتغلغلها تماماً ومجرد التأغرق ، أي تبني هذه العناصر بشكل سطحي .

وبعد غزو الإسكندر ، بدأ تغلغل الحضارة الهلينية بين أعضاء الجماعات اليهودية في مصر وبقية وسوريا وآسيا الصغرى وفلسطين ، واستمر طيلة العصر الروماني . وقد أسس اليونانيون سلسلة من المدن اليونانية داخل فلسطين وتمت أخرقه بعض المدن القائمة بالفعل .

وكان دعاة الهلينية بين أعضاء الجماعات اليهودية من أعضاء النخبة الحاكمة المتمثلة في الكهنة والأثرياء الذين كانوا يمثلون الضياع الكبيرة ويعملون ملتزمي ضرائب لصالح الدولة البطلمية أو السلوقية . ومن أهم هؤلاء الأثرياء يوفس بن طويسا وابنه هيركانوس . في البداية ، كانت الجوانب الاجتماعية للتأغرق تشكل عنصر جاذبية سطحية ، ثم بدأت العملية تنكسب أبعاداً دينية وحضارية عميقة . ومن أهم دعاة التأغرق ياسون الكاهن الأعظم الذي عينه أنطيوخوس الرابع (١٧٥ - ١٦٤ ق.م) ليساهم في صيغ فلسطين بالصيغة الهلينية ، فأسس مؤسسات تعليمية يونانية وجمنازيوم وحلبات للمصارعة اشترك فيها الكهنة اليهود أنفسهم . بل أرسل الكاهن الأعظم قربانين للإله هرقل أثناء المباريات اليونانية في صور . ولكن ياسون ، مع هذا ، كان يُعَدُّ معتدلاً من منظور آل طويسا الذين ساندوا نيبلايوس وطلبوا بأن يُعَيَّن كاهن أعظم آخر بدلاً منه . وقد وعد نيبلايوس بزيادة معدلات التأغرق وزيادة معدل الضرائب . بل يبدو أن هذا الفريق هو الذي شجع أنطيوخوس الرابع على القيام بمحاولة إيقاف العمل بالشرعية في فلسطين وذلك للقضاء على ثورة حزب الحسيديين (الأتقياء) المعارض الذي كانت تسانده الجماهير اليهودية .

وقد تصاعدت معدلات التأغرق بمرور الزمن حتى بعد استيلاء الحشمونيين على الحكم (١٤٠ ق.م) . فيونانان الحشموني عقد معاهدة مع إسبارطة ، واستخدم الإسكندر يانايوس مرتزقة يونانيين في جيشه ، وكانت العملات تُسكُّ وعليها حروف يونانية وعبرية . وكان أرسطوبولوس الأول الذي هو الإيطوريين يُسَمَّى نفسه «فيلوهيلين» أي «محب الهلينية» . وكان أعضاء جماعة الصدوقيين

وطالبت بتعيين نيبلايوس كاهناً أعظم ، وتم تعيينه بالفعل . وفي عام ١٦٩ م ، أي بعد عودته من غزوته الأولى لصر ، قام أنطيوخوس الرابع بنهب الهيكل .

وقد أدى كل هذا إلى اندلاع التمرد الحشموني (١٦٤ ق.م) ضد الإمبراطور وضد كاهنه الأعظم وأثرياء اليهود . وكانت قاعدة التمرد في الريف خارج إطار البيروقراطية المالية الكهنوتية للقدس والتي كانت تساندها القوة العسكرية السلوقية . كما انضمت إلى التمرد الطبقات الوسطى التي لم تتم أخرقتها . وقد ساند الفريسيون (يمثلو الحزب الشعبي) التمرد الحشموني .

وغزا اليونان أيضاً بلاد الرافدين التي كانت تضم واحدة من أهم الجماعات اليهودية ، ووصل الإسكندر الأكبر إلى بابل عام ٣٣١ ق.م ومات عام ٣٢٣ ق.م بعد غزوه للهند . وكانت بلاد الرافدين من نصيب السلوقيين الذين حكموها مدة قرنين من الزمان فأسسوا فيها عدة مدن يونانية ووطنوا فيها حاميات يونانية ومقدونية وجماعات من الإداريين والتجار . وكانت هذه المدن تقع في مراكز إستراتيجية على طول الطرق والأنهار الرئيسية . ووافق الإسكندر على الإبقاء على المزايا التي منحها الفرس لليهود ، فأنضم اليهود إلى الجيوش اليونانية كمرتزقة (أي كجماعة وظيفية قتالية استيطانية) وإلى المدن كتجار وإداريين (أي كجماعة وظيفية وسبغة) . وقام أنطيوخوس الثالث بإرسال ألفي أسرة عام ٢١٠ ق.م إلى آسيا الصغرى في محاولة للتحكم فيها ولقمع سكانها .

ولم يؤيد يهود بابل التمرد الحشموني ، الأمر الذي يدل على أن ما كان يحدّد موقفهم ليس الولاء اليهودي العام وإنما المصالح المحلية . ويلاحظ أيضاً أن يهود بابل قد استخدموا تقويمياً يستخدم الحقبة السلوقية (ابتداءً من عام ٣١٢ ق.م) أساساً في حساب السنين وتاريخ وثائقهم . وقد هزم الفريسيون السلوقيين ووسعوا إمبراطوريتهم على حسابهم واستولوا على بلاد الرافدين فيما استولوا عليه من مناطق وممالك .

## الهيلينية

Hellenism

«الهيلينية» مصطلح يستخدمه المؤرخون للإشارة إلى التقاليد الحضارية السائدة في تلك المقاطعات التي كانت تتحدث اليونانية في الإمبراطوريات الهلينية (السلوقية والبطلمية) وفي الإمبراطورية الرومانية . وقد أثرت الحضارة اليونانية في روما وقرطاجة والهند ، بل في بعض المناطق التي لم تكن قط جزءاً من إمبراطورية

اليهودية، تحت تأثير الفلسفة اليونانية، مثل المعلم الثاني (معلم المشناه) إليشع بن أبويا (القرن الثاني) الذي كان يُسمى «الأخر».

وقد ظهر أدب هيليني يهودي اعتزاري خارج فلسطين يهدف إلى التقريب بين اليهودية والهيلينية ويدافع عنها أمام هجمات دعاة الهلينية، وخصوصاً أن اليونانيين كانوا لا يعرفون سوى القليل عن اليهود أو اليهودية. وفي مجال تحسين صورة اليهودية، ذهب فيلون في وصف تعاليم موسى إلى أن معلميه المصريين علموه الحساب والهندسة والموسيقى والفلسفة (وهي نفسها المواد التي يدرسها الملك الفيلسوف حسبما جاء في كتابات أفلاطون) في حين تعلم من معلميه اليونانيين بقية المقررات المدرسية مثل النحو والبلاغة والمنطق. كما ذهب أحد المؤلفين اليهود في تلك الفترة إلى الربط (شكلياً) بين ربات الشعر (باليونانية: موزايوس musaeus) وموسى، كما ربط بين موسى والإله هرميس توت إله الكتابة والحضارة.

لكن هذا لا يعني أن النزعة الهلينية اكتسحت جميع العقول. بل يمكن القول بأنها تركزت أساساً في المدن، إذ ظل الريف في فلسطين سامياً آرامياً، وكذا ضواحي الإسكندرية حيث ظلت مصرية، ولذا فقد تأثر أعضاء الجماعات اليهودية فيها بالطابع المصري بدلاً من الطابع الهليني. وكان هناك رفض من جانب هؤلاء للنزعة الهلينية التي كان يمثلها حزب الحسيديين (الأقيام) ثم الفريسيين من بعدهم. وكان هذا الاستقطاب الثقافي في صفوف الجماعات اليهودية أساس كل الانفجارات التي حدثت فيما بعد إذ أن الأثرياء المتأخرين كانوا ينضمون إلى القوة الإمبراطورية باعتبارهم وسطاء لها في عملية استغلال الجماهير، وكانت الجماهير تتورض للإمبراطورية وضد سطاتها من اليهود.

ومع هذا، لا بد من التحفظ على هذه الصورة بعض الشيء، فثمة رأي يقول إن هيلينية الطبقات اليهودية الثرية نفسها كانت هيلينية سطحية لا تعود بجذورها إلى هومر وأرسطو وإنما هي نتاج التعامل مع المستوطنين اليونانيين المقيمين في المدن الهلينية. وكان معظمهم من الجنود المرتزقة والتجار الذين كان ينصب اهتمامهم على الألعاب الأولمبية وغيرها من المظاهر الحضارية السطحية، ولكنهم لم تكن لديهم معرفة بالتراث الفلسفي اليوناني. وهم، في هذا، يشبهون الطبقات الثرية المتغربة في العالم الثالث التي تجيد رقص الديسكو وتعرف آخر الموضات والتقاليع والأغاني والفضائح ولكنها لا تعرف شيئاً عن المسرح الغربي المعاصر. بل إن كاتباً مثقفاً مثل يوسفوس لم يكن يمتلك ناصية اليونانية تماماً، وكان يستعين بمساعدين لتصحيح لغته. ومن ناحية أخرى، لم تكن اليونانية مقصورة على الطبقات

التي ضمت كهنة الهيكل وكيسار الأثرياء، والتي تحالفت مع الحشوميين، من كبار دعاة التأغرق. وقد تزيد معدل التأغرق مع هيرود الذي كان يجيد اليونانية أكثر من إجادته العبرية، وبنى مسرحاً يونانياً ومدرجات للمصارعة وساحات للسباق في القدس أو بجوارها.

وقد نادى دعاة الهلينية بتبني نمط الحياة اليوناني: المؤسسات التعليمية، واللغة، والأزياء، والأسماء، والفلسفة، والعادات اليونانية، بهدف الاندماج النهائي في الحضارة اليونانية. وبالفعل، حقق دعاة الهلينية نجاحاً ساحقاً إذ أصبح اللباس اليوناني شائعاً بين الشباب اليهودي الذين أخذوا يتحدثون اليونانية ويكتبونها بدلاً من الآرامية، فدخلت الآرامية والعبرية كلمات يونانية. وبلغ من انتشار اللغة اليونانية في فلسطين أن نسبة المتحدثين بالآرامية إلى المتحدثين باليونانية كانت ثلاثة إلى اثنين (وفي مدينة مثل الخليل، كان الجميع يتحدثون اليونانية). وقد نسي سكان مصر من اليهود اللغة الآرامية تماماً. واشترك اليهود في كثير من الأنشطة اليونانية مثل المسرح والمصارعة مع اليونانيين وهم عرايا، وكان هذا يُسبب حرجاً لهم إذ أن اليونانيات كن يسخرن من اليهود لأنهم مختونون، فظهرت عملية تجميل جراحية لإخفاء آثار عملية الختان. ولم يكن يهود بابل يبعيدون عن التأثير اليوناني، فقد ضم الإسكندر بلاد الرافدين إلى حكمه وحكمها السلوقيون من بعده.

ويظهر مدى تغلغل الأثر اليوناني في أن اليونانية أصبحت اللغة السائدة في معابد فلسطين ومصر، وترجم إليها العهد القديم (الترجمة السبعينية)، وأقيم معبد يهودي في الإسكندرية لم تكن تُقام فيه العبادة ليهوه وإنما للخالق الأسمى كمحاولة لصيغ اليهودية نفسها بصيغة إغريقية. وترجمت كلمة «توراة» في الترجمة السبعينية إلى كلمة «نوموس» (القوانين)، بحيث تحوَّلت التوراة، التي تعني نمط حياة إلى مجرد مجموعة من القوانين. وفي بابل، كان اليهود يسمحون بإقامة التماثيل في منازلهم، بل إن المعبد المقام في نهرده كان يوجد فيه تماثيل نصفية لموسى. وأسس معبد دورا إيروويوس في سوريا على هيئة معبد يوناني محلي بصور؛ فتنظهر صورة موسى على هيئة معلم يوناني ذي لحية على هيئة حلقات، كما هو الحال مع صور الحكماء اليونان، وتظهر أيضاً صور آلهة يونانية. ويظهر عمق أثر الحضارة اليونانية في كتابات يوسفوس وفيلون وغيرهما من المؤلفين اليهود. وقد كتب الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية الملاحم الهومرية والمأسي اليونانية التي تتناول موضوعات يهودية مثل القدس والخروج من مصر. كما ترك بعض العلماء الدينيين

عين أنطيوخوس واحداً من دعاة التآمرق (ياسون) كاهناً أعظم بدلاً من أونياس الثالث، فعمل على تغيير طبيعة مدينة القدس حتى يحولها إلى مدينة يونانية (بوليس) تُسمى أنطاكيا . ثم عين منيلايوس كاهناً أعظم وكان أكثر تطرفاً وتأغرقاً من سلفه . وقد نهب أنطيوخوس الهيكل، وحمل الأواني المقدسة إلى عاصمته . وفي عام ١٦٨ ق. م، قام أنطيوخوس بحملة على مصر، وانتشرت شائعة مفادها أنه قُتل، فاندلعت الاضطرابات . ولكن أنطيوخوس عاد وقضى على التمرد، ثم وطّن عناصر غير يهودية في القدس وفي قلعتها لتكون ركيزة لدعاة الهيلينية يسيطرون منها على المدينة . ثم لجأ إلى القوة ليعيد اليهود عن مختلف شعائرهم الدينية مثل الاحتفال بالسبت والختان، وأصدر أوامره بتحريض من الأرستقراطية اليهودية بعدم إقامة شعائر دينية يهودية في القدس، بل بإقامة عبادة الإله زيوس في الهيكل، وتقديم القرابين له . كما حول المعبد اليهودي السامري المقام على جبل جريزيم إلى معبد إغريقي . لكن هذه الإجراءات هي التي أدت جميعاً إلى التمرد الحشموني .

ومن الواضح أن هذه الإجراءات لم تكن تعبر عن تعصب ديني أعمى لدى اليونانيين، فهذا أمر لم يشتهر به اليونانيون، كما لم تكن تهدف إلى هدم اليهودية من أساسها والقضاء على اليهود أينما كانوا، وإنما كانت محاولة من جانب أنطيوخوس الرابع لدمج فلسطين في إمبراطوريته الصغيرة لتصبح إقليماً آمناً يمكن الاعتماد عليه وخصوصاً أنه كان يخشى الظلمة من جهة والفريين من جهة أخرى، وكان يرمي إلى أن يظل العنصر البشري في فلسطين موالياً له . ولذا، ورغم هجومه على الطقوس الدينية اليهودية، فإنه استمر في الاعتراف باليهود كقوم (إثnos) يترأسهم السهدرين، كما أنه لم يتدخل في الشؤون الدينية لليهود خارج فلسطين .

#### الحشمونيون

Hasmoneans

ويُسمون أيضاً «المكايون» . يُنسب إليهم التمرد الحشموني، وهو تمرد قام به فقراء اليهود وغيرهم بدءاً الكاهن الحشموني مانياس عام ١٦٨ ق. م واستمر أولاده في قيادته ضد كل من الاستغلال الاقتصادي والقمع الثقافي، ولذا قاد كنان ضد كل من الإمبراطورية السلوقية (في عصر أنطيوخوس الرابع) وضد العناصر العبرانية اليهودية التي تأغرقت . وقد نجح الحشمونيون في تحقيق الاستقلال وإقامة الدولة الحشمونية، لكنهم تأغرقتوا بعد ذلك تماماً إلى أن استوعبت روما الدولة الحشمونية ونخبتها الحاكمة .

الثرية أو على الأعمال التجارية في المدن إذ أن كثيراً من أعضاء الطبقات الفقيرة، ومنهم العبيد والمعتقون، كانوا يتحدثون اليونانية .

ويتضح أن هناك تدخلاً في موقف الفريسيين، فرغم أنهم كانوا يقفون ضد الصدوقيين دعاة التآمرق، فإنهم تأثروا تأثراً عميقاً بالتراث اليوناني . بل يقول بعض مؤرخي اليهودية إن صياغتهم لليهودية، وهي التي أصبحت في نهاية الأمر اليهودية الماخامية (مط اليهودية الذي ساد في العالم حتى القرن الثامن عشر)، تأثرت بالتراث اليوناني ساد في شكل عميق . ويتضح هذا التداخل في فكر جماعة مثل الأسينين . فرغم أن مخطوط البحر الميت «حرب أبناء النور مع الرافض للهيلينية والحزب الذي يدعو للهيلينية، فإذ فكرهم ورويتهم للتاريخ متأثران بالفكر الهيليني . كما أن بعض الكتب الخارجية (أبوكريفا) كتب يهودية شعبية تأثرت بالتراث اليوناني وكُتبت بعضها باللغة اليونانية . ويُلاحظ أثر الفلسفة الرواقية في كتاب المكايين الثالث .

#### الإسكندر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)

Alexander, the Macedonian

ملك مقدونيا ومؤسس الإمبراطورية اليونانية التي ضمت فلسطين كما ضمت بابل بجماعتها اليهودية الكبيرة . ويحكي التلمود عن زيارته للقدس ومقابلته الكاهن الأعظم . ولكن من المعروف أنه لم يزر القدس قط نظراً لعدم أهميتها أو أهمية القوم الذين يسكنون حولها . ومن المعروف أن تقدمه كان في عام ٣٣٣ ق. م بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ولكنه قام بقمع ثورة بين السامريين وحرقت هيكلهم على جبل جريزيم . وأعلن يهود فلسطين ولاءهم له .

#### أنطيوخوس الرابع (إبيفانيس) (١٧٥-١٦٤ ق.م)

Antiochus IV (Epiphanes)

أحد الملوك السلوقيين . حاول أن يصيغ يهودا السلوقية وكل فلسطين بالصيغة الهيلينية، وأعلن نفسه إلهاً، أو الإله الظاهر أو المتجلي (ثيوس إبيفانيس) . وكانت الأرستقراطية اليهودية قد بدأت تصطبغ بالصيغة الهيلينية، فقبلت هذه الإجراءات . أما الجماهير الفقيرة في الريف الواقعة خارج نطاق الحضارة الهيلينية فقد قاومتها .

## المكابيون

Maccabees

هناك العمال المهرة . وأخيراً ، كان هناك الفلاحون وكل أعضاء الطبقات الهامشية ، عمال اليومية وغيرهم من ذوي الثقافة الآرامية الخالصة الذين كانوا يعيشون في الريف البعيد عن التناغرُق .

وأول ملوك الحشمونيون هو يوحناهيركانوس (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) الذي ألحقت به الجيوش السلوقية الهزيمة تحت قيادة أنطيوخوس السابع ، وحولت مقاطعة يهودا إلى مقاطعة سلوقية مرة أخرى . وقد فرض أنطيوخوس على هيركانوس أن يصحبه في حملته ضد الفريثيين على رأس فرقة يهودية ، ولكن الجيش السلوقي سُحِق وأسر هيركانوس مع فرقة اليهودية ، ثم أُطلق سراحه فعاد إلى فلسطين عام ١٢٩ ق.م واستقل بحكمها بسبب ضعف السلوقيين . وبذلك ، أصبح الحشمونيون أسرة حاكمة كهنوتية عسكرية شبه هيلينية ، كما أصبح الكهنوت اليهودي في مرحلة لاحقة مستقلاً إلى حد ما عن السلطة الدنيوية .

وقام هيركانوس بالهجوم على السامريين واستولى على شكيم وحطم هيكلهم ، كما هاجم الأدميين في شرق الأردن وهودهم عنوة . ويمثل هذا محاولة من جانبه لتقوية الدولة عن طريق توحيد العقيدة ، تماماً كما حاول أنطيوخوس الرابع . وقد زوده ذلك بمصدر من العناصر البشرية يمكنه استخدامها في تحقيق مزيد من التوسعات ، إلى جانب الجنود الأجانب المرتزقة الذين انضموا إلى جيشه .

وكان هيركانوس حليفاً للفريسيين (الحزب الشعبي) في بداية الأمر ، ولكنه أخذ في الاقتراب من الصدوقيين الأمر الذي أدى إلى الصراع مع الفريسيين . وخلفه على العرش ابنه أرسطوبولوس الأول (١٠٤ - ١٠٣ ق.م) الذي اتخذ لنفسه لقب ملك كما سُمِّي نفسه «فيلهلين» أي «محب الهيلينية» . وكان أبوه قد أوصى بأن يقوم هو بوظيفة الكاهن الأعظم وحسب ، على أن تُترك إدارة الدولة في يد أمه ، ولكنه قتلها هي وشقيقه أنتيجونوس وسجن إخوته الآخرين وأكمل فتح الجليل .

وبعد موته ، اعتلى شقيقه ألكسندر يانايوس (١٠٣ - ٧٦ ق.م) العرش وكان طاغية حقيقياً ، كما كان بلاطه الملكي هيلينياً . وقد استأجر يانايوس مرتزقة يونانيين وضم كل المدن ذات الطابع الإغريقي التي لم تكن قد اعترفت بعد بحكم الحشمونيين في فلسطين ، ونجح في ضم مدن الساحل كلها . وقد هدّد يانايوس الجليل التي لم يكن ساكنوها من العدرانيين وإنما كان يسكنها الإيلوريون وهم من أصل عربي ولتتهم آرامية . وقد عرض عليهم يانايوس التهود أو الإبادة ، فهودوا وقبلوا أن يختنوا . وقد وصلت الدولة الحشمونية في عهده إلى أكبر اتساع لها .

«المكابيون» هم الحشمونيون الذين يُطلق عليهم هذا اللقب أيضاً . وكلمة «مقبي» العبرية معناها «الطرقة» ، وإن كان البعض يرون أن الأصل العبري هو «مكبي» وأنها اختصار بالروف الأولى لآية جاءت في نشيد انتصار موسى على فرعون تقول بالعبرية : «مي كموخا ببيليم يهوه» ، أي «من كمثلك بين الآلهة يارب» (م.ك. ب. ي) . ويرى الصهاينة أن المكابيين بعثوا الروح العسكرية في الشعب اليهودي وحولوه من شعب مستسلم إلى شعب من الغزاة المقاتلين وصفهم الشاعر بقوله : كان حمد الله في حناجرهم ، وفي أيديهم سيف له حدان . وهذه هي صورة الشخصية اليهودية المثلى كما تخيلها الصهاينة . ومن ثم ، يطلق كثير من المنظمات والأشطة الصهيونية على نفسها اسم «مكابي» لإحياء تقاليد العف .

## الأسرة الحاكمة الحشمونية

Hasmonean Dynasty

«الحشمونيون» أسرة من الكهنة الملوك حكمت اليهود (العبرانيين) في فلسطين ، وذلك بعد أن نجح التمرد الحشموني في تحقيق قدر من الاستقلال السياسي لليهود (العبرانيين) . وقد كانت دولتهم ، التي كانت تُسمَّى «يهودا» ، تتسم بالطابع الهيليني الواضح ، فكانت أشبه بدولة هيلينية تضم اليهود أكثر من كونها دولة يهودية . وكان اقتصاد الدولة الحشمونية اقتصاداً زراعياً يعتمد على القمح والبلح والتين والزيت والخمور والتوابل ، وكانت تضم بعض المراكز الحضرية . أما من ناحية البناء الطبقي ، فقد كانت هذه الدولة تتكون أساساً من طبقة الكهنة المرتبطين بالهيكل (الصدوقيين) ، وإلى جوارهم كانت هناك طبقة كبار ملاك الأراضي وكبار التجار وملتزمي الضرائب . واندسجت هذه الطبقات الأرستقراطية في الحضارة الهيلينية ، وارتبطت مصالحها بمصالح البطالة والسلوقيين . وإلى جانب ذلك ، كان هناك التجار من أعضاء الطبقة الوسطى الذين كانوا يعارضون الاتجاه المتطرف نحو الهيلينية ويطالبون بقدر من الاستقلال ويقدر من المشاركة في السلطة (الفريسيون) . وكان أعضاء هذه الطبقة يتمتعون بمستوى ثقافي لا بأس به يتسم بالحللية (آرامية/عبرانية) وإن كانت هناك في ثقافتهم عناصر هيلينية . ويبدو أن هؤلاء قاموا بنشاط تبشيري في البحر الأبيض المتوسط بين اليهود وغير اليهود . وإلى جانب التجار ، كان

الروماني» من يوحنا هيركانوس . وبعد مقتل بومبي ، قام هيركانوس بتأييد قيصر الذي أعاد له لقبه ووسّع رقعة مملكته . ولكن القوة الحقيقية ظلت ، مع هذا ، في يد أنثيباتر وأولاده .

وحينما هاجم الفريزيون مقاطعة يهودا عام ٤٠ ق.م ، أسروا هيركانوس وشوهوه ، بتحريض من أنثيجونوس ابن أرسطوبولوس الثاني ، وذلك حتى لا يمكنه أن يشغل وظيفة الكاهن الأعظم فيما بعد . وعند عودته ، كان هيرود قد أصبح ملكاً . فعامله باحترام في بادئ الأمر ، ولكنه بعد معركة أكتيوم عاد فاتهمه بالخيانة وقضى بإعدامه . وذهبت جهود أرسطوبولوس الثاني وابنيه ألكسندر وأنثيجونوس مائتاس لاستعادة عرشهم سدى .

وقد تزوّج هيرود مريم الحشمونية حفيدة الكاهن الأعظم ، ولكنه أعدمها عام ٢٩ ق.م ، وأعدم كذلك آخر الحشمونيين أرسطوبولوس الثالث عام ٣٥ ق.م ، وهيركانوس الثاني عام ٣٠ ق.م ، كما أعدم أبناءه من مريم (ألكسندر وأرسطوبولوس) عام ٧ ق.م ، وبذا انتهت سلالة الحشمونيين .

#### يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥-١٠٤ ق.م)

John Hyrcanus I

أشهر ملوك الأسرة الحشمونية وكاهنهم الأعظم . وهو ابن شمعون الحشموني . نجح في اعتلاء العرش بعد أن تغلب على عمه بطليموس الذي قتل أباه وأخويه يهودا ومائتاس . قضى معظم حكمه في الحروب ، واضطر في بداية حكمه إلى الخضوع لأنطيوخوس السابع فوافق على هدم حوائط القدس وتسريح قواته ودفع تعويض ، ودفع الجزية السنوية عن يافا والمدن الأخرى خارج حدود مملكته التي ضمها .

اضطر إلى الانضمام إلى الإمبراطور السلوقي في حملته ضد الفريزيين . ولكن ، بعد مقتل الإمبراطور ، نشبت الصراعات على العرش السلوقي ، فاستنقل بالحكم وفتح شكيم وحطم هيكل السامريين وضم أدم وهوذ أهلها . وينسب بعض المؤرخين هذا الفعل إلى ابنه ألكسندر يانايوس . وضم يوحنا هيركانوس الأول أجزاءً من الجليل أو على الأقل مهد الطريق لضمها .

وقد ساعده في سياسة الضم هذه كل أعداء الدولة السلوقية مثل الرومان والبطالة . أما في الداخل ، فقد تحالف مع الصدوقيين وعادى الفريزيين ممثلي الحزب الشعبي .

عارض الفريسيون يانايوس معارضة شديدة الأمر الذي أدّى إلى نشوب حرب أهلية استعان فيها الفريسيون بديمتريوس الثالث ملك سوريا السلوقي الذي هزم يانايوس بالقرب من شكيم عام ٨٨ ق.م . ولكن اليهود في جيش ديمتريوس انضموا إلى جيش يانايوس ، وهو ما غير مسار المعركة ، فانتصر في الحرب حيث قتل وصلب أعداداً كبيرة من الفريسيين بلغت نحو ستة آلاف .

ومع هذا ، استعاد الفريسيون نفوذهم عند اعتلاء زوجته سالومي ألكسندرا العرش (٧٦ - ٦٧ ق.م) ، حيث سلمت لهم الشؤون الداخلية واحتفظت لنفسها بالأمر العسكري . وبموتها ، بدأت أسرة الحشمونيين في التدهور السريع ، فقد قوضت الحروب الأهلية شرعية الكهنة الملوك الحشمونيين إذ نشب صراع بين ابنها أرسطوبولوس الثاني وهيركانوس الثاني استمرت طوال الفترة ٦٧ - ٦٣ ق.م . وكان هذا تعبيراً عن الصراع بين الصدوقيين والفريسيين إذ أيّد الفريق الأول أرسطوبولوس وأيّد الفريق الثاني أخاه . ويبدو أن الفريسيين في هذه المرحلة كانوا قد سيطروا على السنهدرين ، وهذا ما جعل الجوه مهيباً للحرب الأهلية . وقد فرّ هيركانوس بمساعدة أنثيباترا الأودومي إلى البتراء حيث ساعده الملك أريتاس (الحارث) النبطي ، فعاد وهزم أرسطوبولوس . وقد لجأ الأخوان إلى بومبي ، بعد وصوله إلى سوريا ، ليحكم في الخلاف بينهما . وكان هناك فريق ثالث من الفريسيين يطلب بفصل السلطة الدنيوية عن السلطة الكهنوتية فصلاً تاماً . وقد حكم بومبي لهيركانوس الثاني عام ٦٥ ق.م . وكان أرسطوبولوس الثاني يعرف النتيجة مقدماً ، ففر إلى القدس . واقتفى بومبي أثره ، واستولى على المدينة عام ٦٣ ق.م . بعد أن فتح أتباع هيركانوس الثاني أبوابها له ، وخلع أرسطوبولوس ونفاه هو وأولاده إلى روما . وقام بومبي بتعيين هيركانوس كاهناً أعظم وقائلاً للشعب (إثنارخ) ، ومنحه صلاحيات سياسية محدّدة وسمح له بأن يحمل اللقب الشرقي «دوكس» أي «ملك روماني» ، وبذلك انتهى حكم الحشمونيين شبه المستقل بعد أن دام نحو ثمانين عاماً .

وقد انكسرت المملكة الحشمونية الرومانية ، ولم تكن المنطقة الساحلية تابعة لها في عام ٥٧ ق.م ، وأصبحت الدولة تتكون أساساً من الأراضي الزراعية . وأعيد تقسيم فلسطين إدارياً فأصبحت تابعة لمقاطعة سوريا الرومانية ، ووقدت الدولة استقلالها تماماً . وقد نزح جابينوس ، حاكم سوريا الروماني ، لقب «الملك

أرسطوبولوس الأول (١٠٤-١٠٣ ق.م)

Aristobulus I

ملك حشموني يُدعى بالعبرية «يهودا»، وهو الابن الأكبر ليوحنا هيركانوس الأول. أوصى أبوه له بمنصب الكاهن الأعظم على أن تتولى أمه شئون الدولة الإدارية، ولكنه أودعها السجن حيث ماتت جوعاً. كما سجن إخوته الثلاثة ما عدا أنتيجونوس الذي كان يكن له حباً خاصاً، ولكنه أعدهم هو الآخر فيما بعد. وحسب يوسيفوس، يُعد أرسطوبولوس أول حاكم حشموني يخلع على نفسه لقب «ملك»، ولكن سترابو يرى أن ألكسندر يانايوس أولهم. وبحسب يوسيفوس، أيضاً، يُقال إنه سمى نفسه «فيلوبهين» أي «محب الهيلينية»، ولكن هناك رأياً يذهب إلى أن اسمه هو «فيلادلفوس». والواقع أن اتخاذ الأسماء اليونانية بهذه الصورة يدل على مدى تغلغل النزعة الهيلينية في البلاط الحشموني. وعند موته، خلفه في الحكم أخوه ألكسندر يانايوس.

هيركانوس الثاني (٩ - ٣٠ ق.م)

Hyrcanus II

أحد ملوك الأسرة الحشمونية. وهو أكبر أبناء ألكسندر يانايوس وسالومي ألكسندرا. عُيِّن كاهناً أعظم في حياة أمه. ولكن أخاه أرسطوبولوس الثاني حاول أن يقوِّض نفوذه بمساعدة الصدوقيين، وخصوصاً أن الجيش كان يساند أرسطوبولوس. وبعد موت سالومي عام ٦٧ ق.م، استولى أرسطوبولوس الثاني على الحكم ونصب نفسه كاهناً أعظم وملكاً، واضطر هيركانوس إلى قبول الأمر الواقع صاغراً وتقبُّل اللقب الشرفي «أخو الملك»، وهو لقب لا يعطي أية صلاحيات.

عمل يوحنا هيركانوس الثاني بنصيحة أنتيباتر الثاني، مستشاره الأدمي، ففرَّ ولجأ إلى أريتاس الثالث (الحارث) ملك الأنباط الذين انضموا إليه ضد أرسطوبولوس وحاصروا القدس، وهنا ظهرت قوات بومبي في الشرق. وقد لجأ الأخوان إلى بومبي ليحكم بينهما، كما ذهب إليه وقد نال طالباً إنهاء حكم الحشمونيين تماماً.

وعندما حكم بومبي لهيركانوس (ربما لأنه كان أضعف الأخوين) فرَّ أرسطوبولوس إلى القدس، وحاصرها بومبي، فسقطت في يده عام ٦٣ ق.م، وبذا انتهى استقلال الحشمونيين. وأرسل بومبي أرسطوبولوس أسيراً إلى روما، وعيَّن هيركانوس كاهناً أعظم وقائداً للشعب، وسمح له بأن يحمل اللقب الشرفي «دوكس» أي «ملك روماني» وجعله خاضعاً لحاكم سوريا الروماني. ومنحه يوليوس قيصر لقب رئيس القوم (إثنارخ) وحليف روما والكاهن الأعظم. وحينما هاجم الفريثيون مقاطعة يهودا عام ٤٠ ق.م، أسروا هيركانوس بإيعاز من أرسطوبولوس وقطعوا أذنيه حتى لا يمكنه القيام بمهام الكاهن الأعظم، ثم حملوه أسيراً معهم حيث عاش مع يهود بابل. وقد سمح له يهود بالعودة عام ٣٦ ق.م ثم أعدهم عام ٣٠ ق.م.

ألكسندر يانايوس (١٠٣-٧٦ ق.م)

Alexander Jannaeus

ملك حشموني وكاهن أعظم خلف شقيقه أرسطوبولوس الأول (١٠٤ - ١٠٣ ق.م) وهما من أبناء هيركانوس الأول. كون جيشاً من المرتزقة اليونانيين وغير اليونانيين وقاد حروباً عديدة ضد المدن اليونانية المجاورة لمملكته، واستولى على قلعة في غزة، وخاض معارك مع الأنباط وضم المنطقة الساحلية من فلسطين وأجزاء من شرق الأردن. وقد أصبحت مملكة الحشمونيين إبان حكمه مترامية الأطراف تعادل في اتساعها مملكة داود وسليمان، وكانت تضم عناصر غير يهودية كثيرة.

وقد اتسم حكمه بتصاعد الخلافات الداخلية التي ثقلت في الصراع بين الصدوقيين والفريسيين. وقد ترددت الجماهير في عهده تحت قيادة الفريسيين الذين استغاثوا بديمتريوس الثالث إمبراطور السلوقيين. ولكن الإسكندر يانايوس أخمد التمرد وانتقم انتقاماً دمويًا من التمرديين وزعامتهم الفريسية. وأدى كل هذا إلى تفويض شرعية حكم الملوك الكهنة الحشمونيين. وقد خلفته أرملته سالومي ألكسندرا.

سالومي ألكسندرا (٧٦-٦٧ ق.م)

Salome Alexandra

ملكة حشمونية، وأرملة أرسطوبولوس الأول. تزوجت بعد

## أرسطوبولوس الثاني (٦٧-٦٣ ق.م)

Aristobulus II

أحد آخر الملوك الحشمونيين . وهو ابن ألكسندر يانابوس وسالومي ألكسندرا التي كان يؤيدها الحزب الفرسي . بعد موت أمه ، انتزع العرش من أخيه الأكبر هيركانوس الثاني بمساعدة الصدوقيين والجنود المرتزقة ، واحتفظ به رغم هجوم هيركانوس عليه بمساعدة الأنباط . وقد احتفى أرسطوبولوس بمنطقة الهيكل حين حاصره هيركانوس والحارث ملك الأنباط ، وحينما ظهر بومبي احتكم الأخوان إليه فحكّم لهيركانوس . وحينما فرّ أرسطوبولوس إلى القدس ، حاصرها بومبي وسقطت في يده ودخل قدس الأقداس ، وأخذ أرسطوبولوس أسيراً إلى روما عام ٦٣ ق.م .

ويُشكل هذا نهاية الاستقلال السياسي لفلسطين تحت الحكم الحشموني . ولقد فرّ أرسطوبولوس بعد ذلك من روما ومعه ابنة أنتيجونوس عام ٥٥ ق.م ، ووصلا إلى القدس وقادا تمرداً ضد الرومان ، فأسر أرسطوبولوس مرة أخرى وأُرسل إلى روما مقيداً بالسلاسل في هذه المرة وأودع السجن . وقد أعطاه يوليوس قيصر جيشاً رومانياً ليقوده ضد بومبي ، ولكن أصدقاء بومبي دسوا له السم فمات قبل أن يترك روما .

## أنتيجونوس الثاني (٤٠-٣٧ ق.م)

Antigonus II

أحد آخر ملوك الحشمونيين ، والابن الأصغر لأرسطوبولوس الثاني . استولى على القدس بمساعدة جيش من فرثيا ، وحرص على تشويه عمه هيركانوس الثاني (الكاهن الأعظم) بقطع أذنيه ، ثم أعلن نفسه ملكاً تحت وصاية الفرثيين ٤٠ ق.م . وحين استولى جيش روماني على القدس ، وعين هيرود ملكاً ، أرسل أنتيجونوس إلى معسكر الرومان حيث أُعدم عام ٣٧ ق.م . ولم يكن من عادة الرومان إعدام الملوك ، ولذا يُرجّح أنهم فعلوا ذلك حتى يبيّنوا أنه لم يكن ملكاً من وجهة نظرهم .

## (أرسطوبولوس الثالث ؟) (٣٣-٣٢ ق.م)

Aristobulus III

حفيد أرسطوبولوس الثاني ، وشقيق مريم الحشمونية زوجة هيرود . وهو آخر كاهن أعظم حشموني . عينه هيرود كاهناً وهو بعد في سن السابعة عشرة بناء على توصية من أنطونيو وكليوباترا عام ٣٥ ق.م . ولكن خدمه قتلوه بتحريض من هيرود وهو يستحم في البحر . وهو يعدّ آخر ممثلي الأسرة الحشمونية المذكور .





## الرومان

الرومان - بومبي - فسبسيان - تيتوس - تراجان - هادريان - الحاكم الروماني (بروكيواتور) - الحاكم الروماني (بريفكتور) - تايبيريوس يوليوس ألكسندر - كبير الموظفين (البارخ) - القوم (إنوس) - الفريية اليهودية (فيسكوس جودايكوس) - أنتيباتر - هيرود - أجربيا الأول - أجربيا الثاني - قسطنطين الأول

## الرومان

The Romans

«الرومان» قوم ظهرُوا في مدينة روما التي أُسِّست في القرن الثاني قبل الميلاد، وأسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف ضُمَّت معظم بلاد البحر الأبيض المتوسط ومنها فلسطين ومصر وأحياناً أجزاء من بلاد الرافدين، كما ضُمَّت أغلبية يهود العالم في ذلك الوقت في معظم أماكن تجمُّعهم، في فلسطين ومصر وبرقة (ليبيا) وقبرص وآسيا الصغرى. ولم يكن هناك تجمُّع يهودي كبير خارج هيمنتهم سوى تجمُّع بابل.

وقد بدأ احتكاك اليهود بالرومان حين اتصل بهم يهودا الحشموني أثناء التمرد الحشموني في محاولة للحصول على تأييدهم. وبالفعل، وقَّعت معاهدة بين الطرفين عام ١٦١ ق. م اعترفت روما بمقتضاها بالقوة الحشمونية. وحينما وصل بومبي عام ٦٥ ق. م إلى سوريا، تولَّى حسم النزاع بين اثنين من أبناء الأسرة الحشمونية (هيركانوس الثاني وأرسطوبولوس الثاني) في صراعهما على عرش يهودا الحشمونية، فأيد هيركانوس الثاني وعيَّنه ملكاً على أن يدفع الجزية لروما، وسحق تمرد أرسطوبولوس ودخل القدس عام ٦٣ ق. م.

وقد أصبح الرومان منذ ذلك التاريخ القوة الأساسية في منطقة الشرق الأدنى القديم. وأصبحت مقاطعة يهودا وحدة سياسية ذات استقلال محدود وتابعة لحاكم سوريا الروماني وأصبحت تُدعى «يوديا». ولم تكن المنطقة الساحلية من هذه المقاطعة تابعة لها، كما لم يكن لها أي بحر إلى البحر، وقد فصلت عنها أجزاء من أدم والسامرة، وأصبحت المدن المؤغرقة مستقلة عنها. وحينما عيَّن هيركانوس الثاني ملكاً، فإنه كان يحكم وحدة سياسية لا تشكل رقعة جغرافية متصلة. وقد خضعت فلسطين للحكم المباشر لنائب قنصل يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراف في الحرب. وكان أول نائب قنصل هو أولوس جابونوس (٥٧ - ٥٥ ق. م) الذي أنقذ

حيز الإدارة الذاتية لليهود بتجريد الكاهن الأعظم هيركانوس الثاني الحشموني من رتبة الملكية وفرض ضرائب ثقيلة على السكان، كما قسم المقاطعة إلى خمسة أقاليم يحكم كلٌّ منها ستهلدين أصغر. وأعاد بناء المدن السورية المؤغرقة التي كان الحشمونيون قد دمروها مثل السامرة وبيسان وغزة. ثم عهد الرومان بحكم فلسطين إلى صديقهم وصنيعتهم هيرود (٣٧ ق. م - ٤ م)، ولكنها وضعت تحت حكم روما مباشرة بعد موته. وكان أوغسطس يرى أن فلسطين غير مهمة ولا تستحق أن توضع فيها فرقة عسكرية كاملة (باللاتينية: ليجيو legio)، فالتفى بوضع فرقة مساعدة (باللاتينية: أوكيزليوم auxilium). وبدلاً من نائب القنصل، أصبح الحاكم بمرتبة «بريفكتور prefectus»، وهو الذي كان يُقال له أيضاً «بروكيواتور procurator» وتعني حرفياً «الوكيل المالي». وقد ساد الهدوء بشكل عام في السنوات الأربعين الأولى بعد ميلاد المسيح بسبب قوة الحكم الروماني واستقراره، ولأن الحكام الرومان تركوا اليهود وشأنهم.

وكان البناء الطبقي في المجتمع الفلسطيني لا يختلف عما كان عليه أيام البطالمة والسلوقيين، فكان ينقسم أساساً إلى جماعة وظيفية وسيطة محلية تضم الأثرياء من الملتزمين وكبار التجار وكبار ملاك الأراضي وكبار الكهنة، وكانت جماعة متأغرقة تماماً، وطبقات شعبية ذات طابع آرامي سامي لم تتم أغرقتها أو تأغرقت بشكل سطحي، كانت تضم المعدمين والفلاحين وصغار الملاك وبعض الحرفيين وصغار التجار وجماعات الكتبة وصغار الكهنة. ورغم انتشار ظاهرة المزارع الكبيرة في الإمبراطورية الرومانية على نطاق واسع، فإن شكل الملكية في فلسطين ظل بشكل أساسي الملكية الزراعية الصغيرة. ويُلاحظ في هذه الفترة زيادة استقطاب المجتمع اليهودي، الأمر الذي تمثل في تصاعد الصراع بين الصدوقيين والفريسيين الذين أصبحت لهم أغلبية داخل السهلين.

ولم يَدُم السلام الاجتماعي والتوازن الدقيق الذي فرضه

ولذا ، حينما منح كاركالوا المواطنة لسكان الإمبراطورية كافة عام ٢١٢م ، لم يستثن اليهود من ذلك بل سمح لهم بالعودة للقدس ، ومع ذلك لم تُعدّ منهم أعداد تُذكر . ومع أنه كان يتعيّن عليهم الاستمرار في إرسال الضريبة اليهودية (فيسكوس جودايكوس) ، لم يُسمح لهم بالقيام بنشاط تبشيري أو بزيارة القدس . وفي هذه الفترة ، ظهرت مؤسسة البطركية ، وترأس اليهود أمير اليهود (ناسي-بطريك) ، وبدأ جمع التلمود الفلسطيني .

أما يهود الإسكندرية ، فقد تحولوا عن ولائهم للبطالة وساعدوا الغزاة الرومان . وقد انتصفت الجماعة اليهودية بالطبقة الحاكمة الجديدة ، وأصبح أمهم يتوقف على وجود حكومة مركزية قوية تمجهم من الغضب المتزايد للجماعات اليونانية التي فقدت كثيراً من مكانتها بعد أن أصبحت الإسكندرية مجرد مدينة محتلة لا عاصمة مهمة . وقد استفاد اليهود من الوضع الجديد إذ تمتعوا عن طريق الاحتلال بالحقوق العامة التي كانت الدولة الرومانية تمنحهم إياها ، فأصبح من حقهم التمتع بحرية العبادة وممارسة عاداتهم كقوم (إثوس) . ومع هذا ، قرر أوغسطس (٢٧ - ١٤ ق.م) الاعتماد على العنصر اليوناني كعنصر وسيط ، وهو ما تسبّب في اتساع الهوة بين اليهود واليونان في الإسكندرية وأدّى إلى تدهور وضعهم الاقتصادي . وقد سرخ أوغسطس الجيش البطلمي وألغى النظام البطلمي لجمع الضرائب ، فأدّى ذلك إلى انهيار وضع اليهود الاقتصادي لأنهم كانوا مرتبطين بالهتين ، وخصوصاً أنه لم يُسمح لهم كمرترقة بالانخراط في سلك الجندي إلا إذا تخلوا عن دينهم . ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن أعداداً منهم عملت في هاتين الوظيفتين بنسبة أقل من ذي قبل . ويقول ديورات : "إن اليهود كانوا يمتلكون نصف سفن الإسكندرية في ذلك الوقت" .

ولم يُدخل أوغسطس تغييراً عميقاً على البناء الطبقي لمصر ، فقد قسّم الطبقات إلى ثلاث طبقات : الطبقة العليا التي تضم الرومان واليونان وغيرهم ، أي المواطنين المسجلين في الجمنانزيوم (وقد ألقى سكان الإسكندرية من أعضاء هذه الطبقة من ضريبة الرأس إعفاءً تاماً) ، وكان هناك أيضاً المتروبوليتاني ، أي سكان المدن في عواصم المناطق الإدارية . ورغم أن هؤلاء لم يكونوا يونانيين عرقياً ، فإنهم كانوا يندرجون في الجمنانزيوم ويتلقون تعليمهم فيه (ولذا) ، فقد أعترف بهم كطبقة وهم فُرضت عليهم ضريبة رأس مُحفّضة) . أما أعضاء الجماعة اليهودية ، فرغم أنهم كانوا أعضاء في البوليويما ، كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس كاملة ، الأمر الذي كان يعني مساواتهم بالمصريين ، كما كان يعني فقدان الأغلبية منهم

الرومان ، بل تقامت الأمور حينما طلب الإمبراطور كاليغولا (٣٧ - ٤١م) أن يوضع تمثاله في الهيكل . ولكن الحاكم الروماني تمّدّد تأخير تنفيذ الأمر الإمبراطوري بعض الوقت حتى اغتيل الإمبراطور . وأعاد الإمبراطور كلوديوس الأسرة الهيرودية إلى الحكم ، وأصدر بياناً يؤكد فيه حقوق اليهود كقوم (إثوس) لهم شعائهم التقليدية التي يجب احترامها ، وعيّن أجربيا الأول حاكماً (٤١ - ٤٤م) . ولكن فترة حكمه كانت قصيرة ، فعادت فلسطين إلى ما كانت عليه . وشهدت هذه الفترة تدهوراً اقتصادياً . وزادت البطالة ، وخصوصاً بعد توقّف عمليات البناء التي قام بها هيروود . واتضح معالم الاستقطاب الطبقي في المجتمع في فلسطين بين اليهود ، إذ بدأت تظهر جماعات الغيورين ، وعصبة الخناجر التي كانت تبني فلسفة اجتماعية مظرفة وتلجأ إلى الإرهاب . ثم نشب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ - ٧٠م) ، وهو عُقد يعود إلى عدد من الأسباب المركبة المتصلة بالوضع المحلي في فلسطين والوضع الدولي في الإمبراطورية . وقد أخذت تتوس هذا التمرد فحاصر القدس . وحين سقطت في يده ، قام بتعطيم الهيكل عام ٧٠م وحمل معه أوابنه إلى روما . وتقرّر أن يستمر اليهود في دفع نصف الشيكال التي كانت تُدفع للمهيكل على أن تُحوّل إلى معبد جويتر كايبتوليس وتُسمّى «فيسكوس جودايكوس» أي الضريبة اليهودية . ولكن الرومان لم يسحبوا اعترافهم باليهودية كدين مستقل ، ولذا فقد ألقى اليهود من عبادة الإمبراطور والواجبات الأخرى المفروضة على غير اليهود . ومع اختفاء الهيكل ، اختفى الصدوقيون والأسينيون ، واستمر التيار الفريسي وحده في يفتن .

وبعد فترة من الهدوء ، تجددت التمردات اليهودية في أطراف الإمبراطورية كافة ، في بابل وبرقة والإسكندرية وقبرص (١١٤ - ١١٧م) ، فأخمدها تراجان وقضى على بضعة آلاف من اليهود وعلى التجمعات اليهودية التي شاركت في التمرد . ولكن السخط اليهودي ظل مستمرّاً . وقام التمرد اليهودي الثاني عام ١٣٢م بقيادة بركوخبا الذي قضت عليه القوات الإمبراطورية في عهد هادريان بعد أقل من ثلاث سنوات ، حيث أصدر أمراً بهدم القدس ، وحرّم اليهودية في مقاطعة يهودا الرومانية (وإن سمح باستمرار السهدين في منطقة الجليل) .

ويلاحظ أن هذه الحروب لم تكن موجّهة ضد اليهود كقوم (إثوس) ، ولم تكن تستهدف تعطيمهم ، وإنما كانت تهدف إلى قمع التمرد وحسب . والواقع أن التمردات في ذاتها لم تكن ذات طابع قومي ، وإنما كانت تمردات ذات طابع طبقي اجتماعي ثقافي .

أكثر من غيرهم ، وذلك بسبب اندماجهم وبسبب تشبّعهم بالفلسفة الهيلينية التي قوّضت إيمانهم اليهودي وإن كانوا لم يتركوا التوحيد تماماً .

وكانت هناك تجمعات يهودية كبيرة أخرى في الإمبراطورية ، مثل التجمع اليهودي في آسيا الصغرى ، ولكن الجماعة اليهودية في روما كانت أهمها . وكان القانون الروماني يُحرّم على الشيوخ وأبنائهم استثمار أموالهم في التجارة أو الصناعة . كما أن قانون كلوديا حرّم على الشيوخ وأبنائهم ، وعلى الطبقة الأرستقراطية أيضاً ، امتلاك بواخر تزيد حمولتها من الحبوب أو الفواكه على الحد الذي قرّره القانون . ولعل هذا التحريم يُسرّر تزايد أهمية أعضاء الجماعة اليهودية نتيجة الدور البالغ الأهمية الذي كانوا يلعبونه في الحياة الاقتصادية . ولعل هذا الوضع القانوني ، وشبكة الاتصالات اليهودية الواسعة داخل الإمبراطورية التي تُكوّن الجماعات اليهودية مفاصلها الأساسية ، هو ما حوّل الجماعات اليهودية إلى جماعة وسيطة داخل الإمبراطورية . فكل جماعة وظيفية وسيطة استوعبت أترياء اليهود المتأخرين أينما كانوا سواء في مقاطعة يهودا الرومانية أو في الإسكندرية أو في آسيا الصغرى أو برقة .

ويبدو أنه في المائة الأخيرة قبل الميلاد ، بدأت الوثنية الرومانية تجاه أزمة عميقة ، وبدأ سكان العاصمة والإمبراطورية في البحث عن إطار ديني تفسيري ، وأخذت أعداد منهم تتجه نحو اليهودية بوصفها ديانة توحيدية أكثر رقياً . وقد قام اليهود بنشاط تبشيري تهويدي ومجحوا في اجتذاب عناصر من الأرستقراطية الرومانية نفسها ، الأمر الذي أثار مخاوف السلطة ، إذ كانت العبادة الوثنية الرومانية الإطار العقائدي للدولة . وقد قامت محاولات للحد من نشاط اليهود ومن تزايد نفوذهم ، كما تم طردهم في حكم القيصر تايبيريوس عام ١٩م ، ولكن سُمح بعودتهم عام ٣١م . ولم يتأثر اليهود في روما كثيراً بأحداث فلسطين بعد سحق التمرد اليهودي الأول ، بل استوطنتها بعض العائلات اليهودية . ولعل الاختلاف الوحيد هو اضطرابهم إلى دفع الضريبة اليهودية . ولم يؤثر التمرد اليهودي الثاني والقمع الروماني له (١٣٢ - ١٣٥م) في وضع أعضاء الجماعة اليهودية .

وقد تدهورت الأحوال الاقتصادية في فلسطين والإمبراطورية ككل ، وهاجر يهود كثيرون منها ، كما أن أحوال يهود الإسكندرية أخذت في التدهور وتناقصت أعداد كبيرة منهم . وحينما تبنت الإمبراطورية الرومانية المسيحية ديانة رسمية عام ٣٤٠م تحوّل اليهود إلى أقلية صغيرة ليست لها قيمة كبيرة وصاروا داخل إطار سياسي

المكانة المتميّزة باستثناء الأثرياء الذين أصبحوا مواطنين يونانيين . وبدأت تظهر الأدبيات اليهودية التي تحاول الدفاع عن حقوق اليهود . وقد أكد أوغسطس حقوق اليهود كبوليتوما ، مع أنه ألغى وظيفة رئيس القوم (إثنارخ) وأحل محلها مجلس الشيوخ (جيروسيا) ، ربما لزيادة مشاركة اليهود في صنع القرار .

ومع تخلّص وضع أعضاء الجماعتين اليونانية واليهودية بسبب ظهور الرومان ، بدأت المشاحنات بينهم إذ بدأ اليهود (كجماعة) يطالبون بحقوق المواطنة كاملة حتى يتخلصوا من وضعهم المتدني الجديد الذي ساوهم بالمعدين . ولكنهم كانوا يودون الحصول على المواطنة مع الاحتفاظ بعبادتهم وعدم الاشتراك في العبادة الوثنية للمدينة . ويبدو أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا منقسمين ، ذلك أن فريقاً منهم (التأخرين تماماً) كانوا يطالبون بحقوق المواطنة الكاملة ، لكن الفريق المحافظ كان يطالب بتأكيد حقوق البوليتوما . وقد زجر الإمبراطور كلوديوس اليهود فيما بعد لأنهم أرسلوا إليه وفدين مستقلين وكانهم يعيشون في مدينتين مختلفتين . وكان سكان الإسكندرية من اليونانيين يحاولون من جانبهم أن يجردوا أعضاء الجماعة اليهودية من حقوق البوليتوما حتى يصبحوا غرباء ليس لهم حق السكنى ، وبالتالي يمكن طردهم . وبالفعل ، أصدر فلاكوس ، حاكم الإسكندرية الروماني ، قراراً بهذا المعنى . وحيث إنه كان من الصعب طرد اليهود ، فتم تحويل ضواحي سكانهم إلى ما يشبه الجيتو القسري ، كما تم تقليص مساحة الرقعة التي يسكنون فيها . وقُبض على نصف أعضاء مجلس الشيوخ (جيروسيا) حيث عوقبوا بالضرب ، وهو عقاب لم يكن يطبق إلا على المصريين فقط .

وأخذت المشاحنات شكل إرسال وفود إلى الإمبراطور ليحكم بينهم . كما كان كل فريق يدبر مذابح ضد الآخر . وفي هذا السياق ، أحرق أعضاء الجماعة اليونانية المعبد اليهودي ، ورد عليهم أعضاء الجماعة اليهودية بأن أقاموا مذبحه ضدهم .

وفي عام ٦٦م ، تمرد يهود الإسكندرية وحاولوا أن يحرقوا المواطنين اليونانيين أثناء وجودهم في المدرج ، فقام تايبيريوس يوليوس الكسندر الحاكم الروماني ، وهو من أصل يهودي ، بالقضاء على التمرد بلا رحمة . فبعد تحطيم الهيكل في القدس ، حطّم هيكل أونياس وفرض على اليهود الضريبة اليهودية . وقد اشترك يهود مصر في التمرد ضد تراجان بتشجيع من يهود برقة ، ولكن هذا التمرد قُضي عليه . وقد انكمش ، بعد ذلك ، الوجود اليهودي في الإسكندرية وفي غيرها من الأماكن بسبب التحول إلى المسيحية . وقد كان يهود الإسكندرية بالذات مؤهلين لهذا التحول ،

الحشمونيين . وقد كوّن هو وقيصر وكراسوس أول لجنة تنفيذية ثلاثية منتصف عام ٦١ م ، ثم حكم بومبي بمفرده منذ عام ٥٢ ق. م . وفي هذه الأونة ، كانت مطامع يوليوس قيصر أخذة في التصاعد ، فعبر الريبكون في ٧ يناير ٤٩ ق. م وهزم بومبي وجيش مجلس الشيوخ هزيمة ساحقة عام ٤٨ ق. م . وقد لقي بومبي مصرعه أثناء فراره في مصر .

#### فبسيان (٦٩-٧٤)

Vespasian

أحد أباطرة الرومان ، واسمه الأصلي فلافيوس . بعثه نيرون عام ٦٧م للقضاء على التمرد اليهودي الأول . وخلال عام واحد ، استولى فبسيان على الجليل وشرق الأردن وساحل فلسطين . ولكنه اضطر إلى العودة إلى روما عندما علم نبأ وفاة نيرون ، وأصبح إمبراطوراً . وقد أكمل ابنه تيتوس الحملة .

أبدي فبسيان تسامحاً تجاه العناصر الفريسية التي كانت على استعداد للتعاضب مع الإمبراطورية الرومانية مثل يوحنا بن زكاي ويوسيفوس الذي اتخذ اسم القائد الروماني اسماً له وتبناً بأنه سيصبح إمبراطوراً .

#### تيتوس (٧٩-٨١)

Titus

أحد أباطرة الرومان ، وهو ابن فبسيان . قاد القوات الرومانية في مقاطعة يهودا الرومانية في عام ٧٠م . استولى على القدس بعد حصار دام خمسة أشهر اشتركت فيه إلى جانبه قوات يهودية بقيادة أجريبيا الثاني . وبعد استيلائه على القدس ، هدم تيتوس الهيكل . وحسبما جاء في كتابات يوسيفوس ، حاول تيتوس دون جدوى أن يقنع الغيورين بأن يستسلموا نظير أن يمنحهم حكماً ذاتياً شاملاً وعفواً عن المخطئين ، كما وعد بأن يُحافظ على الهيكل ، ولكنهم رفضوا . ولم يتدخل تيتوس في شؤون اليهود في أماكن أخرى من الإمبراطورية الرومانية ، ورفض طلب سكان أنطاكية بأن يُلغى امتيازات اليهود هناك . ولكن اسمه ارتبط دائماً بهدم الهيكل . وتجعله الأدبيات الصهيونية مسئولاً عن شتات اليهود ، مع أن عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين قبل هدم الهيكل كان يصل إلى نحو ثلاثة أضعاف عدد الموجودين في فلسطين . كما كان هناك جيش يهودي يقوده أجريبيا الثاني (ملك اليهود) يساعد تيتوس في حملته ، كما أن بيرنيكي أخت أجريبيا الثاني كانت عشيقته .

ودينى معادلهم تماماً . ويشكل هذا نهاية العصور القديمة وبداية العصر الوسيط في الغرب . وقد بدأت مرحلة اليهودية المعيارية (النمطية) في بابل في هذه الفترة ، ولكنها أخذت شكلها النهائي تحت حكم الرومان . ولعل تحوّل الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة داخل الإمبراطورية الرومانية ، مع تدهور الاقتصاد الروماني من اقتصاد تجاري نشيط إلى اقتصاد طبيعي مبني على التبادل ، جعلهم مرشحين لأن يلعبوا الدور الذي لعبوه في أوروبا المسيحية باعتبارهم أقتان بلاط . وأصبحت الفرية اليهودية علامة على عبوديتهم للإمبراطور وريث قيصر روما .

ومن القضايا الأساسية التي تثار حول هذه المرحلة ، عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية . ولعل أكثر التخمينات مصداقيةً هو الذي يرى أن العدد كان ثمانية ملايين يهودي في القرن الأول الميلادي قبل تحطيم الهيكل على يد تيتوس . وكان اليهود موزعين على النحو التالي : من ٢,٣٥٠,٠٠٠ إلى ٢,٥٠٠,٠٠٠ في فلسطين ، وحوالي مليون يهودي في كل من مصر وسوريا وآسيا الصغرى وبابل . ومجموع هؤلاء أكثر من خمسة ملايين يهودي . ويمكن أن نضيف إلى ذلك الجماعات اليهودية المتناثرة في إثيوبيا واليمن وقبرص وليبيا وإيطاليا واليونان . وهذه الأعداد تدل على أن الشتات اليهودي هو ، في واقع الأمر ، انتشار ناتج عن آليات تاريخية مركبة . كما تدل على أن أعداداً هائلة من اليهود اندمجت عبر العصور ، وانخرطت أعداد كبيرة منهم في المسيحية ، وإلا لما أمكن تفسير أن عدد اليهود في العالم عند بداية العصور الوسطى كان لا يزيد على المليون .

#### بومبي (٧٠-٤٨ ق.م)

Pompey

أحد أباطرة الرومان . تم انتخاب بومبي قنصلاً بالاشتراك مع ماركوس كراسوس (٧٠ ق.م) ، فقام بحملة لتطهير البحار من القراصنة ، كما قام بدعم السلطة الرومانية في المقاطعات الشرقية والممالك الأمامية . وقد وصل إلى سوريا عام ٦٥ - ٦٣ ق.م ضمن حملته هذه وقام بالتحكيم بين هيركانوس الثاني وأرسطوبولوس الثاني في نزاعهما على عرش يهودا الحشمونية ، فحكم للأول واستولى على القدس والهيكل من أعوان أرسطوبولوس . ويُقال إنه دخل قدس الأقداس ، ولكنه لم يهدم الهيكل . ويدخوله إليها تحوّل يهودا إلى مقاطعة تحت الحكم المباشر لثابت قنصل روماني مقره سوريا ، ونُزعت منها الممتلكات التي ضمتها أثناء حكم

تراجان (٩٨-١١٧)

Trajan

أحد أباطرة الرومان . نشبت ، أثناء حربه ضد الفريين (١١٥-١١٧م) اضطرابات يهودية في بركة وقبرص والإسكندرية وبلاد الرافدين . ولها ، فقد اتخذ إجراءات مُشدّدة ضدهم ، قضى على الاضطرابات وأنهى ازدهار اليهود هناك . أما مقاطعة يهودا الرومانية ، فقد حكمها بحزم شديد الجنرال الروماني لوسيوس كواباتوس الذي وضع تمثالاً لتراجان في الهيكل .

هادريان (١١٧-١٣٨)

Hadrian

أحد أباطرة الرومان . بدأ حكمه بإكمال القضاء على التمرد اليهودي في أفريقيا ، وأعدم لوسيوس كواباتوس حاكم فلسطين الروماني الذي كان قد أعدم ترمداً يهودياً خارج فلسطين وداخلها . وقد تم إعداده لأسباب تتصل بالسياسة الرومانية الداخلية ، إذ أنهم بالتأمر على الإمبراطور . وقد اصطدم هادريان ، فيما بعد ، باليهود حين أصدر قراراً بمنع الختان باعتباره شكلاً من أشكال التشويه الجنسي مثل الخصى . وحين اجتمع باليهود (في عام ١٣٠م) ، طلبوا إليه إعادة بناء القدس والهيكل . ولكنه قرّر تحويل القدس إلى مستعمرة رومانية ، فنشب التمرد اليهودي الثاني بقيادة بركوخبا الذي أخمده القوات الرومانية (١٣٢-١٣٥م) .

وقد تموت مقاطعة يهودا الرومانية إلى مقاطعة رومانية تُسمى «سوريا بالستينا» ، وأعيد بناء القدس كمدينة رومانية سُميت «إيليا كابيتولينا» ومُنع اليهود من دخولها أو العيش فيها . وقد شيد تمثال لهادريان وهو يمتطي صهوة جواده عند قدس الأقداس .

ورغم أن هادريان سحق التمرد واتخذ إجراءات لمنع اندلاع أي تمرد آخر ، فإنه لم ينتقص من حقوق اليهود كمواطنين ولم يُلغ حقهم في عدم عبادة الإمبراطور . وقد ألغى خليفته أنطونيوس الخطر ضد الختان إلا للرجال الذين ليسوا من أصل يهودي ، كما ألغى بعض الإجراءات التي اتُخذت أثناء قمع التمرد الثاني .

الحاكم الروماني (بروكيوراتور)

Procurator

«بروكيوراتور» كلمة لاتينية تعني حرفياً «محصل الأموال» . وقد أُطلق هذا اللفظ على حاكم فلسطين الروماني (الذي كان في العادة ضابطاً من رتبة الفرسان) . وقد بدأ الرومان في تعيين حكام

لفلسطين من العام السادس الميلادي ، أي منذ نُفي أرخيلالوس بن هيرود ، حتى ٤١ ميلادية . وتوقف تعيين الحكام لمدة ثلاثة أعوام عُنِي في أثنائها أجربيا الأول (٤١-٤٤ م) ، وهو من أسرة هيرود ، حاكماً لفلسطين . ثم استؤنف تعيين الحكام بعد ذلك من عام ٤٤ حتى عام ٦٦ م . وكان الحاكم الروماني (الذي كان يُطلق عليه أيضاً مصطلح «بريفكتوس») يتبع الإمبراطور مباشرة . ومع هذا ، كانت فلسطين تابعة لمنطقة سوريا التي كان يترأسها حاكم سوريا (المؤد الرسمي) الذي كان على البروكيوراتور أن يستشيريه في حالة الطوارئ . وكان مقر البروكيوراتور هو قيصرية حيث كان يقيم في القصر الذي شيده هيرود لنفسه وإن كان ينتقل إلى القدس أثناء الأعياد اليهودية ليُشرف على الأمن . وكانت تُوضع تحت إشرافه كل المحاكم ، ومنها المحاكم التابعة للشهدين ، كما كان يشرف على الهيكل ويُعيّن الكاهن الأعظم ويحفظ بملابسه ولا يسلمها له إلا يوم عيد الغفران أو المناسبات المهمة التي تتطلب ارتداء الزي . وكانت أهم مهام الحاكم الإشراف على جمع الضرائب . كما كان الحاكم الروماني (بروكيوراتور) هو قائد الجيش الذي يفضّل بأعمال الأمن الداخلي وحسب . فالقوات التي كانت مرابطة في فلسطين لم تكن سوى قوات مساعدة (أوكزييوم) ، ولم تكن فرقاً قتالية أساسية . وكان من سلطات الحاكم إصدار أحكام الإعدام ، ومع هذا كان من حق المواطنين استئناف الحكم في روما .

ومن الناحية الرسمية ، كان يتبعن على الحاكم الروماني ألا يتدخل في الشؤون الداخلية للقوم (الإثنوس) اليهودي . ولكن كان من الصعب تعريف الحدود بين القانون الروماني والعادات والقوانين اليهودية ، كما كانت تظهر أحياناً تناقضات أساسية فيما بينها . وكان اختيار الحاكم لا يتم لاعتبارات الكفاءة وإنما كان يتم وفقاً لأسباب سياسية ومن خلال الاتصالات الشخصية . ولهذا ، شغل المنصب مجموعة من الحكام الذين كانوا يتسمون بالفساد .

وقد استمر كثير من الحكام يقتفون أثر هيرود ، فكانوا يتحكمون في تعيين الكاهن الأعظم من الأسر الثرية ليجنوا من ذلك الأرباح المادية . وقد قام الحاكم فاليريوس جراتوس بتعيين خمسة كهان عظام في فترة لا تزيد على عشرة أعوام ! كما أن كثيراً منهم لم يحترموا عادات القوم (الإثنوس) اليهودي ، إما لجهلهم أو لعدم فهمهم لها أو لمحاولة فرض الإرادة الرومانية بهدف دمج السكان في الإمبراطورية . كما أن رغبة الحكام في الحصول على شيء من كنوز الهيكل وحصيلته كانت دائماً مثار احتكاك بين الإدارة الرومانية واليهود . وقد أدّى كل ذلك في نهاية الأمر إلى اندلاع التمرد

اليهودي الأول ، وخصوصاً بعد ظهور جماعات الغيورين وعصبة الخناجر .

وبعد هدم الهيكل عام ٧٠م ، عُيِّن بعض الحكام بلقب «بروكيوراتور» ولكنهم كانوا تابعين تماماً للمؤد الرسمي في سوريا . ولا نعرف شيئاً عن هؤلاء الحكام إلا أسماءهم . وفيما بعد ، أصبح حكام فلسطين يحملون لقب «قنصل» أو «دوكس» أي «ملك روماني» .

#### القوم (إثنوس)

Ethnos

«القوم» هي الترجمة العربية لكلمة «إثنوس» اليونانية . استخدمها اليونان ثم الرومان للإشارة إلى الأقوام المختلفة التي كانوا يحكمونها . وكان اليهود يُعدون «إثنوس» أي قوماً لهم قوانينهم التقليدية وديانتهم المستقلة المعترف بها من قبل الدولة ، وهو ما كان يعني تمتعهم بحقوق ومزايا معينة ، وفقدانهم حقوق المواطن الذي كان عليه أن يؤمن بالعبادة الوثنية اليونانية أو الرومانية . وكان يتأسسهم «إثنارخ» أي «رئيس القوم» .

#### الحاكم الروماني (بريفيكتوس)

Prefectus

«بريفيكتوس» كلمة لاتينية بمعنى «حاكم» ، ويبدو أنها مرادفة لكلمة «بروكيوراتور» أي «المحصل المالي» .

#### تايبيريوس يوليوس الكسندر (١٤ق.م - ٢٠)

Tiberius Julius Alexander

ابن كبير الموظفين (ألبارخ) ألكسندر ليسيماخوس شقيق فيلون السكندري . وُلد في الإسكندرية عام ١٤ ق.م ، وانخرط في السلك العسكري الروماني وهو بعد شاب يافع ، ثم عُيِّن قائداً عسكرياً (إيستراتيجوس) في مصر العليا عام ٤٢م ، ثم عُيِّن حاكماً لمصر عام ٦٦م حيث سحق تمرداً يهودياً وذبح ما يقرب من خمسة وخمسين ألف يهودي ، ثم عُيِّن فسيبسان في منصب الضابط الأعلى في جيش تيتوس في يهودا الرومانية . وقد حضر المجلس الذي عقده تيتوس لتقرير مصير الهيكل ، ويُقال إنه كان ضمن من صوتوا ضد هدمه . ولا توجد أية معلومات عنه بعد هذه الواقعة .

#### كبير الموظفين (ألبارخ)

Alabarx

«كبير الموظفين» هي الترجمة العربية للكلمة اليونانية «ألبارخ» التي تشير إلى كبار الموظفين في الدولة اليونانية والرومانية ثم البيزنطية الذين كانت توكل إليهم الوظائف المالية . ويُقال إن لقب «ألبارخ» هو نفسه لقب «أراباخيس» . وكان الأراباخيس أو الأباراخ مستولاً عن تحصيل الضرائب من السفن التجارية التي كانت تأتي من الضفة الشرقية من النيل إلى الإسكندرية . ويذكر يوسيفوس أن اليهود عُيِّنوا «حراساً للنهر» في أيام البطلمة . ويبدو أن العبارة تحمل معنى تجارياً أكثر من كونه عسكرياً ، وإن كان بعض المؤرخين يميل إلى الأخذ بالمعنى العسكري . ومن أشهر من حملوا لقب

#### الضريبة اليهودية (فيسكوس جودايكوس)

Fiscus Judaicus

«الضريبة اليهودية» هي الترجمة العربية لعبارة «فيسكوس جودايكوس» اللاتينية . وهي ضريبة رأس فرضها الرومان على يهود الإمبراطورية الرومانية بعد هدم الهيكل ، وحلت محل نصف الشيكال الذي كان على اليهود دفعه للمهيكل . وكان يتم إرسال المبالغ المحصلة إلى معبد جوبيتر كبايتوليتوس في روما . وكانت الضريبة تشكل إهانة عميقة لمشاعر أعضاء الجماعات اليهودية ، فكانوا يحاولون التهرب منها . ويبدو أنه كان يصاحب جمع الضريبة سلوك إداري يهدف إلى إذلال اليهود . ولكن ، بعد موت دوميتيان ، كان يتم جمع الضريبة دون توجيه أية إساءة كبيرة لهم .

ومن غير المعروف إن كانت الضريبة أُلغيت أم لا . ولكنها ، على أية حال ، أُعيد بثها مرة أخرى في الغرب في العصور الوسطى (عام ١٣٤٢م) . فقد وُجدت في ألمانيا تحت اسم «أوفيرفينج topferfennig» أي «مليم قربان» ، رمزاً لواقع أن أوروبا المسيحية ورثت اليهود (فيما ورثت) من روما الوثنية ، وأنهم لذلك ملك للإمبراطور أي أفتان بلاط .

انتيباتسر (حكم يهودا ٦٣-٤٣ ق.م)

Antipater

أبو هيرود الأكبر . كان حاكم أدم في عهد ألكسندر يونايسوس وسالومي الكسندرا . وقد تمكّن من الصعود بسرعة في السلك الإداري للدولة الحشمونية بسبب ذكائه وجمالته التي كانت تتسم بالتوقيت الدقيق . وقد نصح يوحنا هيركانوس الثاني باللجوء إلى الحارث ملك الأنباط في حربه ضد أخيه أرسطوبولوس الثاني . وفي الحرب الأهلية الرومانية ، وقام أنتيباتر بتأييد بومبي في بادئ الأمر ، ولكنه بدّل ولاءه وأرسل فرقة من الجنود اليهود والنبطيين لمساعدة يوليوس قيصر في حملته ضد مصر . وقد عين يوليوس قيصر هيركانوس الثاني رئيساً للقوم (إتارخ) ، إلا أن السلطة الحقيقية ظلت في يد أنتيباتر . وقد عين أنتيباتر أولاده في مناصب مهمة ، إذ عين فسائيل حاكماً للقدس ، وهيرود (الأعظم فيما بعد) حاكماً تابعاً (تتراخ) للجليل . وقد مات أنتيباتر بعد أن دس له أعداؤه السم ، وكان قد مهد الطريق لابنه للاستيلاء على العرش وتأسيس الأسرة الهيرودية التي حكمت لصالح الرومان وأُسمت بولائها الشديد لهم .

هيرود (٣٧ ق.م - ٤ م)

Herod

ملك اليهود وابن أنتيباتر الأدمي من زوجته النبطية ، وهو مؤسس الأسرة الهيرودية . كان حاكماً تابعاً (تتراخ) للجليل في شبابه . أظهر عزمًا في القضاء على العناصر اليهودية المشاغبة ، وقضى على محاولة أنتيجونوس ، ابن أرسطوبولوس الثاني ، للسيطرة على الجليل . وحينما وضع الفريزيون أنتيجونوس على العرش عام ٤٠ م ، فرّ هيرود إلى روما ، فنصّب مجلس الشيوخ ملكاً رومانياً (دوكس) على مقاطعة يهودا الرومانية . فاستولى على العرش بمساعدة قوة رومانية كبيرة وأعدم أنتيجونوس . وانهز فرصة الصراع بين أنطونيوس (مارك أنطوني) وأوكتافيوس (أوغسطس فيما بعد) ، فشن حرباً على الأنباط وهزمهم . وبعد معركة أكتيوم (٣١ ق.م) ، نُبِت على مملكته ، وأعطته روما حق التصرف في الشؤون الداخلية دون أن تمتد صلاحياته إلى مجال السياسة الخارجية .

كان يتعين على هيرود في سياسته الداخلية أن يوازن بين ثلاث قوى أساسية هي : سكان فلسطين من اليهود ، ثم سكانها من غير اليهود ، وأولاً وقبل كل شيء : الرومان سادة المنطقة وأولياء نعمته .

وقد أظهر هيرود قدرة غير عادية على الحركة في إدارة حكمه ، فرغم أنه لم يكن يهودياً خالصاً ، حيث كان من أصل أدمي ، فإنه قام بتدعيم مركزه تجاه اليهود بأن تزوّج من مريم الحشمونية حفيدة الكاهن الأعظم ، وبهذا وحّد هيرود العائلتين الهيرودية والحشمونية . لكنه أعدمها هي وأبنائها وأمه وشقيق زوجته ، أرسطوبولوس الثالث ، آخر الكهنة الحشمونيين ، وكذلك منافسيه المحتملين كافة بعد أن استأذن الرومان في ذلك . كما أن هيرود كان يستخدم نفوذه عند الإمبراطور للدفاع عن حقوق يهود آسيا الصغرى ليزيد شرعيته أمام اليهود . وقد جدّد هيرود الهيكل وبنى حوله سوراً . والواقع أن حائط المبكى الحالي جزء من سور هيرود . ولم يكن من الممكن لهيرود أن يصبح كاهناً أعظم ، ومع هذا تدخل في تعيين الكاهن الأعظم وكان يعينه ويطرده حسب هواه .

ولكن كان على هيرود أيضاً أن يرضي العناصر غير اليهودية (والعناصر اليهودية ذات النزعة الهيلينية) فتصرف كحاكم هيليني وبنى مدناً هيلينية عديدة وموّل الألعاب الأولمبية ومجموعة من القلاع بينها ماساده . كما بنى في القدس ميداناً لسباق الخيل ومسرحاً ومدرباً . وقد اكتشف مؤخراً أنه بنى معبداً لآلهة مدينة روما في مدينة قيصرية في الوقت نفسه الذي كان يجدد فيه الهيكل ، كما اكتشف أن المعبد الروماني الذي بناه ليشبث ولاءه للإمبراطور أوغسطس كان يشبه الهيكل الثاني .

ولإرضاء القيادة الإمبراطورية الرومانية ، زين السامرة بالأبنية وسماها «سبسطية» تكريماً لأوغسطس . وزاد هيرود الضرائب ليُرضي مارك أنطوني ولي نعمته ، وليُدفع نفقات مشاريع البناء الباهظة . وفي عصره ، ازدهرت التجارة ، وعمّ نوع من الرخاء ، وساد السلام الروماني .

وقبل أن توفيته المنية ، أوصى هيرود بمعظم مملكته لابنه أرخيلالوس الذي كان عليه أن يحكم مقاطعة يهودا الرومانية وأدم والسامرة . أما شقيقه هيرود أنتاباس ، فقد أوصى له بمنطقة الجليل وحسب . وقد حَسَم الرومان المنافسة بين الأخوين بتسليم أرخيلالوس نصيبه في المملكة ومنحه لقب «حاكم تابع» وحسب دون لقب «ملك» ، وعين الأخ الثاني حاكماً تابعاً للجليل . وحين اشتكى اليهود والسامريون من أرخيلالوس ، خلعه الرومان ووضعوا فلسطين الرومانية تحت الحكم المباشر للنواب الرومان الذين كانوا يحملون لقب «حاكم (بركيوراتور)» أو «محصل المال» والذين كانت تركز مهمتهم أساساً في جمع الضرائب والإدارة والقضاء .

## أجريبا الأول (٤١-٤٤)

Agrippa I

هو هيروود أجريبا حاكم مقاطعة يهودا الرومانية (٤١ - ٤٤ م) . وهو حفيد هيروود من زوجته هرم الحشمونية ، وابن أرسطوبولوس وبيرينكي (بنت أخت هيروود) . تلقى تعليمه في روما ، وكانت حياته فاسدة . عينه الإمبراطور الروماني كاليغولا حاكماً على بعض مناطق فلسطين بلقب «ملك روماني (دوكس)» ثم على كل المناطق التي كان يحكمها جده هيروود مدة ثلاثة أعوام قبل وفاته . وكان أجريبا لا يختلف من قريب أو بعيد عن الملوك الهيلينيين الذين حكموا باسم روما ، فأقام التماثيل للإمبراطور وأسس المسارح والمدرجات . ويبدو أنه ، بسبب أصله اليهودي ، كان أقدر على تنفيذ السياسة الرومانية الخاصة بعدم التدخل في شئون القوم (إثنوس) . وقد كان متعاطفاً مع الفريسيين ، الجناح المعتدل في الحزب الشعبي . وبعد حكمه القصير الذي دام ثلاثة أعوام ، قرّر الرومان أن يحكموا المنطقة بشكل مباشر مرة أخرى ، فعُينوا حاكماً رومانياً (بروكيوتور) .

## أجريبا الثاني (٤٤-٦٦)

Agrippa II

هو هيروود أجريبا . وكان اسمه الروماني ماركوس يوليوس ، آخر الملوك الهيروديين وابن أجريبا الأول . تلقى تعليمه في روما مثل أبيه . لم يُعين ملكاً بعد موت أبيه بسبب صغر سنه ، ولكنه مُنح لقب «ملك روماني (دوكس)» في عام ٥٠ ميلادية . لم يحكم مقاطعة يهودا الرومانية إذ عُين حاكم روماني لإدارتها ، ولكنه كان ملكاً لمناطق متفرقة في شرق الأردن وغيرها من الأماكن . وزادت رقعة المناطق التي حكمها في عهد نيرون ، إذ أُضيفت له بعض مناطق الجليل . وإلى جانب كل هذا ، كان من مهامه الإشراف على الهيكل وتعيين الكاهن الأعظم . وكان يتمتع بمكانة الملك الروماني في القدس .

وكان أجريبا متأزماً تماماً ، فسكّ عملات تحمل اسمه عليها علامات وثنية وصور للإباطرة الرومان ، الأمر الذي يتنافى مع

الشريعة اليهودية . وقد أدّى هذا إلى وجود عداة شديد تجاهه في صفوف الجماهير اليهودية . وحينما اندلع التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠ م) ضد الرومان ، حاول سدى التدخل لإقناع الجماهير بعدم جدوى الوقوف ضد روما وضرورة التزام الهدوء . ولكنه اضطر إلى الفرار لينجو بحياته ، وانضم إلى الحملة الرومانية مع فرقة يهودية ، وجُرح أثناء الحرب التي انتهت بهدم الهيكل . وحيث إن عملية بناء الهيكل التي بدأها هيروود لم تنته إلا على يديه فيمكن القول بأنه قد اشترك في بناء الهيكل وهدمه . وكانت أخته هي بيرينكي عشيقة تيتوس . ويبدو أن أجريبا ، حسب الشائعات الرومانية ، كان على علاقة آثمة بأخته ، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن بعض أعضاء الأرستقراطية الرومانية في فترة انحلال الوثنية (الرومانية) . وقد تقاعد في روما وتوفي بها .

## قسطنطين الأول (٢٨٨-٣٣٧)

Constantine I

هو فلافيوس فاليريوس أورليوس قسطنطينيوس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية (٣١٢ - ٣٢٤ م) والإمبراطور الأوحده لساتر الإمبراطورية (٣٢٤ - ٣٣٧ م) . اعتنق المسيحية إبان محاولته توحيد الإمبراطورية في عام ٣١٢ م ، ثم أعلن ، في براءة التسامح (التي صدرت عام ٣١٣ م) حق كل مواطن في أن يؤمن بالعقيدة التي يختارها ومن ذلك المسيحية ، وبذلك أعلن قبول المسيحية لأول مرة في الإمبراطورية الرومانية . ثم جعل المسيحية العقيدة الرسمية للإمبراطورية عام ٣٢٦ م . وقد أثر هذا في علاقته بالجماعات اليهودية ، فمنع اليهود من التبشير بدينهم ومن محاولة التأثير في اليهود الذين تنصروا عام ٣١٥ م . وفي عام ٣٣٥ م ، منعهم قسطنطين من ختان العبيد المسيحيين أو التزوج بالمسيحيين . وقد أدت قراراته هذه إلى تزايد أعداد اليهود الذين تنصروا . وكان المنتصرون من اليهود يهاجمون بني ملتهم السابقين بضراوة ، حتى إن قسطنطين اضطر إلى استصدار قرار بحمايتهم عام ٣٣٦ م . وكان لسياسات قسطنطين أكبر الأثر في تحديد وضع اليهود داخل الحضارة المسيحية الغربية .



## التمردات اليهودية

التمردات اليهودية ضد السلوقيين والرومان - التمرد الحشموني - التمرد اليهودي الأول ضد الرومان -  
ماسادا - ماکابروس - هيروديام - التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان - بركوخبا - بيتار (قلعة)

## التمردات اليهودية ضد السلوقيين والرومان

Jewish Rebellions against the Seleucids and Romans

من الافتراضات الأساسية في كتب التاريخ التي تستخدم النموذج الصهيوني في التحليل والتأريخ أن الشعب اليهودي قام بثورات عديدة تبعتها حروب ضد السلوقيين ثم الرومان للذود عن هويته القومية . ونحن نسمي هذه الثورات «تمردات» لأسباب سنورها فيما بعد . كما أننا لا نستخدم كلمة «حرب» لأنها تعني وجود صراع بين قوتين مستقلتين متنازعتين تتسلمان بشيء من التكافؤ في القوة ، وهو أمر تنفيه المعلومات التاريخية ، فلم يكن هناك قط أي احتمال لأن يتصمر المتمردون اليهود بسبب ضالة عددهم وتخلفهم التكنولوجيا وجعلهم بالقوة العسكرية الرومانية ، وهو ما أثبتته الأحداث فيما بعد . كما أن اليهود لم يكونوا فريقاً واحداً متماسكاً يقف ضد الرومان .

وأهم التمردات اليهودية هو التمرد الحشموني ضد السلوقيين في عهد أنطيوخوس الرابع (١٦٨ ق.م) ، ثم التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠م) ، والتمرد اليهودي الثاني بزعامة بركوخبا (١٣٢ - ١٣٥م) ضد الرومان .

ولفهم هذه التمردات وطبيعتها ، لا بد أن نضعها في سياقين : أحدهما روماني (دولي) ، والآخر يهودي أو عبراني (محلي) . وقد كانت الإمبراطوريات القديمة تواجه دائماً مشكلة أساسية تمثل في أنها مترامية الأطراف ولم تكن لديها قوات احتلال كافية لضمان الأمن وتدفق الأموال إلى خزائنها . ومن هنا لجأ اليونانيون إلى إنشاء المدن الاستيطانية التي استفاد بها الرومان بعددهم في تسيير أمور الإمبراطورية . وكانت هذه الإمبراطوريات تضم شعوباً وقبائل ومناطق جغرافية متعددة ينظمها إطار إداري واحد ، فكان يحكمها إقطاعان : أحدهما تعددي والآخر أحادي . وقد ترجم هذا نفسه إلى أسلوب في الإدارة من خلال إطارين : أحدهما روماني علمي يتمثل في الحاكم الروماني والقوة العسكرية التي تسانده ، والآخر محلي يتمثل في الملك المحليين ورؤساء الأقوام والأثرياء المحليين والكهنة

وغير ذلك من المؤسسات المحلية . وكان هؤلاء يؤدون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة بين الإمبراطورية والسكان المحليين .

وقد سمح هذا الإطار المزدوج بشيء من التعددية الحضارية كما كان الحال مع السلوقيين والبطلمية حتى عهد أنطيوخوس الرابع السلوقي ، وكما كان الحال مع الإمبراطورية الرومانية . ويبدو أن الإمبراطورية الرومانية نجحت في دمج المقاطعات الرومانية في الغرب لغوياً وثقافياً ودينيّاً بسبب قربها الجغرافي منها ، وبسبب التخلف الحضاري لهذه المقاطعات . أما المقاطعات الشرقية التي تميّز بالعمق التاريخي والثقافي والتي تقع بعيداً عنها ، فلم تنجح الإمبراطورية الرومانية كثيراً في دمجها ، إذ احتفظت ، مثل فلسطين وأرمينيا ومصر وغيرها ، بلغتها وثقافتها ودينها . وهو استقلال لم تعارضه الإمبراطورية لأنه لم يمثل تحدياً للإطار الإداري المزدوج أو عائقاً أمام تدفق الضرائب والأموال . وعمّا ساعد على استمرار ذلك الوضع أن الأقاليم الشرقية كانت أكثر إنتاجاً ، فقد كانت تصدر سلعها للإمبراطورية ، وهذا ما جعل الرومان يحترمونها أهتها وعاداتها الإثنية .

هذا هو الإطار العام لعلاقة الإمبراطورية الرومانية (وإلى حدّ ما السلوقية) بالشعوب والأقوام التي كانت تقع داخل حدودها ، وهو الإطار الذي يمكن من خلاله فهم علاقة روما بالجماعات اليهودية . فالإمبراطورية لم تكن تريد سوى أن يسود الهدوء في أطرافها حتى يتسنى الاستمرار في العمليات الإنتاجية المختلفة الضرورية لتدفق الأموال والخيرات على روما . وكانت مهمة الحاكم الروماني (بركيوراتور) هي فرض الضرائب ، أما جمعها فكان يقوم به ملتمسون محليون . وكان هذا الحاكم يحكم فلسطين بمعاونة شخصية يهودية محلية مثل الملك أجربيا الأول أو غيره . وكثيراً ما كان لا يعين أي حاكم روماني ، وهو ما كان يتيح الفرصة أمام الحاكم اليهودي لأن يتحرك بحرية أكبر . ومع أن الرومان قد منعوا في مرحلة من المراحل انضمام أي مواطن روماني إلى اليهود كقوم (إنوس) ، وذلك حينما قام اليهود بجهد تبشيري تهويدي مكثف في

حقوق المواطنة ، وهو ما كان يسهل حركتهم الفعلية والاجتماعية .

ولكن الوضع لم يكن كذلك بالنسبة إلى فقراء اليهود في الريف ، فلم يكن الاندماج يحقق بالنسبة إليهم أية مزايا . وقد احتفظ هؤلاء بيهويتهم وثقافتهم السامية الأرامية وارتباطهم بالعقيدة اليهودية . وكان من بين هؤلاء صغار الكهنة ، الذين عبروا عن وجهة نظر جماعة القريسيين . وقد ازداد الاستقطاب بين الفريقين ، كما ظهرت الانقسامات داخل كل فريق . وفي داخل الفريق المتأخرق ، كانت أسرة طوبيا تمثل جناحاً متطرفاً ، في حين تفرع من جناح الحزب الشعبي الغيورون وعصبة الخناجر اللذان انقسموا بدورهما إلى فرق وشيع . وإلى جانب الانقسامات الطبقية آفة الذكر والتي عبرت عن نفسها من خلال الخطاب الديني ، كانت هناك انقسامات إثنية عميقة . فبين يهود فلسطين كان هناك عدد كبير من المنتهدين مثل الأدوميين والإيطوريين الذين هودمهم الحشمونيون عنوة . كما كان هناك يهود بابل الواقعون خارج نطاق الحضارة الهيلينية ، ويهود الإسكندرية الذين كانوا قد تشبّعوا بالحضارة الهيلينية تماماً ، كما كان يوجد تجمّع يهودي كبير في سوريا . وقد أُطلق على كل هؤلاء مصطلح «اليهود» .

ومن الصعب تحيّل تمرد يهودي على مستوى قومي يضم كل هؤلاء أو حتى معظمهم . وكما يقول المؤرخ الأمريكي اليهودي سالو بارون : «إن سكان سوريا من اليهود ظلوا بمجزل عن التمردات الثلاثة التي قامت ضد أنطيوخوس الرابع وضد الرومان ، كما أن الخلافات مزقت صفوف الثوار . وأثناء التمرد الأول ضد الرومان لم تقف البلديات اليونانية في فلسطين وحدها ضد قوات التمردين وإنما قاومتها مدن ذات أغلبية يهودية واضحة مثل صفورية وطبرية . بل لم يكن هناك إجماع في مقاطعة يهودا الرومانية نفسها . كما أن القبايلات الصدوقية والقريسية كانت معارضة للتمرد بشكل محدد» . ويمكن أن نضيف هنا أن الأقلية في بابل كانت قد استقلت بشؤونها إلى حدٍّ كبير ولم تدعم أبداً من التمردات باستثناء إمارة حدياب اليهودية التي فعلت ذلك من منظور فرقي وليس من منظور يهودي . وحتى بين الفقراء ، وهم العمود الفقري للتمردات ، لم يكن التمرد قوياً وإنما كان دائماً تمرداً ضد فساد بعض الموظفين أو تطرّف بعض الحكام في محاولتهم فرض نمط حضاري غريب عليهم . وكثيراً ما كان التمرد يأخذ شكلاً دينياً ، فالثقافة المحلية كانت مرتبطة بالعبادة المحلية تماماً مثلما كانت الأغرقة مرتبطة بالعبادة الوثنية عند اليونان الرومان .

روما ، إلا أنهم لم يمارسوا أي ضغط على اليهود حتى يتركوا صفوف قومهم أو يتحولوا عن دينهم . وقد أعفني اليهود من الاشتراك في عبادة الإمبراطور الوثنية ، شأنهم في هذا شأن بعض الأقسام الأخرى ، وكان لهم مجالسههم الإدارية المحلية مثل السنهدين ومجلس الشيوخ (جيروسا) . وكان الهنود يظل سائلاً طالما كان هناك توازن في القوى المحلية ، ومادامت الصراعات لا تصل إلى مرحلة الغليان ، ومادامت الإمبراطورية قانعة بالإيقاع المزدوج التعددي الأحادي .

ولكن الحفاظ على هذا الإيقاع كان أمراً صعباً . ولذا ، كثيراً ما كان التوازن يختل ، وتنبث التمردات بين اليهود وغيرهم من الأقسام ، وهي التمردات التي تسميها التواريخ الصهيونية «قومية» . والواقع أن من الصعب تماماً أن نُطلق على هذه التمردات صفة «قومية» ، ولعله من الأدق وصفها بأنها انفجارات اجتماعية ذات طابع طبقي واضح ومضمون حضاري أقل وضوحاً وتستخدم الخطاب الديني المشيخاني . فالجتماع اليهودي في فلسطين كان يشتمل على العناصر الثرية المتأخرقة التي كانت تضطلع بوظائف مثل جمع الضرائب وتمتلك الضياع الواسعة وتعمل بالتجارة ، وكانت هذه العناصر تشكل ، هي وكبار الكهنة ، جماعة وسيطة تحاول استغلال فلسطين وأهلها لصالح الإمبراطورية السلوقية أو البطلمية أو الرومانية الحاكمة . وهذه العناصر الثرية والكهنوتية كانت مركزاً أساساً في المدن ، وكانت معدلات الأغرقة بينها عالية ، وقد عبر الصدوقيون عن رؤيتها للكون والإنسان والمجتمع .

وقد أبد أعضاء هذه الجماعة الوسيطة كل المحاولات الإمبراطورية المستمرة لدمج فلسطين حضارياً لا اعتبارات أمنية وتجارية باعتبارها تقع في منطقة حدودية مهمة في التخوم الواقعة بين الإمبراطوريتين الرومانية والسلوقية من جهة والغربية من جهة أخرى . ومن أهم هذه المحاولات قيام أنطيوخوس الرابع بإيقاف العمل بالشرعية ، ومنعه الختان وإقامة شعائر السبت ، وإقامة تماثيل للألهة الوثنية في القدس . وقد حاول الرومان أيضاً إقامة تماثيل لأباطرتهم وحرّموا الختان على اليهود باعتباره نوعاً من أنواع الاختصاص . وبما يجدر ذكره ، أنهم طبقوا هذا التحريم نفسه على كل من الكهنة المصريين والعرب .

لكن أعضاء الطبقة الثرية كانوا يدعون إلى الدمج والاندماج ، وكانوا يشجعون الإمبراطورية على ذلك لأنهم مستفيدون منه . فاندماج القدس في محيط الإمبراطورية ، وتحولها إلى مدينة (بوليس) يونانية ، كان يعني تنشيط حركة التجارة وحصولهم على

ويوحنا بن زكاي اللذين لا يمكن اتهامهما بالتخلي عن يهوديتهما أو عن هويتهما الدينية أو الإثنية . بل وافق الرومان على أن يقوم بن زكاي بتأسيس حلقة يفقه التلمودية التي وُكِّد فيها اليهودية الاخاخامية ، أي اليهودية التي نعرفها .

ولعل أكبر دليل على أن المستهدف من الحملات الرومانية لم يكن الإثنوس اليهودي ، وإنما يهودا الرومانية كمنطقة جغرافية ، أن فسبسيان وتيتوس رفضا لتلقيبهما بلقب «جودايكوس judaicus» أي «هازم اليهود» مثلما تلقبوا بلقب «جيرمانيكوس germanicus» و«أفريكانوس africanus» أي «هازم الألمان» و«هازم الأفارقة» ، لأن ثمرة الحملة لم تكن هزيمة اليهود وإنما هزيمة يهودا الرومانية . ولذا ، سَكَّت العملات في عهد تيتوس وعليها عبارة «جودا كابنا juda capta» أي «يهودا التي تم أسرها» . فالذي تم أسره ليس القوم (إثنوس) وإنما المنطقة الجغرافية ، وامت تهدته هو العناصر المعادية للرومان داخل هؤلاء القوم وليس القوم بأسرهم ، إذ أن مؤيدي الرومان بين القوم اليهود كانوا كثيرين . بل حارب إلى جانبهم كثير من اليهود ، فقد كان أجريبا الثاني يقف بجيشه اليهودي إلى جوار تيتوس ، كما أن أخته بيرينكي كانت في فراشه .

والتمردات اليهودية المختلفة شكل من أشكال الثورة الشعبية التي تتسم بالرؤية المشيخانية التي كانت تفصل الجماهير اليهودية عن واقعها ، وهي جماهير لم يكن بوسع قياداتها أن تفهم الموازنات والقوى الدولية . ولذا ، فقد كانت التمردات تنتهي دائما بسحق اليهود وازدياد تدني أوضاعهم .

#### التمرد الحشموني (١٦٨-١٤٢ ق.م)

Hasmonean Rebellion

«التمرد الحشموني» هو تمرد قام به فقراء اليهود من الفلاحين والحرفيين وصغار الكهنة ضد أنطيوخوس الرابع والسلوقيين وأثرياء اليهود المرتبطين بالهيكل وضد الجماهير غير اليهودية في شرق الأردن والجليل والشريط الساحلي لفلسطين والمنطقة الأدموية جنوبي القدس ، حيث لم تكن فلسطين مقصورة على اليهود . وسبب الثورة المباشر هو القرارات التي اتخذها أنطيوخوس الرابع ضد يهود فلسطين ومحاولته دمج فلسطين في إمبراطوريته عن طريق فرض العبادة اليونانية الوثنية لنشر الحضارة الهيلينية . ولكن ثمة أسباباً أخرى أدت إلى نشوب الثورة ، أهمها انتشار النزعة الهيلينية بين أثرياء اليهود وتعاونهم الكامل مع السلوقيين ، فدمج فلسطين الكامل داخل الإمبراطورية السلوقية كان يعني حصولهم على حق المواطنة

ولم تكن التمردات اليهودية فريدة وإنما كانت مجرد تعبير عن التناقض الألف الذكر بين الأحادية والتعددية وغير ذلك من أسباب . ويمكن أن نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، حرب الأرقاء الأولى في صقلية عام ١٩٩ ق.م والثانية التي تلتها (١٠٣-٩٩ ق.م) ثم الثالثة (٧٣-٧١ ق.م) . وقد وقع تمرد طيبة في مصر عامي ٨٨ و٦٦ ق.م ، واندلعت ثورة في بريطانيا ضد نيرون عام ٦٠ أو ٦١ ، كما اندلعت ثورة في الغال تحت قيادة يوليوس كيفيليس حيث جمع النبلاء في إحدى الغابات المقدسة وعقد مأدبة ذات طابع ديني وألقى خطبة تحمّدت فيها عن الرومان وقسوتهم . وقد ألهمت حماسهم عرافة (نبية) تدعى فيليدا أظهرت المتمردين على هيئة المخلصين المحررين . وقد اختلطت في أذهان الثوار أمجاد الماضي بالترعات المشيخانية ، وذلك في وقت كان يوجد فيه ترّبُّب عام للمخلص في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية دين كل الأقوم . وكان أهل الغال يظنون أن موقف الرومان صعب للغاية وأن الفرصة قد سنحت لإلحاق الهزيمة بهم ، فمقدوا مؤقراً ناقشوا فيه الأمر واحتمالات نجاح الثورة ومدى قوة روما . ولكن الحزب الداعي إلى السلام ، تماماً مثل حزب أجريبا الثاني في فلسطين ، بين مدى قوة الرومان ، كما أشار أعضاؤه إلى السبل الكفيلة بإزالة الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة في المقام الأول . وقد أخذ المجتمعون برأي هذا الحزب ووقف التمرد ، وهو الأمر الذي لم يحدث في يهودا الرومانية (فلسطين) حتى اضطر أجريبا الثاني (ملك) اليهود المعين من قبل روما) إلى الانضمام بقواته للرومان واضطر بعض الفريسيين من أمثال فلافيوس ويوحنا بن زكاي إلى الانضمام لصفوف المتمردين دون حماس كبير ، وذلك لعلهم بمدى قوة روما ومدى جهل المتمردين بهذه القوة .

وقد فشل السلوقيون في القضاء على التمرد اليهودي ضدهم وتأسست الدولة الحشمونية . ولكن الرومان نجحوا فيما فشل فيه السلوقيون وقضوا على التمرد الأول والتمرد الثاني وحطموا الهيكل وهدموا القدس . ولكن الرومان لم يحاولوا قط إبادة اليهود أو القضاء عليهم كقوم (إثنوس) ، إذ أن ما كانوا ما يرمون إليه هو ضمان استمرار وجود فلسطين (ذات الأهمية الجغرافية) داخل إطار الإمبراطورية مندمجة في تنظيمها الإداري بما يضمن تدفق الضرائب . ولذا ، كانت كل الجهود القمعية جهوداً أمنية وحسب ؛ ترمي إلى الحفاظ على السلام بين اليهود وغيرهم من الأقوم التي كانت تقطن معهم في البقعة الجغرافية نفسها . ولعل هذا يفسر تسامح فسبسيان مع العناصر الفريسية مثل يوسيفوس فلافيوس

دولته دويلة صغرى لا يمكنها البقاء إلا تحت حماية دولة عظمى . وقد اعترفت روما بالفعل في عام ١٦٦ ق.م بالقبوة الخشومية .

وسقط يهودا قتيلاً عام ١٦٦ ق.م ، كما قُتل الأخ الثالث يوحنا ، فحل محله أخوه يونانان الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت موثقاً سورياً تابعاً للسليقيين . وقد استفاد يونانان من الصراع الذي كان دائرةً في سوريا بعد موت أنطيوخوس الرابع أثناء حربه ضد الفرثيين عام ١٦٤ ق.م ، فأثار المطالبين بالعرش في سوريا الواحد ضد الآخر . وفي عام ١٥٢ ق.م ، نجح يونانان في الحصول على منصب الكاهن الأعظم وحاكم مقاطعة يهودا السلوقية من الإمبراطور السلوقي . ونجح أخوه شمعون من بعده في الحصول على إغناء من الجزية عام ١٤٧ ق.م ، كما عينه المجلس الأكبر كاهناً أعظم بالوراثة وقائداً للشعب وقائداً عسكرياً (١٤٠ ق.م) . وبذا ، ظهرت مرة أخرى الدولة الكهنوتية التي تتسم بارتباط السلطين الروحية والديوية وتمركز حول الهيكل . وقدم فصل منصب الكاهن الأعظم عن منصب الملك فيما بعد ، ولكن الكاهن الأعظم ظل خاضعاً خضوعاً كاملاً للملك .

وقد اغتيل شمعون ، هو وإثنان من أبنائه ، على يد زوج أخته (بطليموس) حاكم أرمحا (١٣٥ ق.م) ، ففرأبته يوحنا هيركانوس واستولى على السلطة قبل أن يتمكن بطليموس من السيطرة عليها . وفي عام ١٣٣ ق.م ، اعترف الخشوميون بسلطة السلوقيين ، ولكنهم استقلوا بحكم فلسطين منذ عام ١٢٩ ق.م إلى أن وصل الرومان في عام ٦٧ ق.م .

وقد نجح الخشوميون في إحراز الاستقلال للسبب نفسه الذي نجحت فيه المملكة العبرانية من قبل ، وهو الفراغ النسبي والمؤقت في منطقة الشرق الأدنى القديم . وكما يقبل المؤرخ الروماني تاسيتوس : « كان كل خلفاء الإسكندر (أي المقدونيون) ، في حالة ضعف وصراع دائم . وكانت الدولة الفرثية لا تزال في طفولتها ، كما كان الرومان يعيدون عن الحلية » . ومما ساعد الخشوميين على تحقيق هذا الاستقلال المؤقت تلك التحالفات التي عقدوها ، تماماً كما فعل داود وسليمان من قبل ، مع القوى العظمى الناشئة والقوى الصغرى المجاورة .

#### التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦-٧٠م)

First Jewish Rebellion against the Romans

قام يهود فلسطين بهذا التمرد بقيادة الغيورين ، وهم طائفة متطرفة من الفرثيين (على ما يبدو) . وثمة أسباب عديدة أدت إلى

اليونانية وتعاظم نفوذهم التجاري على الصعيد الدولي . كما أن الصراعات بين أعضاء الطبقة الحاكمة اليهودية المتأثرة ، والتناحر على منصب الكاهن الأعظم ، قد شجعا دعاء التمرد . ومما لا شك فيه أن زبأيد الضراب ، التي فرضها السلوقيون على سكان فلسطين ، ساهم في تجسير التمرد . كما أن ضعف أنطيوخوس الرابع في المجال الدولي كان له أثره الفعّال . ومع أن التمرد كان معادياً للسليقيين وللتزعة الهيلينية ، إلا أن ثمة رأياً يذهب إلى أن الخشوميين كانوا يهدفون إلى بناء دولة هيلينية على أسس يهودية ، ومن هنا تشبههم باليونانيين في كثير من الأمور ، واتخاذ أسماء يونانية ، أي أنهم كانوا يدعون إلى استقلال سياسي وحسب وليس إلى الاستقلال الحضاري . ومن هنا نشب الصراع ، فيما بعد ، بين الخشوميين المتصالحين مع الهيلينية والفرثيين المتحفظين تجاهها .

وقد أخذ التمرد شكل حرب عصابات ، فتجنب الخشوميون المراكز النظامية مع القوات السلوقية ، وكانوا يلجأون إلى نصب الكمائن والحركة السريعة والهجمات الليلية . وكان مركزهم في الريف حيث القوى الشعبية ، وليس في المدينة حيث الأثرياء والتفوق الهيليني . وأثناء الثورة ، ذبح الخشوميون أعداداً كبيرة من اليهود دعاء الهيلينية ، وقاموا بتختين أولادهم عنوة ، كما ذبحوا أعداداً كبيرة من السكان غير اليهود .

قاد التمرد عام ١٦٨ ق.م الكاهن مائياس الخشومي وأبناؤه الخمسة . ولكن القوات السلوقية ألحقت به الهزيمة ، فلقى مصرعه وهو يحاول الهرب ، فتولى ابنه يهودا المكابي القيادة من بعده وسيطر على كل مقاطعة يهودا السلوقية ، ثم استولى على القدس عام ١٦٤ ق.م باستثناء قلعة يونانية . وقام بتطهير الهيكل وهي المناسبة التي يحتفل بها في عيد التدشين (حانوكه) . وقد تبعت ذلك مجموعة من الغارات ، إلا أن يهودا هُزم عام ١٦٣ ق.م في المعركة التي قُتل فيها أخوه إليعازر .

ونظراً لحدوث خلافات في الأسرة المالكة السلوقية في سوريا ، نجح الخشوميون في توقيع معاهدة سلام مع السلوقيين ضمنّت لهم شيئاً من الحرية الدينية . ولكن يهودا وجماعته طمعوا في الحرية السياسية ، ولذا فقد استمروا في الحرب مع أن بعض القوات الخشومية التي وجدت أن شروط التسوية مقبولة انسحبت منها . وقد تحرك يهودا على الصعيد الدولي ، فحصل على تأييد البطالة والأنباط ، كما بعث برسالة إلى روما (القوة العظمى الصاعدة في ذلك الوقت) مؤكداً لها أن دولة يهودية مستقلة في فلسطين ستخدم المصالح الرومانية . وقد سعى يهودا إلى الحصول على الاعتراف بأن

نشوب التمرد بعضها مباشر وبعضها غير مباشر . ومن المعروف أن سياسة الرومان كانت عدم التدخل في الشؤون الداخلية للأقوام التي يحكمونها إذ انصب اهتمامهم على الضرائب التي كان يحددها الحاكم الروماني ويقوم بجمعها من مزمنون محليون . ونظراً لبعدها فلسطين عن روما ، كان الحاكم الروماني يتمتع بسلطة وفير من الحرية . وقد عين في فلسطين عدد من الحكام الرومان (بروكرياتور) الفاسدين من بينهم بيلاط (٢٦ - ٣٦م) وفيلكس (٥٢ - ٦٠م) والبينيوس (٦٢ - ٦٤م) وفلوراس (٦٤ - ٦٦م) . وقد تعاون هؤلاء مع الأثرياء اليهود في ابتزاز الجماهير بزيادة الضرائب .

ومن أهم الأسباب غير المباشرة لقيام التمرد ، الاستقطاب الذي حدث في المجتمع اليهودي آنذاك والذي ظهر في الصراع بين الصدوقيين والفريسيين أثناء حكم الحشمونيين ثم بين هؤلاء والغيورين . لقد ازداد الأثرياء اليهود ثراءً ، أما الفلاحون فكانت أحوالهم الاقتصادية متدنية بسبب الضرائب المتزايدة وزيادة منافسة محاصيل البلاد المجاورة لمحاصيلهم . وبدأت هجرة كبيرة للفقراء من الريف إلى المدينة . وكانت الطبقة الوسطى أخذت هي الأخرى في التطور في الفترة نفسها .

وكان يوازي هذا الانقسام الطبقي انقسام حضاري آخر يتمثل في درجة القرب والبُعد عن روما والحضارة الهلينية . فالأثرياء كانوا مولين لروما ويشبهون بغير اليهود ، أما الفقراء فلم يتأثروا كثيراً بالهلينية . وما تنبغي ملاحظته أن التركيب الإثني لفلسطين لم يكن متجانساً إذ وجدت عناصر عديدة غير يهودية كانت ساخطة على اليهود ، وهو ما خلق كثيراً من التوتر .

ولكن السبب المباشر لقيام التمرد هو قيام نزاع حول حقوق اليهود وحقوق غير اليهود في قيصرية (المركز الإداري الروماني لفلسطين) . وقد أخذ الحاكم الروماني فلوراس موقفاً مهادياً لليهود بتشجيع من أثرياء اليهود المتأخرين ، فاندلعت بعض القلاقل وسمح فلوراس لقواته بدخول القدس ونهبها وصلب بعض اليهود البارزين فيها . وبعد خروج القوات الرومانية ، ذبح المتمردون بعض أثرياء اليهود من حلفاء الرومان وأعضاء الحامية الرومانية الصغيرة . وقد تدخّل أجربيا الثاني ونصح اليهود دون جدوى بالتزوع إلى السلام ، ثم اضطر إلى الهرب . واتسع نطاق التمرد واستولى المتمردون على القدس والهيكل وأحرقوا قصر أجربيا وقصر أخته يزينيكي ، كما أحرقوا الأوراق الخاصة بديون اليهود . وخلع المتمردون الكاهن الأعظم ثم أعدموه وعَيَّنوا بدلاً منه كاهناً أعظم من بين صفوف الشعب ثم اختياره بالقرعة ، وأوقفوا تقديم القرابين إلى

الإمبراطور الروماني ، وبيّن هذا كيف أن التمرد قد اكتسب أبعاداً اجتماعية عميقة . وقد تصوّر المتمردون أن الجماعات اليهودية الضخمة خارج فلسطين ، التي كان عددها يفوق عدد اليهود داخلها بثلاث مرات ، ستقدم لهم يد العون ، وأن بإمكانهم الاعتماد على فرثيا باعتبارها القوة العظمى المناوئة للرومان ، ولكن خطأ ذلك ثبت فيما بعد . وطلب أثرياء اليهود العون من روما ، فجمعت القوات الرومانية ومعها جيش أجربيا ولكنها لم تتمكن من إخماد التمرد .

وقد كان الطابع العام للتمرد عملياً ومباشراً في بداية الأمر ، ولكنه اكتسب كما أسلفنا أبعاداً اجتماعية عميقة . ولذا ، وبينما كانت قيادة التمرد في البداية في يد العناصر الفريسية المعتدلة ، نجد أنها وقعت بالتحديد في يد العناصر المتطرفة التي تفرغت عن الفريسيين مثل الغيورين وعصبة الخناجر . بل يمكن القول بأن الفريسيين كانوا يؤيدون السلام لخوفهم من الصراع الطبقي وازدياده . وإلى جانب كرههم العميق لروما ، إذ كانوا يمثلون الثقافة اليهودية السامية بل وجناح رجال الدين الذي لا يرث الكهانة وإنما يكتسب العلم الديني فحسب ، فإن كرههم للغيورين كان أيضاً عميقاً . ولذا ، قال أحدهم : « صلوا من أجل سلام الدولة الرومانية ، فلولا الخوف الذي تبعته في القلوب لابتلع الواحد منا الآخر حياً » (أبوت ٥/٣) . وقد اضطروا إلى الانضمام للشوكة خوفاً من العناصر المتطرفة . ولم يكن الجناح المتطرف متمسكاً وإنما كان منقسماً على نفسه . كما لم تكن لديه أية خبرة سياسية أو عسكرية ، سواء فيما يتعلق بحرب العصابات أو ما يتعلق بالحرب النظامية . ولعل أكبر دليل على هذا أنهم أوكلوا أهم منصب عسكري على الإطلاق ، وهو منصب قائد الجليل ، إلى يوسف بن ساتيتياو هاكوهين (يوسيفوس فلافيوس فيما بعد) المشكوك في ولائه والذي لم يكن يمتلك أية خبرة عسكرية . وقد رفضت مدن عديدة ، مثل صفورية (وهي المدينة اليهودية الأساسية في الجليل) ، الانضمام إلى التمرد .

وعندما هجمت القوات الرومانية بقيادة فسبسيان ، استسلمت قوات الجليل بدون مقاومة كبيرة . واستسلم يوسيفوس ، وتنبأ بأن القائد الروماني سيصبح إمبراطوراً . وبالفعل ، مات الإمبراطور في روما فأوكل فسبسيان قيادة الحملة إلى ابنه تيموس ، وذلك نظراً لعدم أهمية الغزوة وحتى يمكنه العودة إلى روما ليفوز بخلافة الإمبراطور . وعند هذه اللحظة ، انفرد الغيورون الذين تحالفوا مع الحامية الأدمية في القدس بقيادة التمرد بعد أن قضوا على أعضاء الحكومة من حزب فلافيوس الفريسي .

من خطر كليوباترا ملكة مصر ، وجعلها ملاًدًا يحتمي به عند الحاجة من الجماهير اليهودية المسحوقة الساخطة . وقد احتل الرومان القلعة . ولكن مجموعة من اليهود الغيورين ، بقيادة مناحم الجليلي ابن أوربا مفيد يهودا الجليلي أحد قادة التمرد ، استولوا على ماسادا عام ٦٦م ويذبحوا كل أعضاء الحامية الرومانية بعد أن وعدوهم بالأمان إن استسلموا ؛ وهذا ما يُفسّر خشية اليهود من الاستسلام فيما بعد . وقد اغتيل مناحم على يد المتمردين في القدس بسبب ادعاءاته الملكية المشيخانية واستبداده . لكن بقية أتباع مناحم فروا إلى ماسادا تحت قيادة الإيعازر بن يائير وهو أحد زعماء عصابة الحناجر ومن نسل يهودا الجليلي ولعله ابن عم مناحم . وقد اختبأ هؤلاء في القلعة حتى نهاية الحرب ولم يقدموا أية مساعدة لليهود المحاصرين في القدس ، واقتصرت نشاطهم الأساسي على الهجوم على القرى اليهودية في المنطقة المحيطة بماسادا وابتزاز أهلها . وقد انضم إليهم شمعون برجيرا أحد زعماء التمرد ، هو وأتباعه الذين اشترك معهم بعد ذلك في الإغارة على القرى اليهودية ، ولكنه ترك ماسادا بعد ذلك واستسلم للرومان وأعدم في روما .

وقد ترك الرومان قلعة ماسادا إلى أن فرغوا من إخماد التمرد اليهودي نظراً لعدم أهميتها قياساً إلى مواقع أخرى . ثم قامت قوة رومانية بقيادة فلافيوس سيلفا بحصارها من كل الجهات لمدة ثلاثة وسبعون أسبوعاً وشقت طريقاً ارتفاعه ٢٠٠ ذراع ، وأحدثت ثغرة في جدرانها (يسخر بعض المؤرخين من كل هذه التفاصيل ويؤكدون أن الحصار لم يدم أكثر من ثمانية أسابيع وأن الطريق المشار إليه ليس إلا امتداداً طبيعياً ، ناشأ عن عمليات نحر وانحسار مياه البحر الميت وأنه جزء من التكوين الصخري للأرض) . وكل هذا دفع القائد اليهودي الإيعازر بن يائير (حسب رواية يوسيفوس) إلى إقناع رفاقه بممارسة انتحار جماعي بدلاً من الوقوع أسرى في أيدي الرومان . جاء ذلك في خطبة نُسب فيها إلى الإيعازر أن الانتحار هو ما تأمر به الشريعة . وبحسب رواية يوسيفوس ، نجح الإيعازر في إقناع المحاصرين برأيه ، وقد أدى هذا إلى انتحار تسعمائة وستين من الرجال والنساء والأطفال ، وذلك إلى جانب أنهم أضرموا النيران في منازلهم ومخازن مؤنهم عام ٧٣م . ويدعي يوسيفوس أن امرأتين وخمسة أطفال اختبأوا في أحد الكهوف أثناء تنفيذ العملية ، وهم الذين قصوا ما حدث (وهذا تقليد أدبي يتواتر في كثير من الأعمال الأدبية الخيالية) . وقد تحوَّلت قلعة ماسادا بعد ذلك إلى موقع عسكري روماني ثم إلى قلعة صليبية .

وتُحرم الديانة اليهودية الانتحار (تثنى ١٩/٣٠) ، شأنها في

وكان الرومان يعرفون أن القيادة المتفرقة منقسمة على نفسها ، فقد كانت تضم جناحين : جناح القدس المعتدل نوعاً (ويُقال إن هؤلاء هم الغيورون) ، وجناح الجليل المتطرف (ويُقال إنهم عصابة الحناجر) . وكان من بين قيادة جناح القدس يوحنا بن لاوي من جيسكالا والإيعازر بن حنانيا . ومن أهم قادة جناح الجليل مناحم الجليلي الذي حاول أن ينصّب نفسه ملكاً . وقد كانت مثل هذه المحاولات تمثل علامة على النزعة المشيخانية لجناح الجليل . ومن زعماء هذا الجناح أيضاً شمعون برجيرا . وقد قرر الرومان أن يتروكهم بعض الوقت ليقتضوا على أنفسهم بأنفسهم . وبالفعل ، قُتل مناحم في صدام مع الإيعازر بن حنانيا ، وفر بقية جناحه بقيادة قريه الإيعازر بن يائير إلى ماسادا .

ثم بدأ الهجوم الروماني بقيادة تيتوس وبمساعدة أجريا الثاني فسقطت القدس وهدم تيتوس المعبد وحمل طنائسه ، وبذلك زال الأساس المادي والمعنوي لوجود الكهنة . وعاد تيتوس إلى روما بعد أن استسلم قادة التمرد ومنهم يوحنا بن لاوي وشمعون برجيرا الذي أعدم في روما ، واحتفل هو وأبوه فسبسيان عام ٧١م بهذه المناسبة . وشيّد تيتوس قوساً لا يزال موجوداً في روما ويظهر عليه نقش شمعندان المتوراه . ثم استمر الرومان في تطهير بقية مقاطعة يهودا الرومانية من المتمردين ، وخصوصاً في القلاع التي احتجى بها اليهود . وقد استسلمت هذه القلاع كلها ما عدا ماسادا التي انتحر اليهود فيها خشية الإعدام على يد الرومان .

وبعد انتهاء الحرب ، سمح الرومان للحاخام القريسي يوحنا بن زكاي الذي هرب من القدس أثناء حصار الرومان لها بتأسيس الحلقة التلمودية في يفته التي وضعت الأسس الفكرية لليهودية المعيارية أو الحاخامية .

#### ماسادا

Massada

«ماسادا» كلمة آرامية تعني «القلعة» ، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية . وتقع ماسادا على مرتفع صخري بارز شرقي الصحراء الفلسطينية بالقرب من البحر الميت ، والتي تُعرف بمصعدة وسّبة . وهي ترتفع عن سطح البحر المتوسط بنحو تسعة وأربعين متراً ، وعن سطح البحر الميت بأربعمئة وأربعة وثلاثين متراً . وقد بناها أحد ملوك الحشمونيين ، ثم بنى هيرود فيها قصراً وزاد تحصينها وأدخل بها نظاماً متقدماً لتسيباً للري وتخزين المياه خوفاً

الوحدة القومية التي تتحدث عنها الصهيونية هي وحدة أسطورية وهمية . وما يجدر ذكره أن يهود العالم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ماسادا حتى القرن التاسع عشر .

ولكن ، ورغم هذا ، فإن الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية من بعدها قد أحاطت قصة ماسادا بهالات صوفية ، وحولتها إلى أسطورة قومية محورية . ونظمت إسرائيل حملات دعائية ضخمة حول عملية الكشف عن القلعة قادها رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال يادين ، وشارك فيها الجيش بإمكانيات واسعة في الفترة من سنة ١٩٦٣ حتى ١٩٦٥ . وتقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلي بمحاصرة العقيدة الإسرائيلية واليهودية بأسطورة ماسادا ، ففي كل عام تقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلي احتفالات تزد يد بين الولاء على قمة القلعة ويقسمون في نهايته بأن ماسادا لن تسقط ثانية . وتنظم رحلات لأفواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الإسرائيلية للمحج إلى القلعة ، كما تحرص إسرائيل على أن تدرج زيارة هذه القلعة ضمن برنامج كل زعيم سياسي أجنبي يذهب إلى إسرائيل ، بل أعادت الدولة الصهيونية عام ١٩٦٩ دفن المتحررين .

وتمكن الإشارة إلى أن الهدف السياسي من كل هذه الضجة حول ماسادا ، والآثار اليهودية الإسرائيلية بصفة عامة ، هو محاولة صهينة الشباب من جبل الصابرا أو غيره ومحاولة ربطهم بالتاريخ اليهودي القديم . لكن الواقع أن قطاعات واسعة من الشباب الإسرائيلي لا تُعير هذا التاريخ اهتماماً كبيراً . كما أن التركيز الزائد على الآثار هو محاولة للبرهنة على وجود جذور تاريخية لدولة إسرائيل الحالية تمتد في أغوار الماضي اليهودي في فلسطين للتأكيد على صحة سياسة الحركة الصهيونية في مواجهة اضطهاد اليهود من جانب والاستفادة من تضحياتها المستمرة في مواجهة هذا الاضطهاد من جانب آخر . والحركة الصهيونية ، في إشاعتها لهذه الأساطير الانتحارية عن الذات اليهودية ، تحاول أن تؤثر في الرأي العام العالمي والعربي وأن تكسب كثيراً من المعارك النفسية والفعلية دون خوض أية حرب .

ولكن من المعروف أن القوات الإسرائيلية التي حوصرت في خط بارليف عام ١٩٧٣ ، استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسع ومرأى الصليب الأحمر الدولي والتلفزيون المصري . وفي أحد هذه المواقع ، سأل الجنود قيادتهم بتهمك إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماسادا ثانية ، فأناهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التلفزيون المصري . أما الجنود الإسرائيليون الذين انتحروا أثناء عملية لبنان ، فيبدو أنهم قاموا

هذا شأن الديانات السماوية الأخرى . ولذا ، قال الحاخامات عن الانتحار إنه ضرب من 'الميثاق مع الموت' .

وقد أثارت قصة ماسادا هذه شكوكاً كثيرة ، حتى عند بعض علماء الآثار اليهود الذين يؤكدون أنها قصة خرافية وأسطورة ملققة ، إذ لا يمكن البرهنة تاريخياً على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها هذه القصة . والمصدر الوحيد للقصة هو يوسيفوس ، وهو كاتب لا يُعتمد به كمؤرخ . كما أنه ، حينما كان قائداً لحماية الجليل التي استسلمت للرومان ، أرغمه جنوده على الفرار والاختباء في كهف بعد أن قرروا جميعاً الانتحار . وقد اضطروا إلى مجاراتهم بل أشرف على القرعة التي أجريت وعلى عملية الانتحار نفسها إلى أن جاء دوره ، فأقنع الجندى المتبقي بعدم جدوى الانتحار وخرجوا سالين . وبعد ذلك ، انضم هو إلى الرومان وأصبح داعية لهم بين اليهود . ولعل القصة التي نسجها يوسيفوس فلافيوس عن ماسادا هي نوع من أنواع التعويض يقوم بها كاتب أدبي لم يستطع أن يصبح بطلاً في الواقع ، فقام بعملية تعويض عن طريق إسقاط القيم البطولية التي يحلم بها على من حوله وهو ما سميته «عقدة فلافيوس» .

ولكن ، حتى بافتراض أن واقعة ماسادا واقعة تاريخية حقيقية ، فإن كتب التاريخ الصهيونية قد أسقطت كثيراً من العناصر التاريخية لتفرض على ماسادا معنى صهيونياً بحيث تصبح ماسادا رمزاً لوحدة الشعب اليهودي ولرفضه التام للاستسلام للأغيار . فمثلاً لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن الحرب الطبقة التي دارت رحاها بين فقراء اليهود وأثريائهم ، أو أنه ، قبل حادثة ماسادا ، تم ذبح ما لا يقل عن اثني عشر ألف يهودي على يد إخوانهم من اليهود الفقراء . كما لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن القلاع اليهودية الأخرى ، مثل هيروديوم وماكايروس ، التي أثرت الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت لعلهما أن الرومان لن يبيدوا من فيها لأنهم لم يرتكبوا جريمة الإبادة ضد الحاميات الرومانية التي استسلمت لهم ، هنا على عكس ما كان عليه سكان ماسادا الذين كانوا يعرفون أن مصيرهم هو الموت بسبب إبادتهم الحامية الرومانية التي استسلمت لهم . وكانت قلعة ماكايروس أقوى وأهم حصن بعد القدس . وإذا كان لابد من اختيار رمز ما ، فإن هذه القلعة أصلح لذلك من ماسادا . ولا تذكر المراجع الصهيونية أيضاً قادة التمرد الذين استسلموا وسبقوا إلى روما حيث أعدموا . وكل هذا يدعونا إلى رؤية حادثة ماسادا باعتبار أنها الاستثناء وليس القاعدة ، وأنها ليست مثملاً لما يُسمى «التاريخ اليهودي» أو «العقيدة اليهودية» ، وأن

ماسادا ، ودُفن فيها بعد موته . وبنيت القلعة على تل ، ثم وُضعت عليها أتربة ونفايات لزيادة ارتفاعها . ثم بُني سلم من مائتي درجة يؤدي إلى القلعة دائرية الشكل التي كانت تحميها أبراج دائرية وتضم عدة قصور . وقد احتسى بالقلعة بعض الغيورين ، مثلما احتسوا بقلعة ماسادا وماكايريوس . وحينما هاجمها القائد الروماني لوكيوليوس باسوس (حاكم فلسطين) ، استسلم هؤلاء على الفور دون مقاومة كما استسلم محاربو ماكايريوس فيما بعد ، على عكس ما حدث في ماسادا .

#### التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٣٢-١٣٥)

##### Second Jewish Rebellion against the Romans

اندلع التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان في مقاطعة يهودا الرومانية ولم يدم أكثر من ثلاثة أعوام . وأسباب التمرد غير معروفة وإن كان ثمة نمط متكرر يلاحظه الباحث في عمليات التمرد اليهودية وما يتبعه من قمع إمبراطوري . ويبدو أن الحاكم الروماني روفوس عامل السكان بخشونة زائدة . كما أن الإمبراطور هادريان قرَّر أن يفرض مزيداً من الصبغة الهيلينية على مقاطعة يهودا الرومانية حتى يمكن دمجها في الإمبراطورية الرومانية ليضمن ولاء سكان هذه المنطقة النائية ، فاعتزم هدم القدس وبناء مستعمرة رومانية مكانها وبناء معبد روماني مكان الهيكل . وقد أصدر الإمبراطور هادريان أمراً بمنع الختان ضمن قراره الخاص بمنع الخصاء وأشكال التشويه الجنسي الأخرى . ويبدو أن فقراء اليهود قد قاوموا قراره في هذا الشأن . وبما ألهب الموقف أن الوضع الاقتصادي كان متدنياً في مقاطعة يهودا الرومانية ، فاندلع التمرد بين الفقراء بقيادة بركوخيا . وكان مرشده الروحي هو عمه الكاهن إليعازر (من بلدة مودين) ، فسكناً عملة عليها اسمها . وقد اعترف الحاكم عقيبيا بن يوسف بركوخيا باعتباره الماشيح المخلص رغم معارضة أغلبية المخاطمات . وقد التفت بعض جماعات اليهود من فقراء الريف حول بركوخيا واشتكت مع القوات الرومانية وألحقت بها في بادئ الأمر بعض الخسائر ، ثم سقطت له خمسون قرية ومدنية . وبعد ذلك ، استولى التمردون على القدس . ويُقال إنهم أبادوا حامية رومانية ، ولكن هذا من غير المحتمل . ولم ينضم أثرياء اليهود إلى التمرد بطبيعة الحال ، فقد كان التمرد موجهاً ضدهم من حيث هم وسطاء الإمبراطورية ، كما أنهم كانوا مندمجين في المحيط الهيليني . ولهذا ، لم تكن مسألة مثل الختان تشغل بالهم كثيراً . وكذلك لم ينضم يهود الجليل إلى هذا التمرد .

بفعلتهم هذه بأساً من الحرب وثمرتها الفادح ، إذ لم يكونوا داخل موقع مُحاصَر ، وبالتالي فإن انتحارهم لم يكن من أجل الدولة والمثل الصهيونية وإنما كان احتجاجاً عليها .

ومع اندلاع الانتفاضة ، لا يتحدث الصهاينة عن النهاية في الإطار الانتحاري للماسادا . فيهوشفاط حركبي ، وأربيل شارون ، وكلاهما تحدث عن نهاية الكيان الصهيوني ، لم يشير إلى ماسادا وإنما إلى الطائرة المروحية التي ستأخذ بقية المستوطنين من على سطح السفارة الأمريكية ، تماماً كما حدث في فيتنام . وقد تزايد بشكل ملحوظ عدد الجنود الإسرائيليين الذين ينتحرون في مواجهة الضغوط النفسية وما تشكله محاولة إخماد الانتفاضة من إرهاق . وقد شكَّلت أكثر من لجنة تحقيق لدراسة هذا الموضوع . وامتدت الظاهرة لتشمل المهاجرين الفلأشاه والسوفيت ، إذ لوحظ مؤخراً تزايد معدل الانتحار بينهم بسبب الإحباط الذي يعانونه في الدولة الصهيونية ، وفشلهم في تحقيق أحلامهم وأمالهم .

#### ماكايريوس

Machaerus

قلعة أسسها الملك الحشموني ألكسندر يانايوس (١٠٣ - ٧٦ ق.م) شرقي الأردن (جنوب غربي مأدبا) على حدود بلاد الأنباط ، وكان يودع كنوزه فيها . وكانت هذه القلعة من أهم القلاع وأقواها ، وقد وصفها المؤرخ بلبي بأنها أقوى القلاع بعد القدس . ويُقال إن يوحنا المعمدان أعدم فيها بناء على طلب هيرود . واستولى عليها الغيورون أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ - ٧٠م) وظلوا مقيمين فيها حتى بعد سقوط القدس . وقد قاوم المحاصرون بعض الوقت ، ولكن الرومان نجحوا في أسر أحد قادتهم ويُدعى إليعازر وهددوا بصلبه إن لم يستسلم المحاصرون . وقد استسلم المحاصرون في نهاية الأمر ، وألتي قائد الحملة باسوس لوكيوليوس (حاكم فلسطين) وعيده فلم يُعذب إليعازر وعفا عن المحاصرين وسمح لهم بالفرار باستثناء بعض أعضاء عصابة الخناجر . وتقف هذه الواقعة على النقيض من واقعة ماسادا التي يُقال إن سكانها والمقاتلين فيها آثروا الانتحار على الاستسلام .

#### هيروديام

Herodium

قلعة بناها الملك هيرود (٣٧ ق.م - ٤م) على بعد سبعة أميال من القدس في البقعة التي هزم فيها أعداءه أثناء فراره من القدس إلى



كان يرى نفسه في إطار دنيوي . ومن هنا ، فقد سُمِّي نفسه شمعون «ناسي إسرائيل» أي «أمير إسرائيل» (لا ملكها) وهو اللقب الذي يُطلق على الماشيخ . وقاد بركوخبا التمرد اليهودي الثاني الذي استمر مدة ثلاثة أعوام . وقد سحق الرومان هذا التمرد وهدموا القدس وحظروا على اليهود دخولها .

وبركوخبا اسم يتكرر في الكتابات الصهيونية باعتباره نموذج البطل اليهودي الذي يدافع عن الهوية اليهودية ويتمرد ضد حكم الأغيار . ولكن تمرده كان ضرباً من ضروب الانتحار ، فلم يكن هناك أي احتمال للانتصار على الرومان ، وهو ما يربط بينه وبين أساطير مماثلة عن شمشون وماسادا . وقد حذّر يهوشافات حركبي قائد المخابرات الإسرائيلية السابق والمتخصص في الشؤون العربية- الإسرائيلية مما سماه «أعراض بركوخبا» ، وهي رفض الحوار مع الأغيار والانغلاق على الذات والانتحار في نهاية الأمر . كما وصف استجابة المستوطنين للانتفاضة بأنها تعبير عن هذه الأعراض الانتحارية .

#### بيطار (قلعة)

Betar

قلعة لاذ بها بركوخبا بعد أن سُحق التمرد اليهودي الثاني . وقد سقطت القلعة عام ١٣٥ ميلادية (في التاسع من آب حسب التقاليد اليهودية) .

ولم يدم التمرد طويلاً إذ أرسلت روما الإمدادات المطلوبة . وبدأ الهجوم الروماني المضاد عام ١٣٣م بقيادة هادريان . وتم الاستيلاء على مناطق عديدة من مقاطعة يهودا ، ومنها القدس ، خلال عام واحد . وفي عام ١٣٤م ، حاصر الرومان قلعة بيتار التي سقطت في أيديهم عام ١٣٥م ، ولقي بركوخبا وزملاؤه حتفهم أثناء المعركة . وعلى أثر فشل الثورة ، وأعدم مؤيديها وأصبحت القدس مدينة محرمة على اليهود وبُني في مكانها إيليا كايبتولينا .

#### بركوخسبا (١٣٥-٩)

Bar Kochba

«بركوخبا» عبارة آرامية تعني «ابن النجم» ، وبركوخبا اسم ذو دلالة مشيحانية واضحة . ويبدو أنه الاسم الذي أطلقه الحاخام عقيبا بن يوسف على سيمون ، زعيم التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان ، باعتباره الماشيخ . وهو يُطلق على سيمون في كتاب التلمود الأول اسم «بركوزيبا» أي «ابن المخاض» أو «الكذاب» ، وهو ما يعكس معارضة الفكر الحاخامي للترعات المشيحانية . ويبدو أن اسمه الحقيقي هو «شمعون بركوزيبا» أي «شمعون من داركوزيبا» . كما يبدو أن مرشده الروحي لم يكن الحاخام عقيبا وإنما عمه إليعازر الذي ظهر اسمه على بعض العملات التي سكها قبل أن يتشاجر معه ويقتله . ومن الواضح أن المؤسسة الدينية لم تؤيد التمرد . وثمة نظرية تذهب إلى أن بركوخبا لم تكن لديه ادعاءات مشيحانية وأنه



الجزء الثاني

## تواريخ الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي



## ١ الشرق الأدنى القديم قبل وبعد انتشار الإسلام

الشرق العربي قبل وبعد انتشار الإسلام - الذين أو أهل الذمة في الإسلام -  
العالم الإسلامي منذ انتشار الإسلام حتى سقوط بغداد على يد المغول

### الشرق العربي قبل وبعد انتشار الإسلام

The Arab East before and after the Spread of Islam

من غير المعروف متى استقر اليهود في شبه الجزيرة العربية . ويُقال إن بعض جماعات من اليهود لجأت إلى شمال شبه الجزيرة عندما هزمت آشور وبابل المملكتين اليهوديتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) . ويذهب رأي إلى أن الاستقرار بدأ بعد أن أحمد الرومان التمردرات اليهودية المختلفة . ولم تتم الهجرة إلى شبه الجزيرة العربية دفعة واحدة وإنما أخذت على الأرجح شكل جماعات مختلفة استوطنت في تيماء وخيبر ووادي القرى ويثرب . كما كان هناك أعداد من اليهود في اليمن . وقد ازدادت أعداد يهود شبه الجزيرة واليمن عن طريق التجارة والتبشير حيث أدى ذلك إلى تهود بعض القبائل . ويذهب العقبوي إلى أن يهود شبه الجزيرة العربية من أصول عربية ، أي أنهم عرب تهودوا ، ولكن لا يميل بعض الباحثين إلى الأخذ بهذا الرأي . وثمة رأي يذهب إلى أن اليهودية كانت دين ملوك حمير في اليمن في القرن الخامس الميلادي ، ولكن هذا الادعاء يشتر إلى التوثيق . ومن المعروف أن الصراع على طرق التجارة بين البيزنطيين وحلفائهم الأحباش من جهة ، ومن جهة أخرى الحميريين ممن كانوا قد سيطروا على الممالك العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ، كان قد أخذ طابعاً دينياً . وقد تهود الملوك الحميريون وربما بعض أعضاء النخبة الحاكمة وبعض أفراد الشعب ، لكن تهودهم كان شكلاً من أشكال الرفض السياسي والرغبة في تبني عقيدة دينية مستقلة تضمن لهم شيئاً من الهيبة والاستقلال ، كما فعلت النخبة الحاكمة في دولة الخنز الوثنية . فاعتناقهم اليهودية آنذاك كان يعني التصدي لمحاولات التسلط من قبل الإمبراطورية الرومانية الشرقية على أطراف شبه الجزيرة العربية عن طريق المبشرين الذين جرى بثهم بين أهل الحضر وأهل البادية دون أن يخشوا على أنفسهم من أية تبعية سياسية إذ لم يكن لليهود آنذاك دولة .

ويُقال إن تيسان أسعد أبو كرب (٣٧٨ - ٤١٥) اهتدى إلى اليهودية عند اجتيازه يثرب وهو عائد إلى اليمن على يد حبرين (أي حاخامين) من بني قريظة . ويُقال أيضاً إن اليهودية ظلت ديناً رسمياً لبلاد العرب الجنوبية طيلة حكم السبئيين المتأخرين من سنة ٤٠٠ حتى ٥٢٥ ، وأن آخر ملوكهم هو ذو النواس (٥١٧ - ٥٢٥) الذي شن حملة نكل فيها بالمسيحيين ، فهاجم نجران (أكبر مركز للمسيحية) وخبر أهلها بين الارتداد عن دينهم واعتناق اليهودية أو الموت حرقاً . فآثر بعضهم الموت فحفر لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم ، ولقد وردت هذه الحادثة في القرآن الكريم (سورة البروج) . وأثارت هذه الواقعة غضب قيصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فاتفق بنجاشي الحيشة الذي جرد حملة للانتقام ، فخرج ذو النواس لهم وانهمز هزيمة تكراه ، وانتهى بذلك ملك الحميريين في اليمن .

وقد اندمج يهود شبه الجزيرة واليمن في السكان العرب وتزاوجوا معهم ، وأصبح طابعهم عربياً صرفاً ، فانظموا في قبائل ويطون وأفخاذ مثل العرب ودخلوا في التحالفات القبلية بما يتضمنه ذلك من مسئوليات قبلية مشتركة وصراعات شبه دائمة .

ويرد ذكر عشائر يهودية كثيرة ، مثل بني عكرمة وبني زعورا وبني زيد وبني ثعلبة ، ولكن أكبر التجمعات اليهودية كانت في يثرب حيث كانوا أصحابها ، وكانت يثرب واحدة خضراء وتُعتبر إحدى المحطات التجارية المهمة في طريق التجارة الرئيسي آنذاك الممتد بين مكة والشام ، والبتئى داخل شبه الجزيرة العربية بعدن في الجنوب ، وبعد انهزام سد مأرب (٤٤٧ - ٤٥٠) وقد إلى يثرب قبائل الأوس والخزرج ، فجاوروا القبائل اليهودية في بداية الأمر ثم تزايدت أعدادهم بمرور الوقت فراحوا ينافسون اليهود في تملك الأراضي الزراعية فازدادت قوتهم وهو ما دفع عدداً من البطون اليهودية ، الأقل شأنًا ، أن تدخل في حماهم وتنسب إليهم ، في الوقت الذي دب فيه العداة بين جماعات اليهود الكبرى . وبالتدريج

أصبحت الغلبة والسيادة في يرب للأوس والخزرج فسيطروا على يرب وقسموها فيما بينهم ، ولم يبق لليهود منذئذ سلطان عليها . وكان التجمع اليهودي في يرب يضم ثلاث قبائل ، اثنتان منها يُقال لهما بنو هارون لكونهما من الكهنة وهما بنو النضير وبنو قريظة ، وكان أعضاء هاتين القبيلتين يعملون بالزراعة . أما القبيلة الثالثة فهي قبيلة بني قينقاع ، وكان أعضاؤها يحترفون بعض المهن كالحدادة والصبغة وصناعة السيوف ويارسون المبادلات التجارية . وكان أعضاء هذه القبائل الثلاث يعيشون في أحياء خاصة بهم ويقومون الحصون للاحتماها بها .

ولم يكن عدد اليهود كبيراً ، فقد كان عدد مقاتلين في كل قبيلة لا يتجاوز بضع مئات من الرجال . فمقاتلو بني قينقاع كانوا نحو سبعمائة شخص ، ومقاتلو بني النضير نحو أربعمائة وخمسين شخصاً ، أما بنو قريظة فكان عدد مقاتليهم يتراوح بين ستمائة وسبعمائة شخص ، أي أن مجموع مقاتلي القبائل اليهودية الثلاث في المدينة لم يكن يتجاوز في عصر الرسالة ألفي رجل . ويمكننا أن نخمن العدد الكلي لليهود المدينة استناداً إلى هذا الرقم .

وكان يوجد تجمع يهودي آخر في خيبر وهي واحة تقع على الطريق بين المدينة والشام على مسافة مائة ميل إلى الشمال من يرب . ويبدو أن معظم سكان خيبر ، إن لم يكن جميعهم ، كانوا من اليهود . ولم تصل إلينا معلومات واضحة عن تركيبهم القبلي ، وهل كانوا ينتمون إلى قبيلة واحدة أم كانوا ينتمون إلى عدة قبائل . ولكن يُستنتج من دراسة علاقاتهم بيهود المدينة أنهم كانت تربطهم علاقة وثيقة بقبيلة بني النضير . لذا ، فقد لجأت هذه القبيلة إلى خيبر بعد أن أجلاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن المدينة ، وأخذ زعمائها يلعبون دوراً قيادياً في سياسة مدينة خيبر ودفعها باتجاه محاربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما حدث في غزوة الخندق .

وكان يهود خيبر يعيشون بصورة أساسية على الزراعة بسبب خصوبة أراضي خيبر وكثرة مياهها . وكانت أهم مزارعها التينيل والحبوب وبعض الخضراوات . كما اشتغل يهود خيبر بتربية بعض أنواع الحيوانات كالماشية والدجاج وغيرها .

وقد فرضت طبيعة الحياة الزراعية على يهود خيبر أن يسكنوا جماعات متفرقة قرب العيون وجداول المياه ، وهو ما جعل خيبر أقرب ما تكون إلى مجموعة قرى متناثرة في الأودية . وعدمت كل مجموعة من يهود خيبر إلى بناء حصن خاص بها لتحتمي به في أوقات الحروب . ولقد ذكر المؤرخون أنها سبعة حصون أساسية .

وقد يدل تعدد الحصون في خيبر على انقسام أهلها إلى سبع كتل متفرقة بحيث لجأت كل كتلة إلى بناء حصن خاص بها للدفاع عن نفسها كما فعلت القبائل اليهودية في يرب . ولم تقدم لنا المصادر التاريخية معلومات محددة عن عدد سكان أو مقاتلي خيبر ، ولكن يبدو أنه كان صغيراً وربما مقارباً لعدد المقاتلين في جيش الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي في حدود ألف وأربعمائة رجل على أكبر تقدير .

أما بقية المناطق التي سكن فيها اليهود ، مثل فدك وتيماء ووادي القرى ، فقد كانت واحات صغيرة تقطنها مجاميع يهودية محدودة العدد إلى جانب بعض السكان العرب . ولكن لم تصل إلينا معلومات واضحة عن أعدادهم أو طرق معيشتهم أو أوضاعهم السياسية والثقافية . ولكن يظهر من الإشارات التي أوردتها بعض المصادر التاريخية أن حالتهم لم تكن تختلف كثيراً عن يهود يرب وخيبر إذ كان معظمهم يشتغلون بالزراعة ويرتبطون بعلاقات تحالف مع القبائل العربية المجاورة لهم حماية لأنفسهم في مواجهة المخاطر . وكانت هناك قبائل يهودية أخرى تسكن اليمن ونجران في جنوب الجزيرة العربية .

وكان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم أصحاب الأكام والحصون والأرض ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداءه كل عام . وكان يتولى الأحبار أو الرابطين (أي الخاخامات) الأمور الدينية ، فيقيمون الصلاة وينظرون في شكاوى الناس ويعلمون الأولاد .

ولم يكن اليهود كتلة واحدة متماسكة من الناحية السياسية ، فقد اتحد بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ضد بني قينقاع الذين انضموا إلى الخزرج . وانعكست الصراعات بين الأوس والخزرج على قبائل اليهود . وحين دخلت قبائل يرب وبطونها معركة ضارية في يوم بعاث ، حارب بعض قبائل اليهود ضد البعض الآخر ، وبالع بنو النضير وبنو قريظة في قتل أفراد بني قينقاع . ويظهر عدم التماسك أيضاً في اشتراك يهودي يدعى مخيريق إلى جانب المسلمين في معركة أحد حيث قال : إن أصبت فلان مالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقتلت معه حتى قُتل فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : «مخيريق من خير اليهود» .

وقد وصل اندماجهم الاجتماعي إلى درجة أن أصبحت العربية لغتهم الوحيدة وإن شابهت رطانة عبرية أو آرامية حتى عدّها بعض العرب لهجة خاصة بهم . وقد ظهر بينهم من شعراء العربية :

إلى المقاومة والتأليب ، وأخذت لمواجهة في البداية شكل الحرب الفكرية والدعاية المضادة . فقد تحدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالناشآت وطالبوه بالمعجزات ، وأظهر أبحارهم التعنت في الجدل والأسئلة ثم تدرج الحال إلى الخصومة . بل لقد بلغ الأمر حد أن اليهود (وهم أصحاب عقيدة توحيد) أخبروا قريشاً أن عقيدتهم الوثنية أفضل من دين محمد ، وهو تزيف وإع للحقائق . وجاء التنزيل ليوم اليهود ويعتفهم ويتهمهم بتحريف الكلام عن مواضعه وتحوير التوراة والإضافة إليها . وحاول اليهود إثارة الشكوك في نفوس بعض المسلمين لزعزعة قناعتهم . وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود اختلاف بين بني إسرائيل (واليهود) في فهم كتاب الله وتفسيره وإلى انقسامهم تبعاً لذلك شعباً وأحزاباً ، واتهموا ببعض المسلمين بالإخلاق في الأمانات (وثمة رأي يذهب إلى أن كلمة «بني إسرائيل» كما وردت في القرآن لا تشير بالضرورة إلى يهود الجزيرة العربية ، وإنما تشير إلى اليهود في الماضي باعتبارهم أتباع العقيدة اليهودية) . وقد استمر اليهود في خصومتهم ، وحاولوا إثارة الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج ، كما اتصلوا بخصوص الجماعة الإسلامية وهو ما وأد أزمة سياسية .

وتصاعد الصراع الفعلي مع اليهود بعد غزوة بدر نتيجة تخوف اليهود من ارتفاع شأن المسلمين وخصوصاً أنهم كانوا يظنون أن النصر الذي تحقّق للمسلمين في بدر جاء اعتباراً أو في غفلة من الزمن . فبدأ الصراع مع بني قينقاع (أقوى الجماعات اليهودية التي شملتهم المعاهدة مع المسلمين) الذين كانوا يسكنون داخل المدينة (شرب سابقاً) ، كما كانوا أغنياء جلهم صاغة ، ويعتمدون على مساندة الخزرج . كذلك كانوا يعتدنون بقوتهم العسكرية . ويقيمهم من كتب السيرة أنهم أظهروا يوادر التحدي ثم التحرش بالمسلمين .

وذهب كعب بن الأشرف إلى مكة بعد بدر يحرّض أهلها على الأخذ بأحرامهم والانتقام من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين قبل أن يثبت سلطانهم وتقوى شوكتهم . ولم يكف بذلك ، إذ عندما عاد إلى المدينة استخدم شعره في التشبيب بنساء المسلمين والحرض في أعراضهم ، ثم راح يطعن في الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويحرّض الناس على الخلاص منه . وحدثت مشادة في سوق الصافة التي كانت لليهود بني قينقاع أدّت إلى مقتل يهودي ومسلم وأراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) تهدئة النفوس في ضوء احترام عقد المودعة بين الطرفين ، ولكن يهود بني قينقاع رفضوا فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحصار دورهم واستمر الحصار خمسة عشر يوماً حتى أعلن اليهود استسلامهم . وقد كان

السموءال بن عاديء بن بني قريظة ، وكعب بن الأشرف من بني النضير (وكان ابن الأشرف ينتسب إلى أب عربي من قبيلة طيء وأم يهودية) . ويضاف إليهما شعراء آخرون ، مثل : الربيع ابن أبي الحقيق (الذي كانت له مساجلات شعرية مع النابغة الذبياني) ، وسعيه بن غريض ، وشريح بن عمران . كما ظهرت بينهم شاعرة تدعى سارة القرظية . وهؤلاء الشعراء كانوا يلتزمون القواعد والأساليب نفسها التي يلتزمها شعراء العربية في شعرهم . ويلاحظ أنه لا يوجد في شعرهم أي أثر للتوراة أو لفكر ديني يهودي مستقل . وقد سادت بين اليهود القيم العربية مثل الفخر بالشجاعة وإكرام الضيف والمروءة والعصية القبلية والثأر وأخذ الدية والتحالف . ومن أسمائهم يبدو تعرّتهم واضحاً ولا تُوجد أسماء تحمل نكهة عبرية سوى قلة مثل بني زعورا .

ولا يرد ذكر يهود الجزيرة العربية في المراجع اليهودية أو غير اليهودية قبل بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) نظراً لانقطاع علاقتهم ببقية يهود العالم . وكانت علاقتهم بيهود فلسطين ، الذين كانوا يتحدثون الآرامية ، علاقة تجارية لا تختلف عن علاقة القبائل العربية الأخرى بهم . بل إن هناك من القرائن ما يدل على أن يهود دمشق وحلب لم يكونوا (في القرن الثامن الميلادي) يعتبرون يهود الجزيرة العربية يهوداً على الإطلاق نظراً لأنهم لم يكونوا يعرفون التلمود وإن عرفوه لم يخضعوا لقوانينه . ويبدو أن يهوديتهم كانت تلتخص في الإيمان بعقيدة التوحيد والمهد القديم . وكان حاخاماتهم يقرأون العهد القديم بالعبرية ثم يشرحوه بالعربية لمستمعينهم . وكان اليهود يعرفون بعض كتب المدراس . ويُقال إن اليهودية التي اعتنقها عرب الجزيرة كانت أشبه بحزب قبلي أكثر من كونها ديناً له أصول وأبعاد كدين يهود فلسطين ، إذ كان مجرد اعتناق أحد رؤساء القبائل أو البطون أو الأفضاخ للديانة اليهودية يؤدي تلقائياً إلى تهوّد أتباعه . ومع هذا ، لا يمكن استبعاد وجود طبقة حلولية قوية في عشائر يهود الجزيرة العربية . ويعود هذا ولا شك للوثنية العربية المحيطة بهم . وتظهر الحلولية بقوة في فكر عبد الله بن سبأ (أو السبئية إن أخذنا بالرأي الذي يذهب إلى أنه شخصية غير تاريخية) . وجاء الإسلام لينظر باحترام إلى تعاليم التوراة الأصلية . وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتوقع ترحيب اليهودية ومساعدتهم للمسلمين لأنهم أهل كتاب ، فعاملهم بانفتاح ووضع كتاباً بين الجماعة الإسلامية وبينهم في المدينة ينظم الشئون المشتركة ويوجب التساندي في وجه الخطر الخارجي على وجه الخصوص ويجعلهم أمة واحدة . ولكنهم سرعان ما وقفوا منه موقفاً أنسم بالسلبية ثم تدرج

من رأي المسلمين أن يقتلهم جميعاً ، وكان عددهم سبعمئة رجل ، لكن الرسول قَبِلَ ساطة عبد الله بن أبيّ وعبادة بن الصامت على أن يجلوا عن المدينة وسُمح لهم بالهجرة فخرجوا إلى أذرعات الشام ، وأخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أموالهم وأبقى لهم ذراريهم ونساءهم .

وفي أُحُد ، رفض اليهود الاشتراك مع المسلمين كما يفترض العهد بين اليهود والمسلمين ، وتعللوا بأنه يوم سبت . بل كان هوى بني النضير مع المشركين . واتخذ بعضهم (مثل كعب بن الأشرف) موقفاً استفزازياً يتدب قتل بدر والتحريض على المسلمين . كما أخذ بعضهم يزيد في التشكيك والتحرش ، ووجدوا تشجيعاً من المنافقين معتمدين على خلفهم مع الأوس . وقد استقبل زعيم بني النضير سلام بن مشكم أبا سفيان بن حرب عندما قدم من مكة في مائتين من أهلها وأغار على أطراف المدينة وأحرق دارين وقتل رجلين وقتل عائداً إلى مكة . وقد أطلع ابن مشكم على أسرار المسلمين . وقام أحدهم (عمرو بن جحش) بمحاولة اغتيال الرسول ، بعد عقد العهد (أي المعاهدة) بين المسلمين واليهود . واعتبر الرسول هذا التصرف دليلاً على نقضهم العهد . وكانت قريش قد بدأت تجمع جموعها للفتك بالمسلمين . ولتأمين جبهتهم الداخلية أعطاهم الرسول إنذاراً بالرحيل عن المدينة فرفضوا وأخذوا يتحصنون ويعلمون أنفسهم لحرب طويلة . وجاء ذلك على لسان زعيمهم حُيَيُّ بن أخطب . وازداد صلف بني النضير عندما وعدهم زعيم المنافقين عبد الله بن أبيي بالدمع (هذا رغم أنه كان قد وعد بني قينقاع ثم تخلى عنهم عندما صمّم الرسول على إجلائهم) . واستمر القتال عشرين ليلة ولكن بني النضير استسلموا في نهاية الأمر فسمح لهم الرسول بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع (حسب طلبهم) وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر ، ونزل آخرون بالشام . ويلاحظ أن بني قريظة خلفاء بني النضير لم يمسه سوء لأنهم أبقوا على العهد .

وكان لليهود دور كبير في خروج الأحزاب وفي غزوة الخندق . فبدأوا يهيجون ضد المسلمين واستجابت لهم جماعات (أحزاب) كثيرة فزحفت على المدينة . فحفر المسلمون خندقاً وضرب الحصار على المدينة لمدة شهر . وخلال ذلك كان زعيم بني النضير ، حَيَيُّ بن أخطب يُحرض كل قبائل العرب الذين كانوا ما يزالون على وثنيتهم ضد مُحمَّد وأصحابه ، وسمى جاهداً إلى أن يجعلها حرباً عامة تضم سكان شبه الجزيرة العربية من الوثنيين واليهود المنافقين في المدينة لاستئصال شافة الإسلام ؛ فقدم إلى قريش في مكة ودكرها بقتلى

بدر وضياح سيادتها على الطريق التجاري إلى الشام إذا ازدادت قوة المسلمين في المدينة . وسألت قريش وفد اليهود « يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومُحمَّد ، أفينتنا خيرٌ أم دينه ؟ » وأمعاهم الحقد فأجابوا « بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحق منه ! »

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في آيات صريحة جاء فيها : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (النساء ٥١ - ٥٢) .

هكذا أثار اليهود من جديد نائرة قريش ضد المسلمين ، وفعلوا ذلك أيضاً مع قبائل غطفان من قيس عيلان ومن بني مرة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بني سعد ومن أسد وغيرهم . وأتم ذلك كله حَيَيُّ بن أخطب بإغراء يهود بني قريظة بالدخول في هذا الحلف مع الأحزاب ، ونقض عهدها مع الرسول ، وعلى الرغم من أن زعيمهم كعب بن أسد تردد في أول الأمر ، إلا أن حَيَيُّ بن أخطب ما زال به حتى انضم لقريش وحلفائها من يهود وثنيين .

وكانت خطوة انضمام بني قريظة إلى هذا الحلف ، أنهم كانوا يقيمون في المنطقة التي لم يمتد إليها الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة عندما علموا بمقدم الأحزاب ، اعتماداً على أن بني قريظة تحمي هذه المنطقة وفاءً لعهدهما مع الرسول ، ومن ثم كان هذا يعني دخول الحلفاء إلى المدينة والقضاء على المسلمين بداخلها عن طريق بوابة قريظة هذه ، ولما سمع الرسول بغدريهم أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس (لأنه كان هو وجماعته من حلفاء بني قريظة) وسعد بن عباد سيد الخزرج فقابلا كعب بن أسد وحذراء من مغبة الغدر ، فسخر منهما . ونجح أحد المسلمين في زرع الشكوك بين الأحلاف ، وفشلت الحملة . وعتدّد هاجم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بني قريظة ، فخارت قواهم وطلبوا العفو لكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تنازل لسعد بن معاذ سيد الأوس عن حقه في اتخاذ القرار ليحكم في أمرهم .

ولعل سعد بن معاذ فكّر فيما قام به بنو النضير من نشاط ضد المسلمين بعد خروجهم من المدينة وتحريضهم لبني قريظة . وقد رأى سعد بن معاذ بنفسه إصرار بني قريظة على الحيانة ورفضهم التصح . فحكم على الرجال (أي العناصر العسكرية) بالقتل وسيب الذراري والنساء ، باعتبار أن ما ارتكبهوه يعادل في القانون الحديث الحيانة العظمى وإعلان الحرب .

وكان وجود اليهود في مستوطنات مترامية في قلب الأمة الجديدة ، وموقفهم السلبى ثم العدائى ، سبب تأزم العلاقة لتشكيلهم جبهة داخلية ذات خطر . ولكن ، بعد خيبر ، لم يبق منهم خطر وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمعاملتهم (في خيبر والقرى الشمالية) معاملة حسنة باعتبارهم أهل ذمة .

وقد قام عمر بن الخطاب بإجلاء اليهود عن الجزيرة العربية ليحسي الدولة الجديدة من عناصر لم يكن ولاؤها كاملاً . وربما كانت هذه حادثة الطرد أو التهجير الوحيدة في تاريخ العالم الإسلامي باعتبار أن ما حدث في وقت الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان جزءاً من عمليات عسكرية . ومع هذا ، عامل عمر الجماعات اليهودية طبقاً للشروط التي كانت بينهم وبين المسلمين . فأهل فندك ، على سبيل المثال ، كان لهم نصف الأرض ، فاشترها عمر منهم . ويسر عمر للجماعات اليهودية عملية الاستيطان في الشام والعراق ، وخصوصاً في الكوفة . بل بقي بعض اليهود في المدينة وفي وادي القرى وتيماء قرناً عديدة ، كما ظل هناك يهود بطبيعة الحال في اليمن . ويبدو أن موقف يهود الدولة البيزنطية من الفتح الإسلامي كان مؤيداً ومائلاً للمسلمين ، وخصوصاً أن أوضاعهم كانت قد تردت داخل هذه الإمبراطورية بعد تعاونهم مع الفرس من قبل . وقد ساعد اليهود والسامريون ، وكذلك المسيحيون اليعاقبيون ، الفتح الإسلامي ، وخصوصاً في سوريا وفلسطين . وفي حمص ، على سبيل المثال ، سد اليهود والمسيحيون بوابات المدينة لمنع جيش الروم من الدخول . وفي الخليل وقبصرية ، تمكّن المسلمون من اختراق تحصينات الروم بسبب مساعدة اليهود . وفي إسبانيا ، كانوا يقومون بثورات مسلحة ضد حكامهم من القوط الغربيين . كان هذا هو النمط الغالب ، وإن كانت هناك بعض الحالات الاستثنائية حين تعاون اليهود مع الروم ، بل يُقال إنهم قاتلوا إلى جوارهم كما حدث في غزة .

#### الذميون أو أهل الذمة في الإسلام

The Dhimmis

«الذميون» أو «أهل الذمة» هم من يجوز عقد الذمة معهم ، وهم أهل الكتاب ، ومن سن بهم الشريح سنة أهل الكتاب مثل المجوس . و«الذمة» في اللغة هي العهد والأمان والضمان ، ولذا يُقال لأهل الذمة «أهل العهد» . والمصطلح يعني أن أهل الذمة «في ذمة الله ورسوله وليسوا في ذمة أحد من الناس» . والذمة ذُكرت في القرآن الكريم مرتين في سورة التوبة (الآيتين

وكانت خيبر (في أعالي الحجاز) من مراكز اليهود المهمة ، وصارت ملجأ اليهود الحانتين ومركزاً للتأمر ، وأخذت في تكوين كتلة من يهود القرى المجاورة كتيماء ووادي القرى ولكن دون نجاح . وكان المسلمون يدركون ذلك . وحين سالم الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكة في الحديبية (آخر العام السادس للهجرة) ، أمر بالتهيؤ لخيبر في مطلع العام السابع للهجرة ، فهي خطر عسكري من الشمال مع وجود قريش في الجنوب ولها دور في التحريض على غزوة الخندق كما حاولت التفاهم مع غطفان لمحاربة المسلمين بوعدهم بنصف ثمر خيبر لعام إن انتصروا ، كما جرت المفاوضات بين خيبر ويهود وادي القرى وتيماء وفندك لتكوين حلف جديد يتزعمه اليهود الآن لخراب مُحمّد وأصحابه بعد أن فشل القريشون في ذلك . ولم يكن من المستبعد أن يسعى يهود خيبر للاستعانة بقوى خارجية كالفرس مثلاً الذين كانت لهم مصالحهم في اليمن ، وهم ولا شك يطعمون أن يمتد نفوذهم إلى كل محطات طريق التجارة البري من اليمن إلى الشام عبر المدينة . ولكن المحاولة فشلت لسبق المسلمين في التحرك ولتخاذل غطفان . وكان لليهود خيبر مناطق حربية (الظلة والشق والكتيبة) لكل منها حصون يحتمون بها من الغارات ، وفيها مخازن الغلال ، أما المزارع فخارج الحصون . وبعد حصار ومناوشات ، سلم يهود خيبر على أن تحقن دماؤهم ، واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم خيبر غنيمة وقسمها ، ولكنه ترك اليهود يزرعونها لعدم توافر الأيدي العاملة لديه مقابل نصف المحصول . وكان بين غنائم خيبر صحائف من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بتسليمها إليهم .

وبعد خيبر ، خضعت بقية القرى اليهودية وسلمت للنبي (صلى الله عليه وسلم) . فأرسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى يهود فندك وتم الاتفاق معهم دون قتال على أن يتركوا لزراعة الأرض ويعطوا النبي نصفها . ثم خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه إلى يهود وادي القرى وهزمهم وتوصل معهم إلى اتفاق مشابه لما توصل إليه مع اليهود السابقين . ولما سمع يهود تيماء بذلك لم ينتظروا مسيرة الرسول إليهم بل أرسلوا إليه وقبلوا شروط المسلمين . ويُقال إنه في هذه الأونة قدّمت امرأة يهودية (زينب بنت الحارث بن سلام) شاة مشوية للرسول ، دس له فيها السم وأرحت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالأمر فلفظ ما أكل . وفي رواية أخرى أنه أقم عليها القصاص لأن أحد الصحابة ممن أكلوا من الشاة مات مسموماً .



١ - التعددية :

يعترف الإسلام بالتعددية وحميتها ، وينطلق منها . بل إن جميع الفقهاء يعتبرون الاختلاف والتعددية سنة إلهية تركت بصمتها على جميع الخلق . والإسلام لا يجعل مجرد المخالفة في الدين سبباً يحمله على التقاطع بالفرقة وسلب الحريات والإخراج من الديار ، وإنما جعل العداة سبباً مانعاً من موالاة العدو والامتزاج به والاعتماد عليه (كما يذهب ابن كثير والقرطبي وغيرهم في تفسير سورة المنتحة) .

وقد أكد الدين حرية العقيدة في آيات عديدة منها : " لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي " (البقرة ٢٥٦) ، وأقر حرية الاختيار " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (الكهف ٢٩) ، وعلق المشيئة باختيار العبد " ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها " (السجدة ١٣) .

وقد دعا الإسلام إلى تأجيل الخلافات العقيدية إلى الآخرة لكي يفصل فيها الله سبحانه وتعالى (فهني هويدي) فالقلوب والضمان ينبغي أن تُترك لرب القلوب ويوم الحساب " إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئين والنصارى ، والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة " (الحج ١٧) .

كل هذا يعني حماية الاختلاف ، والاختلافات في الدين على هذا الأساس لا يمكن أن تكون سبباً للعداء والحرب . ويذكر القرضاوي أن أساس التعامل مع غير المسلمين هو " اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى " و " ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم أو يعاقب الضالين على ضلالهم " و " إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ويحب القسط " ، " يأبها الناس إنأ خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير " (سورة الحجرات ١٣) .

٢ - العدل :

وهو القيمة القطب في الإسلام (فهني هويدي) . العدل في المجتمع المسلم يقوم وفقاً لجملة من الثوابت منها رفع قيمة الإنسان ، والاستخلاف ، والمساواة ، وتحريم الله الظلم على نفسه وتحريمه بين الخلق . وهذه القيمة يتمتع بها الناس جميعاً لأنهم أخوة ، فكلمهم لأدم (الغنوشي) . وإذن فمادام غير المسلم إنساناً ، فإن له بمقتضى هذه الصفة في الدين الحصانة والكرامة والحماية . وأكد سليم العوا ، في ذلك السياق ، عصمة الدم .

والعدل في الإسلام قيمة مطلقة وليست نسبية ، فهي واجبة الالتزام في كل الظروف ، وهي في مواجهة الأعداء ، كما هي مع

٨ - ١) اللتين أكدتا أن وضع الغلبة إذا كان من نصيب المشركين فإنهم لن يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة .

وتعبير «الذمة» كان أحد مفردات الخطاب العربي قبل الإسلام ، حيث كانت عقود الذمة والأمان صنيعة التعايش الذي صادف سمات في الشخصية العربية . فقد عرف العرب من قدم التناصر بالجواري ، بما يسمونه «عقد الجوار أو الذمة» . وكانت رعاية الجوار عندهم من مقتضيات شهامة العربي . وكان على المجير أن يحمي الجار أو المستجير ويقاتل عنه ، ويطلب حقه ، ويمنعه ويمنع أهله مما يمنع منه نفسه وأهله وولده . فمسألة الذمة كانت حالة تعاقدية تعارف عليها عرب الجاهلية .

واللفظ اصطلاحاً ظهر مع استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها الحديث الشريف : " من أذى ذمياً فأنا خصمه " ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع : «أوصيكم بأهل ذمتي خيراً» . ومن خلال هذه الصيغة دخل تعبير «أهل الذمة» قاموس التخاطب مع غير المسلمين سواء في المراسلات أو في كتب الفقه . ويضع الفقه الإسلامي «الذمي» مقابل «المسلم» من جهة ، ومقابل «المشرك» من جهة . كما يوضع «الذمي» مقابل «الحربي» ، وهو «الكتابي الذي يعيش في دار الحرب» ، ومقابل «المؤمن» ، وهو «الكتابي الذي يأتي لدار الإسلام للتمجر أو الزيارة فيعطى الأمان ويصريح له بالعيش لمدة محددة» . وأصبح تعريف عقد الذمة (المستقر في كتب الفقه المختلفة) أنه عقد يصير غير المسلم بمقتضاة في ذمة المسلمين ، أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأييد ، وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام .

وأهم سمات عقد الذمة أنه تعاقد قانوني بين طرفين ، وليس حالة قانونية دائمة ، وهو تعاقد يستند إلى ظروف محددة ومن ثم يزول بزوالها . وفكرة العقد هنا هي إسهام أساسي للدين الإسلامي في التعامل مع قضية الأقليات ، إذ أن العلاقة مع غير المسلمين لم تُؤسس على أساس تسامح المسلمين أو عطفهم وحسب ، وإنما أُسست على مقولات قانونية واضحة تتجاوز الأهواء ، محمودة كانت أم مذمومة (على عكس الفقه المسيحي الغربي الذي لم يطرح قط أية بنية قانونية خاصة بالأقليات وترك الأمر برمته للتسامح المسيحي) .

هذا التحاقد لا يتم في فراغ وإنما في إطار النموذج المعرفي الإسلامي ومن منطلقاته الأساسية التي يمكن أن نوجز بعضها فيما يلي :

و هو بعد ثبوت جرمه لا يفقد حماية الشرع كله ، لأن جنابته ستُقدَّر بقدرها ، ولأن عقوبته لن تجاوز مقدارها . بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أوليائه وأبنائه ، هذه الكرامة التي كرم بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها ، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم .

ولا شك في أن هذا الذي سبق يخصص فيما يخص أهل الذمة وإن كان أعم وأشمل . غير أن لأهل الذمة مزية خاصة لكونهم أهل توحيد يشاركونهم في ذلك الجوس وكذلك السامرة والصابئة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم . ويقول الإمام علي رضي الله عنه إنهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا ، ويؤكد هذا السرخسي من مشاهير الفقهاء بقوله : « ولأنهم قبلوا عقد الذمة ، لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم » . بل أكثر من ذلك ذهب الفقه الإسلامي إلى أن حقوق الأقليات غير المسلمة طالما كانت مستمدة من الشريعة فإنها لا تتأثر بسوء معاملة الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية وعليه ، فلا يجوز ، لدار الإسلام أن تسيء معاملة الأقليات غير المسلمة في إقليمها بحجة الأخذ بقاعدة « المعاملة بالمثل » . وذهب محمد عمارة إلى أبعد من ذلك حيث لم يعتبر ما للذميين حقوقاً وإنما هي ضرورات واجبة .

تأسيساً على تلك الأسس الفكرية كان لا مناص من اعتبار النظام الإسلامي أن أهل الذمة جزء من الرعية الإسلامية ، مع احتفاظهم بعقيدتهم ، ومن ثم فقد كانت المعاهدات الحارجية يُمثل فيها المسلمون والذميون كأمة متحدة .

ويؤكد محمد الغزالي أن الإسلام يرى أن من عاهد المسلمين من اليهود أو النصارى أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية أو الجنسية مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات ، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم وعبادتهم وأحوالهم الخاصة . ويؤكد الفكر الإسلامي أن انقضاء الأفراد والجماعات في نطاق النظام السياسي الإسلامي قد أدى إلى اعتماد « الأمة » ، « والرابطة الأتنية » إطاراً عاماً يحدد سلوك الأفراد واتجاهات الفعل السياسي ضمن المجتمع المسلم .

وإذا كان ذلك كذلك فإن الدعوة لاعتبار الذميين مواطنين تطرح نفسها بقوة خاصة مع تعدد فئات ومستويات معضدات هذه الفكرة . وعندما تناول العديد من المفكرين (فهمي هويدي- لؤي صفاني- راشد الغنوشي- إدوارد الذهبي- سليم العوا ، وغيرهم) صحيفة المدينة بالتحليل ، وجدوا أن أهل الكتاب كانت لهم بموجب

الأهل والحلفاء\* لا يجرمكم شئنا قوم على ألا تعدلوا\* (المائدة ٨) ، أي لا يدفكم بعض قوم إلى اقتراف جريمة الظلم بيزانهم . ولذا كتب عمر بن الخطاب إلى أحد عماله يقول : « وأما العدل فلا رخصة فيه من قريب ولا بعيد ، ولا في شدة ولا رخاء ، والعدل وإن رمي لنا ، فهو أقوى ، وأظفأ للجور ، وأتمع للباطل من الجور » .

والعدل تحري الإنصاف والمساواة وإعطاء كل ذي حق حقه ، والحكم بين الناس بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو نقض الظلم (محمد سيد طنطاوي) . والعدل الإلهي يتجلى على الصعيد الاجتماعي في الدعوة إلى إقامة مجتمع إنساني حر مفتوح تملك جميع العقائد والمذاهب والآراء أن تعيش في ظله ، وليس الإكراه عنصران من عناصر تكوينه ولا بقاءه (سيد قطب) . وهذا المجتمع قائم على الإيمان بالعقيدة وعلى تطوع كل فرد فيه بصيانة النظام ، حدوده مفتوحة بلا حواجز ولا قيود لجميع المسلمين من كل جنس ولون ، ولغير المسلمين كذلك من المسالمين . بل إن الشرك ليملك في الوطن الإسلامي أن يستجير فيُجار ويتحم حيثئذ على الدولة الإسلامية أن تحميه وتكفله . وقد نصت وثيقة المدينة (الصحيحة) على أن « من خرج من المدينة آمن ، ومن قعد آمن إلا من ظلم وأثم » (الغنوشي) .

٣- المساواة التامة بين البشر :

ويرتبط بقيمة العدل الإيمان بالمساواة التامة بين البشر التي تنبع من رؤية إنسانية للإنسان تنبئ عن عرق أو لغة أو خلافه . وليس للمسلم من هذه الزاوية أية أفضلية على غيره ، وإنما هو إنسان شأن أي إنسان آخر إذ خلقنا الله من نفس واحدة . كما ذهب أبو الأعلى المودودي وفهمي هويدي وإدوارد الذهبي والغنوشي وسليم العوا وسيد قطب إلى أن هذه المساواة التي تمثل خلية معرفية لفهم الذمة تعود بالمفكرين إلى طبيعة التكريم الذي قضاه الله للإنسان\* ولقد كرمنا بني آدم « (الإسراء ٧٠) . فالإنسان في الإسلام هو مخلوق الله المختار ، الذي خلقه وسواه وعده ، ونفخ فيه من روحه . ومعنى التكريم هنا أي جعلنا لهم كرماً ، أي شرفاً وفضلاً ، وأياً كان مناط التكريم ، أكان لأن الإنسان نفساً ، أو لهداية الإنسان بالعقل ، أو لاستخلافه ، فإن نتاج هذا التكريم أن صار للإنسان كل إنسان ، قدسيته في هذا الدين . وقد صار الإنسان في حمى محمي ، وحرم مُحَرَّم ، ولا يزال كذلك حتى يهتك هو حرمة نفسه ، ويتزع بيده هذا الستر المضروب عليه ، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانباً من تلك الحصانة ، وهو بعد ذلك بريء حتى يثبت جرمه ،

نص هذه الصحيفة حقوق المواطنة الكاملة يمارسون عبادتهم بحرية ، ويناصحون المسلمين ، ويتناصرون في حماية المدينة ، ويتعاونون ، كلٌ في موقعه على حمل أعباء ذلك . ولعل من نص الصحيفة هذه ما يبرر ذلك حيث قالت : " وإنه من تبنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصِرَ عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . مواليهم وأنفسهم . . إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ [يهلك] إلا نفسه وأهل بيته . . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة دون أئمتهم " . (نص وثيقة المدينة) . وأكد ذلك أحمد طه السنوسي في تناوله فكرة الجنسية في التشريع الإسلامي المقارن .

وهكذا فإن مفهوم الذمة لا يتعارض مع مفهوم المواطنة حتى ذهب فهمي هويدي إلى إعادة النظر في مفهوم الذمة الذي يُبرر عن تصنيف وليس تمييز ، ولا يترتب اختلافاً يستدعي استمرار الائتزام به .

وأكد ذلك راشد الغنوشي في حديثه عن ارتفاع المواطنة في الدولة الإسلامية عن كل الفوارق الجنسية والقومية واللغوية وسواها من الفوارق التي أُقيمت بين البشر . وهذه المواطنة ترتب حقوقاً لكل من توطن هذه الدولة ، وألزمهم بواجبات كذلك . وقد أكد أن مبدأ مساواة المواطنين في الدولة الإسلامية ثابت فلا تختلف حقوق وواجبات المسلمين عن حقوق غير المسلمين إلا فيما يقتضيه اختلاف العقيدة . فحملَ المسلمين على ما يخالف عقيدتهم أو الذميين كذلك هو طعن في مبدأ العدالة والمساواة ، كأن يُحملَ الذمي على ترك الخمر ولحم الخنزير ، أو يُحملَ المسلم على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر .

وعقد الذمة يختص به الإمام أو نائبه ، وشروطه قسمان : مستحقٌ ومستحبٌ . أما المستحق ، فهو أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية والالتزام أحكام القانون الإسلامي ومراعاة شعائر المسلمين ومشاعرهم والأيام أهل الحرب . وهي شروط ملزمة إذا نقضوها انتقض عهدهم .

وأهم عناصر الذمة هي الجزية وهي من الكلمة الفارسية «جازيت» أي «الخراج الذي يُستخدَم في الحرب» . والجزية ضريبة أساسها نص القرآن وإجماع المسلمين ، ووجه إيجابها أن الإسلام أوجب الخدمة العسكرية على أبنائه ، وجعلها عليهم فريضة دينية مقدّسة ، واعتبر أداءها عبادة ، فكان من لطفه مع غير المسلمين ألا

يلزمهم بما يعتبر عبادة في غير دينهم . والجزية على غير المسلم بدل مالي عن الخدمة العسكرية المفروضة على المسلمين ، لذلك فهي لا تجب إلا على القادر على حمل السلاح من الرجال ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا شيخ ولا على ذي عاهة ، ولا تُفرض على راهب ، كما تسقط عن من تجب عليه إذا لم تستطع الدولة أن تقوم بواجب حماية أهل الذمة من مواطنيها ، وتسقط أيضاً باشتراك أهل الذمة مع المسلمين في القتال والدفاع عن دار الإسلام . وقد أعفي من الجزية نصارى اليونان لغير الاشتراك في القتال (الإشراف على القناطر) ، كما فُرضت الجزية على مسلمي مصر كمسيحييها لما أعفوا من الخدمة العسكرية . ومن الممكن تأجيل تحصيل الجزية من المعسر . لكل هذا ، يذهب بعض الكُتّاب إلى أن الجزية لا يمكن تصنيفها كضريبة رأس كذلك التي كانت تفرضها الجيوش الفاتحة على الشعوب المغلوبة .

ويؤكد الغنوشي أن الضريبة التجارية ، فرضها عمر على أهل الذمة بنصف العشر من مال التجارة الذي ينتقل من بلد إلى بلد (بينما كان التاجر المسلم يؤدي ضريبة مقدارها ربع العشر) ، وهي ضريبة لم يرد فيها نص معصوم ، إنما فُرضت باجتهاد مصلحي اقتضته السياسة الشرعية ، وعلى هذا : لو تغيّر الوضع فيما يتعلق بالنظر إلى الذمة وأصبح يُؤخذ منه ضرائب على أمواله الظاهرة والباطنة ما يساوي الزكاة ، لا يمكن حينئذ أن يؤخذ من التاجر الذمي مثل ما يُؤخذ من المسلم ولا حرج . وقد أعفيت أموال التجارة الداخلية من الضرائب ، أما زرعهم وثمارهم التي يستغلونها من أرض الخراج فليس عليهم شيء فيها غير الخراج ، وهي ضريبة كان يدفعها المسلمون أيضاً .

ويذهب السنوسي والغنوشي إلى أن التزام الذميين بأحكام القانون الإسلامي ، يُصدّر عن واقع أنهم يحملون جنسية الدولة الإسلامية ويلتزمون بقوانينها فيما لا يمس عقائدهم وحريةهم الدينية . وأما مراعاة شعور المسلمين فيقتضي ألا يسبوا «الإسلام ورسوله وكتابه وجمعه» ، والأل يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافي عقيدة الدولة ودينها ، ما لم يكن ذلك جزءاً من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى ، وغير ذلك من مظاهر السلوك .

بل إن المودودي يذهب لأبعد من ذلك فيرى أن لغير المسلمين في الدول الإسلامية من حرية الخطابة والكتابة والرأي والتفكير والاجتماع والاحتفال للمسلمين سواء بسواء ، وعليهم من القيود والالتزامات ما على المسلمين أنفسهم ، فيجوز لهم انتقاد الدين الإسلامي مثل ما للمسلمين من حق في نقد مذاهبهم ونحلهم .

ويجب على المسلمين أن يلتزموا حدود القانون في تقديمهم وكذلك غير المسلمين . ولغير المسلمين كذلك الحرية الكاملة في مدح نحلهم . ولا يحق للحكومة الإسلامية أن تعترض على انتقال أحد من غير المسلمين من نحلة غير إسلامية إلى أخرى غير إسلامية . ولكن لا يمكن لمسلم أن يستبدل دينه في حدود الدولة الإسلامية ، وإن ارتد مسلم فيقع وبال ارتداده على نفسه . ولن يُؤخذ غير المسلم الذي حمله على ذلك بذنبه .

هذا فيما يتصل بالمستحق ، أما المستحب فيحوي شروطاً عديدة من بينها لبس الغيار (وهو الملابس ذات اللون المخالف للون ملابس المسلمين لتمييزهم عنهم) . كما كانت الشروط المستجبة لعقد الذمة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وكان الإخلال بها لا يُعد نقضاً لعهد الذمة . ويذهب الدكتور قاسم عبده قاسم إلى أن الشروط التي اصطُح على تسميتها «المستحق» استهدفت في أساسها حماية الإسلام والجماعة الإسلامية ، كما أنها تتفق في مجموعها مع روح الشريعة الإسلامية ، أما الشروط التي عُرفت باسم «المستحب» فواضح أنها اجتهادات من وضع الفقهاء في مرحلة متأخرة نتيجة اتصال الذميين ببعض الغزاة إبان الحروب الصليبية ، وقد كانت نوعاً من الغلظة في فرض القيود لا تستهدف الحماية كما قلنا ، غير أنها غير معصومة ، فلم تُفرض على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) . وتؤلف هذه الشروط بقسميها صورة «العهد العمري» أو «الشروط العمرية» المنسوبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب . وجدير بالذكر أن «عهد عمر» ظل مجهولاً بصورته التقليدية طوال القرنين الهجريين الأول والثاني ، ولم يبدأ ظهوره بشكله النهائي إلا في أواخر القرن الثاني الهجري ، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بصحة أصوله التي اهتمت بحماية المجتمع الإسلامي . وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب شروط العهد العمري بشكل مُتسق مع روح الشريعة الإسلامية .

وقد ضمن الإسلام لأعضاء الأقليات غير الإسلامية حقوقاً عديدة من أهمها :

١ - حق العبادة : ضمن الإسلام لأهل الذمة حق العبادة ضماناً مطلقاً ، فلا إكراه في الدين بنص القرآن ، ولا يُجبر أحد ولا يُضغَط عليه لتترك دينه إلى غيره . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (سورة النحل ١٢٥) .

وذهب القرضاوي وغيره إلى أنه لا يحق للمسلم أن يُحاسَب غير المسلم على معتقداته حتى ولو كان كافراً . وفضلاً عن إباحة

زواج المسلم بكتابية فإن علي عبد الواحد وافي يرى أنه لا يجوز للزوج أن يمنع زوجته الكتابية من أداء عبادتها وشعائرها ، بل إن بعض المذاهب ترى أنه ينبغي له أن يصحبها إلى حيث تؤدي هذه العبادات في كنيسها أو بيعتها إذا رغب في ذلك .

ويوضح الشيخ محمد الغزالي أن الإسلام لم يفرض على الكتابيين ترك أديانهم ، بل طالبهم - ماداموا يؤثرون دينهم القديم - أن يدعوا الإسلام وشأنه ، يعتنقه من يعتنقه دون تَهْجُمٍ مر أو جدل يسيء . بل إن الإسلام كفل في الحرية الدينية لأهل الكتاب حرية إقامة الشعائر في أماكن عبادتهم ، وحقق في تجديده ما تَهَدَّم منها ، وبناء الجديد منها ، ودق نواقيسهم إيداناً بصلاتهم ، بل لهم إخراج صلواتهم في يوم عيدهم .

وبالنسبة لبناء الكنائس ودور العبادة ، أورد الشيخ القرضاوي عهد عمر بتأمين الكنائس القائمة وقت الفتح الإسلامي ، ثم أورد عهد خالد \* لهم أن يضربوا نواقيسهم في أية ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلاة ، وأن يُخرجوا الصليبان في أيام عيدهم \* . وذكر بشأن بناء الكنائس الجديدة أن من فقهاء المسلمين من يجيزها في الأمصار الإسلامية ، وحتى في البلاد التي فتحها المسلمون عنوة ، «إذا أذن لهم إمام المسلمين بناء على مصلحة رأها» ، وذلك على مذهب الزيدية وابن قاسم . وأورد أمثلة من مصر ، وما ذكره القريزي \* وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة في الإسلام بلا خوف \* .

٢ - قدر من الاستقلال الثقافي والديني : ويستند هذا الحق إلى أمر الله سبحانه وتعالى لرسوله (عليه الصلاة والسلام) أن احكم بين الناس بالعدل \* وإن جاءك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم \* (سورة المائدة ٤٢) ، أي أنه يمكن أن يُتركوا وشأنهم يطبقون قوانينهم في مجال حياتهم الخاصة . وقد كان لليهود بني قريظة بعض الحقوق في إدارة شئونهم الخاصة (أي أن العلاقة مع الدولة كانت فيدرالية إلى حدٍّ ما ، إن صح التعبير) . وبالفعل ، كان من حق الأقليات أن ينظمو أمورهم الداخلية بالكيفية التي تلائمهم ، فكان لهم حق تعليم أبنائهم تعاليم دينهم ، وأن تسود قوانين الأسرة الخاصة بهم وأحكامهم الخاصة ، وكانت لهم محاكمهم الخاصة ، أي أن الإسلام ضمن قدرًا كبيراً من الإدارة الذاتية للأقليات .

٣ - حمايتهم ضد العدوان الخارجي والظلم الداخلي : يذكر شمس الدين الرلمي الشافعي أن دفع الضرر عن أهل الذمة واجب كدفعه عن المسلمين :

١) العدوان الخارجي : من حقوق أهل الذمة حمايتهم من الاعتداء

به إلى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به إلى خزان بيت المال وقال له : انظر هذا وضرباه . فو الله ما أنصفناه ، أكلنا شيبينه ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) ، والفقراء هم الفقراء المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ثم وضع عنه الجزية وعن ضربائه . قال أبو بكر : " أنا شهدت ذلك من عمر ورويت ذلك الشيخ "

وقد أباح الإسلام لأهل الذمة حرية العمل والكسب ، ومزاولة ما يختارونه من مهن ، ومباشرة ما يرتاحون إليه من نشاط اقتصادي ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين الذين يعيشون معهم . ولا يرى الإسلام أي حرج في أن يشتغل مسلم عند أهل الكتاب أو يشتغل أهل الكتاب عند مسلم ، أما عن تولي غير المسلمين الوظائف العامة ، فذكر لأهل الذمة « الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين ، إلا ما غلبت عليه الصبغة الدينية ، كالإمامة ورئاسة الدولة ، والقيادة في الجيش والقضاء بين المسلمين ، والولاية على الصدقات لأن الإمامة والرئاسة العامة في الدين والدنيا وهي خلافة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقيادة الجيش ليست عملاً مديناً صرفاً ، بل هي من أعمال العبادة لكونها جهاداً ، والقضاء حكم بالشريعة الإسلامية فلا يُطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به . وأشار في ذلك إلى ما صرح به الماوردي من جواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ دون وزارة التفويض . ولذا كان اشتغال اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة أمراً شائعاً في بلاد الإسلام . ومع هذا يرى طارق البشري أنه في العصر الحديث ، بعد أن أصبحت الدولة كياناً مركباً متداخلاً ، وأصبح القرار السياسي نتيجة دراسة خبراء ومستشارين ، فإن من الممكن لأهل الذمة أن يتقلدوا أية مناصب (إلا تلك المناصب ذات الصبغة الدينية ، بطبيعة الحال) .

وفيما يتصل بعقد الذمة في الدولة (الإسلامية) الحديثة فكما يرى العواليس له محل من الوجود إذ أن تلك الدولة لم تقم على حق الفتح ، حتى يكون هناك عهد ذمة لأهل تلك البلاد ، بل قامت على حق التحرر من الاستعمار ، ذلك التحرر الذي شارك في صنعه كل من المسلمين والمسيحيين ، ومن ثم أصبح الإطار القانوني الذي يحكم تلك العلاقة هو المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات . بل يمكن القول بأن قاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" يُعاد استعمالها في أجلى صورها ، ويبقى حق المسلمين : "أهـو حق الأغلبية في كل بلاد الدنيا ، ويظل للمجتمع بأسره فكرة النظام العام التي تسمح بتطبيق القوانين الإسلامية واحترام كل من الأغلبية والأقلية لها . إن موقف الإسلام من أهل الذمة لا يستند إلى حالة عاطفية أو

عليهم بحفظهم ومنع ما يؤذيهم فكأسرهم ودفع من يقصدهم بأذى "ولو كانوا متفردين بيلد" . وينقل عن ابن حزم في مراتب الإجماع "إن من كان في ذمتنا [من أهل الكتاب] وجاء أهل الحرب إلى بلادنا بقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لغناهم بالكراع [أي بالحيل] والسلاح وغوت دون ذلك ، صيانة لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة" . ولقد أصر شيخ الإسلام ابن تيمية في تفاوضه مع قائد انتشار على إطلاق من تم أسره من أهل الذمة مع إطلاق المسلمين حيث قال : "لا ترضى إلا امتثال جميع الأساري من اليهود والنصارى ، فهم أهل ذمتنا ولا نزع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملّة "

ب) حمايتهم ضد الظلم الداخلي : من حقوق أهل الذمة أيضاً حمايتهم من الظلم الداخلي ، ونُقل عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه [أي خصيمه] يوم القيامة" . وقوله (صلى الله عليه وسلم) "من أذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة" . وقوله (صلى الله عليه وسلم) "من أذى ذمياً فقد أذاني ، ومن أذاني فقد أذى الله" . وفيما ذكره ابن عابدين أن "ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم لئماً" . ومن كتب الفقه نجد قول القرافي المالكي : "إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم في جورانا ، وفي خفارتنا (أي حمايتنا) ، وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله وذمة دين الإسلام" . وحق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمايتهم وأنفسهم وأبدانهم وحماية أموالهم وأعراضهم كما أسلفنا القول ، وكلها مكتوبة باتفاق المسلمين . ومن قتل ذمياً غير حربي قُتل ، ومن سرقه قُطعت يده . ويبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وتملكاتهم أنه يحترم ما يعدونه - حسب دينهم - مالا وإن لم يكن مالا في نظر المسلمين (كالخمر والخنزير) . ومن حقوقهم تأنيبهم عند العجز أو الشيخوخة أو الفقر ، فالضمان الاجتماعي في الإسلام يشمل المسلمين وغير المسلمين .

قال الإمام أبو يوسف صاحب كتاب الخراج : "حدثني عمر بن نافع عن أبي بكر قال : مرَّ عمر (رضي الله عنه) بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخاً ضريب البصر فضرب عمر عنقه ، وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودي . قال فما أجبك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسنن . فأخذ عمر بيده ، وذهب

الخيل ، وإن ركب الذمي الخيل فعليه أن يدلّغي بقدميه من ناحية واحدة لاعتبار أمني ، أي لتأكيد أن الذمي لا يحمل السلاح . ولكن هذا طال نسيانه ولم يبق من أمر طريقة الركوب الخاصة سوى جانبه الرمزي وحده .

ويتبدّى تحويل الوظيفة إلى رمز في قضية الغيار (الرداء) أيضاً . والواقع أن إزلام الذميين بلبس الغيار لم يطبّق في أيام الرسول ، أما عند الفتح الإسلامي ، فقد كان غيار السكان المحليين مختلفاً عن رداء العرب المسلمين حيث مُنِع للملحيون من ارتداء زيّ العرب كضرورة أمنية في عصور الفتح . وكان الهدف من الاختلاف في الزي تأكيد التمايز وليس التمييز ، بمعنى أن الزيّ شكل من أشكال التعبير ، أو هو لغة خاصة يتحدث بها الإنسان ويعبر بها عن هويته . والواقع أن التلمود ينصح اليهود بالألا يرتدوا ملابس مثل ملابس الفرس (العصر السائد في الإمبراطورية الفارسية التي كان يعيش فيها اليهود) . وفي العصر الأموي ، استبدل بالغيار الزنار . ولعل الهدف منه كان إدارياً بحيث يمكن التمييز بين الذميين والمسلمين بما تقتضيه ضرورة تسيير شؤون الدولة ، وكان الزنار يشبه في ذلك بطاقة تحقيق الشخصية ، ولكن بعض الفقهاء نسوا وظيفة الغيار الإدارية أو الأمنية العملية وفرضوا عليه مدلولاً رمزياً بحيث أصبح الهدف منه الإذلال والتمييز .

ولا يمكن حسم هذه القضية إلا بالتمييز بين المعيارية الإسلامية (الثالثة) والممارسات الإسلامية الواقعية ، وهو تمييز ليس ممكناً وحسب في إطار الإسلام وإنما حتمي وواجب لمن يؤمن بالإسلام ديناً يهديه سواء السبيل ، ويتحرك في إطاره ويحتكم إلى منظومته القيمية والمعرفية .

وما يهمننا من وجهة نظر هذه الموسوعة أن نشير إلى أن التشريعات الإسلامية الخاصة بأهل الذمة (ومنهم أعضاء الجماعة اليهودية) لم تخلق قابلية لدى الجماعات اليهودية للتحوّل إلى جماعات وظيفية .

ويمكننا أن نضيف بعض العناصر الأخرى التي ساعدت على استقرار وضع الجماعات اليهودية كأهل ذمة داخل التشكيل الحضاري الإسلامي وساهمت في عدم فرض دور وظيفي فريد أو متميّز .

١ - لم يلعب اليهود دور «قاتل الرب» الذي يلعبونه في الرؤية المسيحية للكون ولذا فالرؤية الأخرى (الإسكاتولوجية ، رؤية الخلاص النهائي الإسلامية) لم تفرض على اليهود دوراً متميّزاً (كما هو الحال في المجتمعات المسيحية) .

عقلية وإلما إلى قاعدة قانونية فقهية وإلى الرؤية الإسلامية للكون . ولعل الواقعة التالية التي يذكرها ميخائيل شارويم في الكافي تبلور هذه الفكرة . فمن المعروف أن الوالي عباس الأول ، الذي تولّى الحكم قبل محمد سعيد ، كان شديد التقمّة على النصارى ، وأخرج منهم كثيرين من خدمة الدولة ، وأراد أن يدبر إخراجهم من وطنهم وبعيادهم إلى السودان ، ولزمه لتنفيذ هذا الأمر أن يستصدر من الأزهر فتوى بجوازها ، فطلب إلى الشيخ الباجوري ، شيخ الجامع الأزهر وقتها ، الرأي في جواز إبعادهم ، فرفض الشيخ إنفاذ رغبة الوالي قائلًا : «إنه إن كان يعني الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها ، فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ ، ولم يستول عليها خلل ، وهم في ذمته إلى اليوم الآخر» . إن القاعدة الفقهية الخاصة بأهل الذمة وحقوقهم المطلقة مسألة ثابتة لا تخضع للنقاش .

ولكن ، لا يستند الدين الإسلامي في موقفه من أهل الذمة إلى القاعدة القانونية والفقهية وحسب ، وإنما هناك أيضاً التسامح كعنصر تكميلي ، وهذا هو معنى «البر والقسطاس» ، فهي عبارة تؤكد أن الموقف الإسلامي من أعضاء الأقليات لا يستند إلى العدل الاجتماعي (المستند إلى هيكل القانون) وحسب ، وإنما إلى الإحسان (المستند إلى التسامح الشخصي) أيضاً . وبمعنى آخر لا بد من القسطاس أي العدل (البراني) والبر (الجواني) . ولذا يحض القرآن على البحث عن الرقعة المشتركة بين المسلمين وأهل الذمة . «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهانا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (سورة العنكبوت ٤٦) .

ويشير الشيخ القرضاوي في علاقة المسلمين بغيرهم إلى ما لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين ، وهو الروح التي تبدو من حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان ، ومن إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب ، وزيارتهم وعبادة مرضاهم والتعامل معهم . وقد أجاز الفقهاء للمسلم أن يوصي أو يوقف شيئاً من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة ، وتكون هذه الوصية أو الوقف أمراً نافذاً .

ويوسعنا أن نتنقل الآن من المعيارية الإسلامية إلى ممارسات المسلمين التاريخية ، وأن نثير قضية مهمة وهي أن بعض التشريعات المنظمة للعلاقة مع الذميين كانت تحمل دلالة وظيفية وحسب . ولكن ، بعد حين ، نُسيت الوظيفة التي من أجلها تمّ التشريع وتحوّل الحظر إلى رمز . فعلى سبيل المثال ، كان الذميون يُمتعون من ركوب

٢ - لم ينظر إلى اليهود باعتبارهم الشعب الشاهد الذي يقف في ضعضه دليلاً على عظمة الكتيبة ، وفي ذلك وهزيمته دليلاً على انتصارها .

٣ - لم ينظر المجتمع الإسلامي إلى اليهودي من خلال مفهوم العودة الألفية التي ترى أن الخلاص لن يتحقق إلا بعودة اليهود إلى فلسطين وتصيرهم .

٤ - لا توجد علاقة حب وكُره بين الإسلام واليهودية كما هو الحال بين المسيحية واليهودية . فالمسيحية تعتبر العهد القديم (كتاب اليهود المقدس) أحد كتبها المقدسة . كما أن الإسلام لا يرى نفسه تحقيقاً لليهودية أو نفيًا لها (كما حدث في المسيحية) . فالإسلام يعترف بأنبياء اليهود وبالمسيح عليه السلام ويكتب اليهود والمسيحيين المقدسة . ولكنها مع هذا لم تتخذ كتباً مقدسة لأن الإسلام يرى أنها حُرِّفت . ويظهر الفرق بين موقف المسيحية والإسلام من اليهود في أن الإسلام يشير إلى «شريعة اليهود» أما المسيحية فتشير إلى «قانون اليهود» و«خرافة اليهود» بل «خيانة اليهود» .

٥ - ظهر الإسلام في منطقة هامشية بالنسبة لليهودية ، على عكس المسيحية التي نشأت في فلسطين مركز اليهودية . وفي البداية استفاد اليهود من الحكم الروماني في قمع المسيحية (وفي صلب المسيح حسب الرؤية المسيحية) . ولكن حينما قويت شوكة المسيحية وتحولت الإمبراطورية إلى المسيحية قامت السلطة الرومانية بالقضاء على بقايا اليهودية في فلسطين .

٦ - لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية يمثلون قوة سكانية ذات وزن في العالم الإسلامي .

٧ - حرم الإسلام الربا ولكنه نظر للتجارة باعتبارها نشاطاً إنسانياً كريماً ، ولذا مارسها المسلمون (واليهود والنصارى) ولم يحدث تمايز اقتصادي كبير لأعضاء الأقليات .

لكل هذه الأسباب لم يتحول كثير من أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، وكان هرمهم الوظيفي والمهني لا يختلف في مجموعه عن الهرم الوظيفي والمهني السائد في المجتمع . هذا لا يعني أنه لم يتحول قطاعات منهم إلى جماعات وظيفية ، فقد حدث هذا بلا شك ولكن بدون الشكل الحاد وبدون التبلور الذي أخذته هذه الظاهرة في المجتمعات الغربية . وقد اختلف الوضع تماماً مع نهاية القرن التاسع عشر ومع وقوع كثير من البلدان العربية في قبضة الاستعمار الغربي ووصول كثير من اليهود الإشتكاز إذ تم تحويل الغالبية الساحقة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي إلى جماعات وظيفية تقوم على خدمة الاستعمار الغربي

وترعى مصالحه ويقوم هو بحمايتها ، ولذا حصل كثير من أعضاء الجماعات اليهودية من أبناء البلاد على جنسية إحدى البلاد الغربية .

### العالم الإسلامي منذ انتشار الإسلام حتى سقوط بغداد على يد المغول

The Islamic World from the Spread of Islam to the Moghul Sack of Baghdad

قبل تناول الجوانب الإدارية والاقتصادية لوجود أعضاء الجماعة اليهودية في الدولة الإسلامية ، قد يكون من المفيد أن نقول إن الحضارة الإسلامية ، شأنها شأن معظم الحضارات الشرقية القديمة ، تقبل التنوع وعدم التجانس بدرجة أعلى من الحضارة الغربية . فالإمبراطوريات الشرقية كانت تسود فيها إحدى الجماعات الإثنية ، ولكنها لم تكن تستوعب الجماعات الأخرى ، وإنما كانت تحدد حقوقها وحدودها وواجباتها وحسب . وكانت الجماعة السائدة تُعرّف هويتها ، في العادة ، من المنظورين الإثني والديني . أما الجماعة السائدة في الدولة الإسلامية ، فقد عرفت نفسها (من الناحية النظرية) على أساس ديني وحسب ، وهو أمر يشكل افتتاحاً كبيراً ويحقق فرصاً أكبر للحراك الاجتماعي وللاتساع . ومن المهم أن نشير إلى أن الإسلام أكد وحدة الأديان (على الأقل من الناحية النظرية والمثالية) وجعل إبراهيم أباً للمؤحدين ، أباً لكل الأديان . ورغم الاصطدام الذي حدث بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) واليهود ، فإن اليهود لم يتحولوا (في الرؤية الإسلامية للكون) إلى الأخر أو القتلة ، كما حدث في المسيحية حين ارتبط اليهود بحادثة الصلب التي يشار إليها بعبارة «قتل الرب» ، بل ظلوا أهل ذمة وأهل كتاب . بل يمكن القول بأن اليهود كانوا أحسن حظاً من المسيحيين إذ أن القوة المضادة للفتح الإسلامي كانت الدولة الفارسية (المجوسية) التي تم القضاء عليها بسرعة ، ثم الدولة الرومانية الشرقية (المسيحية) التي استمرت الحرب معها سجلاً عدة قرون . ومعنى هذا أنه لم تكن هناك قوة يهودية دولية مضادة .

ويمكن القول أيضاً بأن مقدرة اليهود على التكيف مع الفتح الإسلامي كانت أعلى بكثير من قدرة الجماعات الأخرى . فلم يكن اليهود أغلبية ، ولذا كانت عندهم المهارات المختلفة اللازمة للتعاشيع باعتبارهم أقلية داخل مجتمع تحكمه أغلبية متصصرة . وقد تمكن فقهاء اليهود من تطويع القانون التلمودي حتى يتسنى لليهود التعاشيع بسهولة ويسر كأقلية ليس لها مركز ديني ، وطوروا مقولة إن قانون الدولة هو القانون أو الشريعة ، أي أن الأمور الدنيوية لا يحكمها القانون التلمودي وإنما قانون الدولة نفسها .

ديدها بالضرورة ، فكانت تُصَلِّدُ تشريعات خاصة للتمييز ضد الذميين في الزي وخلافه ما يتطلبه أمن الدولة . ولكن من المعروف أيضاً أن مثل هذه التشريعات صدرت في بعض الأحيان التي ازداد فيها التمازج والاندماج بين المسلمين والذميين ، فكان الفقهاء الذين يخشون على الهوية الإسلامية أو على السلطة الإسلامية يطالبون استرجاع مثل هذه التشريعات ، وكانت الدولة تؤيدهم في ذلك لأنه يسهل عملية تسيير دفة الحكم ، ولأسباب أخرى .

ويمكن القول بأن وضع اليهود السياسي والقانوني كان يشبه ، من بعض الوجوه ، وضعهم في الإمبراطوريات القديمة ، وخصوصاً الإمبراطورية الفارسية الساسانية ، في فترات ازدهارها . وقد استمرت المؤسسات الدينية والإدارية التي ظهرت إبان عصر الإمبراطورية الساسانية حيث كان يتولى قيادة الجماعة رئيس يُسمى رأس الجالوت «المنفي» يختاره أعضاء الجماعة اليهودية بأنفسهم ؛ له السلطة الكاملة على أبناء جماعته ويقوم بتنظيم العلاقات فيما بين أبناء الجماعة من ناحية وبينهم وبين الدولة من ناحية أخرى . وقد اعترف المسلمون بمنصب رأس الجالوت .

ومن الميزات الأساسية للجماعات اليهودية داخل المجتمعات الإسلامية في تلك الفترة عدم وجود تفرقة اقتصادية أو تمايز وظيفي مهم ، بل كان اليهود يشاركون في معظم مجالات الحياة وفي كل المهن والحرف تقريباً . وكانت ملكية الأراضي مفتوحة أمامهم ، كما أنهم تملكوا العقارات في كل أنحاء البلاد وتناقلوها عن طريق الوراثة أو عمليات البيع والشراء فيما بينهم وبين المسلمين دون أية مضايقات . وكان لهم مطلق الحرية في العمل التجاري بلا حدود . وكانت نقابات الحرفيين والمهنيين مفتوحة للجميع بغض النظر عن أي دين أو مذهب أو أصل . وقد شغل اليهود أعلى الوظائف الحكومية شريطة أن تكون الوظيفة ذات طابع تنفيذي ولا تعطي صاحبها سلطات تشريعية أو سياسية ، ذلك أن الدولة الإسلامية كانت ترى أن مثل هذه الوظائف لا بد أن يشغلها مسلم لاعتبارات أمنية .

ولكن ، ورغم عدم وجود تمايز وظيفي ، كان يجري استبعاد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي من بعض الوظائف الإستراتيجية بحكم انتمائهم إلى أقلية ، فكان معظم الذميين يحملون في الدرجات الدنيا والوسطى ، ولم يصل إلى الدرجات أو المراتب العليا إلا نسبة صغيرة ، إذ كانت هذه الوظائف مقصورة على المسلمين أو على من اعتنق الإسلام من الذميين . وقد تركز اليهود أيضاً في الوظائف والمهن التي تتطلب التعامل مع غير

ولم يكن اليهود (ولا المسيحيون) عنصرأً وافتأاً جديداً على المجتمع العربي الإسلامي ، فجلدورهم فيه قديمة حيث يعود تاريخ الجماعة اليهودية في بابل إلى أيام التهجير البابلي ، كما انتقل مركز اليهود إلى بابل قبل الفتح الإسلامي بقرون .

وفي نهاية الأمر ، لم يكن اليهود الأقلية الوحيدة في العالم الإسلامي مثلما كانوا في أوروبا المسيحية ، وقد عرف الشرق الأدنى القديم عشرين الأقليات الدينية والإثنية التي كان على الإمبراطوريات القديمة تنظيم التعامل معها . وقد استمر الإسلام في تقاليد التسامح وتقبل التنوع ، ولم يجد اليهود أنفسهم يلبسون دور الغرب أو الآخر الذي يحيط به حالات ميثاقية .

وما يجدر ذكره أن اليهود ، عند الفتح الإسلامي ، لم يكونوا عنصرأً واحداً متجانساً فقد كان هناك يهود الرومانيون الذين يتحدثون اليونانية (في الإسكندرية وفي أجزاء أخرى من الدولة الرومانية الشرقية) ، كما كان يوجد يهود يتحدثون الآرامية في الإمبراطورية الفارسية وفلسطين ، وانضمت إليهم قبائل اليهود المستعربة التي طردت من الجزيرة العربية وولدت خارجها . وما له دلالة أن هذه القبائل لم تطلب توطينها في فلسطين أو في القدس . ومن المفارقات أن هذه المجموعة المستعربة كانت بمنزلة النواة العربية القوية التي ساعدت بقية الجماعات اليهودية على استيعاب اللغة والحضارة العربية . وعلى المستوى الديني ، كانت اليهودية الحاخامية التلمودية قد فرضت سيطرتها ، وكانت المدرسة البابلية بالذات صاحبة السلطة والشرعية . ولكن هذا لم يمنع وجود بعض الفرق اليهودية المختلفة ، فهذه الجزيرة العربية كانوا لا يعرفون التلمود ، ويبدو أنه كانت تُوجد بقايا للصدوقيين أو لفكرهم . كما كان هناك أيضاً اليهود السامريون (وقد شكل كل هؤلاء نواة حركة القرائين فيما بعد) . وكانت أغلبية يهود العالم يوجدون في المناطق التي فتحها المسلمون ، ويشكلون نحو ١٪ من السكان في هذه المناطق ، كما أن نسبتهم كانت أكبر في المدن .

ومع هذا ، فمن الضروري إضافة أن التسامح والعدل كانا يسمان فترات الاستقرار والانحصار ، كما كانت تنسم بهما سياسة الحكومات في وسط العالم الإسلامي . أما في فترات التراجع ، حيث كان يخشى فيها المسلمون من الغزو الخارجي ، وفي الأطراف (المغرب ، إيران . . . إلخ) حيث كانت مهددة دائماً بالغزو ؛ أي في الأمكنة والأزمنة التي تهتم فيها ثقة الأمة بنفسها وبمقدورها ، فإن التسامح لم يكن صفة ملازمة لسلوك الدولة ، كما لم يكن العدل



المسلمين مثل التجارة الدولية والباسوسية والدبلوماسية والترجمة . كما أن المجتمعات التقليدية ، رغبة منها في تسهيل عملية الإدارة ونقل الخبرة ، كانت تركز بعض الوظائف والمهن في أسر وأقليات معينة ، بحيث تصبح هذه الأسر أو الأقليات جماعات وظيفية . ويلاحظ تركيز اليهود في التجارة والمال والحرف مثل : الصباغة والبداعة ونسج الحرير ، وفي بعض الحرف الوضيعة مثل : جمع القمامة وتنظيف البالوعات وتحفيف مخلفات المجاري لاستعمالها كوقود . كما كانوا يعملون أيضاً جزائري ومنفذين لأحكام الإعدام . وكانوا يعملون في بعض الحرف المتميزة ، مثل : الطب والترجمة والكتابة . وتبين وثائق جزيرة القاهرة التي تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي أن اليهود كانوا يعملون في أربع عشرة مهنة وحرفة ، منها مائتان وخمسون حرفة يدوية لم تكن بالضرورة وضيعة .

عند الفتح الإسلامي ، كان أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ، وكانت أكثرتهم تهمتهن الحرف اليدوية . ولكن ، مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، تغير الوضع تماماً نظراً لما يسميه بعض المؤرخين " الثورة التجارية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين " . وتعود هذه الثورة التجارية إلى أن الفتح الإسلامي قد وحد منطقة الشرق بعد أن تقاسمتها عدة إمبراطوريات ودوليات لمدة طويلة . وقد تم الاستيلاء على ثروات كبيرة كانت محبوسة في الكنائس والأديرة وقصور الملوك على هيئة تماثيل ذهبية ومعدينية تحمكت كلها إلى رأسمال كان من السهل انتقاله . وقد واكب ذلك ظهور عمالة رخيصة بسبب توحيد السوق ، وسقوط الإطار الطبقي الهرمي القديم الذي كانت تعضده الديانة المجوسية والكنيسة الأرثوذكسية الرومانية ، والهجرة من القرية إلى المدينة . وساهمت حركة البناء الضخمة التي أعقبت الفتح الإسلامي في تنشيط الحركة التجارية ، وساهمت الطرق التي شُقت في تسهيل انتقال رأس المال والعمالة والخبرات والسلع .

وكان أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ، وكانت أكثرتهم تهمتهن الحرف اليدوية . ولكن ، مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، تغير الوضع تماماً نظراً لما يسميه بعض المؤرخين " الثورة التجارية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين " . وتعود هذه الثورة التجارية إلى أن الفتح الإسلامي قد وحد منطقة الشرق بعد أن تقاسمتها عدة إمبراطوريات ودوليات لمدة طويلة . وقد تم الاستيلاء على ثروات كبيرة كانت محبوسة في الكنائس والأديرة وقصور الملوك على هيئة تماثيل ذهبية ومعدينية تحمكت كلها إلى رأسمال كان من السهل انتقاله . وقد واكب ذلك ظهور عمالة رخيصة بسبب توحيد السوق ، وسقوط الإطار الطبقي الهرمي القديم الذي كانت تعضده الديانة المجوسية والكنيسة الأرثوذكسية الرومانية ، والهجرة من القرية إلى المدينة . وساهمت حركة البناء الضخمة التي أعقبت الفتح الإسلامي في تنشيط الحركة التجارية ، وساهمت الطرق التي شُقت في تسهيل انتقال رأس المال والعمالة والخبرات والسلع .

والواقع أن كل هذه العناصر ما كانت لتسبب ثورة تجارية لو لم تكن النخبة العربية الحاكمة ذات أصول تجارية من قريش واضطلعت بالتجارة الدولية من قبل (رحلة الشتاء والصيف) ، ولم تكن هذه النخبة تنظر إلى العمل التجاري أو المالي باعتباره عملاً وضيعاً . وقد غيرت الثورة التجارية وضع اليهود تماماً فعملوا بالتجارة المحلية والدولية والصيرفة والربا . ومع حلول القرن العاشر الميلادي ، كانت المؤسسات المصرفية اليهودية تقوم بإقراض الدولة سواء في بغداد أو القاهرة . ومن أشهر التجار الدوليين في ذلك الوقت

والقرنين السابع والتاسع الميلاديين) التجار الراذانيه . وقد أدى كل ذلك إلى ظهور طبقة يهودية وسيطة (كبيرة وذات نفوذ) تشكل جزءاً أساسياً من المجتمع لا تضطلع بوظيفة اقتصادية محددة مقصورة عليها كما كان الحال في أوربا ، وإنما تقوم بنشاط اقتصادي مشروع ومقبول من المجتمع ككل باعتباره نشاطاً مهماً وجوهياً وريعياً . ولذا ، لم يتعرض اليهود لمثل تلك المذابح أو الهجمات التي كانت تُدبر ضدهم في أوربا إما بإيعاز من النبلاء الذين كانوا يرون فيهم أداة الملك أو من تجار المدن الذين كانوا يرون فيهم منافسين لهم ؛ بل قامت شركات تجارية بين المسلمين والذميين . والواقع أن الطبقة التجارية المحلية في العالم الإسلامي كانت قوية لا تخشى التجار الذميين بل تراهم مكملين لها . كما لم يكن اليهود عرضة للاستياء الشعبي بسبب ممارستهم الربا ، فهذه وظيفة كان يضطلع بها أيضاً المسيحيون من جميع الجنسيات ، بل بعض المسلمين . أي أن اليهود عاشوا في صلب المجتمع الإسلامي ، لا في مسامه كما كان الحال مع بعض الجماعات اليهودية في أوربا في مرحلة تاريخية معينة .

ويبدو أن المكاة الخاصة التي يشغلها التجار في الحضارة الإسلامية انعكست على الجماعات اليهودية ، فكانت النخبة التجارية تشكل العمود الفقري للنخبة الدينية اليهودية وتتحكم فيها . وكثيراً ما كان يُجند رؤساء الحلقات التلمودية في العراق من بين صفوف التجار حتى قبل الفتح الإسلامي . وقد ظهرت طبقة ثرية قائمة بين اليهود تشكل القيادة الحقيقية للجماعة (وهو وضع يشبه وضع اليهود في الولايات المتحدة حالياً) . ولعبت هذه الطبقة من التجار والممولين دوراً أساسياً في حياة الجماعة ، فقد كانوا جهابذة وصيارفة بلاط أو صيارفة حكومة أو ممولين كباراً يتحكمون في تعيين رأس الجالوت . وبسبب نفوذهم ، تمكن سعيد بن يوسف الفيومي (سعيداً جلاوون) (٨٨٢ - ٩٤١) من أن يبقى رئيساً لحلقة سورا لمدة عامين حتى بعد أن طرده رأس الجالوت . كما كان اليهود الراذانية مسيطرين على حلقة بومديننا التلمودية . ويلاحظ أن طبقة التجار كانت تتحد دائماً مع الفقهاء ضد رأس الجالوت الذي كان يُقال إنه من نسل داود . وهذا التحالف يمثل النخبة التي تستند إلى المال والمقدرة الفكرية مقابل النخبة التي تستند إلى الميراث . وهذا يشبه من بعض الوجوه صعود الموالي في المجتمع الإسلامي مستندين إلى المال والمقدرة الفكرية ، مقابل الأرستقراطية العربية التي تعتمد على الحسب والنسب .

ويكمن القول بأن الحلقات كانت في واقع الأمر شبكات تجارية أيضاً ، فكانت المراسلات الدينية والتجارية ورأس المال والفتاوى

وقد يكون من المفيد أن نَميِّز بين اصطلاح «مسلم» و«إسلامي»، فالمسلم هو من يؤمن بالعقيدة الإسلامية، أما كلمة «إسلامي» فتشير إلى الخطاب الحضاري الإسلامي الذي يشارك فيه جميع أعضاء الأمة (بالمعنى الحضاري والسياسي) من مسلمين ويهود ومسيحيين .

ولا يمكن قهْمُ التراث الديني اليهودي في هذه المرحلة إلا بالعودة إلى التراث الإسلامي؛ الفلسفي والديني . ويمكن القول بأن تفاعل أعضاء الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى . وتجب ملاحظة أن بروز اليهود في الحضارة الغربية الحديثة، وتفاعلهم معها، لم يتم إلا بعد أن تمت علمتهم وتخلوا عن أية هوية دينية يهودية، على عكس النجاح الذي حققوه في إطار الحضارة العربية الإسلامية إذ حققوه باعتبارهم يهوداً ذوي هوية دينية مستقلة . ولكن ما تجدر الإشارة إليه أن يهود العالم الإسلامي لم تظهر منهم شخصيات فكرية يهودية ذات ثقل كبير، على عكس يهود الأندلس الذين ظهر منهم موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤) ويهودا اللاوي (١٠٨٠-١١٤٠) وغيرهما من مفكرين وشعراء . ولعل هذا يرجع إلى أن العراق كانت توجد بها تلك الحلقات التلمودية التي كانت تدور داخل إطار تقليدي لا يزال فيها التفكير الديني لليهودي ضيقاً محدوداً برغم تأثرهم بالتراث الديني الإسلامي . ويلاحظ أن الفكر القرآني الذي عبّر عن هذا التأثير جرت محاصرته ورفضه من قِبَل أعضاء الجماعات اليهودية . وهذا على عكس ما بدأ من يهود الأندلس الذين لم يؤسسوا مدارسهم الدينية إلا بعد أن تم تعريبهم وبعد أن أخذت نخبتهم تتشرب الحضارة العربية الإسلامية . وبالتالي، كانت التقاليد الفكرية داخل هذه الحلقات تسمح لهم بالانفتاح الكامل على الحضارة العربية الإسلامية، حيث أمكنهم الإبداع من داخلها فأتجسوا أهم كلاسكياتهم الفكرية والأدبية التي ظلت تحتل مكان الصدارة حتى العصر الحديث .

وقد تدهور وضع اليهود بتدهور وضعهم في العالم الإسلامي ككل، وهو تدهور نجم عن انقسام العالم الإسلامي (في العصر العباسي الثاني وبعده) إلى دويلات وإمارات مختلفة، الأمر الذي أدّى إلى انقسام اليهود أنفسهم . وقد تدهور حال الطبقة الوسطى في العالم الإسلامي ككل بعد أن توقفت الثورة التجارية وتآكلت نتيجة ظهور الجمهوريات البحرية الإيطالية التي أخذت تتحكم في التجارة الدولية . وقد نجم عن ذلك أن المصدر الأساسي للموارد في الدولة

تنتقل من خلال القنوات نفسها . وكثيراً ما كان رئيس الجماعة اليهودية (المقدّم) يظلم في منطقة ما بوظيفة الخاخام والوكيل التجاري لعديد من الشركات . وحتى بعد انفصال مصر ودول أخرى عن الدولة العباسية وظهور وظيفة النجيد أو رئيس اليهود، ظلت الشبكة التجارية الدينية دون تغيّر كبير . ويلاحظ أن هذه الشبكة لم تكن مقصورة على التجار والمموّكين وحسب، وإنما استفادت من وجود آلاف الحرفيين والمهنيين اليهود كما استفادوا هم أيضاً منها . وهذا لا يعني أن الجماعة اليهودية كانت تمثل دولة داخل دولة أو أنها تمتعت بالاستقلال الاقتصادي أو كوّنّت بورجوازية يهودية مستقلة أو ما شابه من ادعاءات، فلقد كان اليهود جماعة صغيرة مدمجة تماماً في المجتمع . وتشكل أواصر القرابة والتضامن الديني في المجتمعات التقليدية عناصر أساسية تضمن الحد الأدنى من الثقة الذي يسر عمليات الائتمان والتجارة . ولذا، كان التجار اليهود يستعينون بالمموّكين والحرفيين اليهود، تماماً مثلما كان التجار المسيحيون يستعينون بالمموّكين والحرفيين المسيحيين . وكان الجميع يتمنون إلى الإطار الحضاري الإسلامي الأكبر .

وقد أدّى وجود الجماعات اليهودية داخل الإطار الحضاري الإسلامي الموحد إلى سهولة حركة اليهود برووس أموالهم وأفكارهم وإلى تمازجهم، فاندمجت الجماعة اليهودية إلى حد كبير في المجتمع العربي الإسلامي . وتوضح درجة الاندماج الاجتماعي والاقتصادي العالية في أن تركيب اليهود الطبقي لم يكن يختلف عن تركيب المجتمع ككل . ويظهر الاندماج الثقافي في أن لغة أعضاء الجماعة اليهودية، سواء في الحديث اليومي أو في أدبياتهم الدينية أو الدنيوية، هي العربية . وحينما قام سعيد الفيومي بترجمة التوراة في القرن العاشر الميلادي، أشار إلى الأرامية باعتبارها لغة الآباء . بل تأثرت نظرتهم إلى العبرية نفسها بمعرفتهم بالعربية، وهو ما أدّى إلى بعثها وتجديدها، فاهتموا بمفرداتها ونحوها وصرّفوها ووضعوا لها المعاجم . وقد تأثر الأدب العبري، وخصوصاً الشعر، بالأدب العربي، فأخذوا الأوزان والقافية من الشعر العربي . كما تأثر التراث الديني اليهودي بالتراث الديني الإسلامي إلى درجة أعمق من تأثره بالهيلينية، فظهر أساطين الفكر العربي الإسلامي اليهودي مثل سعيد بن يوسف الفيومي وطائفة القرآنيين (منتصف القرن الثامن)، وجمعت الهلاخاه (الشرعية) وصنّفت على طريقة الصفات الفقهية الإسلامية، وأصدر علماء اليهود الفتاوى على نمط الفتاوى الإسلامية .

إمكاناته . وقد تحسنت أحوال اليهود والمسيحيين تحت حكم المغول الذين كانوا وثنين يضمون عناصر مسيحية وتعاونوا مع الالذمين كعبادة الغزاة . لكن استمرار تدهور العالم الإسلامي وتدهور الجماعات اليهودية فيه امتد حتى الفتح العثماني . ويلاحظ أنه ، في القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت أغلبية اليهود ، ولأول مرة في التاريخ ، تعيش في أوروبا (وضمن ذلك إسبانيا) وليس في الشرق الأدنى .

أصبح متمثلاً في الضرائب والمكوس ، وهو ما جعل الجزية أمراً مهماً للغاية تسعى الدولة إلى تحصيلها بشتى السبل .

وقد ازداد التراجع الإسلامي بعد الهجوم المسيحي المتمثل في حروب الفرنجة ثم الهجوم على الأندلس وصقلية ، وهو هجوم صاحبه تكليل بالجماعات الإسلامية التي وقعت تحت حكم المسيحيين . ثم كان هناك الغزو المغولي عام ١٢٥٨ الذي أدى إلى الكارثة التي حاقت بالعالم الإسلامي وأجهضت كثيراً من



## إسبانيا الإسلامية (الأندلس)

إسبانيا الإسلامية (الأندلس) - الأندلس - العصر الذهبي لليهود

## إسبانيا الإسلامية (الأندلس)

Moslem Spain (Al Andalus)

حينما وصل طارق بن زياد إلى إسبانيا الكاتوليكية عام ٧١١ ، كانت حالة أعضاء الجماعة اليهودية فيها متردية ، بل يُقال إن معظمهم تحولوا إلى يهود متخفين . ويبدو أنهم ، مع وصول أبناء الفتح العربي ، بدأوا يتحسسون إمكانية تغيير أوضاعهم . ولذا عاونوا الفاتحين المسلمين ، كما عاونهم بعض المسيحيين . فقاموا ، على سبيل المثال ، بثورة في طليطلة ضد القوط واستولوا على حصن المدينة وفتحوا أبوابها للفاحين . وحاول المسلمون الاستفادة من الجماعة اليهودية ، فكانوا بعد فتح أية مدينة يوطنون اليهود فيها لحراستها حتى يتفرغ المسلمون للفتح . وقد كان هذا أمراً مهماً ولا شك للفتح العربي نظراً لقلّة جنود المسلمين . ويُقال إن عملية توطين اليهود تمت في مدن مهممة ، مثل : قرطبة وغرناطة وطليطلة وأشبيلية . وقد ثار السكان المسيحيون في أشبيلية بعد فتحها وفكروا بأعضاء الجماعة اليهودية ، ولكن المسلمين استعادوها بعد ذلك (وقد لعب أعضاء الجماعة اليهودية الدور نفسه بعد أن استعاد المسيحيون إسبانيا ، فكان المسيحيون يوطنونهم في المدن المفتوحة أو يتركون أعضاء الجماعة اليهودية ويطردون المسلمين) .

وقد استفاد أعضاء الجماعة اليهودية من الفتح الإسلامي إذ استولوا على بعض بيوت النبلاء المسيحيين الذين فروا وتركوا ثروتهم ، وكانت مثل هذه الثروات تُعدّ مصدراً أساسياً لرأس المال . بل يُقال إن الثروة التجارية التي حدثت في العالم الإسلامي كانت تعتمد إلى حدّ ما على تحرير هذه الثروات المجمدة داخل القصور والأديرة . ومع هذا ، يجب عدم المبالغة في الدور الذي لعبه أعضاء الجماعة اليهودية ، فقد كانوا أقلية صغيرة جداً لا يُعتدّ بها ، كما أن الجماعة اليهودية كانت لا تصرف شيئاً عن فنون الحرب بالإضافة إلى أن مستواها الثقافي والحضاري كان متدنياً إلى أقصى درجة . ولعل أهم دور لهم هو ما لعبوه بوصفهم كثافة سكانية مهما تكن ضآلتها النسبية ، ويوصفهم مصدراً للمعلومات .

وقد استقلت إسبانيا الإسلامية عن الخلافة العباسية بوصول عبد الرحمن الداخل الذي أسس فيها حكم الأسرة الأموية (٧٥٧ - ٧٨٧) وخلفه ابنه هشام الأول (٧٨٨ - ٧٩٥) الذي بدأت في عصره عملية الاندماج الحضاري والاجتماعي لليهود - فبدأوا يدرسون في مدارس الدولة . غير أنه نشب تمرد بين اليهود في عصر الحكم الأول (٧٩٦ - ٨٢٢) في مقاطعة الأندلس عام ٨١٨ وحدث تمرد آخر في طليطلة عام ٨٢٨ بالاشتراك مع المسيحيين المستعربين ، وقد قضي على هذه التمردات .

وشهد القرنان العاشر والحادي عشر الميلاديان تُشرّب اليهود الحضارة العربية الإسلامية ، وتَحسُن أحوالهم المعنوية والروحية والمادية ، وتعريب أسمائهم ولغتهم ورويتهم ، وتأثّر آدابهم الدينية والدينية بالثراث العربي الإسلامي . وقد وصل اليهود في الفترة نفسها إلى مكانة عالية رفيعة ، فعملوا في الوظائف الإدارية والمالية حيث كان يعمل بعضهم في وظيفة يهود البلاط ، واشتغلوا بالتجارة المحلية والدولية التي كانت تصل حتى حدود الصين أو كانت تدخل إلى أوروبا ، واحتكروا بعض أنواع التجارة مثل تجارة العبيد (ومنهم للعبيد والجواري البيض) الذين كانوا يحضرونهم من بلاد الصقالبة ، واشتغلوا بالحرف مثل الصباغة كما اشتغلوا بالزراعة . وقد برز اليهود في وظائف محددة مثل التجارة الدولية والترجمة بسبب وضعهم وثقافتهم ، فقد كانوا يجيدون العربية والعبرية وبعض اللغات الأوربية ، الأمر الذي حوّلهم إلى حلقة وصل وجماعة وظيفية وسيطة بين العالمين الإسلامي والمسيحي ، وخصوصاً أنهم كانوا يتقلون بسهولة ويسر بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا المسيحية ، فكان اليهودي ينشأ في إسبانيا المسيحية مثلاً ثم ينتقل إلى إسبانيا المسلمة أو العكس .

وقد تركز اليهود في المدن مثل قرطبة وطليطلة وأشبيلية وسرقسطة . ووصل بعض اليهود إلى أعلى الوظائف الحكومية بما في ذلك أعلى مراتب الوزراء كما هو الحال مع حسداني بن شفروط الذي كان يعمل طبيباً أوديلوماسياً في بلاط عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) والحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٢) . وقد تحوّلت الأندلس

ومُنعت اليهودية في الأندلس ، كما أخذ الحكم الإسلامي في الانحسار التدريجي بعد ذلك التاريخ .

ويُقال إن العصر الإسلامي في الأندلس كان يمثل العصر الذهبي لليهود إذ ازدهر الفكر اليهودي الديني والفلسفي نتيجة الاحتكاك بالمسلمين العرب . واكتسبت اللغة العبرية أعماقاً جديدة من خلال علاقتها بالعربية ، ودخلت عناصر الحياة على الشعر العبري كما هو واضح في أشعار يهودا اللاوي (هاليغي) وموسى بن عزرا . وكتب المؤلفون اليهود موشحات لم تكن تحاكي الموشحات العربية بشكل عام وحسب وإنما قلدت موشحات عربية بينها دون تعديل أو تحوير . ونشأ فن المقامة في العبرية وتُرجمت مقامات الحريري وكليية ودمنة ، وظهر موسى بن ميمون أهم المفكرين الدينيين اليهود على الإطلاق ، الذي كان لفكره العربي الإسلامي اليهودي أعمق الأثر في الفكر اليهودي في كل أنحاء العالم .

ويبدو أن الجماعات اليهودية في الأندلس لم يكن يربطها تنظيم واحد وليس لها منصب مثل رأس المجالت (المفتي) في بغداد أو الحاخام باشي في الأستانة الذي يشكل ما يشبه القيادة المركزية ، وإنما كانت كل جماعة تشكل مجموعة مستقلة يطلق عليها اسم «الجماعة» يترأسها المقدم الذي يشكل حلقة الوصل بين الجماعة والدولة أو الدولية أو الإمارة . وربما كان انعدام المركزية بين الجماعات اليهودية انعكاساً للوضع السياسي في شبه جزيرة أيبيريا ، فقد كانت إسبانيا من أكبر دول أوروبا ولم تتمتع بالحكم المركزي إلا في فترات قصيرة . وكما رأينا ، انحل الحكم الإسلامي إلى حكم أمراء الطوائف الذي كان يشبه الإقطاع الغربي من بعض النواحي . وقد استمرت هذه اللامركزية حتى بعد أن قام المسيحيون باستعادة إسبانيا .

### الأندلس

Al Andalus

انظر : «إسبانيا الإسلامية (الأندلس)» .

### العصر الذهبي لليهود

The Golden Age of the Jews

«العصر الذهبي لليهود» عبارة تُستخدم للإشارة إلى الوجود اليهودي في الأندلس ، وخصوصاً في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، ويُقصد بها الفترة التي حقق أعضاء الجماعة اليهودية في أثنائها إنجازات حضارية هائلة من خلال التفاعل مع الحضارة العربية الإسلامية .

إلى أهم مراكز اليهودية في العالم . وتُثل هذا في قيام عدة حلقات دراسية دينية مستقلة عن العراق (في قرطبة وغرناطة وبلطجة وأشبيلية) . وقد أُسست هذه الحلقات التلمودية بتشجيع من الطبقات الثرية اليهودية في شبه جزيرة أيبيريا التي كانت في حاجة إلى حلقات تصدر فتاوى تتفق مع أوضاعها الجديدة وتنازع العراق (المركز التقليدي للحلقات) في القيادة . كما أن الحلقات كانت محطة أساسية في الشبكات التجارية . وكانت الفتاوى والسلع تعبر من خلال القنوات نفسها . ومن أهم الحلقات ، تلك التي أسسها حسداي بن شفروط في قرطبة عاصمة الأيوبيين والتي عُين لها العالم اليهودي الإيطالي موسى بن خانوخ رئيساً .

وقد اندمجت النخبة اليهودية في محيطها العربي تماماً ، واستوعبت أعداد كبيرة منها الفلسفات العقلانية والندوية التي كانت الأندلس تربة خصبة لها . وتذهب بعض الدراسات إلى أنه ، نتيجة لهذا ، فقدت الجماعة اليهودية أية هوية دينية واضحة ، وأنه لذلك لم يُعد هناك من اليهودية (عند استرداد المسيحيين إسبانيا) سوى قشرة رقيقة كان من السهل على النظام المسيحي الجديد أن يتقن أعضاء الجماعة بطرحها جانباً ، من خلال القسر أحياناً ومن خلال الإغراء أحياناً أخرى ، فتنصرت أعداد كبيرة منهم . ولكن يمكن القول أيضاً بأن ما حدث هو أن اليهودية ، باعتبارها نسقاً دينياً ، اكتسبت أبعاداً حضارية إسلامية كما هو واضح في فلسفة موسى بن ميمون . ولذا ، لم يمكنها الاستمرار تحت الحكم المسيحي ، ولم تكن لديها فرصة للتكيف لتظهر يهودية جديدة ذات أبعاد كاثوليكية . وحينما ظهرت ، أخذت شكل الماراثية ، أي يهودية المارانو . ولا تزال الكتب الدينية اليهودية تفسر النكبة التي ألمت بالسفارد (يهود شبه جزيرة أيبيريا) وطردهم من شبه الجزيرة ، بأنه عقاب لهم لتخليهم عن عقيدتهم .

ومع تفكك الخلافة الأموية والحكم المركزي في إسبانيا ، انقسمت إسبانيا إلى دويلات وإمارات إسلامية صغيرة فيما يُعرف بحكم الطوائف (١٠٠٨) . فاستخدم الأمراء كثيراً من اليهود مثل صمويل بن نغريلة وزير أمير غرناطة . وكان اليهود يعملون مستشارين ماليين وسياسيين ، وفي البعثات الخارجية للدول ، ويهود بلاط ، وملتزمي ضرائب .

وبعد استيلائهم على سدة الحكم عام ١٠٨٦ ، قام المرابطون بتطهير جهاز الدولة من اليهود ، فتدهورت أحوالهم لبعض الوقت ، ولكن الأمور عادت إلى نصابها بعد قليل . ومع صعود أسرة الموحدون عام ١١٤٦ ، لم يُعد اليهود يتمتعون بذلك الوضع الممتاز ،

## ٣

## الدولة العثمانية وقراس بعد انتشار الإسلام

الدولة العثمانية - العثمانيون - المسألة الشرقية ورجل أوروبا المريض - الامتيازات الأجنبية - حماية اليهود (والأقليات الأخرى) - فارس بعد انتشار الإسلام - فارس (إيران) منذ حكم الأسرة الصفوية حتى الوقت الحاضر

## الدولة العثمانية

The Ottoman State

قام العثمانيون ، وهم مجموعة من القبائل التركية ، بقيادة زعيمها عثمان الأول (١٢٩٣ - ١٣٢٦) ، بتأسيس الدولة العثمانية . بدأ العثمانيون بتوحيد الإمارات التركية في آسيا الصغرى التي مدت سلطانها إلى جنوب أوروبا والشرق الأدنى القديم . ومع حلول منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت الدولة العثمانية الناشئة قد ضمت مناطق كبيرة من البلقان واليونان ، وفتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وقد استولى العثمانيون على سوريا وفلسطين ومصر (١٥١٦ - ١٥١٧) ومعظم المجر (١٥٢٦) والعراق (١٥٣٠) . ومع منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، حيث وصلت الإمبراطورية إلى أعلى قمة نفوذها ، بسط العثمانيون نفوذهم على شبه الجزيرة العربية وضوا معظم شمال أفريقيا وكثيراً من الجزر في البحر الأبيض المتوسط . وكانت تحكم الإمبراطورية العثمانية نخبة عسكرية تركية مسلمة . وقد بدأ مد العثمانيين في التوقف عام ١٦٨٣ حينما فشلوا للمرة الثانية في الاستيلاء على فيينا . وبعد ثلاثة أعوام فقدوا بودا (بودابست) ووقعوا أول معاهدة يقرون فيها بهزيمتهم . وبالتالي ، أخذ النفوذ العثماني في الانحسار ، إذ بدأت روسيا في الزحف من الشمال ، وظهرت الدولة الصفوية (الشييعية) التي ناصبت الدولة العثمانية العداة ، وظهرت دول أوروبا البحرية ومن بينها إسبانيا والبرتغال ، ثم إنجلترا وفرنسا اللتان قلصتا نفوذ الدولة العثمانية واستولتا على بعض أرضها وعلى أجزاء من العالم الإسلامي إلى أن سقطت الخلافة العثمانية على يد ثورة تركيا الفتاة . وتقرت الإمبراطورية العثمانية تماماً مع الحرب العالمية الأولى ، واستقلت كل الدول التي كانت تابعة لها .

وتاريخ يهود العالم الإسلامي (ابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي) هو تقريباً تاريخهم داخل الدولة العثمانية ، فقد ضمت الإمبراطورية العثمانية الترابية الأطراف جماعات يهودية عديدة تتحدث لغات مختلفة ولها انتماءات إثنية ودينية متنوعة .

- ١ - الرومانيون : حينما فتح العثمانيون آسيا الصغرى واليونان والبلقان ، وجدوا يهود الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) الذين كانوا يتحدثون اليونانية ، وكان يُطلق عليهم أيضاً «الجرجوس» ، أي «اليونانيون» .
- ٢ - الإشكناز : مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي ، هاجرت جماعات من اليهود الإشكناز من ألمانيا وفرنسا إلى الدولة العثمانية .
- ٣ - السفارد : مع طرد يهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانوا يتحدثون اللادينو ، هاجرت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية ، وكانت هجرتهم تفوق في أعدادها الهجرة الإشكنازية . وقد أصبح السفارد أهم العناصر اليهودية وطبعوا بقية الجماعات بطابعهم ، حتى أن اللادينو أصبحت هي لغة اليهود الأساسية ، تماماً مثل اليديشية في أوروبا آنذاك .
- ٤ - اليهود المستعربة : وهم اليهود العرب الذين يتحدثون العربية ويتمنون إثنيّاً إلى الأمة العربية ويرتدون الزي العربي .
- ٥ - اليهود الأكراد (في العراق) : وكانوا يتحدثون الكردية . وكان منهم أيضاً من يتحدث الأرامية في القرى الجبلية البعيدة ، كما كان سكان المدن منهم يتحدثون العربية .
- ٦ - اليهود القراءون : وكان من بينهم من يتحدث العربية (في مصر) ومن يتحدث التركية (في شبه جزيرة القرم) وربما كان هؤلاء بقايا دولة الخزر اليهودية .
- ٧ - اليهود السامريون في فلسطين .
- ٨ - كانت هناك جماعات يهودية متناثرة تتحدث المجرية والرومانية وغيرها من اللغات الأوربية في المقاطعات التي ضمها العثمانيون . وكانت توجد تجمعات يهودية في آسيا الصغرى واليونان ، في إستانبول وسالونيك وأدرنة وأزمير وبورصة ، وكذلك في فلسطين والعراق ومصر واليمن وتونس والجزائر . وكان يُطلق على كل تجمع يهودي لفظة جماعة (بالعربية : قهال) . وكانت كل جماعة تُسمى حسب البلد الذي جاءت منه مثل : بروفنسال أو كورنوفو أو أراجون أو صقلية أو طليطلة أو قرطبة أو الأندلس . وكانت كل جماعة

تضم جماعات يهودية جديدة كلما ازدادت توسعاً ، وكذلك عن طريق هجرة اليهود إليها ، أو عن طريق التزايد الطبيعي .

ويتميز يهود الدولة العثمانية بانتماثلهم لها . فأنشاء الفتح العثماني لأسيا الصغرى وبعض أنحاء أوروبا تعاون يهود بورصة (١٣٥٤) وأدرنة والقسطنطينية (١٤٣٣) وبودا (١٥٦٦) ورودمسي وأذربيجان وبلجراد (١٥٤٣) مع القوات العثمانية الفاتحة . رحبت الدولة العثمانية بالمهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية فهاجرت أعداد كبيرة منهم وأصبحو عثمانيين بحض إرادتهم ، أي أنهم هاجروا إليها واستوطنوا فيها وجعلوها وطنهم الوحيد واندمجوا في الحضارة الإسلامية . ولم تضم الدولة العثمانية عبر تاريخها سوى أقلية من يهود العالم إذ أن مركز اليهود السكاني كان قد انتقل إلى أوروبا ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي . وفي القرن التاسع عشر الميلادي ، بلغ عدد اليهود في الدولة العثمانية ، ثلاثمائة ألف ، أي أقلية صغيرة للغاية بالقياس إلى يهود العالم الغربي الذين كانوا على عتبات الانفجار السكاني (حيث زاد عددهم إلى عشرة ملايين مع أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) ، وهو انفجار لم يكن له ما ينظره في الدولة العثمانية .

وقد رحب العثمانيون من جانبهم بالهجرة اليهودية من أوروبا ، فقد كتب الخاقان إسحق تسارقاتي عام ١٤٧٩ إلى يهود ألمانيا والمجر لحثهم على الهجرة إلى الدولة العثمانية . وكان العثمانيون يرون أن العنصر اليهودي عنصر بشري مهم للإمبراطورية نظراً لخيرته المالية والعلمية ومعرفته باللغات الأجنبية ، إلى جانب أنه يشكل كسافة بشرية كانت الإمبراطورية في أمس الحاجة إليها .

ومن الكلمات المهمة في المصطلح السياسي العثماني كلمة «سورجون» ، وهي تعني النفي أو الترحيل أو التهجير أو النقل الإيجابي . وكان السورجون يطبق على فرد أو أسرة أو جماعة بشرية كاملة باعتباره شكلاً من أشكال العقاب أحياناً ، ولخدمة مصلحة الدولة العثمانية في أحيان أخرى . وقد كانت الدولة تنظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم عنصراً بشرياً يمكن أن يُطبق عليه قانون السورجون ، فكانوا يُوطنون في مكان ما لموازنة العنصر المسيحي كما حدث في قبرص ، أو كان ينظر إليهم باعتبارهم عنصراً تجارياً يمكن أن يُنشط الحياة الاقتصادية فيتم توطيئهم في المدن مثل إستنبول وأدرنة .

وما شجع اليهود على الهجرة إلى الدولة العثمانية أنها منحتهم الحقوق كافة مثل الاشتغال بأية حرفة أو امتلاك الأراضي الزراعية والعقارات ، ولقد وصلوا إلى أرفع المناصب . ولدراسة الوضع

تنقسم عادة إلى جماعتين ، فالبروفنسال مثلاً نصير إلى يروفنسال القديمة والجديدة ، وكانت كل جماعة تحمض باستقلالها ، وعلى سبيل المثال كان يوجد في سالونيك (في القرن السادس عشر) ثلاث عشرة جماعة يهودية مقسمة حسب البلد الأصلي يتحدثون اليونانية أو الإيطالية أو الإيطالية باللهجة الصقلية أو البرنغالية أو اللادينو . وكان يوجد في إستنبول ثلاثون جماعة يهودية ، لكلٍ معبدها وحاخامها ومحاكمها الخاصة التي لم تكن لها سلطة تنفيذية وجمعية الدفن المقصورة على أعضائها . ولم تكن العلاقات بين هذه الجماعات ودية بل كانت تتصارع فيما بينها . فالجماعات الكبيرة تضطهد الصغيرة ، والجماعات التي تنتمي إلى أصل واحد والمتناثرة في مدن مختلفة تتعاون فيما بينها ضد الجماعات الأخرى ، كما كانت هذه الجماعات تسي ببعضها البعض لدى السلطات . فعلى سبيل المثال ، حدث شجار في دمشق بين اليهود المستعربة والسفارد حول عمق الحمام الطقوسي ، فوجه اليهود المستعربة بعض الاتهامات الظالمة إلى السفارد أمام السلطات التي قبضت على بعض منهم وألقت بهم في السجن .

وكان السفارد يشيرون إلى الرومانيوت بأنهم «التوشافيم» ، أي «السكان الأصليين» بكل ما تحمل الكلمة من إيحاءات قديحة ، كما كانوا يشيرون إليهم بلغظ «الجريجوس» وهي تسمية كانت هي الأخرى ذات دلالات سلبية . وكان الرومانيوت يشيرون بدورهم إلى السفارد باعتبارهم «ميجوراشيم» أي «الطرودين» أو «المتنوبين» . ولم تكن هناك سلطة يهودية مركزية أو منصب حاخام أكبر ، وهو ما يجعل تجرية يهود الدولة العثمانية تشبه من بعض الوجوه تجرية يهود الولايات المتحدة الذين يتكونون من جماعات مختلفة لا يربطها رباط مركزي . وحينما نشأت وحدة بين هذه الجماعات ، كانت ثمة وحدة فيدرالية ضعيفة . ولكن ، مع هذا ، تمت عملية الامتزاج بينها بالتدريج . وهذا يعود إلى أن الأجيال الجديدة من اليهود لم تعد تهتم بالبلد الأصلي ، وبدأت تتحرك داخل إطار تجربتها العثمانية كما هي العادة مع الجيل الثالث من أبناء المهاجرين . وما ساعد على مزج اليهود في الدولة العثمانية صدور الشولحان عاروخ الذي قبلته الجماعات اليهودية كافة باعتباره المرجع الأساسي للشريعة . ومع حلول القرن الثاني عشر الميلادي ، كانت أغلبية الجماعات اليهودية تعتبر نفسها سفاردية وتتحدث اللادينو ، وكانت هناك أقلية صغيرة إشكنازية يتحدث بعض أعضائها اليديشية ، وأخرى قرآنية ، وذلك بخلاف الأقليات الهامشية مثل السامريين والأكراد . وقد أخذ عدد يهود الدولة العثمانية في التزايد بسبب اتساع الدولة حيث كانت

الخاصة بالزري العسكري . واستمرت العلاقة بين الإنكشارية وأعضاء الجماعة اليهودية حتى عام ١٨٢٦ عندما حُلَّت الإنكشارية . وقد اتسمت العلاقة بين أعضاء الجماعة اليهودية والنخبة الحاكمة بكثير من الانسجام والتفاهم لأن العنصر اليهودي كان مكملاً لنشاطات أعضاء النخبة الحاكمة لا متناقضاً معها ، على عكس الوضع في كثير من بلاد أوروبا . فأعضاء النخبة كانوا يشغلون الوظائف العسكرية والدينية والإدارية العليا وكانوا يديرون بعض المشاريع الاقتصادية الكبرى مثل النقل البحري والتجارة الدولية ، وهي نشاطات مهنية واقتصادية لم يكن يطمح اليهود إلى الاضطلاع بها . كما أن أغلبية اليهود استوطنوا في الدولة العثمانية بعد أن كانت النخبة الحاكمة قد سيطرت على ناصية الأمور وعلى الهيكل الاقتصادي ، وهم في هذا يشبهون يهود إنجلترا وفرنسا وهولندا عند استيطانهم ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي . كما يلاحظ أنه لم يكن يوجد تناقض بين السلطات من جهة والنبلاء وسكان المدن من جهة أخرى ، كما كان الحال في أوروبا . وهو التناقض الذي سقط اليهود ضحية له في أغلب الأحيان ، إذ كان الملك يستخدم اليهود لصالحه كإداة لجمع الضرائب ولتقويض نفوذ المدن غير الملكية والنبلاء . أما في الدولة العثمانية ، فقد كان اليهود أداة في يد جهاز الدولة ونخبته الحاكمة ككل . ويمكن القول بأن يهود الدولة العثمانية ككل قد اندمجوا في سكانها . وحينما انتشرت دعوة شيتاي تسفي (١٦٦٥) ، تصدَّى لها حاخامات الإمبراطورية وساهموا في الحرب ضدها ، وظهر يهود الدوغه في أعقاب إخفاق دعوة تسفي واعتناقه الإسلام . وقد أصبحت صفد مركزاً للدراسات اليهودية إذ استوطن فيها جوزيف كارو ، وفيها وضع مؤلفه المشهور الشولخان عاروخ ، كما أصبحت صفد مركزاً للدراسات القبالية وبخاصة القبالة اللوريبانية .

وكما هو متوقع ، كان مصير يهود الدولة العثمانية مرتبطاً بحركات هذه الدولة وما تواجهه من مشاكل وأزمات . ويلاحظ أن تراجع الدولة العثمانية ترك أثره في الجماعات اليهودية أيضاً ، فقد توقف تدفق المهاجرين اليهود من أوروبا إذ بدأت تستوعبهم المراكز التجارية في غرب أوروبا ووسطها بدرجات متزايدة ، وبالتالي توقفت تدفق رأس المال والخبرة والمعارف الغربية . بل إن معرفة أعضاء الجماعات اليهودية باللغات الأوروبية تناقصت حتى أن معظمهم كان يكتب اللاتينو بحروف عبرية لأنهم كانوا لا يعرفون الحروف اللاتينية . ورغم أن المؤسسة الحاخامية نجحت في أن تصدَّى لدعوة شيتاي تسفي ، فإن فشل هذه الدعوة ونفسه وُلد بأساً عميقاً في قلوب

الاقتصادي والاجتماعي لليهود في الدولة العثمانية ، لابد أن تقرر ابتداءً أن أعضاء الأقليات في المجتمعات التقليدية لم يكن بإمكانهم أن يشغلوا وظائف حربية أو إدارية أساسية أو إستراتيجية معينة لأسباب أمنية ، وأنهم في العادة يتركزون في وظائف ونشاطات اقتصادية مالية ومهنية وهو ما يحوّلهم إلى جماعات وظيفية . وهذا ما حدث لأعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية ، فكان منهم المترجمون ، وكانت وظيفة ترجمان البلاط يشغلها دائماً يهودي . كما اشتغل اليهود بمهنة الطب ، ولربما تفوقوا في هذا المجال لأنهم تعلموا في أوروبا فنون الطب الذي كان مختلفاً عن الطب في العالم الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي وأكثر تطوراً . ويبدو أن اليهود أيضاً ساهموا في نقل بعض جوانب تكنولوجيا السلاح من الغرب ، وهو ما سبب حقد المراقبين الغربيين عليهم لأنهم عدوهم مسئولين عن التفوق العسكري العثماني . كما أنهم نقلوا فن الطباعة ، واشتغلوا بالصناعة فأسسوا كثيراً من مصانع النسيج ، كما اشتغلوا بالتجارة الدولية وشكلوا جماعة وظيفية وسيطة بين الدولة العثمانية وأوروبا . وعمل اليهود في الوظائف المالية مثل الإقراض بالربا كما أنهم ، والسفارد منهم على وجه الخصوص ، اضطلعوا بوظيفة المديرين الماليين للولاة العثمانيين ولكنهم من الباشوات العثمانيين . ومن أهم الوظائف التي اضطلعوا بها تلك الوظائف المرتبطة بالضرائب سواء أكانوا جامعي أو مفتشي ضرائب أو موظفي جمارك أو ملتزمي ضرائب . وكانت أغلبية العاملين في الضرائب في الدولة العثمانية من أعضاء الجماعات اليهودية حتى أن الإيصالات كثيراً ما كانت تكتب بحروف عبرية .

ومن أهم الوظائف التي اضطلعوا بها أيضاً وظيفية أمين الإمدادات والتأمين لقوات الإنكشارية ، وهي وظيفة تختلف عن نظيرتها في العصر الحديث في أن من كان يضطلع بها لم يكن موظفاً حكومياً وإنما كان ممولاً يقوم بنشاط تجاري حر مثل شراء التموينات والزي العسكري للإنكشارية وتدريبها لهم . وكانت الوظيفة وراثية محصورة في عدد محدود من الأسر اليهودية . وقد نشأت هذه العلاقة بين الإنكشارية والمؤمنين اليهود أينما وجدت قوات الإنكشارية في إستنبول وسالونيكيا ومعظم المدن التركية الأخرى . ونشأت حول المؤمنين شبكة تجارية صناعية مالية من اليهود ، فكانت مصانع النسيج اليهودية تساهم في صناعة الأزياء العسكرية للإنكشارية . ولعل ارتباط اليهود بصناعة النسيج في كثير من البلاد ، مثل الولايات المتحدة وغيرها ، كان سبباً في أنهم يرتبطون بالمؤسسة العسكرية التي تحتاج إلى كميات كبيرة من المنسوجات



الداخل وحمائيتهم في الخارج . وأسس يهود العالم جمعيات لمساعدة إخوانهم اليهود ، فتأسست الأليانس الفرنسية (١٨٦٠) والرابطة الإنجليزية اليهودية (١٨٧١) وجمعية الإسرائييتيش أليانس (١٨٧٣) ، والغوث الهيلفسرفين (١٩٠١) الألمانيان ، واللجنة اليهودية الأمريكية (١٩٠٦) .

وقد كان لتعاظم النفوذ الغربي آثار متضاربة على الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية ، إذ أدى تدخل الدول العظمى في بداية الأمر إلى تصاعد نفوذ أعضاء الأقليات المسيحية داخل الدولة ، وهو ما أدى إلى ظهورهم وحراكتهم على حساب أعضاء الجماعات اليهودية ، فبرز العنصر اليوناني والأرمني . وبما ساعد على هذا الاتجاه أن عدد المسيحيين كان أكبر وأنهم حصلوا على نصيب أكبر من التعليم ، وخصوصاً أنهم أرسلوا أولادهم إلى جامعات أوروبا وكانت تعاضدهم كنائسهم وكل أوروبا . وقد أدى كل هذا إلى تراجع نفوذ أعضاء الجماعات اليهودية وإلى تناقص نصيبهم من التجارة الدولية ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي حتى انتهى تقريباً مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . وقد تزامن هذا مع تناقص نفوذ يهود الأرندا في بولندا وتناقص نفوذ يهود البلاط في وسط أوروبا . ولا ندرى ما إذا كانت هناك علاقة بين الظاهرتين ، ولكن المرجح أن ثمة علاقة إذ كانت هناك شبكة تربط الجماعات الاقتصادية الثلاث . وكان آخر ممولٍ يهودي كبير هو يوسف الناسي الذي مارس نشاطه في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وقد ظهر آخر كبار الأطباء اليهود في البلاط العثماني في أواخر القرن السابع عشر الميلادي .

وبدا المسيحيون يشغلون وظائف الجمارك والضرائب ، بل إن وظيفة الدراجمون (أي الترجمان) التي كان يشغلها اليهود بدأ يشغلها تركي من أصل يوناني . وتبدى تزايد النفوذ الغربي والنفوذ المسيحي في شكل آخر هو ازدياد ظاهرة توجيه تهمة الدم كما تجلّى في حادثة دمشق حين اتهم مسيحيو سوريا (بتحريض من القنصل الفرنسي) العنصر اليهودي المرتبط بالإنجليز بأنهم ذبحوا أحد الرهبان واستخدموا دمه في خبز فطير الفصح . وحين ناشد يهود فرنسا دولتهم لم يجدوا أذناً صاغية إذ كانت فرنسا تحمي كاثوليك الشام . أما في إنجلترا ، فقد احتج بالرسولون وهدد محمد علي حاكم مصر الذي كانت تبغعه سوريا آنذاك بالعواقب الوخيمة إذ كانت إنجلترا تفكر في حماية يهود الدولة العثمانية .

وإذا كان نفوذ يهود الدولة العثمانية قد تراجع بسبب التدخل الغربي وتعاظم النفوذ الغربي ، فإن الصهاينة الذين وضعوا أنفسهم تحت حماية بريطانيا استفادوا منه أيما استفادة . كما أن كثيراً من

أعضاء الجماعات اليهودية وزاد سيطرة المؤسسة الحاخامية عليهم . وكما أشرنا من قبل ، كان ثمة ارتباط بين المموّكين اليهود والإنكشارية . ولذلك ، حينما حاولت الدولة العثمانية تحديث المؤسسة العسكرية عن طريق القضاء على الإنكشارية ، تحالف هؤلاء المموّكون مع الإنكشارية وقاموا بتحويل تمردهم . وبعد أن تمكنت الدولة من حل الإنكشارية ، تم القبض على رؤساء عائلات المموّكين وتم إعدامهم ، الأمر الذي ألحق ضرراً شديداً بالشبكة الاقتصادية اليهودية التجارية المالية الصناعية المرتبطة بهؤلاء المموّكين .

ويمكن القول بأن الحقيقة الأساسية في تاريخ الدولة العثمانية ، منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، هو تزايد النفوذ الغربي وتدخله في شؤون الدولة العثمانية . وقد انعكس هذا في نظام الامتيازات الذي يعود إلى معاهدة ١٥٢١ التي عقدها السلطان سليمان القانوني مع قنصل البندقية وأصبحت نموذجاً لمعاملات مشابهة وقُمت فيما بعد مع كل الدول الأوروبية . وكان نظام امتيازات يسمح للدولة المعنية بتعيين قناصل في الممتلكات العثمانية وإعطائهم حق التشريع لرعاياهم في الأمور المدنية ، وهو الأمر الذي جعل كل جالية أجنبية (ملة أو طائفة) تدير أمورها بنفسها وتمتع بحماية تفصلها فيما يتعلق بالأمور الشخصية والمهنية .

وقد استفادت الدول الغربية من نظام الامتيازات الممنوح لها وحاولت أن توسع رقعة نفوذها . وبدأت كل دولة أوروبية تبحث عن موطنٍ قدم لها داخل الدولة العثمانية عن طريق فرض حمايتها على أقلية دينية أو إثنية حتى تكون لها محمية بشرية أو جيب سكاني . وبذا ، يمكننا أن نرى هذه العملية باعتبارها شكلاً من أشكال الاستعمار الاستيطاني أدى إلى تحويل أعضاء الأقليات إلى عنصر سكاني غريب . ففرضت روسيا حمايتها على الأرثوذكس وفرنسا على الكاثوليك ، وهذا ما أعطاهما حق التدخل في أمور الدولة العثمانية كما هيأ لهما شبكة اتصالات هائلة داخل الدولة . وقد اندفعت الدول تبحث عن «حمية» من الأقليات فاكتشفت إنجلترا وبروسيا (ألمانيا) أنهما لا تتمتعان بالميزة التي تتمتع بها فرنسا وروسيا إذ كان العنصر البروتستانتي في الدولة العثمانية صغيراً للغاية وغير ذي أهمية ، فحاولت إنجلترا في البداية فرض حمايتها على الدروز . ولكنها اكتشفت بعد قليل أن اليهود أقلية يمكن حمايتها ، فأسست قنصلياتها في القدس عام ١٨٢٨ . وحاولت روسيا أن تحمي يهود القدس ، في الوقت الذي كانت ترتب فيه المناهب ضد يهود روسيا . وهذا يتفق مع النمط البلغوري الغربي الذي يرى أن تتخلص أوروبا من يهودها عن طريق ترتيب وطن لهم خارجها ، أي ضربهم في

كمحاولة للتعويض . وقد سبق لليهود الغرب أن تصوروا أن مارتن لوثر من يهود المارانو إلى أن بدأت حملته عليهم .

وثمة رأي يذهب إلى أن دور اليهود كان في واقع الأمر صغيراً ، فكان ضباط تركيا الفتاة من المسلمين ومعظمهم من الأتراك أو البلقان وبعضهم من العرب ، كما كان بينهم أرمن ويونانيون وعرب مسيحيون ويهود . ولكن قيل إن دور اليهود قد ظهر واتضح لأنهم كانوا المتحدثين باسم الثورة في الخارج . كما أن اليهود كانوا يتمتعون بالحماية الأجنبية ، ولذا لم تكن بيوتهم تخضع للتفتيش ، وهو ما جعلها مكاناً ملائماً للضباط لأن يجتمعوا فيه . كما أن المحافل الماسونية كانت أيضاً متمتعة بالحماية الأجنبية ، ولذا فإنها كانت إحدى الجيوب التي استخدمها ضباط تركيا الفتاة . وكان من أهم المشتركين في الثورة البرت قاراصو وهو يهودي من سالونيك لعب دوراً بارزاً في الثورة ، وكذلك الاقتصادي جويد باشا وزير المالية في حكومات تركيا الفتاة ، ولكنه لم يكن يهودياً وإنما كان من الدومغ .

ومهما يكن حجم اشتراك اليهود في الثورة ، فإن من الواضح أنهم كانوا ممثلين داخل كل المعسكرات السياسية في الإمبراطورية العثمانية . وقام فريق من الأثرياء بتأييد اليمين أو الإنكشارية ، وفريق ثان أيد الوسط أو المؤسسة الحاكمة وكان يضم عامة الشعب والحاخامات ، وفريق ثالث من المثقفين اليهود والدومغ كان يؤيد الثورة . واليهود ، في هذا ، لا يختلفون عن بقية قطاعات الشعب في الإمبراطورية العثمانية .

ومع استمرار عملية التحديث في تركيا ، ألغيت أشكال الإدارة الذاتية كافة وظهرت بورجوازية تركية (طبقة مالية تجارية محلية حلّت محل الطبقات التي كانت تتكون من الأرمن واليونان والشوام واليهود والأوروبيين) . وهاجرت أعداد كبيرة من اليهود إلى المغرب فتناقص عددهم . وتبني من تبني من اليهود لغة وعادات الأتراك . ومعظم يهود تركيا المتبقين من طائفة الدومغ . وقد بلغ عدد يهود تركيا ثمانين ألفاً عام ١٩٤٧ وتناقص إلى ستين ألفاً عام ١٩٥٨ وإلى تسعة وثلاثين ألفاً عام ١٩٦٩ وإلى ١٩,٥٠٠ عام ١٩٩٢ . ويعود هذا التناقص إلى عدة عناصر من بينها الهجرة والاندماج وقلة الإنجاب .

#### العثمانيون

The Ottomans

انظر : «الدولة العثمانية» .

أعضاء الجماعات اليهودية حصلوا على جنسيات دول أوروبية حتى يكونوا تحت حمايتها ويتمتعوا بالامتيازات . ومن هنا كان العثمانيون لا يمانعون في أن يعيش اليهود في فلسطين إذا كانوا مواطنين عثمانيين . وحاولت الدولة العثمانية أن تمتع اليهود غير العثمانيين ، أي الذين تشملهم الحماية الغربية ، من حق الاستيطان فيها .

وحاولت الدولة العثمانية ، ابتداءً من حكم محمد الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ، إصلاح الإمبراطورية من الداخل . واستفاد اليهود من عمليات التحديث هذه ، وصدرت القوانين الإصلاحية المعروفة باسم التنظيمات (عام ١٨٣٩) ، والحظ الهمايوني (عام ١٨٥٦) ، التي ضمنت حقوق كل سكان الإمبراطورية من أعضاء الأقليات ، وضمنها اليهود ، واحترام الملكية وصيانة الحرية الشخصية . وأصبح لليهود الحق في ارتداء الزي التركي (الطربوش) ، كما أصبح من حق الحاخامات أن يرتدوا العمامة مثل الشيوخ ، فحقق هذا اعتناقاً سياسياً لليهود إن أردنا استخدام لغة العصر . وصدرت قوانين تحرم تهمة الدم وتجعلها تهمة خطيرة يحقق فيها حاكم المقاطعة بنفسه . وصدر فرمان خاص بإصلاح نظام الملة (مايو ١٨٦٤) . ويتلخص هذا فرمان في أن الجماعة اليهودية يرأسها الحاخام باشي الذي أسست وظيفته عام ١٨٣٥ ، وهو يمثل كل اليهود في الإمبراطورية أمام الباب العالي ، كما أنه مسئول عن جمع وتحديد الضرائب المفروضة على الجماعة اليهودية ويصادق على اختيار الرؤساء المحليين الذين يُتخبون من قبل ممثلي من الملة المحلية . وقد حدّد فرمان نظم المجالس الممثلة لليهود في مجلس عام يضم ثمانين عضواً ، كانوا يتخبون بدورهم سبع حاخامات في لجنة تُسمى «مجلس روحاني» وسبع يهود من خارج المؤسسة الدينية للأموال الدنيوية تُسمى «مجلس جسماني» ، وكان يرأس اليهود حاخام باشي الذي كان يتم اختياره بالانتخاب .

وقد حاول الصهيانية الاستفادة من أزمة الإمبراطورية العثمانية في آخر أيامها ، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في الحصول على موافقة السلطان العثماني على مشروعهم الاستيطاني ، واضطروا إلى الانتظار حتى تسقط فلسطين في يد الاستعمار البريطاني .

وثمة رأي يذهب إلى أن اليهود عامة ، ويهود الدومغ على وجه الخصوص ، لعبوا دوراً مهماً وخطيراً في الثورة ضد الخلافة العثمانية ، وأن الدوائر التي كان يتحرك فيها كمال أتاتورك كانت مليئة بالماسونيين والدومغ . وقد انتشرت شائعة بين اليهود أنفسهم أن أتاتورك نفسه كان من يهود الدومغ . ولكن مثل هذه الشائعات تنشر دائماً بين اليهود باعتبارهم أقلية مستضعفة تنغمس في الخيال

## المسألة الشرقية ورجل أوروبا المريض

The Eastern Question and the Sick Man of Europe

«المسألة الشرقية» ترجمة للعبارة الإنجليزية «إيسترن كويستشن Eastern Question» وهي مصطلح غربي إمبرالي يُجسّد وجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية (التي كان يشار إليها أيضاً باعتبارها «رجل أوروبا المريض»)، والمصطلح يحدد النطاق الدلالي ومحيط الرؤية بشكل مدهش :

١ - فالدولة العثمانية عبارة عن مسألة ومشكلة تستدعي الحل ، وهذا هو الإجماع الغربي .

٢ - والدولة العثمانية رجل مريض ، وهو ما يعني أن هناك تركة لا بد من تقسيمها وأنه يمكن توظيف هذا الرجل المريض العاجز لصالح من يملك زمام الأمور .

٣ - يخفي المصطلح المشروع الإمبريالي الغربي أو ما نسميه «رجل أوروبا النهم» الذي كان قد التهم معظم أنحاء العالم بعد أن انفتحت شهته في أعقاب اندلاع نيران الثورة الصناعية الرأسمالية (والإنتاجية الاستهلاكية) .

٤ - يخفي المصطلح أيضاً احتمالات الإصلاح من الداخل كما حدث مع محمد علي الذي كان بإمكانه إجراء عملية جراحية لرجل أوروبا المريض لشفائه أو لتقسيمه على ورثته الحقيقيين ، أي شعوب المنطقة .

٥ - لا يبين المصطلح أن رجل أوروبا النهم قد اكتشف أن مصيره (أو على الأقل امتلاء معدته التي لا قرار لها) يتوقف على مدى ضعف الرجل المريض ونهايته .

ويمكن تقسيم علاقة الرجل المريض بالرجل النهم إلى عدة مراحل ، وما يهمننا هو أواخر المرحلة الأولى حينما وصلت القوات العثمانية إلى فيينا عام ١٥٢٩ . ثم وقعت معركة ليانتو (١٥٧١) بين الأسطول العثماني والأسطول الإسباني (تسانده الدويلات البابوية والمدن الإيطالية) وتَطمَّع الأسطول العثماني تماماً . وقد شعرت الجماهير في أوروبا بمغزى ذلك النصر وأقيمت الاحتفالات في لندن التي لم تكن طرفاً في الموضوع . وفقدت القوات العثمانية زخمها وقوة اندفاعها للمرة الثانية والأخيرة عام ١٦٨٣ حينما حاصرت القوات العثمانية فيينا وتم صدّها ، ويرى البعض أن المسألة الشرقية بدأت منذ هذا التاريخ فبعد هذا التاريخ بدأ التراجع العثماني (والإسلامي) ، وبدأ التقدّم الغربي ومحاوله الاستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية وتقسيم العالم الإسلامي . وقد أخذ هذا أربعة أشكال :

١ - محاولات الإمبراطورية الروسية والنمساوية توسيع نفوذها وسلطانها على حساب الدولة العثمانية .

٢ - محاولات إنجلترا وألمانيا منع تفكك الإمبراطورية العثمانية حتى تبقى سداً أمام الأطماع الروسية التوسعية .

٣ - ظهور القوميات المستقلة في شبه جزيرة البلقان وحولها (العرب - اليونان - رومانيا - بلغاريا) .

٤ - محاولة استغلال الدولة العثمانية والنيل من سياستها عن طريق الامتيازات الأجنبية .

ومن منظور تطوّر الصهيونية ، ما يهمننا في المسألة الشرقية هو مصير فلسطين . ومن ثم ، فإن عام ١٨٤١ تاريخ حاسم تم فيه القضاء على محمد علي وفرض السلام الأوربي على الشرق !

مع ظهور محمد علي ، طُرحت الإمكانية الحقيقية لإعادة العافية إلى رجل أوروبا المريض أو لأن يقوم أصحاب المنطقه بحكمها (ملء الفراغ الناجم عن موت الرجل المريض) ، وهو الأمر الذي لم يكن ليقبله رجل أوروبا النهم . وقد تبلور المشروع الصهيوني غير اليهودي تماماً ، وخرج من دائرة الديباجات الدينية المشيخانية ودخل عالم المشاريع الاستعمارية إذ اكتشف الاستعماريون الإنجليز أن بالإمكان توظيف المسألة الشرقية في حل المسألة اليهودية وتوظيف المسألة اليهودية في حل المسألة الشرقية . فقد اكتشف الإنسان الغربي أن من الممكن نقل المادة البشرية اليهودية (التي كانت تشكل المسألة اليهودية) إلى فلسطين لتصبح عنصراً منتجاً هناك ، يشكل دولة وظيفية تابعة لإنجلترا تستوعب الفائض البشري وتساعد الدولة العثمانية على التماسك لتظل حاجزاً أمام الأطماع الروسية ، فالحل الصهيوني للمسألة اليهودية هو نفسه الحل الغربي الاستعماري للمسألة الشرقية . وقد دارت المشاريع الصهيونية الغربية (غير اليهودية) في هذا الإطار .

ومن هذا المنظور ، يمكن أن نرى أن التراجع المستمر للدولة العثمانية ، واضطرابها لتقدم التنازلات القانونية الكثيرة (الامتيازات الأجنبية) ، كان يعني اتساع الشغرة التي سمحت للفائض البشري اليهودي بالتسلل . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت ترحب بهجرة اليهود إليها منذ عملية طردهم من إسبانيا . ومع تزايد تدخّل الدول الأجنبية ، وتزايد الأطماع في فلسطين ، بدأت الدولة العثمانية تحاول أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مع استمرار فتح الأبواب خارجها) . بل فتحت باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين شريطة أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية ، أي شريطة أن يتحولوا من عنصر استيطاني (قتالي) غريب إلى عنصر وطني محلي (وكانت هذه هي السياسة الرسمية حتى عام ١٩١٤) . وكانت الدول الكبرى تتدخل لحمل الدولة العثمانية على السماح لليهود بالاستيطان في

### الامتيازات الأجنبية

#### Capitulations

«الامتيازات الأجنبية» اصطلاح يشير إلى المعاملة القضائية والقانونية الخاصة التي تقررت للأجانب الموجودين في أقاليم الإمبراطورية العثمانية بمقتضى مجموعة من المعاهدات ، كانت من أوائها المعاهدتان اللتان أبرمتا مع فرنسا (سنتي ١٥٣٥ و ١٧٤٠) بقصد تيسير التجارة بين رعايا الدولتين وحماية الأجانب من الخضوع لأحكام الشريعة الإسلامية (التي تستند إليها قوانين الدولة العثمانية). ولم تكن هذه المعاهدات تعاقدية تبادلية ، فقد كانت في واقع الأمر تعبيراً عن بداية ضمور الدولة العثمانية وتحوّلها بالتدرج إلى رجل أوروبا المريض . وقد نشأت نتيجة معاهدات الامتيازات الأجنبية عدة مراكز أو مستعمرات تجارية تركزت فيها التجارة الدولية في عدة مناطق من الدولة العثمانية . وقد أسس الفرنسيون معظم هذه المراكز في بداية الأمر ، ولكن لحق البريطانيون بهم في مرحلة لاحقة مع تزايد النفوذ البريطاني في الدولة العثمانية . وكانت أهم هذه المراكز التجارية (سالونيك والقسطنطينية وسميرنا وصيدا وعكا والإسكندرية وحلب والقاهرة والرملة) وهي مدن تضم جماعات يهودية قام أعضاؤها بدور التجار الوسطاء والكلاء بين البائعين والمشتريين ، وهو دور اضطلعت به أعضاء الأقليات الإثنية والدينية كافة وتوارثوه أباً عن جد ، وإن كان يُلاحظ بروز دور أعضاء الجماعة اليهودية . وكان الوكلاء التجاريون يحصلون على إذن خاص من الدولة العثمانية بممارسة هذه الوظيفة ، وكانوا يُعقّفون من الضرائب . ومن ثم استفاد كثير من التجار من هذه الامتيازات وحظوا بحماية الدول الأجنبية . وقد ساهم هذا ولا شك في عزلهم عن البيئة العربية الإسلامية المحيطة بهم حتى تحوّلوا إلى جماعة وظيفية تدين بالولاء لقوة تجارية وعسكرية خارجية .

وكان من أوائل التجار اليهود الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية التجار اليهود في حلب الذين كانوا يحملون اسم «الفرانكوس» (أي الفرنجة) ، وقد كانوا تجاراً يهوداً أوروبيين وفدوا إلى الشام في القرن السابع عشر واستقروا فيها ، وكانوا جزءاً من الشبكة التجارية اليهودية الدولية الممتدة من بولندا (يهود الأرناء) إلى وسط أوروبا (يهود البلاط) وغربها (كبار التجار السفارد) والتي غطت الدولة العثمانية وبعض أجزاء من أفريقيا وامتدت إلى العالم الجديد . وقد ظل الفرانكوس تحت حماية الفرنسيين إلى أن أصدر السلطان سليم الثالث خطابات تبيّن لهم وأعطاهم مكانة تجار أوروبيين تابعين له هو شخصياً . ويُلاحظ أنه ابتداءً من القرن التاسع عشر ، ومع تَمَاطُم النهم

لفلسطين وملكية الأراضي فيها ، فاضطرت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار عام ١٨٦٧ بمنح الأجانب حق ابتياع الممتلكات في فلسطين ، وهو القرار الذي استفادت منه الجمعيات التبشيرية المسيحية والجماعات الاستيطانية المسيحية مثل فرسان الهيكل ، كما استفاد منه المستوطنون الصهاينة في مراحل لاحقة . وحينما حاولت الدولة العثمانية منع اليهود من امتلاك العقارات في فلسطين (عام ١٨٨٤) ، أدّعت الدول العظمى أن هذا خرق لنظام الامتيازات . وكان قناصل الدول الغربية يستخدمون نفوذهم لتسهيل عملية استيطان اليهود . وحين صدرت قرارات تحرم هجرة اليهود (غير العثمانيين) عام ١٨٨٨ ثم عامي ١٨٩١ و ١٨٩٨ ، عبرت الدول الغربية عن استيائها وساعدت المهاجرين على التحايل على هذه القوانين .

ويمكن أيضاً أن نفهم كثيراً من تحركات الدول الغربية وموقفها من المشروع الصهيوني في ضوء علاقتها بالدولة العثمانية وتصورها لحل المشكلة اليهودية . وعلى سبيل المثال ، كانت الدولة الألمانية ترى ضرورة دعم الدولة العثمانية في مواجهة الأطماع التوسعية الروسية ، ولذا فإن حماس ألمانيا للمشروع الصهيوني كان فاتراً للغاية رغم التوجه الألماني القوي للمشروع الصهيوني ، ورغم أن الزعماء الصهاينة الأوائل كانوا من الناحية الثقافية ألماناً (وهو على كلٍّ لا يختلف عن فتورهم تجاه المشروع الصهيوني الألماني غير اليهودي : مشروع فرسان الهيكل) . ويمكن فهم سلوك إنجلترا في الإطار نفسه ، فرغم تحمّس إنجلترا للمشروع الصهيوني باعتباره آلية مهمة للتخلص من الفائض اليهودي ، إلا أن الإمبراطورية الإنجليزية قدمت شرق أفريقيا للصهاينة في البداية (لا فلسطين) لأن السياسة الإنجليزية الرسمية كانت معارضة لتقسيم الدولة العثمانية . وحينما اتُخذ قرار التقسيم أثناء الحرب ، اتخذ أيضاً القرار بتأييد تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين ومن ثم صدر وعد بلفور . وانتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية .

ولا تزال المسألة الشرقية مرتبطة تماماً في ذهن الإنسان الغربي بالمسألة اليهودية الصهيونية ، ولا يزال رجل الغرب النهم يستخدم الدولة الصهيونية الوظيفية لحل مشاكله الشرقية . وقد قامت الدولة الوظيفية في مرحلة تصاعد المد القومي العربي بضرب النظم العربية التقدمية . وفي مرحلة النظام العالمي الجديد وتصاعد المد الديني ، تطرح الدولة الوظيفية نفسها باعتبارها الآلية التي يمكن عن طريقها حل المسألة الشرقية (الإسلامية) الجديدة !

الاستعماري الغربي، بدأ قنصل الدول الأجنبية يضعون أعضاء الأقليات تحت حمايتهم لأسباب عديدة ليست بالضرورة تجارية. واتسع نطاق نظام الامتيازات بين يهود العالم العربي حتى أن غالبيتهم العظمى أصبحت تتمتع بها ومن ثم كانت موضوعة تحت حماية الدول الأجنبية، كما كان كثير من اليهود العرب يعملون قناصل للدول الغربية في بلادهم. وقد ورثت الدول العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية نظام الامتيازات.

ولعب نظام الامتيازات دوراً أساسياً في تسهيل عملية الاستيطان الصهيوني التسليفي. فيهود فلسطين كانوا أساساً من السفارد المندمجين في محيطهم الحضاري الإسلامي، وقد حاولت عناصر من الإشكناز الاستفادة من نظام الامتيازات فقاوم السفارد هذه المحاولة في ١٨٢٢ - ١٨٢٣، وكُلِّت جهود الإشكناز بالتجاح في عام ١٨٤٠ بعد فتح قنصلية إنجلترا في الفترة ١٨٣٨ - ١٨٣٩، وبعد إعادة فتح قنصلية فرنسا عام ١٨٤٣ (بعد أن أُغْلِقَتْ ١٣٠ عاماً). ثم بدأت عملية تغريب اليهود المحليين وتسلُّ اليهود الأجانب. وما ساعد على تقوية نفوذ الدول الغربية على يهود فلسطين، مؤسسة الخالوقه وهي الأموال التي كان يدفعها يهود العالم، الذين كانت غالبيتهم الساحقة في الغرب، لمساعدة يهود فلسطين. وكان المستوطنون الصهاينة الإشكناز يتسللون إلى داخل فلسطين بأن يحصلوا على تأشيرة دخول كمواطنين أجانب يتمتعون بحقوق خاصة، ثم يستوطنون في فلسطين ولا يغادرونها. وقد سهل لهم القناصل الأجانب هذه العملية.

ويمكن القول بأن نظام الامتيازات الأجنبية هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانية والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفية تابعة لدول أجنبية وتدين لها بالولاء وتتمتع بحمايتها. وحاولت الدولة العثمانية التخلص من هذا النظام أو تقليل أضراره دون جدوى إذ أن نظام الامتيازات كان جزءاً لا يتجزأ من الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق، وساعد على إحكام قبضة الإمبريالية على دول العالم العربي وعلى تحويل بينها السياسية والاقتصادية إلى بنية تابعة. وقد ألغى نظام الامتيازات في مصر بمقتضى معاهدة مونتريه عام ١٩٣٧ التي نظمت فترة انتقالية (بقيت خلالها المحاكم المختلطة) حتى عام ١٩٤٩.

### حماية اليهود (والأقليات الأخرى)

Protecting the Jews (and other Minorities)

من أجمع الأساليب التي تتبعها الدول الاستعمارية الكبرى في

تنفيذ مخططاتها ما يُسمى «حماية الأقليات». إذ تقوم إحدى الدول الكبرى التي لها أطماع في دولة ما بإعلان مسئوليتها عن أقلية تعيش داخل حدود الدولة المستهدفة فتضعها تحت «حمايتها»، أي تتدخل في شئون الدولة التي تعيش الأقلية في كنفها بحجة الدفاع عن مصالح هذه الأقلية. وقد تكون هذه الأقلية دينية (الكاثوليك في لبنان - الأقباط في مصر)، أو إثنية (الدروز في لبنان وسوريا) أو عرقية دينية (الأرمن في الدولة العثمانية). وتهدف فكرة الحماية هذه إلى إقناع أعضاء أقلية ما بأن مصالحها تختلف عن مصالح محيطها وأن أفضل وسيلة لحماية هذه المصالح هي التحالف مع الغرب الصديق، أي أن الغرب (عن طريق حماية الأقلية) يحوِّنها إلى جماعة وظيفية تعمل لصالحه. ومفهوم حماية اليهود مفهوم راسخ في الحضارة الغربية، فاليهود باعتبارهم جماعة وظيفية كانوا قريبين من النخبة الحاكمة التي كانت تمنحهم الموائيق والمزايا نظير أن يقوموا هم على خدمتها وتحقيق المكاسب لها. وقد بُعث المفهوم من جديد مع ظهور الصهيونية، فالصهيونية إعادة إنتاج لعلاقة الجماعة الوظيفية بالنخبة الحاكمة وتأخذ شكل علاقة الدولة الوظيفية بالرأعي الإمبريالي.

وحماية اليهود إحدى الآليات التي تم من خلالها تحويل يهود العالم العربي (من يهود محليين ومهاجرين) إلى مادة استيطانية، وهي عملية لم تكن مقصورة على اليهود ولا على فلسطين؛ وإنما كانت تضم أعضاء الأقليات الدينية الأخرى وكل الوطن العربي. ولغهم صراع الدول الغربية حول حماية الأقليات، لا بد أن ندرس البُعد الديني في العملية الاستعمارية الغربية. فالإمبريالية الغربية، شأنها شأن كل الأنساق العلمانية، وظفت النصوص الدينية كديباجات لتجنيد جماهيرها ولتجيش الجيوش. وبهذا المعنى، فإننا نتحدث عن البُعد الديني للاستعمار الغربي كتوظيف علماني غير ديني للدين.

وقد بدأ المشروع الاستعماري الغربي بالاستعمار الكاثوليكي، البرتغالي والإسباني، الذي حقَّق الاندفاع الأولى التي تم من خلالها استعمار أمريكا الجنوبية. ولكن، بعد هذه الاندفاع، توقف التشكيل الاستعماري الكاثوليكي إذ أن إسبانيا والبرتغال دخل عليهما الجمود وكانت إيطاليا مجزأة، ولم تكن هناك قوة استعمارية كاثوليكية سوى فرنسا. ولكن الثورة الفرنسية وهزيمة نابليون أدت إلى إبطاء المشروع الاستعماري الفرنسي، ولم ينشط مرة أخرى إلا في أفريقيا في ستينيات القرن الماضي، ولكن ظهور ألمانيا مجهز عليه في السبعينيات وهو ما جعلها ترضى بدور التابع لإنجلترا إلى حدٍّ كبير.

عملية التحايل على القانون حتى يتمكنهم شراء الأراضي الزراعية . وقد ظهر الصراع بين أشكال الاستعمار المختلفة في عدة حوادث من أهمها حادثة دمشق ، وذلك حين وقف القنصل الفرنسي بشكل واضح إلى جانب الكاثوليك السوريين الذين وجهوا تهمة الدم لبعض يهود دمشق ، وكان موقف الحكومة الفرنسية من الأمر كله يسم بالفنور الشديد وعدم الاكتراث بأعضاء الجماعة اليهودية ، على عكس موقف الحكومة الإنجليزية التي تحركت وبشكل حاسم لنصرتهم ؛ أي نصرة أعضاء الأقلية التي تقوم بحمايتها . وشهد منتصف القرن التاسع عشر حركة لحماية الأقليات فأنشئت عام ١٨٤٢ مطرانية القدس البروسية الإنجليزية (ألغيت الاتفاقية عام ١٨٨٦ بعد أن قوي المشروع الاستعماري الألماني) وأسست في العام نفسه قنصلية ألمانية كانت تحاول هي الأخرى حماية اليهود . وأسست عام ١٨٥٠ جمعية إغاثة اليهود الباسين ، وفي عام ١٨٥٢ تم تأسيس جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي على الأرض المقدسة . وشهد عام ١٨٦٥ تأسيس صندوق استكشاف فلسطين .

وقد استمرت حماية الأقليات حتى بداية الحرب العالمية الأولى . ففي عام ١٩١٤ تدخلت وزارة الحارجية الألمانية لحماية اليهود الروس في فلسطين من الطرد ، وقد توجت حماية اليهود بصدور وعد بلفور ثم قرار الانتداب وإنشاء الدولة واتفاقية التعاون الاستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة .

### فارس بعد انتشار الإسلام

Persia after the Spread of Islam

بعد الفتح الإسلامي للمنطقة ودخول الفرس إلى الإسلام ، تم دمج أعضاء الجماعة اليهودية في فارس في الإطار الإسلامي الأكبر ، وأصبح أعضاء الجماعة تابعين لرئيس اليهود في بغداد الذي كان يُسمى «رأس الجالوت (أمير يهود النقي)» ، وكانوا يعتمدون على الفتاوى التي تصدرها الحلقة التلمودية في العراق . وقد ازدهرت حياة اليهود الثقافية وتأثروا بالمحيط الإسلامي وظهر المذهب القرآني تعبيراً عن هذا التفاعل . وتمتع يهود فارس بحرية الحركة والانتقال التي تمتع بها أهل الذمة آنذاك نتيجة توحيد المنطقة تحت راية الإسلام ولإستباب الأمن والأمان .

ولم يكن وضع اليهود الاقتصادي مختلفاً عن وضع بقية أهل الذمة ، فكان منهم النساجون والصباغين وصانعو الذهب والفضة ، وكان منهم التجار وتجار الحمر . وظهرت طبقة من التجار اليهود الأثرياء في أصفهان وشيراز والأهواز . وتزايدت أهمية بعض أثرياء

ومع تراجع المشروع الاستعماري الكاثوليكي ، ظهر المشروع الاستعماري البروتستانتي وانتقل مركز الثقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي . فظهرت هولندا كقوة استعمارية وتبعته إنجلترا التي تزايدت قوتها وأصبح لها مركز الصدارة في العالم . وقد زاحمتها ألمانيا بعض الوقت في نهاية القرن التاسع عشر . ولكن ظهور الولايات المتحدة باعتبارها القوة الرأسمالية العظمى رجح كفة التشكيل الأنجلو ساكسوني داخل التشكيل الاستعماري البروتستانتي . وفي القرن الثامن عشر ظهرت روسيا باعتبارها القوة الاستعمارية الأرثوذكسية . ويلاحظ أن التقسيم الثلاثي الديني : كاثوليك - بروتستانت - أرثوذكس ، يقابله تقسيم ثلاثي عرقي : لاتين - أنجلو ساكسون - سلاف ، وهذا يدل على أن الدين إن هو إلا ديباجة وقشرة رفيقة تغطي المصالح الاقتصادية والرؤى العرقية . وقد عبّر الصراع بين القوى الاستعمارية المختلفة بدياجتها الدينية عن نفسه ، فكانت كل دولة تحاول حماية أقلية دينية ما وتحفظ لها حقوقها ، وهذا يعني في واقع الأمر وضعها داخل مجال نفوذ الدولة الحامية وتحويلها إلى مادة بشرية تابعة لها . فكانت فرنسا تدعم الكاثوليك وتحميهم ، وقامت روسيا بدعم الأرثوذكس . وقد كانوا يظنون أنه ، مع سقوط الدولة العثمانية ، سيقوم الرعايا الكاثوليك والأرثوذكس بالمطالبة فلسطين لدولهم الراعية (ولذا حرص الصهاينة على إقناع الإيطاليين والفرنسيين بأن النشاط الصهيوني لن يعرض مصالحهم للخطر) .

لكن أنشط القوى الاستعمارية كانت هي القوة البروتستانتية (البروسية والإنجليزية) . وحيث لم يكن يوجد عرب بروتستانت ، كان لا بد من البحث عن أقلية « لحمايتها » ، فقام نشاط تبشيري بروتستانتي قوي بين المسيحيين العرب (الأرثوذكس والكاثوليك) ، وهذه حقيقة ذات مغزى عميق : مجال النشاط التبشيري الغربي الأساسي ليس للمسلمين وإنما للمسيحيين العرب ، كما أن أعضاء الجماعات اليهودية أصبحوا مرشحين لأن يلعبوا دور الأقلية القابلة للحماية والرعاية .

وقد نشأ تناقض عميق بين الدول الاستعمارية لحماية الأقلية التي تتبعها . ومن ثم زاد عدد اليهود الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية في فلسطين مع منتصف الخمسينيات إلى خمسة آلاف ، أي أن نصف يهود فلسطين أصبحوا من يهود الحماية (مقابل يهود الرابرة العثمانيين) . وقد عملت القنصليات الأجنبية على الحيلولة دون قيام السلطات العثمانية بتطبيق القوانين التي كانت تهدف للحد من تدفق اليهود على فلسطين . كما قامت هذه القنصليات بمساعدتهم في

منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وظهور الإمبريالية الغربية وما صاحب ذلك من تزايد نفوذ الدول الغربية في بلاد العالم الإسلامي، بدأت هذه الدول تتدخل في شئون الأقليات الدينية بحجة حمايتها والدفاع عن هويتها، وذلك لاستخدامها كراس حربية في مشروعها الاستعماري. وكان يهود العالم الإسلامي من أوائل العناصر التي توجّه إليها الغرب، فأخذت حكومات الغرب تتدخل لصالح يهود إيران كما راحت القيادات اليهودية في الغرب التي تدور في إطار المصالح الغربية، تقابل المستولين الإيرانيين الذين يزورون العواصم الأوربية وتطلب إليهم تحسين أحوال اليهود. ولعل من أكثر الأمثلة إثارة ما حدث عام ١٨٧٣ أثناء زيارة الشاه نصر الدين لأوروبا، إذ قابله وفد يهودي في برلين في ٤ مايو، وآخر في أمستردام في ١٠ يونيو، وثالث في بروكسل في ١٧ يونيو، ورابع في لندن (مندوبو الرابطة الإنجليزية اليهودية) في ٢٤ يونيو، وخامس في باريس (الأليانس) في ١٢ يولي، وسادس في فيينا في ١٦ أغسطس، وسابع في القسطنطينية في ٢٠ أغسطس. وحينما كان الشاه في لندن، اجتمع على افتراء (في قصر بكنجهام) مع السياسي الإنجليزي المنتصر دزرايلي، وهو من أصل يهودي، وكذلك مع سير موسى مونتيفوري زعيم يهود إنجلترا آنذاك. كما اجتمع الشاه في باريس مع أدولف كريبية الوزير الفرنسي اليهودي، ومع البارون إدmond دي روتشيلد أشهر يهود عصره وأكثرهم ثراءً.

وثمة واقعة مهمة حدثت أثناء مقابلة الشاه لروتشيلد تعين التعليق عليها، إذ اقترح الشاه على المليونير اليهودي أن يشتري قطعة أرض يجمع فيها كل اليهود المشتتين ويؤسس مملكة يهودية يصبح روتشيلد ملكاً لها. فضحك المليونير اليهودي ولم يجب. والواقع أن اقتراح الشاه اقتراح صهيوني يسبق ظهور الحركة الصهيونية، وربما كان تعبيراً عن مخطط إستراتيجي كامن تكشف فيما بعد.

وبدأ التدخل الأمريكي لصالح يهود إيران عام ١٨٩٧ حين قام القنصل العام الأمريكي في طهران بمحاولة الظهور بمظهر حاميههم والمدافع عن حقوقهم. ومع أوائل القرن الحالي، تظهر في الوثائق الدبلوماسية الأمريكية أول إشارة لأعضاء الجماعة اليهودية في إيران. وفي عام ١٩١٨، قامت وزارة الخارجية الأمريكية بتحويل بعض المعونات الأمريكية اليهودية إلى يهود فارس، ثم استمر يوسف شاؤول كوفلد، وهو حاخام يهودي ويمثل للولايات المتحدة في طهران، في التدخل لصالح يهود إيران (عام ١٩٢٤). وواكب هذا حركة من جانب جماعة الأليانس تمثلت في فتح مدارس يهودية حيث فُتحت مدرسة عام ١٨٩٨ في طهران وأخرى في أصفهان

اليهود (الصيارفة) ابتداءً من القرن العاشر الميلادي، فكان منهم الجهادية أي صيارفة البلاط الذين كانوا يُقرضون الوزراء والحلفاء العباسيين والسلاجقة من بعدهم. وظهر في القرن الثاني عشر الميلادي دأود الراي الماشيخ الدجال.

وحينما غزا المغول الدولة الإسلامية، تعاون معهم أعضاء الجماعة اليهودية، وبرز نجم سعد الدولة الذي أصبح وزير مالية الإمبراطور المغولي وظل يشغل هذا المنصب حتى اغتياله عام ١٢٩١. وقد عُيّن بعده وشيد الدولة الذي أعدم عام ١٣١٨. ثم ظهرت الأسرة الصفوية التي فصلت اليهود عن المحيط الحضاري السني، فدخلوا المحيط الحضاري الشيعي.

#### فارس (إيران) منذ حكم الأسرة الصفوية حتى الوقت الحاضر

Persia (Iran) from the Safavid Dynasty to the Present

حكمت الأسرة الصفوية، وهي أسرة فارسية إسلامية، بلاد فارس في الفترة ١٥٠٢-١٧٣٦، وجعلت المذهب الشيعي دين الدولة، كما جعلت طبقة رجال الدين الشيعة (الملائي) عمودها الفقري. واتسم حكمها باضهاد الأقليات، فطُلب على اليهود المفهوم الشيعي الخاص بنجاسة أهل الذمّة. وانقطعت العلاقة تماماً بين أعضاء الجماعة اليهودية ورأس الجالوت (المنفى) في بغداد، وأصبحت لهم قيادتهم المحلية.

وتحت حكم أسرة القاجار (١٧٩٥-١٩٢٥)، زادت عملية قمع اليهود، كما كان الحال في مشهد عام ١٨٣٩. وقد فرض الإسلام قسراً على بعض أعضاء الجماعة اليهودية، فتحولوا إلى يهود متخفيين، أي أبطنوا اليهودية وأظهروا الإسلام، وأطلق عليهم مصطلح «جديد الإسلام». وأصبح من حق اليهودي الذي يعتنق الإسلام أن يرث ممتلكات كل أعضاء أسرته الذين ظلوا على دينهم. وتدنّى وضع اليهود الاقتصادي وازداد إقبالهم على صناعة الخمر، الأمر الذي أدّى إلى زيادة التوترات بينهم وبين الأغلبية المسلمة. وهذا على عكس وضع اليهود في الدولة العثمانية حيث كان أخذاً في التحسن، الأمر الذي نتج عنه تزايد اندماجهم في المجتمع، حتى أن يهود أوروبا كانوا يفرون من بلادهم طلباً للسلام والأمن والعدالة في الدولة العثمانية. وفي هذه الفترة، اشتهر اليهود في فارس بأنهم يحملون بأمر التسليّة والترفيه في بلاط النبلاء، فكان منهم الراقصون ولاعبو السيرك والمغنون.

وحتى هذا التاريخ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جزءاً من التشكيل الحضاري الشرقي في فارس. ولكن، مع

بسبب انفصالهم عن المراكز الرئيسية لليهودية في العالم ، وبسبب عدم وجود حاخامات مدربين للتدريب الديني اللازم . فقد كانوا لا يعرفون تمامًا الصلاة (تيفلين) ، كما كانوا يتبعون عادات دينية لا تعرفها اليهودية الحاخامية مثل الحج إلى قبر إسترير وموردخاي (في حمدان) وقبر دانيال (في سوسة) وغيرهم من شخصيات العهد القديم التي يزعم يهود فارس أنهم مدفونون فيها .

ويُلاحظ كذلك أن يهود فارس يتحدثون بعدة رطانات هي عبارة عن اللغة أو اللهجة السائدة في المنطقة التي عاشوا فيها ، في مرحلة تاريخية سابقة ، مضافاً إليها بضع كلمات عبرية . وهذه الرطانات تفيد علماء اللغة إذ تحتفظ بصيغ لغوية مندثرة . وإلى جانب الجماعة اليهودية الفارسية ، وُجدت جماعة يهودية كردية في المنطقة التي يعيش فيها الأكراد داخل حدود إيران . ولكن لم تقم مؤسسات لتشرى على شئون الجماعة بسبب الخلافات الدائمة بين أعضائها .

وقد بلغ عدد يهود إيران عام ١٩٤٨ نحو ٩٥ ألفاً . ومع هجرة يهود البلاد العربية إلى إسرائيل ، أصبحت الجماعة اليهودية في إيران أكبر جماعة يهودية في الشرق ، وبلغ عدد أعضائها ثمانين ألفاً عام ١٩٦٨ من مجموع السكان البالغ عددهم آنذاك خمسة وعشرين مليوناً . وبعد نشوب الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩ ، تناقص عددهم إلى ثلاثين ألفاً في حين زاد عدد سكان إيران إلى ما فوق الأربعين مليوناً ، وبلغ عددهم ستة عشر ألفاً عام ١٩٩٢ . ويتركز يهود إيران في المدن ، وخصوصاً في طهران . ففي عام ١٩٤٨ ، كان ٦٠٪ منهم يعيشون في طهران وأصفهان وشيراز ، ثم زادت النسبة إلى ٧٢٪ عام ١٩٦٨ . وقد هاجرت أعداد كبيرة من يهود إيران إلى إسرائيل حاملين معهم ممتلكاتهم من السجاد الإيراني الذي تعتبره إيران ضمن ثروتها القومية . ولكن يُلاحظ أن أعداداً كبيرة منهم تترج من إسرائيل وتستقر في الولايات المتحدة ، وخصوصاً في كاليفورنيا .

عام ١٩٠١ وثلاثة في شيراز عام ١٩٠٣ . وبعد الحرب العالمية الثانية ، قامت الولايات المتحدة بالمساعدة في تمويل التعليم اليهودي في إيران . وتغيّر وضع اليهود تحت حكم أسرة بهلوي (١٩٢٥-١٩٧٩) ، ومع ظهور الاتجاهات نحو إدخال القيم الغربية والعلمانية ، قامت النخبة الحاكمة الإيرانية بتأكيد أهمية القيم الإيرانية المحلية السائدة في فارس قبل دخول الإسلام لتأكيد العنصر القومي . ومن هنا تغيير اسم الدولة إلى «إيران» ، تماماً كما فعل الكماليون في تركيا حينما بعثوا القومية الطورانية المرتبطة بالتاريخ التركي قبل الإسلام . وقد واكب ذلك كله تزايد نفوذ أعضاء الجماعة اليهودية في إيران كما يتضح في انتخاب أول يهودي للبرلمان .

ومع هذا ، أدى تزايد معدلات العلمنة وتعميق النفوذ الغربي إلى ظهور خطرين أساسيين : أولهما التبشير وثانيهما البهائية ، فيُلاحظ أن البعثات التبشيرية المسيحية التي نشطت آنذاك في العالم الإسلامي زادت من نشاطها بين اليهود فقامت ببناء المدارس لأبناء أعضاء الجماعة ووفرت لهم الكثير من النشاطات الاجتماعية حتى تيسر تنصيرهم إلى حدٍّ ما وتحقّق شيء من النجاح في هذا المجال . ولكن التحدي الأكبر كان البهائية التي رحب أعضاء الجماعة اليهودية بظهورها باعتبارها سبيل الخلاص لهم . وقد كرس أحد أتباع بهاء الله ، ميرزا أبو الفضل ، كل جهوده للتبشير بالبهائية بين اليهود ، وقام بتفسير بعض آيات العهد القديم ، وخصوصاً سفر أشعيا (الإصحاح التاسع) ودانيال (الإصحاح السابع) ، للبرهنة على صدق العقيدة البهائية . وترجمت بعض المقطوعات المختارة من النصوص البهائية إلى العبرية ، الأمر الذي ساهم في ذبوع الأفكار البهائية بين اليهود . وقد نجحت البهائية في اجتذاب أعداد كبيرة من اليهود إلى صفوفها . وربما يكون التركيب الاجتماعي للبهائين ، الذي كان مقارباً إلى حدٍّ ما للتركيب الاجتماعي لليهود ، قد ساهم في هذه العملية .

ويُلاحظ أن معرفة يهود إيران باليهودية كانت ضعيفة إلى حدٍّ ما





٤

العالم العربي منذ القرن التاسع عشر

الجماعات اليهودية في العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر : تعداد - الجماعات اليهودية في العالم العربي : غط الهجرة - الجماعات اليهودية في العالم العربي : الانقسامات الدينية والعرقية - الجماعات اليهودية في العالم العربي : تحولها إلى عنصر استيطاني - عائلة قورقوس - عائلة قدوري - الجماعات اليهودية في العالم العربي : الانقسام الطبقي والتمييز الوظيفي

الجماعات اليهودية في العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع

عشر : تعداد

The Jewish Communities in the Arab World since the Mid-Nineteenth Century : Numbers

يُلاحظ أنه ، مع بداية العصور الوسطى في الغرب ، كان يهود العالم الإسلامي يشكلون أكثر من نصف تعداد يهود العالم . إلا أن عددهم أخذ في التناقص حتى أصبحوا يشكلون أقلية لا تتجاوز ١٠٪ . وهذا يرجع إلى الأسباب التالية :

١ - تحول كثير من اليهود عن اليهودية الخاصة إلى اليهودية القرآنية ، وهي شكل من أشكال اليهودية التوحيدية تأثر بالإسلام . ويبدو أن أعداداً كبيرة من القرآنيين اعتنقوا الإسلام ، وهو ما أثر في وجود اليهود العددي . ولا تُوجد دراسات إحصائية عن هذا الأمر ، ولكن من الصعب تفسير اختفاء اليهود القرآنيين وتناقص عددهم دون اعتبار اعتناق الإسلام كسبب أساسي .

٢ - تراجع العالم الإسلامي ككل ، وهو ما أدى إلى نزوح كثير من اليهود عنه .

٣ - يُعدُّ الريف مصدرأ دائماً للزيادة السكانية . ولما كان يهود البلاد الإسلامية من سكان المدن ، فلم تكن هناك مصادر لزيادة أعدادهم ، ولهذا أخذت أعدادهم في التناقص .

وفيما يلي عدد يهود العالم العربي قبل أن تحدث التغييرات العددية الكبرى بعد عام ١٩٥٠ :

البلد	عدد السكان اليهود عام ١٩٥٠
مصر	٧٥,٠٠٠
العراق	١٢٠,٠٠٠ (١١٠ آلاف حسب باتاي)
لبنان	٦٠,٧٠٠ (٦٠ آلاف حسب باتاي)
سوريا	٦٠,٠٠٠ (١٣ ألفاً حسب باتاي)
البحرين	٤٠٠

البلد	عدد السكان اليهود عام ١٩٥٠
حضر موت	٢,٠٠٠
اليمن	٨,٠٠٠ (غير مؤكد ، ٥٠ ألفاً حسب باتاي)
عدن	١,٢٠٠
ليبيا	١٤,٠٠٠ (٣٨ ألفاً حسب باتاي)
تونس	١٠٠,٠٠٠
الجزائر	١٢٠,٠٠٠ (١٣٠ ألفاً حسب باتاي)
المغرب	٢٢٥,٠٠٠ (العدد الكلي حسب باتاي ٢٨٠ ألفاً)
مراكش	١٤,٧٠٠ (عام ١٩٤٠)
الإسبانية	٧,٠٠٠
طنجة	

ويُلاحظ أن نسبة السكان اليهود إلى التعداد العام في كل بلد كانت ضئيلة جداً . أما في عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٩ ، فقد كانت الأعداد كالتالي :

البلد	عام ١٩٥٨	عام ١٩٦٩
مصر	٤٠,٠٠٠	١,٠٠٠
العراق	٦,٠٠٠	٢,٥٠٠
لبنان	٦,٠٠٠	٣,٠٠٠
سوريا	٥,٠٠٠	٤,٠٠٠
اليمن	٣,٥٠٠	-
ليبيا	٣,٧٥٠	١٠٠
تونس	٨٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠
الجزائر	١٤٠,٠٠٠	١,٥٠٠
المغرب	٢٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠

وبناءً على هذا الإحصاء ، كان عدد الجماعات اليهودية في العالم العربي عام ١٩٥٠ يتراوح بين ٦٥٠ ألف و ٨٠٠ ألف . وهنا

وقد أخذت الجماعات اليهودية في العالم العربي في الاختفاء بعد عام ١٩٥٠ حتى لم يبق سوى بضع مئات في بلد مثل مصر والعراق وعدة آلاف في المغرب ، وذلك للأسباب التالية :

١ - ظهور الاقتصاد الوطني الذي ضيق الخناق على العناصر الأجنبية ، وكانت نسبة كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية لا تحمل جنسية عربية ، وخصوصاً أن الاقتصاد الوطني الجديد تلعب الدولة فيه دوراً كبيراً .

٢ - ظهور طبقة تجارية ومالية وطنية بدأت تلعب دوراً اقتصادياً نشيطاً وشكلت منافسة قوية وخطيرة للعناصر التي كانت مهيمنة من قبل ، كما أن ظهور الدول القومية لعب دوراً مماثلاً .

٣ - ظهور الدولة الصهيونية بما خلقت من مشاكل خاصة بولاة يهود البلاد العربية ، وهجرة أعداد كبيرة منهم إلى العالم الغربي وإسرائيل .

ويصل عدد يهود البلاد العربية حسب إحصاء عام ١٩٨٦ إلى ٢٦,٩٠٠ ، أما عام ١٩٩٢ فيصل عددهم إلى ١٣,٢٠٠ على النحو التالي :

البلد	عام ١٩٨٦	عام ١٩٩٢
المغرب	١٧,٠٠٠	٧,٥٠٠
سوريا	٤,٠٠٠	١,٢٠٠
تونس	٣,٧٠٠	٢,٠٠٠
اليمن	١,٢٠٠	١,٦٠٠
الجزائر	٣٠٠	٣٠٠
لبنان	٢٥٠	٢٠٠
مصر	٢٥٠	٢٠٠
العراق	٢٠٠	٢٠٠
المجموع	٢٦,٩٠٠	١٣,٢٠٠

وكما نرى ، بلغ العدد الإجمالي عام ١٩٨٦ نحو ٢٧ ألفاً إن أضفنا بضعة أفراد في ليبيا والسودان وغيرهما من البلاد . وقد انخفض هذا العدد إلى النصف تقريباً في غضون ستة أعوام . وكل هذا يعني أنه لن يوجد في القرن القادم يهود في أي من أنحاء العالم العربي . لكن هذه ليست ظاهرة مقصورة عليه حيث يتوقع الدارسون لأسباب مختلفة أن يخفي أعضاء الجماعات اليهودية من أوروبا الشرقية وإلخمترا وأمريكا اللاتينية وأن تختفي البقية الباقية في الهند ، وهي ظاهرة يُطلق عليها مُصطلح «موت الشعب اليهودي» .

ينبغي أن نتوقف قليلاً عند المُصطلح الذي نستخدمه : هل ينطبق مُصطلح «يهود البلاد العربية» على اليهود العرب وغير العرب المقيمين في البلاد العربية حتى لو حملوا جنسيات أجنبية ، أم يجب أن نقصر استخدام المُصطلح على اليهود حاملي الجنسيات العربية المختلفة ، والذين ينتمون إلى التشكيل الحضاري العربي الإسلامي ، أي إلى اليهود المستعربة ؟ الواقع أننا حين نتحدث عن مسيحيي البلاد العربية نتحدث عن عرب يؤمنون بالمسيحية ، ولا يراد لنا على بال أن نضع ضمن هذه المجموعة أعضاء الإرساليات المسيحية الغربية لمجرد أنهم يقيمون في البلاد العربية . ومن المستحسن أن نُميِّز بين «يهود البلاد العربية» من جهة و«اليهود العرب» أو «العرب اليهود» من جهة أخرى . والعدد ٨٠٠ ألف يشير إلى يهود البلاد العربية ، أما العرب اليهود فعددهم أقل من ذلك بكثير ، إذ يجب أن نستبعد من هذا الرقم الأغلبية الساحقة من يهود الجزائر ومصر الذين كانوا يحملون جنسيات أجنبية ، وإذا طرحنا عددهم يكون الباقي هو ٦٠٠ ألف تقريباً . أما بالنسبة إلى الباقين ، فيمكننا أن نستبعد من هذا العدد نسبة ٢٥ - ٣٠٪ من عدد أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم أجانب ، فنسبة اليهود الأجانب إلى اليهود المستعربة كانت كبيرة جداً في طنجة والمغرب الإسبانية وتونس ، بل كانت تقترب من نسبتهم في الجزائر ومصر ، ولكنها كانت أقل في المغرب . وهذه البلاد تضم ٣٤٦,٥٠٠ ، أي أكثر من ٥٠٪ من العدد الباقي . وتقل نسبة اليهود الأجانب بقدر أكبر في العراق ، حيث كان يوجد ١٢٠ ألفاً ، وتكاد تنعدم في اليمن وعدن وهي بلاد تضم بضعة آلاف وحسب .

ويلاحظ تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن بسبب اشتغالهم بالهن وتركزهم في قطاعات اقتصادية بعينها . فيهود العراق الذين بلغ عددهم ١١٨,٠٠٠ عام ١٩٤٧ تركُّز منهم في بغداد ٧٧,٥٤٢ . كما كانت توجد نسبة مرتفعة منهم في البصرة والموصل ، أي أن معظم يهود العراق كانوا من سكان المدن ، مع العلم بأن هذا يستبعد يهود كردستان البالغ عددهم ١٨ ألفاً . والوضع نفسه ينطبق على مصر ، ففي إحصاء ١٩٣٧ بلغ عدد يهود مصر ٦٣,٥٥٠ كانت تعيش أغلبيتهم (٥٩ ألفاً) في القاهرة والإسكندرية ، منهم ٣٤,١٠٣ في الأولى و٢٤,٢٩٠ في الثانية . وبقيتهم موزعة على مدن صغيرة مثل المنصورة ووطناء ودمهور . وفي عام ١٩٤٧ ، كان ٩٦٪ من يهود مصر في القاهرة والإسكندرية . أما في المغرب ، فيعيش ٨٠٪ من اليهود في مراكز حضرية مثل الدار البيضاء والباقون موزعون على مدن أخرى مثل مراكش وفاس .

هجرة إلى بلد استيطاني لتحقيق قسط أكبر من الحراك الاجتماعي ، هجرة من بلاد أقل تقدماً إلى بلد أكثر تقدماً ، ومن بلاد بدأ يظهر فيها اقتصاد قومي أو اشتراكي إلى بلاد فيها مجال أكبر للمشروع الحر .

وقد هاجر يهود الجزائر كلهم إلى فرنسا ، كما هاجر إليها كثير من يهود تونس ومعظم يهود مصر ، وكذلك الجزء الأكبر من يهود المغرب . وبين باتاني أن عدد يهود المغرب كان عام ١٩٤٧ نحو ٢٨٠ ألفاً . فإذا أخذنا في الاعتبار الزيادة الطبيعية ونسبتها ٨,١٪ ، يمكن القول بأن بين الـ ٢٥٠ ألف يهودي مغربي من هاجروا خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٦٩ نحو ١١٧ ألفاً ذهبوا إلى إسرائيل .

ويرى البعض أن أكبر دليل على انتماء يهود البلاد العربية لبلادهم هو الدور الصغير الذي لعبوه في الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين . والواقع أننا لا نجد بين العدد ٤٦٠ ألفاً الذين دخلوا فلسطين بين عامي ١٩١٩ و١٩٤٨ سوى ٤٢ ألفاً قدموا من البلاد العربية والإسلامية ، أي ٩٪ من الهجرة العامة والتي شكّل الإشتناز النسبة الكبرى منها . ولكننا إذا أخذنا بالعدد الذي يقدر يهود العالم بنحو ١٦-١٧ مليوناً ويهود البلاد العربية بنحو ٨٠٠ ألف ، فإننا نجد أنهم كانوا يشكلون ٦,٥٪ من مجموع يهود العالم ، وبالتالي تكون نسبة ٩٪ من حاصل الهجرة اليهودية نسبة عالية للغاية مقارنة بالهجرة من أوروبا . ولكن الأرقام هنا مضللة لأنها تتعامل ليس مع

الجماعات اليهودية في العالم العربي ، نمط الهجرة  
The Jewish Communities in the Arab World : Pattern of Migration  
تدخل هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي في إطار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في العصر الحديث ، وهي هجرة من البلاد الأقل تقدماً من الناحية الاقتصادية إلى البلاد الأكثر تقدماً ، ومن البلاد التي تلعب فيها الدولة دوراً اقتصادياً كبيراً إلى بلاد المشروع الحر حيث يمكنهم تحقيق قدر أكبر من الحراك الاجتماعي . وقد لاحظنا أن الهجرة اليهودية في العصر الحديث تشكل جزءاً لا يتجزأ من حركة الاستيطان العربي (وخصوصاً الأملجو ساكسوني) . ولكن يُلاحظ أن يهود البلاد العربية كانوا يضمون بينهم أعداداً كبيرة من السفارد المتأثرين بالثقافة اللاتينية . كما أن الأليانس ، حينما قامت بعملية صلب لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي بصيغة تغريبية ، صبغتهم أيضاً بصيغة فرنسية لاتينية . ويُلاحظ أن معظم العناصر الثرية وأعضاء النخبة بين يهود البلاد العربية هاجروا إلى فرنسا أو الولايات المتحدة أو أمريكا اللاتينية . وهم برفضهم الهجرة إلى إسرائيل يتبعون النمط المذكور نفسه إذ أن مثل هذه الهجرة لا تحقق حراكاً لهذه الشريحة من أعضاء الجماعة بينما يمكن تحقيق هذا الحراك في البلاد الغربية المتقدمة . ولذا ، نجد أن حركة هجرة يهود البلاد العربية تتجه أساساً إلى فرنسا وأحياناً أمريكا اللاتينية . ولكن العدد الأكبر اتجه إلى إسرائيل ، أي أنها

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي وتركيا وإيران

البلد	١٩٥١-١٩٤٨	١٩٥٤-١٩٥٢	١٩٥٧-١٩٥٥	١٩٦٠-١٩٥٨	إجمالي ٤٨-١٩٦٠
المغرب	٣٠,٧٥٠	١٥,٩٠٣	٧٠,٠٥٣	٩,٢٣٦	١٢٥,٩٤٢
الجزائر	١,٥٢٣	٣٩٦	٢,٤٨٣	٥٢٩	٤,٩٣١
تونس	١٣,١٣٩	٥,٩٠٢	١٥,٢٦٧	٢,١٤٩	٣٦,٤٥٧
ليبيا	٣٠,٤٨٢	١,٦٠٩	١٩٨	٩٤	٣٢,٣٨٣
مصر	١٦,٥٠٨	٣,٢٠٣	١٤,٥٦٢	١,٠٥١	٣٥,٣٢٨
اليمن	٤٥,١٩٩	٦٩٨	١٠	٥٥	٤٥,٩٦٢
عدن	٣,١٥٥	١٥١	٧	٩٥	٣,٤٠٨
سوريا	٢,٨٩٨	٤٦١	-	-	٣,٣٥٩
وليان	٣٤,٢١٣	٨٦١	٢,٦٥٠	١,٣١٦	٣٩,٠٤٠
تركيا	١٢١,٥١٢	١,٣٨٢	٣٦١	٢٣٣	١٢٣,٤٨٨
العراق	٢٤,٨٠٤	٥,٧٥٠	٢,٠٣٥	٧,٤٧٢	٤٠,٠٦١
إيران					
الإجمالي	٣٢٤,١٨٣	٣٦,٣١٦	١٠٧,٦٢٦	٢٢,٢٣٠	٤٩٠,٣٥٥٩

اليهود وانتماهم وانتماء كل أعضاء الأقليات العربية إلى وطنهم العربي .

### الجماعات اليهودية في العالم العربي : الانقسامات الدينية والعرقية

The Jewish Communities in The Arab World : Religious and Ethnic Divisions

مع منتصف القرن التاسع عشر ، ومع بداية تفكك الدولة العثمانية ودخول الدول العربية في الدائرة الاستعمارية ، لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يُشكّلون وحدة دينية أو ثقافية أو لغوية . ويمكن تقسيم الجماعات اليهودية على النحو التالي :

١ - اليهود المستعربة الذين يتحدثون العربية ويتمنون إلى التشكيل الحضاري العربي الإسلامي . ويمكن أن نصف يهود اليمن ضمن هؤلاء رغم خصوصيتهم التي تميّزهم عن بقية اليهود المستعربة .

٢ - يهود السفارد الذين يتحدثون اللادينو .

٣ - يهود الإشكناز الذين يتحدثون الديشية .

٤ - يهود الغرب الذين يتحدثون لغات بلادهم المختلفة : فرنسية وإنجليزية وألمانية .

٥ - يهود البربر في جبال الأطلس ويتحدثون اللغات البربرية المختلفة .

٦ - يهود كردستان في العراق وإيران الذين يتحدثون الكردية والآرامية . وكان بعضهم يتحدث العربية ، ولذا كانوا يُعدّون من اليهود المستعربة .

وقد عبّر عدم التجانس هذا عن نفسه في شكل صراع بين

الجماعات اليهودية المختلفة . وفي المغرب ، كان اليهود السفارد الوافدون إلى المغرب يشيرون إلى اليهود الأصليين على أنهم «توشافيم» ، أي سكان أصليون أو محليون ، وهي عبارة تحمل

بعض الإيحاءات القدحية . وكان اليهود الأصليون يشيرون بدورهم إلى الوافدين باعتبارهم «مجروراشيم» ، أي المنفيين أو المنبوذين .

وكان يهود صنعاء في اليمن ينظرون بعين الاحتقار إلى يهود الجبال ويعتبرونهم أدنى مرتبة منهم . كما لم يكن الفريقان يتزاورجون فيما

بينهم . وفي مصر ، كان السفارد والإشكناز ينظرون إلى يهود مصر المستعربة بشيء من التعالي . كما كان السفارد يشيرون إلى الوافدين

الجدد من الإشكناز على أنهم «شاخت» ، أي الأشرار ، بسبب تورط عدد كبير منهم في الأنشطة المشبوهة ، وخصوصاً الدعارة ، وقد

كانوا ينظرون إليهم بتقدير كبير من التعالي . وهذه المواقف كانت في

العرب اليهود (أي اليهود المحليين) وحسب وإنما تتعامل أيضاً مع يهود البلاد العربية ككل (أي اليهود الوافدين من الغرب) . ولو أن أرقام الهجرة فرقت بين اليهود المحليين من حاملي الجنسيات العربية واليهود من حاملي الجنسيات الغربية ، لوصلنا إلى نتائج مغايرة قليلاً . وعلى كل ، فإن هذه المناقشة أصبحت مجرد مناقشة أكاديمية إذ أنّ تأسيس الدولة الصهيونية خلق حركية ضخمة ابتلعت كل يهود العالم العربي ، المحليين منهم والوافدين ، وأدت إلى اختفائهم تماماً ، باستثناء المغرب التي هاجر معظم أعضاء الجماعة اليهودية بها إلى الكيان الصهيوني وبقيت فيه أقلية يهودية أخذت في التناقص .

ومن المفارقات التي لها أعمق الدلالة أن يهود البلاد العربية كانوا يُشكّلون أقلية صغيرة جداً لا أهمية لها بالنسبة ليهود العالم ، وأصبحوا الآن يُشكّلون أغلبية سكان إسرائيل . وكثير المجموعات التي هاجرت هي يهود المغرب ، إذ يوجد في الدولة الصهيونية ٤٨٠ ألف يهودي من المغرب أو من أصل مغربي و ١٢٥ ألف يهودي من تونس والجزائر و ٧٨ ألفاً من ليبيا ، أي أن هناك ٦٨٢ ألف يهودي من المغرب العربي ، وهم يشكّلون ٢٠٪ من يهود المستوطن الصهيوني . ومن أهم الشخصيات اليهودية من أصل مغربي في المؤسسة الحاكمة أهرون أبو حصيرة الوزير السابق ورئيس حزب تامي ، والحاخام عوفيدبا يوسف ، وديفيد ليفي أحد أقطاب حزب الليكود . أما اليهود من أصل عراقي فإن عددهم يبلغ ٤٩٩ ، ١٢٩ ، ومن أشهرهم شلومو هليل . ويوجد ٢٤٥ ألف يهودي يمني أو من أصل يمني : (٤٩ ، ٥٠٠ من مواليد اليمن و ١٠٠ ، ١٦١ ولدوا لأبَاء يمتين و ٣٥ ألفاً كانوا في فلسطين عام ١٩٤٨) . ويهود اليمن هم الوحيدون الذين كانت تُوجد منهم أعداد كبيرة نسبياً في المستوطن الصهيوني قبل عام ١٩٤٨ ، فلقد أراد المستوطنون الصهاينة أن يحلوا مفضلة العمل العبري باستخدام يهود في الاقتصاد الصهيوني الاستيطاني ، ولكنهم لم يجدوا العمالة الكافية بين يهود أوروبا ، فاستوردوا يهود اليمن . ويُوجد إلى جانب ذلك بضعة آلاف من سوريا ، وانضم إليهم ١٣٠ ألف يهودي من إيران و ١٠٠ ألف يهودي كردي .

وقد سمحت المغرب ، كما سمح العراق ، لليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل بالعودة ، فعادت أعداد لا يُعدّ بها إحصائياً رغم دلالتها . وتكمن أهمية القرار في أنه ضربة في الصميم لاسطورة الشرعية الصهيونية التي تطرح فكرة اليهودي الخالص الذي لا ينتمي إلا لوطنه اليهودي ، إذ أنّ القرار العربي يؤكد عروبة هؤلاء

ومن الناحية الدينية ، ينقسم اليهود إلى :

- ١ - يهود حاخاميين يؤمنون بالثورة والتلمود ، وهؤلاء كانوا هم الأغلبية . ومعظم هؤلاء كان يتبع النهج السفاردي ، وكان بعضهم يتبع النهج الإشكنازي ، وكان لكل فريق معابده المستقلة .
- ٢ - يهود قرآئين ، وكانوا يوجدون أساساً في مصر حيث بلغ عددهم عام ١٩٤٧ نحو ٤٨٦ ، ٣ (مقابل ١٥٣ ، ٦٢ يهودي حاخامي) .
- ٣ - يهود سامريين .
- ٤ - يهود لادينيين وعلمانيين .

ويبدو أن التيارات اليهودية الدينية الجديدة (وهي أساساً تيارات إشكنازية) ، مثلها مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة وغيرها ، لم تجد طريقها إلى العالم العربي .

وكان اليهود يختلفون في درجة تمسكهم بتعاليم دينهم حسب معدلات العلمنة الموجودة في مجتمعهم . فكان مدى تمسك يهود مصر باليهودية يختلف عن مدى تمسك يهود اليمن الذين كانوا معزولين عن العالم ومشهورين بتمسكهم بتعاليم دينهم كما يتضح في طريقة قصهم شعر رأسهم وتركهم السوالف وإطلاقهم اللحي . وقد نشبت صراعات دينية بين أعضاء هذه الفرق ، وخصوصاً بين الحاخاميين والقرآئين والسامريين ، بحيث كان لكل فرقة دينية معبدها وحاخامها وتنظيماتها .

لقد ضمنت دساتير العراق ومصر والمغرب وغيرها من الدول العربية لليهود المساواة في الحقوق الدينية والسياسية والاقتصادية . وكان لكل جماعة يهودية مدارسها وصحفها ، العربية والإنجليزية والفرنسية ، ومحاكمها (إلى أن ألغيت المحاكم الشرعية في بعض الدول العربية) . وكان تنظيم الجماعة اليهودية (الذي كان يرأسه

شخص يُقال له الناسي أو الحاخام الأكبر) يشبه منصب بطريك الأقباط في مصر يساعده مجلس أو لجان معينة أو منتخبة تشرف على كل الشؤون الاجتماعية للجماعة التي لا تندرج تحت نفوذ أو سلطان الدولة . وفي معظم الأحيان ، كانت كل جماعة يهودية سفاردية أو إشكنازية أو مستعربة . . . إلخ تحتفظ باستقلالها عن الجماعات الأخرى ، ولكن كان يتم التنسيق بين هذه الجماعات أحياناً بحيث تعترف كلها بسلطة مركزية واحدة كما حدث في مصر .

ويلاحظ أن ظاهرة الجيتو الغربية ليس لها نظير في العالم العربي إلا في المغرب حيث كان اليهود يعيشون في حي خاص بهم يُسمى «الملاح» ، والكلمة مشتقة من كلمة «ملع» ولا يُعرف السبب هذه التسمية على وجه التحديد ، وإن كان يُقال إنه سُمي كذلك لأنه بعد تنفيذ حكم الإعدام في أعداء السلطان كان رأس المعدم يُعصّل

معظم الأحوال انعكاساً لمواقف مشابهة في المجتمع وسائدة بين أعضاء الأغلبية . وقد نشب الصراع الحاد بعد ذلك بين دعاة الصهيونية وأعدائها . والواقع أن انقسام يهود البلاد العربية كان بارزاً في الإطار التنظيمي حيث لم يكن يتسم بأية مركزية أو وحدة إلا إذا قامت الدولة بفرضه كما حدث في مصر .

وكان أعضاء الجماعات اليهودية المستعربة مندمجين حضارياً في المحيط الثقافي العربي الإسلامي لكل جماعة . فكان يهود المغرب مغاربة أو بربراً لهم نفس فلكلور المغاربة أو البربر ونفس المستوى الثقافي والحضاري ، فكانوا يزورون أولياء اليهود ، بل هناك حالات كثيرة كان فيها المسلمون واليهود يتبركون بولي واحد ويقومون بزيارته . وقد طلبت حكومة فيشي الموالية للنازي من الحكومة المغربية تسليم أعضاء الجماعات اليهودية للنازي لإبادتهم كما حدث مع أعداد كبيرة من يهود فرنسا . ولكن العاهل المغربي محمد الخامس تصدى لهم ، وهو ما أدى إلى نجاة الجماعة اليهودية من خطر الإبادة . والشيء نفسه ينطبق على يهود ليبيا والجزائر ومصر وغيرها من البلاد العربية ، فكان يهود مصر يزورون مقام سيدى أبو حصيرة الذي كان يزوره معهم المصريون من المسلمين والمسيحيين . وكان يهود متمانة في جبال الأطلس بتونس يعيشون في الكهوف مثل المسلمين . ولكن كان هناك بالطبع العناصر اليهودية غير العربية التي كانت مرتبطة أساساً بالتشكيل الحضاري الغربي ثم الاستعماري . وكان السفاردي ضمن هذه العناصر . وكذلك ، بطبيعة الحال ، الإشكناز الذين استوطنوا في العالم العربي مع تزايد النفوذ الغربي ومع تشرُّب التحديث في روسيا ابتداءً من عام ١٨٨٢ .

وقد ترك وصول يهود الغرب (الإشكناز والسفاردي) آثاراً متنوعة من منطقة إلى أخرى . ففي المغرب ، اندمج يهود المدن الساحلية مع السفاردي ، واصطفغوا بالصبغة السفاردية . أما في المدن الداخلية ، فقد احتفظ اليهود بصيغتهم العربية أو البربرية ، بحيث كانوا ٣٦،٨٪ من السفاردي و ٣٠٪ من العرب و ٦،٩٥٪ من البربر (في نهاية القرن التاسع عشر) . أما في الجزائر ، فقد حدث العكس إذ تم استيعاب السفاردي ضمن السكان الأصليين ، وأصبح الجميع يهوداً مستعربة . ثم انضم إليهم في القرن السابع عشر الميلادي نخبة سفاردية من ليجورن (وقد سميت «جورينيم») قامت بدور الجماعة الوسيطة . وفي تونس ، انقسمت الجماعة اليهودية إلى التوانسة وهم اليهود المستعربة ، والجراننا وهم السفاردي من غرناطة ، والجزورينيم من ليجورن أيضاً .

عزلهم عن بني أوطانهم وتهميشهم من الناحية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية . ويلاحظ الانجذاب الشديد لليهود البلاد العربية إلى فرنسا والثقافة الفرنسية ، بما في ذلك يهود مصر التي كانت مستعمرة إنجليزية ، ويهود ليبيا وكانت مستعمرة إيطالية . ولهذا ، انجبه أغلبهم بعد الهجرة من البلاد العربية إلى فرنسا أو إلى القسم الفرنسي في كندا ، أو إلى أمريكا الجنوبية ذات الثقافة اللاتينية .

ومما عمق هذا الاتجاه نحو التهميش الاقتصادي والثقافي ، وجود عناصر يهودية وافدة من الغرب كان يفوق عددها أحياناً عدد اليهود المحليين . فعهد يهود مصر ، على سبيل المثال ، في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، كان بين ستة آلاف وسبعة آلاف . وفي عام ١٨٩٧ ، بلغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً نصفهم من الأجانب الوافدين . وفي عام ١٩١٧ ، بلغ عددهم ٦٠ ألفاً ٥٨٪ منهم من الأجانب . ومع حلول عام ١٩٤٧ ، أي عشية إنشاء الدولة الصهيونية ، كانت نسبة المصريين بين أعضاء الجماعة اليهودية لا تتجاوز ٢٠٪ . وفي دمشق وحلب ، كان نصف اليهود «سنويوس فرانتكوس» ، وهي عبارة أسبانية تعني «الأسبانيون الفرنجة» ، وهو ما كان يعني أنهم وادفون يتمتعون بالامتيازات .

وكان العنصر الوافد يشكل ، بطبيعة الحال ، عامل جذب قوياً للعناصر المحلية إذ كان لدى الوافدين من الكفاءات ما يؤهلهم للتعامل مع القوة الاستعمارية المهيمية ومع الاقتصاد الحديث الأخذ في التشكل . ولذا ، نجد أن العنصر المحلي سرعان ما اكتسب الصبغة الغربية حتى أصبح من الصعب ، في كثير من الأحوال ، تمييز اليهود المستعربة المحلية عن اليهود الوافدين . ولقد كان يهود العراق استثناء من هذه القاعدة ، إذ لم تنضم أعداد كبيرة منهم إلى يهود العالم الغربي واحتفظوا بهويتهم العربية . وكانت هناك شريحة اكتسبت الثقافة الغربية في مدارس الأليانس واعتمدت عليها سلطات الاحتلال البريطانية للخدمة في إدارتها الجديدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ويبدو أن أعضاء الجماعة اليهودية لا يختلفون كثيراً في سلوكهم هذا عن بعض أعضاء النخبة الحاكمة في البلاد العربية ولأن بعض أعضاء طبقات المجتمع الهامشية الأخرى الذين يتركون ثقافتهم الوطنية وهويتهم ويكتسبون ثقافة الغازي ويتعلمون لغته . وهم في الواقع يهدفون إلى أن يحققوا حراكاً اجتماعياً ، وينتهي بهم الأمر إلى التوحيد الكامل مع هذا الغازي ثم الرحيل معه حينما تخين الساعة (كما حدث لبعض أعضاء الطبقات الحاكمة في العالم العربي) .

وتجرب إضافة أن أعضاء الأقليات أكثر تعرضاً لهذه العملية من

عن جسده ثم يتم تملحيه حتى لا يصاب بالتلف عند عرضه على الجمهور ، كما وردت تفسيرات أخرى لا تقل طرافة عن هذا التفسير . أما حارة اليهود ، فلم تكن جيتو بأي معنى ، وإنما كانت مجرد مكان يتركز فيه أعضاء الجماعة نفسها كما يحدث في الولايات المتحدة على سبيل المثال .

#### الجماعات اليهودية في العالم العربي : تحولها إلى عنصر استيطاني

The Jewish Communities in the Arab World : Their Transformation into a Colonial Settler Element

بعد أن نجحت الدول الغربية في القضاء على تجربة محمد علي في النهضة القومية في مصر والعالم العربي ، وفي إصلاح الدولة العثمانية ككل ، تماظم الفوذ الغربي في العالم العربي وتراجعت الدولة العثمانية التي أخذت تنازل للقوى الغربية بالتدرج . وقد أخذ هذا شكل قوانين الامتيازات وحماية الأجانب . وانتهى الأمر إلى القضاء على الدولة العثمانية واقتسام معظم أجزاء العالم العربي بين الدول الغربية ، فأصبحت العراق ومصر والسودان وفلسطين وعدن وبعض دول الخليج تابعة للإنجليز ، وتونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان لفرنسا ، وليبيا لإيطاليا ، وأجزاء من المغرب لإسبانيا . وقد تكرر هذا الوضع بانتهاه الحرب العالمية الأولى . وحاول الاستعمار الغربي في العالم العربي الإسلامي أن يوسع رقعة نفوذه بين السكان عن طريق فرض الحماية على أعضاء الأقليات وإعطائهم حقوقاً ومزايا لم تكن متاحة لأعضاء الأغلبية بحيث تتحول الأقلية إلى جيب سكاني ترتبط مصالحه وتطلعاته بالقوى الاستعمارية الحامية وتتحوّل إلى هذه الجماعة وطيفه وسيطة بين القوة الاستعمارية والسكان المحليين ، وكانت هذه العملية تسمى عملية «حماية» الأقليات ، وهذا هو النمط الذي يسم علاقة إسرائيل بالعالم الغربي ويسم مرفق الحضارة الغربية من اليهود عبر تاريخها . ويبدو أن عملية حماية الأقليات أول شكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني عن طريق تحويل أقلية محلية متمسجة إلى عنصر غريب يدين بالولاء لقوة غربية ولعبت المؤسسات اليهودية الغربية ، وخصوصاً الأليانس ذات الاتجاه الصهيوني ، دوراً أساسياً في ذلك . فأُسست الأليانس سلسلة من المدارس في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي دخلها أبناء اليهود من الجماعات كافة سواء المحلية أو الوافدة . ولم يتعلموا في هذه البلاد لغة بلادهم (العربية) وإنما تعلموا الفرنسية أساساً ولغات أوروبية أخرى ، وهو ما أدى إلى صلب معظم أعضاء الجماعة اليهودية بصبغة غربية فرنسية فاقعة وإلى

المستوطنين كانوا معروفين بكرههم العميق لليهود واعدائهم لهم ، كما أنهم عارضوا منحهم الجنسية الفرنسية في بادئ الأمر . أما في تونس والمغرب ، فتقول بعض المراجع الصهيونية إن أعضاء الجماعات اليهودية قد وقفوا موقف الحياد من حركة التحرر الوطني ، وهي عبارة غير مفهومة وتفتقر ضامشية اليهود وعدم انتمائهم .

وقد ازدادت عملية التهميش هذه مع تزايد نشاط الحركة الصهيونية التي حاولت أن تعرف اليهود لا باعتبارهم عرباً أو حتى غربيين وإنما باعتبارهم يهوداً يدينون بالولاء للشعب اليهودي ثم للدولة الصهيونية . وفي العشرينيات ، قامت الوكالة اليهودية بتكوين شبكة جاسوسية في العالم العربي استخدمت المؤسسات والمنظمات اليهودية الشرعية (مثل نوادي المكابي) واجهات تخفي نشاطها المعادي وغير الشرعي . وفي الثلاثينيات ، أسست الوكالة اليهودية جهاز مخابرات يتبعه قسم عربي يرأسه موشيه شاريت . وقد قام الموساد عام ١٩٣٧ بتأسيس مركز لتدريب بعض اليهود العرب على أعمال الجاسوسية ضد بلادهم أطلقت عليه اسم «الأولاد العرب» . وبعد قيام الدولة ، تم تجنيد بعض العناصر العربية اليهودية للقيام بأعمال تخريبية تخدم مصالحها ، كما حدث في حادثة لافون حينما جند بعض اليهود المصريين للإسائة إلى العلاقات بين حكومة مصر الثورية الجديدة عام ١٩٥٢ وحكومات الدول الغربية . ولقد أدى تأسيس الدولة الصهيونية التي تدعي أنها دولة يهودية تمثل كل يهود العالم ، ومنهم يهود العالم العربي ، إلى الوصول بعملية التهميش إلى ذروتها .

ومع هذا ، ظلت أغلبية يهود العراق يمتدحون عن عملية التهميش آتفة الذكر لبعض الوقت ، ولذلك فقد تنموا بقدر كبير من الاستقرار والرخاء الاقتصادي واستفادوا من الازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، ولم يتعرض اليهود إلا لبعض الأحداث المتفرقة التي جاءت كرد فعل إما للتطورات الجارية في فلسطين أو لتصاعد المشاعر المعادية لبريطانيا . وقد كانت أخطر هذه الأحداث الاضطرابات التي جرت عام ١٩٤١ ، والتي جاءت في أعقاب هزيمة قوات رشيد عالي الكيلاني أمام القوات البريطانية وسقوط نظامه . وقد راح ضحية هذه الاضطرابات التي عُرفت باسم «فروود» ما بين ١٧٠ و ١٨٠ يهودياً (وعدد أكبر من غير اليهود) . وبعد هذه الأحداث ، عادت الأمور إلى نصابها . ولذلك ، فقد وجدت الحركة الصهيونية صعوبة بالغة في تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، واضطرت في نهاية الأمر إلى اللجوء للإرهاب ضدهم حين دفعت بعملائها ليضعوا متفجرات في المعابد اليهودية

أعضاء الأغلبية بسبب هامشيتهم فيما يتعلق بالرموز الأساسية للمجتمع . ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن عملية إعتاق يهود العالم العربي وتجديدهم تمت خارج نطاق المجتمع العربي نفسه وبمعدلات مختلفة عن معدلات التحديث فيه ، كما أنها تمت من خلال القوى الغازية . ولذلك ، فبينما أدى الإعتاق والتحديث في الغرب إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم أدت العملية السياسية والاجتماعية نفسها إلى نتيجة عكسية تماماً في المجتمع العربي .

وقدر كثير من المواطنين اليهود الاستفادة من قوانين الامتيازات ، فتجنسوا بإحدى الجنسيات الأوروبية حيث كانت بعض الدول الغربية تتجع هذا الاتجاه لخلق رأس جسر لها . وفي الجزائر بالذات ، أعطيت الجنسية الفرنسية لكل يهود الجزائر في محاولة لزيادة الكثافة البشرية الفرنسية داخل الجزائر ، وكان هذا جزءاً من المخطط الاستعماري الاستيطاني . ومع اندلاع الثورة الجزائرية ، كانت أغلبية يهود الجزائر العظمى مواطنين فرنسيين . وقد كان العدد أقل في تونس والمغرب نظراً لأن الحكومة الفرنسية لم تشجع هذا الاتجاه هناك .

وبعد احتلال بريطانيا للعراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، سعى أعضاء الجماعة اليهودية في العراق للحصول على الجنسية البريطانية ، فقدموا طلبات بهذا المعنى إلى المندوب السامي البريطاني عام ١٩٢١ ولكن بريطانيا لم تستجب لطلبهم . ومن العناصر الأخرى التي ساهمت في تمحيق الاتجاه نحو التغريب ، تركيب أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفي والاقتصادي ، وخصوصاً بين الوافدين . فقد ركزوا في مهن تجارية معينة (تجارة دولية) ومالية (الربا) والمسرة وأعمال البورصة) وحرفية (صناعة الخمور) ، وهي مهن حولتهم إلى جماعات وظيفية وسطة مرتبطة أساساً بالقطاع الاقتصادي الغربي وبالقوة المهيمنة . ولم يكن من قبيل الصدفة أن معظم قرارات التغريب أو التأميم كانت دائماً تضر بمصالح أعضاء الجماعة اليهودية والجماعات شبه الأوروبية الأخرى ، مثل اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، من الوافدين أو الذين تم تهميشهم ثقافياً واقتصادياً .

لكل هذا ، نجد أن مصير أعضاء الجماعات اليهودية ارتبط بمصير الاستعمار في المنطقة ، فتحسنت أحوالهم المادية وازدادت هامشيتهم البنوية مع تزايد الهيمنة الاستعمارية والتغلغل الأجنبي . وأثناء فترة النضال ضد الفرنسيين في الجزائر ، أيد ٩٠٪ من يهود الجزائر بقاء الجزائر فرنسية ، ووقفوا إلى جانب منظمة الجيش السري ، وأخيراً حلوا مع المستوطنين الفرنسيين ، رغم أن هؤلاء

أعضاء الجماعات اليهودية إلى مادة بشرية استيطانية لها قابلية عالية للهجرة . وهذا ما حدث بعد تأسيس إسرائيل إذ اختفى يهود البلاد العربية تقريباً .

### عائلة قورقوس

The Corcos Family

عائلة يهودية يعود أصلها إلى بلدة قرقوس في كاستيل (قشطلة) بإسبانيا . استقر أغلب أعضائها بعد عام ١٤٩٢ في إيطاليا ومدينة فاس المغربية . ومن أهم أعضائها : إبراهيم قورقوس (حوالي عام ١٢٧٥) وهو عالم عاش في كاستيل ، أما يهودا بن إبراهيم قورقوس (توفي بعد عام ١٤٩٣) فكان مالياً ثرياً استقر في البرتغال عام ١٤٩٢ .

وبعد طرد كثير من يهود إسبانيا إلى المغرب ، كان أعضاء عائلة قورقوس من بين المطرودين . ودافع جوشوا (توفي بعد ١٥٥٢) عن حقوق منفي قشطلة بالنسبة لمسألة تقاليد الذبح الشرعي ، كما شارك في وضع القواعد التكميلية (تاكوانت) الخاصة بتنظيم حياتهم الاجتماعية والدينية في المغرب . أما موسى بن إبراهيم قورقوس (توفي حوالي ١٥٧٥) وهو من فاس ، فقد عُرف بالتقوى وبالمعرفة الواسعة واختير قاضياً شرعياً في تونس وتحوّل مقبرته بعد وفاته إلى مزار للحجاج . كما كان يوسف قورقوس (توفي حوالي عام ١٧١٠) حاخاماً له وزن واحترام ، وكان له كثير من التلاميذ . أما يوسف بن جوشوا قورقوس (توفي بعد عام ١٨٠٠) ، فعاش لفترة في جبل طارق وألّف بعض الأعمال الدينية . كما ترك عالم التلمود إبراهيم بن موسى قورقوس (توفي حوالي ١٧٧٨) عدداً من المؤلفات والفتاوى الدينية . وكان يوسف قورقوس (توفي بعد ١٥٧٥) عالم تلمود ولُد في إسبانيا وسافر إلى مصر حيث ترأس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) ثم استقر في فلسطين . وكانت له بعض المؤلفات والتعليقات أو الشروح الدينية . أما شقيقه إسحق قورقوس (توفي قبل عام ١٥٤٠) ، فكان حاخاماً في مصر ثم عُين قاضياً شرعياً في القدس . أما ميمون بن إسحق قورقوس (توفي عام ١٧٩٩) ، فكان تاجراً ذا نفوذ وأحد دعائم السياسة البريطانية في المغرب . أما سولومون بن إبراهيم قورقوس (توفي عام ١٨٥٤) ، فقد كان مصرفياً ومستشاراً للسلطان كما اختاره بريطانيا وكيلاً قنصلياً لها عام ١٨٢٢ . أما ولده ، يعقوب (توفي عام ١٨٧٨) وإبراهيم (توفي عام ١٨٨٣) ، فكانا مقربين للسلطان وقاما بأعمال مهمة له . وقد عُين إبراهيم عام ١٨٦٢ قنصلاً للولايات المتحدة في إحدى مدن

وفي أماكن تجمّع أعضاء الجماعة حتى يبدو الأمر وكأن المجتمع بدأ يتحرك ضد اليهود .

ولكن هذا لا يعني أن كل أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مائلين للاستعمار الغربي وتحولوا إلى وسطاء له ، كما كان يهدف المخطّط الاستعماري . ذلك أن أعداداً كبيرة من يهود سوريا انضمت إلى حركة التحرر الوطني ودعمت المطالب القومية . ومن المعروف أن يعقوب صنوع (أبو نظارة) ، وهو كاتب مصري يهودي ، هاجم الاستعمار الإنجليزي ونُفي بسبب ذلك . كما أن المصري اليهودي ليون كاسترو كان ، وهو رئيس تحرير جريدة يومية فرنسية ، من كبار مؤيدي حزب الوفد المصري ، ورافق سعد زغلول أثناء مفاوضاته في لندن (لكنه أسس بعد ذلك تنظيماً صهيونياً في مصر ، ولعل تأييده للوفد كان يهدف إلى تمحيق التيار الوطني المصري لعزل مصر عن العالم العربي وبالتالي فلسطين) . ويوجد ، غير هؤلاء ، كثيرون من أثرياء اليهود الذين كانوا جزءاً لا يتجزأ مما يُطلق عليه مُصطلح «الراسمالية الوطنية» والذين ارتبطت مصالحهم ورويتهم وتطلعاتهم بالوطن الذي يعيشون فيه . ففي مصر مثلاً ، ساهمت عائلتنا طقاوي وشيكوريل في تأسيس بنك مصر عام ١٩٢٠ ، وهو مشروع كان يهدف إلى تقليص اعتماد مصر على رأس المال الأجنبي وإلى إرساء حجر أساس لصناعة وطنية مستقلة .

ومن المعروف كذلك أن يهود العالم العربي لعبوا دوراً ملحوظاً في تأسيس الحركات الشيوعية في العالم العربي . وقد كانت هذه الحركات نشاطات ، أياً كان تقييم المرء لها ، معادية للاستعمار . فقام هنري كوريل بتأسيس الحركة الشيوعية المصرية (وثمة دراسات تشير إلى دور كوريل المشبوه) . وقد كان هناك وجود يهودي ملحوظ في الحركة الشيوعية في العراق (الصحفي اليهودي نعيم قطان ومراد العمري وغيرهما ممن تبنا موقفاً معادياً للصهيونية وأسسوا منظمة باسم «عصبة مكافحة الصهيونية») . والواقع أنّ وجود اليهود في هذه النشاطات بأعداد تفوق نسبتهم العددية أمر ليس مقصوداً عليهم ، ففي الكثير من الأحيان يوجد أعضاء الأقليات بنسب كبيرة في الحركات الثورية والقومية . وعلى كلٍّ ، فحينما قررت الحركة الشيوعية العراقية أن تلعب دوراً أكثر فاعلية في محيطها العربي ، طلبت إلى أعضاء القيادة من اليهود الاستقالة ، وقد فعلوا ذلك مؤثرين مصلحة الحزب على مصالحهم الشخصية .

ولكن الصورة العامة للجماعات اليهودية في العالم العربي هي أنّ الاستعمار الغربي قد نجح في عزلها ثقافياً عن الثقافة العربية الإسلامية وربطها بمصالحه الاقتصادية ورويته الثقافية ومن ثم تحوّل



المغرب حيث نجح بفضل علاقته بالسلطان في تسهيل مهمة موسى مونتفيوري أثناء زيارته للمغرب . واختير أيضاً ماثير إبراهيم قورقوس (توفي ١٩٢٩) ، فضلاً للولايات المتحدة عام ١٨٨٤ . أما جوشوا بن حاييم قورقوس (توفي ١٩٢٩) ، فكان مستشاراً ومصرفياً للسلاطين ولعب دوراً أساسياً هاماً في الفترة ما بين عامي ١٨٨٥ و ١٩١٢ . أما فرديناند قورقوس (١٨٥٧ - ١٩٥٦) ، فكان صهيونياً نشيطاً وصدور له بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ مؤلفات عن الصهيونية . أما ستيليا قورقوس (١٨٥٧ - ١٩٤٨) ، فولدت في نيويورك وتزوجت موسى قورقوس (توفي عام ١٩٠٣) ، ثم استقرت في المغرب حيث أسست مدرسة يهودية حرة وعارضت نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية بين فقراء يهود المغرب ، وأصبحت ستيليا ممثلة للرابطة الإنجليزية اليهودية . أما مونتفيوري قورقوس (توفي عام ١٩٥٨) ، فكان طياراً في القوات الجوية الملكية البريطانية وخدم خلال الحربين العالميتين .

وتاريخ عائلة قورقوس وانتقالهم من النشاط الديني إلى النشاط التجاري ، ومن الانتماء للحضارة العربية إلى الانتماء التجاري للحضارة الغربية ، وكذلك تحوّل كثير من أعضائها إلى قناصل للبلاد الغربية ، يعكس تاريخ يهود البلاد العربية وتحولهم بالتدرج إلى جماعة وظيفية تابعة للاستعمار الغربي .

### عائلة قدوري

The Kadoori Family

عائلة تجارية ومالية يهودية من أصل عراقي استوطنت في الشرق الأقصى حيث حققت ثروة طائلة من خلال العمل في مجال الأعمال المصرفية والنقل والبناء والتشييد ، وساهمت في تطوير شانغهاي وهونغ كونج . ومؤسس العائلة هو صالح قدوري الذي كان من أغنياء بغداد . وقد وُلد ابنه سير إيليس قدوري (١٨٦٥ - ١٩٢٢) في بغداد حيث تلقى تعليمه في مدرسة الأليانس الإسرائيلية يونيفرسل . وفي عام ١٨٨٠ ، انتقل إلى بومباي بالهند حيث عمل إدارياً في مكاتب عائلة ساسون ، ثم بدأ في تأسيس وتطوير تجارته وأعماله الخاصة في هونغ كونج والصين وحقق ثروة كبيرة . وُمُنح إيليس لقب «سير» عام ١٩١٧ تقديراً للخدمات التي قدمها للمستعمر البريطاني في الشرق الأقصى . وكانت له مساهمات مالية مهمة لعدد من المؤسسات اليهودية وغير اليهودية ، فقدم الأليانس الإسرائيلي يونيفرسل والرابطة الإنجليزية اليهودية ، وأسس مدرستين زراعتين لليهود والعرب في بغداد كما ساهم في تأسيس مدارس

أخرى في كلٍّ من بغداد وبومباي . وبعد وفاته ، أوصى إيليس بتخصيص جزء من ثروته لبناء مدارس تحمل اسمه في فلسطين والعراق ، فتأسست على ضوء ذلك كلية قدوري الزراعية في فلسطين عام ١٩٣١ .

أما شقيقه سير إيلي (العيازر سيلاس) قدوري (١٨٦٧ - ١٩٤٤) ، فقد وُلد في بغداد وانتقل مع شقيقه إلى الشرق الأقصى وأسس مؤسسة أي . اس قدوري وشركاه في هونغ كونج وشنغهاي ، كما كان شريكاً في مؤسسة أي . اس . قدوري وأبنائه . وقد مُنح لقب سير عام ١٩٢٦ . واشترك سير إيلي مع شقيقه في دعم وتأسيس العديد من المؤسسات التربوية والمستشفيات في الشرق الأقصى والعراق . ولكنه أعطى اهتماماً خاصاً للمشروع الصهيوني في فلسطين ، وبخاصة منذ عام ١٩٠٠ ، فترأس صندوق مؤسسة فلسطين في شنغهاي ، وساهم في تأسيس عدد من المدارس الزراعية في فلسطين ، كما ساهم بمبلغ كبير لبناء الجامعة العبرية في القدس . وتولى ولداه من بعده ؛ لورانس (١٨٩٩ - ؟) ، وهوراس (١٩٠٢ - ؟) ، إدارة أعمال الأسرة في هونغ كونج ودعم الجماعة اليهودية الصغيرة بها .

ومثل غيرها من العائلات اليهودية الثرية في الشرق الأقصى والهند وبعض دول الشرق الأوسط ، كانت عائلة قدوري تقوم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة التي ارتبطت مصالحها بوجودها في هذه المناطق ، وارتبط ذلك بمصالح الاستعمار المترجمة في شكل أنشطة مالية وتجارية وعقارية ونقل وغير ذلك من نشاطات في إطار المشروع الرأسمالي الإمبريالي الغربي الذي كان يسعى إلى استنزاف موارد هذه البلاد وشعوبها والذي وجد في كثير من الأقليات الدينية والإثنية ومن بينها الجماعات اليهودية خير معين لتحقيق أغراضه .

### الجماعات اليهودية في العالم العربي: الانقسام الطبقي والتمايز

#### الوظيفي

The Jewish Communities in The Arab World : Class Divisions and Professional Differentiation

لم تكن الجماعات اليهودية داخل كل بلد عربي تتسم بالتماسك والوحدة ، فقد كانت خاضعة للضغوط الطبقيّة والثقافية التي تسم أي مجتمع إنساني ، إذ كان منهم الأغنياء والفقراء ، ومنهم من استفاد اقتصادياً بدخول الاستعمار وظهور القطاع الاقتصادي الغربي الجديد ، ومنهم من سقطت صحبته ، ومنهم من استوعب الثقافة الغربية الدخيلة واندمج فيها ، ومنهم من أخفق في ذلك وإن

الصورة كانت مركبة . في المغرب واليمن وفي المناطق ذات الكثافة الكردية من العراق ، عمل اليهود رعاة ومزارعين . ولكن ، بشكل عام ، يُلاحظ عدم وجود أعضاء الجماعات اليهودية كعمال أو فلاحين ، أي أنهم كانوا يعيدون عن قاعدة الهرم الإنتاجي . وكان منهم الحرفيون الذين عملوا ببعض الحرف اليدوية مثل الصاغة والصبغة والصناعات اليدوية للزجاج ، كما اشتغلوا بصناعة الخمر . وكانت هناك أعداد كبيرة منهم ، في مهن الطبقة الوسطى ، يعملون بالطب والصيدلة والصحافة ، وكان منهم أساتذة الجامعات . وقد عملوا موظفين في الحكومة ، ووصل أفراد منهم في العراق ومصر والمغرب إلى مناصب الوزراء ، وانخبطوا وعُيّنوا أعضاء في البرلمان مثل يوسف قطاوي عضو البرلمان ووزير المالية ، وأصلان قطاوي عضو مجلس الشيوخ ، وساسون هيسكيل عضو البرلمان ووزير المالية في العراق ، ومناحم داتيل عضو مجلس الشيوخ في العراق أيضاً .

ولكن ، ورغم عدم التمايز الواضح بينهم وبين أعضاء المجتمع ككل ، نجد أن المجتمع ، بحكم تركيبه ، يضع قيوداً على أعضاء الأقليات مقارنة بأعضاء الأغلبية ، كما أنه يتيح أمامهم فرصاً ليست متاحة لأعضاء الأغلبية . ومن هنا تركزت اليهود بنسبة تفوق نسبة عددهم إلى عدد السكان في الأعمال التجارية والمالية ، فكان منهم صغار التجار والباعة الجائلون والمرابون . كما كان منهم أيضاً كبار التجار وتجار الجملة وأصحاب شركات العقارات والمستغلون بالتجارة الدولية (التصدير والاستيراد) وكلاء الشركات التجارية الأجنبية وشركات التأمين وقطاع الخدمات . كما أن سوق الأوراق المالية كانت تضم عدداً كبيراً من السماسرة اليهود . وتركز أعضاء الجماعات اليهودية في صناعات قريبة من المستهلك (الصناعات الزراعية والقطاع المصرفي) أي أنهم لم يكونوا جزءاً من القطاع الأول في الاقتصاد (الصناعات الثقيلة والزراعة) فيما يُسمى «قاعدة الهرم الإنتاجي» . وهذا يعني أنهم كانوا جماعة وظيفية . ولعبت مدارس الأليانس دوراً أساسياً في تزويد أعضاء الجماعة اليهودية بالكفاءات اللازمة للتعامل مع الشركات الأجنبية والاقتصاد الاستعماري الجديد وفي صبغهم بالصبغة الغربية (الفرنسية) ، أي أنها عمقت هويتهم كجماعة وظيفية .

وإذا نظرنا إلى مصر لوجدنا أن عدة عائلات يهودية مصرية كانت تساهم في إدارة وتوجيه ١٠٣ من الشركات من مجموع ٣٠٨ في عام ١٩٤٢ ، فكانوا يسيطرون على جانب كبير من رؤوس أموالها . كما أنهم احتكروا تجارة القطن وتجارة الصادرات

كان الفريق الأول أكبر بكثير من الثاني . ويمكن أن تضرب مثلاً بمصر حيث كانت الجماعة اليهودية فيها تشمل ثلاث طبقات . في أعلى السلم الطبقي نجد عدداً من العائلات الأرستقراطية الغنية المعروفة بثرانها ومركزها ومكانتها وعلاقتها القوية مع النخبة الحاكمة ، ومن بينهم قطاوي باشا وموصيري ورولو وسوارس وهراري ووهبة ومنسى ودي بيتشويتو وشيكوريل وصيدناوي وعدس وغيرهم من أصحاب البنوك والأعمال التجارية وكبار ملاك الأراضي والبارزين في الحياة العامة . وكان هؤلاء يشكلون ما بين ٥ و ١٠٪ من تعداد الجماعة اليهودية في مصر .

وتلي هذه الطبقة التي شملت كبار الأثرياء والمموكين طبقة متوسطة على رأسها رجال التصدير والاستيراد وأصحاب المحال التجارية والمهن الحرة في الإسكندرية والقاهرة والإسماعيلية وبورسعيد . ويتنسى إلى هذه الشريحة أيضاً عدد ضخم من الموظفين اليهود في مكاتب بعض المؤسسات التي كانت تضم نسبة مرتفعة من اليهود . وكانت هذه الشريحة تتنافس مع طبقة كبار الأثرياء ، ولكن أعضاء كل من هاتين الطبقتين كانوا متفرنسين تماماً ، لغة وثقافة . وعلى أية حال ، كانت أعداد كبيرة منهم من أصل أجنبي إسباني أو إيطالي أو غير ذلك . وكانوا يظنون الأحياء الثرية ، كما كانوا أحياناً يحتلون قطاعاً خاصاً بهم في أحد الأحياء ، كما كان حال حي السكاكيتي .

ثم يأتي أخيراً فقراء اليهود ، وكانوا من الباعة المتجولين وصغار الحرفيين ومعظمهم من اليهود المستعربة . ويسكن معظم هؤلاء الفقراء في القاهرة ؛ في حارة اليهود في الموسيقى أو في حي الظاهر ، وكانوا يشكلون حوالي ٢٥٪ من تعداد الجماعة . وقد حققت بعض عائلات اليهود المستعربة قدراً من الثراء والبروز (مثل عائلة باروخ مسعودة ، وعائلي شماس وعبد الواحد ، وكانت من الصياغ) . ولم يكن اليهود المتفرنسون يتزاوجون مع اليهود المستعربين ، فلكل عامله الخاص . ومع هذا ، كان أبناء اليهود المستعربين يذهبون إلى مدارس الأليانس ويحصلون على الثقافة الأوروبية اللازمة لدخول القطاع الاقتصادي الغربي . ويمكن أن نضيف هنا أنه رغم وجود فقراء بين أعضاء الجماعة اليهودية ، فلو تمت مقارنة متوسط دخل أعضاء الجماعة اليهودية بمتوسط الدخل في مصر لتبين أن متوسط دخل المصري اليهودي كان أعلى من متوسط دخل غيره من المصريين ، ولا تضح أن اليهود لم يعرفوا الفقر المدقع إلا بأعداد صغيرة للغاية . وهذا التقسيم الثلاثي كان غمطاً سائداً في المغرب والعراق أيضاً .

أما فيما يتصل بالوضع الوظيفي أو المهني أو الاقتصادي ، فإن

بعض الشخصيات المالية والتجارية المهمة في بغداد (مثل الشيخ ساسون بن صالح عميد عائلة ساسون التي استوطنت الهند فيما بعد، وإسحق المصري، ومناحم عيني)، كما ازدهرت الأوضاع الاقتصادية لأعضاء الجماعة اليهودية بعد افتتاح قناة السويس حيث أصبح خط التجارة الواصل بين إنجلترا والهند يمر عبر البصرة. وكان من أهم الشخصيات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر خوجا يعقوب، وأدون عبد الله. وسيطر اليهود تقريباً على تجارة الصادرات والواردات وعلى نسبة عالية من تجارة التجزئة، كما احتكروا تجارة أهم البضائع في أسواق العراق (مثل صناعة الأبسط والحصر والأثاث والأحذية والأخشاب والأدوية والأسلحة والأقمشة والتبغ والأرز والحلويات). كما كانوا من كبار تجار الأحجار الكريمة والمجوهرات ومن كبار الصاغة. وكان أصحاب أكبر الشركات في بغداد (شركة خضوري وعزرا ميدلاوي) الوكلاء الوحيدين لاستيراد دهون وشحوم شركة مويل أويل الأمريكية للبترول وفروعها في البصرة والموصل وكركوك. وكان يهود البصرة يحتكرون ٩٥٪ من الأعمال التجارية في البلاد عام ١٩١٤. ورغم تراجع النسبة قليلاً، ظلت ٨٥ - ٩٠٪ عام ١٩٣٣، و ٦٥ - ٧٥٪ في عام ١٩٤٦. وكان ٩٥٪ من واردات العراق قبل الحرب العالمية الثانية (ولكن ١٠٪ فقط من صادراتها) في يد اليهود. وكان أغلبها، وهو ما كان يُسمى «بضائع مانشستر»، وكان يتم استيرادها من مانشستر بإنجلترا. وحقق أعضاء الجماعة اليهودية ثروات كبيرة من خلال إعادة تصدير هذه البضائع إلى إيران.

وقد استفاد يهود العراق بشبكة علاقاتهم التجارية والمالية في الخارج، وخصوصاً مع اليهود العراقيين الذين استوطنوا في الهند والشرق الأقصى وإنجلترا (مثل عائلة ساسون وعائلة عزرا). أما بعد عام ١٩٤٨، فقد انخفضت النسبة إلى ٢٠٪ من واردات العراق و ٢٪ من صادراتها. ويلاحظ الشيء نفسه تقريباً في المغرب وتونس، إذ تركز اليهود في الأعمال التجارية والمالية. وفي إحصاء عام ١٩٤٧، يتبين أن ٤٦,٥٪ منهم يعملون بالتجارة و ٣٦,١٪ يمارسون المهن الصناعية المتنوعة و ٧,٦٪ في المهن الحرة و ٤,٤٪ يعملون بالزراعة.

والواردات، وأنشأوا العديد من البنوك (مثل البنك العقاري المصري، والبنك الأهلي المصري)، والشركات الائتمانية (مثل شركة الشرق للتأمين، وشركة التأمين الأهلية المصرية)، وشركات الأراضي الزراعية (مثل شركة البحيرة للمساهمة، وشركة وادي كوم أمبو، وشركة سموحة). كما أداروا عدة شركات لتقسيم الأراضي ويعمها وشراء المباني واستغلالها (مثل الشركة العقارية المالية بالقاهرة، والشركة المساهمة المصرية المالية والعقارية). وساهموا في ميدان النقل البري والبحري وشركات السكك الحديدية (مثل شركة حلوان، وشركة الدلتا، وشركة قناة أسوان للسكك الحديدية، وشركة الأنيبوس العمومية المصرية، وشركة ترام الإسكندرية، وشركة بواخر البوستة الحديدية). وساهموا أيضاً في الصناعات الزراعية وصناعة الزيوت والسكر، وأسسوا الشركات في هذا المجال (مثل: شركة المطاحن، وشركة الملح والصدوا). كما أسسوا المحلات التجارية الكبرى (مثل محلات شيكوريل وتزيون وشملا وعمر أفندي وهانو)، كما نشطوا في مجال تجارة الذهب والسجائر وفي أعمال الفنادق والمنسوجات وإقراض المال. وكانت لهم نشاطات اقتصادية فردية أخرى، ففي ميدان المضاربات المالية كان ٩٨٪ من العاملين في البورصة في القاهرة والإسكندرية يهوداً. وكان التركيب الوظيفي لليهود في مصر (عام ١٩٤٧) على النحو التالي: ٥٩٪ تجار، ١٨٪ في الصناعات، ١١٪ خدمات عامة.

ولكن، حيث إن معظم هؤلاء كانوا من الأجانب وبينهم ٢٠٪ فقط من المصريين، فإن قانون الشركات الصادر عام ١٩٤٧، والذي نص على ضرورة أن يكون ٧٥٪ من الموظفين و ٩٠٪ من العمال اليهوديين في جميع المؤسسات في مصر سواء كانت وطنية أم أجنبية من حاملي الجنسية المصرية، تسبب في خروج أعداد كبيرة منهم، وهو الاتجاه الذي تزايد بعد ثورة ١٩٥٢. كما تسبب في ذلك، العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وموجتا التصدير ثم التأمين.

أما في العراق، فقد ساهم اليهود في النشاط الاقتصادي التجاري المحلي والدولي وفي النشاط المالي سواء على مستوى صغير ربوي أو على مستوى حديث مصرفي. حيث كانت ثمة بنوك مثل بنك زلخا وبنك كريدبي. وقد ظهرت، مع بداية القرن التاسع عشر،

الجزء الثالث

**تواريخ الجماعات اليهودية في بلدان العالم الغربي  
(وخصوصاً في العصر الحديث)**



## ١

## الإقطاع الغربي وجذور المسألة اليهودية

جذور المسألة اليهودية - الإقطاع الغربي - العصور الوسطى في الغرب - الشعب الشاهد - الموائيق والمزايا والحماية - حق استبعاد اليهود - للمجامع اللائقانية الكنسية - الموت الأسود

## جذور المسألة اليهودية

Roots of the Jewish Question

يمكن القول بأن جذور المسألة اليهودية تضرب بجذورها في المسألة العبرانية (التجمع العبراني تجمع صغير فقير ضعيف سواء من ناحية الموارد البشرية أو الموارد المادية ، يُوجَد في منطقة إستراتيجية مهمة ولذا لم يمكنه أن يدافع عن استقلاله ضد هجمات القوى الكبرى المحيطة به ، وكان دائماً عرضة للغزو والتهجير . ولذا تحوَّلت أعداد كبيرة من العبرانيين إلى جماعات وظيفية مرتزقة واستيطانية ومالية وتحوَّلت الدولات العبرانية إلى دوليات تابعة) . ولكن يمكن القول بأن ثمة انقطاعاً حدث في العالم بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور المسيحية في الغرب والإسلام في الشرق . ففي داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي المسيحي في العصور الوسطى تحدَّد وضع اليهود بشكل معين (شعب شاهد - أقتان بلاط - جماعة وظيفية) وهذا الوضع هو الذي أدَّى إلى ظهور المسألة اليهودية فيما بعد ، حين بدأت عمليات التحديث والعلمنة . وظهرت الدولة القومية المركزية . ولكي نفهم طبيعة المسألة اليهودية وأبعادها الحقيقية لا بد من الوصول إلى جذورها ، أي لا بد من دراسة العصور الوسطى في الغرب ، وما تبعها من فترات تاريخية (عصر النهضة والإصلاح الديني) اهتز فيها وضع اليهود ، ثم أعيد تعريفه ابتداءً من القرن الثامن عشر .

## الإقطاع الغربي

Western Feudalism

الإقطاع الغربي هو النظام الاقتصادي والاجتماعي المبني على ملكية الأرض الزراعية والذي ساد أوروبا في العصور الوسطى . وتعود بدايات هذا النظام إلى مملكة شارلمان الفرنجية (في فرنسا) في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وانتشر منها عن طريق الغزو إلى إسبانيا وإيطاليا وألمانيا ، ونقله الغزاة النورمان إلى كلٍّ من إنجلترا وفلسطين إبان حروب الفرنجة . وكان الأمير الإقطاعي يمنح (يقطع)

تابعيه من مجموعة النبلاء قطعة من الأرض ليزرعوها ويؤدهم بالحماية نظير أن يلبثوا له بالولاء ويؤدوه بعدد من المحاريرين . وكان النبلاء بدورهم يُقسِّمون أرضهم ، فأصبح لهم تابعون لكل منهم ضيعته . وكان هؤلاء بدورهم يُقسِّمون ضيعاتهم على أتباعهم ، وهكذا إلى أن نصل إلى قاعدة الهرم حيث يُوجَد الأقتان في القاعدة الاقتصادية للنظام فيقومون بزراعة الأرض ويحصلون على ما يعيشون به عند حد الكفاف . والمجتمع الإقطاعي مُقسَّم تقسيماً هرمياً صارماً يعرف كل شخص فيه مكانه ومكانته حيث يصل اليهما عادةً عن طريق الميراث والنسب ، وليس عن طريق الجلد والعمل . وقد حدَّدت حقوق وواجبات كل أعضاء الطبقات تحديداً واضحاً ، فالنبيل كان يعرف ما ينبغي عليه القيام به (حماية إقطاعيته وفلاحيه ، وجباية الضرائب منهم ، وتزويد الملك بالمحاريرين) ، وكذلك كان الفلاحون ورقيق الأرض يعرفون واجباتهم وحقوقهم . وفي الأطراف ، كان يُوجَد التجار والصناع والقطاعات الهامشية كافة . وقد بلغ النظام الإقطاعي ذروته في القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم أخذ في الضعف ابتداءً من القرن الثالث عشر ، ويُقال إنه اختفى كنظام اقتصادي مع نهاية القرن الرابع عشر وإن استمرت كثير من مؤسساته . وأخذت الثورة التجارية تقوض دعائم الطبقات الإقطاعية الزراعية الحاكمة ، فظهرت للملكيات المطلقة ثم الطبقات الوسطى بعد ذلك . وتزايد نفوذ المدن حتى نصل إلى الشورتين الفرنسية والصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث يتفق المؤرخون على أن المؤسسات الإقطاعية تلقت الضربة القاضية فيها .

ويشغل أعضاء الجماعات اليهودية وضعاً خاصاً في المجتمع الإقطاعي الغربي ، فقد حصلوا على موائيق خاصة تضمن لهم الحماية وتحقق لهم المزايا . وتحولوا إلى أقتان بلاط وإلى أداة في يد الطبقة الحاكمة . وقد كان وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الإقطاع الغربي متميزاً وممتازاً بشكل عام حتى حروب الفرنجة ثم تدهور بعد ذلك . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يعملون بالتجارة

بالجماعات اليهودية أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد تبنت المسيحية عام ٣٤٠م باعتبارها ديناً رسمياً للدولة كتكتسب منه سرعتها . وفي ذلك الوقت تقريباً ، أصبحت الزرادشتية عقيدة الدولة الإمبراطورية الفارسية ، وظل الأمر على ذلك حتى القرن السابع الميلادي حيث حلَّ الإسلام محلها وأصبح العقيدة الأساسية في الشرق العربي وفي كثير من بلاد آسيا وأفريقيا . وتميَّز هذه المرحلة بأن أعضاء الجماعة اليهودية وجدوا أنفسهم أقلية في دولة لها إطار عقائدي متماسك سواء في الشرق حيث الزرادشتية ثم الإسلام أو في الغرب حيث المسيحية ، كما وجدوا أن الدين السائد دين توحيدي وليس عبادة وثنية . وكان هذا أمراً جديداً كل الجدة على اليهودية التي كانت موجودة دائماً في محيط وثني تحارب ضده وتكتسب هويتها الدينية من صراعها معه . وقد ازدادت العلاقات سوءاً وتوترت بين أعضاء الجماعات اليهودية والعالم المسيحي ، وخصوصاً بعد أن أعلن السنهدرين أن المسيح ليس الماشح الحقيقي وإنما هو المسيح الدجال في حين آمن المسيحيون بأن هدم الهيكل إنما هو تحقيق لنبوءة المسيح . وقد حققت المسيحية انتصارات هائلة ، وخصوصاً بعد أن تبنتها الإمبراطورية الرومانية ، فتوقف النشاط اليهودي التبشيري وانطوى اليهود على أنفسهم وانصرف علماءهم لتدوين وجمع التلمود بما يحويه من كره عميق للمسيحية وللشخص المسيح ، وبما يتضمنه من سب للمسيح .

وحدد وضع الجماعات اليهودية في المجتمع الغربي الوسيط عنصران ، أحدهما دينوي والآخر ديني ، فقد أصدر قسطنطين (٣١٢-٣٣٧م) تشريعات لتنظيم العلاقة مع اليهود ، ولم تُعدَّ اليهودية بمقتضى هذه التشريعات «كوليجيوم» أو ديناً مشروعاً أو مباحاً (باللاتينية : ريليجيو ليكيتا religio licita) كما كانت أيام الرومان وإنما أصبحت «الملهب الشائن أو الشنيع» . وأصبح محظوراً على اليهود الزواج من المسيحيين ، كما مُنع أي يهودي من التنصر أو التبشير بالدين اليهودي . وحظرت تشريعات لاحقة على اليهود امتلاك عبيد مسيحيين أو حتى أي عبيد على الإطلاق وهو ما كان يعني استبعادهم من الزراعة ، كما استُبعد اليهود من الخدمة العسكرية ومن الاشتغال بالطب . وفي عام ٤٣٨م ، منع ثيودوس الثاني اليهود من شغل وظائف عامة . ورغم أن هذه التشريعات لم تؤخذ مأخذ الجد فإنها شكلت مع هذا الإطار القانوني الذي تحكَّم في علاقة اليهود بالمجتمعات المسيحية الوسيطة .

وينبع موقف الكنيسة من أعضاء الجماعات اليهودية من فكرتين أساسيتين مختلفتين ومكاملتين عن اليهود :

الدولية والتجارة المحلية ، لكن نفوذهم التجاري تراجع بظهور الجماعات التجارية المحلية ، فبدأوا يعملون بالربا والرهونات وكان منهم تجار صغار وياعة جائلون . وقد كان وضع اليهود داخل النظام الإقطاعي غير متجانس لأنه هو نفسه كان نظاماً غير متجانس . لقد كان وضع يهود إنجلترا وفرنسا ، أي يهود غرب أوروبا الذين طُردوا في القرن الثالث عشر الميلادي ، يختلف عن وضع يهود وسط أوروبا ، وكلاهما كان يختلف تماماً عن وضع يهود شرق أوروبا حيث لم يعتق سكانها المسيحية إلا في القرن العاشر الميلادي ، كما أن اليهود لم يستوطنوا بلندا إلا في القرن الثالث عشر الميلادي . وبالإضافة إلى ذلك ، كان اليهود ممنوعين من دخول روسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي .

### العصور الوسطى (في الغرب)

The Middle Ages

العصور الوسطى في الغرب فترة تمتد من القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر ، وقد وصلت العصور الوسطى ذروتها في الفترة من القرن الحادي عشر حتى الرابع عشر الميلادي . وتبدأ العصور الوسطى بانتهاء الإمبراطورية الرومانية الغربية وانهايار أطرها الاقتصادية والقانونية والثقافية أيضاً . وكانت الإمبراطورية الرومانية تعامل اليهود باعتبارهم «كوليجيوم Collegium» أي «رابطة» ، وهي جماعة من حق أعضائها أن يجتمعوا للقيام بشعائرهم الدينية وأن يمارسوا شريعة أسلافهم . وفي عام ٢١٢م أصدر الإمبراطور كساراكالا مرسوماً يمنح كل الأحرار في الإمبراطورية الرومانية حق المواطنة الرومانية ، الأمر الذي كان يعني أن أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية أصبحوا مواطنين ، إلا أن هذا جرى نسيانه تماماً ، وصُفَّ اليهود حسب القانون أو العرف الألماني باعتبارهم «غرباء» . وقد تساقط النظام الضريبي الذي فرضته الدولة الرومانية ولم تُعدَّ هناك عملة أوروبية يمكن لكل دول أوروبا التعامل بها فيما بينها ، وأهملت الطرق وأصبحت غير آمنة .

شهدت العصور الوسطى في الغرب محاولة للنهوض من هذا التردّي وخلق مؤسسات قانونية واقتصادية تحمل محل المؤسسات التي تساقطت . وبطبيعة الحال ، تأثرت الجماعة اليهودية بكل ذلك . أولاً : من بداية العصور الوسطى حتى القرن الحادي عشر الميلادي : يعتبر القرن الخامس الميلادي ، وخصوصاً عام ٤٧٦ ، التاريخ الذي بدأت فيه العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية تحت هجمات القبائل البربرية . وما يهمنا فيما يتعلق

يتركزون في الإمبراطورية البيزنطية . ولكن مركز اليهودية في العالم الغربي انتقل من بيزنطة إلى داخل أوروبا ابتداءً من القرن التاسع الميلادي : جنوب فرنسا (الغال) ثم شمالها ، وإنجلترا ثم ألمانيا . وما زاد من عدم التجانس ، عدم وجود سلطة مركزية موحدة في الإقطاع الأوربي . فبعد موت شارلمان (٨١٤) بفترة قصيرة ، تفسخت الإمبراطورية التي بناها وتفتتت سياسياً إثر هجمات الغايكنج من الشمال ، وقيابل الدانوب شبه البلوية من الشرق ، ومسلمي شمال أفريقيا من الجنوب . وقد استمرت الهجمات مدة قرنين ، فأصبح الإقطاع واللامركزية هما الصفة الأساسية في المجتمعات الغربية ، وهو ما أضعف الملكية وزاد نفوذ الأمراء الإقطاعيين . وأصبحت الجماعات اليهودية في العصور الوسطى نفسها تتمتع بتنوع لغاتها وطقوسها الدينية .

وأهم هذه الجماعات الجماعة اليهودية في إسبانيا (السفارد) وفي جنوب فرنسا (يهود البروفنسال) ، وفي إيطاليا (الإيطالياني) ، وفي الإمبراطورية البيزنطية أي إمبراطورية الروم (الرومانوت) ، والجماعات اليهودية في ألمانيا ثم بولندا فيما بعد (الإشكناز) . وكان أعضاء كل جماعة لا يختلطون بالضرورة بأعضاء الجماعات الأخرى (هذا على عكس وضع اليهود في العالم الإسلامي حيث كانوا أساساً من اليهود المستعربة الذين كانوا يتحدثون العربية . ومع هذا ، كانت هناك جماعة يهودية صغيرة في إيران اكتسبت كثيراً من خصائص المجتمع الذي كانت تعيش فيه . كما كان هناك يهود الخزر الأتراك في القوقاز ويهود كايبنج في الصين) . وقد ازداد تفتت الجماعات اليهودية في الغرب بظهور الملكيات القوية فيما بعد ، والتي كانت حريصة على الدفاع عن استقلالها القومي ، ومن هنا يكون من المستحيل الحديث عن اليهود بشكل عام بعد سقوط الدولة الرومانية ، ومن الأفضل الحديث عن الجماعات اليهودية .

ولم يكن المجتمع الغربي الوسيط مقسماً إلى دول وإمارات مستقلة تنفذ إلى سلطة مركزية قوية وحسب ، وإنما كانت كل دولة وكل إمارة مكونة من جماعات متماسكة منفصلة لكل منها قوانينها ؛ فكان النبلاء والأثقان الذين يعيشون في صميم النظام الإقطاعي يشتغلون بالقتال والزراعة ، وكان التجار وأعضاء القبايل الحرفية أعضاء في البلديات ، وكان القساوسة ومثلو البيروقراطية الدينية تابعين للكنيسة . وقد تمتعت كل جماعة بدرجة من الاستقلال عن الجماعات الأخرى . أما أعضاء الجماعات اليهودية ، فلم يكونوا مواطنين في المدينة ولا فلاحين في الضواحي الإقطاعية . ولم يكونوا من الفرسان المحاربين ، كما أنهم لم يكونوا بطبيعة الحال متمنين إلى

١ - اليهود قتل المسيح الذين أنكروه ، ولذا لابد من عقابهم على ذلك .

٢ - اليهود هم أيضاً الشعب الشاهد الذي عاصر أعضاء ظهور المسيح وبداية الكنيسة ، وهم بتسكُّهم بشعائر دينهم التي ترمز إلى الشعائر المسيحية منذ القدم وبديني وضعهم يقفون شاهداً حياً على صدق الكتاب المقدس وعلى عظيمة الكنيسة . وقد تمثل هذا الموقف المزدوج في سياسة الكنيسة التي وضعها البابا جريجوري الأول (الأعظم) (٥٩٠ - ٦٠٤) وآخرون من بعده ، والتي ترى ضرورة الإبقاء على اليهودية وعلى الشعب اليهودي باعتباره شعباً شاهداً سيؤمن في نهاية الأمر بالمسيحية ، ولذا ينبغي حماية اليهود من الدمار والإبادة ، ولكن ينبغي في الوقت نفسه وضعهم في مكانة أدنى .

وقد أصدر جريجوري الأول مرسوماً بابوياً يتضمن هذه العبارة : " كما أن اليهود لا يحق لهم أن يفعلوا ما لا يُسمح لهم به حسب القانون ، فإنه يتعين ألا يحرموا من المزايا التي منحت لهم " . ومن ثم مُنع قتل اليهود أو الهجوم عليهم أو حرق معابدهم أو مضايقتهم أثناء تعبدتهم أو استخدام القوة في تنصيرهم . وأصبح هذا المرسوم أساساً لكل المراسيم البابوية اللاحقة حتى القرن الخامس عشر الميلادي .

ولهذا ، حاربت الكنيسة الطرق غير الشرعية لتنصير اليهود قسراً ، معتبرة أن ثمره هذه العملية لا تشكل أي نصر حقيقي للكنيسة ولا تزيد عظمتها . ولكنها شجعت في الوقت نفسه إلقاء المواعظ عليهم والإقناع بالأشكال المشروعة الأخرى (وهذا الموقف المزدوج هو ما تحول على يد المفكرين البروتستانت إلى العقيدة الاسترجاعية أو الألفية في القرن السابع عشر الميلادي ، ثم تمت علمته تماماً في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ليصبح فكرة الشعب العضوي المنبؤ التي تعني أن اليهود كتلة بشرية متماسكة متميزة منزلة عن المجتمع ومنبوذة منه) .

ويلاحظ أن العصور الوسطى في الغرب شهدت غياب التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية أكثر فاكتر ، وهي العملية التي كانت قد بدأت بعد أن أسس الإسكندر إمبراطوريته . فبدأ اليهود يتحركون داخل فلك حضارتين أساسيتين هما : الفارسية واليونانية (ثم الرومانية) . وانتشر أعضاء الجماعات اليهودية على ساحل البحر الأبيض المتوسط في اليونان وإيطاليا وإسبانيا وشمال أفريقيا والإسكندرية وفلسطين وآسيا الصغرى . وكان معظم أعضاء الجماعات اليهودية ، مع بداية العصور الوسطى في الغرب ،



شعبية لا تضمر له حباً ولا تشعر نحوه بأي عطف ، وبحيا في عزلة وغربة عنها ، الأمر الذي زاد التصاقه بالملك والنخبة وزاد اعتماده عليهم . وبذلك أصبحت الجماعة اليهودية في المجتمع الوسيط جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف تتطلب الموضوعية والحياد ، وأصبح وجودهم مرتبطاً بمدى نفعهم كأداة (على عكس وضع اليهود في المجتمعات الإسلامية حيث تحمّدت مكانة اليهود ، شأنهم شأن أعضاء الجماعات والطوائف الأخرى ، باعتبارهم من أهل الذمة ، وهو مفهوم لا علاقة له بمسألة مدى نفع الإنسان) .

ولعل المزية الكبرى التي حصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية هي حرية الحركة ، إذ أصبحوا العنصر البشري الوحيد المتحرك في المجتمع . ذلك أن الأتقان والفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض رغم أنهم ، وكان النبلاء لا كيان لهم خارج إقطاعيتهم ، ورجال الكنيسة يرتبط كل واحد منهم بكنيسته أو ديره ، وكان التجار المسيحيون تقف في طريقهم حواجز كثيرة تعوق حركتهم مثل ضرائب المرور التي كان اليهود معتمدين منها . ولكل هذا ، تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى عنصر متحرك استيطاني تجاري وترسّخ المفهوم تماماً في الوجدان الغربي . وعلى سبيل المثال ، قام شارلمان بتوطين بعض اليهود في ماركا هسبانيا (في جنوب فرنسا) ليكونوا بمثابة حاجز على حدود العالم المسيحي لوقف التوسع الإسلامي . وإذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد عملوا بالزراعة في هذه التجربة ، فلإنهم عادة ما كانوا يدعون إلى الاستيطان للاضطلاع بوظيفة التجارة باعتبارهم عنصراً بشرياً قادراً على تنشيط التجارة بسبب خبراته ورأسماله وشبكة اتصالاته التجارية الواسعة وحركيته . وفي القرن الثامن الميلادي ، على سبيل المثال ، استوطن في فرنسا عدد من التجار اليهود بدعوة من شارلمان ، بهدف تنشيط التجارة ، فوضعهم تحت حماية . ويُلاحظ ارتباط اليهود بشارلمان ، فهو أول من حاول أن يخلق إطاراً اقتصادياً جديداً يحل محل الإطار الروماني ، كما كان أول من سلك عملة فضية للتداول في أوروبا ، وبذلك جعل شارلمان التبادل النقدي ممكناً بدلاً من المقايضة . وقد اتبع خلفاؤه السياسة نفسها في العصر الكارولنجي ، فاشتغل اليهود بالتجارة والاستيراد والتصدير في وادي الرون ومقاطعة شامبين . ومن المعروف أن جنوب فرنسا كان المركز الأساسي للتجار اليهود الدوليين الذين أطلق عليهم اسم الراذانية (نسبة إلى نهج الرون كما يُقال) . وكان شمال فرنسا ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، يضم أهم تجمع يهودي في فرنسا ، كما كان مركزاً

الكنيسة الكاثوليكية . وعلى كلٍّ ، كان الانتماء للمجتمع الإقطاعي المسيحي يتطلب بين الولاء المسيحي ، الأمر الذي لم يكن متاحاً لليهود إلا إذا تنصروا . وقد حلّت هذه المشكلة القانونية بالعودة إلى القانون أو العرف الألماني ، وتم تصنيف اليهود «غرباء» .

والغريب في العرف الألماني كان يُعدُّ تابعا للملك تبعية مباشرة ، ومن ثم أصبح أعضاء الجماعة مسئولين مسئولية مباشرة أمام الملك أو الإمبراطور ، ويتبعونه ويوضعون تحت حمايته ، بل كانوا يُعدّون ملكية خاصة له بالمعنى الحرفي (أتقان بلاط) ، الأمر الذي حولهم إلى ما يشبه أدوات الانتاج . وكان الملك يفرض عليهم ضرائب كانت تصب في خزائنه كما أنه كان يبيعهم الموائق والمزايا ويحقق من ذلك أرباحاً .

ومع أن مفهوم أتقان البلاط كان كامناً في كثير من الموائق والمراسيم منذ أيام شارلمان (٧٤٢-٨١٤) ، فإنه استُخدم لأول مرة في مرسوم الملك فريدريك الأول عام ١١٥٧ ، ثم أكده فريدريك الثاني عام ١٢٣٦ حين أصدر مرسوماً يشير إلى كل يهود ألمانيا باعتبارهم أتقان بلاط .

ويوضعهم تحت حماية الإمبراطور مباشرة ، أصبح اليهود جماعة وظيفية مالية تابعة للطبقة الحاكمة أساساً ، يتمتع أعضاؤها بحقوق تفوق في كثير من الأحيان حقوق عامة الشعب ولا تختلف أحياناً عن حقوق النبلاء ورجال الدين . فقد سُمح لهم ، حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، بحمل السلاح في كثير من البلاد الأوربية ، وامتلاك الأراضي الزراعية والعبيد غير المسيحيين ، كما أعفوا من عقوبة الضرب ومن التعذيب أثناء المحاكمة ، وأعفوا أيضاً من غير ذلك من الممارسات التي كان الأتقان يخضعون لها . بل إن الزي الخاص الذي كان يرتديه أعضاء الجماعات اليهودية ، والشارة التي كان عليهم تثبيتها على ملابسهم ، كانا يُعدّان مزايا يطالبون بها ويصرّون عليها . والقعبة اليهودية حتى آخر حصولها عليه بعبادة منهم . أما حتى بناء سور حول منطقة سكنهم ، فهي ميزة سعى إليها سعياً حثيثاً وحصلوا عليها كتابةً في الموائق التي كانت تمنح لهم ، وهي المناطق التي سُمّيت فيما بعد «الجيتو» . وقد حقق أعضاء الجماعات اليهودية مستوى معيشياً مرتفعاً . ولذا ، حينما حدث ما يشبه المجاعة في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، لا نجد لها أي صدى في المصادر اليهودية ، وهو أمر متوقّع بالنسبة لجماعة تتمتع بشيء من الثراء .

ومع هذا ، كان عضو الجماعة اليهودية الوظيفية لا حول له ولا قوة إذ أنه ، رغم تبعيته للملك والنخبة الحاكمة ، كان يعيش بين قوى

للدراستات التلمودية حيث كان راشي يقيم ويعمل بتجارة الخمر ويكتب تلميقاته عن التلمود .

ويلاحظ أن النمط نفسه تكرر حين تم تشجيع استيطان اليهود في ألمانيا خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بهدف تشجيع التجارة . وبدأت تظهر جماعات يهودية في المراكز التجارية الأساسية مثل : مينز وأوجسبرج في القرن التاسع الميلادي ، وورمز ومينز في القرن العاشر ، وهي التي ازدهرت فيها مراكز الدراسات التلمودية . وكان أكثر مناطق الكثافة السكانية اليهودية هو وادي الراين (مينز وسبير وورمز وكولونيا) حيث ظهرت هناك أيضاً حياة فكرية في القرن الحادي عشر الميلادي تحت تأثير يهود فرنسا . أما في إنجلترا ، فمن المعروف أن بعض المومكين اليهود تركزوا بعد الغزو النورماندي حيث أسسوا جماعات يهودية (في لندن ويورك وبيرسستول وكاتنبري) كانت تشتغل أساساً بالتجارة والإقراض ووضعت تحت حماية التاج الإنجليزي . ولم يختلف الوضع كثيراً في إسبانيا المسيحية ، فقد استخدم الأمراء المسيحيون في بادئ الأمر أعضاء الجماعات اليهودية بعد خروج المسلمين ، وظهرت فئة يهود البلاط هناك حيث استفاد الأمراء الأسبان من خبرات أعضاء الجماعات اليهودية في أعمال التجارة والمال والإدارة . وفي القرن الثاني الميلادي استوطن اليهود في روما ، وتركزوا في الموانئ الجنوبية ثم على طرق التجارة . وتدهورت أحوالهم قليلاً مع تحوّل الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، ولكنهم وُضعوا تحت حماية البابا مع بداية العصر الوسيط . وظل أعضاء الجماعات اليهودية في جنوب إيطاليا يشتغلون بتجارة الجملة حتى حل تجار البندقية محلهم . وارتبط اليهود بالتجارة حيث سيطروا على التجارة الدولية والتجارة المحلية إلى أن ظهرت المدن الدول البحرية الإيطالية . ولهذا ، فبعد أن كانت كلمة «يهودي» تشير في الدولة الرومانية إلى «عضو في قوم (إثنوس)» ، أصبحت هذه الكلمة تدل على «التاجر» .

ولعل كل هذه السمات مجتمعة (ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالنخبة الحاكمة ، وحصولهم على حقوق ومزايا خاصة ، واشتغالهم بالتجارة والربا) قد حددت علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالطبقات المختلفة في المجتمع ، فعلاقتهم بالطبقات الثرية (الأمراء الإقطاعيين) لم تكن بكل وضوح علاقة صراع ، ذلك لأنهم كانوا يحتاجون إلى اليهود رغم كرههم لهم وحقدهم عليهم نظراً لقرينهم من الملك . أما الكنييسة ، فقد ذكرنا موقفها المزوج من اليهود . ويبقى بعد ذلك سكان المدن والفلاحون ، أي ما يمكن أن

نتعلق عليه الشعب أو الجماهير . وقد كان هؤلاء ينظرون إلى اليهودي باعتباره العدو المستقل ، فكان سكان المدن الذين يعملون بالتجارة ، يجدون أن اليهود فئة تمثل في المجال نفسه ولكنها ليست خاضعة لسيطرتهم أو تنظيماتهم بل خاضعة للملك مباشرة ، الأمر الذي أعطى اليهود حرية في الحركة لم يكن التجار المسيحيون أنفسهم يتمتعون بها . كما أن التجار المسيحيين كانوا خاضعين للأخلاقيات المسيحية وما تفرضه عليهم من حدود وقيود . على عكس التاجر اليهودي ، الذي كان على استعداد دائم لأن يتجاهل هذه الأخلاقيات متى سنحت له الفرصة . أما الفلاحون والحرفيون ، فكانوا يقعون ضحايا الربا اليهودي والنشاطات التجارية الأخرى التي اقتصت بها أعضاء الجماعات اليهودية . وكانت هذه الفئة من سكان المدن أعداء اليهود على عكس كبار المومكين والتجار في المدينة حيث لم يكن هؤلاء يخشون سطوة اليهود نظراً لضخامة حجمهم ونفوذهم . وكثيراً ما كانت تقع اضطرابات ضد الجماعات اليهودية في المدن ويقودها صغار المومكين والحرفيين . وقد كانت هذه الاضطرابات ذات طابع شعبي وكانت تنتشر بين جماهير لا تفهم طبيعة النظام ولا الطبيعة المتوترة وغير المباشرة لعملية الاستغلال . ولذلك ، كان الرمز المباشر والواضح للاستغلال وأداته الملموسة هو اليهودي الذي كان أداة الطبقة الحاكمة في امتصاص غضب الجماهير . وكانت النخبة الحاكمة (الإمبراطور والكنيسة) تبذل قصارى جهدها لحماية اليهود ، وهو ما كان يدعم شكوك الجماهير . ويمكننا أن نشبه أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى (في الغرب) بالمماليك ، وهم جماعة وظيفية أخرى كانت تعمل بالقتال . فأعضاء الجماعة اليهودية كانوا ملكية خاصة للإمبراطور ، وهم مثل المماليك مختلفون إثنيًا وظيفياً (ومختلفون كذلك دينياً في حالة اليهود) عن بقية أفراد الشعب . وقد كانت وظيفتهم ، كمحاربين أو فجار ، تتطلب أن يظلوا غريباء عن المجتمع . فالتجارة كانت نشاطاً كريهاً ولم تكن قط نشاطاً أساسياً في العصور الوسطى ، أما القتال فقد كان وظيفته غير محببة ويتطلب تملكً ناصبتها قدراً من التفريغ . ومع هذا ، لم يكن اليهود مماليك مسلحين . وقد يكون من المناسب أن نسميهم «المماليك التجارية» . وكان المماليك التجارية داخل الحضارة الغربية ، مثلهم مثل المماليك ، أداة استغلال ومحط كراهية الجماهير ، ولكنهم كانوا عُرُلاً غير مسلحين . وقد كانت خطورة وضعهم داخل الحضارة الغربية كامنة في النظر إليهم باعتبارهم جماعة تكتسب طابعاً عاماً مجرداً ، فكان الهجوم مثلاً على اليهود يُنظر إليه وكأنه اقتحام أحد المصارف أو تعطيل لآلات

المصنع على نحو ما كان يفعل العمال في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي . ويمكن النظر إلى عملية طردهم باعتبارها كانت تساوي عملية تأميم رأس المال الأجنبي ، تماماً مثلما يحدث الآن في بلاد العالم الثالث حينما تظهر طبقة تجارية محلية تضطلع بأعمال التجارة والمال ، أو حينما تقوم الدولة نفسها بهذه الوظائف فتؤم البنوك وتطرد المنصر الأجنبي .

ثانياً : من نهاية القرن الحادي عشر الميلادي حتى بداية عصر النهضة في الغرب :

تسم هذه الفترة من العصور الوسطى بتدهور أحوال اليهود . ويمكن اعتبار حروب الفرنجة التي تُعرف اصطلاحاً باسم «الحروب الصليبية» نقطة حاسمة في تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية ، لا لأنها قامت بالهجوم عليهم ولكن لأنها تزامنت مع تحوّل اقتصادي عميق في المجتمعات الغربية . وقد كانت هذه الحروب تعبيراً عن التحول المتمثل في ظهور القوى الاقتصادية المسيحية ، مثل اللومبارد في إيطاليا والكوهارسين في جنوب فرنسا وفرسان الهيكل في فرنسا وغيرها من مناطق أوروبا ، والمتمثل أيضاً في ظهور جماعات رجال المال المحليين . لقد حلت هذه القوى الجديدة محل اليهود في التجارة الدولية أو في تجارة الجملة ، وفي مجالات ونشاطات اقتصادية أخرى مثل إقراض المبالغ الكبيرة ، الأمر الذي دفع اليهود إلى العمل في الربا والتجارة الصغيرة البدائية . واستمر هذا التيار في التزايد ، وتبلور في القرن الثالث عشر الميلادي ، واستمر حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، حتى أصبحت كلمة «يهودي» تعني «مرايبي» . وشهد هذا القرن أيضاً ظهور الممكيات القومية القوية التي بدأت تستقل بتفردا عن الكنيسة وأصبحت لها مشروعاتها السياسية والاقتصادية المستقلة . وأدى هذا الوضع إلى ازدياد احتياج بعض هذه الدول إلى أعضاء الجماعة اليهودية لفترة من الزمن ثم إلى استغنائها عنهم في مرحلة لاحقة . وساهمت حركات الهولقة في جنوب فرنسا ، من القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، في تدهور وضع أعضاء الجماعات اليهودية حين اضطرت الكنيسة إلى اتخاذ موقف متشدّد ونشطت محاكم التفتيش .

ويعدّ يهود إنجلترا مثلاً جيداً على صعود اليهود وتدهور حالهم ثم طردهم وتحوّلهم من التجارة إلى الربا ومن اعتماد الطبقة الحاكمة عليهم إلى استغنائها عنهم . فهم لم يتأثرو كثيراً بحروب الفرنجة وإن شئت بعض الهجمات عليهم ، ولكنهم تأثروا بظهور القوى المالية غير اليهودية ، مثل اللومبارد والكوهارسين ، الأمر الذي أدى إلى إفقارهم . وقد أصدر إدوارد الأول عام ١٢٧٤ أمراً بمنع اليهود

من الاشتغال بالأعمال المالية ، وفتح لهم أبواب الزراعة والحرف والتجارة ، ولكنه لم يوفّق في مساعيه فطردهم عام ١٢٩٠ . والظاهرة نفسها يمكن ملاحظتها بين يهود فرنسا الذين طُردوا من التجارة ، حتى بلغ تدهورهم حدّاً كبيراً تحت حكم لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ثم تم طردهم عام ١٣٠٦ .

ويتم وضع يهود إسبانيا في تلك المرحلة بأنه أكثر تريباً بسبب وضع إسبانيا الخاص . بعد فترة ازدهرت فيها التجارة اليهودية ، أقيمت محاكم التفتيش عام ١٤٧٨ ، وانتهى الأمر بطرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢ بقرار من فرديناند وإيزابيلا ، كما تم طردهم من البرتغال عام ١٤٩٧ . وبلغ عدد اليهود الذين طُردوا نحو مائة وخمسين ألف يهودي ، لجأت أعداد كبيرة منهم إلى العالم الإسلامي في شمال أفريقيا والدولة العثمانية ، وهاجر بعضهم إلى فرنسا وهولندا . أما يهود ألمانيا ، فكان من الصعب طردهم من بلادهم بصورة كاملة ، لأن ألمانيا كانت مقسّمة إلى عدة إمارات صغيرة ولم تكن بها دولة مركزية قوية . وقد ضمن هذا الوضع استمرارهم إذ كانوا حينما يُطردون من إمارة يُلجأون إلى أخرى كما كان الحال في إيطاليا ، وعلى عكس ما حدث في فرنسا وإنجلترا وإسبانيا حيث كانت توجد سلطة مركزية قوية نسبياً .

ومع ذلك ، يمكننا أن نقول إن معظم المدن الألمانية طردت اليهود في نهاية الأمر . ومع القرن السادس عشر الميلادي ، لم تكن هناك جماعات يهودية إلا في ورمز وفرانكفورت ، وكانت تُوجد جيوب يهودية صغيرة متناثرة داخل الإمارات المختلفة . ونتيجة حروب الفرنجة ، ولأسباب أخرى أيضاً ، بدأ التجار اليهود بدعوة من الملوك البولنديين يستوطنون بولندا في القرن الثالث عشر الميلادي ، وذلك لتشجيع التجارة . وقد كانت هناك عوامل تؤدي إلى تناقص عدد أعضاء الجماعات اليهودية من بينها عمليات الطرد ، ولكن أهم هذه العوامل كان الاندماج والتنصر الطوعي ، كما يقرر إسحق أبرابانيل (الكاتب الأسباني اليهودي في العصر الوسيط) . ولكن ، ورغم هذه العوامل ، فقد زاد عدد يهود أوروبا الكلي بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بسبب الارتفاع النسبي لمستواهم المعيشي أو بسبب هجرة يهود الحزر ، حسب نظرية آرثر كوستلر ، أو لمركب من هذه الأسباب جميعاً . ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت أغلبية يهود العالم تعيش في أوروبا . وقد تعرّض كثير من الجماعات اليهودية في غرب أوروبا للهجمات الشعبوية أثناء وباء الطاعون أو المورت الأسود إذ ألقي باللوم على اليهود ووجّهت إليهم تهمة نشر الواب . وقامت الكنيسة ومعها

الملك بمحاولة حماية أعضاء الجماعات اليهودية من غضب الثورات الشعبية .

وكان التركيب الاجتماعي لأعضاء الجماعات اليهودية في أوائل العصور الوسطى الغربية هريماً . وقد شغل أعضاء سبع أسر من سيمز وورمز كل المناصب المهمة في فرنسا وألمانيا ، فكان منهم قادة الجماعة اليهودية ورؤساء المدارس التلمودية ومعلمو التوراة . وظل الانتماء الأسري لليهودي أمراً مهماً جداً في تحديد مكانته الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية ، تماماً كما كان الأمر بالنسبة إلى المسيحي في المجتمع الإقطاعي الغربي ، وظل هذا الوضع حتى القرن الثاني عشر الميلادي . ولكن ، مع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، زاد نفوذ أثرياء اليهود ، وأصبح بالإمكان إحرار المكانة من خلال الثروة خارج نطاق الورثة . وتمتع أعضاء الجماعات في الغرب حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، شأنهم شأن الفئات والطوائف الأخرى ، بما نسميه «الإدارة الذاتية» ، وذلك في الشؤون الخاصة بهم كطائفة دينية ، أي فيما يتعلق بالحاكم والمدارس وشئون الزواج والدفن . وقد قوى هذا هيمنة النخبة اليهودية على أعضاء الجماعة الذين كانوا يشكلون حلقة الوصل بين أعضاء الجماعة والسلطة الحاكمة في عملية جمع الضرائب وغيرها من الأمور .

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات الغربية الوسيلة جماعة وظيفية وسيطة تشكل جسماً غريباً بمعنى الكلمة وتعيش على هامش المجتمع أو في مسامه ، تؤمن بدين معاد للديانة الرسمية بل تقف منها موقف القبيض ، فاليهود قتل المسيح وفق التصور المسيحي وهم يقرأون نفس الكتاب المقدس (العهد القديم) دون أن يعوا مضمونه ، وهم بحسب القول المسيحي : " أغبياء يحملون كتباً ذكية " ، كما أنهم يرجعون لكتابت ضخم من كتب التفسير يُسمى التلمود الذي هو موضع شك العالم المسيحي ، ويرتدون أزياء خاصة بهم ، ويتسمون بأسماء يهودية ، ويتحدثون برطانات غريبة وأحياناً بلغة غير لغة أهل البلاد مثل الفرنسية في إنجلترا والألمانية في بولندا ، ويعملون في وظائف هامشية مثل التجارة والربا . وقد أخذت عزلتهم تتزايد حتى تبلورت تماماً داخل الجيتو خلال القرن الخامس عشر الميلادي . ويبدو أن استبعاد اليهود إلى هذا الحد هو الذي أدّى في نهاية الأمر إلى ظهور المسائل اليهودية المختلفة في غرب أوروبا ووسطها وشرقها . ولم تكن مؤسسات يهود أوروبا الإدارية والتنظيمية في العصور الوسطى تمتلك بيروقراطية محترفة معترفاً بها من قبل الدولة المركزية ، ولم يكن هناك نظير لرأس الجالوت (المنفى) أو رئيس

اليهود (نجيد) ، فكان لكل قهال قوانينه الخاصة به (تاقانوت) التي يحدد فيها حقوقه وامتيازاته ويدافع عنها ضد يهود المدن المجاورة . وكانت المحكمة التابعة لكل قهال مستقلة تباشر نفوذها من خلال التهديد بالطرد من الجماعة (حيريم) . وانقسام القهالات على هذا النحو كان تعبيراً عن اللامركزية التي كانت تسم النظام الإقطاعي في أوروبا (ويختلف وضع الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب في كثير من الوجوه عنه في العالم الإسلامي في الفترة نفسها . ففي العالم الإسلامي ، اندمج اليهودي في مجتمعه على المستوى الوظيفي والاقتصادي والحضاري . كما أنه ، باعتباره عضواً في جماعة دينية ، لم يكن فريداً بل كان ضمن أقلية دينية أخرى) . ومن الصعب تحديد عدد اليهود في كل من أوروبا والعالم في ذلك الوقت . ويبدو أن من العسير أيضاً الوصول إلى تقديرات تقريبية . ولذا ، فإن الأرقام أقرب إلى التخمينات التي تستند إلى كم هائل من الوثائق المتضاربة ، بل إن الأرقام الخاصة بالعصور الوسطى قد تكون أقل دقة من تلك الخاصة بالعالم القديم حيث كان يوجد جهاز إداري تابع للإمبراطورية (الرومانية على سبيل المثال) التي كانت تقوم بحصر سكانها وفرض الضرائب عليهم . ويبدو أن عدد يهود العالم كان يبلغ في القرن الثاني عشر الميلادي مليوناً معظمهم في العالم الإسلامي . ولكن ، مع القرن الثالث عشر الميلادي ، بدأ عددهم يزداد تدريجياً ليصل إلى مليون ونصف مليون ، منهم عدد كبير في أوروبا . وفيما يلي بيان تقريبي بعدد يهود أوروبا خلال الفترة من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٤٩٠ :

الدولة	عام ١٣٠٠		عام ١٤٩٠	
	عدد اليهود	عدد السكان	عدد اليهود	عدد السكان
فرنسا الإمبراطورية الرومانية المقدسة وضمن ذلك سويسرا وهولندا	١٠٠,٠٠٠	١٤ مليوناً	٢٠٠,٠٠٠	٢٠ مليوناً
إيطاليا إسبانيا البرتغال	٥٠,٠٠٠	١١ مليوناً	١٢٠,٠٠٠	١٢ مليوناً
بولندا المجر	٤٠,٠٠٠	٥,٥ مليون	٦٠٠ ألف	٧ ملايين
	٥,٠٠٠	٥٠٠ ألف	٣٠,٠٠٠	٨٠٠ ألف
المجموع	٤٥٠,٠٠٠	٤٤ مليوناً	٦٠٠,٠٠٠	٥٣ مليوناً

ولم يكن حجم أية جماعة يهودية في أية مدينة يزيد على ألفين . وكانت الجماعة المكونة من عدة مئات تُعتبر مهمة وكبيرة . ويلاحظ أيضاً خلوجولمخترنا من اليهود بعد أن كان قد تم طردهم . أما يهود فرنسا ، فكانوا يوجدون أساساً في الإمارات البايوية . ويلاحظ أن أغلبية يهود العالم كانت لا تزال في العالم العربي الإسلامي ، وأن الجماعات اليهودية كانت لا تزال متركزة في حوض البحر الأبيض المتوسط .

### الشعب الشاهد

Witness People

«الشعب الشاهد» هو أحد المفاهيم الأساسية التي ساهمت في تحديد وضع الجماعات اليهودية في الغرب كجماعات دينية إثنية داخل التشكيل الحضاري الغربي . وللمفهوم جانبان متناقضان ولكنها مع هذا متكاملان . أما الجانب الأول ، فهو رؤية الكنيسة لليهود باعتبارهم الشعب الذي أنكر المسيح المخلص عيسى بن مريم الذي أرسل إليهم ، فصلبوه بدلاً من الإيمان به . وقد رأى آباء الكنيسة أن الهيكل هدم وأن اليهود تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفه من ذنوب . كما أعلن أحد الآباء أن الكنيسة أصبحت إسرائيل الحقيقية أو إسرائيل فيروس ، وأنها إسرائيل الروحية والشعب المقدس هو المسيحيون ، أما اليهود فهم إسرائيل المادية الزائفة . ودعا الكنيسة إلى أن تطرح ماضيها اليهودي جانباً وأن توجه إلى العالم الوثني ككل ، أي إلى العالم بأسره . وكل هذا يعني أن آباء الكنيسة لم ينظروا إلى اليهودية باعتبارها مجرد هرطقة دينية وإنما نظروا إليها باعتبارها عقيدة مستقلة معادية . وربما لو اعتبرت اليهودية مجرد هرطقة لثم انجشاث الجماعات اليهودية وتصيير أعضائها بالقوة كما حدث في العصور الوسطى حينما أبادت الكنيسة الكاثوليكية أتباع الهرطقة الألبيجينية وغيرها من الهرطقات . وتطورت صورة اليهودي في الوجدان المسيحي ، فكان يُرمزُ إليه بعيسو مقابل يعقوب ، وهو أيضاً قبائل الذي قتل أخاه هابيل ، وأصبح كذلك قاتل المسيح .

أما الجانب الآخر من فكرة الشعب الشاهد ، فإنه يعود أيضاً إلى آباء الكنيسة ، وخصوصاً القديس بولس ، حيث يذهب إلى أن رفض اليهود قبول مسيحهم المخلص هو سر من الأسرار . وهم يحملون الكتاب المقدس الذي يتبناً يقدمه منذ أيام المسيح ، ومع هذا ينكرونه ، ولذا فقد وصفوا بأنهم «أغبياء يحملون كتاباً ذكياً» (أي لا يعون فحوى ما يحملون) . وتبناً القديس بولس أيضاً بأن قسوة قلب

إسرائيل ستزداد على مر الأيام إلى أن يتصير الأغيار جميعاً ، وحينئذ سيتم خلاص إسرائيل نفسها أي اليهود كشعب بالمعنى الديني . كما تنبأ بأن اليهود سيهبون على وجوههم بلا مأوى ولا وطن حتى نهاية الزمان . وتتواتر الصور والأفكار نفسها في كتابات القديس أوغسطين ، فاليهود مثل قبائل الهاتم على وجهه ، وشتات اليهود لم يكن فقط عقاباً لهم على رفضهم العهد الجديد وعدم إدراك أن العهد الجديد وضَّح المعاني الخفية في العهد القديم بل إن هذا الشُّتات هو نفسه إحدى الوسائل لنشر المسيحية ، كما أن صفة اليهود وتمسكهم في الوقت نفسه بشعائر دينهم التي ترمز للمسيحية منذ القدم ، دون أن يعوها ، يجعل منهم شعباً شاهداً يقف دليلاً حياً على صدق الكتاب المقدس وعلى عظمة الكنيسة وانتصارها . وبذا ، تحوَّك اليهود إلى أداة لنشر المسيحية (وتمت حوسلتهم لصالح العالم المسيحي) . ولعل هذا يفسر حقيقة تهملها كثير من الدراسات ، وهي أن محاكم التفتيش كانت تتعقب اليهود المنتصرين لتتأكد من مدى إيمانهم ، أما أعضاء الجماعات اليهودية فلم تكن لها أية صلاحيات لمحاكمتهم .

وقد ساهم كلا العنصرين المتناقضين السابقين في صياغة السياسة الكاثوليكية إزاء الجماعات اليهودية ، فكانت الكنيسة ترى ضرورة الإبقاء على اليهودية وعلى اليهود كشعب شاهد سيؤمن في نهاية الزمان بالمسيحية ، ولذا تبغى حمايتهم من الهلاك والدمار ولكن يجب أيضاً وضعهم في مكانة أدنى من المسيحيين . ولهذا ، كانت الكنيسة تقوم بحملات تبشيرية بين اليهود ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تمنع تنصيرهم بالقوة وتحرم توجيه تهمة الدم إليهم ، ومن هنا كان دور الكنيسة المزدوج فقد ساهمت في اضطهاد اليهود ولكنها لعبت في الوقت نفسه دوراً أساسياً في حمايتهم من الجماهير الغاضبة المستقلة وفي الإبقاء عليهم . وقد تم تلخيص الموقف في العبارة التالية : «أن تكون يهودياً ، فهذا جريمة ، ولكنها جريمة لا تُوجب على المسيحي أن ينزل بصاحبها العقاب ، فالأمر متروك للخلاق» .

ومن أهم آثار فكرة الشعب الشاهد أنها وضعت اليهود ، من الناحية المعنوية والأخلاقية ، على حدود التاريخ الغربي والتشكيل الحضاري الغربي ، وعمقت حدود دينهم وهامشيتهم بحيث يمكن القول بأن فكرة الشعب الشاهد الكاثوليكي هي المقابل الديني المفهوم أقتان البلاط الطبقي الذي حدد وضع اليهود كجماعة وظيفية وسيطة . ويلاحظ أن فكرة الشعب الشاهد تؤكد ضرورة الحفاظ على اليهود كأداة وعنصر غريب لا جذور له في الحضارة الغربية ، وذلك

ويصبح من أقتانه . وكانت الحقوق والواجبات تُحدَّد بشكل دقيق ولا تسري إلا على الغريب . أما أعضاء المجتمع ، فكانوا يتعاملون بشكل شخصي داخل إطار الأعراف القائمة . ومن ثم ، كان الملوك يُصدرون الموائيق التي تؤكد وضع اليهود تحت حمايتهم وتمنحهم المزايا . وكان إطار هذه الموائيق هو المبادئ الأساسية العامة ، ثم تنشأ حولها بعد ذلك مجموعة أخرى من الحقوق والمزايا غير المكتوبة . ومن أشهر الموائيق ما أصدره في ألمانيا رودريجز هاوتسمان (أسقف سبيري) عام ١٠٨٤ ، والميثاق الذي أصدره الإمبراطور هنري الرابع لبعض اليهود في بعض المدن عام ١٠٩٠ ، وميثاق هنري الرابع ليهود ورمز عام ١٠٩٠ ، وميثاق الإمبراطور فريديريك الأول عام ١١٥٧ والذي استُخدم فيه مصطلح «أقتان البلاط» ربما لأول مرة . وقد استخدم فريديريك الثاني هذا المصطلح عام ١٢٣٦ للإشارة إلى يهود ألمانيا جميعاً كما أصدر ميثاقاً عام ١٢٣٨ ليهود فيينا . وهناك ميثاق الملك جون الذي أصدره ليهود إنجلترا عام ١٢٠١ ، والميثاق الذي أصدره شارل الخامس ليهود فرنسا عام ١٣٦٠ . وكانت هذه الموائيق تشبه من بعض الوجوه جواز السفر . وعلى سبيل المثال ، أصدر لويس الثقيف عام ٨٢٠ ميثاقاً كان يحمله اليهود يُطلب فيه من الأساقفة والنبلاء والحكام وجامعي الضرائب وكل الرعايا المخلصين ألا يتعرضوا لليهود وألا يضايقوهم أو يصادروا أموالهم أو يقرضوا عليهم أية ضرائب أو يطلبوا إليهم أن يزدودوا الجنود والموظفين العابرين بالطعام أو الأماوى أو يطلبوا منهم هبات أو مساهمات مالية لصيانة الطرق والأنهار والكباري أو يُحصلوا منهم ضريبة مرور . بل إن الميثاق كان أكثر من جواز سفر إذ كان يعطي أصحابه مزايا عديدة ، ومن هنا أصر اللومبارد والتجار الآخرون على الحصول على موائيق شبيهة بتلك التي مُنحت لليهود . ومن أهم المزايا التي حصل عليها أعضاء الجماعة اليهودية : حرية التجارة ، وحرية استيراد العبيد من البلاد السلافية الوثنية ، وحرية بيعهم في الإمبراطورية ، وحماية تجارة العبيد بتحرير تصديرهم أو تعميمهم لأن هذا كان يُعدُّ تأمياً لهم (إن صح التعبير) شريطة أن يلتزم اليهود بعدم الاتجار في العبيد المسيحيين . وأعطت بعض الموائيق اليهود الحق في استئجار المسيحيين ليكونوا خدماً شريطة ألا يعملوا في أيام الأحد والأعياد . ونصت بعض الموائيق على أن من حق المرابي اليهودي ، عند اكتشاف أن السلعة المرهونة مسروقة ، أن يبيعها ويحصل على ما قام بدفعه إن أثبت أنه لم يكن يعرف أنها مسروقة . ومنعت بعض الموائيق أن يشتغل اليهود بأعمال الصيرفة في مكان يعمل فيه صياغة مسيحيون . وسمحت لأعضاء الجماعات اليهودية

ليخدموا غرضاً أو هدفاً غير يهودي . وتعمَّق هذا الإطار الفكري فيما بعد في الفكر البيروستاتني الخاص بالمعتقدات الألفية وعقيدة الخلاص الأسترجاعية التي ترى أن اليهود أداة من أدوات الخلاص ، وتمت علمنة المفهوم فيما بعد فتحوَّل إلى ما نسميه «الشعب العضوي المنبذ» ، أي أن اليهود يشكلون شعباً عضوياً منبذاً لا مكان له داخل الحضارة الغربية ، وهو المفهوم الذي يشكل إطار التصور الغربي للجماعات اليهودية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو الأساس الفكري لكل من الصهيونية ونزعة معاداة اليهود . ويُلاحظ أن وعد بلفور يتنقل من تصوُّر مشابه لفكرة الشعب الشاهد ، بلفور يرفض الوجود اليهودي داخل الحضارة الغربية ولكن لم يكن لديه مانع من أن يرعاه مادام موجوداً خارجها وعلى حدودها في فلسطين .

### المواثيق والمزايا والحماية

#### Charters, Privileges and Protection

يُسمى الميثاق باللاتينية «كارتا Carta» . وفي الإنجليزية ، يُسمى الميثاق «تشارتر charter» . والموائيق نصوص كانت تُصدرها جهة رسمية تعهد فيها بتزويد فرد أو مجموعة من الأفراد بحماية خاصة وتمنحهم المزايا وتحدد حقوقهم وواجباتهم . وكان الأمراء والملوك يمنحون أعضاء الجماعات اليهود مثل هذه الموائيق التي كانت تؤكد وضعهم كجماعة وظيفية مالية داخل المجتمع الإقطاعي الوسيط في الغرب . وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية ، لم يعد هناك قانون عام واحد يسري مفعوله في التشكيل السياسي الغربي كله رغم اعتراف الدول بمثل هذا القانون . وكان اليهود قد مُنحوا حق المواطنة حسب مرسوم كاركالا . ولكن ، مع انتشار القانون أو العرف الألماني ، تغيَّر الوضع القانوني (فيما بعد) للجماعات اليهودية . وكان القانون الألماني يرى أن الغريب لا مكان له ولا حقوق ، كما كان يمكن قتله دون أن يُعاقب قاتله ، وكان كل من يمنحه الأماوى يصبح مسئولاً عن أفعاله ، وكذلك كان لا يحق له امتلاك شيء وليس لورثته حق الميراث . وكان الغريب يعيش حسب قانون حاميه ، كما كان الاعتداء عليه اعتداءً على حاميه . وكان اليهودي هو الغريب الأساسي في المجتمع ، نظراً لأنه لم يكن يعمل لا بالزراعة ولا بالتجارة ، وهما المهنتان الأساسيتان في المجتمع الإقطاعي ، كما لم يكن اليهودي ملحقاً بأي من المدن أو مؤمناً بالمسيحية . وحسب القانون الألماني ، فإن أي فرد لا حقوق له ، ولا يتمتع بحماية أية جماعة أو فرد ، كان يُوضَع تحت حماية الملك

ويمكن القول بأن الموائيق جعلت اليهود جماعة مميزة تتمتع بمستوى معيشي يفوق مستوى كثير من طبقات المجتمع الإقطاعي الغربي الأخرى . ولعل من أهم القرائن على ذلك أنه ، رغم وجود ما يشبه المجاعة في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، فلا يوجد أي ذكر لها في المصادر اليهودية ، فقد كان اليهود يعيشون عيشة أرسطراطية جديرة بالتجار الدوليين .

ولكن يجب الانتباه إلى أن تميزهم هذا حولهم إلى جماعة وظيفية وسيطة وإلى سلعة ممتازة وأداة إنتاج متقدمة راقية ومادة بشرية تمت حوسلتها تماماً ، فاليهودي في نهاية الأمر كان ملكية خاصة للملك أو لأي شخص يعطيه الموائيق والزمايا . وتستخدم الموائيق عبارات تُضمّر حق امتلاك اليهود ، مثل «جودايوس هايريير judaeos habere» وتعني «حق امتلاك اليهود» أو «جودايوس تنييري judaeos tenere» أي «حق الاحتفاظ باليهود» ، وهي حقوق كان بإمكان الملك أن يبيعها للمدن أو للسلطات المحلية ، تماماً مثلما تباع إحدى المدن في الوقت الحاضر امتياز استغلال منجم أو مد طريق سكة حديدية . فاليهودي لم يكن عضواً في المجتمع وإنما كان شيئاً مملوكاً تُفرض عليه ضرائب ، وكلما ازدادت الحقوق والزمايا التي كان يشتريها اليهودي ازدادت أرباح مانح الميثاق الذي كان يعترض اليهودي عن طريق الضرائب وغيرها من الرسوم . كما أن عملية منح الميثاق كانت تدر على الملك عائداً ضخماً حيث كان يتعين على أعضاء الجماعة شراؤها . وإذا نشأت حاجة إلى مزيد من المال ، فإن هذه الموائيق كانت تُلغى لبيعها لهم من جديد حيث لم تكن هناك أية قيود على مانحها كما كان يوسعها أن يبيع اليهود لمالك آخر يمكنه أن يعترضهم بشكل أكثر كفاءة .

وكانت الموائيق الوسيلة التي استخدمها الملوك والأمراء لتحويل اليهود إلى أداة يمكنهم عن طريقها ضرب المدن التي كانت تحاول توسيع نطاق سيادتها واستقلالها ، بل ضرب كل القوى الاجتماعية التي كان الملك يود التخلص منها أو كبح جماحها .

ولكل ما تقدّم ، نستطيع أن نقول إن أعضاء الجماعة اليهودية ، برغم كل ما تمتعوا به من مزاي وما حققوا من ثراء ، ظلوا مجرد إسفنجة تُمتصّر أو قنّاة موصلة وأداة لضرب الآخرين . ولعل هذا يفسر عدم مساهمة اليهود في نشأة ما يُسمّى «الراسمالية الرشيدة» التي نشأت في صفوف الجماعات البرتستانتية في هولندا وإنجلترا . ويُلاحظ أن من كان يتصرّف من اليهود كان يفقد كل المزاي التي أعطيت له بموجب الميثاق ، بل كان يفقد كل أملاكه لأنه لم يعد من أفتان البلاط . كذلك لم يكن من حق اليهودي أن يغادر البلد إلا بأمر

أن يعيشوا حسب قوانينهم وأن تكون لهم مدافعهم الخاصة ومعابدهم ومحاكمهم ، كما منحهم حق فض المنازعات التي كانت تقوم فيما بينهم . وسُمح لليهود بحمل سلاح ، مع أن هذا الحق كان مقصوراً على النبلاء وبعض رجال الدين ، وذلك حتى إذا كانوا لا يظلمون بأية مهام قتالية . وكان من حق اليهود بناء أسوار حول منطقتهم السكنية . وقد كان الجيتوي في بدايته إحدى المزاي التي كانت تُمنح لهم . كما منحتهم بعض الموائيق حق ارتداء زيّ خاص بهم حماية لهم فلا يعتدي عليهم أحد بالضرب أو بغيره . وكانت شهادة اليهود تُقبّل أمام المحاكم ، وهو أمر لم يكن متاحاً للكثيرين . وأعفي اليهود من أشكال الاستجواب المختلفة في العصور الوسطى مثل الاستجواب عن طريق التعذيب ، وهي وسيلة بدائية اصطنعت لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئاً أو مجرماً . وأغضت بعض الموائيق أعضاء الجماعة اليهودية من عقوبة التعذيب أو الضرب وهي عقوبة كانت تُطبّق على الفلاحين والأفتان .

وفي العصور الوسطى ، كان الوضع القانوني لأعضاء الجماعات اليهودية يُعدّ مزية كبرى . فاليهودي لم يكن كالأفتان مرتبطاً بضبعة محددة أو مكان محدد ، كما لم يكن كالنبلاء مرتبطاً بالأرض على الإطلاق ، ولم يكن كرجال الدين مرتبطاً بالكنيسة . ولم تكن تحد من حركته عشرات القوانين المحلية المتناقضة . وقد أكد مرسوم الملك جون في إنجلترا (عام ١٢٠١) هذا الحق بوضوح تام . وكما قال أحد الكتّاب اليهود ، كان يوسع اليهود أن يتقلّوا من مكان إلى آخر كالفرسان . ووصف كاتب آخر اليهودي في العصور الوسطى بأنه مثل مالك الأرض الذي فقد أرضه ولم يفقد حريته . ووفّرت الموائيق لليهود الجو المستقر اللازم للقيام بالأعمال المالية والتجارية وحميتهم من هجمات الغوغاء وسكان المدن والحرفيين ومحاكم التفتيش والتعميد القسري والانتهاكات المختلفة مثل تهمة الدم .

ولم يكن اليهود الجماعة الوحيدة التي تحصل على موائيق ، فالولمبارد والأرمن والحرفيون حصلوا كذلك على موائيق تحدد حقوقهم وواجباتهم والمزاي التي يحصلون عليها . وكانت الموائيق تختلف من جماعة إلى أخرى ، فالميثاق الذي كان يُمنح لليهودي الغربي يختلف عن الميثاق الذي يُمنح للحرفي المقيم . ولذا ، لم يكن من الأمور المستغربة في المجتمع الأوربي الوسيط أن تُوجد في المدينة أو القرية الواحدة عدة قوانين مختلفة ، فالقوانين التي تنطبق على النبلاء كانت لا تنطبق مشلاً على الفلاحين . وكان نظام العقوبات يختلف كذلك من جماعة إلى أخرى .

**حقوق استبعاد اليهود**

De non Tolerandis Judeis (Not to Suffer the Presence of the Jews)

«حق استبعاد اليهود» ترجمة بتصرف للعبارة اللاتينية «دي نون توليرانديس جودايس» التي تعني حرفياً «عدم التسامح مع اليهود». وهو حق كان يُعطى في العصور الوسطى لبعض المدن الأوربية التي كانت تخشى منافسة التجار اليهود الذين كانوا يحصلون على الموائيق والمزايا والحماية. وكان الأباطرة والملوك يضطرون إلى منح بعض المدن هذا الحق على مضض، لأن ذلك كان يعني تقليص ميزانيتهم، كما كان يشكل قيداً على أعضاء الجماعة اليهودية أي أفتان البلاط الذين كانوا يحققون لهم أرباحاً هائلة من خلال حركيتهم وحرثيتهم. وكان الملوك يضطرون إلى إعطاء هذا الحق للمدن بعد نشوب الثورات الشعبية والقومية التي كان يشترك فيها النبلاء أحياناً، كما حدث في إنجلترا عامي ١٢٣٠ و ١٢٤٠، وكما حدث في مدينة برنو عاصمة إقليم مورافيا في تشيكوسلوفاكيا عام ١٤٥٤. وقد ظل أعضاء الجماعة ممنوعين من دخولها رسمياً حتى عام ١٨٤٨، ومع هذا سُمح لبعض الأفراد من اليهود بحضور الأسواق داخل المدينة نظير دفع رسم دخول. وقد نُجحت وارسو أيضاً في الحصول على حق استبعاد اليهود في عام ١٥٢٧.

وكثيراً ما حارب اليهود ضد منح المدن هذا الحق. وفي حالة وارسو، على سبيل المثال، كانت المدينة تتمتع بأهمية خاصة من الناحيتين السياسية والمالية، ولذا حارب أعضاء الجماعة اليهودية إلى أن مجحوا في الاستيطان على حدودها بل دخلوها في نهاية الأمر. وحينما بدأ السيم (البرلمان البولندي) وعقد اجتماعاته ابتداءً من عام ١٥٧٢، سُمح لليهود بدخول المدينة أثناء عقد دوراته، ثم مُدَّت الفترة المسموح لهم بها إلى أسبوعين قبل الاجتماعات وأسبوعين آخرين بعدها. كما سُمح للوسطاء اليهود (بالعبرية: شتدلايم) الذين كان يبعث بهم مجلس البلاد الأربعة بأن يزوروا وارسو للقيام بالمفاوضات مع العرش والنبلاء. وقد حصل عدد آخر من أعضاء الجماعة على تصريحات بدخول المدينة والإقامة فيها، فمثلاً كان من الممكن شراء تذكرة دخول وإقامة مدة أربعة عشر يوماً. وقد بيَّن إحصاء عام ١٧٦٥ أنه كان يوجد داخل وارسو ٢٥١٩ يهودياً، وكثيراً ما كان يتسلل بعض أعضاء الجماعة اليهودية إلى المدن أو يعسكرون خارجها لبيع سلعهم.

ويمكن رؤية تاريخ الإقطاع في الغرب، الذي ظل قائماً حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً في شرق أوروبا ووسطها،

من الإمبراطور، وإن ضُبط متلبساً بمحاولة الهرب فإنه كان يُعتبر لصاً يسرق أملاك الملك.

ومن ناحية أخرى، فإن الموائيق لم تمنح اليهود أية سلطة سياسية. ولكن هذا الأمر لم يكن مقصوداً على اليهود وحدهم وإنما كان ينطبق على جميع طبقات المجتمع باستثناء كبار الملك وكبار رجال الكنيسة.

وظلت الموائيق والمزايا والحماية تشكل عنصراً أساسياً في الحضارة الغربية، وبالذات في وسط وشرق أوروبا. فحتى القرن الثامن عشر الميلادي، كانت الولايات الألمانية تُقسّم اليهود فيها إلى يهود تحت الحماية، وهم أصحاب امتيازات، ويهود خارج الحماية أي أولئك الذين تسلموا وسكنوا في ألمانيا دون وجه حق، وكان يُشار إليهم بأنهم بدون جواز. وتطوّر هذا المصطلح فيما بعد ليقسمهم إلى يهود نافعين ويهود غير نافعين، وهو تقسيم تبنته روسيا القيصرية وغيرها من الدول الأوربية في القرن التاسع عشر الميلادي.

بل عرفت أوروبا الموائيق حتى القرن التاسع عشر الميلادي، فقد قام النبلاء الإقطاعيون (بويار) في رومانيا بمنح اليهود موائيق (هيرسغو) حصلوا بمقتضاها على مزايا معينة من بينها الإعفاء من الضرائب لعدة سنين، والحصول على أرض فضاء لإقامة معابدهم. وأسس النبلاء اليهود مدنًا صغيرة تشبه الشتلات، وكان يُطلق على هؤلاء اليهود «هيرسوفلتس» أي «الميثاقون» أو «أصحاب الميثاق». وكان يهود هيرسوفلتس يُستجلبون من خارج رومانيا، أي أنهم كانوا في منزلة جماعة وظيفية استيطانية. وكانت كلمة «الميثاق» (بالإنجليزية: charter) تُطلق أيضاً على الامتيازات التي كانت تُمنح للشركات الغربية الاستيطانية في أفريقيا.

ولا يمكن استبعاد أن هذا كان هو الإطار المرجعي لوعد بلفور الذي يشار إليه في الأدبيات الصهيونية قبل صدوره بلفظ «تشارتر charter» أي «ميثاق»، فهو وثيقة سياسية وضعت لليهود تحت حماية الإمبراطورية الإنجليزية وأعطتهم مزايا وحقوقاً كثيرة شريطة أن يتوطنوا فلسطين ويقوموا على خدمة الإمبراطورية بعد أن أصبحوا أداة لمن منحهم الميثاق. وكان يُشار للصهاينة بأنهم «تشارتربايتس Charterites» أي «الميثاقون».



المسيحيين . وقرر المجلس أنه يتعين على اليهود والمسلمين ارتداء ملابس خاصة بهم وأن يضعوا إشارة معينة تميزهم ، وأصبحت هذه الإشارة تُسمى «إشارة العار» بعد أن كان ارتداء مثل هذه الشارات امتيازاً يكد اليهود من أجل الحصول عليه . وكانت هذه الإشارة عبارة عن قطعة قمماش مستديرة صفراء وحمراء في فرنسا ، وعبارة عن قبعة مميزة في ألمانيا والنمسا . وكان الهدف من الزي المميز والشارة منع الاختلاط بين الجنسين من أعضاء الجماعتين والحيلولة دون حدوث التزاوج .

وأصبح من حق أي راهب دخول المعبد اليهودي ليلقي موعظة مسيحية ، وعادةً ما كان يصطحب معه يهودياً منتصراً . وبدأت عملية حرق التلمود منذ ذلك العهد ، كما بدأ عقد المناظرات بين المسيحيين واليهود ليبرهن كلٌّ على مدى صحة دينه ، وهي مناظرات لم يكن يتبع فيها اليهود بالحرية الكاملة . ومع هذا ، ونتيجةً لأن المجتمع الغربي الوسيط كان بحاجة إلى مهنة اليهود وهي التجارة والربا ، فإن الكثيرين من حكام المدن والأساقفة ومواطني المدن المهتمين بتشجيع التجارة كانوا يراوغون في تنفيذ القرارات .

#### الموت الأسود

Black Death

«الموت الأسود» وباء قضى على نحو خمسة وعشرين مليوناً من سكان أوروبا . وهو عدد يشكل ما بين ثلث ونصف السكان في الفترة من ١٣٤٧ إلى ١٣٥٠ . وقد شُخص الواباء بأنه نوع من أنواع الطاعون .

ولم يكن هناك تفسير علمي لهذه الظاهرة في العصور الوسطى ، فأصاب الناس بالذهول ، وفسرته الجماهير بأنه غضب الرب بسبب فساد الناس . كما اتجهت شكوك الناس نحو أعضاء الجماعات اليهودية لأن معدلات الإصابة بين اليهود كانت أقل نسبياً من المعدلات العامة مع أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يعيشون بين الجماهير . ولعل هذا كان يعود إلى عزل اليهود في الجيتو عن بقية السكان وإلى وضعهم الطبقي المتميز وقوانين الطعام الخاصة بهم . وقد قامت الجماهير بالهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية في أنحاء متفرقة من أوروبا ، لعل أقلها كان في إسبانيا وجنوب فرنسا وأكثرها في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وخصوصاً ألمانيا . وكانت التهمة الموجهة إليهم هي قيامهم بتسميم الآبار للقساء على المسيحيين . وتعدُّ هذه الهجمات من أشد الهجمات وطأة باستثناء تلك التي تمت أثناء حروب الفرنجة . وطُرد اليهود من عدة مدن .

باعتباره تاريخ توتر بين الملك من جهة ، حيث كان يحاول توسيع نطاق نفوذه ، والطبقات القومية والمحلية (التجار والحرفيين والفلاحين وحتى بعض النبلاء أحياناً) من الجهة الأخرى . وهذه الطبقات كانت تحاول أن تقلص هذا النفوذ لتتمكن من ممارسة نشاطها المالي والتجاري بحرية . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية إحدى الأدوات التي كان يستخدمها الحاكم لتوسيع نفوذه . وكانت المطالبة بحق استبعاد اليهود واستصدار مثل هذا القرار من خلال الثورة الشعبية أو من خلال شرائه هي رد فعل الطبقات القومية والمحلية .

#### المجامع اللاترانية الكنسية

Lateran Councils

«المجامع الكنسية» هي مؤتمرات كانت تعقدها الكنيسة الكاثوليكية بشكل غير دوري لمناقشة الأمور المهمة ، وهي المجامع التي أرست قواعد العقيدة المسيحية الكاثوليكية كما حددت أطرها وحددت علاقة الكنيسة بالسلطة الدنيوية وباليهود . ومن أهم المجامع ، من منظور بعض الجماعات اليهودية في الغرب ، للمجمعان الثالث (١١٧٩) والرابع (١٢١٥) تحت رعاية البابا إنوسنت الثالث . ولعل الخلفية التاريخية لهذين المجمعين تفسر تشدُّد القرارات التي أصدرها إذ شهد جنوب فرنسا غموج حركات هرطقة في القرن الثاني عشر الميلادي أحرزت شيئاً من النجاح حتى اضطرت الكنيسة إلى تجريد حملة ضدها عام ١٢٠٨ ، ثم تبعتها محاكم التفتيش عام ١٣٣٢ .

واكتملت التشريعات المسيحية المتصلة باليهود من خلال قرارات هذين المجمعين ، وأخذت شكلها النهائي الذي استمر حتى عصر النهضة وعصر الإعتاق والانعقاد . فأكدت مقررات المجلس الثالث منع اليهود من استئجار مسيحيين ومنع المسيحيين من استئجار خادمة أو استخدام عمرة يهودية أو طبيب يهودي . ولكن للمجلس ، مع هذا ، جعل شهادة المسيحي ضد اليهودي وشهادة اليهودي ضد المسيحي جائزة ، كما أوجب حماية اليهود من التعميد القسري ومن أي هجوم عليهم أو مضايقتهم أثناء أدائهم صلواتهم . أما مقررات المجمع الرابع ، فطلبت إلى المسيحيين مقاطعة اليهود فيما لو حصلوا على فوائد مرتفعة على النقود التي يقرضونها بالربا ، ونصت على منع اليهود من الظهور بملابس الزينة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام ، وفي يوم الجمعة الحزينة بنوع خاص . وأصبح من غير المجازت تعيين اليهود في المناصب العامة أو تفضيلهم على

التخلص من الديون والمنافسة التجارية ، وبيّن أن اليهود لا يمكن أن يكونوا مسئولين عن الموت الأسود لأنه وصل إلى مناطق لا يوجد فيها يهود . وكذلك حاولت الطبقة الحاكمة من الملوك والأمراء وكبار الممولين الدفاع عن اليهود ، ولكن هذه المحاولات كانت دون جدوى في بعض الأحيان لأن الهجوم على اليهود كان يأخذ شكل الثورة الشعبية التي لم يكن بإمكان السلطة الحاكمة التصدي لها .

وما يجدر ذكره أن عمليات الهجوم والطرود لم تكن مقصورة على اليهود رغم أنهم قد يكونون ضحيتها الأساسية ، فقد كان سكان المدن أحياناً يطردون الشحاذين ، وفي بعض الحالات قاموا بطرد النبلاء ، ووجهت تهمة تسميم الآبار لبعض كبار الرهبان . وقد قامت الكنيسة بدور مهم في محاولتها حماية اليهود ، فأصدر البابا كليمنت السادس مرسوماً للدفاع عن اليهود ، كما بيّن بعض الدوافع الاقتصادية الكامنة وراء الهجمات مثل



## ٢

## الجيتسو

الجيتسو: تاريخ - بنية الجيتو - الجيتوية - حظر الاستيطان - القَسَم اليهودي - علامة اليهود المميزة - احتكار السلع وأسرار المهنة - الوسيط (شتدلان) - الرئيس (برناس) - قوانين الترف - النظم القضائية والمحاكم - الطرد من حظيرة الدين والجماعة (حيريم) - الشتتل

## الجيتسو: تاريخ

Ghetto : History

اليهودية في شرق أوروبا ، وتورد بعض المراجع اسم «حارة اليهود» باعتباره شكلاً من أشكال الجيتو في مصر . ولكن حارة اليهود لا تختلف عن أية حارة أخرى في مصر ، مثل : حارة النحاسين وحارة النصارى وحارة الروم ودرب البرابرة ، وغير ذلك كثير . ولعل ظاهرة الجيتو لم تظهر في العالم الإسلامي ، إلا في المغرب في أحياء «الملاح» التي كان اليهود يُعزّكون داخلها في مراحل تاريخية كانت تتسم بالتوتر . والواضح أن عدم انتشار ظاهرة الجيتو في المجتمع الإسلامي راجع للبنية التاريخية والدينية والاقتصادية لهذا المجتمع ولوقف الإسلام من الأقليات .

وفي العصور الحديثة ، اكتسبت كلمة «جيتو» في اللغات الأوربية معنى قديماً سلبياً (وحيثما دخلت الكلمة العربية جاءت وهي تحمل الدلالات السلبية المرتبطة بها) . ولكن الأمر لم يكن كذلك دائماً . ولفهم تطوّر معنى الكلمة ، لابد أن نضع الظاهرة في إطار تاريخي وإنساني عام . ولكن ، قبل استعراض تاريخ الجيتو ثم بنيتة ، يجب التنبيه إلى أنه لا يوجد مسار تاريخي واحد مثل هذه الظاهرة ، وخصوصاً بعد القرن الخامس عشر الميلادي مع بداية ظهور التشكيلات القومية الغربية المختلفة ومع اختلاف معدلات العلمنة والتحديث والثراء والفقر والصراع الطبقي فيها . ومع هذا ، سنحاول أن نقدم مخططاً عاماً آمليّن أن تقدم بعض السمات العامة التي تساعد على فهم الظاهرة دون أن نتجاهل قدر الإمكان عناصر التعاقب التاريخي أو السمات الخاصة للجيتوات المختلفة .

ويكمن القول بأن المجتمع الإقطاعي عامة ، وبالذات في الغرب ، ذو طبيعة مغلقة ، لكل فرد فيه مكانه ومكانته سواء كان فلاحاً أو نبيلاً . وكان المجتمع مبنياً على الفصل بين الطبقات والاحتفاظ بمسافة اجتماعية واضحة بينها . وكان هذا الفصل من سمات التنظيم الاجتماعي المعمول به في مجتمعات العصور الوسطى الزراعية والإقطاعية في الغرب والمجتمعات التقليدية على وجه العموم . ويظهر هذا الفصل الواضح في عدم السماح للغرباء

«الجيتسو» هو الحي المقصور على إحدى الأقليات الدينية أو القومية . ولكن التسمية أصبحت مرتبطة أساساً بأحياء اليهود في أوروبا . وللكلمة معنيان : عام وخاص . يعني الجيتو بالمعنى العام أي مكان يعيش فيه فقراء اليهود دون قسر من جانب الدولة ، أو حي اليهود بشكل عام . ويعود تاريخ هذه الجيتوات إلى الإمبراطورية البيزنطية والرومانية . أما الجيتو بالمعنى الخاص الذي أصبح شائعاً ، فيعني المكان الذي يُعرض على اليهود أن يعيشوا فيه ، وقد استُخدمت الكلمة بهذا المعنى للإشارة إلى جيتو البندقية (عام ١٥١٦) . وأصل الكلمة غير معروف على وجه الدقة ، فيقال إنها حي اليهود في البندقية نسبة إلى «فليجيتو vilgetto» أو «مصنع المدافع» الذي أقيم بجواره . ويُقال أيضاً إن الكلمة مشتقة من الكلمة الألمانية «جهكتر أورت Gehecker Ort» التي تعني «المكان المحاط بالأسوار» ، أو هي من الكلمة العبرية «جت» أو «جيط» بمعنى «الانفصال» أو «الطلاق» الواردة في التلمود . وربما كان أكثر الافتراضات قرباً من الواقع هو ذلك الذي يعود بالكلمة إلى لفظة «بورجيتو» الإيطالية التي تعني القسم الصغير من المدينة ، أي أن كلمتي «جيتو» و«بورجوازية» مشتقتان من أصل واحد . ومن أسماء الجيتسو الأخرى في ألمانيا : «يودين شتراس Judenstrasse» أي «شارع اليهود» ، أو «يودين جاسي Judengasse» أو «جاسي Gasse» فقط ، أي «حارة اليهود» ، أو «يودين فيرنتيل Judenviertel» ، أي «حي اليهود» . وفي البرتغال سُمّي الجيتو «جوديا Judaria» وفي فرنسا سُمّي «جويفيرى Juiverie» ، وفي إيطاليا سُمّي «جيديكيا Guidecca» ، وسُمّي بالإنجليزية «جوري Jewry» . وكلها كلمات تصف اليهود باعتبارهم كتلة . والشتتل (أي المدن اليهودية الصغيرة في أوكرانيا وغيرها من بلاد شرق أوروبا) هو أحد أشكال الوجود الجيتوي وأهمها على الإطلاق من منظور تاريخ الصهيونية والمسألة

وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار ، والختان ، والنصاب اللزائم لصلاة الجماعة ، وعدادات الدفن والمدافن ، وشعائر السبت . لكل هذا ، نجد أن الجيتو لم يكن قديماً يُفرض على اليهود وإنما كان حقاً يسعون إليه ويشترونه . وكان عليهم في بعض الأحيان شراؤه مرة في العام بل أحياناً مرة كل ثلاثة أشهر . ففي عام ١٠٨٤ ، قام الأسقف هاوتسمان ، أمير مدينة سيبير ، بكتابة وثيقة جاء فيها أنه أراد أن يزيد عزة مدينته ومجدها فأحضر اليهود فيها وأسكنهم خارج المناطق التي يسكن فيها بقية المواطنين وأحاطهم بأسوار عالية حتى لا يضايقهم الآخرون . وحينما استعاد المسيحيون الأندلس ، طالب اليهود بهذا الحق . ومن مآثر جيمس الأول ، ملك أراجون ، أنه منحه اليهود عام ١٢٣٩ الحق في أن يعيشوا في حي خاص بهم . وقد كان اليهود يعترفون بالجوانب الإيجابية للجيتو حتى أن الصلوات كانت تُقام كل عام في جيتو فيرونا احتفالاً بالذكرى السنوية لإنشائه .

والواقع أن إنشاء الجيتو ، برغم أهميته القصوى من ناحية إدارة المجتمع وحماية الأقلية وضمن تسيير المجتمع دون احتكاك كبير بين فئاته وطبقاته ، ساهم في عزل اليهود وتجريدهم ، أي تحويلهم إلى عنصر مجرد غير إنساني . كما أن العزلة خارج المدينة ، داخل الأسواق العالية ، جعلت علاقاتهم ببقية السكان علاقة غير مباشرة وتعاقدية تستند إلى ميثاق مكتوب ، فهي إذن علاقة مالية مجردة أكثر من كونها علاقة اجتماعية . ولقد ساهم تحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تجارية ، مع ما يتطلبه الأمر من حياد وتجرُّد من العواطف ، في ظهور الجيتو .

ولهذا ، يمكن القول بأن الجيتو ، في علاقته مع العالم الغربي ، يشكل أول جيوب العلمانية والتفعية والتعاقدية الحقة في أوروبا ، ذلك أن العلاقات هنا لا يشوبها أي حب أو عاطفة بل هي علاقات رشيده تماماً ؛ عقلانية مادية ، خاضعة للحسابات الصارمة للعرض والطلب وتنضوي داخل نسق هندسي كمي .

ومع هذا ، ظل وضع الجماعات اليهودية داخل أو خارج الجيتو مقبولاً ومحمولاً وأساسياً بشكل عام . ومن المعروف أن بعض الأباطرة وبعض سكان المدن كانوا يخشون أن يهرب اليهود منهم ، الأمر الذي يُعدُّ تبديلاً للثروة وفقدان أداة مهمة من أدوات الإنتاج والإدارة . وكانت معظم الهجمات التي تُشن عليهم ، حتى نهاية الألف الأول بعد الميلاد ، هجمات متفرقة ذات طابع فردي . فالتاجر يقوم بوظيفة حيوية بالنسبة للمجتمع ، ولكن نتيجة التحولات التي مر بها المجتمع الإقطاعي الغربي ، والتي أدت إلى

البقاء في المدن لأية مدة ، حيث كان يتعين عليهم دفع ضريبة كبيرة للحصول على حق البقاء المؤقت . وفي داخل المدينة نفسها ، كان أعضاء كل مهنة أو حرفة يعيشون في أحياء مقصورة عليهم . والفصل هنا شكل من أشكال تقسيم العمل ، علماً بأن معظم المهن والحرف كانت تورث في نفس العائلة . وهذا تأكيد للمسافة الاجتماعية اللازمة لأداء النسق وضمن أن يظل الاحتكاك بين الطبقات والأقليات والجماعات الإثنية المختلفة عند حد معقول يضمن تحاشي التفجرات بينها . كما كان وسيلة من وسائل الإدارة في غياب نظام إداري مركزي قوي . ولعل بعض هذه السمات هي التي سمحت باستمرار الجيتو حتى العصر الحديث في مدينة مثل نيويورك حيث يوجد حي للزنوج (هارلم) وحي للصينيين (تشاينا تاون) وحي للعرب في بروكلين وأحياء اليهود المختلفة في بروكلين وغيرها . كما توجد مناطق يُطلق عليها «ليتل إيثالي» أي «إيطاليا الصغيرة» و«ليتل بولندا» أي «بولندا الصغيرة» ، وهكذا .

ولا يمكن أن يشكل أعضاء الجماعات اليهودية استثناء من هذه القاعدة الاجتماعية الإنسانية إذ كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الغربي تضطلع بمهنة التجارة والربا ، كما كانوا يُعتبرون بمنزلة المحامدات التجارية أو حرفة تابعة للملك أو التبيل الإقطاعي الذي كان يمنحهم المواتيق التي تمدهم بالحماية والمزايا نظير ما يريغيه من ورائهم من نفع ، بل كان ينظر إليهم أساساً باعتبارهم مصدر الربح أو أداة إنتاج وإدارة . وكان أعضاء الجماعة اليهودية غرباء بالنسبة إلى التجار المحليين ، ولذا فإن وجودهم داخل المدينة نفسها كان يمثل خطورة على هؤلاء التجار . وكلما كانت شركة التجار المحليين (المرابزين الدوليين فيما بعد) تُقوى ، كان الخطر يتعاطم . ولذا ، كان الجيتو هو الطريقة المثلى لحماية أعضاء الجماعة اليهودية وضمن بقائهم ، أي أن الجيتو هو تعبير عن صراع بنيوي يدور في المجتمع الإقطاعي الغربي ، وهو الصراع بين البورجوازية المحلية وحماية اليهود من ملوك وأساقفة ونبلاء .

واليهودي ، علاوة على هذا ، لم يكن وضعه محدداً داخل المجتمع الإقطاعي ، إذ كان غريباً بمعنى الكلمة ، غير مرتبط بالأرض ولا يقوم بالزراعة أو القتال ، وهما الحرفتان الأساسيتان في مجتمعات العصور الوسطى في الغرب . وكان المجتمع الإقطاعي الذي يستند إلى الشرعية المسيحية لا يعطيه أية شرعية . ومن هنا كان الجيتو يشكل مسألة حيوية بالنسبة إليه لا يضمن بقاءه وحسب وإنما مكانته وهويته أيضاً . وما دعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخاصة ، مثل : قوانين الطعام ، وتحرّم الزواج المختلط ،

ومع منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، اختفت الهجمات الشعبية على اليهود .

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر الميلادي ، مع بدايات الثورة الفرنسية وظهور المجتمع الغربي الحديث ، أخذت أسوار الجيتوات في السقوط ، الواحد تلو الآخر ، تحت ضغط الشعوب والحكومات الأوربية التي كانت تحاول توحيد السوق القومية . واكتسحت حركة الاستنارة والتنوير والإعتاق ، في طريقها ، كثيراً من هذه الجيتوات التي كانت تُعدُّ من مخلفات عصر اقتضى . وبدأت الجماعات اليهودية في شرق أوروبا ووسطها صفحة جديدة من تاريخها .

وكان كثير من الصهانية يتصور أن سقوط الجيتو سيُسبب في اختفاء اليهودية ، لأن وجودها حسب هذه الرؤية مرتبط عضويًا بالعزلة ، وبالتالي فلا بد أن يتعارض مع ظروف الإعتاق والاندماج . وبالفعل ، واجه كثير من اليهود صعوبة في التكيف مع الأوضاع الجديدة . ولذا طالب الصهانية بإنشاء دولة/ جيتو (أي الدولة الشتلت) يمكن أن يمارس اليهود فيها شعائرهم وأن يحيوا حياتهم الثقافية والحضارية والقومية دون تدخل من الأفيار .

وقد استخدم النازيون كلمة «جيتو» للإشارة إلى أحياء اليهود في المدن البولندية التي أُغلقت على اليهود ، بحيث أصبح محظوراً عليهم الخروج من هذه الأحياء إلا بإذن من السلطة النازية . وقد سيطرت هذه السلطة على استيراد الطعام والمواد الخام ، وعلى تصدير البضائع التي ينتجها الجيتو ، وعلى الخدمات التي يؤديها سكانه . وكانت أدوات الإنتاج ملكية جماعية للجيتو . أما الأجر المدفوع نظير العمالة ، فكان كميات من الطعام والملابس تُوزَع على العاملين وأسرههم وكذلك الخدمات التي توفرها سلطات النازي للجيتو .

وعلى طريقة أوروبا في العصور الوسطى ، كان النازيون يعتبرون اليهود مصدرًا من المصادر المالية للدولة الألمانية ، التي تديرها فرق الصاعقة والجستابو والتي كانت تُوجر هذا المصدر إما للسلطة العسكرية وإما لشركة مدنية نظير ثمن يفوق كثيراً تكلفة الإبقاء على المصدر وإدارته ، ومن ثم ظل عائد الجيتو عاليًا إلى درجة كبيرة . وكانت السلطات النازية تخفض مستوى المعيشة في الجيتو إلى ما دون مستوى الكفاف ، وذلك حتى تنخفض تكاليف إدارته . ومع استمرار العمالة وبذل كمية الطاقة البشرية نفسها وتأنفص الطعام والرداء إلى ما دون حد الكفاف ، كان من المتوقع أن يموت سكان الجيتو خلال ستة أو سبعة أعوام دون اللجوء إلى أي عنف .

ظهور طبقات محلية مسيحية تعمل بالتجارة المحلية والدولية وبأموال المال ، قَدَّ اليهود كثيراً من وظائفهم وبدأوا يتجهون نحو مهنة الربا التي تجعلهم عرضة لغضب الجماهير والطبقات التي تضطر إلى الاقتراض . وتَمَثَّل التعبير عن هذا التحول إبان حروب الفرانجة في وقائع فنتك الجماهير والقوات الشعبية بأعضاء الجماعات اليهودية . وأدَّى هذا إلى مزيد من تجريد اليهود وعزلهم ، وبالتالي أصبح الجيتو هو المكان الذي يُعزَّك فيه لحمايتهم ولضمان بقائهم . ومع فقدانهم وظيفتهم الربوية ، ازدادت هامشية اليهود وازداد اتجاه الجيتو إلى الانهيار . وبدأ هذا التحول في القرن الرابع عشر الميلادي ، وظهر أول جيتو قسري في ألمانيا . ووصلت عملية العزلة القسرية إلى قمته في القرن الخامس عشر الميلادي . ومع عصر النهضة ، كان الجيتو الشكل الشائع في أوروبا . ويمكن الإشارة إلى أن الجيتو الذي أنشأه الملك أراجون صار قسراً عام ١٣٩٠ . وأصدر فرديناند وإيزابيلا عام ١٤٨٠ قراراً بإحاطة أحياء اليهود والمسلمين بالجراند . وطَبَّق قرار مماثل في البرتغال . وفي بولندا ، طُرد اليهود من كراكوف واضطروا إلى السكنى في ضاحية كازيمير التي أحاطوها بالأسوار للفصل بينها وبين المدينة . ومع هذا ، لم يخضع يهود بولندا لهذا الحظر الذي فُرض على اليهود في الغرب ، حيث كان لليهود مذهبهم الخاصة المسماة «شتتل» . وأصدر البابا قراراً بطرد اليهود من الولايات البابوية ، باستثناء مدن معينة صرَّح فيها بإقامة جيتوات . وأقيم جيتو روما عام ١٥٥٥ . وفُرض الحظر أيضاً على اليهود في جنوب فرنسا بالولايات الواقعة تحت حكم البابا ، وفُرضت القيود عليهم عام ١٣٤٤ ، ثم ظهرت الجيتوات عام ١٤٦١ . وكانت تُوجَد أهم جيتوات أوروبا في فرانكفورت والبنديقة وروما ، وفي بولين وبوزنان في بولندا .

وأخذت هذه العزلة في الانحسار التدريجي ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي مع الثورة المركنتالية ووصول اليهود السفارد الذين احتاجت إليهم الدول التجارية ، مثل : هولندا وإنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال . وتَمَثَّل هذا في تحوُّل موازين القوى داخل الجيتو لصالح الطبقة المالية التي حلت محل الأرستقراطية الحاخامية . وبدأت هذه الدول جميعاً في تخفيف حدة القوانين التي تحد من حركة اليهود . ففي فرنسا مثلاً ، كانت السلطة الحاكمة تتعامل مع يهود المارانو باعتبارهم مسيحين مع علمها بأنهم يهود . كما يلاحظ أن التجمعات اليهودية الجديدة لم تكن تُنظَر في أماكن مقصورة عليهم . وقد شهدت هذه الفترة بداية ضعف المسيحية كنسق قيمي وتزايد معدلات العلمنة . وساهمت هذه التحولات الاقتصادية والثقافية في زيادة تَعَبُّل اليهود من قبَل مجتمع الأغلبية .

متناقضة، منها : حماية اليهود كجماعة وظيفية وسيطة ، وسهولة تحصيل الصرائب منهم ، و مراقبتهم وعزلهم وفصلهم عن الأغلبية المسيحية . كما كان يضمن ألا يهرب أعضاء الجماعة إلى بلد آخر ، فقد كانوا مادة استعمالية وأداة إنتاج وإدارة يستفيد الإمبراطور أو الحاكم من وجودها .

ومن المعروف أن ازدواج المعايير الأخلاقية من سمات الجماعات الوظيفية الوسيطة . فعوض هذه الجماعة يدخل في علاقة نفعية مادية رشيده تعاقدية باردة مع أعضاء مجتمع الأغلبية ، ويدخل في علاقة حميمة دائمة مع أعضاء جماعته . وهو يرى مجتمع الأغلبية على أنه مجتمعاً مباحاً لا حرمة له . ولكن رؤيته هذه تُناقض تماماً رؤيته لأعضاء جماعته ، إذ يراها جماعة لها قداستها وحرمتها .

ولذا ، فهو يراعي حرمتها ويؤثرها على نفسه . ولكن هذا الازدواج في المعايير ينصرف فقط إلى الموقف الأخلاقي والعاطفي العام لأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة إذ يظل قانون الدولة والأعراف السائدة هي الإطار المرجعي القانوني الذي يتحكم إليه الجميع ، سواء أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة أم الأغلبية . والجيتو لا يشكل استثناء القاعدة إذ كانت هناك مجموعتان من القوانين تنظم علاقته مع العالم الخارجي أولاًهما : المواثيق التي كان يمنحها الأباطرة والأمراء لليهود وتنظم علاقتهم بمجتمع الأغلبية ، وثانيتها : مجموعة القوانين التي تنظم علاقة اليهود بعضهم ببعض كأعضاء داخل الجيتو وكمجماعات يهودية داخل التشكيل الحضاري نفسه . وكان القانون الداخلي الذي ينظم علاقات اليهود فيما بينهم (في الأمور الدينية والشخصية) هو التلمود . أما علاقات الجماعات اليهودية بعضها ببعض الآخر ، فكان ينظمها قانون تحريم الاستيطان . وكان الجيتو يتمتع بقسط وفير من الإدارة الذاتية ، شأنه في هذا شأن كثير من المؤسسات في مجتمعات العصور الوسطى . فكانت تديره هيئة إدارية تصل أحياناً إلى اثني عشر شخصاً ، متخية في بعض الأحيان ومعينة في البعض الآخر ، وإن كانت القيادات المتخنية تنتمي إلى مجموعة من الأسر المحدودة . وكانت لهذه المؤسسة (القهاال بين الإشكناز ، والمهاماد بين السفارد) قوة تنفيذية ضخمة ، فكانت تقوم بإتمام عمليات الزواج والطلاق وتنفيذ العقوبات مثل الجلد والسجن (بل الإعدام في حالات نادرة) . وكان من حق هذه المجالس أن تصدق قراراً بالطرد من حظيرة الدين (حيريم) ، كما حدث مع إسبنيوزا ، وكان من حقها النظر في المنازعات بين اليهود والحكم في القضايا حسب الشريعة اليهودية . وكان أعضاء المجلس يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن سكان الجيتو

وكانت هذه الطريقة من أكثر طرق الإبادة رشحاً وعملياً إذ لم يكن يُبدد فيها أي شيء . غير أن عملية الترشيد هذه ، أي توظيف الوسائل على أسمن وجه خدمة الأهداف ، تفسر تأكيدات القوات النازية لأهمية العمل وعلى مدى نفع اليهود لاقتصاد الحرب في ألمانيا .

وقد نجح النازيون في عملية الترشيد هذه إذ مات ١٩٪ من سكان جيتو وارسو حتى يولييه عام ١٩٤٢ . كما مات ٣٥٪ من سكان جيتو لودز في الفترة من مايو عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٤ ، وهو ما يعني أن فترة ٧-٩ سنوات كانت بالفعل كافية لإبادة يهود الجيتو (وهذا دليل آخر على أن هلاك ستة ملايين في أفران الغاز أمر مبالغ فيه) .

وما تجدر ملاحظته أن وضع الجيتو لم يكن يختلف من ناحية البنية ، ومن ناحية علاقته بالسلطة المستقلة ، عن وضع كثير من المستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا في علاقتها بالدولة المستعمرة ، فهي الأخرى تم ترشيدها والتحكم في مواردها وصادراتها ووارداتها ، كما تم توظيف كل جوانب الحياة فيها لخدمة الدولة المُستعمرة .

ويُطلق مصطلح «الجيتو» الآن على أحياء يهود اليديشية الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة واستوطنوا فيها . ولكن الاستخدام هنا مجازي إلى أقصى حد ، ويفترض استمراراً حيث لا يوجد استمرار قط ، فالجيتوات الأمريكية تختلف في بنائها الاقتصادي والمعماري والوجداني عن جيتوات شرق أوروبا ، وهي لا تختلف من قريب أو بعيد عن أي من ضواحي أمريكا حيث لا يسكنها إلا من يريد من اليهود أو المسيحيين البيض أو أي شخص يسمح له دخله بذلك ، في حين يستبعد الزواج وبعض أعضاء الأقليات الأخرى مثل أهل بورتوريكو . فالحاكم هنا معياران : عرقي ومالي . والمعيار العرقي لا يستبعد اليهود ، أما المعيار المالي فلا يستبعد أحداً سوى الفقراء .

## بنية الجيتو

### Structure of the Ghetto

«الجيتو» مكان داخل المدينة أو خارجها محاط بسور عال له بوابة (أو أكثر) تُغلق عادةً في المساء . وكان من غير المصرح به لأعضاء الجماعات اليهودية ، في بعض المراحل التاريخية ببعض الدول ، أن يظهروا خارج الجيتو في يوم الأحد أو في أيام أعياد المسيحيين . وكان الجيتو بأسواره العالية يهدف إلى عدة أشياء

بسبب صغر حجمه وقلة عددهم ، ولذا كان من السهل التحكم فيهم .

وكان يتبع المجلس مجموعة من الموظفين بعضهم لا يتقاضى أي مرتب ، وبعضهم الآخر يعمل نظير أجر . وأهم وظائف القسم الأول البرناس وهو رئيس الجماعة الذي كان يترأسها في كل المناسبات كما كان يرأس اجتماعات الهيئة الإدارية التي كان يُشار إليها أيضاً بـ «البرناسيم» ، وكان البرناس يراقب الموازين ويقرر المرتبات التي تُدفع للموظفين التابعين للمجلس ، وكان يُعدُّ قائد الجماعة اليهودية على المستويين الديني والدنيوي ، ولذا كان يُختار أكثر الناس تفهماً في الدين لهذا المنصب . ولكن ، مع بدايات الثورة العلمانية في الغرب ، بدأ المنصب يتحول إلى منصب دنيوي ، وأصبحت مسئولية المخاطبات مقصورة على الأمور الدينية وحدها حيث تم فصلها عن الأمور الدنيوية ، وهو شكل من أشكال علمنة الجيتو . وكان يلي البرناس الجايبي أو المحصل ، ووظيفته أهم الوظائف بسبب طبيعة الجماعة اليهودية في العصور الوسطى في الغرب كعنصر نافع مالي . وكان الجايبي هو الذي يحدد الضرائب ويقوم بجمعها لصالح السلطات الحاكمة . وفي معظم أنحاء أوروبا ، كان يتبع مؤسسة القهال حاخام لم يكن يُلقب له راتب حتى القرن الثالث عشر الميلادي . وبعد أن زاد عدد أعضاء الجماعة ، تفرَّغ هذا الحاخام لمهمته وأصبح موظفاً بأجر . وكان الحاخام يقوم أحياناً بدور القاضي الشرعي (ديان) ، ولكن كان يوجد في أحيان أخرى قاض متفرغ . وكان للقهال أحياناً شرطته الخاصة التي كانت تتبعه .

ومن الوظائف التي كان يتقاضى صاحبها راتباً وظيفية الشويحط وهو الذابح الشرعي ، والموهيل وهو الذي يقوم بعمليات الختان ، والمرتل (حزان) الذي يقوم بالقراءة والإشراف على أداء الصلاة والشعائر المرتبطة بها مثل إخراج لافائف الشريعة من سفينة العهد وإرجاعها . وكان يوجد أحياناً مرتل ثانٍ أو بديل . ومن أهم الشخصيات الأخرى داخل الجيتو الشماس أو حارس المعبد اليهودي الذي كان يقوم بوظائف متعددة إذ كان يشرف على المعبد وينفذ أحكام دار القضاء (بيت دين) أو المحكمة اليهودية ، وكانت واجباته هذه تجعله مسئولاً عن جمع معلومات تفصيلية عن اليهود فأصبح سيداً للجماعة التي كانت تخاف إرهابه وسيفه المصلت . وكانت الحلقات التلمودية (يشيفا) ترسل المشولاء (الوكيل) ليجمع التبرعات لها من الجماعات اليهودية المختلفة .

ومن الوظائف الأخرى داخل الجيتو ، الواعظ المتجول (مجيد) الذي كان يعيش على هبات المستمعين ويتقل من جيتو إلى آخر ،

والشادخان وهي الحاطبة التي ترتب الزيجات . وظهرت نماذج إنسانية أصبحت مألوفة لدى يهود الجيتو مثل الشنور أو الشحات الوقع المتسول والتساديك أو الرجل التي والتيتايم أو العاطل الذي يعيش من لاشيء ، ويتسكع بجوار المعبد ليبتز المصلين حين لا يكتمل النصاب اللازم للصلاة .

وقد يكون من المفيد أن ننظر إلى البناء الوظيفي للجيتو من الداخل ثم إلى علاقته بالعالم الخارجي . أما الأعمال التي كان يقوم بها يهود الجيتو فتقسم إلى قسمين : الأعمال التي تفيده الجماعة اليهودية وحدها ، وتلك التي كانت تلبى حاجات خاصة بالجماعة اليهودية ولكنها يمكن أن تفيده الأغيار في الوقت نفسه . وتضم المجموعة الأولى المخاطبات والمدرسين ومن يقومون بأعمال الذبح والشعائر وكتبة لافائف الشريعة وموظفي الحمام الطقوسي وحراس المعابد والمدافن . أما المجموعة الثانية فتضم الجزارين وصانعي الشموع ونجار الكتب وناسجي شال الصلاة (طاليت) . وقد بلغت العمالة المتخصصة للخدمات الداخلية لمجتمع الجيتو نحو ١٠٪ من مجموع العمالة اليهودية .

وكانت تُوجد مؤسسات أخرى في الجيتو تتبع القهال ، مثل : المقبرة لدفن موتى أعضاء الجماعة ، وحمام عام ، وحمام طقوسي ، وأحياناً منزل للفقراء والعجزة ونظام تعليمي يضم المدارس الأولية الخيرية (تلمود تورا) والمدارس التلمودية العليا (يشيفا) . وكانت تُوجد أحياناً فرق مسرحية لترفيه عن سكان الجيتو . ولكن أهم المؤسسات على الإطلاق كان المعبد ، فهو بيت العبادة والدراسة والاجتماع .

وكانت علاقة اليهودي بعالم الأغيار علاقة موضوعية مجردة ، فهذا العالم كان يمثل بالنسبة إليه قيمة استعمالية وحسب ، ومن ثم فهو عالم خال من الحب والعواطف والطمأنينة والأمن . أما في داخل الجيتو ، فهو يجد كل ما كان يفتقده . كما أنه كان يمارس في الجيتو شعائر اليهودية بكل حروفيتها دون حرج ، ويمتنع عن العمل يوم السبت ، ويعيش داخل شبكة من العلاقات الإنسانية الدافئة القوية التي ازدادت قوة مع ازدياد حدة الصراع مع الأغيار . ويرى بعض دارسي الجيتو أن الأشكال الثقافية التي كانت سائدة فيه ، سواء كانت الثقافة شعبية متمثلة في الرقص والغناء أو كلاسيكية متمثلة في الدراسات الدينية والفقهية ، كانت تتسم بكثير من الشراء ، وأنها بطبيعة الحال كانت مستمدة من ثقافة عالم الأغيار . ولكن ما يهمنا تأكيده هنا هو أن اليهودي داخل الجيتو كان يتصور أن هذه الأشكال الثقافية يهودية خالصة وتتسم بخصوصية يهودية . ولذا ، فقد كانت

مصالحه تجاه الجيتوات الأخرى ، إذ كانوا يتنافسون فيما بينهم في المجالات نفسها ومن أجل المزايا نفسها التي يحصلون عليها من خلال الوثائق . ومن هنا كان لكل جيتو حق حظر الاستيطان (حريم ها يشوف) ، وهو حق منع أي يهودي آخر من القدوم إلى الجيتو والإقامة فيه إلا بإذن خاص ولمدة محددة ونظير أجر معين .

٣- علاقة الجيتو بجموع الأغلبية :

أما من ناحية علاقة الجيتو بالمجتمع الخارجي ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكن في صفوفهم بعض الطبقات الاجتماعية مثل : الملوك والأمراء والنبلاء والأشراف والفلاحين . ولهذا ، لم تكن هناك مشكلة منافسة اقتصادية حادة بينهم وبين اليهود . أما علاقة اليهود بالتجار والحرفيين وصغار النبلاء فكانت علاقة منافسة قوية ، ولذلك نجد أن المحرّضين على الثورات ضد أعضاء الجماعات اليهودية كانوا بالدرجة الأولى من بين صفوف هذه الجماعات ، كما كان طرد اليهود ككل يتم تحت ضغط هذه الطبقات والفئات الاجتماعية . ولكن هذا لم يمنع وجود احتكاكات شديدة في بعض الأحيان بين أعضاء الجماعات اليهودية وصغار النبلاء والفلاحين .

هذه هي البنية الأساسية للجيتو ، وهي دون شك ذات قدر كبير من التجريد ولكنه تجريد يسيطر الواقع بعض الشيء حتى يتسنى فهمه . وقد ظل الجيتو قائماً كمؤسسة تقوم بدور حيوي من حيث هو ببناء اقتصادي اجتماعي يوفر لأعضاء الجماعات اليهودية الاستقلال كجماعة وظيفية وسيطة لها مصالحها ومشاكلها الاقتصادية ولها هويتها الدينية والإثنية المستقلة .

ولكن ، بالتحول التدريجي للمجتمع الإقطاعي ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي ، ويظهر أنماط الرأسمالية التجارية المحلية التي اضطلعت بالتجارة الدولية ، بدأ اليهود يفقدون دورهم الاقتصادي ، وإنهار مركزهم عبر القرون من تجار دولين إلى مرابين ثم أخيراً إلى مرابين صغار يقومون بإقراض كميات صغيرة من النقود للمواطنين العاديين الذين كانوا يرونهم يمتلكتهم الخاصة ويدفعون فوائد باهظة . وحينما كان المدين يعجز عن الدفع ، تصبح السلعة المرهونة ملكاً للمرابي الذي كان يسلمها للشخصية الأساسية الثانية في الجيتو (أي التاجر المتجول) . وإلى جانب هذا ، ظل أعضاء الجماعات اليهودية يقومون بأعمال خفيفة ، مثل : التطريز وحياكة الملابس والحلاقة .

وتسبب انهيار التدريجي للأساس الاقتصادي للجيتو في انهيار تدريجي معنوي وأخلاقي . ولكن ينبغي هنا أن نتميز بين جيتوات أوروبا والعالم الجديد من جهة ، وجيتوات يهود الديشية في

ثقته بنفسه تزداد ويزداد إحساسه بهويته الوهمية ، وفي نهاية الأمر عزله عن العالم .

وكان اليهودي يتلقى داخل الجيتو التأكيدات بأنه ينتمي إلى الشعب المقدس والشعب المختار وأن الجيتو ليس إلا وجوداً مؤقتاً يحفظ فيه الإله الأمة وروحها إلى أن يحين الحين ويشاء إعادة شعبه إلى أرضه المقدسة وحرية الكاملة . وفكرة الوجود المؤقت فكرة أساسية في تفكير الجماعات الوظيفية الوسيطة ، فهي دائماً تنتمي إلى «بلد أصلي» جاءت منه واستعدت إليه في نهاية الأمر . وبما عمق هذه الأفكار أن التراث القبلي الحلولي ، ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي ، وضع اليهود في موضع مركز العالم . فكان اليهودي يعلم أنه حينما يمتنع عن العمل يوم السبت فإنه يُعجّل في واقع الأمر بتقدم المسيح ليخلص العالم ويسود الشعب اليهودي . بل تصبح كل المعاناة والآلام التي تحملها اليهودي خارج الجيتو من علامات الاختيار والتميز ، وكلما زاد الاضطهاد زادت الساعة اقتراباً .

والواقع أن الجيتو مؤسسة تهدف ، كما أسلفنا ، إلى خلق مسافة بين أعضاء الجماعة والأغلبية للتقليل من الاحتكاك والصراع بينهم ، لكن قدرًا من الصراع والاحتكاك يسم الوجود الإنساني بالطبع ، وإن كان هذا القدر يتفاوت في حدته وكميته بتفاوت الزمان والمكان . وكانت الصراعات التي يواجهها الجيتو تدور على ثلاثة مستويات :

١- الصراع داخل الجيتو بين الطبقات والفئات المختلفة :

كانت توجد داخل الجيتو طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة ، فكان هناك الغني والفقير والمستغل والمستغل . غير أن الطبيعة المغلقة لهذا البناء الاقتصادي وظيفية الجماعة اليهودية فرضت تداخل الطبقات والفئات كافة . كما زاد نظام الضرائب في المجتمعات الأوربية هذا التداخل إذ كانت الضريبة تُفرض في كثير من الأحيان على الجماعة ككل سواء كانت جماعة دينية اقتصادية مثل اليهود أو جماعة اقتصادية ذات طابع ديني مثل نقابات الحرفيين . وحيث إن فقراء الجيتو كانوا غير قادرين على دفع الضرائب ، فإن الأثرياء كانوا يقومون بدفعها كلها نيابة عن الجماعة . فتحولوا بذلك إلى أرستقراطية ذات ثقل كبير فرضت هيمنتها على اليهود . وقد انعكس هذا الوضع على التنظيم الاجتماعي للجيتو ، فكانت الجماعة اليهودية تقوم برعاية مصالح سائر أعضائها بصرف النظر عن انتمائهم الطبقي أو الفئوي .

٢- الصراع بين الجيتو الواحد والجيتوات الأخرى :

كان كل جيتو حريصاً على الاحتفاظ باستقلاله والدفاع عن



القدس ، في الواقع ، تقع نحو الجنوب (بالنسبة إلى موقعهم) .  
 وحينما نُشر أول كتاب في الجغرافيا بالعبرية عام ١٨٠٣ ، اشتكى  
 المؤلف من أن كثيراً من الملاحظات لا يزالون يتكرونها وجود أمريكا .  
 وساهم الوضع اللغوي ليهود شرق أوروبا في زيادة عزلتهم  
 وتخلّفهم . فلم تكن قيادتهم الثقافية تعرف أيّاً من اللغات الأوربية  
 الحية ، مثل الألمانية أو الروسية ، معرفة كافية . وإن تصادف وعرفوا  
 إحدى هذه اللغات ، بحكم وجودهم الفعلي في البلد ، فإنهم كانوا  
 يجهلون التراث الثقافي لهذا البلد . وكانت اللغات المعروفة في  
 الجيتو هي العبرية لغة العبادة ، والآرامية لغة التلمود والقانون ،  
 وهما لغتا النخبة الثقافية . أما لغة الشارع فكانت اليديشية ، وهي لغة  
 الخليط اليومي بين اليهود .

### الجيتوية

#### Ghettoism

«الجيتوية» هي طريقة التفكير التي أفرزها وضع أعضاء  
 الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية على  
 مدى مئات السنين . وبإمكان القارئ أن يعود إلى المجلد الخامس  
 (الصهيونية) لدراسة الجانب الجيتوي في الفكر الصهيوني الغربي  
 اليهودي وغير اليهودي .

### حظر الاستيطان

#### Ban on Settlement

«حظر الاستيطان» ترجمة للعبارة العبرية «حريم هایشوف» ،  
 وهو مفهوم قانوني كانت تُنظّم على أساسه العلاقة بين الجماعات  
 اليهودية المختلفة في الغرب ، فهو يعطي أعضاء كل جماعة في مدينة  
 (أو غير ذلك من الوحدات السكنية) حق منع اليهود الآخرين من  
 السكنى معهم باعتبار أن هذا الحق مقصور على أعضاء الجماعة  
 وحسب . ولذا ، كان على كل وافد جديد أن يحصل على تصريح  
 من أعضاء الجماعة يُسمّى «حزقات هایشوف» أو «حزقات هاقهيلا»  
 أي «حق الاستيطان» . وكان عادة ما يحصل الوافدون على هذا الحق  
 عن طريق شراء أو استئجار عقار أو أرض . وكان الهدف من هذا  
 القانون أو العرف حماية التجارة اليهودية . ومن ثم استثبنت بعض  
 القطاعات التي لا تعمل بالتجارة من الحظر ، ومن بين هؤلاء طلبة  
 المدارس الدينية العليا والخاصات الذين لا يجارسون عملهم ،  
 والحكمم واللاجئون شريطة أن يكون بقاؤهم مؤقتاً . ولم يكن مصرحاً  
 لليهودي الغريب بالبقاء في المدينة أكثر من ثلاثة أيام ، ولم يكن من

شرق أوروبا ووسطها وفي الأتراس واللورين من جهة أخرى . ففي  
 هولندا ، أخذت أحوال اليهود في التحسن ولم تُقرص عليهم قيود  
 شديدة عند استقرار يهود المانراو بها . والوضع نفسه في بوردو ويايون  
 في فرنسا حيث كانتا تضمّان جماعتين سفارديتين . وحينما استوطن  
 اليهود في العالم الجديد ، فإنهم لم يُوطّأوا في أحياء خاصة بهم ، وما  
 سهل هذا أن هذه بلاد لم تكن ذات كثافة سكانية يهودية كبيرة .

ولكن الوضع كان على عكس ذلك تماماً في شرق أوروبا  
 ووسطها حيث تضاعف عدد اليهود في أواخر القرن الثامن عشر  
 الميلادي ، الأمر الذي أُوّي إلى ازدهام الجيتوات . وما زاد الطين بلة  
 أن الأرض المصحح ببناء منازلهم عليها كانت محدودة حتى اضطررا  
 في غالب الأمر إلى الانساع الرأسي . ومن هنا كانت عمائر الجيتو  
 متلاصقة ، كما كانت تتميز بارتفاعاتها التي تفوق عمائر المدينة .

وتسبّب ارتفاع العمائر وتلاصقها إلى حجب الشمس عن حارات  
 الجيتوات ، فأصبحت لذلك رطبة وغير صحية كما أصبحت أماكن  
 شديدة القذارة تنتشر فيها الأمراض وتتراكم القاذورات (ومع هذا  
 لنا أن نلاحظ أن كثيراً من الأحياء في مدن أوروبا في القرن التاسع  
 عشر لم تكن تختلف كثيراً عن جيتوات أعضاء الجماعات اليهودية) .

وقد ترك الانحطاط الاقتصادي والمعماري للجيتو أثراً عميقاً  
 في وجدان يهود شرق أوروبا ووسطها القاطنين فيه ، وعمق انفصالهم  
 عن العالم الخارجي . وقدم عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني ،  
 ثم عصر الاستنارة في أوروبا ، واليهود داخل أسوار الجيتو الاقتصادية  
 والوجدانية ، فكان معظم أعضاء الجماعات اليهودية من يهود شرق  
 أوروبا معزولين عن الثقافة العامة لا يدرسون إلا التوراة والتلمود  
 والمدراش ، ولا يقشرون البتة من تاريخ الأغيار ، إذ كان كل ما  
 يبتغونه هو تاريخ اليهود كما جاء في كتب اليهود المقدّسة .

وكانت الجيتوات التي أفرزت الصهيونية ، والتي تهتمنا أكثر من  
 غيرها ، موجودة أساساً في شرق ووسط أوروبا . وقد لخّص ديفيد  
 فرايدلندر المقدّمات الفكرية لطالب المدرسة التلمودية العليا أو مثقف  
 الجيتو في القرن التاسع عشر الميلادي على النحو التالي : كان في  
 إمكان مثل هذا الطالب أن يفتي إن كان من الواجب رجم أو حرق  
 ابنة الحاخام الزانية ، ولكنه في الوقت نفسه كان لا يعلم شيئاً عن  
 تاريخ البلد الذي يعيش فيه .

وكان جهل المباحثات ، وهم القيادة الثقافية للجماعة ، مزرباً  
 جداً ، إذ كانوا لا يعرفون أكثر من أن اتجاه القدس هو نحو الشرق  
 وحسب ، كما ورد في بعض الكتب الدينية . ولذا ، كان حاخامات  
 بولندا يخطبون في تحديد اتجاه القدس فيتجهون شرقاً . وكانت

يعطيانه شكل اللعنة التي يستمطرها المرء على نفسه ويجعلانه يتضمن وضعاً تفصيلياً للعقوبة التي ستحل إن كان اليهودي كاذباً في قسّمه . وقد جاء في صيغة أحد الأقسام ما يلي : " إن كنت كاذباً في قسّمي فلتنزل اللعنة على سلاتي ولا تخمس طريقي بين الحوائط كالأعمى ، ثم لتشق الأرض وتبتلعي " .

ويسود أن استمطر اللعنات بهذا الشكل كان يهدف إلى تخويف اليهودي حتى لا يكذب ، وخصوصاً أنه كان معروفاً في العصور الوسطى أن اليهود يتلون دعاء كل النذور في صلاة يوم الغفران ويتحللون من خلال ذلك من أية نذور قطعوا على أنفسهم أو أية أيمان التزموا بها في العام السابق . أما الطقوس التي كانت تصاحب القسّم ، فكانت أكثر تفرقة حيث كان على اليهودي أحياناً أن يمسك بعضا القاضي ويلقي القسّم . وفي إحدى المحاكم ، كان على اليهودي أن يقف ووجهه نحو الشمس على كرسي تزعّت إحدى أرجله الأربع ، فصار بثلاث أرجل ، وهو يلبس قبعة اليهود ويلتفج بشال الصلاة ( طاليت ) . وأحياناً كانت تُوضَع تحت الكرسي مواد قلزرة مثل جلد أنثى الخنزير ، وهو حيوان كرهه لدى اليهود . ولعل الهدف من كل هذا هو أن يحاول اليهودي أن يركز على الاحتفاظ بتوازنه ويردّد القسّم ، فلا يمكنه أن يكذب في عقله الباطن ويصدّق في قسّمه ويستمطر على نفسه اللعنات بالفعل .

والقسّم اليهودي تعبير عن وضع اليهود القانوني الشاذ باعتبارهم عنصرأ غريباً في مجتمع مسيحي يستند إلى الشرعية المسيحية ولا يقبل غيرها ولا تُوجد فيه فلسفة واضحة تجاه الأقليات الدينية . وقد استمر القسّم اليهودي ، دون الطقوس التي تصاحبه ، حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي . ولم يُعرّف القسّم اليهودي لا في إنجلترا الحديثة (بعد إعادة توطين اليهود في القرن السابع عشر الميلادي) ولا في الولايات المتحدة .

### علامة اليهود المميزة

Jewish Badge

كان أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم من الجماعات يرتدون زياً خاصاً لتمييزهم عن بقية السكان ، وهذا أمر مألوف في المجتمعات التقليدية المبينة على الفصل الحاد بين الطبقات والجماعات . فكان على كل جماعة أن ترتدي زياً خاصاً بها ، وتلبس غطاءً للرأس ، وتقص شعرها بطريقة مميزة . وكان هذا يسهل عمليات الإدارة وجمع الضرائب . ففي العصور الوسطى في الغرب ، كان رداء الفرسان مختلفاً عن رداء القساوسة ، وكان لكل

حقه أن يستأجر منزلاً ولا أن يستصدر وثيقة الزواج فيها خشية أن يعطيه هذا الحق في البقاء .

وبطبيعة الحال ، كانت القوانين التي تحظر استيطان غير اليهود أكثر تفتتاً ، فمثلاً كان بإمكان التاجر اليهودي أن يستأجر غرفة لحضور إحدى الأسواق التجارية شريطة ألا يبيع سلعة لسكان الجماعة نفسها وأن يقتصر نشاطه على السوق الذي أتى لحضوره (وقد كان من المحظور توفير التسهيلات نفسها للتاجر غير اليهودي) .

وقد ساد المفهوم بين الجماعات الأوروبية حتى بداية العصر الحديث ، وخصوصاً في بولندا ، حيث أصبح حق المحظر من حقوق القهال الأساسية . وكانت للحظر أبعاد طبقية واضحة إذ كان من صالح الجماعة اليهودية أن تُوطّن الأثرياء ليساعدوا في دفع الضرائب . ولذا ، حينما كان أحد الأثرياء اليهود يفكر في الهجرة ، كان أعضاء الجماعة يستخدمون كل وسائل الإقناع لإبقائه ، وإن أصر على مغادرة الجماعة كان عليه أن يدفع نصيبه من الضرائب . أما الفقراء ، فكان يتم تشجيعهم على ترك المدينة . وكان الفقراء الغرياء دائماً في حالة تنقّل من مدينة إلى أخرى ، الأمر الذي عقّد مشكلة الفقر والتسول بين يهود أوروبا . وما يجدر ذكره أن الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية لم تكن تطبّق هذا المفهوم أو تمارسه .

ويسود أن يهود الغرب الأثرياء ، في ألمانيا وإنجلترا وغيرها ، نظروا إلى يهود الشرق ، أي يهود اليديشية المدعّمين ، حينما جاءوا في القرن التاسع عشر الميلادي ، من هذا المنظور ، أي على اعتبار أنهم اقدون يطبّق عليهم حظر الاستيطان . ولعل هذا كان أحد الدوافع وراء تبني الحل الصهيوني التسويطي ، فهو حل يحظر استيطانهم في الغرب عن طريق توطينهم في مُستوطن (يشوف) آخر بعيد ، فكانهم طبقوا قانون حظر الاستيطان (حريم هايشوف) على مستوى قومي . وطلق الصهاينة على المُستوطن الصهيوني اسم «يشوف» ، وقد حاولوا تطبيق الحريم هايشوف على اليهود غير البيض ، وهم الآن يطبقونه على الفلسطينيين من كل دين ولون .

### القسّم اليهودي

Jewish Oath

«القسّم اليهودي» ترجمة لعبارة «أوث موري جودايكو oath more judaico» ، وهي عبارة إنجليزية لاتينية معناها «القسّم حسب عرف اليهود» ، والقسّم اليهودي هو ذلك القسّم الذي كان اليهود يتلونه في القضايا بينهم وبين غير اليهود . ويعود إلى أيام شارلمان (٧٧١-٨١٤) . وكان نص القسّم والطقوس الرمزية التي تصاحبه

قانون العلاقات الاجتماعية الذي ينطبق على اليهود انطبقه على غيرهم . ولم يكن الاحتكار واستبعاد الآخرين مؤامرة مُوجهة من اليهود ضد الأغيار ، وإنما كان ذلك يمثل ظاهرة اجتماعية عامة وخصوصاً أن الجماعة اليهودية ، باعتبارها جماعة وظيفية ، كانت تمثل هذه الظاهرة بشكل أكثر حدة . فالجماعة الوظيفية يستند وجودها بأسرها إلى وظيفتها وإلى أسرار المهنة ، فإن عُرفت هذه الأسرار خارج نطاقها انتفى أساس وجودها نفسه . ولذا ، كان بعض اليهود يستبعدون الأغيار ، كما كان البعض منهم يحتكرون الوظائف الاقتصادية والمالية ويحاولون بطبيعة الحال الحفاظ على هذا الاحتكار لأن في نهايتها نهايتهم .

وكان مفهوم الاحتكار والاستبعاد مفهوماً أساسياً في تفكير الجماعات اليهودية منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وقد علق راسي على عبارة «تاجرة الشعوب» (حزقيال ٢٧/٣) ، وفسرها بأنها إشارة إلى قانون الاحتكار الذي كان يُمنَع بمقتضاه التجار الغريباء من الاتجار في المدينة التي يقيمون فيها بصفة مؤقتة كوافدين غريباء إذ كان يطبق عليهم قانون حظر الاستيطان (حريم هياشوف) .

ولم يكن الحظر مقصوداً على السكنى وحسب ، أو المنافسة الاقتصادية ، بل كان يمتد ليشمل الإحسان . وقد ورد في التلمود أن « فقراء مدينتك أولى من فقراء المدن الأخرى برغم أن كليهما يهود » . وبلغ هذا الاتجاه مده بين يهود بولندا إذ طوروا نظاماً مريباً للتحكم في حق السكنى وفي العمل بالمهن وفي الزواج والاقتراض بل أحياناً السفر وفي كل جوانب الحياة الأخرى .

وكانت الجماعة اليهودية تدمج حق الاستيطان لليهود الذين يدفعون رسوم الدخول وتنكر هذا الحق على الآخرين . وكانت الجماعة أحياناً تطرد بعض اليهود أو تُنقص حقوقهم أو حرّبتهم في العمل ، وكثيراً ما كان أعضاء الجماعة ، إما بمفردهم أو بالاشتراك مع جماعات غير يهودية ، يقدمون التماسات للدولة أو للمدينة للحد من نشاط الأجانب اليهود أو غير اليهود .

وكان استبعاد غير اليهود أكثر حدة ، فكان من المحظور على الوسطاء والوكلاء اليهود أن يقوموا بتعريف رجل أعمال غير يهودي بأخر غير يهودي أو أن يذلووا مستهلكاً غير يهودي على محل غير يهودي . وقد أصدر القهال تحذيرات عديدة فيما يخص إقضاء أسرار مهنة التجارة لغير اليهود ، أو لليهود من أعضاء الجماعات الأخرى . وكان محظوراً على اليهود الذين يُحضررون جلوداً أو فراءً أن يبيعوها إلا لليهود ، وقد اعترض كثير من المسيحيين على هذه القواعد التي كانت تستبعدهم .

حرفة علامة مميّزة يرتديها ممارسوها ، ولم يكن هذا عاراً وإنما امتيازاً يحصل عليه من يرتدي مثل هذه العلامة . ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية في العصور الوسطى في الغرب استثناء من هذه القاعدة ، فقد كانوا يطلبون امتياز ارتداء أزياء مميّزة حتى يسهّل التعرف عليهم فيتمتعوا بالحماية التي زودهم بها الإمبراطور أو الأمير حسب الموائيق التي منحهم إياها ، والتي يستند وجودهم إليها . والقبعة اليهودية التي كان اليهود يلبسونها في وسط أوروبا كانت من ابتداع أعضاء الجماعة اليهودية هناك . وكانت هذه الأروبة والعلامات المميّزة تشبه أسوار الجيسو التي تمزق أعضاء الجماعة اليهودية حتى تسهّل حمايتهم ، ولم تكن تهدف قط إلى إذلالهم .

ولكنها ، مثلها مثل أسوار الجيسو ، تغيّرت وظيفتها بالتدريج ، وخصوصاً بعد حروب الفرنجة ، حيث بدأ اليهود يفقدون أهميتهم في غرب أوروبا ووسطها كجماعة وظيفية وسيطة وتجار دوليين ومرابين ، فتحوّلت أسوار الجيسو إلى وسيلة لعزلهم وأصبحت العلامة والأروبة المميّزة وسيلة للإذلالهم . وهكذا أصبحت العلامة المميّزة دلالة العار ، وتحولت من مجرد وظيفة وإجراء إلى رمز ذي مضمون سلبي محدد .

ومع ظهور الدولة القومية ، حاولت هذه الدولة أن توحد المواطنين في ملابسهم وفي طريقة قص شعورهم . وقد استجاب أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوروبا بسرعة ، ولكنهم في وسطها وشرقها تمسكوا بضرورة إطلاق اللحية وارتداء القفطان ، حتى اضطرت الدولة إلى إصدار قوانين لمعاقبة من يرتدي مثل هذه الملابس وجعلتها مقصورة على المخامات . وكانت الممارك تقوم بين ممثلي الدولة وبعض أعضاء الجماعات اليهودية . وقد أعاد النازيون العمل بالعلامة المميّزة ، كما أن الحسيديين مازالوا يرتدون الرداء المميّز لليهود شرق أوروبا .

### احتكار السلع وأسرار المهنة

#### Monopoly and Exclusiveness

يتميّز المجتمع الإقطاعي الغربي بالفصل بين الطبقات والفتنات والجماعات . وكانت كل طبقة أو فئة تضطلع بوظيفة محددة تحاول قدر استطاعتها احتكارها والإبقاء على أسرار المهنة بعلم إتاحة الفرصة للأخريين للحصول على المعلومات . ومن هنا ، كان الجيسو اليهودي وغير اليهودي يؤدي وظيفة أساسية إذ كان يتيح الفرصة لأصحاب المهنة أو الفئة الواحدة أن يمارسوا حياتهم ومهنتهم بعيداً عن أعين الآخرين الذين قد يطلعون على هذه الأسرار . وكان هذا

٢ - كان أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية ينحون في مراكمة الثروة ، وكان هذا يجعلهم محط حقد أعضاء الأغلبية ، ولذا فإن مظاهر الترف والثراء كانت تجلب عليهم المزيد من السخط .

٣ - كان الربا من الوظائف الأساسية التي اضطلع بها أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية ، ولذا كان يقع في يد المرابي ملابس فاخرة ومصنوعات مترفة لم يستطع أصحابها سداد الدين واستردادها . وكثيراً ما كان المرابي وأفراد أسرته يرتدون هذه الملابس والحلي ، وهو ما كان يجعلهم محط سخرة الأغيار (بسبب عدم التناسق) ، وخصوصاً أن كثيراً من المرابين كانوا فقراء (على عكس التصور الشائع) .

٤ - كانت الضرائب تُفرض على الجماعة اليهودية بشكل جماعي . ولذا ، فإن الانغماس بعض الأفراد في أشكال من الترف ، كان هذا يعني في واقع الأمر تبديد الثروة والعجز عن دفع الضرائب ، ولهذا فقد كان من صالح الجماعة ككل فرض مثل هذه القوانين .

وتغطي قوانين الترف نشاطات كثيرة متنوعة تختلف من جماعة يهودية إلى أخرى . فقد حددت بعض قوانين الترف كمية الجواهر التي يُسمح للنساء أن يتزين بها ، بل كان ذلك ينطبق على الرجال في إيطاليا حيث اتسمت جماعاتها اليهودية بالمبالغة في الترف والإنفاق (شأنها في هذا شأن الإيطاليين في كل زمان ومكان) (١) .

ويبدو أن حفلات الأفراح كانت من أهم المناسبات ، لإظهار الثروة أمام الآخرين والانغماس في الترف (كما هو الحال في مصر في التسعينيات حيث تحولت الأفراح من مناسبة يتألف فيها الناس ويتم فيها إطعام الفقراء إلى مناسبة يتقسم فيها المجتمع وتزيد حدة الصراع الطبقي) ولذا ، صدرت قوانين ترف تحدد عدد الذين يمكن دعوتهم لحفل الزفاف ونوع وعدد الهدايا التي يمكن أن يعطيها عريس لعروسه ، وعدد المشاعل التي يمكن أن تصاحب العريس حينما يذهب لزيارة عروسه ، وتمتع إلقاء الحلوى أو العملات في موكب العروسة . وصدرت قوانين تحدد ثمن الشعر المستعار الذي يُسمح للرجال بارتدائه والمروحة التي يمكن للأثري حملها . وكانت إيطاليا من أكثر البلاد الأوروبية التي صدر فيها قوانين الترف التي كانت تُسمى «برجماتيكا» . وحُدِّد أحد قوانين الترف عدد الأطباق التي يمكن أن تُقدَّم في حفل عشاء خاص ، بل ، وصدر في ساردينيا قانون يحدد كمية البسكويت المصرح لليهودي بأكلها وسمي القانون «قانون دي بسكويتي» .

وكانت القوانين تصل أحياناً إلى درجة من التطرف تدعو أعضاء الجماعة اليهودية إلى الجأ بالشكوى فتضطر السلطات أحياناً إلى التدخل . أما قيادات الجماعة اليهودية ، فكانت تلجأ لكل

وحيثما ظهرت الحركة القومية البولندية بدفاعها عن مصالح البورجوازية البولندية ، طالبت الجماهير البولندية بمقاطعة رجال الأعمال اليهود ، وهو استمرار ليراث العصور الوسطى في بولندا .

### الوسيط (شتدلان)

Intermediary (Stadlan)

كلمة «شتدلان» كلمة مشتقة من فعل آرامي معناه «يبدل جهداً» أو «يتوسط» . والمصطلح يشير إلى اليهودي (من قيادات الجماعات اليهودية) الذي كان يقوم بدور الوسيط بين السلطة الحاكمة وأعضاء الجماعة . والآن ، يُشار أحياناً إلى الصهيونية باعتبارها حركة تقوم بدور الوسيط بين الجماعات اليهودية والقوى الاستعمارية .

### البرناس (برناس)

Parnas

«برناس» اشتقاق من الكلمة العبرية «برنيس» أي «يدعم» . والرئيس (برناس) أهم موظف إداري لا يتقاضى أجراً في الجماعة اليهودية . وكان يترأسها أحياناً على المستويين الديني والذنبوي . ولكن ابتداءً من القرن السادس عشر ، أصبح البرناس رئيساً إدارياً يعمل مع مجلس البرناسيم (وهي صيغة الجمع في العبرية لكلمة «برناس») . ويذهب بعض العلماء إلى أن كلمة «برناس» لا تشير إلى الرئيس وإنما إلى مجلس الأئمة بأكملها .

### قوانين الترف

Sumptuary Laws

«قوانين الترف» مجموعة من القوانين أو القواعد التكميلية (بالعبرية : «تاقانوت») التي أصدرها الحاخامات لتحد من إظهار أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية لمظاهر الترف والثراء . وقد صدرت قوانين الترف للأسباب التالية :

١ - تحوَّلت الجماعات اليهودية في معظم أنحاء أوروبا إلى جماعات وظيفية ، ومثل هذه الجماعات لا بد أن تتسم بقدر عالٍ من الانضباط الداخلي والخارجي والترابط الكامل حتى يمكنها أداء وظيفتها بكفاءة وحتى يمكن حوسلتها . ولإنجاز هذا ، كان من الضروري القضاء على كل النزعات الفردية وتقليل حدة التنافس ، وخصوصاً أن أعضاء الجماعات اليهودية يعيشون داخل الجيتو في مساحة صغيرة الأمر الذي يجعل التنافس باهظ التكاليف من الناحية الاجتماعية والنفسية .

الشخصية مثل : الزواج والطلاق والتفقة . وهذه المحاكم تستخدم المعايير الأرثوذكسية وهو ما يجعلها تصطدم بكثير من المهاجرين ، خصوصاً في المسائل الخاصة بالزواج والطلاق وتعريف الهوية اليهودية واليهود . هذا ولا يمكن تعيين المنهود قاضياً حسب الشريعة اليهودية .

#### الطرده من حظيرة الدين والجماعة (حيريم)

Excommunication (Herem)

تشير كلمة «حيريم» العبرية إلى الأشياء التي تُعزَل أي تُكْرَس للأغراض المقدَّسة (لاويين ٢٧/ ٢٨) ، أو إلى الأشياء التي يُحْرَمُ لمسها بسبب طبيعتها المحرمة ، مثل الأشياء الوثنية (ثنية ٧/ ٢٦) . ويستخدم عزرا الكلمة بمعنى «مصادرة الملكية» (عزرا ٨/ ١٠) . ولكن الاستخدام التلمودي للكلمة يشير إلى «الطرده من حظيرة الدين أو الجماعة الدينية» ، ويُمنَع أعضاء الجماعة تماماً من الاتصال بالشخص الذي يتم طرده . ولذا ، كان الحيريم سلاحاً استخدمته المؤسسات اليهودية ، مثل القهال والمحاكم الشرعية ، ضد أعضاء الجماعة حتى العصر الحديث . ومن أشهر قرارات الطرده ، ذلك الذي صدر ضد إسبينوزا ، وربما كان عدم أكثرائه بالقرار واستمراره في حياته دون أن يتنصر ، ربما كان في حد ذاته رمزاً لوصول العصر الحديث بتعددته ونسبته . وقد فقد قرار الطرده كل فعاليته ، إذ لم يُعد المواطن اليهودي في العصر الحديث معتمداً على جماعته في حياته الاقتصادية أو حتى الثقافية . ومع هذا ، قام بعض المحاكمات من مؤيدي الصهيونية عام ١٩٨٣ بإصدار حيريم رمزي (في الولايات المتحدة) ضد بعض الشخصيات اليهودية التي هاجمت إسرائيل لما قامت به من مذابح في صبرا وشاتيلا . وفي الممارك الانتخابية في إسرائيل يُستخدم أحياناً سلاح الحيريم لضمان تصويت الناخبين (التابعين للأحزاب الدينية) لمرشح يعينه دون غيره .

#### الشنتل

Shtetl

كلمة «شنتل» صيغة تصغير يديشية مشتقة من كلمة «شتوت» ومعناها «مدينة» . والكلمة عبرية في الأصل وتعني «شنتلة» ويُقصد بها زرع أو شتل كيان ما داخل التربة . والشنتل تَجَمع سكاني يهودي (يبلغ عدد سكانه ما بين ألف وعشرين ألفاً) استوطن فيه اليهود ممثلين للإقطاع البولندي الاستيطاني في أوكرانيا ، ووكلاء للنبلاء البولنديين (سلاختا) ، وجامعي ضرائب ، أي أنهم كانوا يشكلون

الطرق لفرض قراراتها . ولذا ، كانت تفرض أحياناً عقوبة الطرده من حظيرة الدين (حيريم) . وكان الممتنع عن تنفيذ القوانين يُمنَع من زيارة المعبد اليهودي ، كما كان يُمنَع أعضاء الجماعة اليهودية من زيارة مثل هذا الشخص الذي يمتنع عن تنفيذ القوانين .

#### النظم القضائية والمحاكم

Judicial Systems and Courts

لم يختلف النظام القضائي بين العبرانيين عما كان عليه في البيئات الحضارية التي تقلوا فيها . فقد عيَّن موسى قضاة يحكمون بين الناس ، وهم بعد في البرية . وبعد الاستيطان في كنعان ، كان في كل مدينة قاض . ومع تطوُّر الدولة العبرانية ، تطوَّر النظام القضائي وازداد تركيباً ومركزية . وبعد العودة من بابل ، تغيَّر النظام القضائي بعض الشيء بما يتناسب مع الوضع الحضاري الجديد ، فظهر السنهدرين (المحكمة) بدرجاته المختلفة . وبعد انتشار اليهود في مختلف البلاد ، ظهرت مؤسسات قضائية أخرى داخل إطار الإدارة الذاتية التي كانت تسمح بها الدول لأعضاء الأقليات والجماعات الدينية والمهنية . فكان لكل جماعة يهودية ، في بعض الأحيان ، القاضي (ديان) المختص والمحاكم الخاصة التي كانت تنظر فيما قد ينشب بينهم من خلافات . أما التقاضي بين اليهودي وغير اليهودي ، فكان يتم أمام قضاة المجتمع المضيف في معظم الأحيان . وكان لبعض هذه المحاكم سلطات قد تصل إلى حد الحكم بالإعدام في حالات نادرة ، كما كانت تمتلك أدوات تعذيب خاصة بها ، ويتبعها سجن لإيداع المساجين اليهود ، وكان هذا أمراً ضرورياً ، لأن الجماعات اليهودية في أوروبا في العصور الوسطى كانت تقوم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، ولم يكن هناك مفر من أن تمتع القيادة بصلاحيات قضائية وأن يتبعها نظام عقوبات صارم حتى يتسنى لها فرض نوع من الانضباط الأساسي واللازم لقيام أعضاء الجماعة بدورهم . ووصل هذا النموذج إلى أعلى تحقُّق في حالة القهال في بولندا ، البلد الذي وصل فيه دور اليهود كجماعة وظيفية وسيطة إلى قمة تبلوره .

وكان وجود أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمع مسيحي يخلق مشاكل في التقاضي ، كما كان الحال في مشكلة القَسَم . ومن هنا ظهر القَسَم اليهودي . ومع ظهور الدولة القومية المركزية ، ألغيت أشكال الإدارة الذاتية كافة ، ومن بينها المحاكم ، واقتصرت المحاكم اليهودية على الأمور الدينية ولم تُدْ لها سلطات تُذكر . وفي إسرائيل ، هناك محاكم حاخامية تختص بالأحوال

بولندا ، كانت معظم الشتلات تُوجَد في منطقة الاستيطان في روسيا .

وقد وصف حايم وايزمان حياة اليهود في الشتل بأنها « كانت حياة غريبة بمعنى الكلمة عن حياة الأغيار وتفكيرهم وأحلامهم ودينهم وأعيادهم وحتى لغاتهم ، فكانت تمر أيام يُسبَعِد فيها عالم الأغيار حتى من وعينا [اليهودي] كما هو الحال يوم السبت وفي أعياد الربيع والخريف . وكان يفصلنا عن الفلاحين عالم كامل من الذكريات والتجارب » . ومع هذا ، ورغم هذا البُعد الظاهري ، فإن الشتل جزء من التشكيل الحضاري السلافي ، وذلك كما يتضح في الحركة الحسيدية التي يظن المرء لأول وهلة أنها مفرقة في اليهودية رغم أنها في واقع الأمر متآثرة بالحركات المسيحية الأرثوذكسية الروسية المعارضة للكنيسة (وخصوصاً جماعة الخليستي) . وقد نشأت القيادات الصهيونية في جو الشتل ، كما أن كثيراً من وقائع وشخصيات وحوادث الأدب اليديشي مستغاة منه ، كما أن فن مارك شجال (الرسام الروسي الأصل الفرنسي الجنسية) وقصص بارنارد مالامود (القاص الأمريكي) تعالج موضوعات مأخوذة من عالم الشتل .

ويرى الكاتب آرثر كوستلر أن أصول الشتل خزرية وأنه ، كمؤسسة قديمة ، إحدى ثمرات الدياسبورا الخزرية ، أي انتشار الخزر ، فهو يشبه المدن التجارية في إمبراطورية الخزر . كما يرى كوستلر أن احتكار يهود الشتل تجارة الخشب يذكرنا بأن الأخشاب كانت مادة البناء الأساسية عند الخزر وأحد صادراتهم الأساسية ، وأن تَخَصُّص يهود الشتل في صنع العربات هو استمرار لعادات الخزر البدوية في الانتقال ونقل الخيام والبضائع . ومن الأعمال الأخرى التي كان يمارسها يهود الشتل ، ولا يمارسها يهود الجيتو ، إدارة الفنادق وتشغيل مطاحن الدقيق وتجارة الفراء ، وربما يعود هذا أيضاً إلى اختلاف أصول يهود الشتل عن يهود جيتوات شرق أوروبا . ويجب أن يضاف إلى هذه الملامح المتميزة طراز الباجودان (من كلمة «الباجودا») الذي أقيمت وفقه أقدم المعابد اليهودية الخشبية في الشتل والباقية حتى اليوم والتي يعود تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو طراز مختلف تماماً عن كل من طراز العمارة المحلية وطراز البناء المُستعمل لدى اليهود الغربيين . كما تختلف الزخارف الداخلية لأقدم معابد الشتل اختلافاً تاماً عن مخطها في الجيتو الغربي ، فقد كانت جدران معبد الشتل تُغَطَّى بزخارف تشبه الزخارف العربية الإسلامية وتُصوِّر عليها الحيوانات التي تُبْرز التأثير الفارسي الموجود في المشغولات الفنية للخزر المجريين .

جماعة وظيفية وسيطة تقوم بعملية الاستغلال لصالح البلاء الغائين الذين كان كل مهمهم زيادة دخلهم . ورغم أن الشتل أحد الأشكال الجيتوية ، فإنه يختلف عن الجيتو في كثير من النواحي . فالجيتو مجرد شارع أو حي في مدينة ، أما الشتل فهو نوع من المستوطنات ارتبط بالإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا بعد اتحاد مملكة بولندا وليتوانيا (في القرن السادس عشر) وظهور نظام الأرندا وزيادة المدن التابعة للنبلاء ، الأمر الذي شجع أعضاء الجماعة على هجرة المدن الملكية التي كانت تتحكم فيها البلدية والمصالح التجارية البولندية والكنسية .

والشتل كان مدينة ريفية الطابع مستقلة ذاتياً ، معظم سكانه من اليهود الذين جمعهم النبيل الإقطاعي ووطنهم فيه ليضطلعوا بمهمة الوكالة عنه في إدارة الضياع وجمع الضرائب . وكانت هذه المراكز شبه الريفية شبه الحضرية حلقة اتصال بين احتياجات المدن الكبيرة والريف . ولذا ، كان الشتل يقع في موقع إستراتيجي يوفر للفلاحين من ناحية سهولة الوصول إليه ، ويوفر لليهود (من ناحية أخرى) العزلة وعدم الاختلاط مع بقية السكان ، وكان القانون البولندي ، بسبب الوضع المتفجر في أوكرانيا ، يفرض على رب العائلة اليهودية أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور وبثلاث خرطوشات وثلاثة أربال من البارود . أي أن الشتل ترجمة معمارية لوضع الجماعة اليهودية في إطار الأرندا الزراعية الإقطاعية الاستيطانية . وكان هناك أسواق تبايع أو تقايض فيها الأغنام والماشية جنباً إلى جنب مع البضائع المصنوعة في المدن ومنتجات الصناعات المنزلية الريفية . وكانت الشتلات في الوقت نفسه المراكز التي يمارس فيها الحرفيون حرفهم من صانعي ومصليحي العجلات والعربات إلى الحدادين وصاغة الفضة والخياطين والذابحين الشرعيين والطحانيين والخيازين وصانعي الشموع ومقترحي الخمر . وكان هناك أيضاً كتبة الخطابات للأمينيين ، ومعابد للمنتدبين ، وفنادق للمسافرين والصيارفة والوسطاء من جميع الأنواع .

وتدور الحياة في الشتل حول المعبد اليهودي والمنزلة اليهودي ثم السوق التي يلتقي فيها اليهود بالأغيار . وكانت تُوجَد في الشتل أيضاً المدارس الدينية اليهودية ، وكان هناك رواة للأقايص وشعراء شعبيون يتجولون من شتل إلى آخر .

ونظراً لوجود أغلبية يهودية في الشتل ، فإنه حقق قدراً من الاستقلال الثقافي عن البيئة المحيطة به . ومع هذا ، ونظراً لبعد الشتلات عن المراكز الدينية اليهودية والمدارس التلمودية العليا ، تأثر سكان الشتل بالجو السلافي المسيحي المحيط بهم . وبعد تقسيم

قلنسوة ضيقة حتى اليوم . وكان يهود البدينشية يلبسون قبعة مستديرة متقنة موشاة الحواف بفراء الثعلب تُسمى «الإستريميل» ، ويبدو أنها تعود إلى أصول خزيرية . وكما سبق القول ، فإن الانحجار في فراء الثعلب والملك ، الذي كان مزدهراً في إمبراطورية الخزر ، أصبح بالفعل احتكاراً يهودياً آخر في بولندا . أما النساء فكان ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يرتدين عمامة عالية بيضاء كانت نسخة طبق الأصل من الجولوك التي كانت نساء التركمان تلبسها .

ولا تخطى العين أيضاً الأصل الشرقي للزي التقليدي اليهودي البولندي ، فربما كان غمط القفطان الحريري الطويل تقليداً للستره التي كان يرتديها النبيل البولندي ، والتي كانت هي نفسها نسخة من الزي الرسمي للتتار في القبيلة الذهبية ، ولكننا نعرف أن القفطان كان يُلبس قبل ذلك بوقت طويل لدى بدو الإستبس . ويبدو أن القبعة (اليرملك) التي يرتديها اليهود الأرثوذكس تعود إلى غطاء الرأس الخاص بالشعوب التركية (مثل الأوزبكستانيين) الذين يلبسون



## ٣

## الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وإسبانيا المسيحية

الإمبراطورية البيزنطية - إسبانيا المسيحية - البرتغال - فرديناند وإيزابيلا - محاكم التفتيش

## الإمبراطورية البيزنطية

The Byzantine Empire

«الإمبراطورية البيزنطية» هو الاسم الذي يُطلق على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية بعد انقسامها عام ٣٩٥ ثم سقوط الإمبراطورية الغربية عام ٤٧٥ . والقسطنطينية هي العاصمة القديمة لبيزنطة (إستنبول فيما بعد) . وكانت تُوجد جماعات يهودية في الإمبراطورية البيزنطية عبر تاريخها ، من أهمها جماعة الرومانيوت (أو الجريجوس) في المدن التي كانت تتحدث اليونانية . وكانت الإمبراطورية البيزنطية تضم أعداداً كبيرة من السامريين ثم القرآنيين ، وكان لكل جماعة يهودية تنظّمها الإداري والقضائي المستقل وهو النظام الذي ورثته الدولة العثمانية واستمر العمل به .

ويرتبط تاريخ الجماعات اليهودية بتاريخ الإمبراطورية الذي يمكن تقسيمه إلى فترتين :

الفترة الأولى وتمتد من عهد قسطنطين الأول حتى فترة تحطيم الأيقونات (حوالي عام ٧٢٠) ، وكانت توجد في هذه الفترة جماعات يهودية كثيرة لا تُسم بأي مجانس حضاري في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط (في شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر) .

وقد شجعت الإمبراطورية سكانها على تبني المسيحية باعتبارها دين الدولة وأيدولوجيا الحكم فيها . ولذا ، اعتُبر الشهود جريمة يعاقب عليها القانون ، ومُنعت تجار اليهود من ختان عبيدهم . وحرّم الزواج المختلط بين اليهود والمسيحيين ، كما مُنع الآباء اليهود من حرمان أولادهم الذين ينتصرون من الميراث . وقد حدث مرّود صغير في فلسطين في عهد الحاكم البيزنطي جالوس عام ٣٥١ ولكنه أُحمد بسهولة .

وشهدت هذه الفترة اختفاء مجموعات المزارعين اليهود المتحدثين بالأرامية في ريف فلسطين بشكل شبه تام ، وتحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى التجارة . كما أن عدد اليهود الكلي في

فلسطين تتأقص بشكل حاد ، فيُقال إن عدد اليهود إبان التمرّد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٣٢ - ١٣٥) ، كان يتراوح بين ٧٥٠ ألفاً و٨٠٠ ألف ، ولكنه انخفض في أوائل القرن السابع ، أي عند دخول الفرس إلى فلسطين ، إلى نحو ١٥٠ - ٢٠٠ ألف .

كما شهدت هذه الفترة ثورات اليهود السامريين في عامي ٤٨٤ و٥٢٩ حيث تركزت معظم هذه الثورات في نيبابوليس (نابلس) . ونجح الثوار السامريون في الاستيلاء على بعض المدن وفي إقامة ما يشبه الإدارة الحكومية ، كما قاموا بجمع الضرائب بل عبثوا ملكاً من بينهم إلى أن جاءت قوات الإمبراطورية وأخمدت التمرّد . ويُلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية من أتباع اليهودية الماخابيه لم يتعاونوا مع السامريين في التمرّد ، وقد ألغت الإمبراطورية منصب أمير اليهود (ناسي أو بطريك) في فلسطين عام ٤٢٥ ، وهو بذلك آخر تعبير رمزي عن مركزية فلسطين في حياة يهود العالم . وبإلغاء هذا المنصب ، استقلت الجماعات اليهودية كافة وأصبح لكل مسارها وقيادتها وخطابها الحضاري .

ومن أهم الأحداث في هذه الفترة وقوع فلسطين لفترة وجيزة في يد الفرس (عام ٦١٤) . ويبدو أن هجوم القوات الفارسية كان يمثل بارقة أمل للجماعات اليهودية في الإمبراطورية لتحسين أحوالهم ، فتعاونوا مع القوات الغازية (التي كانت تضم جنوداً يهوداً) وانخرطوا في سلكها مقاتلين وجواسيس ، واشتركوا معها في فتح المدن الأخرى للإمبراطورية ، مثل صور وقيصرية بمساعدة السكان اليهود داخل هذه المدن . ويبدو أن ارتباط الفرس في الوجدان اليهودي بالعودة من بابل واسترجاع العبادة القرآنية في الهيكل الثاني (بمقتضى مرسوم قورش) أحييا الآمال المشيخانية في استرجاع قدر من استقلال اليهود الإداري في فلسطين . ويبدو أن الفرس ساروا الجماعة اليهودية في ذلك لاستخدامها في عملية الغزو . وما إن تحققت الأهداف وظنوا أن حكمهم قد استقر حتى قرروا التخلي عن الجماعة اليهودية التي كانت تشكل أقلية منبته



(من فريجيا) كلاًهما تعلّم على يد يهود ، ولكن الأرجح أن المصدر الأكبر لهذه الحركة هو المد الإسلامي الذي لم يكن يُدُّ من أن يكون له صده داخل الإمبراطورية . ويُقال إن أعداداً كبيرة من اليهود هربت في هذه الفترة إلى دولة الخنزير اليهودية ، وازداد اشتغال أعضاء الجماعة اليهودية بالتجارة وبعدد من الحرف مثل الصباغة وغزل الحرير .

ومع الفتح الإسلامي للقسطنطينية ، سقطت الإمبراطورية البيزنطية في يد المسلمين ، ودخلت الجماعات اليهودية في فلك الدولة العثمانية .

### إسبانيا المسيحية

Christian Spain

يوجد وجود أعضاء الجماعة اليهودية في إسبانيا إلى القرن الأول الميلادي ، واستمر وجودهم فيها ، إلى ما بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ، تحت حكم القوط . ويبدو أن وضعهم كان مستقرًا هادئًا حتى عام ٥٨٩ حينما تحوّل القوط عن مذهبهم المسيحي الأريوسي واعتنقوا الكاثوليكية وأصبحت إسبانيا جزءاً من التشكيل الكاثوليكي في العصر الوسيط . وتدهور وضع اليهود تماماً ، ولم يحسن وضعهم إلا وصول العرب مع الفتح الإسلامي (٧١١) . وكان أعضاء الجماعات اليهودية قد تحولوا حينذاك إلى جماعة وظيفية وبسيطة .

ومع هذا ، كانت هناك جماعة يهودية في جبال البرانس (في الشمال) سمح لهم شارلمان (٧٧١ - ٨١٤) بالإقامة ليكونوا حاجزاً ضد التوسع الإسلامي في المنطقة التي كانت تُسمّى «ماركا هسبانيكا» . كما سُمح لهم بامتلاك الأراضي في هذه المنطقة ، ومُثحو حقوقاً كثيرة لتشجيعهم على الاستيطان والبقاء في هذا الجيب المسيحي والمنطقة الحدودية ، أي أنهم كانوا جماعة وظيفية قتالية تعمل بالزراعة .

وكان بعض أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جزءاً من عملية الغزو المسيحي لاستعادة إسبانيا ، سواء كعناصر قتالي أو كعناصر زراعي أو إداري ، كانت الجيوش المسيحية تضم في صفوفها أعداداً من اليهود . وحينما كانت المدن الإسلامية تقع في قبضة الجيوش الغازية ، فإن حقوق سكانها من المسلمين واليهود كانت تُصان من الناحية النظرية سواء بسواء . أما من الناحية العملية ، فكان أعضاء الجماعة اليهودية مُفضّلين على أعضاء الجماعة الإسلامية ، حيث كان يُسمح لليهود بالاستمرار في سكنى منازلهم بينما كان المسلمون

الصلة بالجماهير المسيحية أو الريف . كما قرروا التعاون مع المسيحيين في فلسطين وقياداتهم والتضحية بالجماعة اليهودية (ولا يختلف هذا كثيراً عما حدث في شبه جزيرة أيبيريا حينما تحالف أعضاء الجماعة اليهودية ، كعناصر استيطانية وكمسؤولين ، مع القوات المسيحية التي قضت على الحكم الإسلامي فيها . ولكن ، بعد أن حقق الغزو المسيحي مأربه ، طُرد أعضاء الجماعة اليهودية بعد ستة شهور) .

ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية أدركت أهمية الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية استيطانية ومالية ، ولم تُطّق على اليهود النافرين وظيفياً ما طبقت على يهود فلسطين . ويُلاحظ ، على سبيل المثال ، أن ضابطاً فارسياً احتل جزيرة بالقرب من خليج العقبة وطرد عملي الإمبراطورية البيزنطية وبدأ يجمع الضرائب لحسابه . ويبدو أنه كان هناك جماعة استيطانية يهودية شرقي خليج العقبة (في جزيرة جوياباكابا) تعمل بالتجارة وتتمتع باستقلال إداري . ولكن ، حينما قامت قوات الدولة البيزنطية بطرد الضابط الفارسي عام ٤٩٨ ، فإنها لم تتعرض للجماعة اليهودية التي ظلت تمارس نشاطها وتتمتع باستقلالها الإداري في هذه المنطقة الحدودية التي لم يستقر فيها حكم الإمبراطورية . ولكن الإمبراطورية البيزنطية اتجهت في فترة لاحقة نحو توسيع رقعة تجارتها الدولية ، وحاولت السيطرة على مداخل البحر الأحمر الجنوبية (باب المنذب) ، وذلك حتى يتسنى لها الوصول إلى الهند بالالتفاف حول الدولة الفارسية التي كانت تسد الطريق البري . واصطدم البيزنطيون بالنخبة اليهودية الحاكمة في حمير (في اليمن) ، وتحالفت الإمبراطورية البيزنطية مع الأسرة الحاكمة القبطية في إثيوبيا . أما ذو النواس ، ملك حمير اليهودي ، فتحالف مع الفرس ، كما أرسل رسله إلى المنذر ، حاكم الحيرة العربي الذي كان يدور في فلك الفرس . ولكن الفرس لم يرسلوا قواتهم ، وسقط ذو النواس عام ٥٢٥ أمام هجمات الإثيوبيين ، ومن ثم أصبح مضيق باب المنذب ضمن النفوذ البيزنطي . وحتى تُحكم قبضتها على البحر الأحمر ، قامت الإمبراطورية البيزنطية بتصفية الجيب الاستيطاني اليهودي في جزيرة جوياباكابا في خليج العقبة إذ لم يعد له نفع كبير سواء كعناصر استيطاني أو كعناصر تجاري .

وتتجد الفترة الثانية من تاريخ الجماعات اليهودية في الدولة البيزنطية من فترة تحطيم الأيقونات (٧٢٠) حتى الفتح العثماني للقسطنطينية (١٤٥٣) . وُجّه الاتهام لدعاة تحطيم الأيقونات باعتبارهم يهوداً . ويبدو أن لهذا الاتهام أساساً من الصحة ، إذ تشير المراجع إلى أن الإمبراطور ليو الخامس (الأرمني) وميخائيل الثاني

الحرية في مصادرة أموالهم والاستيلاء على ثرواتهم . أما أوضاع أعضاء الجماعة المسلمة فكانت مختلفة تماماً حيث كان عددهم كبيراً كما كانوا يُعتبرون جماهير بمعنى الكلمة . بل ويُقال إن الموريسكيين (المسلمين المتصرّين) كانوا يشكلون بعد استعادة إسبانيا نحو ٢٠٪ من عدد السكان ، كما كانوا أخذين في الكثار بسبب عدم وجود مقاتلين بينهم (ولذا لم تكن أعدادهم تُنقص أثناء الحروب) كما لم يكن بينهم رهبان أو راهبات . وأثناء الغزو المسيحي ، كان العنصر الإسلامي أو العربي المتصرّر (الموريسكيون) مشكوكاً فيه ، فالدويلات الإسلامية كانت تشكل مركزاً لولا أنهم العاطفي إن لم يكن الفعلي . وحتى بعد اكتمال الغزو وتصرّر المسلمين ، ظل الموريسكيون موضع شك السلطات المسيحية لأن الدول الإسلامية المحيطة كانت تشكل عمقاً إستراتيجياً بالنسبة إليهم ، وكان من الممكن أن تزودهم هذه الدول بالمساعدات لاستعادة السلطة ، وخصوصاً أن القوة العثمانية الصاعدة كانت تشكل أملاً إسلامياً جديداً . كان هذا الأمر محتمل الوقوع بل كاد يتحقق مع ثورة البشارت الثانية . وعلى أساس من كل هذا ، يمكن فهم سبب تحوّل أعضاء الجماعة اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة على يد المسيحيين ، كما يمكن فهم سبب استبعاد جماهير المسلمين أو الموريسكيين أو أعضاء النخبة بينهم .

تمتع أعضاء الجماعة اليهودية بقسط كبير من الإدارة الذاتية داخل تنظيم الجماعة وتحت قيادة رئيسها الذي كان يُعرف باسم «المقدم» ، وظل يُعرف باسمه العربي كما هو الحال في كثير من المؤسسات الإسبانية المسيحية . وكان للجماعة استقلالها الإداري والقضائي ، وكان يشرف عليها موظف ملكي هو حاخام البلاط (بالإسبانية : «راب دي لا كورتى rab de la corté» ) .

وكان لأعضاء الجماعة مجالسهم المستقلة التي كان يتم انتخاب أعضائها . وإلى جانب هذه المجالس المنتخبة ، كانت توجد مجالس أخرى مغلقة في بعض الدويلات لا تضم سوى الوجهاء والأثرياء . وبطبيعة الحال ، كان الملك يساند هذه المجالس باعتبارها وسيلته للتحكم في أعضاء الجماعة الوسيطة . ولذا ، فقد كان يمنحها سلطات كاملة . وكان يتبع هذه المجالس ما يُسمّى بقضاة الذنوب (بوليس آداب وأخلاق عامة) تُوكّل إليهم مهمة القبض على أي يهودي يخرق الشريعة ، كما كان يتبعها قضاة شرعيون (بالعبرية : دينانيم) . وكان لبعض هذه المحاكم صلاحية الحكم بالإعدام على أي عضو من أعضاء الجماعة بل وصلاحية تنفيذ هذه الأحكام . ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية (كجماعة وظيفية وسيطة)

يظفرون إلى السكنى خارج المدينة كما حدث في توديللا عام ١١١٥ وسرقسطة عام ١١١٨ . وكان يُسمح لأعضاء الجماعة اليهودية ببناء معابدهم . وشكّل اليهود عنصرًا استفاد منه الحكام المسيحيون الجدد في بناء المجتمع الجديد إذ استخدمهم دبلوماسيين ومترجمين للتراث العربي وغيره . ولكن الاستفادة منهم كانت أساساً كجماعة وظيفية استيطانية يُوظّن أعضاؤها في المناطق المفتوحة وموظفين لتثمينتها كما حدث في مورشيا وبلنسية ولانشا والأندلس وغيرها . وكانوا يُمتحنون الأراضي ليزرعوها . فعلى سبيل المثال ، كان اليهود في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين يملكون ثلث الأراضي في مقاطعة برشلونة . كما كانوا يُعطون حق فتح المحال التجارية شريطة أن يستوطنوا هم وأسرهم فيها ، وكانت حقوقهم تزيد أحياناً على حقوق السكان العاديين من المسيحيين . وابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي بدأ أعضاء الجماعة اليهودية في الانتقال من إسبانيا الإسلامية إلى إسبانيا المسيحية بأعداد متزايدة .

ولعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً أساسياً في النظام المالي وفي تزويد الحكام الجدد بما يريدون من أموال إما بشكل مباشر أو غير مباشر (عن طريق الإشراف على جمع الضرائب) . وعلى سبيل المثال ، كانت مملكة قشتالة تحصل عام ١٢٩٤ على ٢٢٪ من دخلها من الضرائب المفروضة على اليهود . وكان لكل بلاط ملكي يهودية الخاص الذي كان يشرف على هذه العمليات . ويمكن أن نسمي هؤلاء «يهود البلاط» مع أن المصطلح لم يظهر إلا في القرن السابع عشر الميلادي في ألمانيا . وأدّى هذا الوضع إلى ارتباط اليهود بالمطالب الظلمة والأعباء المالية التي كان يفرضها التاج . ومن ثم حينما طُرد اليهود من إسبانيا ، كان من الضروري البحث عن بديل لهم للقيام بمهمة ملتزمي الضرائب .

والواقع أن اختياريهم كيهود بلاط ، وكنتمصر استيطاني زراعي ، يرجع إلى أنهم كانوا لا يطمحون للاستيلاء على السلطة السياسية ، فهو أمر غير مطروح بالنسبة لهم نظراً لعدم إمكان التحالف بينهم وبين أية طبقات أخرى مثل الفلاحين أو النبلاء أو القساوسة بسبب العداوة بين أعضاء هذه الطبقات وأعضاء الجماعة . وعلاوة على هذا ، لم يكن أعضاء الجماعة يملكون أية قوة عسكرية ، الأمر الذي يعني إمكانية التخلص منهم بسهولة . كما أن تروّجهم على هيئة وحدات بشرية صغيرة منزلة كان يُسرّ عملية التخلص منهم إن نشأت حاجة إلى ذلك . أما قوتهم المالية ، فلم يكن عائلها يفيدهم كثيراً حيث كان يُصبّ في خزائن الملك الذي كان له مطلق

كان لها أثر مدمر في الإيمان الديني للنخبة . وقد كان يهود البلاط يقومون بحماية بني ملتهم في معظم الأحيان ، ولكنهم كانوا يقفون ضدهم في أحيان أخرى بسبب تمائل مصالحهم وثقافتهم مع مصالح البلاط وثقافته . كما كانوا يقلدون المسيحيين في ردايتهم وحنيتهم ، وتبصّر كثير منهم في نهاية الأمر . وحيث إنهم كانوا يشكلون النخبة القائدة ، فإن اندماجهم وانصهارهم كان يعني اهتزاز الهوية اليهودية .

وازداد اليهود هامشية وأصبحوا عديمي الجدوى بازدياد التغلغل المسيحي في شبه الجزيرة ، وهي عملية كانت بطيئة جداً ، ومع هذا بدأت آثارها تظهر واضحة مع القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي أيضاً المرحلة التي ظهرت فيها القبّالاه إذ ظهر الزوهار بين عامي ١٢٨٠ و ١٢٩٠ . وبدأت الجماعة تتفوق على نفسها وتحارب الفلسفة الإسلامية العقلانية وتقف ضد تغلغلها في صفوف المفكرين اليهود ، فحرمت كتابات موسى بن ميمون .

وبدأت الاضطرابات ضد أعضاء الجماعة اليهودية في إسبانيا المسيحية على نطاق واسع عام ١٣٩١ ، ثم انتشرت في كل أرجائها وتبصّر الألوّف من اليهود ، وهو ما سبب مشكلة للحكم إذ كان فصل المتبصرين عن بقية اليهود أمراً لا مفر منه ، وكذلك التأكد من جدية ولاء المتبصرين حتى لا يتظاهر بعضهم بالمسيحية لتحقيق الحراك الاجتماعي وهم يبتغون اليهودية ، وسُمّي هؤلاء «المارانو» . ومن ثم أقيمت محاكم التفتيش . وفي عام ١٤١٢ ، صدرت قوانين فالادوليد التي حرّمت على اليهود الاشتغال بالطب أو الحرف أو الاتجار مع المسيحيين ، كما ألغيت محاكم اليهود الخاصة .

وتصاعدت عملية الغزو المسيحي لشبه جزيرة أيبيريا بزواج فرديناند وإيزابيلا عام ١٤٦٩ . واستفاد الملكان من القروض التي دبرها لهم الصيرفي اليهودي دون إزهاق سنينور في حروبهما ضد المسلمين وفي فتح غرناطة . وقد أصبح سنينور جامعاً للضرائب وحاخاماً لليهود . وبعد أن بسطت السلطة المسيحية الجديدة هيمنتها على شبه جزيرة أيبيريا بأسرها عام ١٤٩٢ ، بدأ فرديناند وإيزابيلا في تأسيس ما يُعدُّ بعض المؤرخين أول دولة قومية حديثة في أوروبا تتمتع بسلطة مركزية . كان التأكد من ولاء السكان أمراً ضرورياً ، فبعد أن تبصرت أعداد كبيرة من المسلمين واليهود كانت ثمة أعداد منهم لا تزال تمارس دينها سراً (وكان يُطلق على المسلمين المتبصرين «الموريسكيين» ، وكانت العناصر التي حافظت على عقيدتها تشكل عوامل جذب لهؤلاء ، ولذا فقد صدر قرار بطرد اليهود والمسلمين

يُكوّنون جزءاً عضوياً من المجتمع الإسباني المسيحي الإقطاعي ، وإنما كانوا يتبعون الملك مباشرة حيث كانوا يدينون له وحده بالولاء ويؤدون له الضرائب ، بل إنهم كانوا يعدّون ملكية خاصة له أي أنان بلاط . وحينما كان حكم الإعدام يتفد في يهودي ، كانت الجماعة اليهودية تُكْرَم بدفع ثمنه للملك .

ويشكل هذا الوضع التمييز الهامشي أساس الصراع الذي لم يهدأ بين أعضاء الجماعة وبقية أعضاء المجتمع ، وخصوصاً سكان المدن . فالجماعة كانت توجد بجوار البلدية المسيحية ، ولكنها كانت غير خاضعة لنفوذها بسبب علاقتها الخاصة مع الملك . ولذا ، لم يكن من الممكن إخضاعها للنظم أو للأعراف المعمول بها .

ويمكن التعرف على وضع اليهود الخاص بالرجوع إلى مرسوم ألفونس العاشر الصادر عام ١٢٦٣ حيث حدّد حقوق أعضاء الجماعة ومنحهم حريتهم الدينية الكاملة شريطة ألا يهاجموا المسيحيين ، كما حرّم تهمة الدم ومنع مضايقة اليهود في يوم السبت أو تعطيلهم عن أداء شعائرها حتى لو وُجدت أسباب قانونية شرعية لذلك ، وحرّم كذلك استخدام القوة لتبصيرهم . وكانت غرامة قتل اليهودي تعادل الغرامة التي تُدفع عن قتل فارس أو قس . ولقد حاول بعض سكان المدن أن يخفّضوا الغرامة لتعادل الغرامة التي تدفع دية فلاح عادي . وتبدّلت المساواة بين اليهود والمسيحيين في قبول القسّم اليهودي أمام المحاكم المسيحية .

ثم ظهرت ، في مرحلة متأخرة ، مجموعة مختلفة من القوانين تعبر عن تحيز واضح ضد أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا قد بدأوا يفقدون شيئاً من أهميتهم الوظيفية . وتعكس هذه القوانين بدايات التدهور حيث حرّم على اليهود مغادرة منازلهم في عيد القيامة ، أو أن يكونوا في أي مركز يسمح لهم بالسيطرة على المسيحيين ، كما حدد عدد المعابد اليهودية . ولكن ، ورغم التدهور النسبي ، ظل لأعضاء الجماعة وظائفهم المحددة التي يظلمون بها ودورهم المميز الذي يلعبونه . ولذا ، حينما أصدرت للمجامع اللاترانية (الثالث عام ١١٧٩ والرابع عام ١٢١٥) القوانين التي حدّت من حرية اليهود ، لم تُطبّق هذه القوانين في إسبانيا تطبيقاً تاماً . وقد طبّقت هذه القوانين ، في بداية الأمر ، بصورة مخففة جداً بسبب الضروورات الناجمة عن إعادة فتح الأندلس . ولكن ، مع استكمال الغزو ، لم تُعدّ هناك ضرورة أو نفع لليهود ، بل أصبح من الضروري التخلص منهم . وقد كانت حتى حياة اليهود الروحية آخذة في التحلل . بل كان رفض القيم اليهودية الدينية متشراً بين عناصر القيادة اليهودية نتيجة انتشار فلسفة ابن رشد العقلانية التي

أما فرديناند ، فهو فرديناند الخامس المعروف بالكاثوليكي ملك أراجون . كانت أمه حفيداً امرأة يهودية ، وربما يفسر هذا قرب فرديناند من اليهود المتصرين الذين شغلوا وظائف مهمة وحساسة في بلاطه . وكان العديد من أسرة لاكابالريا ، وهم من اليهود المتصرين ، أعضاء في المجلس الملكي . وكان سكرتيره وكثير من كبار المسؤولين عن الأمور المالية في مملكته ، وكذا قائد أسطول البحر بل كثير من أعضاء النخبة الدينية المسيحية ، من اليهود المتصرين . ونجح فرديناند في مساعيه لخطب ود إيزابيلا من خلال أحد أعضاء أسرة لاكابالريا بالاشتراك مع يهوديين آخرين لم يتصرا . ونجح لاكابالريا في الحصول على موافقة أسقف طليطلة على الزواج ، وقام دون أبراهام سنور ، وهو يهودي ، باستضافة فرديناند حينما كان يزور إيزابيلا سراً ، إذ كان أبواها يفضلان أن تنزوج أحد أعضاء الأسرة المالكة في البرتغال أو فرنسا . وقام دون سنور بتقديم هدية فرديناند إلى إيزابيلا وهي عقد ذهب اشتراه بنقود استدانها من صديقه العزيز يايم رام وهو ابن حاخام . ومعنى هذا أن فرديناند كان دائماً محاطاً بيهود أو يهود تنصروا . وقد تزوج إيزابيلا في نهاية الأمر عام ١٤٦٩ .

وكانت إيزابيلا (ملكة قشتالة) محاطة هي الأخرى بيهود أو يهود متصرين ، فكان سكرتيرها يهودياً ، وقام بكتابة سيرة حياتها يهودي آخر متصّر . وكان كثير من مستشاريها من اليهود ، بل إن القس الذي كانت تعترف له كان من أصل يهودي . وكان دون إسحق أبرابانيل ، الذي لم يتحول عن عقيدته اليهودية ، من أوفى أصدقائها . كما كانت صديقتها المركزية دي مويلا زوجة أندريس كابريرا وهو من اليهود المتصرين .

ونجح فرديناند وإيزابيلا في طرد المسلمين نهائياً من شبه جزيرة أيبيريا عام ١٤٩٢ . وقام إسحق أبرابانيل وشريكه أبراهام سنور بتمويل حروب الملكية الكاثوليكية ضد المسلمين . ويمكننا أن نقول ، إن أردنا استخدام المصطلح المعاصر ، إن اللوبي اليهودي كان قوياً للغاية في الدولة المسيحية الجديدة . ومع هذا ، قام الملكان بطرد اليهود من مملكتهما وسمحا لمحاكم التفتيش بمطاردتهم . ولتفسير هذا ، يجب أن ننسى العلاقات الشخصية قليلاً ونركز على بعض التحولات البنوية في الدولة الإسبانية ، ومن أهم هذه التحولات وحدة إسبانيا نتيجة الزواج الملكي بين إيزابيلا وفرديناند . والواقع أن هذا الزواج الذي موّجه بعض الممولين اليهود هو نفسه ما جعل اليهود كجماعة وظيفية وسيطة بدون أهمية كبيرة . كما أن الدولة الإسبانية كانت تواجه أزمة سكانية حادة كالأزمة التي تواجهها الدولة

على حدّ سواء . ويبلغ عدد المبرودين من المسلمين حسب بعض الإحصاءات ثلاثاً ملايين . أما اليهود ، فقد طُردوا بعد سبعة شهور من قيامهم بتمويل حملة الدولة الإسبانية الكاثوليكية على الجيب الإسلامي المتبقي ونجاحها في تصفيته ، وقُدّر عدد المبرودين من اليهود بين مائة وخمسين ألفاً وربع المليون . وقد استقرت أعداد كبيرة من اليهود الذين كانوا يُعرفون بالسفارد في الدولة العثمانية ، ولكن العدد الأكبر منهم هاجر إلى وسط أوروبا وهولندا وموانئ فرنسا . وقد ألحق قرار الطرد الضرر بإسبانيا من الناحية السكانية ، إذ أدى ذلك إلى إفراغ مناطق بأكملها من سكانها في وقت لم يكن هناك مصدر آخر للطاقة البشرية .

ومن الناحية الرسمية ، كانت شبه جزيرة أيبيريا خالية من اليهود ، أما من الناحية الفعلية فقد كان هناك يهود المارانو المتخفون الذين كانت تربطهم علاقة بجماعات يهود السفارد في الخارج . وقد كوّن هؤلاء فيما بينهم شبكة تجارية مالية مهمة . كما كان بعض يهود السفارد يمثلون مصالح إسبانيا والبرتغال في الخارج وكانوا يمتازة سفراء وملمحين تجاريين لها .

وسُمح لبعض أعضاء الجماعة اليهودية بالهجرة إلى إسبانيا في القرن التاسع عشر الميلادي ، كما سُمح لهم ببناء معابد خاصة . ثم أُلغى قرار طرد اليهود عام ١٩٣١ . وتوجد هناك ، في الوقت الحالي ، جماعة يهودية صغيرة ليست لها أهمية تذكر ، كما لا تزال توجد بقايا يهود المارانو في البرتغال . وقد بدأت الدولة الصهيونية بتجسير البقية الباقية من يهود المارانو إليها .

## إسبانيا

Spain

انظر : «إسبانيا المسيحية» .

## البرتغال

Portugal

انظر : «إسبانيا المسيحية» .

فرديناند (١٤٥٢-١٥١٦) وإيزابيلا (١٤٥١-١٥٠٤)

Ferdinand and Isabella

ملك ومملكة إسبانيا اللذان قاما بتوحيدها وكانا يُسميان «الملكين الكاثوليكين» . وقد بدأت محاكم التفتيش نشاطها إبان حكمهما ، وفي هذه الفترة أيضاً اكتُشفت أمريكا .

«قومية» تابعة للدولة الإسبانية رغم أنها صدرت بموجب من الكنيسة الكاثوليكية ، ورغم وجود رجال دين مُتمكّنين فيها كان من أشهرهم توماس دي تروكيمادا وهو من أصل ماراني وأصبح رمزاً لقاضي محاكم التفتيش الذي يستخدم أدوات التعذيب لإرهاب ضحاياه . وكانت نتائج المحاكمات تُعلن فيما يُسمى «أوتو دي في» (auto de fé) وهو الاحتفال العام الذي يتم فيه النطق بالأحكام . وكان نفوذ محاكم التفتيش لا يمتد إلى غير المسيحيين . ثم صدر مرسوم في ٣١ مارس عام ١٤٩٢ خيّر أعضاء الجماعة اليهودية في إسبانيا بمقتضاه بين النفي والتعميد (وقد طُبّق هذا المرسوم على المسلمين عام ١٥٠٢) . فغادرت أعداد كبيرة من اليهود والمسلمين (نحو ثلاثة ملايين مسلم وما بين ١٥٠ إلى ٢٥٠ ألف يهودي) شبه جزيرة أيبيريا . وقد صدر المرسومان بضغط من محاكم التفتيش التي كانت تهدف إلى حماية اليهود والمسلمين المنتصرين من التأثير السلبي لإخوانهم السابقين في الدين . ثم وضعت محاكم التفتيش هؤلاء المنتصرين تحت الرقابة الشديدة للتأكد من صدق إيمانهم ولولاهم للدولة وكانوا يمارسون شعائر دينهم الأصلي في السر . وكان اليهود المتخفون يُسمّون «المارانو» ، أما المسلمون فكانوا يُسمّون «الموريكيين» .

وتعقبت محاكم التفتيش أعضاء المارانو في البرتغال بل وفي المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في جميع أنحاء العالم . ومع ظهور الإصلاح الديني ، طاردت محاكم التفتيش العناصر البروتستانتية ، ونجحت في القضاء عليهم في شبه جزيرة أيبيريا ولكنها فشلت في ذلك في هولندا .

وقد ارتكبت محاكم التفتيش كثيراً من الفظائع ، الأمر الذي دفع البابوات إلى التدخل لإيقافها عند حدها . وقد ألغيت هذه المحاكم في القرن الثامن عشر الميلادي في البرتغال وفي التاسع عشر الميلادي في إسبانيا . وما يجدر ذكره أن يهود بروفسن قدموا شكوى لمحاكم التفتيش ضد كتابات موسى بن ميمون بسبب هرطقتها ، وأمرت المحكمة بحرق كتبه بناء على طلبهم هذا .

٣- محاكم التفتيش الرومانية . وهي محاكم كنسية أسسها البابا بول الثالث عام ١٥٤٢ ليحارب البروتستانتية ، واستمرت هذه المحاكم حتى عام ١٩٠٨ حيث تم تغيير اسمها . وهي تُعد استمراراً لمحاكم التفتيش الرومانية الوسيطة .

الصهيونية في الوقت الحالي ، إذ كان الموريكيون (المسلمون المنتصرون) يتكاثرون بسرعة وزاد عددهم عن ٦٠٪ من مجموع السكان وبعضهم كان من المسلمين المتخفين . وكانت الدولة الإسبانية في حاجة شديدة إلى مادة بشرية تدين لها وحدها بالولاء ، ولكن ثبت أن كثيراً من اليهود المنتصرين هم في الواقع مارانو أي يهود متخفون . وقد بذل الملكان جهوداً غير عادية لإقناع اليهود والمسلمين المنتصرين بالاندماج ، ونجحوا في إقناع روما بتعيين بعض هؤلاء في وظائف كنسية رفيعة من بينها وظيفة أسقف في إسبانيا . ولكن الشبهات ظلت تحيط بالمنتصرين ، فقررت إيزابيلا إقامة محاكم التفتيش . وقد وافقها على ذلك كل من كاتب سيرتها وقسيسها (اليهوديان المنتصران) وتم طرد اليهود بعد سبعة شهور من القضاء على الجيب الإسلامي المتبقي . ومع أن استرجاع شبه جزيرة أيبيريا تم بمساعدة بعض القيادات اليهودية ، فإن ذلك جعل الجماعة اليهودية ككل أداة عديمة الفائدة ، وخصوصاً أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يتمكنوا من التحول إلى جماعة وظيفية استيطانية يمكن الركون إليها .

### محاكم التفتيش

#### Inquisitions

توجد ثلاثة أنواع من محاكم التفتيش :

١ - محاكم التفتيش الوسيطة التي أسسها البابا جريجوري التاسع عام ١٢٣٣ وكانت مهمتها التفتيش والبحث عن الهرطقات الدينية بين المسيحيين بعد انتشارها في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا مثل الكاثاري والوالدينيز . وكان قضاة هذه المحكمة من رجال الدين الدومينيكان ، وكان المتهم المذنب يُسلّم إلى السلطات الدينية لمعاقبته . ورغم أن الحرق كان العقوبة النهائية ، فإنه لم يُمارَس إلا في النادر ، وعادةً كان الحكم يُكْرَم المتهم بالتوبة ودفع غرامة والتكفير عن ذنبه بالقيام بأعمال معينة .

٢ - محاكم التفتيش الإسبانية التي أسسها البابا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي (عام ١٤٧١) بناء على طلب الملك فرديناند والملكة إيزابيلا ، وللتأكد من إيمان مواطني إسبانيا من المسلمين واليهود الذين اعتنقوا عقيدة الدولة ، أي المسيحية الكاثوليكية ، ولتُحَقِّق السحرة . وما يجدر ذكره أن هذه المحاكم كانت محاكم

## ٤ فرنسا

فرنسا من العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية - فرنسا منذ الثورة - فرنسا في الوقت الحاضر

### فرنسا من العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية

France from the Middle Ages to the French Revolution

قاضي لليهود مهمته الدفاع عن المزايا التي اكتسبها . وفي القرن التاسع ، تركز أعضاء الجماعة اليهودية بوادي الرون ومقاطعة شامبين . ولكن ، في القرن الحادي عشر ، كان شمال فرنسا أكثر المراكز كشافاً من ناحية التركيز اليهودي . وطُرد أعضاء الجماعة اليهودية من الحرف المختلفة في ذلك التاريخ وبدأوا في احترام الربا ، وتعرضوا لعمليات اعتصار من قِبَل النخبة الحاكمة التي كانت تحمهم في تلك الفترة ، وخصوصاً من هجمات الصليبيين (الفرنجية في المصطلح العربي) ، فكانت تفرض عليهم الضرائب والإتاوات . كما كانت تُغني ديون من يطوع للاشتراك في حملات الصليبيين كطريقة للتعبئة . وقد حارب لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ضد المرابين اليهود ، فأغى رعاياه من ثُلث ديونهم ، وتم تصديق الحنق على أعضاء الجماعة اليهودية بموجب قرارات المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥) ، إلى أن طردهم فيليب الرابع (الذي دأب على نهب طبقات المجتمع كافة) عام ١٣٠٦ ، وصادر ممتلكاتهم وحَوَّك الديون التي يستحقونها والتي لم تكن قد سُددت بعد إلى الخزانة الملكية . واستقر اليهود المطرودون في اللورين وبرجندي وسافوي والمناطق غير المحاصفة لحكم الفرنسيين في بروفانس .

ويعد أن اشتكى الناس من المرابين المسيحيين الذين حلوا محل المرابين اليهود ، تم استرجاعهم حيث صُرح لهم بأخذ فائدة مقدارها ٤٣٪ ، كما سُمح لهم بتحصيل تلك الديون التي لم يحصلوها عند طردهم والتي لم يكن الملك قد حصلها بعد ، شريطة أن يدفعوا ثلثي المبلغ للخزانة الملكية . وأخيراً سُمح لهم بشراء معبدهم اليهودي ومقبرتهم وكل كتبهم المصادرة (ما عدا التلمود) .

ولكن الأحوال ساءت مرة أخرى في جنوب فرنسا ، وخصوصاً مع انتفاضة الرعاة عام ١٣١٧ . وتم طرد اليهود عام ١٣٢٢ ، ولكنهم أُعيدوا مرة أخرى عام ١٣٥٩ إلى أن طردهم شارلز السادس عام ١٣٩٤ نهائياً . ومع هذا ، سُح لليهود بالبقاء في المقاطعات البابوية في أفنيون .

وشهدت هذه الفترة ازدهار الدراسات التلمودية ، حيث كتب راشي تعليقه الشهير على التلمود . وانتشرت أفكار موسى بن

ييلو أن اليهود قد استوطنوا في فرنسا (بلاد الغال) مع القوات الرومانية وأصبحوا مواطنين رومانيين عام ٢١٢ ميلادية . وقد تأثر وضعهم حينما تَبَتَّت الإمبراطورية الرومانية المسيحية ديناً رسمياً عام ٣٤٠ ميلادية . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يعملون في جميع الوظائف والحرف والمهن ، مثل الزراعة والتجارة والحرف اليدوية ، ولكنهم بدأوا يتحولون إلى جماعة وظيفية وسيطة (يهود بلاط) للحكام والأساقفة في الإمبراطورية الفرانكية . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون كذلك بتجارة الرقيق التي كانت تشكل نقطة احتكاك بينهم وبين الكنيسة التي منعت التجارة اليهودية للعبيد في باريس عام ٦١٤ ، بل ومُنَع أعضاء الجماعة اليهودية من الاحتفاظ بالعبيد المسيحيين . وتَمَعَّق هذا الاتهام في عهد الأسرة الكارولنجية . ففي عهده شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ولويس الأول (٨١٤ - ٨٤٠) ، أصبح أعضاء الجماعة اليهودية جماعة وسيطة تجارية ومالية مهمة ، وُضعت تحت حماية الإمبراطور . وهمينوا على تجارة الاستيراد والتصدير نظير إعطاء عشر أرباحهم للخزانة الإمبراطورية (مقابل جزء من أحد عشر جزءاً يدفعه التجار المسيحيون) . وكانت هناك جماعة يهودية في ليون مركز تلاقي الطرق بين إسبانيا وألمانيا وإيطاليا . ومُنَع أعضاء الجماعة اليهودية مواليق تنص على حماية أملاكهم وعلى إعفائهم من المكوس ، وتمنحهم المزايا كأن يعيشوا حسب قوانينهم ويسنأجروا المسيحيين ، ويشترروا العبيد غير المسيحيين . لكن تنصير مثل هؤلاء العبيد تم حظره لأن هذا من قبيل مصادرتهم . وكان أعضاء الجماعة يمتلكون الأراضي ويعملون بالزراعة ، وخصوصاً زراعة الكروم . ولذا ، احتكروا تجارة الخمر (وضمن ذلك الخمر التي كانت تستعملها الكنيسة في القداس) . وعمل أعضاء الجماعة اليهودية كذلك أطباء وجامعي ضرائب وسفراء . وكان من يُلْحَق باليهود أي أذى يَتَرَك به أشد العقاب . وأُضفيَ أعضاء الجماعة اليهودية من الاستجواب عن طريق التعذيب وهي طريقة للاستجواب كان معمولاً بها في المحاكمات ، وعيِّن

الألزاس واللورين وهدمهم كان نحو ٤٠ ألفاً ، وأن هؤلاء كانوا من الإشكناز ويهود البيديشية . ولم يكن يُوجد سوى ٣٣٠٠ (سفارد) منهم ٢٣٠٠ في بوردو و١٠٠٠ في بايون . كما كان يوجد حوالي ٢٥٠٠ يهودي في المقاطعات البابوية (يهود أفنيون) وحوالي ٥٠٠ في باريس (وكانوا خليطاً من الإشكناز والسفارد) . وكانت نسبة اليهود إلى عدد السكان صغيرة للغاية ، إذ كانت لا تزيد على ٠,٥٪ .

وحيثما اندلعت الثورة الفرنسية ، لم تجر إثارة أي جدل بشأن اليهود السفارد الذين كانوا يشكلون جزءاً عضوياً من المجتمع الفرنسي والذين كانوا يتحدثون إما اللغة الفرنسية أو اللادينو وهي رطلانة إسبانية قريبة الشبه بالفرنسية ، وكانوا يعملون في التجارة الدولية بل وفي الصناعة ويتمتعون بمعظم حقوق المواطنين الفرنسيين ويعيشون في المناطق الساحلية . وكان نظامهم التعليمي متطوراً ، فعلى سبيل المثال قاموا هم أنفسهم بحظر تدريس التلمود في مدارسهم منذ عام ١٧٦٠ . وكانوا قد حصلوا على حق السكنى في أي مكان بفرنسا ، وحق إقامة شعائرهم بحرية كاملة . ولكل هذا ، فإن منح اليهود السفارد في جنوب فرنسا وفي أفينيون ، حقوقهم المدنية بالكامل ، كانت مسألة شكلية تحت دون مناقشة في يناير عام ١٧٩٠ . أما اليهود الإشكناز ، في الألزاس واللورين وغيرهما من المناطق ، فكانوا محور المناقشة بسبب تميزهم الوظيفي والثقافي ، كما كانوا محط احتقار إخوانهم من السفارد . فكان الزواج المختلط بين الفريقين محظوراً ، بل إن السفارد منعوا الإشكناز من الاستقرار في مقاطعة بوردو التي كان السفارد يوجدون فيها بأعداد كبيرة .

وإلى جانب هذا ، كان اليهود الإشكناز محط كراهية عميقة من الجماهير المسيحية . وعشية الثورة الفرنسية نوقشت المسألة اليهودية الإشكنازية ، والتي تم طرحها على النحو التالي : هل اليهود فرنسيون أم أنهم أمة داخل أمة ؟ وعرف أعداء اليهود على نغمة «الخطر اليهودي» وأشاروا إلى أن اليهود جسم متماسك غريب منبذ ، ولذا فلا بد من التخلص منه (وهي نفسها الفكرة التي عبرنا عنها بعبارة الشعب العضوي المنبذ) . أما العقلانيون ، فكانوا يطرحون الخط الاندماجي الذي يرى أن مشكلة اليهود الإشكناز ليست مسألة كامنة في طبيعتهم وإنما تنبع من وضعهم الشاذ ومن إنكار حقوقهم السياسية والمدنية ، وأن الحل يكمن في تحديث اليهود وإعتاقهم ، أي إعطائهم حقوقهم كاملة وتشجيعهم على الاندماج مقابل أن يتخلى اليهود (وكل أعضاء الأقليات الأخرى) عن خصوصيتهم اللغوية والثقافية والإثنية في الحياة العامة . وهذا هو

ميون بين بعض المفكرين الدينيين من أعضاء الجماعات اليهودية ، الأمر الذي جعل قادة الجماعة اليهودية يشون بهم إلى محاكم التفتيش التي قامت بإحرق كتب ابن ميون .

وظلت فرنسا خالية تقريباً من اليهود حتى أواخر القرن السادس عشر حيث بدأت جماعات المارانو في الاستيطان بمقاطعتي بوردو وبايون . وكانت أعداد المستوطنين صغيرة لا تتعدى بضعة آلاف ، وكانت أكبر الجماعات تُوجد في بوردو حيث تمتع أعضاء الجماعة بمكانة اقتصادية عالية ، فكانوا يعملون بالتجارة الدولية والأعمال المالية المتقدمة ، كما كانوا يمتلكون رؤوس أموال كبيرة نسبياً وسفنًا تجارية . ولذا ، اشتركوا في التجارة الثلاثة الزوايا : شحن البضائع الأوربية الرخيصة إلى الساحل الأفريقي ، وتحميل هذه السفن بالعبيد الذين كانوا يُباعون في المزارع الأمريكية والكاريبية ، ثم عودتها من العالم الجديد لأسواق أوروبا حاملة المتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والتبغ وغيرها من السلع . وفي القرن الثامن عشر ، تم الاعتراف بيهود المارانو المتخفين كيهود ، وذلك بعد أن كان القانون يعتبرهم مسيحيين رغم علم السلطات بأنهم يهود . وابتداءً من عام ١٥٥٢ ، بدأت الصبغة الإثنية والثقافية لأعضاء الجماعة اليهودية في التغير إذ ضمت فرنسا مدينة Metz في ذلك العام وتم ضم الألزاس (١٦٤٨) واللورين (١٧٣٣) ، وأدى هذا إلى زيادة عدد اليهود الإشكناز زيادة كبيرة ، وقد كان يبلغ عددهم في هاتين المقاطعتين نحو ٢٠ ألفاً ، وتم وضعهم تحت الحماية الملكية . وكان الإشكناز متخفين ومختلفين من الناحية الحضارية ، ومنتمزين ثقافياً . ومن ثم ، بدأت المسألة اليهودية تطل برأسها ، وخصوصاً بعد اكتشاف تلاحب بعض أعضاء الجماعة في الأعمال التجارية . وطُرحت قضية إصلاح اليهود ، وبُذلت عدة محاولات لتطبيعهم ، وأعلنت أكاديمية Metz عن مسابقة لكتابة دراسة عن السبل الممكنة لإصلاح اليهود عام ١٧٨٥ . وتم تشكيل لجنة لإصلاح يهود الألزاس ، كان من بين أعضائها قيادات الجماعة السفاردية في جنوب فرنسا .

### فرنسا منذ الثورة

France since the Revolution

كان عدد أعضاء الجماعات اليهودية في فرنسا عند نشوب الثورة الفرنسية لا يزيد على ٤٠ ألفاً ، تُوجد أغلبيتهم الساحقة (نحو ٢٠-٢٥ ألفاً) في الألزاس ، ونحو ٣٥٠٠ في Metz وضواحيها ، ونحو ٤٠٠٠ في اللورين . وفي إحصاء آخر ، قيل إن عدد يهود

تناقض بين الإجراءات اليهودية والقانون الفرنسي بشأن الزواج والطلاق؟ وهل يُسَمَّح لليهود بالزواج من المسيحيين؟ وكانت الإجابات في معظمها إما بالإيجاب وإما بالمرارة. وقرر المجلس أن اليهودي يتعين عليه أن يعتبر الأرض التي وُلد عليها وطنه، وعليه أن يدافع عنها، كما يتعين على كل يهودي أن يعتبر بقية المواطنين إخوته. كما أكد المجلس أن الشريعة اليهودية وقوانينها لا تتناقض التامة مع القانون الفرنسي المدني، فاليهودية تُحظَر تعدد الزوجات، وقرر أن الطلاق (بحسب الشريعة اليهودية) لا يصبح شرعياً إلا بعد الطلاق المدني، وأن الزواج (بحسب الشريعة اليهودية) لا يصبح شرعياً إلا إذا سبقه زواج مدني. وبينت قرارات المجلس أن اليهودية لا تُحرم أية حرف يدوية أو وظائف وأن من المحبب لليهودي أن يعمل في الزراعة والأعمال اليدوية كما كان يفعل أسلافه في فلسطين. كما بيّنت أن اليهودية تحرم على اليهودي أخذ فائدة ربوية من المسيحي أو اليهودي. ثم دعا نابليون في فبراير ١٨٠٧ إلى مؤتمر أطلق عليه «السهردين الأكبر» يضم الحاخامات وبعض اليهود من غير رجال الدين ليؤكد القرارات التي توصل إليها هؤلاء الوجوه. وقد أعلن السهردين ولاءه الكامل للإمبراطور، واطلاقاً أية جوانب في التراث اليهودي تتناقض مع ما يتطلبه واجب المواطنة. وصدق السهردين على قرارات مجلس الوجوه، كما أصدر قوانين تمنع تعدد الزوجات والربا وأخرى تحتم إجراء الطلاق المدني.

وأصدر نابليون بعد ذلك قراراته الخاصة بتنظيم علاقة اليهودية بالدولة الفرنسية. ففي عام ١٨٠٨، أصدر مرسومين تم بمقتضى الأول إقامة نظام من المجالس الكنسية (بالفرنسية: كونسيستوار Consistoire)، وهي لجان من الحاخامات والرجال العاديين للإشراف على الشؤون اليهودية تحت إشراف مجلس كنسي مركزي. وكان من مهام هذه المجالس أن ترعى معابد اليهود وغيرها من المؤسسات الدينية، وتفقد قوانين التجنيد وتشجع اليهود على تغيير المهن التي يشتغلون بها. أما المرسوم الثاني، فقد اعترف باليهودية ديناً كما أُلغى (أو أنقض أو أجل) الدين اليهودي المستحق للمايين الإشتكاز، وأُعفي السفارد من ذلك المرسوم. وأصبح الحاخامات مندوبين للدولة لمهتهم تعليم أعضاء الجماعات اليهودية تعاليم دينهم ولتقيتهم الولاء للدولة وأن الخدمة العسكرية واجب مقدس. وكان على الحاخامات توجيه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الوظائف النافعة. وقد اعترفت الحكومة الفرنسية باليهود بوصفهم أقلية، وأصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، فحصلوا على حقوقهم ومُنحوا شرف الجنسية ولم يعد يُسَمَّح لهم بدفع بدل تقدي،

المعنى الذي تضمنته عبارة «أن يصبح اليهودي مواطناً في الشارع، يهودياً في منزله». وقد وصل هذا المخطوتمه إبان حكم الإرهاب (١٧٩٣ - ١٧٩٤) وهي المرحلة التي وصلت فيها عبادة العقل ذروتها، والتي شارك فيها أعضاء من الجماعة اليهودية، فأغلقت كل دور العبادة المسيحية واليهودية باعتبارها تعبيراً عن خصوصيات غير طبيعية وانحرافاً عن فكرة الإنسان الطبيعي. ومُنعت الجماعة اليهودية من ممارسة بعض شعائرها باعتبار أنها لا تتفق مع العقل، وإن كان لم يرسل أي يهودي للمقصلة بسبب عقيدته.

ومُنحت الثورة أعضاء الجماعات اليهودية كل حقوق المواطنين، وحاولت دمجهم في المجتمع عن طريق فتح المدارس لأنهم، وتشجيعهم على التخلي عن تميزهم الوظيفي. وجاء في أحد قرارات الثورة «إن الحقوق هي حقوق تمنح للأفراد من أتباع العقيدة اليهودية، وليست للأقلية اليهودية باعتبارها جماعة متماسكة»، وهو ما عبّر عنه شعار «لليهود أفراداً كل شيء»، ولليهود جماعة لا شيء». وحاول الإشتكاز من جانبهم الإبقاء على عزلتهم المتمثلة في القهال وفي رفض المؤسسات الحديثة التي أنشأتها الثورة. ففي عام ١٨٠٨، كان عدد الأطفال اليهود في اللورين والألزاس الذين يذهبون إلى المدارس الحكومية لا يزيد على ٧٠٪. وما زاد المسألة اليهودية الإشتكازية تعاقماً، أن كثيراً من الفلاحين الفرنسيين (نحو ٤٠٠ ألف) الذين اشتروا أراضي كبار الملاك التي صادرتها الثورة اقتترضوا الأموال اللازمة لإتمام هذه العملية من المايين اليهود الذين بلغ عددهم ثلاثة أو أربعة آلاف مراب. ولكنهم عجزوا عن تأدية ديونهم، وهو ما جعل أعضاء الجماعة اليهودية محط السخط الشعبي في الفترة ما بين ١٨٠٢ و١٨٠٥. ومن هنا طرحت المسألة اليهودية نفسها على نابليون.

وقد كان لدى نابليون بعض الخبرة بشأن أبعاد المسألة اليهودية بسبب احتكاكه ببولندا. بعد أن أعاد تنظيم مركز بولندا في شكل دوقية وارسو. وكان قد انتهى لتوه من تنظيم علاقة الدولة بالكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية، ولم يبق سوى تنظيم علاقتها باليهودية. فأوقف كل الدين، ثم دعا عام ١٨٠٦ إلى عقد مجلس ضم مائة عضو من وجوه اليهود في الأراضي الخاضعة لحكم فرنسا. وترأس مجلس الوجوه يهودي سفاردي من بوردو، وطرح عليهم اثني عشر سؤالاً عن موقف اليهود من بعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية والدينية المهمة المتعلقة بعلاقتهم بوطنهم، وهل يعتبرون أنفسهم أجانب أم فرنسيين؟ وهل هم على استعداد للدفاع عن الوطن؟ وهل تشجع اليهودية على الربا الفاحش أم لا؟ وهل هناك



عن دهشتهم لهذه المقدرة ، فكانوا يشيرون إلى فرنسا بأنها « البلد الذي يأكل اليهود » .

ومع هذا ، ظهرت موجة معاداة اليهود ابتداءً من منتصف القرن

التاسع عشر . ويمكن إرجاع هذه الموجة إلى الأسباب التالية :

١ - يلاحظ أن منتصف القرن التاسع عشر شهد بدايات وفود عمالة

أجنبية يهودية إلى فرنسا ، وقد تزايدت معدلات الهجرة منذ عام

١٨٨١ . وساهمت هذه العمالة الأجنبية اليهودية في خلخلة وضع

أعضاء الجماعة اليهودية وفصلهم عن مجتمعاتهم إذ بدأ يتم الربط بين

اليهودي المحلي المندمج واليهودي الوافد ، بحيث يصبح الجميع

«يهوداً غرباء» دون تمييز أو تفرقة أو تخصيص (وهذه هي طبيعة الفكر

العنصري دائماً) . وما زاد الطين بلة أن معظم الوافدين كانوا من

شرق أوروبا ووسطها ويتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية) أو

الألمانية نفسها . وكانت ألمانيا عدو فرنسا الأكبر في ذلك الوقت .

ويلاحظ أنه ، في عام ١٨٨٠ ، كان ٩٠٪ من يهود فرنسا يهوداً

أصليين منحدريين من يهود العصور الوسطى ، أي أنهم كانوا

فرنسيين . ولكن بسبب الهجرة ، أخذت النسبة تناقص حتى

وصلت عام ١٩٤٠ إلى ١٥٪ .

واستمر هذا التيار دون توقف ، فكلما كان أعضاء الجماعات

اليهودية يحققون معدلات عالية من الاندماج في محيطهم الحضاري

كانت تأتي موجة جديدة وافدة فيعداد تصنيفهم لا على أساس ما

حققوه من اندماج وإنما على أساس الهوية الأجنبية للوافدين . وهذا

ما حدث مرة أخرى في الستينيات ، حينما هاجر يهود المغرب العربي

إلى فرنسا ، فدعموا الخصوصية الإثنية اليهودية على حساب

الاندماج ، وأصبحوا يشكلون أغلبية يهود فرنسا . ومع هذا ، يجب

التمييز بين يهود شرق أوروبا ويهود المغرب العربي ، فمعظم الوافدين

من شرق أوروبا ووسطها كانوا يتحدثون اليديشية ، ولذا لم يكنهم

تحقيق الاندماج اللغوي بسرعة ، كما أنهم كانوا يعملون بمهن مشينة

مثل الربا والبغاء ، ويعيشون على هامش المجتمع اقتصادياً

وحضارياً . هذا على عكس يهود العالم العربي الذين كانت تحدث

أغليبتهم الساحة بالفرنسية وكانت أعداد كبيرة منهم تحمل الجنسية

الفرنسية بالفعل (مثل يهود الجزائر) كما أنهم كانوا يحملون خبرات

يحتاج إليها المجتمع الفرنسي . ولذا ، لم تكن عملية دمجهم

صعبة .

٢ - لم يكن قد تم بعد دمج يهود الأزراس واللورين الذين كانوا

مرتبطين بالتراث الألماني أيضاً . كما أن أعداداً منهم كانت تقوم

بالتجنس لحساب كل من الألمان والفرنسيين ، الأمر الذي كان يزيد

وشجّعوا على الاشتغال بالزراعة . وحرّم نابليون على اليهود

الإشكناز الاشتغال بالتجارة دون الحصول على رخصة بذلك ، ولم

تكن الرخصة تُجَدَّد إلا بعد التأكد من مدى إحساس التاجر

اليهودي بالمسئولية الخلقية . كما طُلب إلى أعضاء الجماعات

اليهودية أن يتخذوا أسماء أعلام وأسماء أسر دائمة على الطريقة

الغربية . ورغم أن الأديبات اليهودية والصهيونية تطلق على هذه

القرارات اسم «القرار المشين» ، فإنه كان قراراً مرحلياً يهدف إلى

تحديث اليهود (ولذا ، فإنه لم يُطبَّق على السفارد) . وقد نجح بالفعل

في دمجهم بالمجتمع الفرنسي . وبحلول عام ١٨١١ ، كانت أعداد

كبيرة من اليهود تعمل بتجارة الجملة والحرف وكان قد تم تطبيعهم

إلى حد كبير . وبعد مرور الفترة الانتقالية التي حددها القرار ، لم

تتشأ أية حاجة إلى فترة انتقالية أخرى .

وما يجدر ذكره أن نابليون تبنى ، في إطار محاولته تأسيس

الدولة الفرنسية الحديثة ، سياسة تهدف إلى دمج أعضاء الجماعات

اليهودية ، كما دعاهم إلى نبذ خصوصيتهم . ولكنه تبنى سياسة

مغايرة تماماً في إطار سياسته الإمبريالية ، إذ دعاهم للعودة إلى

فلسطين لإحياء تراثهم العبري القديم مستخدماً ديباجات صهيونية

تؤكد أن اليهود ليسوا أقلية دينية تندمج في أوطانها وإنما شعب

عضوي يجب أن يُرحَّل إلى فلسطين . وبهذا ، فإن نابليون كان

يهدف إلى تصفية اليهود بوصفهم جماعة وظيفية تجارية داخل فرنسا

ثم توظيفهم كجماعة استيطانية قتالية خارجها (وهذا هو جوهر الحل

الصهيوني للمسألة اليهودية) .

وبعد عودة الملكية ، استمرت سياسة إعتاق أعضاء الجماعات

اليهودية ودمجهم بشكل يكاد يكون كاملاً ، فبرز كثير من أعضاء

الجماعات اليهودية في الحياة العامة ، بل تنصَّرت أعداد كبيرة من

أعضاء النخبة اليهودية ، وبدأت أعداد منهم تدخل النخبة الحاكمة .

ولم تتوقف هذه العملية مع الإمبراطورية الثانية ، فانتُخب أول نائب

يهودي في البرلمان عام ١٨٣٤ وعُيِّن أدولف كريكيم وزيراً . وحققت

أسرته روثشيلد وبريير صعوداً في عالم المال . والتحق كثير من

أعضاء الجماعات اليهودية بالقوات العسكرية ، وركب الضباط منهم

إلى أعلى الرتب . ومُنح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية عام ١٨٧٠ ،

ومن ثم تم تحويلهم إلى مادة بشرية استيطانية دمجت في الجماعة

الاستيطانية البيضاء . ويمكن القول بأن مصير يهود فرنسا ارتبط تماماً

بمصير فرنسا والفرنسيين ، أي أنهم حققوا درجة عالية من الاندماج .

ويرغم كل التعثرات فيما بعد ، فإن فرنسا أثبتت قدرة غير عادية على

استيعاب اليهود بل وهضمهم حتى أن يهود اليديشية كانوا يعبرون

منهم أربعون ألفاً في باريس . ومع نهاية القرن التاسع عشر ، كان ٦٠٪ من جملة يهود فرنسا في باريس والبقية في مدن أخرى ، أي خارج القرى والمناطق الزراعية . وعلى كلٍّ ، فإن هذا هو النمط السائد بين أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث . وما يهينا هنا هو أن الأغلبية الساحقة من الشعب الفرنسي لم يكن لها أي احتكاك بأعضاء الجماعة اليهودية ، وأنها حينما كانت تحتك بهم كانت تعرف على أقلية أجنبية حضرية لا يجيد كثير من أعضائها الحديث بالفرنسية ، ولا يعرف الكثير منهم شيئاً عن الحضارة الفرنسية ، الأمر الذي كان يؤدي إلى ترسيخ الأنماط الإدراكية السائدة الثالثة المتصلة بتمييز اليهود وعزلتهم .

لكل ما تقدم ، شهدت أواخر القرن التاسع عشر تعاطف الاتجاه نحو معاداة اليهود ، وانفجر ذلك في قضية دريفوس . ويجب التأكيد على أن العداوة لدريفوس ، الذي جاء من الألزاس ، كان جزءاً من عداوة عام تجاه الأجانب مثل الإيطاليين ، بل والأقليات الفرنسية مثل الأوكستيين والأوفيرتيان ، كما يجب التأكيد على أن الصراع كان يدور لا بين اليهود والأغيار وإنما بين العلمانيين والمتدينين . ولذا ، فحينما حُسمت القضية عام ١٩٠٥ ، اتخذ العلمانيون إجراءات مشددة وتم فصل الدين عن الدولة تماماً .

واستمرت عملية الدمج بعد ذلك التاريخ . وأثناء احتلال الألمان لفرنسا ، تعرّض المجتمع الفرنسي لإرهاب قوات الاحتلال النازية الذي لحق بأعضاء الجماعات اليهودية مثلما لحق بالشبيوعيين وأعضاء المقاومة والكنيسة . وتم ترحيل آلاف اليهود الفرنسيين إلى معسكرات الاعتقال ضمن الألوف التي رُحلت من أعضاء المقاومة والشبيوعيين وغيرهم من العناصر غير المرغوب فيها . وبلغ عدد المرحّلين من اليهود خمسة وسبعين ألفاً ، الأمر الذي يعني أن الشعب الفرنسي حمى ما يزيد على ثلثي يهود فرنسا البالغ عددهم ٢٦٠ ألفاً (عام ١٩٣٦) .

#### فرنسا في الوقت الحاضر

France at the Present

استقرت في فرنسا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أعداد من المهاجرين اليهود الذين قدموا من التجمعات اليهودية الأخرى التي اقتلها النازيون . وفي الستينيات ، هاجرت أعداد كبيرة من العالم العربي فوصل إلى إسرائيل نحو مائة ألف يهودي من مصر والمغرب وتونس في الفترة ١٩٥٤ - ١٩٦١ ، كما هاجر يهود الجزائر البالغ عددهم ١١٠ آلاف عام ١٩٦٣ . ثم انضم إليهم آخرون حتى

شكروك أعضاء الأغلبية منهم . وتنبه يهود فرنسا إلى خطورة الوضع فأسسوا عام ١٨٦٠ جماعة الأليانس ، وهي جماعة توطيانية تهدف إلى تحويل الهجرة اليهودية عن فرنسا وإلى دمج العناصر اليهودية الوافدة ، كما لعبت دوراً مهماً في فرنسة يهود البلاد العربية والإسلامية التي احتلتها فرنسا .

٣ - يلاحظ أن عملية إعتاق أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم ، جعلتهم يتحركون من الهامش الاقتصادي إلى المركز ، فبدأوا يحققون حراكاً اجتماعياً غير عادي يجعلهم مركزاً للحقد والحسد . والعمالة الوافدة عادة ما تكون لديها مقدرة عالية على التنافس مع العمالة المحلية إذ تتقن بمستوى معيشي أقل ، ومن ثم بأجور أقل ، ولم يكن العمال من يهود الديشية استثناء من القاعدة . وأدى الكساد الاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك إلى تصاقم الأزمة وترايد الحقد ضد الوافدين الأكلفاء .

٤ - كان معظم يهود فرنسا مُركّزين في باريس ، وهو ما جعل لهم وجوداً ملحوظاً كعنصر اقتصادي ناجح . وشهدت الفترة صعود أسرتي روتشيلد وبريسر ، الأمر الذي ربط في الذهن الشعبي بين اليهود والرأسمالية والمضاربات والإحساس بأن ثمة ميمنة مالية يهودية على الرأسمال ، وهو موضوع لجدّه بشكل أساسي في كتابات كثير من الاشتراكيين الفرنسيين والمعادين لليهود . ومما قوى هذا الإحساس فضيحة قناة بنما التي ألحقت الضرر بكثير من أعضاء الطبقة الوسطى . وكان بعض المؤيدين اليهود متورطين في هذه الفضيحة . كما أن إفلاس بنك يونيون جنرال ، وهو بنك كاثوليكي ، جعل الكثيرين يشيرون بأصابع الاتهام إلى اليهود .

٥ - كانت تُوجد عناصر يهودية كثيرة في صفوف الحركات الثورية في أوروبا ، كما أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يمثلون عنصراً بارزاً في الصراع بين العلمانيين والكنيسة الكاثوليكية ، الأمر الذي ربط في الذهن الشعبي بين اليهود والثورة .

٦ - أشرنا من قبل إلى أن ثمة خطابين فرنسيين تجاه اليهود ، أحدهما اندماجي والأخر صهيوني . وقد تصاعدت حدة الخطاب الصهيوني مع تزايد اهتمام فرنسا بالشرق ، وخصوصاً لبنان . ونشر إرنست لاهازان (سكرتير نابليون الثالث) كتبياً صهيونياً يدعو إلى توطين اليهود في فلسطين . ووفدت الصهيونية أيضاً مع المهاجرين من يهود الديشية . وهي تساهم ولا شك في خلق فجوة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمجتمع .

٧ - يلاحظ تركز أعضاء الجماعات اليهودية في العاصمة . فبعد أن ضمت ألمانيا الألزاس واللورين ، بلغ عدد يهود فرنسا ستين ألفاً ،

كما أن مستواهم التعليمي عال للغاية ، إذ حصل ٢٥٪ من جملة يهود فرنسا على تعليم عال . وتصل النسبة إلى ٥٠٪ من المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٠ ، وهذا ينطبق على أولاد المهاجرين المغاربة ، وهذا يعني أنهم حققوا حراكاً اجتماعياً سريعاً وبدأوا يتحولون إلى طبقة وسطى شأنهم في هذا شأن بقية يهود فرنسا . فبعد أن اختفى العمال اليهود من أصل أوروبي ، وحل محلهم العمال اليهود من أصل مغربي ، نجد أن هؤلاء أيضاً في طريقهم إلى الاختفاء لأن أبناء العمال المغاربة المهاجرين يدخلون المدارس ليحققوا حراكاً اجتماعياً عن طريق الحصول على وظائف إدارية راقية والانخراط في مهنة من المهن الممتازة كالمعلم والتدريس في الجامعة أو في قطاع من القطاعات المتميزة كالعلماء . وتزايد معدل التعليم بين أبناء المهاجرين الذين يدخلون الجامعات ثم يعملون بعد ذلك في قطاع التأمين والبنوك وقطاع الخدمات . وتوجد أعداد كبيرة من اليهود المغاربة والجزائريين في الوظائف الحكومية ، وربما كان هذا جزءاً من ميراثهم الاقتصادي بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة بين الاستعمار الفرنسي والسكان العرب المحليين . ولكن ، مهما يكن الأمر ، فإن هذا يعني أن اليهود يتحولون إلى مهنيين . والمهني يرتبط بعمالته ويقبل قيمهم ، الأمر الذي يجعله قابلية أعلى للاندماج والانصهار .

والبناء الوظيفي والمهني لليهود يعني أن الريف الفرنسي لا يزال خالياً تماماً من اليهود وأنهم لا يزالون في العاصمة ، وفي مدن مثل مارسيليا وليون وتولوز ونيس وستراسبورج . ويبدو أن أعداداً كبيرة من المهاجرين من العالم العربي آثرت الاستقرار في جنوب فرنسا لأن الجو والطبيعة يذكرانهم بأوطانهم السابقة وهذا يفسر ظهور الجماعات اليهودية في مدن الجنوب : نيس وتولوز وليون ومارسيليا . هذا على عكس المهاجرين من أوروبا الشرقية الذين يفضلون الاستقرار في الأتراس واللورين . ومن المعروف أن سكان المدن عادةً لا يتكاثرون بوتائر عالية .

ويلاحظ أن معدل إنجاب المرأة الفرنسية اليهودية هو ٢,٤ لكل امرأة ، وهي نسبة عالية إلى حد ما وتفقو النسبة العالمية للمرأة اليهودية . ولكن يلاحظ أن معدل إنجاب المرأة اليهودية الفرنسية من أصل غربي هو ١,٧ طفل ، وهو ما يعني أنه مع تزايد معدلات الاندماج ستتناقص الخصوبة وتخفي الأنماط التي أحضرها اليهود المغاربة معهم . والجماعة اليهودية في فرنسا جماعة مسنة ، ذلك أن نحو ٣٧٪ منهم فوق سن ٤٥ ، وستتزايد كل هذه الظواهر وتتفاقم حداثتها مع تصاعد معدلات الاندماج والعلمنة .

أصبحوا يشكلون أغلبية يهود فرنسا البالغين نحو ٥٣٥ ألفاً عام ١٩٦٧ . ويقال إن نسبة السفارد هي ٥٤٪ ، إن قمنا بضم أعضاء الجيلين الأول والثاني من أبناء المهاجرين . ولكن إن استبعدناهم ، فإن غالبية يهود فرنسا وكندا فيها ، و٩٥٪ من يهود فرنسا من هم تحت سن العشرين من مواليدها .

وفيما يلي جدول يبين تعداد اليهود في فرنسا :

السنة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى عدد السكان
١٨٥١	٧٣,٩٧٥	٠,٢
١٩٠٠	٨٠,٠٠٠	٠,٢٥
١٩١٤	١٠٠,٠٠٠	٠,٢٥
١٩٣٣	٢٤٠,٠٠٠	٠,٥٧
١٩٣٩	٣٠٠,٠٠٠	٠,٦
١٩٤٥	١٨٠,٠٠٠	٠,٤
١٩٥١	٢٣٥,٠٠٠	٠,٦
١٩٥٥	٣٠٠,٠٠٠	٠,٧
١٩٦١	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
١٩٦٣	٥٠٠,٠٠٠	١,١
١٩٦٦	٥٢٠,٠٠٠	١,٠٨
١٩٦٨	٥٣٥,٠٠٠	١,٠٧

وقد استقر عددهم عند تلك النقطة .

ويلاحظ أنه ، في عام ١٨٧٠ ، زاد عدد يهود فرنسا إلى ٤٠ ألفاً بسبب منح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية . ولكن عددهم نقص حينما ضمت ألمانيا الأتراس واللورين اللتين كانتا تضمان ٣٠ ألف يهودي . ومكنتنا الآن تناول إشكالية موت الشعب اليهودي في فرنسا . ورغم تزايد عدد يهود فرنسا ، فإن هذا التزايد لم يتم من خلال التكاثر الطبيعي وإنما من خلال عملية هجرة من الخارج ، وقد بدأت هذه الهجرة تفقد مفعولها . ويتنبأ الدارسون بأن يأخذ عدد يهود فرنسا في التناقص ، وأنه قد لا يتجاوز ٢٠٠ ألف مع بداية القرن القادم . والأسباب التي ستؤدي إلى ذلك هي الأسباب المألوفة في مثل هذه الظاهرة . ومن أهم هذه الأسباب تمييز البناء الوظيفي والمهني لليهود . ويتوزع يهود فرنسا في الوظائف والمهن التالية :

٢١٪ في وظائف إدارية عليا .

٤٧٪ في وظائف إدارية متوسطة وكتابية .

١٠٪ عمال صناعيون ويديويون .

١٦٪ تجار .

بشكل غير عادي للثقافة الفرنسية . فمع أن يهود مصر كان من الممكن أن يدرسوا الإنجليزية ، ويهود ليبيا الإيطالية ، فإن معظمهم أثر أن يتعلم الفرنسية ، ولعل هذا يعود إلى الخلفية السفارديّة .

وقد أكد المهاجرون اليهود ، من المغرب بالذات ، خصوصيتهم اليهودية التي اكتسبوها من مجتمعهم العربي . وهنا تكمن المفارقة ، ذلك أن عملية دمجهم في المجتمع الفرنسي تنتهي بهم إلى فقدان تراثهم الشعبي ذي الأصول العربية ، وتراثهم ذي النكهة العربية الذي يشكل مصدر خصوصيتهم المغربية اليهودية . فيهوديتهم كانت في انتماهم المغربي . ولم يستقبل يهود فرنسا يهود العالم العربي بكثير من الترحاب بل قائلوهم بشيء من العداة (تماماً كما حدث مع يهود اليديشية من قبل) . وهم يُلقون على اليهود المغاربة «كوشر كُسْكُس» ، الأمر الذي يبيّن مدى تداخل خصوصيتهم اليهودية بإنتيتهم العربية . فكلمة «كوشر» تعني الطعام المباح شرعاً (حسب الشريعة اليهودية) ، و«كُسْكُس» هو بطبيعة الحال الطعام المغربي الشير ، وهما في حالة يهود المغرب مرتبطان ارتباطاً عضوياً بحيث يكون الواحد منهما كامناً تماماً في الآخر ولا يمكن فصلهما . ولذا ، فمن المتوقع أن يؤدي تزايد فرسة المهاجرين المغاربة إلى تزايد درجة انصهارهم (وليس اندماجهم) ، فمع أن لهم هويتهم الواضحة إلا أن قابليتهم لئمل هذا الانصهار واضحة بسبب حرصهم الشديد على الانتماء للمجتمع الجديد . ولذا ، فإن المتوقع أن تقوم فرنسا بضم اليهود المغاربة أيضاً ضمن من هضمت من أجنب .

أما فيما يتصل بالعقيدة اليهودية ، فقد خلقت الإصلاحات النابليونية الإطار اللازم لتحديث اليهودية من الخارج ، وذلك من خلال المجالس الكنسية وتحويل الحاخامات إلى موظفين في الحكومة ومن خلال إشراف الحكومة على تدريب الحاخامات واختيار الحاخام الأكبر وخلاف هذه الوسائل . ثم نشأت محاولة للإصلاح من الداخل . ولكن اليهودية الإصلاحية مرتبطة بالتراث البروتستانتي الألماني ، ولذا جرت مقاومتها (بسبب العداة الفرنسي التقليدي للشقافة الألمانية) . ومع هذا ، أدخلت بعض الإصلاحات على الشعائر مثل إنقاص عدد قصائد البيوط في الصلوات ، وتقليل مدة الصلوات نفسها ، كما تقرّر استخدام الأرغن على أن يقوم بالعزف عليه يوم السبت شخص غير يهودي . ولم تكن هذه القرارات ملزمة للجميع إذ تترك لكل مجلس كنسي حرية تطبيق ما يراه مناسباً من إصلاحات . ومع هزيمة فرنسا على يد ألمانيا عام ١٨٧١ ، توقّف الإصلاح تماماً بسبب الأصل الألماني لحركة الإصلاح . وهكذا

ورغم ضخامة حجم الجماعة اليهودية ، فلا يوجد في أية مدينة من مدن فرنسا أي حي يهودي بشكل إيجاباً للحفاظ على الهوية اليهودية ، كما كان يوجد في شمال أفريقيا وكما يوجد حالياً في الولايات المتحدة (ومع هذا ، فإن أحياء اليهود في الولايات المتحدة هي نفسها تعبير عن الاندماج في مجتمع فيدرالي يسمح للأقليات والجماعات أن تحتفظ بتلك الأبعاد من هويتها وهو ما لا يتنافى مع الولاء القومي) .

ولكن مشكلة الهوية اليهودية في فرنسا مشكلة خاصة إلى أقصى حد ومتداخلة . فهناك اليهود من أصل إشبنازي . وهؤلاء ، مثل اليهود الأصليين ، اندمجوا تماماً في المجتمع الفرنسي الذي يوشك أن يهضمهم كما هضم الألوغ غيرهم من قبل . بقي بعد ذلك هوية اليهود المغاربة الذين يُقال لهم «السفارد» . ويُلاحظ أن أغلبية يهود العالم العربي سفارد بمعنى خاص جداً . فهم ليسوا من السفارد الأصليين ، بمعنى أنهم لا يتحدثون اللادينو ولا يشاركون في التراث الحضاري الثري ليهود إسبانيا . وكثير من يهود المغرب من أصل بربري واكتسبوا الصفة السفارديّة من المهاجرين من إسبانيا في القرن السادس عشر . ولذا ، فهم يهود مغاربة يتحدثون العربية ويكتسبون إنثيتهم من تفاعلهم مع التراث العربي ومن خلاله ، ويتعبدون على الطريقة السفارديّة ، وأغلبتهم الساحقة تعرف الفرنسية كما هو الحال مع كثير من أهل المغرب العربي . ويبدو أن جماعة الأليانس لعبت دوراً أساسياً في إعدادهم ثقافياً للاندماج في المجتمع الفرنسي . فالأليانس مؤسسة فرنسية يهودية . لكن يُلاحظ أنه بينما لم تهتم الأليانس بالدراسات اليهودية في فرنسا نفسها ، فإن مناهج الدراسة التابعة لها ، في بلاد مثل المغرب وتونس ولبنان وسوريا مختلطة ، أي فرنسية ويهودية . ولتفسير هذا التناقض ، يمكننا أن نقول إن هذه المدارس باعتبارها ممثلة للثقافة والاستعمار الفرنسيين ، كانت تريد أن تصبغ اليهود بصبغة فرنسية كي يقوموا بدور الجماعة الوظيفية الاستيطانية والوسيلة . ولكن توجه يهود البلاد العربية كان توجهاً دينياً ، ولذا ، لم يكن ثمة مفر أن تضم المناهج بعض المواد الدينية لتكون وسيلة جذب لليهود حتى لا ينفروا من المدارس الجديدة ولا يدركوا الهدف الحقيقي منها . وهذه على كلٍّ هي الطريقة المثلى للتحديث والعلمنة في المراحل الانتقالية ، أي أن تتم العلمنة من خلال الخطاب الديني لا على الرغم منه . وكان هناك ١٩,٥٧٠ ألف طالب في مدارس الأليانس في الشرق العربي والبلاد الإسلامية حتى عام ١٩٦٩ - ١٩٧٠ .

ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن يهود البلاد الإسلامية المنجذبوا

بأعداد متزايدة في صفوف اليسار ، فالانتماء الإثني نفسه أخذ في التآكل .

وحتى تتضح الصورة العامة والاتجاه العام نحو الاندماج ، بل وربما الانصهار ، يمكن أن نشير إلى أن معظم المرموقين من أعضاء النخبة اليهودية ما عداوا يكتون أي احترام لتراثهم اليهودي . وتتضح معدلات الاندماج العالية في الزواج المختلط الذي كان قد انخفض بعض الوقت بعد وصول يهود المغرب العربي وتزاوجهم مع اليهود الفرنسيين . ففي عام ١٩٦٢ ، بلغت نسبة الزواج بين اليهود من أصل فرنسي واليهود من أصل مغربي جزائري ٤٤٪ ، و٣٢٪ بين اليهود من أصل مغربي جزائري واليهود من شرق أوروبا . وبلغت نسبة الزيجات المختلطة بين يهود المغرب والجزائر ويهود ليسوا من نفس الأصل ٤٤٪ - وهذه نسبة عالية إذا ما قارناها بإسرائيل ، ففي عام ١٩٦٠ كان نصف عدد السكان من يهود الشرق أو اليهود السفارد والنصف الآخر يهوداً غربيين . ورغم أن كلا الفريقين كان يعيش في إسرائيل منذ عام ١٩٥٢ ، إلا أن نسبة الزواج بينهم لم تزد على ١٥٪ حتى عام ١٩٦٥ . ولكن الزواج المختلط في فرنسا تعدى الشريين والغربيين وأصبح مرة أخرى زواجاً مختلطاً مع غير اليهود، الأمر الذي يؤدي إلى ذوبان الهوية .

وقد كانت نسبة الزواج المختلط نحو واحد من ثمانية من جملة الزيجات عام ١٩٣٥ ، ثم أصبحت واحداً من ستة من الزيجات في الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٥ ، وزادت إلى واحد بين كل ثلاثة في الفترة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ ، ووصلت إلى واحد من كل زيجتين في الفترة من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٥ . أما في منتصف الثمانينيات ، فكان حوالي ٦٠٪ من جملة الزيجات مختلطة ، وهذا يبين مدى تفاقم الظاهرة رغم أنها لم تصل إلى ذروتها بعد . ويلاحظ انتشار ظاهرة التعايش المؤقت ، أي أن يعيش شخصان سوياً دون أن يتزوجا . والواقع أن أعضاء مثل هذه الترتيبات المؤقتة لا يكترون بالانتماء الديني للطرف الآخر ، الأمر الذي يعني أن مثل هذه الزيجات في الغالب لابد أن تُدرج في حساب الزيجات المختلطة . كما أن أبناء مثل هذه الزيجات أو هذه الترتيبات يفقدون صلتهم تماماً بالجماعة اليهودية .

ويظهر الاندماج ، كذلك ، في انصراف أعضاء الجماعة اليهودية عن المؤسسات اليهودية ، إذ لا يهتم بها سوى يهودي واحد بين كل ثمانية يهود ، كما لا يتبرع للصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد سوى ٢٠ ألف شخص .

ورغم الحديث عن التفاف يهود فرنسا حول المثل الصهيونية ،

تحولت اليهودية الفرنسية بعيداً عن الأرثوذكسية دون أن تصل إلى صيغة إصلاحية ، ومن ثم أصبحت كياناً غير متماسك يسمح بدرجة من التطور واستيعاب عناصر تجديدية تؤدي إلى مزيد من التنوع وعدم التجانس . وأدى تُوَقُّف حركة الإصلاح الديني إلى تصاعد معدلات الاندماج . ففي البلاد البروتستانتية التي انتشرت فيها اليهودية الإصلاحية والمحافظه ، يمكن لليهودي أن يعدل شعارات دينه ، بل وأن يسقط كثيراً منها ويظل يهودياً . أما في فرنسا ، فإن فعل ذلك فليس أمامه سوى التخلي تماماً عن دينه الذي يشكل جزءاً مهماً من هويته ، وخصوصاً أن العقيدة العلمانية في المجتمع الفرنسي تسم بدرجة عالية من التبلور والاتساق . ومن ثم ، فيمكن لمن يشاء أن يتفرنس تماماً . وقد كان لهذا الوضع أثره العميق في اليهود المغاربة الذين تستند هويتهم أساساً إلى عنصرين : أولهما شعارتهم الدينية ، والأخر فلكلورهم العربي . ومع فقدانهم كلا العنصرين ، لم يبق لهم شيء . ومعظم يهود فرنسا ، نحو ٣٥٠ ألفاً ، تمت علمنتهم ودمجهم إلى درجة أصبح من الصعب معها تمييزهم عن غير اليهود بأي شيء . أما الباقون (٢٠٠ ألف) ، فمنهم ٢٥ ألفاً فقط هم الذين ينفذون الشعارات بطريقة مستمرة و١٠٠ ألف يأكلون الطعام المباح شرعاً ، و٧٥ ألفاً يكتبون بالاحتفال بعيد يوم الغفران ويحرمون أكل الخنزير أحياناً . وكثير من يقيمون بعض الشعارات يفعلون ذلك باعتباره تعبيراً عن الانتماء الإثني لا الديني . ويلاحظ أن أكثر معدلات العلمنة تُوجد بين الهنئين ، وتُوجد أكثر العناصر تدنياً بين يهود شمال أفريقيا ، ولكن يلاحظ أن تدنياً هؤلاء ليس تعبيراً عن إيمان ديني بمقدار ما هو تعبير عن انتماء إثني تصاعدت حدته بعد الهجرة كما يحدث عادة بين المهاجرين . كما أن الانتماء الديني ليس مهماً إلى هذه الدرجة في المجتمع الفرنسي ، وشبه ماكسيم رودنسون ذلك بالانتماء إلى ناد للعب الشطرنج وهو انتماء لا يحدد سلوك الفرد . وقد أعلن ٢٥٪ من يهود فرنسا في الوقت الحاضر أنهم أعضاء في هذه الجماعة الدينية اليهودية أو تلك ، مقابل ٥٠٪ في الولايات المتحدة . ولكن إعلان شخص عن انتمائه إلى جماعة دينية لا يعني بالضرورة أنه متدين . وكما أسلفنا فأغلبية يهود فرنسا الساحقة لا تمارس أية شعارات دينية . وقد اكتسبت المجتمعات الكنسية نبرة إثنية برغم أرثوذكسيتها . وفي باريس ، حيث يعيش نحو نصف يهود فرنسا ، لا يوجد سوى تسعة آلاف عضو في المجمع الكنسي . ويلاحظ أن الجيل الجديد من الشباب اليهودي في أوروبا يتعد عن التقاليد والمؤسسات الدينية بل وغير الدينية اليهودية ، وينخرط

عدهم على ١٩ ألفاً ، أكثر من تلك التي يدها بها يهود فرنسا الذين يقرب عددهم من ستمائة ألف ، إن لم يكن قد وصل إلى هذا العدد بالفعل بحسب إحدى الإحصاءات .

وأهم المؤسسات التنظيمية للجماعات اليهودية في فرنسا هي ما يلي :

١- المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا Conseil Representatif des Institutions Juives de France واختصاره CRJF . تأسس عام ١٩٤٤ ، وهو الجهة الممثلة ليهود فرنسا لدى المؤتمر اليهودي العالمي . ويضم المجلس ممثلين لنحو ٥٠ منظمة يهودية فرنسية تمثل القيادات السياسية والأيدولوجية المختلفة داخل الجماعة اليهودية ، ويُعتبر رئيسها الممثل السياسي للجماعة في فرنسا والمُخوَّل للتفاوض باسمها مع الحكومة الفرنسية . ويعمل المجلس بشكل نشيط في محاربة معاداة اليهود والدفاع عن المصالح الإسرائيلية ، وفي القضايا الخاصة باليهود السوفييت . ومن ناحية أخرى ، يعاني المجلس من بعض الأزمات في وظائفه الداخلية نتيجة تعدد الاتجاهات السياسية والأيدولوجية للمنظمات الممثلة داخله .

٢- الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد Fonds Social Juif Unifié ، واختصاره FSJU . تأسس عام ١٩٤٩ لتخطيط وتنسيق النشاطات الاجتماعية والثقافية والتعليمية للجماعة اليهودية في فرنسا بصرف النظر عن الانتماءات السياسية أو الدينية لأعضاء الجماعة أو موقفهم تجاه إسرائيل ، ولعب الصندوق دوراً مهماً في إعادة بناء وتنظيم حياة الجماعة اليهودية في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وفي استقبال واستيعاب المهاجرين اليهود من شمال أفريقيا . وموَّل الصندوق نشاطه بفضل المساهمات المالية للجنة التوزيع الأمريكية المشتركة والتعويضات الألمانية للمنظمات اليهودية الفرنسية . وبعد حرب ١٩٦٧ ، نسَّق الصندوق نشاطه مع النداء الإسرائيلي الموحد ، وأسس النداء اليهودي الموحد لفرنسا Appel Unifié Juif de France واختصاره AUJF والتي أصبحت الجهة المختصة بجمع التبرعات وتبدير الموارد المالية اللازمة لميزانية الصندوق . وتوزع حصيلة التبرعات بين الصندوق من ناحية والمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية من ناحية أخرى . ويُعتبر الصندوق المؤسسة المركزية في حياة الجماعة اليهودية في فرنسا ولديه فروع عديدة في الأقاليم لخدمة التجمعات اليهودية ، كما يشرف على شبكة اتصالات واسعة تشمل الصحافة والإذاعة وقناة تلفزيونية من المقرر افتتاحها قريباً .

ورغم حديث يهود المغرب العربي عن الدولة الصهيونية باعتبارها تحقيقاً لنبوءة الأنبياء ، إلى آخر هذه الديباجات الدينية ، فإن ثمة انصرافاً فعلياً عن الصهيونية يناقض حماس اللفظ والتهاب القول . ولعل أكبر دليل على انصراف يهود فرنسا عن الصهيونية هو هذا الوجود الملحوظ ليهود المغرب العربي في فرنسا إذ فضلوا على الدولة الصهيونية . وقد لاحظ بن جوريون أن صهيونية يهود الولايات المتحدة عالية الصوت إنما هي تعبير عن تزايد اندماجهم الفعلي ونفس القول ينطبق على صهيونية يهود فرنسا . وعلق أحد المثقفين الفرنسيين على إيمان يهود المغرب بإسرائيل ، باعتبارها تحقيقاً للنبوءات المسيحانية ، بقوله : إن هذا الإيمان يجعل التعلق الرومانسي بإسرائيل بديلاً للصهيونية (الاستيطانية) بما تتطلبه من هجرة اليهودية بما تتطلبه من ضبط للنفس وطاعة للقانون . وشيئاً أحد المثقفين الفرنسيين موقف يهود فرنسا من الهجرة بأنهم مثل أعضاء فرق الإنشاد العسكرية التي ينشد أعضاؤها « تقدموا . . . تقدموا » مع أنهم واقفون لا يتحركون خطوة واحدة أبداً .

وعدد يهود فرنسا ، في الوقت الحاضر (١٩٩٢) ، هو ٥٣٠ ألفاً ، أي ٤٪ من يهود العالم وأقل من ١٪ من سكان فرنسا البالغ عددهم ٣٧٩ ، ٠٠٠ ، ٥٧ (بين مصدر إحصائي آخر أن عددهم عام ١٩٩٥ هو ٦٠٠ ، ٠٠٠ ) . وهذا يعني أنه لا يوجد صوت يهودي ، وقد صوّت يهود فرنسا في انتخابات عام ١٩٨٨ للتراسة على النحو التالي : ٤٤ ، ٥ ٪ ليتران ، ٤ ، ٤ ٪ لشيرك أو ريمون بار ، ١ ، ٦ ٪ للحزب الشيوعي ، ٢ ٪ لجان ماري لويان . لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد نفوذ يهودي على الإطلاق ، فهو موجود إذ توجد أعداد كبيرة من يهود فرنسا أعضاء في النخبة الحاكمة يشاركون في صنع القرار ، ولكنهم لا يشاركون بوصفهم يهوداً وإنما بوصفهم فرنسيين يهوداً حققوا درجة كاملة من الاندماج ، ويتضح هذا الاندماج في أشكال كثيرة من سلوكهم . كما يمارس أعضاء الجماعة نفوذاً قوياً داخل أجهزة الإعلام لا يتناسب مع نسبتهم العددية .

ومنذ عام ١٩٤٨ ، حجز أقل من ستين ألف يهودي أماكن للسفر من فرنسا إلى الدولة الصهيونية ، وعاد منهم خمسة وعشرون ألفاً . فمعظم يهود فرنسا من أتباع الصهيونية الثوطنية التي تهدف إلى توطين اليهود الآخرين ، حيث يكفي المؤمن بها بإحداث أصوات تأييد صارمة عالية ، وقد يرسل بعض المال ذراً للرماد في العيون . ولكن ، حتى على هذا المستوى ، أثبت يهود فرنسا انصرافهم عن الصهيونية . ويظهر هذا الانصراف في أن المساعدات التي تلقاها الدولة الصهيونية من يهود سويسرا ، الذين لا يزيد

- لجنة باريس اليهودية للعمل من أجل الرفاهية الاجتماعية (CASIP) .  
 - اللجنة اليهودية للعمل من أجل الرفاهية الاجتماعية وإعادة البناء (COJASOR) .  
 وتوجد أيضاً عدة منظمات صهيونية محلية فرنسية وفروع للمنظمات الصهيونية واليهودية العالية مثل ويزو . وأغلب الأحزاب الإسرائيلية لها فروع تابعة في فرنسا . أما الحركة الصهيونية الفرنسية Mouvement Sioniste de France فلا تزيد عضويتها عن بضعة آلاف .  
 كما أن جمعية أبناء العهد (بناي بريث) تحتفظ بمحافل عديدة في فرنسا . وكذلك يوجد المقر الرئيسي للمؤتمر اليهودي الأوربي في باريس .

٣- الأليانس إسرائيلية يونيفرسال Alliance Israelite Universelle ، وهي إحدى أكبر المنظمات اليهودية في فرنسا . تأسست عام ١٨٦٠ ، وتركز نشاطها في مجال التعليم فأستت شبكة من المدارس اليهودية في العالم العربي والإسلامي . أما اليوم ، فيتركز نشاطها بالدرجة الأولى في مجال التعليم في فرنسا ، وتعدُّ مكتبة الأليانس أهم المكتبات اليهودية في أوروبا .  
 ٤- كما توجد العديد من حركات الشبيبة . وينظم القسم التعليمي للشباب اليهودي نشاط الشباب في المراكز الاجتماعية .  
 ٥- وهناك العديد من المنظمات اليهودية في المجالات الخيرية والخدمة الاجتماعية من أهمها :  
 - اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع .



## ٥

## إنجلترا

إنجلترا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة - إنجلترا منذ عصر النهضة - إنجلترا في الوقت الحاضر

## إنجلترا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة

England from the Middle Ages to the Renaissance

كما قامت هذه العناصر بحرق صكوك الديون . ونار الملك لنفسه ، فأرسل إلى يورك أحد الأساقفة ، فقام بمصادرة أموال زعماء الهجوم ، وأقال حاكم القلعة والشريف . وحينما عاد الملك نفسه عام ١١٩٤ ، طلب إجراء تحقيق في الموضوع برمته ، وقرر تنظيم علاقة العنصر التجاري اليهودي ببقية المجتمع . فتم تأسيس نظام لتسجيل ديون اليهود وتم بمقتضاه وضع صناديق في بلديات المدن الإنجليزية الرئيسية ، وأودعت فيها نسخ من كل الوثائق الخاصة بالديون ، وعُيّن أربعة موظفين (مسيحيين ويهوديين) مسئولين عن هذا الصندوق . وأسست سبعة وعشرون صندوقاً في كل إنجلترا ، تحت إشراف سلطة مركزية من أربعة موظفين أوصياها أو قضاة اليهود (بالإنجليزية : كاستوديانز أور جستييزز أوف ذا جوز Custodians or Justices of the Jews) تحت رئاسة خازن بيت المال اليهودي (بالإنجليزية : إكستشكر أوف ذا جوز Exchequer of the Jews) . وسهّل هذا الهيكل التنظيمي عملية حوسلة اليهود ، لصالح الملك ، من خلال الضرائب المفروضة عليهم ومن خلال الضرائب والفوائد التي يجمعونها .

وأسّس حكم الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦) بالصراع بينه وبين الكنيسة والبارونات ، فأصدر الملك قراراً بوضع أعضاء الجماعة اليهودية تحت سلطته القانونية المباشرة أو تحت سلطة الحكام المحليين ، الأمر الذي كان يعني إنهاء أية سيطرة للبارونات أو الكنيسة عليهم . وضمنت هذه التنظيمات كثيراً من حقوق أعضاء الجماعة اليهودية وضمن ذلك حق القَسَم على التوراة ، وأن يكون لهم محاكمهم الخاصة لفض المنازعات التي تقوم فيما بينهم .

ويتبدّى وضع أعضاء الجماعة اليهودية المتميّز في الأمر الصادر للشرفاء والموظفين المحليين عام ١٢١٧ بانتخاب أربعة وعشرين شخصاً من سكان المدن لحماية السكان اليهود فيها . كما طُلب إلى أعضاء الجماعة اليهودية ارتداء شارة خاصة (عبارة عن شريطين أبيضين) لحمايتهم . وأدّى هذا إلى ازدهارهم ، فرغم أنهم كانوا أقلية صغيرة لا يزيد عدد أعضائها (بحسب أحد التقديرات) على أربعة آلاف ، فإن أموالهم وممتلكاتهم كانت كبيرة . وتتضح ضخامة

كان اقتصاد إنجلترا غنية الغزو النورماندي عام ١٠٦٦ بسيطاً جداً ، مبنياً على المقايضة وحسب . وكان وليام الأول ، أو الفاتح ، يود أن يحصل على ريعه من الأرض التي فتحها نقداً ، ولذا قرر إدخال عنصر رأسمالي تجاري مالي . ووجد ضالته في أعضاء الجماعات اليهودية بسبب فالتهم ونفعهم ، وخصوصاً في تشجيع تداول العملات . ومن ثم شجع اليهود (كجماعة وظيفية استيطانية نافعة) على الاستقرار ليقوموا بدور الوسيط التجاري في هذه المنطقة الجديدة ، ويدور محصلي أموال التاج . فاستوطن اليهود في إنجلترا وأسسوا جماعات في لندن وبريستول وكانتربري ، ووضّعوا تحت حماية التاج ليعملوا في التجارة والربا ، وإن كان قد تم استبعادهم عن نقابات الحرفيين ، أي أنهم أصبحوا جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الإقطاعي . ويلاحظ أن يهود إنجلترا لم يكونوا إنجليزيين ، إذ كانوا جزءاً من الثقافة الألمانية والفرنسية المجاورة ، وكانوا يتحدثون الفرنسية فيما بينهم ويتسمون بأسماء فرنسية . وهذه العزلة الإثنية سمة أساسية للجماعة الوظيفية الوسيطة .

ومع بداية القرن الثاني عشر ، بدأ وضعهم في التدهور نظراً للهجوم عليهم من قبل الكنيسة والبارونات ، ثم أخيراً من قبل العناصر الشعبية في المدينة . وكان أعضاء الجماعة اليهودية محط كراهية خاصة لارتباطهم بالملك كآقنات بلاط ، بل أصبحوا جزءاً أساسياً من الصراع الأساسي في العصور الوسطى في الغرب (أي الصراع بين الملك وبقية الفئات والطبقات في المجتمع) . وتم الهجوم عليهم بشكل مخفف أثناء حملتي الفرنجية الأولى والثانية ، وتزامن اعتلاء ريتشارد الأول (قلب الأسد) عام ١١٨٩ العرش مع تصاعد الحملة ضد الجماعة الوظيفية التجارية الوسيطة اليهودية . وحينما سافر مع حملة الفرنجية الثالثة ، انتهزت القوى المضادة الفرصة وهاجمت أعضاء الجماعة اليهودية في أماكن عدة من أهمها يورك ، وهو ما كان يمثل خسارة مالية فداحة للملك على وجه الخصوص .



طبيعة المجتمع الغربي في العصر الوسيط وتقسيمه الهرمي الصارم . وإذا كان الأثرياء من أعضاء الجماعة اليهودية قد أمكنهم شراء الأرض ، فإن الفقراء اضطروا إلى السبل غير الشريفة للعيش مثل برد حواف العملات الذهبية وهو ما كان يُنقص قيمتها . وحينما اكتُشف أمر بعضهم بعد عام ١٢٧٨ ، أمر الملك بتفتيش بيوتهم كما أمر بسجنهم وشنق ٢٣٩ يهودياً .

واضطر الملك في نهاية الأمر إلى إصدار أمر بطرد اليهود من مقاطعة جاسكوني ، ولكن رجال الكنيسة والبارونات كانوا يعرفون أن سر احتفاظ الملك بأعضاء الجماعة اليهودية هو أنه يوظفهم لحسابه ويحقق الأرباح من خلالها ، فقررروا إعطاء عُشر الأملاك المنقولة إن هو طرد رعاياه اليهود . وبالفعل ، تم طردهم نهائياً عام ١٢٩٠ ، ولم يكن عددهم يزيد على أربعة آلاف ، وإن كانت بعض المراجع تذكر أن عددهم كان ١٢ ألفاً ، بل ١٦ ألفاً .

وحيث إن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يُعدون عنصرأ فرنسياً ، سمح لهم ملك فرنسا في بداية الأمر بالاستقرار فيها . ولكنه سحب تصريحه إثر ضغوط من الكنيسة ، فاستقروا في الفلاندرز ، ويُقال أيضاً في إسكتلندا . ويُلاحظ أن كره الإنجليز لليهود هو كرهه تكنة المجتمعات كافة لأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة لا لليهود وحدهم . فحينما حل الفلمنكيون والإيطاليون والألمان من أعضاء العصابة الهانسية محل يهود إنجلترا ، أصبحوا محط كراهية بعض قطاعات المجتمع رغم أنهم مسيحيون . وفي عام ١٣٨١ ، ثار العمال الإنجليز ضد التجار الأجانب ، وطاردوا كل المنضمين إلى العصابة الهانسية واقتفوا آثارهم في أماكن العبادة داخل الكنائس ، وقتلوا كل من لم يستطع النطق بلقظتي «الحخبز والجين» بلهجة إنجليزية . وفي عام ١٤٥٧ ، وبعد أن احتل الإنجليز أنفسهم مواقع مهمة في التجارة الخارجية والنقل البحري وأخذت المزارحة بينهم وبين التجار الأجانب تزداد بشدة ، تعرَّض جميع تجار جنوا في لندن للاعتقال والسجن كما صودرت بضائعهم .

### إنجلترا منذ عصر النهضة

England since the Renaissance

ظلت إنجلترا خالية من اليهود تقريباً حتى نهاية القرن السادس عشر . ومع بداية القرن السابع عشر ، ساد إنجلترا (بعد ظهور الحركة البيوريتانية) جو استرجاعي قوي يستند إلى أسطورة عودة المسيح . وظهر فكر مسيحي صهيوني يدعو إلى ضرورة تواجُد اليهود في كل أنحاء الأرض وضرورة هدايتهم ، أي تصديرهم كشرط أساسي

حجم هذه الممتلكات إذا عرفنا أن أعضاء الجماعة كانوا يؤدون نحو ٨٪ من جملة الضرائب التي تجمعها الدولة .

ولكن وضع أعضاء الجماعة اليهودية أخذ في التدهور لعدة أسباب :

١ - أدى تزايد نفوذ أعضاء الجماعة إلى تزايد سخط البارونات عليهم .

٢ - كانت المدن الإنجليزية في تلك الآونة قد بدأت تزداد قوة وبدأ إسهامها في الخزانة الملكية في التزايد ، فأخذت تطلب بضرورة التخلص من أعضاء الجماعة اليهودية .

٣ - أدى تزايد الجهد الذي يبذله أعضاء الجماعة اليهودية في جمع مستحقاتهم إلى تزايد السخط عليهم . وفي الوقت نفسه ، فإنهم هم أنفسهم كانوا يزدادون فقراً بسبب تزايد الضرائب عليهم من قبل البلاط .

٤ - شهدت هذه الفترة بداية ظهور بيوتات المال الإيطالية والفرنسية ، مثل اللومبارد والكوهارسين ، التي جعلت الاستغناء عن رأس المال اليهودي ممكناً . أما بالنسبة للأعمال التجارية ، فقد حل التجار الفلمنكيون والفرنسيون والألمان والإيطاليون محل التجار اليهود .

وهكذا ، تحالفت عدة عناصر في جعل أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية عنصراً لا نفع له ، وصدرت القوانين التي حذت من حقوقهم ومن المناطق التي يحق لهم السكنى فيها . وبالتدرج أخذت الكنيسة والبارونات في تحقيق المزيد من الانتصارات في معركتهم مع الملك جون الذي اضطر إلى قبول سيادة الكنيسة عام ١٢١٣

وإلى الاعتراف بحقوق البارونات حينما وقَّع الماجتا كارتا عام ١٢١٥ . لكن تردّي وضع الملك كان يعني ، بطبيعة الحال ، تردّي وضع اليهود . وقد تردت حالتهم إلى درجة أنهم طلبوا عام ١٢٥٥

الرحيل عن إنجلترا . لكن الملك رفض طلبهم ثم قام ببيعهم ووضعهم بعض الوقت تحت حماية أخيه الذي قام بتزويدهم بالحماية المطلوبة أثناء تهمة الدم التي وجهت ضدهم (عام ١٢٥٥) كما قام بتوظيفهم لحسابه .

وأثناء حرب البارونات (١٢٦٤ - ١٢٦٧) ضد هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) ، شنَّت هجمات على أعضاء الجماعة اليهودية . وقد حاول إدوارد الأول ، بعد اعتلائه العرش عام ١٢٧٢ ، أن يجد حلاً لمسألة يهود إنجلترا . فكان يرى أن أعضاء الجماعة اليهودية أصبحوا مجموعة بشرية صغيرة لم تُعد تؤدي وظيفة اقتصادية ، ومن ثم حاول توجيههم للعمل بالزراعة والتجارة والحرف ومنعهم من الاشتغال بالربا ، فأصدر قانون اليهودية عام ١٢٧٥ . ولكن هذه المحاولة كان محكوماً عليها بالفشل بسبب

يكونوا متميزين وظيفياً ، ولم يكن لهم حقوق خاصة ، كما لم يكونوا موضوعين تحت حماية الملك أو غيره من السلطات ، وإنما كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع .

وساعد كل ذلك على نمو الجماعة اليهودية في إنجلترا وعلى تزايد حجم المهاجرين اليهود القادمين من أمستردام وإسبانيا والبرتغال . كما ازداد هؤلاء ثراءً وأهمية بتزايد أهمية لندن (قياساً إلى أمستردام) كمركز للتجارة العالمية . وعمل أثرياء اليهود في السمسة والتجارة الخارجية ، وكانوا مُتُكَلِّمِينَ بشكل كبير في مستعمرات الإمبراطورية البريطانية المتنامية ، وخصوصاً في نيويورك وبومباي وجزر الهند الغربية . ومن الشخصيات اليهودية البارزة في تلك الفترة سامسون جدمون ويوسف سالفادور اللذان قدما استشارتهما المالية المهمة للوزارات الإنجليزية المتعاقبة .

وظلت الجماعة اليهودية في إنجلترا مُشكَّلةً في أغلبها من السفارد وإن بدأت بعض الجماعات الصغيرة من اليهود الإشتكاز القادمين من أمستردام وهامبورج ثم ألمانيا وشرق أوروبا الاستقرار في إنجلترا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وكان أغلب اليهود الإشتكاز أقل في المرتبة الاجتماعية من السفارد ، وعمل قطاع كبير منهم كعبادة متجولين في القرى والمناطق الريفية ، وبالتالي تمت تجمعات من يهود الإشتكاز في كثير من المدن الريفية والموانئ والمراكز الصناعية . وأسس الإشتكاز المعبد الكبير في لندن عام ١٧٢٢ .

وبدأت حركة حصل بموجبها أعضاء الجماعة اليهودية على حقوقهم المدنية في القرن الثامن عشر حيث صدر عام ١٧١٨ قرار بالسماح لليهود المولودين في إنجلترا حتى لو كانوا من أبوين أجنبيين بأن يمتلكوا الأراضي الزراعية . وفي عام ١٧٥٣ ، قُدِّم مشروع للبرلمان البريطاني يطالب بمنح اليهود المولودين خارج البلاد حقوق المواطنة نفسها لمنوحة لأبنائهم . لكن هذا المشروع سرعان ما فشل ، الأمر الذي دفع كثيراً من أثرياء اليهود إلى التخلي عن اليهودية واعتناق المسيحية . وتذهب بعض التقديرات إلى أن عدد المنتصرين من اليهود في القرن التاسع عشر بلغ ٢٩ ألفاً ، أي نحو ثلث يهود إنجلترا . وهذا الرقم دليل أيضاً على تزايد اندماج اليهود في المجتمع البريطاني .

وأتاحت الحروب النابليونية لبعض العائلات اليهودية الإشتكازية ، مثل عائلتي روتشيلد وجولدسميد ، احتلال مواقع مرموقة في المجتمع الإنجليزي بفضل خدماتهم المالية المهمة ، الأمر الذي أعطى نقلاً للحركة المطالبة بانعناق اليهود . وفي الثلاثينيات من

للخلاص . ولا شك في أن هذه الفرق الاسترجاعية المسيحية (مقابل المسيحية) تعود في جانب منها إلى تطلمات المجتمع الإنجليزي التجارية الاستعمارية . وقد لعب التجار من يهود المارانو (برتغاليين وإسبانياً) ، الذين استقرت أعداد كبيرة منهم في لندن ، دوراً مهماً في الحرب مع إسبانيا سواء من الناحية المالية أم الناحية الاستخبارية (قام أنطونيو فرنانديز بجمع المعلومات عن القوات الإسبانية وتوصيلها للإنجليز) . ومن ثم ، بدأ التفكير في الأوساط البيوريتانية في الاستفادة من خبرات اليهود التجارية واتصالاتهم الدولية . وكان كرومويل شخصياً من أكبر المتحمسين لذلك ، وخصوصاً أنه كان يرى إمكانية استخدام اليهود كجواسيس له . وتقدّم منسى بن إسرائيل ، عام ١٦٥٥ ، بطلب السماح لليهود بالاستيطان . كما أن بعض أثرياء اليهود المارانو قدّموا التماساً عام ١٦٥٦ لإقامة مقبرة خاصة بهم وطلبوا بتوفير الحماية لهم عند ممارستهم شعائهم الدينية باعتبارهم يهوداً . ومع أن الطلب لم يُقبَل ولم يُقرَّ رسمياً ، فإن الاعتراف بالمارانو كيهود كان في حد ذاته اعترافاً بحق اليهود في الاستقرار في إنجلترا ، ولذا أصدر كرومويل قراراً لسلطات لندن بأن تزيج جميع الحواجز من طريق استقرار الجماعة اليهودية ، بل سمح لهم بإنشاء معبد يهودي ثم مقبرة خاصة بهم . وتم الاعتراف بالجماعات اليهودية في عصر تشارلز الثاني (عام ١٦٦٤) . وأعيدت أملاكهم التي صدرت أثناء الحرب مع إسبانيا (لأنهم كانوا يُعتَبَرُونَ حتى ذلك الوقت مسيحيين إسباني أمام القانون) . وفي عام ١٦٧٣ ، حصلوا على وعد بحرية العبادة وأعيد تأكيد هذا الوعد عام ١٦٨٥ . وفي عام ١٦٩٨ تم تقنين ممارسة الديانة اليهودية من خلال تشريع برلماني . وبالتدريج ، ازداد يهود إنجلترا أهمية بتزايد أهمية لندن - قياساً إلى أمستردام - كمركز للتجارة العالمية .

واستقرت أعداد صغيرة من اليهود الإشتكاز (من أتوا من ألمانيا ووسط أوروبا) في إنجلترا ، ولكن ظلت الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعة اليهودية فيها من السفارد . ولم يُقرَّص على أعضاء الجماعة اليهودية السكنى في جيتو خاص بهم ، بل أُنكِت معظم القيود المفروضة عليهم ، كما حصلوا على حقوق المواطنة بالتدريج ابتداءً من عام ١٧١٨ حينما صدر قرار بالسماح لليهود المولودين في إنجلترا ، حتى لو كانوا من أبوين أجنبيين ، بأن يمتلكوا الأراضي الزراعية . ولم تقم ضد يهود إنجلترا أية حركات شعبية عنيفة . ولعل هذا يعود إلى أنه حينما أُعيد توطين اليهود ، تم توطينهم كعنصر تجاري مُستوعَب في التشكيل التجاري الأكبر . ولذا ، فلهم لم

إحساساً جيترياً عميقاً بعدم الأمن والطمأنينة . وأدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن والجريمة . وفي بداية الأمر انخرط يهود اليديشية في الأعمال اليدوية شبه الماهرة ، وخصوصاً في مجال صناعة الملابس الجاهزة . وكان الطلب على الملابس الجاهزة الرخيصة قد بدأ يزداد نسبياً في إنجلترا وغيرها من الدول الصناعية الغربية مع تنامي الطبقات المتوسطة في هذه البلاد . وكان ميراث يهود اليديشية ، باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة ، يؤهلهم لدخول هذه المجالات الجديدة والهامة والتي كانت

مازالت تُسمّ بقدْر من المخاطرة وتحتاج إلى خبرات تجارية . فعملوا في «ورش العرق» ، وهي مصانع لم تكن ظروف العمل فيها إنسانية وكان العمال يعملون فيها ساعات طويلة . وأحضروا معهم أطفالهم الذين كانوا يشكّلون عبئاً ضخماً على المؤسسات الصحية والتعليمية . وكانت ثقافتهم يديشية أساساً ويتحدثون هذه اللغة في الشوارع ، كما كانت لهم مطابعهم وجرائدهم ومعاييدهم وحاخاماتهم . ولم تكن لهم هوية سياسية أو وضع قانوني محدّد . كل هذا يناقض وضع يهود إنجلترا السفارد ، أو حتى الإشكاز الذين تم صبغهم بالصيغة الإنجليزية والذين كانوا جزءاً من الأرستقراطية المالية وكانت أعدادهم صغيرة وكانوا مندمجين في مجتمعهم الإنجليزي يتحدثون بلغته ، ويتمتعون بحقوقهم السياسية والمدنية والدينية الكاملة . وأدى هذا الوضع إلى توتر العلاقات بين الفريقين ، إذ كان اليهود الإنجليز يعتبرون اليهود المتحدثين باليديشية عنصراً غريباً متخلفاً وعنصر يهدد مواقعهم الطبقيّة ومكانتهم الاجتماعية . ويضاف إلى هذا أنهم أحضروا معهم المسألة اليهودية من شرق أوروبا . وكان يهود اليديشية بدورهم ينظرون إلى اليهود الإنجليز باعتبارهم باردين ومندمجين في مجتمعهم ، منزولين تماماً عن الحركات السائدة بين أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوروبا (الصهيونية والحسيدية والتوروية) بين يهود الشرق . ولذا ، ظل الفريقان كلٌّ منهما بمعزل عن الآخر ، كما أنهم لم يتزاوجوا فيما بينهم .

وأدى وفود العناصر اليديشية إلى قيام محاولات لوقف سيل الهجرة عن طريق تأليف لجنة ملكية لدراسة القضية . وما زاد الجو توتراً ، بالنسبة إلى الجماعة اليهودية ، ظهور إحساس بين العناصر الاشتراكية الراديكالية بأن اليهود يشكلون جزءاً مهماً من السياسة الإمبريالية الإنجليزية ، ومن هنا كان أعداء الإمبريالية أعداء لليهود . وكان عدد اليهود بين المستوطنين الإنجليز في جنوب أفريقيا كبيراً ، وبعضهم كان على علاقة قوية بملنر ورووس . وقد تحدث ج . أ .

القرن التاسع عشر ، سُحّ لليهود بالعمل في وظائف مدنية ، وعُيّن أول شريف يهودي عام ١٨٣٥ . ووصلت هذه الحركة إلى قمتهما بدخول ليونيل دي روتشيلد البرلمان عام ١٨٥٨ . كما أصبح ابنه ناثانيل دي روتشيلد أول يهودي بريطاني يحصل على لقب لورد عام ١٨٨٥ . وفي عام ١٨٩٠ ، تم إلغاء آخر القيود الدينية على اعتلاء مناصب ووظائف سياسية ، وبالتالي أصبح اعتناق اليهود كاملاً . واحتل بعض أعضاء الجماعة مواقع ومراكز مهمة في الإدارات والوزارات البريطانية اللاحقة .

ولكن ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، تغيّر التكوين الإثني ليهود إنجلترا نتيجة تدفّق جحافل يهود اليديشية من شرق أوروبا ووسطها على إنجلترا ، وغيرها من الدول ، بسبب تضرّر التحديث . وفيما يلي إحصاء بعدد يهود إنجلترا من عام ١٦٩٠ حتى عام ١٩٨٥

السنة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	السنة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية
١٦٩٠	٤٠٠-٣٥٠	١٨٩٠	١٠٠,٠٠٠
١٧٣٤	٦٠٠٠	١٩٠٠	١٦٠,٠٠٠
١٧٥٣	٨٠٠٠	١٩١٠	٢٤٢,٠٠٠
١٨٠٠	٢٠,٠٠٠	١٩٢٠	٢٩٧,٠٠٠
١٨٣٠	٢٧,٠٠٠	١٩٣٠	٣٣٣,٠٠٠
١٨٤٥	٣٥,٠٠٠	١٩٤٠	٣٨٥,٠٠٠
١٨٤٩	٤٠,٠٠٠	١٩٥٠	٤٥٠,٠٠٠
١٨٥١	٣٥,٠٠٠	١٩٦٠	٤٥٠,٠٠٠
١٨٥٣	٢٥,٠٠٠	١٩٧٠	٤١٠,٠٠٠
١٨٨٠	٦٠,٠٠٠	١٩٨٥	٣٣٠,٠٠٠

وهكذا ، فبينما كان يوجد في عام ١٨٥٣ نحو ٢٥ ألف يهودي في إنجلترا ، وصل عددهم إلى ٢٤٢ ألفاً عام ١٩١٠ ، أي بزيادة نحو عشرة أضعاف خلال ستين عاماً في مجتمع متجانس مثل المجتمع الإنجليزي . ورغم صدور تشريعات تُحدّ من هجرتهم ، فإن عدد يهود إنجلترا وصل عام ١٩١٤ ، أي عشية وعد بلقور ، إلى ما بين ٢٥٠ ألفاً وإلى ٣٠٠ ألف تصفهم من يهود اليديشية ، أي أن عدد يهود إنجلترا من يهود اليديشية زاد خمسة عشر ضعفاً فيما يقارب أربعين عاماً . وخلق هذا جواً من القلق في إنجلترا ، وسادت شائعات تقول إن عدد المهاجرين بلغ ٧٥٠ ألفاً . وكان يهود اليديشية تجاراً صغاراً متخلفين يحملون معهم

بين صفوف اليهود الإنجليز ، كما أن العناصر اليديشية نفسها بدأت تصطفي بالصبغة البريطانية ، وخصوصاً أنهم لم يجدوا أية عراقيل قانونية تقف في طريقهم نحو الاندماج .

ومع صعود النازية في ألمانيا ، هاجر ما بين ٤٠ و ٥٠ ألف يهودي من ألمانيا ووسط أوروبا إلى إنجلترا . ورغم أن هذه الهجرة كانت أقل في حجمها من هجرة يهود اليديشية إلا أن المهاجرين الألمان كانوا أكثر ثراء ، وتشير التقديرات إلى أنه تم تحويل مبالغ ضخمة من ألمانيا إلى بريطانيا . كما أعاد المهاجرون تأسيس أعمالهم المالية والتجارية في إنجلترا ، وخصوصاً في مجالات المنتجات الصيدلية والملابس الثمينة وبعض الصناعات الخفيفة الأخرى ، وأصبحت لندن مركز تجارة الفراء بدلاً من لينينغ .

### إنجلترا في الوقت الحاضر

England at the Present

كان يهود إنجلترا آخذين في التناقص بسبب الاندماج والهجرة رغم وصول أعداد كبيرة من يهود ألمانيا إلى إنجلترا في فترة الحرب العالمية الثانية . وبلغ عدد يهود إنجلترا ٤٣٠ ألفاً في أوائل الخمسينيات ولكنه تناقص إلى ٣٢٠ ألفاً عام ١٩٨٩ (من مجموع عدد السكان البالغ ٥٦,٨٦١,٠٠٠) ، وكان معظمهم يتركز في لندن (بنسبة ٧٠٪) والبقية في مانشستر وليلز وجلاسجو . وفي عام ١٩٩٢ بلغ عدد يهود إنجلترا ٢٩٨,٠٠٠ يوجد ٢٠٠ ألف منهم في لندن .

ومما يذكّر أن السفارة الإسرائيلية في بريطانيا أشارت عام ١٩٨٨ إلى أن هناك حوالي ٣٠ ألف إسرائيلي مقيم في إنجلترا ، خمسة آلاف منهم مسجلون كاحتياطي في الجيش البريطاني ، أي أنهم اكتسبوا المواطنة البريطانية . وبهذا المعنى يمكن الحديث عن «دياسبورا إسرائيلية» في إنجلترا ، وأن عدد الهاربين من صهيون لا يقل كثيراً عن عدد الهاربين من جحيم النازية .

ويعاني يهود إنجلترا من ظاهرة موت الشعب اليهودي ، أي تناقص عددهم مع احتمال اختفائهم . وفي حالة إنجلترا ، يتبدى هذا في تزايد متوسط الأعمار بين أعضاء الجماعة اليهودية عنه على المستوى القومي وتزايد نسبة الوفيات بينهم عن نسبة الوفيات على المستوى القومي أيضاً . ففي عام ١٩٨٤ ، كان معدل الوفيات بين اليهود ١٥ من كل ألف مقابل ١١,٨ لكل السكان . ويزيد عدد الوفيات على عدد المواليد بمعدل ١٣٠٠ حالة سنوياً . ويبدو أن ظاهرة الإحجام عن الإنجاب ، وكذلك عدم الخصوبة التي يتسم بها

هوسون (الزعيم الاشتراكي وأهم المثقفين الإنجليز المعارضين للإمبريالية) عن مجموعة صغيرة من الممولين الدوليين «ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم» حققوا نفوذاً قوياً في جوهانسبرج . وقد وصفهم بأنهم المثالة الحقيقية لأوروبا ، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية . كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة ، ويتلاعبون بسوق الرقيق ، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتوريا . ويُلاحظ أن أعداداً كبيرة أيضاً من يهود إنجلترا ، وخصوصاً يهود اليديشية ، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية . وأدى هذا إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بأقصى اليمين والرجعية ، وبأقصى اليسار والثورية ، في وقت واحد .

في هذا الجو ، شكّلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوروبا . وقدمت حكومة بلفور ، الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك ، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمّى «قانون الغريباء» الذي ووفق عليه عام ١٩٠٥ . ودافع رئيس الوزراء عن المشروع فأشار إلى أنه لا يمكن تجاهل مسألة العرق بأية حال في أمور الهجرة ، كما أشار إلى المشاكل التي حاقت بإنجلترا نتيجة الهجرة اليهودية مؤكداً ضرورة الحد منها .

وفي هذا الإطار ، طُرحت الفكرة الصهيونية ، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية . وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة في حيّ إيسْت إنْد عن موضوع الهجرة ، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية .

ثم عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) في لندن . وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني ، توجه هرتزل أساساً إلى يهود اليديشية ، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني كرقعة تلتقي فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية . وفي عام ١٩٠٢ ، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية ، حيث قدّم حلاً صهيونياً مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوروبا . وانطلاقاً من هذا ، عُرض مشروع شرق أفريقيا ، ثم صدر وعد بلفور الذي جاء انتصاراً للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا .

وبعد صدور وعد بلفور ، تغيرت الأوضاع كثيراً ، ذلك أن تأييد الصهيونية لم يُعدّ تأييداً لحركة قومية غريبة وإنما أصبح تأييداً للمصالح الإمبريالية البريطانية . وبذا ، اخفت معارضة الصهيونية

النسيج ، و ٧-٨٪ في قطاع الملابس الجاهزة والأثاث و ٢٢٪ في المهن . وهذا هو النمط العام السائد في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وفرنسا . وكل هذا يعني أن عدد العمال اليهود أخذ في التناقص وأنهم لم يودعوا جماعة وظيفية وسيطة وإنما بدأوا يتحولون إلى طبقة وسطى ، وهذا أمر يصاحبه تزايد في نسبة الاندماج .

وتناقص عدد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعلنون ارتباطهم بالعقيدة اليهودية ، فقد ذكر ١١٠ آلاف يهودي عام ١٩٧٧ أنهم أعضاء في هذا المعبد اليهودي أو ذلك (أي ثلث أعضاء الجماعة اليهودية مقابل النصف في الولايات المتحدة) . وتناقص العدد في التسعينيات بسبب تزايد معدلات العلمنة وعناصر أخرى . وينقسم اليهود ، من الناحية الدينية ، إلى سفارد وإشكناز ، وإلى أرثوذكس (معتدلين ومتطرفين) وإصلاحيين . والتنظيم الديني للسفارد هو أبرشية اليهود الأسبان والبرتغاليين ، وهي أقدم التنظيمات (أسست عام ١٦٥٧) . يضم هذا التنظيم الأرستقراطية السفاردية القديمة التي كانت تمنح الإشكناز من الانضمام إليها . أما الأغلبية الإشكنازية ، فنظمت نفسها بطريقة إنجليزية يهودية إنجليزية ، فلم تظهر حركة إصلاح ديني جذرية على الطريقة الألمانية ، وإنما ظل الإصلاح الديني على الطريقة الإنجليزية الإنجليزية ، فتم تعديل الطقوس حتى تصبح أكثر لياقة وفخامة من منظور بريطاني ، وظل اليهود هناك يهوداً أرثوذكس ، ولكن معتدلين ، تماماً كالكنيسة الإنجليزية ، أي كاثوليكية بدون البابا . وثمرة هذه العملية هو ظهور جماعة يهودية تتخذ شكل هيئة أرثوذكسية رسمية تتبع مؤسسة رسمية هي المعبد الموحد ومركزها لندن ، وهي التي تُعِين الحاخام الأكبر لبريطانيا . والمعبد الموحد هيئة أرثوذكسية معتدلة ، فهي تتبع المعايير الأرثوذكسية داخل المعبد ولكنها لا تطبقها خارجها . ولا يصاحب هذه الهوية أي تعبير حيوي عنها في المجالات الاجتماعية أو الثقافية . ولم تُعد هذه المواقف المعتدلة تُرضي اليمين أو اليسار ، ولذا أسس الأرثوذكس الحقيقيون هيئاتهم الدينية المستقلة . فأسس المهاجرون من يهود اليديشية اتحاد المعابد (١٨٨٧) . والاتحاد له محكمة الشرعية (بيت دين) الخاصة . ولكن هناك اتحاد أكثر أرثوذكسية وهو اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية العبرية الذي أسس عام ١٩١٦ . ولكن لا ينتمي سوى ٥ ، ٣٪ من يهود إنجلترا لهذين الاتحادين ، فالغالبية العظمى تنضم إلى المعبد الموحد (٣٤٠١٨ عام ١٩٩٢) أو إلى الاتحادين الإصلاحيين ، وهما معابد بريطانيا العظمى الإصلاحيية واتحاد المعابد الليبرالية والتقدمية (٢٦ ألفاً عام ١٩٩٢) .

يهود العالم (الغربي بالذات) سائدة في إنجلترا . ولذا ، فإن الزيادة الطبيعية لا تؤدي إلى تعريض الأعداد التي تفقد ، كما أن عدد اليهود يتناقص بسبب تصاعد معدلات العلمنة والاندماج ، وهما أمران مرتبطان أحدهما بالآخر تماماً . ونسبة الزواج المختلط مرتفعة إلى حد يصل إلى ٤٠ - ٥٠٪ . كما أن عدد الزيجات اليهودية أخذ في التناقص ، إذ سُجِّل في عام ١٩٦٠ نحو ٣٦٦٤ حالة زواج ، ثم تناقص العدد ليصبح ١١٥٣ عام ١٩٨٤ ثم ١٠٣١ فقط عام ١٩٩٢ . ويُلاحظ تزايد نسبة الطلاق بين أعضاء الجماعة اليهودية إذ بلغت نحو ٣٥٪ . وربما كانت النسبة العامة في إنجلترا لا تختلف عن ذلك كثيراً ، ولكنها تكتسب دلالة خاصة بالنسبة إلى عدد يهود إنجلترا إذ أن الطلاق مؤشر على تَسَخُّح الأسرة اليهودية وهي الإطار الذي احتفظ من خلاله أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة بهوياتهم . ويعتبر يهود إنجلترا أنفسهم يهوداً من الناحية الدينية وحسب ، وبريطانيين من الناحية العرقية . ومن المفارقات أن هذا التصور يساعد على تزايد الاندماج لأن الأمور الدينية ، في المجتمعات العلمانية ، تُعتبر أموراً خاصة للغاية لا تتحدد سلوك الأفراد إلا في أضيق الحدود ولقد شبهها ماكسيم رودنسون بالانضمام إلى ناد للعب الشطرنج . وبالتالي ، تصبح هوية اليهود البريطاني هوية بريطانية بالدرجة الأولى . ومن بين العناصر الأخرى التي تساهم في تناقص عدد يهود إنجلترا هجرتهم خارجا . ففي عام ١٩٧١ ، كان يوجد ٤٤ ألف يهودي ، أي ١٢٪ من جملة يهود إنجلترا ، خارجها . وكان هؤلاء المهاجرون من مواليد إنجلترا ، ولم يكونوا من العناصر المهاجرة حديثاً التي تستقر بعض الوقت ثم تستأنف الهجرة بعد فترة وجيزة .

وقد تغيّر البناء الوظيفي والمهني ليهود إنجلترا ، فتركت أعداد كبيرة منهم الأعمال اليدوية شبه الماهرة ، وبدأوا يتخبطون بأعداد متزايدة في الوظائف والمهن التي يصبح اليهودي هو صاحب العمل فيها (مثل أصحاب المحال الصغيرة ومصنفي الشعر وسائقي التاكسيات) . وبلغت نسبة أعضاء الجماعة اليهودية العاملين في مثل هذه المهن نحو ١٥٪ من جملة أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا (٦٪ على المستوى القومي) . وبطبيعة الحال ، زاد عدد اليهود الذين يدخلون المهن والوظائف الإدارية ، كما هو الحال مع الجيل الثالث من المهاجرين في كل أنحاء العالم الغربي . وتناقص عدد اليهود في قطاع المال ، وزاد عددهم في قطاع الصناعات الاستهلاكية ، مثل الحياطة والملابس ، بسبب الميراث الاقتصادي الشرقي أوروبي . وفي الستينيات ، تركز ٢٠٪ من جملة الذكور اليهود العاملين في صناعة

الخارجية، والتعليم، والشئون القانونية والبرلمانية، والعلاقات العامة والمحاضرات، والذبح الشرعي، ووحدة أبحاث مخصصة لجمع البيانات الإحصائية والسكانية الخاصة بالجماعة اليهودية في إنجلترا .

٢ - الجمعية الإنجليزية اليهودية Anglo Jewish Association . تأسست في عام ١٨٧١ ، وركزت نشاطها في الشئون الخارجية حيث عملت على دعم نشاط الأليانس الإسرائيلي، وشكلت بالتعاون مع مجلس النواب (عام ١٨٧٨) اللجنة الخارجية لرعاية المصالح اليهودية في الخارج التي تم حلها بعد وصول عناصر مؤيدة للصهيونية إلى رئاسة مجلس النواب عام ١٩٤٣ .

وظلت هذه المنظمة معارضة للصهيونية باعتبار أن أعضاء الجماعة اليهودية في بريطانيا مواطنون بريطانيون بالدرجة الأولى يتجه ولاؤهم لدولتهم القومية التي يعيشون فيها . وظل هذا توجهها رغم تبنيها سياسة ودية تجاه إسرائيل بعد تأسيسها .

٣ - المجلس اليهودي لخدمات الرفاه الاجتماعي Jewish Welfare Board . تأسس عام ١٨٥٩ تحت اسم مجلس الأوصياء Board of Guardians . وهو الجهة اليهودية الأساسية العاملة في المجالات الخيرية ومجال الخدمة الاجتماعية .

٤ - جمعية الشباب اليهودي Association of Jewish Youth وهي المنظمة الشبابية الأساسية للجماعة اليهودية في إنجلترا .

٥ - المنظمات الخاصة بجمع التبرعات وتدير الموارد المالية :

- الصندوق القومي اليهودي The Jewish National Fund .

- النداء الإسرائيلي الموحد Joint Israel Appeal .

وتحفظ جماعة أبناء العهد (بناي بريت) بشبكة من المحافل في إنجلترا وأيرلندا .

أما المنظمات الصهيونية ، فهي :

١ - الاتحاد الصهيوني لبريطانيا العظمى وأيرلندا The Zionist Federation of Great Britain and Ireland .

تأسس الاتحاد الصهيوني في ٦ مارس عام ١٨٩٨ في مؤتمر كلاركويل Clerkwell Conference وهو يشارك بشكل مباشر في جميع الأنشطة الصهيونية ، كما لعب دوراً كبيراً في تأسيس دولة إسرائيل . ويقض الاتحاد نحو ٧٠٠ جمعية ومؤسسة مشتركة في عضويته ، كما أنه يمارس أنشطته من خلال مجموعة من اللجان التي تعالج النواحي المختلفة للحياة الصهيونية العليا . وتنسق بين أعمال هذه اللجان جميعاً لجنة تنفيذية قومية ولجنة أخرى تتكون من أعضاء مشرفين يتم اختيارهم من بين كبار اليهود في بريطانيا .

ورئيس الاتحاد الصهيوني هو ج . إدوارد سيف J. Edward

ولا يمكن الحديث عن صوت يهودي في إنجلترا ، فعدد أعضاء الجماعة اليهودية لا يزيد على ٠,٦ ٪ من عدد السكان ، أي أنهم لا يشكلون جماعة ضغط من الناحية العددية أو حتى من الناحية الاقتصادية بحيث يمكنهم التأثير في مسار الانتخابات ، كما أن أصواتهم موزعة بين عدة دوائر . والدائرة الوحيدة التي يُوجد فيها تركّز يهودي نوعاً ما هي دائرة هندون الشمالية التي لم تنتخب مرشحاً يهودياً وإنما انتخبت مارجريت تاتشر . ويبلغ عدد الأعضاء اليهود في البرلمان الإنجليزي (عام ١٩٧٤) ستة وأربعين عضواً وانخفض إلى ثمانية وعشرين عام ١٩٨٣ من أصل ٦٥٠ عضواً . والنواب اليهود يمثلون دوائر انتخابية لا يُلاحظ فيها وجود يهودي غير عادي .

وقد يتوهم البعض أن انخفاض عدد النواب اليهود في البرلمان الإنجليزي سيؤدي حتماً إلى ضعف النفوذ الصهيوني أو اليهودي ، ولكن هذا مناف للحقيقة . فزيادة أو نقصان عدد النواب اليهود لا يؤثر من قريب أو بعيد على سياسة المملكة المتحدة تجاه العالم العربي . وكما قال أحد المعلقين اليهود البريطانيين ، فإن أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا مندمجون في الطبقة الوسطى ويصوتون مثلها ، وبالتالي لا يمكن الحديث عن صوت يهودي . ومن ثم ، فإننا نجد أن أعداداً متزايدة بين يهود إنجلترا تنضم لحزب المحافظين وتؤيد سياسته ، شأنهم في هذا شأن أعضاء الطبقة الوسطى في المجتمع البريطاني . ومن المعروف أن أغلبية يهود إنجلترا الساحقة كانت معادية للصهيونية في بداية القرن ، ومع هذا أصدرت وزارة لويد جورج وعد بلفور في عام ١٩١٧ . بل إن الحكومة البريطانية نصحت أعضاء الجماعة اليهودية بعدم التهييج ضد الصهيونية التي أصبحت مصالحها من مصالح الدولة الإمبراطورية العليا .

وأهم المؤسسات التنظيمية للجماعة اليهودية في إنجلترا هي ما يلي :

١ - مجلس النواب The Board of Deputies واسمه الكامل هو : لجنة لندن للنواب اليهود البريطانيين London Committee of Deputies of British Jews . وهو يمثل الجماعة اليهودية في بريطانيا ، وأصبح منذ عام ١٩٧٥ الجهة الممثلة لليهود إنجلترا لدى المؤتمر اليهودي العالمي . وتأسس هذا المجلس بشكله الحالي في منتصف القرن التاسع عشر ، ويقض ٦٠٠ نائب منتخبين من قبيل المعابد اليهودية وبعض المنظمات التي لها الحق في تعيين النواب .

ويضم المجلس عدة أقسام تتولى رعاية شئون الجماعة اليهودية في إنجلترا، وتشمل : الدفاع، والعلاقات مع إسرائيل، والشئون

- Sieff وهو من الأسرة التي تملك محلات «ماركس آند سبنسر» Marks and Spencer . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك لجنة عليا خاصة هي اللجنة الاقتصادية لإسرائيل ، وتهدف تلك اللجنة إلى تنظيم جمع المعونات المالية لإسرائيل .
- ٢ - المنظمات الصهيونية المحلية : وتتوزع المنظمات الصهيونية المحلية والإقليمية على النحو التالي :
- منظمات اجتماعية يهودية .
  - المنظمات الصهيونية في منطقة لندن .
  - منظمات صهيونية إقليمية أخرى .
- ويُلاحظ المراقب لأنشطة المنظمات الصهيونية في بريطانيا أنها تتركز في مدينة لندن بالأساس ، ويرجع ذلك إلى ضخامة عدد اليهود في المدينة .



٦  
ألمانيا

ألمانيا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة - ألمانيا منذ عصر النهضة - بسمارك

## ألمانيا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة

Germany from the Middle Ages to the Renaissance

يعود استقرار بعض أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا إلى الحملات الرومانية ، وكونت الجماعات اليهودية الأولى جزءاً من المدن الرومانية العسكرية على نهري الراين والدانوب (وورمز وسبير) . وكان أول وأهم هذه المعسكرات معسكر كولونيا (وهي من كلمة لاتينية تعني مستعمرة ، وكلمة «كولونيالية» أي «استعمار» مشتقة من الكلمة نفسها) . ثم استوطن يهود آخرون في ألمانيا أثناء حكم شارلمان والإمبراطورية الكارولنجية . ويُرَد في القرن العاشر الميلادي ذكر تجمعات يهودية في مدن مثل كولون . كما كانت تُوجد تجمعات في أوجسبرج وورمز ومينز .

وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية يُبان حكم الإمبراطورية الكارولنجية تحت حماية الإمبراطور ، يتبعونه ويقدم هولهم الموائيق والحماية والمزايا . وكانت علاقة الكنيسة بهم ، وخصوصاً الأساقفة ، طيبة على وجه العموم . وكان لليهود رئيسهم الديني الديوني الذي كان يُسمى «الأرش سينا جوجوس» أو رئيس المعبد ، كما كان يُطلق عليه «ايسكوبوس جيود وورم» أو «أسقف اليهود» .

وأثناء حملة الفرنجة الأولى قام الأساقفة والملوك بحماية أعضاء الجماعات اليهودية من السخط الشعبي عليهم ، فأصدر هنري الرابع عدة موائيق عام ١٠٩٠ تؤكد الحقوق التي حصلوا عليها في العصر الكارولنجي بشأن حماية ممتلكاتهم وأرواحهم والتي تؤكد أيضاً حرية السفر والعبادة بالنسبة لهم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية مُعْتَمِنين من المكوس والضرائب التي تُفرض على المسافرين ، وكان لهم حق التقاضي فيما بينهم وحق الفصل في الأمور اليهودية المختلفة مثل الزواج والطلاق والتعليم ، أي كانت لهم إدارتهم الذاتية . وسُمح لهم بالاستمرار في تجارة الرقيق وأن يقيموا في أماكن خصصة بهم كما هو الحال مع الغرباء كافة . وعادة ما كانت هذه الأماكن في أحسن موقع بالمدن على الشوارع الرئيسي أو بجوار الكوبري والذي يؤدي إلى المدينة والذي يمثل عصبها التجاري . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يُعدون عنصرأ بالغ الفائدة والنفع للحكام

والأمراء والأساقفة والأباطرة . ويظهر ذلك عام ١٠٨٤ في واحدة من أولى الوثائق التي ضمنت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم ، وهي خطاب الأسقف الأمير حاكم سبير ، الذي دعا اليهود إلى الاستيطان في مدينته كجماعة وظيفية استيطانية ، حتى يمكنه أن يحولها من قرية إلى مدينة وأن يخرجها من الاقتصاد الزراعي ويدخلها الاقتصاد التجاري . وأعطى اليهود الحق في أن يتحصنوا داخل المدينة منعاً لأيه هجمات قد تقع عليهم . وحينما اندلعت الاضطرابات ضد أعضاء الجماعة ، إبان حملة الفرنجة ، أرسلوا إلى هنري الرابع الذي كان في زيارة إلى إيطاليا ، فأصدر أمره إلى الأذواق والأساقفة في ألمانيا بحمايتهم . ومع هذا ، استمرت الاضطرابات ، وذب المتظاهرون أحد عشر يهودياً في سبتمبر ١٠٩٦ ، فتدخل الأسقف واتخذ إجراءات مضادة . ويُقال إن عدد اليهود الذين ذُبحوا في ألمانيا أساساً ، وكذلك في غيرها من بلاد أوروبا إبان هذه الحملة ، بلغ اثني عشر ألف يهودي . وهو عدد مُبالغ فيه . وحينما عاد هنري الرابع من إيطاليا ، سُمح لليهود الذين تصروا عنوة بالعودة إلى دينهم ، وأمر بمعاقة أحد الأساقفة بمن صادوا ممتلكاتهم . كما أصدر قراراً عام ١١٠٣ بأن عقوبة الهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية أو ممتلكاتهم هي الإعدام ، وأن هدنة الرب التي أُعلنت في ذلك الوقت تطبق على اليهود انطباقها على المسيحيين ، وأن اليهود يتمتعون بالحماية نفسها التي يتمتع بها القساوسة .

ولاً يُمرَك عدد يهود ألمانيا في هذه الفترة على وجه الدقة ، ولكن من المعروف أن بعض الجماعات كان يصل عددها إلى ألفين وأنهم تركزوا أساساً على الشاطئ الغربي لنهر الراين في منطقة اللورين ، وفي المراكز التجارية مثل كولونيا ومينز وسبير وورمز ، وفي المراكز الدينية والسياسية المسيحية مثل براغ . وكانوا يعدلون أساساً بالتجارة الدولية ، ولكنهم بدأوا في هذه الفترة بالعمل في الربا أيضاً . وتمكنت السلطات الحاكمة من حماية اليهود إبان حملة الفرنجة الثانية .

وأصبحت حماية أعضاء الجماعة اليهودية جزءاً من القانون العام ، فنعمو بشيء من السلام تحت حماية الإمبراطور ، ومنح فريدريك الأول اليهود ميثاقاً لحماية إحدى الجماعات اليهودية عام



بمقتضى قرارات هنري الرابع . ولم يكن القرار يشير إلى يهود إمارة أو التتبن وإنما كان يشير إلى يهود ألمانيا كافة باعتبارهم أقتان بلاط . وهذا يعني أن اليهود ، وكل ما يملكون ، أصبحوا من الناحية القانونية ملكاً للإمبراطور وغير خاضعين لأية سلطة أخرى داخل المجتمع . ولخص أحد اليهود وضع اليهود كنصير مالي تجاري حر تابع للإمبراطور بقوله : "إن اليهود غير مرتبطين بأي مكان خاص مثل غير اليهود ، وهم فقراء ولكنهم مع هذا لا يباعون كعبيد" . ويظهر مدى نفع اليهود في أنهم ساهموا بما يزيد على ١٢٪ من دخل الخزانة الإمبراطورية كله عام ١٢٣٨ ، و ٢٠٪ من الضرائب التي حصلت في المدن الألمانية ، وذلك رغم قلة أعدادهم ، إذ كانوا لا يزيدون على ١٪ أو أقل من مجموع السكان .

وتغير الوضع بعد القرن الرابع عشر ، فبعد أن كان أعضاء الجماعات اليهودية يعملون أساساً في التجارة ، بدأوا يتوجهون إلى الربا بشكل أكثر وضوحاً . فبعد إصلاح كلوني الذي حرّم على الأديرة ورجال الدين أن يشتروا في أعمال الصيرفة والربا ، اتسع نطاق اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الوظيفة وأصبحوا عنصرأ سهماً كمرابين يتقاضون فائدة تصل أحياناً إلى ٤٣٪ .

ويلاحظ أن الإمبراطور تشارلز الرابع قد نقل عام ١٣٥٦ حقه في حماية اليهود إلى الأمراء المنتخبين (أي الذين لهم حق انتخاب الإمبراطور) وأصدر مرسوماً آخر عام ١٥٤٨ يمنح جميع الأمراء ومدن الراين حق حماية اليهود (أي حق امتلاكهم في واقع الأمر) . وبدأ الأمراء والأساقفة يُعيّنون اليهود للقيام بالأعمال المصرفية . وصاحب ذلك تصاعد الهجمات الشعبية على أعضاء الجماعات اليهودية . وقامت ثورات الفلاحين ضدّهم (١٣٣٥ - ١٣٣٧) في عدة مقاطعات ألمانية . وكانت هذه إرهابات الثورة الكبرى التي اندلعت ضدّهم مع انتشار الطاعون أو الموت الأسود في الفترة من ١٣٤١ إلى ١٣٤٩ ، وهي فترة انتشرت فيها أيضاً توجيه تهمة الدم وتسميم الأبار إليهم . وقامت بعض الجماعات الألمانية بدفع تعويض للإمبراطور نظير السماح لهم بالتخلص من اليهود . وبدأت في تلك المرحلة هجرة يهود ألمانيا إلى بولندا . وشهد القرن الخامس عشر استمراراً للعلاقة الوثيقة (علاقة الملكية) بين الإمبراطور والأمراء من جهة وأعضاء الجماعة اليهودية من جهة أخرى ، بما يتضمنه ذلك من حق الملك في حمايتهم أو استغلالهم . ودافع الملك عن حقه هذا فأصدر مراسيم مختلفة ، كما فعل الإمبراطور تشارلز الخامس (١٥١٩ - ١٥٥٦) الذي زاد الضرائب المفروضة عليهم ، ولكنه في الوقت نفسه سمح لهم بزيادة الفائدة التي يتقاضونها .

١١٥٧ استُخدم فيه مصطلح "أقتان بلاط" لأول مرة (وإن كان المفهوم قد ظهر قبل ذلك التاريخ) . وأدى هذا الوضع إلى ازدياد التصاق أعضاء الجماعة اليهودية بالسلطة الحاكمة . ولكن حمايتهم بشكل كامل لم تكن أمراً ممكناً لأن العداوة ضدّهم كانت مسألة متأصلة ذات طابع جماهيري عام ، فاليهودي هو الممثل المباشر الواضح للسلطة ، كما أن إيهام وضمه جعل منه فريسة سهلة . وهو إلى جانب ذلك يقطن بين الجماهير ويتحرك بينها (على عكس أعضاء الأرستقراطية) . ومن ثم ، كان اليهودي أضعف الحلقات في سلسلة القمع . وقد اشتغل أعضاء الجماعة اليهودية بالربا ، وحدد مرسوم الدوق فريدريك الثاني في النمسا عام ١٢٤٤ الفائدة على القروض بنحو ١٧٣٪ . وكانت القروض تُمنح بضمّان رهونات يستولى عليها المرابي عند فشل المدين في الدفع ، الأمر الذي جعل الجماهير تتهمهم بامتصاص دم الشعب ، ومن هنا جاءت تهمة الدم . ولم يكن حق المرابي يسقط في السلعة المرهونة لديه إن ثبت أنها مسروقة ، شريطة أن يثبت أنه لم يكن يعرف أنها مسروقة ، مع أن هذا مناف للقانون الألماني . ومن ثم ، ارتبط أعضاء الجماعة اليهودية باللصوص والتجارة غير الشرعية .

وظهرت في هذه الفترة بديوات المال الإيطالية والقوى التجارية المحلية التي زاحمت اليهود . فبدأ وضعهم في التدهور ، وخصوصاً أن الكنيسة بدأت هي الأخرى في محاربة "المرض اليهودي" ، أي الربا . وعُقد المجمع اللاتراني الرابع عام ١٢١٥ ، وهو المجلس الذي حرّم الربا وفرض على اليهود ارتداء زي خاص بهم وتعليق الشارة اليهودية .

ومع بداية الحملة الثالثة من حملات الفرنجة ، بدأ التهيج ضد أعضاء الجماعة اليهودية . فبذل فريدريك الأول قصارى جهده لوقف الثورة الشعبية ، وأعلن أن جريمة قتل اليهودي عقوبتها الإعدام ، أما إلحاق الأذى به فعقوبته قطع الذراع .

وأخذ الاحتجاج الشعبي شكل تهمة الدم واتهام اليهود بتسميم الأبار . أما تهمة الدم ، فهي ولا شك تعبير عن إحساس الجماهير بأن اليهود يتصون دم ضحاياهم ، أي ثروتهم . أما تسميم الأبار ، فعُلق عليها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : إن السم اليهودي الحقيقي هو ثروتهم ، وهو ما يبيّن الطابع الشعبي لهذه الاتهامات . ولعبت الكنيسة دوراً مهماً في حماية اليهود ، كما قام الإمبراطور فريدريك الثاني بالتحقيق في إحدى تهمة الدم المنسوبة لأعضاء الجماعة اليهودية ، وأصدر عام ١٢٣٦ حكماً ببراءة المتهمين ، وألحق بحكم البراءة قراراً يجدد الحقوق الممنوحة لليهود

## ألمانيا منذ عصر النهضة

Germany since the Renaissance

بحلول القرن السادس عشر ، كانت السلطة المركزية في ألمانيا قد اختفت تقريباً ، فتم عزل أعضاء الجماعات اليهودية داخل المجتمعات ، وفرضت عليهم قوانين مهينة وطُردوا من كثير من المدن والإمارات الألمانية . ولكن مع هذا ، لم يتم طردهم تماماً من كل ألمانيا . فكان بوسعهم الانتقال إلى إحدى الإمارات التي تحتاج إلى خدمتهم .

وشهدت هذه الفترة بدايات ظهور الرأسمالية التجارية التي سببت شقاء للجمهير لم يدرکوا مصدره . وكان اليهودي هو الرمز الواضح مرة أخرى لهذا الشقاء . كما أن الطبقات التجارية الصاعدة من سكان المدن دخلت في صراع مع الأمراء ورجال الكنيسة . وكان اليهودي هو حلبة الصراع ، فحاول كل طرف الاستفادة من اليهود باعتبارهم عنصراً تجارياً . وكانت العناصر التجارية المحلية ترى في اليهودي غريباً لها ، وخصوصاً أنه كان أداة في يد النبلاء . وظهر مارتن لوتر في تلك المرحلة ، فطرح رؤيته الخاصة بضرورة تنصير اليهود . ومع نهاية القرن السادس عشر ، لم يبق سوى بضع جماعات يهودية في فرانكفورت وورمز وفيينا وبراغ .

وتركت حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) أثرها العميق في يهود ألمانيا ، فبعد انتهائها ، أصبحت ألمانيا مجموعة غير متماسكة من الدويلات المستقلة تحت حكم حكام مطلقين في حاجة إلى السكان والمال ، وهي دويلات (إمارات ودوقيات) ذات توجه مرتكزالي ترى أن مصلحة الدولة هي المصلحة العليا التي تجب القيم والمثل الأخرى كافة . وكان أعضاء الجماعة اليهودية عنصراً أساسياً في عملية إعادة البناء والبعث التجاري ومصدراً أساسياً للضرائب ، كما أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من النظام الاقتصادي الجديد .

وشهد القرن السابع عشر كذلك استقرار يهود المارانو في هامبورج حيث أسسوا بنك هامبورج ، وبدأت هجرة يهود شرق أوروبا من بولندا ، بعد هجمات شميلنكي ، حيث استوطنت أعداد منهم في هامبورج وغيرها من المدن .

وظهرت تجمعات يهودية في داساو ومانهام وليسيزيج ودرسدن . وفي داخل هذا الإطار ، ظهر يهود البلاط الذين ساعدوا الدويلات والإمارات التي كانوا يتبعونها على تنظيم أمورها المالية واستثماراتها ، ورتبوا لها الاعتمادات اللازمة لشاريعها وحروبها ولتمويل مظاهر الترف التي كانت تُشكل عنصراً أساسياً بالنسبة للحكام المطلقين . وكان يهود البلاط في منزلة وزير الخارجية والمالية ورئيس المخابرات . فكانوا يقومون بجمع المعلومات ، كما كانوا أداة

مهمة في يد الحكام المطلقين الألمان لابتزاز جماهيرهم وزيادة ريع الدولة . وكان يهودي البلاط (وهو عادة قائد الجماعة اليهودية) يُعد عنصراً مالياً للدولة مكروهاً من جماهيرها ، وهو ما جعل وضع الجماعة ككل محفوظاً بالمخاطر .

ومع بدايات القرن الثامن عشر ، وظهور جهاز الدولة القوي ، لم تُعد هناك حاجة إلى يهود البلاط ولا إلى الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة . وبدأت محاولات ضبط اليهود وتحديثهم ، فأصدرت الدويلات الألمانية المطلقة ، وروسيا ، نظماً مختلفة للإشراف على اليهود لتنظيم سائر تفاصيل حياتهم ولاستغلالهم . وكانت هذه القوانين تنظم حقوقهم وامتيازاتهم كما تحدد دخولهم ، ومدى أحققتهم في الاستيطان ، ومدى بقائهم ، وعدد الزيجات التي يمكن أن تتم ، وعدد الأطفال المصرح لهم بإنجابهم ، ومسائل الوراثة وطرق إدارة الأعمال ، وسلوكهم ، وضرائبهم ، وحتى السلع التي يحق لهم شرائها . ولعل القوانين التي صدرت في بروسيا هي خير مثل على ذلك ، إذ تم تقسيم أعضاء الجماعة حسب مرسوم فريدريك الثاني (الأكبر) ، الصادر عام ١٧٥٠ ، إلى أقسام حسب وضعهم في المجتمع . وكانت أعلى الطبقات طبقة اليهود المتميزين بشكل عام الذين يتمتعون بكل الحقوق التي يتمتع بها المواطنون ، تليها طبقة المتمتعين بحماية عامة ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بكثير من الحقوق ولكنهم لم يكن من حقهم توريثها إلا لابن الأكبر دون بقية الأولاد ، ثم طبقة اليهود المتمتعين بحماية خاصة ولا يمكنهم توريث حقوقهم لأحد . أما اليهود الذين كانوا يتمتعون بتسامح الدولة ، فكان لا يُسمح لهم بالزواج وكان عليهم ترك بروسيا عند رغبتهم في الزواج .

وبدأت الدويلات الألمانية في تلك المرحلة محاولة دمج وتحديث أعضاء الجماعة اليهودية ، فأصدر فريدريك الأكبر ميثاقاً يضمن لهم حق العبادة . وشجع كثير من الإمارات أعضاء الجماعات اليهودية ، وخصوصاً المارانو ، على الاستيطان فيها لتنشيط التجار . وصاحب ذلك استصدار قوانين تحمي حقوقهم الاقتصادية والسياسية والدينية .

وتأثر وضع يهود ألمانيا بالثورة الفرنسية التي عجلت بعملية إعتاقهم . وبعد سقوط نابليون ، تقهقر وضعهم قليلاً . ولكنهم مُنحوا حقوقهم بإبان القرن التاسع عشر ، وزاد اندماجهم بدرجة كبيرة . وظهرت بعد ذلك حركة التنوير ، واليهودية الإصلاحية ، والاتجاهات اليهودية الأخرى . ومع منتصف القرن ، كان اليهود قد حصلوا على معظم حقوقهم . وفي الفترة من ١٨٧١ إلى ١٩١٤ ،

كانوا قد حصلوا على حقوقهم كاملة واندمجوا في المحيط الثقافي تماماً ، فتصرت نسبة عالية من مثقفيهم ، مثل هاينريش ووالد كارل ماركس وأولاد مندلسون وغيرهم ، واختفت أعداد كبيرة منهم عن طريق الزواج المختلط .

وكان تمام دمج يهود ألمانيا وتحديثهم على غط يهود الغرب ممكناً . فيهود ألمانيا كانوا يعتبرون أنفسهم من يهود الغرب باعتبار أن يهود شرق أوروبا هم يهود الشرق ، كما أن ارتباط يهود أوروبا بالثقافة الألمانية كان أمراً واضحاً . ولكن ثمة ظروفاً خاصة بهم وببنية المجتمع الألماني أدت في نهاية الأمر إلى تصفيتهم وتصفية يهود أوروبا خارج الاتحاد السوفيتي ، وهي الظروف التي أدت إلى الإبادة . وفي عام ١٩٤٨ ، كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا عشرين ألفاً فقط ، بلغ عام ١٩٩٢ نحو ٥٠,٠٠٠ من مجموع عدد السكان البالغ ٦٠٦,٨٠ . ويبدو أن الزيادة ناجمة عن هجرة أعداد كبيرة من اليهود مرة أخرى إلى ألمانيا ، من بينهم أعداد كبيرة من الإسرائيليين الذين تركّزوا في مسنن مشينة مثل التجار بالمخدرات والبغاء .

ونشير هنا إلى بعض التنظيمات والمؤسسات الخاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا :

(أ) المجلس المركزي لليهود في ألمانيا . وهي المنظمة المركزية للجماعة اليهودية في ألمانيا والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي ومقرها دوسلدورف . وتقوم برعاية المصالح السياسية للجماعة ورعاية المسائل الخاصة بالتعويضات ، كما تهتم بمراقبة أي علامات قد تشير إلى احتمال بث النازية .

(ب) النداء اليهودي الموحد . وهي المنظمة الأساسية المشتولة عن جمع التبرعات وتبدير الموارد المالية ومقرها فرانكفورت .

(ج) المجلس المركزي لخدمات الرفاه الاجتماعي لليهود ألمانيا ، ومقرها فرانكفورت . وهي المنظمة الأساسية العاملة في المجالات الخيرية ومجال الخدمة الاجتماعية .

(د) مؤتمر حاخامات ألمانيا الغربية . وهو الإطار الذي يضم الحاخامات الذين يقومون بمهامهم الدينية بين أعضاء الجماعة اليهودية في تجمعاتهم المختلفة .

(وتوفون بيسمارك (١٨١٥-١٨٩٨)

Otto (Von) Bismark

رجل دولة بروسي ، موحد ومؤسس الإمبراطورية الألمانية وأول رئيس وزراء لها . اتسم بيسمارك بدهائه السياسي وبقدراته

كان ينمو نمواً مطرداً من قدرته على إثارة الفقراء وإذكاء سخط المحرومين . وبالإضافة إلى ذلك ، كان بسمارك يعي أنه إذا أراد الإبقاء على بئى نظمه ومؤسساته سليماً ، فإن عليه تخفيف معاناة الطبقات العاملة ، وقد كان ذلك يتفق مع رؤيته الأبوية لدور الدولة .

صاحب توسع ألمانيا الصناعي والتجاري تزايد المطامع الاستعمارية ، وتكوّنت عام ١٨٨٣ الشعبة الاستعمارية في الرايخستاج ، ونجح بسمارك خلال عام واحد فقط في الحصول لألمانيا على مستعمرات في مناطق عديدة من أفريقيا . ولكن ، مع دخول ألمانيا حلبة الاستعمار ، تضاعفت فرص الاحتكاك بينها وبين إنجلترا التي كانت تمتلك العديد من المستعمرات في أنحاء العالم . وقد استغل بسمارك هذه الخلافات مع إنجلترا كقضية محورية لانتخابات عام ١٨٨٤ . وفي هذه الفترة ، بدأت تُطرح حلول للمسألة اليهودية داخل التشكيل الاستعماري ، ومن ثم بدأ الحديث عن فلسطين باعتبارها مجالاً حيوياً لأوروبا يمكن إلقاء اليهود فيه .

أقام بسمارك عام ١٨٧٢ التحالف الإمبراطوري الثلاثي مع روسيا والإمبراطورية النمساوية المجرية . وفي عام ١٨٧٩ ، أبرم معاهدة سرية مع النمسا ، وانضمت إليها إيطاليا عام ١٨٨٢ ، ثم أبرم معاهدة سرية أخرى مع روسيا عام ١٨٨٧ . وكانت هذه التحالفات تهدف إلى منع اندلاع حرب بين روسيا والإمبراطورية النمساوية المجرية حول دول البلقان قد تورط فيها ألمانيا ، كما كانت موجهة أيضاً إلى فرنسا التي اعتبرها بسمارك عدو ألمانيا الأخطر ، نظراً لرغبتها في الانتقام لهزيمتها أمام ألمانيا . واتجه بسمارك سياسة تهدف إلى عزل فرنسا في أوروبا ، واستغل المطامع الاستعمارية الأوربية كأداة للبلو ماسين المعادية لفرنسا ، فشجع فرنسا على استعمار تونس لتحتك بإيطاليا ، وشجع إنجلترا على استعمار مصر كي تدخل في صراع مع فرنسا . ورغم أنه كان ملكياً في ألمانيا ، إلا أنه شجع النظام الجمهوري في فرنسا حيث كان يراه أضعف جميع أشكال الحكم وأسوأها ، وأنه سيخلق فجوة عقائدية بين فرنسا من جهة وبين الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية المجرية من جهة ، الأمر الذي يُضعف احتمالات تحالفهما معها ضد ألمانيا .

وقد أقيمت بسمارك من منصبه عام ١٨٩٠ بعد أن جاء الإمبراطور الشاب وليام الثاني الذي قال : " ليس هناك غير سيد واحد في هذه المملكة هو أنا " . ولا شك في أن بسمارك كان شخصية فذة ، رسّخ ، خلال ثمان وعشرين سنة من إدارته الدولة

مواقفه تجاه اليهود وعلاقاته بالشخصيات اليهودية ارتبطت باعتبارها المصالح السياسية أو الاقتصادية المتبادلة . وربطته صداقة بأحد أفراد أسرة روثشيلد ، كما كانت له علاقة خاصة مع المنكر الاشتراكي الألماني فريدناند لاسال نظراً لموقفهما المشترك المعارض لليبرالية . ولكن أهم علاقات بسمارك المالية كانت مع المموّل الألماني اليهودي جيرسون بليخروود الذي استفاد بخبراته المالية إلى درجة أنه اتهم عام ١٨٧٥ ، بسبب صداقته هذه ، بأنه " جعل اليهود وشركاهم الطبقة الحاكمة في ألمانيا " . وقد حصل أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا على كامل حقوقهم المدنية في ظل رئاسة بسمارك للحكومة . كما أيد بسمارك في مؤتمر برلين (١٨٧٨) القرارات الرامية لحماية حقوق أعضاء الجماعات اليهودية في دول البلقان ، وتم ذلك في إطار اعتبارات العلاقات والمصالح الدولية . كان بسمارك يتساءم عن يهود بولندا (وهو شعور شاركه فيه يهود ألمانيا تجاه يهود شرق أوروبا ذوي الثقافة اليديشية المغايرة) . إلا أن موقفه هذا نبع من استيائه من كل ما هو بولندي . وكان بسمارك مؤمناً بأن الطموحات القومية البولندية تشكل التهديد الأكبر لوجود بروسيا ووحدة ألمانيا ، ولكن ابتداءً من عام ١٨٧٨ قنّد بسمارك تأييد الليبراليين له ومن بينهم أعضاء الجماعة اليهودية بعد أن بدأ في انتهاج سياسة محافظة ، وخصوصاً في مجال التجارة الخارجية ، حيث أقر عام ١٨٧٩ مبدأ الحماية الجمركية على السلع الزراعية والصناعية . وكان تدهور أسعار السلع الزراعية يهدد مكانة الطبقة الأرستقراطية الريفية التي ينتمي إليها بسمارك والتي كان يريد الحفاظ على سيادتها ، كما كان يريد الحفاظ على العمال الزراعيين الذين كانوا يشكّلون المصدر الأساسي لخدمة جنود الجيش الألماني ، وذلك بالإضافة إلى أن الصناعة في ألمانيا كانت قد تطوّرت إلى حدّ كبير ، وبالتالي ، ارتفعت الأصوات المطالبة بالحماية . واستغل بسمارك محاولة اغتيال وليام الأول عام ١٨٧٨ لشن سياسة قمعية ضد الاشتراكيين ، وللتقيام بمحاولة لتدمير الليبراليين الونطين كقوة سياسية . فوضع قانوناً صارماً معادياً للاشتراكيين يضعهم تحت رحمة الشرطة ، كما بدأ في التعاون مع الحزب الديني الكاثوليكي وفي رفع الإجراءات السابقة التي اتّخذت ضد الكاثوليك ، وخصوصاً أن قاعدة هذا الحزب من الفلاحين الألمان كانت معادية لليبرالية ومعادية للتجارة الحرة . وتحول الاشتراكيون في ظل التوجه الجديد إلى العدو المشترك الذي وجّه إليه السخط الشعبي . ولم يعتمد بسمارك على القمع فقط لضرب الحزب الديمقراطي الاشتراكي ، بل كان أول رجل دولة أوروبي يطور نظاماً شاملاً للتأمين الاجتماعي ، وبالتالي حرم الحزب الذي

اعتبارات الحق والأخلاق ، إلا أنه آمن في الوقت نفسه بفن الممكن فلم يسع إلى السيطرة على أوروبا ولكن إلى تحقيق التوازن بين القوى الكبرى واللعب على التناقضات فيما بينها بمهارة فائقة بما يحقق في نهاية الأمر مصالح الإمبراطورية الألمانية .

بنجاح ، قواعد مهمة في السياسة والعلاقات الدولية شكلت ميراث الدول الأوروبية والغربية بصفة عامة . فقد أشعل الحروب ودبر المؤامرات وأقام التحالفات وأبرم المعاهدات وآمن بالقوة باعتبارها أساساً في العلاقات الدولية وآمن بسياسة الخداع والمناورة بعيداً عن



## ٧ النمسا وهولندا وإيطاليا

النمسا - هولندا - إيطاليا

### النمسا

Austria

وفي عام ١٧٦٠ ، أصدرت ماريا تريزا مرسوماً بأن يرتدي اليهود غير الملتحين شارة اليهود ولكنها منعت تعميم الأطفال بالقوة . ويبدو أن محاولة إصلاح اليهود بدأت في عهدها ، فأصدرت أمراً بتيسير عملهم كصباغين وجواهرجية وياثعي ملابس يصنعونها بأنفسهم ، وإن كان من الواضح أن هذه هي بعض الحرف التي عملوا فيها نظراً لارتباطها بالوظائف التي تضطلع بها الجماعة الوظيفية الوسيطة .

وبدأت المحاولات الجادة لدمج اليهود والقضاء على عزلتهم وخصوصيتهم في عهد جوزيف الثاني الذي أصدر عام ١٧٨٢ براءة التسامح ، وهي من أهم الوثائق في تواريخ الجماعات اليهودية في الغرب والتي تهدف إلى تحويل اليهود إلى عنصر نافع للدولة . وقد مُنح اليهود بالفعل حقوقهم الكاملة عام ١٨٦٧ ، فأُتيح لهم فرص التعليم والحراك الاجتماعي . ثم تصاعد دمج اليهود في المجتمع النمساوي وفي كل أرجاء الإمبراطورية النمساوية المجرية ، فاشترك كبار المومنين اليهود ومن بينهم أسرة روتشيلد في عملية التصنيع ، وانتُخب أعضاء يهود في المجالس النيابية ، وأعيد تنظيم الجماعة اليهودية بحيث أصبح لكل منطقة جماعة يهودية واحدة بغض النظر عن الخلافات الدينية بين أعضائها .

ووصلت أعداد كبيرة من يهود البديشية من المجر وجاليشيا ويكوفينا إلى النمسا ، واستوطنوا فيينا التي تزايد عدد سكانها من اليهود لهذا السبب . وقد كان عدد يهود فيينا عام ١٨٤٦ نحو ٣,٧٣٩ ، زاد إلى ٩,٧٣١ عام ١٨٥٠ وإلى ١٥,٠٠٠ عام ١٨٥٤ . وفي عام ١٩٢٣ ، كان عددهم ٥١٣,٢٠١ . وساعد هذا الوضع على ظهور الصهيونية التوطنية . وكانت فيينا المدينة التي يعمل فيها هرزل مؤسس الصهيونية ، والتي قضى فيها معظم حياته . كما أدى تزايد اليهود إلى تزايد معدلات معاداة اليهود ، فظهرت أحزاب معادية لليهودية مثل الحزب الاجتماعي المسيحي الذي كان زعيمه كارل ليجر . ولكن الحكومة اتخذت موقفاً معادياً لهذه الأحزاب .

وبعد الحرب العالمية الأولى ، كان عدد اليهود ٣٠٠ ألف منهم

يعد استقرار أعضاء الجماعات اليهودية في النمسا إلى أيام الغزو الروماني . ومع العصور الوسطى ، أصبح تاريخ يهود النمسا هو تاريخ يهود فيينا . وتحدّد وضع اليهود بوصفهم أقبان بلاط وجماعة وظيفية وسيطة في تلك الأونة شأنهم في هذا شأن كل الجماعات اليهودية في أوروبا . وقد أصدر الدوق فريدريك الثاني (عام ١٢٤٤) ميثاقاً يمنح اليهود مزايا ويحدد حقوقهم كيهود بلاط ، وأصبح هذا الميثاق نموذجاً للمواثيق المماثلة في المجر وبوهيميا وسيليزيا وبولندا .

ومع صدور فرمان الذهب عام ١٣٥٦ ، وُضِع اليهود تحت حماية الحكام الإمبراطوريين المنتخبين «إليكتورز Electors» ، فأصبح لهم حق فرض الضرائب على أعضاء الجماعات اليهودية وحمايتهم أو طردهم دون تدخل الإمبراطور . وطُرد اليهود جميعاً من النمسا عام ١٤٢١ ، ولكنهم مع هذا لم يختفوا تماماً .

سمح فريدريك الثالث (١٤٤٠ - ١٤٩٣) لليهود بالعودة ، ولذا سُمّي «ملك اليهود» . ولكن ماكسيميليان الأول (١٤٩٣ - ١٥١٩) أصدر أمراً بطردهم ، وخصوصاً أن بعض المقاطعات وعدت بتعويض الإمبراطور عما سيحقّ به من خسائر مالية نتيجة لذلك ، وظل هذا هو النمط العام السائد . يُطرّد أعضاء الجماعات اليهودية من بعض المقاطعات فيدخلون غيرها ، ثم يُسمح لهم بالعودة ، وهكذا .

وفي القرن السابع عشر ، ظهر يهود البلاط ومن أهمهم سامسون فرتايمر وصموئيل أوبنهايمر . وظل وضع الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة قائماً ولكن قلّصاً ، وقد وصفتهم الإمبراطورة ماريا تريزا بأنهم «وياه» وبأنهم «مرابون غشاشون» ، وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة . كما أصدرت عام ١٧٤٤ أمراً بطردهم من بوهيميا حينما انتشرت شائعة بأنهم خانوا النمسا أثناء حربها مع فريدريك الأكبر إمبراطور بروسيا . ولكن السلطات المحلية وجدت أن لليهود نفعاً كبيراً ، فتوسطت لإلغاء قرار الطرد ، وتم ذلك فعلاً عام ١٧٤٨ .

وتضم فيينا المعبد اليهودي الأساسي ، كما توجد حجرات مخصصة للعبادة للجماعة السفاردية والجماعات الأرثوذكسية . كما توجد معابد أخرى في مدن بادن ولنز وسالزبورج . ويتأسس الجماعة اليهودية من الناحية الدينية كبير الحاخامات ، إلا أنه لا يحظى باعتراف الجماعة الأرثوذكسية .

#### هولندا

Holland

كانت هولندا في العصور الوسطى في الغرب جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولذا ، كان وضع أعضاء الجماعة اليهودية فيها يشبه وضعهم في مختلف أرجاء أوروبا ، أي أقتان بلاط وجماعة وظيفية وسيطة . ويبدأ التاريخ الحقيقي للجماعة اليهودية بوصول يهود المارانو (السفارد) مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي . وقد استقرت أغلبية المارانو في أمستردام ، ولم يتم الاعتراف بهم كمواطنين هولنديين في بادئ الأمر . إلا أنهم ، بعد قليل ، أعطوا حقوقهم كافة وتمتعوا بدم هولندا خارج حدودها .

بل إن السلطات الهولندية كانت تفضل اليهود على الكاثوليك ، ولذا سُميت أمستردام «القدس الثانية» . ولحق بالسفارد أعداد من الإشكناز ابتداءً من عام ١٦٢٠ إلى أن فاقوهم عدداً وازن ظلوا في الوضع الأدنى طبقيًا واجتماعيًا وفكريًا . وأصبحت الجماعة اليهودية في أمستردام أكبر جماعة يهودية في غرب أوروبا ، بلغ عددها عشرة آلاف ، وكان ثقلها الاقتصادي يفوق ثقلها العددي . وكان يهود المارانو ، رغم طردهم من شبه جزيرة أيبيريا ، تربطهم علاقة قوية بوطنهم الأم ، وكانوا يجيدون الإسبانية والبرتغالية وبعض اللغات الأوربية الأخرى . ولذا ، كانوا يتاجرون مع إسبانيا والبرتغال ويمثلونهما في كثير من أنحاء أوروبا ، ويشكلون حلقة اتصال مهمة بين شقي أوروبا البروتستانتية والكاثوليكية ، بل كانت شبكة التجارة اليهودية تمتد لتشمل الدولة العثمانية وموانئ البحر الأبيض المتوسط التي كان فيها عنصر سفاردي ماراثي قوي . كما كان يوجد يهود سفاردي في العالم الجديد ، في البرازيل وسورينام وغيرهما ، وكذلك في جزر الهند الغربية وفي أجزاء من أفريقيا ، وهو ما وسع نطاق الشبكة . كما ازدادت الحلقة اتساعاً من خلال يهود الأرندي في بولندا ويهود البلاط في وسط أوروبا . لكل هذا ، لعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً اقتصادياً مهماً قبل بعض الدراسات إلى المبالغة في أهميته . وكان من بين اليهود من يعمل بالربا وتجارة الجملة والتجارة الدولية ، وكذلك تجارة الماس والتبغ والحريز والرياق . وقد أصبحت

٢٠١١ ، ٢٠١٠ في فيينا . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون الأغلبية في عدة قطاعات استهلاكية ، فكانت نسبتهم تتراوح بين ١٠٠٪ / ٦٥٪ من مالكي المصارف والمطاعم وتجارة الخمر والأحذية والفراء والمنسوجات والأخشاب وصناعة الأثاث والصحف وشركات الإعلانات ومحطات الإذاعة وقطاع السينما وصالونات التجميل . وتركزوا كذلك في تجارة البترول والزيوت والقمبعات . وكانت النسبة تصل أحياناً إلى ٩٤٪ (المطاعم) بل إلى ١٠٠٪ (تجارة الخرد) . وتركزوا كذلك في مهن بعينها دون غيرها ، فكانوا يشكلون ٧٠٪ من جملة العلماء و٥١٪ من جراحي الأسنان والأطباء و٢٣٪ من أساتذة الجامعة (منهم ٤٥٪ في كليات الطب) و٦٢٪ من جملة المحامين و٥٥٪ من جملة الصاغة .

كان هذا هو الوضع الاقتصادي الذي تحدث عنه هرتزل حينما وصف اليهود بأنهم طبقة وسطى ومثقفون ، وهو ما يبين جهله الشديد بوضع يهود شرق أوروبا أي يهود اليديشية . وقد بين إحصاء عام ١٩٢٣ أن عدد اليهود في النمسا هو ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، أما إحصاء عام ١٩٣٤ فبيّن أن عددهم هو ٤٨١ ، ١٩١ ، أي ٢٨ ، ٢٪ من جملة السكان ، أي أن عدد اليهود نقص ٢٨ ، ٧٧٧ في نحو عشرة أعوام . ولعل هذا كان بسبب تناقص نسبة المواليد . وكان عدد المواليد في فيينا ٢ ، ٧٣٣ نسمة عام ١٩٢٣ ، هبط إلى ٣ ، ٣٦٢ عام ١٩٢٨ ثم إلى ٩٠٠ عام ١٩٣٣ وإلى ٧٥٧ عام ١٩٣٦ . وفي الوقت نفسه ، زاد معدل الوفيات ، ففي عام ١٩٢٣ كان عدد الوفيات ٥٧١ ، ٢ في فيينا ، زاد إلى ٦٦٩ ، ٢ عام ١٩٢٨ وإلى ٦٨٩ ، ٢ عام ١٩٣٣ وإلى ٧٥١ ، ٢ عام ١٩٣٦ ، أي أن عدد الوفيات زاد عن عدد المواليد بنحو ألفي نسمة عام ١٩٣٦ . وهذه الأرقام قد تفيد في تحديد عدد ضحايا الإبادة الحقيقي .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بلغ عدد يهود النمسا نحو ١٢ ألفاً . وبلغ عددهم في الوقت الحاضر ٣٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم ٧ ، ٨٥٥ ، ٠٠٠ ، وهم مندمجون تماماً في مجتمعهم . ومن أهم يهود النمسا المستشار كرايسكي ، وهو يهودي معاد للصهيونية . ويقوم كثير من يهود الاتحاد السوفيتي بالتوقف في النمسا وتغيير مسارهم ، فينتهون إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل . وتضم النمسا تنظيمات ومؤسسات ينتظم فيها أعضاء الجماعة اليهودية من أهمها : اتحاد الجماعات اليهودية في النمسا . وهي المنظمة المركزية التي تمثل الجماعات اليهودية المختلفة في النمسا ، والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي . كما توجد منظمات صهيونية مختلفة .

كانوا قد استوعبوا التراث الحضاري الهولندي في عصرهم وتمثلوه واستوعبوه واستوعبهم ، وهي ظاهرة عامة بين أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من الحقب التاريخية . وكان يهود هولندا يتحدثون الهولندية إلى جانب لغات أخرى (الإسبانية والبرتغالية بالنسبة للسفارد ، والديشية بالنسبة للإشكناز) . وقام اليهود السفارد بنقل الأعمال الأدبية والفكرية الغربية إلى اللغات واللهجات التي يتحدثون بها . كما شكلوا نخبة تجارية مالية دولية تحفظ مسافة بينها وبين الإشكناز (من شرق أوروبا) . وكان الإشكناز والسفارد لا يتزوجون فيما بينهم . ولم يكن بمقدور الإشكناز الحصول على مقاعد دائمة في المعبد السفاردي ، بل كان معظمهم يعملون خدماً وكانت تُوجد بطبيعة الحال نسبة من الفقراء السفارد .

ويُلاحظ كذلك أن اليهودية ، كنسق ديني وكمؤسسة ، كانت في حالة تراجع وتآكل ، فالقبائل اللورانية كانت قد سيطرت على معظم يهود أوروبا ، وهي صيغة حلولية مادية استوعبها يهود هولندا ، وخصوصاً السفارد (ومن بينهم إسبينوزا) ، فأثرت في رؤيتهم للعالم بشكل عميق . ولكن مع تدهور وضع هولندا الاقتصادي (بظهور القوة الإنجليزية) ، تدهور وضعهم أيضاً . وازداد التدهور مع الأزمة الاقتصادية في الفترة ١٧٧٢ - ١٧٧٣ . وتسببت الحرب مع إنجلترا في دمار شركة الهند الشرقية الهولندية التي كان كثير من اليهود يمتلكون أسهماً فيها . وتزايد الانهيار مع حرب الثلاثين عاماً . وفي نهاية الأمر ، أدت وصول قوات فرنسا الثورية إلى قطع علاقة يهود هولندا مع الشبكة التجارية اليهودية ، وهو ما أدى إلى دمارهم تماماً . وعلى كل ، كانت التجارة الدولية في أوروبا قد بدأت تأخذ شكلاً ضخماً ومركباً تجاوز قدرات الشبكة اليهودية التي لم يكن بمقدورها أن تستوعب حركة البضائع على هذا النطاق الضخم .

وكان يرأس الجماعة اليهودية السفاردية مجلس الماهاماد الذي سيطر على اليهود بيد من حديد ، حيث كانت له صلاحيات مثل تلك التي كانت تتمتع بها محاكم التفتيش بل كان يسلك سلوكها ، وربما تكون خلفية السفارد الإسبانية قد لعبت دوراً في ذلك . ويُلاحظ انتشار القبائل اللورانية في هولندا . ولذا ، حينما ظهر الماشيخ الدجال (شبتاي تسفي) تبعته أعداد كبيرة من السفارد ، وأدى فشل حركته إلى خيبة الأمل وإلى المزيد من التفسخ . ويمكن القول بأن انتشار الفكر القبلي الحولري وثراء يهود أمستردام هو الخلفية الاجتماعية والفكرية لفلسفة إسبينوزا ، وهو أول مفكر غربي في العصر الحديث من أصل يهودي ترك اليهودية ولم يتبن ديناً آخر . ولذا ، فإنه يعد أول يهودي علماني بل أول فيلسوف علماني .

أمستردام مركزاً للتجارة بسبب عدة عناصر من بينها وجود عدد كبير من اليهود السفارد فيها . كما كانوا يشتغلون بالشئون المالية في شركات تأمين ومصارف ، وكسماصرة ويهود بلاط (وحيثما ذهب وليام الثالث ليعتلي عرش إنجلترا ، اقترح نحو مليوني جلد من أحد يهود البلاط السفارد) . وكان بينهم طابعو كتب وأصحاب معامل تكرير سكر . كما كان منهم الأطباء والصيادلة . وبلغ نفوذ أعضاء الجماعة المالي من قوته حد أن سوق الأسهم كانت تغلق يوم السبت . ولذا ، أصبحت المضاربة في الأسهم من أهم نشاطاتهم ، حتى أن أحد اليهود وصف النبي أيوب بأنه أول من تاجر بالأسهم ، فالأسهم تصعد أسعارها وتهبط دائماً دون سبب واضح ، ولذا كان عليه التحلي بالصبر والإدعان لقوانين لا يفهما (وهذا يشبه إلى حد كبير حديث إسبينوزا ، ابن مدينة أمستردام ، عن الضرورة وهم الحرية ، وعن تحقيق الحرية من خلال الإدعان لقوانين الطبيعة الصارمة) .

ولكن الإحصاءات تبين أن قوتهم كانت محدودة فهم لم يمتلكوا سوى ٢٪ من مجموع الثروات التي كان يمتلكها آرياء هولندا آنذاك . ومن أشهر يهود السفارد منسى بن إسرائيل وديفيد دي بنتو أكبر المساهمين في شركة الهند الشرقية الهولندية والذي اشتهر بكتابه عن الاقتصاد والمال التي سماها سومبارت "نشد الأثنياد الخاص بنظام الدين العام والملكية" . وقد أسس سومبارت نظريته عن علاقة اليهود بنشأة الرأسمالية ، بدراسة لدور يهود السفارد (المارانو) في أوروبا على وجه العموم وهولندا على وجه التحديد .

وكان للإشكناز دور اقتصادي أيضاً ، ولكنه مختلف بعض الشيء . فلم تكن لهم علاقات دولية مثل السفارد ، ولم تكن لديهم الخبرات أو رهوس الأموال المطلوبة ، فكانوا تجار عملة ووسطاء . ونشطوا في صناعة الحرير وتجارة التبغ والماس وتجارة القطاعي إذ كانوا يشترون بضائع شركة الهند الشرقية وأصبحوا من أهم مستوردي الماس ، وكان من بينهم طابعو وموزعو الكتب . وتزايدت ثروة الإشكناز واتسع نطاق تجارتهم في العملة والسلع . ولكن السفارد ظلوا ، مع هذا ، يتمتعون بالثروات الكبيرة والمستوى الثقافي الرفيع والكانة الاجتماعية . وكان يهود هولندا من أكثر اليهود حداثة في العالم ، فكان هناك تزايد في الزواج المختلط بالهولنديين . ويُلاحظ أن رؤساء الجماعة اليهودية كانوا يرتدون أزياء الهولنديين نفسها بل ويسمحون لهم برسمهم . وحينما سمح إسبينوزا لمربرانت بأن يرسمه ، لم يكن إسبينوزا يقوم بفعل غير عادي من منظور الجماعة اليهودية . ومن الواضح أن يهود أمستردام



وحينما وصلت جيوش فرنسا الشورية عام ١٧٩٦م وأسست الجمهورية الباتافية ، لم يتغير وضع أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يتمتعون بكل حقوقهم .

وفي أوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن الوضع الاقتصادي في هولندا مستقرًا ، فتدهور حال أعضاء الجماعة . وما يدل على هذا التدهور أن كثيراً من اليهود السفارد (في أمستردام) صمّموا باعتبارهم فقراء . ويمكن افتراض أن الصورة العامة في بقية هولندا لم تكن مختلفة كثيراً لم تكن أسوأ . وكان عدد اليهود في هولندا عام ١٧٨٠ ثلاثين ألفاً ، منهم ثلاثة آلاف سفاردي ، زاد إلى ثلاثة وخمسين ألفاً عام ١٨١٠ ، وكانت الزيادة كلها إسكنازية . ومع عام ١٨٨٩ ، وصل عدد يهود هولندا إلى ثلاثة وثمانين ألفاً ، منهم ٥٠٧٠ من السفارد . وبلغ عددهم ٤٠٩ ، ١٠٦ عام ١٩٠٩ ، منهم ٦٦٢٤ من السفارد . وبلغ عددهم ٦٨٧ ، ١٣٩ عام ١٩٤١ . أما في عام ١٩٤٦ ، أي بعد الحرب ، فبلغ عدد اليهود ثلاثين ألفاً من بينهم ثمانية آلاف من تزوجوا زيجات مختلطة . وانخفض عددهم إلى ٦٢٣ ، ٢٦ عام ١٩٥٤ ، أي خلال ثمانية أعوام . كان يعيش منهم ١٤ ، ٦٨ ، أي أكثر من نصفهم ، في أمستردام . ويُعزى النقص إلى العزوف عن الإنجاب وإلى انخفاض عدد المواليد وارتفاع نسبة الوفيات . كما يُعزى هذا النقص إلى الهجرة ، إذ هاجر خلال هذه الفترة ٤٤٩٢ يهودياً من هولندا (لم يهاجر منهم سوى ١٣٩٩ إلى إسرائيل) . وأدت التعميمات الألمانية إلى تغيير البناء الطبقي ليهود هولندا تماماً ، إذ تحولّ أعضاء الطبقة العاملة منهم إلى أثرياء ، وهذا ما أدى إلى تزايد معدل الاندماج والعلمنة .

ويبلغ عدد اليهود عام ١٩٦٨ اثنين وعشرين ألف يهودي ، أغلبيتهم في أمستردام . أما في عام ١٩٩٢ ، فبلغ عددهم نحو خمسة وعشرين ألفاً من مجموع السكان البالغ ١٥ ، ٢٧٠ ، ٠٠٠ نسمة . وهم يُعتبرون ، بهذا ، أقلية صغيرة لا وزن لها ولا نفوذ في طريقها إلى الانخفاء .

وتوجد في هولندا بعض التنظيمات والمؤسسات التي ينظم فيها أعضاء الجماعة اليهودية من أهمها :

- الجماعة اليهودية الإسكنازية .
- الجماعة اليهودية السفاردية .
- اتحاد الجماعات اليهودية التقدمية .
- منظمة العمل الاجتماعي اليهودي التي تعمل في المجالات الصحية والخادمة الاجتماعية .
- وتتبع كل من الجماعتين (الإسكنازية والسفاردية) الحاخامية

الكبرى . وأغلب المعابد اليهودية موجودة في أمستردام ، منها معابد أرثوذكسية إسكنازية ومعبد سفاردي ومعبد ليبرالي إصلاحية .

### إيطاليا

Italy

يعود تاريخ أعضاء الجماعة اليهودية في إيطاليا إلى الفترة الرومانية القديمة . إذ كانت تُوجد فيها جماعة يهودية منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، قبل أن يقوم تيتوس بهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية . وكان أعضاء هذه الجماعة يتحدثون اليونانية ، ولكنهم اصطبغوا مع بداية العصور الوسطى بالصيغة اللاتينية . ويرد ذكر اليهود في الأدب اللاتيني وفي بعض كتابات المؤرخين الرومان . ولم تتأثر الجماعة اليهودية في روما كثيراً بما حدث في فلسطين ولكنها تأثرت حين قامت الإمبراطورية الرومانية بتبني المسيحية ديناً في القرن الرابع الميلادي ، فتحوّلت إلى جماعة وظيفية وسيطة ، وعُرف وضع أعضائها بأنهم " أفتان بلاط تحت الحماية الملكية " أو تحت حماية الأفراد ، واضطلموا بوظيفة التجار والمرايين في كثير من المدن الإيطالية مثل نابولي . وتدهور وضعهم في القرن العاشر الميلادي بظهور المدن/الدول البحرية الإيطالية (مثل البندقية وجنوة) ، وبيوت المال المسيحية القوية (مثل اللومبارد والكوهارسين) التي كانت تتمتع بدعم السلطات الحاكمة .

ومع هذا ، كانت للجماعة اليهودية في إيطاليا خصائص فريدة تميزها عن بقية الجماعات اليهودية في الغرب . فهناك ، أولاً ، الوجود المستمر وغير المتقطع لليهود في داخل إيطاليا ، كما استوعب أعضاؤها اللغة الإيطالية والحضارة السائدة . ولم يُطرَد يهود إيطاليا كما حدث لليهود إنجلترا أو فرنسا إذ كانوا حينما يُطرَدون من مدينة إيطالية يجدون مدناً أخرى ترحب بهم . ومع هذا كانوا يُطرَدون من المناطق الإيطالية الخاضعة لحكم الأجانب (الفرنسيين والأسبان) ، كما حدث لليهود صقلية التي خضعت لحكم الأسبان . ولم تتسم الحياة اليومية لأعضاء الجماعة بالاضطهاد أو التمييز الذي كان يسم الحياة في العصور الوسطى ، بل كانت العلاقة مع السكان طيبة على وجه العموم . ومن الطريف أن إيطاليا هي مركز البابوية ، ومع هذا لم تتنجح السلطة البابوية في تنفيذ سياساتها تجاه اليهود . بل إن محاكم التفتيش التي تأسست في روما لم يكن تعقبها لليهود داخل إيطاليا محموماً كما كان الحال أحياناً خارجها . ولذا ، اندمج أعضاء الجماعة اليهودية في محيطهم الحضاري الكاثوليكي ، وأصبحت لغة العبادة في المعبد هي الإيطالية المطعمة بكلمات عبرية

الصلوات إلى الإيطالية . بل كانت بعض المعابد تغني القصائد الدينية اليهودية فيها على الحان إيطالية . وتحول عيد النصب إلى الكرنفال الإيطالي ، فكان اليهود يلبسون الأقمعة ويتمتعون بالخرجات المنطرفة التي كان يتمتع بها الإيطاليون في مثل هذه المناسبات ، كما كانوا يعرضون مسرحيات على النمط الإيطالي داخل الجيتو . وانتشرت الحرية الجنسية بينهم ، وزاد عدد الأطفال غير الشرعيين والزيجات المختلطة . وأصبح كثير من نساء اليهود إما عشيقات لأعضاء النخبة الحاكمة المسيحية أو عاهرات . وحتى نبين مدى انتشار الإباحية بين أعضاء الجماعة ، يمكن أن نشير إلى فلورنسا التي كان عدد أعضاء الجماعة فيها لا يزيد على مائة أسرة . ومع هذا كان عدد القضايا التي رفعت ضدهم ثمان وثمانون قضية من بينها أربع وثلاثون قضية لها علاقة بالسلوك الأخلاقي والأداب ، وسبع عشرة قضية لها صلة بالمقامرة . ولابد أن هذه الإحصاءات لا تبين الصورة الحقيقية ، إذ تُوجد ولا شك حالات لم يتم الإبلاغ عنها . ويمكن القول بأن المجتمع اليهودي الصغير في إيطاليا كان انعكاساً كاملاً للمجتمع الكبير ، كما أن الأنماط الاجتماعية والأخلاقية السائدة بين الجماعة اليهودية لم تختلف كثيراً عن تلك السائدة في المجتمع .

ومع عام ١٥٤٥ ، وبداية الإصلاح المضاد الذي قامت به الكنيسة الكاثوليكية ، فُرض على اليهود في روما ملازمة الجيتو (بعد أن كان الجيتو ميزة يتمتعون بها) . ويُطلق على هذه الفترة «فترة الجيتو» . ولكن ، مع هذا ، استمر المؤلفون اليهود في وضع مؤلفاتهم الدينية والدينية بالعبرية والإيطالية . ومن أهم المؤلفين اليهود ليو دي مودينا وسيمون لوتساتو الذي يُعد بعض المؤرخين مؤسس الأدب المكتوب بالعبرية . ولكن يُلاحظ أن هذه المؤلفات ليست لها أهمية كبيرة من منظور غربي أو إنساني عام .

وبما تقدّم ، يمكن القول بأن أعضاء الجماعة اليهودية في إيطاليا كانوا جزءاً من محيطهم الحضاري ، ومن ثم كان موقفهم من اليهودية المخاممة موقفاً تقديماً ، موقف من ينظر إليها من الخارج . كما لم تكن مثل التنوير والإصلاح غريبة عليهم . ولذا ، فحينما ظهرت حركة التنوير في ألمانيا ، لم تترك أثراً عميقاً فيهم لأنها لم تكن تمثل شيئاً جديداً .

انتهت هذه الفترة بإعتاق أعضاء الجماعة أثناء حروب الثورة الفرنسية ابتداءً من عام ١٧٩٦ . وأكثرت حقوق اليهود مع سقوط نابليون ، ولكنها تأكدت مرة أخرى مع تأسيس إيطاليا الموحدة (١٨٠٠ - ١٨٧٠) . وظهرت حركة تنوير يهودية في إيطاليا ، من أقطابها حايم لوتساتو . ومع تزايد إعتاق اليهود ، تزايدت معدلات

منذ عام ١٢٠٠ . ومن ثم تُعتبر أعضاء الجماعة اليهودية في إيطاليا جماعة مستقلة بذاتها ولا تُصنّف ضمن الكتل اليهودية الثلاث الأساسية : الإشتكاز ، والسفارد ، ويهود العالم الإسلامي وضمن ذلك اليهود المستعرة ، وإنما يُنظر إليها باعتبارها كتلة مستقلة .

اجتذبت إيطاليا كثيراً من أعضاء الكتل الكبرى ، فهاجر إليها الإشتكاز ، حيث وصلت حركة الهجرة إلى الذروة عام ١٤٠٠ ، واستقروا في شمالها . وهاجر إليها السفارد بعد عام ١٣٩١ ، ووصلت حركة الهجرة ذروتها عام ١٤٩٢ . كما استقر بعض اليهود المستعرة في صقلية . ولم يندمج هؤلاء على الفور بل احتفظ كل بخصائصه . وقد كانوا يكرهون بعضهم بعضاً كراهية المسيحيين لليهود والأتراك (أي المسلمين) على حد قول ليو دي مودينا ، ولذا كان يُشار إلى اليهود بأنهم «تراي ناسيوني» أي الأمم الثلاث . وبلغت العداوة درجة أن اليهود الأصليين كانوا أحياناً يستعدون السلطات على المهاجرين الجدد ويطلبون طردهم (وهذا نمط تكرر في كل الجماعات اليهودية ، وآخر تعبير عنه هو الحركة الصهيونية التي أسسها يهود الغرب المتمدجون لترحيل يهود اليديشية بعيداً عنهم) . ولكن ، بعد عصر النهضة ، اندمجت الجماعات اليهودية كافة في جماعة واحدة واصطبغوا بالصبغة الإيطالية .

ظهر بين يهود إيطاليا أدباء يكتبون بالإيطالية والعبرية متأثرين تماماً بمحيطهم الحضاري ، من بينهم عمانوئيل هارومي أي «الرومي» (١٢٧٠ - ١٣٣٠) والذي كان يُعرف أيضاً باسم عمانوئيل داجوريو الذي كتب أشعاراً بالإيطالية وتعليقات على التوراة . وبعد عصر النهضة ، ظهر عدد من الكتاب من بينهم يهودا ابرابانيل المعروف باسم ليو هيرايوس أو ليو العبراني ، وكان شاعراً وفيلسوفاً وعالمًا كتب عدة كتب بالإيطالية من أهمها حوار عن الحب وهو كتاب ينتمي إلى كتب الحب (قواعده وطرقه) التي انتشرت إبان عصر النهضة في أوروبا . وقد أحرز كتاب ليو العبراني شعبية غير عادية ، فترجم إلى عدة لغات .

ويتجلى اندماج يهود إيطاليا الكامل في محيطهم الحضاري في انصرافهم عن العقيدة اليهودية وفي تعديلها وإصلاحها بما يتفق مع معايير الحضارة المحيطة بهم . فنجد أن معمار المعبد اليهودي في روما كان يشبه معمار الكاتدرائية ، وكان يزينه تمثال نصفي لموسى وصور للملائكة والخيرانات والأشخاص . وكانت المواظم تُعطى بالإيطالية تقليداً للمواظم المسيحية ومتأثرة بها أكثر من تأثرها بالتلمود . كما كان المحاضرات يشيرون في مواظمهم إلى المؤلفين الكلاسيكيين الوثنيين مثل أرسطو وشيشرون . وترجم كتاب

عدد اليهود حتى وصل إلى ٣١,٠٠٠ عام ١٩٩٢ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧,٨٢٦,٠٠٠ نسمة . ومعظم يهود إيطاليا مركزون في روما وميلانو ، ولا يختلف بناؤهم الوظيفي والمهني عن بقية الجماعات اليهودية في أوروبا . ففي عام ١٩٣١ ، كان ٣,٣٤٪ منهم تجاراً ، ٢,٥٢٪ من عمال الياقات البيضاء ، و ٨,١٠٪ مهنيين . ولا يزال معدل الزواج المختلط بينهم مرتفعاً للغاية ، كما لا تزال معدلات الاندماج والعلمنة آخذة في التزايد . والجماعة اليهودية جماعة مسنة تعيش في المدن ، وكل هذا يعني تزايد الإحجام عن الإنجاب وتناقص الخصوبة ، الأمر الذي يؤدي إلى موت الشعب اليهودي .

والمنظمة التي تنظم أعضاء الجماعة اليهودية في إيطاليا هي اتحاد الجماعة اليهودية الإيطالية . ويرأس الجماعة اليهودية من الناحية الدينية كبير الحاخامات والمجلس الحاخامي . وأغلبية المعابد اليهودية سفاردية ، إلا إنه يوجد عدد قليل من المعابد الأرثوذكسية الإسكتنازية .

اندماجهم في المجتمع . ولم يتأثر هذا الوضع كثيراً بوصول موسوليني والفاشيين إلى السلطة إذ أن موسوليني كان متعاطفاً مع المشروع الصهيوني ، وكان يتصور أن يوسعه تحويل اليهود إلى عنصر مثالي له يوظفه في خدمة مشروعه الاستعماري بل في خدمة الفاشية . وبلغ عدد يهود إيطاليا واحداً وعشرين ألفاً عام ١٦٠٠ ، و ٣١,٤٠٠ عام ١٨٠٠ ، وبلغ سبعة وثلاثين ألفاً عام ١٨٤٠ ، زاد إلى ٤٢,٩٦٣ عام ١٩٠١ ، وبلغ عام ١٩٣١ ستة وأربعين ألفاً . ولكن عددهم أخذ في التناقص بعد ذلك ، ففي الفترة (١٩٣١ - ١٩٣٥) كان عدد اليهود يتناقص بمعدل ٥,٢٨ في الألف ، كما تزايدت معدلات الاندماج والتنصر والزواج المختلط . ويذكر روفائيل باتاي أن عدد يهود إيطاليا انخفض إلى خمسة وثلاثين ألفاً عام ١٩٣٩ ، ثم وصل العدد إلى ٢٩,١١٧ يهودياً إيطالياً . ومع هذا ، انضم إليهم ٢٦,٣٠٠ مهاجر ، وبذلك ارتفع العدد إلى ٥٥,٤١٧ في الأربعينيات . وبلغ العدد عام ١٩٥٦ نحو ٢٧,٧٠٥ ، ووصل إلى خمسة وثلاثين ألفاً عام ١٩٦٧ . وتناقص



## ٨

## بولندا قبل التقسيم (ظهور يهود البديشية)

يهود البديشية أو يهود شرق أوروبا - يهود شرق أوروبا - بولندا حتى القرن السادس عشر - بولندا من القرن السادس عشر حتى انتفاضة القوزاق - النبلاء البولنديون (شلاختا) - بولندا من انتفاضة القوزاق إلى التقسيم - القوزاق - الهايدماك - المعبد/ القلعة

## يهود البديشية أو يهود شرق أوروبا

Yiddish or East European Jews

«يهود البديشية» مصطلح نستخدمة في معظم الأحيان بدلاً من مصطلح «يهود شرق أوروبا». وهذا المصطلح الأخير هو المصطلح الشائع في الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية، وهو مصطلح مطاط غير محدد ولكنه يشير عادةً إلى الجماعات اليهودية الموجودة شرق ألمانيا، (في بولندا وروسيا). ولذا، فهو لا يتفق بالضرورة مع الحدود السياسية المعروفة بمنطقة شرق أوروبا في الوقت الحالي والتي تضم، على سبيل المثال، رومانيا وتشيكوسلوفاكيا. وأصل المصطلح ألماني، ويعبر عن إحساس يهود ألمانيا بأنهم ينتمون إلى الغرب، أي غرب أوروبا، وأنهم يختلفون عن يهود الشرق. وقد انتشر المصطلح مع القرن التاسع عشر وبداية حركة القومية السلافية.

ونحن نفضل استخدام مصطلح «يهود البديشية» الذي استخدمه يهود إنجلترا، من السفارد وغيرهم، للإشارة إلى المهاجرين الجدد من روسيا وبولندا. ويهود البديشية يشكلون أغلبية يهود العالم، وتعود أصولهم إلى القرن الثاني عشر، مع حروب الفرنجة، حين بدأت تهاجر جماعات من اليهود الألمان، مع التجار الألمان، واستوطنت بولندا بدعوة من حكامها لتشجيع حركة التجارة وحملت معها لغتها وثقافتها الألمانية. وقد دخلت على لغتهم الألمانية بعض الكلمات السلافية والعبرية، ثم كتبوها بالحروف العبرية حتى أصبح يُشار إليها باللغة البديشية، وهي في واقع الأمر لهجة ألمانية وحسب. وأصبحت هذه اللهجة، التي يُقال لها لغة، ستمتد الثقافية الأساسية التي حملوها معهم أينما ذهبوا ومن هنا كانت التسمية. ويذهب آرثر كوستلر إلى أن أصل يهود البديشية ما يسميه هو «الدياسبورا الخزرية»، أي تشتت أو انتشار يهود الخزر واستقرار أعداد منهم في شرق أوروبا.

ويتقسم يهود البديشية إلى تقسيمات فرعية مثل يهود البولك والليشفك والجاليسيانر، وهي كلمات بديشية تعني «البولندي

والليتواني والجاليشي». (كانت جاليشيا وليتوانيا أجزاء من بولندا). وثمة اختلافات دقيقة بين الأنواع الثلاثة لها دلالاتها، ولكن هناك وحدة أساسية وخصوصية يستمدتها أعضاء الجماعة اليهودية من وجودهم داخل التشكيل السياسي الحضاري البولندي بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف المال والتجارة ويهجن وحرف معيّن. والجماعات الوظيفية عادةً ما تحفظ بعزلتها ويسماها الإثنية (التي أحضرتها معها من وطنها الأصلي، وهو ألمانيا) حتى يتسنى لها الاضطلاع بوظيفتها في المجتمع التقليدي التي وفدت إليه. وكان يهود شرق أوروبا يتحدثون البديشية في وسط يتحدث إما البولندية وإما الأوكرانية، ويرتدون أزياء مميزة، ويؤمنون باليهودية في وسط يؤمن بالمسيحية. وقد عاشوا في مدن صغيرة تُسمى «شتتل» وفرت لهم تربة يهودية بديشية معزولة نسبياً عن عالم الأعيان. ولكن عقيدتهم اليهودية نفسها، بدأت تدخلها عناصر صوفية بتأثير القبّالاه وتأثير المسيحية الأرثوذكسية الشعبية والهرطقات الدينية المختلفة التي وجدوها بين الفلاحين السلاف.

وما يجدر ذكره أن المستوى المعيشي ليهود البديشية حتى بداية القرن الثامن عشر، كان مرتفعاً قيساً إلى عامة الشعب من الفلاحين والأقنان، بل إلى أعضاء الطبقات الوسطى الهزيلة في بولندا. وكان لا يفوقهم في مستواهم المعيشي سوى النبلاء البولنديين (شلاختا). بل إن النخبة الثرية بين اليهود كانت تعيش في مستوى اقتصادي يفوق صغار النبلاء. ولكن بعد ذلك التاريخ، ونتيجة تحولات عديدة، أخذ مستواهم الاقتصادي ينحدر.

وتعرض تأساك يهود البديشية لعدة هجمات وضربات من الخارج كانت أولها هجمات شميلنكي عام ١٦٤٨، التي بدأت تُخلخل وضع الجماعة اليهودية، ثم كانت الضربة الثانية تقسيم بولندا (الأول والثاني والثالث) في الفترة ١٧٧٢ - ١٧٩٥ والذي انتهى باختفاء بولندا عام ١٧٩٥ بوصفها وحدة سياسية مستقلة، وتقسيمها بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية النمساوية وألمانيا

(بروسيا) . وكانت الأراضي التي ضمتها روسيا تضم أكبر عدد من يهود البديشية .

وكانت البلاد الثلاثة التي اقتسمت بولندا فيما بينها بلاداً زراعية مختلفة . ومع هذا ، بدأت تظهر فيها ، بتشجيع من الملكيات المطلقة ، اتجاهات نحو التصنيع . ورغم ضعف النظام الإقطاعي ، فإن الأرستقراطية الزراعية ظلت ممسكة بزمام السلطة . وشهدت هذه الفترة حركة تحرير الأفنان في روسيا ، الأمر الذي أدى إلى خلل في الأوضاع الاجتماعية ، وخصوصاً أن الرقعة الصالحة للزراعة لم تكن واسعة ، وهو ما أدى إلى زيادة الصراعات الاجتماعية وإلى ظهور توترات بين النبلاء والفلاحين . وقد ازداد بؤس الفلاحين وازداد تعاطيهم للخمور . ومع تركيز أعضاء الجماعة اليهودية في صناعة الخمور ، وجدوا أنفسهم في مركز الأزمة الاجتماعية ، وأشارت أصابع الاتهام إليهم باعتبارهم مسئولين عن بؤس الفلاحين . وقد كانت حكومات البلاد الثلاثة ، التي اقتسمت بولندا وسكانها اليهود فيما بينها ، يحكمها حكام مطلقون مستبزيون (فريدريك الثاني في بروسيا ، وجوزيف الثاني في النمسا ، وكاترين الثانية في روسيا) ، فتبنت هذه الحكومات مقياس مدى نفع اليهود وإمكانية إصلاحهم وتقليل عزلتهم . فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين . وكان الهدف هو إصلاح اليهود ، وزيادة عدد النافعين بينهم ، وطردهم الضارين منهم أو منع زيادة عددهم . وارتبطت هذه العملية بعملية إعتاق اليهود ، فلم يكن يُعتَق منهم سوى النافعين .

ومن السمات المشتركة الأخرى لهذه البلاد ظهور القوميات العضوية فيها جميعاً التي تدور حول مفهوم الشعب العضوي (فولك) ، وهي قوميات تنبذ الأقليات ولا تفتح أمامها فرصة الاندماج ، كما حدث في إنجلترا وفرنسا وغرب أوروبا بشكل عام . فالقوميات العضوية تنكر إمكانية تحول الإنسان واندماجه إذ أن الشخصية والهوية ، حسب تصورها ، ليست مكتسبة وإنما موروثية ، وتكاد تكون بيولوجية .

وتتميز الدول الثلاث بأن الدولة المركزية فيها كانت مطلقة ومستتيرة على عكس البيروقراطيات التابعة لها ، التي كانت مختلفة وغير مستتيرة بالمرّة ومليشية بالأحقاد ضد الأقليات ، وخصوصاً في ظروف التحول الاجتماعي . ولذا ، فحينما حاولت الدولة إصلاح اليهود بإصدار قرارات كانت البيروقراطية تعوق تنفيذ هذه القرارات . ولقد تلقى يهود البديشية هذه الضربات من الخارج ، في مرحلة كانت اليهودية تمر فيها بأخطر أزماتها الداخلية ابتداءً من القرن الثامن عشر . فقد رجّت المناظرة الشبتانية الكبرى أرجاء العالم

اليهودي ، وظهرت الحركة الفرانكية والحسيدية التي تحدت سلطة مؤسسات اليهودية الهاخامية . ونشب صراع حاد بين الحسيدين والمتنجديم ، كما كانت التوترات الاجتماعية على أشدها داخل الجماعة .

ومما أدى إلى تفاقم الأوضاع السيئة ، الانفجار السكاني الذي حدث بين يهود العالم الغربي ، وخصوصاً يهود البديشية ، إذ زاد عدد يهود العالم ، في الفترة ١٨٥٠ - ١٩٣٥ ستة أضعاف . وحيث لم يكن يهود الغرب يتزايدون ، بل كانوا يأخذون في التناقص ، فإن نسبة الزيادة بين يهود البديشية كانت في واقع الأمر أكثر من ستة أضعاف .

ولكل ما تقدّم ، بدأت وحدة يهود البديشية وخصوصيتهم في التناحي ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر . واستغرقت هذه العملية مرحلة زمنية طويلة (امتدت حتى منتصف القرن العشرين) وانتهت باختفاء اللغة والثقافة البديشية ودمج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم حضارياً واقتصادياً وتحوّلهم من جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الروسي والبولندي إلى أعضاء في الطبقات الوسطى وغيرها من الطبقات في المجتمعات التي يتسمون إليها ، وهذه المرحلة الزمنية هي في واقع الأمر مرحلة المسألة اليهودية التي كانت مسألة يهود شرق أوروبا بالدرجة الأولى .

هاجرت أعداد كبيرة من يهود البديشية ، وخصوصاً في الفترة ١٨٨١ - ١٩١٤ ، فبلغت نحو ٢,٧٥٠,٠٠٠ ؛ ذهب منهم ٣٥٠ ألفاً إلى أوروبا ، وخصوصاً ألمانيا وفرنسا ، و ٢٠٠ ألف إلى إنجلترا ، و ١١٥ ألفاً إلى الأرجنتين ، و ١٠٠ ألف إلى كندا و ٤٠ ألفاً إلى جنوب أفريقيا ، ومليونان (أي حوالي ٨٥٪) إلى الولايات المتحدة . وهم بذلك يتكوّنون الأغلبية الساحقة من يهود تلك البلاد التي كانت تضم جماعات يهودية صغيرة جداً قبل وفود يهود البديشية . وأدّى وفودهم إلى زيادة معدلات معاداة اليهود نظراً لاختلافهم وتميزهم الوظيفي والإثني .

ومن هنا كان رد الفعل العنصري في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ، الأمر الذي أدى إلى طرح الفكرة الصهيونية في إنجلترا في بداية الأمر ، ثم بقية دول غرب أوروبا ومنها إلى وسطها فشرقها . قام هرتزل بزيارته الأولى إلى إنجلترا لمناقشة موضوع يهود البديشية وكيفية التخلص منهم أو حل مسألتهم ، وفي هذا المناخ وكّد وعد بلفور . أما في الولايات المتحدة التي هاجر إليها الملايين ، فكانت تُوجَد أمام المهاجرين من يهود البديشية مجالات للعمل ، ولذلك لم تحدث توترات اجتماعية . وقد تزايد عددهم حتى أصبحوا العنصر

وظهر حزب البولند ليغبر عن هذا الوضع الطبقي وشبه القومي التميز . وحينما أسس الاتحاد السوفيتي منطقتي بيروبيجان ، فإنه كان يتحرك في إطار القومية الصهيونية ، ولم تنجح التجربة بسبب اختفاء الديشية وثقافتها ، واختفاء أية معالم للخصوصية الديشية .

أما فيما يتصل بالصهيونية ، فقد تولت العناصر الديشية قيادتها ابتداءً من المؤتمر الحادي عشر عام ١٩١٣ . وظل هذا العنصر هو المهيمن حتى إعلان الدولة الصهيونية ، وتكون منه عصب النخبة الحاكمة فيها . كما أنه يشكل ما يُسمى «الحرس القديم» ، ومن صلبه جاء جيل الصابرا . ويبلغ تعداد يهود شرق أوروبا في الوقت الحالي (ما عدا كومنولث الدول المستقلة ، أي الاتحاد السوفيتي سابقاً) ٨٨٠,٦٠٠ . ولأول مرة في التاريخ الحديث يزيد عدد يهود غرب أوروبا (دعاة الصهيونية الوطنية) عن يهود شرقها (المادة البشرية الاستيطانية) فهود غرب أوروبا يبلغ عددهم ١,٠٣٦,٣٠٠ ، أما يهود شرق أوروبا (وضمن ذلك كومنولث الدول المستقلة) فهو ٤٠٠,٨٦٨ .

### يهود شرق أوروبا

East European Jews

انظر : «يهود الديشية» .

### بولندا حتى القرن السادس عشر

Poland, to the Sixteenth Century

كانت حدود بولندا عبر تاريخها غير مستقرة لعدة أسباب من بينها موقعها الجغرافي بين القبائل الألمانية والقبائل الليتوانية والسلاف . ثم إنها واقعة على الحدود بين ثلاث دول عظمى (ألمانيا والنمسا وروسيا) ، بل على حدود الدولة العثمانية في نهاية القرن السابع عشر . كما أن غياب أية عوايق طبيعية تحيط بها ، وكونها أساساً أرضاً مستوية يجعلها عرضة للغزوات المستمرة . ولم يكن العنصر السكاني في بولندا متجانساً ، فالعناصر غير البولندية كانت تشكل نسبة مئوية كبيرة تصل أحياناً إلى أكثر من الثلث . وبولندا ، بذلك ، فريدة بين دول العالم الغربي التي تتسم بتجانسها السكاني الشديد . ويُلاحظ أن تاريخ بولندا السياسي العاصف وكذلك موقعها كمعبر وساحة للصراع بين القوى يجعلها تشبه فلسطين قبل الفتح الإسلامي من بعض الوجوه . ولا يمكن دراسة تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا إلا بأخذ كل هذه العناصر في الاعتبار .

وإذا كانت حدود بولندا غير مستقرة ، فإن مصطلح يهود بولندا

الغالب بين أعضاء الجماعة اليهودية هناك . وكان يهود الديشية العنصر اليهودي الغالب في الإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا . وغني عن القول أن يهود الديشية كانوا هم أيضاً العنصر الغالب في الاتحاد السوفيتي حيث كانت تُوجد جماعات يهودية أخرى مثل يهود جورجيا ويهود الجبال .

اختفت الديشية تقريباً مع نهاية الثلاثينيات من هذا القرن ، واختفى يهود الديشية واختفت المسألة اليهودية معهم . أما أبناؤهم وأحفادهم فتم دمجهم في مجتمعاتهم . ومن هنا يُشار الآن إلى المهاجرين اليهود السوفييت إلى إسرائيل والولايات المتحدة بأنهم «الروس» لأن معظمهم يتحدث الروسية ، كما أنهم روس من الناحية الثقافية .

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر أن جميع الحركات الإصلاحية في العقيدة اليهودية ، أو بين أعضاء الجماعات اليهودية ، كان مصدرها دائماً وسط أوروبا داخل صفوف اليهود الذين يتحدثون الألمانية في ألمانيا والنمسا . فحركة التنوير كان زعيمها مندلسون الألماني . وظهرت اليهودية الإصلاحية وكذا علم اليهودية في ألمانيا ، كما أن الصهيونية نفسها ، في أطروحاتها الأولى التي طرحها كل من موسى هس وماكس نوردي وتيودور هرزل حمل لواءها ألمان . وكانت اللغة الرسمية للمؤتمرات الصهيونية هي الألمانية . ونظراً لأن الكثافة البشرية اليهودية كانت مركزة في شرق أوروبا ، فإن هذه الأفكار والحركات الفكرية كانت تظل مجرد أطروحات فكرية إلى أن تصل ليهود الديشية الذين كانوا يحولونها إلى حركات سياسية وثقافية حقيقية . ويظهر هذا في تاريخ كل من حركتي التنوير والصهيونية . فالقيادات والزعامات كانت في البداية من أصل ألماني ، لكن المفكرين والزعماء من يهود الديشية بدأوا يستولون عليهما بالتدريج ، وظهرت حركة تنوير يديشية وأدب يديشي وقومية يديشية (إن صح التعبير) دعا إليها دبنوف منطلقاً من مفهوم اصطلاح «قومية الدياسبورا» . وفكرة القومية اليديشية تصدُر عن تجربة يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر ، حين أصبح لهم ما يشبه الهوية القومية المستقلة التي استمدوها من وجودهم في وضع معين داخل الحضارتين الروسية والبولندية إبان مرحلة الانتقال من وضعهم المتميز كجماعة وسيطة إلى أن تم دمجهم وصهرهم ، وهي مرحلة اتسمت بتعمر عملية التحديث في شرق أوروبا . وهي تجربة تكاد تكون فريدة في تواريخ الجماعات اليهودية ، ويتصل فقردها في وجود كتلة بشرية يهودية بهذه الضخامة داخل رقعة أرض متصلة (منطقة الاستيطان) تتحدث لغة مختلفة عن لغة البلد الذي تعيش فيه .

نفسه غير واضح ، فهو مصطلح فضفاض للغاية له معنيان أساسيان :  
١ - المعنى الضيق : اليهود الذين يقطنون بولندا الكبرى (بوزنان) والصغرى (كراكوف) ، وهي الأجزاء الأساسية في بولندا .

٢ - المعنى الواسع : اليهود الذين كانوا يعيشون في المنطقة الشاسعة التي كانت تضمها ملكة بولندا وليتوانيا المتحدة .

وبالتالي ، فإن هذا المعنى الأخير يشير إلى اليهود الذين وقعوا تحت الحكم البروسي والروسي والنموسي بعد تقسيم بولندا ، وهذا هو التعريف الذي سنأخذ به . وهو ، بهذا المعنى ، مرادف تقريباً لمصطلح «يهود اليديشية» .

ولم يكن يهود بولندا عنصراً واحداً متجانساً بل كان يُشار إلى أقسام ثلاثة أساسية منهم باليديشية «البولاك» ، وهم : يهود بولندا ، و«الليتشاك» وهم يهود ليتوانيا الذين كانت معظم القيادات الصهيونية منهم ، و«الجاليسيان» . وهم يهود جاليسيا .

ويعود تاريخ بولندا إلى القرن العاشر حين قامت أسرة بياست بتوحيدها . ويُعدّ عام ٩٦٦ عام تأسيس بولندا إذ اعتنق مايكسو الأول (٩٦٣ - ٩٩٢) فيه المسيحية . وخضعت بولندا لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية في روما عام ٩٩٠ حتى لا تخضع للكنيسة الألمانية .

وأدّى الغزو التنري لبولندا في ١٢٤١ - ١٢٤٢ إلى تدميرها تماماً ، كما قام الليتوانيون الوثنيون بالغارات عليها . وفقدت بولندا كثيراً من أراضيها ، ولكنها استعادت وحدتها ، مع بداية القرن الثالث عشر ، وبدأت حركة إعادة بناء الاقتصاد وتشبيد المدن .

ففي حكم كاسيمير الثالث - الأعظم (١٣٣٣ - ١٣٧٠) ، تم بناء سبع وأربعين مدينة جديدة . وأقيمت في المدن مبان حجرية على النمط القوطي ، كما شيدت قلاع حجرية للدفاع عن المدن . ولذا ، يشار

إلى كاسيمير في التاريخ البولندي بأنه «وجد بولندا خشباً وتركها حجراً» . وقد عُيّن كاسيمير حاكماً ملكياً لكل مقاطعة يُسمّى باللاتينية «ستاروستا كاپيتانوس Starosta Capitanus» ، ويُسمّى

بالبولندية «فويفود» ، وظل هذا أهم المناصب الإدارية مدة ٤٧٠ عاماً . وجمع كاسيمير القوانين وضمنها في القانون البولندي (إيوس

بولونيكوم Ius Polonicum) والقانون التيوتوني (إيوس تيوتونيكوم Ius Teutonicum) . وكان الأول يطبق على النبلاء والثاني على

سكان المدن . ووسع كاسيمير أطراف مملكته ، وأصبحت إمبراطورية تعددية تضم بولنديين كاثوليك وألمان وروثينيان

(سكان أوكرانيا ، أو روثينيا ، الأصليون) ، كما ضمت الأرثوذكس والغلمنك واليهود والأرمن والشر المسلمين واليهود

القرن الثامن من كانوا من أصل خزري ويحدثون التركية ، أي أن

السكان كانوا يتبعون عدداً كبيراً من الديانات وكانوا يتحدثون

الثنى عشرة لغة . وتأسست أسرة ياجيلون (١٣٨٦ - ١٥٧٢) حينما

تُوِّجت يادفيجا «ملكا» لبولندا عام ١٣٨٤ ، وتزوجت من دوق ليتوانيا

الوثني الذي اعتنق المسيحية بعد موتها . وقد ظلت الوحدة أساساً

وحدة بين أسرتين مالكتين ولكنها مع ذلك أدت إلى تحويل بولندا إلى

دولة كبيرة بلغت أربعة أضعاف حجمها الأصلي . وتعدّ إمبراطورية

ياجيلون أكثر تعددية من سابقتها إذ ضمت عناصر سكانية جديدة .

وأدّى الاتحاد إلى حماية بولندا من هجمات التتار ، ولكنه كان يعنى

أيضاً الاشتباك مع فرسان التيوتون الذين كانوا يهددون ليتوانيا . وقد

ضمت بولندا روسيا الحمراء (جاليسيا) وبودوليا ، وأكدت سيادتها

على دوقية مولدافيا ، وامتدت حدودها من بحر البلطيق إلى البحر

الأحمر ، أو «من البحر إلى البحر» . ومع سقوط القسطنطينية في يد

القوات العثمانية عام ١٤٥٣ ، أصبحت بولندا معبراً أساسياً للتجارة

بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، وخصوصاً أنها كانت تضم

كثيراً من الأنهار التي تربط بين أراضيها وموانئها على البلطيق وتسهل

انتقال السلع . وبذلك سيطرت بولندا على تجارة أوروبا الدولية .

عاش اليهود في بولندا منذ القرن التاسع . لكن مصدرهم غير

معروف على وجه الدقة ، هل جاءوا من ألمانيا وبوهيميا أم من

الإمبراطورية البيزنطية وكيف ؟ والأرجح أن بعض يهود الخزر

انضموا إليهم ، بل ويذهب آرثر كوستلر إلى أن معظم يهود بولندا ،

في واقع الأمر ، من أصل خزري . وكان المستوطنون الأوائل من

التجار . وتدل النقوش العبرية التي ظهرت على بعض العملات على

مدى أهميتهم في عالم المال .

ويبدأ الوجود اليهودي الحقيقي في بولندا بعد الغزو التنري

الذي أفرغ بعض المناطق من سكانها . وفي محاولتهم إعادة تعمير

بلدهم قام ملوك بولندا ، بتشجيع تجار ألمانيا على الهجرة لتأسيس

مدن تتبع قانون ماجدبرج الألماني (الأمر الذي كان يعنى استقلالها

النسبي) وأصدرت لهم الموائق حسب هذا القانون . وكان من بين

المهاجرين الألمان تجار يهود هاجروا ومعهم لغتهم الألمانية (التي

أصبحت اليديشية فيما بعد) والتلمود والطقوس الإشتناكية في

العبادة . ومما شجع اليهود على الهجرة إلى بولندا ، تدنّي وضعهم

في أوروبا الغربية إبان حروب الفرنجة ، وفقدانهم وظيفتهم كتجار ،

وتحوّلهم إلى مرابين وتجار صغار . كما أن بولندا كانت البلد الوحيد

تقريباً في أوروبا الذي لا يتوقف فيه حق المواطنة على الانتماء إلى

الكنيسة ، كما كان الحال في بقية أوروبا . وقد أصدر بوليسلاف الثاني

اليهود جزارون وخياطون . وقد بلغ ازدهار اليهود في بولندا درجة أن أحد الماخامات فسّر اسمها (من قبيل اللعب بالألغاز) فقال : إن بولندا بالعبرية هي «بوه لين» ، أي «هنا مستريح» .

أدى استقلال أعضاء الجماعة اليهودية ، وتمتعهم بحماية التاج ، وتنظيمهم كجماعة تجارية ، إلى تحوّلهم إلى طبقة ثالثة لها نشاطها وحيويتها وجودها الملحوظ في كل المجالات التجارية والمالية . ووجد التجار البولنديون أن من الصعب التنافس مع التجار من أعضاء الجماعة اليهودية ، وخصوصاً أنهم كثيراً ما كانوا يجلبون ثغرات في القانون يتسللون منها ، كما كانت لهم شبكة اتصالات بتجار آخرين خارج بولندا ، الأمر الذي ييسّر لهم عملية التصدير والاستيراد . كما كان التجار اليهود يتسمون بالجرأة التي تقترب من الوقاحة في عملية التسويق ، فكانوا لا يتورعون عن الذهاب إلى منازل الزبائن ، وكان هذا يُعدّ أمراً مشيناً حينذاك لا يليق بتاجر يحترم نفسه . كما كانوا يحتكرون بعض المواد الخام التي يحتاج إليها الحرفيون ، ويستوردون من الخارج سلعاً أرخص من السلع المنتجة محلياً . وأدى هذا الوضع إلى ظهور التوترات بينهم وبين معظم الطبقات الأخرى في المجتمع . فحاول التجار الألمان والبولنديون الحد من نطاق التجارة اليهودية ، كما أن البلديات كانت تقف ضد توسيع حدود الجيتسو ، كما حدثت من عدد البيوت التي يمكنهم تملكها . كما أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تطالب بمزلهم عن المجتمع المسيحي . وانعكس ذلك الصراع في شكل توجيه اتهامات الدم وتدنيس مخبز القربان إلى اليهود . وفي عام ١٤٥٤ ، تعرّض التجار في بعض المدن لبعض الهجمات ، وخصوصاً في الأماكن التي كانوا يمثلون فيها منافسة اقتصادية للتجار المحليين ، ثم طُردوا من وارسو عام ١٤٨٣ ومن كراكوف بعد ذلك بفترة وجيزة .

ويلاحظ أن هذه الفترة شهدت ظهور طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) التي قدّرت لها السيطرة في مراحل لاحقة على الحياة السياسية في بولندا وارتبط بها أعضاء الجماعة اليهودية ارتباطاً كاملاً . ولكن السلطة المركزية الملكية انحدرت في هذه المرحلة في تأكيد نفسها والسيطرة على بولندا والمجتمع البولندي . ولأن اليهود ، كجماعة وظيفية بسيطة ، يرتبطون دائماً بالطبقة الحاكمة ، فإننا نجد أنهم كانوا تابعين للتاج في هذه الفترة وأن علاقتهم بالنبلاء كانت أحياناً كثيرة تتسم بالعداء .

ميشاق عام ١٢٦٤ يعرف باسم «ميشاق كالكيسكي» لتنظيم الأحوال القانونية لأعضاء الجماعة اليهودية وتحديد إطار التعامل الاقتصادي والثقافي بينهم وبين المسيحيين ، وكذلك حمايتهم وحماية أملاكهم . وكان هذا الميثاق نفسه ميشاقاً مهاجرراً مثل الجماعة اليهودية ، إذ كان على مخط ميشاق فريدريك الثاني دوق النمسا والمواثيق المماثلة التي منحت لأعضاء الجماعة في وسط أوروبا في بوهيميا والمجر . وضمن لهم الميثاق حرية الإقامة في أي مكان والحرية الدينية وحرية الاتجار وحرية التقاضي ، كما حرّم اتهام اليهود بتهمه الدم دون سند قوي . ثم قام كاسمير الثالث بتوسيع نطاق هذا الميثاق عام ١٣٣٤ بحيث أصبح يتمتع به يهود روسيا البيضاء وبولندا الصغرى ثم يهود ليتوانيا (١٣٨٨) وسائر يهود المملكة . وأعفى اليهود من الخدمة العسكرية ، ولم يكن عليهم تزويد الجنود بالوقود في زمن الحرب ، ولكن كان يتعين عليهم دفع ضريبة إضافية نظير ذلك ، وهو الوضع الذي استمر حتى تقسيم بولندا . وفي حالة التقاضي ، لم يكن للبلديات أو الكنيسة سلطة قضائية عليهم ، إذ كانوا خاضعين للملك مباشرة من خلال وكيله أي الحاكم الملكي (فوفيفود) . وكان الحاكم الملكي يظلم نفسه بوظيفة قاضي اليهود ، أو يُعين أحد النبلاء للقيام بهذه المهمة . وكل هذه القوانين تفترض أن اليهود جماعة متماسكة ، وطبقة اجتماعية منفصلة عن كل الطبقات الأخرى تتمتع بوضعية التاج مباشرة وتقوم أساساً بالعمليات المالية ، وخصوصاً جمع الضرائب والإقراض . ومعنى هذا أن أعضاء الجماعة اليهودية أصبحوا أقتاناً للبلط الملكي برغم أن هذا المصطلح نفسه لم يكن مستخدماً .

ولعب أعضاء الجماعة اليهودية نتيجة لذلك دوراً مهماً في اقتصاد بولندا . وتوجد إشارات إلى أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة وأنهم امتلكوا الضياع وأداروها . ولكن دورهم الأساسي كان في تطوير الاقتصاد النقدي والتجاري ، فكانت معظم التجارة الداخلية والدولية في يدهم ، وكانوا يُصدرون المحاصيل الزراعية المحلية مثل : المشية والحبوب والجلود والأخشاب وخيوط القنب ، وكانوا يستوردون السلع المصنوعة من الغرب وسلعاً أخرى مثل : التوابل والأصباغ والحريير والمنسوجات القطنية من الشرق . كما احتفظوا بعلاقات تجارية نشطة مع ألمانيا والدولة العثمانية ومدن شبه جزيرة القرم وجنوا والبندقية . وكانوا إما منافسين للنبلاء في التجارة الدولية أو وكلاء لهم ، وأصبحوا ملتزمين بجمع الضرائب ، كما استأجروا مناجم الملح . وكان الإقراض بالربا من أهم وظائفهم . ومع هذا ، لم تكن هذه الوظيفة حكرًا عليهم . كما كان يوجد بين



## بولندا من القرن السادس عشر حتى انتفاضة القوزاق

Poland, from the Sixteenth Century to the Uprising of the Cossacks

كان يوجد في بولندا وليتوانيا في نهاية القرن الخامس عشر نحو ستين جماعة يهودية . وبلغ عدد اليهود الإجمالي فيها ١٦ ألفاً ، منهم ١٣ ألفاً في المدن و٣ آلاف في القرى . وقد تحسّن وضعهم حينما اعتلى الملك ألكسندر (١٥٠١ - ١٥٠٦) العرش ، فبعث ميثاق بوليسلاف الثاني لليهود وجعله جزءاً من قوانين بولندا عام ١٥٠٦ . وفي العام الذي سبقه ، فرض النبلاء البولنديون (شلاختا) على الملك أن يقبل أن يكون البرلمان (سييم) مصدرأً وحيداً للتشريع .

وتحت حكم سيجسموند الأول (١٥٠٦ - ١٥٤٨) ملك بولندا ودوق ليتوانيا ، انتشرت البروتستانتية في بولندا الأمر الذي أدى إلى خلق جو من التعددية والتسامح . واستمر سيجسموند في سياسة تشجيع التجارة ، فأصدر مراسيم تؤكد المزايا التي حصل عليها أعضاء الجماعة اليهودية . وأكد سيجسموند الثاني (١٥٤٨ - ١٥٧٢) حقوق أعضاء الجماعة اليهودية ، وزادت أهمية الدور الذي كانوا يلعبونه في الأعمال المالية كملتزمي ضرائب وصيارفة يعملون في الأمور المالية ، وكان منهم عدد كبير من الأطباء .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية حتى ذلك التاريخ يعتمدون اعتماداً كاملاً على الملك ، فكانوا يحصلون منه على المزايا والامتيازات ويتبعونه بشكل مباشر ، وكان هو يزودهم بالحماية من بطش الطبقات المعادية لهم . وكانت مجالس القهال الإطار التنظيمي الذي مارس اليهود من خلاله الإدارة الذاتية . وازدادت قوة القهال الاقتصادية وتم تنظيمها في إطار مجالس البلاد الأربعة ، وهو ما أدى إلى زيادة مقدرتها على التنافس مع المدن البولندية . وأدى وضع أعضاء الجماعة اليهودية المتميز ، بقربهم من الملك ، إلى زيادة التوتر بينهم وبين الكنيسة وطبقات المجتمع الأخرى سواء طبقة النبلاء (شلاختا) أو سكان المدن أو الكنيسة . وفي منتصف القرن السادس عشر ، بعد موت سيجسموند الثاني ، تحوّل بولندا إلى «جمهورية ملكية» يُنتخب فيها الملك من قبل برلمان يضم كل النبلاء ولا يرث أبناؤه العرش . وكانت معظم القرارات تُتخذ داخل البرلمان ، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار النبلاء . وتزامن هذا التطور مع ظهور الملكيات المطلقة في أوروبا التي أسست حكومات مركزية قوية تُعدّ نواة الدولة القومية الحديثة . وهذه الحكومات اهتمت بالتجارة والمحلية والدولية وشجعها فيما يُعدّ تعبيراً عن الثورة التجارية التي خرجت من رحمها حركات الاكتشاف والاستعمار من

إسبانيا والبرتغال ثم إنجلترا وهولندا وفرنسا ، الأمر الذي حول طريق التجارة وجعل الدول الأطلسية مراكز للتجارة العالمية . وقد أدّى ذلك إلى اضمحلال المدن البولندية في بادئ الأمر ثم إلى اضمحلال بولندا نفسها .

وازدادت الدول المحيطة ببولندا قوة في تلك الحقبة أيضاً ، كما كان هناك السويد والإمبراطورية النمساوية التي كان لها أطماع في الأراضي البولندية . ولكن بزوغ نجم بروسيا من ناحية ، وتعاظم القوة الروسية من ناحية أخرى ، كانا العنصر الحاسم في مسار التاريخ البولندي إذ أن التفكك الذي أصاب بولندا كان يقابله تزايد في تماسك الكتل السياسية المحيطة وتعاظم قوتها . لذا ، لم يكن من الغريب أن يتم تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر وأن تختفي تماماً ككيان سياسي مستقل خلال القرن التاسع عشر كله .

وقد أنتخب الدوق ستيفن باثوري (١٥٧٦ - ١٥٨٦) ملكاً لبولندا ، فكان ثاني الملوك المنتخبين . ورغم أنه كان متعصباً دينياً وصديقاً للمسيحيين ، فإنه تبوّأ سياسة التسامح تجاه اليهود وأكد كل الموائج الممنوحة لهم ، وأصدر عام ١٥٧٦ قرارات تُحرّم تهمة الدم . ورغم استمرار سياسة التسامح هذه ، استمر تدهور وضع أعضاء الجماعة اليهودية ، وزادت محاولات الحد من نشاطهم التجاري والحرفي ، وبدأت المدن تعطي نفسها السلطة القضائية على اليهود فأصدرت قرارات للحد من حرية إقامتهم فيها . وفي عام ١٦٣٣ أسس أول جيتو . ونتيجة ضعف نفوذ الملك ، وتصاعد نفوذ النبلاء (شلاختا) ، أصبح هؤلاء حماة الجماعة اليهودية واقتربت مصالح الأرستقراطية الاقتصادية بأعضاء الجماعة . وأدّى هذا التقارب بين النبلاء واليهود إلى تغيير وضع يهود بولندا بشكل جوهري ، وهو الوضع الذي وسّمه بيسمه . ولا يمكن فهم التطورات اللاحقة التي أدت إلى ظهور الصهيونية إلا بفهم طبيعة هذا التحول .

كان النبلاء في بولندا ، برغم سطوتهم وقوة نفوذهم ، يتبعون قوانين جامدة ، فكانوا يتمتعون بمكانتهم (إذا كانوا من صلب إحدى الأسر النبيلة) ماداموا لا يعملون بالتجارة ، وكان اشتغالهم بالتجارة يعني فقدانهم مكانتهم ووضعهم . ولذا ، كان يوجد نبلاء فقراء (النبلاء الخفأة) معدومون يفضلون الجوع والفاقة على العمل بالتجارة . وأدّى ذلك إلى التحالف بين قطاعات منهم وبين اليهود كعنصر تجاري نشيط يمتلك الخبرات والأموال المطلوبة للأعمال التجارية . وبلغت أهمية أعضاء الجماعة اليهودية درجة كبيرة حتى أنه حينما فكرت أعداد منهم في الهجرة إلى الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ، منعهم ملك بولندا بالإقناع والقوة .

وعوائلها . وبالتدريج ، اضطلع أعضاء الجماعة اليهودية بعملية استئجار المزرعة وإدارتها نيابة عن النبيل الإقطاعي الغائب في وارسو ، والذي كان يترك زمام الأمور في يد الوكيل . وكانت مدة عقود الإيجار تصل أحياناً إلى عدة سنوات . وأدى هذا إلى تحوّل الأرندا إلى نظام استثمار تجاري استغلالي لا تخفف من حدته الروابط الإقطاعية بما تحمّل من مسؤولية أخلاقية مباشرة من النبيل الإقطاعي تجاه فلاحيه وأقنانه وتراث ثقافي وديني مشترك ، فهو إقطاعي في علاقاته الاقتصادية الأساسية بين النبيل والأقنان ، ولكنه إقطاع بلا علاقات اجتماعية أو ثقافية إقطاعية ، إذ أن الطبيعة الاستيطانية للنظام ووجود عنصر سكاني غريب يكون بمنزلة همزة الوصل بين الإقطاعي وفلاحيه قضياً على احتمال قيام مثل هذه العلاقات المباشرة وقضياً على الرقعة الثقافية والدينية المشتركة . ولا شك في أن النبلاء البولنديين كانوا ينظرون إلى أعضاء الجماعة كعناصر ريادي استيطاني كلفه ونافع يساهم في تمييز المناطق غير المأهولة بالسكان وكأداة تُستخدم لتنشيط الاقتصاد الزراعي الخامل وإدخال بعض النشاطات التجارية فيه حتى يزيد ريع الأراضي الزراعية .

لكل ما تقدّم ، أصبحت السلطة المباشرة شبه المطلقة في يد اليهودي الذي كان يدير الضبعة ، فهو الذي يطبّق القانون ويقرر العقوبات والغرامات وينفّذها بمساعدة الجنود البولنديين . وكان الملتزم أو الأرندا تور اليهودي يحصل على كل الامتيازات الممكنة مثل إدارة الحانات وطواحين الغلال ومعامل الألبان ومعامل التقطير وصناعة الكحول ومناجم الملح وقطع الأخشاب وصنع الغراء ودبغ الجلود وصنع الصابون . كما كانوا يجمعون ضرائب المرور على الكباري والبوابات . بل لم تكن إقامة الصلوات الأرثوذكسية ممكنة إلا بعد العدة للوكيل اليهودي إذ لم يكن بمقدور القساوسة الحصول على مفتاح الكنيسة أو استعارة رذائهم الكهنوتي لإقامة شعائر الصلاة إلا بعد دفع ضريبة . وكان اليهود يشترون أيضاً المحصولات من الفلاحين . ولأنهم كانوا يمتلكون وسائل النقل النهري ، فقد كانوا هم أيضاً الذين يقومون بنقلها . وكان أعضاء الجماعة اليهودية هم أيضاً تجار القرية الذين يبيعون الفلاحين ما يريدونه من السلع الضرورية مثل الملح والسلع التركية . وأصبح بعض يهود بولندا وروسيا من كبار تجار الأخشاب والحبوب في أوروبا . ونشأت علاقة قوية بين يهود البلاط في دول أوروبا الوسطى ، ويهود الأرندا إبان حرب الثلاثين عاماً ، حيث كان يهود البلاط يستوردون الحبوب من بولندا . وكان يهود الأرندا يقومون بتبدير الغلال المطلوبة التي كانت

ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أية خطورة على النبلاء لأنهم لم يكن بوسعهم ، كعناصر غريب أجنبي ، المطالبة بنصيب في السلطة السياسية تناسب مع وزهم الاقتصادي ، وذلك على عكس العناصر البورجوازية المحلية التي عادة ما تطالب بيزيد من الحقوق كلما تزايدت قوتها الاقتصادية . وشهدت الفترة ١٥٣٩-١٥٤٩ قيام النبلاء الإقطاعيين بتوزيع السلطة القانونية على أعداد كبيرة من اليهود الذين لم يعودوا تحت الحماية الملكية . وبلغ عدد اليهود الذين يعيشون على أراضي يملكها النبلاء الإقطاعيون ما يزيد على نصف أعضاء الجماعة الذين أصبحوا منقسمين إلى تصنيفين : يهود النبلاء ويهود الملك . وكان لكليهما إطاره القانوني . ولكن عدد يهود النبلاء أخذ في الزيادة ، ومع منتصف القرن الثامن عشر ، بلغ عددهم ثلاثة أرباع يهود بولندا . فكان إذا طردت إحدى المدن الملكية اليهود منها انتقلوا إلى مدن النبلاء أو إلى جيوب شبه حضرية داخل ضياع النبلاء . وبدأ أعضاء الجماعة اليهودية يستقرون في مدن صغيرة أسسها النبلاء ، فكانوا يمنحونهم حق السكنى فيها نظير الدفاع عنها ، وهي المدن التي عُرفت باسم «الشتلت» . وكان سكان هذه المدن من اليهود أساساً . والواقع أن التطور الأساسي الذي ربط مصير أعضاء الجماعة اليهودية بالنبلاء البولنديين هو إبرام اتحاد برست ليتوفسك (ويُسمى أيضاً اتحاد لوبلين) عام ١٥٦٩ بين ليتوانيا وبولندا . وهو الاتفاق الذي حوّل الوحدة الإسمية (وحدة الأستين المالكيتين) بين البلدين إلى وحدة حقيقية . وقامت بولندا بضم أوكرانيا نتيجة هذه الوحدة . وكانت أوكرانيا ، حتى ذلك الوقت ، تُسمى «روثينيا» . أما كلمة «أوكرانيا» فتعني «منطقة الحدود» ، وتمتد من جباليشيا إلى نهر الدون حتى البحر الأسود ، وتقع بين روسيا وبولندا والدولة التترية في القرم .

وكانت أوكرانيا النقطه التي التقت فيها عناصر عديدة غير متجانسة أهمها النبلاء البولنديون الإقطاعيون الكاثوليك والفلاحون الأوكرانيون الأرثوذكس والتجار اليهود غير المتتمين لهذا أو ذلك ، إلى جانب العجر والتتار وبعض الأرمين . ثم بدأت عملية استيطان بولندية في أوكرانيا ، وكانت تتطلب خبرات ورؤوس أموال كبيرة لاستصلاح الأراضي وتأمين الطرق ، الأمر الذي أدى إلى ظهور ما نسميه «نظام الإقطاع الاستيطاني» . وكانت حاجة النبلاء الإقطاعيين إلى المال تزداد يوماً بعد يوم ، فكانوا يقترحون من اليهود . وأدى هذا كله إلى ظهور نظام الأرندا (الاستئجار) كشكل أساسي من أشكال الإقطاع الاستيطاني . فكان النبيل الإقطاعي يستأجر من المرابي اليهودي مبالغ طائلة للوفاء باحتياجاته بضمضان ضيعته وغلته

ولكنهم رغم ازدهارهم ، بل وبسببه ، ظلوا في نهاية الأمر عنصرًا تجاريًا إداريًا غريبًا يعيش في بيئة فلاحية ، وتحولوا إلى أداة استغلال كاملة مباشرة في يد الأرستقراطية الإقطاعية الغائبة المستفيدة من هذا الاستغلال ، ومثل هذا وضعًا متفجرًا يتسم بعدم الاستقرار .

تسبب نظام الأرندا في عزل أعضاء الجماعة اليهودية داخل الشتلات وإلى تزايد غرورهم تجاه الفلاحين ، كما تزايد اعتمادهم على السلطة الحاكمة ، وعلى القوة العسكرية البولندية . وكان القانون البولندي ، بسبب الوضع المتفجر ، يُلزم رب العائلة اليهودية بالاحتفاظ بيناق بعدد الذكور ، وبثلاث خروطشات وثلاثة أروال من البارود .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يبنون معابدهم على هيئة حصون تُوجد بحواظها كوات تخرج منها فوهات البنادق وتُصنَّب فوقها المدافع ضد الأتقان والعبيد . ومع نهاية القرن السادس عشر ، كان عدد كبير من يهود يولندا الموجودين في أوكرانيا يقوم بعملية الاستغلال هذه ويشكل جسمًا غريبًا يتحدث أعضاؤه اليديشية (في وسط سلافي) ويؤمنون باليهودية ويمثلون النبلاء البولنديين الكاثوليك (في وسط أوكراني أرثوذكسي) ويقومون بأعمال تجارية (في وسط زراعي فلاحي) مستغرقين إما في الدراسات التلمودية التي أصبحت شكلية وخالية من المضمون والروح منفصلة عن الحياة وإما في التملات القبالية التي تمنح اليهود مركزية في الكون لا أساس لها في الواقع . وتواجد أعضاء الجماعة اليهودية بأعداد كبيرة في مدنهم التجارية الصغيرة (الشتلات) الأمر الذي كرس عزلتهم بشكل يكاد يكون كاملاً . ويُلاحظ مدى تداخل الانتماء الإثني والديني والطبقي في أوكرانيا ويولندا . ولعل هذا الوضع يشكل الأساس المادي لقسوة أبراهام ليون الخاصة بالمشعب/الطبقة ، ولبعض المقولات الصهيونية كتقولهم \* من الطبقة إلى الأمة \* ، ولحديث بوروخوف عن الهرم الإنتاجي المقلوب عند اليهود . ولكننا نفضل استخدام مفهوم الجماعة الوظيفية (المالية/الاستيطانية) في هذه الحالة .

ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن يهود الشتلات كانوا يبنون عن الثقافة اليهودية الرفيعة (مقابل الثقافة الشعبية) التي كانت توجد مراكزها في المدن حيث كانت توجد المدارس التلمودية العليا (اليشيفات) . وقد بدأوا يتفاعلون مع محيطهم الثقافي واستوعبوا كثيراً من العادات والمعتقدات الفلاحية الشعبية المسيحية السلافية . وكان لهذا أعمق الأثر في التطور اللاحق لليهودية إذ أن الدراسات التلمودية الجافة لم تعد تلائم هذا الجو المشعب بالأساطير والحرفات .

تزايد حاجة أوروبا إليها . وهذا يبين كيف كانت العلاقات بين الجماعات اليهودية تسهل اتصالاتهم وتجمعهم شبكة قوية ووحيدة للتجارة الدولية .

وساهم الوضع الاقتصادي العام في أوروبا آنذاك في تحسين وضع يولندا ، إذ كان سكان أوروبا الغربية آخذين في الزيادة وهو ما اضطر دول هذه المنطقة إلى استيراد كميات كبيرة من الحبوب . واستفادت يولندا من هذا الوضع ، فأصبحت في الفترة من ١٥٧٧ إلى ١٦٥٤ بمنزلة المصدر الأساسي للقمح في أوروبا . فكان يتم تصدير القمح البولندي إلى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا ، وأحياناً إلى العالم الإسلامي من خلال أمستردام حيث كانت هناك أهم بورصة لبيع الحبوب . وأصبحت جدانسك أهم مدينة تجارية في أوروبا بعد أمستردام إذ كانت تُصدَّر مواد عديدة مثل الحبوب والأخشاب والكتان والنبث والبتاس والماشية .

واحتكر النبلاء البولنديون هذه السلع وطوروا ضياعهم لإنتاجها فشدوا قبضتهم على الأتقان وحولهم إلى عبيد تقريباً . فكان كبار النبلاء الإقطاعيين يمتلكون الأرض في أوكرانيا ويؤجرونها ، والألمان يديرون الموانئ على بحر البلطيق ، والهولنديون يمتلكون السفن البحرية لتقل السلع . أما أعضاء الجماعة اليهودية ، فقاموا ببقية العملية ومن بينها نقل المحاصيل بوسائل النقل النهري التي كانوا يمتلكونها . وقبل اتحاد ليتوانيا ويولندا عام ١٥٦٩ ، كان لا يوجد سوى أربعة وعشرين تجمعاً يهودياً في أوكرانيا لا يزيد عدد أعضائها على أربعة آلاف . ولكن ، مع حلول عام ١٦٤٨ ، كان عدد التجمعات ١١٥ تجمعاً يبلغ عدد سكانها ٥١١ ، ٣٢٥ ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية زاد عددهم ١٣ مرة خلال ثمانين عاماً . ونظراً لأن أعضاء الجماعة اليهودية لم يكونوا مسلحين ، فقد كانت تساندهم فرق مسلحة بولندية حتى يمكنهم الاستمرار في استغلال الفلاحين .

وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية بعلاقتهم القوية مع النبلاء والقوى التجارية الدولية محييين من تقلبات المجتمع الإقطاعي ومن غش وخداع البلديات والموظفين الملكيين ، ووجدوا المناخ المستقر الذي يحتاج إليه النشاط التجاري والمالي دون ضغوط وتهديد . وتحسَّن وضعهم ودخلوا دورة اقتصادية جديدة . وربما يُسرَّ سبب بقاء واستمرار الجماعة اليهودية وسبب استمرار أعضائها أهم عنصر في الاقتصاد النقدي رغم عمليات الطرد في أواخر القرن الخامس عشر . وقد ازدهرت الدراسات الدينية بحيث أصبحت يولندا مركز الدراسات التلمودية لا في العالم الغربي فقط وإنما في العالم بأسره .

يعيشون داخل نظام الإقطاع البولندي كأقنان عليهم أن يعملوا في مزارع النبيل الإقطاعي . كما كان يُوجد عدد كبير من الفلاحين الأحرار الذين يستأجرون الأرض من النبيل الإقطاعي . ولم تكن سلطة النبلاء (على الأثنان أو الفلاحين) مطلقة في بداية الأمر إذ كانت لهم أيضاً مجالسهم المستقلة ومحاكمهم ، وكانت بعض القرى قد نجحت في الحصول على الحقوق والمزايا التي منحتها القانون الألماني للمدن . بل إن بعض الفلاحين الأحرار كانوا ضمن العناصر الأجنبية التي استقرت خلال محاولة تعمير بولندا .

أما أهم الطبقات ، من منظور التطور السياسي اللاحق لبولندا ، ومن منظور تبلور المسألة اليهودية في شرق أوروبا وظهور الصهيونية ، فهي طبقة النبلاء . وهي طبقة لم تكن قط تابعة للملك وإن كان قد نجح بعض الوقت في فرض سلطته عليها . وإذا كان التطور اللاحق في معظم أرجاء أوروبا هو تعاطف سلطة الملك داخل النظام الإقطاعي وتقليم أظافر النبلاء الإقطاعيين وتأسيس الدولة المطلقة تحت حكم الملوك المطلقين ، فإن العكس هو الذي حدث في بولندا إذ تعاطف نفوذ النبلاء حتى أصبحوا الحكام الحقيقيين وأصحاب القرار في الدولة البولندية . وظهر أول اتحاد لهم في منتصف القرن الرابع عشر ، وكونوا مجلس شورى للملك (١٣٨٥ - ١٤٩٣) ، ثم نجحوا في الفترة ١٤٢٢ - ١٤٣٣ في تدعيم امتيازاتهم ، كالإعفاء من الضرائب وعدم سجن أي منهم إلا بعد المحاكمة . وتحول مجلس شورى الملك عام ١٤٩٣ إلى مجلس تشريعي يُسمى السيم أو البرلمان . وفي عام ١٥٠٥ ، ساد العرف القائل « نيهيل نوفي nihil novi » (وهي عبارة لاتينية تعني «لا تجديد» ) ، الأمر الذي يعني تأكيد حق برلمان النبلاء وحده في إصدار القوانين والتشريعات . ومن خلال البرلمان (سيم) ، تمكّن النبلاء من تقويض دعائم النظام الملكي المركزي تماماً حتى تحولت بولندا من مملكة يحكمها ملك إلى مملكة تحكمها طبقة اجتماعية هي طبقة النبلاء .

ولعل تزايد نفوذ النبلاء يعود إلى سمة فريدة في بولندا بين الدول الغربية ، وهي تعددية الإمبراطورية البولندية إثنيًا وجغرافياً ودينياً ، وهي تعددية زادت بعد توحيد ليتوانيا وبولندا عام ١٣٨٦ باتحاد الأسترين الملكيتين في البولنديين . وكانت بولندا تضم بولنديين كاثوليك يتحدثون الألمانية ، وليتوانيين يتحدثون لغتهم ، ويهود يتحدثون اليبديشية ، وألمان يتحدثون الألمانية ، وأرمن مسيحيين يتحدثون الأرمنية ، وتترا مسلمين يتحدثون لغتهم ، وغير هؤلاء كثيرين ، حيث بلغ عدد اللغات التي عشرة لغة . كما وُجدت في بولندا الديانات التوحيدية الثلاث ، وكذلك معظم الشيع المسيحية :

وقد أخذ عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا في التزايد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر زيادة كبيرة ، فكان عددهم عام ١٥٠٠ يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ ألفاً من مجموع خمسة ملايين بولندي . وفي عام ١٥٧٥ ، زاد عدد سكان بولندا إلى سبعة ملايين نسمة . ولكن عدد أعضاء الجماعة اليهودية زاد إلى ١٥٠ ألفاً . ومع منتصف القرن السابع عشر ، بلغ عددهم ٣٥٠ ألفاً (ويُقال ٥٠٠ ألف) يشكّلون ٥٪ من مجموع سكان بولندا . وحتى عام ١٥٥٠ ، لم يكن هناك يهود يعيشون بشكل قانوني في إنجلترا أو فرنسا أو هولندا أو إسبانيا أو البرتغال أو الدول الإسكندنافية أو إمارة موسكو في . وكان يهود أوروبا كافة مركزين أساساً في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا أو إيطاليا بحيث كان يوجد ، في القرن السابع عشر ، مركزان أساسيان في العالم لليهود : أحدهما في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي استوعب العديد من اليهود الذين طردوا من أوروبا الغربية وشبه جزيرة أيبيريا ، والثانيهما في بولندا وليتوانيا . واستمر يهود بولندا في الزيادة ، حتى أن أغلبية يهود العالم في بداية القرن العشرين كانت من نسل يهود بولندا .

#### النبلاء البولنديون (شلاختا)

Polish Nobility (Szlachta)

«شلاختا» كلمة بولندية معناها «نبلاء» . والشلاختا تركيب طبقي فريد يستمد نفرده من طبيعة التشكيل السياسي الحضاري البولندي . وظهرت بولندا بوصفها وحدة سياسية بعد أن قام ملوك أسرة بياست (٩٦٦ - ١٣٨٦) بتوحيد أقاليمها . وحافظت أسرة ياجيلون (١٣٨٦ - ١٥٧٢) على هذه الوحدة من خلال حكومة ملكية تتمتع بشيء من المركزية ، وتفرض سلطتها على كل أطراف المملكة ، وتتبع سياسة موحدة تجاه تطوير المجتمع وتعمير البلاد في الداخل وعمليات صد الغزاة وتوسيع رقعة البلاد في الخارج . وشهدت هذه الفترة توسيع رقعة بولندا حتى أصبحت أكبر دول أوروبا وأقواها ، تمتد من البحر إلى البحر ، من بحر البلطيق إلى البحر الأسود . وفي محاولة تطوير البلاد ، قام ملوك بولندا بتشجيع عناصر أجنبية (الألمان واليهود والأرمن) على الاستيطان وتشديد مدن تُحكّم بالقانون الألماني (قانون ماجدبرج) . واستقرت في هذه المدن أيضاً عناصر بولندية محلية صبغت هذه المدن بالصبغة البولندية . وكانت هذه المدن تتبع الملك مباشرة (ولذا سُميت «مدن التاج») وكانت ذات شخصية اعتبارية مستقلة ولجالسها البلدية صلاحيات كثيرة . وإلى جانب سكان المدن ، كان يوجد الفلاحون الذين

الأرثوذكسية والكاثوليكية والأرمنية والبروتستانتية ، ومثل هذه التعددية تتطلب إطاراً إدارياً فضفاضاً .

وانتهى حكم أسرة ياجيلون بتوقيع اتحاد لوبلين (برست ليتوفسك) عام ١٥٦٩ ، والذي حوّل الوحدة بين بولندا وليتوانيا من وحدة ملكية (من خلال الأسرة المالكة) إلى وحدة حقيقية بين البلدين . ولكن كان يُوجد في كل من البلدين طبقتان من النبلاء ، لكنيهما مصالحتها وظرفها التي لا تنوي التنازل عنها . ولإنجاز الاتحاد ، كان لابد أن تنازل السلطة المركزية الملكية عن كثير من سلطاتها الأمر الذي أُنقذ إلى تزايد ضعف السلطة المركزية وتزايد نفوذ النبلاء . وبعد أن أُمدت مملكة بولندا ودوقية ليتوانيا ، احتفظت كل منهما بقوانينها وإدارتها ، ولكن أصبح لها حكومة واحدة تحت حكم ملك واحد ينتخبه البرلمان (سييم) . وقد سموا هذا الكيان «ريس بوبليكا res publica» وهي كلمة لاتينية معناها «الجمهورية» ، وأطلق عليها «جمهورية بولندا وليتوانيا المتحدة» ، أي أن المملكة الجديدة تحوّلّت من ملكية تتحكم فيها طبقة اجتماعية إلى جمهورية ملكية أي جمهورية يحكمها ملك منتخب ، وهو أمر فريد في العالم الغربي وربما في العالم بأسره . وكان الملك يُتخبّ انتخاباً مباشراً من قبل النبلاء . ولم يكن يتم تسويق الملك إلا بعد أن يُقسم على أنه سيلتزم بميثاق يحوي العديد من البنود ، مثل : قوله بأن يُختار الملك بالانتخاب وأن عليه دعوة البرلمان للاجتماع والموافقة على أن يقوم ستة عشر سناتوراً بالرقابة على السياسة الملكية وأن يحافظ على امتيازات النبلاء وحقوقهم في الموافقة على فرض الضرائب وإعلان الحروب وتوقيع المعاهدات . ومن ثم كانت السيادة الكاملة للنبلاء ، وأصبح الملك مثل المدير الذي يتم التعاقد معه لتنفيذ خطة محددة موضوعة له . وكانت سلطة ملك بولندا أقل كثيراً من سلطة ملك إنجلترا الذي كان يملك ولا يحكم ، فهذا كان لا يملك ولا يحكم . ووصل نظام الجمهورية الملكية إلى قمة سخطه في نظام الليبروم فيتو librum veto (وهي عبارة لاتينية تعني «الفيتو الحر») وهو نظام يعطي لأي عضو في البرلمان حق الفيتو وهو ما كان يعني ضرورة أن تصدّر القرارات بالإجماع . وقد أصاب هذا النظام البرلمان بالشلل وزاد تفكك بولندا وتحولّها إلى أقسام يحكم كلٌّ منها نبيل أو ربما يتحكم فيه .

وتزامنت عملية تقنين سلطة النبلاء مع عدة عمليات تاريخية داخلية وخارجية :

١ - شهدت سبعينيات القرن السادس عشر ازدهار بولندا التجارية نتيجة تحوّلها إلى معبر للتجارة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي ،

فهي بلد يقع في قلب أوروبا ويمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ، أي من السويد وروسيا وألمانيا وبحاذاة العديد من بلاد أوروبا ووسطها ليصل إلى حدود الدولة العثمانية . وبدأت بولندا في تصدير العديد من السلع الغذائية . واستفاد النبلاء من هذا الوضع إذا احتكروا الاتجار في هذه السلع وراكموا الثروات .

٢ - شهدت الفترتان من ١٤٩٦ إلى ١٥٠٨ ومن ١٥٢٠ إلى ١٥٣٢ صدور عدة قوانين شددت قبضة النبلاء على الفلاحين وسلبتهم حريتهم وحولتهم إلى أفتان بحيث أصبحوا ملكية خاصة للنبلاء وأصبحوا مجرد مصدر للعمالة الرخيصة في مزارع البلاد .

٣ - نجم عن الوحدة بين ليتوانيا وبولندا أن أُتيحت فرصة للاستثمار أمام النبلاء البولنديين في أوكرانيا (١٥٦٩ - ١٦٤٨) . وانحصر اهتمام النبلاء في ربح ضياعهم في أوكرانيا دون أي إحساس بالمسؤولية الإقطاعية تجاه فلاحهم ودون أية مشاركة في ثقافتهم . وأدى هذا إلى تزايد استغلال النبلاء للفلاحين في أوكرانيا وخارجها ، وتحوّل نظام الأفتان إلى نظام عبودي إذ لم تكن هناك قوة تقف في وجه النبلاء وتضع حدوداً لاستغلالهم . وقد أضر النبلاء على حقهم المطلق في إقرار الحياة والموت بالنسبة إلى الأفتان . وظل رجال الكنيسة وسكان المدن اليهود (أي الجماعات التي كان يتقرر وضعها بموجب موثيق ملكية) خارج نطاق تحكّم النبلاء . واستمر استقلالهم ، ولكنهم لم يشتركوا في البرلمان أو في انتخاب الملك باستثناء بعض كبار رجال الكنيسة .

وكانت ثقافة السلاختا تدعو للمساواة التامة بين مختلف النبلاء دون تفرقة على أساس الثروة أو النفوذ . ولم يكن هناك تمييز بين كبار النبلاء والشريحة المتوسطة منهم أو ما كان يُسمّى «النبلاء الخفاه» أو «سابلة النبلاء» وهو عدد هائل من النبلاء الذين كانوا لا يملكون أرضاً ولا ثروة ، ومع هذا كانوا أعضاء في طبقة السلاختا .

ويلاحظ أن طبقة النبلاء ، في مختلف بلاد أوروبا ، كانت لا تزيد على ١ - ٢٪ من مجموع السكان . أما السلاختا ، فكانت تصل إلى ما بين ٨٪ و ١٢٪ . ولذا ، كانت تُعدُّ أكبر طبقة لها حق الانتخاب في أوروبا في ذلك الوقت .

ورغم مجموعة القيم الديمقراطية التي تمسك بها أعضاء السلاختا ، أو ربما بسببها ، فإنهم كانوا مسؤولين إلى حد كبير عن ضعف بولندا واختفائها في نهاية الأمر . فقد اهتم النبلاء كل بمصلحته الخاصة وهو أمر لم يكن ليخفى على الدول المجاورة (ذات الأطماع في بولندا) التي أخذت تتدخل في السياسات الداخلية لبولندا من خلال النبلاء وتتحكم فيها ، وهو ما أدى إلى تزايد النفوذ

عائلاً أكبر من العائد الذي يحققه التجار البولنديون أو الألمان . وحتى في المدن البولندية ، التي كان محظوراً على اليهود السكنى أو الايجار فيها ، كانت منازل النبلاء تقع خارج نطاق قوانين المدينة ، ولذا كان بوسع اليهود أن يقيموا فيها كي يقوموا بنشاطهم التجاري لصالحهم ولصالح النبلاء أيضاً . ومع دعم العلاقة بين اليهود والنبلاء أن النبيل الإقطاعي كان محرمًا عليه الاشتغال بالتجارة ، كما كان يفقد مكانته ووضع الطبقي إن فعل ، ولذا كان مضطراً لاستخدام وسيط تجاري ليضطلع بهذه الوظيفة نيابة عنه .

وزدهرت الجماعة اليهودية بسبب ارتباطها بالنبلاء الذين كانوا يجدون فيها أداة طيعة لا تمثل أية خطورة عليهم بسبب عزلتها عن السكان ولأنها ليست لها مطالب سياسية على عكس الوسطاء المحليين . ويُقال إن بولندا ، في هذه المرحلة ، كانت السماء بالنسبة لليهود والجنة بالنسبة للنبلاء ، ولكنها كانت تمثل جهنم بالنسبة للأقنان ، ويمكن أن نضيف وللتجار البولنديين .

ويمكن أن نرى هنا الجذور الحقيقية للمسألة اليهودية إذ أن تحول اليهود إلى أداة استغلال ، أو إلى جماعة وظيفية وسيطة ، يعني أنهم كانوا يقفون ضد أغلبية طبقات المجتمع لا يرتبط مصيرهم بمصيره ، وخصوصاً أن الطبقة التي ارتبطوا بها لم تكن طبقة وطنية بل طبقة مرتبطة بالنفوذ الأجنبي . ولذا ، فحينما ظهرت طبقة بورجوازية وطنية في بولندا ، لم يكن بإمكان اليهود أن ينخرطوا في سلكها فظلوا خارجها . كما ارتبطوا بطبقة كانت عملياً مستولة عن ضعف بولندا وتحوّلها من دولة عظمى إلى دولة صغيرة ثم عن اختفائها نهائياً مع بداية القرن التاسع عشر . واختفت طبقة النبلاء مع تقسيم بولندا وتحوّل كثير من النبلاء إلى مهنيين .

ونحن نرى أن علاقة كبار النبلاء باليهود كجماعة كوظيفية وسيطة وعميلة ، سُتخدم أداة لامتصاص خيرات البلد وقائض القيمة من جماهيره داخل إطار الإقطاع الاستيطاني والأطر الأخرى، تشبه علاقة الولايات المتحدة بالمستوطنين الصهيونيين داخل إطار الاستعمار الاستيطاني الإحلالي .

#### بولندا من انتفاضة القوزاق إلى التقسيم

Poland, from the Cossack Uprising to the Partition

بدأت الفترة التي تُعرف باسم «الطوفان» في تاريخ بولندا في منتصف القرن السابع عشر ، وهي فترة استمرت نحو ثلاثين عاماً . وشهدت المرحلة السابقة للضعف المتزايد لسلطة الدولة المركزية ، وضعف الملكية تحت حكم ملوك الساكسون ، وزيادة قوة النبلاء

الأجنبي . وتزامنت هذه المرحلة مع ظهور الملكيات المطلقة ذات السلطة المركزية في بقية أوروبا وظهور ألمانيا وروسيا والنمسا كإمبراطوريتين لهما أطماع في بولندا .

وحدث تطوّر مُتوقّع داخل طبقة النبلاء ذاتها إذ أخذت شريحة كبار النبلاء (التي كانت تضم حوالي ثلاثمائة أسرة) في التبلور كأقلية تتحكم في طبقة النبلاء نفسها ، وفي الوظائف الأساسية في الدولة ومن ثم في بولندا بأسرها . وكانت ثروات كبار النبلاء أكبر من ثروات الملك ، كما كانت ضياعهم دولة داخل دولة فعلاً ، ويعيش فيها مئات الألوف من الأقنان/ العبيد . وكان حجم بعضها أكبر من حجم بعض الدوقيات الألمانية ، كما كانت تتبع كل نبيل قوة مسلحة خاصة بل لضمان الأمن الداخلي . وتحوّل صغار النبلاء إلى موال لهم يمثلون لأوامرهم . وقد أسس النبلاء منذاً خاصة بهم تتنافس مع المدن الملكية وتفوقها في الثروة والنفوذ ، وساهموا في إضعاف الطبقة الوسطى إذ استوعبوا ثروات بولندا وركزوها في أيديهم . ومع اكتشاف أمريكا ، وصلت إلى أيديهم كميات كبيرة من الذهب تم استيرادها من العالم الجديد . ولكن الثروات التي راكموها لم يُد استثمارها في الاقتصاد ، بل بُدّدت في مظاهر الترف ، الأمر الذي أدى إلى التضخم وعدم الازدهار الاقتصادي .

وقد أدّى كل هذا إلى استقطاب شديد في المجتمع البولندي بحيث كانت تُوجد من ناحية طبقة الشلائخا التي على رأسها شريحة كبار النبلاء تتحكم في المجتمع بأسره (دون ضوابط) مساندة القوى الأجنبية أحياناً ، وكانت تُوجد من ناحية أخرى طبقة عريضة من الفلاحين الذين تحولوا بالتدريج إلى أقنان/ عبيد ، كما كانت تُوجد طبقة وسطى هزيلة غير قادرة على النمو بسبب سيطرة كبار النبلاء . ومع تصاعد نفوذ النبلاء وضعف نفوذ السلطة المركزية الملكية ، تزايد اعتماد اليهود على النبلاء ابتداءً من القرن السابع عشر وانتقل مركز الجاذبية بالنسبة إليهم من غرب ووسط بولندا إلى المناطق الشرقية في أوكرانيا وغيرها . ومن منتصف القرن السابع عشر ، أصبحوا الطبقة الثالثة ، أو الجماعة الوظيفية الوسيطة بين النبلاء والأقنان . وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية أداة النبلاء في ممارسة سلطتهم الجائرة غير المستترة . فقام اليهود بمهمة إدارة مزارع النبلاء الكبيرة في أوكرانيا وغيرها تساندهم القوة العسكرية البولندية فيما عُرف بنظام الأرندا ، وذلك داخل إطار الإقطاع الاستيطاني في مدنهم الصغيرة (شتتل) التي بناها لهم النبلاء . وكذلك أصبح أعضاء الجماعة أداة النبلاء في كبح جماح الطبقة الوسطى ، أو سكان المدن البولندية . فالنبلاء كانوا يفضلون التجار اليهود على غيرهم لأنهم كانوا يحققون لهم

التاريخ ، ثم ارتفع العدد إلى أن بلغ ١١,٤٢٠,٠٠٠ عام ١٧٧٢ .

وكانت هذه المنطقة من أوروبا تضم نصف يهود العالم تقريباً . وترى الدراسات الحديثة أن التصورات القديمة الخاصة بأن ثورة شميينكي أبادت عشرات الألوف من اليهود واجتثت مئات الجماعات هي تصورات مبالغ فيها إذ أن أعداداً كبيرة من اليهود هربت ثم عادت بعد استقرار الأمور بعض الشيء . ومع هذا ، ثمة اتفاق على أن هذه الهجمات ، ثم الصراعات العسكرية والاجتماعية التي تلتها ، أدت إلى ضعفة الوجود اليهودي في بولندا وخلقت جواً من الذعر وعدم الطمأنينة .

ورغم أن أعضاء الجماعة اليهودية قاموا بمحاولة إعادة البناء بمساعدة الملك جون كاسيمير (١٦٤٨-١٦٦٨) ، إلا أن نفوذه كان ضعيفاً ، كما أن رأس المال اليهودي كان قد تبدد إلى حد كبير . وكذلك كان عدم الاستقرار سائلاً . ولذا ، لم تنجح التجربة هذه المرة ، وازدادت الأعباء المالية للمقاة على كاهلهم وعلى كاهل مجالس القهال ، وبدأ نمط الهجرة الحديثة بين أعضاء الجماعات ، الهجرة من البلاد المتخلفة في شرق أوروبا إلى البلاد المتقدمة في غربها والهجرة الاستيطانية إلى العالم الجديد .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، كان البناء الطبقي والوظيفي لأعضاء الجماعة اليهودية على النحو التالي :

٢-٣٪ من كبار التجار .  
٤٠٪ من صغار التجار وضمن ذلك مستأجرو الحانات ويهود الأرندا .

٣٣٪ من الحرفيين .  
١٠٪ من الحرف المرتبطة بنشاطات الجماعة اليهودية .  
١٥٪ من الفقراء والعاطلين والمتسولين .

وكان معظم الجماهير اليهودية في تلك المرحلة قد ابتعد عن مراكز الدراسات التلمودية والتقاليد الثقافية الحاخامية التي كانت قد بدأت تفقد صلتها بالواقع ، وأصبحت غير قادرة على أن الاستجابة للحاجة الروحية لدى الجماهير اليهودية ، الأمر الذي أدى إلى انتشار القبّالاه . ورغم أن اليهود كانوا ومطاء ممثلين للإقطاع البولندي ، فإنهم اكتسبوا كثيراً من صفات الفلاحين الأوكرانيين والبولنديين بكل خرافاتهم ونزعاتهم الدينية الغيبية ، بل تأثروا بتقاليدهم الدينية المسيحية ، وخصوصاً بجماعات المنشقين الدينين الروس وبالخليستي على وجه التحديد . وتزامن ظهور الحركة مع التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي إذ طرد كثير من يهود الأرندا وأصحاب

البولنديين (شلاختا) الذين كان يدين بعضهم الولاء لدول أجنبية . وتزامن ضعف السلطة المركزية مع ظهور دول مجاورة قوية مثل السويد أو روسيا التي بدأت تتحدّد معالمها كدولة عظمى . وبدأ الطوفان بشورة القوزاق ، وهم جماعة حدودية من الجنود وقطاع الطرق كونوا فرقة شبه عسكرية متجولة ، بتشجيع من ملوك بولندا لحماية المنطقة من هجمات التتار . ولكنهم أخذوا يتمردون على الحكم البولندي ، واندلعت أول انتفاضة لهم عام ١٦٣٧ . وأعقب ذلك فترة جفاف في أوكرانيا سادت عشرة أعوام ، وهو ما زاد بؤس الفلاحين وزاد ضغط اليهود عليهم ليفروا بالالتزامات المالية . ثم هبت العاصفة الخيفية على شكل انتفاضة بوجدان شميينكي عام ١٦٤٨ التي اكتسحت البولنديين وأعوانهم من اليهود . ورغم توقيع معاهدة مع بولندا اعترفت فيها باستقلال دولة القوزاق بزعامة شميينكي ، فإن الصراع في المنطقة استمر دون هوادة . ولم يتمكن أي من الفريقين من إحراز انتصار حاسم . وكان شميينكي ، منذ بداية الثورة ، قد عقد تحالفات مع روسيا والدولة العثمانية والتتار ، كما وقع معاهدة عام ١٦٥٤ مع روسيا وضعت بمقتضاها دولة القوزاق الأوكرانية تحت حماية القيصر ، وأصبح القيصر بعدها قيصر روسيا الصغرى (أي أوكرانيا) أيضاً . وهنا دخلت روسيا الحروب مع بولندا التي تحالفت مع التتار . وكانت النتيجة أن أوكرانيا عاشت فترة امتدت ٣٢ عاماً من الغزو الأجنبي والحروب الأهلية والتقلبات الاجتماعية . ودخلت القوات السويدية الحرب عام ١٦٥٥ . وشهدت الفترة أيضاً هجمات الهابيدمك وهجمات الفلاحين والأفنان تحت قيادة قوزاق من جماعة الزابروجيان من أتباع شميينكي (مات عام ١٦٥٧) ، كما شهدت كذلك تصارعاً بين جماعات القوزاق المختلفة . وانتهى الأمر بتقسيم أوكرانيا بين بولندا وروسيا والدولة العثمانية التي ضمت أجزاء من أوكرانيا ، من ضمنها بودوليا ، ظلت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٦٩٩ . ووقعت معاهدة السلام الأزلي بين روسيا وبولندا عام ١٦٨٦ ، ومع هذا اندلعت الحرب مرة أخرى ولم تنته إلا عام ١٧٠٩ حين انتصرت روسيا على السويد وبولندا .

وتعظم الاقتصاد البولندي تماماً في هذه المرحلة إذ توقفت تجارة الحبوب من خلال بحر البلطيق وانخفض مستوى المعيشة (كان مستوى معيشة المواطن البولندي عام ١٧٥٠ أقل منه عام ١٥٥٠) ، وتدهورت المدن ، ووقّدت ثلاثة أرباع سكانها ، وشهدت بولندا أسوأ تضحّم في تاريخها . وهبط عدد سكان بولندا إلى أربعة ملايين عام ١٦٦٨ وهو يعادل ٤٥٪ من عدد السكان قبل هذا

البولندية ، وتمت مناقشة المسألة اليهودية في البرلمان البولندي (١٧٨٨ - ١٧٩٢) ، ولكن قامت معارضة شعبية لعملية الدمج هذه . وشكّلت لجنة عام ١٧٩٠ لبحث المسألة اليهودية قررت وجوب إلغاء ديون القهال أولاً ثم إخضاع أعضاء الجماعة لعملية التنوير .

وأدى تقسيم بولندا إلى تقسيم أعضاء الجماعة لعملية التنوير . فتم ضم عدد من يهود بوزنان إلى بروسيا ، وأصبحت جاليسيا تابعة للإمبراطورية النمساوية ، وتم ضم يهود المقاطعات الشرقية إلى روسيا .

وحيثما اندلعت ثورة كوشتوكو القومية ، اشترك فيها اليهود إلى جانب البولنديين . وكانت مثل هذه اللحظات النادرة من الكفاح الوطني المشترك بوقتة الصهر التي كان يتم من خلالها وإثباتها دمج الجيوب الإثنية والدينية المختلفة في التشكيلات القومية ، ولكن لم يُقدّر لهذه اللحظات أن تتكرر في حالة يهود بولندا . ولم يُقدّر للاتجاه الاندماجي الاستمرار لعدة أسباب :

١ - كان الاندماجيون بين اليهود شريحة اجتماعية صغيرة للغاية ، توجّهها الثقافي بولندي وتركز معظم أعضائها في وارسو أو في غيرها من كبريات المدن . أما الجماهير اليهودية العريضة ، فكانت جماهير فقيرة تتحدث البيديشية ولم تتأثر بالقيم التحديدية والقومية الجديدة ، كما كانت تعيش داخل منطقتها الصغيرة (الشتتل) بمعزل عن الحضارة القومية . وكانت أعداد الجماعة اليهودية في بولندا من الضخامة بحيث أن اليهودي كان يُولد ويكبر ويموت دون أن يضطر إلى الاحتكاك بشكل دائم ويومي مع الحضارة الأم . وأصبحت الجماهير اليهودية ذات ثقافة فلاحية طابعها مسيحي . وحيثما نقول ثقافة فلاحية في بولندا ، فنحن نقصد أنها ثقافة متخلفة إلى حدّ ما ، ومنعزلة عن الثقافة العالية وضمن ذلك الثقافة التلمودية نفسها . فانتشرت بين اليهود المعتقدات الشعبية والخرافات ، وهو ما جعلهم أقل تقبلاً لمحاولات التحديث والتنوير . وبما ساهم في زيادة الوضع سوءاً انفجار السكاني بين أعضاء الجماعة اليهودية .

٢ - ومن أهم العناصر التي أفشلت محاولات الاندماج ميرات الجماعة اليهودية التاريخي والاقتصادي الذي جعلها بمعزل عن التطور القومي البولندي ، بل وضعها في مجابهة وجعل يهود بولندا أعداء لكل الطبقات الأخرى باستثناء بعض قطاعات من طبقة النبلاء . ومعنى هذا أن هناك أساس ثقافي واقتصادي قوي للمواجهة بين البروجوازية البولندية وأعضاء الجماعة اليهودية يحتاج إلى فترة طويلة من الكفاح القومي المشترك حتى ينسئ التوصل إلى أساس مشترك للكفاح والاندماج .

الحانات من القرى والمدن الصغيرة . وتسبّب ذلك كل في ازدياد تدلّل الرأى القَبائليّة ، الأمر الذي جعل أعضاء الجماعة اليهودية تربة خصبة للزعات المشيخانية . ولذلك ، ترك شبتاي تسفي أعمق الأثر في بعض قطاعاتهم ، وأصبحت بولندا ، وخصوصاً بودوليا ، مركزاً للحركات الشبتانية والفرانكية على وجه الخصوص .

وفي نهاية الأمر ، ظهرت الحسيدية في المناطق الزراعية في بولندا التي ضُمَّت فيما بعد إلى روسيا وهي أوكرانيا وروسيا البيضاء . وكانت القيادة الاجتماعية للحركة الحسيدية هي الطبقة الوسطى الصغيرة من بقايا يهود الأرندا ومستأجري الحانات وأصحاب المحال الصغيرة والباعة التجوليين . والحسيدية حركة دينية حلولية تنادي بالتواصل مع الخالق مباشرة ، بل الالتصاق به ، متجاوزة بذلك المؤسسات الدينية التقليدية ، كما أنها تؤكد أهمية التجربة الصوفية والإحساس بالنشوة بشكل يجعلها معادية للزوع العقلي أو الذهني المجرّد للمؤسسات التلمودية . ولكن هذه الزعات نفسها ساهمت في تخفيف البؤس على الجماهير . وأحلّت الحسيدية التسايدك محل الحاخام ، والتسايدك شكل من أشكال القيادة الكاريزمية في وقت كانت القيادات الحاخامية قد تخلّت فيه عن مسئوليتها . والتسايدك على عكس الحاخام ملتصق بمريديه ، يعرف مشاكلهم ويوسعهم أن يدخل على قلوبهم الطمأنينة .

ازداد الصراع بين أعضاء الجماعة والبروجوازية البولندية ، فصدرت عام ١٧٢٠ تشريعات حدّت من النشاط التجاري لليهود . وهذا الصراع إحدى السمات الأساسية لوجود اليهودي في بولندا ، فنتيجةً للتاريخ الاقتصادي المنفصل لأعضاء الجماعة ، أي لكونهم جماعة وظيفية وسيطة وأحياناً للأرستقراطية وعملاء لها في إطار الإقطاع الاستيطاني ونظام الأرندا ، ونتيجة عزلتهم الحضارية وكونهم عنصراً غريباً مستقلاً ، كان من الصعب إنشاء تحالف بينهم وبين البروجوازية البولندية ، الأمر الذي كان يعني أن يظل اليهود منذ البداية خارج نطاق النضال الثوري . وقد أنفي مجلس البلاد الأربعة عام ١٧٦٤ . وبلغ عدد يهود بولندا في ذلك العام ٩٦٨ ، ٧٤٩ يهودياً (منهم ٥٤٨ ، ٧٧٧ في بولندا و١٩١ ، ٢٠١ في ليتوانيا) يعيش معظمهم في المدن . وإذا عرفنا أن نصف مليون بولندي فقط كانوا يعيشون في المدن لتبين لنا أن سكان المدن ، خصوصاً المدن الصغيرة ، كانوا أساساً من اليهود .

وقد قُسمت بولندا للمرة الأولى عام ١٧٧٢ ثم قُسمت مرة أخرى عام ١٧٩٣ . وحدثت محاولة لإصلاح اليهود كما نُشرت دراسات ومشاريع تهدف إلى تحديث اليهود ودمجهم في الأمة



الفلاحين القوزاق المتمردين ، فإن مساحات الإستبس الشاسعة كانت تشكل مجالاً حيوياً لهم . ومكّنتهم ذلك من الإفلات من مصير معظم ثورات الفلاحين ، ومن ثم فإنهم نجحوا في تأسيس جمهورية حرة (جمهورية القوزاق الزابروجيان) تخضع للتظيم العسكري حيث كان كل مواطن جندياً وكان يقود الجيش والجماعة قائل يُسمى «أتان» . ولا ندرى أيّمكن أن يكون هؤلاء الفلاحون قد أطلقوا على أنفسهم اسم «قوزاق» باعتبار أنهم أحرار مثل التار ، ومن أعضاء القطيع الذهبي مثل المغول ، أم أن النبلاء البولنديين سموهم بذلك الاسم احتقاراً لهم . وقد تزايدت صفوفهم بانضمام عناصر من سائر الأنواع والأجناس ؛ من فقراء ونبلاء وتربل ويهود .

استفادت بولندا ، في بداية الأمر ، من جماعة قوزاق المدن في حماية حدودها ضد هجمات التار والمغول . ولكن القوة الروسية الصاعدة تبنت قضيتهم وشجعتهم باعتبارهم وسيلة لفصل أوكرانيا عن بولندا التي كانت تستغلها عن طريق الإقطاع الاستيطاني ويهود الأرندا . وتحالف قوزاق المدن وقوزاق الزابروجيان تحت قيادة شميلنكي (أهم قادة القوزاق) الذي قاد الانتفاضة ضد الحكم البولندي ونجح في طرد البولنديين والاستقلال بأوكرانيا التي انضمت إلى روسيا القيصرية . واستخدم القيصرية جيوش القوزاق فيما بعد في غزواتهم وفي عمليات القمع الداخلي . وتعدّ جماعات الهایدماك أيضاً من جماعات القوزاق .

#### الهایدماك

Haidmaks

«هايدماك» من الكلمة التركية «هايدا» بمعنى «يتسقل» . والهايدماك جماعات شبه عسكرية من القوزاق والفلاحين قامت بالهجوم على التجار من سكان المدن في أوكرانيا البولندية في القرن الثامن عشر ، وهي منطقة كانت تضم تجمعات يهودية كبيرة . وكانت صفوفهم تضم الأتقان الهاريين من نير الإقطاع البولندي إلى مناطق الإستبس ، كما كانت تضم فقراء المدن وأبناء النبلاء الفقراء ورجال الدين وبعض أعضاء الفرق الدينية المهرطقة الهاريين من روسيا وبعض التتر المسلمين بل وبعض اليهود أحياناً . والهايدماك نتاج التفاعلات الاجتماعية في أوكرانيا التي بدأت في نهاية القرن السادس عشر ووصلت إلى قمتها مع الانتفاضة الشعبية التي قادها شميلنكي لذي كان الهایدماك يعتبرون أنفسهم ورثته ، ومن هنا كان عداؤهم للاستغلال ولأهل المدن واليهود . وابتداءً من عام ١٧٢٠ ، لم يمر عام دون أن تظهر جماعة منهم .

كان أعضاء الجماعة مركزين في مناطق حدودية تتصارع عليها دول ذات ثقافات مختلفة بل متصارعة ، فكان هناك أولاً بولندا نفسها ، ثم روسيا التي كانت تشجع الثقافة الروسية وعمليات الترويس . ومن الناحية الأخرى ، كان هناك ألمانيا والنمسا ذات الثقافة الألمانية . وكان اليهود أنفسهم يتحدثون اليبديشية وهي رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية . وبعد كل تقسيم ، كان يتعيّن على اليهود ، كنوع من الدواعي الأمنية ، إعادة صياغة أنفسهم بما يتفق مع ثقافة الدولة المهيمنة . وقد نشأ ، على سبيل المثال ، صراع داخل شريحة المثقفين اليهود في جاليشيا بين كل من دعاء العبرية والألمانية والبولندية واليبديشية . ومثل هذا الجبو ، الذي لا يتسم بالتحديد الثقافي ، لا يساعد كثيراً على تحديد شخصية اليهود الثقافية ولا على الولاء أو الانتماء القومي .

#### القوزاق

Cossacks

«قوزاق» ، من كلمة «كازاك» ، وهي كلمة تركية مشتقة من كلمة «خزر» ، وكلمة «خزر» مترادفة في لغات شرق أوروبا مع «تري» و«تركي» و«مغولي» و«الساسانيين» أي المسلم . ولكنها ، مع القرن السادس عشر الميلادي ، كانت تشير إلى جماعات من الأتقان السلاف المسيحيين الذين فروا من ضياع النبلاء البولنديين في أوكرانيا واستقروا في أراضي الإستبس على ضفاف نهري الدنيبر والونيستر وفي شبه جزيرة القرم . ويبدو أنهم كانوا من أصل روسي تجري في عروقهم دماء مغولية وتترية ، وكانوا يؤمنون بالأرثوذكسية التابعة لبابا روما .

وينقسم القوزاق إلى قسمين : القوزاق الأوكرانيون أو قوزاق المدن ، وهؤلاء كانوا يعيشون إلى جوار المدن كما كانوا أكثر تحضراً ، أما القسم الآخر فكان هو القوزاق الزابروجيان . وهؤلاء كانوا مستقلين تماماً ويعيشون خلف نهر الدنيبر (كلمة «زابروج» تعني «عبر النهر» ) ، وكان تنظيمهم الاجتماعي زراعياً عسكرياً ، كما كانوا يعيشون في مراكز محصنة تُسمى «السيخ» ، وكانت بمنزلة معسكر وسوق ومركز إداري . وكان السيخ مستقراً نسبياً ويقام في جزر في نهر الدنيبر . وقد كان كل من قوزاق المدن وقوزاق الزابروجيان على علاقة وطيدة .

ومن الإنشكاليات الأساسية ، التي كانت تواجهها ثورات الفلاحين في دول أوروبا ، عدم وجود أرض عذراء يمكن زراعتها . ولذا ، كانت هذه الثورات تبوء بالفشل . ولكن بالنسبة إلى هؤلاء

فكانت تُزوّد بحواطص سميكة للغاية ، كما أن المشايرس (حاجز السقف أو الشرفة) مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق ، أثناء الاشتباك مع الجمهاير . ومن أشهر المعابد/ القلاع معبد لنتسك Lutzk الذي بُني عام ١٦٢٦ لخدمة الأغراض العسكرية بالدرجة الأولى . وصدر قرار ملكي بينائه كان ينص على ضرورة أن يلتزم اليهود بتزويد معبدهم هذا بكوات من الجهات الأربع وبالسلاح الكافي (على نفقتهم) ، كما يجب أن يكون المعبد/ القلعة مزوداً بعدد من الرجال يكفي لصد الهجمات عليه . وصدر أمر لمعبد ريسوسف بأن يزود نفسه بالبنادق والرصاص والبارود . وكانت المعابد/ القلاع تزود عادةً بربح مراقبة ضخم (كان يُستخدم في زمن السلم كسجن يُوعّد فيه للمجرمون من أعضاء اليهودية) .

ونقاط التشابه بين المعبد/ القلعة والدولة الصهيونية أمر مشير للغاية ، يستحق التأمل لدلالته وطرافته . لكل هذا فنحن نرى أن المعبد/ القلعة خير رمز للدولة/ القلعة ، بل يمكن القول بأن النموذج كان كامناً وحسب في حالة المعبد/ القلعة ، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يحملون أساساً رأسمالهم (الربوي) وخبرتهم الإدارية معهم ، وكانت عملية القتال موكلة للقوات العسكرية البولندية ، وكان الهدف من حمل السلاح دفاعياً ومؤقتاً لحين وصول هذه القوات . أما في حالة الدولة/ القلعة فقد اكتتمت الأمور تماماً ، وأصبح العنصر البشري العميل يحمل السلاح بالدرجة الأولى (فوظيفته المالية ثانوية بالنسبة لوظيفة الإستراتيجية القتالية) وظهرت الطبيعة العسكرية للدولة المعبد/ القلعة . ومع هذا لوحظ أثناء حرب عام ١٩٧٣ أن القوات الإسرائيلية كانت تشبه تماماً الجماعة اليهودية في أوكرانيا ، إذ استمرت في القتال بشكل دفاعي ومؤقت لحين تشغيل الجسر الجوي ووصول الأسلحة المتقدمة من الولايات المتحدة . وفيما يلي نقاط التشابه الأساسية بين المعبد/ القلعة والدولة/ القلعة :

وفي عامي ١٧٣٩ و ١٧٥٠ ، نجح الهایدماك في الاستيلاء على عدة مدن بولندية صغيرة في المنطقة الشرقية ، وقتلوا عدداً من اليهود البولنديين . ولكن أسوأ المذابح وقعت عام ١٧٦٨ في مدينة أومان حين قُتل عشرون ألف بولندي من بينهم بضعة آلاف من اليهود ، ولكن لا يمكن التحقق من دقة هذه الأعداد بسبب التحويل الذي يميل إليه الراصدون المعاصرون لتلك الأحداث .

وقامت الحكومتان البولندية والروسية بمقاومة الهایدماك حتى نجحتا في إخماد نشاطهم في نهاية الأمر . وأدت هجمات الهایدماك إلى تحطيم معنويات أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وإلى إقهارهم وتجزير الإحساس لديهم بعدم الطمأنينة وغياب الاستقرار .

### المعبد/ القلعة

Fortress Synagogue

«المعبد/ القلعة» هو معبد يهودي كان يُستخدم للعبادة والقتال . والمعبد/ القلعة ظاهرة فريدة في تاريخ الطرز المعمارية لأماكن العبادة ، إذ من المحتمل ألا يكون له أي نظير . وقد ظهر في بولندا ، وبخاصة في المناطق الحدودية التي تفصل بينها وبين روسيا . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة في مثل هذه المعابد ، التي كانت مصممة بطريقة يمكن استخدامها كحصون وقلاع عسكرية في آن واحد .

وتنشأت الحاجة لتل هذا الطراز من المعابد في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا . فقد وظّف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين . فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين (أرنداتور) يعيشون في مدن خاصة بهم (شتتلات) منزعين لغوياً وأردينياً واجتماعياً وثقافياً عن جماهير الفلاحين . وكانت الجماعة اليهودية محل مسخط الجماهير وفضيها (كما هو الحال مع أعضاء الجماعات الوظيفية ، وخصوصاً العميلة) ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة . ومع هذا كان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح ، وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين على حملها ، وبكمية معينة من البارود (حسبما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود) .

وكانت هذه المعابد/ القلاع مصممة بطريقة تجعل بالإمكان استخدامها كمكان للعبادة والدراسة وكحصون وقلاع عسكرية .

الدولة/ القلعة	المعبد/ القلعة
عنصر بشري مشتول قام بغرسه عنصر خارجي (الإمبريالية الغربية) في منطقة حدودية (فلسطين من وجهة نظر الغرب تقع على الحدود التي تفصل بين الغرب والشرق) لخدمة مصلحته الإستراتيجية والمالية ولقمع السكان الأصليين (الشعب الفلسطيني)	عنصر بشري مشتول قام بغرسه عنصر خارجي (النبلاء البولنديون) في منطقة حدودية (أوكرانيا) لخدمة مصلحته المالية ولقمع السكان الأصليين (الشعب الأوكراني)
العنصر المغروس تحوّل إلى دولة وظيفية عميلة معزولة عما حولها	العنصر المغروس تحوّل إلى جماعة وظيفية عميلة تعيش في شتلات معزولة
كان من المتوقع ألا يدعن العنصر البشري المتهور	كان من المتوقع ألا يدعن العنصر البشري المتهور
كان من الضروري تسليح الدولة الوظيفية	كان من الضروري تسليح أعضاء الجماعة الوظيفية
ظهور الدولة/ القلعة	ظهور المعبد/ القلعة
انتفاضات مستمرة آخرها الانتفاضة المباركة عام ١٩٨٧	انتفاضات مستمرة أهمها انتفاضة شميلنكي



## بولندا من التقسيم حتى الوقت الحاضر

تقسيم بولندا - بوزنان - جوزيف بيلسودسكي - بولندا بعد التقسيم حتى الحرب العالمية الثانية - بولندا من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

## تقسيم بولندا

Partition of Poland

تجددت مع بقية المناطق البولندية التي ضمتها بروسيا وسميت دوقية بوزنان ، وظهرت دولة كراكوف الحرة واستمرت حتى عام ١٨٤٦ حيث ضمتها النمسا إلى جاليشيا . أما روسيا ، فاحتفظت بغنائمها التي حصلت عليها في التقسيمين الأول والثاني وضمت المقاطعات الجنوبية والغربية . أما الجزء الأوسط من بولندا ، أي مقاطعة وارسو ، فأصبح مملكة بولندا ، وهي كيان سياسي شبه مستقل كان يتبع روسيا إلى أن أصبح مقاطعة روسية بعد عام ١٨٣١ .

التقسيم الخامس (١٩٣٩) :

بعد الحرب العالمية الأولى ، والحرب الروسية - البولندية (١٩٢٠ - ١٩٢١) ثم معاهدة ريجسا بين روسيا وبولندا (مارس ١٩٢١) ، تقرر حدود بولندا وأصبحت مضمونة بموجب معاهدة عدم الاعتداء السوفيتية البولندية (١٩٣٢) التي تم تجديدها سنة ١٩٣٤ لعشرة أعوام . ويرى بعض المؤرخين أن تقسيم بولندا بين ألمانيا وروسيا هو التقسيم الخامس ، وهو التقسيم الذي تقرر بناءً على البنود السرية للاتفاق الألماني السوفيتي المؤرخ في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ . وفي أعقاب هذا الاتفاق ، غزت القوات الألمانية الأراضي البولندية في الأول من سبتمبر ١٩٣٩ ، وغزت القوات السوفيتية شرق بولندا خارقة بذلك معاهدة عدم الاعتداء المجددة عام ١٩٣٤ .

## بوزنان

Poznan

مدينة في بولندا الكبرى ، وبوزنان عاصمة مقاطعة تحمل الاسم نفسه . وفي الألمانية ، يشار لكل من المقاطعة والمدينة بكلمة «بوزن» . وقد استقر فيها اليهود منذ أواخر القرن الرابع عشر حيث كانت أحد أهم المراكز اليهودية . وقد نشأت صراعات بين أعضاء الجماعة اليهودية (١٠٪ من مجموع سكان المدينة) وبقية السكان الذين حاولوا أن يفتقروا ضد تجارة القطن اليهودية وأن يحدلوا عدد منازل اليهود ويطردوا القادمين الجدد منهم . واستمرت هذه المحاولات حتى بداية القرن السابع عشر . ومع هذا ، كانت أحوال

من أهم الأحداث التاريخية التي تقع خارج نطاق ما يُسمى «التاريخ اليهودي» ، والتي أثرت في الجماعة اليهودية في شرق أوروبا (يهود اليديشية) تأثيراً عميقاً ، تقسيم مملكة بولندا في الفترة ١٧٧٢ - ١٧٩٥ . كان التقسيم الأول عام ١٧٧٢ والثاني عام ١٧٩٣ والثالث عام ١٧٩٥ . واستغرقت العملية خمسة وعشرين عاماً ثم مرت خمسة وعشرون عاماً أخرى حتى تم تثبيت الحدود .

التقسيم الأول (١٧٧٢) :

ضمت روسيا المنطقة التي تعرف باسم روسيا البيضاء (بيلوروسيا) في شمال شرق بولندا . أما الأجزاء الجنوبية الغربية المعروفة باسم جاليشيا (أو روسيا الحمراء) ، ففضت إلى النمسا . كما ضمت بروسيا أجزاء من غرب بولندا ، ففقدت بولندا بذلك ثلث أراضيها وثلث سكانها . وكان هذا يعني أن ثلث يهود بولندا أصبحوا تحت حكم كل من النمسا وروسيا وبروسيا ، وكانت أغليبيتهم في جاليشيا (التابعة للنمسا) .

التقسيم الثاني (١٧٩٣) :

زادت كل من روسيا وبروسيا ممتلكاتهما ، فقسمتا نصف بولندا تقريباً فيما بينهما .

التقسيم الثالث (١٧٩٥) :

تم تقسيم البقية الباقية من بولندا بين روسيا وبروسيا والنمسا . وأدى التقسيمان الثاني والثالث إلى توزيع ٨٠٠٠٠٠٠ يهودي بين النمسا وبروسيا وروسيا .

التقسيم الرابع (١٨١٥) :

ظهر نابليون عام ١٨٠٦ وأسس دوقية وارسو التي اقتطعها من الجزء الذي كان قد ضم إلى بروسيا عام ١٧٩٣ ، ثم ضم إليها أجزاء من المنطقة التي كانت النمسا قد ضمتها . ولكن ، في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، رُسمت الخريطة السياسية فيما يعتبر التقسيم الرابع ، فأبقت النمسا على جاليشيا ، وضمت بروسيا ثورن والمناطق المجاورة التي

(٧, ٥٪) عام ١٨٤٩م إلى ٥١٢, ٢٦ (٢٦٪) عام ١٩١٠م. وكانت

نسبة كبيرة من يهود المدن الألمانية الكبرى من يهود بوزنان. وبعد ضم بوزنان إلى بولندا، بعد الحرب العالمية الأولى، هاجرت البقية الباقية إلى ألمانيا ولم يبق سوى بضعة آلاف.

وتسبب وضع بوزنان الحدودي في مشكلتين:

١ - فصل العنصر البولندي اليهودي عن الحركة القومية البولندية، وهو ما جعلها معادية لليهود لتعاونهم مع الألمان.

٢ - تسببت هجرة يهود بوزنان، إلى المدن الألمانية الأساسية، في إعادة صيغ يهود ألمانيا بصيغة شرق أوروبية. فيهود ألمانيا الأصليون كانوا مندمجين في محيطهم الحضاري تماماً، وكانوا لا يتحدثون سوى الألمانية، كما كانوا يدافعون عن القومية العضوية الألمانية ويتبنون أسلوب الحياة الألماني. أما يهود شرق أوروبا، فلم يتم صبغهم بالصبغة الألمانية إلا في مرحلة متأخرة، ولذا كانت هويتهم الألمانية سطحية وضعيفة، بل واحتفظوا بكثير من ملامح شخصيتهم الشرق أوروبية الديدشية. كما كانت تنتشر بينهم الأفكار الصهيونية.

تزايد عدد المهاجرين من يهود بوزنان، ويهود الديدشية بشكل عام، حتى أصبح لهم وزن عددي كبير. وأدى ذلك إلى إعادة تعريف كلمة «يهودي» في العقل الألماني بحيث تمت المساواة بين يهود الديدشية الغرباء ويهود ألمانيا المندمجين، وأصبح الجميع يهوداً غرباء. ولكن الأهم من ذلك أنهم لم يكونوا غرباء وحسب وإنما كانوا أيضاً «ليست يودين»، أي يهوداً شرق أوروبيين من أصل سلافي. والشعوب السلافية، بحسب النظرة النازية، كانت تُعتبر المجال الحيوي لألمانيا، كما كانت هدفاً للعنصرية النازية. فكان هجرة يهود الديدشية، وضمهم يهود بوزنان، ساهمت في إعادة تصنيف يهود ألمانيا من «العنصر الغريب الذي لابد من دمجه» إلى «العنصر الغريب الذي لابد من نبذه»، فهو إذن ليس «الغريب» وحسب وإنما هو، أيضاً «الغريم».

**جوزيف بيلسودسكي (١٨٦٧-١٩٣٥)**

Jozef Pilsudski

رجل دولة بولندي وابن أحد فقراء طبقة النبلاء (سلاختا). وكُلِّد في فلنا (ليتوانيا) ودرس الطب. ناضل منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر من أجل استقلال بولندا عن روسيا القيصرية، وقُبض عليه عام ١٨٨٧ بتهمة محاولة اغتيال قيصر روسيا الإسكندر الثالث. وافر إلى سيبيريا، ولكنه عاد منها وقد ازداد إصراراً على تحرير بولندا، فانضم للحزب الاشتراكي البولندي وأصبح قائداً له

الجماعة جيدة بشكل عام، فكانوا يقومون بوظيفة مهمة في المجتمع وكانوا موضوعين تحت حماية الملك.

ومع القرن السابع عشر، بدأ التدهور الحقيقي؛ إذ زادت الضرائب، وبدأ يتوافد نهار الأمان من سيليزيا ليشكلوا منافسة قوية للتجار اليهود، وغرق القهال في الديون ولم تُحل هذه المسألة إلا في منتصف القرن الـ١٩، وواجه التجار اليهود صعوبات غير عادية في الأسواق التجارية في فرانكفورت وبراندنبج وغيرها. وازداد حال اليهود سوءاً خلال الحرب السويدية (١٦٥٥-١٦٦٠)، إذ أدَّى التدهور الاقتصادي إلى زيادة حدة الصراعات الاجتماعية وتناقص عدد السكان، وإهمال التعليم الديني.

ولم يختلف الوضع كثيراً في القرن الثامن عشر، فقد ترك اليهود المدينة بأعداد متزايدة، ولم يتمكن من تَبَيُّن منهم أن يفعل أي شيء. وظل هذا الوضع إلى أن ضُمَّت بوزنان (المدينة والمقاطعة) إلى بروسيا عام ١٧٩٣. وبذا، كانت بروسيا تضم عام ١٨٠٧ نحو ٢٠٠ ألف يهودي. ثم ضُمَّت بوزنان إلى دوقية وارسو التي أسسها نابليون ثم أعيدت إلى الحكم الروسي عام ١٨١٥.

وطبقت بروسيا، في بداية الأمر، القوانين الصادرة عام ١٧٥٠ التي كانت تهدف إلى الحد من عدد اليهود والإبقاء على الأثرياء منهم فقط. ولكن، بعد ذلك، تم التخلي عن هذه السياسة، وتبنت البيروقراطية الألمانية سياسة مائلة للعنصر اليهودي الذي يتحدث الديدشية باعتباره عنصراً ألمانيا يمكن الاعتماد عليه مقابل العنصر البولندي السلافي.

وتسبب ذلك في عزل أعضاء الجماعة عن العناصر البولندية. وحينما ألغى الاستقلال الشكلي لدوقية بوزنان الكبرى وأصبحت مقاطعة بروسية، أصبح سائر اليهود مواطنين بروسين لعبوا دوراً أكثر نشاطاً في الحرب الدائرة بين الاتجاه الداعي إلى أمتها والاتجاه الداعي إلى صبغها بالصبغة البولندية. وبتطبيقه الحال، كان أعضاء الجماعة ضمن مؤيدي الاتجاه الأول. لكل هذا، كانت الحركات البولندية تهاجم اليهود باعتبارهم عناصر ألمانية معادية. وعندما ظهرت المحاولات البولندية القومية للاستقلال الاقتصادي التي أخذت شكل تعاونيات ومصارف ومشاريع اقتصادية أخرى، كان لها اتجاه معاد لليهود. ونتج عن ذلك هجرة يهودية من المدن الصغيرة إلى المدن الكبيرة، وصاحب ذلك انتقال من التجارة المحلية إلى العمل في المصارف والصناعة والمهن. ثم اتجهت الهجرة نحو بروسيا، وخصوصاً برلين وبرسلاو، وأخيراً نحو الولايات المتحدة. وقد تناقص عدد سكان بوزنان اليهود من ٧٦,٧٥٧

بطبقة النبلاء (شلاختا) التي استغلت الجماهير البولندية وعملت ضد المصالح القومية للبلاد . وبالتالي ، جاء استقلال بولندا ليعمق عزلة الجماعة اليهودية في بولندا ويتجه إلى لفظها . وعزز هذا الاتجاه أيضاً نحو طبقة تجارية بولندية بدأت ، ومعها الدولة البولندية ، في الاضطلاع بالوظائف الوسيطة التقليدية لأعضاء الجماعة اليهودية . وفي عام ١٩٣٤ . أبرمت حكومة بيلسودسكي معاهدة مع هنرل بعد أن أدرك أن فرنسا غير قادرة على حماية بولندا ضد ألمانيا التي بدأت في إعادة تسليح نفسها . وحاول هنرل إقناع بيلسودسكي بالانضمام إليه في الهجوم على روسيا ، ولكن بيلسودسكي رفض ، وجدد معاهدة عدم الاعتداء مع روسيا . ومات بيلسودسكي عام ١٩٣٥ في وارسو .

### بولندا بعد التقسيم حتى الحرب العالمية الثانية

Poland, from the Partition to the Second World War

بعد تقسيم بولندا (١٧٧٢ - ١٧٩٥) ، تم ضم أغلبية يهود بولندا إلى بلاد أوروبية أخرى هي : النمسا وبروسيا وأساساً روسيا . وبحلول عام ١٨٢٨ كان ثلثا يهود بولندا يعيشون في مدن صغيرة (شنتلات) ويشكلون ٥٠٪ من سكانها ، يعملون تجاراً مسافرين ويمارسون بعض الحرف مثل تقطير الخمر والصناعات المنزلية ، وخصوصاً النسيج ، دون تدخل كبير من الحكومة المركزية الضعيفة . وبدأت عملية دمج أعضاء الجماعة اليهودية أو تحديدهم مع دخول نابليون بولندا عام ١٨٠٧ الذي منحهم حقوقهم المدنية وطبق عليهم القرارات نفسها التي طبقت عليهم في فرنسا وهي أن الحقوق تمنح لليهود بمقدار استعدادهم للاندماج ، ولذا حُجبت الحقوق السياسية عنهم لمدة عشرة أعوام تُعد فترة انتقالية كان عليهم أن يتخلصوا خلالها من سماتهم الخاصة وأن يتدمجوا في بيئتهم . ثم عُقد ، عام ١٨١٥ ، مؤتمر فيينا الذي حول بولندا إلى ملكة مستقلة تحت حكم القيصر . وكان دستورها يتضمن بنوداً تحمي حقوق اليهود وتزيدها بمقدار اندماجهم في المجتمع . وكتب أحد الأساقفة البولنديين إلى الفكر الألماني اليهودي المستير ديفيد فرايدلندر يسأله عن أفضل السبل لإصلاح (أي تحديث) يهود بولندا ، فاقترح ضرورة تدريب اليهود على الحياة المتحضرة قبل إعطائهم حقوقهم المدنية ، أي أنه اقترح عليه عملية التحديث الأوتوقراطي (من أعلى) التي طبقت في روسيا . بعد ذلك ، كوّن بعض اليهود الأثرياء (من التجار المتدمجين وأعضاء المهن الحرة) لجنة المؤتمين بالمعهد القديم عام ١٨٢٥ لتطوير التعليم اليهودي ، وبالفعل تأسست مدرسة حاخامية

وحرر مجلته السرية . وفي عام ١٩٠٩ ، قُبض عليه مرة أخرى وسُجن في قلعة وارسو ، فدُعِيَ الجنون ببراعة فانتفاة وتُقل إلى مستشفى عسكري في روسيا حيث فر منها . وحينما اندلعت الحرب الروسية اليابانية ، اتجه بيلسودسكي إلى اليابان بحثاً عن مساعدة له في التمرد الشعبي الذي كان ينوي تنظيمه ضد روسيا . وكون نواة الجيش البولندي بأموال سرقها من قطار بريد روسي . وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، حاربت قواته مع القوات النمساوية والألمانية ضد روسيا ، ولكن الألمان رفضوا الاعتراف باستقلال بولندا وألقوا القبض عليه عام ١٩١٧ . ولكنه أُفرج بعد عدة هزيمة ألمانيا ، وعاد إلى بولندا حيث استقبل استقبال الأبطال في ١٠ نوفمبر ١٩١٨ . وبعد أربعة أيام من وصوله ، قُبل منصب رئيس الدولة . وبذلك أصبح أول رئيس لدولة بولندا المستقلة في العصر الحديث ، وظل يشغل المنصب في الفترة ١٩١٨ - ١٩٢٣ . وكان بيلسودسكي يهدف إلى إنشاء دولة فيدرالية تضم ليتوانيا وأوكرانيا وبولندا . وحينما قام الجيش الأحمر عام ١٩٢٠ بهجوم على بولندا ، صده بيلسودسكي محققاً النصر لبولندا .

وبعد صدور دستور بولندا الجديد عام ١٩٢٢ ، عُقدت انتخابات عامة تخلى بيلسودسكي بعدها عن سلطاته وعمل قائداً للجيش . وحينما وصل الحزب الديمقراطي إلى الحكم ، استقال بيلسودسكي من منصبه واعتزل الحياة السياسية (مؤقتاً) عام ١٩٢٣ . وحين وجد أن المناقشات البرلمانية التي لا تنتهي ستودي بالذلة الجديدة ، استولى على الحكم بدعم من الأحزاب اليسارية ، ورفضاً منصب رئيس الدولة واكتفى بمنصب وزير الحرب ، ولكنه كان القوة المحركة من وراء الستار . وفي عام ١٩٣٠ ، تخلى عن صداقته اليساريون لتحالفه مع كبار الملاك وبدأوا حملة لإسقاط الديكتاتور ، على حد قولهم ، فرد عليهم بيلسودسكي بمتى العنف إذ لفتى القبض عليهم وحكم بولندا من خلال أعوانه الجدد .

احتك بيلسودسكي بأعضاء الجماعة اليهودية في بولندا ، وخصوصاً العمال منهم ، في مستقبل حياته السياسية . وأسس الحزب الاشتراكي البولندي الذي أصدر مجلة باللغة اليديشية ، إلا أنه هاجم حزب البولنديين بشدة باعتباره يمثل الانفصال الديني والتجاري اليهودي ويفضل الترويس ويعارض الاستقلال البولندي . وعندما استولى بيلسودسكي على السلطة عام ١٩٢٦ ، زاد تدخل الدولة في الشؤون الداخلية للجماعة اليهودية كما فرضت قيوداً متزايدة على نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي . وما يُذكر أن وضع الجماعة اليهودية في بولندا كان وضعاً قلقاً نظراً ليراثهم التاريخي المرتبط

بولندي الذي يُصدَّر الفاضل البشري اليهودي وأنه يشكل البنية التحتية البيولوجية لليهودية العالمية» .

وتذكر الموسوعة اليهودية أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يشكلون ٨,٦٪ من مجموع سكان بولندا عام ١٨١٦ ، ثم قفز العدد إلى ١٣٪ عام ١٨٩٧ ، أي أن كل مائة بولندي كان يُوجد بينهم ثلاثة عشر يهودياً رغم هجرة أعداد كبيرة منهم إلى خارج بولندا . وتعدُّ هذه من أعلى النسب التي حققتها أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث . ورغم صعوبة تحديد الأعداد بدقة ، باعتبار أن بولندا كانت مُقسَّمة ، فيمكن بالاعتماد على عدة مصادر أن تُقَرَّب إلى :

الدولة	سنة ١٨٢٥	سنة ١٩٠٠
روسيا قبل الحرب	١,٦٠٠,٠٠٠	٥,١٧٥,٠٠٠
بولندا	٤٠٠,٠٠٠	١,٣٢٥,٠٠٠
أوكرانيا، روسيا الجديدة، بيساريا	٦٢٥,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠
ليتوانيا وروسيا البيضاء جاليشيا	٣٥٠,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠
	٢٧٥,٠٠٠	٨١١,٠٠٠

وقد زاد عدد يهود أوروبا ككل في تلك الفترة من ٧,٣٠٠,٠٠٠ إلى ٨,٦٩٠,٥٠٠ ، وبلغ عدد يهود بولندا عام ١٩٣٩ نحو ٣,٥١٠,٠٠٠ .

ويمكن فهم عزلة يهود بولندا من الإحصاءات التالية :

في منتصف القرن التاسع عشر (حوالي عام ١٨٥٧) ، كانت هناك ١٨١ مدينة بولندية منها ٨٨ (أي نحو نصفها أو ٤٨٪ منها) تضم أغلبية يهودية مطلقة . كما كان هناك ١٢٠ مدينة ٤٠٪ من سكانها يهود ، أي ٦٦,٢٪ من مدن بولندا كانت ذات طابع يهودي فاقع . وكان ٩١,٥٪ من مجموع يهود بولندا يعيشون في المدن ويشكلون ٣٣٪ من سكانها مقابل ١٦,٦٪ من المواطنين . وكل هذا يعني استقطاباً كاملاً وعزلة تشبه من بعض الوجوه عزلة يهود الأرندا . لكن الصورة لم تتغير كثيراً مع نهاية القرن التاسع عشر . وفي بوزنان ، قفز عدد أعضاء الجماعة اليهودية من ٢,٧٧٥ عام ١٨٦٥ (أي ١٢,٢٪ من مجموع سكان المدينة) إلى ١٦٦,٢٢٨ عام ١٩١٠ (أي ٤٠,٧٪ من سكانها) . وفي عام ١٨٩٧ ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أكثر من ٥٠٪ من السكان في ٥٧ مدينة بولندية من واقع ١١٠ مدن . أما المدن التي كان يشكل اليهود أكثر من ٤٠٪ من سكانها ، فكانت ٨١ مدينة . وحتى عام ١٩٢١ ، كان

حديثة . وعلى مستوى التحديث الاقتصادي ، ألغى القهال عام ١٨٢٢ ، كما فُرِضت ضريبة على تجار الخمر اليهود (ولهذه من بقايا نظام الأرندا) حتى يتروكوا هذه الوظيفة التي كانت تسبب سخط الجماهير ضدهم ، ولتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة . وقد ظهرت طبقة من المثقفين البولنديين اليهود ، في وارسو أساساً ، انتماءهم القومي لبولندا أكثر تحمداً ووضوحاً . ومع هذا ، لم يحرز أعضاء الجماعة اليهودية نجاحاً كبيراً في مجال محاولة الاندماج بسبب عدم اكتراث البورجوازية البولندية بهم وعدم ثقتهما فيهم . كما يلاحظ أن اليهود خارج وارسو لم يُظهروا ميلاً كبيراً لعملية الدمج والتحديث . وصدر مرسوم روسي عام ١٨٦٢ أعطى اليهود حرية بيع وشراء الأرض والمنازل والسكنى أينما شاءوا ، وأُبطل القسَم اليهودي ، كما مُنح استخدام العبرية واليديشية لتعميق دمجهم واندماجهم . وحينما اندلع تمرد عام ١٨٦٣ ، لم تشترك فيه أعداد كبيرة من اليهود ، كما أن يهود ليتوانيا وقفوا ضده . وحينما بدأ الروس في التنكيل بالشاور ، لم ينل اليهود منهم أي أذى ، الأمر الذي أبعدهم عن الحركة القومية البولندية .

وفي عام ١٨٧٠ ، بدأت الحركة القومية البولندية تأخذ طابعاً معادياً لليهود (باعتبارهم جماعة وظيفية مالية) ، فطالبت ببيع التجارة والصناعة للطابع البولندي ، واتهمت رأس المال اليهودي بأنه غريب وبأن الجماهير اليهودية معادية للحضارة الحديثة جاهلة بها . وتم تأسيس أحزاب قومية شعبية بولندية جعلت الحرب ضد دمج اليهود هدفاً أساسياً لها ، كما بدأت تظهر بين أعضاء الجماعة اليهودية الاتجاهات الصهيونية . وتجدر الإشارة إلى أنه ، رغم تدني أحوال اليهود بشكل عام ، كانت تُوجد طبقة ثرية تشغل مراكز مهمة في التجارة الخارجية وفي تجارة الأخشاب والغلال وفي المهن الحرة . ومع الحرب العالمية الأولى ، كان وضع يهود روسيا وبولندا متشابهاً في كثير من النواحي ، من أهمها الانفجار السكاني . ويلاحظ أنه ، مع عام ١٧٧٢ ، كان في بولندا ٧٠٪ من يهود العالم وأكثر من ٨٠٪ من الإشتكاز (وهو القطاع الذي أفرز الصهيونية ومعظم الحركات اليهودية الأخرى) . وإذا وضعنا في الاعتبار أن اليهود الأصليين ، في معظم دول أوروبا ، اندمجوا في السكان وكانوا لا يشكلون كثافة سكانية حقيقية ، وأن أعدادهم تزايدت بسبب هجرة أعداد من يهود اليديشية ، فيمكن القول بأن كل الجماعات اليهودية التي ظهرت في الغرب في القرنين الأخيرين هي من فروع يهود بولندا ، وهو ما يجعل قول هتلر والأديبات النازية حقيقياً حيث أعلن أن الجليب اليهودي في بولندا ومنطقة الاستيطان هو «المستودع

مرسوم عام ١٩١٦ يتضمن الاعتراف باليهود كطائفة دينية لا كطائفة عرقية . وعارض الصهاينة هذا المرسوم . ومع نهاية الحرب العالمية الأولى ، وجد اليهود أنفسهم في مفترق الطرق بين البولنديين والليتوانيين (في فلانا) ، وبين البولنديين والأوكرانيين (في لفوف) ، ثم بين البولنديين والبولشفيك خلال حرب عام ١٩٢٠ . ولكن ، مع استقلال بولندا (١٩١٨ - ١٩٣٩) ، تم توحيد العناصر البولندية اليهودية ، التي كانت تعيش تحت حكم ألمانيا وروسيا منذ التقسيم ، مع بقية بولندا . وبذا ، أصبحت بولندا تضم أكبر تجمع يهودي في أوروبا ، حيث كان ٢,٨٤٥,٠٠٠ عام ١٩٢١ ، وزاد ، نتيجة ضم بعض أراضي بولندا ، إلى ٣,١٣٧,٠٠٠ (أي ٩,٨٪ من السكان عام ١٩٣١) ، ثم وصل إلى ٣,٣٠٠,٠٠٠ مع نهاية هذه الفترة .

وعشية عام ١٩٢١ ، كانت نسبة تركيز أعضاء الجماعة اليهودية في القطاعات الاقتصادية واضطلاعهم مهج ووظائف معينة يختلف بشكل جوهري عن النسبة على المستوى القومي ، كما هو موضح في الجدول التالي :

المهنة	يهود	غير يهود
الزراعة	٩,٨٪	٨٠,٧٪
الصناعة والحرف اليدوية	٣٢,٢٪	٧,٧٪
التجارة والتأمين	٣٥,١٪	١,٥٪
النقل	٢,٧٪	١,٧٪
المهن الحرة	٤,٤٪	٢,٣٪

ويلاحظ أن ٦٧,٣٪ من يهود بولندا تركزوا في التجارة والتأمين والصناعة والحرف اليدوية مقابل ٩,٢٪ من البولنديين . وكان عدد التجار اليهود لا يزال ٢٠ ضعفاً مقارنة بعدد التجار غير اليهود . وتمثلت اليهود ٧٤ ألف محل مقابل ١٢٣ ألف محل للبولنديين كافة . وكان ٧٦٪ من اليهود يعيشون في المدن ويشكلون ٣٠٪ من جملة سكان وارسو و ٣٥,٥٪ من سكان لودز و ٣١٪ من سكان لفوف .

وضمنت معاهدة الأقليات في يونيو ١٩١٩ ، التي وقعتها الحلفاء المتصورون ومعهم بولندا ، حقوق الأقليات الدينية واللغوية ونصت على مساواتهم ببقية المواطنين ، كما أعطت اليهود الحق في إدارة مدارسهم . وتم ضم هذه المعاهدة إلى الدستور البولندي الصادر عام ١٩٢١ . كما نص دستور عام ١٩٣٥ على تساوي المواطنين كافة أمام القانون . ولكن الحقوق السياسية تختلف في كثير من الأحيان

اليهود يشكلون ٤٠٪ من عدد السكان في ٩٩ مدينة (من واقع ١٩٦ مدينة) . وتزايدت معدلات الهجرة بسبب الضغوط التي مارستها الحكومة على أعضاء الجماعة اليهودية ليرتكوا الريف ، وبسبب جاذبية المراكز الصناعية .

لكن تركيز يهود بولندا في المدن يعني أيضاً تركزه في التجارة وعالم المال . ففي المدن البولندية ، كان اليهود يشكلون ٩٠٪ وأحياناً ١٠٠٪ من التجار والحرفيين . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، كان ١٨ مصرفاً (٢٦ مصرفاً أساسياً في وارسو) في أيدي اليهود أو المسيحيين من أصل يهودي . وظهرت طبقة ثرية يهودية تستثمر في الصناعة ، ولكن أغلبية يهود بولندا العظمى كانوا من صغار التجار الفقراء .

ورغم تشوه البناء الطبقي لدى يهود بولندا فإنه ، مع منتصف القرن ، كان الاندماج الاقتصادي لأعضاء الجماعة يتزايد كما يتضح في الوظائف والمهن التي كانوا يشغلونها . ففي عام ١٨٥٧ ، كان ٤٤,٧٪ من جملة اليهود يعملون بالتجارة ، مقابل ٢٥٪ فقط في الحرف اليدوية والصناعات . واختلفت النسبة قليلاً عام ١٨٩٧ إذ انخفض عدد العاملين بالتجارة إلى ٤٢,٦٪ . ولكن الأهم من هذا أن عدد العاملين في الحرف والصناعات زاد إلى ٣٤,٣٪ ، كما زاد عدد التجار غير اليهود من ٢٧,٩٪ من مجموع التجار عام ١٨٦٢ إلى ٣٧,٩٪ عام ١٨٩٧ .

وظهرت طبقة من المهنيين اليهود ، وخصوصاً في وارسو ، حققت شيئاً من الحراك الاجتماعي . ولكن ، مع تعثر التحديث في شرق أوروبا ، وبعد تطبيق بعض قوانين مايو ١٨٨٨ الروسية (عام ١٨٩١) في بولندا ، تم طرد أعضاء الجماعة اليهودية من القرى وحُدّ النصاب المسموح لهم به . ونتج عن ذلك إغلاق أبواب الحراك الاجتماعي أمام هؤلاء المهنيين اليهود . وقد جاءت من صفوفهم معظم الزعامات الصهيونية واليهودية الأخرى . ويلاحظ تحول أعداد كبيرة من يهود روسيا إلى طبقة عاملة صناعية داخل منطقة الاستيطان ، وهي ظاهرة ظل يهود بولندا بمنأى عنها ، فقد ظلوا تجاراً صغاراً وكباراً وحرفيين تشكل الطبقة العاملة بينهم نسبة صغيرة إن لم تكن ضئيلة .

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، كان أعضاء الجماعة اليهودية محط شك القوات الروسية باعتبارهم متعاطفين مع الألمان . وبالفعل ، حينما احتل الألمان بولندا عام ١٩١٧ ، تحسّن وضع اليهود قليلاً . وانجبه الألمان نحو صيغ يهود بولندا بصيغة ألمانية بسبب زيادة العنصر الألماني في المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا . وصدر



عن الوضع المتعين ، فقد ازداد الوضع الاقتصادي لليهود تديناً وبدأت الفلسفات الشمولية تسيطر على نظم الحكم في أوروبا بأسرها ، وخصوصاً في ألمانيا . واستولى جوزيف بيلسودسكي على الحكم في بولندا عام ١٩٢٦ عن طريق انقلاب . ولم يكن هذا الانقلاب معادياً بالضرورة لليهود ، فقد نص دستور عام ١٩٣٥ على تساوي المواطنين كافة أمام القانون . ولكن الجو العام ، والبيئة الثقافية والاقتصادية للمجتمع ، كانا يلفظان اليهود ، فظهر حزب بولندي متطرف ذو توجهات نازية طالب بمصادرة أموال اليهود وتردهم ، وأصبح البرلمان البولندي نفسه منبراً لترديد الدعاية المعادية لليهود كعنصر غريب فاض يجب اجتثاثه من المجتمع البولندي . وزاد النشاط الاقتصادي للطبقة الوسطى البولندية في الثلاثينيات ، وحاولت أن تحصل على نصيب متزايد من التجارة والمهن ، وقامت بحركات مقاطعة للأعمال التجارية التي يمتلكها يهود بولندا وقفت وراءها الدولة . ولأن عملية التنمية في بولندا كانت تتم من خلال الدولة ، أكبر ممول رأسمالي آنذاك ، فإن عملية تضييق الخناق على أعضاء الجماعة اليهودية اكتسبت أبعاداً ضخمة ، فقامت محاولة لاستبعاد أعضاء الجماعة من سلك الحكومة وبنوك الدولة والاحتكارات التي تمتلكها الدولة ، مثل صناعة الطباخ ، واستبعادهم كذلك من سلك التجارة الخارجية (الذي كان مركزاً في أيديهم) . وقامت حركات مقاطعة أيضاً في المهن الحرة والحرف اليدوية . ويسبب توجيهها القومي الواضح ، ألقت الكنيسة الكاثوليكية في بولندا بثقلها وراء الحركات الشعبية المناهضة لليهود . وكانت كل هذه الحركات تهدف إلى طرد أعضاء الجماعة اليهودية من قطاعات اقتصادية معينة ، وهو أمر ممكن من الناحية النظرية ، ولكن لم يقابله اتجاه مماثل نحو خلق فرص اقتصادية جديدة في مجالات أخرى . والواقع أن الهدف كان طرد اليهود ونقلهم لا دمجهم في المجتمع . ومن هنا كان تأييد الحكومة البولندية للحركة الصهيونية وجهودها الرامية إلى تهجير اليهود إلى فلسطين . وقد بلغ عدد العاطلين عن العمل بين اليهود ٣٠٠ ألف عام ١٩٢٨ . ولذا ، شهدت هذه المرحلة استمرار الهجرة من بولندا ، حيث بلغ عدد الذين هاجروا في الفترة ١٩٢١ - ١٩٣٧ نحو ٣٣٥ ، ٣٩٥ هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فلسطين . ومع هذا بلغ عدد اليهود ٣ ، ٢٠٠ مليون عام ١٩٣٩ عشية الغزو النازي .

ورغم تردّي وضع اليهود ، فإن العناصر الليبرالية وقفت إلى جانب أعضاء الجماعة ، وكان ثمة أحزاب سياسية تنادي بالمساواة أمام القانون انخرطت في سلكها عناصر يهودية . كما يبدو أن معاداة اليهود لم تجرد طريقها إلى صفوف الطبقة العاملة البولندية ، وخصوصاً العناصر الثورية . ونظم حزب البولند عدة إضرابات من أجل حقوق اليهود أيدتها عناصر بولندية مسيحية . ولكن ، مع هذا ، كان تأييد اليهود الليبراليين والثوريين تأييد أقلية أقلية . وكما نوهنا من قبل ، كان وضع اليهود داخل التشكيل القومي البولندي وضعاً قلقاً يستند إلى تراث تاريخي معاد للجماهير ومصلحتها . وقد اتجه المجتمع البولندي ، شأنه شأن معظم المجتمعات الأوربية في تلك الفترة ، نحو مزيد من التطرف والاستقطاب . ففي مقابل التطرف القومي البولندي ، بدأ أعضاء الجماعة اليهودية يتجهون نحو مزيد من الانفصال فكان لهم ما يُسمى بالنادي البرلماني اليهودي (وهو جماعة ضغط تضم كل الممثلين اليهود داخل البرلمان البولندي) . وهذه الجماعة كان لها ثقلها ووزنها العددي ، ولذا كانت الحكومات البولندية تحاول خنقها ودها لضمان تأييدها . وقد سيطر أتباع الصهيونية العامة على هذا النادي ، فكانوا يشكلون عام ١٩٢٢ نحو ٥٠٪ من جملة النواب اليهود . وازداد الوضع تطرفاً ، فمع الثلاثينيات يلاحظ أن الصهانية العماليين والتصحيحين هم الذين استولوا على القيادة في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، وهم عناصر متطرفة من منظور الاندماج في المجتمع البولندي ، رافضون له تماماً ولا يرون حلاً للمسألة اليهودية إلا بتهجير اليهود من بولندا بل وإخلاء أوروبا من فائضها اليهودي ، أي أنهم كانوا يشكلون فرقة تطالب بحل نهائي وجذري للمسألة اليهودية . ويلاحظ أن الأحزاب الصهيونية في بولندا كانت أقوى الأحزاب الصهيونية في العالم . وإلى جانب الأحزاب الصهيونية ، كان يوجد حزب البولند الذي أصبح من أهم الأحزاب اليهودية في بولندا إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، بل إنه كان أكثر قوة من الصهانية . ولكن يبدو أنه كان يعبر عن قوته السياسية من خلال تحالفات مع الأحزاب السياسية (غير اليهودية) الأخرى . وإلى جانب هاتين القوتين ، كانت هناك أحزاب دينية تقليدية تحاول الانسحاب من المجال السياسي أو تكفي بتأييد الوضع القائم .

ولم يكن انعدام التجانس مقصوداً على المجال السياسي ، وإنما شمل المجال الثقافي كما يتضح من النظم التعليمية اليهودية المنفردة في منتصف الثلاثينيات . وقد كان للحركة الصهيونية شبكة من المدارس تضم مدرسة زراعية للتدريب على الاستيطان ومدارس حضانة وابتدائية وثانوية . كانت لغة التدريس فيها العبرية كما كان عدد الطلبة فيها ٧٨٠ ، ٤٤ طالباً . وكانت هناك شبكة أخرى تشرف عليها مؤسسة زيشو (الاختصار البولندي لمصطلح : المنظمة المركزية

عن الوضع المتعين ، فقد ازداد الوضع الاقتصادي لليهود تديناً وبدأت الفلسفات الشمولية تسيطر على نظم الحكم في أوروبا بأسرها ، وخصوصاً في ألمانيا . واستولى جوزيف بيلسودسكي على الحكم في بولندا عام ١٩٢٦ عن طريق انقلاب . ولم يكن هذا الانقلاب معادياً بالضرورة لليهود ، فقد نص دستور عام ١٩٣٥ على تساوي المواطنين كافة أمام القانون . ولكن الجو العام ، والبيئة الثقافية والاقتصادية للمجتمع ، كانا يلفظان اليهود ، فظهر حزب بولندي متطرف ذو توجهات نازية طالب بمصادرة أموال اليهود وتردهم ، وأصبح البرلمان البولندي نفسه منبراً لترديد الدعاية المعادية لليهود كعنصر غريب فاض يجب اجتثاثه من المجتمع البولندي . وزاد النشاط الاقتصادي للطبقة الوسطى البولندية في الثلاثينيات ، وحاولت أن تحصل على نصيب متزايد من التجارة والمهن ، وقامت بحركات مقاطعة للأعمال التجارية التي يمتلكها يهود بولندا وقفت وراءها الدولة . ولأن عملية التنمية في بولندا كانت تتم من خلال الدولة ، أكبر ممول رأسمالي آنذاك ، فإن عملية تضييق الخناق على أعضاء الجماعة اليهودية اكتسبت أبعاداً ضخمة ، فقامت محاولة لاستبعاد أعضاء الجماعة من سلك الحكومة وبنوك الدولة والاحتكارات التي تمتلكها الدولة ، مثل صناعة الطباخ ، واستبعادهم كذلك من سلك التجارة الخارجية (الذي كان مركزاً في أيديهم) . وقامت حركات مقاطعة أيضاً في المهن الحرة والحرف اليدوية . ويسبب توجيهها القومي الواضح ، ألقت الكنيسة الكاثوليكية في بولندا بثقلها وراء الحركات الشعبية المناهضة لليهود . وكانت كل هذه الحركات تهدف إلى طرد أعضاء الجماعة اليهودية من قطاعات اقتصادية معينة ، وهو أمر ممكن من الناحية النظرية ، ولكن لم يقابله اتجاه مماثل نحو خلق فرص اقتصادية جديدة في مجالات أخرى . والواقع أن الهدف كان طرد اليهود ونقلهم لا دمجهم في المجتمع . ومن هنا كان تأييد الحكومة البولندية للحركة الصهيونية وجهودها الرامية إلى تهجير اليهود إلى فلسطين . وقد بلغ عدد العاطلين عن العمل بين اليهود ٣٠٠ ألف عام ١٩٢٨ . ولذا ، شهدت هذه المرحلة استمرار الهجرة من بولندا ، حيث بلغ عدد الذين هاجروا في الفترة ١٩٢١ - ١٩٣٧ نحو ٣٣٥ ، ٣٩٥ هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فلسطين . ومع هذا بلغ عدد اليهود ٣ ، ٢٠٠ مليون عام ١٩٣٩ عشية الغزو النازي .

ورغم تردّي وضع اليهود ، فإن العناصر الليبرالية وقفت إلى جانب أعضاء الجماعة ، وكان ثمة أحزاب سياسية تنادي بالمساواة أمام القانون انخرطت في سلكها عناصر يهودية . كما يبدو أن معاداة

عمالة يهودية . وكان على اليهود الذين يزيد عمرهم على عشرة أعوام أن يلقوا بجمعة داود . كما صودرت أموال عديد من اليهود . ولكن أهم أعمال النازيين في هذا المضمار تأسيس جيتو وارسو، وكان مؤسسة من مؤسسات الحكم الذاتي ينطلق من الإيمان الصهيوني بأن اليهود شعب عضوي وأن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (تعريف قوانين وورمبرج وقانون العودة) وكانت علاقة الدولة النازية بجيتو (دولة) وارسو علاقة استغلال استعمارية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمصر أو علاقة الدولة الصهيونية بالضفة الغربية .

وقامت حركة مقاومة بولندية قوية ضد النازيين اشترك فيها أعداد من اليهود ، ونظمت انتفاضة جيتو وارسو في أبريل عام ١٩٤٣ . ولكن ، يبدو أن الصهاينة لم يشتركو في هذه الانتفاضة بصورة كافية بدعوى أن حل مشكلة اليهود لا يتم داخل إطار الوطن الأم وإنما عن طريق الهجرة إلى فلسطين .

ومع نهاية الحرب ، بلغ عدد يهود بولندا ٢٥٠,٠٠٠ (وفي إحصاء آخر أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير) ، وحلت الأحزاب الصهيونية البولندية والبوند عام ١٩٤٩ ، سُمح للصهاينة بالهجرة ، وبدأت نقط التجمع السكانية اليهودية في الاختفاء . ورغم إعادة توطين ٢٥ ألف يهودي بولندي من الذين فروا من بولندا إلى الاتحاد السوفيتي إبان الحرب ، إلا أن أبواب الهجرة إلى إسرائيل تفتحت ، فهاجر ١٤٠ ألفاً بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٨ (ويتضمن هذا الرقم اليهود من أعيد توطينهم في بولندا بعد فرارهم إلى الاتحاد السوفيتي إبان الحرب) . وتمت تصفية الجماعة اليهودية نهائياً بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ حين هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل والولايات المتحدة ، بحيث لم يبق في بولندا سوى ستة آلاف يهودي .

ويبلغ عدد يهود إسرائيل من أصل بولندي نحو ٤٧٠ ألفاً ؛ منهم ١٧٠ ألفاً هم من هاجروا قبل عام ١٩٤٨ (ونسلهم) ، والباقي (٣٠٠ ألف) هم من هاجروا بعد ذلك التاريخ . ومعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة في إسرائيل من أصل بولندي ، أي من يهود اليديشية ، فمهن بن جوربون وبيجين وشامير وبيريس . وإذا أضفنا إلى هؤلاء أعضاء النخبة من أصل روسي ، وهم أيضاً من يهود اليديشية ، فيمكن القول بأن نخبة من يهود اليديشية تحكم إسرائيل . وقد استفادت البقية الباقية من أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا من جو الانفتاح السياسي والاقتصادي في شرق أوروبا ، ومن الدعم الغربي لثقافة التضامن . ولكن جو الانفتاح أدى أيضاً إلى تصاعد القومية البولندية وثيقة الصلة بالكاثوليكية وهو ما أدى إلى

للمدارس اليديشية) وهي شبكة مشبعة بالروح الاشتراكية والثقافية اليديشية ، وكانت لغة الدراسة فيها هي اليديشية ، وكان عدد الطلبة في هذه الشبكة ٤٨٦, ١٥ ألفاً . كما كان يوجد عدد من المدارس التجارية لغة الدراسة فيها هي اليديشية . وكان هناك شبكتان من المدارس الدينية يشرف على الأولى منظمة المزارحي (الدينية الصهيونية) تضم عدد مدارس دينية ابتدائية وثانوية وكليات دراسات دينية عليا ، وكانت لغة التدريس في هذه المدارس العبرية والبولندية . وأخيراً ، كانت هناك شبكة دينية تتبع المؤسسة الدينية الأرثوذكسية لغة التدريس فيها اليديشية .

وإلى جانب ذلك ، كان هناك اليهود الذين التحقوا بالنظام التعليمي الحكومي . وقد تلقى هؤلاء الدروس بالبولندية . ففي إحصاء عام ١٩٣١ ، قرر ٣٠٠,٣٨١ يهودي أن لغتهم الأصلية البولندية ، كما كان هناك أولئك الذين سافروا إلى غرب أوروبا للدراسة .

#### بولندا من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

Poland from the Second World War to the Present

انتحرت موجة معاداة اليهود بعد الهجوم النازي على براغ عام ١٩٣٩ ، وانخرط اليهود في سلك الجيش البولندي للدفاع عن الوطن ، وقامت السلطات البولندية بالقبض على زعماء الجماعات المعادية لليهود . وفي العام نفسه ، تم تقسيم بولندا إذ ضم الاتحاد السوفيتي رقعة من بولندا تضم ثلث سكانها وعدد كبيراً من اليهود يبلغ ١,٣٠٩,٠٠٠ . أما بقية بولندا ، فخضعت للنقوذ الألماني . وضمت ألمانيا الجزء الغربي متضمناً مدينة لودز الصناعية . أما باقي بولندا ، فكانت تحكمه حكومة بولندية تابعة لألمانيا تسمى «الحكومة العامة» . وكانت المنطقة الأولى تضم ٦٣٢,٠٠٠ يهودي ، أما منطقة الحكومة العامة فكانت تضم ١,٢٦٩,٠٠٠ ، إداد إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤١ (أي ١٢٪ من السكان) . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد اليهود الحاضرين لحكم النازي كان يبلغ ٢,٠٤٢,٠٠٠ .

وقد حول النازيون التمييز العنصري إلى عملية منهجية منظمة من خلال مجموعة من القوانين تم إصدارها لهذا الغرض . وكان كثير من هذه القوانين تهدف إلى تسخير قطاعات الشعب البولندي كافة لخدمة النظام النازي ، ولكننا سنقتصر هنا على الإشارة إلى تلك القوانين التي تخص أعضاء الجماعة اليهودية . وقد صدر مرسوم عام ١٩٣٩ فرض أعمال السخرة على اليهود وتم بمقتضاه تكوين فرق

أ) المجلس المركزي للجمعية الثقافية والاجتماعية لليهود بولندا واختصاره TSKZ . وترسل الجماعة اليهودية مراقبين لاجتماعات المؤتمر اليهودي العالمي .  
ب) أما المنظمة الدينية الأساسية فهي الجمعية الموسوية الدينية . وهناك أربعة معابد يهودية ، ولكن لا يوجد حاخامات محليون ، ولذلك يتم إحضار حاخامات من الخارج (في الغالب من المجر) لإجراء الشعائر الدينية في الأعياد الدينية المهمة .

الصدام مع الجماعة اليهودية داخل وخارج بولندا ، وخصوصاً بشأن قضية الإبادة ، إذ تحاول المؤسسة الصهيونية احتكار رموز الإبادة وفرض مضمون صهيوني عليها ، الأمر الذي يرفضه البولنديون الذين ذاقوا الأمرين من النازي ، ربما بدرجة تفوق ما لحق بأعضاء الجماعات اليهودية .  
ومن التنظيمات والمؤسسات التي ينتظم فيها أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا :



١٠

## روسيا القيصرية حتى عام ١٨٥٥

روسيا من القرن التاسع حتى التقسيم الأول لبولندا- روسيا من تقسيم بولندا حتى عام ١٨٥٥ -  
الكسندر الأول- نيقولا الأول- منطقة الاستيطان اليهودية في روسيا- أوديسا- الترويس

## روسيا من القرن التاسع حتى التقسيم الأول لبولندا

Russia, from the Ninth Century to the First  
Partition of Poland

الجماعات اليهودية من دخول روسيا إلا لأسباب خاصة مثل  
حضور سوق تجاري أو غيره من الأسباب . وظل هذا الحظر أحد  
ثوابت السياسة الروسية حتى تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن  
عشر .

ولعل خوف روسيا القيصرية من أعضاء الجماعات اليهودية هو  
خوف العناصر الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية  
واسعة في دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعت بعد (ولم تدعم  
لمدة طويلة نظراً لترامي أطراف البلاد ونظراً لأنه عنصر تجاري له  
مصالحه المالية الخاصة التي لا تتفق بالضرورة مع مصالح الدولة) .  
كما أن هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن في صالحها البتة  
السماح لليهود بالاستقرار ، من أهمها التجار الروس الذين كانوا  
يرزحون تحت عبء الضرائب والذين كان عليهم أن يدخلوا منافسة  
غير متكافئة مع بعض أعضاء طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة  
والذين كانوا يتمتعون بزبائيا عديدة وبمساندة البيروقراطية الحكومية .  
بل كان هؤلاء التجار يجدون أنفسهم (أحياناً) في منافسة مع  
الفلاحين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والصناعات المنزلية ، كل  
هذا داخل سوق محدودة مكبلة بالقوانين الإقطاعية الاستبدادية التي  
لا حصر لها . وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الحجم المالي للتجار الروس  
كان صغيراً في معظم الأحوال ، لأدركنا سبب وقوف التجار الروس  
ضد دخول العنصر اليهودي التجاري النشط الذي لا تكبله القيم  
المسيحية أو القوانين الطبقيّة والذي يتحكم في رأسمال سائل لا بأس  
به . ووجد هذا الموقف صدى في نفس حكومة كانت تكتسب شيئاً  
من شرعيّتها باعتبارها الأرثوذكسية . ورغم أن الفكر الماركسي وجد  
طريقه إلى روسيا في مرحلة لاحقة ، إلا أن التجار استمروا في  
معارضة نشاط اليهود التجاري وفي المطالبة بالحد منه حتى اندلاع  
الثورة البلشفية .

ومن الثوابت الأخرى التي كانت عنصراً قوياً ومحددأ في  
السياسة الروسية القيصرية أن اليهود كانوا يشكلون عنصراً متحرراً  
غير مستقر على رقعة أرض مقصورة عليهم ، كما هو الحال مع

يوجد وجود الجماعات اليهودية في روسيا إلى القرن التاسع  
الميلادي حين توسعت مملكة الخزر اليهودية في وادي الفولجا ومناطق  
أخرى من روسيا . وقد اشترك يهود الخزر ، حسبما ورد في  
الموروثات الشعبية الروسية ، في المناظرة الدينية التي عقدت بين ممثلي  
الديانات التوحيدية الثلاث عام ٩٨٦ أمام أمير كييف وقد اعتنق  
بعدها المسيحية وأصبحت الأرثوذكسية هي الدين الرسمي لروسيا .  
وبعد أن استقر اليهود في المدينة باعتبارها مركزاً تجارياً يربط بين منطقة  
البحر الأسود وآسيا وغرب أوروبا وأصبح لهم جيتو خاص بهم ،  
قبولوا بعداءة شديدة من بلد اعتنق المسيحية لتوه ويضم طبقة تجار  
بدائية للغاية .

وبعد غزو التتار لروسيا في القرن الثالث عشر وتدهور إمارة  
كييف ، زاد النشاط التجاري لأعضاء الجماعة لأن الإمبراطورية  
التتارية جمعت الجماعات اليهودية كافة داخل إطار سياسي واحد  
سهّل عملية انتقالهم . كما يبدو أن التتار كانوا يعتبرون اليهود من  
ذوي القرى باعتبار أن الجميع من أصل تركي .

وفي القرن الخامس عشر ، ظهرت فرقة متهودة بين الروس في  
مدينة نوفجورود . ورغم أنه تم القضاء عليها ، فإنها عمقت مخاوف  
المؤسسة الدينية الأرثوذكسية من اليهود . واستمرت الحركة التجارية  
لأعضاء الجماعة اليهودية ، مع هذا ، من وإلى روسيا .

وكان إيغان الرهبان (١٥٣٣ - ١٥٨٤) أول حاكم روسي يقرر  
طرد أعضاء الجماعة اليهودية من روسيا ، ويعود هذا إلى رغبته في  
استبعاد أية عناصر تجارية أجنبية . ويعود الفترة التي تُعرف باسم «زمن  
التناعب» في التاريخ الروسي (١٥٩٨ - ١٦١٣) والتي شهدت اعتلاء  
أمير بولندي العرش الروسي ، ونشوب حرب أهلية ، زاد عمق  
الرفض الروسي لليهود حيث إن معتصمي العرش من البولنديين  
أحضروا معهم كثيراً من صنائعهم اليهود . لكل هذا ، مُنع أعضاء

يشغلون بهتريه البضائع ويهربون من الضرائب نظراً لوجودهم في المنطقة الحدودية وبسبب استخدامهم اليدوية وسيلة للتفاهم ، الأمر الذي يسر لهم عمليات التهريب والتهرب والتلاعب بالأسعار . ومع هذا ، ظلت نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة تعاني من الفاقة ، فكان هناك ٢١٪ منهم بدون وظيفة محددة .

ولكن لم يكن التمييز وظيفياً أو طبقياً وحسب وإنما كان ثقافياً ولغوياً . وأعضاء الجماعة اليهودية كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة يدين أعضاؤها باليهودية ويتحدثون اليديشية ويمثلون المصالح المالية للنبيل البولندي الذي يتحدث البولندية ويدين بالكاثوليكية بين الفلاحين والأثنان الأوكرانيين الذين يتحدثون الأوكرانية ويدينون بالمسيحية الأرثوذكسية . وأعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية هم عنصر ألماني يعيش في وسط سلافي ، ويظهر تميزهم حتى في الطريقة التي كانوا يحلقون بها رؤوسهم (واللحية والسوالمف) وفي أزيائهم المتميزة (كفتان) وفي أسمائهم . كما تظهر عزلتهم في نظامهم التعليمي المقصور عليهم ، وفي الشتلات التي أسسها لهم النبلاء الإقطاعيون البولنديون (وهي مدن صغيرة تضم التجار والوكلاء والحرفيين اليهود) . وكان اليهود يكوّنون أغلبية السكان في هذه المدن الصغيرة ، وهو ما كان يعني عدم احتكاكهم بالسكان . كما كانت تعيش أعداد كبيرة منهم في بعض القرى . كانت هذه الكتلة البشرية اليديشية اليهودية على وشك الزيادة الهائلة إثر انفجار سكاني لم تعرف الجماعات اليهودية مثيلاً له في التاريخ . وهي برغم عزلتها ، لم تكن متماسكة ، إذ كانت الصراعات الاجتماعية قد بدأت تترك أثرها في مؤسسة القهال ، وهي منازعات أخذت شكل الصراع بين الحسيديين ومعارضيه من أعضاء المؤسسة الحاخامية الذين أطلق عليهم المنتجلم . وكانت المنطقة التي ضمتها روسيا تضم أهم مناطق تركيز الحسيديين وأهم المدارس التلمودية العليا (شيفسا) الخاصة بالمنتجلم في ليتوانيا . وضمت روسيا ، كما تقدّم ، بودوليا التي كانت مركز الحركة الفرانكية والحسيدية . وحينما دخلتها القوات الروسية ، أطلقت سراح فرانك ، وكانت اليهودية الحاخامية قد دخلت أزماتها الكبرى . وفجأة ، وجدت هذه الكتلة البشرية نفسها تابعة لتشكيل اقتصادي سياسي حضاري جديد (روسيا القيصرية) ، تشكيل كان يرى دائماً ضرورة نبذهم والتخلص منهم ، تسيّره حكومة استبدادية متخلفة لا تسمح بالتنوع الدينية أو الفكرية أو المهنية ، سياستها في جوهرها هي سياسة الملوك المطلقين المستبدتين المستنيرين على نحو ما كان في وسط أوروبا والنمسا وألمانيا (أي التحديث بالقوة ومن فوق) . ولم تكن لدى هذه الحكومة أية خبرة

الشمعوب والأقوام والأقليات والطوائف الأخرى داخل الإمبراطورية ، الأمر الذي خلق لهم وضعاً خاصاً ومشاكل معينة . وقد ضمت روسيا مقاطعة روسيا البيضاء في أول تقسيم لبولندا عام ١٧٧٢ ، وضمت في التقسيم الثاني منطقة منسك في الشمال وفولينيا (في مقاطعة كييف) ومنطقة بودوليا في الجنوب ، أي أنها ضمت بذلك أوكرانيا كلها . ثم ضمت في التقسيم الثالث ليتوانيا . وقد ضمت كل هذه المقاطعات (وضمن ذلك كورلاند وبيلستوك التي حصلت عليهما روسيا فيما بعد) إلى روسيا نفسها ، بينما أصبحت بولندا المركزية (التي كانت تضم نحو ثلاثة أرباع دوقية وارسو النابوليونية) تكوّن ما يسمّى «بولندا المؤقّر» أو «بولندا الروسية» (وكان اسمها الرسمي «مملكة بولندا» حتى عام ١٨٣٠ كما كان لها دستورها الخاص) . وكانت هذه المقاطعات تضم أغلبية يهود شرق أوروبا (يهود اليديشية) الذين انطلقوا من هذه المناطق بعد ضمها ، واستوطنوا المناطق الجنوبية من روسيا وساحل البحر الأسود ومقاطعة بيسارابيا ، وهي مناطق كانت تابعة للدولة العثمانية ، وقامت روسيا بضمها باسم «روسيا الجديدة» (كانت توجد جماعات يهودية أخرى فيها ولكنها كانت جماعات صغيرة للغاية ولم يكن لها مسألة يهودية فقد كانت مندمجة تماماً في محيطها الحضاري) . ولذا فرغم وجود جماعات يهودية إلا أننا نتحدث في معظم الوقت عن «الجماعة اليهودية» وحسب ، وتعني «يهود اليديشية» لأنهم كانوا الأغلبية الساحقة وكذلك كانوا أصحاب «المسألة اليهودية» . كما تسللت مجموعات صغيرة من اليهود إلى وسط روسيا نفسها . وكان وضع أعضاء الجماعة اليهودية في المناطق البولندية متميزاً تماماً من الناحية الثقافية والاجتماعية والوظيفية . إذ كانت أعداد كبيرة منهم تحمل بنظام الأرندا (استئجار عوائد القرى وضمناها الضرائب والمطاحن والغابات والحانات من النبلاء البولنديين الغائبين) كما كان بين اليهود تجار وأصحاب حوانيت وياعة جائلون . وكان الباقون حرفيين يعملون للنبيل الإقطاعي والفلاح . وحسب التقديرات ، كان التركيب الوظيفي لليهود على النحو التالي : ١٪ فقط كانوا يعملون في الزراعة ، و٣٪ في الأعمال الدنيية ، و٣٠٪ يعملون في نظام الأرندا ، و٣٠٪ يعملون في التجارة والرهونات ، و١٥٪ في الحرف المختلفة .

وكان من أهم الوظائف التي يضطلع بها اليهود ، والتي أصبحت جزءاً أساسياً من مشكلتهم ، تقطير الخمر وبيعها في الحانات التي استأجروها من النبلاء في إطار نظام الأرندا . كما يلاحظ أن التجارة اليهودية كانت تجارة طفيلية ، وكان التجار اليهود

نظراً لاضطرار روسيا إلى الاعتماد على نفسها . وعلى سبيل المثال ، كانت روسيا تملك عام ١٨٠٤ نحو ١٩٩ مصنع قطن زاد إلى ٤٢٣ عام ١٨١٤ ، وزادت واردات القطن من الولايات المتحدة من ٢٠٤ أطنان عام ١٨٠٩ إلى ٣٧٨٧ طن عام ١٨١١ .

ومن كل هذه الحقائق ، يمكن القول بأن الاقتصاد الروسي لم يكن في حاجة إلى أعضاء الجماعة اليهودية . ومع هذا ، تم ضمهم نتيجة توسع الدولة القيصرية . ولم تكن المسألة اليهودية المسألة الوحيدة التي جابهتها الحكومة القيصرية ، فقد كان هناك مسألة إسلامية ومسألة تترية ومسألة بولندية ومسألة أوكرانية ، إذ كانت الإمبراطورية القيصرية مترامية الأطراف تضم مئات الأقليات والتشكيلات الحضارية المختلفة التي كانت تحاول أن تفرض عليها ضرباً من الوحدة حتى تتمكن الحكومة المركزية من التعامل معها . وقسمت الحكومة القيصرية هذه الأقليات إلى قسمين أساسيين : الأقليات السلافية (أوكرانيا وبولندا وغيرهما) ، والأقليات غير السلافية . وكان يُقَلَّق على الأقليات غير السلافية مصطلح «الإنورودستي inorodty» . وهذه كلمة روسية كانت تشير في بادئ الأمر إلى قبائل السكان الأصليين التي تقطن سيبيريا ، ثم اتسع نطاق الكلمة الدلالي فأصبحت تشير إلى كل الشعوب غير السلافية . وكانت السياسة العامة تهدف إلى ترويسهم . وغني عن البيان أن إجراءات الترويس ، بالنسبة للأقليات غير السلافية ، كانت أكثر راديكالية وعتفاً ، وخصوصاً إذا كانت تلك الأقليات لا تدين بالمسيحية (ومع هذا ينبغي الإشارة إلى أن اللون أو العرق بدأ يكتسب دلالة محورية مع تصاعد معدلات العلمنة في الإمبراطورية الروسية وتعمق الرؤية العرقية . وحيث إن يهود اليديشية كانوا من البيض ، ومع تزايد معدلات ترويسهم ، أعيد تصنيفهم بحيث أصبحوا «روساً» ووطنوا على هذا الأساس في روسيا الجديدة وفي الخانات التركية التي ضمتها روسيا وذلك باعتبارهم عنصرأ روسياً استيطانياً) . ومهما كان الأمر ، فإن الإمبراطورية القيصرية كانت «سجناً للشعوب» .

وقد بدأت الحكومة القيصرية علاقتها بأعضاء الجماعات اليهودية بالاعتراف بالقهايل وبصلاحياته الدينية والقضائية ، كما تم الاعتراف بالجماعة اليهودية (اليديشية) بوصفها جماعة مستقلة في المدن والقرى . وفي عام ١٧٨٣ ، صُنِّف اليهود ضمن سكان المدن وأصبحت لهم حقوق غير اليهود نفسها (مثلاً : انتخاب مجالس المدن والبلديات وحق التمثيل فيها) .

واستقر بعض التجار اليهود في موسكو وسمولنسك ، فدخلوا

باليهود أو مشاكلهم ، كما أن روسيا نفسها كانت على عتبات انفجارات اجتماعية ضخمة نتيجة عملية التحديث والعلمنة التي كانت تخوضها (وهي انفجارات أدت في نهاية الأمر إلى قيام الثورة البلشفية) . وتاريخ المسألة اليهودية في روسيا هو تاريخ الاحتكاك بين الكتلة البشرية اليهودية المنزلة ، بكل تحلُّفها ومشاكلها وتميُّزها من جهة ، والبيروقراطية القيصرية المتخلفة بكل وحشيته وتمعُّبها وانعدام كفاءتها من الجهة الأخرى .

وظلت المشكلة قائمة دون حل . وكلما احتدمت الأزمة ، كانت الحكومة الروسية تشكل لجنة لدراسة الموقف لترفع بدورها توصياتها للحكومة . وكانت هذه التوصيات تستند في معظم الأحيان إلى فلسفات شمولية مطلقة ، وتنع من جهل عميق بالآليات الظواهر الاجتماعية ويتولى تنفيذها جهاز تنفيذي متعصب جاهل فاسد يتسم بعدم الكفاءة . وظل التناقض الأساسي في سياسة الحكومة القيصرية بين رغبتها في التحديث والتنمية الاقتصادية من جهة والشكل الاستبدادي السياسي الذي يُعشَل كل المحاولات التي تستهدف حل المسألة اليهودية من جهة أخرى . وقد تعثر تماماً تحديث اليهود بل تحديث المجتمع ككل ، في أواخر القرن التاسع عشر ، واحتدم التناقض بين الحقيقة الاجتماعية والشكل المتكلس ، الأمر الذي نجمت عنه مجموعة من الاضطرابات والثورات انتهت بالثورة البلشفية التي حلت المسألة اليهودية والمسائل القومية الأخرى بطريقة نوعية مختلفة .

#### روسيا من تقسيم بولندا حتى عام ١٨٥٥

Russia, from the Partition of Poland to 1855

أدى تقسيم بولندا إلى ضم أجزاء كبيرة منها إلى روسيا ، وبذلك ضمت روسيا أجزاء كبيرة من الكتلة البشرية اليهودية اليديشية . ولأن النبلاء البولنديين كان محروماً عليهم التجارة (حيث تفرغوا لأعمال السياسة والحرب) ، وكان الأثنا ملتصقين بالأرض ، كما كانت طبقة التجار ضعيفة للغاية ، اضطلع اليهود بوظيفة طبقة التجار والحرفيين وأصبحوا جماعة وظيفية وسيطة . هذا على عكس روسيا إذ لم تكن التجارة هناك مهنة وضيعة ، وكانت هناك طبقة من الحرفيين تزداد قوة . كما كانت الحكومة نفسها تقوم بالتجارة ووظطلع بعض النبلاء بالوظيفة نفسها .

وكانت روسيا ، من الناحية الاقتصادية ، مستعمرة إنجليزية أو منطقة نفوذ للاقتصاد الإنجليزي . وبعد الحصار الذي فرضه نابليون على إنجلترا على نطاق القارة كلها ، حدث تقدُّم صناعي وتجاري

بضرورة إبعادهم عن استئجار الحانات أو استئجار الأراضي الزراعية بهدف الربح (حتى يمكن تحويلهم إلى عنصر اقتصادي منتج) . ولتنفيذ هذا المخطط ، وُضِعَ تحت تصرفهم بعض أراضي القيصرة ، وأُنفِي المزارعون اليهود من الضرائب لمدة تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام ، كما أنهم لم يُصنّفوا كأقنان مرتبطين بالأرض ، بل احتفظوا بحقوقهم في حرية الحركة والسكنى . ووعدت الحكومة كذلك بتقديم العون للمصانع التي تقوم باستئجار العمال والحرفيين من أعضاء الجماعة اليهودية . وُسِّحَ للعمالين بالصناعة من أعضاء الجماعة اليهودية أن يستقروا داخل روسيا ، وضمن ذلك موسكو وسانت بطرسبرج . كما حدّ القانون الأساسي من سلطة القهال ، وأصبح تنظيم الأمور الدينية والعبادات من اختصاص المحاكمات الذين كان يتم اختيارهم دون الرجوع إلى القهال . ولم تتجاوز صلاحيات القهال ، في القانون الأساسي ، تحديد الضرائب وجمعها وإحصاء عدد السكان اليهود . وتقرر ألا يوجد سوى قهال واحد في كل مدينة ، كما سُمح لكل فرقة دينية بأن يكون لها معبدها اليهودي وحاحاها الخاص (الأمر الذي أدّى إلى تحميم وضع الحسيدين) وُفِّتحت أبواب المدارس الحكومية العلمانية أمام أعضاء الجماعة اليهودية . وتقرر أنه ما لم يرسل اليهود أولادهم فإنه سيتم فتح مدارس يهودية علمانية خاصة على حساب أعضاء الجماعة اليهودية . وأصبح من شروط شغل وظيفة حاخام ، أو عضوية مجلس إدارة القهال أو البلدية ، معرفة الألمانية أو الروسية أو البولندية . كما تقرر أن يكتب أعضاء الجماعة جميع وثائقهم وأوراقهم التجارية بإحدى اللغات الثلاث دون العبرية أو اليديشية . وأكد القانون حق اشتراك اليهود في الانتخابات الخاصة بالحكومات المحلية ومُنِعَ ارتداء الأزياء اليهودية التقليدية وقص الشعر على الطريقة اليهودية وترك السوالف ، وأصبح توجيه تهمة الدم جريمة يعاقب عليها القانون (١٨١٨) . وكانت استجابة الجماعات اليهودية سلبية إلى أقصى درجة ، وصاموا حداداً على صدور هذه القرارات بل اقترحت بعض القهالات تأجيل الإصلاحات إلى فترة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاماً .

ولم تتجح الحكومة القيصرية في تنفيذ توصيات اللجنة بسبب ضعف البيروقراطية وفساد النظام الإداري (فكثيراً ما كان الموظفون يتقاضون الرشوى ويتفاوضون عن تعليمات الحكومة) ، وبسبب عدم الثقة المتبادل بين الحكومة وأعضاء الجماعة اليهودية . كما أن القرارات الخاصة بنقل أعضاء الجماعة اليهودية من القرى لم تكن واقعية إذ أن وجودهم فيها لم يكن أمراً من اختيارهم وإنما واقعاً

في منافسة مع التجار المسيحيين بطرق شرعية وغير شرعية . وحينما اشتكى تجار موسكو من هذا الوضع ، صدر فرمان عام ١٧٩١ يحظر على اليهود الاتجار بخارج روسيا البيضاء . ويُعدّ هذا فرمان الأساس القانوني لمنطقة الاستيطان ، وقد سُمح لمجالس القهال بأن تستمر في عملها بكل صلاحياتها .

وشهدت هذه المرحلة قيام روسيا بضم بعض الإمارات الإسلامية التابعة لتركيا على ساحل البحر الأسود ، وسُمّيت هي ومناطق أخرى باسم «روسيا الجديدة» . ولما كان أعضاء الجماعات اليهودية يُنظَر إليهم ، في التشكيل الحضاري الغربي ، باعتبارهم عنصراً ريادياً حركياً وجماعة وظيفية استيطانية يمكن استخدامها في مثل هذه العملية ، كما فعل شارلمان من قبل وكما فعلت القوات المسيحية في إسبانيا والنبلاء البولنديون في أوكرانيا والاستعمار الغربي في فلسطين فيما بعد ، قامت الحكومة القيصرية بتشجيعهم على الاستيطان في المناطق الجديدة ، باللاجوء إلى طريقة الطرد والجذب ، فوضعت الضريبة المفروضة على التجار اليهود في الإمبراطورية ، بينما أعفي المستوطنون في روسيا الجديدة من الضرائب كافة . واستثنى هذا المرسوم اليهود القرائين ، وكان هذا أيضاً أحد ثوابت السياسة القيصرية تجاه اليهود . وفي الوقت نفسه ، تفاقمت مشكلة السُكْر بين الفلاحين ، وساعدت المجاعة التي وقعت عام ١٧٩٧ على تعميق المشكلة . ورغم أن اليهود كانوا السبب الواضح والمباشر أمام الجميع (إذ أن أغلبية صانعي الخمر وياتعياها كانوا من اليهود ، كما أنهم هم الذين كانوا يديرون معظم الحانات) ، إلا أنهم لم يكونوا في واقع الأمر السبب الحقيقي لإدمان الفلاحين الروسيين المشروبات الكحولية . وشكّلت لجنة لبحث المسألة اليهودية في روسيا برئاسة الشاعر الروسي السناتور جافريل ديرجافين (١٧٤٣ - ١٨١٦) الذي رأى أن اليهود يستغلون الفلاحين الروس وأن عزلتهم الطبقيّة والحضارية هي سبب العداة ضدهم . وبناء على ذلك ، طالب ديرجافين بضرورة ترويسهم بالقوة وتغيير بنائهم الاقتصادي والوظيفي حتى يتسنى استيعابهم كيهود نافعين في المجتمع الروسي . ووضع بذلك الإطار الأساسي لجميع المحاولات التي بذلتها الحكومة القيصرية لحل المسألة اليهودية .

وبعد أن اعتلى ألكسندر الأول العرش (١٨٠١ - ١٨٢٥) ، شكّلت لجنة تدعى مجلس الشؤون اليهودية التي أصدرت قراراتها عام ١٨٠٤ ، والتي سميت «قانون اليهود الأساسي» أو «مستور اليهود» . وجاء ضمن هذه القرارات أن اليهود يجب نقلهم خارج المناطق الزراعية بين عامي ١٨٠٧ و ١٨٠٨ ، كما أوصت القرارات

العادة) لتسليمهم إلى الحكومة ، وهو ما زاد حدة الصراعات الاجتماعية . ويلاحظ أن هذا القانون لم يُطبَّق على يهود بولندا وحسب وإنما كان يُطبَّق على الروس كافة من مسيحيين وغيرهم . وكان الاختلاف الوحيد في عدد المجندين ، فبينما كانت النسبة ٧ من ألف بين المسيحيين ، كانت ١٠ من ألف بين غير المسيحيين . وأُعفي المثقفون والتجار والحرفيون من الخدمة العسكرية نظير ألف روبل ، كما أُعفي العاملون في القطاع الزراعي في مرحلة لاحقة . وكان الهدف من الخدمة العسكرية هو مزيد من الدمج والترويض القسريين . ومع هذا ، كان نظام التجنيد قاسياً بل غير إنساني ، وذلك لصغر سن المجندين على وجه الخصوص . ولكن لم يُجنَّد في نهاية الأمر سوى عدد صغير من أعضاء الجماعة اليهودية يتراوح بين ٢٦ و٦٠ ألفاً في فترة ٢٨ سنة . فإذا أخذنا بالمتوسط وهو ٤٥ ألفاً ، فإن هذا يعني أن عدد المجندين لا يزيد على ألف وخمسمائة مجند في السنة من مجموع يهود روسيا البالغ عددهم آنذاك ثلاثة ملايين .

ثم صدر قرار عام ١٨٣٥ لم يكن مختلفاً في جوهره عن قرار عام ١٨٠٤ ، فأعيد بمقتضاه تجنيد منطقة الاستيطان . وحرّم القانون استئجار الخدم المسيحيين ، وحظر على أعضاء الجماعة اليهودية الزواج المبكر ، وحدد الحد الأدنى لسن الزواج بشماني عشرة سنة للذكور وست عشرة سنة للإناث ، كما حظر استخدام البديشية أو العبرية في الأعمال التجارية وغيرها من النشاطات . وحددت المهن التي يُسمح لأعضاء الجماعة اليهودية أن يعملوا فيها ، كما حرّم عليهم (عام ١٨٢٥) دخول القرى .

وأبقى القانون على القهال ليقوم بجمع الضرائب وتطبيق القوانين الروسية ، وليصبح مسئولاً عن الأمور الدينية والحيرية ، وصرح ببناء المعابد شريطة أن تكون على مسافة معقولة من الكنائس ، واعتبر المخاطبات موظفين حكوميين لا تقتصر مهمتهم على الجوانب الدينية فأصبح من واجبهم الرقابة على الجوانب الأخلاقية العامة وعلى أداء أعضاء الجماعة اليهودية لواجباتهم المدنية للدولة والمجتمع . وفتحت أمام أعضاء الجماعة اليهودية أبواب المدارس العامة ، وفُرِضت الرقابة على كتبهم (عام ١٨٣٦) .

ويبدو أن الحكومة القيصرية بدأت تشعر في هذه المرحلة بأن ما سمته الروح التلمودية (وليس اليهودية نفسها) هو سبب عزلة اليهود . ولذا ، قامت الحكومة باستشارة أترياء اليهود الروس باعتبارهم خبراء في الشؤون اليهودية ، كما طلبت العون من المفكرين اليهود دعاة التنوير ومن يهود الغرب الذين تمّ تحديدهم . وكانت نتيجة

اجتماعياً فرضته عليهم ظروفهم والظروف الاقتصادية المحيطة بهم ، فقد كان أعضاء الجماعة يقومون في واقع الأمر بوظيفة مهمة بالنسبة للريف الروسي حتى ولو كانت لهذا جوانب سلبية من الناحية الاجتماعية . وعلى كل حال ، لم تُتخذ خطوات تنفيذية لطرد اليهود من القرى إلا عام ١٨٢٢ ، وخصوصاً في مقاطعة بيلوروسيا أي روسيا البيضاء . ولكن كثيراً ما كان يتم طرد اليهود دون تأمين الأرض الزراعية لهم ، الأمر الذي كان يعني محاولة تغيير وضع اليهود الوظيفي فشلاً مؤكداً . بل كان يتم أحياناً تأمين الأرض ثم يصل المستوطنون ليكتشفوا أنه لا توجد تسهيلات للسكنى أو الري أو الصرف .

وتوقف كثير من الإصلاحات أثناء الحرب الروسية الفرنسية حين قام نابليون بغزو روسيا . وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية أثناء هذه الحرب ، إلى جانب الحكومة الروسية ، لأن المؤسسة المحاخامية كانت تعتبر نابليون عدو اليهودية للودود ، بل قام اليهود بالتجنس لحساب الحكومة القيصرية على القوات الفرنسية (وإن كان هذا لم يمنع وجود بعض حالات متفرقة قام فيها اليهود الروس بالتجنس على روسيا لحساب الفرنسيين) .

وفي أواخر حكم ألكسندر الأول ، كانت هناك محاولة لتصوير اليهود عن طريق الوعد بإعتاقهم وإعطائهم حقوقهم السياسية . وكان العقل المدبر وراء هذه الفكرة هو لويس واي ، رئيس جمعية الكتاب المقدس في إنجلترا الذي أسس جمعية المسيحيين الإسرائيليين عام ١٨١٧ تحت رعاية الإمبراطور . ثم صدر قرار بمنح اليهود من استئجار خدم مسيحيين ومن السكنى في منطقة طولها خمسون فرسحاً (نحو ٣٣ ميلاً) على الحدود ، ولم يستثن من ذلك سوى ملاك الأراضي .

وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الجماعة اليهودية باعلاء نيقولا الثاني المرش (١٨٢٥ - ١٨٥٥) ، وهذا بعد إسعاد الثورة المعروفة باسم «ثورة الديسمبريين» ، وهم مجموعة من النبلاء المتأثرين بالأفكار الغربية ، وكان من بينهم صاحب الأفكار يعقوبية بول بستان ، وهو صاحب مشروع صهيوني لحل المسألة اليهودية . وقد صعد نيقولا سياسة الترويض والدمج القسرية ، فصدر مرسوم عام ١٨٢٧ يفرض الخدمة العسكرية على يهود روسيا ، وكانوا قبل ذلك يدفعون ما يشبه البدل القدي ، وكانت فترة الخدمة في الجيش الروسي تستمر خمسة وعشرين عاماً ، وأوكل للجماعة اليهودية نفسها أن تقوم باختيار الفتيان الذين يتم تجنيدهم ، وكانت كل جماعة يهودية تعين خطافين ليمسكوا الفتيان (من أبناء الفقراء في



الخدمة العسكرية . ونجحت السياسة بشكل محدد إذ أُقيمت أربع عشرة مستوطنة زراعية في خرسون ، وعدد مساوي في إيكاترينوسلاف ، وخمس وأربعون مستوطنة في كييف ، كما أُقيمت عدة مستوطنات في بيساريا بلغ عدد سكانها خمسة وستين ألف يهودي . وقام سير موسى مونتيغوري بزيارة روسيا في هذه الفترة في إطار محاولة الحكومة القيصرية أن تُوسِّط يهود الغرب المندمجين في إقناع يهود روسيا بتقبُّل عمليات الدمج والتحديث والترويس . ويمكن القول بأن هذه العمليات لم تحقق كثيراً من النجاح .

#### الكسندر الاول (١٨٠١-١٨٢٥)

Alexander I

أحد قيصرية روسيا . في عهده بدأت الحكومة القيصرية في محاولة إيجاد حل للمسألة اليهودية في روسيا بعد ضم أجزاء من بولندا . فشكلت لجنة لدراسة القضية والتوصية ببعض الحلول . وشهد عهده عدة محاولات لدمج اليهود وترويسهم .

#### نيقولا الاول (١٨٢٥-١٨٥٥)

Nicholas I

قيصر روسي حاول دمج اليهود في المجتمع الروسي عن طريق إصلاحات تُفرض عليهم من الخارج ، لكن سياسته لم تُحرز نجاحاً كبيراً .

#### منطقة الاستيطان اليهودية في روسيا

Pale of Settlement

«منطقة الاستيطان» ترجمة للعبارة الروسية «كرتا أو سدلوستي Cherta Osedlosti» حيث تُترجم كلمة «كرتا» إلى «نطاق» أو «حدود» أو ربما «حظيرة» وهي الترجمة الدقيقة . ولأن هذا النطاق كان يتسع ويضيق ، فتمضم إليه مناطق وتستبعد أخرى ، فلنا فضل استخدام كلمة «منطقة» .

ومنطقة الاستيطان هي منطقة داخل حدود روسيا القيصرية لم يكن يُسمح لمعظم أعضاء الجماعة اليهودية بالسكنى أو الاستقرار خارج المدن الواقعة فيها . وكانت الحكومة القيصرية تقوم بفرض مثل هذه القيود وهو أمر كان يُعد جزءاً أساسياً من سياستها العامة ومن موقفها من حرية الأفراد في التنقل ، وهي سياسة لم تكن تُطبَّق على أعضاء الجماعة اليهودية وحسب وإنما كانت تُطبَّق على معظم سكان

المشاروات والمداوات مؤيدة لموقف الحكومة . وكان أهم دعاية لهذه السياسة وزير التعليم أوفاروف وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يتفقون معه ، من بينهم إسحق بير ليفينسون في كتابه التعليم في إسرائيل (عام ١٨٢٨) . وأغلق كثير من المطابع العبرية بهدف الحرب ضد الحرفانات المسيديّة والتعصب الناجم عن دراسة التلمود . ويُلاحظ أن موقف الحكومة القيصرية من القرائين كان متسامحاً للغاية لأنهم لا يؤمنون بالتلمود .

وانجّمت الحكومة الروسية أيضاً نحو علمنة التعليم اليهودي ، وحاولت تطبيق المشروع الذي طرحه ليفينسون في كتابه . ولتحقيق هذا الهدف ، استدعت التربوي الألماني اليهودي ماكس ليليتال (١٨١٥ - ١٨٨٢) حتى يمكنه أن يقرب فكرة التعليم العلماني ليهود روسيا وليؤكد لهم حسن نية الحكومة . وكان ليليتال يعمل مدرساً في إحدى المدارس التي أسسها دعاة التنوير اليهود في ريجا . فقام برحلة استطلاعية ، ولكنه قوبل بعبادة شديدة من الجماهير اليهودية التي سمته «الحليق» ، أي الذي حلق لحيته وسوالفه . وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يرون أن تحديث الجماهير اليهودية لا يمكن أن يتم بالطرق الديموقراطية ، وأنه لا بد من استخدام نوع من القسر والإرهاب ، وأيدهم في ذلك أعضاء البيروقراطية الروسية . وأوصى ليليتال بإغلاق المدارس الدينية التقليدية ومنع المدرسين التقليديين من التدريس واستجلاب مدرسين من الخارج . وتم بالفعل تأسيس مدارس علمانية يهودية مؤلّت من ضريبة الشموخ (شموخ السبت) ، وقام بالتدريس في هذه المدارس مسيحيون ويهود من دعاة التنوير ، وأسست مجموعة من المدارس لتدريب حاخامات ومدرسين يهود ، وكانت هذه المدارس الإطار الذي تم فيه تدريب وتعليم أعداد كبيرة من دعاة التنوير المتحدثين بالروسية والذين لعبوا دوراً مهماً في الحركات الاندماجية والثورية والعلمية .

وتبع ذلك إلغاء القههال (عام ١٨٤٤) مع الإبقاء على إطار تنظيمي إداري عام . واستمر المسؤولون عن التجنيد وكذلك جامعو الضرائب في أداء عملهم . وابتداءً من عام ١٨٥١ ، بدأت الحكومة الروسية تنهج النهج الألماني في تقسيم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ويهود غير نافعين . وكان الفريق الأول يضم كبار التجار والحرفيين والمزارعين الذين كانوا يتمتعون بمعظم حقوق المواطن الروسي . أما الفريق الثاني الذي كان يضم بقية اليهود من صغار التجار وأعضاء الطبقات الفقيرة ، فكان الأمر بالنسبة إليهم مختلفاً إذ كان عليهم أداء الخدمة العسكرية حيث كان بوسعهم أن يتعلموا بعض المهن النافعة ، فإن تعلموها صنّفوا ضمن النافعين وأُعفوا من

من يهود اليديشية ، أي أن منطقة الاستيطان كانت تضم أغلبية يهود روسيا الذين كان معظمهم يتحدثون اليديشية .

وكانت منطقة الاستيطان تتكون من ثلاث مناطق تتميز بالوحدة عن الأخرى تماماً :

١ - ليتوانيا وبيلوروسيا أو روسيا البيضاء : وتضم جردونو منسك ولفنا وفاينيسك (بوتوكسك سابقاً) وكوفنو وموجيليف .

٢ - أوكرانيا : وتضم فولينيا وبودوليا ومقاطعة كييف (ماعدنا مدينة كييف) وتشرينجوف وبولنافا .

٣ - روسيا الجديدة : وتضم خرسون (ماعدنا مدينة نيقولايف) وإيكاتيرينوسلاف وتاوريدا (القرم) ويسارييا التي تضم أوديسا ، أهم مدن اليهود في روسيا .

واستقرت حدود المنطقة عام ١٨٣٥ . وكانت منطقة الاستيطان تضم رسمياً كل المناطق التي ضمت من بولندا ما عدا مقاطعات وسط بولندا والتي ظلت رسمياً خارج النطاق ودخله من الناحية الفعلية .

وكانت منطقة الاستيطان تضم أوكرانياين وبولنديين وروسين وليتوانيين ومولدافين وألماناً . وكان لكل جماعة قاعدتها الإقليمية أو أرضها المركزة فيها ما عدا أعضاء الجماعة اليهودية والألمان . ومن هنا ظهرت إحدى السمات الخاصة للمسألة اليهودية في روسيا . وقد

قررت الحكومة القيصرية (عام ١٨٤٣) ، لاعتبارات أمنية ، عدم السماح لأعضاء الجماعة اليهودية بالسكنى على مسافة ٥٠ فرسخاً (نحو ٣٣ ميلاً) من الحدود . وحسب القانون الصادر لتنظيم منطقة

الاستيطان ، لم يُسمح لليهود بالانتقال خارجها ولم يُسمح لهم بالدخول إلى وسط روسيا إلا مدة ستة أسابيع للقيام بأعمال محددة على أن يرتدوا الأزياء الروسية . وكان متاحاً لتجار الدرجة الأولى

أن يمتكوا ستة أشهر ، كما كان مسموحاً لتجار الدرجة الثانية أن يمتكوا ثلاثة أشهر . ومع حكم ألكسندر الثاني ، بدأت الحكومة

القيصرية في تخفيف القيود عن بعض العناصر اليهودية النافعة والمتدمجة ، وذلك بهدف تحويل اليهود إلى قطاع منتج مندمج في المجتمع . فُسِّح لتجار الفشة الأولى (عام ١٨٥٩) بأن يستوطنوا

خارج منطقة الاستيطان ، وكذلك لخريجي الجامعات عام ١٨٦١ وللحرفيين عام ١٨٦٥ ، كما سُمح للمشتغلين بالطب عام ١٨٧٩ وللجنود المُسَرَّحين بهذه اليزة . ولم يزد العدد المسموح لهم بها

حسب تعداد ١٨٩٧ على مائتي ألف يهودي . وكان من بين الفئات المسموح لها بمغادرة منطقة الاستيطان

الفتيات اليهوديات اللاتي كن يعملن بالبناء ، فكان بوسع الفتاة أن تنتقل إلى موسكو أو أية مدينة أخرى لتمارس هذه الوظيفة وتحقق

روسيا سواء أكانوا من الأقتان أم كانوا سكان مدن أو تجاراً . فكان على هذه القطاعات ، التي تشكل أغلبية السكان ، البقاء في مواطن استيطانها لا تغادرها إلا لسبب محدد ويأذن خاص . ويبدو أن هذه

القوانين صدرت بسبب طبيعة روسيا كإمبراطورية مترامية الأطراف تُوجد بها مناطق شاسعة غير مأهولة بالسكان ، الأمر الذي جعل بوسع أي مواطن أن يترك محل إقامته ليستوطن إحدى المناطق غير

المأهولة بعيداً عن سلطة الحكومة . ولما كانت الحكومة المركزية ضعيفة نظراً لرغبتها في تدعيم أسس الإمبراطورية وضمان شيء من الثبات ، ظهرت فكرة ربط المجموعات البشرية بمواطن محددة كما

حدث مع الفلاحين حينما تم تحويلهم إلى أقتان ، ثم مع أعضاء الجماعة اليهودية حين تم ضم أعداد كبيرة منهم إلى الإمبراطورية بعد تقسيم بولندا .

ولكن ، إلى جوار هذه الأسباب العامة المتعلقة بسياسة روسيا القيصرية تجاه رعاياها ، هناك أسباب خاصة بيهود روسيا من أهمها الصراع الاجتماعي الناشب بين التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون

بتقطير الخمر وبيعها وبأعمال الرهونات والالتزام من جهة ، والفلاحين السلاف الذين كانوا يتعاطون الخمر بشراهة (ربما بسبب تزايد بؤسهم) وضعف النظام الإقطاعي من جهة أخرى . وكانت

البيروقراطية الروسية متخلفة غير مدركة لأبعاد المشكلة الاجتماعية في الريف الروسي أو البولندي . ولذا ، أُلقي باللوم على أعضاء

الجماعة اليهودية باعتبارهم مسئولين عن سُكر الفلاحين وإفقارهم . كما كان تجار روسيا يجارون بالشكوى دائماً من العناصر اليهودية التجارية التي تلجأ إلي الغش والتخريب لتحقيق الربح . لكل هذا ،

حُظر على أعضاء الجماعة اليهودية أن يتحركوا خارج تلك المناطق التي ضُمَّت من بولندا ، ولكنهم مُنحوا حق الاستيطان في المناطق التي ضُمَّت من تركيا في أواخر القرن الثامن عشر باعتبارهم عنصرأ

استيطانياً نافعاً ، وهي التي كانت تقع أساساً حول البحر الأسود وسُميت «روسيا الجديدة» . وقد ضُمَّت منطقة الاستيطان منطقة

كبيرة امتدت من ليتوانيا وبحر البلطيق في الشمال إلى البحر الأسود في الجنوب ، ومن بولندا وبيساريا في الغرب إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا في الشرق ، وتضم خمساً وعشرين مقاطعة تشكل مساحة قدرها مليون كيلو متر مربع ، أي ما يساوي مساحة فرنسا تقريباً .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون نحو ١١,٦ ٪ من سكان منطقة الاستيطان عام ١٨٩٧ ، وبلغ عددهم ٤,٢٧,٨٩٩ من مجموع يهود روسيا البالغ عددهم ٥,٠٥٤,٣٠٠ ، ويُلاحظ أنه كان يوجد ١٦١,٥٠٠ فقط من يهود الجبال وجورجيا ، وهم ليسوا

وكان ٨، ٧٢٪ من جملة التجار في منطقة الاستيطان من أعضاء الجماعة اليهودية وكذلك ٤، ٣١٪ من الحرفيين .

وكانت الحركة الحسيدية منتشرة في صفوف يهود روسيا ، وكذلك الحركات الثورية العدمية ، كما ظهرت طبقة وسطى يهودية اكتسبت الثقافة الروسية . وكان نظام التعليم اليهودي التقليدي لا يزال قائماً إلى جانب المدارس العلمانية المختلفة . ومع أن الأغلبية كانت تتحدث اليديشية ، فإن تعلم اللغة الروسية بشكل جدي بدأ يقطع أشواطاً كبيرة ، كما فُتحت مدارس لتعليم العبرية بتأثير الحركة الصهيونية .

وقد صدرت عام ١٨٨١ قوانين مساويو التي منعت إنشاء أية مستوطنات خارج مدن منطقة الاستيطان ، وتقرر أن اليهود الذين يعيشون في بعض قرى منطقة الاستيطان يحق لهم السكنى في هذه القرى دون غيرها . وأعطى الفلاحون حق طرد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعيشون بين ظهرانيهم . وأحياناً كان يُحظر على اليهود الإقامة في بعض المدن ، مثل روستوف وبالطا ، كما طُرد آلاف الحرفيين اليهود من موسكو إلى منطقة الاستيطان . وكانت هذه القرارات تعبيراً عن تعثر التحديث في روسيا . وقد بُدئ في تخفيف حدة هذه القيود ابتداءً من عام ١٩٠٣ بسبب الضغوط على الحكومة الروسية ، فصُرح لأعضاء الجماعة اليهودية بالاستيطان في بعض القرى التي اكتسبت شكلاً حضرياً ، وصدرت تعليمات عام ١٩٠٤ تصرّح لهم بالاستيطان خارج مناطق الاستيطان ، وأيضاً بالاستقرار في المناطق الزراعية الواقعة في نطاق هذه المناطق .

وقدّمت العناصر الديموقراطية في الدوما (البرلمان) الروسي عام ١٩١٠ مشروع قرار لإلغاء منطقة الاستيطان ، ولكن العناصر الرجعية وقتت ضده ، وألغيت المنطقة نهائياً بعد الثورة البلشفية . والواقع أن تاريخ التجمع اليهودي ، داخل منطقة الاستيطان ، من أهم فصول تجربة يهود شرق أوروبا في القرن التاسع عشر ، وذلك للأسباب التالية :

١ - لاقى التجار والحرفيون اليهود منافسة شديدة من التجار والحرفيين المحليين ، كما أن التحولات الاجتماعية التي كان يخوضها المجتمع الروسي أدت إلى تحوّل أعداد كبيرة من اليهود إلى أعضاء في الطبقة العاملة . ولعل هذا التطور كان مهماً للغاية من منظور عملية الدمج والتدريب التي قامت بها الحكومة السوفيتية فيما بعد .

٢ - كانت الأوضاع الاجتماعية السيئة ، التي صاحبت التآكل في القيم التقليدية اليهودية ، من العناصر الأساسية التي جعلت أعضاء

قديراً من الحراك الاجتماعي والجغرافي دون أن يكون في إمكان أسرتهما اللحاق بها . وقد حوّل هذا منطقة الاستيطان إلى أهم مصدر للبغايا في العالم حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى وربما حتى الثلاثينيات من هذا القرن . وتم توسيع منطقة الاستيطان عام ١٨٧٩ بضم مملكة بولندا إليها رسمياً ، وأبطل العمل على الحدود بقانون الخمسين فرسخاً .

وكان ٦، ١١٪ من سكان منطقة الاستيطان من أعضاء الجماعة اليهودية موزعين في القرى والمدن . وكان عددهم ٤، ٩٠٠، ٠٠٠ (يشكلون حوالي ٩٤٪ من كل يهود روسيا) . وبعد عمليات الطرد من القرى ، أصبح أعضاء الجماعة اليهودية مركزين أساساً في المدن . فمع بداية القرن التاسع عشر ، كان ١٠ - ١٥٪ من سكان المدن داخل منطقة الاستيطان يهوداً ، وكان أكبر تجمع يهودي يضم عشرة آلاف . ولكن ، مع نهاية القرن ، كان مليون ونصف مليون يهودي (أي ثلث اليهود في منطقة الاستيطان) من سكان المدن ، وكانوا يشكلون ٣٠٪ من مجموع السكان فيها وكانوا يشكلون ٥٠٪ من مجموع سكان كثير من المدن . وكانت حوالي ٤١ جماعة يهودية تتكون كل منها من عشرة آلاف نسمة . وفي إحصاء عام ١٨٩٧ ، بلغت نسبة أعضاء الجماعة اليهودية من ساكني المدن ٧٨٪ (حوالي ٣، ٨٠٠، ٠٠٠) . وأدى الانفجار السكاني إلى ازدياد الازدحام داخل منطقة الاستيطان . ومع نهاية القرن التاسع عشر ، كان ٩٤٪ من مجموع يهود روسيا يعيشون في منطقة الاستيطان .

وتختلف نسبة عدد السكان اليهود إلى مجموع السكان ، كما تختلف درجة تركّزهم في المناطق الحضرية ، ومعدلات التصنيع والتحديث ، من منطقة إلى أخرى . فكثير من الصناعات داخل منطقة الاستيطان كان يملكها يهود ، وكان نصفها تقريباً في صناعة النسيج ثم في صناعة الأخشاب والتبغ والجلود أي في صناعات خفيفة . وكان الصراع الطبقي محتدماً ، كما كانت العلاقة بين صاحب العمل والعمال اليهود تحكمها علاقات السوق الرأسمالية وليس التضامن الديني أو الإثني . ولذا ، فكثيراً ما كان صاحب العمل اليهودي يفضل عمالاً غير يهود لأنهم عمالة رخيصة ولا يمثلون أية ضغوط اجتماعية عليه ليعاملهم بطريقة خاصة ويعطهم إجازات في الأعياد اليهودية . ولكن الرأسماليين من يهود روسيا كانوا مضطرين على وجه العموم إلى استئجار عمال يهود بسبب وجودهم بأعداد كبيرة في المدن . وكانت نسبة اليهود العاملين في التجارة هي ٦، ٣٨٪ من مجموع اليهود . أما نسبة العاملين في الحرف (أساساً في الخياطة وصناعة الأحذية) فكانت ٤، ٣٥٪ ،

واجتذبت أوديسا أعداداً كبيرة من الأجانب حتى أنهم كانوا يشكلون ثلاثة أرباع السكان حتى عام ١٨١٩ . وفي عام ١٨٥٠ ، كان مجموع السكان ٩٠ ألفاً منهم عشرة آلاف أجنبي . وقد تخصص كل عنصر بشري في نشاط اقتصادي ما ، فكان اليونانيون والإيطاليون والألمان من تجار الجملة ، وكان الفرنسيون يشتغلون بتجارة الخمر وتجارة التجزئة ، كما كان اليهود القراءون يشتغلون في تجارة التبغ والسلع الشرقية ، أما اليهود الحاخاميون فاضطلعوا بعدة وظائف تجارية ومالية تتداخل مع الوظائف الاقتصادية للأقليات الأخرى . وكان الجلو الأمي (كوزمبوليتاني) في المدينة متطرفاً بمعنى الكلمة حتى أن أسعار تحويل العملات كانت تُكتب باليونانية وكانت لغة الحديث بين الناس الفرنسية ، وكانت علامات الطرق تُكتب بالإيطالية والروسية ، وكانت الفرق المسرحية تُقدم المسرحية الواحدة بخمس لغات مختلفة (وهي تشبه إلى حد ما في هذا الإسكندرية قبل قيام ثورة ١٩٥٢) . وقد ساد الفكر الماركسالي سيادة تامة في أوديسا حتى بين صفوف البيروقراطية الروسية . فالهدف الذي حدته الحكومة لهم هو تحويل المدينة إلى ميناء تُصدّر منه روسيا صادراتها الزراعية ، وخصوصاً القمح . ولذا ، حكمت البيروقراطية مفاهيم المنفعة وقيمها وهو ما أدى إلى تناقض تعصبها ضد أعضاء الجماعة اليهودية والأجانب بسبب نفعهم . لكل هذا ، كانت أوديسا نقطة جذب لأعداد كبيرة من يهود روسيا من جميع الطبقات الذين كانوا يرفضون الجيتو واليهودية الحاخامية والذين كانوا يشعرون بالرغبة في الهرب من منطقة الاستيطان . بل استقر في أوديسا مهاجرون يهود من جاليشيا وألمانيا ، ليتبعوا بالحريات التي مُنحت لأعضاء الجماعة اليهودية فيها والجلو الأمي . ولذا ، تزايد عدد اليهود من ١٠٪ من كل السكان عام ١٧٩٥ إلى ٢٠٪ (١٢ ألف يهودي) عام ١٨٤٠ ثم إلى ٣٤٪ (١٦٥ ألفاً) عشية الحرب العالمية الأولى .

وأصبحت أوديسا مركزاً لثاني أكبر تجمع يهودي في الإمبراطورية الروسية بعد وارسو عاصمة بولندا التابعة لروسيا آنذاك . وكان أعضاء الجماعة اليهودية جزءاً عضواً من اقتصاد المدينة الجديدة ، فساهموا في نموها الاقتصادي حتى بلغت نسبة أعضاء الجماعات اليهودية ٥٦٪ من أصحاب الحوانيت الصغيرة و٦٣٪ من يعملون في الحرف اليدوية وتصدير الحبوب والصيرفة والصناعة الخفيفة . وكان يوجد عدد كبير منهم في المهن الحرة . وفي عام ١٩١٠ ، كان ٨٠٪ من تجارة تصدير الحبوب يمتلكها أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يمتلكون ٥٠٪ من تجارة الجملة بشكل عام . كما كان يوجد عدد كبير من العمال اليهود (يشكلون ثلث عدد

الجماعة اليهودية مرتعاً خصباً للأفكار الثورية والحركات القومية العلمانية .

٣- أدى الانفجار السكاني وإغلاق أبواب الحراك الاجتماعي إلى هجرة اليهود بأعداد متزايدة إلى غرب أوروبا والولايات المتحدة . وكانت مدينة برودي على حدود منطقة الاستيطان المحلطة التي هاجر منها الملايين .

٤- أدى تركز أعضاء الجماعة اليهودية داخل مناطق بعينها ، وبالذات داخل المدن ، إلى احتفاظهم بشيء من هويتهم الإثنية الديدشية إذ كان يتدورهم أن يتحدثوا ، فيما بينهم ، بالديدشية وأن يقرأوا الصحف المكتوبة بتلك اللغة داخل الجيتو الكبير ، فنشأ أدب يدishi داخل مناطق الاستيطان ، كما ظهرت بدايات الحركة الصهيونية (أبناء صهيون) بين يهود روسيا ، وكذلك حركات مثل البوند وفكر قومية الدياسبورا (أو القومية الديدشية) ، وكلها محاولات لتعبير عن هذه الهوية بشكل أو آخر . ويمل بعض المؤرخين اليهود مثل جرايتز ودينوف إلى أن يصوروا منطقة الاستيطان وكأنها وطن قومي يهودي في المنفى له شخصيته القومية المحددة .

ولكل هذا ، مع قيام الثورة البلشفية ، وإلغائها منطقة الاستيطان ، وفتحها كل روسيا أمام اليهود للاستقرار فيها ، وإتاحتها فرص الحراك الاجتماعي والتنوع الوظيفي والاقتصادي ، هاجر الألوف من اليهود إلى داخل روسيا . وبالتالي ، نجح الاتحاد السوفيتي في القضاء على الأساس السكاني والحضاري للهوية اليهودية الديدشية وهو ما أدى إلى اختفاء هذه اللغة بحيث يمكن أن نقول إنها تكاد الآن سكرات الموت .

#### أوديسا

Odessa

مدينة بناها القياصرة على البحر الأسود مكان مدينة تركية صغيرة كانت تُسمى «خاتنجيبو» استولت عليها القوات الروسية عام ١٧٨٩ ولم يكن بها حينذاك سوى ستة من اليهود . وفي محاولة لتطوير المدينة ، شجعت الحكومة القيصرية كل العناصر البشرية على الاستيطان فيها ، فأصبح الأتقان الذين استقروا فيها مستأجرين أحراراً . وأصبحت أوديسا المركز التجاري الصناعي لجنوب روسيا أو روسيا الجديدة . وكانت أهم السلع التي تصدّر منها الحبوب . فزاد حجم الصادرات خمس مرات . وأُسست فيها جامعة ، عام ١٨٦٥ ، وعدد من المسارح بل ودار للأوبرا .

العبرية ، فأصبحت المدينة مركزاً للثقافة العبرية ونشرها . وكانت تُنشر فيها مجلة أحاد همام هاشيلواخ .

وبعد الثورة البلشفية ، استمر عدد اليهود في الزيادة إذ بلغ ١٨٠ ألفاً عام ١٩٣٨ ، ولكن نسبتهم إلى عدد السكان أخذت في الانخفاض فأصبحوا يشكلون ٢٩,٨٪ . ولا يزال يوجد بعض أعضاء الجماعة اليهودية في أوديسا ، ولكن أعدادهم أخذت في التناقص .

وهذا يتفق ، في واقع الأمر ، مع النمط العام لتطور الجماعة اليهودية ، فمع تزايد التصنيع زاد انتشار أعضاء الجماعة وانتقلت أعداد كبيرة منهم من المناطق السكنية القديمة إلى المناطق الصناعية الجديدة .

### الترويس

Russification

«الترويس» مصطلح نُحِت من لفظة «روسيا» ، وهو على صيغة المصدر من الفعل المنحوت «روس» . ويشير هذا المصطلح إلى صيغ الأقليات الدينية والعرقية والإثنية في الإمبراطورية القيصرية بالصيغة الروسية ، وهو جزء من عملية التحديث والتوحيد التي قامت بها الإمبراطورية الروسية والتي حاولت من خلالها فرض سلطة الحكومة المركزية على كل جوانب الحياة الخاصة والعامة للمواطنين بحيث يصبح انتماءهم لها كاملاً ولاولهم نحوها غير منقوص . وقد كانت الجماعة اليهودية إحدى هذه الأقليات ، فحاولت الحكومة القيصرية أن تشجعهم أو ترغمهم على أن يغيروا لغتهم اليديشية ويتحدثوا الروسية أو البولندية أو الألمانية ، وأن يستبدلوا بأزيائهم أزياء غربية حديثة ويرسلوا أولادهم إلى مدارس روسية علمانية أو مدارس روسية يهودية مختلطة . وعملية الترويس ، في جوهرها ، عملية تحديث وعلمنة ، وهي تتداخل مع عمليات أخرى مثل «التطبيع» و«تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج» . وقد نشأت جمعيات مثل جمعية نشر الثقافة الروسية بين اليهود الروس في أوديسا لتشجيع هذا الاتجاه . كما أن تجنيد الشباب اليهودي في الجيش الروسي في سن مبكرة كان من أجمع الوسائل .

ومع هذا ، فإن كل هذه المحاولات باءت بالفشل إلى حد كبير لأن عملية الترويس كانت في جوهرها عملية إعلامية سطحية لم توكبها تحولات بنوية في المجتمع فتحت السبل أمام أعضاء الجماعة اليهودية عن يرغوبن في اكتساب الهوية الروسية المطروحة أمامهم . ولكن ، بعد الثورة البلشفية ، حدثت هذه التحولات البنيوية ومن ثم

اليهود) انتشرت بينهم الحركات الثورية . وساد الاندماج واكتساب الصبغة الروسية ، وظهرت طبقة من المثقفين اليهود الذين تبنوا مثل الحضارة الروسية والذين كان بوسعهم تحقيق درجة كبيرة من الحراك الاجتماعي في جو ثقافي منفتح . وتدعم هذا الاتجاه نحو الانفتاح حينما صدرت قوانين الألكسندر الثاني عام ١٨٦٠ التي حررت بمقتضاها الأثقان وسُحح لأعضاء الجماعة اليهودية بدخول الجامعات .

وتعاظم نفوذ العناصر الليبرالية الداعية إلى التنوير حتى أصبحت أوديسا أول مدينة يتولى قيادة الجماعة اليهودية فيها دعاة التنوير الذين تعاونوا مع السلطات لضرب المؤسسة الدينية اليهودية وللقيام بمعمليتي الترويس والدمج . ففتُح العديد من المدارس اليهودية وكانت لغة التدريس فيها الروسية ، كما كانت الموضوعات التي تُدرّس فيها موضوعات علمانية عامة ، ولم تشغل الموضوعات اليهودية سوى مرتبة ثانوية . ودخل العديد من الأطفال اليهود المدارس الحكومية الروسية . وإلى جانب هذا ، أُسست في أوديسا أول مدرسة عبرية على النمط الغربي ، وهذا يعكس التناقض الأساسي الكامن في حركة التنوير في روسيا التي كانت تدعو إلى الاندماج في المجتمع ولكنها كانت تدافع في الوقت نفسه عن الأشكال اليهودية التقليدية . وقد بلغ عدد الطلبة اليهود في مدارس أوديسا ثلاثة أضعاف النسبة داخل منطقة الاستيطان . وأُسست فيها جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا التي كانت تهدف إلى ترويس أعضاء الجماعة .

واشتهرت أوديسا بتاريخها عن إقامة الطقوس والشعائر وتخليهم عن القيم الدينية اليهودية (بل عدم الاكتراث بها في كثير من الأحيان) حتى كان يُضرب بها المثل : «إن نار جهنم تشتعل حول أوديسا على مسافة عشرة فراسخ» .

وكان مصير أوديسا مثل مصير حركة التنوير في روسيا ، فمع تعمُر التحديث حدث هجوم (بوجروم) على اليهود عام ١٨١٧ بسبب صراعهم مع جماعة وظيفية أخرى وهي الجماعة اليونانية . ولم يحسم التناقض داخل حركة التنوير في روسيا لصالح الاندماج كما حدث في إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، ولذا نجد أن بعض شرائح دعاة التنوير من مثقفي الطبقة الوسطى يتبنون الحل الصهيوني ، فصدرت في أوديسا نداءات ليلينبلوم وبنسرك بعد أن شهدت نشاطاتهم الاندماجية من قبل . وأصبحت المدينة مركزاً لجماعة أحياء صهيون وجمعية بني موسى التي أنشأها أحاد همام ، وارتبطت بأسماء كثير من الزعامات الصهيونية مثل أوسيشكين وديزنجوف وبياليك وجابوتنسكي . كما صدر فيها عدد كبير من المجلات الأدبية

ومن ثم يُشار الآن إلى المهاجرين السوفييت إلى الولايات المتحدة وإسرائيل ، بأنهم «الروس» وحسب . وعملية الترويس ، في مراحلها التلقائية (أي حينما لا محتاج إلى أي قسر خارجي) لا تختلف عن أمركة أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة أو أي من مختلف عمليات الدمج الحضاري التي يربها أعضاء الأقليات الإثنية والدينية المختلفة .

تصاعدت عملية الترويس . ويُلاحظ أن هذه العملية ، التي بدأت كجزء من مخطط فرض بشكل فوقي ، أصبحت حركية تلقائية نابعة من داخل الجماهير اليهودية في روسيا وغير مفروضة عليهم . فانصرفهم عن اللغة اليديشية تعبير عن الرغبة الإنسانية العامة في الحراك الاجتماعي حتى لو كان على حساب الهوية . وقد استمرت هذه العملية إلى أن اختفت اليديشية تقريباً وتروّس يهود اليديشية ،



## روسيا القيصرية حتى اندلاع الثورة

روسيا من عام ١٨٥٥ حتى عام ١٨٨١ - تعرّف التحديث في روسيا القيصرية - ألكسندر الثاني - روسيا من عام ١٨٨١ حتى الثورة البلشفية (١٩١٧) - ألكسندر الثالث - نيقولا الثاني - قوانين مايو

روسيا من عام ١٨٥٥ حتى عام ١٨٨١

Russia, from 1855 to 1881

اقتصادي منتج . ولتشجيع أعضاء الجماعة على تقبل التحديث والترويس ، قامت الحكومة بتوسيع نطاق حقوق اليهود النافعين ، وخصوصاً حق السكنى في روسيا بأكملها ، خارج منطقة الاستيطان بالنسبة للتجار الأثرياء الذين يُعتبرون تجاراً من الدرجة الأولى (عام ١٨٥٩) ولخريجي الجامعة (عام ١٨٦١) والحرفيين (عام ١٨٦٥) والجنود اليهود المُسرحين (عام ١٨٦٧) . ومن الأشياء المُؤسفة أن العاهرات كن يُعتبرن نافعات وهو ما شجع كثيراً من الفتيات اليهوديات ، داخل منطقة الاستيطان ، على امتحان البغاء كوسيلة للحراك الاجتماعي والجغرافي . وصرح ليهود منطقة الاستيطان بالسكنى في بولندا عام ١٨٦٨ . وفي عام ١٨٧٩ ، أصبح لكل من يعمل بمهنة الطب حق السكنى في أي مكان . ووسّع نطاق منطقة الاستيطان نفسها فأبطل العمل بالقانون الذي يحظر على أعضاء الجماعة اليهودية السكنى في المنطقة الممتدة خمسين فرسخاً داخل الحدود .

وفي عام ١٨٥٦ ، أُلغيت القوانين الخاصة بتجنيد أعضاء الجماعة اليهودية والعقوبات الخاصة التي كانت تُؤفَع عليهم ، وتمت مساواتهم ببقية الشعب الروسي . وفي عام ١٨٧٤ ، اعتمد نظام التجنيد الإجباري العام لمدة أربع سنوات ولم يُعد مقصوراً على الفقراء ، وانضم آلاف الشباب اليهودي إلى الجيش ومُنحوا حقوقاً ومزايا عديدة ، كما خُفّضت مدة خدمة المجندين الذين أنهوا دراستهم من أربع سنوات إلى سنة واحدة .

وفي حقل التعليم ، بعد فشل تجربة أوفاروف ، أُغلقت المدارس اليهودية الحكومية عام ١٨٧٣ ماعداً مائة مدرسة ، وفتحت المدارس الحكومية المعادية أمام أعضاء الجماعة اليهودية واعتبرت هذه الطريقة الأسلوب الأمثل لتعليم الترويس . وأخذ عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس في التزايد . كما فتحت الجامعات أبوابها لهم ، فزاد عدد الطلبة اليهود في الجامعات بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٧٢ من ٢٥ ، ١٪ من مجموع الطلبة إلى ١٣ ، ٢٪ .

وظهر فكر حركة التنوير الذي كان من أقطابه ليفنسون ومايو

تغيّرت الصورة كثيراً مع اعتلاء ألكسندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) العرش إذ تميّز حكمه بأن حركة التحديث في روسيا خُطت خطوات واسعة واتخذت شكلاً ليبرالياً بعد هزيمة روسيا في حرب القرم . فعلى سبيل المثال ، تم تحديث النظام القضائي عام ١٨٦٤ ونظام البلديات عام ١٨٧٠ وكذلك نظام التجنيد ، بل بدأ الحديث عن قيام حكومة دستورية . ولعل أهم القرارات قرار إلغاء نظام الأقتان عام ١٨٦١ الذي صدر نزولاً على إرادة النبلاء الإقطاعيين الذين ظهرت بينهم تطلعات نحو الانتقال إلى صفوف البورجوازية الكبيرة سواء من خلال إقامة المزارع الحديثة ورسملة الزراعة أو من خلال التوجه للعمل في المجالات التجارية والصناعية .

ويشكل هذا القرار أخطر منعطف في تاريخ المجتمع الروسي حيث شهدت هذه الفترة زيادة معدلات التصنيع والتحديث بشكل كبير ، فمدّت السكك الحديدية وفتحت أبواب الحراك الاجتماعي أمام الكثيرين ، ولكن بدأت أيضاً معالم أزمة النظام القيصري في الظهور . لقد حرّرت الدولة الروسية الأقتان ولكنها لم توفر لهم أرضاً ، وبدأت القرى تقذف الملايين إلى المدن ليعيشوا تحت ظروف اقتصادية أشد وأقسى مما كانت عليه في عهد الإقطاع . ولم تكن هناك أية مؤسسات وسيطة (الأسرة أو الكنيسة) لتحميها وتوفر لها شيئاً من الطمأنينة النفسية (الحقيقية أو الوهمية) . كما أن هؤلاء الملايين كانوا يتقاضون أجوراً منخفضة لم تكن تفي بحاجاتهم بقدر ما كانت تؤدي إلى التراكم الرأسمالي السريع الذي كان يؤدي بدوره إلى تصاعد عملية التحديث وازدياد إفقار الجماهير وانتشار الحركات الثورية وزيادة الأوتوقراطية من جانب النظام السياسي ، وهي الحلقة المفرغة التي أدّت في نهاية الأمر إلى الثورة البلشفية .

وقد فتحت أبواب الحراك الاجتماعي والاقتصادي أمام أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم من القطاعات والأقليات في المجتمع . وربطت عملية إعتاق اليهود بمدى تحوّلهم إلى عنصر نافع وعنصر

تقريباً . ومع هذا تعمّر التحديث في روسيا وبدلاً من دمج أعضاء الجماعة اليهودية تحوّلّت روسيا القيصرية إلى قوة طاردة لهم في الوقت الذي كانت أعدادهم آخذة في الزيادة .

وكانت استجابة يهود روسيا لتعمّر التحديث هي الهجرة التي كانت حتى عام ١٨٧٠ هجرة داخلية من ليتوانيا وروسيا البيضاء إلى جنوب روسيا (روسيا الجديدة) . فحتى عام ١٨٤٧ ، كان ٥ ، ٢٪ من يهود روسيا يعيشون في هذه المنطقة . ومع حلول عام ١٨٩٧ ، كانت نسبتهم تصل إلى ٥ ، ١٣٪ . ولكن نمط الهجرة اختلف بعد عام ١٨٨٠ إذ اتجهت كلفة إلى خارج شرق أوروبا . فهاجر ٠٠٠ ، ٢٧٥٠٠ يهودي تركوا شرق أوروبا خلال ١٨٨١ - ١٩١٤ (نحو مليونين من روسيا وحدها) بينما كان عدد يهود العالم عشرة ملايين ، وهو ما يعني أن ربع يهود العالم كانوا في حالة هجرة . وظهرت حركة حزب البوند الثورية الذي كان يمدّ أكبر تنظيم ثوري اشتراكي في أوروبا ، كما ظهرت الحركة الصهيونية ، وهما تعبيران مختلفان عن تعمّر التحديث .

ولعل أكبر دليل على تعمّر محاولات الدمج والتحديث أن الهمم الوظيفي لأعضاء الجماعة ، رغم تصاعد معدلات التحديث الاقتصادي ، كان لا يزال بلا تغيير كبير إذ كان ٣٨٪ من أعضاء الجماعة يعملون بالتجارة و٣٥٪ يعملون بالحرث اليهودية والصناعات المرتبطة بها و٣٪ فقط يعملون بالزراعة . ولذلك ، كانت عملية اغتيال القيصر (الكنسندر الثاني) عام ١٨٨١ على يد مجموعة من الشباب الروسي الثوري ، من بينهم فتاة يهودية ملحدة ، تعبيراً عن المشاكل البنوية العميقة التي يواجهها المجتمع الروسي ، وخصوصاً مشكلة التناقض بين البنية الاقتصادية المتطورة والأشكال السياسية والاجتماعية المتكسرة . فشكّلت لجنة لإعادة النظر في المسألة اليهودية أعلنت فشل سياسة التسامح ، أي فشل عملية التحديث القيصرية ، وأصدرت قوانين مايو التي طردت اليهود بموجبها من موسكو عام ١٨٩١ وحُدّدت نسبتهم في المدارس الثانوية . وأدّت هذه القوانين إلى طرح المسألة اليهودية على العالم الغربي بأسرها إذ بدأ أن روسيا بدأت تُصدّر فائضها اليهودي إلى الجميع .

### تعمّر التحديث في روسيا القيصرية

Setbacks of Modernization in Tsarist Russia

لم يُقدّر محاولات دمج أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا النجاح لأسباب عدة ، من أهمها ما يلي :

ويهودا لبوب جوردون . وكانوا في البداية معارضين لليدبشية على النمط الألماني ، لكن بعضهم تبناها كلفة قومية لا كلفة دينية . وظهر أدب يديشي من أعلامه مندليل موخير سفارم وغيره . وظهرت مطبوعات يهودية بالعبرية واليديشية والروسية . وتركت الثقافة اليهودية الروسية العلمانية الجديدة أعمق الأثر في أعضاء الجماعة اليهودية ، حتى وصل ذلك الأثر إلى المدارس الدينية نفسها .

ونشأ إحساس عام لدى يهود روسيا بأن الحكومة تأخذ مسألة الدمج بشكل جدي ومعقول ، فاشتركوا في الحياة الروسية العامة ، وظهر من بينهم عازفون موسيقيون ، كما نشأت طبقة من التجار الأثرياء والمتقنين الداعين إلى الدمج والترويس . وقد أسّروا جمعية نشر الثقافة الروسية بين يهود روسيا عام ١٨٦٣ . وقام كبار المؤكّن اليهود ببناء الطرقات والقلاع والسكك الحديدية وتزويد الجيش بالتسويق والغذاء ، وامتلكوا المناجم وصناعات الطعام والتسيج وتصدير الأخشاب ، وساهموا في تأسيس شبكة المصارف الجديدة في روسيا . وكانت هذه الطبقة تتركز في سانت بطرسبرج وموسكو وأوديسا ووارسو . وكان من أقطابها أسرتا جونزبرج وبولياكوف اللتان اعتبرتتا نفسيهما قيادة الجماعة اليهودية . وارتبطت هذه الطبقة بالمتقنين اليهود الروس من المشتغلين بالمهن الحرة ومحرفي الصحف والعلماء والكتاب . وكانت ثقافة هذه الطبقة والشرائح المحيطة بها روسية تماماً . ويُلاحظ أن عدداً كبيراً من الشباب اليهودي بدأوا في هذه المرحلة يعملون ضباطاً في الجيش الروسي .

وساهمت هذه الجيوب الحديثة في عملية تحديث بقية يهود روسيا ، إذ كانوا يرفضون الحديث باليديشية كما كانوا يتعاونون مع الحكومة في عملية التحديث ، ويساهمون في نشر الثقافة الروسية بين اليهود . ولكنهم ، مع هذا ، ونظراً لوضعهم الطبقي المتميز ، كانوا متعزّلين عن بقية الجماهير اليهودية التي كانت تدفع وحدها ثمن التحديث بينما كانوا يجنون هم ثمراته .

وما ساعد على ازدهار أعضاء الجماعة اليهودية داخل منطقة الاستيطان أن هذه المنطقة لم تشهد أية حروب في الفترة ١٨١٢ - ١٩١٤ ، كما أن وجود يهود روسيا داخل إمبراطورية واحدة سهّل الحركة بين الجماعات المختلفة وأكد تماسك الجماعة اليهودية . وقد تزايد عدد يهود روسيا بسرعة تفوق معدل زيادة السكان ، ففي عام ١٨٢٥ بلغ عددهم ٦٠٠ ، ٠٠٠ أي ٣٪ من مجموع سكان الإمبراطورية و١٢٪ من سكان المناطق التي تواجدوا فيها . وفي عام ١٨٥٠ ، بلغ عددهم ٢ ، ٣٥٠ ، ٠٠٠ . وبلغ عددهم عام ١٨٨٠ أربعة ملايين ، أي أن عددهم زاد بنحو ١٥٠٪ خلال ٥٠ عاماً



عمل اليهودي الحرفي نفسه . وحينما كان اليهودي يتحول إلى عامل ، فإنه كان يواجه منافسة الفلاحين الروس المُتتبعين الذين كانوا يقنعون بأجور منخفضة بسبب أسلوب حياتهم البسيط .

ومما زاد الأمور تشابكاً وتعقداً أن الحرفي اليهودي (كما يبين أبراهام ليون) كان يعمل فيما يمكن تسميته بالحرف اليهودية التي وُكِّدت بالشتت . فالحرفي اليهودي لم يكن يعمل من أجل الفلاحين المنتجين بل كان يعمل من أجل التجار والسيارة والوسطاء .

ولذلك ، نجد أن إنتاج السلع الاستهلاكية هو الشاغل الرئيسي للحرفي اليهودي لكون زبائنه يتألفون من رجال متخصصين في تجارة الأموال والبضائع ، أي غير المنتجين أساساً . أما الحرفي غير اليهودي ، فإن ارتباطه بالاقتصاد الزراعي جعله لا ينتج سلماً استهلاكية لأن الفلاح كان يكتفي نفسه بنفسه . وهكذا ، إلى جانب الفلاح ، كان هناك الحرفي غير اليهودي (الحداد مثلاً) ، وإلى جانب رجل المال اليهودي كان هناك الحرفي اليهودي (الترزي مثلاً) . وقد

ساعد على تطور الحرفي غير اليهودي ارتباطه بالتاجر المسيحي الذي كان يوظف أمواله في حرف متخصصة غير مرتبطة بالنظام الإقطاعي مثل نسج الأصواف ، وهي حرف كان الغرض منها الإنتاج للتصدير لا الاستهلاك المباشر ، أي أنها حرف تقع خارج نطاق النظام الإقطاعي وتمثل نواة الاقتصاد الجديد ، وبالتالي فإنها لم تسقط مع الاقتصاد القديم . وانعكس هذا الوضع على أعضاء الطبقة العاملة من اليهود ، فالحرف الأقل قابلية للتطور إلى صناعة كانت محصورة في أيدي الحرفيين اليهود ، بينما انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور في أيدي الحرفيين غير اليهود .

٥ - وقويت شوكة الطبقة الوسطى الروسية ، وخصوصاً بعد تدفُّق رؤوس الأموال الأوربية الغربية على روسيا ، بحيث فُتحت آفاق جديدة أمامها وأصبحت قوة اقتصادية لها وزنها يمكنها التفاهم مع البيروقراطية الحكومية (الروسية الأرثوذكسية) التي كانت تحاييها وتعطئها الأولوية والأفضلية . وتسبب كل هذا في إضعاف الممولين اليهود وأعاق عملية تحوُّل كثير من أعضاء الجماعة اليهودية إلى أعضاء الطبقة الوسطى الروسية .

٦ - أدى القضاء على ثورة بولندا عام ١٨٦٣ إلى حرمان آلاف اليهود عن كانوا يعملون في نظام الأرندا وكلاء للنبيلاء البولنديين (شلاختا) من وظائفهم .

٧ - وفي الحالات القليلة التي كان بعض أعضاء الجماعة يحققون فيها مكانة مرموقة أو حراكاً اجتماعياً ، كانوا يصبحون محط الحقد الطبقي في وقت كانت الضائقة الاجتماعية أخذة في التزايد ، ومن

١ - خلق الانفجار السكاني بين أعضاء الجماعات اليهودية فائضاً بشرياً ضخماً لم يكن من الممكن توفير الفرص الكافية للعمل والتعليم له . كما أن الانفجار السكاني كان يخلق تجمعات يهودية مركزة يتعامل من خلالها أعضاء الجماعة مع بعضهم البعض دون حاجة إلى العالم الخارجي ، الأمر الذي كان يُبطئ عملية الاندماج ويعوقها .

٢ - كما يلاحظ أن عملية التحديث نفسها كانت لها جوانب سلبية عديدة . فنظر التجار في الخمر على أعضاء الجماعة اليهودية كان يهدف إلى تقليل الاحتكاك بين اليهود والفلاحين ، ولكن مع هذا حُرِّم آلاف اليهود من مصادر الدخل الوحيدة المتاحة لهم ، فكان منهم مقطرو الخمر وموزعوها وتجارها . كما أن إنشاء السكك الحديدية التي مولها كبار الرأسماليين اليهود كما تقدّم ، قضى على مصادر الدخل الأساسية لآلاف اليهود الذين كانوا يعملون في صناعة وتجارة العربات التي تجرها الخيول .

٣ - وكما عمّد الأمور أن عملية إعتاق أعضاء الجماعة اليهودية تزامنت مع إعتاق الأتقان ، الأمر الذي جعل رقعة الأرض المتاحة للزراعة ضيقة جداً ، وخصوصاً أن التاجر أو المرابي اليهودي لم يكن من السهل تحويله إلى مزارع . وأدى إعتاق الأتقان أيضاً إلى وجود عمالة رخيصة في السوق ، الأمر الذي أدى بالتالي إلى طرد اليهود من كثير من وظائفهم التقليدية وإلى انحدارهم إلى مستوى الطبقة العاملة وتحولهم إلى عمال ، هذا مع ملاحظة أن المستوى المعيشي لغالبية أعضاء الجماعة اليهودية ، حتى في أكثر أيامهم فاقة وفقراً ، كان أعلى بكثير من مستوى القرن الروسي أو القرن البولندي .

٤ - وكلما ازدادت معدلات التحديث ، ازدادت صعوبة التكيف مع الاقتصاد الجديد ، الأمر الذي كان يزيد عدد ضحايا التقدم ، ففي مرحلة ما قبل ١٨٨٠ خفّقت آمال الانتقال إلى النمط الرأسمالي في الإنتاج أن هذا النمط احتفظ في مراحله الأولى بأشكال إنتاج بسيطة وهو ما أتاح لعدد من أعضاء الجماعة اليهودية أن يجدوا مجالاً رحيباً للعمل (في المدن الصناعية) في التجارة الجديدة وللعمل في الحرف .

غير أن النمو الرأسمالي لم يتوقف عند هذه المرحلة ، فقد اتسعت رقعة الصناعة لتشمل الصناعة الخفيفة أيضاً ، فكان ذلك بمنزلة ضربات قاضية دمّرت الاقتصاد الإقطاعي ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية حيث كان اليهود يتركزون بنسبة مرتفعة . وهكذا تشابكت عملية تحويل التاجر اليهودي لمرحلة ما قبل الرأسمالية إلى عامل حرفي أو تاجر رأسمالي مع عملية أخرى هي القضاء على

الليبرالي في أوروبا بشكل عام وظهور الفكر السياسي الرجعي بشكله الروماني . ونجم عن ذلك تصاعد ظاهرة معاداة اليهود الذين أصبحوا بؤرة تصب فيها أحقاد ضحايا التحديت : الرأسماليين الروس الذين كانوا يخافون منافسة الرأسماليين اليهود ، والطبقة العاملة الروسية التي كان يرى أعضاؤها الرأسمالية اليهودية واقفة ضدهم . أما اليهود من أعضاء الطبقة العاملة ، فوجدوا أنفسهم في عزلة . وكان أعضاء النخبة الروسية ينضمون إلى ثورين روس يرون الانعزالية اليهودية شكلاً من أشكال الرجعية المعادية للثورة ، ومثقفين روس (من بينهم دوستوفيسكي) يرون اليهودي رمزاً لاقتحام الغرب والأفكار الغربية لأهم روسيا السلافية . ووجد يهود روسيا أنفسهم في مواجهة كنيسة أرثوذكسية تخشى العلمانية التي كان اليهود أهم دعائمها كما تخشاهم باعتبارهم أعداء المسيح ، وفي مواجهة حكومة روسية رجعية وجدت أن الثورين الروس يضمنون ، في كل مكان ، أعداداً متزايدة من اليهود . وظهرت كتابات معادية لليهود ، من أهمها كتاب جيكوب برفسان (وهو يهودي منتصر) اسمه كتاب القهال عام ١٨٦٩ ، كما ظهرت فكرة الحكومة اليهودية العالمية التي تتأمر على الجنس البشري ومنشورات أخرى عن التلمود وتهمة الدم، وهي أفكار ظلت على السطح دون تأثير قوي . ومع هذا، بدأت هذه الأفكار تؤثر في تفكير البيروقراطيين ثم أخذت شكل مذنبه ضد اليهود في أوديسا عام ١٨٧١ . ووجهت تهمة دم عام ١٨٧٨ ولكن المتهم بُرئ بعد محاكمته .

ويجب أن نبين أن الجماعة اليهودية لم تكن وحدها المستهدفة وإنما كانت عنصرأ واحداً في بانوراما اجتماعية اقتصادية ، فقد بدأ المناخ العام في روسيا يتغير . ومع تصاعد وتيرة التحديت وتعرّفه ، زاد ضحايا التقدم وزادت كذلك الهجمات على الغرياء كافة من أعضاء الأقليات سواء من الألمان أو المسلمين أو اليهود أو حتى من المسيحيين من غير الأرثوذكس أو الأوكرانيين . لكن التحولات الاقتصادية كانت ذات طابع بنوي عميق ولم يواكبها أي تحديت في الأشكال السياسية للمجتمع . ومن الواضح أن المجتمع الروسي كان قد وصل ، مع نهاية السبعينيات ، إلى طريق مسدود لم يكن من الممكن تجاوزه ، كما لم يكن من الممكن استئناف التحديت إلا عن طريق ثورة اجتماعية .

الكسندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١)

Alexander II

قيصر روسيا بدأ حكمه بمحاولة التوصل إلى طرق ليبرالية

هنا ، كان اتهام اليهود بالسيطرة الاقتصادية واستغلال غير اليهود ، ومن هنا أيضاً أرتمت صورة اليهودي كراسمالي جشع .

٨- ومن قبيل المفارقات أن عدداً كبيراً من أعضاء الجماعة اليهودية سقط ضحية التقدم وتحولوا إلى أعضاء في الطبقة العاملة الحضرية التي فقدت جذورها الثقافية ومخ حياتها وانتماءها الديني ومصدر حياتها . وقد وصل الفقر إلى درجة أن ثلث يهود روسيا عاشوا على معونات المنظمات اليهودية الغربية . وكل هذا يعني أن الجماهير الفقيرة لم تكن مستفيدة تماماً من عمليات التحديت ولم تكن ترى فيه حلاً لمشاكلها الحضارية . ولذا ، التفت قطاعات كبيرة منهم ، وخصوصاً صغار التجار ، حول القيادات الحسيدية التي منحتها شيئاً من الطمأنينة في عالم لم تكن تعهده البتة .

٩- ولكن ، بالنسبة للمعامل اليهود الروس والمثقفين العلمانيين ، أدى تردّي وضعهم إلى انخراطهم بمعدلات كبيرة في صفوف الحركات الثورية ، وخصوصاً أن مستواهم الثقافي كان ، كما تقدّم ، أعلى من مستوى الأتقنان . ففي عام ١٨٩٩ ، كانت نسبة اليهود في الحركات الثورية تبلغ ٢٤,٨٪ ، وفي وقت كانت نسبتهم إلى عدد السكان ١,٤٪ .

١٠- ويمكن أن نضيف بعض العناصر الثقافية التي أدت إلى فشل عملية التحديت ، من بينها أنها كانت تتم رغم أنف اليهود . وقد بدأت هذه العملية بقضها وقضيضها من داخل المجتمع الروسي لا من داخل الجماعة اليهودية التي ظلت رافضة إياها . ولاقت هذه العملية مقاومة شديدة من جانب الجماهير اليهودية المتخلفة التي رفضت إرسال أطفالها إلى المدارس الروسية العلمانية ، وخصوصاً أن عملية التحديت كانت كما تقدّم تضييرها اقتصادياً في كثير من الأحوال وتحولها إلى طبقة عاملة حضرية مفتقدة للمعنى الذي كانت تجده في وجودها التقليدي .

١١- قامت الدولة الروسية الاستبدادية المتتصقة بالكنيسة الأرثوذكسية المتتصبة بالإشراف على عملية التحديت . وقام بتنفيذ هذه العملية بيروقراطية روسية ضيقة الأفق مرشحة لتنفق إلى خيرة كبيرة باليهود وبأمورهم ، ذلك أن إمبراطورية القيصرية كانت تحظر على اليهود دخولها . وكانت عملية التحديت تتم داخل إطار فكرة القومية السلافية الروسية التي كانت تصدّر عن منطلقات عضوية ضيقة تنفرض أن ثمة تفاوتاً بين الناس وأن السلافية (أو الروسية) خاصة لا يتكسبها المرء وإنما يولد بها على نقيض فكرة القومية الليبرالية في بلاد غرب أوروبا . وكانت عملية التحديت تتم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد انتكاسة الفكر

تقييد حرية الصحافة تماماً ، وطورد أعضاء الجماعات المسيحية التي لا تدن بالأرثوذكسية . وفي كثير من الأحيان ، كانوا يُمنعون تماماً من إقامة شعائهم بل كان يتم خطف أطفالهم منهم . وتجلت السياسة القومية الرجعية أيضاً في القيود الشديدة التي فرضت على مختلف الجماعات غير الروسية (السلافية وغير السلافية) الموجودة على الحدود ، مثل البولنديين ، إذ أُفرض عليهم برنامج قاس للترويس . وانتهى عصر القيصر ألكسندر الثالث بمجاعة وقعت عام ١٨٩١ زادت بؤس الجماهير .

ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية سوى أحد القطاعات البشرية المنكوبة التي وقعت ضحية عملية التفتع الرجعية هذه . فقد بدأ عهد ألكسندر الثالث بسلسلة من الهجمات على كثير من مراكز اليهود السكانية استمرت نحو ثلاثة أعوام وتأثر بها نحو ٦٠ ألف يهودي . وقد وقعت الهجمات بعد أن قامت بعض الصحف الروسية الرسمية بشحن الجوز ضدهم باعتبارهم مستغلي الفلاحين . وتشكلت لجنة للتحقيق في الحوادث توصلت إلى أن نشاط اليهود الاقتصادي هو السبب في هذه الهجمات (ولكن اللجنة ، مع هذا ، لاحظت أن سلوك الشرطة والجيش لم يكن فوق الشبهات) . ثم سُكِّلت لجنة أخرى لإعادة النظر في المسألة اليهودية طرحت اقتراحات لا تختلف كثيراً عن اقتراحات وتوصيات اللجان السابقة . وبناء عليه ، أصدر وزير الداخلية الكونت إجناتيفيف قوانين مايو الموقوتة عام ١٨٨٢ باعتبارها إجراءات استثنائية تطبق على منطقتي الاستيطان وتهدف إلى حماية المواطنين الروس من اليهود باعتبارهم عنصراً أجنبياً غريباً . ولكن ، ظهرت صعوبات كثيرة عند تطبيق هذه القوانين ، فشكَّلت لجنة أخرى عام ١٨٨٣ لمناقشتها واستمرت اللجنة الجديدة في اجتماعاتها خمسة أعوام وأوصت عام ١٨٨٨ بضرورة رفع القيود عن اليهود واعتاقهم . ولكن البيروقراطية تجاهلت تلك التوصيات وقامت بطرد اليهود من موسكو عام ١٨٩١ وتحديد عددهم في المدارس ، وهو ما أدى إلى سفر أعداد متزايدة من الشباب اليهودي إلى الخارج حيث تم تسييسهم وثوريهم . ولم يتغير الوضع كثيراً في حكم نيقولا الثاني (١٨٩٤ - ١٩١٨) آخر قيصرية آل رومانوف . وقد شهدت المرحلة تصاعداً في تطور الصناعة الرأسمالية والتصنيع لم يواكبها تحديث في النظام ، فشهد عام ١٨٩٣ تصاعداً في تطور الصناعة الرأسمالية بقدر لم يسبق له نظير ، وتضاعف عدد أعضاء الطبقة العاملة . وقد زاد إنتاج الفولاذ والبترول ثلاثة أضعاف ، وزاد طول السكك الحديدية من ٢٨ ألفاً إلى ٤٩ ألف فرسخ . ورغم السياسة التي اتبعتها الحكومة التي تهدف إلى تقليل فرص التعليم أمام

لدمج اليهود . وبالفعل ، شهد عهده ظهور حركة التنوير بين يهود روسيا وتزايد معدلات العلمنة والاندماج بينهم . ولكن ، بدأت تتضح في نهاية عصره أزمة النظام القيصري ، كما ظهرت الاستجابات اليهودية المختلفة لأزمة اليهودية واليهود ، وبدأت أعداد متزايدة من الشباب اليهودي تنخرط في الحركات الثورية . وقامت جماعة إرهابية شعبية ، بينها فئات يهودية ملحدة ، باغتياله .

### روسيا من عام ١٨٨١ حتى الثورة البلشفية (١٩١٧)

Russia, from 1881 to the Bolshevik Revolution (1917)

استمت عملية التحديث في روسيا القيصرية بالتناثر الشديد بين الأشكال السياسية الاستبدادية السائدة في المجتمع ومعدلات التنمية الاقتصادية السريعة التي كانت تزايد وتدفع بالمالين من القرى إلى السوق ، تاركين أنماط حياتهم التقليدية حيث يتحولون من أقتان وفلاحين وحرفيين صغار إلى عمال أجراء ، مع ما يتبع ذلك من آلام وضيق ثم إحساس بالفردية ورغبة في المشاركة في السلطة . ولم تقدم الحكومة القيصرية أية صيغ عقائدية تساهم في تقليل آلام الانتقال أو في توسيع نطاق المشاركة في تسيير دفة الحكم . بل إنه مع اعتلاء ألكسندر الثالث الحكم (١٨٨١ - ١٨٩٤) ، ازداد الشدد والأوتوقراطية ، وخصوصاً تحت تأثير بوييدونستيف الذي كان يرفض المثل الديموقراطية تماماً . وقد تلقى القيصر نفسه تعليماً دينياً تقليدياً ، كما ظهر عديد من المفكرين الرجعيين (مثل كاتكوف وليوتيفيف) الذين طالبوا بضرورة وضع حدود صارمة على الشعب الروسي وضرورة الحد من حرياته من جديد . فقد نمت روسيا وتطورت - في رأيهم - مع نمو التفاوت بين الطبقات في المجتمع الروسي ، ومع تأسيس نظام الأقتان وتطور الوظائف التي تُشغَّل بالوراثة . وسيطرت تلك الروح الرجعية على جميع مجالات الحياة في روسيا ووصل أثرها إلى حياة الفئات والطبقات والجماعات كافة ، فأعيدت التشريعات التي تحدت التعليم على أساس طبقي ، وأصبح من العسير على أبناء الطبقات الفقيرة أن يلتحقوا بالمدارس . وفي منشور صادر من وزارة التربية معروف باسم «منشور أبناء الطباقين» ، جاء أن من الواجب عدم قبول «أبناء قائلدي العربات والحدم والطباخين وأصحاب الحوانيت الصغيرة والنسالات ومن شابههم» . كما زيدت مصاريف الجامعات حتى تقلل فرص الالتحاق بها أمام الفقراء . وألغى الفصل بين السلطين التنفيذية والقضائية ، فعُين في العادة بدلاً من القضاة في الريف رؤساء قرويون من طبقة النبلاء يقومون بإصدار الأحكام وتنفيذها . وتم

وحيثما عُقدت الانتخابات عام ١٩٠٧ ، اختير اثنا عشر مندوباً من اليهود في الدوما (البرلمان) ، كما كان هناك عدد كبير من النواب الليبراليين الذين دافعوا عن حقوق اليهود ، ولكن التشكيل السياسي نفسه كان محافظاً ، وكانت أكبر الكتل السياسية داخل الدوما (اتحاد الشعب الروسي) معادية لليهود . ولذا ، فحينما طُرح اقتراح بشأن إلغاء منطقة الاستيطان ، أُجبل بحته ثم حُلَّ الدوما نفسه في العام نفسه ، وعُدَّت القوانين الانتخابية ذاتها بحيث تم القضاء تماماً على العناصر الليبرالية في الدوما .

وكان التركيب الوظيفي لليهود في نهاية القرن الماضي (حسب إحصاء ١٨٩٧) كما يلي : ٦٠ ، ٣١٪ يشتغلون بالتجارة ، و ٩ ، ٢٧٪ يشتغلون بالحرف والصناعات اليدوية نصفهم يعمل بالحياطة ، و ١١ ، ٦٪ يشتغلون كخدم منازل وعمال يومية ، و ٥٪ في المهن الحرة والإدارة ، و ٢ ، ٣٪ في النقل ، الأمر الذي يعني أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية العاملين في التجارة كان لا يزال مرتفعاً .

وقد سيطر التجار اليهود على تجارة الحبوب داخل منطقة الاستيطان ، كما سيطروا على تجارة السكر والقرو والجلود والماشية ومختلف المتوجات الزراعية . وارتفع بعض التجار من يهود روسيا إلى مصاف كبار الرأسماليين وأصبحوا من أصحاب المصارف والوكالات العامة . وارتخر بعض هؤلاء التجار في المشاريع الصناعية ، غير أن هذه المشاريع اتصفت بالطابع الاستهلاكي ، كالنسيج والتبغ وبيع الجلود والصابون والمطاحن وأعمال التقطير ، وكلها من بقايا نظام الأرندا البولندي ، وكانت هذه المشاريع الصناعية أصغر بشكل عام من حجم مثيلاتها الروسية حيث كان الممول اليهودي يميل إلى توزيع رأسماله بين عدة مشاريع مختلفة بدلاً من حصرها في مشروع واحد . وقد امتلك الرأسماليون من يهود روسيا نحو نصف مجموع المشاريع الصناعية داخل منطقة الاستيطان . وكثيراً ما كان العمال اليهود ينظمون الإضرابات ضدهم كما كانوا في كثير من الأحيان يفضلون العمال غير اليهود بسبب رخصتهم ويسبب عدم وجود ضغوط اجتماعية عليهم من قبل الجماعة اليهودية .

ومن الملاحظ أن تركز اليهود في مهن مثل التجارة والصناعة يعني أنهم كانوا متركزين تماماً في المدن . والواقع أن نحو ٨٠٪ من جملة اليهود كانوا يقطنون المدن ، ولم يكن يشتغل منهم سوى ١٠ ، ٧٪ في الزراعة ، وكان هناك نحو ٤٩ ، ٥٪ بدون وظيفة محددة .

واستمر تزايد أعضاء الجماعة اليهودية فيبلغ عددهم ٩٤٦ ، ٠٠٠ في ٦ ، ٠٧٤ ، ٤٠٪ من مجموع سكان روسيا ، وتزايد في

الفقراء ، زاد عدد الطلبة في المدارس وقلت نسبة الأمية . ففي بلد كانت الأمية فيه كاملة تقريباً في بداية القرن ، وصل عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة عام ١٨٩٧ إلى ٢٧ ، ٨٪ . وزاد حجم الطبقة العاملة ، فكانت الألف تهاجر القرى وتتضم إلى الطبقة العاملة الحضرية .

وكرد فعل لهذه التغيرات ، زادت النزعات القومية السلافية الروسية وزاد قمع الأقليات والشعوب التابعة ، وخصوصاً غير السلافية ، فتم قمع الأوكرانيين والبولنديين والمسلمين في الإمارات الإسلامية ، وكذلك تم قمع أعضاء الجماعة اليهودية . ومن أشهر الأحداث التي شهدتها الفترة حادث يوم الأحد الأسود في ٩ يناير ١٩٠٥ حين قام مائتا ألف عامل من الرجال والنساء والأطفال يقودهم الأب جابون بالسير إلى قصر الشتاء ليقدموا شكواهم لأبيهم القيصر . وبدلاً من أن يقابلهم القيصر ، انهالت عليهم رصاصات الحرس القيصري فحصلت نحو سبعين منهم وجرحت ما يزيد على الألف .

واستمر الفوران ، فشهد أكتوبر ١٩٠٥ إضراباً عاماً شل الحياة تماماً . واضطر القيصر إلى أن يمنح الشعب الحريات البرلمانية بعد هزيمة القوات الروسية أمام اليابان ، ولكنه ظل يماطل ويُعدِّل القوانين إلى أن تم تعديلها بشكل جعلها تفقد كثيراً من فعاليتها . وظهرت جماعات إرهابية مثل جماعات المائة السود التي اغتالت زعماء المعارضة وهاجمت تجمعات اليهود .

وبلغ النظام القيصري نهايته مع ظهور راسبوتين (١٨٧٢ - ١٩١٦) وسيطرته على زوجة القيصر ثم على القيصر نفسه بحلول عام ١٩٠٥ . وكان راسبوتين ، كما يقول سكرتيره اليهودي آرون سيمانوفيتش ، شخصية كاريزمية جاء من صفوف الفلاحين وكان يتلذذ بإذلال أعضاء الطبقة الأرستقراطية ، وخصوصاً النساء ، ولا يحين منهم إلا من يروق له أو يدفع له الثمن . وقد اغتيل راسبوتين عام ١٩١٦ . بعد أن كان قد هزَّ النخبة الحاكمة القيصرية من جذورها وبعد أن كان قد تم تصفية عناصر كثيرة منها .

وقد كان يهود روسيا جزءاً من هذه العملية الانقلابية ، فوقعت مذبحه كيشينيف عام ١٩٠٣ (ويقال إنها تمت بتحريض من وزير الداخلية فون بليفيه ، وهو أمر غير مستبعد تماماً ، فقد كانت الحكومة القيصرية تلجأ إلى مثل هذه الأساليب في قمع معارضيه) . وكانت مذبحه كيشينيف هذه جزءاً من سلسلة من الهجمات دُبرت ضد أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم ، كما وُجِّهت تهمة الدم الشهيرة إلى بيليس عام ١٩١١ ، ولكن العناصر الليبرالية دافعت عنه وتمت تبرئته تماماً .

العصر . وبلغ عدد اليهود الناطقين باليديشية (وفق إحصاء ١٨٩٧) نحو ٣٠٠،٥٥٤،٥ ، وكان معظم يهود روسيا (٤٢٧،٨٩٩،٤) مركزاً في منطقة الاستيطان بما يشكل ٦٠،١٪ من سكانها . ويُلاحظ كذلك وجود ٥٠٠،١٦١ من يهود الجبال ويهود جورجيا وغيرهم من يهود القوميات غير الناطقة باليديشية .

أما الاستجابة الثالثة ، فهي ظهور الصهيونية بين اليهود بشقها الشرقي (الاستيطاني) والغربي (التوطيني) . ففي شرق أوروبا ، أدّى تَوَقُّف الحراك الاجتماعي في بعض قطاعات البورجوازية الصغيرة المتعلمة وفي غيرها من القطاعات اليهودية إلى إحساسها بالإحباط وبعث محاولة تحقيق نفسها إثنياً وطبقياً من داخل التشكيل السياسي الروسي ، فبدأت هذه القطاعات في التفكير في أشكال أخرى مثل الهجرة إلى الولايات المتحدة (وهو النمط السائد) أو الاستيطان الصهيوني . وأدت الهجرة اليهودية المكثفة إلى غرب أوروبا والولايات المتحدة إلى فزع قطاعات كبيرة من يهود الغرب ، فبنوا الحل الصهيوني (التوطيني) كوسيلة لتحويل سبب الهجرة عن بلادهم .

ومن أهم الاستجابات الأخرى ، ظهور اتجاه قومية الدياسبورا (أو قوميات الأقليات اليهودية أو القومية اليديشية) التي كان سيمون دبنوف أهم مفكرها . وقد تبنّى حزب البوند ، الذي ظهر في هذه المرحلة ، هذا الاتجاه الذي ينظر إلى أعضاء الجماعة في شرق أوروبا باعتبارهم قومية لا بمعنى أنهم يمثلون اليهود في كل مكان وزمان وإنما بمعنى أنهم جماعة قومية شرق أوروبية تتحدث باليديشية وتتحدد هويتها على هذا الأساس الإثني وليس على أساس ديني .

ومثل هذه الاستجابات الواجبة ، ذات الطابع النظري ، كان يتم طرحها في وقت تتم فيه العملية اليومية للمدغم على قدم وساق على المستوى البنوي الكامن ، وذلك رغم تعثرها على مستوى الشكل الظاهر .

**الكسندر الثالث (١٨٨١-١٨٩٤)**

Alexander III

قيصر روسيا ، اعتلى العرش مع تصاقم أزمة النظام القيصري، وتبنّى سياسة رجعية انعكست في قوانين مايو عام ١٨٨٢ .

**نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٨)**

Nicholas II

آخر قيصرية آل رومانوف . وصلت أزمة النظام الروسي

هذه الفترة عدد العمال اليهود حتى أصبح ٦٠٠ ألف . ولكن لم يكن يعمل منهم في المصانع سوى ٧٠ ألفاً ، و٣٠٠ ألف عامل حرفي يدوي ، و١٠٠ ألف بائع ، أما الباقون فكانوا عمال يومية ، ومن هنا تصّارُب الإحصاءات إذ تذكر المصادر الأخرى أن عدد العمال لم يكن يزيد على ٣٠٠ ألف . ومن الواضح أن هذا الإحصاء الأخير استبعد الباعة وعمال اليومية وكثيراً من الحرفيين .

وقد تركت كل هذه التحولات أعمق الأثر في أعضاء الجماعة اليهودية واستجابوا لها استجابات متباينة بحسب وضعهم الطبقي أو مدى استفادتهم من عملية التحديث أو مدى تركّزهم في المدن أو خارجها . وكانت الاستجابة الثورية أولى الاستجابات إذ انخرط الشباب اليهودي في صفوف الحركات الثورية بنسبة تفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

ويُلاحظ أن الشباب اليهودي في روسيا كان من أكثر العناصر ثورية لأن ثقافته التقليدية (الدينية واليديشية) قُضي عليها إلى حدٍّ كبير . كما أنه اقتُلع من بيئته التقليدية وألقي به إلى عالم حديث رموزه القومية مسيحية ، الأمر الذي زاد غربته وحدائه ، على عكس الشباب الروسي الذي كان يجد شيئاً من الخصوصية ويمارس نوعاً من التجذر من خلال القومية السلافية ذات البعد الأرثوذكسي القوي . ورغم أن الشباب من أعضاء الجماعة اليهودية كان قد فقد جذوره الثقافية ، فإنهم لم يكن قد استقر بعد في التقاليد الثقافية الروسية . وبما زاد نسبة الثوريين في صفوف اليهود تزايد معدلات التحديث الذي حوّل صغار التجار والحرفيين ، الذين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافي لا بأس به ، إلى بروليتاريا صناعية حضرية تشعر بتدنيها في السلم الاجتماعي وتمارس إحساساً بالاضطهاد الواقع عليها وحولها إلى تربة خصبة للأفكار الثورية .

أما الاستجابة الثانية ، فهي الهجرة . وقد شهدت هذه المرحلة هجرة على نطاق واسع لم يشهد أعضاء الجماعات اليهودية مثلها من قبل في تجاربهم التاريخية المختلفة . وقد ترك روسيا ، في الفترة من ١٨٨١ إلى ١٩١٤ ، نحو مليوني يهودي (٢،٧٥٠،٠٠٠ من كل شرق أوروبا) . ونتج عن ذلك تحسن نسبي في مستوى المعيشة ، لأن المهاجرين كانوا يرسلون إلى أقاربهم وأسرهم معونات مالية ، كما أن ذلك حلّ مشكلة الانفجار السكاني حلاً مؤقتاً . وقامت مؤسسات يهودية خيرية في الغرب بالمساهمة في تسهيل عملية الهجرة . فعرض البارون دي هيرش نقل ثلاثة ملايين يهودي إلى الأرجنتين على أن تقوم بذلك جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) . ومع هذا ، فإن تزايد عدد يهود روسيا كان يحدّ الآثار الإيجابية لهذا

أوامره إلى اللجنة المكلفة بإعادة النظر في المسألة اليهودية . وعُرفت هذه اللجنة باسم «لجنة إيجنتايف»، اشترك فيها ممثلون عن مختلف الطبقات والجماعات وترأسها حاكم المقاطعة لتقرير أنواع النشاط الاقتصادي التي تضر بحياة السكان . وعبر الفلاحون وسكان المدن عن شكواهم من اليهود ، وحاول ممثلو الجماعة اليهودية الدفاع عن أنفسهم . وفي ربيع عام ١٨٨٢ ، قدمت هذه اللجنة تقريرها عن المسألة اليهودية . وجاء في هذا التقرير أن سياسة ألكسندر الثاني «التسامح» فشلت ، وأن قيام المعارضة الشعبية ضد اليهود في روسيا نفسها برهن على أنه من الواجب اتخاذ إجراءات جديدة ضد اليهود الروس . وفي نهاية التقرير ، قدمت اللجنة عدة توصيات لعلاج الموقف . وأخذت الحكومة بهذه التوصيات ووضعتها موضع التنفيذ في صورة إجراءات مؤقتة . ونظراً لأن هذه الإجراءات المؤقتة صارت نافذة المفعول في يوم ٢ مايو عام ١٨٨٢ ، فإنها يُشار إليها دائماً بأنها «قوانين مايو» . وكانت هذه القوانين أو هذه الإجراءات تُصدّر تبعاً ، وعلى فترات ، كلما رأت الحكومة الروسية خطراً عليها من النشاط السياسي أو الاقتصادي الذي يمارسه اليهود . ويمكن أن نوجز هذه القوانين فيما يلي :

- ١- لا يُسمح لليهود بالسكنى خارج المدن أو في المدن الصغيرة في أية منطقة ريفية في روسيا (حتى لو كانت داخل منطقة الاستيطان نفسها) .
- ٢- من حق السكان الروس في القرى طرد اليهود من قراهم ، وذلك بقرار خاص يصدره رئيس القرية .
- ٣- أي يهودي يغادر قريته لا يُسمح له بالعودة إليها مرة ثانية .
- ٤- لا تُحدّد عقود الإيجار المبرمة مع اليهود .
- ٥- لا يُسمح بتشغيل أي يهودي في المناطق الريفية .
- ٦- لا يُسمح لليهود المقيمين في المناطق الريفية باستجلاب أي قريب لهم إلى هذه المناطق ، وإذا حدث ذلك يُطرد اليهودي من قريته .
- ٧- عدد الطلاب اليهود في المدارس الإعدادية والثانوية أو في الجامعات يكون بنسب معينة يحددها المجلس التعليمي في روسيا . وُحُدّ النصاب المسموح لليهود عام ١٨٨٦ بنحو ١٠٪ داخل منطقة الاستيطان و٣٪ خارجها .
- ٨- خُفّضت نسبة عضوية الأعضاء اليهود في سلك القضاء الروسي من ٢٢٪ إلى ٩٪ (مُنح اليهود منعاً باتاً من الانضمام إلى سلك القضاء عام ١٨٨٩) .
- ٩- أي يهودي يعيش خارج منطقة الاستيطان ويقوم بتوسيع مجال نشاطه الاقتصادي يُعاد فوراً إلى منطقة الاستيطان .

القيصري في عهده إلى ذروتها ، ثم اندلعت الثورة البلشفية التي أعدمته . وقعت عدة مذابح في عهده ضد أعضاء الجماعات اليهودية . وكان راسبوتين من أهم الشخصيات في بلاطه الملكي .

#### قوانين مايو

May Laws

«قوانين مايو» مجموعة من القوانين المؤقتة أصدرتها الحكومة الروسية في مايو عام ١٨٨٢ ، وبمقتضاها أصبح من المحظور على أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا أن يعيشوا أو يملكوا أي عقار إلا في المدن الموجودة داخل منطقة الاستيطان اليهودي . ولقد أصدرت الحكومة الروسية هذه القوانين بعد أن قامت ، خلال سنين عديدة ، بعدة محاولات لمنع الجماعة اليهودية اقتصادياً وحضارياً في المجتمع الروسي . وباتت كل هذه المحاولات بالفشل لأسباب عدة من بينها تخلف يهود روسيا الاقتصادي . ورغم اندماج أعداد لا بأس بها منهم في المجتمع ، فإن معدل تزايد يهود روسيا كان يفوق كثيراً معدل الهجرة والاندماج . وعمّا عُدّ الأمور ، ظهر الأفكار السلافية القومية الاستبدادية المعروفة بعادتها للغرب (المنحل) ولأفكار الرأسماليين (المادين) . وكان هناك عنصر مسيحي أرثوذكسي قوي في هذه الدعوة السلافية ، وهو ما أمّأ قشراً كثيراً من الصعوبات في طريق أعضاء الجماعة اليهودية نحو الاندماج الحضاري .

ولقد كان من أسباب تفاقم المشكلة أيضاً زيادة معدلات تطور الرأسمالية الروسية ، الأمر الذي أدّى إلى سرعة تحطيم الكثير من مخلفات الإقطاع ، مثل الجيتو والشتتل ، والكثير من الأشكال الاقتصادية الاجتماعية الأخرى التي كان اليهود مرتبطين بها ، شأنهم في ذلك شأن بعض الأقليات القومية والدينية الأخرى ، وكذلك سكان المناطق الآسيوية . كما أن الوجود اليهودي الملحوظ في الحركات الثورية الاشتراكية ، جعلهم هدفاً لهجمات العنصرين الرجعيين ، أي أن فشل يهود روسيا في التأقلم مع الاقتصاد الجديد وتخلّفهم الحضاري وتكاثرهم ، وسرعة معدل تطوّر الرأسمالية الروسية ، واستبدادية القومية السلافية ، وإشترك اليهود في الحركات الثورية ، هذه العناصر جميعاً أدّت إلى فشل محاولات تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج ، وأدّت بالتالي إلى اتخاذ الحكومة الروسية إجراءات قانونية اقتصادية لمجابهة هذا الوضع .

وفي ٢٢ أغسطس عام ١٨٨١ ، أصدر القيصر أوامره بالقيام بتحريات عن النشاطات الاقتصادية «الضارة» التي تمارسها الجماعة اليهودية توطئة للقضاء عليها . وفي أكتوبر ١٨٨٩ ، أصدر القيصر

أدى إلى وقوع المذابح وصدور قوانين مايو هو وضع اليهود كأقلية مثل سائر الأقليات الأخرى داخل بناء اقتصادي حضاري يتنقل من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى ، ومتجاهلة أيضاً أن الاضطهاد الموجه ضد اليهود ليس سبباً لهجرة اليهود إلى الولايات المتحدة ولا لانتشار الأفكار الصهيونية بين اليهود وإنما تعبير جزئي عن بناء كامل متكامل . وإذا أردنا استخدام الواقعة التاريخية الجزئية (الجزء) للإشارة إلى الحركة التاريخية الكاملة المتكاملة (الكل) ، فإننا نجد أن «قوانين مايو» أشد دلالة من المذابح الدامية ، ذلك أن المذابح الدامية مسألة متكررة في حياة الأقليات كافة في روسيا وضمن ذلك اليهود . وقد كانت مذابح شميلنكي ، ومن قبلها مذابح الصليبيين ، أكثر عنفاً وضراوة من أية حوادث وقعت عام ١٨٨١ . ومع هذا ، فإن هذه المذابح لم تؤد إلى ظهور الصهيونية أو أية نزعات مماثلة . أما قوانين مايو ، فإنها تصلح كمؤشر على ظهور الحركة الصهيونية بين اليهود لأنها تعبير متكامل عن حركة التاريخ الروسي في أواخر القرن التاسع عشر وعن تعثر التحديث في المجتمع الروسي وأزمته العامة . وقد ظلت قوانين مايو أو الإجراءات المؤقتة نافذة المفعول حتى عام ١٩١٥ حيث ألغى العمل بها . ثم ألغيت رسمياً عام ١٩١٧ بقيام الثورة البلشفية حيث حُلَّت المسألة اليهودية (أو أخذت شكلاً جديداً) ضمن عملية حل أزمة المجتمع الروسي ككل .

١٠ - أي يهودي يغيّر وضعه من مهني إلى تاجر ، يسقط حقه في الإقامة في روسيا ويُعاد إلى منطقة الاستيطان .  
 ١١ - تحريم إقامة اليهود في موسكو (صدر هذا القرار عام ١٨٩١) .  
 ١٢ - إغلاق معبد موسكو وتحريم استخدامه . كما تم حرمان اليهود من حق الاشتراك في الحكومة المحلية .  
 قلّصت قوانين مايو نطاق منطقة الاستيطان ، كما قضت على فرص اندماج بعض القطاعات اليهودية في المجتمع الروسي ، وهو ما زاد معدلات هجرتهم إلى الولايات المتحدة ، كما خلقت مناخاً اقتصادياً فكرياً قضى على الحركات التنويرية الاندماجية وشجع الأفكار الصهيونية ، وخصوصاً أن صدور قوانين مايو صاحبه وقوع بعض الحوادث الدامية ضد الأقليات الدينية والقومية في روسيا .  
 ووجهت اللجان الروسية القيصرية نقدها إلى هذه القوانين وطالبت بإلغائها . بل إن وزير داخلية روسيا ، مثل فون بليفيه ، وجد أن القوانين مجحفة وتخل بالأمن ، ولكن الحكومة استمرت مع ذلك في وضعها موضع التنفيذ . ومع هذا ، فقد حُفَّت ابتداءً من عام ١٩٠٣ حينما صرّح لأعضاء الجماعة اليهودية بالاستيطان في القرى التي أصبحت منذاً صغيرة وكان عددها يبلغ ثلاثمائة قرية .  
 وتؤرخ الكتابات الصهيونية لظهور الحركة الصهيونية بوقوع حوادث عام ١٨٨١ الدامية ، متجاهلة أن السبب الأساسي الذي



## الاتحاد السوفيتي

الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧ حتى الحرب العالمية الثانية -  
الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

## الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧ حتى الحرب العالمية الثانية

The Soviet Union, from 1917 to the Second World War

صغيرة معظم أعضائها من البورجوازية موزعون داخل دولة تسودها أغلبية متجانسة عرقياً . ولذا ، كان الاندماج هو الحل الأمثل بالنسبة إليها ، على أن تعقّب ذلك أو تتزامن معه ثورة اجتماعية . هذا هو الحل الذي طرحه ماركس وكاوتسكي وياور . وكان الحل الذي تبناه لينين والبلاشفة ، مع بعض التعديلات ، ليطبقوه على وضع مختلف تماماً . فتنادى بأن لا أساس لوجود أمة يهودية مستقلة وأن شعار الثقافة اليهودية « هو شعار الخاضعات ، والبورجوازية ، شعار أعدائنا » . وأن القضية هي ببساطة قضية انعزال واندماج وثورة اجتماعية . وطرح ستالين تعريفه الشهير للأمة وقال « إن اليهود أمة على ورق » . ويلاحظ أن لينين وستالين يستخدمان مصطلح «أمة» بالمعنى العام للكلمة تماماً مثلما فعل ماركس . ولكن حيث إن التشكيل السياسي الروسي مختلف تماماً عن التشكيل السياسي الألماني ، وحيث إن وضع الجماعات اليهودية داخله كان متميزاً ، فإن تاريخ السياسة السوفيتية تجاه المسألة اليهودية في روسيا هو تاريخ التناقض بين الرؤية الماركسية الأيمية (الألمانية) والواقع الروسي الخاص . ولعل أولى القضايا التي أفلتت من يد البلاشفة أن لفظ «يهودي» ، في الاتحاد السوفيتي ، كان يشير إلى عدة مجموعات حضارية ودينية واجتماعية علاقتها بعضها بالبعض وأهية ، فكانت لفظ «يهودي» يشير إلى :

١ - يهود روسيا الذين يتحدثون اليديشية في المقام الأول ، أي يهود اليديشية ، وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عمال وتجار صغار ورأسمالين كبار وفلاحين . ويلاحظ أن عمر الثقافة اليديشية كان قصيراً جداً ، فلم يظهر الأدب اليديشي إلا في أواخر القرن التاسع عشر . ولذا ، لم تثبت اليديشية كثيراً أمام تيارات التحديث وبدأت تظهر عليها أعراض الشيخوخة .

٢ - قطاعات من يهود روسيا تتحدث اليديشية ولكنها تكتب مؤلفاتها بالعبرية باعتبارها لغة العبادة في الماضي واللغة القومية في المستقبل ، وهؤلاء كانوا أساساً من الصهاينة الذين بدأوا يؤمسون أدباً مكتوباً بالعبرية .

أخذت حدود الاتحاد السوفيتي شكلها النهائي عام ١٩٢٠ . وكان هذا يعني أن عدداً كبيراً من اليهود الذين كانوا يعيشون داخل مناطق تابعة لدول حصلت على استقلالها (بولندا وليتوانيا ولاتفيا وإستونيا وبيلاريا التي ضُمت إلى رومانيا) أصبحوا تابعين لهذه الدول . ولم يبق سوى ٦٨٠,٠٠٠ ، ٢ يهودي داخل الاتحاد السوفيتي (مقابل ما يزيد على خمسة ملايين قبل الحرب) ، ٨٠٪ منهم كانوا يعيشون في أوكرانيا وروسيا البيضاء . كانت أوكرانيا تضم ٤٢٨,٥٧٤ ، ١ (٤,٥ ٪ من مجموع سكانها) ، وكانت روسيا البيضاء تضم ٤٢٨,٤٧٠ (٢,٨ ٪ من مجموع سكانها) . كما كانت الجمهوريات الآسيوية تضم ١٠٩,٨٥١ (٠,٤٠ ٪ من مجموع سكانها) . وزاد عدد اليهود إلى ما يزيد على ثلاثة ملايين عشية الحرب العالمية الثانية . وتركز ٨٧٪ من جملة اليهود في المدن ، وتركز ٤٠٪ منهم في ست مدن على وجه التحديد ، وكان أعضاء الجماعة يعملون أساساً بالتجارة .

وكانت أولى الخطوات التي اتخذتها الحكومة البلشفية هي إعتاق اليهود وإعطاؤهم حقوقهم السياسية كافة . فأصبحت معاداة اليهود جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام ، وحُدِّدَ الانتماء العرقي على أساس اختيار المواطن ووفق ما يدلي به كل فرد باختباره المحض ، كما تم الاستناد في تحديد الانتماء القومي إلى اللغة التي يحدد العضو أنها لغته القومية . ولكن الحكومة البلشفية أهملت ، مع هذا ، الجوانب الخاصة للمسألة اليهودية في روسيا ، وقللت من شأن سماتها المحددة ربما بسبب رؤيتها الثورية الأيمية . فليين ومن بعده ستالين ، تأثراً بنجربة ماركس الألمانية ويطرحه العالمي أو الأيمي للمسألة اليهودية الذي يرى أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة وأن ثمة حلاً واحداً هو الثورة الاجتماعية ودمج اليهود . ففي ألمانيا التي كان يعرفها ماركس ، لم تكن هناك كتلة بشرية يهودية ضخمة ذات سمات ثقافية محددة تضم الطبقات كافة ، وإنما كانت هناك أقلية



- ٣ - اليهود الذين تم علمتهم ودمجهم في المجتمع الروسي ولا يتحدثون سوى الروسية .
  - ٤ - اليهود ذوي الأصل الألماني يتحدثون الألمانية .
  - ٥ - اليهود القرائين الذين لا يؤمنون بالتملود وكانت أعداد كبيرة منهم يتحدثون التركية والترتية .
  - ٦ - يهود جورجيا الذين يتحدثون الجورجية .
  - ٧ - يهود الجبال الذين يتحدثون لغة الثبات ، ويتبعون تشكيلات اجتماعية قبلية .
  - ٨ - يهود بخارى ويتحدثون الطاجيكية وهي لهجة فارسية .
  - ٩ - مجموعات قبلية يهودية صغيرة أخرى ذات تراث ثقافي متميز مثل الكرشاكي .
  - ١٠ - كما كانت لفظ «يهودي» يشير ، بطبيعة الحال ، إلى كل يهود العالم ، وخصوصاً يهود ألمانيا وفرنسا وإنجلترا .
- وكان من الصعب ، بطبيعة الحال ، إطلاق لفظ «قومية» على كل هذه الجماعات اليهودية التي تتحدث بعدة لغات وتعيش داخل مناطق مختلفة وليست لها أرض مقصورة عليها (ربما باستثناء يهود الجبال والمجموعات القبلية الصغيرة الأخرى) . ومن الناحية المنطقية للمجردة ، فإنهم ليسوا أمة على الإطلاق لأنهم لا يشكلون جميعاً قومية واحدة . ومع هذا ، فمن الممكن اعتبارهم جماعات يهودية مختلفة ، بعضها دون هوية إثنية خاصة مثل يهود إنجلترا وألمانيا ، والبعض الآخر يتمتع بمثل هذه الهوية بدرجات متفاوتة من الاستقلال . وبدلاً من التفكير في إطار القومية العالمية ، أو الجماعة الواحدة ، كان من الممكن التفكير في إطار الجماعات القومية وغير القومية داخل التشكيل السياسي الروسي ، وكان من الممكن طرح سياسات متعددة تختلف باختلاف الأوضاع الثقافية للجماعات اليهودية المختلفة . وهو ما لم يفعله السوفييت في بادئ الأمر ، وإن كان الواقع فرض عليهم تعددية الحلول بعد أن ظلوا يتحركون داخل أطر «علمية» أحادية بسيطة .
- شهدت الشهور الأولى للثورة اندلاع الحرب الأهلية في عدة مناطق من أهمها منطقة أوكرانيا الحدودية التي كانت محارب فيها عدة جيوش من بينها الجيش الأوكراني القومي تحت قيادة بتليورا وعصابات الفلاحين التابعين له ، والجيش الأحمر الذي كان يضم وحدات أوكرانية وجيوش صغيرة وقوات أخرى . وبلغت القوات السوفيتية إلى استخدام العنف ضد الفلاحين ، وخصوصاً أن سياسة مصادرة الحبوب أدت إلى عُرد العناصر الفلاحية الأوكرانية التي رأت في أعضاء الجماعة اليهودية عناصر مقترنة بالنظام السوفيتي الجديد

وبالسلطة الحاكمة ، فهاجمتهم كما هاجمهم قوات بتليورا . وأدى كل هذا إلى التفاف اليهود حول الثورة (وقد حلت كثير من التنظيمات اليهودية الاشتراكية نفسها وانضمت إلى الثورة ، في حين تعاون الزعيم الصهيوني جابوتسكي مع بتليورا وقواته) . وانضم الشباب اليهودي في أوكرانيا وغيرها من المناطق إلى الجيش الأحمر الذي أسسه ليون تروتسكي وكان من قاده البارزين زينويف وسفردولف . وفي عام ١٩٢٦ ، كان عدد الضباط اليهود ٤٠٤ ، ٤٪ من مجموع ضباط الجيش الأحمر . ولعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً مهماً في إعادة بناء الهيكل الإداري للدولة الجديدة بعد أن هاجرت أعداد كبيرة من المثقفين والموظفين الروس البيض إلى الخارج . ولكن ، ورغم انعتاق أعضاء الجماعة اليهودية سياسياً ، فإن السياسة الاقتصادية للنظام السوفيتي تسببت موضوعياً في اقتلاعهم وتغيير مخط حياتهم . فالثورة البلشفية (كما كانت تُطلق على نفسها) ثورة عمال وفلاحين ، ولم تكن غالبية يهود روسيا عمالاً ولا فلاحين . وحتى أعضاء الطبقة العاملة من اليهود ، كانت نسبتهم صغيرة . ولم يكونوا مرتبطين بالطبقة العاملة الروسية ارتباطاً حضارياً أو حتى اقتصادياً ، إذ تركزوا في المصانع الصغيرة والحرف اليدوية وقطاعات معينة من الصناعات الاستهلاكية . كما أن الظروف فرضت عليهم الارتباط إلى حد كبير بالرأسماليين اليهود الصغار . أما بقية اليهود من أعضاء البورجوازية الصغيرة والكبيرة ، فكانوا إما يمتلكون صناعات استهلاكية ، وإما يوظفون بدور الوسيط التجاري في المدن الصغيرة .

وأدت الممارسات الاقتصادية البلشفية إلى اكتساح الأساس الاقتصادي لوجود الكتلة البشرية اليهودية وتركزها في مناطق معينة . فانقرط عقدها ، وبدأت عملية ذوبانها التدريجي ، وهي عملية استمرت حتى قُضي على معظم التجمعات السكانية اليهودية داخل منطقة الاستيطان .

وشهدت مرحلة شيوعية الحرب (١٩١٨ - ١٩٢١) عهداً من القرارات الاقتصادية ذات الطابع الثوري ، مثل تحويل أجور المستخدمين إلى أجور عينية ، وإجبار الزارعين على تسليم منتجاتهم من المواد الغذائية . كما اتخذت قرارات أخرى كان لها تأثير مباشر على اليهود ، مثل تأميم الصناعة والتجارة وفرض العمل الإجباري على البورجوازية .

ثم عدلت الحكومة الروسية مؤقتاً عن سياسة شيوعية الحرب وتبنت «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي عُرفت باسم «النيب» N.E.P (١٩٢١ - ١٩٢٧) ، وهو اختصار للعبارة الإنجليزية «نيو

التوطين الغربية، مثل جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) التي أسسها المليونير الألماني اليهودي هيرش، و لجنة التوزيع المشتركة في هذه العملية. وزاد عدد المزارعين اليهود زيادة هائلة، وزادت الرقعة الزراعية التي يشغلونها أربعة أضعاف. وبلغ عدد المزارع التعاونية اليهودية خمسمائة مزرعة حتى أواسط الثلاثينيات، وهي الفترة التي وصلت فيها التجربة إلى قمة ازدهارها. وبلغ عدد اليهود العاملين بالزراعة ١٥٥ ألف مزارع يهودي عام ١٩٢٦، أي ٦٪ من العاملين اليهود، ثم زاد إلى ٢٢٠ ألفاً عام ١٩٢٨، أي ٥، ٨٪، ثم إلى نحو ٣٠٠ ألف في أوائل الثلاثينيات، أي ١، ١٠٪. ويُلاحظ أن اضطلاح اليهود بالعمل في الزراعة لا يعني بالضرورة العمل السدوي، وإنما يعني في الواقع قطاع الزراعة ككل بما في ذلك الأعمال الكتابية والإدارية التي كان يتركز فيها أعضاء الجماعة اليهودية. ولكن، بعد فترة، توصل المسئولون السوفييت إلى أن شبه جزيرة القرم لا توجد فيها أرض زراعية كافية، كما أن التوطين الزراعي يؤدي إلى زيادة التماسك العائلي وهو ما يدعم عملية الانفصال اليهودي. وإلى جانب هذا، عارض بعض السكان المحليين عملية توطين اليهود بينهم. ويُقال أيضاً إن القيادة السوفيتية وجدت أن شبه جزيرة القرم منطقة مهمة من الناحية الإستراتيجية تقع على مقربة من غرب أوروبا، وقد يؤدي تركيز عنصر يهودي فيها إلى خلق مشاكل ذات طابع أمني في المستقبل. وشهدت الثلاثينيات بداية عملية الزراعة الجماعية والتي كانت أيضاً عملية تلويب إذ تم ضم عناصر غير يهودية في الكولخوزات اليهودية. وأدت العناصر السابقة جميعاً إلى القضاء على تجربة الزراعة اليهودية.

وفي عام ١٩٢٨، تقرر أن تكون بيروبيجان هي منطقة الاستيطان الزراعي اليهودية وإحدى وسائل دمج اليهود في المجتمع السوفيتي على المستويين الاقتصادي والثقافي. ولكن لم يُقدّر لهذه التجربة أي نجاح، وأدى الغزو النازي إلى تدمير جميع المستوطنات الزراعية في أوكرانيا والقرم ولكن لم يجر تشييدها بعد الحرب.

فشلت تجربة بيروبيجان، كما فشلت محاولة توجيه اليهود من المدن والتجارة إلى قطاع الزراعة، لا بسبب طبيعة اليهود التجارية وانعزاليتهم (كما ادعى خروتشوف) وإنما بسبب التحول العميق في الاقتصاد السوفيتي من الزراعة إلى الصناعة. وهذه إحدى ثمرات مشروع السنوات الخمس الأولى (١٩٢٩ - ١٩٣٤)، وهي عملية متناقضة مع عملية التوطين الزراعي، ولكنها مع هذا أدت إلى دمج اليهود وتلويبهم ربما بمعدلات أكثر من تلك التي خطط لها السوفييت. وقد أكد مشروع السنوات الخمس أهمية التنمية

إيكرونيك بوليسي «New Economic Policy»، والتي سمحت بأشكال من الاستثمار الخاص والنشاط التجاري والمصانع الصغيرة. واستفاد أعضاء الجماعة اليهودية أكبر استفادة من هذه السياسة الجديدة. وكان التوزيع الوظيفي ليهود روسيا عام ١٩٢٦ كما يلي: ١، ١٩٪ في التجارة (كانت تلك محلات موسكو عام ١٩٢٤ يملكها يهود)، وكان ٣، ٣٤٪ في الصناعة والحرف، ٢، ٩٪ في الزراعة، ٢، ١٠٪ في وظائف إدارية ومهنية. ورغم أن عدد العاملين بالزراعة قد وصل إلى ٢، ٩٪ مقارنة بنحو ٦، ٢٪ حسب إحصاء عام ١٨٩٧. فإن نسبة المشتغلين بالتجارة كانت مرتفعة، كما يُلاحظ أن نحو ٢٧٪ من العاملين اليهود كانوا غير مصنفين وظيفياً، ويُرجح أن أغليتهم كانوا يمارسون التجارة والمضاربات سرّاً وتحت ستار أعمال أخرى (وكان هذا جزءاً من موروثهم الاقتصادي).

أدّى كل ذلك إلى ظهور طبقة رجال النيب في المدينة والكرولاك في القرية، الأمر الذي كان يهدد الأساس الاقتصادي للنظام الجديد. ورغم أن التجارة كانت مهنة مشروعة، فإن الدولة البلشفية الجديدة لم تكن سعيدة بهذا التطور إذ كانت تنظر بعين الشك إلى القطاعات الاقتصادية المستفيدة.

ثم تم التراجع عن هذه السياسة، وبدأت الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٧ - ١٩٣٢) التي تشكل بداية عملية التلويب الحقيقية لأعضاء الجماعة. فحسب إحصاءات العشرينيات، كان ثلث اليهود يتنون إلى طبقات اقتصادية، مثل طبقة صغار التجار، محكوم عليها بالاختفاء نتيجة إعادة صياغة الاقتصاد السوفيتي. ويُقال إن نحو ١٠٠، ١٢٠ يهودي اضطروا إلى إغلاق تجارتهم الصغيرة فزاد عدد العاطلين عن العمل على مليون، واتجهت أعداد منهم إلى التعامل في السوق السوداء.

وقرر الاتحاد السوفيتي حل مسألته اليهودية عن طريق عمليتين مختلفتين متناقضتين وإن كانتا قد أدتا، كل واحدة منهما على طريقتهما، إلى دمج أعضاء الجماعة اليهودية. أما الأولى، فهي سياسة توجيه اليهود نحو الزراعة والاستيطان الزراعي، وهي استمرار لمحاولات الحكومة القيصرية التي استهدفت تحويل اليهود إلى عنصر منتج. فأسست لجنة الاستيطان الزراعي اليهودي (كوزمت). وبلّغت التجربة في أوكرانيا بقدر معقول من النجاح، ولكن كان التركيز على بعض مراكز الاستيطان الزراعي السابقة مثل جنوب روسيا أو روسيا الجديدة التي كانت تضم أربعين ألف فلاح يهودي. ووقع الاختيار أيضاً على شبه جزيرة القرم حيث كانت توجد مناطق صالحة للاستيطان الزراعي. وساهمت منظمات

قسماً خاصاً للشئون اليهودية يُسمى «يفيسكسسيا» أي «القسم اليهودي» (تم حله عام ١٩٣٠). ولما كان أعضاء الحزب اليهود من دعاة الاندماج، فإن هدف القسم اليهودي كان «نشر ديكتاتورية البروليتاريا بين الجماهير اليهودية». وقد انضمت إليهم قطاعات من البوند وعمال صهيون وحزب العمال اليهودي، حيث طالبوا بتشجيع اليديشية وسيلة للتعبير عن ثقافة يهودية علمانية معادية للدين اليهودي وللعبرية والتوراة. وقد قام القسم اليهودي بتصفية الأطر التعليمية التقليدية المتبقية بين اليهود، كالمدراس وما شابهها، ومنع تدريس العبرية، كما قام بتجريم النشاط الصهيوني، واعترف باليديشية لغة رسمية حتى أصبحت إحدى اللغات المعترف بها في المحاكم وأصبحت تدار بها الجلسات. وكذلك شجع الأدب اليديشي، وخصوصاً المسرح اليديشي، فشهدت الفترة ككل ازدهاراً حقيقياً لهذا الأدب. وأسست كلية لدراسة الثقافة اليهودية، كما أسست شبكة من المدارس الابتدائية والثانوية لغة التدريس فيها اليديشية، بالإضافة إلى كليات تربوية لإعداد مدرسين لليديشية. ووصل عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس إلى ٥٠٪ من مجموع الطلاب اليهود عام ١٩٢٦. ولكن العدد بدأ في الانخفاض التدريجي، وهو ما يبين أن الانصراف عن اليديشية وتقبل الترويس (وهي العملية التي بدأت في حكم القياصرة) أصبحت عملية تلقائية تتبع من الحركات الداخلية لأعضاء الجماعة الذين كانوا يفضلون إرسال أطفالهم إلى المدارس الحكومية الروسية لأن ذلك كان يعني زيادة فرص الحراك أمامهم. ولذا، نجد أن أعداد الطلبة اليهود في مدارس أوكرانيا وروسيا البيضاء أخذت في التزايد، وأخذت الثقافة اليديشية في الاختفاء التدريجي، وخصوصاً مع تغيير الوضع الوظيفي ليهود روسيا وهجرتهم من مراكز التجمع التقليدية إلى المدن وابتعادهم عن مراكز الثقافة اليديشية التقليدية.

وهكذا انصرف كثير من يهود اليديشية عن التحدث باليديشية أو دراستها، وانصرف كثير من الكتّاب اليهود الروس عن الكتابة باليديشية وبدأوا يكتبون بالروسية. وتناقص عدد الطلبة اليهود الذين يدرسون في المدارس اليديشية إلى ٢٣٪ عام ١٩٣١ ثم إلى ٢٠٪ عام ١٩٣٩، وأغلقت عدة مدارس يديشية أبوابها لعدم وجود طلبة. كما أن الاندماج تبدى بكل وضوح في زيادة نسبة الزواج المختلط في الثلاثينيات إلى ٢٥٪ من مجموع الزيجات اليهودية. ويلاحظ أن معدلات الاندماج بين الشباب كانت أعلى بكثير من مثلتها بين المتقدمين في السن. ويمكن القول بأن العقيدة اليهودية لم تعد أحد أشكال التضامن بين أعضاء الجماعة الذين بدأت عملية

الصناعية وخصّصت لها الاعتمادات الضخمة، الأمر الذي زاد الطلب على الأيدي العاملة وأتاح الفرص أمام أعضاء الجماعات اليهودية لأن يتحولوا إلى عنصر منتج من خلال الصناعة. وقامت المنظمات اليهودية التوطينية، مثل جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) ومنظمة إعادة التأهيل والتدريب (أورت) ولجنة التوزيع المشتركة، بفتح مدارس لتدريب اليهود على الحرف. كما قامت حكومات أوكرانيا وروسيا البيضاء بوضع خطط لتدريب الشباب اليهودي على الصناعة. ونجحت هذه الخطط في توفير أعمال في القطاع الصناعي والحكومي لآلاف اليهود خارج منطقة الاستيطان. ولم تكن هناك أية بطالة بين أعضاء الجماعات اليهودية بحلول عام ١٩٣٠، بل نشأت من صفوفهم فئات جديدة من موظفي الحكومة والعمالين في المشاريع الصناعية. ونتيجة هذه التحولات، تزايدت هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى داخل روسيا وإلى المدن. وكانت هذه أكبر هجرة يهودية منذ التدفق اليهودي اليديشي إلى أمريكا في نهاية القرن السابق. وأدت هذه الهجرة، مثل الهجرة إلى الولايات المتحدة، إلى دمج أعضاء الجماعات اليهودية واستيعابهم وحل المسألة اليهودية. وتظهر مدى راديكالية هذه العملية في الزيادة الملحوظة في عدد اليهود في أكبر مدينتين روسيتين، موسكو وليننجراد، حيث كانتا تضمّان ٢٤، ٢٦ يهودي فقط عام ١٨٩٧. وأصبح عدد أعضاء الجماعات اليهودية فيها، بعد ما يقرب من أربعين عاماً، نحو ٥٧٥ ألفاً. وكل هذا يعني، في واقع الأمر، زيادة تحلّل المراكز السكانية اليهودية الضخمة، وتوزّع سكانها. وقد كانت أوكرانيا وحدها تضم عام ١٩٢٦ نحو ٧٦٪ من يهود روسيا، وانخفضت النسبة إلى ٦٢٪ عام ١٩٣٩، وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث. وتغيّر وضع يهود روسيا الوظيفي إذ أصبح عدد العمال اليهود عام ١٩٣٩ نحو ٦، ٣٠٪ (من كل العمال اليهود) وعدد الحرفيين ١، ١٠٪ وعدد الفلاحين في الكولخوز ٨، ٥٠٪ (أي أن أكثر من نصف اليهود أصبحوا من العمال والفلاحين) و ٦، ٤٠٪ في أعمال كتابية، و ٩، ٢٪ في وظائف أخرى. ويلاحظ أن الوظائف الكتابية حلت محل التجارة باعتبارها أهم وظيفة يضطلع بها أعضاء الجماعات اليهودية. وتضمّ الوظائف الكتابية في الاتحاد السوفيتي المؤلفين والعلماء والمثقفين والموظفين الحكوميين. وكان عدد اليهود العاملين في تلك الوظائف ٣٦٤، ٠٠٠ منهم ١٢٥ ألف محاسب. أما من الناحية الثقافية، فقد كان الاتجاه العام يسير نحو الدمج الثقافي. أو تأكيد الثقافة اليديشية العلمانية اللادينية التي لا علاقة لها بالثقافة الدينية التقليدية. وقد أنشأت الحكومة السوفيتية عام ١٩١٨

الجماعة ، فسقطوا في يد النازيين حيث تمت إبادتهم باعتبارهم أوست يودين (يهود شرق أوروبا) ، كما تمت إبادة أعضاء بعض الجماعات والأقليات الأخرى . وشهدت السنوات التي تلت الحرب مباشرة فترة الإرهاب الستاليني الذي يُقال إنه كان ذبابة عنصرية واضحة ومعادية لليهود .

ومع هذا ، فإن عملية الدمج والترويس أصبحت حركاتها داخلية تنبع من داخل الجماعة نفسها وليست مفروضة عليها من الخارج من قبل الحكومة . وقد تزايدت بحيث أصبح الدمج اندماجاً . ولا يزال أعضاء الجماعة مركزين أساساً في المدن العظمى . ويُلاحظ أن عدد اليهود المشغولين بالزراعة قد تناقص ، وحتى أولئك الذين يعملون في الريف معظمهم يقوم بأعمال كتابية . ويلعب أعضاء الجماعة دوراً متميزاً في المؤسسات التجارية السوفيتية . كما يُلاحظ أيضاً أن عدد العاملين في التجارة الحرة من أعضاء الجماعات اليهودية ، في أواخر الخمسينيات ، بلغ نحو نصف مليون فرد من مجموع عدد العاملين في التجارة من عموم المواطنين السوفيت البالغ عددهم نحو خمسة ملايين . وهكذا شكّل التجار اليهود نسبة ٢٠٪ من مجموع العاملين بين أعضاء الجماعة ونسبة ١٩٪ من مجموع التجار ، بينما لم تزد نسبة اليهود إلى عدد السكان على ١٪ . وقد قامت الحكومة السوفيتية في أوائل الستينيات بحملة ضد النشاطات الاقتصادية غير المشروعة ، وسنت قانوناً بمعاقبة مرتكبي الجرائم الاقتصادية بالإعدام ، وتم تنفيذ العقوبة في عدد من المتهمين بلغ عددهم حوالي ١١٢ تاجراً من تجار السوق السوداء كان نصفهم من اليهود .

وشهدت أواسط الخمسينيات ، والسنوات التي تلتها ، ارتفاعاً بالغاً في عدد الطلاب من أعضاء الجماعات اليهودية بالمعاهد العليا والجامعات وهو ما نتج عنه زيادة عدد المشتغلين (من اليهود) بالمهن الحرة .

ويصفه عامة ، يتمتع يهود الاتحاد السوفيتي بأعلى مستوى تعليمي بالمقارنة بساتر القوميات السوفيتية . ففي جمهورية روسيا الاتحادية تلقى ٣٤٤ يهودياً تعليماً عالياً من بين كل ألف (مقابل ٤٣ فقط بين الروس) . وإذا استبعدنا العجزة حيث تكون نسبة التعليم العالي بينهم منخفضة ، وإذا استبعدنا المرحلة العمرية ١١ - ٢٢ ، حيث لم يكمل أعضاؤها دراستهم بعد ، يصبح عدد المتعلمين تعليماً عالياً بين اليهود ستمائة لكل ألف . وتشير إحصاءات تعداد عام ١٩٥٩ إلى أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم أو أكثر هي ٦١٣ لكل ألف وهي نسبة فاقت مثيلتها بين القوميات

علمتهم في منتصف القرن الماضي ، ثم تصاعدت هذه العملية مع نهاية القرن ، ثم أخذت شكلاً عقائدياً وأعباً وحاداً مع ظهور الدولة السوفيتية .

وقد بلغ عدد أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٩٣٢ نحو ٢,٨٧٠,٠٠٠ بزيادة قليلة نسبياً عنه عام ١٩٢٦ ، وذلك نتيجة تسارع تدفق اليهود نحو المدن وعدم توافر الزمن الكافي للاستقرار والزواج ، إضافة إلى ما تحمله الحياة في المدينة من تعقيدات في الحياة اليومية تقلل الرغبة في الإنجاب . وقد بلغت الزيادة الطبيعية بين اليهود ١٪ في مدن روسيا ، بينما وصلت ٥,٢٪ في الجمهوريات الآسيوية . وحسب إحصاء عام ١٩٣٩ ، بلغ عدد اليهود نحو ٣,٠٤٠,٠٠٠ ، أي بزيادة مقدارها ثلاثمائة ألف . وقد لاحظ المؤرخ الروسي سيمون دنبوف عام ١٩٣٥ ، عشية الحرب العالمية الثانية ، أن أعضاء الجماعة اليهودية انفصلوا إلى حد كبير عن تاريخهم . وتنبأ بأن المليون ونصف المليون يهودياً سيصبحون مواطنين سوفيت لا يهوداً ، أي أن السمات اليهودية المتصورة على اليهود والتي تميزهم كيهود ستأخذ في الضمور والتحلل إلى أن تختفي تماماً ويصبح اليهود السوفيت مجرد مواطنين سوفيت لا يختلفون عن بقية المواطنين في شيء ، وقد أثبتت التطورات التاريخية اللاحقة صدق نبوءته اللاحقة . أما حملة التطهير التي شنها ستالين بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ضد كوادر الحزب الشيوعي وقياداته ، والتي شملت العديد من أعضاء الجماعة اليهودية ، مثل زينوفييف وكامينيف وراديك وغيرهم ، فلم تترك أثراً ملحوظاً في أغلبية اليهود الذين كانوا ينظرون إلى ما يجري باعتباره صراعاً بين ستالين ومعارضيه أو بين الستالينية والتروتسكية .

#### الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

The Soviet Union, from the Second World War to the Present

ضمت روسيا في الفترة من ١٩٣٩ - ١٩٤٠ أراضي تضم أعداداً كبيرة من اليهود (جاليشيا الشرقية وليتوانيا وبيساريا ويوكوفينا وغيرها) . وقد رحبت الجماهير اليهودية بالضم السوفيتي إذ وجدت فيه حماية لها من الغزو النازي الوشيك . ولكن ، مع عام ١٩٤١ ، قامت القوات النازية بطرد الاتحاد السوفيتي نفسه وضم سائر المناطق التي كان قد ضمها من قبل ، فهرب ما يزيد على مليون يهودي منها . وبذلت الحكومة السوفيتية جهداً غير عادي لنقل اليهود ، وأعطت الأولوية لهذه العملية . وساهم ذلك بدوره في عملية اقتلاع اليهود من مناطق تجمعهم التقليدية . أما بقية أعضاء

العاملين في مجال الفن والثقافة والأدب والصحافة ، ٤ ، ٣٪ في الطب ، ٦ ، ٧٪ في القانون ، ٦ ، ٧٪ من إجمالي العلماء الحاصلين على درجات علمية عليا . ويُلاحظ أن ما ينخفض هو نسبة المهنيين من أعضاء الجماعات اليهودية إلى نسبة المهنيين على المستوى القومي . أما عدد المهنيين من أعضاء الجماعات اليهودية نفسه فهو أخذ في الارتفاع ، فقد زاد عددهم من ٩٠٠ ، ٢٦٠ إلى ٣٨٩ ، ٠٠٠ في الفترة من ١٩٥٧ حتى ١٩٧٧ ، ولكن نسبتهم إلى مجموع المهنيين الروس في الفترة نفسها انخفضت من ٣ ، ٩٪ إلى ٧ ، ٣٪ . وانخفضت كذلك نسبة العاملين في مجال البحث العلمي من ١٨٪ عام ١٩٤٧ إلى ٣ ، ٥٪ عام ١٩٧٧ وإلى ٥ ، ٤٪ عام ١٩٨٢ . والواقع أن أسباب هذا الانخفاض هو ارتفاع متوسط أعمار اليهود العاملين مقارنة بمتوسط أعمار العاملين من السكان السوفييت ، واقتراب الكثيرين منهم من سن التقاعد ، وانخفاض أعداد طلبة الجامعة من أعضاء الجماعات اليهودية الذين يشكلون المصدر الأساسي لهذه الاختصاصات . وبالتالي ، يلعب اليهود دوراً أقل في مجال العلوم والبحوث وتتركز غالبيتهم في المراكز ذات المكانة المتوسطة والذنية في هذا القطاع . ويُلاحظ أن دخل اليهودي السوفيتي أعلى من دخل المواطن السوفيتي ، وهذا أمر مفهوم إذ أن عدداً كبيراً من يهود الاتحاد السوفيتي من المهنيين وهم الفئة المتميزة في المجتمع السوفيتي .

أما نسبة أعضاء الجماعات اليهودية في الحزب الشيوعي ، فقد شكلت في أوائل الستينيات واحدة من أعلى النسب القومية المختلفة داخل الحزب . إذ قدرت هذه النسبة بنحو ٥ ، ٣٪ عام ١٩٦١ ، بينما كانت نسبتهم إلى عدد السكان أقل من ذلك بكثير . كما بلغت نسبتهم عام ١٩٨٢ نحو ٥ ، ١٪ (استناداً إلى تقدير أن عدد الأعضاء اليهود في الحزب نحو ٢٦٠ ألفاً) وذلك من مجموع أعضاء الحزب البالغ في ذلك الحين نحو ١٤ مليون عضو . ولذلك ، فإنهم يُعتبرون سادس جماعة قومية مُثَلَّة في الحزب (عام ١٩٧٦) .

وُيلاحظ أن العدد الكلي ليهود الاتحاد السوفيتي كان أخذاً في التناقص . ولعل تركّزهم في المدن وفي المهن الحرة يفسر سرّ تناقصهم وذوبانهم (كما هو الحال في الولايات المتحدة ، حيث تؤدي السمات نفسها إلى النتائج نفسها) . ويُعتبر اليهود القومية الوحيدة في الاتحاد السوفيتي التي تناقص عددها . فقد قُدّر عدد اليهود السوفيت بثلاثة ملايين بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن عددهم نقص إلى ٢ ، ٢٦٨ ، ٠٠٠ عام ١٩٥٩ . وقد أصبح يهود الاتحاد السوفيتي أقلية حضرية إذ يوجد ٧٠٢ ، ١٦١ ، ٢ من اليهود في المدن ، ولا يوجد

الأخرى . كما نجد أن نسبة اليهود الحاصلين على تعليم عال كانت نحو ١٧٩ عام ١٩٥٩ لكل ألف شخص فوق ١٠ سنوات ، زادت إلى ٢٢٩ عام ١٩٧٠ بالمقارنة بنحو ٦٢ لكل ألف على مستوى إجمالي السكان السوفيت .

وقد شكّل أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ نحو ٢ ، ٤٪ من طلبة الجامعات والمعاهد العليا ، إلا أن هذه النسبة انخفضت إلى ١ ، ٢٪ عام ١٩٧٨ حيث شهدت فترة ١٩٦٥ - ١٩٧٨ انخفاضاً كبيراً في أعداد الطلاب اليهود (بنسبة ٧ ، ٤٦٪) نتيجة الهجرة إلى الخارج وارتفاع متوسط أعمار السكان اليهود وما ترتب عليه من تقلص حجم من هم في السن الجامعي .

ولا يوجد عمال من أعضاء الجماعات اليهودية ، سواء في الصناعة أو الأعمال الزراعية ، إلا بشكل هامشي يكاد لا يُذكر ، حتى أن الإحصاءات في العقود الأخيرة لا تورد أية إحصاءات عن عدد اليهود في العامل والمصانع الثقيلة أو الزراعية .

وقد كانت هناك نسبة عالية من أعضاء الجماعات اليهودية في القيادة العليا للجيش السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية ، ولكن خلال أعوام ١٩٤٨ - ١٩٥٣ أُحيل ٣٣٣ من القيادات العليا من اليهود للتقاعد ، ولم يتبق يهودي واحد عام ١٩٥٣ بين صفوف كبار الضباط . ويبدو أن بعض المهن مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها مغلقة تقريباً أمامهم . ويُلاحظ أن ٧٥٪ من العاملين اليهود حاصلون على تعليم عال وينجھون إلى التمرکز في المهن العلمية والحرة مثل الهندسة والطب والعلوم ، ففي عام ١٩٦٤ شكّل أعضاء الجماعات اليهودية ٧ ، ١٤٪ من إجمالي الأطباء في الاتحاد السوفيتي ، و ٥ ، ٨٪ من إجمالي الكتاب والصحفيين ، و ١٩٪ من الموسيقيين ، و ١١٪ من العاملين في مجالات البحث العلمي . وتدل هذه النسب على أن أعضاء الجماعات اليهودية أصبحوا يتمتعون بأوضاع اقتصادية متميزة عن بقية شعوب الاتحاد السوفيتي وبشكل أدنى إلى منح أبناء الغنى التجارية بشكل خاص فرص دخول الجامعات والمعاهد العليا بدلاً من أن تضطرهم الحاجة الاقتصادية إلى التوجه نحو العمل في المصانع والمعامل . كما تدل من جهة ثانية على قمتهم بالمساواة التامة في الحقوق ، وعلى عدم فرض أية قيود للحد من ارتفاع نسبتهم في الجامعات والمعاهد العليا .

أما في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، فقد انخفضت هذه النسبة حيث شكّل أعضاء الجماعات اليهودية ٥ ، ٤٪ من مجموع العاملين في مجال البحث العلمي ، و ٦ ، ١٪ من مجموع

فيمكن القول بأن نخبة من يهود اليديشية التي تحكّم الدولة الصهيونية .

والجماعة اليهودية في الاتحاد السوفيتي جماعة مسنة تركيبها على النحو التالي :

الفئة العمرية	١٩٥٩	١٩٧٠
صفر - ١٥	٣٠,٤٪	١١,٢٪ (مقابل ٣٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى)
١٦ - ٤٥	٥١٪	٤٦٪
فوق ٥٠	١٨,٦٪	٤٢,٨٪

والتركيب العمري يدل على أن المشكلة أخذت في التفاقم ، وقد بلغ العمر الوسط (أي الواقع في الوسط) ٤٩ سنة عام ١٩٨٦ و ٥٠ سنة عام ١٩٨٨ . وتذكر الموسوعة اليهودية أن حوالي ٢٦٪ من يهود الاتحاد السوفيتي تجاوزوا الستين مقابل ١٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى . وتزيد الإحصاءات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذه الأرقام ، ذلك أن ١١٪ منهم تجاوزوا سن ٦٥ سنة . أما عدد اليهود السوفييت تحت سن الخمسين ، فإن عددهم نحو ٨٠٤ آلاف من بينهم ٧٠٠ ألف فقط من كاسبي الرزق . وعدد الإناث هو ٤٠٠ ألف ، وعدد القادرات منهن على الحمل (بين ٢٠ و ٤٠) هو ٢٤٠ ألف أنثى ، ونسبة المواليد تبلغ ١,٦ - ١,٨ طفل للأنثى الواحدة ، بل استقرت على ١,٦ في آخر الإحصاءات . ويولد ١٤,٥٠٠ طفل سنويا منهم ١٠ آلاف لأبوين يهوديين ، ومن ثم يُطلب منهم تسجيلهم كيهود ، وإن كانوا لا يفعلون ذلك بالضرورة . ونسبة المواليد بين اليهود هي ٦,٧ في الألف بالمقارنة بنحو ١٤,٧ لغير اليهود . أما في أوزبكستان ، فإن نسبة المواليد بين اليهود هي ١٩,٩ في الألف مقارنة بنحو ٣٢,٧ لغير اليهود . والإحصاءات الأخيرة كانت الإحصاءات الخاصة بعام ١٩٨٨ ، أي قبل الهجرة السوفيتية . ولا شك في أن الهجرة السوفيتية وسقوط الاتحاد السوفيتي سيزيد الصورة قمامة ، إذ أن الهجرة لا بد أنها ستصفي العناصر الشابة القادرة على العمل والإنتاج ولا يبقى سوى المسنين (ومع هذا لوحظ مؤخراً أن كثيراً من الشباب الروس اليهود يرسلون بأبائهم المسنين إلى إسرائيل ليستمتعوا بالمزايا التي تُمنح للمهاجرين ونظام الرفاه الاجتماعي هناك) .

والجدول التالي يبيّن توزيع اليهود في الجمهوريات السوفيتية تبعاً للإحصاءات السكانية لأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٩ و ١٩٩٢ :

سوى مائة ألف يهودي تقريباً في الريف (بعضهم مندوبون للحزب ويعملون بالوظائف الكتابية الحسابية) . وقد تناقص عدد أعضاء الجماعة عام ١٩٧٠ إلى ١٥١,٠٠٠ ، أي أنه أصبح أقل من الإحصاء السابق بنحو مائة ألف نسمة ، فإذا أضفنا إلى ذلك مجمل نسبة زيادة اليهود الطبيعية وهي ٢٥٠ ألفاً لتضخ أن نحو ٤٠٠ ألف يهودي قد ذابوا في المجتمع خلال فترة الستينات . وحسب إحصاء عام ١٩٧٩ ، بلغ عدد يهود الاتحاد السوفيتي ١,٨١٠,٨٧٦ ، وهو ما يعني أن عددهم تناقص إلى ٣٤٠ ألفاً : ١٧٧ ألفاً (وفي إحصاءات أخرى ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف) من خلال الهجرة ، أما الباقون (نحو ١٦٣ ألفاً) بسبب العوامل السكانية والاندماج . ويمكن أن تُصمّ نسبة الزيادة الطبيعية المحتملة التي يمكن أن نقدرها بنحو ١٥٠ ألفاً إلى النقص السابق في العدد (أي ١٦٣ ألفاً) ، وذلك يعني أن نسبة الذوبان في نحو تسعة أعوام بلغت نحو ٣١٣ ألفاً .

وفي عام ١٩٨٥ ، بلغ مجموع اليهود السوفيت ١,٦٠٠,٠٠٠ ، ثم هبط عددهم عام ١٩٨٩ إلى ١,٤٤٩,١٦٧ ، أي أنهم تناقصوا حوالي ٤٠٠ ألف أو أكثر (أي ٢٪) خلال عشرة أعوام . وأوردت إحدى المراجع أن معدل تناقص يهود الاتحاد السوفيتي السنوي هو ٣٠ ألفاً (وإن كان معدل التناقص حسب هذا الإحصاء هو ٤٠ ألفاً سنوياً) وهو تناقص طبيعي وليس من خلال الهجرة . ولذا فهناك تنبؤات بأن هذه الجماعة في طريقها إلى الاختفاء ولا شك في أن معدل الهجرة اليهودية الحالي وسقوط الاتحاد السوفيتي قد يجعل بذلك .

وبالفعل يُلاحظ أن عدد يهود البلاد التي كانت ضمن الاتحاد السوفيتي سواء في أوروبا أو آسيا هو ٨٦٨,٤٠٠ ، أي أنهم تناقصوا حوالي ٥٨٠,٧٦٧ . ويبلغ عدد يهود روسيا في الوقت الحالي (١٩٩٢) ٤٦٠,٠٠٠ ، ويبلغ عددهم في روسيا البيضاء ٤٦,٠٠٠ (يذكر مصدر إحصائي آخر لعام ١٩٩٥ أن عدد يهود روسيا هو ٦٠٠,٠٠٠ أما عدد يهود روسيا البيضاء فهو حسب هذا المصدر ٣٤,٠٠٠) . ويُلاحظ أن أكثر من نصف مليون يهودي سوفيتي يتحدثون الروسية يوجدون الآن في إسرائيل فإذا أضفنا لهذا العدد المهاجرين اليهود الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول ، فيمكن القول بأن يهود روسيا يوجدون الآن أساساً خارجها ! ومن المعروف أن كثيراً من أعضاء النخبة من يهود اليديشية من أصل روسي ، مثل : حليم وايزمان وإسحق بن تسفي وزلمان شازار وجولدا مائير وموشيه شاريت وجابوتسكي . فإذا أضفنا إلى هذه المجموعة أسماء النخبة من أصل بولندي (من يهود اليديشية أيضاً) ،

سُمي «اللغات اليهودية» ، وهي لا شك إشارة لكل هذه «اللغات الأخرى» ومنها اليديشية . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن اليديشية قد آلت إلى الزوال تقريباً ، ولا يتحدثها سوى المتقدمين في السن الذين يسكنون المناطق الغربية (ليتوانيا ولاتفيا ومولدافيا) التي كانت تضم كثافة سكانية يهودية في الماضي .

والجدول التالي يبيّن توزع اليهود السوفيت تبعاً للجماعات العرقية واللغوية وفقاً لإحصاء عام ١٩٩٢ :

الجمهورية	عام ١٩٧٩ العدد بالآلاف	عام ١٩٨٩ العدد بالآلاف	عام ١٩٩٢ العدد بالآلاف
روسيا	٧٠٠,٧	٥٥١,٠	٤٣٠,٠
أوكرانيا	٦٣٤,٢	٤٨٨,٠	٣٢٥,٠
روسيا البيضاء	١٣٥,٤	١١٢,٠	٥٨,٠
أوزبكستان	٩٩,٩	٩٤,٩	٥٥,٥
مولدافيا	٨٠,١	٦٦,٠	٢٨,٥
أذربيجان	٣٥,٥	٣٠,٨	١٦,٠
لاتفيا	٢٨,٣	٢٤,٨	١٥,٨
جورجيا	٢٨,٣	٢٣,٠	٢٠,٧
كازاخستان	٢٣,٥	١٩,٩	١٥,٣
ليتوانيا	١٤,٧	١٢,٠	٧,٣
طاجكستان	١٤,٧	١٤,٨	٨,٢
قرغيزيا	٦,٩	٦,٠	٣,٩
إستونيا	٥,٠	٤,٦	٣,٥
تركمانيا	٢,٨	٢,٥	٢,٠
أرمينيا	١,٠	٠,٧	٢,٣

الجماعات العرقية لليهود في الاتحاد السوفيتي	أعداد أعضاء الجماعات	نسبة من يعتبرون لغة الجماعة هي لغتهم الأصلية
إشكناز	١,٣٧٦,٩١	١١,١
يهود الجبال	١٩,٥١٦	٧٥,٨
يهود جورجيا	١٦,٠٥٤	٩٠,٩
يهود بخارى	٣٦,١٥٢	٦٥,٦
الكرمشاك	١,٤٤٨	٣٨,٩

وتشير المصادر إلى أن ظاهرة الزواج المختلط لا تزال منتشرة بين اليهود وإلى أن معظم هذه الزيجات تمثلت في زواج الذكور اليهود من إناث غير يهوديات . ويدعم هذه النظرية عدد الزيجات المختلطة بين المهاجرين السوفيت إلى إسرائيل . وقد تم الاستدلال ، من إحصاء عام ١٩٥٩ ، على أن واحداً من بين كل سبعة يهود كان متزوجاً من غير يهودي . وقد تزايدت النسبة أخيراً ، ففي إحصاءات عام ١٩٨٨ ظهر أن حوالي ٤٠ - ٥٠% من الزيجات اليهودية مختلطة (٥٨,٣% للذكور و٤٧,٦% للإناث) . وتصل النسبة في بعض المناطق إلى ٨٠% (في روسيا الاتحادية تصل النسبة إلى ٧٣,٢% للذكور و٦٢,٨% للإناث) . والأهم من هذا أن ٩٠% من أولاد المتزوجين زواجاً مختلطاً يُعرّفون أنفسهم بأنهم غير يهود .

أما فيما يتعلق بالوضع الديني ، فإن القانون يسمح للمواطنين السوفيت بالتعبد ، وكل ٢٠ متعبداً يمكن أن يكونوا جماعة دينية تُسمى «دفاتسكاتا» ، وهي جماعة خاضعة لإشراف لجنة السوفيت المحلية ومجلس شئون العبادات الدينية ، ومخولة بتعيين وطرده أعضاء مجلس المعبد اليهودي . وكثيراً ما تغلق السلطات السوفيتية المعابد لأن عدد المتعبدين يقل عن عشرين . ولذا ، تنتشر جماعات المنيان (النصاب اللازم لإقامة الصلاة اليهودية) ، وهؤلاء يحق لهم التعبد بدون تسجيل ، شريطة أن تتلقى السلطات إعلماً بذلك قبل إقامة الصلاة . ويوجد حوالي ٦١ معبداً يهودياً وعدد صغير من الحاخامات ، ولا يوجد حاخام كبير ، ولا توجد المواد اللازمة لإقامة

أما فيما يتعلق بالوضع اللغوي لأعضاء الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي ، فقد جاء في الإحصاء الرسمي لعام ١٩٥٩ التوزيع اللغوي التالي لليهود السوفيت :

يتحدثون الروسية	١,٧٣٣,٠٠٠
يتحدثون اليديشية	٥٠٠,٩٣٦
يتحدثون الجورجية	٣٥,٦٧٣
يتحدثون الطاجيكية	٢٠,٧٦٣
يتحدثون التترية	٢٥,٢٢٥
يتحدثون الأوكرانية	٢٤,٢٧٥
يتحدثون لغات أخرى	٢٢,٥٧٠

وقد شكلت نسبة الناطقين باليديشية ١٧% فقط من مجموع اليهود (انخفضت إلى ١١% في الإحصاءات الأخيرة) . وانخفضت هذه النسبة خلال الستينيات حيث أشار إحصاء عام ١٩٧٠ إلى أن نحو ٨٦,٧% قد أفادوا بأن لغتهم هي الروسية ، بينما توزع نحو ١٧,٧% بين مختلف اللغات الأخرى (وأفاد ٩,٧% بأن لغتهم هي اليديشية قبل قيام الثورة) وقد انخفضت النسبة إلى ١١% في إحصاءات عام ١٩٩٢ ، ولا يتحدث بها سوى المسنين . ومصطلح «اللغات الأخرى» يعني لغة التات والجورجية والطاجيكية والتركية ... إلخ . وجاء في إحصاء عام ١٩٨٩ أن ١١,١% يتحدثون ما

وتأكل ثقافة يهود اليديشية وهويتهم الاثنية بعد أن ضعف انتماءهم الديني ، وهو الأمر الذي أوضحه المنشق الصهيوني شارانسكي بعد خروجه من الاتحاد السوفيتي .

وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من جو الانفتاح الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي إذ بدأوا يحققون برونزاً لم يكونوا يتمتعون به من قبل . ولكن ، بالمقابل ، ظهرت بعض الجماعات الروسية القومية ذات التوجه الديني الأرثوذكسي (من أهمها جماعة باميات) التي كانت تعادي أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم ممثلين للقوى المعادية للمسيحية والروح الروسية الأصيلة . وقد سمح الاتحاد السوفيتي لليهود بالهجرة ، وأغلقت الولايات المتحدة الأبواب في وجههم ، وبدأت المؤسسة الصهيونية في اعتماد الملايين لتوطيئهم في الضفة الغربية على أمل أن تحل مشكلتها الاستيطانية .

وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه إلى «كومونولث الدول المستقلة» ، ستظهر حركات متنوعة يخضع لها أعضاء الجماعات اليهودية في هذه الدول ، فيهود جورجيا قد يصبحون جزءاً من تشكيل حضاري مستقل سياسياً عن أوكرانيا ، ولذا فإن الصورة في المستقبل ستكون مختلفة بشكل جوهري عن الصورة في الماضي . ومع هذا ، يمكن القول بأن هناك بعض الثوابت مثل الميل للهجرة والاتجاه نحو السكنى في المدينة وعدم الانجاب . . . إلخ .

بعض الشعائر . وعدد اليهود المتدينين ٦١ ألفاً حسب إحصاء ١٩٨٣-١٩٨٥ أي ٣٪ من جملة اليهود . وتزايد الإحصاءات الخاصة بالمهاجرين السوفيت هذا العدد إذ أن ٣٪ فقط منهم أرسل أبناءه إلى مدارس دينية .

وحتى تكتمل الصورة ، لا بد أن نشير إلى ظاهرة اليهود المتخفين ، وهم المواطنون السوفيت من أصل يهودي الذين كانوا يخفون ذلك . وهؤلاء استفادوا من القانون السوفيتي الذي يعطي المواطن الحق في اختيار جنسيته ، فكثيرون اختاروا تسجيل أنفسهم على أنهم غير يهود . كما أن ٩٠٪ من أولاد الزوجات المختلطة كانوا ، كما أسلفنا ، يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود . ويذهب جريجوري روزنشتاين (الديموغرافي الإسرائيلي) إلى وجود ٥, ٣ مليون مواطن سوفيتي من سلالة يهودية لم يُسَمِّوا على أنهم يهود . وهم يتمتعون بمستوى تعليمي عال . ويذهب كثير من الدارسين إلى أن هؤلاء سيعرفون أنفسهم كيهود «حينما لا يؤدي ذلك إلى الإضرار بمكائهم» . ومن ثم ، إذا استمرت إسرائيل مركز جذب بالنسبة إليهم ، فإنهم سيعيدون تسجيل أنفسهم كيهود حتى يتسنى لهم الهجرة إليها .

ويبدو أن الصورة العامة تتجه نحو مزيد من الاندماج ، وكان المنشقون لا يشكلون سوى جماعة صغيرة وضئيلة ليست لها قيمة تُذكر ، وغير قادرة على أن توقف عملية الاندماج التلقائية السريعة







## يهود البديشية في أوكرانيا وجاليشيا ورومانيا والمجر

أوكرانيا - بيلورا - ليتوانيا - جاليشيا - رومانيا - المجر

### أوكرانيا

Ukraine

كان أعضاء الجماعة اليهودية في مركز الصراع . فقد نصت المعاهدة التي وقّعت بين شميلنكي وملك بولندا ، بعد انتشار القوزاق عام ١٦٤٩ ، على أنه «لن يُسمح لليهود بالإقامة كملك أو كمؤاجرين ولا حتى كسكان في المدن الأوكرانية التي توجد فيها فرق قوزاق» . وبعد عامين ، بعد أن أخفقت القوات البولندية الهزائم بالقوزاق ، وقّعت معاهدة عام ١٦٥١ التي اعترفت شميلنكي فيها بحق اليهود في أن يستقروا كسكان ومؤاجرين في ضياع جلالة الملك وضياع النبلاء البولنديين (شلاختا) ، أي أن صعود اليهود وهبوطهم كان مرتبطاً بصعود وهبوط القوة البولندية العسكرية ؛ تماماً مثلما ارتبط صعود وهبوط المستوطنين الصهاينة بصعود وهبوط القوة الإنجليزية ثم الأمريكية في الشرق العربي والعالم الإسلامي .

وقد قُسمت أوكرانيا بين روسيا وبولندا عام ١٦٦٧ ، فضمت روسيا الجزء الذي يقع عن يسار نهر الدنيبر ، وظل الجزء الذي عن يمينه تابعاً لبولندا . وقد تعرّض يهود هذه المنطقة البولندية من أوكرانيا لهجمات الهايدمك (هم ورثة شميلنكي الذين كانوا يقومون بذبح البولنديين وعملائهم اليهود) . ورغم كل هذا ، تزايد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا ، فبلغ عددهم قبل التقسيم الأول لبولندا نحو ٢٥٨ ألف يهودي زاد إلى ٦٠٠ ألف عام ١٨٤٧ . وقد بلغ عددهم في أول إحصاء رسمي (عام ١٨٨٧) ٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ١ ، أي ٩٪ من كل سكان أوكرانيا وهي من أعلى النسب العددية التي وصل إليها أعضاء الجماعات اليهودية في أي بلد في العصر الحديث . وما يجدر ذكره أن أوكرانيا كانت تقع ضمن منطقة الاستيطان التي كان يُصرّح لليهود بالسكنى فيها . وكانت أوكرانيا من أحصب المناطق التي انتشرت فيها الأفكار الشبتانية والفرانكية والمسيحية .

ويهود أوكرانيا من أهم قطاعات يهود البديشية ، وهم يتسمون بالتميز الوظيفي والاقتصادي نفسه الذي يتسم به يهود البديشية ، بل كان تميّزهم أكثر حدة . وعلى سبيل المثال ، فإن ٩٠٪ من يعملون في تقطير الخمر عام ١٨٧٢ كانوا من اليهود . وكان معظم أعضاء

كلمة «أوكرانيا» تعني «منطقة الحدود» . وتُعدُّ منطقة أوكرانيا من أهم المناطق المرتبطة بتجربة الجماعات اليهودية في شرق أوروبا (أي يهود البديشية) ومن أهم مسارح الأحداث التي تحدّد فيها مصيرهم ، ويُطلق على أوكرانيا أحياناً اسم «روسيا الصغرى» . وكان يهود أوكرانيا يشكلون واحدة من أكبر الجماعات اليهودية على الإطلاق حتى منتصف القرن العشرين . ثم أصبحت كلمة «أوكرانيا» تشير إلى الجمهورية السوفيتية التي كانت تحمل هذا الاسم والتي أصبحت في الأونة الأخيرة دولة ضمن كومنولث الدول المستقلة ، وحدودها مختلفة عن حدود أوكرانيا القديمة (روثينيا) التي كانت تابعة لبولندا وليتوانيا ، والتي قُسمت بعد ذلك بين روسيا وبولندا عام ١٦٦٧ . ثم استولى الروس عليها بأسرها عام ١٧٩٣ .

ويعود استقرار اليهود في أوكرانيا إلى القرن التاسع ، وذلك مع انتشار وتوسيع إمبراطورية الحزر . لكن الاستيطان على نطاق واسع تم في منتصف القرن السادس عشر ، مع بدايات الإقطاع الاستيطاني البولندي فيها . ذلك أن النبلاء البولنديين كانوا يريدون تطوير هذه المنطقة اقتصادياً بعد ضمها إلى اتحاد بولندا وليتوانيا فقاموا بتوطيد عناصر يهودية تجارية تقوم باستئجار المزارع نظير مبلغ محدد فيما يُسمى «نظام الأرندا» . وقد تسبّب هذا في تحوّل اليهود إلى جماعة وظيفية تجارية بسيطة تعتنص الفلاحين والأفنان لصالح النبلاء الغائبين الذين كانوا يقومون بدورهم باعتصار اليهود . وقد كان التقسيم الطبقي في أوكرانيا يدعمه تقسيم إثني ديني يزيد حدة واستقطاباً . فالفلاحون الأوكرانيون أرثوذكس يتحدثون الأوكرانية ، والنبلاء بولنديون كاثوليك يتحدثون البولندية ، والوسطاء يهود يتحدثون البديشية . وقد بلغ عدد اليهود في أوكرانيا ، مع نهاية القرن السادس عشر ، ٤٥ ألف يهودي من مجموع ١٠٠ ألف يهودي في بولندا ، زاد عددهم قبل هجمات شميلنكي إلى ١٥٠ ألفاً .

وحين شهد منتصف القرن السابع عشر هجمات شميلنكي ،

وُفتحت مدارس تابعة للنظام التعليمي البيديشي السوفيتي ، ولكن الآباء اليهود فضلوا إرسال أولادهم إلى المدارس التي تتعلم الروسية حتى يتيح أمامهم فرصاً للحراك الاجتماعي . وقد اعتمدت جماعة الجويت ( لجنة التوزيع الأمريكية المشتركة ) ٢٠٠ ألف دولار لتشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة . وخصصت حكومة أوكرانيا أرضاً لهذا الغرض ، وبلغ عدد اليهود الذين استقروا على هذه الأراضي ٨٠ ألفاً ( عام ١٩٣٣ ) من مجموع ٢٠٠ ألف يهودي استفادوا من سياسة التوطين الزراعي في الاتحاد السوفيتي . ولكن السوفييت قرروا التخلص من هذه السياسة وحاولوا توطين أعضاء الجماعة في القرم في بادئ الأمر ثم في بيرجيان . وحينما غزا النازيون أوكرانيا في يونيو - يولييه ١٩٤١ واستولوا عليها ، فُرت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية . وقد حاولت السلطات النازية تأليب الجماهير ضد الثورة البلشفية اليهودية ضد اليهود ، ويبدو أنهم لم ينجحوا في ذلك كثيراً .

بلغ عدد يهود أوكرانيا عام ١٩٢٦ نحو ٣٩١ ، ٥٧٤ ، ١ ( أي ٤٤ ، ٥٪ من كل سكانها ) . ثم انخفض عام ١٩٣٩ إلى ٨٢٧ ، ٥٧٢ ، ١ ( أي ٩ ، ٤٪ ) . وانخفض هذا الرقم مرة أخرى إلى النصف تقريبا عام ١٩٥٩ أي إلى نحو ٣١٩ ، ٨٤٠ ( ٢٪ من سكانها ) ، واستمر الانخفاض الحاد فوصل عددهم إلى ٦٣٤ ، ٠٠٠ عام ١٩٧٩ ، ووصل عام ١٩٨٩ إلى ٩٧٥ ، ٤٨٥ ، ٠٠٠ ثم إلى ٢٧٦ ، ٠٠٠ عام ١٩٩٢ . وبذا يكون قد تم تصفية واحدة من أهم الجماعات اليهودية في العالم ( يذكر مصدر إحصائي آخر أن عدد يهود أوكرانيا عام ١٩٩٥ هو ٤٤٦ ، ٠٠٠ ) . وقد انخفض العدد بسبب هجرة يهود أوكرانيا داخل الاتحاد السوفيتي إلى المناطق الصناعية الأساسية في موسكو وكيف وغيرهما بعد تطبيق مشروعات السنوات الخمس . ومنذ عام ١٩٢٤ ، بدأت عملية أكرنة المؤسسات ( أي صبغها بصبغة أوكرانية ) ، وصدر قرار بأن كل من يشغل وظيفة حكومية لابد أن يجيد اللغة الأوكرانية . وأدى ذلك إلى استقالة آلاف اليهود الذين كانوا يتحدثون البيديشية والروسية من وظائفهم . وقد أباد النازيون أيضاً بضعة آلاف من أعضاء الجماعة اليهودية . وساهمت حركة الهجرة إلى خارج الاتحاد السوفيتي ، إلى الولايات المتحدة وإسرائيل ، في تناقص أعضاء الجماعة اليهودية ، وخصوصاً من المراحل العمرية الشابة ، ولذا أصبحت الجماعة اليهودية مستنة . كما أن معدلات الاندماج والزواج المختلط المرتفعة تُعدُّ من أهم العناصر التي تؤدي إلى موت الشعب اليهودي في أوكرانيا . وكانت أوكرانيا من أهم مراكز الثقافة البيديشية ، ولكن لم

الجماعة اليهودية يعملون إما في مصانع صغيرة أو يقومون بأعمال تجارية ، ولكن لم يكن يوجد يهود بأعداد كبيرة في الصناعات الثقيلة . وفي عام ١٨٩٧ ، كانت أغلبية يهود أوكرانيا الساحقة لا تعمل بالزراعة . وكان بناؤهم الوظيفي على النحو التالي :  
٤٣ ، ٢٪ في التجارة  
٣٢ ، ٢٪ في الحرف والصناعة ( الخفيفة أساساً ) .

وأوكرانيا هي المنطقة التي ولدت فيها جمعية أحباء صهيون والبيلو وكثير من المؤسسات الصهيونية الأخرى ، كما ظهر فيها كثير من الحركات الثورية بين اليهود ( مثل حزب البوند ) . ونظراً لوجود أوكرانيا على الحدود بين بولندا وروسيا والنمسا ، وجد أعضاء الجماعة اليهودية أنفسهم في مفترق الطرق بين القوى المتصارعة . وربما كانت الفترة من ١٩١٧ حتى ١٩٢٠ خير مثال على ذلك ، فقد أُنفي السوفييت منطقة الاستيطان وأسس الأوكرانيون مجلساً قومياً أعلن استقلال أوكرانيا عن روسيا وعقدوا تحالفاً مع أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا وجاليشيا لمقاومة النفوذ البولندي . وكانت المنطقة مسرحاً لصراعات عسكرية عديدة ، فكان هناك في بداية الأمر جيش احتلال ألماني يحارب ضده الجيش الأوكراني تحت قيادة سيمون بتليورا الذي انضم إليه جماعات من الفلاحين والقوزاق المولدين له ، وكان هناك الجيش الروسي الأبيض أو جيش المتطوعين المعادي للبلشفية تحت قيادة دينيكن ، كما كان هناك بطبيعة الحال الجيش الأحمر . وقد وجد أعضاء الجماعة اليهودية أنفسهم في مفترق الطرق ، فتحالفاً في بادئ الأمر مع الألمان ، ذلك أنهم كانوا يتحدثون البيديشية ( وهي لهجة ألمانية ) ، كما أن ألمانيا كانت تعتبر يهود البيديشية عنصرًا شرياً تابعاً لها يمكنها تجنيده ضد غالبية السكان . وبعد انسحاب الألمان ، وجد أعضاء الجماعة أن من صالحهم الارتباط بالنظام البلشفي ، ذلك لأن قواته العسكرية قامت بحمايتهم ، وهو ما زاد الشائعات القائلة بأن الثورة البلشفية ثورة يهودية . وقد أدى هذا إلى تأليب العناصر الشعبية الأوكرانية ضد أعضاء الجماعة اليهودية ، ويُقال إنه قُتل منهم حوالي ٦٠ ألف يهودي . ولا شك في أن ميراث اليهود التاريخي والاقتصادي في أوكرانيا كان له أعمق الأثر في توسيع الهوة بين الأوكرانيين وأعضاء الجماعة اليهودية . وانتصر البلاشفة في نهاية الأمر عام ١٩٢٠ ، وضُمت أوكرانيا إلى الاتحاد السوفيتي . وقد رحب أعضاء الجماعة اليهودية بالضم السوفيتي .

وفي عام ١٩٢٢ ، تم القضاء على كل التنظيمات الشعبية المعادية لليهود في أوكرانيا والاعتراف بالبيديشية كلغة رسمية .

يعود بتليورا إلى أوكرانيا . ولقي بتليورا حظه في باريس على يد أحد اليهود انتماءً لليهود الذين قُتلوا في أوكرانيا .  
ويشبه بتليورا عادةً بشمليكي ، فكلاهما كان أمان الحكومة الأوكرانية وكلاهما كان يبحث عن استقلال بلاده ، الأول ضد بولندا بمساعدة روسيا والثاني بمساعدة بولندا ضد روسيا . وفي نضالهما من أجل الاستقلال ، اصطدما بأعضاء الجماعة اليهودية الذين لم تكن لهم جذور عميقة في أوكرانيا بقدر ما كانت لهم علاقات قوية بالقرعة الغازية المهيمنة . والواقع أن هجوم قوات بتليورا على أعضاء الجماعات اليهودية ، مثل هجوم قوات شمليكي عليهم ، له مضمون شعبي تحريري رغم وحشيته ولاإنسانيته . ولم تُحدّد المسؤولية الشخصية لبتيورا في المناهب والهجمات الشعبية . ولكن الأوكرانيين يعتبرونه بطلاً قومياً بلا منازع ، ويفسرون المناهب بأنها نتيجة الغرض التي ضربت أطلانها أثناء حالة الحرب بين عدة جيوش متصارعة .

### ليتوانيا

Lithuania

يعود وجود اليهود في ليتوانيا إلى القرن الرابع عشر حين كان معظمهم من الفرائين (وهو ما قد يشير إلى أصولهم الخزرية) . وقد بلغ عدد اليهود في فلنا وجردونو وكوفنو عشرة آلاف عام ١٤٩٥ ، وكان معظمهم من الإشتكاز الذين استوطنوا في بلد متخلف اقتصادياً . وقد بلغ عدد اليهود في دوقية ليتوانيا الكبرى التي كانت تضم فلنا وجردونو وكوفنو وبرست ليتوفسك ومنسك وسمولنسك وغيرها من المقاطعات ، نحو سبعة وعشرين ألفاً عام ١٥٧٨ ، واثنين وثلاثين ألفاً عام ١٦٧٦ ، ووصل العدد إلى ١٥٧,٥٢٠ عام ١٧٦٦ . وقد منح أعضاء الجماعة ميشاقاً عام ١٣٨٨ لحمايتهم وضمان حريتهم حتى يسهلّ عليهم الاضطلاع بوظائفهم التجارية والمالية ، وسرعان ما احتكروا التجارة الدولية والائتزام . ومع هذا ، تم طردهم في الفترة ١٤٩٥ - ١٥٠٢ بسبب الصراع الذي نشب بينهم وبين النبلاء والتجار ، ولكن تم السماح لهم بالعودة عام ١٥٠٣ وأعيد إليهم حقوقهم كاملة فتمتعوا بكثير من الاستقرار . كما لعبوا دورهم ، كتجار وملتزمي ضرائب ، دون تدخل . وقد اتحدت ليتوانيا وبولندا عام ١٥٦٩ بحيث أصبحتا منذ هذا التاريخ بلداً واحداً له تاريخ واحد تقريباً . وكان يهود ليتوانيا ممثلين في مجلس البلاد الأربعة . ولكنهم شكلوا مجلسهم الخاص عام ١٦٢٣ حين أصبح الليتوانيا نظامها الفرثي الخاص . وقد كان يهود ليتوانيا بمنأى عن

يُعدّ هناك متحدثون بالبيليشية فيها إلا من كبار السن . ونظراً لارتفاع مستوى يهود أوكرانيا التعليمي ، نجد أن المهاجرين بينهم يؤثرون الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى إسرائيل . ولذا ، نجد أن نسبة المتساقطين بينهم مرتفعة . وبعد استقلال أوكرانيا ورغم تصاعد نغمة القومية الأوكرانية إلا أن الجماعة اليهودية هناك مستقرة مندجة ، لا تشعر بقلق شديد حيال الظروف الجديدة .

### سيمون بتليورا (١٨٧٩-١٩٢٦)

Simon Petlura

زعيم قومي أوكراني أسس عام ١٩٠٥ حزب العمال الأوكرانيين الاشتراكي الديمقراطي . كان ضابطاً في الجيش الروسي . وعند سقوط الحكومة القيصرية عام ١٩١٧ ، انضم للرادا (المجلس) الذي أعلن استقلال أوكرانيا ، ثم عُيّن وزيراً للحرب في الحكومة الجديدة . ولكن الألمان احتلوا أوكرانيا وأقاموا حكومة عميلة ، فحاربت قواته ضدهم . وحين انسحبت القوات الألمانية (١٩١٨) ، لعب بتليورا دوراً قيادياً في حركة الاستقلال ، فترأس الرادا وأصبح أماناً (أي رئيس) الحكومة الأوكرانية المؤقتة ، كما أصبح قائد الجيش الأوكراني وقاد المعركة من أجل استقلال أوكرانيا . واجهت قوات بتليورا جيوش البلاشفة الحمراء وجيوش الروس البيض حيث سعى كل من الجيشين إلى الاحتفاظ بأوكرانيا كجزء من روسيا . فعند انسحاب جيوش الروس البيض في ١٩١٩ ، وقعت أوكرانيا تحت هيمنة السوفييت . وحتى يتمكن بتليورا من التغلب على السوفييت ، عقد اتفاقاً مع يوسف بيلسودسكي رئيس الدولة البولندية وأيد البولنديين في حربهم ضد روسيا السوفيتية . وقد نجح البولنديون في صد القوات السوفيتية ، ولكنهم لم ينجحوا في مساعدة أوكرانيا في الحصول على استقلالها . وفي النهاية ، هُزمت قوات بتليورا واستقر هو في باريس (ولكنه احتفظ بحكومته في المنفى وببقايا جيشه) .

وإبان هذه المعارك ، هاجمت قوات بتليورا أعضاء الجماعات اليهودية ، ويُقال إنها قتلت ما يزيد على ستين ألفاً . وهذا يرجع ولا شك إلى تحالف أعضاء الجماعات اليهودية مع الألمان في بادئ الأمر ثم ترحيهم بالقوات البلشفية بعد ذلك . ولا شك في أن ميراث الأرناء والإفطاح الاستيطاني البولندي لم يكن قد اختفى تماماً ، بل عزز الهوية بين العناصر وأعضاء الجماعة اليهودية .

وعقد بتليورا اتفاقاً مع الزعيم الصهيوني فلاديمير جابوتنسكي يسمح له بتكوين ميليشيات يهودية لحماية الجماعات اليهودية حين

هجمات شميلنكي والهايديمك ، الأمر الذي ضمن لهم كثيراً من الاستمرارية والطمأنينة .

ومنذ عام ١٧٩٥ ، منذ تقسيم بولندا وحتى عام ١٩١٨ ، أصبحت ليتوانيا جزءاً من روسيا ، وقد كانت (في ذلك الوقت) مركزاً ثقافياً مهماً لليهود الإشبكانز ، وكانت فيها واحدة من أهم المدارس التلمودية العليا . وكانت ليتوانيا مركزاً لحركة المنتجلم والموسار ، وفي الوقت نفسه مركزاً من أهم مراكز حركة التنوير . وأثناء التمرد البولندي الليتواني ضد الحكم القيصري عام ١٨٦٤ ، وقف يهود ليتوانيا ضد حركة المقاومة وأخذوا جانب المحتل الروسي . وبعد الحرب ، حصل اليهود على حقوقهم وعلى قدر كبير من الإدارة الذاتية تضمن حق فرض الضرائب ، تحت إشراف الحكومة ، وتم تأسيس مجلس قومي يهودي تحت رعاية وزارة الشؤون اليهودية .

وبعد عام ١٩٢٤ ، تقلص حق الإدارة الذاتية واقتصرت على إدارة الشؤون المدنية فقط ، وكانت توجد عدة مدارس يهودية معظمها تدرّس بالعبرية وبعضها باليديشية . وكان تعداد اليهود عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٧٥ ألفاً ، رحل ٢٥ ألفاً منهم إلى روسيا وأبيد البعض الآخر عام ١٩٤٣ . وقد هاجرت أعداد كبيرة إلى جنوب أفريقيا ، وبلغ عدد يهود ليتوانيا عام ١٩٦٠ خمسة وعشرين ألفاً ، وبلغ عددهم ٦,٥٠٠ عام ١٩٩٢ . وليتوانيا هي الوطن الأصلي للحاخام إياهو (فقيه فلنا) أهم شخصيات اليهودية الحاخامية في أواخر القرن التاسع عشر ، كما أن عديداً من الزعماء الصهاينة (مثل بن يهودا وسمولنسكين) كانوا من التلفاك ، أي من يهود ليتوانيا الذين يتحدثون اليبديشية بلكنة خاصة . وتوجد داخل إسرائيل الآن قطاعات من المؤسسة الدينية يُطلق عليها «الليتوانيون» ، وهم امتداد لحركة المنتجلم ويتركزون في حزب داجيل هاتورا .

### جاليشيا

Galicia

«جاليشيا» كلمة منسوبة إلى «جاليش» ، وهي عاصمة منطقة تاريخية في جنوب شرقي بولندا وشمال غربي أوكرانيا . ويُطلق مُصطلح «جاليشيا الغربية» على منطقة كراكوف ولوبلين ، أما «جاليشيا الشرقية» فتشير إلى باقي المنطقة التي تقع بين المجر وبولندا من جهة وإمارتي كييف وفولينا الغربية من جهة ، وقد ظلت مطمح جيروانها نظراً لخصوبة أراضيها وعلاقاتها التجارية المهمة . وقد ضمتهإ إمارة كييف عام ٩٨١ ولكنها أصبحت إمارة مستقلة عام ١٠٨٧ . وقد حققت جاليشيا خلال القرن اللاحق قدراً كبيراً من

القوة والثراء ، وقامت بضم فولينا (أو لودوميريا) فأصبحت إمارة واحدة هزمت كلاً من البولنديين والمجريين الذين حاولوا الاستيلاء عليها . لكن الخلافات والصراعات الداخلية ، بين الأمراء من جهة والنبلاء الذين كانوا يمتلكون السلطة الحقيقية من جهة أخرى ، أضعفت الإمارة . وفي الفترة بين عامي ١٣٢٧ و ١٢٤١ ، استولى المغول على المنطقة . ورغم أن ملك جاليشيا تم توجيهه عام ١٢٥٣ على يد ممثل بابوي ، إلا أنه اضطر إلى الاعتراف بسلطة الخان المغولي . ورغم ذلك ، لم يجر إخضاع جاليشيا بشكل كامل للإمبراطورية المغولية مثل سائر الأراضي الروسية . وقد انتخب نبلاء جاليشيا أميراً بولندياً لجاليشيا . وبعد وفاته ، قام ملك بولندا كاسيمير الثالث (الأعظم) بضم جاليشيا إلى أراضيه عام ١٣٤٩ . وفي ظل حكم بولندا ، استوطن النبلاء البولنديون (شلاختا) في جاليشيا وأصبحوا الطبقة الحاكمة في المنطقة ، فاضطر نبلاء جاليشيا إلى تتقّل اللغة البولندية والمؤسسات التشريعية والاجتماعية البولندية والمسيحية الكاثوليكية .

وعند تقسيم بولندا للمرة الأولى عام ١٧٧٢ ، ضمت النمسا جاليشيا الشرقية والمنطقة الواقعة في الغرب بين نهري السان والقيستولا . وفي عام ١٧٩٥ ، تم ضم مناطق أخرى واقعة غرب وشرق نهر القيستولا إلى النمسا . وفي الفترة التي بين عامي ١٧٨٦ و ١٨٤٩ ، قامت النمسا بإدارة منطقة بوكوفينا (التي ضمتها من الدولة العثمانية) باعتبارها جزءاً من جاليشيا .

وبعد التعديلات التي أقرها مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، أصبحت ممتلكات النمسا في بولندا تُعرّف باسم «مملكة جاليشيا ولودوميريا» . وفي عام ١٨٤٦ ، تم ضم جمهورية كراكوف إلى المملكة .

ثم ألغت النمسا ، خلال العامين ١٨٤٨ - ١٨٤٩ نظام الأقتان في جاليشيا ، ثم أعطت لهذه المنطقة (بعد عام ١٨٦٧) قدراً أكبر من الإدارة الذاتية فأصبحت وحدة إدارية مستقلة . ومع أواخر القرن التاسع عشر ، بدأت تنمو حركة قومية بين السكان الأوكرانيين الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان جاليشيا الشرقية حيث تزايد رفضهم لسيطرة الأقلية البولندية عليهم .

وتبلغ مساحة جاليشيا ٧٧ ألف كيلو متر مربع ، وتعدادها نحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وحينما احتلت القوات النمساوية جاليشيا عام ١٧٧٢ ، كانت المنطقة تضم بين ١٥٠ ألفاً و ٢٢٠ ألف يهودي يعيش ثلثهم في القرى . وكان اليهود والألمان يكوّنون العنصر التجاري والحرفي الأساسي في المدن .

وقد بدأت النمسا بتطبيق قوانين تهدف إلى محاولة انقاص عدد

سيعُث (بعد عشر سنوات) تعيين حاخام إلا بعد تلقيه دراسة أكاديمية خاصة . كما سُمعت طباعة الكتب الدينية التلمودية وكتب القبّالاه .

وبعد ثورة ١٨٤٨ ، بدأت أحوال أعضاء الجماعات اليهودية تتحسن بشكل أكبر ، فقد منحوا الحقوق السياسية والمدنية كافة عام ١٨٤٩ ، وشاركوا في الحياة السياسية . وانتُخب خمسة نواب يهود عام ١٨٧٤ (بين ١٥٥ نائباً في برلمان جاليشيا) ، وانتُخب الكثيرون منهم في مجالس الأقاليم ، وانتُخب عشرة عمُد يهود في عشرة مدن مختلفة .

وتحسنت أحوال أعضاء الجماعات اليهودية الاقتصادية ، فاستثمر أثريائهم أموالهم في البنوك وأعمال الاستيراد والتصدير وتجارة الزيت . وزاد عدد اليهود من ملاك الضياع ، كما دخل اليهود الخدمة المدنية والقضائية فكانوا يشكلون نحو ٥٨٪ من مجموع الموظفين والقضاة . وبلغ عدد مدارس البنين ١٠٧ مدارس علمانية يتنظم فيها أربعة آلاف طالب . وساعد كل ذلك على أن يسود فكر حركة التنوير اليهودية بعض الوقت في هذه المنطقة ، وأصبحت جاليشيا مركزاً للأدب المكتوب بالعبرية وساد الفكر الاندماجي بين القيادات اليهودية (وإن انقسموا إلى قسمين : أحدهما اندماجي ألماني والآخر اندماجي بولندي) .

غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل . ويعود ذلك إلى عدة أسباب ، فجاليشيا تميّز بأنها لم تضم أغلبية إثنية واحدة ، فكان هناك عناصر ألمانية وأوكرانية وبولندية ويديشية ، كما لم تكن هناك حكومة مركزية أو رأسمالية قوية . ولذا ، لم تظهر حركة قومية موحدة وإنما ظهرت حركات قومية صغيرة متنوعة . وتسبب هذا في ظهور جيوب اقتصادية متغلقة ، فنظمت العناصر البولندية (٤٦٪ من السكان) نفسها كجيب مستقل له طبيعته المستقلة ومصالحه الخاصة ، كما قام الأوكرانيون (الذين كانوا يشكلون ٤٣٪ من السكان) بتنظيم أنفسهم أيضاً على الأسس نفسها . وقد أدى كل هذا إلى خلق موقف صراعي ، وإلى استبعاد أعضاء الجماعة اليهودية من الأعمال التجارية رغم أنهم عنصر تجاري بالأساس . وقد ظهر حزب اجتماعي مسيحي في النمسا قاد عملية مقاطعة اليهود ، كما كان لكل من البولنديين والأوكرانيين أحزابهم القومية المعارضة لليهود والمعادية لهم . وقد زادت حدة حركة المقاطعة مع نهاية القرن ، ولكن البولنديين كانوا يتحالفون دائماً مع أعضاء الجماعة اليهودية ليحتفظوا بتفوقهم العددي الضئيل على الأوكرانيين .

ومازاد الأمور تعقيداً أن أعضاء الجماعة اليهودية تزايد عددهم ، فعندما سُمّت جاليشيا إلى النمسا كان عدد اليهود

أعضاء الجماعات اليهودية من خلال الطرد ، والحد من الزيجات ، وتقليص نشاطهم الاقتصادي . كما حدّدت حرية اليهود في السكنى والإقامة والانتقال ، وزيدت الضرائب الخاصة على اليهود (مثل ضريبة الطعام الشرعي وشعوب السبت) .

لكن هذا الاتجاه تغيّر حينما بدأ جوزيف الثاني حكمه بمحاولة تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وإصلاحهم وجعلهم نافعين ، فصدرت قوانين تحظر عليهم الاشتغال ببيع الخمر أو الالتزام بجمع الضرائب أو إدارة الفنادق ، كما حرم عليهم القيام بدور الأرندا . وأصبح بإمكانهم الالتحاق بالخدمة العسكرية ، وأن يشغلوا الوظائف المدنية ، وأن يستثمروا أموالهم في أي قطاع اقتصادي يجلبونه مناسباً ، وأن يكون لكل يهودي اسم عائلة أو أن يتسنى بأسماء ألمانية . وفتحت المدارس العلمانية الحكومية للأطفال اليهود ، كما فُتحت أمامهم المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد الجامعية . وكان يتم تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة ، فكان كل من يقبل منهم يُمنح قطعة أرض وقروضاً . وجرى توسيع نطاق براءة التسامح التي صدرت عام ١٧٨٢ بحيث شملت جاليشيا عام ١٧٨٩ . وتؤكد براءة التسامح تساوي اليهود مع المواطنين جميعاً ، كما تؤكد أن لهم حقوق وواجبات المواطنين ، وضمنها حق التنقل والسكنى بحرية في أي مكان واختيار الوظائف التي يريدونها . وقد تُرعت جميع صلاحيات الحاخامات والقهاال ، فتنقلص نطاق نفوذهم بحيث انحصر في الأمور الدينية وحسب ، ومن ثم ألغيت المحاكم الحاخامية . وحُظر على أعضاء الجماعة اليهودية إرسال أي نقود إلى فقراء اليهود في فلسطين أو أن يستخدموا العبرية أو اليديشية بالذات في الوثائق التجارية التي يكتبونها (منعاً للغش التجاري) . كما منعوا من ارتداء أزياء مميزة ، ومن دراسة التلمود قبل الانتهاء من الدراسة في المدارس الحكومية . كما قُرض عليهم إنشاء نظام تعليمي علماني تديره الجماعة اليهودية بنفسها ، ومنحوا حق إنشاء أية مدارس يشاءون ما دامت لا تختلف عن النظام التعليمي العام .

وكان الحصول على شهادة مدرسية شرطاً أساسياً للحصول على رخصة زواج ، بل كان على كل من العريس والعروس أن يقرأ كتاباً معيناً هو كتاب بني صهيون الذي كتبه داعية التنوير هرتز هومبرج عام ١٨١٢ ، ويجتاز اختباراً بالألمانية حتى تضمن الدولة أن الزوجين قد استوعبو كل الأفكار اللازمة لتحديثهم وتحويلهم إلى مواطنين في الدولة القومية . كما صدر مرسوم بأن تكون الصلوات بالألمانية بدلاً من العبرية . وفي عام ١٨٣٦ ، قررت الحكومة أنه

٩٨٠، ٢٢٤ ألفاً (عام ١٧٧٢) ٩، ٦٪ من السكان ، ثم زاد العدد إلى ٧٦٨، ٨٤٥ ألفاً في عام ١٨٩٠ أي إلى حوالي ١١، ٧٪ . ورغم أن نسبة أعضاء الجماعة اليهودية إلى عدد السكان لم تزد كثيراً ، فإن العدد الإجمالي زاد زيادة هائلة واستمر في الزيادة ليصل إلى ٨٧١، ٨٩٥ عام ١٩١٠ . وقد تركز اليهود في المدن ، ففي عام ١٩١٠ كان ٣٨، ٨٪ منهم يقطنون المدن الكبرى و ٢٩، ٣٪ في المدن الصغيرة و ٣٦، ٠٦٪ في المناطق القروية .

ولم تكن عملية التحديث تتم برضا الجماهير بل رغماً عنها ، إذ كانت تُفرض من أعلى . وانضم دعوة التنوير إلى الحكومة في محاولة فرض التحديث ومن أهمهم هرترز هومبرج (وهو من تلاميذ موسى مندلسون) الذي عُيِّن مَفْتشاً للنظام التعليمي الجديد الذي أنشأته الدولة . وقد حاول هومبرج أن يتغلب على المدارس اليهودية التقليدية والمدارس التلمودية العليا (يشيفا) دون أن ينجح في ذلك . ولم ينجح التحديث في المجال الوظيفي ، لأن أكثر من نصف أعضاء الجماعة اليهودية (٥٣، ٥٪) كانوا يعملون في التجارة والخمور والنقل ، ولم يكن يعمل منهم في الزراعة والغابات سوى ١٠، ٧٪ . وبحلول عام ١٨٢٢ ، لم يكن يوجد سوى ٨٣٦ فلاحاً يهودياً في جاليشيا بأسرها ، لكن هذا العدد زاد قليلاً بعد ذلك . غير أن الصورة العامة لم تتغير كثيراً . وانعكس فشل عملية التحديث والدمج في انصراف أعضاء الجماعة اليهودية عن مدارس الحكومة العلمانية . فقد قوبلت محاولة استجلاب المدرسين اليهود الألمان بمعارضة شديدة . ورغم أن المدارس والجماعات كانت مستعدة لقبول التلاميذ والطلبة اليهود بين صفوفها ، فإن عدد الذين التحقوا بالمدارس كان ضئيلاً إلى أقصى درجة .

وانتشرت المسيحية في جاليشيا مع منتصف القرن التاسع عشر . وكانت أغلبية يهود جاليشيا حسيديية ، وهو ما أدى إلى تسلُّمهم قيادة العناصر الدينية ، ومنها الأرثوذكس . وانضم الفريقان إلى الحرب ضد دعوة التنوير الذين لجأوا إلى الدولة لحمايتهم وللهجوم على العناصر اليهودية التي وقفت ضدهم . ولجأ الحسيديون إلى عقوبة الطرد من حظيرة الدين ، ورفضوا تسجيل الزيجات اليهودية في سجلات الحكومة ، ولم يلجأوا إلى المحاكم المدنية . وتملصت المعابد من دفع الضرائب المقررة عليها عن طريق إقامة العبادة سراً في منازل خاصة . وفي بعض الأحيان ، كانت المعركة تأخذ شكلاً أكثر حدة . فعلى سبيل المثال ، دس الحسيديون السم للحاخام الإصلاحى أبراهام آكون ولأعضاء أسرته في مدينة لنوف عام ١٨٤٨ ، فقتلوا نحبهم ، وذلك لأنه أقام احتفالاً

بالرستمفاه (بلوغ سن التكليف الديني) في المعبد (ومن المفارقات أن البارمستفاه أصبح فيما بعد أهم المناسبات بين يهود الولايات المتحدة) . وقد كانت جاليشيا مصدرراً أساسياً للبعثات اليهوديات في العالم ، وربما يعود هذا إلى عدة أسباب من بينها قلة الأوضاع في جاليشيا وانفتاحها إلى شخصية قومية محددة . كما أن جاليشيا تقف على الحدود بين شرق أوروبا ووسطها ، وهي محطة أخيرة لمعظم المهاجرين ومعبر لهم . كما كانت هي نفسها من أكبر مصادر المهاجرين اليهود . ولا شك في أن معدلات العلمنة السريعة والمفاجئة أدت إلى خلخلة الوضع الاجتماعي ، وإلى ضعفة الأسرة اليهودية . كما أن الضائقة الاقتصادية كانت تلعب دوراً مهماً هي الأخرى ، لكن الانفجار السكاني زاد حدتها . وقد أدت كل هذه الأسباب مجتمعة إلى ضعف القيم وتيسر تجنيد الفتيات للعمل بالعدارة . ومن الطريف أن يهود النمسا كانوا يُطلقون على جاليشيا مصطلح «فاجينا جودايوروم vaginn judaourum» وهي عبارة لاتينية تعني «فرج اليهود» (ولا ندرى هل كان هذا يُطلق عليها باعتبار أنها كانت مكاناً يتوالد فيه اليهود بأعداد ضخمة ، أم لأنها كانت مصدرراً مهماً للبعثات ، أم لكلا السببين معاً ؟) .

وقد أسست جماعة أحياء صهيون فرعاً لها في جاليشيا ، وبدأت تظهر التشكيلات الصهيونية الأخرى حيث انتخب يهود جاليشيا عام ١٩٠٧ تسعة نواب (منهم ثلاثة صهاينة) انضموا إلى المناديين عن منطقتهم بكونفينا ليكونوا هيئة برلمانية يهودية (لوبي يهودي) وهذه أول مرة يحدث فيها مثل هذا في تاريخ الجماعات اليهودية في أوروبا . ومع هذا ، ظل الاندماجيون بين اليهود يقومون بمحاولاتهم لدمج اليهود مع بقية أعضاء المجتمع .

وقد ضُمَّت جاليشيا إلى بولندا مرة أخرى عام ١٩١٩ . ولكن ، في عام ١٩٣٩ ، بعد تقسيم بولندا بين السوفييت والنازي ، تم ضم غرب جاليشيا إلى ما كان يُسمى «الحكومة العامة البولندية» التابعة للنازي وضمَّ الجزء الشرقي منها لأوكرانيا السوفيتية ، وهو ما كان يعني ضم نحو ٥٥٠، ٠٠٠ يهودي للحكم السوفيتي .

### رومانيا

Rumania

جمهورية أوروبية ذات أهمية خاصة في دراسة تاريخ الجماعات اليهودية في أوروبا لا بسبب حجم الجماعة اليهودية الذي كان كبيراً بالقياس إلى حجم الجماعة في فرنسا وإنجلترا وصغيراً بالنسبة إلى حجم يهود روسيا وبولندا ، وإنما بسبب تاريخ رومانيا ذاته ونتيجة

روسيين من الناحية الفعلية ، وتم فك احتكار الدولة العثمانية للتجارة ، وفتحت حدود مولدافيا الشمالية للتجارة فزادت التجارة الدولية من نقطة الصفر تقريباً لتصبح نحو ٦٠ مليون لي (العملة الرومانية التي كانت تعادل فرنكاً ذهبياً) عام ١٨٣٩ ثم إلى ٢١٠ ملايين لي عام ١٨٥٩ . وكانت الطبقة المحلية من التجار والحرفيين صغيرة هزيلة للغاية ، بدائية إلى أقصى حد وغير مهسية لهذا التحول ، إذ كانت تنقصها الخبرة الإدارية وفهم آليات السوق المحلية والدولية ورأس المال . ومن ثم لم يكن هناك مفر من ملء الفراغ بعنصر أجنبي يضطلع بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة . وهذا ما قام به اليونانيون والأرمن وبعض عناصر من يهود البيديشية الذين أخذوا يتزايد عددهم بنسبة كبيرة .

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في زيادة عدد اليهود في رومانيا أضغافاً مضاعفة ، تقسيم بولندا والأحوال المتردية فيها . وقد أدى ذلك الوضع إلى تسلل الآلاف من يهود البيديشية منها ، وخصوصاً أن حدود رومانيا كانت مفتوحة تماماً . وقد بلغ عدد أعضاء الجماعات اليهودية في رومانيا عام ١٨٠٣ نحو ١٢ ألفاً ، زاد إلى ١٨ ألفاً عام ١٨٣٨ ، وإلى ١١٩ ألفاً عام ١٨٥٨ ، ثم إلى ٢٦٦ ، ٢٥٢ عام ١٨٨٠ (أي ٤٨ ٪ من السكان) . وكان مرجع هذا تدفق الغائض البشري اليهودي . كما أن ٢٠٠ ألف يهودي كانوا يعيشون في مولدافيا التي كان اليهود يشكلون فيها ما بين ٣٣٪ و ٤٤٪ من سكان المدن . وفي بعض المدن ، كان عدد اليهود يصل إلى ٥٥٪ بل إلى ٦٠٪ . وكان الرومانيون يسمون هذه الهجرة «الغزو اليهودي» . وهذه الهجرة التسيلية هي التي أدت إلى ظهور ما يُسمى «المتشردون اليهود» أو «التسولون» ، وهم جماعات من اليهود كانت تهيم على وجهها من مدينة إلى أخرى (دون وظيفة محددة) تبحث عن أية وسيلة للبقاء .

ويلاحظ أن يهود رومانيا لم يكونوا عنصراً واحداً متجانساً ، فرومانيا القديمة ، كما أسلفنا ، كانت في الأصل إمارتين أو مقاطعتين مستقلتين هما : مولدافيا في الشمال وفالاشيا في الجنوب . وكانت مولدافيا تضم يهوداً من أصل بولندي أوكراني . أما فالاشيا ، فكانت تضم يهوداً نزحوا إليها من شبه جزيرة البلقان ، كما كانت توجد فيها أقلية سفارديّة . ثم ضمت رومانيا بعض المناطق منها بكوفينا (عام ١٩١٩) والتي كانت إقليمياً متساوية منذ عام ١٧٧٤ وكانت قبل ذلك خاضعة لتريشيا (كجزء من مولدافيا) ، وكان العنصر اليهودي فيها نصفه نمساوي ونصفه بولندي . ثم ضمت رومانيا بعد ذلك بيساريا التي كانت روسيا قد اقتطعتها من مولدافيا عام ١٨١٢ ، وكان

انتقالها الفجائي من اقتصاد العصور الوسطى التقليدي الذي يتميز بعدم وجود سلطة مركزية إلى اقتصاد صناعي يتميز بظهور دولة مركزية . وهذه الفجائية توضح للدارس بشكل متبلور العملية التاريخية التي تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية من خلالها من جماعة وظيفية وسيطة إلى طبقة وسطى .

كانت رومانيا القديمة تتكون من إمارتين : مولدافيا وعاصمتها جاسي ، وفالاشيا وعاصمتها بوخارست . ثم ضمت مقاطعات بكوفينا وبيساريا وترانسيلفانيا عام ١٩١٩ وتكوّنت بذلك رومانيا العظمى . وكان الوضع السياسي في مولدافيا وفالاشيا غير مستقر بالرة ، فرومانيا ، مثلها مثل بولندا ، تقع وسط ثلاث إمبراطوريات عظيمة متصارعة هي النمسا وروسيا (التي أخذت تلعب دوراً متزايداً في سياسة رومانيا ابتداءً من القرن التاسع عشر) والدولة العثمانية (وهي القوة العظمى التي سيطرت فعلياً على رومانيا من القرن الخامس عشر حتى عام ١٨٢٩ واسمياً حتى عام ١٨٧٩) . وأدت هذه العوامل إلى فقدان رومانيا استقلالها وإلى تبعيتها لإحدى هذه القوى مع كل ما ينجم عن التبعية من ضعف وتدهور وتخلف حضاري واقتصادي . وظلت إماراتا جاسي وفالاشيا ، منذ تأسيسهما في القرن الرابع عشر حتى ١٨٨٠ ، دون استقلال إلا في الأمور الإدارية الداخلية ، بل إن تبعيتهما كانت ملحوظة في المجال الثقافي . فقد دخلت على ثقافتهما مؤثرات سلافية ثم يونانية ثم فرنسية ، ولم تظهر الرومانية كلغة لها أهميتها إلا في القرن التاسع عشر ، ولم يظهر أدب روماني حتى عام ١٨٨٠ .

وقد حكم مولدافيا وفالاشيا حكام تابعون للدولة العثمانية ، كانوا في بداية الأمر جماعة وظيفية من اليونانيين المقيمين في إستانبول ثم تم اختيار الحكام ، فيما بعد ، من بين طبقة النبلاء المحليين (بويار) . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، كان الفلاحون مجرد أقتان ملتصقين بالأرض ، ولم يتم تحريرهم إلا عام ١٨٦٤ . وكان الاقتصاد زراعياً ، من الناحية الأساسية ، بل ورعويّاً في بعض الأماكن . ولم تكن توجد أية مراكز للحضارة إلا في بعض الأديرة كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى . وكان كثير من أعضاء النخبة من البويار أميين يجهلون القراءة والكتابة ، ولم تكن هناك بطبيعة الحال طبقة وسطى .

وقد ظل الوضع مستقرّاً هادئاً إلى أن وقعت الحرب الروسية العثمانية (١٨٢٨ - ١٨٢٩) التي تغيّر بعدها الوضع في رومانيا تماماً . فقد وُعت معاهدة أدرنة بين روسيا وتركيا عام ١٨٢٩ ، وتحوّلت المقاطعتان (مولدافيا وفالاشيا) بمقتضاها إلى محميتين



العنصر اليهودي فيها روسياً . أما المقاطعة الثالثة ، ترانسيلفانيا ، فكانت تحت حكم المجر منذ القرن الثاني عشر ، واستوطنها يهود من جاليشيا ذور توجه الماني وكذلك عنصر سفاردي . وكانت هذه الجماعات ذات الأصول الإثنية المختلفة تنقسم ، من وجهة نظر الرومانيين ، إلى ثلاثة أقسام :

١ - العنصر المحلي : ويمثل في اليهود الذين كانوا يقطنون مولدافيا وفالاشيا منذ أمد طويل ، واعتُبر هؤلاء جزءاً عضويّاً من الأمة الرومانية .

٢ - الهرسوفولتسي Hrisoveltzi : وهؤلاء هم اليهود الذين استوردتهم النبلاء الإقطاعيون (بويار) ومنحومهم مواليق (بالرومانية : هرسوف Hrisov) يُمنح اليهود بمقتضاها مزايا معينة من بينها الإعفاء من الضرائب عدة سنين ، وأرض فضاء مجانية لإقامة معابدهم ومدارسهم وحماتهم الشعائرية ومقابرهم . وقد صدرت معظم الموائيق في الفترة ١٧٨٠ - ١٨٥٠ . وعلاقة يهود الهرسوفولتسي بالبويار تشبه إلى حد كبير علاقة يهود الأرندا بطبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) . وقد أسس النبلاء ليهود الهرسوفولتسي منذاً صغيرة (شنتلات) خاصة بهم تقريباً مثل مدينة فالستيني (١٧٩٨) وجزء من مدينة فوكساني . وقد تم تأسيس ست وثلاثين مدينة من هذا النوع في مولدافيا . كما استمرت هجرة اليهود الهرسوفولتسي حتى عام ١٨٦٠ .

٣ - ولكن أعداداً أخرى من اليهود هاجرت ، بعد توقيع معاهدة أدنة ، إلى إمارتي مولدافيا وفالاشيا اللتين كانتا في حاجة إلى حرفيين وصناعات ورأس مال . وقد اجتذب هذا الوضع عناصر تجارية يهودية ومسيحية من البلاد المجاورة ، ولكن لم تصدر لهم موائيق خاصة .

وكان يهود الهرسوفولتسي ، وكذلك يهود المجموعة الثالثة ، يرتدون الأزياء البولندية الممتثلة في القفطان والتبقة المزينة بالفرو وحُصل الشعر (إسترييل) . وقد أثر في بقية الجماعة اليهودية ، حتى أنه ، مع بداية القرن التاسع عشر ، كانت الجماعة اليهودية بأسرها ترتدي الزي الواحد نفسه وتحدث البديشية وتتبع أسلوباً واحداً للحياة ، أي أنهم أصبحوا تقريباً من يهود البديشية . وظهرت الجماعات اليهودية كما لو كانت وحدة متماسكة ليست ذات أصول مختلفة ، مع أنها لم تكن كذلك في واقع الأمر ، وانعكست الانتماءات الإثنية المتنوعة على علاقتهم ببعضهم البعض الآخر . وقد تم تنظيم اليهود كجماعة يرأسها «استاروستي» (وسمي بالعبرية «اروش مدينا» أي «رئيس البلدة») وظيفته أن يحدد الضريبة التي

تُفرض على اليهود . وكان الرئيس الروحي لليهود هو الحاخام باشي (وهو لقب عثمانى كان يُمنح للحاخام الأكبر في الدولة العثمانية) . وقد عين السلطان أول حاخام باشي عام ١٧١٩ ، ولكن اليهود الروس والنمساويين كانوا من الحسيديين ويتبع كل فريق منهم التساديك الخاص به ، ولذا رفضوا سلطة الحاخام باشي الروحية وطلبوا من قناصل بلادهم التدخل لصالحهم . وبالفعل ، قُلصت الحكومة عام ١٨١٩ سلطة الحاخام باشي ، ثم ألغي المنصب تماماً عام ١٨٣٤ . ولكن إلغاء المنصب ساهم في تصعيد حدة الصراع بين الجماعات اليهودية المختلفة .

إن هذا العنصر الغريب إثنيّاً (والذي أصبحت غرته قانونية كما سنين فيما بعد) كان يلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، كما كان الحال في معظم دول أوروبا حتى القرن الثامن عشر وفي شرق أوروبا حتى القرن التاسع عشر . ولكن الوضع في رومانيا كان متميزاً ، إذ كان أكثر حدة ووضوحاً عنه في أي بلد آخر ، وذلك بسبب تخلف المجتمع واتساع الهوة بين النبلاء والأقنان وافتقار رومانيا إلى طبقة وسطى . وقد ترك هذا الوضع أثره العميق في أعضاء الجماعة اليهودية ، وفي أسلوب حياتهم ومناطق سكنهم وبناتهم الوظيفي والمهني .

كان معظم يهود رومانيا يتركزون في المدن . وحسب إحصاء عام ١٨٩٩ ، كان ٧٩,٧٣٪ منهم يعيشون في المدن ويكوّنون ٣٢,١٠٪ من سكان المدن في رومانيا ، ولم يكن يقطن سوى ٢٠٪ منهم في القرى ، وكانت نسبتهم لا تزيد على ١,١٪ من عدد سكانها . وفي مولدافيا ، كان اليهود يكوّنون أغلبية السكان في بعض المدن فبلغ عددهم ٥٧٪ من عدد سكان البتسيني ، و ٥٠٪ من سكان جاسي . وكانت نسبتهم أكثر من ذلك في المدن الصغيرة ، فكانوا ٦٦,٢٪ في جرتسا و ٦٠,٦٪ في ميهاليني ، وهذا يعني أنهم كانوا في عزلة عن السواد الأعظم من الشعب الروماني . كما كان ٨٤٪ من السكان الفلاحين يعيشون في الريف . وكان اليهود هم الجماعة الوظيفية الوسيطة التي تشغل الفراغ الذي خلفه غياب الطبقة الوسطى المحلية ، فتدل إحصاءات عام ١٩٠٤ على أن ٢١٪ من مجموع التجار كانوا يهوداً . وفي مدن مثل جاسي ، كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون ٧٥٪ من جملة التجار و ٢٠٪ من مجموع الحرفيين . وتركّز اليهود في بعض الحرف ، فكانوا يشكلون ٨١,٣٪ من مجموع النقاشين أو الحفارين على الخشب والمعادن و ٧٦٪ من السباكين و ٧٥,٩٪ من صانعي الساعات و ٧٤,٦٪ من مجلدي الكتب و ٦٤٪ من صناع القبعات و ٦٤٪ من المنجدين .

رومانيا بسبب طبيعة التشكيل الحضاري والسياسي فيها وبسبب وضع اليهود كجماعة وظيفية وسيطة تشبه في عزلتها الجماعات الوظيفية الوسيطة في مجتمعات العصور الوسطى في الغرب .

كان أعضاء الجماعة كما أسلفنا عنصرًا إثنياً غربياً يلعب دوراً وظيفياً متميزاً . كما أن الحكومة قسّمت اليهود إلى قسمين من ناحية المولد والولاء السياسي . وقد كانت الحكومة ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، تستخدم مصطلح «بامانتيني» ، أي «المحلين» للإشارة إلى اليهود الذين لم يكونوا متمتعين بالحماية الأجنبية . أما اليهود الوافدون ، فكان يُشار إليهم بأنهم «سوديتسي» ، أي الرعايا الأجانب . وهؤلاء كانوا تحت حماية قناصل الدول التي أصدرت لهم جوازات سفر ، وبالتالي كانوا يتمتعون بنظام الامتيازات الأجنبية باعتبار أن إمارتي مولدايفيا وفالاشيا كانتا تابعتين للدولة العثمانية .

غير أنه حدث تحولٌ ليهود رومانيا يشبه التحول الذي حدث لمعظم يهود الدولة العثمانية ، أي أن كثيراً من اليهود البامانتيني ، وخصوصاً الأثرياء منهم ، أعيد تصنيفهم على أساس أنهم من السوديتسي حتى يتمتعوا بحماية الدول العظمى مثل النمسا وروسيا ، وبالتالي أصبحت أغلبية يهود رومانيا أجناب شكلاً في زيهيم ولغتهم وأجناب موضوعاً في وضعهم القانوني . وهذا يشبه من بعض الوجوه ما حدث ليهود مصر الذين أصبح ٨٥٪ منهم من رعايا دول أجنبية ، وتحلّوا عن وضعهم القانوني كمصريين ، وارتفعت بينهم معدلات المعلمنة ومعدلات تقبُّل المُثُل الحضارية الغربية ، فأرسلوا أولادهم إلى مدارس أجنبية (فرنسية بالأساس) ، وشغلوا مناصب مهمة في القطاع الاقتصادي المرتبط برأس المال الأجنبي حتى أصبح أغلبهم أجناب قلباً وقلباً (شكلاً وموضوعاً) عند نشوب الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وذلك رغم أنهم وُلدوا في مصر ونشأوا فيها .

وكثيراً ما كان يلجأ يهود رومانيا إلى قناصل دولهم لتنفيذ رغباتهم على نحو ما حدث عام ١٨١٩ عندما رفض اليهود الإشكناز الخفوض للحاخام باشي وآثروا اتباع قادتهم الحسديين (تساديك) وطلبوا المساعدة من قناصل دولهم . ولعب بنيامين فرانكلين بيكسوتو (قنصل أمريكا) دوراً مهماً في تاريخ أعضاء الجماعة اليهودية في رومانيا ، فقد قام بحملة عام ١٨٧٢ لتحرير يهود رومانيا إلى الولايات المتحدة ، وقد أعلن النظام الروماني تأييده لهذه الدعوة ، ولكن يهود رومانيا عارضوا ذلك ، وكذلك يهود الولايات المتحدة ، وذلك خشية وصول أعداد جديدة من اليهود . ولذا ، حينما عقد بيكسوتو مؤتمرًا للمنظمات اليهودية في العالم (أكتوبر عام

وكان لأعضاء الجماعات اليهودية وجود ملحوظ في القطاع الصناعي الهزيل ، فقد كان عدد الشركات الصناعية يزيد قليلاً على ٦٢٥ وكان اليهود يمتلكون ١٩,٥٪ منها . وقد تركزوا في بعض الصناعات دون غيرها ، فقد كانوا يمتلكون نحو ٥٢,٨٪ من صناعة الخشب والأثاث و ٤,٣٢٪ من صناعة الملابس و ٢٦,٥٪ من صناعة النسيج .

وكان التوزيع الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية على النحو التالي : ٤٢,٥٪ في الصناعة والحرف ، و ٣٧,٩٪ في التجارة والبنوك ، و ٢,٥٪ في الزراعة ، و ٣,٢٪ في المهن الحرة ، و ١٣,٧٪ في الوظائف الأخرى . وكان ٣٨٪ من جملة الأطباء في رومانيا يهوداً .

ورغم غياب أعضاء الجماعات اليهودية عن الريف ، فقد لعبوا دوراً ملحوظاً في اقتصادياته حيث احتكروا صناعة تقطير الكحول والاتجار فيه ، وكانوا أصحاب حانات وفنادق ، كما كانوا يشترون من الفلاح محاصيله وقطعان الحيوانات التي يربها ويزودونه بالبذور والسلع المصنوعة التي يريدها ، وكانوا يقرضونه ما يحتاج إليه من نقود . وقد أصبح الفلاحون تابعين لتجار اليهود من المهد إلى اللحد ، ويُقال إن نصف الأراضي الزراعية في مولدايفيا وقعت في أيدي اليهود من خلال استئجارها ومن خلال القروض التي لم يستطيع أصحابها الوفاء بها . وقد كان اليهود كما أسلفنا عنصرًا غربياً يعيش في الشتلات لأن مفهوم المواطنة نفسه لم يكن قد استقر بعد .

وكان التركيب الاجتماعي ليهود رومانيا لا يختلف عن نظيره في بقية شرق أوروبا ، فقد كان على قمة الهرم الاجتماعي طبقة صغيرة من التجار الأثرياء وعدد قليل من المهنيين ، ثم كان هناك عدد كبير من أصحاب الفنادق وصغار التجار والحرفيين يتركزون في حرف معينة مرتبطة في الغالب بالنشاطات المالية اليهودية الأخرى . وفي قاعدة الهرم ، كان يوجد عدد ضخم من الفقراء الذين لا عمل لهم . ورغم وجود هذا العدد من محدودي الدخل والفقراء بين اليهود ، فإن الشريحة الثرية المهيمنة هي التي كانت تحدد إدراك المجتمع للجماعة .

هذه هي الصورة العامة لأعضاء الجماعات اليهودية . وقد اجتاحت التغيرات رومانيا مثلما اجتاحت معظم بلاد أوروبا ، وإن كانت التغيرات قد وصلت رومانيا في وقت متأخر نوعاً ما نظراً لوقوعها تحت الهيمنة العثمانية . وأدت التغيرات إلى قلقله وضع اليهود وظهور المسألة اليهودية التي اكتسبت طابعاً خاصاً وحاداً في

١٨٧٢) لتشجيع الهجرة ، وقد رفض المؤتمر الفكرة ، ولكنه شجّع يهود رومانيا على الكفاح من أجل الحصول على حقوقهم .

ويمكن أن نقول إن أعضاء الجماعة اليهودية ظلوا خارج التشكيل الروماني القومي . وحينما نشأت حركة رومانية قومية ، لم ينخرط أعضاء الجماعة في صفوفها وظلوا إلى حد كبير أجنب عنها . وحتى عام ١٨٢٨ ، كانت القوانين السائدة في رومانيا خليطاً من القوانين العثمانية التي تقبل التنوع والأعراف الأوربية . وكان مسموحاً لليهود بأن يعيشوا في أي مكان يشاءون . ثم بدأ البعث القومي الروماني الذي تزامن إلى حد كبير مع هجرة يهود بولندا ، الأمر الذي أدى إلى زيادة صنع يهود رومانيا بالصيغة الأجنبية . وحينما هيمنت الإمبراطورية الروسية على إمارتي مولدافيا وفالاشيا ، وضع ماسمي «القانون العضوي» ، وهو لا يختلف كثيراً عن القوانين التي كانت تصدر في روسيا وغيرها من دول الملكيات المطلقة ، ابتداءً من القرن الثامن عشر ، بهدف إصلاح اليهود كجزء من عملية التحديث . وقد أكد القانون نظام الأثنان حيث قرر البند ٩٤ منه أنه يمكن طرد المتشردين اليهود الذين لا يشتغلون مهنة نافعة . ومنع القانون أعضاء الجماعات اليهودية من استئجار الأراضي الزراعية ، ولكنه ترك لهم حرية إدارة مصانع تقطير الحمور بإذن من التبيل الإقطاعي ، كما فتحت المدارس لأبنائهم شريطة ألا يردوا الرداء اليهودي البولندي (القفطان) .

وبعد فترة من الثورات والقلال في رومانيا تدخلت أثناءها القوات العثمانية والروسية لقمعها ، وبعد أن هُزمت روسيا في حرب القرم ، قرّر مؤتمر باريس عام ١٨٥٨ وضع رومانيا تحت الحماية الجماعية لأوربا مع بقائها اسمياً تابعة للدولة العثمانية . وفي عام ١٨٥٩ ، انتخب الإمبراطور أميراً واحداً وظهرت رومانيا كوحدة سياسية لأول مرة وبدأت محاولات توحيدها ، وظهرت حركة قومية وإرهاصات طبقة وسطى رومانية نظرت إلى اليهود باعتبارهم الغريم . وفي عام ١٨٦٧ ، أصدرت الحكومة الرومانية قراراً بطرد اليهود المتشردين ، وتم ترحيل أعداد كبيرة منهم عبر نهر الدانوب . ووقعت أثناء ذلك حادثة جالاتز حينما قرر حراس الحدود العثمانيون منع اليهود المتشردين الذين طردهم الرومانيون من عبور الحدود وأعادوهم إلى الأراضي الرومانية . وقد رفض حراس الحدود الرومانيون السماح لهم بالدخول وأعادوا القارب وغرق أثناء ذلك يهوديان .

وقد نصت معاهدة برلين ، عام ١٨٧٨ ، على ضرورة مساواة يهود رومانيا ببقية المواطنين . ولكن الحكومة الرومانية راوغت في

تطبيق هذا المبدأ واتخذت إجراءات تهدف إلى تشجيع العنصر الروماني على الاشتغال بالتجارة . وصدرت عدة قوانين ذات طابع قومي ، فإذا أراد أي يهودي أجنبي (من السوديتسي) أن يبي مصنعاً فيتمتع أن يكون ثلثا مستخدميه من الرومانيين لعدة أعوام . ونصت القوانين على أن تكون معظم أسهم الشركات في أيدي رومانية . وطبقت قوانين مماثلة في حقل التعليم لضمان استفادة العناصر القومية من النظام التعليمي ولتدبير الكوادر اللازمة للنهضة الاقتصادية القومية . ومُنع اليهود من الاتجار في الدخان والمشروبات الروحية ومن الاشتغال كمديري بنوك .

وقد عقد أول مؤتمر عالمي لمعاداة اليهود عام ١٨٨٧ في بوخارست . ونسبت ثورة الفلاحين عام ١٩٠٧ ضد النبلاء الرومانيين وراح ضحيتها علاؤهم من اليهود ، تماماً كما كان الحال مع شيلينكي .

وهكذا ، وبينما كان اليهود يزدادون غربة وعزلة ، كانت الحركة القومية الرومانية تزداد قوة ووعياً . ولذا ، لم يكن من الممكن مناقشة مسألة يهود رومانيا في إطار اعتناق اليهود وإنما في إطار صهيوني ، أي هجرتهم ، وخصوصاً أنه بدأ يخرج من رومانيا وغيرها مئات من المتشردين يتحركون سيراً على الأقدام بملابسهم الممزقة نحو مدن أوربا الغربية حاملين الخوف والهلع والخرج ليهود ألمانيا ويهود غرب أوربا المنتمجين . كان خط سيرهم من رومانيا إلى هامبورج ومنها إلى كندا والولايات المتحدة . وقد أسلفنا الإشارة إلى محاولات قنصل الولايات المتحدة تهجير يهود رومانيا .

وقد عقد مؤتمر فوكساني في ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ لمناقشة مشكلة هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين حضره المفكر الصهيوني غير اليهودي لورانس أوليفانت الذي كان قد تفاوض مع السلطات بشأن شراء أرض للاستيطان اليهودي وتأسيس شركة للهدف نفسه . وكان لظهوره فعل السحر ، وانتشرت آراؤه المتصلة بتوطن اليهود في فلسطين بدلاً من الولايات المتحدة حيث كان اليهود يتهددهم الاندماج . وقام أعضاء جماعة البيلو بالاتصال به ، وكتب له بعض أحياء صهيون يخبرونه بأن الخالق وحده هو الذي وضع في يده صولجان قيادة اليهود ، وسموه «المخلص الماشيخ» أو «قورش الثاني» . وكان عدد يهود رومانيا عام ١٨٩٩ نحو ٦٥٢ ، ٢٣٦ ، هاجر منها في الفترة ١٩٠٠ - ١٩٠٦ ما يقرب من ٧٠ ألفاً . وشهد عام ١٩١٨ - ١٩١٩ صدور قوانين تمنح اليهود حقوقهم ، ولكن المناخ العام ظل مع هذا معادياً لهم بسبب غربتهم وتصاصد الحمى القومية التي تمثلت في رغبة أهل رومانيا في المشاركة في الاقتصاد

الروماني (أوربما في الحضارة العلمانية) ويحاول الهجرة إلى أي بلد في العالم ، وفريق آخر يحافظ على هويته اليهودية ، وهؤلاء مهتمون بالهجرة إلى الدولة الصهيونية . ويهجرة أعضاء هذا الفريق ستخفي أية قيادة قومية للجماعة . ورغبة الفريقين في الهجرة تمثل تعبيرا عن تركيبة المجتمع الروماني التي لا تزال رافضة لليهود بوصفهم عنصرأجنبياً ، هذا على الرغم من سياسة الحكومة التي كانت لا تميز ضد أعضاء الجماعة اليهودية بل كانت تأخذ حينذاك موقفاً مؤيداً لإسرائيل ومختلفاً عن موقف الدول الاشتراكية الأخرى . وكانت هناك علاقات طيبة للغاية بين إسرائيل وتشاوشيسكو الذي سمح بهجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى إسرائيل .

وقد استقر ٢٠٠ ألف يهودي روماني في إسرائيل خلال الفترة ١٩٤٨ - ١٩٦٠ ، وهاجر ٨٠ ألفاً إلى بلاد أخرى . واستمرت الهجرة بعد ذلك بمعدل بطيء (حوالي ألف كل عام) . ويبلغ عدد اليهود من أصل روماني في المُستوطن الصهيوني من ٣٢٠ إلى ٣٣٠ ألفاً ، فهم ثاني أكبر مجموعة بعد المغاربة .

والمنظمة المركزية ليهود رومانيا هي «اتحاد الجماعات اليهودية في جمهورية رومانيا الاشتراكية» ويرأسها كبير المحامات ، وهي أول منظمة في دولة شيوعية سُمح لها بالانضمام للمؤتمر اليهودي العالمي . وتقدم اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع ٨٠٪ من تمويل المشاريع الحرة والخدمة الاجتماعية .

### المجر

Hungary

توجد آثار تدل على أن وجود أعضاء الجماعة اليهودية في المجر يعود إلى أيام الدولة الرومانية قبل أن تغزو قبائل المايجار المنطقة عام ٨٩٥ . ويبدو أن قبائل المايجار كانت تربطها علاقة مع إمبراطورية الخزر ، بل يُقال إنها كانت تحت رعايتها وحماتها ، وإن بعض يهود الخزر اشتركوا مع قبائل المايجار تحت قيادة أسرة أرباد في فتح المنطقة والاستيطان فيها عام ٨٩٠ إلى أن أوقفهم الإمبراطور أتو الأول عام ٩٥٥ . وقد اتصل حسداي بن شيربوط بيهود المجر حتى يصلوه ييوسف ملك الخزر . وهناك إشارات متعددة إلى وجود اليهود في المجر مثل إشارة الكاتب البيزنطي جون سينا موسى إلى «جنود التشاليزيان» أي «المرتزة» . ويبدو أن كلمة «التشاليزيان» ترجمة للكلمة العبرية «حالوتس» ، وهي بمعنى «الرائد» . ولذا ، يُرجح المؤرخون أن التشاليزيان جنود يهود يشكلون جماعة وظيفية قتالية .

الوطني حيث كان أعضاء الجماعة اليهودية يشغلون قطاعات إستراتيجية وكبيرة فيه بقدر لا يتناسب البتة مع نسبتهم إلى العدد الكلي للسكان . وصدرت عام ١٩٢٠ معاهدة الأقليات التي نصت على ضرورة اعتراف رومانيا بحق اليهود داخل حدودها في الحصول على المواطنة ، وضمنهم من لا قومية لهم . ولكن دستور عام ١٩٢٣ لم يمنح حق المواطنة إلا لليهود الذين كانوا مواطنين في المملكة القديمة . وفي عام ١٩٣٨ ، صدر قانون حرم ثلث اليهود من حق المواطنة . وما جعل الوضع يتفاقم ، الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم الغربي في الثلاثينيات ، فلجأت الحكومة إلى منع أعضاء الجماعة اليهودية من العمل في الصحف وقطاع المسرح لإتاحة فرص العمل أمام الآخرين وإتاحة الفرصة للتعبير عن الهوية الرومانية القومية . ومُنع اليهود كذلك من التحدث علناً باليديشية ، كما قامت جماعات معادية لليهود (من بينها الحرس الحديدي) بترتيب هجمات ضد أعضاء الجماعة .

ويُلاحظ أن الجماعة اليهودية في رومانيا ، في الثلاثينيات ، كانت أكبر الكتل اليهودية في أوروبا بعد روسيا وبولندا ، حيث كان يبلغ عدد أعضائها حوالي ٨٠٠ ألف من مجموع السكان البالغ عددهم ١٨ مليوناً ، أي أنهم كانوا يشكلون ٤,٢ ٪ . وأثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت رومانيا متحالفة مع ألمانيا في البداية . وحينما طُبقت قوانين نورمبرج عام ١٩٤٠ ، رُحِّل عدد من اليهود إلى معسكرات الاعتقال والإبادة .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، اقتطعت بساريا وشمال بكوفينا من رومانيا حيث ضمتهما روسيا . أما بلغاريا ، فضممت جنوب دوبردجا ، وضممت المجر شمال ترانسيلفانيا . وأدى هذا إلى انكماش حجم رومانيا إلى ٧٠ ألف ميل مربع يضم ٤٧٥ ألف يهودي وحسب (وانخفض بعد ذلك إلى ٤٢٨ ألفاً) . وشكَّل الحكم الشيوعي اللجنة الديموقراطية اليهودية (على غرار الفيسكسيا) . وسمح الشيوعيون بالهجرة اليهودية إلى إسرائيل ، فتناقص عدد يهود رومانيا . وفي عام ١٩٥٦ ، كان هناك ٢٣٦،١٤٤ يهودياً في رومانيا ، وصل إلى ١٠٠ ألف عام ١٩٦٠ ، وبلغ عام ١٩٩٢ نحو ١٦ ألفاً من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٧٧،٠٠٠ و٢٣ نسمة . ولا يوجد في بوخارست سوى حاخامين . وقائد الجماعة هو المحامم موسى روزين ، وهو أيضاً القائد الإداري والديني الذي أُنهم بالتعاون الكامل مع تشاوشيسكو . والجماعة اليهودية الرومانية جماعة مسنة إذ أن حوالي نصف أعضائها تجاوزوا سن الستين . ويتقسم الشباب الآن إلى قسمين : قسم تم استيعابه في المجتمع

ومن الأرجح أنه كانت توجد أعداد كبيرة من اليهود بالمجر في ذلك الوقت ، إذ يبدو أنه مع تأسيس مملكة المجر اجتذبت هذه المملكة أعداداً كبيرة من اليهود ربما كانوا يعملون بالزراعة والتجارة ، ويتمتعون بسلامة وثام كاملة مع أعضاء المجتمع المضيف . ولكن ، مع تزايد نفوذ المستوطنين اليهود من الخارج ، وكانوا عادة من التجار ، بدأت الجماعة في التحول إلى جماعة وظيفية وسيطة تجارياً ، وظهرت تشريعات لتنظيم هذا الوضع . ففي عصر الملك كلمان (١٩٠٦-١١١٦) ، نجده قد تعهد بحمايتهم من هجمات الفرنجية (الصلبيين) وقبل شهادتهم في المحاكم ، كما حدد مكان سكنهم ومنعهم من استخدام عبيد ، وهو ما كان يعني استبعادهم من مهنة الزراعة .

وفي الفترة التالية حين قام صراع بين الكنيسة ومؤسسة الملكية أو بين الملك والنبل ، كانت أعضاء الجماعة اليهودية حلبة الصراع . فعين كانت الكنيسة تهدف إلى تشديد قبضتها ، وهو ما كان يعني استبعاد اليهود ، كان الملوك يريدون للمحافظة على استقلالهم وكان اليهود أداتهم في ذلك . فكانت الكنيسة تصدر التوجيهات والتحريمات التي كان يتجاهلها الملوك . واستمر أعضاء الجماعة اليهودية في التمتع بما تمنحهم المواثيق الملكية من مزايا ، حتى أن بعض اليهود أصبحوا من كبار ملاك الأراضي وحملوا لقب «كونت» . ويمكن أن نقول إن أعضاء الجماعة اليهودية ، باعتبارهم جزءاً من الطبقة الحاكمة ومؤسسة الملكية ، تمتعوا بوضع ممتاز تحت حكم أسرة أرباد الذي انتهى بانتهاه حكم أندرو الثالث (١٢٩٠-١٣٠١) آخر ملوك الأرباد .

وقد أصدر الملك أندرو الثاني (١٢٠٥-١٢٣٥) الفرمان الذهبي عام ١٢٢٢ بضغط من النبلاء ، وكان هذا الفرمان بمنزلة دستور يدعم حقوق النبلاء مقابل الملك . وتضمن الدستور مادة تنص على أن اليهود والمسلمين (من التتار) لا يمكنهم أن يشغلوا وظائف جمع الضرائب والالتجار في الملح ، وكانت هذه من أكبر مصادر الدخل للدولة . ويبدو أن المسلمين التتار كانوا يشكلون أيضاً جماعة وظيفية وسيطة . ومع هذا ، نجد أن النبيل اليهودي الكونت تيكا كان وصياً أو حارساً على ريع الخزان الملكية . وقد استمر كثير من اليهود في شغل وظائفهم الحكومية المالية ، وهو ما اضطر البابا إلى طرد الملك أندرو الثاني من حظيرة الكنيسة ، فاضطر الكونت تيكا إلى الهجرة . ولكن الملك بيلا الرابع (١٢٣٥-١٢٧٠) قدم رجاءً إلى روما بأن تسمح للكونت بالعودة بعد تدهور حالة المملكة الاقتصادية . وقد وافقت روما على طلبه بشرطه أن يعين معه موظف

مسيحي فيقوم بالتصرف في المال العام تحت إشراف الموظف المسيحي . وبالفعل ، عاد الكونت تيكا مرة أخرى وقام بتدبير المبالغ اللازمة لتجهيز الدفاع ضد هجمات التتار . وقد انتشرت شائعات بأن اليهود تعاونوا مع إخوانهم التتار ، فكلتا الجماعتين من أصل تركي (باعتبار أن يهود المجر كانوا من أصل خزري) . وبالفعل ، اختفى الكونت تيكا أثناء الغزو التتري ، ويُقال إنه فرّ معهم عند انسحابهم .

وعندما بدأ الملك بيلا الخامس إعادة بناء مملكته ، دعا عناصر يهودية تجارية إلى الاستيطان للمساهمة في هذه العملية . وعين يهودياً يُدعى هيتوك أميناً للخزينة الملكية تقاضى مقابل القيام بوظيفته قلعة كوماروم وإحدى وعشرين قرية تابعة لها . وقد عهد بيلا الخامس إلى اليهود بدار سك النقود (وهناك عملات تعود إلى هذه الفترة تحمل حروفاً عبرية) . ولتتين وضع أعضاء الجماعة اليهودية ، قام بيلا بإصدار ميثاق جعلهم أقتناً للخزينة الملكية بكل ما تحمل العبارة من مزايا وحقوق وواجبات (وقد جدد هذا الميثاق كل ملوك المجر حتى عام ١٥٢٦) . ويُلاحظ أن يهود المجر كانوا يتحدثون اللغة المجرية وكانت ثقافتهم مجرية .

وقد استمر وضع أعضاء الجماعة اليهودية ، كجماعة وظيفية وسيطة ، تحت حكم الأسر الأجنبية المختلفة التي حكمت المجر (١٣٠١-١٥٢٦) . وتظهر أهميتها في أن لاجوس الأكبر (١٣٤٢-١٣٨٢) أوجد وظيفة جديدة تسمى «قاضي كل اليهود الذين يعيشون في البلدة» يظطلع صاحبها بوظيفة تحديد الضرائب على اليهود وجمعها منهم وحماية امتيازاتهم وسماع شكواهم ، أي أنه رئيس الجماعة الوظيفية الوسيطة والضامن لكفاءة أداؤها كأداة إنتاج في يد الملك . ويُلاحظ أنه ، منذ منتصف القرن الخامس ، بدأت المدن المجرية في غرب المملكة (وقد كانت مراكز تجارية) تتشكو من منافسة التجار اليهود الغريباء الذين كانوا يتحدثون الألمانية . ولتهدئة الموقف ، أعلن الملك أن من حقه إلغاء الديون المستحقة للبرابيين اليهود التي استدانها النبلاء أو الأبرشيات أو المدن . وشهدت هذه الفترة بداية توجيه تهمة الدم لليهود ، وإلغاء الديون المستحقة لهم ، ومنع رهن العقارات المسيحية لدى أعضاء الجماعة . واستمر الوضع في القرن السادس عشر واحتدم الصراع بين الملك أولاسلو الثاني (١٤٩٠-١٥١٥) من جهة ومدينة سوبورون من جهة أخرى ، إذ حاول الملك أن يمنع المدينة من جمع ضرائب اليهود . ولكنه ، مع هذا ، اضطر عام ١٥٠٣ إلى إلغاء سائر الديون اليهودية في المملكة تحت الضغط الشعبي عليه (وهي عملية يمكن أن نطلق عليها «عملية تأميم») . وقد

دولة كاثوليكية خالصة ، فكان على المسلمين واليهود والبروتستانت أن يمتثلوا للكاتوليكية إن أرادوا البقاء فيها . وطُرد أعضاء الجماعة اليهودية من المدن الملكية ومُنعموا من ملكية الأرض ، فاضطروا إلى العمل في تجارة القطاعي وأعمال الربا ، كما فُرِضت عليهم ضرائب باهظة . ولكن النبلاء المجرين قاموا بحماية اليهود ، فسمحوا لهم بالإقامة في المدن التابعة لهم . ومث بعض المدن نتيجة توطين اليهود فيها ، مثل مدينة كيسمارتون (أيزنشنتات) . وقد وضعت هذه المدينة الجماعات اليهودية المحيطة بها تحت حماية أسرة إستير هازي الأرستقراطية التي منحتهم المواتيق والمزايا نظير الضرائب التي يؤدونها ، بل قام بعض أسر النبلاء بتوطين بعض أعضاء الجماعة اليهودية كأقنان وفلاحين . وكانت أغلبية اليهود من صغار التجار ، فاشتغلوا بصناعة تقطير الكحول وجمع الضرائب وأعمال الرهونات وبيع الملابس . وكان معظم عمالي البلاط من اليهود .

وتزايد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في المجر خلال القرن الثامن عشر نتيجة هجرة اليهود من بولندا ومورافيا ، فوصل عددهم إلى ١١ ، ٦٢١ عام ١٧٣٥ ، ولم يكن بينهم سوى أقلية مجرية . أما الباقون ، فكانوا من العناصر المهاجرة . ومع هذا ، فحين تم تصنيف اليهود بحسب القومية ، أعلن أغلبيتهم أنهم يتنتمون إلى الأمة المجرية .

وحينما اندلعت الحرب التركية النمساوية (١٦٨٢ - ١٦٩٩) ، نجحت أسرة الهابسبورج النمساوية في طرد العثمانيين من المجر واعترف النبلاء للمجريين عام ١٦٨٧ بأحقية الهابسبورج بعرش المجر ، ومن ثم بدأ حكم الإمبراطورية النمساوية المجرية . وقد خضع يهود المجر لمحاولات الملكية النمساوية المطلقة التي استهدفت تحديث اليهود وتحويلهم إلى عناصر ناعمة ، حيث تأثروا بشكل عميق بمحاولات إمبراطور النمسا جوزيف الثاني (١٧٨٠ - ١٧٩٠) في هذا المضمار والذي أصدر براءة التسامح عام ١٧٨٢ . وقد تم اعتناق اليهود سياسياً ابتداءً من هذا التاريخ بدرجات متفاوتة من النجاح والفشل بين منطقتي أخرى . وقد بلغ عدد يهود المجر عام ١٨٤٠ نحو ٢٠٠ ألف يشكلون ٣٤ ، ٢٪ من مجموع السكان . ولعب أعضاء الجماعة دوراً مهماً في غو الرأسمالية المجرية والصناعة المجرية . ويبدو أنه لم تكن هناك بورجوازية مجرية قوية . ولم يحدث الصدام بين الجماعة الوظيفية اليهودية والبورجوازية المحلية إذ اكتفت البورجوازية اليهودية بإدارة معظم البنوك والتجارة . كما لم تكن هذه الطبقة المجرية اليهودية تصطدم بالأرستقراطية الحاكمة . ويلاحظ أن الجماعة اليهودية كانت دائماً تحاول إثبات ولائها فتخلت عن ميراثها الألماني أو البولندي واكتسبت ثقافة المجر ولغتها .

طلب جيكيوب مندل رئيس اليهود إلى الإمبراطور الألماني ماكسيمليان أن يضع اليهود تحت حمايته ، وذلك بعد أن صُغت المجر إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفي عام ١٥٢٤ ، قام لاجوس الثاني (١٥١٦ - ١٥٢٦) بتعيين يهودي مديراً لأندلس سك النقود ، كما عين اليهودي المنصر إسمري فورتوناتوس وزيراً للمالية الملكية . وأدى هذا إلى تزايد كراهية الجماهير لأعضاء الجماعة اليهودية إذ فرض فورتوناتوس ضرائب مزدوجة زادت معدل التضخم . وقد فُرِض في تلك الفترة القسّم اليهودي الذي ظل مستمراً حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وحينما ضمت الدولة العثمانية أجزاءً من المجر عام ١٥٢٦ ، هجر السلطان سليمان أنفي يهودي إلى تركيا . ويبدو أن العثمانيين كانوا مدركين أهمية أعضاء الجماعة كمنصر استيطاني . وأدى الغزو العثماني للمجر إلى تقسيمها بحيث أصبح شرق المجر تابعاً للدولة العثمانية . أما غرب المجر ، فقد حكمه ملوك أسرة هابسبورج ، وحكم ترانسيلفانيا النبلاء المجرين . وكان ملوك الهابسبورج متحيزين ، بطبيعة الحال ، إلى سكان المدن الملكية (مثل مدينة سوبورون التي أسلفنا الإشارة إليها) الذين كانوا من أصل ألماني ، فسمحوا لهذه المدن بطرد اليهود ولم يجددوا مواتيق الملك بيلا الرابع . أما في المنطقة التي وقعت تحت حكم النبلاء المجرين ، فقد تمتع أعضاء الجماعة اليهودية بحماية النبلاء .

ولكن الازدهار الحقيقي كان من نصيب هؤلاء اليهود الذين وقعوا تحت حكم العثمانيين ، فقد فُرِضت عليهم ضرائب باهظة ولكنهم تمتعوا بحرية الحركة والاتجار داخل الدولة العثمانية . ومن ثم نهود كثير من المسيحيين الذين تحولوا إلى أقتان تحت حكم العثمانيين ليتمتعوا بالمزايا التي يتمتع بها أعضاء الجماعة اليهودية . كما أن مدينة بودا (العاصمة) أصبحت مركزاً لليهود الذين هاجروا إليها من مناطق المجر التي لم يحتلها العثمانيون . وقد وُضِع أعضاء الجماعة اليهودية تحت حماية الباشا العثماني بل تحت حماية السلطان نفسه .

وحينما قام الملك رودولف (١٥٧٦ - ١٦١٢) بمحاولة استعادة بودا من العثمانيين ، حارب أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانبهم ، وهو ما زاد درجة السخط عليهم في مناطق المجر الأخرى حيث طالبت المدن بطرد اليهود . وفي عام ١٦٤٧ ، منع فرديناند الثالث اليهود من شغل وظيفة ملتزمي ضرائب . وحينما تم فتح بودا عام ١٦٨٦ ، أنزل العقاب بالجماعة اليهودية لوقفها المالي للعثمانيين . وكان مخطئ الملك ليوبت الأول (١٦٥٧ - ١٧٠٥) هو تأسيس

واقعهم الاندماجي وتقبله ، ولكنها استيطانية بالنسبة إلى يهود الينديشية الفاضلين .

وقد اشترك أعضاء الجماعة اليهودية بالمجر في الحرب العالمية الأولى دفاعاً عن وطنهم ، وسقطت أعداد كبيرة منهم . ومع ذلك ، كان هناك بعض اليهود المشتغلين بتزويد الجيش بالخراب والإمدادات عن استفادوا من حالة الحرب . وأدى هذا إلى ظهور شعور معاد لليهود بين بعض قطاعات المجتمع المجري . وقد لعب اليهود دوراً في الزراعة كملك أراض ومقاولين في الإدارة الزراعية والتسويق (مثل يهود الأرندا) . ويُلاحظ أنه ، قبل الحرب العالمية الأولى ، كان ٥٥ - ٦٠٪ من مجموع التجار وال١٣٪ من الحرفيين وال١٣٪ من ملاك الصناعات الكبيرة والمتوسطة وال٤٥٪ من المقاولين من اليهود . وقد تم الاعتراف عام ١٨٩٥ باليهودية باعتبارها إحدى الديانات الرسمية في المجر ، تماماً مثل الكاثوليكية والبروتستانتية .

ويُلاحظ أن الجيل الأول من يهود ما بعد الانعتاق حصل على حقوقه السياسية واصطف بالصبغة المجرية . أما الجيل الثاني ، فلعب دوراً ملحوظاً في حركة التصنيع والتطور الرأسمالي بها . أما أبناء الجيل الثالث (١٩٠٥ - ١٩٣٠) ، فقد تركزوا في المهن ، وخصوصاً في عالم الثقافة والصحافة .

وبعد الحرب العالمية الأولى ، كانت للمجر إحدى الدول التي خسرت الحرب ، فاستولت على الحكم مجموعة من معارضي الحكومة برئاسة الكونت ميخائيل كارولبي وكونوا مجلساً قومياً من سبعة وعشرين شخصاً من بينهم أربعة عشر يهودياً ، أي أكثر من النصف . وحينما أعلنت الجمهورية ، كان يوجد وزيران يهوديان في الوزارة . وقد سقطت هذه الحكومة ودخل الحزب الشيوعي في تحالف مع الحزب الاشتراكي ، فعين ييلاكون زعيم الحزب الشيوعي (وكان يهودياً) قوميساراً للشئون الخارجية . وفي مارس عام ١٩١٩ ، عين ييلاكون رئيساً للدولة ، وأعلنت جمهورية على النمط البلشفي السوفيتي كان الوجود اليهودي ملحوظاً فيها ، فقد كان المسئولون عن قوميساريات الداخلية والتعليم والتجارة والمالية والعدل والإعلام والقوانين مجريين من اليهود الملحدين . وكان ثلثا من شغلوا وظيفة قوميسار من اليهود . ولذا ، فبعد فشل الجمهورية البلشفية ، ارتبطت التجربة الثورية في الأذهان بأعضاء الجماعة اليهودية ، وهو ما كان له مردود سلبي عليهم .

ويبلغ عدد أعضاء الجماعة اليهودية ٤٧٣ ألفاً عام ١٩٢٠ ، أي بعد الحرب العالمية الأولى وبعد ضم أجزاء من المجر . واستمر تناقص أعدادهم من خلال الاندماج والتزاوج ، ويُلاحظ أن هذا

وظهرت حركة استنارة في المجر عام ١٨٣٠ ترمي إلى صيغ اليهود بالصبغة المجرية . بل ساهمت الجماعة اليهودية في تعميق الهوية الثقافية المجرية من خلال الصحف وأدوات الإعلام الأخرى التي تحكمت فيها . وقد اصطف يهود المجر بصبغة مجرية كاملة ، وظهرت حركة دينية إصلاحية تُسمى «النيولوج» . ولذا فإنهم ، حين اندلعت الثورة المجرية ضد حكم الهابسبورج ، انضموا إلى الثورة وشاركوا في صفوفها . وحينما استسلم الجيش المجري ، وقّعت القوات النمساوية عقوبات على يهود المجر من ضمنها فرض غرامة كبيرة ، وقرر الإمبراطور فرانسيس جوزيف الأول (١٨٤٨ - ١٩١٦) أن تُنقذ هذه الغرامة على إصلاح اليهود بتأسيس مدرسة لاهوتية للحاخامات وكلية تربية ومدرسة ابتدائية ومؤسسات للمعوقين اليهود . وقد تحقّق ليهود المجر الإعتاق السياسي الكامل في عام ١٨٦٧ ، وأقبلوا على التعليم العلماني إقبالاً شديداً ، حيث يُجد أن ٣٥٪ من الطلبة في المدارس الثانوية المتخصصة من أعضاء الجماعة اليهودية (١٩١٠ - ١٩١٣) ، كما كان نصف أعضاء هيئة التدريس في كلية الطب وال٤٠٪ في مدرسة بودابست الفنية منهم ، وكان منهم أيضاً أكثر من نصف الأطباء ونصف الصحفيين وال٢٦٪ من جملة المهنيين في قطاعات الفنون والآداب ، وعدد كبير من العاملين في مهنة القانون .

وقد تزايدت معدلات الاندماج والتنصر بين اليهود ، وخصوصاً بين الطبقات الثرية . وأصبح الزواج المختلط مسألة عادية ، وخصوصاً في العاصمة . وكانت نسبة الأطفال غير الشرعيين وكذلك نسبة الانتحار من أعلى النسب بين الجماعات اليهودية في أوروبا ، وهذه هي في الواقع الخلفية الأساسية التاريخية والحضارية لمؤسسي الحركة الصهيونية تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) وصديقه ماكس نورود (١٨٤٩ - ١٩٢٣) اللذين وُلدا في بودابست وقضيا سنوات حياتهما التكوينية هناك . ولا تختلف تجربتهما التاريخية كثيراً عن تجربة يهود الغرب ، ولذا وصف هرتزل يهود المجر بأنهم «غصن جاف على شجرة اليهود» . وحينما أُسست حركة صهيونية في المجر عام ١٨٩٧ ، لم ينضم إليها سوى أعداد صغيرة للغاية . وربما كانت تجربة هرتزل هذه ، أي النشأة في مجتمع حقّق فيه اليهود معدلات عالية من الاندماج ، ثم انتقاله إلى النمسا ومنها إلى فرنسا حيث شاهد يهود الينديشية المهاجرين وما يلاقونه من المشقات أثناء فترة التحديث المتسرّع ، ربما ساهمت هذه التجربة في توصّله إلى الصيغة الصهيونية في شكلها التوطيني والاستيطاني ؛ فهي صهيونية توطينية بالنسبة لليهود الغرب وتعرّب عن

الأخرى أن عدد اليهود في المجر عام ١٩٩٥ هو ٨٠ ألفاً) ، تقطن غالبيتهم الساحقة (حوالي خمسين ألفاً) في بودابست ، وكان ٦٠٪ منهم من تجاوز الخمسين ومعظمهم من اليهود الإصلاحيين (النيولوج) . وهذا يعني أن الجماعة اليهودية في طريقها إلى الاختفاء، وهذا تمييز آخر عن موت الشعب اليهودي . وقد عُقد المؤتمر اليهودي العالمي في المجر عام ١٩٨٧ . وهي أول مرة يُعقد فيها المؤتمر اليهودي في إحدى دول الكتلة الاشتراكية .

وأهم المنظمات التي ينظم بها أعضاء الجماعة اليهودية في المجر منظمة التمثيل القومي لليهود المجرين ، وهي المنظمة المركزية للجماعة اليهودية في المجر والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي . وهناك أيضاً اللجنة المركزية للرؤاه الاجتماعي ، وتقوم برعاية فقراء اليهود ، وتولها اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع . وهناك منظمة ويتي ، وهي مؤسسة التمثيل القومي ليهود المجر ، التي تقوم برعاية المصالح الدينية ليهود المجر منذ عام ١٩٠٤ . وأغلب أعضاء هذه المؤسسات من المحافظين ، إلا أن هناك قسماً خاصاً باليهود الأرثوذكس . ومن الجدير بالذكر أنه بعد وفاة آخر حاخام أرثوذكسي عام ١٩٨٢ ، تم إحصاء حاخام من إسرائيل ليحل محله . وهناك محكمة شرعية (بيت دين) خاصة باليهود الأرثوذكس ، وأخرى خاصة باليهود المحافظين .

التناقص في المرحلة العمرية (٠ - ٢٠) كانت تقابله زيادة في عدد المسنين . وكان نصف يهود المجر يعيشون في بودابست ، منهم ٦٥٪ من الإصلاحيين (النيولوج) و٢٩٪ أرثوذكس .

ولكن ، نظراً لأن المجر ضمت بعض المناطق التي يوجد بها يهود ، نجد أن إحصاء ١٩٤١ يحدد عدد اليهود بنحو ٧٢٥ ألفاً من مجموع عدد السكان البالغ ٣٢٣ ، ٦٨٣ ، ١٤ نسمة .

ومع ظهور النازية في ألمانيا ، اتبعت الحكومة المجرية سياسة مماثلة لها ، ولكنها رفضت تطبيق القوانين النازية فيما يتصل بأعضاء الجماعات اليهودية . وبعد أن احتل النازيون المجر ، وكان أيخمان هو المسئول عن الشؤون اليهودية ، تم عقد صفقة مع الحركة الصهيونية من خلال رودولف كاستنر اصطُح على تسميتها «الدم مقابل السلع» ، وقد خدع فيها كاستنر يهود المجر وضمن عدم مقاومتهم ، وسهّل عملية ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال مقابل ترحيل بعض الصهاينة إلى فلسطين . وفي ١٩٤٤ ، ألقت القوات البريطانية بمظليين من الهاجاناه في الأراضي البوغسلافية ليعبروا إلى المجر ولكنهم أسروا .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، بلغ عدد يهود المجر ٢٦٠ ألفاً ، ولكن لم يزد عددهم عام ١٩٩٢ على ٥٦ ألفاً من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠ ، ٤٩٣ ، ٠٠٠ (يذكر أحد المصادر الإحصائية





## أمريكا اللاتينية

تعداد الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ومعالمها السكانية الأساسية - هويات أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية - وظائف أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية - توطين أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين - علاقة الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية بالنخب الحاكمة - الجماعات اليهودية في كل من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة: منظور مقارن - الأرجنتين - البرازيل

## تعداد الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ومعالمها السكانية الأساسية

Number of the Jewish Communities in Latin America and Their Main Demographic Traits

لا يمكن اعتبار الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية مهمة في ذاتها ، فقد ظل عدد اليهود فيها صغيراً منذ البداية . كما أنهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في النظم السياسية فيها ولم يقدموا أية إسهامات ثقافية حقة لتراثها ، إلى جانب أن دورهم في الحركة الصهيونية وفي تأسيس المستوطن الصهيوني دور غير مؤثر بالمرّة . ولكن أهمية الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تعود إلى أن دراسة أوضاع أعضائها توضح كثيراً من القضايا والأبعاد الخاصة بالجماعات اليهودية في العالم ككل .

ومن أهم هذه الأبعاد والقضايا عدم التجانس بين الجماعات اليهودية ، وقضية الهوية اليهودية ، وهناك قضايا أخرى ، مثل الاندماج والانتماء ، ودور الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية مالية وسيطة ، وفشلها في التحول إلى طبقة وسطى ، وأثر الجماعات المضيفة ومجتمعات الأغلبية في أعضاء الجماعة . كما أنه من خلال عقد مقارنة بين الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية والجماعات اليهودية في الولايات المتحدة (أهم الجماعات اليهودية في العالم) ، أي من خلال تبني منظور مقارن ، يمكننا أن نكتشف بعض سمات هذه الجماعة الأخيرة . ويُلاحظ كذلك أن الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تواجه مشاكل خاصة لا تواجهها الجماعات اليهودية الأخرى الموجودة في العالم الغربي " المتقدم " .

ورغم أن الأسبان والبرتغاليين ، حينما استوطنوا في أمريكا اللاتينية ، منعوا أعضاء الجماعات اليهودية من الاستيطان فيها ، فإن بعض يهود المارانو (المسيحيين الجدد) لمححوها في الهجرة إليها

والاستيطان فيها ، وقد قامت محاكم التفتيش بمطاردتهم لضمان تأكيد الهيمنة الكاثوليكية .

ويبدأ تاريخ الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر بعد استقلال دولها وإغنائها محاكم التفتيش ، وإعلانها سياسة تضمن المساواة بين المواطنين . ومع هذا ، لم تنهار أعداد كبيرة من اليهود حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولكن أعداد المهاجرين إلى الأرجنتين والبرازيل تزايدت نسبياً (أي قياساً إلى العدد الكلي للمهاجرين اليهود إلى أمريكا اللاتينية) . ويُعد عام ١٨٦٠ بداية تاريخ الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ، ففي هذا التاريخ عُقد أول زواج يهودي في الأرجنتين . ولكن عدد أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية لم يكن يزيد ، مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، على ١٥٠ ألفاً أغلبيتهم العظمى (١١٠ - ١٢٠ ألفاً) في الأرجنتين . جاء ٨٠٪ منهم من وسط أوروبا وشرقها ، أي إشكناز ، و ٢٠٪ سفارد ويهود من البلاد العربية . وكانت أغلبية المهاجرين اليهود إلى الأرجنتين من روسيا من يهود البديشية . وكان يوجد من اليهود : ٥٠٠ في شيلي ، ونحو ١٧٠٠ في أوروغواي ، وحوالي ٥٠٠ في البرازيل .

وظل هذا النمط هو السائد . ففي الخمسينيات ، بلغ عدد يهود الأرجنتين ٣٨٥ ألفاً ، وقفز عدد يهود شيلي إلى ٣٢ ألفاً ، وأوروغواي ٣٨ ألفاً ، والبرازيل ١٢٥ ألفاً . وفي عام ١٩٧٠ ، كان تعداد يهود أمريكا اللاتينية كما يلي :

الأرجنتين	٤٥٠ ألفاً
شيلي	٣٠ ألفاً
أوروغواي	١٥٠ ألفاً
البرازيل	١٤٠ ألفاً
المكسيك	٣٥ ألفاً

وهناك رأي يذهب إلى أن الأرقام السابقة مبالغ فيها ، وأن

هو ٣٨٢ ألفاً منهم ٢١١ ألفاً في الأرجنتين و ١٠٠ ألف في البرازيل و ٢٣ ألفاً في أوروجواي و ٢٠ ألفاً في فنزويلا و ١٥ ألفاً في شيلي . ويذكر الكتاب أن عدد يهود أمريكا الوسطى هو ٥١,٧٠٠ ، أي أن المجموع الكلي ليهود أمريكا الوسطى والجنوبية (أي أمريكا اللاتينية) هو ٤٣٣,٧٠٠ (ويذكر مصدر إحصائي آخر أن عدد يهود الأرجنتين عام ١٩٩٥ هو ٢٥٠ ألف وأن عدد يهود أوروجواي في العام نفسه هو ٣٠ ألفاً) . والواقع أن تضارب الأرقام مسألة مفهومة ، فبعض أعضاء الجماعات اليهودية ينكرون انتماءهم اليهودي بينما يدعي بعض أعضاء الطبقات الفقيرة أنهم يهود ليستفيدوا من المعونات التي تقدمها المنظمات اليهودية الأمريكية . وإذا أضفنا إلى ذلك أن تعريف اليهودي مسألة خلافية ، فإن فوضى الأرقام مسألة متروكة . ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن الاختلافات لا تؤثر في النمط العام . ولعل إحصاءات الكتاب الأمريكي اليهودي السنوي لعام ١٩٩٤ هي أدقها .

ويلاحظ أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية إلى شعوب أمريكا اللاتينية نسبة ضئيلة للغاية إذ يبلغ تعداد شعوب أمريكا اللاتينية نحو ٤٣٩ مليوناً . وبالتالي ، فإن نسبة اليهود لا تتجاوز الآن ١ ، ٪ ، وقد تزيد النسبة أو تقل من بلد إلى آخر ، فالأرجنتين التي تضم نصف يهود أمريكا اللاتينية يبلغ عدد سكانها ٣٣,٤٨٧,٠٠٠ ، وتبلغ نسبة اليهود فيها ٦٤ ، ٪ ، ويبلغ عدد سكان أوروجواي ٣,١٤٩,٠٠٠ ، نسبة اليهود فيه ٧٧ ، ٪ ، وتكاد تكون هذه أعلى نسبة في القارة بأسرها . أما البرازيل ، فعدد سكانها ١٥٦,٥٧٨,٠٠٠ ، منه ٠,٠٦ ٪ يهود . أما شيلي ، فيبلغ عدد سكانها ١٣,٨١٣,٠٠٠ نسبة اليهود فيه ١١ ، ٪ ، ويبلغ عدد سكان المكسيك ٨٩,٩٩٨,٠٠٠ ، منه ٠,٠٤ ٪ يهود . أما بقية بلاد أمريكا اللاتينية ، فتضم جماعات يهودية يمكن إهمالها إحصائياً . فسورينام ، التي كانت تضم أول جماعة يهودية ، وأسس فيها ما يشبه الدولة الاستيطانية المستقلة التي ثار عليها العبيد ثم أسقطها ، تضم الآن مائتي يهودي ، وتضم جواتيمالا ٨٠٠ ، وبينما ٥٠٠٠ ، وهكذا .

ويلاحظ أن المهاجرين اليهود انجموا أساساً إلى الأرجنتين بالدرجة الأولى ، وإلى بلاد أخرى مثل شيلي والبرازيل وأوروجواي ، وهي جميعاً تقع في المخروط الجنوبي . وقد ابتعدوا عن بلاد مثل بيرو وبارجواي . وهناك عدة عناصر جذبت اليهود إلى هذه البلاد :

١ - أنها تتمتع بوجود نسبة عالية من البيض ، فنحو ٩٠ ٪ من سكان

الإحصاءات لا يمكن الوثوق بها تماماً ، وهذا يعود إلى عناصر عديدة منها أن بعض المواطنين يستولون أنفسهم باعتبارهم يهوداً أو يحجبون عن ذلك لأسباب لا علاقة لها بهويتهم الحقيقية (يهودية كانت أم غير يهودية) . وقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن عدد يهود شيلي انخفض في إحدى الإحصاءات ، بنسبة ٥٠ ٪ ، وربما يعود هذا إلى رغبة المتخفين في أن ينصهروا تماماً . وزاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في إحدى الإحصاءات في المكسيك بنسبة ٤٧ ٪ ، ولعل هذا يعود إلى رغبة الكثيرين من سكان المكسيك في الهجرة إلى الولايات المتحدة وطعمهم في أن تقوم المنظمات اليهودية بتسيير هذه العملية لهم . ولذا ، فقد سجلوا أنفسهم يهوداً ، الأمر الذي جعل من قاموا بالإحصاء مضطربين إلى تجاهل نتائجه . ويلاحظ كذلك أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية دخلوا أمريكا اللاتينية أثناء الحرب العالمية الثانية بشهادات تمعيد (تدل على أنهم مسيحيون) أصدرها لهم القاتيكان لمساعدتهم على الهرب من النازيين ، وبعد أن دخلوا وزال الخطر آثروا الأيعلنا عن هويتهم اليهودية الأصلية .

ولهذا ، يرى بعض الدارسين أن عدد يهود الأرجنتين كان في عام ١٩٧٠ نحو ٣٠٠ ألف فحسب وأن رقم ٤٥٠ ألفاً مبالغ فيه إلى حد كبير ، وأن عدد يهود البرازيل كان ١٠٠ ألف وحسب . فإذا أضفنا إلى ذلك ٤٤ ألفاً في أوروجواي ، و ١٨ ألفاً في شيلي ، و ٧٠ ألفاً في بقية أمريكا اللاتينية (يقال إن ٣٥ ألفاً منهم في المكسيك) ، فإن المجموع الكلي يصل إلى نحو ٥٠٠ ألف وحسب . وعلى أية حال ، أثبتت إحصاءات عام ١٩٨٦ - ١٩٨٧ التي نشرها الكتاب الصهيوني السنوي لعام ١٩٨٧ أن عدد يهود الأمريكين أخذ في التناقص السريع ، فعدهم الآن لا يزيد على ٤١٨ ألفاً يوجد منهم ٢٣٣ ألفاً في الأرجنتين ، أي أكثر من النصف ، و ١٠٠ ألف في البرازيل ، و ٣٠ ألفاً في أوروجواي ، و ٣٥ ألفاً في المكسيك ، و ٢٠ ألفاً في شيلي ، و ٢٠ ألفاً في فنزويلا .

ولا تختلف إحصاءات عام ١٩٨٩ عن ذلك كثيراً . وإن كان كتاب الجماعات اليهودية في العالم الصادر عام ١٩٨٩ يذهب إلى أن يهود البرازيل ١٥٠ ألفاً ، وأن عدد سكان ساو باولو ٧٥ ألفاً ، وريو دي جانيرو ٥٧ ألفاً ، وقد أوردت الجيروساليم بوست في أواخر عام ١٩٩٠ أن عدد يهود أمريكا اللاتينية يتراوح بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ألف من بينهم ٣٠٠ ألف في الأرجنتين ، و ١٢٠ ألفاً في البرازيل ، بينما أوردت الموسوعة اليهودية أن عدد يهود الأرجنتين لا يزيد على ٢٢٨ ألفاً عام ١٩٩٠ ، وآخر إحصاء هو الوارد في الكتاب الأمريكي اليهودي السنوي عام ١٩٩٤ ، وورد فيه أن عدد يهود أمريكا الجنوبية

والواقع أن هجرة يهود أوروبا إلى أمريكا اللاتينية ، وتركزهم في بلاد بعينها ، هي تعبير عن غمط الهجرة اليهودية في العصر الحديث ، وهي هجرة من البلاد الأقل تقدماً إلى البلاد الأكثر تقدماً ، على عكس نمط الهجرة في أوروبا في العصور الوسطى حيث كانت في معظم الأحيان هجرة إلى المجتمعات الأقل تقدماً . ويمكننا أن نضيف هنا أن هذا هو أيضاً نمط الهجرة الأوروبية عموماً في العصر الحديث ، أو لنسمه التجربة الاستعمارية الاستيطانية حيث صدرت أوروبا فائضها البشري وحلت مشاكلها الاجتماعية عن طريق توطين هذا الفائض فيما سمته «الأرض البكر» ، وهي أرض انقضبت منها أهلها إما بإبادتهم أو نقلهم منها (ترانسفير) .

والعناصر البشرية الفائضة المهاجرة هي دائماً عناصر خاضعة لقوتين متناقضتين متكاملتين : قوة طرد من الوطن الأصلي ، وقوة جذب للوطن المضيف . والواقع أن العناصر المهاجرة تبحث عن فرص جديدة ، وتحاول أن تحقق في المجتمع الجديد ما فشلت في تحقيقه في مجتمعاتها الأصلية ، ومن ثم لم تهاجر أعداد كبيرة إلى المجتمعات الزراعية .

وليس من قبيل الصدفة أن الولايات المتحدة استقبلت ٨٥٪ من جملة المهاجرين الأوربيين بين عامي ١٨٥٧ و ١٩٦٥ والبالغ عددهم ٦٠ مليوناً ، وتليها الأرجنتين التي اجتذبت ٦,٥٠٠,٠٠٠ مهاجر في الفترة نفسها ، أي نحو ١١٪ ، مكث منهم ٣٧٩,٠٠٠ .

ويلاحظ تركّز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن الكبيرة ، فيهود بيونس آيرس يتراوح عددهم ، حسب إحصاءات عام ١٩٧٠ ، بين ٢٤٠ ألفاً و ٣٠٠ ألف ، أي غالبية اليهود الساحقة . وهذا يعني أن نصف يهود أمريكا اللاتينية يوجدون في مدينة واحدة . ومع هذا ، فهم لا يشكلون سوى ١٨ ، ٢٪ من سكانها البالغ عددهم ٨,٣٥٣ مليون . (وقد انخفض عددهم إلى ١٨٠ ألفاً حسب إحصاءات عام ١٩٨٩) . ويقطن في ساو باولو وريوي جانيرو ٨٠ ألف يهودي ، أي ٨٠٪ من مجموع يهود البرازيل ، ويبلغ سكان المدينتين نحو ١٠ مليون ، وبالتالي يشكل اليهود أقل من ١٪ من عدد السكان . وتوجد نسبة الـ ٢٠٪ الباقية في مدينة بورتو الجيري . وفي شيلي ، يقطن ٢٥ ألف يهودي في ستيابو يشكلون ٩٦,٠٪ من سكان العاصمة البالغ عددهم مليونين و ٥٨٦ ألفاً . أما في أوروغواي ، فيبلغ عدد السكان في مونتفيدو ٤٥ ألفاً من سكان العاصمة البالغ عددهم مليوناً و ٤٥٠ ألفاً ، وبالتالي ترتفع نسبة اليهود لتصل إلى ١٩ ، ٣٪ ، وهي أعلى نسبة في أية مدينة في أمريكا اللاتينية .

الأرجنتين من البيض ، وكذا أغلبية سكان شيلي ، و ٩٥٪ من سكان أوروغواي ، و ٦٠٪ من سكان البرازيل ، مقابل ١٥٪ في كل من بيرو وإكوادور ، و ٢٠٪ في فنزويلا .

٢ - تتسم كل هذه البلاد بارتفاع نسبة التعليم فيها ، فنسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة في الأرجنتين وشيلي وأوروغواي تبلغ نحو ٩٠٪ ، وتشكل البرازيل استثناء ، فالنسبة فيها تصل إلى ٧٠٪ ، مقابل ٦١٪ في بيرو و ٢٩٪ في بوليفيا .

٣ - تتسم هذه الدول بأنها متقدمة اقتصادياً وتوجد فيها حركة تصنيع نشيطة نسبياً . ويتجلى هذا في وجود مراكز حضرية ضخمة فيها ، فحسب إحصاءات أوائل السبعينيات يقطن في المدن ٨٠ ، ٤٪ من سكان الأرجنتين ، و ٩ ، ٧٢٪ من سكان شيلي ، و ٧٨ ، ٤٪ من سكان أوروغواي . وتمثل البرازيل استثناء من القاعدة مرة أخرى ، فنحو ٥٦٪ فقط من سكانها يعيشون في المدن ، ولكن ذلك كان قبل حدوث ما يُسمى «المعجزة الاقتصادية» التي أدت إلى الهجرة من القرية إلى المدينة .

٤ - ويُلاحظ كذلك أن هذه البلاد تتسم بارتفاع الدخل ، إذ يصل متوسط الدخل فيها إلى ثلاثة أضعاف دخل الفرد في بقية بلاد أمريكا اللاتينية ، باستثناء فنزويلا التي حققت رخاءً غير عادي بسبب الثروة البترولية .

٥ - تتميز المجتمعات التي استوطن فيها اليهود بأن معدلات العلمنة فيها عالية بالمقارنة ببقية مجتمعات أمريكا اللاتينية .

٦ - تتسم هذه البلاد أيضاً بوجود اقتصاد حر فيها . والواقع أن الميراث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوروبا جعل من السهل عليهم أن يحققوا نجاحاً اقتصادياً . وتطبق معظم هذه المواصلات على الأرجنتين وشيلي والبرازيل .

ولكن من أهم العناصر التي شجعت اليهود على الاتجاه إلى الأرجنتين (أكثر من أي بلد أمريكي لاتيني آخر) أن حكومة الأرجنتين احتضنت سياسة من شأنها تشجيع الهجرة ، فكانت تقدم دعماً للمهاجرين وتزودهم بالأرض اللازمة للاستيطان ، كما كانت تبدي تسامحاً غير عادي نحوهم . وقد رأى المليونير الفرنسي اليهودي البارون دي ميرش أن بالإمكان الاستفادة من هذا الوضع في حل المسألة اليهودية في شرق أوروبا وكذلك مشكلة الانفجار السكاني الذي يقذف بألاف اليهود على أوروبا ، وذلك بتحويلهم عنها وتوطينهم في الأرجنتين . وانطلاقاً من هذه الفكرة الصهيونية الوطنية ، تم تأسيس جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) التي ساهمت في توطين عدة آلاف من اليهود .

اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية ، وهذا العدد لا يضم اليهود الذين حصلوا على شهادات تمديد . وفي الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ ، دخل فلسطين ٧٥,٥١٠ ، مقابل ٣١,٠٦٦ اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية رغم ظروف الأزمة الاقتصادية ورغم وجود نظم فاشية تضطهد أعضاء الجماعات اليهودية ولا تشجع الهجرة . وقد شهدت سنين ما بعد الحرب ، حتى عام ١٩٤٨ ، تزايداً في عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين . ولكن ، في المحصلة النهائية ، بلغ عدد اليهود الذين استوطنوا فلسطين خلال الفترة من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٢ نحو ٣٧٨,٩٥٦ بينما بلغ عدد من استوطنوا أمريكا اللاتينية ٣٧٦,٢٢٧ أي العدد نفسه تقريباً .

وينطبق على يهود أمريكا اللاتينية مقولة موت الشعب اليهودي ، وهي أن الجماعات اليهودية في العالم أخذت في الانقراض بحيث ستركز اليهود في الولايات المتحدة والدولة الصهيونية وحسب ، وهما تجمعان لا يزداد عدد أعضاء الجماعات اليهودية فيهما بل هو أخذ في التناقص . ويتناقص عدد اليهود في أمريكا اللاتينية بشكل أسرع منه في أي مكان آخر ، بحيث أن من المتوقع ألا يبقى منهم أعداد تذكر بعد فترة قصيرة إذ أن أمريكا اللاتينية تعدُّ منطقت زرع للأسباب التالية :

١ - ربما كان السبب الأساسي هو أن غطت الهجرة الاستيطانية الغربية (واليهودية) في العصر الحديث بتجه من البلاد المتخلفة إلى البلاد المتقدمة . وأمريكا اللاتينية لا تزال تصنف أساساً باعتبارها متخلفة ومن الدول النامية . وما يساعد على هذا الاتجاه أن الولايات المتحدة تشكل عنصر جذب شديد ليهود أمريكا اللاتينية ، فهي أكثر البلاد تقدماً في العالم ، وهي توجد على مقربة منهم ، كما توجد فيها الآن جماعة لاتينية ضخمة تشكل نواة حضارية قوية يمكنهم من خلالها الشعور بالأمن النسبي وعدم الاغتراب . وأخيراً ، ثمة علاقات قوية بين يهود أمريكا اللاتينية من جهة ويهود الولايات المتحدة وتنظيماتهم اليهودية والصهيونية من جهة أخرى ، فهؤلاء يعدون أنفسهم مسئولين عن يهود أمريكا اللاتينية .

٢ - كان معظم المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية من بلاد كاثوليكية ، جاء ٨٠٪ منهم من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال . ولذا ، لم تكن عملية تكيفهم مع المجتمع واندماجهم فيه عملية صعبة . أما أغلبية المهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية (نحو ٨٠٪) فكانوا من يهود السيليسية من إشكناز شرق أوروبا ، وكان يُطلق عليهم مصطلح «روسوس» أي «الروس» ، وكانت أقليتهم من السفارد «توركوس» ، أي «الأثراك» (وهو المصطلح نفسه الذي كان يُطلق على المسلمين) .

ويجب ملاحظة أن تركز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن جزء من اتجاه عام في الدول النامية يتحد في الهجرة من القرية إلى المدينة ، وإن كان ثمة اختلاف فهو اختلاف في الدرجة ، باعتبار أن أعضاء الجماعات اليهودية عنصر مهاجر تستقر أعداد كبيرة منهم مباشرة في المدن حيث توجد فرص أكثر للحراك الاجتماعي . كما أن أغلبية سكان المدن من البيض ذوي الدخل المرتفع القادرين على القراءة والكتابة . وتُعدُّ المدن أكثر المناطق نمواً في البلاد النامية ، ولذا فإن اتجاه اليهود نحو المدن هو جزء من اتجاه الهجرة اليهودية الحديثة . كما يلاحظ أن اليهود يتركزون داخل كل مدينة في أحياء بعينها ومهن بعينها ، كما أن تركّزهم في المدن هو نفسه نتيجة لتركّزهم في مهن بعينها لا وجود لهم في غيرها ، الأمر الذي يشجع الحديث عن «الخطر اليهودي» وما شابه ذلك من أقوال جزافية هي في الواقع نتيجة الملاحظة المباشرة العابرة التي لم تُخضع بعد للتحليل أو النقد .

وقد يكون من المفيد مقارنة معدل هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى أمريكا اللاتينية وفلسطين قبل وبعد الاحتلال الصهيوني حيث نجد أن عدد المهاجرين إلى فلسطين في الفترة ما بين عامي ١٩٠١ و ١٩٢٠ بلغ ١٥ ألفاً (وذلك بطرح الـ ١٥ ألفاً من جملة النازحين) ، بينما بلغ عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية في الفترة نفسها ١٠٥,٨٦٧ هاجرت غالبيتهم إلى الأرجنتين ، وهو ما بين نجاح الصهيونية التوطينية و فشل الصهيونية الاستيطانية الذريع حينما كانت تعتمد على ما يسمّى «القوى الذاتية» . وبعد وضع فلسطين تحت الانتداب ، لم يتحسن الوضع كثيراً إذ بلغ عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية في الفترة من ١٩٢١ إلى ١٩٣٠ نحو ٢٣٩,١٢٩ اتجه منهم ٤٣٤,٧٣ إلى الأرجنتين . أما فلسطين ، فلم يزد عدد المهاجرين إليها على ٩٤٤,٧٠ ، وهو عدد يقل عن عدد المستوطنين في الأرجنتين وحدها ، وهذا يدل ويشكل أكثر حدة على مدى فشل المنظمة الصهيونية التي تتمتع بالدعم الإمبريالي الكامل في الغرب ، والتي تمتلك جهازاً له فروع في معظم بلاد أوروبا ، كما توجد تحت تصرفها ميزانية ضخمة (وهو ما توفر لمؤسسة هيرش التي قامت بتوطين بعض أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين) . ولكن مسار الهجرة اليهودية ظل يتبع الخط العام للاستيطان الغربي ، أي الهجرة إلى الولايات المتحدة بالدرجة الأولى ، ثم أمريكا اللاتينية . وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة في الفترة من ١٩٢١ إلى ١٩٣٥ حين أغلقت بلاد العالم الغربي أبوابها في وجه المهاجرين اليهود وغيرهم ، فهاجر إلى فلسطين ٥٠٢,١٤٧ مقابل ٥٥,٤٤

أية مؤسسات دينية . ولذا ، انطلقت الحركة القومية فيها من فكرة حقوق الإنسان والأفكار العقلانية العلمانية السائدة في أوروبا في القرن الثاني عشر . والواقع أن تزايد البعد الكاثوليكي في الحركات القومية اللاتينية يعني بالضرورة تزايد رفض اليهود وتمييشهم باعتبارهم عنصراً مهاجراً يحمل تقاليد ثقافية أجنبية .

٥ - وما ساعد على تقاوم المشكلة ارتباط اليهود في الوجدان اللاتيني بالولايات المتحدة واليانكي ، فالمنظمات اليهودية في الولايات المتحدة وضعت الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تحت حمايتها ، تماماً كما كانت تفعل الدول الغربية مع الأقليات في العالم العربي ، الأمر الذي يؤدي إلى توسيع الهوية بين أعضاء الجماعات اليهودية والأغلبية .

٦ - يلاحظ كذلك أن الحركات القومية في أمريكا اللاتينية ، شأنها شأن الحركات القومية في العالم الثالث ، تنحو منحى يسارياً بسبب عدم توافر ظروف التراكم الرأسمالي (من استعمار وغيره) التي توفرت للمعالم الحرفي في مراحل الأولى (حينما كان حراً تماماً في استعمار الكرة الأرضية) . وهجرة أعضاء الجماعات اليهودية ، كما أسلفنا ، لا تنجح إلى البلاد المتقدمة وحسب وإنما إلى البلاد التي يسود فيها اقتصاد حر ، ولذا يتركز اليهود في هذه البلاد . وتجذ أن الحركات القومية واليسارية في أمريكا اللاتينية ، بل وفي الولايات المتحدة ، تأخذ موقفاً معادياً من أعضاء الجماعة اليهودية لارتباطها بالنخبة الحاكمة الرجعية ، كما أن عداة إسرائيل للحركة القومية العربية وموقفها الاستعماري الإرهابي من الفلسطينيين يزيد عداة هذه الحركات للجماعة اليهودية التي ترتبط وجدانياً ، بل وفعالياً في بعض الأحيان ، بإسرائيل والعقيدة الصهيونية . ويلاحظ أن إسرائيل تلعب في الآونة الأخيرة دوراً بارزاً واضحاً في دعم النظم الرجعية والفاشية في أمريكا اللاتينية مثل نظام سوموزا في نيكاراغوا ، وأصبحت إسرائيل مورداً أساسياً للسلاح لكثير من النظم الفاسدة ، كما تقدم الخدمات والحراسة لبعض الشخصيات التي لا تتمتع بسمعة طيبة في الأوساط القومية أو اليسارية . كما أن بعض المرتزقة الإسرائيليين يقومون بتدريب ميليشيات المخدرات في كولومبيا .

٧ - ولكن ، يلاحظ أن التغييرات التي يحدثها استيلاء اليسار والناصر القومية المحلية على الحكم تؤدي ، بغض النظر عن موقف اليسار اللاتيني من الجماعات اليهودية ، إلى طرد اليهود بشكل بنوي وإلى تهميشهم . فأعضاء الجماعات اليهودية يتركزون في المدن في قطاع التجارة والمال والصناعات الاستهلاكية (النسيج أساساً) وهذه

وثقافة الروسوس ، وهي ثقافة ألمانية سلافية ، كانت بعيدة عن الثقافة اللاتينية . كما أن البلاد التي جاءوا منها كانت بلاداً صناعية متقدمة نوعاً ، وثقافة اليهود المهاجرين منها كانت ثقافة حديثة . لكل هذا ، وجد المهاجرون من أعضاء الجماعات اليهودية (وبخاصة من شرق أوروبا) صعوبات إضافية في عملية الاندماج في المجتمع ، فقد كانوا غرباء على ثلاث مستويات : على المستوى الديني باعتبارهم يهوداً في مجتمع كاثوليكي ، وعلى المستوى الثقافي باعتبارهم من شرق أوروبا ووسطها بثقافتهم الألمانية والسلافية شبه الحديثة في تربة لاتينية تقليدية ، وعلى المستوى الاقتصادي والوظيفي باعتبارهم عنصراً تجارياً في مجتمع زراعي . ويجهه هذا على خلاف تجربة المهاجرين غير اليهود الذين جاءت غالبيتهم (٨٠٪) من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال ، وهي بلاد كاثوليكية مستويات التحديث فيها متدنية وكثير من القيم السائدة فيها تقليدية وميراثها الثقافي لاتيني ، ولذا لم تكن عملية تكيفهم مع المجتمع واندماجهم فيه صعبة .

٣ - وما عمق غربة يهود أمريكا اللاتينية أن الانتماء للنخبة الحاكمة يتطلب الانتماء الكاثوليكي وملكية الأراضي والأصل الأرستقراطي ، وهي ثلاثة عناصر لم يكن بإمكان المهاجرين اليهود التمتع بها ، على عكس المهاجرين المسيحيين الكاثوليك الذين يتمكنون بالفعل إلى الكنيسة الكاثوليكية ويمتكنهم شراء الأراضي ، كما أن بعضهم يمكن أن يشتري أصولاً أرستقراطية أو يتزوج من نسل العائلات الأرستقراطية . وكل هذا يعني أن أعضاء الجماعات اليهودية أستبعدوا من النخبة الحاكمة ومن مؤسسات صنع القرار .

٤ - ويجب ملاحظة أن الحركة القومية التي نشأت في أمريكا اللاتينية تنتمي إلى نمط الحركات القومية في العالم الثالث الذي ينسب بالتركيز على الخصوصية المحلية في مجابهة الغزو الاستعماري الثقافي والاقتصادي الغربي ، وخصوصاً الأمريكي . والاهتمام بالخصوصية يتخذ في أمريكا اللاتينية شكلاً حاداً بسبب طبيعة المواجهة مع اليانكي في الشمال . كما أن التجربة التاريخية في أمريكا اللاتينية التي تضرب بجذورها في التجربة الأيبيرية تجعل الكاثوليكية ورموزها بحداً أساسياً في الحركات القومية اللاتينية ، وخصوصاً أن الاستيطان في أمريكا اللاتينية لم يتم في غياب الكنيسة ، فقد تدخلت فيه وحاولت تنظيمه وتقليم أظافر العناصر التجارية الاستيطانية ، كما حاولت حماية العناصر الهندية المحلية والحفاظ على حقوق العبيد الإنسانية . هذا على عكس الاستيطان البروتستانتي الأنجلو ساكسوني في أمريكا الشمالية الذي تم في غياب

الشباب ، وخصوصاً أعضاء الجيل الثالث ، لهم جذور راسخة في مجتمعاتهم تربطهم به . وفي عام ١٩٦٠ ، كان ثلث يهود الأرجنتين من الأجانب ، ولكن نسبة الأجانب بين الأعمار المتقدمة (٦٥ عاماً وما فوقها) كانت ٧٩٪ ، بينما كانت هذه النسبة في الأجيال الجديدة (١٤ سنة فما فوق) نحو ٢٤٪ ، وهو ما يعني أن الأغلبية الساحقة من شباب الأرجنتين الآن من مواليد الأرجنتين نفسها (تصل النسبة حسب إحصاءات ١٩٨٩ إلى ٩٤٪) . ونظراً لاغترابهم عن تراث آبائهم الإثني ، ونظراً لأنهم لا يتبعون لتراث الأغلبية الديني ، فإنهم يعبرون عن ذواتهم من خلال الانتماء إلى الحركات الثورية . والارتباط بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والحركات اليسارية يجلب عليها عداة قطاعات كثيرة في المجتمع . يظهر هذا التناقض في شيلي ، فقد ساهم السناتور اليهودي فولوديا تايتلباوم في صياغة سياسات الليبرالية وبرنامج "الاشتراكية من خلال القانون أو من خلال صندوق الانتخابات" ، فربط بين اليهود واليسارية . ولكن مع انتصار الليبرالية ، ترك كثير من أعضاء الجماعة شيلي ، ولكنهم عادوا إليها مع عودة بينوشيه ، وازدادوا اعتماداً على النخبة الحاكمة ، وهو ما ربط بينهم وبين النظام الفاشي .

٩ - من العناصر الأخرى الطارئة لأعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات اللاتينية تركيزهم في المدن ، وفي مهن وصناعات بعينها ، وهو ما أعطاهم وجوداً ملحوظاً لا يتناسب البتة مع حجمهم الحقيقي . وهذه ظاهرة عامة في البلاد النامية حينما يتركز عنصر أجنبي أو إثني في قطاع اقتصادي واحد بسبب غياب الخبرات المحلية أو بسبب التشكيل التاريخي نفسه . ولكن ، ومهما كان السبب ، فإن هذا الوجود الملحوظ يجعلهم عرضة للهجوم من العناصر اليمينية والقومية التي تطمع في الاستيلاء على هذه المواقع ، ومن العناصر اليسارية المعادية مثل هذه القطاعات بشكل مبدي وبنيوي .

١٠ - من المعروف أن العناصر المهاجرة تبحث دائماً عن مكان تستقر فيه . ولذا ، فهي تنظر إلى الثورات والانقلابات ، التي قد تُحسن وضع الجماهير ، بمنظار سلبي خالص ، وبالتالي فإن مثل هذه الانقلابات التي قد تكون ذات عائد إيجابي للبلد تشكل عنصر طرد بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية .

١١ - ومن عناصر الطرد الأخرى ، الهيمنة الصهيونية على يهود أمريكا اللاتينية . فمعظم المؤسسات والتنظيمات اليهودية قد أصبحت خاضعة للنقوذ الصهيوني ، كما أن حركات الصهيونية ، شادت أم أبت ، أصبحت تؤدي إلى خلخلة وضع الجماعات اليهودية ، ذلك أن الصهيونية تترجم نفسها إلى عدم ولاء للوطن

قطاعات تخضع لعمليات جذرية من إعادة التنظيم بسبب أهميتها الإستراتيجية . فالنظم الحاكمة القومية أو الاشتراكية ، على سبيل المثال ، تحاول وضعها في أيدي قطاعات بشرية محلية تنق فيها . وعلاوة على هذا ، فإن النظم القومية الاشتراكية تنظم مغلفة من منظور أعضاء الجماعات اليهودية ، ولذا لا يمكنهم من خلالها تحقيق ما يصبون إليه من حراك اجتماعي . لكل هذا ، ومع استيلاء العناصر القومية أو اليسارية على الحكم ، يحدث خروج يهودي . ويلاحظ أنه حينما انتُخب الليبرالي في شيلي ، نزع عدد كبير من اليهود من أعضاء الطبقة الوسطى ، ولكنهم عادوا مع استيلاء بينوشيه على الحكم . والوضع نفسه ينطبق على كوبا ، فقد حرص كاسترو ، في بداية حكمه ، على إظهار تسامح غير عادي تجاه أعضاء الجماعات اليهودية ، ووفر لهم (مثلاً) اللحم المذبح شرعياً ، كما كان يوجد عضو يهودي في أول وزارة كورية اشتراكية . ولكن إعادة تنظيم الاقتصاد على أسس اشتراكية أدّى إلى خروج أعضاء الجماعة اليهودية ، رغم أن بعض الرأسماليين اليهود كانوا أعضاء سابقين في البوند أو على الأقل متعاطفين مع الأفكار الاشتراكية ، وقد خرجوا مع أعداد كبيرة من أعضاء الطبقة الوسطى . وبحلول عام ١٩٦٥ ، لم يبق سوى ٢٤٠٠ يهودي معظمهم من المسنين ، ثم تناقص العدد إلى ٧٠٠ عام ١٩٩٢ (ولكن يجب الإشارة إلى أنه ، مع تحول الأبنية المهنية لأعضاء الجماعة وتركُّز أعداد كبيرة منهم في المهن الحرة ، سيزيد احتياج النظم الجديدة إليهم) .

٨ - ومن المفارقات التي تستحق التسجيل (وهذا لمخ وجدناه بين أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في العصر الحديث) أنه رغم ارتباط النخبة اليهودية بالنخبة الحاكمة وارتباط أثرياء اليهود بالمؤسسات الحاكمة وعمالتهم لها ، ورغم هامشية معظم الجماهير اليهودية وعدم مشاركتها في قاعدة الهرم الاقتصادي والعملية السياسية ، فإن ثمة وجوداً ملحوظاً لبعض أعضاء الجماعات اليهودية في الحركات اليسارية . وقد جاء مع المهاجرين أعداد من أعضاء حزب البوند الذين حاولوا تنظيم نقابات العمال . وابتداءً من الستينيات ، لوحظ مرة أخرى أن كثيراً من الشباب اليهودي ينخرط في الحركات السياسية اليسارية والقومية بأعداد متزايدة تفوق نسبتهم القومية ، وهو ما يجعل لهم وجوداً ملحوظاً داخل الحركات اليسارية ويربط بين اليهود وهذه الحركات . ورغم أن القيادات اليهودية تزيد ، كنوع من رد الفعل ، من ارتباطها بالنخبة الحاكمة وبعمالها لها ، فإن هذا لا يجدي فتيلاً إذ إن القيادة اليهودية ذات تراث إثني يديشي يعزلها في العادة عن المجتمع . وفي الوقت نفسه ، نجد أن

صورة الجنود الإسرائيليين (الحرس الخاص برئيس الدولة الصهيونية) وهم يقومون بضرب بعض النساء اليهوديات اللاتي كن يحاولن أن يوسطنه للإفراج عن أبنائهن . ويتعكس التوتر بين أعضاء الجماعة والدولة الصهيونية في انصرافهم عن انتخابات المنظمة الصهيونية (وإن كانت هذه ظاهرة غير مقصورة على الأرجنتين) ، كما ظهرت جمعية اسمها بريرا تحاول أن تتبنى خطاً يتخلص من الصهيونية . ولكن ، مهما كانت درجة الالتفاف أو التملص أو حتى الرفض ، فإن الصهيونية تُخلخل وضع الجماعة وتزيد هامشيتها .

وإلى جانب عناصر الطرد السابقة ، هناك عناصر أخرى تساهم في عملية موت الشعب اليهودي في أمريكا اللاتينية ، ولكنها عناصر عامة وليست مقصورة على اليهود وحدهم ، من بينها تَوَقُّف الهجرة من الخارج ، فهذه البلاد لم تُعدّ ترحب كثيراً بالمهاجرين . كما أن المصدر الحقيقي الوحيد للمهاجرين اليهود في العالم هو الاتحاد السوفيتي . وليس من المتوقع أن يتوجه أي من هؤلاء إلى أمريكا اللاتينية بحكم تكوينهم الثقافي وطموحهم الطبقي وبحكم قوانين الهجرة في أمريكا اللاتينية . كما أن نسبة المواليد منخفضة بين الجماعات اليهودية (طفلاً لكل أسرة) بسبب تركسهم في المدن وارتفاع المستوى الاقتصادي . وبالتالي ، نجد أن فئات العمر العالية أخذت في التزايد ، وخصوصاً أن أعداداً متزايدة من الشباب إما أن تهاجر أو تسقط انتماءها اليهودي . ومن هنا نجد أن معدل الوفيات أخذ في الارتفاع .

لقد تحدثنا عن هامشية أعضاء الجماعات اليهودية بالنسبة إلى المجتمع الأمريكي اللاتيني (وكانت الهامشية في المجتمعات التقليدية تؤدي إلى الانغلاق الجيتوسي على التراث وإلى تكلس الهوية) . ولكن في إطار مجتمعات أمريكا اللاتينية ، اختلف الوضع تماماً ، فهذه التجمعات لم ترفض الزواج المختلط . ولهذا ، ورغم أن المجتمع فشل في دمج اليهود عن طريق إعتاقهم ، فإننا نجد أنه صهرهم عن طريق الزواج المختلط أخذ في التزايد وقد وصل إلى ٣٠٪ في الستينيات ، ويتوقع أن لن يزيد مع تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات اللاتينية . كما أن كثيراً من الزيجات اليهودية تُعقد بطريقة الزواج المدني ، وهو ما يدل على عزم العروسين على نبذ الانتماء اليهودي . ويُلاحظ أن ثمة هوة بين الأجيال تزيد من انصراف الشباب عن المؤسسات اليهودية ، وخصوصاً التربوية ، وعن الهوية اليهودية . ومن هنا نجد أن هذا بدوره يساهم في عملية الصهر . وعلى كل ، تتسم أمريكا اللاتينية بمقدرتها الفائقة على صهر الجماعات المختلفة من المهاجرين ، وعلى هضمهم وصيغهم بالصيغة

الأم . وهذا يتجلى في يهود الأرجنتين الذين يركزون جزءاً كبيراً من طاقمهم على ما يدور في إسرائيل وهو ما يعني انصرافهم عن شئون الأرجنتين . ويزيد هذا بدوره غربة الشباب اليهودي عن قيادته اليهودية . وتدار الانتخابات في فروع المنظمة الصهيونية بناء على التقسيم الحزبي في إسرائيل وكان انتماء هؤلاء اليهود لإسرائيل لا لأوطانهم التي يعيشون فيها . ويشير يهود الأرجنتين إلى السفير الإسرائيلي باعتباره «الوكيل» ، وهي الكلمة التي كانت تستخدم في الماضي للإشارة إلى الحاكم الإسباني للأرجنتين .

وقد هاجر ٤٨,٧٧٠ يهودياً من أمريكا اللاتينية إلى إسرائيل (معظمهم من الأرجنتين) هاجر نصفهم (١٣٦, ٢٤) بعد حرب ١٩٦٧ ، وهو عدد صغير للغاية إذا أخذنا في الاعتبار أن أمريكا اللاتينية منطقتا طرد ونزوح . ولا تذكر المصادر نسبة التزوج عن إسرائيل بين يهود أمريكا اللاتينية ، ولكن يبدو أنها عالية إذ أن عدد يهود إسرائيل ذوي الأصول الأمريكية اللاتينية لا يتجاوز ثمانية آلاف أسرة . ورغم صغر حجم الهجرة الصهيونية ، فإن هذه الهجرة تساهم في إخلاء الجماعة اليهودية من العناصر القيادية النشطة سياسياً وتنظيماً ومن العناصر المهتمة بهويتها اليهودية ، وهذا ما يعني إفقار الجماعة اليهودية وإضعافها والقضاء على فرصة ظهور قيادة في صفوفها . وعند انتخاب منعم رئيساً لجمهورية الأرجنتين ، بدلاً من ألفونسين ، توقعت المؤسسة الحاكمة في الدولة الصهيونية أن بضعة آلاف من أعضاء الجماعة اليهودية سيهاجرون إليها . ولكن الذي حدث أنه هاجرت بضعة مئات لم يسعدها الوضع كثيراً فعدادت أدرجها أو هاجرت إلى الولايات المتحدة ، نقطة الجذب الأساسية ليهود العالم . ويُلاحظ أن الهجرة ، في الماضي ، كانت مقصورة على الفقراء وأعضاء الطبقة الوسطى الصغيرة ، ولكن هذا النمط تغير مؤخراً إذ أن عناصر الطرد في أمريكا اللاتينية تزايدت إلى درجة جعلت كل العناصر الثرية (التي تشكل النخبة القائلة) تبدأ هي الأخرى في الهجرة .

والواقع أن الجماعات اليهودية ليست ملتفة التفافاً كاملاً حول الصهيونية ومثلها ، فتمت توترات عميقة بين الجماعة اليهودية والدولة الصهيونية لعل من أهمها دعم الدولة الصهيونية لنظم فاشية شمولية تقمع كل الجماعات الراضية وكذلك أعضاء الأقليات وضمن ذلك اليهود . وقد قامت الدولة الصهيونية ببيع السلاح للنظام العسكري في الأرجنتين ، كما قام شامير ونافون بزيارة الأرجنتين في وقت كان معروفاً فيه أن الحكومة قامت باعتقال أعداد كبيرة من الشباب اليهودي بسبب انتمائهم السياسي والديني . وقد نُشرت

ويهود إنجلترا من هؤلاء جميعاً . ولكن بناءً على معلوماتنا عن أمريكا اللاتينية ، فإنهم يحتفظون بكل تأكيد بهويتهم الفرنسية والإنجليزية على التوالي ، وإن كان من المحتمل أيضاً أنهم قد انضموا إلى إحدى المجموعات السالفة الذكر باعتبار أن معظمهم من أصل شرق أوروبي (يديشي) . وفي مقابل كل هؤلاء الإشكناز ، هناك السفارد الذين يتحدثون اللادينو ، وهؤلاء يعتبرون أنفسهم أرستقراطية حقة ، فتقافتهم إسبانية وجذورهم أيبيرية ، ولذا فإنهم يعزلون أنفسهم عن الإشكناز وعن يهود البلاد العربية الذين يتحدثون العربية ، ويتسمون بدورهم إلى يهود حلب ويهود دمشق ، كما توجد مجموعة جاءت من المغرب . وكل هذه المجموعات تنقسم إلى أقسام مختلفة ، فمنهم المتدين ومنهم الملحد ومنهم من تخفّف من عقيدته دون أن يدير لها ظهره تماماً . وقد بدأت تظهر في صفوفهم اليهودية المحافظة واليهودية الإصلاحية .

ويتنقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات إثنية مختلفة لا يربطها رابط . ويتبدى عدم التجانس بين الجماعات والهويات اليهودية بشكل مثير وجلي في أمريكا اللاتينية ، فإدراكهم لأنفسهم ليس موحداً ، وسلوكهم تجاه أنفسهم وتجاه اليهود الآخرين وتجاه الأغلبية تحدده خلفيتهم الإثنية . ولكن ، من المقارقات أننا نجد أن مجتمع الأغلبية مازال يسميهم «اليهود» ، وهي تسمية تفتقر الوحدة حيث لا توجد وحدة .

وتظل ظاهرة التركيب الجيولوجي لهويات الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية قائمة ، بينما نجد أن الهويات اليهودية المختلفة قد اختفت في الولايات المتحدة وذابت وظهرت هوية جديدة واحدة . ذلك أن أمريكا اللاتينية لم تظهر فيها (كما حدث في الولايات المتحدة) مثل عليا علمانية قومية مركزية مفتوحة تمنح المرء الشرعية بمقدار تحقيقه النجاح (المادي) في الحياة ، أي من خلال مراعاة الثروة أو أية إنجازات مادية أخرى . ويستطيع المهاجر أن يتخلى عن هويته الإثنية أو القومية الأصلية ويكتسب هوية جديدة من خلال البوتقة التي ينصهر فيها الجميع معاً بحيث يتحوّلون جميعاً إلى مادة بشرية أمريكية .

وحين ظهرت استحالة تحقيق هذه الفكرة العضوية المتطرفة بسبب ظهور أقبليات كثيرة غير بيضاء وغير بروتستانتية ، اتسع نطاق الفكرة قليلاً في الستينيات فسمحت بشيء من التنوع داخل الوحدة بحيث أصبح بإمكان الأمريكي أن يحتفظ ببعض عناصر من تراثه القومي الأصلي يؤكد من خلالها هويته ، شرطه ألا تتناقض إثنينه هذه مع ولائه الأمريكي الكامل ، فأصبح المواطن الأمريكي أمريكياً

اللاتينية . ومن المعروف أن يهود شيلي ، الذين هاجروا في أواخر القرن التاسع عشر ، اختفوا تماماً . ويقال إنه قد هاجر ١٥٠ ألف يهودي إلى البرازيل بين عامي ١٨٨٥ و ١٩٣٥ ، ولم يتزوج منهم سوى ٧٥٪ . ومع هذا فإن عدد اليهود بلغ نحو ٤٠ ألفاً فقط عام ١٩٣٥ .

ولكل هذا ، فمن المتوقع أن يختفي يهود أمريكا اللاتينية مع بداية القرن القادم .

### هويات أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية

Identities of the Members of the Jewish Communities in Latin America

من القضايا المهمة ، التي تثيرها دراسة أوضاع الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ، قضية الهوية . ونحن نذهب إلى أنه لا توجد هوية يهودية عالية وواحدة وإنما توجد هويات يهودية مختلفة غير متجانسة ، كما أن كل هوية يهودية تختلف إلى حد ما عن المحيط الثقافي المحيط بها (ومصدر الاختلاف عادة ما يكون عناصر إثنية حملها معهم المهاجرون من أعضاء الجماعة اليهودية من مجتمعهم القديم) . ولكن اختلاف الهويات اليهودية ، كل مع محيطها الثقافي ، لا يعني اتفانها الواحدة مع الأخرى ، فكل هوية يهودية رغم اختلافها عن محيطها الثقافي تكتسب معظم سماتها منه وتتحدد من خلاله . وقد شبهنا هذا الوضع بالتركيب الجيولوجي الذي يحوي طبقات جيولوجية متراكمة أو متجاورة ، ولكنها لا تتفاعل الواحدة مع الأخرى .

وتتبدى خاصية التركيب الجيولوجي التراكمي في الجماعات اليهودية التي هاجرت إلى أمريكا اللاتينية ، فهناك اليهود الإشكناز من شرق أوروبا (يهود اليديشية) ، وهناك يهود بوزنان (في سفليدور وجواتيمالا) ، وهناك يهود بيسارنيا والمجر في نيكارجوا ، وهناك يهود بولندا في كوستاريكا وغيرها من البلاد ، وهناك كذلك اليهود الروس واليهود الليتوانيون والجاليشيون . والعلاقات بين الجماعات السابقة لا تنسم بالمودة ، فالليتوانيون والجاليشيون في حالة صراع دائم مع بعضهم البعض . أما اليهود الروس الذين يظنون أنهم يتحدثون اليديشية بطريقة أفضل ، فهم يتعالون على الفريقين السابقين . وهناك ، كذلك ، اليهود الألمان الذين لا يعتبرهم يهود شرق أوروبا يهوداً على الإطلاق ، فهم مازالوا يكون احتقارهم الألماني التقليدي للسلاف والذي يتبدى في شكل احتقار يهود شرق أوروبا (إيست يودين) . ولا تعرف الكثير عن موقف يهود فرنسا



الرأسماليين) . كما توجد داخل كل جماعة إثنية عشرات الجماعات . وحتى عندما ظهرت تنظيمات لادينية تستند إلى الإثنية اليهودية ، فإنها لم تنجح في ضم كل اليهود . ففي بلد مثل المكسيك ، على سبيل المثال ، يوجد ثلاثة وستون تنظيمًا تتبع لجنة مركزية واحدة ، منها عشرة تنظيمات دينية وتسعة اجتماعية وثمانية ثقافية وعشرة للرعاية الاجتماعية وعشرة صهيونية وعشرة للشباب وستة لمهام مختلفة .

وتوجد مؤسسات لإدارة شؤون الجماعات اليهودية يعلّق عليها اصطلاح «قهاال» وقد أصبحت هذه المؤسسات ساحة قتال بين أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة (وبخاصة بين الإشكناز والسفارد) . ومن أهم نشاطات القهاال الإشراف على أمور مثل الزواج والطعام والدفن . وقد أصبح الدفن بالذات من أهم نشاطات القهاال ، وأصبحت رسوم الدفن ، التي يجأر أعضاء الجماعات اليهودية بالشكوى منها ، من أهم مصادر تمويل القهاال (والواقع أن سيطرة القهاال على المدافن تشبه سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الخلاص ، فلا خلاص خارج الكنيسة ، ولا دفن خارج القهاال) . وتسيطر الحاخامية الأرثوذكسية على القهاال وتأخذ موقفاً متشدداً من كثير من القضايا ، الأمر الذي يعني استبعاد أعداد كبيرة من اليهود الذين تمت علمنتهم . ويتبع القهاال عدد من الموظفين والحاخامات الذين لا يتمتعون بأية مكانة اجتماعية ، فمكانة الحاخام في أمريكا اللاتينية أقل من مكانة الحاخام في الولايات المتحدة (مع أن هذا الأخير قد قُدد كثيراً من أهميته) .

والقيادات السياسية اليهودية منعزلة عن الشباب . وحينما اجتاحت الموجة اليسارية شباب أمريكا اللاتينية ، وضمنهم الشباب اليهودي ، وجد هؤلاء أن قيادتهم اليهودية التقليدية لا علاقة لها بهم ولا يمكنها أن تعمق هويتهم ، كما لا يمكنها أن تتحدث بلغتهم . ولا توجد قيادة يهودية شابة إلا أن ذلك كثيراً من العناصر الشابة تنزع إما إلى أمريكا الشمالية بأعداد كبيرة أو إلى إسرائيل . ومن الواضح أن الشباب منصرفون عن المؤسسات اليهودية ، ففي انتخابات عام ١٩٦٩ لم يشارك سوى ثلث اليهود ، وكان معظمهم من كبار السن . ولا شك في أن نسبة المشاركين في هذه الأيام قد قلت عن ذي قبل .

وقد ارتبطت القيادات اليهودية في أمريكا اللاتينية بالمنظمات اليهودية الأمريكية وتحاول التأثير على الحكومات التي تتبعها من خلال هذه المنظمات . وهو تدخل قد يأتي بنتيجة إيجابية مباشرة ولكنه يأتي بأثر عكسي على المدى الطويل ، إذ يُقوي الإدراك المحلي لأن يهود أمريكا اللاتينية يربطهم رباط خاص بالولايات المتحدة ،

بشرطه (بالإنجليزية : هايفينيتيد أمريكان Hyphenated American) ، فهو عربي/أمريكي أو بولندي/أمريكي أو يهودي/أمريكي ، ثم تحوّل الجميع بمرور الوقت إلى أمريكي/عربي أو أمريكي/بولندي أو أمريكي/يهودي ، أي أن الجميع كان يتم صهرهم مع السماح لهم بالحفاظ على قشرة إثنية سطحية تساعد في واقع الأمر على مزيد من الاندماج وتخفيف الانصهار الفعلي . والفكرة القومية الأمريكية ، سواء في صورتها الأولى أو في صورتها الثانية ، تشجع المهاجر على الاندماج . وقد ساعد ذلك على تذويب الفروق بين أعضاء الجماعات اليهودية بحيث حققوا الوحدة بينهم من خلال المجتمع الأمريكي وبسببه لا رغباً عنه .

أما الفكرة القومية في أمريكا اللاتينية ، فلم تكن قط فكرة اندماجية على النمط الأمريكي . كما أن المثل الأعلى لم يكن قط علمانياً مطرفاً تستند الشرعية فيه إلى التجاح في الحياة وإلى مراكمة الثروات . بل إننا نجد أن ثمة عناصر أرستقراطية دخلت عليه ، وأن الكاثوليكية كانت عنصراً أساسياً في تكوين الشخصية اللاتينية على مستوى الممارسة وعلى مستوى الصورة المثالية ، وكان لهذا الوضع نتيجتان متناقضتان ولكنهما متلازمان :

١ - تحوّل المجتمع اللاتينية إلى مجتمعات مغلقة بالنسبة لليهود ، وخصوصاً الإشكناز من ذوي الثقافة الغربية والألمانية ، وبالتالي أصبح الانتماء الكامل مستحيلاً .

٢ - وكمادة أعضاء الجماعات اليهودية والأقليات كافة ، فإنهم يختلفون عن مجتمعهم في بعض النواحي ويتشبهون به في كثير من النواحي الأخرى . ولذا ، فكما أن الكاثوليكية هي مصدر الهوية لشعوب أمريكا اللاتينية ، فإن اليهودية أصبحت مصدر الهوية بالنسبة إلى يهود هذه البلاد . وحيث إن اليهودية ليست كلاً متجانساً ، فهي تركيب جيولوجي تراكمي ، وحيث إن معظم أعضاء هذه الجماعات لم يكن لديهم انتماء ديني يهودي قوي ، فقد عاد كل منهم إلى تراثه الإثني اليهودي ، وهو متنوع بعهد للمجتمعات التي أتوا منها فأصبحت يهوديتهم مصدر فرقة وتفرع لا مصدر وحدة وتجانس ، الأمر الذي أضعف هويتهم بشكل كبير .

وقد ساهمت عناصر أخرى في إضعاف هذه الهوية ، من بينها أن تنوع اليهود وافتقارهم وعدم تجانسهم انعكست في التنظيمات التي تصهمم وفي مؤسساتهم اليهودية ، فلا يوجد تنظيم واحد يضمهم جميعاً ، وهناك تنظيمات تقوم على أسس دينية (محافظة وإصلاحية مقابل الأرثوذكس) ، أو على أسس إثنية (إشكناز مقابل سفارد) ، أو على أسس سياسية أو طبقية (البوند والشيوعيون وغيرهم مقابل

السوفيتي بأنه قضى على اليديشية وعلى المدارس اليهودية . فالواقع أن معدلات العلمنة والتصنيع وإتاحة فرص الحراك الاجتماعي أمام اليهود هي التي أدت إلى القضاء على اليديشية وعلى المدارس اليهودية ، فمع تزايد الفرص المتاحة أمام أعضاء الجماعة اليهودية أصبح من صالح الأسر اليهودية أن تلحق أولادها بالمدارس الحكومية كي يتعلموا الخبرات اللازمة للاستفادة تماماً من الفرص المتاحة ، كما حدث في الأرجنتين وشيلي والبرازيل ، وهي البلاد التي تضم الأغلبية العظمى من يهود أمريكا اللاتينية .

وكان يمكن للانتماء الديني اليهودي أن يقوي الهوية اليهودية ، ولكن جماعات المهاجرين اليهودية كانت ، كما أسلفنا ، قد فقدت انتماءها الديني . ولذا ، فإنها حولت الرموز الدينية إلى رموز إثنية ، وأصبحت العبادة شكلاً من أشكال التضامن الإثني . وجمعيات الدفن التي تُعد أهم المؤسسات اليهودية ، بل المعابد اليهودية نفسها ، ليست لها علاقة كبيرة بالدين أو بمعدلات الإيمان إذ يتم تأسيسها لأسباب إثنية . ومن هنا نجد أن كل جماعة يهودية لها معيبتها ، فالمعبد في أمريكا اللاتينية الكاثوليكية هو المعادل البيوي لمراكز أو نوادي الجماعة في الولايات المتحدة . وبالتالي ، لا يعتبر عدد المعابد اليهودية مؤشراً على الانتماء الديني إذ أن وجود المعابد لا يعني وجود العابدين . وعلى سبيل المثال ، يوجد في ستياجو عدة معابد يهودية لا يستكمل أي منها النصاب (النبيان) المطلوب لإقامة الصلاة اليهودية وهو عشرة أشخاص . وفي يونس أيرس ، يوجد خمسون معبداً يهودياً ولا يوجد حاخامات إلا في أقل من نصفها فقط . وفي عام ١٩٧٠ ، لم يكن يوجد في أمريكا اللاتينية سوى خمسة وأربعين حاخاماً كلهم من أوربا . ولم تكن توجد مدارس لاهوتية لتخريج الحاخامات . وقد أسست أخيراً مدرسة شبه لاهوتية تُدرّس فيها بعض المقررات الدينية . ولكن ، لكي يُرسم الخريج حاخاماً ، فلا بد أن يدخل مدرسة لاهوتية في نيويورك أو القدس . والمدرسة اللاهوتية أتفة الذكر تابعة لليهودية المحافظة الآخذة في الانتشار في أمريكا اللاتينية .

وَمَا يساهم في إضعاف الانتماء الديني أن الحاخامات الأرثوذكس هم المسيطرون على المؤسسات الدينية ، وهم يرفضون إدخال أية تجديدات ويرفضون عقد أي زواج مُختلط رغم تزايد عدد الزيجات المختلطة . وبطبيعة الحال ، يتزايد الانصراف عن الدين في صفوف الشباب ، فقد أعلن ٥٥٪ من الطلبة اليهود الجامعيين في الأرجنتين أنهم لا يؤمنون بالإله (ملحدون ولأدريون) . ولا يحضر الصلاة سوى ٤٪ من الشباب . وتوجد نسبة كبيرة من الشباب

الأمر الذي يزيد هامشية أعضاء الجماعات اليهودية ويزيد انصراف الشباب اليهودي عنها .

ويتعكس الوضع نفسه على تعليم أعضاء الجماعات اليهودية ، فأمرىكا اللاتينية ، على عكس الولايات المتحدة ، لا يوجد فيها نظام تعليمي علماني إجباري مجاني قوي ، وإن وُجدت مدارس حكومية فهي ذات توجه كاثوليكي قوي ، وتوجد مدارس كثيرة تنسج الكنيسة . وقد انعكس هذا الوضع على نظام تعليم اليهود إذ أنشأت الجماعات اليهودية مدارس يهودية ، فأنشأت السفارد مدارس تكبيلية بحيث يستطيع الطالب اليهودي الانخراط في المدرسة الحكومية الأرجنتينية ثم يدرس المواد اليهودية في المدرسة اليهودية . وحينما يصل إلى مرحلة الجامعة فإنه يدخل الجامعة مع غيره من الشباب . أما الإشتكاز ، فأسسوا مدارس لتعليم المناهج الدراسية الأرجنتينية والإسبانية واليديشية والعبرية . وقد هاجمتهم العناصر القومية باعتبار أن مثل هذه المدارس لن تعمق ولاء اليهود وانتمائهم لوطنهم . ولكن المدارس اليهودية ، مع هذا ، لم يمكنها أن تصح مصدرًا من مصادر الهوية اليهودية . وقد أدى تزايد معدلات العلمنة في الأرجنتين وشيلي والبرازيل إلى اختفائها ، فمثل هذه المدارس تملأ فجوة زمنية بين وصول المهاجرين بميراثهم اللغوي والثقافي وبين الاندماج الكلي لأحفادهم من أبناء الجيل الثالث أو الرابع . كما أن مثل هذه المؤسسات تساعد المهاجرين على استيعاب الصدمة الحضارية ، وهي تشبه في هذا اليديشية ، لغة الشارع اليهودي ، التي استمرت في الولايات المتحدة حتى الأربعينيات ، وفي أمريكا اللاتينية حتى الخمسينيات ، واختفت تماماً بعد ذلك .

ويُلاحظ أن أحداً لا يُقبل على تعلّم العبرية . ولا تختلف أمريكا اللاتينية في هذا عن الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة . وقد بدأت البرتغالية والإسبانية تحلان محل أية لغات أخرى جاء بها أعضاء الجماعة اليهودية . كما يُلاحظ أن المدارس اليهودية لا تزدهر إلا في البلاد التي لا تتمتع بمعدلات علمنة عالية والتي تسود فيها المثل الكاثوليكية كما هو الحال في بيرو ، أي أن انتشار المدارس اليهودية ليس مؤشراً على مدى تقبل المجتمع لليهود وتسامحه معهم أو مدى نفوذهم وسطوتهم وإنما هو مؤشر على عدم تقبلهم وعزلتهم . وبهذا المعنى ، يمكن القول بأن الكنيسة الكاثوليكية أكبر مصادر الهوية اليهودية ، وهذه مفارقة كبرى ، فما يحدد مدى نجاح أو فشل المدارس اليهودية حركات المجتمع وليس حجم الميزانيات المخصصة كما تتصور المنظمات اليهودية في أمريكا اللاتينية . ولعل هذا يجعلنا نعيد النظر في الاتهام الذي كان يوجه إلى الاتحاد

وولاًحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية لا يوجدون ، كما أسلفنا ، بين الفلاحين برائهم الكاثوليكى ، ولا بين العمال الذين تنتظمهم إما جماعات اشتراكية أو نقابات عمال كاثوليكية ، وإنما يوجدون في المدن الكبيرة بين أعضاء الطبقة الوسطى التي تزداد بينها معدلات العلمنة ، وبالتالي يزايد الزواج المختلط الذي وصل إلى ٥٠% في المدن الكبرى . ولكن حيث إن حجم الجماعات اليهودية في المناطق الريفية صغير ، نجد أن نسبة الزواج المختلط تزيد عن مثيلتها في المدن الكبرى . وتوجد أعداد متزايدة من أعضاء الطبقات الوسطى يعارضون المؤسسة الدينية ويؤسسون جماعات معادية للكنيسة والكهنة . وينخرط أعضاء الجماعات اليهودية في مثل هذه الجماعات ، وخصوصاً في المحافل الماسونية التي تُعد من أهم مواضع التقاء أعضاء الجماعات اليهودية بأعضاء الطبقة الوسطى اللاتينية التي تعلمت .

وفيما يتصل بالمنظمات اليهودية في أمريكا اللاتينية ، فيوجد فرع للمؤتمر اليهودي العالمي على مستوى القارة مقره بيونس آيرس ، وأهم الهيئات في الأرجنتين هي ديليجاسيون ديس أسوسياتيس إسرائيلىتاس أرجنتيناس . (الهيئة التمثيلية للمنظمات اليهودية الأرجنتينية) Delegacion des Asociaciones Israelitas Argentinas ، واختصارها دايا داتا ، وهي التي تتحدث باسم الجماعة أمام الحكومة وتمثل يهود الأرجنتين في المؤتمر اليهودي العالمي والقهاال الإشبكنازي . كما توجد عدة منظمات سفاردية أهمها : جمعية يهود السفارد في بيونس آيرس . أما أهم المنظمات في البرازيل فهي كونفدراسياو إسرائيلىتاس دو برازيل (الاتحاد الإسرائيلى للبرازيل Confederaçao Israelita do Brasil) ، واختصارها CIB ومقرها ساو باولو . وهي المنظمة المركزية التي تضم جميع الاتحادات اليهودية المحلية في البرازيل ، وهي التي تمثل يهود البرازيل في المؤتمر اليهودي العالمي . وتنشط المنظمة الصهيونية في صفوف المنظمات والاتحادات اليهودية .

#### وظائف أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية

Occupations of the Members of the Jewish Communities in Latin America

لا يمكن فهم الوضع الطبقي لأعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ، وتوزعهم الوظيفي والمهني والحرفي ، إلا من خلال رؤيتهم باعتبارهم أقلية مهاجرة . وقد وصل اليهود إلى أمريكا اللاتينية بعد عدة قرون من تأسيس هذا المجتمع ، وبعد أن اكتمل كثير

اليهودي الذي لا يعرف كيف يؤدي الشعائر اليهودية ومن بينها شعيرة الصلاة . ويمكن القول بأن الموقف السائد هو موقف عدم الاكترات من الدين وهو على أية حال النمط السائد في المجتمعات العلمانية .

ويبدو أن معدلات العلمنة قد ارتفعت بشكل مذهل . فقد قال أحد الباحثات إن يهود أمريكا اللاتينية يكرسون أنفسهم للمذاهب الدنيوية بطريقة متطرفة ، بحيث يبدو سكان تل أبيب (المشهورون بالانفتاح المتطرف) كما لو كانوا من الرهبان مقارنة بهم . وقال الباحث مازحاً : لقد دخلت النساء عصر ما بعد البكتيني (على غرار ما بعد الأيديولوجيا وما بعد الحدأة) إذ يلبسن مايوهات صغيرة جداً تُسمى «دنتال فلوس dental floss» ، وهو الحيط الرفيع الذي يستخدم لتنظيف ما بين الأسنان .

وقد بدأت مؤسسة جديدة تحمل محل جمعيات الدفن والقهاال أو المعبد ، وهي النادي الرياضي ، والنادي مؤسسة معروفة في معظم أنحاء أمريكا اللاتينية تؤسسها الجماعات المهاجرة ، وهذه النوادي لا تشغل بالدين أو السياسة ولا تحاول تغذية الإثنيات اليهودية المختلفة ، وهي مؤسسات ضخمة كل منها عبارة عن نادي كبير فيه حمامات سباحة وقاعات ديسكو ومطاعم تقدم الطعام المباح وغير المباح شرعاً .

وقد رصدنا حتى الآن عنصرين أحدهما انغلاق المجتمعات الكاثوليكية ، وهو عنصر كان من المفروض أن يؤدي إلى إثراء الهوية اليهودية ولكنه أدى في واقع الأمر إلى تفتتها إلى هويات إثنية مختلفة . أما العنصر الثاني ، فهو ضعف الهوية اليهودية الذي أدت إليه عناصر كثيرة مثل تزايد معدلات العلمنة وتساقط النظام التعليمي . ويمكننا الآن أن نشير إلى عنصرين آخرين ساهما في هذه العملية : العنصر الأول هو التواء الحضاري لأمريكا اللاتينية ، فلتراثها امتداد تاريخي يتعكس في الموسيقى واللغة والأدب والرموز الحضارية . ويقوم الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية بمقارنة ذلك كله بميراثهم الحضاري الإشبكنازي أو السفاردي فيكتشفون مدى ضآلته ، كما أنهم ينظرون إلى الصهيونية باعتبارها إطاراً للتعامل مع الواقع يزودهم بالمعنى ، فيجدون أنها لا تجيب على أي من أسئلتهم . ولذا ، فهم يكتسبون الهوية اللاتينية بأعداد متزايدة . كما أن حضارة أمريكا اللاتينية قد تكون رموزها الكاثوليكية مغلقة إلا أنها لم تعارض قط الزواج المختلط . ولذا ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية إن كانوا لا يندمجون ، فإنهم ينصهرون من خلال هذا الطريق ، وتقوم أمريكا اللاتينية بهضمهم بكفاءة شديدة .

إلا في البضائع المستوردة الفاخرة مرتفعة الثمن وهو ما جعلها مقصورة على الأغنياء بعيدة عن متناول الفقراء . كما لم يكن التاجر الأرجنتيني يقدم أية تسهيلات لزيائته إذ كان عليهم أن يدفعوا الثمن نقداً .

وداخل هذا الإطار ، لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً ريادياً مهماً ، فهم ككل الجماعات المهاجرة يتسمون عادةً بعدة سمات من بينها تحريمهم النسبي من التقاليد والقيم ، أية تقاليد وأية قيم . وهم لا يدينون بالولاء للقيم الأخلاقية أو الدينية للمجتمع . ولذا ، فهم يشكلون عنصرأ ريادياً ، كما أنهم يأتون بخبرات تجارية ومالية ليست متوافرة في المجتمع المضيف بفضل ميراثهم الاقتصادي . ففي بلادهم الأصلية ، أساساً روسيا ، كانوا يعملون باعة جائلين يتاجرون في السلع الرخيصة ويحملون من المخاطر ما لا يتحملة التاجر المحلي المستقر ، ويصلون إلى الأماكن التي لا تصل إليها ذراع المؤسسات الاقتصادية الحديثة . وقد جاءوا دون أي رأسمال أو جاءوا برأسمال صغير لا يُذكر ، ولكنهم كانوا يملكون مجموعة من المهارات غير المتوافرة في المجتمع ، ولهذا اتجهوا نحو البحث عن مجالات جديدة في الصناعة والتجارة لا تحتاج إلى رأسمال كبير بقدر ما تحتاج إلى مهارات خاصة . وقد كان من بين المهاجرين عمال في صناعة الملابس ومجارون وصناع أثاث وجواهرجية وصناع ساعات وعمال بناء وصناع أحذية وقبعات وخيابزون . فتركزوا في إنتاج هذه السلع ، وارتادوا كل الأسواق ، ووصلوا إلى قطاع محدودودي الدخل ، وخصوصاً أنهم كانوا على استعداد للبيع بالتقسيط . وقد كان كثير من التجار المتجولين حرفيين في بلادهم ، فكانت العملية الاقتصادية تبدأ بصناعة السلع في المنزل داخل إطار الاقتصاد المنزلي والصناعة المنزلية حيث يقوم أعضاء الأسرة بعملية التصنيع بأنفسهم . وقد أسهم التاجر اليهودي المنجول في زيادة الإقبال على السلع الاستهلاكية والترفيهية ، فوسّع نطاق السوق وحجم الطلب ، وهو ما ساهم في تشييط اقتصاديات المنطقه التي يرتادها . وكان هذا واضحاً في الأرجنتين على سبيل المثال . ولكن ، بطبيعة الحال ، زاد هذا النشاط أيضاً حسد الوسطاء الآخرين الذين ألفوا الطرق التقليدية في التسويق . وقد كان هناك بعض أعضاء الجماعات اليهودية عن لا كفاءات لهم ، أو ممن لهم كفاءات لا يستطيع المجتمع استخدامها مثل طلبة الجامعات الروسية الثوريين الذين نفاهم النظام القيصري أو موظفي الحكومة الذين كانوا يعملون في وظائف السكرتارية ولكنهم لا يجيدون اللغة الإسبانية أو البرتغالية . كل هؤلاء استوعبتهم الوظائف الهامشية في المدينة ، أو انخرطوا في صفوف الطبقة العاملة (اليهودية) حيث كانوا

من ملامحه الاقتصادية والثقافية . وقد نتج عن ذلك عدة أشياء من بينها أن أعضاء الجماعة اليهودية ، عند وصولهم ، وجدوا أن المهن الإنتاجية الأولية (الزراعة والتعدين) تم شغلها من قِبَل المستوطنين الأوائل . وحتى إن وُجدت فيها فرص فهي عادةً ، بسبب الميراث الحضاري ، لا يفتنهما إلا السكان المحليون . ولذا ، نجد أن اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في الزراعة أقل بكثير من النسبة على المستوى القومي ، وضمن ذلك الأرجنتين التي تضم أكبر مشروع للاستيطان الزراعي خارج إسرائيل .

واتجه أعضاء الجماعات اليهودية المهاجرون ، بطبيعة الحال ، إلى القطاعات غير المتطورة في الاقتصاد وإلى أعمال الوساطة التي تقوم بها الجماعات الإثنية الغربية والمهاجرة . وقد كان القطاعان التجاري والصناعي مهمكين في مجتمعات أمريكا اللاتينية بسبب سيطرة القيم التقليدية (الكاثوليكية) مثل الاحتقار التقليدي للتجارة والصناعة حيث ترتبط الأرستقراطية بفكرة الحسب والنسب وملكية الأرض . ومثل هذه المجتمعات ترفض القيم العقلانية والنفعية (البروتستانتية) ، مثل حب الإنجاز والتوجه نحوه والتلهف على مراكمة الثروة ، وتفصل البحث عن السعادة والتوازن وتركز على حياة التأمل والزهدي . وهي لا تؤمن بأن العمل خير في ذاته ، أو قيمة مطلقة يجب الالتزام بها بغض النظر عن نتائجهما ، بل تراه شراً لا بد منه ، وهي لا تقبل التنافس والتناحر بوصفه وسيلة مشروعة للبقاء وترتكز على الجماعية والتكافل والتراحم .

ويلاحظ أن القطاع التجاري والصناعي في أمريكا اللاتينية قطاع أجنبي بالدرجة الأولى ، فقد كان رأس المال أجنبياً وكذلك كان العمال المهرة . وفي الأرجنتين ، على سبيل المثال ، كان ٨٠٪ من قطاع الصناعة والتجارة في أيدي أجنبية عام ١٨٩٥ . وفي عام ١٩٥٩ ، كان ٤٥,٥٪ من مجموع المستثمرين من الأجانب ، ونسبة عالية من الباقيين كانوا من مواليد الأرجنتين ولكن من أبوين مهاجرين . ولذا ، لم يكن اتجاه اليهود نحو هذين القطاعين غريباً . وقد كان القطاع التجاري ، كما أسلفنا ، يتسم بالتخلف . ومن ثم ، اعتمدت مناطق واسعة في الأرجنتين على تصدير محاصيلها وموادها الخام . ولكن هذه المناطق كانت ، مع هذا ، تضم عدداً لا بأس به من السكان محدودودي الدخل تتزايد تطلعاتهم الاستهلاكية ، وخصوصاً بعد أن بدأوا يختلطون بالمهاجرين الذين أحضروا أنماطاً استهلاكية غير مألوفة ، أي أن احتياجات بشرية جديدة ظهرت وكان لا بد من الوفاء بها . وهنا يأتي دور الجماعة الوظيفية المالية الوسيطة لأن التاجر الأرجنتيني المحلي لم يكن يتاجر

ثابتة ويتحولون إما إلى صاحب عمل ثابت أو تاجر صغير أو يتجهون إلى الصناعة مستخدمين مهارات المهاجرين اليهود من أوروبا لتصنيع المواد الخام المحلية . وقد نجح اليهود في كلتا الوظيفتين لأنهم غير مرتبطين بأي وطن أصلي يرسلون إليه أرباحهم ، بل كانوا يعيدون استثمار الأرباح التي يحققونها ، وهو ما أدى إلى اتساع حجم مشروعاتهم التجارية والصناعية .

انضم أعضاء الجماعات اليهودية إلى الصناعة في فترة مبكرة . فمنذ عام ١٨٨٤ ، تركّز اليهود في صناعة تكرير السكر ومعامل التبغ والخشب والكيماويات والزيوت والعلطور ومصانع التغليف والنظارات وأجهزة التكييف . ويلاحظ أن هذه الصناعات جميعاً صناعات استهلاكية وصفت بأنها صناعات قريبة من المستهلك ، على عكس الصناعات الثقيلة الأولية البعيدة عن مرحلة الاستهلاك (المرحلة النهائية) . ولا شك في أن هذا يعود إلى الميراث الاقتصادي للمهاجرين اليهود . وقد عمل اليهود أيضاً منذ فترة مبكرة بالتصدير والاستيراد ، كما عملوا كمديرين ومهندسين . وقد تطوّر كل هذا بتزايد معدلات التصنيع والعلمنة ، حتى نجد أن ٣٧٪ من أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين كانوا يعملون ، في السبعينيات ، في قطاع التجارة ، و٢٢٪ في الصناعة ، و١٠٪ كمديرين ، وهي نسبة أعلى من النسبة القومية (وقد اختلفت النسبة قليلاً في الثمانينيات إذ بلغ عدد الذين يقومون بأعمال تجارية ٥٠٪ مقابل ٢٢،٥٪ في القطاع المالي وقطاع الخدمات) . وفي البرازيل ، بعد المعجزة الاقتصادية في السبعينيات ، نجد أن ٢٧٪ من أصحاب الأعمال منهم . وقد حقق أبناء المهاجرين من العمال وصغار التجار حراكاً اجتماعياً . ولكن هذه العملية استغرقت وقتاً طويلاً نسبياً ، فأحفاد المهاجرين في أمريكا الشمالية أصبحوا مهنيين ، أي أفراداً في النخبة . أما في أمريكا اللاتينية ، فقد حققوا معدل الحراك نفسه في أربعة أجيال بدلاً من ثلاثة . ويتضح نجاح أعضاء الجماعة في تحقيق قسط كبير من الحراك من واقع أن أعداداً متزايدة من الشباب اليهود تتلقى تعليماً جامعياً وبتركيز في المهن وقطاع الخدمات أقل من تركزها في التجارة .

ويمكن وصف هذه العملية بأنها تبرز الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ، وتحولها من جماعة وظيفية مالية وسيطة إلى جماعة تنخرط في سلك الطبقة الوسطى اللاتينية . ولكن ثمة خصوصية لاتينية للطبقة الوسطى تنعكس بطبيعة الحال على أعضاء الجماعة اليهودية . فيلاحظ ، حينما يتحول العامل اليهودي في الولايات المتحدة إلى عضو في الطبقة الوسطى ، أنه ينخرط في سلك طبقة

يعملون في المصانع التي يمتلكها يهود ، وهو ما كان يجعلهم عرضة للاستغلال إذ أن فرص الالتحاق بمصانع أخرى كانت ضعيفة أو منعدمة . ويجب ملاحظة أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية الذين انخرطوا في سلك الطبقة العاملة كان صغيراً لأن القاعدة الصناعية في أمريكا اللاتينية كانت صغيرة والأجور كانت أقل كثيراً من نظيرتها في أوروبا ، كما لم تكن توجد اتحادات عمالية لحماية العمال . كذلك ظهر بين اليهود صناعات منزلية بدائية فيما يُسمى «ورش العرق» ، وهي صناعات ملابس تُعدّ امتداداً لتركز اليهود في أعمال الرونات في روسيا .

ومن الأعمال التي عمل بها أعضاء الجماعات اليهودية مهنة البغاء الذي يمدُّ شكلاً من أشكال التجارة المتجولة . فالبغي مثل التاجر المتجول ، فقيرة لا تملك شيئاً وتود أن تبيع السلعة التي يرغبها الجمهور . والظروف التي أدت إلى ظهور التاجر المتجول هي نفسها التي أدت إلى ظهور البغاء ، أي وجود حاجة ما لدى المجتمع لا يمكنه الوفاء بها داخل مؤسساته القائمة ، وهي في هذه الحالة وجود عدد كبير من الذكور المهاجرين بدون إناث . ويضاف إلى هذا وجود عدد كبير من الإناث اليهوديات في منطقة الاستيطان اليهودية ، وخصوصاً جاليشيا ، من الرغبات في الحراك الاجتماعي . وقد ظهرت شخصية القواد اليهودي الذي كان يعدُّ ضحيته بحية مريحة فيها قسط من التمتع والراحة يختلف عن حياة الشقاء في ورش العرق والمستوطنات الزراعية . وكان القوادون دعامة المسرح اليديشي وحية اللهو في المدن الأرجنتينية .

وترتبط أمريكا اللاتينية بتجربة يهودية في الاستيطان الزراعي (تجربة البارون هيرش) وهي تجربة لم يُقدّر لها النجاح لأسباب كثيرة ومركبة .

وقد تطورت مجتمعات أمريكا اللاتينية وتزايدت معدلات التصنيع والتحديث ، ولم يبق وضع أعضاء الجماعات اليهودية على ما كان عليه إذ أُنِحت أمامهم فرص جديدة . وساعدت الحربان المائتان على هذه العملية . ولذا ، نجد أن اليهود حققوا حراكاً اجتماعياً في الأرجنتين والبرازيل وشيلي ، وهي البلاد التي تركّز فيها الغالبية العظمى من اليهود ، كما أنها البلاد التي حقق سكانها دخلاً عالياً ومعدلات عالية من التصنيع . وقد أخذ هذا الحراك أشكالاً كثيرة ، فالبائع اليهودي المتجول الذي عمل في هذه المهنة كعمل مؤقت ، وكذا العامل الذي كان يعمل في المصنع بشكل غير نهائي لتحقيق بعض الأرباح لأنه مضطر إلى ذلك ، وذلك الذي لم يكن قادراً بوضعه بسبب جلوره الطبقة ، هؤلاء كانوا يشترون محالاً

اجتماعية مقصورة على أعضاء الجماعة اليهودية ولا بطبيعة اليهود الأزلية التي تفر - كما يقول العنصريون - من الزراعة :

١ - كانت الهيئات التوطينية اليهودية هيئات غير حكومية ليست لها صلاحيات كافية ، كما أنها كانت تقوم بتوطين اليهود في أي مكان متاح في العالم ، الأمر الذي كان يعني أن هذه الهيئات لم تكن مهتمة كثيراً بالأوضاع المحلية ، وكانت تدرس الظروف الصالحة للتوطين من الناحية المادية والخارجية الظاهرة دون اعتبار كبير للأبعاد الثقافية الكامنة الداخلية الخاصة بجماعة المهاجرين اليهود . وقد كانت هذه الوكالات جاهلة تماماً بالظروف الثقافية المحلية وبظروف يهود شرق أوروبا وبالنتواترات التي يمكن أن تنجم عن توطين اليهود في أمريكا اللاتينية .

٢ - كان يهيمن على هذه الهيئات يهود فرنسا المندمجون . وهؤلاء كانوا يرون أن الهدف من نشاطهم التوطيني ليس إنقاذ اليهود وحسب وإنما دمجهم في مجتمعاتهم تماماً كما اندمجوا هم في مجتمعهم الفرنسي اندماجاً كاملاً . وقد بذلوا جهوداً منمطرة في هذا المضمار . وهم ، إلى جانب هذا ، كانوا يكتفون احتقاراً عميقاً لليهود اليديشية من شرق أوروبا وثقافة الشتلت المتدنية . ولذا ، كانوا يرون أنها ثقافة لا تستحق الحفاظ عليها . وقد قاومت هذه الهيئات فكرة إنشاء نظام تعليمي خاص باليهود ، خشية أن يحافظوا على هويتهم اليديشية الشرق أوروبية مع أن مثل هذا النظام التعليمي ، بسبب طبيعته المختلطة ، حيث يتضمن مقررات دراسية مختلطة أرجنتينية ويهودية شرق أوروبية ، يشكل عادةً وسيلة مهمة من وسائل التأقلم والدمج .

٣ - هذه الهيئات لم تشارك المهاجرين في صنع القرارات الخاصة بهم والتي تمجد مصيرهم ، وهو ما زاد تقافهم كثير من المشاكل .

٤ - تم توطين المهاجرين اليهود في ضياع صغيرة (بالأسبانية : «ميني فسونديا latifundia») وليس في الضياع الكبيرة (بالأسبانية : «لاتيفونديا latifundia») ذلك لأن المؤسسات اليهودية التوطينية لم يكن لديها إمكانيات مالية لشراء ضياع كبيرة ، كما أنها كانت ترى ضرورة ألا يحقق اليهود بروزاً أو تركيزاً غير عادي في أي من المناطق . ومع هذا ، يوجد الآن مزارعون يهود يملكون ضياعاً أصغرهما حجماً تصل إلى ثمانية آلاف هكتار ، اشتراها المستوطنون الناجحون الذين راكموها بعض الثروات ، كما أن بعض اليهود استخدم ما حصل عليه من تمويزات ألمانية لشراء ضياع كبيرة . وأخيراً ، هناك أعضاء الطبقة الوسطى الذين اشتروا ضياعاً كبيرة لاكتساب قدر من المكانة والهيبة .

٥ - أدى ارتفاع أسعار الأراضي إلى قيام كثير من المستوطنين ببيع

وسطى قوية . أما في أمريكا اللاتينية ، فإنه يخرط في سلك طبقة وسطى محدودة وضعيفة محصورة بين الأرستقراطية وجماهير الفلاحين والعمال المسمدين . ولذا ، فهم يصبحون جزءاً من الجماعات الثرية (القطط السمات) في البلاد النامية التي تتسم بوجود هوة اجتماعية واقتصادية بينها وبين الجماهير الفقيرة . وهذا الاستقطاب الطبقي يؤدي إلى ظاهرة العنف في النشاط السياسي ويخلق مشكلات أمنية . وقد تحالفت أعضاء الطبقة الوسطى المعادية للكنيسة داخل المحافل الماسونية وغيرها من المؤسسات العلمانية مع أعضاء الجماعات اليهودية الذين شقوا طريقهم .

### توطين أعضاء الجماعات اليهودية في الأرجنتين

Settlement of the Members of the Jewish Communities in Argentina

ترتبط أمريكا اللاتينية بتجربة يهودية في الاستيطان الزراعي هي قيام البارون هيرش بتوطين عدة آلاف من اليهود في الأرجنتين ضمن محاولته تحويل الفائض البشري اليهودي عن أوروبا وتوجيهه إلى بقعة أخرى في العالم ، حيث يمكن تحويلهم من عناصر طفيلية هامشية ضارة (كما كان يُقال آنذاك) إلى عناصر إنتاجية نافعة . وقد ارتبطت الإنتاجية بالزراعة لأنها كانت كذلك في التراث الشعبي والفكر الشعبي الروسي الذي تأثر به أعضاء الجماعات اليهودية (ومتهم الصهاينة) . وقد أشرفت عدة وكالات يهودية على عملية التوطين من أهمها رابطة الاستيطان اليهودي (إيكا) التي قامت بتوطين اليهود في الأرجنتين وجمهورية الدومينيكان وبوليفيا ، وهي دول كانت تحتاج إلى مهاجرين للعمل في الزراعة حيث كانت تتوافر فيها أراض زراعية تُعطى للوافدين الجدد بتسهيلات ائتمانية مريحة . وكانت نسبة اليهود الذين يعملون بالزراعة عام ١٩٣٥ ، أي قبل الحرب العالمية الثانية ، هي : ٣ ، ٤ ٪ من يهود بولندا ، و ٤ ٪ من يهود روسيا ، و ٢ ، ٢ ٪ من يهود الولايات المتحدة ، و ٥ ٪ من يهود الأرجنتين ، وكانت هذه أعلى نسبة في العالم . وكانت النسبة قبل ذلك أعلى كثيراً ، فقد وصلت إلى ٢٢ ٪ عام ١٩٢٠ ، ولكن العدد انخفض وتضامل حتى أنه لم يزد في الستينيات على ٢ ٪ . والواقع أن العدد أخذ في التضاؤل حتى أن كل ما تبقى من التجربة هو آثارها وبعض الظواهر التي تتسم بالطرافة مثل ظاهرة الكاويوي اليهودي في هذه المستوطنات . ويعود فشل التجربة في الأرجنتين إلى عدة أسباب مرتبطة بحركيات المجتمع الأرجنتيني وخصوصيته ولا علاقة لها بما يُسمى «التاريخ اليهودي» ولا بأية حركيات

محطات استراحة للمهاجرين تكيفوا أثناءها مع الحضارة المحيطة بهم واصطبغوا بالصبغة الأرجنتينية وأصبحوا مهيبين بشكل أفضل للاستقرار في المدن .

#### علاقة أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية بالنخب الحاكمة

Relationship between Members of the Jewish Communities and the Ruling Elites in Latin America

أشرنا في المداخل السابق إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية بدأوا يصبحون أعضاء في الطبقة الوسطى . ولكننا حينما نقرر ذلك فنحن نفضل ذلك مع كثير من التحفظ لأنهم احتفظوا بالكثير من ملامح الجماعة الوظيفية المالية ، فهم طبقة وسطى من ناحية الدخل والمقاييس الخارجية ونمط الاستهلاك ومتوسط العمر ، ولكنهم ليسوا كذلك من ناحية التورُّع الوظيفي والمهني أو من ناحية العلاقة مع النخبة الحاكمة . فالطبقة الوسطى توجد بين النخبة الحاكمة والجماهير ، وهي تقوم بدور الوسيط . وهذا يتطلب علاقة قوية مع النخبة والجماهير وأن تكون الطبقة الوسطى جزءاً عضوياً من المجتمع ولا تتواجد في سامه وحسب ، وهو الأمر الذي لم يحققه أعضاء الجماعات اليهودية . فقد حققوا وضماً اقتصادياً متميزاً ، ولكنه كان في الواقع متميزاً لتركزهم في قطاعات بعينها دون غيرها ، كما أن تميزهم هذا لم يترجم إلى مكانة سياسية . وهذا وضع مختلف إلى حد ما عن وضع يهود الولايات المتحدة الذين حققوا حراكاً اجتماعياً ترجم نفسه إلى مكانة رفيعة وهيبة وقوة . ولتفسير هذه الظاهرة ، يجب الإشارة إلى أن الانضمام إلى النخبة أمر صعب في المجتمعات ذات التقاليد العريقة والامتداد التاريخي والهوية الواضحة . وهذه عناصر يتسم بها المجتمع اللاتيني بشكل واضح . كما أن وضع النخبة داخل هذا المجتمع ، وطريقة الانضمام إليها ، يستند إلى ثلاثة عناصر أساسية ، هي : الكاثوليكية ، وملكية الأراضي ، والأصل الأرستقراطي العريق . وهي جميعاً أصول تستبعد اليهود باعتبارهم مهاجرين وغير مسيحيين ، وخصوصاً أن ارتباط اليهود بالتجارة في الوجدان الغربي المسيحي ثم في الوجدان اللاتيني (وهو ارتباط تؤكد حقيقة وضع اليهود) زاد قوة الطرد خارج النخبة . وحينما ظهرت نخب جديدة في المجتمع ، مثل القوات المسلحة ، فإن عملية الانضمام إليها كانت تتسم بمعايير تستبعد اليهود . ولذا ، نجد أن نسبة الضباط اليهود في القوات المسلحة نسبة لا تُذكر . ولم يود ظهور نخب معارضة حديثة ، مثل القوميين واليساريين ، إلى ضم

أرضهم واستثمار النقود في الصناعة والتجارة ، وهو أمر كان يسيراً بالنسبة لهم بسبب الميراث الاقتصادي .

٦ - كانت المؤسسات التوظيفية تتكفل بتوطين المهاجرين الجدد وحسب وكانت ترفض المساهمة في دعم أبناء المستوطنين وتزويدهم بالأرض اللازمة للاستمرار في الزراعة . ولذا ، لم يكن أمام أبناء المستوطنين من مفر من أن يعملوا أئناً أو فلاحين بالأجر أو يهاجروا إلى المدينة .

٧ - من الملاحظ أن كثيراً من الأراضي التي اشترتها الهيئات اليهودية لم تكن من أجود الأراضي الزراعية ، وربما يعود هذا إلى انعدام خبرة القائمين على هذه الهيئات .

٨ - أدى صغر حجم الضياع وتفرُّقه وتباعدها إلى صعوبة الحفاظ على الحياة اليهودية الجماعية التي تركز حول المعبد والطعام الشرعي والمدرسة الدينية والمدفن .

٩ - كان للمدن جاذبية خاصة بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية المهاجرة بسبب أصولهم الحضارية في شرق أوروبا وعدم خيبتهم بالزراعة . وكذلك وجد اليهود في المدينة تلك المؤسسات اليهودية اللازمة لحياتهم اليهودية والتي لم توفرها لهم الهيئات التوظيفية . كما أن أعضاء الجماعة كانوا أساساً جماعة حضرية لها طموحات حضرية مثل الرغبة في الأمن الاقتصادي وتحقيق الحراك الوظيفي ، كما كان لها أسلوب حياة يركز على الإنجاز في مجال التعليم ذي الآفاق الواسعة ، وهي أمور كان يمكن تحقيق بعضها في سياق حضري ولا يمكن تحقيقها في بيئة ريفية .

١٠ - إلى جانب العناصر السابقة الخاصة بالمؤسسات اليهودية والتكوين الحضاري الشرق أوروبي لليهود ، وميراثهم الاقتصادي ، هناك عناصر خاصة بالمجتمع الأرجنتيني نفسه من بينها أن القطاع الزراعي في الأرجنتين والعالم بأسره كان قد بدأ يفقد شكله التقليدي ويصبح جزءاً من النظام الرأسمالي العالمي والاقتصادي النقدي والميكنة الزراعية . وكان القطاع الزراعي ، كذلك ، أخذاً في الانكماش أو لم يعد فيه مجال للمزارع الصغيرة .

١١ - لم تدعم الحكومة الأرجنتينية جماعات المهاجرين التي اشتغلت بالزراعة كما لم تغير نظام ملكية الأرض بشكل يتيحها للمهاجرين ، ولم تقم الحكومات كذلك بتوفير البنية التحتية اللازمة للانتشار الزراعي من مدارس وغيرها .

لكل هذا ، تساقط الاستيطان الزراعي اليهودي في الأرجنتين تماماً كما تساقط كثير من المستوطنات غير اليهودية ونزحت أعداد كبيرة متجهة إلى الصناعات . وبذا ، أصبحت المستوطنات مجرد

معدلات التحديث والعلمنة . بل إن النظم اليسارية قد تبجح أمامهم فرص الحراك الاجتماعي والانضمام إلى النخبة ، وهو الأمر الذي لم يحققوه من خلال اشتغالهم بالتجارة أو الصناعة . وقد بدأ يظهر فعلاً يهود بين أعضاء النخبة الحاكمة في الأرجنتين . وذهب إحدى الدراسات إلى أن ثلثي يهود البرازيل من النخبة . وربما يكون الأمر كذلك ، لكن من الممكن أن يكون هؤلاء قد انضموا إلى أعضاء النخبة أو الطبقة الحاكمة بحسب شروط هذه النخبة نفسها . وربما سُمح لهم بذلك بعد أن أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع اللاتيني بثقافته ورويته . وعلى أية حال ، فمع تزايد معدلات اندماج أعضاء الجماعات اليهودية تتناقص أعدادهم . ويمكن القول بأنه ليس من المتوقع أن يلعب اليهود دوراً يهودياً مستقلاً داخل النخب الحاكمة في أمريكا اللاتينية تماماً كما هو الحال في الولايات المتحدة .

### الجماعات اليهودية في كل من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة :

#### منظور مقارن

The Jewish Communities in Latin America and the United States : Comparative Perspective

لا توجد أية أهمية خاصة للجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية من منظور الصراع العربي الإسرائيلي ، فهي جماعات ضئيلة العدد لا تهاجر منها أعداد مهمة إلى الدولة الصهيونية . وهي لا تشكل «لوبي» أو جماعة ضغط داخل المجتمع اللاتيني ، كما أنها متجهة إلى النقصان السريع ، بل ربما إلى الاختفاء . ولكنها ، مع هذا ، في غاية الأهمية من منظور دراسة الجماعات اليهودية في العالم ومحاولة تحديد سماتها وعزلتها وبنيتها وحركات اندماج أعضائها . وتزايد أهميتها حين تقارنها بأهم الجماعات اليهودية في العالم ، أي يهود الولايات المتحدة ، فهما عينتان جيدتان للمقارنة إذ أن جماعات المهاجرين التي انجذبت إلى الولايات المتحدة وتلك التي استقرت في أمريكا اللاتينية ستبين لنا بعض حركات اندماج اليهود وانعزالهم وطريقة تشكيل هويتهم . ويمكننا أن نقول إن مصدر الاختلاف بين يهود الولايات المتحدة ويهود أمريكا اللاتينية هو المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية أو المجتمع الجديد . وهذا ، بدوره ، سيبين أن فهم الجماعات اليهودية يقتضي العودة إلى حركات المجتمعات والتشكيلات الحضارية التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية ولا يتم بالعودة إلى هذا الشيء الوهمي الذي يُسمى «التاريخ اليهودي» الذي لا يمكنه أن يفسر هذا التنوع الهائل

بعض أعضاء الجماعات اليهودية ، بل أدى إلى مزيد من الاستبعاد لهم نظراً لأن هذه الحركات ذات بعد محلي وتؤكد الخصوصية ، وهو ما كان يعني تأكيد رموز التراث اللاتيني الكاثوليكي . ومن العناصر الأخرى التي باعدت بينهم وبين القوى القومية واليسارية ، اعتماد أعضاء الجماعة على الولايات المتحدة ، وارتباط اليهود في الذهن اللاتيني باليانكي ، وارتباطهم مؤخرًا بإسرائيل (رجل أمريكا القبيح في أمريكا اللاتينية) . هذا على الرغم من وجود أعداد كبيرة من الشباب الأرجنتيني في صفوف اليسار .

والجماعة اليهودية ، إلى جانب هذا ، صغيرة في حد ذاتها في كل بلاد أمريكا اللاتينية وصغيرة بالنسبة إلى عدد السكان وهي جماعات منقسمة فيما بينها . كما أن تركّزهم في مهن وقطاعات اقتصادية معينة يعني استبعادهم من قطاعات أخرى ، الأمر الذي يعني انعدام تأثيرهم فيها كما يعني ظهور شكل من أشكال الغيرة بين أعضاء الأغلبية الذين يتركون في القطاعات التي يتواجد فيها اليهود بكثرة . ويعني هذا التركيز أيضاً أنهم غير ممثلين في كل الطبقات وفي مؤسسات سياسة اجتماعية عظيمة الأهمية مثل اتحادات العمال والمزارعين ، ومن ثم فلا يمكنهم أن يلعبوا دور الطبقة الوسطى العضوية .

وكان من الممكن أن يلعب اليهود دوراً ضاغظاً من خلال الانتخابات . ولكن صغر حجمهم ، وانقسامهم إلى جماعات مختلفة ، ومعدلات الاندماج العالية بينهم ، جعلت ذلك أمراً عسيراً . وعلى أية حال ، فإن الديموقراطية في أمريكا اللاتينية ليست ذات مؤسسات راسخة ، ذلك لأن جماعات الضغط الأخرى مثل القوات المسلحة بانقلاباتها المتكررة والحركات اليسارية تجعلها تفقد كثيراً من أهميتها .

وثمة سبب أخير هو عدم ظهور شخصيات يهودية قيادية يمكنها أن تمثل اليهود داخل النخبة بسبب انقسام الجماعات اليهودية ، وبسبب هجرة العناصر الشابة الواعية يهونها إلى إسرائيل ، وهجرة العناصر الشابة التي تطمح إلى مستوى أعلى من الحراك الاجتماعي إلى الولايات المتحدة .

ويذهب بعض الدارسين إلى أن الجيل الأول من اليهود ، الذي اشتغل بالتجارة والصناعة ، كان محكوماً عليه بالهلاك إما على يد اليمين المرتبط بالقيم الإقطاعية وإما على يد اليسار الذي يعبر عن القوى المعادية للمشروع الخاص . أما الجيل الجديد من الشباب اليهودي ، الذي يُقبل بحماس على التعليم الجامعي ، فهو مركز أساساً في الأعمال المهنية الإدارية . ومن ثم ، فإن للمجتمع اللاتيني الجديد يحتاج إلى خدماتهم التي تستزيد الحاجة إليها مع تزايد



المجتمع . وقد انعكس هذا الوضع على أعضاء الجماعات اليهودية ، فلم تنشأ منظمة مركزية تضم كل يهود أمريكا اللاتينية إذ استقل يهود كل دولة عن يهود الدول الأخرى . بل إن كل مجموعة يهودية داخل نطاق الدولة الواحدة انقسمت إلى جماعات يهودية مختلفة احتفظت كل واحدة منها بسماتها الإثنية والحضارية .

٢ - أما المصدر الثاني للاختلاف فينصرف إلى النظام السياسي ويرتبط بالمصدر السابق . فالنظام السياسي الأمريكي يستند إلى مَثَل عصر الاستنارة والإعتاق وإلى مَثَل العقل والتجريب ، ومن هنا فإنه رفض الماضي والتراث وركز على الحاضر والمستقبل ووجد أن مصدر المعرفة الوحيد هو العقل (المادي النفعي) والحواس . ويمكن النظر إلى الولايات المتحدة ككل باعتبارها تجربة تبدأ من نقطة الصفر ، صفحة بيضاء (باللاتينية : تابولا رازا tabula rasa) دون أية أعباء تاريخية ، وهو الأمر الذي يناسب الجماعات البشرية التي تريد هي الأخرى أن تبدأ حياتها الجديدة من نقطة الصفر الافتراضية هذه . والمجتمع الأمريكي تسوده مَثَل الديمقراطية والمساواة حيث يتم انتقال السلطة فيه بشكل سلمي عن طريق الانتخابات ، كما تسوده مَثَل علمانية حيث يؤمن الإنسان بأن العالم خاضع للقانون الطبيعي وبأن الإله قيمة شخصية محضة يكشف عن نفسه (إن وجد) بالطريقة نفسها وداخل النطاق المحدود نفسه ، أي من خلال القانون الطبيعي . ولذا ، فهذا المجتمع يرفض أن تكون المَثَل الدينية هي محدد السلوك الإنساني ، ويقوم بفصل الدين عن الدولة ، وبعادي الكهنوت والكهنة . لكن هذه الرؤية لا تعطي اليهودي مركزية خاصة في الكون أو في دورة المعصية والتوبة والخلاص . وعلمانية الولايات المتحدة ، علاوة على كل هذا ، تم التوصل إليها دون حروب دينية ، أي أنها مُعطى ويُعد أساساً من أبعاد الحضارة الأمريكية الحديثة .

ويقف هذا الوضع مخالفاً لما في مجتمعات أمريكا اللاتينية ، فهي مجتمعات لم تقبل مَثَل عصر التنوير بل تم تأسيسها على أسس إقطاعية أو شبه إقطاعية وملكية وكاثوليكية . ومارست محاكم التفتيش نشاطها في هذا العالم الجديد . كما أن دول أمريكا اللاتينية ترى نفسها استمراراً للماضي الأوربي الكاثوليكي .

وحيثما نشبت ثورات الاستقلال والتحرر الوطني بعد ذلك ، تمت هذه الثورة بقيادة طبقة الكريول الإسبانية التي كانت تؤمن بالقيم القديمة نفسها ولم تتقبل مَثَل عصر العقل . ولذا ، سادت المَثَل الإقطاعية حتى بعد أن اختفت تماماً في أوروبا ، وظلت لليهودي المكاتب الرمزية نفسها التي كان يحتلها كغريب في أوروبا في خلال العصور الوسطى ، وظل التراث القديم مسيطراً . وحتى حينما أعلن

وعدم التجانس العميق بين أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية من جهة ووحدها وتجانسها في الولايات المتحدة من جهة أخرى . ويمكن رؤية مصادر الاختلاف بين الجماعتين على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي على النحو التالي :

١ - ربما كانت أهم نقاط الاختلاف بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية أن الولايات المتحدة كيان سياسي ضخم موحد تحكمه دولة قومية قوية واحدة على عكس أمريكا اللاتينية التي انقسمت إلى عدة دويلات ودول . ويُقال إن هذا الانقسام يعود إلى طبيعة أمريكا الشمالية المنبسطة التي جعلت تطوير شبكة مواصلات ضخمة وبنية تحتية موحدة أمراً سهلاً ، على عكس أمريكا اللاتينية التي تقسمها سلاسل الجبال الضخمة الشاهقة التي أدت إلى ظهور دول مختلفة وشبكات مواصلات مستقلة تستجيب لاحتياجات كل منطقة على حدة . كما أن التراث البروتستانتي في الولايات المتحدة شجع بكل تأكيد على قيام دولة قومية في وقت مبكر ، ذلك لأن البروتستانتية لا تدبر بولاء لكنيسة عالمية تضم كل البشر بل تعبر عن نفسها من خلال كنيسة قومية . كما أن ثمة ارتباطاً اختياريًا بين الرأسمالية والبروتستانتية ، على النحو الذي أشار إليه فيبر . وهذا على عكس التراث الكاثوليكي ذي النزعة العالمية والذي يخلق توتراً بين النزعة القومية والنزعة الدينية إذ تعبر النزعة الدينية عن نفسها خارج الحدود القومية .

وقد أدّى قيام الدولة القومية في الولايات المتحدة إلى مجاهاها في إعادة صياغة المهاجرين وأمركتهم ، وذلك عن طريق نظام تعليمي حكومي مجاني ساعد المهاجرين وأبناءهم على التخلي عن ميراثهم الثقافي وعلى اكتساب الهوية الجديدة برموزها ولغتها ومثلها . ولعبت المدارس الحكومية الليلية دوراً مهماً في ذلك . ومن المعروف مثلاً أن الأطفال في الولايات المتحدة كانوا يتعلمون بين الولاء للدولة قبل تعلّم حروف الهجاء . كما لعب التجنيد العسكري دوراً لا يقل أهمية في عملية اندماج المهاجرين وضمن ذلك اليهود . كل هذا على عكس ما حدث في أمريكا اللاتينية حيث لم يتم تطوير نظام تعليمي قومي متكامل . وحينما تم تأسيسه في نهاية الأمر ، سادت فيه القيم الكاثوليكية . أما الجيوش الوطنية ، فقد تحولت بعد الاستقلال إلى أدوات قمع في يد السلطات . ولم تكن هذه الجيوش منفتحة على كل طبقات الشعب وأقلياته ، مثل القوات المسلحة الأمريكية ، وإنما كانت ذات توجه كاثوليكي أرستقراطي أو زراعي ، أي أن مؤسسات الدمج الوطني الأساسية كانت غائبة أو ضعيفة في أمريكا اللاتينية ، الأمر الذي ساعد على تشجيع عناصر الثفت في

يعني ، بطبيعة الحال ، مزيداً من الانغلاق والتجانس ، وبالتالي مزيداً من استبعاد اليهود .

٤ - والواقع أن مجتمع الولايات المتحدة ، رغم أنه مجتمع يتباهى بالتعددية والتنوع والانفتاح ، يؤدي في نهاية الأمر إلى طمس معالم الهويات المختلفة ودمجها في هوية علمانية ديوقراطية واحدة ، فهذا المجتمع تسوده أسطورة علمانية واحدة ، ومعيار قبول اجتماعي علماني عقلاني يسمح للجميع بالانتماء شريطة أن يتخلوا عن خصوصيتهم ، أي عن القسط الأكبر من هويتهم . وكلما ازداد تخليهم عن هويتهم ازدادت أمامهم فرص الحراك الاجتماعي . فما يسود للمجتمع ليس تنوعية حقة وإنما وحدة عقلانية علمانية عميقة وتنوعية إئبئية سطحية ، وهذا ما يُسمى «الأمركة» . وقد تُرجمت هذه الأفكار إلى فكرة بوقفة الصهر التي تفترض إنساناً أمريكياً علمانياً ديوقراطياً ذا ثقافة بروتستانتية يتحدث الإنجليزية ، وهي فكرة سادت في المجتمع الأمريكي حتى منتصف الستينيات حيث كان يُفترض أن يتأقلم المهاجر تماماً وينسى هويته ليصبح أمريكياً قلباً وإن أمكن قلباً أيضاً . ومن هنا ، كانت هناك مشكلة السود الذين لم يكن بوسعهم تغيير لون جلدهم . وحينما انحسرت أسطورة بوقفة الصهر ، حلت محلها أسطورة أكثر تركيياً وإن كانت لا تقل عنها أحادية ، إذ أصبح بالإمكان الاحتفاظ بالميزات الإئبئية القديم في الحياة الخاصة أو حتى العامة مادام ذلك لا يتعارض مع الولاء الأساسي للدولة (ذلك المطلق الذي يلتفت حوله العلمانيون) . وهكذا ، تُعامل الإئبئية نفسها معاملة الدين ، أي يتم الاعتراف بها ما دامت أمراً خاصاً تماماً . كما أصبح الدين من المسائل الخاصة بالضمير ، لكن كلاهما لا يصلح أن يكون دليلاً أو أساساً أو إطاراً لسلوك الإنسان في الحياة العامة (فأخلاق المواطن المدنية هي وحدها الأساس والإطار والدليل) . وكل هذا يعني ، في واقع الأمر ، طمس كل الهويات والخصوصيات لتحل محلها هوية قومية واحدة . وعلى أية حال ، لا تستطيع الدولة القومية الموحدة أن تمارس نشاطها كاملاً إلا بالسيطرة على معظم أشكال الحياة العامة المهمة ، وقد كان هذا جوهر وصميم المشروع القومي . ووجد أعضاء الجماعة اليهودية هذا الوضع مناسباً ، وكانوا من الأقليات الأولى التي تمت أمركتها تماماً ، وتقبلوا أسطورة بوقفة الصهر ثم بعد ذلك تقبلوا أسطورة الاندماج المعدلة التي تقبل عناصر إئبئية شريطة أن تكون سطحية ، فأصبحوا أمريكيين يهوداً وهم الذين نطلق عليهم مصطلح «اليهود الجدد» نظراً لاختلافهم الجوهرى عن يهود أوروبا وبقية العالم .

ويقف هذا على الطرف النقيض من مجتمعات أمريكا اللاتينية

فصل الدين عن الدولة ، ظل البُعد الكاثوليكي قوياً للغاية على المستوى الثقافي ، فقد لعبت الكاثوليكية دوراً قوياً في الحركات القومية كما لعبت بعد ذلك دوراً قوياً في الحركات اليسارية .

وهكذا ، يمكن القول بأن مجتمع الولايات المتحدة مجتمع مفتوح جديد لا يتورع بقل أي تراث أو ذاكرة تاريخية . ولذا ، كان متاحاً لجماعات المهاجرين فيه ، ومنهم اليهود ، أن تكون جماعات ضغط داخل النظام طالما أنها قبلت قيم وقوانين اللعبة الخاصة به ، وأن تؤثر فيه وفي قراراته من خلال الانتخابات . بل أمكنتها أيضاً دخول النخبة ، وهو الأمر الذي لم يتيسر تحقيقه في مجتمعات أمريكا اللاتينية المغلقة بدهونهم . وكانت الولايات المتحدة تشكل ظاهرة فريدة تماماً بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية فهي لم تصدر أية تشريعات خاصة لإعتاقهم ، فمُثل الإعتاق والاستنارة كانت سائدة قبل وصولهم بأعداد كبيرة . ولذا ، فإنهم لم يحاربوا قط من أجل استصدار أية تشريعات . ومن ثم ، كانت الولايات المتحدة هي الجولدن مدينا ، أي البلد الذهبي ، ولم تُستخدَم قط كلمة «منفى» للإشارة إليها ، فهي وطن قومي ثان وربما أول للمهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية .

٣- وما دعم تقنيتي الاختلاف السابقة نوعية المادة البشرية المهاجرة التي أسست كلا المجتمعين ، فالمهاجرون إلى أمريكا الشمالية هاجروا إليها بعد أن كانت أوروبا قد خاضت حركة الإصلاح الديني والثورة التجارية والصناعية ، وبعد أن كانت الحروب الدينية قد أضعفت هيبة الكنيسة تماماً . كما أنهم كانوا من العناصر البروتستانتية المتطرفة (البيوريتان) التي رفضت مجتمعاتها وأتت لتأسيس مجتمع جديد على أسس جديدة .

ويقف هذا على النقيض من مجتمعات أمريكا اللاتينية التي بدأت تجرمة الاستيطان فيها داخل إطار كاثوليكي إقطاعي ، وتمت تحت رعاية التاج الإسباني أو البرتغالي . وانتقل إلى المجتمع هرم القيم السائد في المجتمع الإسباني أو البرتغالي ، وكانت العناصر المهاجرة مضطرة إلى قبول هذا الهرم . كما أن المهاجرين الذين قاموا بتأسيس مجتمعات أمريكا اللاتينية لم يكونوا من العناصر التي رفضت للمجتمع الإسباني أو البرتغالي الكاثوليكي ، وإنما كانوا من العناصر الأرستقراطية التي رفضها هذا المجتمع ، أو بتعبير أدق من العناصر التي فشلت في تحقيق الحراك داخله بسبب قوانين الميراث الإقطاعي فحاولت أن تحقق الحراك الاجتماعي خارجه ، وذلك لتحقيق درجة أعلى من الانتماء إليه . وحينما بدأت موجات الهجرة الضخمة ، كان المهاجرون من دول كاثوليكية أساساً . وكل هذا كان

منها ، مادام يؤدي عمله الآلي ويضبط حركته ، في حضوره وانصرافه وإيقاع جسده وحياته ، بما يتفق مع حركة المصنع ، أي أن المصنع يقوم بعملته العمل الإنساني تماماً ويفصله عن كل قيمة (وضمن ذلك القيمة الإنسانية نفسها) بحيث لا توجد فيه أسرار ولا إبداع ولا حركات غير محسوبة . ولقد عرّف ماكس فيبر الترشيد الكامل بأنه تحويل العالم إلى حالة المصنع ، فالمصنع هو الخلية المثلى أو النموذج الأساسي في المجتمع الصناعي العلماني الذي يتحول فيه البشر إلى مجرد مادة بشرية تنتج طاقة ! وهذا العنصران (علمنة كل من النشاط التجاري والعمل الإنساني في المجتمع الأمريكي) ساهما بشكل عميق في دمج المهاجرين اليهود ، وخصوصاً أن القطاعين التجاري والصناعي في الولايات المتحدة من الضخامة بحيث استوعبا أعداد المهاجرين القادمين وفتحاً لهم أبواب الحراك الاجتماعي . وقد كان الانخراط في التجارة والصناعة ثم المن أسرع الطرق التي تمت بها أمركة يهود الولايات المتحدة . والأمركة هي علمنة اليهود مع صبغهم بالصبغة الأمريكية ، أي دمجهم في المجتمع العلماني الأمريكي بحيث تحوّل اليهود من جماعات اقتصادية هامشية وجماعة وظيفية وسيطة إلى أعضاء في الطبقة الوسطى التي تشكل جزءاً عضوياً أساسياً من النظام الاقتصادي السياسي ؛ يستثمرون في الصناعة ، ويلعبون دوراً في تنظيم نقابات العمال ، ولهم صوت يُعَدُّ به في الانتخابات ، ويشكلون قوة ذاتية مهمة . وقد بدأت أعداد متزايدة من أعضاء الجماعة اليهودية في الانخراط في سلك النخب ، وهم في هذا لا يختلفون عن كل جماعات المهاجرين الأخرى ، وإن كانت درجة حراكهم أسرع باعتبار أنهم كانوا من أسرع الأقليات استجابة للأمركة والعلمنة . وقد أصبح اندماج أعضاء الجماعة اليهودية كاملاً ، فهو لم يُعَدَّ اندماجاً مدينياً بمعنى تقبُّل القيم الثقافية المشتركة والسائدة وإنما اندماج بنيوي بمعنى الدخول في المؤسسات العامة والخاصة كافة ، وضمن ذلك مؤسسة الزواج حيث أصبحت أعداد متزايدة من الأمريكيين الذين لا يكثرثون بالدين يتزوجون من أعضاء الجماعة اليهودية الذين لا يكثرثون بالدين أيضاً ، أي أن الرقعة المشتركة هنا هي التخلي عن الهوية الدينية وتقبُّل الآخر داخل إطار الهوية العلمانية الجديدة . كل هذا مختلف عما حدث في أمريكا اللاتينية ؛ فالنشاط التجاري ظل موضع ازدراء في حضارة لا تزال قيمها الأساسية أرستقراطية إقطاعية ، كما ظلت المنافسة ومراكمة الثروة محمّلاً لإجهاات سلبية مظلمة . وقد بدأ التصنيع في وقت متأخر وحقق اليهود حراكاً اجتماعياً لا بأس به من خلال تزايد معدلات التصنيع :

التي لا تزال أسطورتها القومية كاثوليكية تستبعد اليهود . وحينما جاءت جماعات المهاجرين اليهود ، وجدت التشكيل الحضاري المحلي (الهندي) الذي لا يتاح للغرباء أن يضربوا بجلودهم فيه ، كما وجدت التشكيل الحضاري الكاثوليكي الذي ينبذها . وبمجموع ذلك انكفاء المهاجرين ، كلٌّ على هويته التي أتى بها ، فتشبث بها وعسّقها ، ولم تظهر هوية يهودية لاتينية إذ ظلت هناك هويات يهودية من ناحية ، وهوية لاتينية من ناحية أخرى ، الأمر الذي أدّى إلى زيادة الانقسامات بين الجماعات اليهودية المختلفة . وإذا بدأت تظهر ، مع تزايد معدلات التحديث والترشيد والعلمنة في أمريكا اللاتينية ، مثل هذه الهوية اللاتينية اليهودية ، فإنها ستكون في واقع الأمر هوية لاتينية وحسب ، إذ سيظل البعد الإثني اليهودي سطحياً للغاية ، ربما أكثر سطحية من إثنية يهود أمريكا .

٥ - وإذا انتقلنا إلى المجال الاقتصادي والاجتماعي ، فإننا نجد أن مجتمع الولايات المتحدة أسسته من البداية عناصر بروتستانتية تجارية ترى أن التجارة أهم النشاطات الإنسانية وترى أن قيم التنافس ومراكمة الثروة قيم إيجابية ، بل إن الثروة علامة الرضا الإلهي . ثم استمر النظر إلى التجارة والمنافسة باعتبارها نشاطات إيجابية كريمة حتى بعد أن ضعفت المسيحية البروتستانتية واختفت كمحدد أساسي للسلوك والرؤية . ثم أصبحت التجارة في نهاية الأمر نشاطاً ضرورياً محايداً ، لا تتنظمه أية قيم أخلاقية وإنما تنظمه آليات التنافس والبقاء ، أي أن النشاط التجاري تمت علمنته تماماً وكذلك ترشيده وإخلاقه من أية أبعاد أخلاقية أو عاطفية غير عقلانية متخلفة!

وتم الشيء نفسه بالنسبة إلى العمل الإنساني ، فالحرفي التقليدي يتوارث الخبرة من أسرته ، وعمله هو مصدر احترامه لنفسه وهويته . وهو يتبع إيقاعاً خاصاً يتفق مع حياته ومتطلباتها ، ويتبع سلماً خاصة تربط بقيمه الحضارية والأخلاقية . هذا على عكس المجتمع الذي يقوم بعملته العمل الإنساني وترشيده تماماً ، أي وضعه داخل إيقاع مادي آلي . ولذا ، فهو يشكل بوتقة صهر حقيقية للبشر . فالمصنع مؤسسة مادية تم ترشيدها تماماً ، كل ما فيها محسوب وبطريقة رياضية آلية صارمة . والعامل الصناعي يخضع لهذا الإيقاع الآلي ، إذ يجب عليه أن يصبح تابعاً لكافة بدلاً من أن تصبح الآلة تابعة له ، بل يجب عليه أن يصبح مثل قطعة الغيار تماماً ، ولا يهم إن كان العامل يهودياً أم مسيحياً ، ذكر أم أنثى . وفي المراحل الأولى للتصنيع ، كان لا يهم إن كان كبيراً أم صغيراً ، وقد استخدم الأطفال في كل أفرع الصناعة ، وفي كل الأعمال الممكنة . ولم يكن يهم أية خصوصيات أو انتماءات يتمتع بها العامل أو يعاني

ولكن ، مع هذا ، ظلت المكانة في المجتمع والاندماج إلى النخبة يُحدّدان بمعايير تقليدية مثل الحسب والنسب وما شابه .  
لكل ما تقدّم ، ظهرت الاختلافات بين الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة والجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية . فيهود الولايات المتحدة ، بغض النظر عن أصولهم الإثنية والعرقية والدينية ، أصبحوا جماعة واحدة ، ومن هنا نستخدم صيغة المفرد للإشارة إليهم . وتوجد جيوب هنا وهناك مثل اليهود الأرثوذكس (في وليامزبرج) الذين يتحدثون اليديشية ، ولكن مقدرة المجتمع الأمريكي الامتصاصية الفائقة تتبدى في تحويل مثل هؤلاء إلى منظر يشاهده السياح ، أي «فُرَجَة» ، وبالتالي هميشهم تماماً ، وقد اندمج اليهود في مجتمعهم اندماجاً مديناً وبنويّاً وتقبّلهم المجتمع على أساس تقبّلهم الفكرة العلمانية الديمقراطية الأساسية .

زواج بالنسبة لليهود ، بينما لا تزال الولايات المتحدة بالنسبة إليهم نقطة الجذب الأساسية . ولكن ، ورغم هذا الاختلاف ، فإن الهجرة إلى إسرائيل من كلتا المنطقتين تكاد تكون متعديّة ، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة ، فاليهود في الولايات المتحدة لا يحتاجون إلى الهجرة بعد تحميقهم المستويات المعيشية المرتفعة ، أما يهود أمريكا اللاتينية فلا يحتاجون إلى إسرائيل لأن الولايات المتحدة هي نقطة الجذب الأساسية بالنسبة لهم .

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن معدلات العلمنة أخذت في الارتفاع في أمريكا اللاتينية ، حيث يتضح هذا في ظهور العقائد العلمانية ذات الديباجات الدينية والعقائد شبه الدينية التي لا تختلف بنيتها عن بنية الفكر العلماني ، مثل الماسونية والبهاية والروبية ، كما يلاحظ تزايد انتشار البروتستانتية . وكما هو متوقّع ، ترتفع بالتالي معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية وينضم أعضاؤها بأعداد متزايدة إلى المحافل الماسونية والمعابد البهاية ويظهر بينهم الفكر الروبي . كما أن النادي اليهودي ، وهو التعبير عن تزايد معدلات العلمنة والانصراف عن الدين وشعاره ، أخذ في الانتشار . والواقع أن النادي اليهودي يحقّق لأعضاء الجماعات اليهودية شيئاً مماثلًا لما حققتّه الدولة في الولايات المتحدة لأعضاء الجماعة اليهودية فيها ، أي الاحتفاظ بشعرة إثنية سطحية لا علاقة لها بالدين أو لها علاقة واهية بالدين وتضمّر معدلات علمنة هائلة . ففي النادي اليهودي ، سيجد يهود أمريكا اللاتينية بعض الرموز اليهودية الإثنية أو الدينية التي ليس لها مضمون أخلاقي مُلمّز ، وإلى جوار ذلك سيجدون حسامات السباحة الضخمة وقاعة الديسكو والبلاجات التي تجلس فيها النساء (اليهوديات أسماً) يرتدين مايوهات عصر ما بعد البيكيني (على حد قول أحد الحاخامات) . وينخرط اليهود في أسلوب حياة علمانية كاملة مكسرة للاستهلاك والحرية الجنسية وغير الجنسية .

ولعل أهم جوانب هذه الظاهرة هو انتشار البروتستانتية في أمريكا اللاتينية (زاد عدد البروتستانت من ٢,٥ مليون في الثلاثينيات إلى ١٥ مليوناً في الستينيات ثم إلى ٤٠ مليوناً في الثمانينيات ، وهو ما يمثل حوالي ١٠٪ من مجموع السكان ، وتصل هذه النسبة إلى ٢٠٪ في جواتيمالا ، و٢٥٪ في البرازيل ، و١٧٪ في شيلي ،

ولكن ، مع هذا ، ظلت المكانة في المجتمع والاندماج إلى النخبة يُحدّدان بمعايير تقليدية مثل الحسب والنسب وما شابه .  
لكل ما تقدّم ، ظهرت الاختلافات بين الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة والجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية . فيهود الولايات المتحدة ، بغض النظر عن أصولهم الإثنية والعرقية والدينية ، أصبحوا جماعة واحدة ، ومن هنا نستخدم صيغة المفرد للإشارة إليهم . وتوجد جيوب هنا وهناك مثل اليهود الأرثوذكس (في وليامزبرج) الذين يتحدثون اليديشية ، ولكن مقدرة المجتمع الأمريكي الامتصاصية الفائقة تتبدى في تحويل مثل هؤلاء إلى منظر يشاهده السياح ، أي «فُرَجَة» ، وبالتالي هميشهم تماماً ، وقد اندمج اليهود في مجتمعهم اندماجاً مديناً وبنويّاً وتقبّلهم المجتمع على أساس تقبّلهم الفكرة العلمانية الديمقراطية الأساسية .

أما يهود أمريكا اللاتينية ، فلم تُطرح أمامهم أسطورة قومية علمانية يمكنهم المشاركة فيها ، إذ أن الفكرة السائدة كانت تستبعدهم . كما أن المؤسسات القومية لم تصبغهم بصيغتها ، فاستمروا يتنمون إلى هوياتهم القديمة ، وهو ما أدّى إلى انقسامهم . ولم تكن هناك قنوات ديمقراطية يمكنهم التأثير من خلالها ، أي أن المجتمع المضيف عزل نفسه عنهم ، فقاموا هم بعزل أنفسهم عنه . ومن ثم ، عزلت كل جماعة يهودية نفسها عن الجماعات اليهودية الأخرى ، وظلوا جماعةً وظيفية وسليطة مصورة في دور اقتصادي محدّد ومُستبعد من النخبة الحاكمة . وقد حقق أعضاء الجماعة اليهودية نجاحاً اقتصادياً ، ولكنهم مع هذا احتفظوا بهامشيتهم . ورغم كل هذا الاستبعاد ، فإن مجتمعات أمريكا اللاتينية لم ترفض الزواج المختلط مع اليهود . ومن هنا نجد أنه ، مع تزايد عدد الشباب اليهودي في الجامعات ، تزايدت نسبة الزواج ، الأمر الذي يتجّ عن الانصهار الكامل وليس الاندماج .

وكل هذه الفروق تبين أن ثمة نموذجاً تفسيرياً واحداً وأساسياً ، وهو أن كل جماعة يهودية توجد داخل محيطها وتكتسب هويتها منه . وقد ذهب أحد الدارسين إلى القول بأن يهود أمريكا بروتستانت بينما يهود أمريكا اللاتينية كاثوليك . فيهود أمريكا البروتستانت قد قبلوا بالعلمانية ، وقبلوا أن يتراجع الدين ، وقبلوا قيم العملية والمرونة والبرجماتية ، كما قبلوا بالإصلاح الديني ، فانكششت اليهودية الأرثوذكسية واكتسحتهم اليهودية الإصلاحية والمحافظة وأخيراً التجديدية .

أما في أمريكا اللاتينية ، فلا تزال الحاخامية ترفض الإصلاح الديني ، تماماً كما يرفض بعض أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في

	و ١٠٪ في الأرجنتين) . وهذا يعني تزايد النفوذ الأمريكي والتعاطف مع الثقافة الأمريكية ، ولكنه يعني في الوقت نفسه المزيد من تقبلُ الجماعات اليهودية والدولة الصهيونية .
<b>الأرجنتين</b> Argentina	والواقع أن البروتستانتية التي تنتشر في أمريكا اللاتينية هي من النوع المتطرف ، أو الأصولي أو الحرفي ، الذي يؤمن إيماناً حرفياً بما جاء في العهد القديم وبأن صهيون هي دولة إسرائيل . ولذا ، تنتبأ الصحف الإسرائيلية بأن هذا التعاطف قد يترجم نفسه إلى مزيد من التأييد للدولة الصهيونية . ولكننا من ناحيتنا ، نرى أن تناقص أعداد اليهود قمين بأن يجعل كل هذه الظواهر غير ذات موضوع في المستقبل البعيد .
انظر : «أمريكا اللاتينية»	
<b>البرازيل</b> Brazil	
انظر : «أمريكا اللاتينية»	



## جنوب أفريقيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا

جنوب أفريقيا - كندا - أستراليا ونيوزيلندا

## جنوب أفريقيا

South Africa

تعدُّ الحقيقة الأساسية بالنسبة لأعضاء الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا أن المجتمع الذي يتسبون إليه مجتمع استيطاني مبني على الفصل بين الأعراق والقوميات ، فهذه الحقيقة هي التي تحدد علاقة أعضاء الجماعة بمجتمع الأغلبية وبالعالم الخارجي وبأنفسهم . وتعود أصول الجماعات اليهودية في جنوب أفريقيا إلى النشاطات الاستيطانية الغربية الأولى ، فقد كان أثر اليهود السفارد في هولندا من المساهمين في شركة الهند الشرقية الهولندية التي أسست المستوطن الأبيض عام ١٦٥٢ . وتظهر أسماء يهودية في سجلات المستوطنين الأوائل . ولأن الشركة لا تسمح بتوطين أو توظيف غير البروتستانت ، فإن الاحتمال الأكبر أنهم يهود من شرق أوروبا (من يهود اليديشية) تنصروا حتى تتاح لهم فرصة الاستيطان والحراك الاجتماعي . ولم يبدأ استيطان اليهود إلا بعد عام ١٨٠٣ تحت حكم الجمهورية الباتافية (كما كانت تُعرف الجمهورية التي أسسها نابليون في هولندا) التي اعتنقت اليهود ومنتهم حقوقهم السياسية . وقد جاء اليهود في بداية الأمر من إنجلترا وألمانيا وكوّنوا جماعة يهودية صغيرة ثرية مندمجة في محيطها الحضاري يتحدث أعضاءها الإنجليزية ، ولم يكن الانتماء الديني لأعضاء الجماعة قويا .

ومع منتصف النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتزايد معدلات النمو الصناعي في جنوب أفريقيا ، في الفترة التي تزامنت مع فترة تعثر التحديث في شرق أوروبا ، بدأت تزداد أعداد كبيرة من يهود اليديشية من ليتوانيا وبولندا بعد عام ١٨٩٠ . وكما هو الحال دائما ، لم يستقبل أعضاء الجماعة اليهودية القادمي المهاجرين الجدد بالترحاب ، بل نشأت حزازات بينهم ، ووقعت انقسامات دامت بعض الوقت بسبب الاختلاف الثقافي والعرقي والديني بين القادمي المتحدثين بالإنجليزية ويهود اليديشية . ومع هذا ، تشابك مصير الجماعتين في نهاية الأمر ، ولم يُعدَّ بإمكان اليهود الناطقين بالإنجليزية تجاهل المهاجرين الجدد ، كما لم يُعدَّ بالإمكان الامتناع عن

تقديم يد المساعدة لهم إذ كان بقاء هؤلاء الوافدين غير مُستوعِبين قابلاً لإحداث توترات في المجتمع تكسح مختلف أعضاء الجماعة في طريقها .

شكّل المهاجرون الجدد الأغلبية العظمى التي بلغت ٧٠٪ بعد وقت قصير ، وكان على المهاجرين أن ينجحوا في امتحان قراءة وكتابة إحدى اللغات التي تُكتب بالحروف الأوربية . لكن اليديشية صُنفت كلغة أوربية رغم أنها تُكتب بالعبرية ، أي آسيوية ، وذلك لتشجيع هجرة البيض . وكان معدل الهجرة يتفاوت . ففي عام ١٩٠٣ ، بلغ عدد المهاجرين ٤٢٦٥ مهاجراً ، أما عام ١٩٣٦ فبلغ عددهم ٣٠٠٣ مهاجراً ، ومع استيلاء النازيين على الحكم في ألمانيا انخفض العدد عام ١٩٣٧ إلى ٩٥٤ مهاجراً بسبب القوانين التي حذت من قبول المهاجرين والتي أصدرتها كثير من الدول الغربية ، من بينها الولايات المتحدة ، والتي حذت جنوب أفريقيا حذوها .

وكان عدد اليهود لا يزيد على أربعة آلاف عام ١٨٨٠ ، زاد إلى ٣٨ ، ١٠١ عام ١٩٠٤ (٤١ ، ٣٪ من السكان البيض) ، ووصل إلى ٦٤٥ ، ٩٠ عام ١٩٣٦ ، أي ٥٢ ، ٤٪ من السكان البيض ، وهذه أعلى نسبة بلغها أعضاء الجماعة اليهودية . وقد هبطت النسبة إلى ٤ ، ١١٪ عام ١٩٥١ . وكان عدد اليهود ٤٩٧ ، ١٠٨ ، ثم هبطت النسبة بعد ذلك إلى ٣ ، ٦٢٪ عام ١٩٦٠ ، حينما بلغ عدد أعضاء الجماعة ٧٦٢ ، ١١٤ ، ثم وصلت نسبتهم إلى ٢ ، ٦٪ من عدد السكان البيض و ٠ ، ٧٠٪ من مجموع السكان (البالغ عددهم ٣١ مليوناً) حين بلغ عددهم ١٢٠ ألفاً عام ١٩٨٩ . ويبلغ يهود جنوب أفريقيا في الوقت الحاضر (١٩٩٢) ١٠٠ ألفاً من مجموع السكان البالغ عددهم ٤ ، ٠٧٧ ، ٤٠٠ ، أي أن نسبتهم هي ٠ ، ٢٥٪ (ويذهب مصدر إحصائي آخر لعام ١٩٩٥ إلى أن عدد اليهود في جنوب أفريقيا ١١٤ ألفاً) . ويعود هذا التناقض إلى أن معدل زيادة أعضاء الجماعة اليهودية كان أحياناً في التراجع ، بينما كان معدل زيادة السكان البيض أحياناً في الصعود . فقد كان السكان البيض يزدادون بنسبة ٢ ، ٢٦٪ ، ولم تكن نسبة الزيادة بين اليهود تتجاوز ١ ، ٧٧٪ في الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٦٠ . وفي الفترة من ١٩٥٠

العالية الذين يمكنهم أن يحققوا حراكاً اجتماعياً في مجتمعات أخرى. ويُلاحظ أيضاً أن نسبة كبيرة من العناصر الشابة المهتمة بهويتها اليهودية، أي الصهاينة، تهاجر إلى إسرائيل. كل هذا يعني أن الجماعة اليهودية بدأت تقعد القيادات اللازمة وعناصر التماسك الداخلي، كما أن المتوسط العمري أخذ يزداد حتى أن أكثر من ٢٠٪ من أعضاء الجماعة ممن تجاوز الستين.

٥ - تزايدت معدلات الاندماج والعلمنة بين أعضاء الجماعة اليهودية، ويتجلى ذلك في تزايد معدلات الطلاق حيث تنتهي زوجة من كل ثلاث بالطلاق، كما يتجلى في معدل الزواج للمختلط الذي وصل إلى ١٦٪، وهو معدل مرتفع بمقاييس جنوب أفريقيا رغم انخفاضه مقارنة بمعدل الزواج المختلط في الولايات المتحدة على سبيل المثال. وربما لم تزد النسبة عن ذلك لأسباب ترجع إلى حركيات مجتمع جنوب أفريقيا بغض النظر عن مدى تماسك أو ضعف الجماعة اليهودية في حد ذاته. ومن بين هذه الأسباب أن ثقافة المهاجرين لا تزال ذات فعالية في جنوب أفريقيا على عكس ما يحدث في الولايات المتحدة. فالناخب الشقائي العام في جنوب أفريقيا، والذي يشجع على عزل الجماعات الإثنية والعرقية الواحدة عن الأخرى، ساهم في إبطاء عملية الاندماج. كما أن في جنوب أفريقيا لا توجد فيها ثقافة موحدة فهناك تنافس دائم بين الثقافة الهولندية (الأفريكانز) والثقافة الإنجليزية، الأمر الذي أتاح لليهود فرصة الحفاظ على شيء من الهوية، فلم يمارس أحد الضغط على اليهودي ليسيقت هويته كما حدث في الولايات المتحدة حيث نجد أن أسطورة بوتقة الصهر التي كانت سائدة في المجتمع، شجعت اليهود على التخلص من ثقافتهم بأسرع ما أمكن (ومن ذلك الثقافة اليديشية) واكتساب الثقافة الأجلو أمريكية وعلى التأمرك الكامل. فالحراك في الولايات المتحدة كان ولا يزال مرتبطاً بالاندماج والانصهار، على خلاف جنوب أفريقيا حيث يمكن تحقيق الحراك مع الاحتفاظ بالهوية. وربما كان هذا من الأسباب التي ساعدت على استمرار اليديشية بعض الوقت. ومع هذا، يجب الإشارة إلى أن مجتمع الأغلبية، رغم تشجيعه الفصل بين الأعراق والأقليات والأقوام، لم يعترف بأعضاء الجماعة اليهودية إلا باعتبارهم يهوداً، وهو ما يعني أنهم كان عليهم الاختيار بين هوية الأفريكانز (الهولندية) والهوية الإنجليزية. وقد اختار عدد صغير من أعضاء الجماعة اليهودية الهوية الأولى واختارت أغلبيتهم العظمى الهوية الإنجليزية. ولا شك في أن هذا سيساعد على انصهار من بقي من أعضاء الجماعة اليهودية، الأمر الذي سيزيد معدلات الاندماج.

إلى ١٩٦٠، كانت نسبة زيادة اليهود نصف نسبة زيادة السكان البيض. ويعود تناقص أعداد اليهود إلى الأسباب التالية:

١ - يلاحظ أن معدل نسبة المواليد بين أعضاء الجماعة أقل من المعدل بين الأقلية البيضاء، وهذا بدوره يعود إلى انخفاض نسبة الخصوبة بين اليهود لعدة أسباب من بينها عدم الإحساس بالأمن (وقد وُصفت الجماعة اليهودية بأنها أكثر الأقليات عصبية وتوتراً في العالم) وتتركزهم في المدن حيث بلغ عددهم ٤٩٠، ٥٧ في جوهانسبرج و ٦٥، ٢٥ في كيب تاون (أي ٨٣٪ حسب إحصاء أوائل السبعينيات). كما اختفت الجماعات الرفيعة تقريباً ولم يبق سوى ثلاثة آلاف يهودي خارج المدن. ومعدل التكاثر بين سكان المدن عادة ما يكون أقل من نظيره بين سكان الريف، وخصوصاً إذا عرفنا أن أعضاء الجماعة اليهودية من أكثر الجماعات الدينية أو العرقية ثراء في العالم، فشمعة علاقة تناسب عكسي بين ارتفاع الدخل ونسبة المواليد. وكذلك، فإن معدلات الطلاق بينهم مرتفعة جداً، حيث تنتهي ٣٣٪ من الزيجات بالطلاق، كما أن ضعف مؤسسة الأسرة يؤثر على نسبة المواليد أيضاً.

٢ - تناقص عدد المهاجرين إلى جنوب أفريقيا. ومن المعروف أن يهود روسيا وأوكرانيا وغيرهما من دول الكومنولث (بعد تفكك الاتحاد السوفيتي) يتجهون أساساً إلى الولايات المتحدة أو إسرائيل. ومع هذا، تجرد الإشارة إلى أنه، منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحالي، هاجر إلى جنوب أفريقيا من إسرائيل نحو ٢٠ ألف إسرائيلي، كما هاجر إليها كثير من يهود زمبابوي بعد استقلالها. ويبدو أنها نسبة غير مهمة ولم تؤثر كثيراً في البنية السكانية للجماعة اليهودية، فحتى عام ١٩٣٦، ومع وجود هجرة من الخارج، كان نصف يهود جنوب أفريقيا من المولودين خارجها. أما في الوقت الحالي، فإن الأغلبية العظمى من مواليد جنوب أفريقيا.

٣ - يلاحظ تزايد نسبة النزوح عن جنوب أفريقيا بين أعضاء الجماعة اليهودية ابتداءً من الستينيات، وذلك مع بداية حركة المقاومة السوداء ضد الحكم العنصري. وقد هاجر في العقدين الماضيين ما بين ٢٠ و ٣٠ ألف يهودي، كما هاجر بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ نحو ٦٤ ألف يهودي من جنوب أفريقيا إلى أستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة، ولم يذهب منهم سوى أربعمائة إلى إسرائيل. كما يلاحظ أن معظم المهاجرين من الشباب، ويُقال إنه لا توجد أسرة واحدة لم يهاجر أحد أبنائها من الشباب. وربما كان أحد أسباب إحصائهم عن الاستيطان في إسرائيل، عدم الرغبة في تأدية الخدمة العسكرية.

٤ - يلاحظ أن العناصر الشابة المهاجرة هم عادةً من ذوي الكفاءات

والصناعات الدقيقة مثل المعدات الإلكترونية والهندسية ، أو في المشروعات الضخمة مثل تخطيط المدن وبناء المجمعات السكنية والإدارية . وبرزت هذه الأجيال من اليهود في تأسيس شركات التأمين والإعلانات ووسائل الترفيه والفنادق والتمويل والاستيراد والتصدير . ورغم عدم تواجدهم الآن ، إلا بأعداد ضئيلة للغاية في القطاع الزراعي ، فقد كان لهم دور فعال في إدخال التقنيات العلمية الحديثة على هذا القطاع .

وبأخذ الحراك الاجتماعي للمهاجرين اليهود عادةً شكل التحرك من التجارة إلى الصناعة الحقيقية ومنها إلى المهن الحرة . وهذا ما حدث في جنوب أفريقيا ، إذ يوجد من اليهود عدد كبير في المهن الحرة (الطب والقانون والمحاسبة والهندسة والجامعات) .

ويلاحظ تركيز أعضاء الجماعة اليهودية في قطاعات اقتصادية بعينها ، وغياهم عن البعض الآخر ، فنجد أن ٤٩٪ من أعضاء الجماعة اليهودية يوجدون في قطاع التجارة مقابل ٢٢٪ من البيض ، و ٢٥٪ في قطاعات الخدمات مقابل ٢٣٪ من البيض ، و ١٧٪ في الصناعة مقابل ١٨٪ من البيض ، أي أن ٩١٪ من أعضاء الجماعة اليهودية مركزون في قطاعات بعينها مقابل ٦٣٪ من البيض . ويظهر التفاوت الشديد في قطاعي الزراعة والمناجم إذ لا يتواجد أعضاء الجماعة اليهودية فيها إلا بنسبة ٩ ، ١٪ بينما نجد أن نسبة البيض من غير اليهود تصل إلى ١٥٪ . ويجب ملاحظة أن الفئحة الصغيرة التي تعيش من الزراعة تضم في صفوفها ملاك مزارع البطاطا والذرة من اليهود ، كما يضم قطاع المناجم الكوادر الإدارية اليهودية العاملة فيه ، وهو ما يعني أن تمثيل أعضاء الجماعة اليهودية في هذين القطاعين أقل من ٩ ، ١٪ . وبطبيعة الحال ، لا يوجد تمثيل يهودي بين السود ، ولا بين الفلاحين أو المزارعين ، ولا بين العمال ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية مركزون أساساً في صفوف الطبقة الوسطى البيضاء . وقد انخرطوا في سلكها تماماً وأصبحتوا جزءاً لا يتجزأ منها ، بمعنى أنهم فقدوا سمة الجماعة الوظيفية . ولكن ، مع هذا ، تجب الإشارة إلى أن الطبقة الوسطى في جنوب أفريقيا طبقة وسطى استيطانية ، وهو ما يجعلها ذات سمات خاصة ، فعلاقتها بالطبقة العاملة السوداء تختلف تماماً عن علاقة الطبقة الوسطى في بلد مثل فرنسا مع الطبقة العاملة فيها . فالجيوب الاستيطانية الغربية كلها جيوب وظيفية تلعب دوراً حيوياً ومهماً في استغلال المناطق التي توجد فيها لصالح العنصر الأبيض المهيمن الذي يدين بالولاء للحضارة الغربية ، وليس لديه أي نزوع قومي محلي . ومن ثم ، فهي لا تحمل فكراً قومياً ، وتحاول أن توقف عمليات التحديث بالنسبة للسكان الأصليين .

وبالفعل ، فلإن من كان يتحدث اليديشية لم يكن يتجاوز ٨٦١ ، ١٧ عام ١٩٣٦ ، وانخفض هذا العدد ليصبح ٩٧٠ ، ٩ معظمهم من كبار السن عام ١٩٥١ . بل يبدو أن اليديشية قد اخفت تقريباً في جنوب أفريقيا ، فلا توجد أية إشارات إليها في صحف أعضاء الجماعة اليهودية أو مجلاتهم . وصورة الشباب اليهودي الآن هي بعمامة صورة شباب يتباهى بيهوديته ، ولكنه لم يستوعب أي شيء مما يُسمى «التاريخ اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» . فالثقافة التي تشرتها والمعايير التي تنبأها هي في الجوهر ثقافة ومعايير الناظرين بالإنجليزية .

كل العناصر السابقة دعت بعض المحللين إلى التنبؤ بأن عدد أعضاء الجماعة اليهودية لن يزيد عن ٦٤ ألفاً مع نهاية القرن الحالي . والجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا ، بهذا المعنى ، تنضوي تحت هذا النمط اليهودي العام الذي يُطلق عليه «موت الشعب اليهودي» . ويُلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا من الإشبكانز أساساً ، وإن كانت توجد جماعة سفاردية صغيرة في كيب تاون . وأكبر تركُّز يهودي في الترنسفال (٦٥٪ من كل أعضاء الجماعة) في منطقة جوهانسبرج ، إذ تضم مدينة جوهانسبرج وحدها ٦٢٠ ، ٦٣ يهودياً ، أي أكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا .

لعب أعضاء الجماعة اليهودية من الإنجليز دوراً مهماً في تطوير القطاعين الزراعي والصناعي في اقتصاد استيطاني متبني ، فساهموا بخبرتهم في توثيق الصلات الاقتصادية بين الكيب وبريطانيا عن طريق إنشاء المراكز التجارية والمصرفية وتنظيم النقل البحري ، واهتموا أيضاً بتربية الماعز لنسج الموهير والمواشي عامة لصفوها وجلدها ، وبرعاية النعام وصيد الفقم والحيتان والأسماك . وكان يهود الكيب بين أول العناصر الاستيطانية الشيطنة التي توجهت إلى حقول الماس والذهب فور اكتشافها وكوّنوا ثروات سريعة من ورائها . أما يهود اليديشية ، فكانوا يستقرون بعض الوقت في كيب تاون ، ثم ينطلقون نحو المناطق الريفية أو المدن الجديدة باعة جائلين أو مقبضين وحرفيين في قطاع الحياطة وصناعة الأحذية والتجارة والبناء . وكان ميراثهم الاقتصادي هو الذي يحدد نوع الحرف التي يختارونها .

وقد أصبح أعضاء الجماعة اليهودية من رواد بعض الصناعات المحلية ، مثل الفولاذ والزجاج والمعلبات والأنسجة والملابس والسلع الجلدية والمفروشات ، التي تتسم معظمها بقربيها من المستهلك ، أي أنها ليست في مراحل الإنتاج الأولى . كما أن الأجيال الجديدة من اليهود ساهمت منذ الحرب العالمية الثانية في



باستمرار ضمن إطار سياسة البيض ، و بوصفهم أعضاء في أحزاب سياسية تقتصر على البيض لا باعتبارهم يهوداً . وهناك أعضاء يهود في البرلمان وشيوخ ومستشارو مقاطعات ومدن ، ولكن الأغلبية العظمى منهم قد انتخبوا ، من قِبَل ناخبين بيض ، ممثلين للحزب الموحد وحزب العمال والحزب التقدمي . وفي الفترة التي سُمح فيها للسود بتمثيل شكلي في المناصب التشريعية على المستويين الوطني والإقليمي ، عن طريق أعضاء بيض ، انتخب السود لتمثيلهم أعضاء يهوداً في الحزب الموحد والحزب الشيوعي والحزب الإصلاحي .

ويلاحظ تركيز أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية في الأحزاب التي تتنافس مع الحزب الوطني الحاكم وتعارضه ، ولكن معارضتها تنصرف إلى الطريقة التي يتم بواسطتها الحفاظ على السيطرة البيضاء ولا تشمل مبدأ السيطرة نفسه . ولكن يمكن تفسير هذا أيضاً بالعودة إلى وضع أعضاء الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا ، فموقفهم الليبرالي انعكاساً للتركيبة الاجتماعية الاقتصادية لسكان جنوب أفريقيا من اليهود . ودعاهم للمعارضة البرلمانية هو تعبير عن انتمائهم إلى القطاع الذي يتحدث الإنجليزية وعن تركيزهم في المناطق الحضرية ، وعن أنهم يقعون ضمن مجموعات الدخل الأعلى . وقد استمدت أحزاب المعارضة البرلمانية الدعم من هذه القطاعات البيضاء التي ينتمي إليها اليهود .

ولقد شهدت فترة أواخر الأربعينيات جفاء واضحاً بين الحزب الوطني والجماعة اليهودية . فالحزب الوطني كان حزباً نازياً ذا صلات نازية واضحة ، وكانت معاداته لأعضاء الجماعة اليهودية واضحة إذ تبنت سياسة معادية لهجرتهم إلى جنوب أفريقيا في الثلاثينيات ، كما كان يرفض عضويتهم في بعض المناطق . ورغم كل هذا ، فقد حدث تقارب يستند إلى التعهد الضمني لليهود بعدم استنكار سياسة التفرقة اللونية مقابل أن يضمن الحزب مصالحهم واندماجهم وتمتعهم بزوايا التفرقة اللونية مع بقية السكان البيض .

ويشكل عام ، يمكن القول بأن الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا جماعة صغيرة ليست لها أهمية ذاتية ، وأنها مندمجة في المجتمع الأبيض ومعتمدة عليه بينما لا يعتمد هو عليها في شيء ، كما أنه لا يحتاج إليها بمقدار احتياجها إليه وإلى مؤسساته لتضمن لنفسها البقاء .

وقد انعكس هذا على موقف الجماعة اليهودية من كثير من القضايا ، فالجماعة اليهودية هناك تؤثر الصمت بشأن قضايا الكفاح ضد التفرقة اللونية . وتُعرف المؤسسات اليهودية هناك دورها بأنه يهدف إلى الدفاع عن حقوق أعضاء الجماعة اليهودية وحسب ولا

ورغم انتماء أعضاء الجماعة اليهودية إلى الطبقة الوسطى ، ورغم أنهم يشكلون أكثر أقبليات العالم ثراءً ، فإنهم ليسوا جميعاً (بطبيعة الحال) من الأثرياء ، إذ يوجد في صفوفهم الفقراء . وقد جاء في إحدى الإحصاءات أن عُشر العائلات اليهودية في كيب تاون احتاجت إلى مساعدة مالية عام ١٩٦٨ .

ويُقرن المستوطنون البيض بين المستوطنين الصهاينة وأنفسهم ، كما يقرونون بين الشعب اليهودي والشعب المستوطن في جنوب أفريقيا ، فهم يرون أن اليهود ، مثلهم ، شعب مختار يحمل رسالة خالدة ، وأن كلا الشعبين عُرس غرساً في أفريقيا أو آسيا دفاعاً عن هذه الرسالة . كما يرى البيض أن المستوطنين الصهاينة يدلون أقصى جهدهم للاحتفاظ بعزنتهم عن السكان الأصليين . ولعل تغلغل الأساطير والرموز التوراتية في الخطاب الاستعماري الاستيطاني (اليهودي وغير اليهودي) يظهر بشكل واضح في جنوب أفريقيا . فهم يحتفلون بيوم الميثاق في ١٦ ديسمبر من كل عام ، إذ يعتبرونه اليوم الذي عقد الإله فيه ميثاقه مع بعض الأفريكاز (الفورتركر Voertrekker) الذين أتروا الاستقلال عن الإنجليز . وقد عُقد الميثاق قبل المواجهة التي تمت بين البيض والسود في معركة نهر الدم . وقد أصبحت المعركة رمزاً لكل الأفريكاز . ويُعقد الاجتماع في مكان يوجد فيه تلّ عالٍ بُنيت عليه سفينة ضخمة (ترمز لسفينة العهد) تواجه برنوريا ، فكان هذا المكان هو قدس الأقداس لقومية الأفريكاز .

ولقد وصف أحد المفكرين البيض في جنوب أفريقيا أعضاء الجماعة اليهودية بأنهم شعب الأبارتهايد ، أي التفرقة اللونية . ويصنّف أعضاء الجماعة اليهودية ، كما تقدّم ، باعتبارهم شعباً أبيض البشرة غربياً ، وقد ساهمت هذه الرؤية في تعميق اندماج اليهود بحيث أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم الاستيطاني وأصبحوا من أكثر قطاعاته استفادةً من وضع عدم التكافؤ الذي يسود مجتمع التفرقة اللونية ، وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من البنية الاقتصادية المهيمنة في مجتمع جنوب أفريقيا ، وارتبط مصيرهم بمصير الجماعة البيضاء . وقد انعكس ذلك على مشاركتهم في النظام السياسي إذ لا يوجد صوت يهودي متميز ، فحين يرشح أحد أعضاء الجماعة اليهودية نفسه لمنصب ما فهو عادةً ما يعتمد على أصوات غير اليهود وعلى دعمهم إلى درجة كبيرة . ومعظمهم يمثل الناخبين البيض من سكان المدن على المستوى الوطني . وحينما يلعب اليهود دوراً أساسياً في إيصال أحد أعضاء الجماعة إلى مجالس المقاطعات أو المدن ، وذلك في الحالات الشاذة التي يوجد فيها أعداد كبيرة من الناخبين تكفي لتحديد نتيجة المعركة الانتخابية ، فإنهم يفعلون ذلك

يجد أن يهود جنوب أفريقيا أكثر يهود العالم إسهماً في المساعدات المالية ولكنهم لا يتباهون كثيراً بأعداد المهاجرين إلى إسرائيل بل يخفون عن الأنظار .

ومن المشاكل الأخرى ، التي يواجهها يهود جنوب أفريقيا ، مشكلة موقف إسرائيل من جنوب أفريقيا . فرغم ارتباط المصالح وتزايد العلاقات ، قررت إسرائيل في الستينيات تحسين علاقاتها مع الدول الأفريقية كمحاوله لفك الحصار العربي حولها ، فكانت تدلي بصوتها في هيئة الأمم ضد جنوب أفريقيا ، الأمر الذي خلق توتراً بين الدولة وأعضاء الجماعة . وهذا تعبير عن نمط متكرر ، فللدولة الصهيونية مصالحها التي تتجاوز مصالح أعضاء الجماعات اليهودية بل تتناقض معها أحياناً . وحينما تصل الدولة الصهيونية إلى هذه النقطة ، فإنها عادةً ما تسقط الحديث عن إنقاذ اليهود أو رعاية مصالحهم في كل أنحاء العالم ، بل تنصرف مثل أية دولة بما تلميه عليها مصالحها . وقد يكون هذا على أية حال ترجمة فعلية لمفهوم «مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا» ، أي أن أعضاء الجماعات ليسوا سوى أداة في يد الدولة ، كما أن الدولة لم تُخلق من أجلهم وإنما أنشئت كي يقوموا هم على خدمتها .

ومن المردودات السلبية الأخرى للعلاقة القوية بين يهود جنوب أفريقيا والصهيونية وإسرائيل أن ارتباط اليهود بالجماعة البيضاء يعني أن مصيرهم ارتبط بمصير هذه الجماعة . ويُلاحظ أن السكان السود ، كما هو متوقع ، يربطون بين إسرائيل وجنوب أفريقيا ويوحدون بينهما ، وهو ما ينكس على موقفهم من أعضاء الجماعة . ولذا ، نجد أن القيادات السوداء توجه بالثقل إلى أعضاء الجماعة لسكوتهم وحيادهم المزعوم وإسهامهم في سياسة التفرقة اللونية واستفادتهم منها . وقد لاحظنا وجود عدد كبير من أصحاب الأعمال اليهود الذين يستخدمون العمال السود ويطبقون عليهم المعايير السائدة في المجتمع ، كما هو متوقع في مثل هذه الأحوال ، وهي معايير عنصرية استغلالية بشكل بشع . كما يُلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية ، نظراً لثرائهم الشديد وتركزهم في التجارة والصناعة ، سينتأرون بشكل عميق لو تغير تركيب المجتمع وسيطرت العناصر السوداء على المجتمع وحقت شيئاً من الحراك أو ما قد يتبع ذلك من تأميم وأفرقة .

وما يعقب استيلاء الجماعات السوداء وجود عدد صغير من أعضاء الجماعة اليهودية الذين نشطوا ، بوصفهم ضباط بوليس كباراً ومدعين عامين وقضاة ، في فرض القوانين العنصرية ، أي أن هذه العناصر اليهودية أداة في يد المؤسسة تستخدمها في قمع السود . ولكن لا بد من القول بأنهم مجرد أقلية صغيرة هامشية لا تمثل الجماعة

علاقة لها بالقضايا الأخرى (وهذا موقف صهيوني قمع) ، فهي تلتزم الحياض تجاهها وترك لكل يهودي حرية اختيار الموقف الذي يراه . وفي الثلاثينيات ، أخذ كثير من أعضاء الجماعة اليهودية موقفاً عنصرياً ضد الهنود ولا يزال موقفهم من السود لا يختلف في أساسياته عن موقف البيض . ولذا ، التزمت الجماعة الصمت عام ١٩٥٧ عندما صدر قانون يحظر كل تجمع مختلط بين البيض والسود ، حتى ولو كان التجمع له هدف ديني في كنيسة مثلاً . وقد احتج معظم رجال الدين من إنجليكان وكاثوليك وپروتستانت ، حتى رؤساء الكنيسة الهولندية الإصلاحية . ولم يعترض رجال الدين اليهودي لأن الأمر لا يعينهم ، إذ لا يوجد يهود سود أو ملونون أو آسيويون في جنوب أفريقيا . وكذلك لم تنفوه المؤسسة اليهودية بكلمة عندما وقعت مجزرة شاريفيل ، وقد تذرعو بالملق نفسه . ولكنه منطوق يتسم بالخلل . فممثلو الجماعة يعارضون الشيوعية ويصفون العنف الأسود بأنه عمل تخريبي ، ويعلنون إخلاصهم للنظام القائم في جنوب أفريقيا وللصهيونية وإسرائيل ، وهم يفعلون ذلك كجماعة ، أي أن لهم مواقف سياسية واضحة أكيدة .

وهذا الموقف تدعمه المنظمة الصهيونية وعمقه تزايد صهيونية الجماعة اليهودية . وقد لاقى الصهيونية معارضة في بداية الأمر في العشرينيات من الشيوعيين ودعاة اليديشية وغيرهم ، ولكنها اكتسحت الجماعة اليهودية تماماً بسبب طبيعة تكوين المجتمع باعتبار أن الصهيونية عقيدة استيطانية تشبه تجرمة التفرقة اللونية . بل يُلاحظ أن أهم المؤسسات اليهودية في جنوب أفريقيا هي المنظمة الصهيونية التي أصبحت تمثل المظلة التي تستظل بها المنظمات والمؤسسات اليهودية الأخرى . والصهيونية تعمق ولا شك من اندماجهم وتزودهم بإطار عقائدي يقرب بينهم وبين أعضاء المجتمع الاستيطاني ويصلح أساساً للقاء بينهم وبين مجتمع الأغلبية .

وللظاهرة نفسها نتائج متناقضة مع سابقتها . فعلى سبيل المثال ، يتحقق المثل الصهيوني الأعلى بالهجرة الاستيطانية إلى فلسطين ، ولكن جنوب أفريقيا نفسها مجتمع استيطاني يتبدى الانتماء إليه في شكل عدم الهجرة منه . ولذا ، فإن الصهيونية هنا تعبير عن ولاء مزدوج حقيقي لوطنيين استيطانيين . وقد اتهمت بعض الأوساط يهود جنوب أفريقيا بأنهم يؤثرون مصلحة إسرائيل على مصلحة وطنهم . وربما ، لهذا السبب ، يمكن أن نقول إن صهيونية يهود جنوب أفريقيا صهيونية توطينية بالدرجة الأولى ، تأخذ فقط شكل إرسال مساعدات مالية إلى إسرائيل . وبالفعل ،

والمنظمات اليهودية في جنوب أفريقيا تشبه ميلتها في إنجلترا ، وهي مجلس المندوبين South African Jewish Board of Deputies . ويوجد مركزه الرئيسي في جوهانسبرج ، وله فروع في عدة مدن أخرى . ويضم المجلس كل المنظمات والهيئات اليهودية ، وهو معترف به من قِبَل الحكومة ، ولكن القيادة الفعلية في يد المنظمة الصهيونية التي تحرك النشاطات اليهودية كافة ، ولا توجد عناصر يهودية قوية مناوئة للصهيونية .

وتصُدِّر في جنوب أفريقيا عدة مجلات وصحف خاصة بالجماعة اليهودية معظمها بالإنجليزية وبعضها باليديشية ولغة الأفريكانز .

### كندا

Canada

دولة في أمريكا الشمالية بدأت كتجمع استيطاني للمهاجرين والمغامرين من أوربا ، وهي جمهورية فيدرالية مكونة من تسع ولايات . ورغم أن بضعة أفراد يهود استوطنوا كندا إبان الاستيطان الفرنسي ، فإن استيطان اليهود بدأ مع سقوط كندا في قبضة البريطانيين عام ١٧٥٩ . وقد بلغ أعضاء الجماعات اليهودية ١١١٥ يهودياً حتى عام ١٨٧١ ، و٢٣٩٣ عام ١٨٨١ .

ولكن ، مع مرحلة التحديث المتعثر في روسيا والانفجار السكاني بين يهود اليديشية ، بدأت تصل أفواج المهاجرين منهم إلى أمريكا الشمالية وتوجهت أغلبيتهم إلى الولايات المتحدة . كما توجهت أعداد منهم إلى كندا ، فبلغ عددهم عام ١٨٩١ حوالي ٦٤١٤ ، وقفز إلى ١٦ ، ٤٩٣ مع حلول عام ١٩٠١ ، ثم قفز عام ١٩١١ إلى ٧٥ ألفاً خلال أحد عشر عاماً . وقد زاد عددهم عن طريق الهجرة إلى ١٥٦ ، ٧٢٦ عام ١٩٣١ ، أي ١ ، ٥١٪ من عدد السكان . وفي عام ١٩٤٠ ، بلغ العدد ١٦٧ ألفاً مركزين أساساً في مونتريال حيث يبلغون ٦٣ ألفاً ، وفي تورنتو ٥٧ ألفاً .

وقد اندمج المهاجرون في الحياة الثقافية والاقتصادية في كندا بسبب عدم وجود قوانين تمييزٍ ضدهم أو بنية اقتصادية ترفضهم أومرور لا تشملهم ، وبسبب وجود نظام تعليمي علماني قومي جيد . فتجربتهم ، في هذا ، تشبه تجربة يهود الولايات المتحدة (اليهود الجدد) . ولم يلعب اليهود دوراً فريداً في الحياة الاقتصادية الكندية ، وإن كان بناؤهم الطبقي والوظيفي تأثر بعض الشيء بميراثهم الاقتصادي الأوربي ، ولعل هذا هو سبب تركّزهم في صناعة الملابس والفراء والتبغ (ومن هنا ظاهرة البائع المتجول

اليهودية تماماً مثل تلك العناصر اليهودية الثورية الراضة للترفة العنصرية .

ويعود تاريخ هذه العناصر الثورية إلى بداية هذا القرن حين حضرت مع المهاجرين عناصر من حزب البوند ومن دعاة القومية اليديشية وغيرهم من يحملون أفكاراً ثورية بل وفوضوية . وقد عارض كل هؤلاء الصهيونية والعنصرية . ويعد اندماج اليهود واختفاء اليديشية تقريباً ، ظهرت عناصر ثورية منظرية يهودية . فعلى سبيل المثال ، ثمة وجود يهودي ملحوظ بين مؤسسي الحزب الشيوعي وأعضائه وكثير من الجماعات الثورية التي تُوصَف بأنها تخريبية أو إرهابية والتي تضم أعداداً كبيرة من اليهود تصل نسبتهم فيها أحياناً إلى ٥٠٪ . ويساهم كثير من الشباب اليهودي الثوري في تنظيم حركة نقابات العمال السود ، وكذلك كثير من شخصيات المعارضة من اليهود مثل : هيلين سوزمان (الناشطة اليهودية التي انفصلت عن الحزب الموحد لتبني البرنامج العنصري) ، وسام كاهن (النائب السابق) ، وفرد كارنسون (العضو السابق في مجلس الكيب) . ورغم أن أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية ومختلف المؤسسات اليهودية تلتزم الصمت الذي تطلق عليه «الحياة» ، فإن هذه الأقلية الثورية الصغيرة أقلية نشيطة وتسبب كثيراً من الحرج لأعضاء الجماعات اليهودية ولقياداتها إذ يطلب المجتمع منهم ، وهم تجمعٌ مبني على فكرة الجماعات العرقية والهوية الجمعية ، أن يكبحوا جماح الثوريين في صفوفهم . وتنتشر في المجتمع صور عنصرية عن «اليهودي الثوري» و«اليهودي الفوضوي» وهو ما يغذي مشاعر معاداة اليهود ، تماماً كما تنتشر في صفوف السود صورة «اليهودي الشرطي» و«اليهودي أداة القمع» .

وأغلبية يهود جنوب أفريقيا من الأرثوذكس ، إذ تبلغ نسبتهم ٨٠٪ ، وهناك ٢٠٪ أغلبيتهم من الإصلاحيين وأقليتهم من المحافظين . وربما يرجع هذا إلى أن مجتمع جنوب أفريقيا مجتمع محافظ دينياً ، تسيطر عليه كنيسة قومية تتمسك بالتقاليد ولا تحيد عنها . ومن ثم ، انعكس هذا على السلوك الديني لليهود وعلى اليهودية كتنسق ديني . بل نجد أن اليهودية الإصلاحية تأثرت بالجو الشدد المحيط بها ، فهي تتبع أنماطاً أكثر تقليدية ، كما أنها ذات توجه صهيوني . ولذا ، فهي تهتم بالعناصر الفلكلورية الإسرائيلية من رقص وغناء . وقد أغلقت كثير من المعابد اليهودية في القرى والمناطق الزراعية بسبب تزايد تركّز اليهود في المدن ، وتناقص عددهم ، وتزايد معدلات العلمنة ، ونزوح أعداد منهم إلى إسرائيل وأستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة بطبيعة الحال .

تعميق الانقسام بين الجماعة إلى سفارد يتحدثون الفرنسية وإسكناز يتحدثون الإنجليزية . وفي عام ١٩٩٢ ، بلغ عدد يهود كندا ٣٥٦ ألف نسمة من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٧,٧٥٥,٠٠٠ نسمة . وتمرکز غالبية أعضاء الجماعة اليهودية في مدينتي تورنتو : ٦٠٥, ١١٢ ، ومونتريال : ٢١٠, ١٠١ . وصهيونية يهود كندا من النوع التطبيني لا الاستيطاني ، ولذا فإن عدد المهاجرين منهم صغير جداً . ويعاني يهود كندا من ظاهرة موت الشعب اليهودي إذ تتزايد بينهم الهجرة (إلى الولايات المتحدة) . وقد تناقص عدد المهاجرين إلى كندا وتزايدت معدلات الاندماج والزواج المختلط والإحجام عن الزواج والإنجاب . والجماعة اليهودية في كندا مسنة ١٧,٣٪ من تجاوزوا الـ ٦٥ (مقابل ١٠,٨٪ على المستوى القومي) و ١٧,٥٪ بين ٣٥-٤٤ (مقابل ١٦,٢٪ على المستوى القومي) والمستوى التعليمي ليهود كندا مرتفع جداً ١, ٥٢٪ من بين اليهود في المرحلة العمرية ٢٥-٤٤ من خريجي الجامعات (مقابل ١٦,٥٪ على المستوى القومي) .

ومن أهم المنظمات اليهودية في كندا المؤتمر اليهودي الكندي Canadian Jewish Congress . وهي المنظمة المركزية للجماعة اليهودية في كندا والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي ، وقد تأسست عام ١٩١٩ وأعيد تنظيمها عام ١٩٣٤ . ويقسم الاتحاد الصهيوني الكندي مختلف المنظمات والتجمعات الصهيونية المختلفة في كندا .

#### أستراليا ونيوزيلندا

Australia and New Zealand

كان اليهود ضمن أوائل المستوطنين في أستراليا . فقد كان ضمن للمجرين الذين أبعدهوا إلى أستراليا ، عام ١٧٨٨ ، ستة يهود (ويقال ثمانية أو ربما أربعة عشر) من بينهم جون هاريس الذي أصبح أول شرطي فيها ١ وقد أدى اكتشاف الذهب ، في منتصف القرن التاسع عشر ، إلى زيادة هجرة اليهود .

ولم يكن لأعضاء الجماعة اليهودية معابدهم وتنظيماتها الطائفية الخاصة بهم إلا مع قدوم المستوطنين اليهود الأحرار ، الذين كان يوجد بينهم بعض أعضاء العائلات اليهودية البريطانية المرموقة مثل عائلتي روتشيلد ومونتيفوري الذين قدموا خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر . وقد تركّز أكثر أعضاء الجماعة اليهودية في المهن التجارية والحرفية وفي صناعة الملابس وامتلاك وإدارة الحوانيت والفنادق الصغيرة .

اليهودي في السنوات الأولى بعد الهجرة ، وهي ظاهرة لا شك في أنها قد اختفت بين أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم من جماعات المهاجرين) . وقد حقق أعضاء الجماعة اليهودية حراكاً اجتماعياً مدهشاً . ونشرت مؤرخاً دراسة إحصائية عن الدخل المالية لسنة وسبعين جماعة إثنية مختلفة في كندا ، وبيّنت الدراسة أن متوسط دخل الذكور اليهود في كندا (٤٧ ألف دولار) وهو أعلى دخل حققه أي عضو في أية جماعة إثنية . وقد هاجمت جماعة أبناء العهد (بناي برت) هذه الدراسة مبينة أنها لا تؤدي إلا إلى الغيرة والتناحر بين الجماعات الإثنية المختلفة .

ومن الواضح أن معدلات الاندماج والعلمنة أخذت في التزايد بين يهود كندا ، ويرجع هذا إلى صغر حجم الجماعة وإلى تزايد هذه المعدلات في المجتمع نفسه . ففي إحصاء عام ١٩٦١ ، جاء أن ٣٨٦, ٢٥٤ يهودياً اعتبروا أنفسهم يهوداً على أساس ديني ، و٣٤٤, ١٧٣ (أي أقل من ٣١٪) عرفوا أنفسهم يهوداً على أساس إثني ، أي أنهم يهود لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية وإنما يؤمنون بالهوية اليهودية ! وبعد عشرة أعوام ، تغيرت الصورة إذ أصبح المتدينون ٥٥٥, ٢٦٧ بينما زاد عدد الإثنيين إلى ٩٤٥, ٢٩٦ ، أي أن اليهود الإثنيين أصبحوا أكثر من ٥٠٪ ، وهي تشبه النسبة في الولايات المتحدة . ونلاحظ أن أغلبية المتدينين من المحافظين والإصلاحيين ، تماماً كما هو الوضع في الولايات المتحدة ، الأمر الذي يجعل الأرثوذكس أقلية صغيرة . لكن عدد الأرثوذكس أخذ في الزيادة نتيجة هجرة بعض يهود المغرب العربي . كما أن معدلات الزواج المختلط ارتفعت للغاية ، وفاقته نظيرتها في الولايات المتحدة ، وكان لها أعمق الأثر في الجماعة اليهودية نظراً لصغر حجمها .

ويُعدُّ يهود كندا جزءاً من التشكيل الاستيطاني الأنجلو ساكسوني في كندا . ورغم وجود أعداد منهم يتحدثون الفرنسية ، فإن الأغلبية العظمى تتحدث الإنجليزية ، وضمن ذلك يهود مونتريال التي تضم نحو ثلث اليهود . وقد ولدت الحركة الانفصالية الفرنسية في مونتريال شيئاً من التوتر ليهود كندا ، إذ يحاول الانفصاليون ، أو دعاة الفرنسة ، صنع المنطقة بالصيغة الفرنسية ، وهو الأمر الذي لم يصادف هوى لدى أعضاء الجماعة اليهودية المصطبغة بالصيغة الأنجلو ساكسونية . ولذا ، هاجر من مونتريال في الثمانينيات ما بين ١٠ و ٢٥ ألف يهودي من مجموع ١١٥ ألفاً ، حتى أصبحت تورنتو تضم أكبر جماعة يهودية (١٢٥ ألفاً) . هذا وتُجِب الإشارة إلى أن يهود كندا المتحدثين بالفرنسية أغلبيتهم من السفارد المهاجرين من المغرب العربي . وربما يؤدي هذا الوضع إلى

السكان . وقد وصل عدد الجماعة اليهودية عام ١٩٩١ إلى نحو ٩٠ ألفاً من عدد السكان البالغ ١٧,٨٤٣,٠٠٠ نسمة . ويوجد أغلبية يهود أستراليا في ملبورن .

ومن الواضح أن يهود أستراليا مندمجون تماماً في مجتمعهم ، فنسبة الزواج المختلط شديدة الارتفاع بينهم ، وكذا معدلات العلمانية . وقد شكّلت مسألة الزواج المختلط مشكلة أساسية بالنسبة إلى أعضاء الجماعة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، كما أدت إلى عزوف نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة عن ممارسة الشعائر الدينية اليهودية . وقد بلغ بهم الاندماج حد أن عدداً كبيراً منهم يرفضون أن يُشار إليهم بأنهم «يهود أستراليون» ، أو حتى «أستراليون يهود» ، فهم أستراليون وحسب . ويهود أستراليا من الصهاينة التوطينيين الذين يؤيدون الدولة الصهيونية بحماس شديد ، ولكن لا تهاجر منهم سوى أعداد ضئيلة جداً . ولا يزيد متوسط الهجرة السنوية على خمسة عشر فرداً . بل يلاحظ أن كثيراً من يهود جنوب أفريقيا يؤثرون أستراليا على الدولة الصهيونية باعتبارها مجتمعاً أسترالياً ، كما أن بعض الإسرائيليين قد شقوا طريقهم إلى هناك . ومع هذا يعاني يهود أستراليا من ظاهرة موت الشعب اليهودي ويتزايد بينهم عدد المستن .

والجماعة اليهودية في نيوزيلندا صغيرة الحجم ولا أهمية لها ، وقد بلغ عدد اليهود فيها ٤٥٠٠ نسمة عام ١٩٩٢ من مجموع السكان البالغ عددهم ٤,٨٧,٠٠٠ . وهم مندمجون تماماً في المجتمع ، كما أن عددهم يتناقص بسبب الزواج المختلط . وقد بلغ عدد يهود أستراليا ونيوزيلندا معاً ٨,٥٠٠ ألف نسمة عام ١٩٩٢ .

ومن أهم المنظمات اليهودية في أستراليا : المجلس التنفيذي ليهود أستراليا The Executive Council of Australian Jewry واختصاره ECAJ . وهي المنظمة المركزية للجماعة اليهودية في أستراليا والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي ، وتبديل مقرها كل عامين بين سيدني وملبورن . ويتركز نشاطها في مجال العلاقات العامة والشئون الخارجية ومحاربة الاتراء .

أما في نيوزيلندا ، فإن أهم المنظمات اليهودية هو المجلس اليهودي لنيوزيلندا New Zealand Jewish Council ، وهي المنظمة المركزية ليهود نيوزيلندا والجهة التي تمثلهم لدى المؤتمر اليهودي العالمي . والجماعة اليهودية في نيوزيلندا عملة أيضاً في مجلس النواب ليهود بريطانيا من خلال نائبين .

ومع بداية القرن العشرين ، تغير هذا النمط الوظيفي حيث أصبح أعضاء الجماعة ، بعد أن حققوا قدراً أكبر من الحراك الاجتماعي والتعليم ، مُركّزين في الوظائف الإدارية والمكتبية والمهن والأعمال الحرة .

وقد جاء ٧٠٪ من المهاجرين اليهود في الفترة بين عامي ١٨٥١ و١٨٨٠ من ألمانيا ، و٢٠٪ من شرق أوروبا . أما في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و١٩٢١ ، فقد جاء ٦٠٪ من شرق أوروبا و٣٠٪ من ألمانيا . وقد سعى أعضاء الجماعة اليهودية في أستراليا ، وخصوصاً الأثرياء منهم ، إلى إغلاق أبواب الهجرة أمام اليهود القادمين من شرق أوروبا خلال العشرينيات ، وذلك خوفاً مما قد تسببه هجرة يهود اليديشية من تهديد لمكانتهم الاجتماعية . ولم يتغير هذا الموقف إلا بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن تبنت الحكومة الأسترالية سياسة تسعى نحو زيادة حجم الهجرة القادمة إلى البلاد .

وقد استوطن يهود أستراليا في مجتمع لا يعرف معاداة اليهود ، فهو مجتمع جديد علماني استيطاني لا يحارب الدين لأنه لا يكره به ولا بأية قيمة مطلقة ، وقيم الناس بحسب نفعهم ومقدار إنجازهم . ولعل وضع أعضاء الجماعة اليهودية في أستراليا يشبه وضع اليهود الجدد في الولايات المتحدة ، فقد طرح للمجتمع صورة قومية مركزية كان على اليهود أن يعيدوا صياغة أنفسهم وهويتهم على أساسها ، وقد فعلوا ذلك بكفاءة عالية . وساعدهم على ذلك نظام تعليمي كفء للغاية . بل إن عملة الاندماج كانت أسهل هنا لأن عدد اليهود كان صغيراً . كما أنه لا يوجد أي تقسيم بينهم ، فقد كانت أغلبيتهم من الإسكناز الذين كوّنوا وحدة واحدة متجانسة .

وقد جرت محاولة لتأسيس مدارس يهودية خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية إلا أن هذه المحاولة لم تستمر طويلاً إذ فضل أغلب أعضاء الجماعة اليهودية إلحاق أبنائهم بالمدارس البروتستانتية المرموقة التي تتيح أمام أولادهم فرصاً أكبر للحراك الاجتماعي والاندماج داخل المجتمع الاشتراكي . وقد أعيد تأسيس هذه المدارس في أعقاب تزايد حجم الهجرة اليهودية بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان عدد اليهود ١١٨٣ نسمة عام ١٨٤١ ، وصل إلى ٩١٢٥ عام ١٨٨١ ، وزاد العدد إلى ١٧,٢٨٧ عام ١٩١١ ، وإلى ٢٣,٥٥٣ عام ١٩٣٣ ، ووصل إلى ٧٠ ألفاً عام ١٩٦٨ . وعلى أية حال ، فإنهم لم يشكلوا أبداً أكثر من ٠,٦٪ من إجمالي تعداد

## الولايات المتحدة حتى منتصف القرن التاسع عشر

الولايات المتحدة: مقدمة عامة - المرحلة الكولونيالية - المرحلة الألمانية الأولى - المرحلة الألمانية الثانية

## الولايات المتحدة: مقدمة عامة

United States: General Introduction

يُمكن القول بأن تاريخ الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة، التي صارت جماعة واحدة فيما بعد، جزء لا يتجزأ من التاريخ الغربي بشكل عام والتاريخ الأمريكي بشكل خاص، ذلك أن أصولها تعود إلى هجرة الشعوب الأوروبية إلى العالم الجديد. وتعكس تجربة أعضاء الجماعة في الولايات المتحدة كل الإيجابيات والسلبيات التي تسم تجربة الإنسان الأمريكي.

ويعدُّ وصول الإنسان الغربي إلى الأمريكتين (فيما يُسمَّى «اكتشاف العالم الجديد») من أهم الأحداث التي أثرت في تاريخ الإنسان في العصر الحديث إذ فتح مجالات جديدة للاستثمار أمام الإنسان الغربي وزاد ثروته بشكل مذهل بعد أن كان الغرب من أفقر مناطق العالم. ومن هنا، اتجه الفائض السكاني الغربي (كما كان يشار إلى الأفراد الذين لم يحققوا شيئاً من الحراك الاجتماعي ولم يتمكنوا من تحقيق هوياتهم الدينية والثقافية) إلى العالم الجديد ليحقق أعضاؤه من خلال التشكيلات الاستعمارية الغربية ما فشلوا في تحقيقه داخل التشكيلات القومية الغربية. ولكن لكل عملية هجرة لها قطبان: أحدهما إيجابي هو عنصر الجذب إلى الوطن الجديد، والآخر سلبي هو عنصر الطرد من الوطن القديم. وقد ذكرنا بعض عناصر الطرد الخاصة بالمتجمع الغربي ككل حينما تحدثنا عن الفائض السكاني، وهي تنطبق على أعضاء الجماعات اليهودية انطباقها على الآخرين. ولكن عملية الهجرة إلى العالم الجديد تزامنت مع عدة عناصر طاردة خاصة بالجماعات اليهودية وحدها جعلت نسبة اليهود المهاجرين أعلى من نسب الجماعات الأخرى (ربما باستثناء الأيرلنديين). وتوجد هذه العناصر فيما يلي:

- ١ - طرد اليهود السفارد من إسبانيا، ثم استيطانهم في أنحاء العالم الغربي والدولة العثمانية.
- ٢ - هجمات شملينكي في منتصف القرن السابع عشر في بولندا والتي كانت تضم الجزء الأكبر من يهود العالم.
- ٣ - تقسيم بولندا في نهاية القرن الثامن عشر بما نتج عنه من توزيع

اليهود فيها على روسيا وألمانيا والنمسا، وما نجم عن ذلك من قلقلة وعدم استقرار.

٤ - تعثر التحديث في شرق أوروبا، ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، وكان يضم آنذاك يهود يديشية وهم أغلبية يهود العالم الساحقة، بل ووصول عملية التحديث إلى طريق مسدود في نهاية الأمر. وترك ذلك أثراً عميقاً في أعضاء الجماعات اليهودية إذ خلق لديهم إحساساً عميقاً بالإحباط، وخصوصاً أعضاء الطبقة الوسطى.

٥ - لكن من أهم الأسباب التي تهم اليهود، أكثر من أية جماعة أوروبية أخرى، أن المجتمع الأمريكي مجتمع علماني تماماً. ومع أن الديباجات والرموز الدينية المسيحية كانت منتشرة في المراحل الأولى، إلا أن كل هذه الأشياء ضمرت سريعاً وهيمنت الرؤية البرجمانية المادية النفعية حيث أصبح الحكم على كل شيء في الواقع، وضمن ذلك الإنسان، يَصدَّر عن منظور مدى نفعه (المادي). وينطلق دستور الولايات المتحدة من أطروحات الاستنارة والإيمان بالمساواة بين البشر ومن أن هدف الحياة هو البحث عن السعادة أو المتعة. وفي عام ١٨٤٠، اعترض المواطنون على حاكم جنوب كارولينا لأنه أشار إلى الثالوث المسيحي في دعاء عيد الشكر. وكان هذا الحادث من أهم الوقائع التي تدل على تراجع المسيحية حتى على مستوى الرموز العامة، وهو أمر يشكل جاذبية خاصة للمهاجر اليهودي.

٦ - يجب أن نتذكر أن المجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني، وأن أسطورة الاستيطان الغربية أسطورة عبرانية. فالولايات المتحدة كان يُنظر إليها باعتبارها صهيون الجديدة (والمستوطنون البيوريتان هم العبرانيون)، أما السكان المحليون أو الأصليون فهم الكنعانيون والعماليق من أجداد العرب. بل قدَّم اقتراح بأن تكون العبرية لغة البلد الجديد بدلاً من الألمانية أو الإنجليزية. وهذا جزء من ميراث الإصلاح الديني في الغرب حيث زاد الاهتمام بالعهد القديم وحوادثه التاريخية. ومن المؤكد أن هذا خلق تعاطفاً كامناً مع المهاجرين اليهود وجعل الولايات المتحدة ذات جاذبية خاصة لهم إذ أن النسق الرمزي لا يستبعدهم.

جبهة والفرق الدينية الأخرى مثل المحافظين والإصلاحيين والتجديدين من جهة أخرى ، وبين الصهاينة الاستيطانيين والصهاينة التسويتين . ولو نظرنا إلى هذه الخلافات بمعزل عن التاريخ الأمريكي وداخل إطار التاريخ اليهودي لتحولت إلى مجموعة من الأحداث المتناقضة التي لا يحكمها أي منطق داخلي . ولكن ، في ضوء مسار التاريخ الأمريكي ، يمكن النظر إلى أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم مجموعات من المهاجرين أتوا من بلاد مختلفة ، لهم انتماءات حضارية ودينية غير متجانسة وتمت أمرتهم ثم دمجهم تماماً في المجتمع مع توقُّف الهجرة من الخارج . ويمكن فهم هيمنة الصهيونية عليهم واحتجاجهم عليها ، ورفضهم لها أحياناً ومحاولتهم التملص منها أحياناً أخرى في ذلك الإطار نفسه .

وتجيب الإشارة إلى أن تجربة المهاجرين اليهود مع الولايات المتحدة كانت تجربة فريدة بالنسبة لهم (ولغيرهم من المهاجرين) إذ فتحت الأبواب أمامهم وأتاحت لكل منهم تحقيق قدر من الحراك الاجتماعي يتناسب مع كفاءته وشراسته . ومع أن المهاجرين باعتبارهم أعضاء في جماعات وظيفية حملوا معهم ميراثهم الاقتصادي الذي حد من الوظائف التي يمكنهم شغلها ، كما أن كونهم مهاجرين كان يفرض حدوداً معينة عليهم ، فإنهم مع هذا لم يضطروا إلى لعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة وهو الدور الذي اضطروا إلى الاضطلاع به في المجتمعات الغربية قبل الثورة الفرنسية . ولذا ، فلا غرو أن الولايات المتحدة تضم أكبر تجمع يهودي في العالم بل في التاريخ ، فالبرانيون في فلسطين لم يتجاوز عددهم مليونين . ورغم أن عدد يهود روسيا القيصرية كان يصل أحياناً إلى سبعة ملايين ، إلا أنهم كانوا موزعين بين تشكيلات حضارية وسياسية وجغرافية مختلفة داخل الإمبراطورية . أما يهود بولندا ، وهم أهم الجماعات اليهودية طراً ، فلم يزد عددهم قط عن ٣,٣٠٠,٠٠٠ ، كما أنهم لم يتمتعوا بحقوق يهود الولايات المتحدة أو قوتهم . وفيما يلي جدول يبين تعداد يهود الولايات المتحدة في الفترة من ١٦٥٠ حتى ١٩٨٩ .

٧- المجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني بناؤه الطبقي في حالة سيولة وافتتاح شديدين ولا يضع أية عقبات أمام المهاجر اليهودي .  
٨- ساهم أعضاء الجماعة اليهودية ، مع غيرهم من الجماعات المهاجرة ، في صياغة رؤية أمريكا لنفسها كمجتمع تعددي ، وفي تشكيل الواقع الأمريكي كواقع لا تتحكم فيه مؤسسات وسيطة (قبائل أو كنيسة مركزية) .

لكل هذا أصبحت الولايات المتحدة «الجلودن مدينا» بحق أي «البلد الذهبي» وملجأ الغالبية الساحقة من يهود العالم ووطنهم . لكل هذه الأسباب ، سواء الجاذبة أم الطاردة ، لم يكن من الغريب انتقال الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة أساساً أو إلى غيرها من المجتمعات الاستيطانية الجديدة مثل أستراليا وكندا وجنوب أفريقيا والأرجنتين ، إذ أن الهجرة اليهودية هي في نهاية الأمر جزء لا يتجزأ من الهجرة الاستيطانية الغربية . ويمكن تقسيم تاريخ الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة إلى المراحل التالية :

- ١- المرحلة الكولونيالية : السفارد وبداية وصول الإشكناز الألمان .  
(أ) الفترة الهولندية : السفارد (١٦٥٤ - ١٧٦٤) .  
(ب) الفترة الإنجليزية : بداية وصول الإشكناز الألمان (١٦٦٤ - ١٧٧٦) .
- ٢- المرحلة الألمانية :  
(أ) الفترة الأولى (١٧٧٦ - ١٨٢٠) .  
(ب) الفترة الثانية (١٨٢٠ - ١٨٨٠) .
- ٣- بداية المرحلة الدينيشية أو مرحلة الهجرة الدينيشية الكبرى (١٨٨٠ - ١٩٢٩) .
- ٤- نهاية المرحلة الدينيشية (١٩٢٩ - ١٩٤٥) ، وظهور اليهود الأمريكيين .
- ٥- اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود (من بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٧٠) .
- ٦- اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود (١٩٧١ - حتى الوقت الحاضر) .

وإن تكن هناك وحدة ما في تاريخ الجماعة اليهودية فهي وحدة أمريكية خاصة وليست يهودية عامة ، ولا يمكن فهم هذا التاريخ إلا في هذا الإطار إذ أننا لو اكتفينا بالإطار اليهودي فسنلاحظ اختلافات حادة وعميقة . وقد حاول السفارد إيقاف هجرة الإشكناز الألمان الذين حاولوا بدورهم استصدار تشريعات لوقف هجرة يهود الدينيشية . وقد نشبت الصراعات الدينية العميقة بين الأرثوذكس من

السنة	العدد	النسبة المئوية إلى عدد السكان	السنة	العدد	النسبة المئوية إلى عدد السكان
١٦٥٠	٢٤٤	-	١٩٠٧	١,٧٧٧,٠٠٠	٣,٢
١٧٩٠	٢,٥٠٠	-	١٩١٧	٣,٣٨٩,٠٠٠	٣,٧
١٨١٨	٣,٠٠٠	-	١٩٢٧	٤,٢٢٨,٠٠٠	٣,١
١٨٢٦	٦,٠٠٠	-	١٩٣٧	٤,٧٧١,٠٠٠	٢,٠
١٨٣٠	١٠,٠٠٠	-	١٩٤٧	٥,٠٠٠,٠٠٠	٢,٨
١٨٤٠	١٥,٠٠٠	-	١٩٥٧	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,٦
١٨٥٠	٥٠,٠٠٠	٠,٥	١٩٦٧	٥,٨٠٠,٠٠٠	٣,٥
١٨٧٧	٢٣٠,٠٠٠	٠,٢	١٩٧٠	٦,٠٠٠,٠٠٠	٢,٥
١٨٨٧	٤٠٠,٠٠٠	١,٣	١٩٨٠	٥,٨٠٠,٠٠٠	٢,٩
١٨٩٧	٩٣٨,٠٠٠	٠,٧	١٩٨٩	٥,٩٢٠,٩٠٠	

نيويورك (عام ١٦٦٤) ، وبعد تصفيتهم للجيب الهولندي في شمال أمريكا ، ازداد النشاط التجاري في هذا الجزء من العالم وبدأ اليهود يتجهون نحوه بشكل متزايد . ولم يصل عام ١٧٠٠ إلا وكان هناك ما بين مائتي وثلاثمائة يهودي ، ثم بلغ عددهم ٢٥٠٠ عام ١٧٧٦ . وكان معظم المستوطنين من الأثرياء . وقد ظل العنصر السفاردي (من إسبانيا والبرتغال) هو الغالب حتى عام ١٧٢٠ حيث بدأ العنصر الإشتكنازي (الألماني أساساً) يصبح غالباً . وهذا هو النمط الأساسي للاستيطان اليهودي في الغرب بعد القرن الخامس عشر إذ كان السفاردي يشكلون دائماً النواة الأولى ثم يتبعهم الإشتكناز حتى يصبحوا العنصر الغالب بكثافتهم البشرية . وقد تكونت جماعات يهودية في نيويورك وفيلادلفيا ونيويورك وتشارلستون (في ساوث كارولينا) وأتلانتا (في جورجيا) .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يعملون أساساً بالتجارة ، فكان هناك الأرسقراطية الثرية التي كانت تتاجر في المنتجات الزراعية وتُصدرها إلى الخارج . وكان منهم مثلاًك السفن والمتعهدون العسكريون الذين كانوا يزودون الجيش البريطاني بما يحتاج إليه من مؤن وعمونات . وكان هناك عامة اليهود من تجار متجولين يتاجرون مع الهنود وغيرهم . وكان منهم بعض الحرفيين من إسكافيين ومقطري خمر وصانعي لفائف التبغ والصابون وسروج الخيل والحفائط الجلدية والمشتغلين في سك الفضة وتصنيعها . واشتغل بعض كبار الممولين من أعضاء الجماعة اليهودية بأهم تجارة آنذاك وهي تجارة الرقيق ، حيث كانت نسبة اليهود المركزيين في هذه التجارة عالية . وكان من بين التجار حاخام (رئيس الجماعة اليهودية في مدينته) وهو ما يعني القبول الاجتماعي لهذه التجارة . واليهود في هذا لا يختلفون عن كل الأمريكيين الذين استفادوا من استيراد العبيد وتشغيلهم . أما الأعمال الزراعية وأعمال الري ، فقد اقتصر على عدد قليل جداً من اليهود . وكل هذا يبيّن أن أعضاء الجماعة حللوا معهم إلى العالم الجديد ميراثهم الاقتصادي (الوظيفي والمهني) الأوربي . ومع هذا ، لا يمكن القول بأنهم كانوا جماعة وظيفية بسيطة ، وهو أمر غير وارد في المجتمعات الرسامالية التي يُعدّ النشاط التجاري والمالي فيها نشاطاً أساسياً . وقد استمر هذا الوضع حتى الأربعينيات من القرن العشرين ، مع توقّف تدفق الهجرة من أوروبا ، وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية أمريكيين خاضعين لحركات المجتمع الأمريكي والغربي المتاحة لهم .

وقدم تأسيس أول جماعة دينية في نيويورك عام ١٦٥٨ (الأبرشية اليهودية) وتبعها جماعات دينية أخرى . ويُلاحظ أن

وحسبما جاء في الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي لعام ١٩٩٢ ، يبلغ تعداد يهود الولايات المتحدة ٥,٥١٥,٠٠٠ فقط ، من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٤٧,٣٤١,٠٠٠ ، أي أنهم حوالي ٢,٣ ٪ .

#### المرحلة الكولونيالية

##### The Colonial Era

(أ) الفترة الهولندية : السفاردي (١٦٥٤ - ١٦٦٤) :

يعود تاريخ استقرار أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة إلى عام ١٦٥٤ حين استقر في مدينة نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) مجموعة من اليهود السفاردي (المارانو) يبلغ عددهم ثلاثة وعشرين يهودياً هارين من محاكم التفتيش البرتغالية في البرازيل . وكان هؤلاء يعملون بالتجارة ، فاستمروا في مهنتهم دون أية عوائق . وقد ساد آنذاك في الأوساط الهولندية فكر تجاري يغلب المصلحة المادية على الانتماءات الدينية ، الأمر الذي هباً الجولان يحصل اليهود على حقوقهم ، كمناصر نافعة ، ويمارسوا نشاطهم التجاري دون قيود . ولكن الجماعة اليهودية اختفت بعد قليل نظراً لظهور فرص أعظم في أجزاء أخرى من الأطلنطي ، وخصوصاً في جزر الهند الغربية .

(ب) الفترة الإنجليزية : بداية وصول الإشتكناز الألمان (١٦٦٤ - ١٧٧٦) :

بعد أن استولى الإنجليز على نيو أمستردام وأصبحت تُسمّى



اعتبروه وطنهم النهائي والقومي والوحيد (تماماً كما فعل أعضاء الجماعة في بابل من قبل) .

ويمكن القول بأن الملامح الأساسية للجماعة اليهودية ، وكذلك ثوابت تاريخها ، تحدّثت في تلك المرحلة بحيث وسّمت تطورها اللاحق بمبسمها . ولم تشهد مراحل التطور اللاحقة سوى تعديل بعض السمات وتعميق البعض الآخر .

وقد أدّى هذا المناخ الجديد إلى اندماج اليهود سريعاً ، بل وإلى انصهارهم . وعلى سبيل المثال ، تزوج كل وجهاء اليهود في ولاية كونتيكت من غير اليهود ، وكان الزواج المختلط أمراً مألوفاً في المدن الكبيرة بكل ما ينتج عنه من انصهار كامل .

#### المرحلة الألمانية الأولى (١٧٧٦-١٨٢٠)

The First German Era (1776-1820)

عند إعلان استقلال الولايات المتحدة ، لم يكن عدد أعضاء الجماعة اليهودية يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف ، ولكن عددهم وصل إلى أربعة آلاف عام ١٨٢٠ . وقد تحدّثت مواقفهم حسب

مواقف الجماعات غير اليهودية التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها أو الطبقة التي كانوا ينتمون إليها . ولما كانت أغليبيتهم من التجار الذين لا تربطهم علاقة كبيرة بالوطن الأم (إنجلترا) ، فقد كانوا من مؤيدي إعلان الاستقلال . ومع هذا ، كانت هناك أقلية ضمن الحزب الموالي لإنجلترا . وقد أكد إعلان استقلال أمريكا ، وكذلك دستورها ، المساواة الكاملة بين الأفراد ، فألغى كل ما تبقي من تفرقة ، مثل فرض القسّم المسيحي على أيّ طالب وظيفة . ولم يكن اليهود مجموعة من الناس الذين يتم التسامح معهم أو استبعادهم كما كان الحال في أوروبا ، وإنما كانوا مواطنين لهم جميع الحقوق وعليهم جميع الواجبات ، ولم يكونوا أيضاً جماعة وظيفية وسيطة . وقد نص التعديل الأول للدستور الأمريكي على الفصل الفوري للدين عن الدولة . ولكن يلاحظ أن بعض الولايات الأمريكية لم تطبق الدستور ، الأمر الذي كان يعني التفاوت في وضع أعضاء الجماعة اليهودية من ولاية إلى أخرى . ولكن الوضع ، بشكل عام ، كان يتسم بالمساواة ويطبق مثل الاستنارة والاعتناق .

وأدّى التوسع في زراعة القطن إلى أن أصبح بعض أعضاء الجماعة اليهودية من أصحاب الأراضي وكبار التجار . كما اتجه بعضهم إلى الاشتغال في مجال النشاطات المالية والعقارية ، فأنشأوا شركات تأمين ، وعملوا في أسواق الأسهم والسندات وفي قطاع الصناعة ، وفتحووا المصارف . كذلك دخل بعض أعضاء الجماعة

الأشخاص العاديين ، الذين لم يتلقوا أيّ تعليم حاخامي لتلمودي كانوا هم المتحمكين في المعبد اليهودي ، على عكس الوضع في أوروبا حيث نجد أن الحاخام هو الشخصية الأساسية . وقد استأجرت أول أبرشية يهودية حاخاماً عام ١٨٤٠ وكانت صلاحياته دينية وحسب ، إذ لم تكن هناك أية محاكم دينية لها صلاحيات قضائية . وظل هذا أحد ثوابت وضع اليهود في العالم الجديد . وكانت الأطر التنظيمية اليهودية الأخرى مسألة اختيارية طوعية ، على خلاف القهال في شرق أوروبا حيث كان على اليهود أن ينضموا إليه ويمارسوا حقوقهم وواجباتهم من خلاله . وكانت جهود الجماعة تنجّه نحو رعاية فقراء اليهود من بين المهاجرين الجدد والمعززة والمعجّزات ، كما كانت تنجّه إلى مساعدة المدارس اليهودية .

وقد حصل اليهود على جميع الحقوق التي حصل عليها غيرهم من المستوطنين ، فكانوا يقومون بالخدمة في الميليشيا ويتمتعون بحق الملكية والسفر والسكنى في أي مكان . ففي هذا المجتمع التجاري الجديد ، لم تكن للقيم التقليدية الدينية فعالية كبيرة إذ سادت القيم التفعية والعملية .

وفي هذا الإطار ، كان يُنظر إلى العنصر اليهودي باعتباره عنصراً نافعاً يساهم في تطوير المستعمرات الجديدة . ولم يكن هناك قطاع اقتصادي يهودي مستقل عن القطاع المسيحي ، كما لم تكن هناك حرف أو وظائف يهودية رغم أن الموروث الاقتصادي الأوربي لليهود وخبراتهم السابقة كانت تحدّد اختياراتهم الاقتصادية في كثير من الأحيان ونحّد منها في بعض الأحيان . ولم يكن هناك نظام تعليمي يهودي مستقل ، باستثناء بضع مدارس لتعليم اليهود الذين يوظفون بوظائف المؤسسة الدينية أو لتعليم أطفال اليهود تعاليم دينهم أو تدريبهم على احتفالات بلوغ سن التكليف الديني (برمتسفا) التي أصبحت من أهم ملامح الحياة اليهودية في الولايات المتحدة . وكانت المدارس العلمانية مفتوحة على مصراعها أمامهم ، فكان أبناء أثرياء اليهود يلتحقون بها . ولكن لم تُبدِ أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية آنذاك اهتماماً كبيراً بالتعليم العالي بسبب توجيههم الاقتصادي . ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يتيزرون بأزياء أو لغة خاصة بهم ، بل كانوا يسلكون سلوك بقية أعضاء المجتمع . وأدّى كل هذا إلى اختفاء كثير من القيم التقليدية اليهودية التي حملها المهاجرون معهم من أوطانهم الأصلية ، بل كان أبناءهم يسخرون منها تماماً . كما أن كثيراً من الشعائر الدينية أخذ يطويها النسيان والإهمال ، ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يشعرون بأن وطنهم الجديد هو المنفى (جالوت) الذي تتحدث عنه الكتب الدينية ، بل

فبلغوا أربعين ألفاً عام ١٨٦٠ ، وتجمّع بعدها مدن أخرى مثل فيلادلفيا وبالتيمور . كما تمركزوا في المراكز التجارية بالداخل ، على الأنهار وعلى ضفاف البحيرات الكبيرة ، واتجهوا نحو الغرب في سيراكيز وبفالو وكليفلاند وشيكاغو وديترويت ، وفي سينسنتي ومنيابوليس وسانت لويس ونبو أورليانز . وتنافعت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية إلى كاليفورنيا في الأعوام ١٨٤٩ - ١٨٥٢ مع حُمى الاندفاع نحو الذهب ، إذ بلغ عدد أعضاء الجماعة اليهودية الذين استوطنوا سان فرانسيسكو وحدها عشرة آلاف .

وقد عمل أعضاء الجماعة اليهودية موردين لحاجات الباحثين عن الذهب في كاليفورنيا ، ولم يعمل منهم في الزراعة سوى قلة نادرة . وكانت نسبة العاملين في مهن مثل الطب والقانون صغيرة ، إذ كانت الأغلبية العظمى تعمل بالتجارة . ورغم أن كثيراً من المهاجرين عملوا حرفيين في أوروبا ، فإنهم فضلوا أن يعملوا تجاراً متجولين بسبب ارتفاع الأرباح التي كان يوسمهم تحقيقها . ومع هذا ، قد يكون من الأدق أن نذكر أنهم كانوا حرفيين يعملون تجاراً متجولين أيضاً إذ أن بعض السلع التي كان يسوقها هؤلاء ، مثل الملابس والأحذية ، كانت من صنعهم . وقد بدأ التجار من أعضاء الجماعة اليهودية في عملية التسويق سرياً على الأقدام ، فتحولوا إلى تجار يتجولون بربيعاتهم التي تجرها الخيول ، ثم إلى تجار يفتحون دكاكين صغيرة على مفارقات الطرق ، ثم إلى تجار كبار . واستمر هذا الاتجاه حتى العصر الحديث حيث نجد أن تجارة التجزئة والمتاجر الكبرى ذات الأقسام المتعددة (بالإنجليزية : دبارتمنت ستورز department stores) يمتلكها بعض أعضاء الجماعة اليهودية . كما قاموا بالبيع من خلال الكتالوج ، وهو البديل الحديث للبائع المتجول . بل إن الصناعات التي تركز فيها أعضاء الجماعة اليهودية هي الصناعات الخفيفة التي يلتقي فيها التاجر بالصانع . ومن أهم الباعة الجائلين الذين تحولوا إلى تجار كبار أبراهام شتراوس وجبل ، وهما من أصحاب المحال التجارية الشهيرة . وقد حقق أعضاء الجماعة اليهودية معدلاً عالياً من الاندماج في معظم مناطق الولايات المتحدة ، ولكن يلاحظ أن اندماجهم في مجتمع الجنوب كان أعلى بكثير منه في الشمال . ويعود هذا إلى أن معيار التضامن في الجنوب كان اللون وحسب . ومن هذا المنظر ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الجماعة البيضاء المهمة . وذلك على عكس الشمال حيث كان الدين واللون هما الأساس ، ومن ثم كانت النخبة من المسيحيين البروتستانت البيض من أصل أمتلجو ساسكوني (الذين يقال لهم الواسب) .

اليهودية (عام ١٨٢٠) مهناً جديدة ، مثل : القانون والطب والهندسة والتربية والصحافة . وكان اليهود موزعين على معظم مدن الولايات المتحدة .

أما من ناحية تنظيم الجماعة اليهودية ، فيلاحظ أن الهيمنة كانت ولا تزال للعناصر غير الدينية . ولم يكن المعبد اليهودي والحاخام سوى جزء من كل يدار حسب القيم العامة للمجتمع الأمريكي وليس حسب القيم الدينية أو التقليدية اليهودية الخاصة . ومن الناحية الثقافية ، لم يكن إسهام أعضاء الجماعة اليهودية الثقافي في الحضارة الأمريكية إسهاماً ذا بال . وعلى كل ، فقد كانت التقاليد الثقافية الأمريكية نفسها لا تزال آنذاك تابعة لأوروبا ، ولم يكن هناك بعد إبداع أمريكي مستقل .

لقد كان أعضاء الجماعة اليهودية بشكل عام مندمجين في مجتمعهم الأمريكي ، ولم تكن لهم ثقافة مستقلة . وكان اتماؤهم إلى ثقافتهم اليهودية (الدينية أو اللغوية) مسألة شكلية وحسب . وفي هذه الفترة ، أصبح العنصر الإشكنازي الألماني العنصر الغالب تماماً .

#### المرحلة الألمانية الثانية (١٨٢٠-١٨٨٠)

The Second German Era (1820-1880)

لا شك في أن التطور الأساسي الذي طرأ على أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة هو ازدياد عددهم وتحول الجماعة من أقلية صغيرة إلى واحدة من أكبر الجماعات اليهودية خارج شرق أوروبا . وعند بداية هذه المرحلة ، كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية نحو أربعة آلاف ، زاد إلى ستة آلاف عام ١٨٢٦ ثم إلى ١٥ ألفاً عام ١٨٤٠ . وقُدِّر عدد اليهود بمائة وخمسين ألفاً عام ١٨٦٠ ، ويُقال إنه وصل إلى مائتين وثمانين ألفاً مع نهاية هذه الفترة (عام ١٨٨٠) . وكان المهاجرون ، أساساً ، من أصل ألماني ، وخصوصاً من منطقة بافاريا وبوزنان بعد ضمها من بولندا ، أو كانوا من اليهود الألمان أو من بوهيميا والمجر جاءوا مع موجة الهجرة الألمانية إذ هاجر خمسة ملايين ألماني من بينهم مائتا ألف يهودي (١٨٢٥ - ١٨٩٠) . وكانت أغلبية المهاجرين من الفلاحين الألمان الذين اضطروا إلى الهجرة ، فهاجر معهم صغار التجار اليهود الذين كانوا مرتبطين اقتصادياً بهم واستوطنوا على مقربة منهم في الولايات المتحدة . وقد وصلت الهجرة إلى ذروتها بعد إخفاق ثورات ١٨٤٨ - ١٨٤٩ في أوروبا وبعد الكساد الاقتصادي . وقد كان يهود ألمانيا المائتين ، تماماً مثلما كان السفارد إسبانيين وبرتغاليين .

وقد استقر أكبر عدد من أعضاء الجماعة اليهودية في نيويورك ،

أي إطار ديني ، بل إن المؤسسات الدينية نفسها كانت تعتمد عليها لبقائها واستمرارها . وقد عبّرت الهوية اليهودية الدينية عن نفسها ، وخصوصاً بين الألمان ، من خلال اليهودية الإصلاحية ، وهي صيغة دينية تسمح لليهودي بالتكيف مع وطنه الجديد في الولايات المتحدة . وقد أعلنت اليهودية الإصلاحية عن مبادئها الدينية في مؤتمر بتسبرج الإصلاحية عام ١٨٨٥ ، وتم تأسيس اتحاد الأبراشيات العبرية الأمريكية عام ١٨٧٣ ، وكلية الاتحاد العبري عام ١٨٧٥ ، وهي أهم المؤسسات اليهودية الإصلاحية التربوية . ومع هذا ، لم تكن هناك سلطة دينية مركزية ، نظراً للتنوع الإثني لليهود ، وبسبب الطبيعة الفيدرالية للمجتمع الأمريكي . والواقع أن المهاجر اليهودي الألماني لم يكن يجد أن ثمة علاقة كبيرة مع المهاجر اليهودي البولندي مثلاً ، فقد كانت كل جماعة تحفظ بشعائرها الدينية وتؤسس معابد يهودية مختلفة باختلاف الأصول الإثنية اليهودية . وكان معظم يهود شرق أوروبا يتبعون اليهودية الأرثوذكسية . وشهدت هذه الفترة حركة بناء للمعابد اليهودية الضخمة التي تشبه الكاتدرائيات .

ورغم أن الحضارة الأمريكية قد دخلت ، في هذه المرحلة ، مرحلة إبداعية في الآداب والفنون ، فإن إسهام أعضاء الجماعة اليهودية فيها كان ضعيفاً ، وذلك لكونهم جماعة مهاجرة لم يمتلك أعضاؤها ناصية اللغة الإنجليزية أو مُصطلحات الحضارة الجديدة . ولذا ، لم يكن هناك كُتّاب يهود في عصر ويتمان وملفيل ومارك توين سوى إيما لازاروس (١٨٤٩ - ١٨٨٧) وهي شاعرة ليست لها أهمية كبيرة . ويُلاحظ تزايد اندماج أعضاء الجماعة اليهودية في جميع قطاعات المجتمع الأمريكي الذي كان يعبر عن هويته العرقية عن طريق التعصب ضد السود والصينيين وعن هويته الدينية البروتستانتية عن طريق التعصب ضد الكاثوليك والمهاجرين الأيرلنديين وليس عن طريق معاداة اليهود على الطريقة الأوروبية . وقد شهدت هذه الفترة ظهور واحد من أهم مظاهر معاداة اليهود في الولايات المتحدة وهو رفض عضويتهم في النوادي الأرستقراطية والنوادي الاجتماعية . وهو شيء سطحي نافي يدل على سطحية ظاهرة العداوة لليهود في الولايات المتحدة وعدم تجرّدها في المجتمع الأمريكي (ولذا فهو شكل من أشكال التحامل على اليهود ، لا العداوة ضدهم) . فبينما كانت بعض النوادي الاجتماعية تمارس التفرقة ضد أعضاء الجماعة اليهودية ، كانت المدن الأمريكية لا تمنح في هذه الفترة نفسها أن تنتخب عمداً ينتمون إلى هذه الجماعة . كما كانت كثير من هذه المدن لا تزال تمارس التفرقة ضد السود بكل ضراوة ، وتنكر عليهم أسط الحقوق ، مثل الالتحاق بالجامعات أو الجلوس على المقاعد الأمامية في الحافلات .

وقد تبنّى أعضاء الجماعة اليهودية أزياء أعضاء النخبة الجنوبية البيضاء ولغتهم وعاداتهم ومهتهم ، وامتلكوا العبيد وتاجروا فيهم ، وكان هناك عدد من كبار تجار العبيد من اليهود . ومع هذا ، تجب الإشارة إلى أن اليهود لم يعلبوا دوراً أساسياً في تأسيس مؤسسة الرقيق ولا يختلف وضعهم هذا عن وضعهم في الولايات المتحدة حتى الوقت الحاضر ، فهم قد يوجدون في أهم المؤسسات وأكثرها حيوية ، مثل المصارف ، مع بقاء دورهم تابعاً مهماً زاد عددهم ونفوذهم .

وقد شهدت هذه الفترة اندلاع الحرب الأهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) . ومن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية ظلوا يمتأى عن الحوار الذي دار حول مؤسسة الرقيق باستثناء حالات فردية ، الأمر الذي أثار حنق الأوساط الليبرالية ضدهم . ويُلاحظ أن المخاض إسحق وايز ، أهم شخصية يهودية آنذاك ، قد لزم الصمت تماماً بشأن هذه القضية . ولعله كان ، في موقفه هذا ، لا يختلف كثيراً عن موقف بقية المواطنين في مدينة سينساتي ، وهي مدينة تقع على الحدود بين الفريقيين للتصارعين في الشمال والجنوب . ولا بد أن نذكر هنا أن أعضاء الجماعة اليهودية ككل لم يكن لهم موقف «يهودي» مستقل ، وإنما تحدت ولائهم بحسب موقعهم الجغرافي ، فكان يوجد سبعة آلاف جندي يهودي في جيوش الشمال وثلاثة آلاف في جيوش الجنوب ، الأمر الذي يعكس اندماجهم في المجتمع وتقبلهم للمواقف السياسية السائدة فيه .

وبعد الحرب الأهلية والغاء الرقيق ، فُتح الجنوب الأمريكي للاستثمارات التجارية والصناعية . واستفاد كثير من التجار من أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني من النشاط الاقتصادي والتوسع الصناعي ، وحققوا ثروات كبيرة في مجال التجارة والمصارف وصنع الملابس ، فلقد قامت أعداد كبيرة من المتعهدين العسكريين اليهود بتزويد الجيوش المتحاربة بالأزياء العسكرية التي تتطلبها ، وحققوا أرباحاً طائلة . كما استفادوا من وصول يهود الديشية ، فاستغلوا هذه العمالة اليهودية الرخيصة في مؤسساتهم التجارية والصناعية ، وهو ما دعم مكانتهم وأكد قيادتهم للجماعة اليهودية . وبلغ المهاجرون اليهود الألمان ذروة مكانتهم في هذه المرحلة .

وقد حاول أعضاء الجماعة اليهودية أن يضعوا إطاراً تنظيمياً لوجودهم في الولايات المتحدة ، فشكّلت هيئة المُؤسّسين الإسرائيليين الأمريكيين (ويُلاحظ عدم استخدام مصطلح «يهودي» لأنه كان يحمل إيحاءات سلبية في تصورهم) ، وكذلك أُسّست جماعة أبناء العهد (بناي بريت) عام ١٨٤٣ وجمعية الشباب العبريين عام ١٨٧٤ ، وكلها مؤسسات تقع خارج نطاق أي تحمك حاخامي أو

## الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٧١

بداية المرحلة البيديشية (١٨٨٠-١٩٢٢) - نهاية المرحلة البيديشية وظهور اليهود الأمريكيين (١٩٢٩-١٩٤٥) - اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود (١٩٤٥-١٩٧٠)

### بداية المرحلة البيديشية (١٨٨٠-١٩٢٢)

The Beginning of the Yiddish Era (1880-1922)

(أ) الفترة الأولى : الهجرة الكبرى (١٨٨٠ - ١٩٢٩) :

تغيّرت السمات الأساسية للجماعة اليهودية في الولايات المتحدة لسببين : أحدهما خاص بحركات المجتمع الأمريكي ، والثاني خاص بالجماعة نفسها . فبعد المرحلة التجارية الأولى من تاريخ الولايات المتحدة ، وبعد أن حصلت الولايات المتحدة على استقلالها السياسي ، وبعد أن نجحت جيوش الشمال في توحيد السوق القومية في الولايات المتحدة وفتح الجنوب الزراعي للنشاط التجاري والاستثمارات الصناعية ، تزايدت حركة التصنيع فأقيمت في هذه الفترة شبكة المواصلات السريعة ، من البواخر والقطارات والطرق ، التي قربت بين أجزاء القارة الأمريكية كما قربت بينها وبين بقية العالم ، الأمر الذي سهّل عملية الانتقال والهجرة . ويلاحظ أن حركة الريادة والاستيطان نحو الغرب كانت قد وصلت إلى نهايتها ، وهو ما يعني أن المناطق المتاخمة المفتوحة التي كانت مجالاً مفتوحاً للحراك الاجتماعي أصبحت مغلقة . وقد أدّى اتساع السوق إلى أن الحرفيين لم يعودوا قادرين على إنتاج السلع التي تفي بحاجات المستهلكين المتزايدة ، وبالتالي حلت المصانع الكبيرة محل الحرفيين في كثير من الصناعات القديمة . كما ظهرت صناعات جديدة مثل صناعة الصلب والسيارات وهي الصناعات التي غيّرت وجه الولايات المتحدة . وأدّى كل هذا إلى ازدياد الحاجة إلى عمال صناعيين ، كما فتحت الأبواب للمهاجرين ، ومنهم يهود البيديشية الذين جاءوا بالآلاف من روسيا وبولندا وغيرهما من بلاد شرق أوروبا ، فانخرط المهاجرون اليهود في صفوف الطبقة العاملة .

ثم شهدت هذه الفترة (بعد عام ١٩١٨) تحوّل الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة إلى أهم تجمع يهودي في العالم على الإطلاق وثاني أكبر تجمع ، بعد التجمع اليهودي في شرق أوروبا . وقد زاد عدد اليهود من ٢٨٠ ألفاً من مجموع سكان تعداده ١٥٥ ، ٥٠

عام ١٨٨٠ إلى ٤ ، ٥٠٠ ، ٠٠٠ من مجموع سكان تعداده ١١٥ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ عام ١٩٢٥ . وبلغ عدد المهاجرين ٢ ، ٣٧٨ ، ٠٠٠ بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٢٥ ، وكانت أعرام الذروة هي أعوام ١٩٠٤ - ١٩٠٨ حينما وصل ٦٤٢ ألف يهودي معظمهم من شرق أوروبا . وقد أثبتت الولايات المتحدة أنها أكثر جاذبية من فلسطين بالنسبة لليهود . ولذا ، فهي بحق البلد النعيمي (بالبيديشية : جولدن مدينا) الذي يهرول إليه المهاجرون بدلاً من ارتس يسرائيل وأرض الميعاد .

وكانت نسبة العائلين إلى أوروبا من أعضاء الجماعة هي النسبة الأقل بين مجموعات المهاجرين ، باستثناء الأيرلنديين . ففي عام ١٨٨٠ ، بلغت النسبة ٢٥ ٪ ، وانخفضت إلى ٨ ٪ عام ١٩٠٨ ، ثم وصلت إلى الصفر تقريباً عام ١٩١٩ . وكان عمر المهاجرين بين ١٥ و ٤٠ سنة ، أي أن معظمهم كان قادراً على العمل والإنجاب ، كما أن نسبة الرجال إلى النساء كانت متعادلة وهو ما يدل على أن المهاجرين قد هاجروا بنية الاستقرار وليس لتحقيق ثروة صغيرة يعودون بعدها إلى أوطانهم الأصلية .

وقد استقر المهاجرون في كل المدن ، في معظم الولايات والمناطق ، فبلغ عدد المهاجرين اليهود في ولاية نيويورك عام ١٩١٨ نحو ٩٢٣ ، ٦٠٣ ، ١ ، وفي ولاية ماساشوسيتس ١٨٩ ، ٦٧١ ، ١٨٩ نسمة ، وفي ولاية نيو جيرسي ٤٧٦ ، ١٤٩ نسمة ، وفي ولاية بنسلفانيا ٤٠٦ ، ٣٢٢ نسمة ، وفي ولاية أوهايو ٣٦١ ، ١٦٦ نسمة ، وفي ولاية كاليفورنيا ٥٢٢ ، ٦٣ نسمة .

وشهدت هذه الفترة تحوّل بعض أعضاء الأرستقراطية الألمانية اليهودية من التجارة إلى المهنة ، فاشتغلوا بالقضاء والسياسة والأعمال المصرفية والمالية (مثل عائلتي كون وبريرج) والنشر والطب والوظائف المتصلة بالبحوث العلمية والأدب والمهنة الأكاديمية . وكان هذا التحول يعني تحرر أعضاء الجماعة اليهودية تدريجياً من ميراثهم الاقتصادي الأوربي وتزايد اندماجهم في

المتجمع الأمريكي . وظهر بينهم رعاة للفنون مثل أسرة جوجينهايم . ويُلاحظ أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل من اليهود في الشركات الكبرى التي سيطرت على الصناعات الثقيلة إذ تركز اليهود في صناعات استهلاكية هامشية مثل صناعة السينما التي سيطر عليها وليام فوكس ولويس ماير والإخوة وارنر .

وفيما يتصل بالمهاجرين من شرق أوروبا ، وهم الذين نطلق عليهم «يهود اليديشية» ، فقد انضموا إلى صفوف الطبقة العاملة ، وخصوصاً في مصانع الملابس الصغيرة التي كانت تُسمى «ورش العرق» ، والتي كانت تُقام في مكان ضيق قلدر توضع فيه بعض ماكينات الخياطة البدائية ويقطن فيه صاحب المصنع وزوجته . وكان أصحاب هذه الورش من يهود شرق أوروبا ، نظراً لأنها لا تحتاج إلى رأسمال كبير ولا إلى خبرة غير عادية . كما كان بوسع أصحاب العمل استغلال العمالة اليهودية المهاجرة الرخيصة فيها ، وخصوصاً أن يهود شرق أوروبا كانوا مركزين أساساً في حرفة الخياطة في بلادهم الأصلية . وقد كان عدد العمال في كل ورشة لا يزيد في بعض الأحيان على خمسة يعملون مدة ست عشرة ساعة يومياً . وكان الممولون من أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني يمتلكون أيضاً ورش العرق ، وخصوصاً بعد أن حققوا ثروات ضخمة من الحرب الأهلية . وقد ظلوا أغلبية الملاك حتى عام ١٩١٤ حين زاد عدد صغار الممولين من شرق أوروبا على عددهم من الألمان . وبلغ عدد العاملين في هذه الصناعة عام ١٩١٣ ثلاثمائة ألف يهودي . وقد نظمت هذه الطبقة العمالية نفسها على هيئة نقابات عمال في الفترة ١٩٠٩ - ١٩١٦ ، وهي الفترة التي شهدت تحول الورش إلى مصانع كبيرة وظهور الوعي العمالي والحركة النقابية في الولايات المتحدة . وقد عمل كثير من يهود شرق أوروبا في صناعة الإبر ولف التبغ وصناعة البناء (بجاريين ونقاشين) ، وعملوا تجاراً وصغاراً وبقائين . وكل هذا يدل على أن ميراثهم الاقتصادي الأوروبي كان لا يزال يحدد اختياراتهم وأن عملية الأمركة كانت لا تزال في بداية الطريق بالنسبة إليهم . ولكن يجب أن نشير إلى أنه لم تكن تُوجد أية قوانين في الولايات المتحدة ترغم أعضاء الجماعة اليهودية على الاضطلاع بوظائف معينة ، فقد كان اليهود يتركزون في صناعات دون غيرها ، وفي مهن أو حرف دون أخرى ، لا بسبب أي قسر خارجي وإنما بسبب طبيعة الخبرات التي حملوها من بلادهم ومقدار رأس المال الذي جلبوه معهم ، ونوعية الكفاءات والخبرات التي يحتاج إليها المجتمع الجديد . كما يلاحظ أن ميراثهم الاقتصادي كان يتقل كاهل المهاجرين الجدد من شرق أوروبا وحسب . أما أعضاء الجماعة

اليهودية من أصل ألماني ، فقد اغتصموا كل الفرص التي أتاحتها لهم المجتمع الأمريكي ووصلوا إلى أعلى شرائحه واشتغلوا بجميع المهن . وقد لحق بهم أبناء يهود شرق أوروبا بعد جيلين حين انتهت فعالية الميراث الاقتصادي مع انتهاء موجات الهجرة .

أما من الناحية الثقافية ، فيلاحظ أن اليديشية كانت لغة الشارع الروسي البولندي ثم صارت لغة المهاجرين في الشارع الأمريكي ، ومن هنا كان استمرارها . ولذا ، ظهرت ثقافة يديشية علمانية شجعتها الحركة العمالية ، وظهر أدب يديشي وجرائد يديشية تُوِّج نحو ٥٠٠ - ٦٠٠ ألف نسخة في اليوم ، وكذلك العديد من المجلات ، كما ظهرت سينما يديشية . ووصلت الثقافة اليديشية الذروة في أوائل القرن واستمرت حتى بداية العشرينيات ، تماماً كما كان الأمر في الاتحاد السوفيتي . فكان يوجد مسرح يديشي في نيويورك وسبعة عشر خارجها قدمت خمساً وثمانين مسرحية خلال شهر واحد (عام ١٩٢٧) . ووصل نظام التعليم اليديشي إلى ذروته أيضاً إذ كان عدد الطلبة المسجلين فيه اثني عشر ألفاً . ولكن إسحق بشيفس سنجر ، أكبر كتّاب اليديشية ، لاحظ أن لغة يهود شرق أوروبا أصبحت في الولايات المتحدة دون جذور ، ولذا فقد كتّب عليها أن تموت .

وكان توجُّه الجيب اليديشي معادياً للصهيونية ، كما أن ولاءه كان للثقافة اليديشية وليس للدين اليهودي أو اللغة العبرية . وكان هذا الجيب يضم ملحدتين وثوريين ومفكرين وفوضويين ، كما كان يضم بعض المتدينين . ويُلاحظ أن العلاقات بين القيادة الألمانية الأرستقراطية والجماعات اليديشية لم تكن حميمة ، كما أن العمال اليهود ذوي الأصل الأمريكي ، المركزين في صناعات معينة مثل صناعة السيجار ، وكذلك الخياطين المهرة ، كانوا يبذلون عدداً واضحاً للمهاجرين ، نظراً لما كانوا يعتبرونه انغزالية وتخلُّماً وثورية . وقد نحت اليهود الألمان كلمة «فايك» العنصرية وكذا كلمة «شيني» ، للإشارة إلى يهود شرق أوروبا ، كما كانوا يتهمونهم بأنهم «آسيويون» (وهو الاتهام الأري التقليدي الذي كان يوجه لليهود) وأنهم يضمون في صفوفهم عدداً كبيراً من الثوريين والفوضويين ، وأن لغتهم لغة الخنازير (وهو ما يدل على أن أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني كانوا ألماناً حتى النخاع) .

وتجمّع أعضاء الجماعة من المهاجرين على هيئة جماعات صغيرة تعيش في حي واحد داخل المدن ، شأنها في هذا شأن مختلف جماعات المهاجرين ، وكان الحي الشرقي الأسفل «لوار إيست سايد Lower East Side» في نيويورك أكبر هذه الأحياء وكان

وكانت الأرثوذكسية منتشرة بين الحرفيين اليهود، وخصوصاً الحياطين. وتأسست مؤسسات اليهودية الأرثوذكسية في هذه الفترة، من بينها اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية عام ١٨٩٨، واتحاد الحاخامات الأرثوذكس اليهودية في الولايات المتحدة وكندا عام ١٩٠٢، ومجلس أمريكا الحاخامي عام ١٩١٣. وبدأ يظهر قطاع جديد من المهاجرين الذين تمت علمتهم، وبالتالي صُعب عليهم الاستمرار في الشعائر الأرثوذكسية. ولكن الصبغة الإصلاحية كانت صبغة مطرقة من وجهة نظرهم. ولسد حاجة هؤلاء، ظهرت اليهودية المحافظة كحطبة في منتصف الطريق احتفظت بالمقلية الدينية وخلصتها على الإثنية اليهودية، كما احتفظت بكثير من الرموز الإثنية.

وقدم تأسيس أهم المؤسسات اليهودية المحافظة التعليمية في هذه الفترة أيضاً، من بينها الكلية اللاهوتية اليهودية عام ١٨٨٦، وجمعية الحاخامات الأمريكيين عام ١٩٠٠، ومعهد أمريكا الموحد عام ١٩١٣ (وهو يضم الأبرشيات للمحافظة). وتبدى الصراع الإثني بين الألمان يهود شرق أوروبا في شكل صراع ديني بين الأرثوذكسية من جهة واليهودية الإصلاحية ثم المحافظة من جهة أخرى.

وفي الستين الأخيرة من هذه الفترة، بدأت تظهر علامات الكساد الاقتصادي، فألفت جماهير العاطلين باللوم على القوى الخارجية، وسادت النظريات والمواقف العرقية تجاه السود، والمهاجرين الآسيويين واليهود بدرجة أقل.

ولكن، يُلاحظ أن نمط حياة المهاجرين كان يخضع لتطورات عميقة إذ أن أسلوب حياة أبنائهم كان يختلف بشكل جوهري عن حياتهم هم أنفسهم، لأنهم حققوا معدلات عالية من الاندماج الاقتصادي والثقافي بسبب تزايد فرص التعليم أمامهم في المدارس الأمريكية العامة. ولكل هذا، انخفضت عضوية اتحادات النقابات اليهودية إلى النصف في العشرينيات، كما اضمحلّت الصحافة اليديشية والمسرح والأدب اليديشيان لأن الأبناء كانوا يتحدثون الإنجليزية ولا يعرفون اليديشية أو يعرفونها ولا يتحدثون بها، كما أنهم كانوا لا يكترونو البتة بروابط المهاجرين، ولم يكتب لعالم المهاجرين البقاء حتى منتصف العشرينيات إلا بسبب وصول أفواج المهاجرين الجدد. ولذا، فمع فرض نظام النصاب على الهجرة (قانون جونسون) عام ١٩٢٥، بدأ هذا العالم في الاختفاء بحيث تحولّ إلى مجرد أثر وذكرى عام ١٩٤٠. وقد ساهم القانون أنف الذكر في التعجيل بتحويل أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة أغلب أعضائها من المهاجرين إلى جماعة معظم أعضائها وكندوا في أمريكا

يضم ثلاثمائة وخمسين ألف يهودي عام ١٩١٥ في مساحة لا تتجاوز مليون مربعين، فانتشرت بينهم الجريمة وبخاصة بغاء الفتيات. كما ظهرت مافيا يهودية ازدهرت في الثلاثينيات، لم يقض عليها إلا في أواخر الأربعينيات، وتخصّصت في عمليات الاغتيال لحساب العصابات الأخرى. وعندما كانت أحوال اليهودي المالية تتحسن، فإنه عادة ما كان يترك مثل هذه الأحياء وينتقل إلى أحياء أكثر جاذبية.

ومن أهم الأطر التنظيمية ما يُعرف باسم «روابط المهاجرين» (اللاندز مانشافتين) التي كانت تضم اليهود الذين جاؤوا من بلد أو موطن واحد، حيث لعبت دور المؤسسة الاجتماعية الوسيطة التي وفرت للمهاجرين شيئاً من الطمأنينة والدفء في المجتمع الرأسمالي الجديد، والتي قدمت لهم خدمات أخرى مثل إجراءات الدفن والمساهمة في نفقات الجنازات وغيرها من الطوارئ. وكانت هذه الجماعات مرتبطة عادة بدوائر العمال (أربيتزر رينج) التي ترعى مصالحهم الاجتماعية. وكان ٧٤٪ من المهاجرين اليهود يعرفون القراءة والكتابة، مقابل ٦٤٪ من البولنديين و٤٦٪ من الإيطاليين، الأمر الذي جعلهم واعين بأهمية التعليم باعتباره واحداً من أهم وسائل الحراك الاجتماعي في العصر الحديث، فأرسلوا أولادهم إلى المدارس، وهو ما سارع بعملية اندماجهم في المجتمع.

ولكن تكوين المهاجرين الثقافي كان، مع هذا، ضحلاً. فمعظمهم كانوا من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة، أو العمال الذين لم يتلقوا أي تعليم ديني أو علماني. وقد كانوا يعرفون قدرًا ما من شعائر الدين اليهودي وبعض التحريمات. ولكنهم لم يكن لديهم لا الوقت ولا الرغبة في ارتياد المدارس الدينية أو ممارسة الشعائر الدينية المختلفة، فختلوا عن إقامة شعائر دينهم. ومع هذا، كان الاحتفال ببلوغ سن التكليف الديني (برمستفاه) يُعدّ أمراً مهماً جداً بالنسبة لهم، وهو ما كان يدل على أن اليهودية بدأت تتحول، بالنسبة لعدد كبير منهم، من انتماء ديني إلى انتماء إثني. وكانت أعداد كبيرة من اليهود تعيش منزلة في مناطق تخومية تجعل الحياة الأرثوذكسية أمراً صعباً للغاية لأن الحصول على الطعام الشرعي كان شبه مستحيل. وكثيراً ما كان اليهودي يحصل على طعامه من الحيوانات التي يبيدها غير اليهود ودون أن يذبحها على الطريقة الشرعية.

وأخذت اليهودية الإصلاحية في الانتشار بين أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني، فأسس المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين عام ١٨٨٩. أما المهاجرون من شرق أوروبا، فقد أحضروا اليهودية الأرثوذكسية معهم رغم عدم اهتمامهم بالدين.

وتشربوا ثقافتها . واقتصرت التعليم اليهودي تقريباً على مدارس الأحد، وأخذت مدارس اليبديشية في الاختفاء التدريجي . ولذا ، يُلاحظ أنه ، مع نهاية الفترة ، ظهرت بعض التحولات الراديكالية في البناء الوظيفي وأسلوب الحياة الخاص بأعضاء الجماعة ، فبدأت أعداد كبيرة منهم ترك أحياء المهاجرين لتستوطن في أحياء حضرية أكثر ثراء ، وبدأوا يتحسسون عن وظائف المهاجرين إلى وظائف تجارية وكتابية ومهنية . وبدأ أبناء المهاجرين الذين تخرجوا في المدارس الحكومية والكليات يعملون في مهنة القانون والطب البشري وطب الأسنان والتدريس . وكان الاتجاه الأكبر نحو الأعمال الصغيرة المستقلة والوظائف الكتابية الإدارية ، ووظائف الياقة البيضاء . وتناقص عدد أعضاء الجماعة اليهودية فيما يُسمى «الحرف اليهودية» ، وخصوصاً صناعة الملابس . ومع حلول عام ١٩٣٠ ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون خمسي نقابات عمال صناعات الملابس وحسب بعد أن كانوا يشكلون الأغلبية العظمى من أعضائها ، أي أن المهاجرين اليهود نفصوا عن كاهلهم ميراثهم الاقتصادي والوظيفي الأوربي بحيث تحوّلوا من مجرد يهود متأمركين إلى أمريكيين يهود ومن أعضاء في جماعة وظيفية يهودية إلى أعضاء في الطبقة المتوسطة الأمريكية .

وظل إسهام يهود أمريكا الثقافي والفكري ضعيفاً في بداية هذه الفترة . ولكن ، مع نهايتها ، ومع تزايد معدلات الاندماج والأمركة ، بدأ يظهر أدباء أمريكيون أحرزوا شهرة محلية وعالمية ، مثل جرترود شتاين ، وناشرون مثل توفب ، وكثير من المخرجين السينمائيين . ولم تكن الجماعة اليهودية متجانسة حضارياً أو دينياً أو سياسياً . لذا ، كانت تتنازعها عدة أيديولوجيات وانتماءات . وقد أشرنا من قبل إلى الصراع الديني بين الأرثوذكس وغيرهم ، ثم كان هناك الصراع بين أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني ويهود اليبديشية ، والصراع بين الأقلية الصهيونية والأغلبية المعادية للصهيونية أو غير المكرثة بها ، والصراع بين دعاة الانتماج والدويان ودعاة قومية الدياسورا (أي الاستقلال الثقافي للجماعات اليهودية) ، والصراع بين الاشتراكيين من بقايا البوند والشيوعين والفضويين من جهة ودعاة الفلسفات السياسية الليبرالية المحافظة من جهة أخرى . هذا غير عشرات الصراعات الجانبية الأخرى .

#### نهاية المرحلة اليبديشية وظهور اليهود الأمريكيين (١٩٢٩-١٩٤٥)

The End of the Yiddish Era and the Emergence of American Jews (1929-1945)

كانت الولايات المتحدة ، حتى ذلك التاريخ ، حبيسة وضعها الجغرافي مغلق على نفسها (وإن كان نفوذها قد امتد إلى أمريكا اللاتينية والفيلين) ، ولذا لم تكن قد أدركت بعد دورها كقائد للعالم الغربي وللتشكيل الإمبريالي الغربي . ولكنها كانت مرحلة حضارة أخيرة للأسامالية الأمريكية ، خرجت بعدها عملاقاً اكتسح الجميع .

بدأت هذه المرحلة بالكساد الأمريكي الذي غير حياة كثير من الأمريكيين ، وأثر في بنية المجتمع الأمريكي إذ تعطل كثير من العمال وأفلس ألوف من صغار رجال الأعمال . وقد تعيّر الهيكل الوظيفي لأعضاء الجماعة اليهودية بشكل واضح ، فلم يمد هناك أي يهود تقريباً يعملون في الزراعة أو الحرف اليدوية ، ولم تكن تُوجد سوى أعداد قليلة من اليهود في الصناعات الثقيلة سواء بين أصحاب العمل أو العمال . وتركّز الأثرياء من أعضاء الجماعة اليهودية أساساً

وشهدت هذه الفترة بداية ظهور الهيكل التنظيمي لأعضاء الجماعة اليهودية ، وكان أولها لجان مساعدة المهاجرين وغوئهم مثل منظمة هياس (جمعية مساعدة المهاجرين العبريين) عام ١٨٨٤ ،

وظل إسهام يهود أمريكا الثقافي والفكري ضعيفاً في بداية هذه الفترة . ولكن ، مع نهايتها ، ومع تزايد معدلات الاندماج والأمركة ، بدأ يظهر أدباء أمريكيون أحرزوا شهرة محلية وعالمية ، مثل جرترود شتاين ، وناشرون مثل توفب ، وكثير من المخرجين السينمائيين .

ولم تكن الجماعة اليهودية متجانسة حضارياً أو دينياً أو سياسياً . لذا ، كانت تتنازعها عدة أيديولوجيات وانتماءات . وقد أشرنا من قبل إلى الصراع الديني بين الأرثوذكس وغيرهم ، ثم كان هناك الصراع بين أعضاء الجماعة اليهودية من أصل ألماني ويهود اليبديشية ، والصراع بين الأقلية الصهيونية والأغلبية المعادية للصهيونية أو غير المكرثة بها ، والصراع بين دعاة الانتماج والدويان ودعاة قومية الدياسورا (أي الاستقلال الثقافي للجماعات اليهودية) ، والصراع بين الاشتراكيين من بقايا البوند والشيوعين والفضويين من جهة ودعاة الفلسفات السياسية الليبرالية المحافظة من جهة أخرى . هذا غير عشرات الصراعات الجانبية الأخرى .

وشهدت هذه الفترة بداية ظهور الهيكل التنظيمي لأعضاء الجماعة اليهودية ، وكان أولها لجان مساعدة المهاجرين وغوئهم مثل منظمة هياس (جمعية مساعدة المهاجرين العبريين) عام ١٨٨٤ ،

يستوعبون فيها القيم الأمريكية . بل يبدو أن الجماعة اليهودية المهاجرة كانت أسرع الجماعات المهاجرة تخلياً عن تراثها الثقافي ومنه اللغة ، وفي التأسرك ، وفي تبني لغة المجتمع الجديد . وكان المدرسون من أعضاء الجماعة اليهودية من أنشط دعاة تعليم الإنجليزية للمهاجرين . وبدأت تنظيمات المهاجرين تتحول إلى بقايا أثرية . ولهذا ، نجد أن أعضاء الجماعة اليهودية بدأوا يلعبون دوراً في الحياة السياسية . وقد وجدوا أن الحزب الديموقراطي هو الإطار الأمثل للتعبير عن مصالحهم ، شأنهم في هذا شأن معظم المهاجرين والأقليات ، فانضموا إليه بأعداد كبيرة . وهذه سمة جديدة ظلت لصيقة بالسلوك السياسي لأعضاء الجماعة اليهودية حتى الوقت الحالي . فقد أعطى ما بين ٨٥ و ٩٠٪ من اليهود أصواتهم لروزفلت في الفترة ١٩٣٣ - ١٩٤٥ . وبدأ أعضاء الجماعة يحققون بروزاً في الحياة الأمريكية ، فكان منهم أحد الوزراء وثلاثة قضاة في المحكمة العليا ، وأربعة حكام ولايات ومئات من كبار الموظفين الموجودين على مقربة من صانع القرار .

ويلاحظ أيضاً أن عدداً كبيراً من أعضاء الجماعة اليهودية كان يوجد في صفوف الأحزاب الشيوعية . وكما قيل ، فإن ٥٠٪ من أعضاء الحزب الشيوعي كانوا من اليهود ، كما أن كثيراً من أعضاء المؤسسة الثقافية اليسارية كانوا ، في فترة الثلاثينيات ، من اليهود . وهذه سمة استمرت أيضاً لصيقة باليهود حتى الستينيات ، وأخذت بعدها في الاختفاء .

ومع تزايد معدلات الاندماج ، زاد اعتماد أعضاء الجماعة عن العقيدة اليهودية ومؤسساتها ، فتناقص عدد اليهود الذين يذهبون إلى المعبد . وتزايد نفوذ اليهودية الإصلاحية والمحافظة ، وتراجع نفوذ الأرثوذكس مع ضعف مؤسسات المهاجرين وانخراطهم في صفوف المجتمع الأمريكي . وشهدت هذه المرحلة ظهوراً متزايداً للمنظمات التي تقوم بجمع التبرعات من اليهود بشكل منظم لصالح الجماعة اليهودية ثم لصالح إسرائيل . ومن أهم هذه المنظمات جماعة النداء اليهودي الموحد عام ١٩٣٩ ، وتأسس مجلس يهودي عام لمنظمات الدفاع اليهودية الذي أصبح اسمه (عام ١٩٤١) للمجلس القومي الاستشاري لعلاقات الجماعة اليهودية (بالإنجليزية : ناشيونال كومونوتي ريليشنز أديفيسوري كاونسيل National Community Relations Advisory Council) . وقد بلغ عدد أعضاء الجماعة اليهودية في هذه المرحلة خمسة ملايين حسب بعض التقديرات ، المبالغ فيها ، من مجموع السكان البالغ مائة وأربعين مليوناً ، وقد ترك الكساد أثره العميق في الأطر التنظيمية لليهود إذ أن الضائقة

كسماسة في البورصة والسنيما ، وفي أشكال الترفيه الأخرى ، وفي بيع العقارات وتجارة التجزئة . أما الطبقة الوسطى اليهودية ، فازداد تركؤها في المهن والأعمال التجارية الصغيرة ووظائف الباقات البيضاء . ويذهب بعض الدارسين إلى أن هذا يعني أن الجماعة اليهودية بدأت تلعب مرة أخرى دور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، وإن كان السياق قد اختلف ، وإلى أن اختلاف الشكل مجرد تعبير عن اختلاف السياق .

تزايد عدد الشباب من أعضاء الجماعة اليهودية الذي يذهب إلى الجامعات الحكومية أو الخاصة . ففي نيويورك ، كان ٤٩٪ من مجموع طلبة الجامعات يهوداً ، وبلغ عدد الطلبة اليهود في مختلف الجامعات الأمريكية مائة وخمسة آلاف ، أي ٩٪ من عدد الطلبة . ويُعدُّ توجه الطلبة عند تخرجهم نحو الأعمال التجارية والمهن مشوراً جيداً على التحولات التي بدأت تحدث في هذه المرحلة والتي بدأت تصوغ الهيكل الوظيفي لليهود بما يتفق مع وضعهم في المجتمع الأمريكي . وتراجعت اللغة اليديشية حتى اختفت تقريباً فاختفت الصحافة اليديشية اليومية وبقيت ثلاث مجلات أسبوعية لا يزيد توزيعها على الثنين وعشرين ألف نسخة معظم قرائها من كبار السن . وبدلاً من كونها لغة الشارع اليهودي الأمريكي ، أصبحت لغة الشارع في وليامزبرج وهو الحي اليهودي الأرثوذكسي ، حيث كانت لغة ثانية إلى جانب الإنجليزية . واختفى الأدب اليديشي ، بل إن بعض أدباء اليديشية بدأ يكتب بالإنجليزية ويترجم أعماله إليها .

وفي العشرينيات ، كانت أبواب الهجرة موصدة دون اليهود وغيرهم من المهاجرين ثم أقفل بابها تماماً عام ١٩٢٤ . ولذلك ، لم يزد عدد المهاجرين ، من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٧ ، على ثلاثة وثلاثين ألفاً . ومع تدهور الموقف في ألمانيا ، ارتفع العدد إلى ١٢٤ ألفاً في الفترة بين ١٩٣٨ و ١٩٤١ . وكان مجموع المهاجرين في الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥ ، أي مدة اثني عشر عاماً ، نحو ٦٧٨ ، ١٧٤ فقط معظمهم من ألمانيا والأراضي التي احتلتها . كان خمس هؤلاء من المهاجرين المهنيين ونصفهم من الرأسماليين ، وكان عدد كبير منهم من الشخصيات البارزة ثقافياً ، مثل أينشتاين وحنا أرندت وأوبنهايمر ، وقد لعبوا دوراً ملحوظاً في الحركات السياسية اليسارية والثورية وكذلك في البحوث العلمية .

وبدا أعضاء الجماعة اليهودية في هذه المرحلة يفقدون كثيراً من تنوعهم ، ويكتسبون شيئاً من التجانس ، إذ أصبح أعضاء الجماعة اليهودية مواطنين أمريكيين اكتسبوا هوية أمريكية واضحة يتحدث معظمهم الإنجليزية ويذهب أولادهم إلى معاهد تعليم أمريكية



أوائل الستينيات ، وظهرت حركة الحقوق المدنية . وتُسَمَّى هذه الفترة «فترة الوفرة» التي اتسمت بضعف الأواصر الاجتماعية والقيم الدينية ، وتزايد معدلات العلمنة ، وتوجُّه المجتمع الأمريكي ، بشكل حاد وبدون أي تردد ، نحو اللذة والمتعة .

وقد تحوَّلت الجماعة اليهودية إلى جماعة أمريكية تماماً ، المولودون فيها أكثر من المهاجرين إليها ، وأصبحوا أساساً أعضاء في الطبقة الوسطى الأمريكية التي تسكن الضواحي ، وذابت كل علامات التمييز الحضاري . ويرى علماء الاجتماع أن ثمة تقسيماً ثلاثياً يحكم المجتمع الأمريكي وهو أنه مجتمع تحكمه ديانات ثلاث ، هي : البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية ، وهو ما يعني عمق قبول اليهودية .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، استمرت الحكومة في رفض السماح لأي من المهاجرين الجدد بدخول الولايات المتحدة . ومع هذا ، صدر تشريع يسمح لبعض المرشحين اليهود بالاستقرار . ودخل بالفعل ثلاثة وستون ألف يهودي ، وكانت مجموعة غير متجانسة صغيرة العدد . ولذا ، فإنها لم تُغيِّر الطابع العام الذي اتسمت به الجماعة اليهودية التي كانت قد تحدت سماتها الأساسية واستقرت . وكان مجموع المهاجرين في الفترة من ١٩٤٤ حتى ١٩٥٩ ، لا يزيد على ٦٩٣ ، ١٩١ إلى أن تم إلغاء القوانين التي تحد من الهجرة عام ١٩٦٥ . وبلغ عدد المهاجرين في الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨ نحو ٧٣ ألف مهاجر يهودي ، معظمهم جاء من إسرائيل بعد عام ١٩٥٧ ، ومن الشرق الأوسط وكوبا ، وإن كان الجميع ينتمون لأصل أوروبي .

ارتفع عدد أعضاء الجماعة اليهودية إلى ٥ ، ٢٠٠ ، ٠٠٠ عام ١٩٥٧ ، ووصل إلى ٦ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ عام ١٩٧٠ ، وهذا يعني أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية كان أخذاً في التناقص بالنسبة لعدد السكان ، وأن زيادتهم الطبيعية في الفترة من ١٩٤٥ حتى عام ١٩٦٩ ، أي خلال نحو خمسة وعشرين عاماً ، لم تزد عن نحو ٧٠٠ ألف (وذلك بطرح عدد المهاجرين) . وتسبب هذه الانخفاضات السكانية ، التي أصبحت اتجاهات ثابتة ، كثيراً من القلق في الأوساط اليهودية ، وخصوصاً إذا تمت رؤيتها في سياق معدلات الاندماج المتزايدة والزواج المختلط .

وتوجد معظم الجماعات اليهودية في المدن الكبرى ، ذلك أن أربعين بالمائة من كل اليهود يعيشون في نيويورك وحولها كما كان الحال منذ عام ١٩٠٠ . وبلغ عدد اليهود الذين يعيشون في نيويورك العظمى أي في نيويورك والضواحي المحيطة بها وشمال شرق

المالية تركت كثيراً من مؤسسات الرفاه الاجتماعي اليهودي دون ميزانيات كافية . وظهر عجز المنظمات أيضاً وفشلها في أن تقوم بدور فعال لمساعدة يهود ألمانيا أو حتى فتح باب الهجرة أمامهم .

ويمكن القول بأن حرب أعضاء الجماعة اليهودية في أمريكا ضد النازية لم تكن حرباً يهودية خاصة ، فقد ظلوا بمعزل عن الأحداث ولم يساهموا كثيراً في مقاطعة البضائع الألمانية ، بل إن أحد زعماء الجماعة ، ستيفن وايز ، ساعم في إفشال الجهود الرامية إلى تنظيم المقاطعة بإيعاز من الصهاينة . ولكن إسهام اليهود الأمريكيين (بوصفهم أمريكيين) في جهود الحرب كان كبيراً ، فقد قُتِلَ ١٠ ، ٥٠٠ منهم حياتهم وجرح ٢٤ ألفاً وحصل ٣٦ ألفاً على نياشين ، وهو ما يدل على أنه لا يوجد مصير يهودي مستقل ، وأن مصير أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة مرتبط تماماً بالمصير الأمريكي .

وقد احتدم الصراع بين الأقلية الصهيونية التي كانت تتزايد عدداً والأغلبية الاندماجية ، وخصوصاً أن المنظمة الصهيونية قرَّرت أن تنقل مركز نشاطها من لندن إلى واشنطن مع انتقال مركز الإمبريالية الغربية . ولذا ، فقد عُقد مؤتمر بيلتيمور الذي اتخذ قراراً بـ«تسيب» عام ١٩٤٢ في الولايات المتحدة . وفي مقابل هذا ، تم تأسيس المجلس الأمريكي لليهودية الذي كان يضم كبار رجال الأعمال (من اليهود الإصلاحيين أساساً) الذين حققوا معدلات عالية من الاندماج ، والذين كانوا معادين للصهيونية . وربما تكمن المفارقة الكبرى في أنهم اتخذوا موقفاً رافضاً للصهيونية باعتبارهم أمريكيين في الوقت الذي بدأت فيه المؤسسة الحاكمة الأمريكية نفسها تأخذ موقفاً مماثلاً تماماً للصهيونية وترى فيها تحقيقاً لإستراتيجيتها في العالم . ولذا ، كان محكوماً على المجلس الأمريكي لليهودية بالإخفاق .

#### اليهود الجدد (و الأمريكيون اليهود ١٩٤٥-١٩٧٠)

Neo-Jews or Jewish Americans (1945-1970)

تخلت الولايات المتحدة في هذه المرحلة تماماً عن سياستها الانعزالية وأصبحت قائد العالم الغربي بلا منازع . وازداد المجتمع الأمريكي علمانية وازدادت العلمانية شمولاً ، وتم فصل الدين عن الدولة تماماً إذ وضعت المحكمة الدستورية العليا عام ١٩٤٧ أسس هذا الفصل الحاد ، فقد أعلنت المحكمة أن الحكومة الفيدرالية أو المحلية ليس بإمكانها أن تصدر قوانين من شأنها مساعدة أي من الديانات ، ولأن تُفضِّل ديانة على الديانات الأخرى . وترسخت فكرة الحقوق المدنية ، وبدأت الأقلية السوداء تطالب بحقوقها مع

بروز شخصيات يهودية في مجالات التربية والعلوم والقضاء والمحاسبة ، وفي زيادة عددهم في مجالات الترفيه والإعلام والنشر . وزاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعملون كوسطاء في مجالات تجارة القطايعي والبناء والمقارنات في المدن الكبرى والترفيه وعالم المال والأسهم والسندات والصناعة وقطاع الإعلام والسينما والمسرح (نشر - معاهد موسيقية - مراكز ثقافية) . وبينهم عدد من كبار أصحاب المزارع والمصانع في قطاع الصناعة الزراعية . ويلاحظ تركُّز الرأسماليين من أعضاء الجماعة اليهودية في الخدمات الاستهلاكية وفي الصناعات الخفيفة وصناعات القطاع الوسط (صناعة الملابس وصناعة الفراء والمجوهرات والمشروبات الروحية وصناعة السينما) . وهذا يدل على أن ميراثهم الاقتصادي اليديشي ووضعم كمهاجرين لا يزال له أثر في غط حركاتهم . و« يسيطر » الرأسماليون من أعضاء الجماعة اليهودية على بعض هذه الصناعات . ولكن إلى جانب هذا يلاحظ غياب الرأسماليين من أعضاء الجماعة اليهودية عن الصناعات الثقيلة ، إذ تظل هذه الأخيرة (الفحم والفولاذ والمصارف والتقط والسيارات والسفن ووسائل المواصلات) في أيدي الواسب ، أي البروتستانت البيض ، وهم أعضاء النخبة الاقتصادية والسياسية الذين يتحكمون في العصب الأساسي للاقتصاد الأمريكي الذي يشكل مصدر النفوذ السياسي الحقيقي . وقد يكون من المفيد أن نذكر ، في هذا المقصار ، أن المصارف الكبرى في الولايات المتحدة ، وعددها خمسة وأربعون ، لا يشغل اليهود المناصب العليا فيها إلا في خمسة مصارف . ويظل أغلبية اليهود ميسوري الحال أعضاء في الطبقة الوسطى من أصحاب الباقات البيضاء ممن يسكنون المدن أو ضواحيها ، وهو ما يعني بروزهم ولما عنهم دون أن تكون لهم قوة اقتصادية حقيقية .

ويمكن القول بأن الهرم الوظيفي بالنسبة ليهود أمريكا مختلف عن الهرم الوظيفي القومي الأمريكي . ففي عام ١٩٦٠ ، بلغ عدد المهنيين بين اليهود ٢٥٪ (مقابل ٢٣٪ بين الأمريكيين ككل) ، وبلغ عدد الملاك والمديرين وأصحاب العمل ٣٠٪ (مقابل ١٠,٧٪ بين الأمريكيين ككل) ، أما ال ٢٠٪ الباقية ، فثلاثة أرباعهم كانوا عمالاً مهرة وغير مهرة وحرفيين . ويلاحظ زيادة عدد المهنيين اليهود ، وهو ما يعني زيادة اقتراب الجماعة اليهودية من السلطة ومن صانع القرار ، إذ نجد عدداً كبيراً منهم في واشنطن مستشارين للحكومة ولأعضاء الكونجرس وفي عديد من اللجان والوظائف . ويبدو أن متوسط دخل الفرد اليهودي أعلى من متوسط دخل أعضاء المجموعات الدينية والإتنية الأخرى .

نيوجرسي ، وفي المدن التسع الكبرى (لوس أنجلوس - شيكاغو - فيلادلفيا - بوسطن - ميامي - واشنطن - كليفلاند - بلتيمور - ديترويت) نحو ٧٥٪ من كل أعضاء الجماعة اليهودية .

ويلاحظ أن أعضاء الجماعة اليهودية لا يسكنون المدن نفسها وإنما يقطنون خارجها في الضواحي ، وهذا من علامات الثراء المتوسط إذ لا يسكن المدن الكبرى سوى الفقراء (من السود والبورطوريكيين) أو كبار الأثرياء من المليونيرات . ولا توجد ضواحي مقصورة على اليهود فما يحدد موقع السكنى في الوقت الحاضر مقياسان مادبان أحدهما الدخل والآخر لون الجلد ، ولم يعد الانتماء الديني أساساً للتصنيف . والواقع أن أعضاء الجماعة اليهودية يُصنّفون ضمن الأقليات البيضاء في الولايات المتحدة ، وتتني أغليتهم إلى شريحة عليا من الطبقة الوسطى .

ومن الاتجاهات الجديدة التي شهدتها هذه الفترة زيادة عدد أعضاء الجماعة اليهودية في لوس أنجلوس ، ففي عام ١٩٤٥ كان عددهم يبلغ ١٥٠ ألفاً ، زاد إلى ٥١٠ آلاف عام ١٩٦٨ . والشيء نفسه ينطبق على ميامي إذ زاد العدد من ٧٥٠٠ عام ١٩٣٧ إلى ٤٠ ألفاً عام ١٩٤٨ و ١٥٠ ألفاً عام ١٩٧٠ ، وإن كان معظم اليهود هناك من العاجز . وحركة أعضاء الجماعة اليهودية إلى كاليفورنيا وميامي ليست مقصورة عليهم وإنما كانت جزءاً من اتجاه قومي أمريكي عام ، حيث هاجر الكثيرون من وسط القارة الأمريكية إلى السواحل . ولذلك ، نجد أن يهود شيكاغو قد انخفض عددهم من ٣٣٣ ألفاً عام ١٩٤٦ إلى ٢٨٥ ألفاً عام ١٩٦٩ .

وفيما يخص الهيكل الوظيفي والمهني لأعضاء الجماعة اليهودية ، فقد شهدت الفترة بعد عام ١٩٤٥ تعمق الاتجاهات التي شاهدنا ظهورها في المرحلة السابقة ، إذ زاد عدد اليهود المشتغلين بالمهن في الطب والتدريس بالجامعات وداخل البيروقراطية الحكومية في جهاز الموظفين وتناقص عدد العمال المهرة وغير المهرة بنسبة كبيرة بحيث لا يكاد يوجد أي يهود بين عمال النقل وعمال المناجم . كما لا يوجد يهود في صناعة الأخشاب والتعدين والنقل كما كان الحال في الماضي ، وتناقص عدد الفلاحين اليهود بحيث كاد يتعدم ، كما تناقص عددهم في صناعة الملابس ، أي أن ميراثهم الاقتصادي الأوربي اختفى تماماً . ويمكن القول بأن ظهور المهني اليهودي هو السمة الأساسية لهذه الفترة . فعلى سبيل المثال ، زاد عدد المهنيين في إحدى المدن الأمريكية (تشارلستون) أربعة أضعاف بين منتصف الثلاثينيات وعام ١٩٤٨ ، وزاد عدد المهنيين في لوس أنجلوس في الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٥٩ من ١١٪ إلى ٢٥٪ . ويظهر هذا في

ولكن أعضاء الجماعة اليهودية بغض النظر عن مدى فقرهم أو ثرائهم أو تميزهم الوظيفي أو مدى صهيونيتهم أو عدمها ، أصبحوا جزءاً عضوياً من الاقتصاد الأمريكي . فالرأسماليون الأمريكيون اليهود لا يشكلون رأسمالية يهودية لها حركة مستقلة ، وهم ليسوا رأسماليين يهوداً وإنما هم رأسماليون أمريكيون يهود (أو رأسماليون أمريكيون من أعضاء الجماعة اليهودية) ويشكلون جزءاً من الاقتصاد الأمريكي وينحصر ولاؤهم في رأس المال ، وهذا الولاء هو الذي يحدد سلوكهم . وما يحدد حركة رأس المال الذي يملكه اليهود ليس تطلعاتهم الدينية أو الصهيونية وإنما حركة الاقتصاد الرأسمالي الأمريكي العامة والمنظومة القيمية المادية الضمنية .

وكذلك أيضاً المهني اليهودي ، فمما لا شك فيه ، كما بينا ، أن زيادة عدد المهنيين من أعضاء الجماعة اليهودية يعني في واقع الأمر ازدياد أعضاء الجماعة اقتراباً من السلطة وصانع القرار وتأثيراً فيها . ولكنهم ، مع هذا ، يظلون أقلية عديدة صغيرة ، وهو ما يعني أن همتهم تظل محدودة . وحينما يصل أحد أعضاء الجماعة اليهودية إلى القمة ، فإن الطريق يكون مفتوحاً أمامه وهو يمارس نفوذه في دولة لها إستراتيجيتها العامة ولها مؤسساتها الثابتة وقوانينها المستقرة وأجهزتها التنفيذية ذات السطوة ، وهو ما يعني أنه سيظل أساساً جزءاً من الكتل الأمريكي حتى في مكانه القيادي . وهو سيحقق البروز وسيصل إلى مكانة قيادية بمقدار ما يخدم مصالح المؤسسة . إن الرأسمالي اليهودي ، مثل المهني اليهودي ، يشكل كل منهما نقطة في مجتمع يشبه البحر الضخم المتلاطم ذا الحركة المستقلة الواضحة . ومن الصعب على أعضاء أية أقلية ، أياً ما بلغ نفوذها وقوتها ، الهيمنة عليه وتوظيفه لخدمة مصالحها ، وخصوصاً إن تمارضت هذه المصالح مع الاتجاه العام . لكن هذا لا يعني انعدام القدرة على التأثير ، وخصوصاً فيما يخص التفاصيل ، وهو أمر يختلف عن التوظيف الكامل وتغيير الاتجاه .

وقد طرحت قضية الصهيونية على الجماعة اليهودية المتدمجة وتم حسمها بعد عام ١٩٤٨ لصالح الصهيونية ، وحسب شروط يهود أمريكا الجدد الذين اعتنقت أغلبيتهم الصهيونية ، ولكنها لم تكن على أية حال الصهيونية الاستيطانية ذات الجذور الشرق أوروبية التي تطلب من اليهود التخلي عن وطنهم والهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها . إنها صهيونية توطينية تترجم نفسها إلى دعم مالي وسياسي للمستوطن الصهيوني ، وتكتفي بممارسة الضغط السياسي على الحكومة الأمريكية لصالح دولة إسرائيل (وإن كانت المسألة لا تستدعي ضغطاً كبيراً) . وقد سارعت الحكومة الأمريكية إلى تأييد

ومن ناحية الأطر التنظيمية ، يلاحظ بدايات محاولة الوصول إلى إطار تنظيمي يضم سائر المنظمات المختلفة على أن تحتفظ كل منظمة أو جماعة باستقلالها . والواقع أن محاولة التنظيم هي تعبير عن تزايد التجانس بين أعضاء الجماعة اليهودية . أما طريقة التنظيم نفسها ، فهي انعكاس للطريقة الفيدرالية الأمريكية في التنظيم . ولقد تأسست لجان قومية مهتمتها التنسيق بين المبادئ اليهودية أو بين اللجان الصهيونية المختلفة أو لجان الدفاع المختلفة أو الجبابية . وكما أسلفنا ، أسست جماعة النداء اليهودي الموحد عام ١٩٣٩ ، وسندت إسرائيل عام ١٩٥٠ ، والنداء الإسرائيلي الموحد عام ١٩٥٠ . كما أن هناك ، في كل جماعة يهودية كبيرة ، تمثيلاً لمختلف المنظمات اليهودية التي تسيطر عليها الصهيونية ، أكثر التنظيمات اليهودية تنظيمياً .

ومن أهم القضايا التي أثرت في هذه المرحلة قضية علاقة الدين بالتعليم إذ أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يقفون وراء المطالبة بعدم تقديم العون للمدارس الدينية بحجة أن هذا حرق للدستور الأمريكي الذي يفصل بين الدين والدولة . ولكن معظم هذه المدارس كان للملجأ الوحيد لأبناء الأسر الكاثوليكية المهاجرة الفقيرة ، الأيرلنديين والإيطاليين والبرتوريكيين ، حيث يمكنهم أن يتلقوا تعليماً جيداً ، فالقيم الأخلاقية في نظام التعليم العام الأمريكي قد ضعفت ووحدة ، كما أن طريقة تمويل المدارس من الضرائب المحلية تجعل مستوى المدارس في الأحياء الغنية التي يوجد فيها اليهود مرتفعاً إذ يستطيع أهل الحي أو المدينة أن يمولوا جميع النشاطات المدرسية . أما في الأحياء الفقيرة ، فلا تتاح هذه الفرصة . ولذا ، فقد اكتسبت قضية الدعم الحكومي للمدارس نبرات إثنية ، وخصوصاً أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية يقفون أيضاً ضد تدريس القيم الأخلاقية والروحية للأطفال باعتبار أن هذا قد يُستخدم ستاراً لتدريس القيم الدينية . ولا تزال هذه القضية مصدرراً أساسياً للتوتر في العلاقات بين أعضاء الجماعة اليهودية وأغلبية سكان الولايات المتحدة .

الأدي، وكذلك اتجاه اليديشية نحو الاختفاء الكامل . ويمكن اعتبار تزايد الزواج المختلط (بمعدلاته المرتفعة التي تصل في بعض الولايات إلى ما يزيد على ٦٠٪) مؤشراً آخر . ويظهر الاندماج أيضاً في غربة الأجيال اليهودية الجديدة عن أسرها البورجوازية ، فقد انتخرطت أعداد كبيرة منهم في صفوف حركة الحقوق المدنية وحركة اليسار الجديد في الستينيات . ولكن يمكن القول بأن أعضاء الجماعة اليهودية، باعتبارهم أقلية مهاجرة في المدينة تدبىن بالولاء للحزب الديموقراطي، كان لهم دائماً اتجاه ليبرالي وكانوا يطالبون بقدر من التدخل من جانب الحكومة ضد الاحتكارات ومن أجل الرفاه الاجتماعي .

ومن الظواهر المهمة في هذه المرحلة ، استمرار بروز أعضاء الجماعة اليهودية وتميُّزهم في المجتمع الأمريكي ، وخصوصاً في الحياة الثقافية والأدبية . ويتضح بروز أعضاء الجماعة أيضاً في تزايد عدد اليهود من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات (١٠٪ من مجموع الأساتذة يهود) موزعين في جميع التخصصات ، وخصوصاً الفيزياء وعلم الاجتماع وعلم النفس . كما يلاحظ بروزهم من خلال العدد الكبير من الكتاب والنقاد الأمريكيين اليهود، مثل : سول بلو ، وفيليب روث ، ويرانارد مالامود ، وليونيل ترلنج ، وإرفنج هاو ، ولسلي فيدلر ، وليام فيليس . ولكن من الملاحظ أن كثيراً من هؤلاء المثقفين لم تكن هويتهم يهودية بشكل محدد ولم يهتموا بالقضايا الإثنية أو الدينية اليهودية إذ أن انتماءهم كان أمريكياً بالدرجة الأولى .

ومما يجدر ذكره أن اليهود الأرثوذكس يتخذون موقفاً مشابهاً لموقف الكاثوليك ، فهم يودون الحفاظ على نظام التعليم اليهودي الخاص بهم ، الأمر الذي يجعلهم في حاجة إلى دعم حكومي . ويبدو أن الهوية الدينية اليهودية في الولايات المتحدة ضعفت بشكل سريع جداً . ففي إحدى الإحصاءات (عام ١٩٤٥) ، جاء أن ١٨٪ من اليهود يرتادون دور العبادة الخاصة بهم مرة واحدة على الأقل في الشهر مقابل ٦٥٪ من البروتستانت و٨٣٪ من الكاثوليك ، وهو ما يدل على أنهم من أكثر القطاعات علمنة في المجتمع الأمريكي . واستمرت النسبة كما هي عليه عام ١٩٥٨ ولكنها انخفضت قياساً إلى بقية المجتمع ، فأصبحت ٤٠٪ من البروتستانت و٧٤٪ بالنسبة إلى الكاثوليك .

ولكن نسبة ١٨٪ قد يكون مُبالغاً فيها إذ أن الكثير من يهود أمريكا يلصقون بأنفسهم صفة «يهودي» دون أية ممارسات دينية . وقد بينت إحدى الإحصاءات أن نحو ١٠٪ أو ٢٠٪ فقط من اليهود يقيمون الشعائر الخاصة بالاحتفال بالسبت والطعام الشرعي والصلوات اليومية . ويظهر ضعف المؤسسات الدينية في أن المعبد اليهودي أصبح ذا دور ثانوي تماماً بالنسبة لدور النادي الاجتماعي اليهودي . ويمكن القول بأنه ، مع ضعف الهوية الدينية ، يتمسك اليهود ببعض المظاهر الإثنية للحفاظ على الهوية المتميزة . ومن هنا تزايدت قوة الصهيونية ، فالصهيونية هي اليهودية الإثنية بعد تجريدتها من أي مضمون ديني . ومن دلائل الاندماج المتزايد ، اختفاء العبرية كأداة للتعبير



## اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود في الوقت الحاضر

تعداد الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ومعالمها السكانية الأساسية - وظائف اليهود الجدد - الاندماج الديني والثقافي (أمركة اليهود الجدد) - اليهود الجدد والصهيونية - علاقة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بالأمريكيين السود - تنظيمات وجمعيات الجماعة اليهودية

٢٠ و ٤٤ . وقد جاء في إحدى الإحصاءات (عام ١٩٧١ - ١٩٧٢) أنه في إحدى الجماعات الأمريكية ، أنجبت ألف أم يهودية (في المرحلة العمرية ٢٠ - ٤٤) ٤٥٠ طفلاً مقابل ٦٣٥ طفلاً للأمهات غير اليهوديات . وقد انخفضت النسبة بعد ذلك فأصبحت ١,٦ لكل أنثى (بإلحاق ٤,١) وهي أقل نسبة خصوبة في الولايات المتحدة (النسبة العامة للأنثى الأمريكية ٥,٢) . وبيّنت إحصاءات عام ١٩٩٠ أن نسبة خصوبة الأنثى اليهودية للمرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ هو ١,٥٧ ، أما بالنسبة للمرحلة العمرية المهمة ٢٥ - ٣٤ فهو نحو ٠,٨٧ (وتُعدُّ من أقل النسب في العالم) . وهذا يدل على أن منحى التناقص لم يصل إلى ذروته بعد . وهذا يعني أن درجة خصوبة الأنثى اليهودية غير كافية لأن تُعيد الجماعة إنتاج نفسها (المطلوب هو ٢,١ طفل لكل أنثى) .

ولوحظ أن المرحلة العمرية ١٠ - ١٤ تشكل ١٠٪ من مجموع السكان في الولايات ، أما بين أعضاء الجماعة اليهودية فهي ٩,٧٪ ، أي أنها مساوية تقريباً للنسبة القومية ، ولكن يُلاحظ أن الأمر مختلف في المرحلة العمرية ٥ - ٩ إذ أن النسبة المثوية العامة هي ٩,٧٪ ، وهي بين اليهود ٦,٨٪ . ويتجلى التفاوت الحاد في الأطفال دون الرابعة ، فالنسبة هي ٤,٨٪ لمجموع السكان ، أما بالنسبة للجماعة اليهودية فهي أقل من النصف (٤٪) ، وهو ما يعني تزايد عقم المرأة اليهودية وتناقص خصوصيتها . فإذا أضفنا إلى ذلك معدلات الاندماج العالية والزواج المختلط ، فإننا نجد أن الاتجاه السكاني العام نحو التناقص يتزايد مع الأيام . وفي عام ١٩٧٧ ، أوصى المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين بتشجيع الأزواج الأمريكيين اليهود على إنجاب طفلين أو ثلاثة أطفال على الأقل .

ويذهب إياهاو برجمان (مركز هارفارد للدراسات السكانية) إلى أنه حينما تحظى الولايات المتحدة بعيدها المثوي الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أي أقل من مليون) . بسبب انخفاض نسبة المواليد وازدياد معدلات الاندماج .

## تعداد الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ومعالمها السكانية الأساسية

Number of the Jewish Community in the U.S.A. and Main Demographic Traits

بلغ عدد يهود الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ نحو ٥,٦٢٠,٠٠٠ ، ويذهب مصدر إحصائي آخر أن عددهم عام ١٩٩٥ هو ٥,٨٠٠,٠٠٠ ، الأمر الذي جعله أكبر جماعة يهودية في العالم (حوالي ٤٣,٥٪) . وهم يشكلون ٢,٤٪ من الشعب الأمريكي البالغ عدده ٢٥٧,٥٩٥,٠٠٠ نسمة . وقد أصبحت الإحصاءات الخاصة بأعضاء الجماعة اليهودية مسألة خلافية بشكل حاد ، وخاضعة للأهواء الأيديولوجية . فحسب إحدى الإحصاءات ، بلغ العدد ٨,٢٠٠,٠٠٠ ، ولكن الدراسة أضافت أن من بينهم ٢,٧٠٠,٠٠٠ من «أصول يهودية» ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم يهوداً . والسؤال الذي يطرح نفسه هو : إن كان هؤلاء ليسوا يهوداً من منظور الشريعة اليهودية ولا من منظور الإثنية اليهودية ولا من منظور أنفسهم أو جيرانهم ، فلم تمضمهم إلى الإحصاء أساساً ؟ ومهما يكن الأمر ، يُلاحظ أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية قد تناقص بشكل ملحوظ قياساً إلى عدد سكان الولايات المتحدة . فقد بلغ عدد اليهود عام ١٩٥٧ نحو ٥,٢٠٠,٠٠٠ مليون ، وزاد إلى ٥,٩٢٠,٩٠٠ عام ١٩٨٠ . ولكن من المعروف أنه حين كانت الزيادة في الشعب الأمريكي ٣٧٪ كانت الزيادة بين أعضاء الجماعة اليهودية ١٧٪ فقط . ويُلاحظ أنه لم تُسجَّل أية زيادة في عدد اليهود بعد ذلك ، بينما زاد السكان في الولايات المتحدة ١,٥٪ سنوياً . وما يزيد الصورة قتامة أن هذا العدد لا يضم اليهود وحسب وإنما «كل أهل البيت اليهودي» ، أي الأعضاء غير اليهود في العائلات اليهودية .

ويُلاحظ أن نسبة الخصوبة بين أعضاء الجماعة اليهودية منخفضة (يتراوح عدد الأطفال تحت سن الخامسة لكل ألف أنثى بين

والمعدل القومي البالغ ٦٤٪ ، وذلك حسب إحصاءات عام ١٩٧١ - ١٩٧٢ . ويعيش ٧٥٪ من مجموع اليهود في المدن الأساسية وضواحيها (نيويورك ولوس أنجلوس وفيلادلفيا وشيكاغو وميامي وواشنطن وبوسطن وبلتيمور وديترويت وكليفيلاند) والتي يعيش فيها ٢٠٪ من مجموع المواطنين الأمريكيين .

ومن القضايا الأساسية والمخيرة التي يواجهها الأمريكيون اليهود ، والتي تساعد على تناقص عدد اليهود ، قضية الزواج المختلط . وقد ورد في إحدى الإحصاءات أن ٩٠ ، ٢٪ من جملة اليهود المتزوجين عام ١٩٥٠ كانوا مقترنين بطرف غير يهودي . وفي الفترة التي امتدت حتى عام ١٩٦٥ ، كانت نسبة اليهود المتزوجين من يهود حوالي ٩٥٪ . ولكن النسبة انخفضت إلى النصف في الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٤ إذ انخفضت إلى ٧٤٪ ثم انخفضت في الفترة ١٩٧٤ - ١٩٨٥ إلى ٥٤٪ ، ثم انخفضت بعد عام ١٩٨٥ إلى ٤٧ - ٤٨٪ . وهذه هي النسبة العامة على المستوى القومي ، وهو ما يعني أنها تصل في بعض الأماكن (مثل أيوا ، حيث لا توجد جماعة يهودية كبيرة) إلى ما يقرب من ٨٠ - ٩٠٪ . ويدل المنحنى الإحصائي على أنها لم تصل بعد إلى نقطة الذروة .

ويطلق الصهانية على ذلك «الهولوكوست الصامت» أو «الإبادة الصامتة» . وقد أصدرت إحدى الجماعات اليهودية إعلاناً في إحدى الجرائد الأمريكية يقول «أنت يهودي ، ولكن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون أولادك غير يهود» . ونسبة الذكور اليهود المتزوجين من إناث غير يهوديات إلى نسبة الإناث اليهوديات المتزوجات من ذكور غير يهود هي ٢ - ١ . ولهذا دلالة من منظور الشريعة اليهودية التي تُعرّف اليهودي بأنه من وُلد لم يهودية . وبالتالي ، فإن أبناء الذكور اليهود لا يُحسبون يهوداً . ورغم أن أبناء الإناث المتزوجات من غير يهود يُعدون رسمياً يهوداً ، فإنهم من الناحية الفعلية يعدون غير محددى الهوية . ويبلغ عدد الأطفال اليهود من الزيجات المختلطة بين ٤٠٠ و ٦٠٠ ألف طفل يهودي ، وهو ما يعني أن الاتجاه نحو الزواج المختلط سيزيد في المستقبل لأن أبناء مثل هذه الزيجات يكون عندهم استعداد أكبر للانتماء والزواج المختلط .

وفي محاولة وقف تناقص أعداد أعضاء الجماعة اليهودية ، اتخذت اليهودية الإصلاحية سياسة تشجيع التبشير باليهودية كما اعترفت بأبناء الذكور اليهود (المتزوجين من إناث غير يهوديات) يهوداً . ويلاحظ أن بعض أبناء الزيجات المختلطة ، يعتبرون أنفسهم يهوداً ، ولكن أغليبيتهم العظمى لا تعبر عن انتمائها الديني بطريقة

ولكن ، لم يتفق معه كل من صموئيل لايرمان ومورتون واينفيلد ، حيث تتبأ بزيادة بطيئة حتى عام ٢٠٠٠ ثم تناقص مستمر ليصل إلى ٩ ، ٣ مليون عام ٢٠٧٠ . وبغض النظر عن هذه الخلافات بين علماء ديموجرافيا الجماعات اليهودية ، فإن ثمة تناقصاً ملحوظاً هو تعبير عن الظاهرة العامة الموجودة التي تسم كل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ويطلق عليها ظاهرة «موت الشعب اليهودي» .

وشهدت هذه الفترة تزايداً توارثاً أو نشأت الجماعات اليهودية ، وهو ما سيؤدي إلى زيادة معدلات الاندماج ، فقد استمر الاتجاه نحو الانتقال من ولايات الشمال الشرقي (نيويورك ونيوجرسي وكونتكتات) والشمالية الوسطى (إلينوي ، وغيرها) ، وهي المناطق التقليدية لتركز اليهود إلى كاليفورنيا التي يبلغ سكانها اليهود في الوقت الحالي ٩١٩ ألفاً ، أي نحو ٣ ، ٥٪ من سكان الولاية ، وإلى فلوريدا التي يبلغ حجم الجماعة اليهودية فيها نحو ٦٢٢ ، ٠٠٠ ، أي ٤ ، ٦٪ ، وسكان لوس أنجلوس من اليهود (٥٠١ ، ٠٠٠) ينقص قليلاً عن عدد سكان فيلادلفيا (٢٤٥ ، ٠٠٠) وشيكاغو (٢٤٨ ، ٠٠٠) مجتمعين (٤٩٣ ، ٠٠٠) . ومع هذا ، لا تزال ولاية نيويورك تضم ٦٤٠ ، ١ ، ٦٪ ، أي ٩ ، ١٪ من سكانها وحوالي ٢٠٪ من مجموع يهود العالم . وتضم ولاية نيوجرسي ٤٣٠ ألفاً أي ٥ ، ٦٪ . أما ولاية ماساشوستس ، فتضم ٢٧٠ ألفاً أي ٥ ، ٤٪ من سكانها ، وتضم ولاية بنسلفانيا ٣٣٠ ألفاً ، أي ٢ ، ٨٪ من سكانها ، ويبلغ أعضاء الجماعة اليهودية في ميريلاند نحو ٢١٢ ، ٠٠٠ ، أي ٤ ، ٣٪ من سكانها . كما استمر اليهود في النقل من وسط المدن الكبرى إلى الضواحي والمدن الصغيرة . وقد هبط عدد اليهود من سكان نيويورك من ٢ ، ٥ مليون في أوائل السبعينيات إلى ١ ، ٤٥٠ ، ٠٠٠ عام ١٩٩٥ . ولذا ، فمن المتوقع أن ينكمش الدور الذي يلعبه اليهود في إدارة هذه المدينة . وبالفعل ، تم مؤخراً انتخاب عمدة أسود في نيويورك ، وكان من قبل إما يهودياً أو من أصل بريطاني . ومع هذا ، تظل نيويورك أهم وأكبر مدينة يهودية في العالم (بل أكبر مدينة بولندية وأيرلندية أيضاً) . ومن المدن الأخرى التي تضم جماعات يهودية كبيرة ما يلي :

لوس أنجلوس	٢٥٣ ، ٣٤٠	ميامي	١٨٩ ، ٠٠٠
شيكاغو	٤٩٠ ، ٠٠٠	(فلوريدا)	٢٥٤ ، ٠٠٠
بوسطن	٥٠٨ ، ٠٠٠	فيلادلفيا	١٦٥ ، ٠٠٠

وأعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة هم أساساً جماعة حضرية ، ذلك أن ٩٦٪ من اليهود يقطنون المدينة مقابل

الذي جعل الاستيطان في فلسطين المحتلة أمراً غير جذاب .  
 ويسبب كلا الفريقين حرجاً شديداً لليهود أمريكا . فالنوع الأول مرتد  
 عن إسرائيل (بالعبرية : يورديم) ، ويكوّنون «دياسبورا إسرائيلية» ،  
 وهو مصطلح يقوض دعائم الشرعية الصهيونية . أما النوع الثاني ،  
 فهم متساقطون (بالعبرية : نشوريم) آثروا الهجرة إلى الجولدن مدينا  
 (البلد الذهبية) على الهجرة إلى إرتس يسرائل (أرض إسرائيل) .  
 وهنا تطرح القضية نفسها : هل يجب مساعدة المهاجرين الإسرائيليين  
 والروس باعتبارهم يهوداً أم يجب التصدي لهم باعتبارهم مرتدين  
 ومتساقطين ؟ وما تجدر ملاحظته أن المهاجرين الروس يُطلق عليهم  
 مصطلح «يهود روس» وليس «يهود اليديشية» لأنهم لا يعرفون هذه  
 اللغة . وقد جاء معظمهم من روسيا وأوكرانيا (لأن معظم المهاجرين  
 من جورجيا يذهبون إلى إسرائيل بسبب كفاءتهم المتدنية ، فجورجيا  
 جزء من العالم الثالث ، كما أن هجرتهم إلى إسرائيل تعني تحقيق  
 الحراك الاجتماعي) . وهناك نسبة عالية من المهاجرين السوفيت  
 متزوجون من غير اليهود ، و٤٠٪ منهم لا يذهبون إلى المعابد  
 اليهودية إلا في الأعياد المهمة . ومعظمهم مهنيون يحملون مؤهلات  
 عالية وقد هاجروا أساساً لأسباب اقتصادية وليست أيديولوجية .  
 ولكن متطلبات الحياة في الولايات المتحدة تفرض عليهم أن يتقبلوا  
 وظائف دون مستواهم الفكري ودرجة تعليمهم ، الأمر الذي يسبب  
 لكثير منهم الإحباط ، كما أن أخلاقيات المجتمع الأمريكي وإيقاعه  
 يصيبهم بالحيرة . وقد كوّن هؤلاء جماعة منغلقة على نفسها لا تكن  
 كثيراً من الاحترام للحضارة الأمريكية أو ليهود أمريكا . ويبدو أن  
 المهاجرين الروس والإسرائيليين لا يُقبلون على الاندماج في الجماعة  
 اليهودية ، ذلك أن الروس يرون أنهم ليسوا يهوداً أساساً . أما  
 الإسرائيليون فيصرون على هويتهم الإسرائيلية . ومن أسباب الحرج  
 الأخرى التي يسببها هؤلاء المهاجرون لليهود أمريكا أن الجريمة المنظمة  
 انتشرت في صفوفهم إذ تخصصوا في تهريب الأموال وتزيفها وفي  
 البغاء وتجارة المخدرات . وقد بدأت المافيا اليهودية الإسرائيلية  
 والسوفيتية في الولايات المتحدة في التنسيق مع المافيا الإسرائيلية  
 والسوفيتية في الدولة الصهيونية . هذا ، وقد وضعت الولايات  
 المتحدة قيداً على هجرة اليهود السوفيت بحيث لا يتجاوز عدد  
 المسوح لهم بالهجرة سنوياً حداً معيناً (٥٠ ألف ويصل العدد أحياناً  
 إلى ٧٠ ألفاً) وذلك لتحويل سيل الهجرة إلى إسرائيل .

دنية أو إثنية ، أي أن يهوديتهم هي في واقع الأمر اسم بلا مُسمّى  
 ودالّ بلا مدلول . ويسبب أبناء الزيجات المُختلطة مشكلة ضخمة في  
 إسرائيل ، فكثير من الإناث اللاتي يتزوجن من يهود إما يتهودن على  
 يد حاخامات إصلاحيين أو محافظين أو يحتفظن بانتماهن الديني  
 وينشئن أطفالهن يهوداً . وترفض الحاخامية الأرثوذكسية في  
 إسرائيل الاعتراف بيهودية هؤلاء المتهودات أو بيهودية أطفالهن . كما  
 تحاول المؤسسة الأرثوذكسية في الدولة الصهيونية أن تعيد تعريف  
 الهوية اليهودية لتصبح : « من ولد لأم يهودية أو تهود حسب  
 الشريعة » ، أي على يد حاخام أرثوذكسي . ولو تم هذا ، فإنه  
 سيسبب ما يشبه القطيعة شبه الكاملة بين الدولة الصهيونية وأغلبية  
 يهود الولايات المتحدة المحافظين والإصلاحيين والإثنيين . ويبدو أن  
 تزايد معدل العلمنة يؤدي إلى الإحجام عن الإنجاب بسبب التوجه  
 نحو اللذة وتحقيق الذات .

وقد ظهرت في فترة الستينيات ، جماعات سوداء معادية  
 لليهود ، والمؤسسة الليبرالية البيضاء . ومع بداية الثمانينيات ، كان  
 تحالف الأقليات أو التحالف الليبرالي الذي كان يشكل أعضاء  
 الجماعة اليهودية نواته الأساسية ، والذي خاض معركة الحقوق  
 المدنية في أوائل الستينيات ، قد تحطّم تماماً ولم يندلج لليهود فيه مكان  
 وبدأت القيادات السوداء تتولى قيادة الأقلية السوداء التي تطالب الآن  
 بأن تلعب دوراً يتناسب مع حجمها . وقد ظهرت أقليات أخرى في  
 المجتمع الأمريكي مثل الكاثوليك المنحدرين من أصل إسباني  
 (هسبانيك) والأمريكيين ذوي الأصل العربي . ويبدو أن عدد المسلمين  
 في الولايات المتحدة قد بدأ يتجاوز عدد اليهود ، إن لم يكن قد تجاوزه  
 بالفعل . وكل هذا يعني أن الجماعة اليهودية بدأت تفقد وضعا كأهم  
 أقلية داخل المجتمع الأمريكي .

وقد شهدت هذه المرحلة نوعين من المهاجرين : أولهما  
 وأهمهما المهاجرون من إسرائيل ، حيث استوطن الولايات المتحدة  
 نحو ٧٠٠ ألف إسرائيلي (وإذا ضُم إلى هذا الرقم الأبناء ، فإن الرقم  
 يقترب من مليون) . وقد أرسلت الوكالة اليهودية مجموعة من  
 المبعوثين الإسرائيليين لإقناع الإسرائيليين بالعودة ، وإقناع بعض  
 يهود أمريكا بالهجرة ، فاستقر عدد منهم في الولايات المتحدة .  
 والنوع الثاني هم المهاجرون من روسيا السوفيتية الذين بلغ عددهم  
 ١٠٠ ألف من مجموع ٢٦٥ ألف مهاجر سوفيتي حتى عام ١٩٨٩ ،  
 هذا بخلاف من تركوا إسرائيل بعد استقرارهم فيها . وقد تزايد  
 عددهم في الآونة الأخيرة بسبب فتح باب الهجرة من الاتحاد  
 السوفيتي مرة أخرى ، واندلاع الانتفاضة في الوقت نفسه ، الأمر

## وظائف اليهود الجدد

Occupations of the Neo-Jews

لا يزال الهرم الوظيفي بالنسبة للأمريكيين اليهود مختلفاً عن الهرم على المستوى القومي الأمريكي، ذلك أن نحو ٧٠٪ من جملة الأمريكيين اليهود يعملون في أعمال الياقات البيضاء مقابل المعدل القومي البالغ ٤٠٪. كما أن نسبة من يعملون بأعمال غير يدوية قد تصل إلى ٩٠٪ مقابل المعدل القومي الذي يصل إلى ٣٨٪. ومع هذا، لا يؤثر ذلك في وضعهم بناتاً باعتبار أن المجتمع الأمريكي مجتمع منفتح يوجد فيه قطاع خدمات ضخم تزايد فيه أعمال الياقات البيضاء. ويتركز أعضاء الجماعة اليهودية في مهن مثل: الطب والهندسة والقانون والتدريس في الجامعات. وقد بلغ عدد أعضاء هيئات التدريس في الجامعات من اليهود ٢٠٪ عام ١٩٨٠ (٢٥٪ في كليات الطب و٣٨٪ في كليات الحقوق و٥٠٪ في كلية الحقوق في هارفارد). وهم يشكلون أيضاً ٢٠٪ من جملة المحامين والأطباء. ودخل أعضاء الجماعة اليهودية مجالاً جديداً هو مجال إدارة الشركات وشركات التكنولوجيا المتقدمة. وتحوّلت عضوية اتحادات نقابات العمال اليهودية التقليدية، مثل عمال النسيج المتحدون والاتحاد الدولي لقمصان السيدات ونقابة المعلمين، والتي كانت تضم أغلبية يهودية، فأصبحت عضويتها سوياً وأمريكيين من أصل أسباني وآسيويين، وأخذت قياداتها اليهودية تختفي. والواقع أن وضع الأمريكيين اليهود يكذب إحدى نبوءات المفكر الصهيوني العمالي بوروخوف الذي كان يطالب بضرورة أن يقف الهرم الوظيفي اليهودي المقلوب على رأسه، وكان يرى أن الولايات المتحدة لا تصلح لذلك لأنه كان يظن أن المهاجرين اليهود إن ذهبوا إلى هناك فسيتحولون إلى أعضاء في الطبقة العاملة، وأن الاقتصاد الرأسمالي سيأخذ في الانكماش بعد قليل وهو ما سيؤدي إلى أزمة اقتصادية يروح ضحيتها العمال المهاجرون اليهود. ولذا، كان بوروخوف يرى ضرورة استعمار فلسطين لإيجاد قاعدة عمالية وفلاحية يهودية كبيرة. وقد أثبتت الولايات المتحدة أن هذه المقولات ليست دقيقة تماماً، فقد تحولت قطاعات من اليهود إلى عمال، ولكن قطاعات أخرى تحولت إلى تجار صغار أو رأسماليين كبار. لكن الأكثر أهمية من هذا العنصر الطبقي هو العنصر الثقافي، فاليهودي المهاجر تم دمجها تماماً في المجتمع بحيث لم تعد توجد طبقة عاملة يهودية أو رأسمالية يهودية وإنما طبقة عاملة أمريكية تضم أمريكيين أعضاء الجماعة اليهودية ورأسمالية أمريكية تضم رأسماليين من أعضاء

الجماعة اليهودية إلى جانب الرأسماليين الأيرلنديين والسود والعرب وغيرهم.

وقد خضع الأمريكيون اليهود للقوانين العامة لتطور المجتمع، وللملاسات أوضاعهم الثقافية الخاصة، فتحوّك المهاجرون إلى عمال. ولكن أولاد العمال تحوّلوا، بعد أن تلقوا تعليمهم الجامعي، إلى مهنيين. ولا يزال هذا هو الاتجاه السائد، فبينما عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ كان أربعة أخماس الشباب اليهودي ملتحقين بالجامعات، وحصل ثلاثة أرباع الرجال ونصف النساء على شهادات جامعية، وما يزيد على ثلثهم حصل على شهادات دراسات عليا. ولعل اندماج اليهود الكامل، وتحوّلهم إلى قطاع عضوي في المجتمع الأمريكي، يتبدى في تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣ وتعيين إرنست شاييرو مديراً لوكالة من أهم الشركات الأمريكية وهي شركة دي بونت عام ١٩٧٤. وقد حقق كثير من أعضاء الجماعة اليهودية ثروات ضخمة وأصبحوا من كبار الرأسماليين.

## الاندماج الديني والثقافي (حركة اليهود الجدد)

Cultural and Religious Assimilation (Americanization of the Neo-Jews)

يلاحظ أن معدلات العلمنة أخذت في التزايد بين الأمريكيين اليهود في هذه الفترة حيث يتجلى ذلك في إقبال الشباب اليهودي على مختلف العبادات الجديدة مثل الماسونية والبهائية والانخراط فيها. وقد ورد في إحدى الإحصاءات أن ٥٣٪ من اليهود لا يتبعون إلى أبرشية دينية، أي لا يذهبون إلى المعبد. ومن النسبة الباقية، ذكر ٥٠٪ أنهم محافظون، وذكر ٣٠٪ أنهم إصلاحيون. وهناك نسبة ضئيلة في حركة اليهودية التجديدية ولكن هذه الحركة أخذت في الانتشار والاندماج مع اليهودية المحافظة. وهذه الفرق اليهودية هي صيغ مخففة معلنة من اليهودية الحاخامية. أما الأرثوذكس، فلا تزيد نسبتهم عن ٢٠٪ من مجموع اليهود المرتبطين بأبرشية ما، أي أن الأرثوذكس أقل من ١٠٪ من يهود الولايات المتحدة. وفي إحصاء لعام ١٩٨٢ - ١٩٨٣، ورد أن النسبة انخفضت إلى ٦٪ وحسب. ويلاحظ أن اليهود الأرثوذكس يتركزون في تجمعات سكانية يمكنهم من خلالها الحفاظ على هويتهم الدينية الإثنية. وقد حدّد ١٨٪ من الأمريكيين اليهود الهوية اليهودية على أساس ديني، بينما يرى ٦١٪ أن اليهود يشكلون تجمعاً إثنياً ثقافياً وحسب. وفي إحصاء عام ١٩٩٠، ظهر أن ٥٪ فقط يقيمون المشاعر الخاصة



هو يهتم اليهودية داخل مؤسساتهم الأمريكية المختلفة مثل بقية أعضاء الجماعات الأخرى . وقد حققت لهم الولايات المتحدة إمكانات التعبير ، إذ توجد جامعتان يهوديتان ومدرستان طبيتان يهوديتان وثلاث مدارس لاهوتية عليا وعدد كبير من المدارس التلمودية العليا (يشيفا) ، وعدد كبير من المتاحف اليهودية المهمة ، ومن بينها متحف للإبادة النازية في واشنطن في المنطقة التي توجد فيها المتاحف القومية . وهناك جمعية تاريخية يهودية أمريكية عمرها تسعون عاماً ، وعدد كبير من المؤسسات الثقافية اليهودية والمعابد المختلفة التي تلامس كل ذوق واتساع إثني ، كما أن هناك العديد من أقسام الدراسات العبرية واليهودية في الجامعات الأمريكية . ويبدو أن الثقافة الأمريكية اليهودية المكتوبة (باللغة الإنجليزية) تستمع بنوع من الازدهار ، حتى أن كل الكتابات المهمة عن العقيدة اليهودية تُصنّف أساساً في الولايات المتحدة وليس في إسرائيل . ومع هذا ، يُلاحظ أن تزايد العلمنة والاندماج يخلق مشكلة بالنسبة للمتخصصين في حقل الدراسات اليهودية إذ أن خريجي أقسام الدراسات اليهودية لا يجدون وظائف شاغرة لأن الطلب أخذ في التقلص . وقد تحولت الثقافة اليديشية الآن إلى ما يشبه الحفريات . ومن الملاحظ أن الثقافة الإسرائيلية العبرية الجديدة في إسرائيل لا تزال ثقافة الإسرائيليين وحدهم ولا تؤثر تأثيراً ملحوظاً في الأمريكيين اليهود حيث لا يزيد تأثيرها من تأثير الثقافات الأجنبية الأخرى غير الأوروبية التي يتفاعل معها المجتمع الأمريكي ككل .

### اليهود الجدد والصهيونية

#### Neo-Jews and Zionism

تجدر ملاحظة أن الولايات المتحدة قررت في هذه الفترة أن تلعب دوراً نشيطاً ومباشراً في العالم العربي ، وخصوصاً بعد هزيمتها في فيتنام وبعد ازدياد أهمية البترول ومع تصاعد حركة القومية العربية التي هدّدت المصالح الغربية . وقد أخذ هذا شكل إعطاء إشارة البدء لإسرائيل ، فقامت بعملية ١٩٦٧ التي كانت الولايات المتحدة تدعمها دعماً كاملاً ، وهو دعم توجّه في نهاية الأمر بالانفاق الإستراتيجي وتزامن مع تخلي الولايات المتحدة عن سياسات الوفاق واتباعها سياسة الحرب الباردة ثم ظهور النظام العالمي الجديد وتوقيع اتفاقيات السلام المختلفة مع الدول العربية .

وأدّى هذا الاقتران شبه الكامل بين المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية إلى صهنية الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بشكل شبه كامل إذ لم تُعدّ هناك شبهة ازدواج ولاء أو تعارض في المصالح

بالسبت (ويوقد ٤.٤٪ شموع السبت) ، وأن ١٥٪ يمارسون الشعائر اليهودية الخاصة بالطعام المباح شرعياً . ولوحظ أن اليهود لا يقيمون الشعائر التي تتطلب ضبط النفس وتطويعها ، بل يقيمون الشعائر الاحتفالية ، مثل عيد الحانوكة وعيد الفصح ، وهو ما يدل على أن يهودية يهود أمريكا أمر مرتبط بتزجية أوقات الفراغ والترفيه عن النفس أو تحقيقها ، كما يدل على أنها غير مرتبطة بأداء الفرائض الدينية وتطويع النفس .

ويحتفل يهود الولايات المتحدة بعيد التشدين على نحو مبالغ فيه لأنه يقع في أيام الكريسماس . ولذا ، أصبح هذا العيد ، بمعنى من المعاني ، هو الكريسماس اليهودي ، فإلى جوار شمعدان الحانوكة نجد شجرة الحانوكة والعم ماكس رجل الحانوكة (المعادل الموضوعي لبابائيل أو سانتاكلوز) . بل إن بعض اليهود يحتفلون بالكريسماس باعتباره مناسبة قومية . وقد صرح أحد المعلقين بأن اليهودية أصبحت ، بالنسبة للأمريكيين اليهود ، ديانة تكمل الديموقراطية الليبرالية الأمريكية ، ولم تعد انتماءً إثنيًا أو قوميًا أو حتى دينيًا بالمعنى التقليدي للكلمة . ولذا ، فإن اليهودية الأمريكية تركز على القيم الأخلاقية العامة التي تتفق مع أخلاقيات المجتمع ، وتستبعد كل الجوانب الثقافية أو القومية أو حتى الجمالية لليهودية ، وإن أبت على بعضها فإنها تتقبلها بشكل سطحي . وتتجلى مرونة اليهودية في الولايات المتحدة ، واتجاهها العملي ، في اندماج اليهودية المحافظة باليهودية الإصلاحية على مستويات القيادة وعلى مستوى الأبرشيات . وفي استطلاع للرأي أجري عام ١٩٨١ ، صرح كل الذين اشتركوا فيه أن يهوديتهم ليست لها علاقة البتة بمستقبلهم ، أي أنها لا علاقة لها برويتهم للعالم أو لأنفسهم ولا تحدد سلوكهم في الوقت الحاضر ولا مشاريعهم في المستقبل .

وقد نتجت إحدى الإحصاءات بأن يهود أمريكا سينقسمون ، وبشكل حاد ، إلى قسمين : يهود متدينين ويهود اثنين ، وأن الاستقطاب بين الفريقين سيزداد بسبب تزايد علمنة الإثنيين وانغماسهم في الزواج المختلط ، وأن الفريقين قد يتعادلان في العدد بسبب زيادة نسبة الخصوبة ومعدلات التكاثر بين المتدينين وقلّة الاندماج بينهم . ولكن هذه الإحصائية تُسقط تزايد معدلات العلمنة بين المتدينين أنفسهم وبين أبنائهم ، أما من الناحية الثقافية ، فقد ازداد اندماج اليهود في الثقافة الأمريكية ، ويتبدّى هذا في تزايد عدد الكتّاب الأمريكيين اليهود وازدياد برزومهم ولجّاحهم في التعبير باللغة الإنجليزية الأمريكية عن تجربة أعضاء الجماعة في الولايات المتحدة . كما أن الاندماج يتبدّى في واقع أن الأمريكيين اليهود يعبرون عن

. إلخ . وقد تزامن هذا مع تطور آخر لا يقل عنه دلالة وهو اندماج أعضاء الجماعة في المجتمع الأمريكي بشكل تام حتى أصبح من الممكن أن يُطلق عليهم اليهود الواسب (والواسب هم البروتستانت البيض من أصل إنجلو ساسكوني) . وقد يبدو الاندماج متكاملين ولكنهما في واقع الأمر متناقضان بشكل عميق .

وعما تجرد ملاحظته أن مصطلحات ، مثل : «يهودي» و«صهيوني» و«يهودية» ، قد اكتسبت دلالات جديدة تماماً في السياق الأمريكي . فقد أصبحت العقيدة اليهودية في الولايات المتحدة مرتبطة عضوياً بل تكاد تكون متداخلة مع الصهيونية . ولكن كلاً من العقيدة اليهودية والصهيونية أُعيد تعريفه حتى يمكن تحقيق الترادف ، فاليهودية ورموزها تمت علمتها بحيث تحولت إلى ما يشبه عبادة دولة إسرائيل (العجل الذهبي الجديد) ، وقد نجحت الصهيونية في أن تُرسخ في ذهن الجميع أن بقاء الدولة الصهيونية شرط أساسي لبقاء اليهودية ، وأنها الحصن الوحيد ضد انحلال اليهودية ، بل إن بقاء اليهودية نفسها مرهون ببقائها . وكما قال الحاخام ألكسندر شنذر ، فإن معظم يهود الولايات المتحدة يتصورون الآن أن الدولة الصهيونية كنيتهم وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر . ومن ثم ، أصبحت اليهودية انتماءً إثنياً وعرقياً . وأصبح التعبير عن الهوية اليهودية يأخذ شكل الانخراط في التنظيمات اليهودية ذات التوجه الصهيوني ، وفي المظاهرات من أجل تأييد إسرائيل ، وكذلك شكل الاعتزاز بالهوية القومية .

ولذا يمكننا القول بأن تصاعد النبرة الصهيونية والحديث المتكرر عن الإثنية اليهودية بين يهود أمريكا ليس تعبيراً عن الانعزال وتماكس الهوية ، وإنما هي بمنزلة العكاز الذي يستمد منه اليهودي المندمج نوعاً من الهوية (السطحية التي لا تكلفه شيئاً) يساعده على مزيد من الاندماج (وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن أعضاء الأقليات الأخرى الذين ازدادت حدة إلتئيمهم مع تزايد معدلات الاندماج بينهم) وعلى فقدان الهوية وعلى تقبل علمته وأمركة حياته .

وإذا كانت الصهيونية قد حوّرت اليهودية الأمريكية وأعدت تعريفها ووظفتها لصالحها ، فإن يهود الولايات المتحدة أنجزوا شيئاً مماثلاً بالنسبة للصهيونية ، ذلك لأن صهيونيتهم صهيونية توطينية ومن هنا الحديث عن «يهودية دفتر الشيكات» حين يعبر اليهودي عن يهوديته عن طريق إجزال العطاء للمستوطن الصهيوني ، دون أن يفكر قط في الهجرة . بل إنهم طوروا الأسطورة الصهيونية ، فلم تُعد صهيون أرض الميعاد ، البلد الذي يحنون ويهاجرون إليه ، وإنما أصبحت «مسقط الرأس» تماماً مثل أيرلندا بالنسبة للأمريكيين

الأيرلنديين وإيطاليا للأمريكيين الإيطاليين ، فهم يهود بشرطة (بالإنجليزية : هايفنستيبند جوزز hyphenated Jews) أي أمريكيون/يهود . والوطن الأصلي هو المكان الذي يهاجر منه الإنسان لا إليه ، أي أن يهود الولايات المتحدة قد قبلوا الأسطورة الصهيونية رأساً على عقب وفرغوها من مضمونها القومي الاستيطاني وأعطوها مضموناً غير صهيوني ، بل معادياً للصهيونية ، تماماً مثلما فرغ الصهاينة اليهودية من مضمونها الديني وأعطوها مضموناً قومياً ! فكان الأمر يتعلق بدين دون محتوى ديني ، وقومية دون محتوى قومي .

والواقع أن ظهور الصهيونية التوطينية الحالية من المضمون القومي الاستيطاني يفسر ظاهرة كثرة التظاهرات الصهيونية للدفاع عن «حق» اليهود السوفييت وكذا «حقوق» يهود الفلاشا ويهود سوريا في الهجرة . ومع ذلك ، لا يذهب أحد من هؤلاء المتظاهرين إلى إسرائيل للاستيطان إذ يكفي بإظهار حماسه الزائد ولا يتحدث أحد أبداً عن «واجب» الهجرة . وقد ورد في إحدى الإحصاءات أن ٨١٪ من الأمريكيين اليهود يرون أن التفكير بجدي في الاستيطان في إسرائيل ليس ضرورياً . ولكن ٨٣٪ منهم صرح بأن دمار إسرائيل سيمثل مأساة شخصية بالنسبة لهم جميعاً ! ولذلك لا تزال معدلات الهجرة من الولايات المتحدة متدنية ، ففي عام ١٩٧٠ هاجر ٦٥٨ ، ٧ ، وفي عام ١٩٧٥ هاجر ٢٩٦٤ ، ولم يهاجر سوى ثلاثة آلاف عام ١٩٧٩ . ومن قبيل المفارقات المضحكة أن عدد المهاجرين يتناسب تناسباً عكسياً مع الحماس الصهيوني ، فكلما زاد الحماس الصهيوني ، ومن ثم زادت التظاهرات ، نقص عدد المهاجرين . ويبلغ مجموع الأمريكيين اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل منذ تأسيسها خمسين ألفاً على مدى أربعين عاماً ، أي بمعدل ١٢٥٠ يهودياً لكل عام . والواقع أن الصهيونية حلت مشكلة الهوية بالنسبة ليهود الولايات المتحدة بأن اعتبرت الدولة الصهيونية ووطنهم الأصلي ، ولكنها من ناحية أخرى زادت تفاقمها إذ كيف يستطيع الأمريكيون اليهود أن يركزوا حياتهم الدينية كلياً على أرض لا يعيشون فيها بل لا يتورون الهجرة إليها ؟ ومن هنا ، فإن تعريف اليهودي الأمريكي أصبح هو : اليهودي الذي يحلم دوماً بالهجرة إلى صهيون دون أن تكون لديه أية نية في أن يفعل ذلك !

ويلاحظ أن أعضاء الوكالة اليهودية يحاولون تشجيع الهجرة إلى إسرائيل وجذب اليهود إليها بالحديث عن فرص العمل المتاحة وإمكانات الترقى المادي والراحة المادية المتوافرة ، أي أن تجنيد المهاجرين يتم من منظور أمريكي واستناداً إلى منطق برجماتي عملي

وبسبب حركة الاستيطان في الضفة الغربية وترفع شعارات دينية متعمبة تتناقض مع القيم التي يعيشون على أساسها . لقد كانت الدولة الصهيونية ، حتى عام ١٩٦٧ ، محل فخرهم بانتصاراتها العسكرية ومؤسساتها الديموقراطية ، وكانوا يعدون كثيراً بيهويتهم اليهودية التي كانت تستند إلى قيم لا تختلف كثيراً عن قيم المجتمع الأمريكي . ولكن ، بعد ظهور التيارات السياسية العنصرية الواضحة في إسرائيل (وهم يحيون في مجتمع يرفع شعار المساواة) ، وبعد تطرف إسرائيل وتشدها في مواقفها السياسية (وهم في مجتمع يتحدث دائماً عن التكيف والتعقل والاعتدال) ، فإن يهود الولايات المتحدة لم يعودوا يشعرون بالفخر بل ويحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية . ثم هناك ، في نهاية الأمر ، قضية هوية اليهودي تلك القضية الأزلية التي لا تجد حلاً لها ، والتي قد تجعل منهم يهوداً من الدرجة الثانية . كما كان لحادثة بولارد أعمق الأثر في تعميق الفجوة والخسوة بين إسرائيل ويهود الولايات المتحدة ، إذ أثبت لهم أن الدولة الصهيونية تؤثر مصلحتها على مصلحتهم . ومن المتوقع أن يتعمق هذا الاتجاه بعد أن قضت الانتفاضة على صورة إسرائيل بوصفها واحة الديموقراطية والسلام والتسامح . فمنظر جنود الدولة الصهيونية وهم يكسرون عظام الشباب الفلسطيني ويطاردون الأطفال على شاشة التلفزيون أمام الأمريكيين جميعاً ، وأمام جيرانهم ، ليس بالأمر الذي يدعو للفخر . ومع هذا فلا شك في أن الانشقاقات العربية الأخيرة مع إسرائيل ستخفف حدة التوتر بين الدولة الصهيونية والأمريكيين اليهود .

ويمكن القول بأن الولايات المتحدة تمثل التحدي الأكبر بالنسبة للمشروع الصهيوني . وقد أدرك المؤرخ الروسي اليهودي سيمون دبنوف أن مسار الهجرة اليهودية الشرق أوروبية متجه نحو الولايات المتحدة ، ولذلك فقد تنبأ بفشل المشروع الصهيوني في جذب كثافة سكانية . فالولايات المتحدة كما رآها هي مركز جذب أكثر تألقاً وأهمية من فلسطين . ويبدو أنه كان محقاً في رأيه إذ أن مسار الهجرة اليهودية لا يزال يتجه نحو الولايات المتحدة بالدرجة الأولى . وربما كان تساقط المهاجرين السوفيت (أي خروجهم من الاتحاد السوفيتي زاعمين أنهم سيهاجرون إلى إسرائيل للحصول على تأشيرة خروج ثم يغيرون اتجاههم ويهاجرون إلى الولايات المتحدة) وتزايد عدد المرتدين من الإسرائيليين ، تعبيراً عن الحركة الطبيعية لليهود نحو الولايات المتحدة ، والتي تعوقها الأوهام العقائدية للصهيانية .

وليس إلى منطلق صهيوني عقائدي . وقد استوطن كثير من الأمريكيين الضفة الغربية حيث توجد فرص اقتصادية أكثر من الموجودة وراء الخط الأخضر وحيث شيدت الدولة الصهيونية مستوطنات توافر فيها كل سبل الراحة . وهذا ما سمينا «الاستيطان مكيف الهواء» ، وسماه المعلق العسكري الإسرائيلي زئيف شيف «الاستيطان دي لوكس» . ومن الحقائق المهمة أيضاً أن عدد من زاروا إسرائيل للسياحة من يهود الولايات المتحدة هو ١٥٪ فقط . وإذا وضعنا في الاعتبار أن الأمريكيين اليهود من أكثر قطاعات المجتمع الأمريكي سفراً وسياحة لكل أنحاء العالم ، لاكتشفنا أن النسبة صغيرة إلى حد كبير . ولكن يبدو أن غالبيةهم الساحقة تفضل الذهاب لجزر الكاريبي .

ومع هذا فتوجه يهود أمريكا الصهيوني التوطيني يؤثر في بعض جوانب سلوكهم السياسي . ومن المعروف أن مختلف الأقليات في الولايات المتحدة تأخذ موقفاً ليبرالياً وتصوت للحزب الديموقراطي . ولكن هذا النمط بدأ يتغير بالنسبة لأعضاء الجماعة اليهودية . وقد اتضح هذا عام ١٩٧٢ حين صوت أعداد كبيرة منهم ضد ماكجفرن مرشح الحزب الديموقراطي بسبب مواقفه ضد الحرب الباردة ، وسياسات التسلح ، إذ كانت المؤسسة الصهيونية تعتقد أن مثل هذه المواقف قد تضر بمصالح إسرائيل .

وقد لاحظ معلق سياسي يهودي أن أعداداً كبيرة من الشباب اليهودي انخرطوا ، أثناء حرب فيتنام ، في صفوف المتمردين ورافضي الحرب ، إذ أن ثلث أعضاء اليسار الجديد كانوا من الشباب اليهودي . ولكن المؤسسات اليهودية نفسها اتخذت موقفاً محايداً يُعتبر جزءاً من تأييدها لإسرائيل . ولم تصبح المعابد اليهودية مراكز لتزويد المنهيين من الخدمة بالمعلومات والمشورة ، شأنها في هذا شأن بعض الكنائس . ولذا ، كان كثير من الحاخامات اليهود يرسلون الشباب اليهودي المنهري من الخدمة إلى الكنائس . ويلاحظ الآن أن الجماعات الكاثوليكية وليست اليهودية هي التي تتحدث عن السلام وعدم التسلح وتتخذ مواقف ضد القنبلة الذرية .

ولكن ، ومع هذا ، تنشأ أحياناً توترات عميقة بين الأمريكيين اليهود والقيادة الصهيونية ، إذ يجد هؤلاء أنه ليس من صالحهم أن يتحالفوا مع الأغلبية الصامتة والجماعات الأصولية التي تطالب بعدم فصل الدين عن الدولة ، وهو أمر يتنافى مع الموقف التقليدي لليهود الذي يطالب بمزيد من العلنية ضماناً للحريات والاعتناق . وفي الآونة الأخيرة ، توترت العلاقات بين أعضاء الجماعة اليهودية والدولة الصهيونية لأن هذه الدولة تشوه صورتهم في مجتمعاتهم

علاقة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بالأمريكيين السود  
Relationship between the Jewish Community in the U.S.A.  
and Afro-Americans

حينما استوطن اليهود في الولايات المتحدة وفي غيرها من بلاد العالم الجديد ، فإنهم جاءوا باعتبارهم مستوطنين غربيين بيضاً هاجروا إليها في إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي (الأنجلو ساكسوني على وجه التحديد) ، وهو تشكيل غربي أبيض يحاول غزو العالم وإخضاع سكانه من غير البيض . ولكن كان هناك علاقة خاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والسود تحدد في أن كثيراً من تجار الرقيق كانوا من اليهود الذين قاموا بالاشتراك في عملية نقل السود من أفريقيا وتوطينهم في الولايات المتحدة .

وقد نشأ في الجنوب الأمريكي نظام المزارع (بالإنجليزية : «بلانتيشن» plantations) . وهو نظام زراعي تجاري شبه إقطاعي شبه عبيدي يهدف إلى إنتاج السلع الزراعية بهدف الربح من خلال استخدام العمالة السوداء المكثفة التي كانت تُستجلب من أفريقيا . وكان أعضاء الجماعة اليهودية جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الأبيض في الجنوب الأمريكي ، وخصوصاً أن أساس التصنيف فيه كان اللون وحسب ، على عكس الشمال حيث كان التصنيف فيه يتم على أساس كلٍّ من اللون والدين . وقد امتلك أعضاء الجماعة العبيد وتاجروا فيهم ، شأنهم في هذا شأن مختلف أعضاء المجتمع . وحينما اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية أو حرب تحرير العبيد ، كانت مشاركة القيادات اليهودية في الدعاية ضد الرقيق باهتة خافتة للغاية . ففي الجنوب ، أيدت المؤسسة اليهودية (الدينية والاجتماعية) موقف الجنوب المطالب بالاستمرار في الحفاظ على مؤسسة الرق . وفي الشمال ، لم تظهر شخصيات يهودية كثيرة معارضة لنظام الرقيق ، باستثناء حالات فردية ، وهو ما أثار حق الأوساط الليبرالية ضلوعهم . ويُلاحظ أن أهم شخصية يهودية آنذاك ، وهو الحاخام إسحق وايز ، لزم الصمت تماماً تجاه هذه القضية . ويبدو أنه ، بعد إلغاء نظام الرق بشكل رسمي ، وُضع السود (بعد تحريرهم) في أماكن دنيا من المجتمع الأمريكي بحيث أصبحوا بروتستانتياً رخيصاً لا يحق لها التعبير عن ثقافتها أو وجودها الحضاري ، ومن ثم لم يكن هناك صراع مباشر أو خاص بين أعضاء الجماعة اليهودية البيض والأمريكيين السود .

ورغم وجود أسباب قوية للصراع بين الفريقين (لأسباب ستوضحها فيما بعد) ، فإنه حينما بدأت حركة الحقوق المدنية في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، للدفاع عن حقوق الأمريكيين

كما أن جاذبية الولايات المتحدة بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم متعددة الجوانب ، فهي على حد قول أحد الكُتَّاب « المنفى الذهبي » وهي الجولدن مدينة (البلد الذهبي) حيث الشوارع من فضة والأرصفت من ذهب . فهناك الجانب المادي ، حيث هي أرض اللين والعسل الحقيقية والهامبورجر ، ويجد فيها اليهودي فرصاً اقتصادية لا حد لها ، وهي بلد يحقق فيه الفرد مستوى معيشياً واستهلاكياً مرتفعاً يعد من أعلى المعدلات في العالم . وهي بلد آمن لا يجرؤ أحد على مهاجمته فيه . وهي ، في نهاية الأمر ، البلد الذي منح أعضاء الجماعة اليهودية حقوقهم السياسية والمدنية والدينية الكاملة . وقد قال سالو بارون إن الولايات المتحدة أول تجربة يهودية حقيقية بعد الانتعاق . كما أن صورة الولايات المتحدة الجذابة تناقض بشكل مذهل صورة الدولة الصهيونية الكاخفة ، فهي دولة لا تتمتع بالأمن . ويرى يهود الولايات المتحدة ، بخلفيتهم الشرق أوروبية ، أن إسرائيل محاصرة ومهددة ، تماماً مثل مذنبهم في السابق ، في منطقة الاستيطان . وهي دولة تدعي أنها يهودية ، ولكنها في الحقيقة بغير هوية واضحة ، فلا هي دولة دينية ولا هي علمانية ، وهي تعتمد في بقائها على الولايات المتحدة . ومع ضعف العقيدة الصهيونية داخل إسرائيل وخارجها ، يضطر الصهاينة إلى أن يُسقطوا الخطاب الديني ويهبوا باليهود للهجرة لأسباب مادية محضة مثل التمتع بمستوى معيشي مرتفع ، الأمر الذي سيزيد ولا شك من جاذبية الولايات المتحدة التي تحقق هذا المستوى بكل يسر .

وربما كان هذا ما حدا ببعض اليهود ، مثل المؤرخ اليهودي المعاصر سناخر ، على أن يصرح بأن الولايات المتحدة ليست منفي وأنها وطن قومي لليهود بمعنى أن هناك على الأقل وطين قوميين (١) وهذا هو ما تدافع عنه صهيونية الأقليات أو صهيونية الشتات (الدياسبورا) ، التي نسميها «الصهيونية التوطينية» ، صهيونية من يرفضون الهجرة ويكتفون بالدعم والتأييد حتى تتاح لهم الحياة في المنفى الذهبي .

وما يزيد الأمور تركيباً بالنسبة إلى المؤسسة الصهيونية أنه مع تزايد اعتمادها على الولايات المتحدة أصبح بقاؤها مرهوناً بها . وفي الواقع ، فإن وجود أقلية يهودية داخل مؤسسات صنع القرار أمر حيوي للجلب الصهيوني ، وهو ما يعني ضرورة بقاء الأمريكيين اليهود في الولايات المتحدة . كما أن الدولة الصهيونية ، التي تطالب يهود أمريكا بالهجرة ، تجدد أن من صالحها أيضاً ألا يهاجروا ، ويتنازع هذان القطبان السياسة الإسرائيلية .

السود (وربما العرب المسلمين) وهي لا تتوجه نحو اليهود إلا في بعض الأوساط العنصرية الهامشية المتطرفة . ومع هذا ، لاحظ الزعماء الأمريكيون السود أن أعضاء الجماعة اليهودية عندهم حساسية بالغة تجاه أية ملاحظات قد تُشتم منها معاداة اليهود . إن هذا الاتجاه عند بعض أعضاء الجماعات اليهودية نحو احتكار دور الضحية الأزلية ، وإنكار هذا الدور على أعضاء الأقليات الأخرى ، ساهم ولا شك في تصعيد التوتر . فالإعلام الأمريكي ، الذي يتسم بوجود يهودي ملحوظ فيه ، يركز على الإبادة النازية لليهود أوروبا وكأنها عملية اضطهاد وإبادة تمت بالأمس أو منذ دقائق ، دون أي أكثرات بما تم بعد ذلك من مذابح واستغلال وإهانة لأعضاء الأقليات الأخرى ، ودون أي اهتمام بالأمريكيين السود الذين يعيشون داخل المجتمع الأمريكي ، وعلى بُعد خطوات من استوديوهات التلفزيون التي تتجاهلهم . كما يشير الزعماء الأمريكيون السود إلى أن السينما الأمريكية التي لعب بعض أعضاء الجماعة اليهودية دوراً ملحوظاً في تأسيسها ثم الهيمنة عليها ، ساهمت في ترويج الصور الإدراكية السلبية عن السود باعتبارهم كسالى ومحين للهو .

٤ - وحينما حقق أعضاء الجماعة اليهودية الحراك الاجتماعي ، تركوا حياً مثل هارلم ، فشغله الأمريكيون السود ، حتى أصبح السكان من السود بينما ظل أصحاب العقارات وصغار الملاك وأصحاب محلات الرهونات في الأحياء السوداء من أعضاء الجماعة اليهودية ، أي أن اليهودي أصبح الممثل الأساسي للمؤسسة البيضاء في أحياء السود ، وهذا يؤدي بطبيعته الحال إلى درجة غير عادية من الاحتكاك يلعب فيها اليهود دور المستغل المباشر وهو ما يؤلّد الكثير من التوتر .

٥ - ظهرت جماعات المسلمين السود والقوة السوداء من يرون أن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون قطاعاً مهماً في المؤسسة الحاكمة المستقلة . بل إنهم يذهبون إلى أن اليهود يشكلون جسماً استغالياً غريباً أبيض يقوم بامتصاص دم الجيتو الأسود وتصدير فائض القيمة خارجه ، ومن ثم يعوقون ظهور رأسمالية أمريكية سوداء . والواقع أن رؤية هذه الجماعات السوداء لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤية العرب لإسرائيل .

٦ - وجدت القيادات السوداء أن أعضاء الجماعة اليهودية يحاولون الحفاظ على مواقعهم المتقدمة التي شغلوها في المجتمع ، وعبروا عن مخاوفهم من أن واقع تحسين أحوال السود سيكون على حسابهم . وقد تجلّى ذلك في مدارس نيويورك حينما تقرر أن يُفتح الباب لتجنيد أعداد أكبر من المدرسين السود ، فنظم اتحاد المدرسين الذي كان يضم

السود ، كان هناك وجود يهودي ملحوظ فيها على مستوى القيادات والكوادر . ولعل هذا يعود إلى أن الجماعة اليهودية ، شأنها في هذا شأن معظم الأقليات المهاجرة التي تعيش في المدن ، تدبّر بالولاء للحزب الديمقراطي وتنحو منحىً ليبرالياً . كما أن أبناء الجيل الثالث من الأسر اليهودية المهاجرة كانت ولا شك قد تمت أمركتها وعلمنتها ، ومن ثم فإنها بدأت تشعر بأزمة المعنى وتحاول العثور على حل لها ، ولكنها لم تجده داخل الإطار اليهودي الذي كان قد تبنّى القيم البورجوازية الأمريكية ، فانخرط الشباب اليهودي في صفوف اليسار وحركات حقوق الإنسان .

ولكن ، مع أواخر الستينيات ، بدأ التوتر يظهر بين أعضاء الجماعة وبين قيادات حركة السود الشابة ، مثل اليهود السود والمسلمين السود والقوة السوداء ، وأخذت الأمور في التدهور بحيث يمكن القول بأن العلاقة بين المؤسسة السوداء والمؤسسة اليهودية علاقة لا يمكن وصفها بأنها ودية . وثمة أسباب عديدة بنوية لهذا التوتر وهذا العداة :

١ - المعروف أن كلاً من الأمريكيين السود وأعضاء الجماعة اليهودية يتركزون في المدن الكبرى (الساحلية) جنباً إلى جنب ، وهو ما يعني قدراً كبيراً من الاحتكاك ومن ثم التوتر .

٢ - وهناك غمط أساسي للحراك الاجتماعي في الولايات المتحدة وهو أن قطاعات كبيرة من الجماعات المهاجرة تقطن أحياء فقيرة في المدن الساحلية بعض الوقت ، إلى أن تثبت أقدامها وتحقق الحراك الاجتماعي ، فتترك الجيتو وقاع المدينة المظلم وتنقل إلى أحياء الطبقة الوسطى في الضواحي المنيرة . وهذا ما حدث للمهاجرين اليهود (سواء من أصل ألماني أم من أصل يديشي) وهو أيضاً ما حدث للإيطاليين وغيرهم . وقد أدّى استقرار أعضاء الجماعة اليهودية في الضواحي إلى إضعاف علاقتهم ببقية أعضاء الأقليات وتقوية علاقتهم بالنخبة الحاكمة ، وقد قُعدت الجماعة اليهودية ليبراليتها التقليدية وتضامنها مع الأقليات المضطهدة . ولا شك في أن الحراك الذي حققه أعضاء الجماعة اليهودية ولّد كثيراً من المرارة في نفوس السود لأنهم حضروا قبل المهاجرين اليهود . ومع هذا ، فبينما ساعدت المؤسسات الأمريكية البيضاء اليهود على الحراك ، باعتبارهم بيضاً ، فإنها بذلت أقصى جهدها للتمييز ضد السود حتى أصبح السود جماعة وظيفية بلا وظيفة ، طبقة بلا دور ولا هوية ، وذلك باعتبار أن الهوية الأمريكية البيضاء موصدة دونهم .

٣ - وما يجدر ذكره أن أعضاء الجماعة اليهودية ليسوا الهدف الأول للعنصرية الأمريكية حيث توجه هذه العنصرية طاقاتها وسمّها نحو

توجيه معظم الاعتمادات للتسلح وللمعونات الأجنبية للحكومات «الصديقية» (أي التي تساعد على تنفيذ سياسة الولايات المتحدة الخارجية) وتقليص الاعتمادات اللازمة لتنفيذ برامج الرفاه الاجتماعي . ومن ثم ، فإن هذه التحالفات تبنّت سياسات خارجية تتناقض موضوعياً مع مصلحة إسرائيل التي تستمد وجودها من الحرب الباردة ، ومن كون الولايات المتحدة قوة إمبريالية عظمى تسعى إلى أن تلعب دوراً نشيطاً مهيمناً في كل أنحاء العالم .

٩ - بدأت الأقلية السوداء في الولايات المتحدة ترى هويتها في سياق أفريقي يتحاز إلى العالم الثالث . ولذا ، أصبح منظورها السياسي مختلفاً تماماً عن المنظور الصهيوني الذي يتبناه أعضاء الجماعة اليهودية ، وخصوصاً أن الدولة الصهيونية من أكثر الدول تعاوناً مع جنوب أفريقيا . كما أن تزايد التعاطف في صفوف الأمريكيين السود مع الفلسطينيين ، وخصوصاً بعد الانتفاضة ، يزيد حدة التوتر . وقد تَجَرَّ هذا التوتر حين صرح الزعيم الأفريقي مانديلا بأنه يساند حق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة .

١٠ - تزايد نفوذ الأقلية السوداء ، حيث أصبحت تطالب بنصيب في السلطة يتناسب مع قوتها العددية ، الأمر الذي يهدد مكانة أعضاء الجماعة اليهودية .

١١ - كانت حركة الحقوق المدنية ، من الناحية الأساسية ، حركة سوداء يقودها اليهود مع بعض السود . وحاولت الحركة أن تتولى قيادة نفسها بنفسها وهو ما كان يعني تحية اليهود عن قيادتهم ، وخصوصاً بعد ظهور قيادات شابة جديدة (مثل جيني جاكسون وفراخان) غير متعاطفة مع القيادات القديمة التي كانت تؤيد المؤسسة الليبرالية البيضاء وإسرائيل دون مناقشة (مثل بايارد راستن) . وربما كان أندرو يونغ نموذجاً جيداً لهذه القيادات الشابة ، فقد أخذ بزمام المبادرة حين كان رئيساً للوفد الأمريكي في هيئة الأمم المتحدة ، وقام بترتيب مقابلة مع مندوب منظمة التحرير الفلسطينية ، ولكنه فقد منصبه في أعقاب ذلك بضغط من الجماعة اليهودية ، الأمر الذي أثار حفيظة الجماعة السوداء .

١٢ - تزامن ذلك مع ظهور الجمعيات الأصولية المسيحية (الرجعية البيضاء) التي تجعل إسرائيل (الشعب والدولة) محور رؤيتها للخلاص ، وترى قيام الدولة الصهيونية إحدى العلامات على اقترابه . وتفسر هذه الجمعيات الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ضيقاً ، ومستخلصة من ذلك برنامجاً سياسياً صهيونياً مؤيداً لإسرائيل وإن كان داخله كره عميق لليهود ورفض لهم . وإذا أضفنا إلى ذلك سياسة إسرائيل المؤيدة لأمريكا في عصر نيكسون وريجان ،

أغلبية يهودية ساحقة إضراباً للاحتجاج على هذه الخطوة . ويمكن القول بأن القطيعة أخذت شكلها النهائي عام ١٩٦٦ حين صوت ٥٥٪ من يهود نيويورك ضد تشكيل لجنة تحقيق بشأن نشاط رجال الشرطة وسلوكهم بينما أبدت ذلك أغلبية السود . واستمر هذا النمط وهيمن وازداد حدة ، فنجد أن قيادة الجماعة اليهودية تعارض نظام النصاب في التعليم ، أي تخصيص نسبة معينة للأقليات التي أضررت من التمييز ضدها في الماضي ، كما ترفض نظام المعاملة الأفضل لأعضاء الأقليات في التعيين في الوظائف ، وهو ما يُسمى «العمل الإيجابي» (بالإنجليزية : الأفرماتيف أكشن affirmative action) ، وذلك بحجة أن نظام النصاب والمعاملة الأفضل هو شكل من أشكال التمييز العنصري لصالح السود وضد اليهود .

٧ - في أعقاب أحداث لوس أنجلوس ، أشار بنيامين هوكس ، مدير الجمعية الوطنية للارتقاء باللونين ، إلى التحول الذي طرأ على النظام الرأسمالي الذي انتقل في تصوّره من التركيز على الصناعة والإنتاج إلى رأسمالية المضاربات بما تؤدي إليه من بطالة . وقال : مهما كان الرأسماليون قساة في الماضي ، فإنهم كانوا على الأقل يشيدون السكك الحديدية ويصنعون البواخر ويقطعون الغابات ويصنعون شيئاً . أما الآن فليس لدينا سوى حفنة من فئاني النصب في وول ستريت ممن يتاجرون بالبقود جيئة وذهاباً ويكسبون بلايين الدولارات على حساب صغار الناس .

وقد يبدو هذا الحديث وكأنه حديث عام عن تحوّل الرأسمالية الأمريكية ، من رأسمالية صناعية إلى رأسمالية مالية ، وهو بالفعل كذلك ، ولكن يجب فك شفرة هذا الخطاب من داخل النسق الأمريكي نفسه . فرأسمالية المضاربات هذه يتركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية بشكل واضح . ولعل بنيامين هوكس قد أحجم عن ذكر ذلك مباشرة حتى لا يتهم بمعاداة اليهود ، السيف المصلت ، ولكن كل من يقرأ هذه الكلمات ويدرك المعاني بين السطور يعرف تماماً معناها الحقيقي .

٨ - تزامن ذلك مع تزايد الهيمنة الصهيونية التي تطرح كل شيء من منظور يهودي ضيق ، والتي تؤكد اقتران مصالح اليهود بمصالح إسرائيل وبالتالي تُبعد أعضاء الجماعة اليهودية عن القضايا التي تمس الوظائف الأخرى ، كما تبعدهم عن أية تحالفات ذات طابع ثوري قد تعارض مع مصلحة إسرائيل . ومعظم التحالفات ذات التوجه الاجتماعي الثوري ، أو شبه الثوري ، عادة ما تكون ضد سياسة الحرب الباردة وضد تصعيد التسلح ، كما أنها تقف ضد محاولة فرض السلام الأمريكي على العالم لأن مثل هذه السياسة تعني

تخدم آليات الجباية الصهيونية والإسرائيلية ، وتأخذ الأعمال الخيرية التي تقوم بها هذه المؤسسات شكل إرسال معونات لإسرائيل . ولذا ، تداخلت المؤسسات التنظيمية للجماعة اليهودية مع الجمعيات والمنظمات الصهيونية حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما .

ولا توجد منظمة أو جهة مركزية واحدة تقوم بممثلية وإدارة شؤون الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، بل يوجد العديد من المنظمات والجمعيات التي تقوم بهذا الدور على المستويات المحلية وتندرج معظمها تحت مظلة منظمات أوسع ، تلعب دور منسق ومنظم لأنشطتها على المستوى القومي والدولي أيضاً . وبالعكس هذا الوضع التركيبي الفيدرالية للولايات المتحدة وتوزع السكان اليهود على مدن كثيرة من الولايات المتحدة . وبالإضافة إلى ذلك ، توجد بعض المنظمات التي تقوم بأنشطة محددة على المستوى القومي . وأهم المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة هي :

– المجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعة اليهودية National Jewish Community Relations Advisory Council واختصارها NJCRAC . تأسس عام ١٩٤٤ كجهة استشارية ومنسقة لمجلس العلاقات Community Relations Councils وللا ١١ منظمة يهودية أمريكية على المستوى القومي وال ١٠٨ مجالس على المستويات المحلية . وكانت هذه المجالس قد تشكلت في الثلاثينيات للدفاع عن حقوق أعضاء الجماعة وفض النزاعات بينهم ومحاربة التيارات المعادية لليهود ودعم التعليم اليهودي على المستويات المحلية . ويقوم المجلس بدور المنسق للاتجاهات داخل الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة تجاه القضايا السياسية المحلية والخارجية وتجاه إسرائيل وتجاه الجماعات الدينية والإثنية الأخرى . كما يعمل كجماعة ضغط داخل مراكز القوة في الولايات المتحدة ، مثل الكونجرس الأمريكي والمحاكم الفدرالية ، ويهتم بالقضايا الخاصة بمعاداة اليهود والحقوق المدنية وفصل الدين عن الدولة .

– مجلس الاتحادات اليهودية وصناديق خدمات الرفاه الاجتماعي Council of Jewish Federations and Welfare Funds واختصارها CJFFF . تأسس عام ١٩٣٢ لتنسيق نشاط ٢٠٠ اتحاد يهودي يخدم ٨٠٠ تجمع يهودي في الولايات المتحدة وكندا . وكانت هذه الاتحادات قد بدأت تتأسس منذ عام ١٨٩٥ لتنظيم الأنشطة الخيرية والخدمة الاجتماعية للجماعة اليهودية على المستويات المحلية وجمع التبرعات لهذه الأغراض ، وأصبحت قيادات هذه الاتحادات تمثل القيادة الفعلية للجماعة اليهودية على المستوى المحلي . ويقوم المجلس بدور تنظيمي وتنسيقي في مجالات الخدمة الاجتماعية

واشتركتها بنشاط في الحرب الباردة (باعتبار أن أي انفراج دولي قد يؤثر في أهميتها الإستراتيجية للغرب ويزيد أهمية العرب ويخلق رقعة مشتركة بين العرب والولايات المتحدة) ، فيمكن فهم أسباب ابتعاد الجماعة اليهودية تدريجياً عن الأقليات الأخرى وعن القيم الليبرالية واكتساب سمات رجعية ومحافظة حتى قفد اليهود ليبراليته التقليدية . وأصبحت مجلة كومنتاري التي تصدرها اللجنة الأمريكية اليهودية (وهي مجلة ذات تراث ليبرالي) منبراً للمدافعين عن الحرب الباردة وسياسة التشدد مع الاتحاد السوفيتي . وليس من المتوقع أن يزول الصراع بين الجماعتين ، فقد تخف حدته ، وقد تُعقد اجتماعات تنتهي بإصدار بيانات ودية ، ولكن إزالة أسباب هذا الصراع مسألة غير ممكنة فهو يشكل جزءاً من بنية المجتمع الأمريكي . وقد وقعت عدة حوادث في المدن الأمريكية التي تقسم أعداداً كبيرة من الأمريكيين اليهود والسود تبيّن أن الاتجاه العام يميل إلى تصاعد التوتر بل الصدام .

### تنظيمات وجمعيات الجماعة اليهودية

#### Organizations and Societies of the Jewish Community

كما هو الحال مع مختلف الأقليات والجماعات الإثنية والدينية ، هناك تنظيمات وجمعيات في الولايات المتحدة أسستها الجماعة اليهودية لرعاية مصالحها ولتمثيلها لدى الجهاز الحاكم . ولا يزال الإطار التنظيمي لليهود الولايات المتحدة تهمين عليه العناصر العلمانية الإثنية ، ولا تلعب فيه المؤسسة الدينية سوى دور ثانوي . كما أنه لا يزال يتسم بالفيدرالية القديمة ، فهو مقسّم إلى جماعات وتنظيمات وفروع مختلفة تحتفظ كل واحدة منها باستقلالها على أن يتم التنسيق فيما بينها من خلال سلطة مركزية . وإن كان يلاحظ أن الجهود الصهيونية الرامية إلى تحويل الأمريكيين اليهود إلى مجموعة ضغط قوية قد خلقت إطاراً قوياً للتنسيق بين التنظيمات والتجمعات كافة .

والمهام التنظيمية الملقنة للمؤسسات اليهودية هي الدفاع عن الحقوق المدنية والسياسية لأعضاء الجماعة اليهودية ، والقيام بالأنشطة الخيرية المختلفة . . . إلخ ، وهي ولا شك تقوم بهذه الوظائف والمهام . ولكن المنظمة الصهيونية نجحت في «غزو» الجماعات اليهودية ، وهو مصطلح صهيوني ورد لأول مرة في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) والاستيلاء عليها . ولذا ، سنجد أن معظم المؤسسات التنظيمية للجماعة اليهودية تُوظف لخدمة الصهيونية ، فتتحول هذه المؤسسات إلى جماعات ضغط سياسي

وتدبير الموارد المالية . ويعطي نشاطه ٩٥٪ من أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة .

ويعتبر مجلس الاتحادات مركز التنسيق الفعلي بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة حيث توفر الجمعية العمومية للمجلس منبراً سنوياً ومركز تجمّع للأفراد والجماعات المختلفة داخل الجماعة اليهودية للتشاور والتنسيق واتخاذ القرارات .

– مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى Conference of Presidents of Major American Jewish Organizations واختصارها «Presidents' Conference» ، أي «مؤتمر الرؤساء» . تأسس عام ١٩٥٥ ، ويضم ٣٤ منظمة يهودية ، ويعمل على عرض وتقديم موقف الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة تجاه إسرائيل وتجاه القضايا الخارجية الخاصة بالجماعات اليهودية إلى الحكومة الأمريكية .

– المجلس اليهودي الوطني لخدمات الرفاه الاجتماعي National Jewish Welfare Board واختصارها JWB . تأسس عام ١٩١٧ ، ويعمل على تنسيق أنشطة المراكز الاجتماعية اليهودية المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة . ومن مهامه خدمة احتياجات أعضاء الجماعة اليهودية العاملين في القوات المسلحة الأمريكية .

– اللجنة اليهودية الأمريكية American Jewish Committee ، وهي من أقدم المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة . قام اليهود المنحدرون من أصل ألماني بتأسيسها عام ١٩٠٦ ، واهتمت منذ تأسيسها بالدفاع عن الحقوق المدنية والدينية للجماعات اليهودية في الولايات المتحدة والعالم . وتنشط اللجنة من خلال أقسامها المختلفة في نواح عديدة من شئون الجماعة اليهودية ، وتهتم بصفة خاصة بقضايا التعددية والأسرة اليهودية والعلاقات بين الجماعات الدينية . وتعتبر اللجنة نفسها بوثقة لصهر أفكار الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وتقوم برعاية سلسلة من الدراسات والمؤتمرات ، كما أن لها إصدارات مهمة من ضمنها دوريتان مهمتان هما : كومنتري Commentary (أي التعليق) ، وبرزنت تانس Present Tense (أي الفعل المضارع أي الزمن الحاضر) . وتصدر اللجنة كتاباً سنوياً يُسمّى الكتاب السنوي American Jewish Year Book ، كما تحتك مكتبة للتاريخ الشفهي .

– المؤتمر اليهودي الأمريكي American Jewish Congress . تأسس عام ١٩١٨ بهدف خلق إطار لعرض مصالح الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة في مؤتمر السلام عقب الحرب العالمية الأولى . وقد جاءت قيادة المؤتمر وأعضاؤه من بين صفوف المهاجرين اليهود من شرق أوروبا الذين كانت تتعارض توجهاتهم الصهيونية والعمالية مع توجهات

اللجنة اليهودية الأمريكية وقيادتها البورجوازية ذات الأصول الألمانية . وقد ظل المؤتمر ذاته وجهٌ صهيوني قوي ، ومؤيداً لإسرائيل بشكل نشيط . كما يلعب دوراً نشيطاً في القضايا الخاصة بمعادة اليهود والفرقة العنصرية والحقوق المدنية وفصل الدين عن الدولة .

– منظمة أبناء العهد (بناي بريت B'nai B'rith) . منظمة للخدمة اليهودية الدولية تأسست عام ١٨٤٣ في نيويورك ومقرها الأمريكي والدولي الآن في واشنطن . وهي أكبر المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة من ناحية حجم العضوية حيث تضم حوالي ٤٠٠,٠٠٠ عضو . وقد نُظمت على هيئة جمعية ماسونية تستهدف توحيد جهود الجماعة اليهودية والعمل على تحسين أحوالهم . وقد نمت المنظمة نمواً كبيراً حتى أصبح لها الآن فروع فيما يزيد على ٣٠ دولة من بينها إسرائيل ، حيث تنشط المنظمة في غوثهم من الكوارث وتنظيم النساء والشباب بقصد تعليمهم وتأهيلهم مهنيًا وتقديم مختلف التسهيلات والخدمات لهم . وقد أسست هذه المنظمة عام ١٩١٣ عصبة مناهضة الاتراء Anti Defamation League بهدف محاربة معاداة اليهود وممارسة التمييز العنصري ضدهم وكذلك الدفاع عن الحقوق المدنية لأعضاء الجماعة اليهودية . وتصدر المنظمة كتباً و منشورات بهذا الهدف . وقد أصبحت هذه العصبة الأداة الأساسية لمنظمة أبناء العهد (بناي بريت) التي تعمل من خلالها على خنق مختلف الاتهامات المعادية للصهيونية وإسرائيل عن طريق اتهامها بأنها معادية لليهود .

– وتتم عملية جمع التبرعات وتدبير الموارد المالية داخل الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة من خلال النداء اليهودي الموحد United Jewish Appeal واختصارها UJA . وهي منظمة تأسست عام ١٩٢٩ . وتذهب ٨٠٪ من حصيلة التبرعات إلى إسرائيل من خلال النداء الإسرائيلي الموحد United Israel Appeal واختصارها UIA ، أما الحصيلة المتبقية (٢٠٪) فتخصص لمشاريع محلية وخارجية يتم توزيعها من خلال لجنة التوزيع المشتركة Joint Distribution Committee واختصارها JDC .

– وهناك عدد من المنظمات الصهيونية المنظمة تمثل تنظيمًا فضفاضاً ضمن الاتحاد الصهيوني الأمريكي American Zionist Federation . إلا أن قوة الحركات الصهيونية في الولايات المتحدة قد تضاعفت منذ عام ١٩٤٨ . والآن ، فإن كثيراً من النشاطات والمهام التي كانت تضطلع بها تقوم بها المنظمات اليهودية الأمريكية وعلى رأسها : مؤتمر الرؤساء ، والمجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعة اليهودية ، واللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة American



وقد شهدت هذه الفترة تطوراً جديداً تماماً على الساحة الأمريكية ، فبعد أن أحكمت الهيمنة الصهيونية على أعضاء الجماعة اليهودية ، وبعد إحكام الحصار على الجيوب التقليدية المعادية للصهيونية (المجلس الأمريكي لليهودية وناطوري كارنا) ، ظهرت جماعات يهودية صهيونية اسماً تطرح تصورات للعلاقة بين الأمريكيين اليهود وإسرائيل ، وبين إسرائيل والفلسطينيين ، تتناقض بشكل أساسي مع التصورات الصهيونية . وأولى هذه الجماعات هي بريرا التي قُضي عليها في أواخر السبعينيات ، ثم ظهرت بعد ذلك الأجنحة اليهودية الجديدة . ويُلاحظ كذلك ظهور شخصيات أمريكية يهودية قومية تقف ضد الصهيونية من أهمها : آي . إف . ستون ، ونوم تشومسكي . وبعض هؤلاء يرفض الصهيونية من منظور إنساني يهودي .

ومن المفارقات التي يجدر تسجيلها أن معظم التبرعات التي يتم جمعها تذهب إلى إسرائيل ، فمن نحو ٥٠٠ مليون دولار سنوياً (في الثمانينيات) يذهب إلى إسرائيل نحو ٣٠٠ مليون دولار ، أي أكثر من ٥٠٪ . وهو ما يترك مؤسسات الرعاية اليهودية في الولايات المتحدة دون اعتمادات كافية ، الأمر الذي ازداد حدة في عصر ريجان بعد أن تقلصت ميزانيات الرفاه الاجتماعي . وعلى سبيل المثال ، يوجد كثير من بيوت العجزة اليهود المهذبة بالغلغ ل عدم وجود الميزانيات الكافية ، كما أن مصاريف مدارس الأحد العبرية أخذت في الازدياد بحيث أصبحت باهظة التكاليف على أولياء الأمور ، ولم يتمكن معهد البحوث الديني (بيفو) من الاستمرار في بحوثه إلا بدعم من الحكومة الأمريكية . ويُلاحظ كذلك أن كثيراً من مراكز الدراسات اليهودية في الجامعات أخذت في التقلص للسبب نفسه ، وإن كان لا يمكن استبعاد أن معدلات الاندماج المتزايد من الأسباب الأساسية . وتتجلى هذه الظاهرة ، أي تزايد معدلات الاندماج ، في اختفاء التعليم الديني تماماً ، وكذلك مختلف النشرات الدينيّة ، ما عدا جريدة يومية تعيش على المعونات . ولوحظ مؤخراً انصراف يهود أمريكا عن المساهمة في النداء اليهودي الموحد . فقد لوحظ أن ١٪ من كبار المتبرعين يدفعون ٢٥٪ من جملة التبرعات وأن ١٠٪ من المتبرعين يدفعون ٨٠٪ منها ، أي أن صغار المساهمين من الجماهير اليهودية لم يعدوا تقريباً يتبرعون للدولة الصهيونية . والله أعلم .

Israeli Public Affairs Committee واختصارها AIPAC «إيباك» ، وهذه المنظمات يهودية اسماً صهيونية فعلاً .

- حركات الشبيبة : وتنظم المعابد اليهودية والمنظمات الصهيونية حركات للشباب من أهمها :

■ مجلس الشباب اليهودي في أمريكا الشمالية North American Jewish Youth Council .

■ مؤسسة الشباب الصهيوني الأمريكي American Zionist Youth Foundation .

■ شبكة الطلاب اليهود لأمريكا الشمالية The North American Jewish Students Network . وتعتبر هذه المنظمة الجهة الممثلة للطلبة

الأمريكيين اليهود لدى الاتحاد العالمي للطلبة اليهود World Union of Jewish Students .

■ المجلس القومي لشباب السيناجوج National Council of Synagogue Youth ، تحت رعاية الحركة الإصلاحية .

■ أتيد Atid ، تحت رعاية الحركة المحافظة .

■ منظمة أبناء العهد (بناي بريت) للشباب . وترعى منظمة أبناء العهد (بناي بريت) الطلبة اليهود من خلال مؤسسة هليل Hillel Foundation التي لها فروع في كل الجامعات الأمريكية يدرس فيها طلبة أمريكيون يهود .

والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ممثلة لدى المؤتمر اليهودي العالمي من خلال القسم الأمريكي للمؤتمر American Section الذي يمثل ٣٢ منظمة يهودية .

- كما توجد منظمات خاصة بضححايا الإبادة النازية :

■ التجمع الأمريكي واتحاد الناجين من الهولوكوست The American Gathering and Federation of Jewish Holocaust Survivors .

تأسست عام ١٩٨٣ ، وتعمل كمظلة لعدد من المنظمات المختصة بضححايا الهولوكوست .

■ الشبكة الدولية لأبناء اليهود الناجين من الهولوكوست The International Network of Children of Jewish Holocaust Survivors .

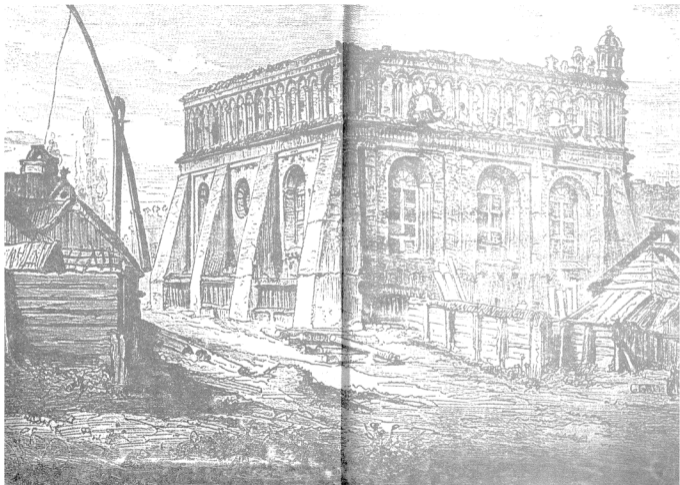
تأسست عام ١٩٨١ ، وتعمل على استمرار ذكرى الهولوكوست بين أبناء الجيل الثاني من اليهود في العالم ، وعلى تشجيعهم للعمل بشكل نشيط على إبقاء هذه الذكرى حية والمشاركة في شئون وقضايا الجماعات اليهودية .



### مطابع الشروحة

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)





Bibliotheca Alexandrina



0604463